مبرة
الآل والأصحاب

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
قطاع الشئون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية

بيان البلاغة العمرية

تحليل بلاغي وشرح لغوي لمواطن البيان ومواضع الفصاحة والبلاغة في أقوال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الإعداد

معتز المحتسب – خالد الشرادقة - أحمد عاشور

المراجعة

نصر بركات - مصطفى عبد الحفيظ

الجزء الأول

بيان البلاغة العمرية
معتز المحتسب – خالد الشرادقة - أحمد عاشور





وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
قطاع الشئون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية

مبرة
الآل والأصحاب

بيان البلاغة العمرية

تحليل بلاغي وشرح لغوي لمواطن البيان ومواضع الفصاحة والبلاغة في أقوال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الإعداد
معتز المحتسب – خالد الشرادقة - أحمد عاشور

المراجعة
نصر بركات - مصطفى عبد الحفيظ

الجزء الثاني

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
قطاع الشئون الثقافية
بيان البلاغة العمرية
معتز المحتسب – خالد الشرادقة - أحمد عاشور
الجزء الثاني



وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
قطاع الشئون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية

مبرة
الآل والأصحاب

بيان البلاغة العمرية

تحليل بلاغي وشرح لغوي لمواطن البيان ومواضع الفصاحة والبلاغة في أقوال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

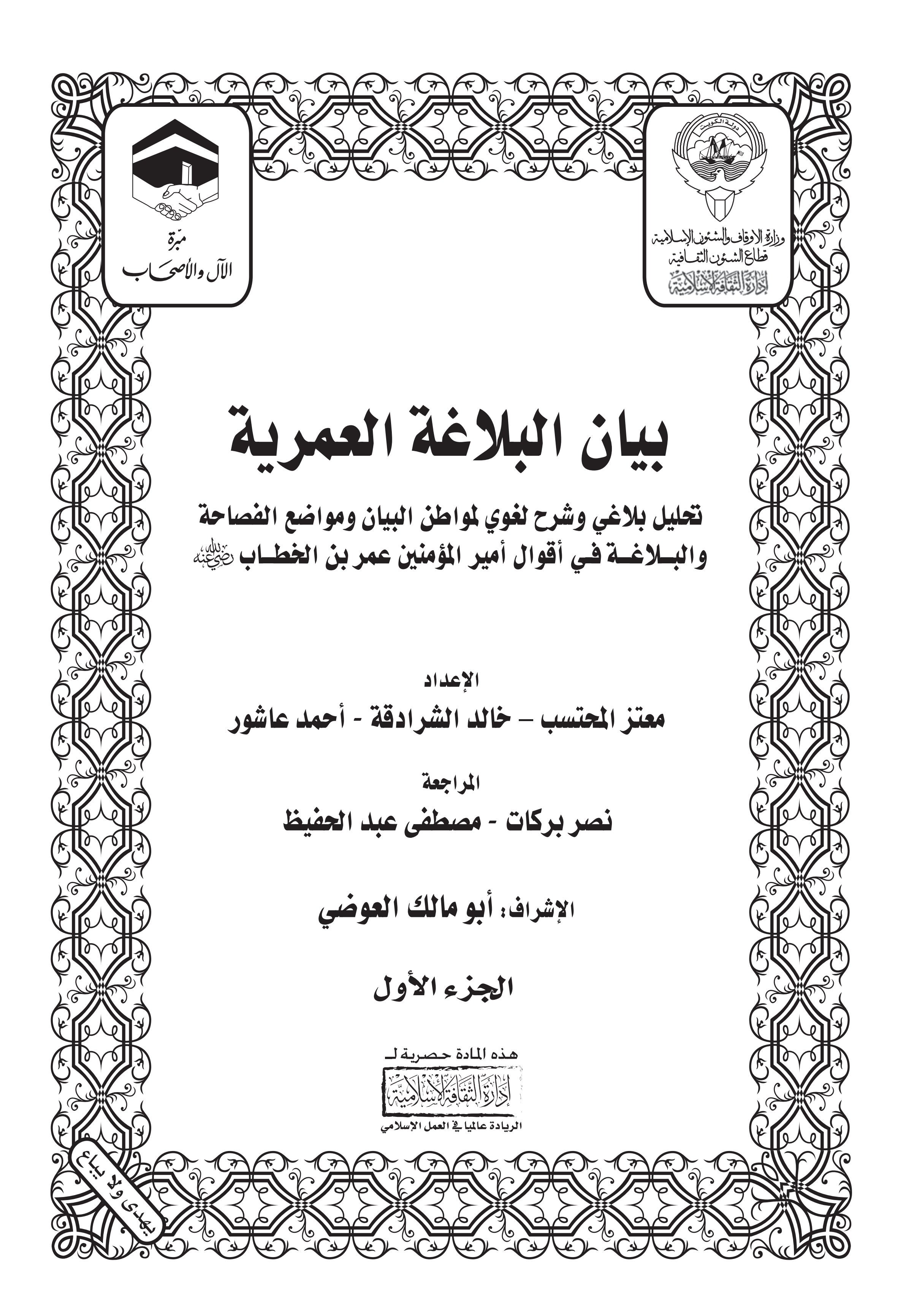
الإعداد
معتز المحتسب – خالد الشرادقة - أحمد عاشور

المراجعة
نصر بركات - مصطفى عبد الحفيظ

الجزء الثالث

بيان البلاغة العمرية
معتز المحتسب – خالد الشرادقة - أحمد عاشور
الجزء الثالث





بيان البلاغة العمرية

تحليل بلاغي وشرح لغوي لمواطن البيان ومواضع الفصاحة والبلاغة في أقوال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الإعداد

معتز المحتسب - خالد الشرادقة - أحمد عاشور

المراجعة

نصر بركات - مصطفى عبد الحفيظ

الإشراف: **أبو مالك العوضي**

الجزء الأول

هذه المادة حصرية لـ
إدارة الثقافة الإسلامية
الريادة عالميا في العمل الإسلامي

الطبعة الأولى - دولة الكويت

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الثقافة الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw/thaqafa

تم الحفظ والإيداع بمركز المعلومات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

رقم الإيداع: 186 / 2017

بيان البلاغة العمرية

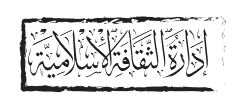
الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

تَمَيَّزَ جيلُ الصحابة بشمائل متنوعةٍ وعديدة ورثوها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم... فاستحقوا بها جميعًا شرف الصحبة ومقام الخلافة.. لكنَّ كُلَّ واحدٍ منهم كان مُتَمَيِّزًا في جانبٍ من تلك الشمائل... ولعل أشملَ ما تميّز به الخليفة الراشد عمر بن الخطابِ رضي الله عنه: بيانه البليغ؛ فقد كان عُمَرُ ذا ذائقة أدبية رقيقة وملكة بلاغية دقيقة... تَدُلُّنا عليها تلك اللحظات الحاسمة الأولى لعمر وهو على أعتاب الإسلام... ساعة أنْ التفتته روعة بيان الذكر الحكيم حين سمعه أوّل مرة فكان موردَ إيمانه وتسليمه لمنطق الحق المبين!...

ولقد ترك لنا الخليفة الراشد عمر بن الخطاب تراثًا فريدًا من درر الكلم الطيب وغرر البيان الذي يأسر الحس ويؤثِّر في النفس بطريقة جعلت أقلام النقلة وجهابذة العلم يعتنون بما قاله عمر فدوّنوه... لكنه كان أشبه بالدرر المنثورة في بطون كتبٍ بعضها مطمور وبعضها منشور...

ويأتي كتاب «بيان البلاغة العمرية» لمؤلفيه الأساتذة: معتز المحتسب، خالد الشرادقة وأحمد عاشور متميّزًا في بابه، جامعًا شتات خُطَبِ سيدنا عمر بن الخطاب وحِكَمِه ومواعظه ومأثوراته.. وذلك في سفرٍ يجمع بين متعة المضمون وبين حسن التبويب والترتيب..

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت - وهي تقدّم هذا الكتاب إلى قرائها الكرام - التنويهُ بالجهود العلمية المشكورة لمركز البحوث والدراسات بمبرة الآل والأصحاب في دولة الكويت من أجل خروج هذا الكتاب إلى النور، داعية المولى عز وجل أن ينفع به، وأن يجزي الكتّاب خير الجزاء.. إنه سميع مجيب!



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فإننا نشكر وزارة الأوقاف الكويتية لإتاحة هذه الفرصة لنا لإبراز المعالم البلاغية لعلم من أعلام البلاغة، وإمام من أئمة البيان، وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإن كان كثير من الناس لا يعرف شيئا عن هذه البلاغة، فضلا عن أن يعرف مقدارها ومكانتها العالية.

ومن قبلُ كان للوزارة السبقُ في إصدار كتاب (البلاغة العمرية) الذي يعد أولَ كتاب يتناول بلاغة أمير المؤمنين عمر الفاروق بهذه الطريقة على غرار كتاب (نهج البلاغة).

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

أبو مالك العوضي

عملنا في هذا الكتاب

يتلخص عملنا في هذا الكتاب في النقاط الآتية:

- مراجعة النصوص نحويا ولغويا وإملائيا مع التحقق من المصادر عند الاشتباه في أخطاء النساخ أو الغلطات الطباعية.

- شرح غريب الألفاظ لغويا بالرجوع إلى كتب اللغة المعتمدة، مع الإشارة إلى ما تحويه النصوص من فوائد ولطائف لغوية لا يستغني عنها القارئ.

- بيان مقتضى الحال لاستثارة حس القارئ وتهيئته للاطلاع على ما في النص من جماليات.

- التعليق على المواطن البلاغية تعليقات متوسطة في الغالب لإرشاد القارئ لما فيها من دقة بيانية وحس بلاغي.

- الإطالة في التعليق على بعض المواضع التي تقتضي ذلك؛ نظرا لدقة الاستعمال البلاغي.

- كتابة مقدمة متوسطة عن البلاغة العمرية إجمالا، والخصائص الأسلوبية التي يتميز بها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، مع الإشارة إلى كلام القدماء والمعاصرين في ذلك.

وقد كان توزيع العمل على الفريق كما يلي:

- الأستاذ **معتز المحتسب**: تفضل مشكورا بشرح النصوص (من ١ إلى ١٥٠) وكذلك النصوص (من ٥٠٠ إلى ٦٥٥).

- الأستاذ **خالد الشرادقة**: تفضل مشكورا بشرح النصوص (من ١٥١ إلى ٣٥٠).

- الأستاذ **أحمد عاشور**: تفضل مشكورا بشرح النصوص (من ٣٥١ إلى ٤٩٩).

- الأستاذ **مصطفى عبد الحفيظ**: تفضل مشكورا بمراجعة جميع نصوص البلاغة العمرية وضبطها بالشكل، ومراجعتها على المصادر عند الإشكال.

- الدكتور **أحمد الشافعي**: تفضل مشكورا بكتابة مقدمة مختصرة جامعة عن بلاغة أمير المؤمنين الفاروق رضي الله عنه.

- الأستاذ **نصر بركات**: تفضل مشكورا بمراجعة جميع الشروح السابقة، وضبطها، وتصحيحها، وإتمام ما نقص منها.

- **أبو مالك العوضي**: تفضل مشكورا بوضع خطة المشروع، والتنسيق بين فريق العمل، والإشراف على تنفيذ المشروع ومتابعته، مع كتابة ثلاثة نماذج فقط من شروح النصوص للسير على غرارها، وهي النصوص (٨١، ١٠٨، ١٣٤).

ولا ننسى أن نشكر جميع الإخوة الكرام والمشايخ الفضلاء الذين تفضلوا بمساعدتنا في هذا المشروع بالنصح والتوجيه والإرشاد، ومنهم:

الدكتور محمد نصيف، الدكتور عيسى الجهني، الأستاذ تامر إسماعيل حميدي، الأستاذ عمرو بسيوني، الأستاذ وليد سميح عبد العال.

مقدمة شرح البلاغة العمرية

بقلم: د. أحمد الشافعي

الحمد لله ذي الإنعام، والإفضال، والمِنَنِ الجِسام، والصلاة والسلام على خير الأنام، والصحب، والآل، ومن تبعهم بإحسان.

اللهم إني أعوذ بك من فتنة القول، والعمل، وأعوذ بك من سوء الفهم، ومعرَّة اللَّكَن، ومن السلاطة، والهَذَر، ومن العِيِّ والحَصَر، أو الخَطَل، اللهم إني أعوذ بك أن أقول زورًا، أو أكون بك مغرورًا، أنت ربي في تَصَاريفك أنت خيرُ الأحكمين، أنت أعلم بِيَ مِنِّيْ فأَعنِّي يَا مُعين.

وبعد

فالحديث عن بلاغة عمر حديث ذو شجون؛ وهو أيضا يحتاج إلى دقة، وفيه تشعب؛ إذ ما عسى أن يقول المرء عن إنسان يكاد يكون الوحيدَ على مدار التاريخ الذي نطق بعبارات تطابق تماما بعضَ آيات القرآن العظيم! ذلك الكتاب الذي أعجز البلغاء، وأسكت الفصحاء، وأفحم الأدباء في جميع العصور!

فمن العجب العجاب أن يعلم الإنسان ما في القرآن من أعلى درجات البلاغة والبيان، ثم لا يتنبه لما في أقوال عمر، من المواطن البلاغية المستمدة من بلاغة القرآن، وتضرب بسهام في درجات البيان.

ومن أمعن في النظر إلى نصوص عمر المعروفة وأقواله المأثورة ظهر له بجلاء أنه قد أوتي من جوامع البيان، ومعاقد اللسان، ورجاحة الأحلام، ما جعله ينطق بالحق، ويُسمع إذا نطق الآذان.

والناظر المدقق في ما صدر عنه مكتوبا؛ ككتابه في القضاء إلى أبي موسى الأشعري يقف على البلاغة والإيجاز والدقة، والإفهام؛ فهذا الكتاب منذ صدوره وحتى اليوم يعد نبراسا للقضاة والفقهاء وغيرهم.

وقد بقيت بعد رسول الله ﷺ جملة من محاسن البلاغة النبوية في عقبه من أهل البيت وصحابته - رضوان الله عليهم- ومن ارتشف من معين بلاغة أفصح الخلق ولادة، وعمر بلاشك جادت له طباعه الشريفة بهذه الإجادة، فما تعارضه بمن يُحسن البلاغة إلا كانت له في البلاغة الحسنى وزيادة، وقد قلنا بمقدار ما فهمنا وما شهدنا - يعلم الله - إلا بما علمنا، وتلك نعمة على المسلمين لا يكتمها إلا البغيض، ولا ينكرها في الناس إلا ذو قلب مريض.

قال الذهبي : « كان من أشرف قريش، وإليه السفارة كانت في الجاهلية، وذلك أن قريشا كانت إذا وقع بينهم حرب، أو بينهم وبين غيرهم، بعثوه سفيرا ».

وكيف لا يكون عمر كذلك وقد اجتمعت فيه خصائص البلغاء، فالمرء لا يصيب عين البلاغة، ويجتني ثمار بساتينها؛ حتى تجتمع له أمور، منها :

١ - أن يكون ذكيا عاقلا أريبا يبصر ببصيرته ما لا يراه المبصر ببصره.

٢- أن يكون عالما بالألفاظ ودقائقها واستعمالاتها.

٣- أن يكون قوي الملاحظة دقيق الرؤية حتى يراعي مقتضى الحال وما يناسب المقام.

٤- أن يكون حريصا على إفادة السامع، مريدا لإيضاح الخير له.

وكل هذه الصفات وغيرها قد اجتمعت لعمر رضي الله عنه على الوجه الأتم الأكمل.

والبلغاء مسودون، ولمكانهم حافظون؛ والناس إلى مكانتهم يشرئبون، فكم رأيت من رجلٍ لم يكن له في الناس ذكرٌ رَفَعَه قلمُه أو لسانُه، فما الحال مع رجلٍ نَزَل الحقُّ بتأييد منطقِه وبيانِه، أعني عمرَ الفاروق، ومَنْ جمع بلاغةً وضبْطًا لم يخش هضما وحطًّا، واسترُجِحت حصاتُه، وأقبل عليها الناس وقُبَلت وِصاتُه، غير مستبدلين بها خُطة ولا مريدين لها حِطة، ولم ينقضوا ما أبرَم،إذ كان يريد للخلق الخيرَ لا المأثم، وقد كان – قدس الله في الأبرار روحه، وأجزل من النعيم المقيم جزاءه – قد عني بالبلاغة؛ لأن المنطق هو ترجمان العقل، وأداة التعبير عما في القلب، وبه يرد الإنسان موارد الخير، ويختر لنفسه المرعى المربع.

لماذا عمر ؟

أولا : اختيارنا لعمر لنتحدث عن بلاغته لتسديد القرآن قوله:

لأننا لا نعلم من بني الإنسان مخلوقا على ظهر الأرض من غير الأنبياء والمرسلين نزل القرآن باختيار رأيه وتصديق قوله واجتهاده، في مواضع متعددة كما الأمرُ مع ابن الخطاب،ومما اختص به عمر رضي الله عنه من العلم صدق الحدس، وهو علم جِبليٍّ خلقي، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين بذلك عن عمر حيث قال: إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم مُحُدَّثُون، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب».

وإليكم بعض دلائل ذلك :

قال عمر رضي الله عنه وَافَقْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي ثَلاَثٍ، أَوْ وَافَقَنِي رَبِّي فِي ثَلاَثٍ، قُلْتُ:

يَا رَسُولَ اللهِ، لَوِ اتَّخَذْتَ الْمَقَامَ مُصَلًّى، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وَقُلْتُ: لَوْ حَجَبْتَ عَنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ، وَبَلَغَنِي عَنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ شَيْءٌ فَاسْتَقْرَيْتُهُنَّ أَقُولُ لَهُنَّ: لَتَكُفُّنَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوْ لَيُبْدِلَنَّهُ اللهُ بِكُنَّ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ، حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَتْ: يَا عُمَرُ، أَمَا فِي رَسُولِ اللهِ مَا يَعِظُ نِسَاءَهُ، حَتَّى تَعِظَهُنَّ أَنْتَ؟ فَكَفَفْتُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التَّحريم: ٥]»[١].

- وأُخرى في أسرى بدر من المشركين : قال اب ن عباس فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر ماذا ترون في هؤلاء الأسارى فقال أبو بكر يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية ً فتكون لنا قوة ً على الكفار فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب قال قلت لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم فتمكن علياً من عقيلٍ وتمكني من فلان - نسيباً لعمر - فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان فقلت يا رسول الله أخبرني من أي شيءٍ تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاءً بكيت وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما فقال رسول الله ﷺ أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة من رسول الله ﷺ وأنزل الله عز وجل {ما كان لنبيٍ أن يكون له أسرى حتى يثخن

١- رواه البخاريُّ في «صحيحِه» (٤٠٢) و(٤٤٨٣)، ومسلمٌ في «صحيحِه» (٢٣٩٩) مُختصَرًا، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (١٦٠) واللَّفظُ له، والدَّارميُّ في «السُّنَنِ» (١٨٩١)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٦٨٩٦).

في الأرض} إلى قوله ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ ﴾ سورة الأنفال فأحل الله الغنيمة لهم.

- وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: «لما توفي عبد الله بن أبيّ، جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله عن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله أتصلي عليه، وقد نهاك ربّك أن تصلي عليه؟»، فقال رسول الله ﷺ: «إنّما خيرني الله فقال: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ ﴾ [التوبة: ٨٠]، وسأزيده على السبعين».

قال: «إنه منافق، قال: وصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عزوجل: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ ﴾ [التوبة: ٨٤]٤.

وفي رواية: «أتصلي عليه وهو منافق، وقد نهاك الله أن تستغفر لهم؟»، قال: «إنما خيرّني الله - أو خبرني الله - فقال: ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴾ [التوبة: ٨٠]، فقال رسول الله ﷺ: «وسأزيده على سبعين»، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ وصلّينا معه، ثم أنزل الله عليه: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ ﴾ [التوبة: ٨٤]٢.

ثانيا : كان لعمر تفهم للشعر، واستيعاب لأساليب القول، ووقوف على دلالات الكلام، ومنها:

أن عمر[١] رضي الله عنه ولىَّ النّعمانَ بن نضلة العوي بميسان، وأراد رحيل امرأته معه، فأبت ذلك وكرهته. فلمّا وصل إلى ميسان أراد أن يغيرها فترحل إليه، فكتب إليها:

ألا هل أتى الخنساء أنّ خليلها بميسان يسقى في زجاجٍ وحنتم

إذا شئت غنتني دهاقين قريةٍ وصاحبه يجثو على خدٍّ مبسم

فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني ولا تسقني بالأصغر المتثلّم

لعلّ أمير المؤمنين يسوؤه تنادمنا في الجوسق المتهدّم

فبلغت الأبياتُ عمرَ بن الخطّاب، فقال: أي والله، وأبي وأبيك، يسوؤني. يا غلام، اكتب بعزله. فلمّا قدم على عمر بكّته بهذا، فقال: يا أمير المؤمنين ما شربها قط، ولا قلت الأبيات إلاّ بسبب كذا. فقال عمر: أظنّ ذلك ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً.

- عمر يستخدم المعاريض ومنها[٢] : أنه قد جاء بنو العجلان إلى عمر رضي الله عنه فاستعدوه علىَ النجاشي الشاعر، وقالوا: قد هجانا، فسأل عن قوله وما أراد، فقال: وماذا قال؟ فقالوا: قال:

إذا اللهُ عادَى أهل لؤم وقلّة فعادَى بني العجلان رهطَ ابنِ مقبل

فقال عمر: هذه دعوة، وإن كان مظلوماً رجوت أن يستجاب له، قالوا: فأين قوله:

---

١ - أخبار النساء ص ٣٣.

٢- حماسة الظرفاء ص ٣٣- والشعر والشعراء ١/ ٦٦.

قبيلتـه لا يغـدرون بـذمّـة ولا يظلمون النّاس حبّـة خـردل

فقال عمر: ليت آل الخطّاب كذلك، قالوا: فأين قوله:

ولا يـردون المـاء إلاّ عشـية إذا صدر الورّاد عن كلّ منهـل

فقال عمر: ذاك أروى للإبل وأقلّ للزحمة. قالوا: فأين قوله:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم ويأكلن من عـوف وكلـب ونهشل

فقال عمر: ذلك لأنهم لا يستعملون السنّة في دفن موتاهم وقتلاهم، قالوا فأين قوله:

وما سمّي العجلان إلاّ لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر: سيّد القوم خادمهم، وكلّنا عبيد الله.

ولم يكن هذا لسوء معرفة بانتقاد الشعر، ولكن استعمل قول النبيّ عليه السلام «ادرؤا الحدود بالشبهات، وادرؤا الحدود ما استطعتم».

- الشعر يزكي البكاء عند عمر، ومنه[1] : أن كلاب بن أمية بن الأسكر خرج في زمن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه- وأمية يومئذ شيخ كبير وخرج معه أخ له آخر فانبعث أمية يقول :

لمن شيخان قد نشدا كلابا كتاب الله أن رقب الكتابا

ننفض مهده شفقا عليه ونجنبه أبا عرنا الصعابا

---

١ - الأمالي لأبي علي القالي ١/ ١٣٠.

إذا هتفت حمامة بطن واد على بيضاتها دعوا كلابا

تركت أباك مرعشة يداه وأمك ما تسيغ لها شرابا

أناديه وولاني قفاه فلا وأبي كلاب ما أصابا

فإن مهاجرين تكنفاه ليترك شيخه خطئا وخابا

وإن أباك حيث علمتماه يطارد أينقا شسبا طرابا

إذا بلغ الرسيم فكان شدا يخر فخالط الذقن الترابا

فلما أنشدها عمرَ بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كَتَبَ إلى سعدِ بن أبي وقاص أنْ رحل كلاب بن أمية بن الأسكر فرحله، فقدم على عمر بن الخطاب، فأمر به، فأدخل ثم أرسل إلى أمية فتحدث معه ساعة ثم قال يا أبا كلاب ما أحب الأشياء إليك اليوم قال ما أحب اليوم شيأ ما أفرح بخير ولا يسؤني شر فقال- عمر رضي الله عنه بلى على ذلك قال بلى كلاب أحب أنه عندي فأشمه فأمر بكلاب فأخرج إليه فلما رآه الشيخ وثب إليه فجعل يشمه ويبكي وجعل عمر رضي الله تعالى عنه أيضا يبكي.

- **عمر يسن قوانين يرحم بها المغيبات من النساء**، ومن ذلك: قال أبو المقدام هشام بن زياد[1]: بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة فسمع صوتاً في بيت فوقف بالباب يسمع فإذ امرأة مغيبة على سرير لها وهي تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه وغاب خليل كنت مما ألاعبه

فوالله لولا الله لا شيء غيره لحرك من هذا السرير جوانبه

١- أمالي اليزيدي ص٢٤.

فلما أصبح بعث إلى المرأة فسألها عن زوجها فأخبرته أن غاز وأنه قد طالت غيبته فبعث عمر رضي الله عنه إلى إحدى بناته فقال لها كم تصبر المرأة عن زوجها فسكتت فقال أتصبر سنتين قالت لا قال فسنة قالت لا قال فستة أشهر قالت نعم وذاك كثير، قال فكتب في زوج المرأة فأقفل وجعل عقب الناس في مغازيهم في كل ستة أشهر.

ثانيا - وقوف عمر على خصائص التراكيب واختلاف الدلالات باختلاف التركيب.

ومن ذلك[1]: أنه قد كان أنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عميرةَ ودِّع إن تجهَّزتَ غاديا كفى الشَّيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيا

فقال له عمر: لو قدَّمت الإسلام لأجزتك، فقال: والله ما سعرت. يريد: ما شعرت. وقال له أيضاً: لو كان شعرك كله هكذا لأحسنت جائزتك.

ثالثا :عمر يعاقب على الخطأ في العربية :

قد كان أَول من تصدى للحن النبي صلى الله عليه وسلم يوم سمع رجلا يقرأ، فلحن، فقال: « أَرشدوا أَخاكم »، وبعده كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأَشعري ـ بعد أَن قرأَ رسالة منه فيها لحن ـ يقول: «إنَّ كاتبك الذي كتب إليَّ لحن فاضربْه سوطًا».

- رُوي[2] أن كاتب عمرو بن العاص، كتب إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه «بم الله» - باءً وميما وحذف السين.

١- أمالي المرزوقي - خبر سحيم عبد بني الحسحاس ص٦٦.
٢- أدب الكاتب للصولي ص٣٤.

فأمر عمر بضربه فضرب، فقيل: في أي شيء ضُرب؟ فقيل: في سين. فكان مثلا. وعلة ذلك أن اللفظ يصير إذا حذفت السين كأنه « بم الله ؟!» وبم ولم يستفهم بهما، وألِفُ اسم لا يحذف إذا أضيفت إلى غير الله، ولا تحذف في غير الله من الصفات مثل اللام في قولك: «لاسم الله حلاوة في القلوب» و «ليس اسم كاسم الله» لا بد من إثباتها.

وقد روي عن عمر بن الخطاب ﵁ أنه قال[1]: « شر الكتابة المشق، وشر القراءة الهذرمة». وكتب عمر بن الخطاب ﵁ إلى أبي موسى الأشعري وقد قرأ في كتابه لحنا: قنع كاتبك سوطا.

وكان عمر بن الخطاب إذا رأى من لا يفصُح قال : خالق هذا وخالق عمرو ابن العاص واحد.

رابعا : أقوال عمر في العربية :

كتب عُمرُ بنُ الخَطَّاب إِلى أَبي موسى : خُذِ النَّاس بِالعربِيَّة، فإِنه يَزِيد في العَقْلِ ويُثْبِتُ المُروءَةَ.وعنه ﵁ أنه قال : « تعلموا الفرائض والسنة واللحن كما تتعلمون القرآن ». فيجوز أن يكون اللحن الصواب ويجوز أن يكون الخطأ يعرف فيتجنب

وقال عمر بن الخطاب : «تعلموا العربية فإنها من دينكم ، وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم».

١- أدب الكاتب ص ١١١.

خامسا :وكان عمر يرفض التكلف والتقعر :

ذكر البلاغيون بلاغة البديهة بأن يكون انحياش اللفظ للفظ في وزن انحياش المعنى للمعنى، وهناك يقع التعجب للسامع، لأنه يهجم بفهمه على ما لا يظن أنه يظفر به كمن يعثر بمأموله، على غفلةٍ من تأميله، والبديهة قدرةٌ روحانية، في جبلةٍ بشرية، كما أن الرؤية صورةٌ بشرية، في جبلةٍ روحانية.

قال أبو سليمان الخطابي : نحو العرب فطرة، ونحونا فطنة؛ فلو كان إلى الكمال سبيلٌ لكانت فطرتهم لنا مع فطنتنا، أو كانت فطنتنا لهم مع فطرتهم. وقال : لما تميزت الأشياء في الأصول، تلاقت ببعض التشابه في الفروع، ولما تباينت الأشياء بالطبائع، تألفت بالمشاكلة في الصنائع، فصارت من حيث افترقت مجتمعة، ومن حيث اجتمعت مفترقة، لتكون قدرة الله - عز وجل - آتيةً على كل شيء، وحكمته موجودةً في كل شيء، ومشيئته نافذةً في كل شيء.

ونحن نقول، لا بقول الخطابي أبي سليمان في حق عمر فقد أوتي فطرة العرب وفطنة النحاة.

ومما يذكر في ذلك أَن عُمَرَ بنَ الخطابِ، رضي الله عنه، قرأَ قوله عز وجل : ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ وقال : فما الأَبُّ : ثمَّ قال : ما كُلِّفْنَا أَو ما أُمِرْنَا بهذا.

ومما يعضد ذلك أيضا أن صَبِيغًا أتى عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه فقال له : خبِّرني عن « الذَّارياتِ ذَرْوا » فقال : افحَصْ عن رأسِك، فإذا له ضفيرتان، فقال : لو كان مَحْلوقا ما شكَكْتُ فيك. يريد أنه من الخوارج. ثمَّ كتب إلى أمير البصرة أن لا يُكلِّموه».

سادسا : كان عمر يعجب ببعض الشعر وينشده في الموقف ويصدر عنه:

ومما يُنسب إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه :

فإنْ ألقَ زِنباعَ بن رَوحٍ ببلدةٍ ... لِي النِّصفُ منه يقرعِ السِّنَّ من ندَمْ

وله قصة أن عمر مَرَّ في الجاهليَّةِ على زِنْباعِ بن رَوْحٍ،وكان يَعْشُر مَن مَرَّ به، ومعه ذَهَبَةٌ فجعَلها في دَبِيلٍ وألقَمها شارِفا له (الدَّبِيلُ : مِن دَبَلَ اللُّقْمةَ ودبَّلها إذا جمعها وعظَّمها يريد أنه جعل الذهب في عجين وألقّمَه الناقة).

- ومما أعجب به عمرُ أبياتٌ قالها امرؤ القيس، ولها قصة : حين سار امرؤ القيس حتى وصل إلى أنقرة، فنظر إلى قبر امرأة من بنات الملوك، فسأل عنها فأُخبر بقصتها، فأنشأ يقول، وهو آخر ما قال من الشعر

أجارتنا إنّ المزارَ قريبُ ... وإنِّي مُقيمٌ ما أقامَ عَسِيبُ

أجارتَنا إنّا غريبانِ ها هُنا ... وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

فكان عمر يُنشد أمامه هذان البيتان؛ فيُعجب بهما،ويقول : « وددت أَنّها عشرة وأنّ علي بذلك كذا وكذا».

سابعا : مقالة عمر في قلة شعر العرب:

رأي عمر في شعر العرب : « قال عمر بن الخطاب رضي اللهّ تعالى عنه: كان الشِعْرُ عِلْمَ القوم ولم يكن لهم عِلْم أصّح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العربُ

بالجهاد وغَزْو فارسَ والروم، ولهِيت عن الشعر وروايته، فلَّما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنّت العربُ في الأمصار راجعوا رواية الشعر، فلم يئولوا إلى ديوانٍ مدوَّن ولا كتابٍ مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العربَ من هلك بالموت والقتل، فحفِظوا أقلَّ ذلك وذهب عنهم كثيره.

ثامنا : من أعاجيب عربية عمر

قال السيوطي : « اجتماع ثلاثة أحرف من جنس واحد ليس في كلامهم - اي كلام العرب - كلمة فيها ثلاثة أحرف من جنس واحد، استثقالاً إلاّ في حرفين : غلام بَبَّة أي سمين، وقول عمر بن الخطاب : « لئن بنيت إلى قابل لأجعلن الناس بَبَّاناً واحداً ». أي أساوي بينهم في الرزق والأعطيات».

تاسعا : رأي عمر في نقد الشعراء يتسم بالموضوعية وليس بمحض الذوق فقط:

- وقال عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب وقد سأله عن الشعراء: «امرؤ القيس سابقهم، خَسَف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عُورٍ أَصَحَّ بَصَراً ».

قال عبد الكريم : خسف لهم من الخَسيف، وهي البئر التي حُفرت في حجارة فخرج منها ماء كثير، وقوله : افْتقر أي فَتح وهو من الفقير وهو فم القناة

وقوله : عن معانٍ عُور: يريد أن امرأ القيس من اليمن وأن أهل اليمن ليست لهم فصاحة نزار، فجعل لهم معاني عوراً فتح امرؤ القيس أصح بصر فإن امرأ القيس يماني النسب نزاري الدار والمنشأ.

عاشرا: عمر يدلي بدلوه في نقد الشعر:

- وقال محمد بن سلاَّم يرفعه عن عبد الله بن عباس أنه قال : قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنشدْني لأشعر شعرائكم، قلت : ومَنْ هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير، قلت : وكان كذلك قال : « كان لا يُعَاظل بين الكلام ولا يتبع حُوشيّة ولا يمدح الرجل إلاّ بما فيه».

ثم قال ابن سلاَّم : قال أهل النظر : كان زهير أحصفَهم شعراً وأبعدَهم من سُخْف وأجمعَهم لكثير من المعاني في قليل من المنطق.

قال النقاد : (من عيوب الشعر) حوشي الكلام قال قدامة بن جعفر: من عيب الشعر أن يركب الشاعر منه ما ليس بمستعمل إلا في الفرط، ولا يتكلم به إلا شاذاً، وذلك هو الوحشي الذي مدح عمر بن الخطاب زهيراً بمجانبته وتنكبه إياه، قال: كان لا يتّبع حوشي الكلام.

وهذا يقتضي من الواقف أمام النص أن يكون ملماً بما لا يحصى من النصوص وكلام العرب لكي يفهم دلالة لفظة واحدة؟ لعل هذا هو الذي جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة العربية.

حادي عشر : عمر بن الخطاب يضبط لسان القراء :

فقد روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكدت أساوره في الصلاة. فتصبرت حتى سلم. فلبيته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي أسمعك تقرؤها ؟ فقال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: كذبت، فإن

رسول الله ﷺ أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ. فقلت: إن هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها. فقال رسول الله ﷺ: أرسله. اقرأ يا هشام. فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرؤها. فقال: كذلك أنزلت. ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأنيها. فقال: كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه ».

ثاني عشر : عمر يعلم الناس الكتابة والقراءة :

- ويذكر أَنَّ عُمر بنَ الخطاب رضي الله عنه لقِيَ أَعرابيًّا فقال له : هل تُحسِن أَن تقرأَ الْقرآن ؟ قال : نعم. قال : فاقْرَأْ أُمَّ القرآن. فقال : واللهَّ ما أُحسِنُ البنات فكيف الأَمّ. قال : فضَرَبَه ثم أَسلَمهُ إِلى الكُتَّاب فمكَثَ فيه ثم هَرَب وأَنشأَ يقول :

أَتــيــتُ مــهــاجــرِيــنَ فــعــلَّــمُــوني ... ثـــلاَثَـــةَ أَســطُـــرٍ مُــتــتــابــعــاتِ
كــتــابَ الله فـــي رَقّ صَـحـيـحٍ ... وآيـــــاتِ الـــقُـــرَانُ مفصّــلات
فــخَــطُّــوا لــي أَبَــا جَـــادٍ وقــالــوا ... تَــعــلَّـــمْ سَـعْـفَـصـاً وقُـرَيِّـشـاتِ
ومـــا أَنَــا والـكــتَــابَــةَ والـتَّـهـجِّـي ... ومـا حَـظُّ الـبَـنـيـنَ من الـبـنـاتِ

ثالث عشر : الشهادة لعمر بالقدرة على الخطابة:

قال عُمَر بن الخَطَّاب رضي الله عنه. (ما تَكَأَدَني شيءٌ مَاتَكَأَدَني خُطْبَةُ النِّكاح) أَي صَعُب عليَّ وثَقُل قال سُفيانُ بن عُيَيْنَةَ : عُمَر رَحمه الله يَخْطُب في جَرادَةٍ نَهاراً طَوِيلاً، فكيْفَ يُظَنُّ أَنه يَتَعَايَا بِخُطْبَةِ النّكاح ؟ ولكنه كَرِه الكَذِبَ». لما فيها من المجاملات.

رابع عشر : الإيجاز في خطب عمر وقوله :

ومنه أنه خطب فقال: « ألا إن الأسَيفع أسَيفِعَ جُهينة رضي عن دينه وأمانته بأن

يقال سابقُ الحاج، فادان مُعرِضاً قد رِينَ به».

خامس عشر : من نوادر عمر في تراكيب العربية:

قال عمر بن الخطاب: « يأيها الناس كذب عليكم الحج »، أي عليكم بالحج. وهذا إنما هو من تمكنه في العربية، وصولته بها، ويصدق فيه قول ابن جني : «مَثَله في ذلك عندي مثل مُجري الجَمُوح بلا لجام، ووارد الحرب الضروس حاسراً من غير احتشام. فهو وإن كان ملوما في عنفه وتهالكه، فإنه مشهود له بشجاعته، وفيض مُنَّتِه؛ ألا تراه لا يجهل أن لو تكفر في سلاحه، أو اعتصم بلجام جواده لكان أقرب إلى النجاة، وأبعد عن المَلْحاة لكنه جشِم ما جشِمه على علمه بما يعقب اقتحام مثله، إدلالا بقوة طبعه، ودلالة على شهامة نفسه».

سادس عشر : إلمامه بغريب الألفاظ:

عمر رضى الله عنه أتاه قبيصة بن جابر فقال : إنى رميت ظبيا وأنا مُحْرِم فأصبتُ خُشَشَاءَه فركب رَدْعَه فأسن فمات. فأقبل على عبدالرحمن بن عوف فشاوره ثم قال: اذْبَحْ شاة. فقال قبيصة لصاحبه: والله ما علم أمير المؤمنين حتى سأل غيره، وأحسبنى أنى سأنحر ناقتى ! فسمعه عمر، فأقبل عليه بالدرة، وقال : أَتَغَمِصْ».

سابع عشر : علمه بالمعاريض :

فعن معاوية بن قرة أن عمر بن الخطاب قال (ما يسرني بها أعلم من معاريض القول مثل أهلي ومالي، ومثل أهلي ومالي) [رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني]، فإذا كان ما يعلمه عمر من المعاريض فقط بهذه المنزلة العظيمة، فكيف بغير ذلك من مسالك القول، وطرائق البيان، وأساليب البلاغة، هذا فضلا عن قوة

العارضة ورسوخ الفصاحة.

ثامن عشر: كثرة الحكم والأمثال في كلام عمر.

تاسع عشر :اهتمام عمر بسلامة اللفظ ووضوح الدلالة وعدم تكلف السجع.

عشرون: لعمر لغته التي متى اطلع عليها الأريب عرف نسبتها وقائلها.

حادي وعشرون: الأدب بأنواعه عند عمر له قيمة وهدف وليس مجرد متعة وتسلية.

ثاني وعشرون: بلاغات عمر مليئة بالتشبيهات وبخاصة البليغة، وفيها إبداع وطرافة وفطنة.

البلاغة وعلاقتها بالقرآن

لا يمكن – ونحن نتكلم عن البلاغة – أن يفوتنا الحديث عن العلاقة الكائنة بين البلاغة والوحي: (الكتاب، والسنة)، وقد جاءت في صورٍ متعددةٍ متوطدةِ القواعد، متمكنةِ المقاعد ثابتةِ الدعائم، واضحةِ المعالم، لا تخفى عن أحد، ولا تَغْبِي عليه؛ لأن البلاغة واقعةٌ من القرآن والسنة بحيثُ السوادُ من العَين، والشغافُ من القلب، والبيانُ من اللسان، والسمعُ من الآذان.

كما أنها مكلوءةٌ بِعَينِه، مكنوفةٌ بِعونِه، محفوظةٌ في حِرزِه، مشمولةٌ بعزِّة، نازلةٌ من رَعْيِه في أَخصِّ مكانٍ، وأحوطِ أمانٍ، وقائمةٌ من شرعِه بأبهرِ برهانٍ، وأقهرِ سلطانٍ، قد جَعَلَ القرءان رُتبتَها سامقةً، ومنزلتَها سابقةً، ومنصبَها هو أكرم، ومقامَها هو أعظَمَ،فقال :﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾.، وقال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾.

وحَكَمَ لها بأنْ يقومَ الدينُ بها، وأس التحدي على بلغاء العرب بفنونها، وأن تجري كلُّ استقامة عنها إذ يسلم البليغ لها، ولا تُرجي سلامةٌ إلا بالوقوف الصحيح عليها،فنكتني أسرار تراكيب القرآن بآلتها، ونقف على بلاغات القول بأدواتها، وقبلَ ذلك نفهمُ أحكامَ الشريعة الشريفة.

ومن أهمل التحري في دلالات الألفاظ، وفهم خصائص التراكيب، وترك الإلمام بجوانب السياق فقد أبعد النجعة، وترك الامتثال في قوله : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ، كما أنه غَبْنُ رأيٍّ، وظلمُ نفسٍ، ومرضُ عَقْلٍ.

وقد عمد أناس إلى البلاغة فأفسدوا حلاوتها،وغيروا طلاوتها، وادَّعوا لأنفسهم فيها تمكُّنا، وهم لا يعدون أن يكونوا محبري كاغَد، أو مسودي سطور، مِلْؤها التكلُّف،لا الكَلَف، والتصنُّع لا الصَّنعَة، بل التقعُّر، والتفيهق.

ومما يزيد المرَض علةً أن صاحبَ تلك الدعوى النافقة، والإرادة الموبِقة يظن نفسه قد أوتي جوامع الكلم، ومجامع البيان، وقد كثر هؤلاء اليوم تكاثُر الفراش على الشهاب، والذباب على الشراب، يُطيلون القولَ بإسهاب، وكان الواجبُ اختصارَ الجواب، ويُسهبون حيث لا معنى يُراد، وفائدة تُصاد، يتصدرون بعض المجالس كأنهم رؤوس وما دروا أنهم أذناب،ولو بحث الواحد منهم عن عمل يسد به جوعته، ويستر به عورته لكان أنفع، وقد قالوا : وكل ما سد جوعا فهو محمود «.فهذا وأمثاله صفر اليدين من كل فائدة، وينطبق على الواحد منهم أو على مجموعهم – قول القائل : « لو كان لنا تمر كما ليس لنا سمن لاتخذنا عصيدة، ولكن الشأن في الدقيق».فلا تمر ولا سمن ولا دقيق ويريد أن يصنع عصيدة !

ولم تبتل الأمَّةُ بمثل ما ابتُليت بهؤلاء، وقد رأيت بعضهم يُحقق كتابًا ويتفلَّت عن كل مُعضلة نريد له أن يحلها، ويُطيل مع كل تافهة تمنينا أن لم يقف عندها، لا يدري عن العربية شيئا، ناهيك عن علومها وبيانها وبلاغها، والأمر يحتاج مِن كل مَن بسط الله يده، وقوَّى في الناس سلطانَه أن يأخذ على يد هؤلاء، بل يحجِر عليهم، ويرحم الله القائل : « بأن الحجر لا ستصلاح الأديان أولى من الحجر لاستصلاح الأموال،والأبدان».

على أن آحادَ العقلاءِ لا يَحْتاجُ إلى جُهدٍ يُبذَل؛ لدَرَكِ تلك العلاقةِ التي هي بين البلاغة وبين السنة والقرءان؛ إذْ إنها موصولةُ الحبل بهما، سابقةُ الظل بينَهما.

ولقد ذكر الله تعالى جميل نعمائه في تعليم البيان، وعظيم منّته في تقويم اللسان فقال: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾.

ووصف الله – سبحانه – القرآن بالبيان والإفصاح،وبروعة التفصيل والايضاح، وتيسير الإفهام، وحكمة الإبلاغ وسماه فرقانا، وجعله عربيا مبينا، تبيانا، ونذيرا.

وأنبه الله– تعالى– نبيه إلى حال قريش في بلاغة منطقها ، ورجاحة حلومها، وصحة عقولها، وذكر العرب وما فيها من الدهاء، ومن بلاغة الألسنة، فقال: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾، وأنهم ألداء عند الخصومة فقال: ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾،و ذكر خلابة ألسنتهم واستمالتهم الاسماع بحسن منطقهم فقال: ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ ﴾.

فالله في حسن البيان فإنه طريق الإقناع والإمتاع وقالوا: البيان بصر والعي عمى، كما ان العلم بصر والجهل عمى والبيان من نتاج العلم والعي من نتاج الجهل.

وقال سهل بن هارون: «العقل رائد الروح والعلم رائد العقل والبيان ترجمان العلم، وقال يونس بن حبيب ليس لعي مروءة ولا لمنقوص البيان بهاء ولوحك بيافوخه عنان السماء» ...

وقالوا في الصمت كقولهم في النطق قال أحيحة بن الجلاح:

والصمت أحسن بالفتى ما لم يكن عي يشينه

والقول ذو خطل إذا ما لم يكن لب يعينه

ومن أجمل ما يبين جلال البيان هذا الموقف : « لما دخل ضمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر زرى عليه للذي رأى من دمامته وقصره وقلته، فقال النعمان: تسمع بالمعيدي لا أن تراه، فقال: أبيت اللعن إن الرجال لا تكال بالفقزان ولا توزن بميزان وليست بمسوك يستقى بها، وإنما المرء بأصغريه بقلبه ولسانه، إن صال صال بجنان وإن قال قال ببيان، واليمانية تجعل هذا للصقعب النهدي فإن كان ذلك كذلك فقد أقروا أن نهدًا من معد».

ما قيل في البلاغة : قيل في البلاغة :

١- قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل.

٢ - وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام.

٣- وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة.

٤- وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة.

وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذ كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك وأحق بالنظر .

وقال مرة: جماع البلاغة التماس حسن الموقع والمعرفة بساعات القول وقلة الحرف بما التبس من المعاني أو غمض وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر ثم قال:

وزين ذلك كله وبهاؤه وحلاوته وسناؤه أن تكون الشمائل موزونة والألفاظ معدلة واللهجة نقية، فإن جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت فقد تم كل التمام وكمل كل الكمال.

وقيل : أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح قليل اللحظ متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة».

ولما كان البيان لا يكون بياناً، والبلاغة لا تصير بلاغة إلا بأن يكون المتكلم آخذا في كلّ واد، قادحا بكل زِناد، مُستظهرا بكل عتاد، يدخل الهزل في الجدّ إمتاعا واستمتاعا، ويدخل الجدّ في الهزل اقتداراً واتّساعاً. ورد البلاغيون موارد شتى.

إلا أن عمر رضي الله عنه اختار لنفسه الجادة فكانت بلاغته وبيانه لإحقاق حق، أو لإبلاغ حكم، ولنصرة مبدأ، ولم يأخذ بطرائق البلاغيين في هذا الجانب، والناس فيما يحسنون مواهب.

و لعلم الله أن اللسان سبع عقور، ورائد للمنية صدوق، جعله مذموما مخطوما، وعن التصرف بذاته عاجزاً مقصوراً، فليس يجري ما لم يجره فارسه من العقل، ولا يفعل ما لم يأمره أميره من الرأي، ولم يجعله كالعين التي ترى ما نحاه اللاحظ بطرفة وما لم ينحه، وكالأذن التي ما قصد السامع لاستماعه وما لم يقصده. وكل ذلك لأنه صاحب الفتك والإمضاء، وينبوع الشر والبلاء.

وكان إبراهيم بن أدهم الزاهد الناسك يطيل السكوت فليم في ذلك فقال: «الكلام على أربعة وجوه: فمنه كلام ترجوه منفعته وتخشى عاقبته، فالفضل فيه

السلامة منه، وكلام لا نرجو منفعته ولا تخشى عاقبته فأقل ما في تركه خفة المؤونة على بدنك ولسانك، وكلام لا ترجو منفعته وتخشى عاقبته، وهذا هو الداء العضال، ومن الكلام كلام ترجو منفعته، ولا تخشى عاقبته، وهو الذي يجب عليك نشره»، فإذا به قد بهرج ثلاثة أرباع الكلام، هذا على بلاغة إبراهيم بن أدهم وحكمته وكثرة معارضته أهل البيان.

وسئل ابن المقفع : ما البلاغة؟ فقال : الإيجاز من غير عجز، والإطناب في غيرخطل... وسئل مرة أخرى عنها فقال : هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها.

قال أكثم بن صيفي حكيم العرب في تعريف البلاغة: «دنو المأخذ، وقرع الحجة وقليل من كثير»، وهي صفات متى أصابها البليغ وأحكمها، وضع عن نفسه في البلاغة مؤنة ما سواها، ولكن إن أصابها وأحكمها.

والآن مع جوله عند بعض القدماء والمحدثين في بلاغة عمر.

البلاغة العمرية عند القدماء

تمهيد

يكاد كل من تكلم عن عمر وسمحت له بحبوحة الحديث من القدماء عنه أن يقرر أن عمر كان يملك الحجة والبرهان والإقناع والتأثير والبيان والوضوح، والجزالة، وسعة الإطلاع، والفصاحة البدهية بلا تكلف أو صنعة، على السجية، وكان مُلما بشعر العرب وأيامهم وأخبارهم وأنسابهم ذا بصر وبصيرة وحكمة ورأي، وأوردوا له من الخطب والنوادر والنصائح والمواعظ، والمكاتبات ما يعجز البلغاء عن ائتسائها أو القول على منوالها، ويعجز السرَّاق عن انتحالها أو نسبتها لغيره.

غير أن أولئك مع إجماعهم على هذا إلا أنهم لم يفصِّلوا القول في بلاغة عمر، ولم يقفوا عند مواطن البيان ومعاقد البلاغة بالإيضاح والشرح في غالب الأمر، وهذا لم يكن خاصا بعمر بل هذه كانت عادة النقاد والمؤرخين والأدباء آنئذ، من الذين كتبوا في بلاغات القول، ووجوه الإعجاز، وأفانين البيان وعلوم البديع والمعاني؛ إذ لم تكن تفتقت بعدُ العقيَّلة البلاغية التي تفصل فنون البلاغة الثلاث: بيان ومعان وبديع.

وكان النقاد والبلغاء يكتفون بمعرفة مكانة الرجل وبلاغته، بما يصدر عنه من جميل قوله، وجزيل عباراته، وسبره للمعاني، وتفهمه لها، وقدرته على نقدها، ومعرفته بالشعر، وإلمامه بطرائق التعبير، إلى غير ذلك، فجاءت إشارات القدماء عن بلاغات عمر تمثيلا لأقواله البليغة، ونظرا لكثرة مأثورات عمر، وتناول القدماء لها في كتبهم، فلم نحبب أن نعدد المصادر التي تناولت أحاديث عمر رضي الله عنه لنقلل من التكرار اللازم من تتبع ذلك عند عدد منهم.

بلاغات عمر عند الجاحظ

الجاحظ وهو الأديب الألمعي المتكلم مذهبًا وطبعًا، يتحدث عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مواطن كثيره بذكر طرفا من أقواله، يبرهن بها على صحيح البيان، وصريح الفصاحة، وسلامة النطق، وجزالة العبارات ونقده الشعر، وعلمه به وحفظه له، وحُكمه بين الشعراء، أو تمثله للشعر، وحِكَمه الكثيرة، وأمثاله، وخطبه،وبيانه وتثبته وإعجابه بالبلغاء، وتحريه الصدق... وإليكم طرفا من ذلك :

ومنها : أنه قد جاء بنو العجلان إلى عمر رضي الله عنه فاستعدوه علَى النجاشي الشاعر، وقالوا: قد هجانا، فسأل عن قوله وما أراد، فقال : وماذا قال؟

فقالوا: قال:

إذا اللهُ عادَى أهل لؤم وقلَّة   فعادَى بني العجلان رهطَ ابنِ مقبل

فقال عمر: هذه دعوة، وإن كان مظلوماً رجوت أن يستجاب له، قالوا: فأين قوله:

قبيلته لا يغدرون بذمّة   ولا يظلمون النَّاس حبّة خردل

فقال عمر: ليت آل الخطّاب كذلك، قالوا: فأين قوله:

ولا يردون الماء إلاَّ عشيّة   إذا صدر الورّاد عن كلّ منهل

فقال عمر: ذاك أروى للإبل وأقلّ للزحمة. قالوا: فأين قوله:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم   ويأكلن من عوف وكلب ونهشل

فقال عمر: ذلك لأنهم لا يستعملون السنّة في دفن موتاهم وقتلاهم.

قالوا فأين قوله:

وما سمّي العجلان إلاَّ لقولهم   خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر: سيّد القوم خادمهم، وكلّنا عبيد الله.

فعلق الجاحظ على هذا الذي أبداه عمر لهؤلاء الشاكين بقوله: « ولم يكن هذا لسوء معرفة بانتقاد الشعر، ولكن استعمل قول النبيّ عليه السلام « ادرؤا الحدود بالشبهات، وادرؤا الحدود ما استطعتم».

ولعل هذا الذي فعله عمر رضي الله عنه من المعاريض التي يستخدمها البليغ ليحسن التخلص، ويكون فيه مندوحة عن الكذب.

وقد سئل أبو عبد الله أحمد بن حنبل عن الرجل يعارض في كلام الرجل يسأله عن الشيء، ويكره أن يُخبره بما فيه ؟

فقال إذا لم يكن يمين فلا بأس، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب. وهو إذا احتاج إلى الخطاب، فأما الابتداء بذلك فهو أشد.

- ومنها ما ينقله الجاحظ من قول عمر رضي الله عنه: «ما رأيت بليغا قط إلا وله في القول إيجاز، وفي المعاني إطالة».

وعمر يتحدث هنا عن قضية هي من أهم قضايا البلاغة، وهي الإيجاز، تلك الركن المتين من أركان البلاغة، حتى عدَّ بعض العلماءِ البلاغةَ هي الإيجازَ؛ فأبو الهلال العسكري في كتابه «الصناعتين» يعرف الإيجاز بأنه: «قصور البلاغة على

الحقيقة، وما تجاوز من مقـدار الحاجة فهو فضل».

وينقل عنهم تعريفا للبلاغة : «البلاغة الإيجاز».

والسكاكي يقول : « الإيجاز أداء المقصود بأقل من عبارة المتعارف».

وقد أكثر القدماء من نقل العبارات التي تدل على خاصية بارزة في بلاغة عمر، وهي احتفاؤه بالإيجاز، وسوق الألفاظ القليلة التي تحمل الدلالات الغزيرة وهذا فاش في مأثورات عمر رضي الله عنه.

- ومنها تقريع عمر لمن استخدم الكلام في غير موضعه:

وسأل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلا عن شيء فقال : «الله أعلم» فقال عمر: «لقد شقينا إن كنا لا نعلم أن الله أعلم،إذا سُئل أحدكم عن شيء لا يعلمه فليقل لا علم لي».

ومنها دعوته رضي الله عنه إلى التأني والتثبت قبل القول :

ذكر الجاحظ قول عمر رضي الله تعالى عنه في بعض رسائله الى قضاته : «الفهم الفهم لما يختلج في صدرك ».

ومن خصائص بلاغات القول عند عمر ورود ما يسمى بالتوازن أو اتســاق البناء في الجمل.

« أيها الناس إن بعض الطمع فقر وإن بعض اليأس غنى وإنكم تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تدركون».

ومنه قول عمر : «لكل شيء شرف وشرف المعروف تعجيله».مع ما فيها من

الإيجاز، والحث على المعروف، وخروج الكلام مخرج الحكمة.

ومنه : «إن هذا الأمر، لا يصلحه إلا لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف».

وهو كثير في قول عمر.

قصر الجمل، وتنوع المعطوف، وتوازي الجمل مع السجع غير المتكلف :

قال رجل لعمر : خبرني عن حالك في جاهليتك وعن حالك في إسلامك قال : «أما جاهليتي فما نادمت فيها غير لمة، ولا هممت فيها بأمة، ولا خمت فيها عن بهمة ولا رآني راء إلا في ناد أو عشيرة أو حمل جريرة أو خيل مغيرة».

معرفة عمر بأحوال الناس، ولغاتهم وطرائقهم في القول:

ومنه قول عمر : «أترون اني لا أعرف رقيق العيش لباب البر بصغار المعزى».

وفي تفريقه بين بليغ الناس وعييهم، ينقل الجاحظ:

كان عمر إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه قال: «خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد».

وعند حديث الجاحظ عن مخارج الحروف وضبطها وفصاحتها :

ذكر موقف عمر من رجل كان أعلم الشفتين : «فقال في سهيل بن عمرو الخطيب يا رسول الله انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا وإنما قال ذلك لأن سهيلا كان أعلم من شفته السفلى».

خطب النكاح وما يعرض فيها للخطيب وقول عمر :

ذكر خطب الأملاك لأنهم يذكرون أنه يعرض للخطيب فيها من الحصر أكثر مما يعرض لصاحب المنبر، ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «ما يتصعدني كلام كما تصعدني خطبة النكاح».

سئل ابن المقفع عن قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا، فقال: ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه ونظر الحداق من قرب في أجواف الحداق، ولأنه إذا كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء، وإذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية.

وقد ذهب ذاهبون إلى أن تأويل قول عمر يرجع الى أن الخطيب لا يجد بدا من تزكية الخاطب، فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زورا وغر القوم من صاحبه، ولعمري إن هذا التأويل ليجوز إذا كان الخطيب موقوفا على الخطابة فأما عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأشباهه من الأئمة الراشدين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فلم يكونوا ليتكلفوا ذلك إلا فيمن يستحق المدح.

الأمر بالتعلم والتقدم والتريث قبل التصدر :

قول عمر : « تفقهوا قبل أن تسودوا، وكان يقول رضي الله عنه السؤدد مع السواد».

إعجاب عمر بالبلغاء والكشف عنهم وإن كانت هيآتهم رثة :

فقد نظر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى هرم بن قطبة ملتفا في بيت في ناحية المسجد، ورأى دمامته وقلته، وعرف تقديم العرب له في الحكم والعلم، فأحب أن يكشفه ويسبر ما عنده، فقال: أرأيت لو تنافرا إليك اليوم، أيهما كنت تنفر؟ يعني علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، فقال: يا أمير المؤمنين لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جذعة، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لهذا العقل تحاكمت العرب إليك.

عمر من أعلم الناس بالشعر :

وقال العايشي: «كان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أعلم الناس بالشعر ولكنه إذ ابتلي بالحكم بين النجاشي والعجلاني وبين الحطيئة والزبرقان، كره أن يتعرض للشعراء، واستشهد رجالا للفريقين مثل حسان بن ثابت وغيره ممن تهون عليه سبالهم، فإذا سمع كلامهم حكم بما يعلم، وكان الذي ظهر من حكم ذلك الشاعر مقنعا للفريقين ويكون هو قد تخلص بعرضه سليما، فلما رآه من لا علم له يسأل هذا وهذا ظن أن ذلك لجهله بما يعرف غيره».

حسن التقسيم علامة للأدب الجيد عند عمر :

وذكر الجاحظ إعجاب عمر بأبيات زهير وعبدة بن الطيب لما فيها مع حسن التقسيم والجمع بين المعاني، وجمال الصياغة وعذوبة الألفاظ.

ومن حسن التقسيم في المعنى عنده :

قول عمر: « الرجال ثلاثة رجل ينظر في الأمور قبل أن تقع فيصدرها مصدرها ورجل متوكل لا ينظر فإذا نزلت به نازلة شاور أهل الرأي وقبل قولهم، ورجل حائر بائر لا يأتمر رشدا ولايطيع مرشدا».

ومما ذكره الجاحظ من جميل الكلمة الحكيمة والموعظة الحسنة:

«إني والله لا أدع حقا لله لشكاية تظهر ولا لغضب يحتمل ولا لمحاباة بشر وانك والله ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل ان تطيع الله فيه».

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى سعد بن أبي وقاص: يا سعد

بني وهيب إن الله إذا أحب عبدا حببه الى خلقه فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أن ما لك عند الله مثل الذي لله عندك». وفي الجمل من التوازي والتماثل ما يجعلها محببة إلى النفس ومن المعاني ما يجعلها أثرا يُقتفى، وسنة تتبع.

- ومنها قول عمر :«لو أدركت عفراء وعروة لجمعت بينهما».

وفيها أسلوب الشرط بلو، وليس يخفى أن (لو) الشرطية على قسمين :

الأول : أن تكون للتعليق في المستقبل.

الثاني : أن تكون للتعليق في الماضي وهو أكثر استعمالاتها، وتقتضي عندئذ لزوم امتناع الجواب لامتناع الشرط، ومنه قول عمر رضي الله عنه : «لو أدركت عفراء وعروة لجمعت بينهما». مع ما، فيه من إيجاز العبارة، وحنكة بالمعضلات وسبره لأغوار النفوس البشرية.

ومن أساليب التوكيد في كلام عمر:

ما نقله الجاحظ حين استخلف عمر رضي الله عنه فصعد المنبر فقال : إني قائل كلمات فأمنوا عليهن - فكان أول مَنْطِق نطق به حين استخلف - قال : «إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقوده، وأمَّا أنا فورب الكعبة لأحملنَّهم على الطريق».

انتقل بالأسلوب من التوكيد بالجملة الاسمية، و(إن) إلى (إنما)، وضرب المثل، روعة التشبيه وإبداعه، ومراعاته للبيئة، واستخدامه أما الشرطية، والقسم، كل ذلك في سطرين ليبين عن بلاغة وتمكن.

وذكر الجاحظ في باب مقطعات من كلام البلغاء عن عمر :

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : «اقرأوا القرآن تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، ولن يبلغ حق ذي حق أن يطاع في معصية الله، ولن يقرب من أجل ولن يباعد من رزق أن يقوم رجل بحق أو يذكر بعظيم».

وفي هذا الجزء من كلام عمر دعوة إلى العلم ثم العمل، ثم الثمرة وهي أن يصبح من أهل القرآن، وأنه لا طاعة في معصية وما يُضفيه التضاد من إيضاح المعنى وإبرازه، وأن القيام بالحق لا يدني أجلا، في سياق حكمة عمر، وموعظته، لتأخذ النصيحة باللب وتؤثر بالقلب، وتلك البلاغة التي تحمل السامعين ليس على مجرد مصمصة الشفاة لجمال اللفظ وروعة التركيب بل على الائتساء بالقول رغبة في الخير ورهبة من الوعيد.

وكثر التضمين والاستشهاد عند عمر :

وخطب أيضا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد ان يسأل عن المال فليأتني، فإن الله جعلني له خازنا وقاسما، إني بادئ بأزواج رسول الله فمعطيهن ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم أنا وأصحابي ثم بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء.

اقتباس عمر من القرءان :

«من أعطى الدعاء لم يحرم الإجابة قال الله تعالى: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ومن

أعطى الشكر لم يحرم الزيادة لقوله عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ومن أعطى الاستغفار لم يحرم القبول لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

أسلوب القصر والتوكيد في قول عمر : «ما على نساء المغيرة أن يهرقن من دموعهن على أبي سليمان ما لم يكن نقع ولا لقلقة».

قد ذكر الجاحظ هذا الأثر عن عمر حين حديثه عن اشتراط الصوت الجيد الجهوري في الخطيب، وفيه ذكر اللقلقة، وهي الصوت العالي.وفيه السماحة بالبكاء، بشرط عدم إثارة التراب كما هي عادة الجاهلية، وعدم العويل لأنه من النياحة المنهي عنها، وأنا أحيل القاريء أن يفتش في مأثورات العرب وما أكثرها فلن يجد هذا التركيب العطفي واردا إلا عن عمر، أو من نقل عن عمر، لتضح خصائص تراكيب عمر رضي الله عنه.

اهتمام عمر بالتركيب والبدأ بالمهم كما هي عادة البلغاء :

قالوا: وقد كان أُنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عميرةَ ودِّع إن تجهَّزتَ غاديا   كفى الشَّيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيا

فقال له عمر: لو قدَّمت الإسلام لأجزتك.

وأذكر هنا ما ذكره سيبويه لنؤكد حرص عمر على بلاغة القول وقوة النظم وصحة العبارة، فإن الواجب أن يقدم المتكلم المهم من قوله أولا قال سيبويه: «كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهمُّ لهم وهم ببيانه أعنى» .

وعبد القاهر في دلائل الإعجاز يدلنا على أهمية مراعاة بلاغة التقديم والتأخير؛

فيقول : « هو بابٌ كثيرُ الفوائد جَمُّ المحاسن واسعُ التصرُّف بعيدُ الغاية. لا يزالُ يفتَرُّ لك عن بديعةٍ ويُفضي بكَ إلى لطيفةٍ. ولا تزالُ ترى شِعراً يروقُك مسمَعُه ويَلْطُف لديك موقعُه ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أنْ راقك ولُطف عندك أن قُدِّم فيه شيءٌ وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان».

من حكم عمر وأمثاله:

وذكر الجاحظ في كتاب (الأمل والمأمول) من حكم عمره الكثير ومنها قوله : «من يئس من شيء استغنى عنه».

ومن الحكم الرائدة المبتدعة قول عمر : «واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق، فأنفقوا خيرا لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأؤلئك هم المفلحون».

وقوله : «من قعد به أدبه، لم يرفعه حسبه».

ومن عيوب البلاغة اللجلجة:

وقال محمد بن سلام الجمحي: كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه اذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه، قال: خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد.

ويمثل الجاحظ للكنة الشعراء:

ومنهم سحيم عبد بني الحسحاس، قال له عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأنشده قصيدته التي أولها :

عميرة ودع إن تجهزت غاديا   كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا

لو كان شعرك كله مثل هذا لأجزتك، قال: ما (سعرت)، يريد ما (شعرت) فجعل الشين المعجمة سينا غير معجمة.

مقطعات من كلام البلغاء ومواعظ النساك:

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: اقرأوا القرآن تعرفوا به واعملوا به تكونوا من أهله ولن يبلغ حق ذي حق أن يطاع في معصية الله ولن يقرب من أجل ولن يباعد من رزق أن يقوم رجل بحق أو يذكر بعظيم.

وذكر لعمر بن الخطاب اتلاف شباب من قريش أموالهم فقال عمر: خرقة أحدهم أشد علي من عيلته، وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: حرفة يعاش بها خير من مسألة الناس».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لأبي مريم الحنفي: والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح، قال: فتمنعني لذلك حقا؟ قال: لا، قال: لاضير إنما يأسف على الحب النساء، وقال عمر لرجل هم بطلاق امرأته: لم تطلقها؟ قال: لا أحبها، قال: أو كل البيوت بنيت على الحب فأين الرعاية والتذمم.

حديث عمر عما يشبه براعة الاستهلال في البلاغة:

قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته يستميل بها الكريم ويستعطف بها اللئيم.

ويذكر الجاحظ تحت عنوان عظات لعمر بن الخطاب ما يلي:

وحدث عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إنه قال: الناس طالبان طالب يطلب الدنيا فارفضوها في نحره فإنه ربما أدرك الذي طلب منها فهلك بما أصاب منها، وربما فاته الذي طلب منها، فهلك بما فاته منها وطالب يطلب الآخرة

فاذا رأيتم طالب الآخرة فنافسوه.

وحدث عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه:

أيها الناس إنه أتى عليّ حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد به الله وما عنده ألا وإنه قد خيل إلي أن أقواما يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس، ألا فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم، فإنما كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل وإذ النبي بين أظهرنا فقد رفع الوحي وذهب النبي، فإنما أعرفكم بما أقول لكم، ألا فمن أظهر لنا خيرا ظننا به خيرا وأثنينا به عليه ومن أظهر لنا شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه أقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلعة فإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم الى شر غاية، إن هذا الحق ثقيل مريء وإن الباطل خفيف وبيء وترك الخطية خير من معالجة التوبة، ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة أورثت حزنا طويلا.

ومن تشبيهاته البليغة : «العمائم تيجان العرب».

ومن روائع تراكيبه استخدام التضادات المبرزة للمعاني، والتناظرات بين الكلمات، وتلمح التضاد بين اللين والشدة، والتناظرات بين اللين والضعف، وفي الشدة والعنف، وذلك في قوله: « إن هذا الأمر لا يصلحه إلا لين في غير ضعف وشدة في غير عنف».

وذكر الجاحظ من جميل الدعاء أن يكون معروفا لا متكلفا

قال المغيرة بن شعبة: سمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلا يقول في دعائه اللهم اجعلني من الأقلين، فقال له عمر: ما هذا الدعاء؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ وسمعته يقول ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ فقال عمر

«عليك من الدعاء بما يُعرف».

حسن الرد وجمال الجواب :

قال ناس من الصحابة لعمر: ما بال الناس كانوا إذا ظلموا في الجاهلية فدعوا استجيب لهم ونحن لا يستجاب لنا وإن كنا مظلومين ؟

فقال : « كانوا ولا زاجر لهم إلا ذاك، فلما أنزل الله تبارك وتعالى الوعد والوعيد والحدود والقصاص والقود وكلهم إلى ذلك».

أسلوب التحذير مع الإيجاز والوضوح والإقناع، ومنه قوله :

«إياك ومؤاخاة الأحمق، فإنه ربما أراد ان ينفعك فضرك».

بلاغة عمر عند صاحب البصائر والذخائر:

- ومنها قول عمر رضي الله عنه لأبي ذر: مَن أغبط الناس؟ قال: رجل بين أطباق الثرى، قد أمن العقاب، وهو يتوقع الثواب، فقال عمر: لو كان أعد هذا الكلام منذ حول ما زاد على هذا.

ففي بلاغة عمر هنا بيان موجز فيه تنبيه على استقامة المجيب، وفطنة المعلق، وخبرته بالنفوس، وقدرته على صياغة هذه المعاني في هذا الأسلوب الشرطي البديع.

- وفيه : «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا كتب إلى أهل الكوفة يكتب لهم: رأس العرب ورمح الله الأطول».

وفي هذا التركيب من جمال التشبيه، ووقيمةِ العطف المفيد للجمع بين الزعامة

لهم واستنفار الله إياهم، واستخدامهم في مرضاته ما يجعلهم يُتَشَارون، ويسارعون إلى امتثال النصيحة.

- وقريب منها قول عمر : «يهلك العرب إذا انقطع عنها تقوى الإسلام وحمية الجاهلية».

فإن العرب كانت لهم حمية تمنعهم وتقودهم إلى المكرمات والنخوة والبطولات، وكانت تحتاج لأن تُضبط بقانون سماوي حتى لا تستخدم في المحرمات والانتهاكات فاحتاج إلى أن يجمع لهم بين خصلة تقود إلى البطولة والفتوة وأخرى تكبح ذلك فتجعله في الخير والمروءة، وهو من تمام بلاغة عمر.

- ومما ذكره المؤلف يدل على تحري عمر ودقته وتمهله، وتثبته، قوله : كان عمر بن الخطاب يطوف بالبيت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إن علياً لطمني، فوقف عمر إلى أن وافى علي فقال له عمر: يا أبا الحسن، ألطمت هذا؟ قال: نعم، قال: ولم؟ قال: لأنني رأيته نظر إلى حرم المسلمين في الطواف، فقال: أحسنت، ثم أقبل على الملطوم فقال: وقعت عليك عين من عيون الله.

وفيه تشبيه واقعي، بتصوير علي بن أبي طالب بأنه عين من عيون، كجند من جنود الله، فالله سبحانه وتعالى يقيد لرعاية حرماته من يشاء، وهذا التركيب لربما يدلك على خصيصة تراكيب عمر، وتستشعر كأنه ينظمها نظما خاصا على الفطرة بلا كلفة أو تصنع، وتأمل تركيبه : «وقعت عليك عين من عيون الله».

وفيها من التخويف والزجر والمقاصة ما فيها، مع بلاغة القول بهذا التصوير وجماله ووقعه على نفس السامع بما يشعره بالندم لتقصيره بالاعتداء على الحرمات.

– ومن بلاغات عمر قوله : «ابن آدم، لا يهلك الناس عن نفسك؛ فإن الأمر يخلص إليك دونهم، ولاتقطع النهار سادراً فإنه محفوظ عليك ما علمت، وإذا أسأت فأحسن، فإني لم أر شيئاً أسد طلباً ولا أسرع دركاً من حسنة حديثة لذنب قديم».

فابتدأ بالنداء، وثنى بالنهي وعمم بذكر الناس، وقرر بالتوكيد، وأعاد ذلك بمعنى جديد، ثم استعمل الشرط بأوجز عبارة، وأوضح بيان، وخصص برؤيته،وهي كما لا تخفى على مخاطَبِه وسامعه من أشد فراسةٍ تُذكَر، ثم ختم بروائع المقابلات التي تأخذ بالنفس، ليس فقط بجمال النظم وحسن العبارة بل بالحرص على الامتثال والاستقامة، وذلك في قوله : «ولا أسرع دركاً من حسنة حديثة لذنب قديم».

جمل وتراكيب إنما هي لعمر بل من خصائص أسلوبه:

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «لقد لنت للناس حتى خشيت الله في اللين، ثم شددت عليهم حتى خشيت الله في الشدة، فأين المخرج؟ فقام عبد الرحمن يجر رداءه ويقول: أف لهم بعدك، وقال عمر: اللهم تعلم أني منك فيهم أشد فرقاً منهم مني».

– ولما ولى عمر بن الخطاب عبد الله بن مسعود قال له: يا ابن مسعود، اجلس للناس طرفي النهار، وأقرئ القرآن وحدث عن السنة وصالح ما سمعت عن نبيك ﷺ، وإياك والقصص والكلف وصلة الحديث، فإذا انقطعت بك الأمور فاقطعها، ولا تستنكف إذا سئلت عما لا تعلم أن تقول لا أعلم، وقل إذا علمت، واصمت إذا جهلت، وأقلل الفتيا، فإنك لم تحط بالأمور علماً، وأجب الدعوة، ولا تقبل الهدية، وليست بحرام، ولكني أخاف عليك القالة، والسلام.

نظر عمر بن الخطاب إلى رجل يظهر النسك، متماوت، فخفقه بالدرة وقال: لا تمت علينا ديننا أماتك الله.

- ومن روائع التشبيه الضمني والذي يصح مثلا لذلك قوله :

« أسأت النقد وأعظمت الخطبة».

وذلك حين نظر عمر إلى أعرابي يصلي صلاة خفيفة، فلما قضاها قال الأعرابي : «اللهم زوجني العين»، فقال عمر: «أسأت النقد وأعظمت الخطبة».

فقد شبه حال الرجل الذي يسيء الصلاة ولا يعطيها حقها ويطلب مقابلها أغلى شيء وهو الحور العين، بحال من طلب أفضل المخطوبات وبخل بالمهر، وتصح مثلا يضرب في مثل هذه المواقف، كعكس قول القائل : « ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر».

- ومن بلاغات القول ما يعرف في البلاغة بجواب الحكيم:

ولعل منه ما رد به عمر على سائله حين أخذ عمر بن الخطّاب في التوجّه إلى الشّام، فقال له رجلٌ: أتدع مسجد رسول الله صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم؟ فقال: أدع مسجد رسول الله لصلاح أمّة رسول الله، ولقد هممت أن أضرب رأسك بالدّرّة حتّى لا تجعل الرّدّ على الأئمّة عادةً فيتّخذها الأخلاف سنّة.

قال سلمة بن سعيد: أتي عمر بن الخطاب بمالٍ، فقام إليه عبد الرحمن بن عوف فقال: يا أمير المؤمنين، لو حبست من هذا المال في بيت المال لنائبةٍ تكون أو أمر يحدث فقال:كلمة ما عرضها ولقنها إلا شيطان لقاني الله حجّتها، ووقاني فتنتها، أعصي الله تعالى العام لخوف القابل؟ أعدّ لهم تقوى الله، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن

يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ وليكوننّ المال فتنةً على من يكون بعدي.

- ومن أساليب البلاغة التوكيدُ وقد جاء بأنواعه في كلام عمر:

ومنه بإنما في قول عمر : «إنّما الدّنيا أملٌ مخترم، وأجلٌ منتقص، وبلاغٌ إلى دارٍ غيرها، وسيرٌ إلى الموت ليس فيه تعريج، فرحم الله امرءاً فكّر في أمره، ونصح لنفسه، وراقب ربّه، واستقال ذنبه».

وتأمل البيان المركب في قوله : «الدنيا أمل مخترم».

فالدنيا أمل على التشبيه، وأمل مخترم على الاستعارة وهما بهذا التركيب يوضحان الحقيقة عند التي عليها الناس من ناحية الدنيا وحقيقة الدنيا الفعلية فتحدث الصدمة أو الإفاقة لينزجر المرء بالنصيحة.

- ومن أجمل التشبيهات قول عمر :

«إنما الدنيا سير إلى الموت»، ثم الترشيح له بجملت النعت : «ليس فيه إعوجاج» ليحدث الرهبة، وليعلم أن طريقها مُسْلِم ولا شك للآخرة، ثم يختم عمر بالجملة الخبرية المراد منها الدعاء : « رحم الله امرءا».

ثم يذكر أوامر أربع مرتبة منطقية بها نجاة العبد، وهي: تفكر العبد. وصدقه بعد التفكر مع نفسه. فيراقبها، فيعلم تقصيرها؛ فيستغفر لما مضى ويحسن فيما بقى، والله إنها لبلاغة عمر، تلك التي تخرج بداهة وسجية، مع احتفاظها بكل الجزالة والبيان مع الإيضاح والاختصار، والجمال.

– ومن التوكيد بأسلوب القصر عن طريق النفي والاستثناء قول عمر :

«ما رأيت صغير الهمّة إلاّ رأيته مذموم الأحدوثة».

ولو وقف النقاد والأدباء الخبيرون بخصائص الأساليب عند قوله : « مذموم الأحدوثة» لرأوا فيها منطق عمر وبيانه، وجزالة لفظه وسلامة لسانه.

– ومنه قوله : «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كنفجة أرنب». في هذا التشبيه الذي يجمع بين الإبداع والجمال والدقة ما لم يكن في غيره، فقد صور سرعة انقضاء الدنيا بوثبة الأرنب، ومعروف سرعة قفزه ووثبه، مما لا يخفى على من رأى أرنبا يثِب، وكذا الدنيا لمن عقل.

– وتأمل الإيجاز، والتشبيه البليغ في قول كان عمر رضي الله عنه حين يقول للرجل إذا استعمله: «إن العمل كير، فانظر كيف تخرج منه».

من بلاغات عمر ورأي الناس فيه عند ابن المبرد في محض الصواب :

سبق ما قررناه من أن القدماء لم يكونوا يفصلون القول في بلاغات عمر بل اكتفوا بنقل جميل عباراته وأقواله، ولم نرد أن يكثر التكرار، بما نكتب ولعل فيما ذكر كفاية للتدليل على عظمة عمر وحسن منطقه وبيانه، ولأن ابن الجوزي أفرد بابا لإنشاد عمر الشعر فأحببت أن أذكر طرفا منه، وكان عمر يعجب بالشعر ويسمح بالتغني به مالم يكن داعيا إلى الخنا أو الممنوع، ومنه :

الباب الخامس والستون: في ذكر ما تمثل به من الشّعر

ذكر ابن الجوزي مواطن متعددة لتمثل عمر للشعر ومنها، عن سفيان الثوري قال: «بلغني أن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه كان يتمثل:

لا يغُرّنك عيشُ ساكن   قد يوافي بالمنيات السَّحَر.

وكان يقول : «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كنفجة أرنبٍ».

وفي موقف آخر عن سعيد بن المسيب، قال: حج عمر رضي الله عنه فلما كان بضجنان قال: لا إله إلا الله العظيم المعطي ما شاء لمن شاء، كنت أرعى أبل الخطاب بهذا الوادي، في مدرعة صوف، وكان فظاً، ويتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت، وقد أمسيت ليس بيني وبين الله أحد ثم تمثل:

لا شيء فيما ترى تَبْقى بَشَاشَته   يَبْقَى الإله ويفنى المال والولد

لم تُغن عن هُرْمُزٍ يوماً خزَائنه   والخُلْدَ قد حاولت عادٌ فما خلدُو

ولا سُليمانُ إذ تجري الرِّياحُ له   والأُنس والجِنُّ فيما بينها تردُ

أين الملوكُ التي كانت نَوَافِلُها   من كلّ أوْبٍ إليها راكبٌ يفدُ

حوضاً هناك موردا بلا كِذبٍ   لا بدَّ من وِرِدِهِ يوماً كما وَردوا

وعن الأصمعي قال: «ما قطع عمر رضي الله عنه أمراً إلا تمثل ببيت من الشعر».

وعن الشعبي قال: «كان عمر رضي الله عنه شاعرا».

قال شارح العمدة: «وروي أنه قال حين احتضر ورأسه في حجر ابنه عبد الله:

ظلـومٌ لنـفسـي غيـر أني مسلم أصـلـي الصـلاة كـلّها وأصــوم.

وفي الباب السابع والستون من محض الصواب : ذكر كلامه في الفنون وما يدل على سعة علم عمر، وبالفنون عامة، وبالشعر خاصة.

قال ابن مسعود: «لو وضع علم أحياء العرب في كفة ميزان، ووضع علم عمر في كفة، لرجح علم عمر، ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم، ولمجلس كنت أجلسه مع عمر أوثق في نفسي من عمل سنة».

بلاغات عمر عند المحْدَثين

بلاغة عمر عند العقاد في عبقرياته

- **كان عمر بليغا حسن النقد للبلاغة** وهواه منها الصدق والطبع وجمال التفصيل فكان يطرب لقول زهير : فإن الحق مقطعه ثلاث.

- **موضوعيته في النقد**، فسمى شاعرا شاعر الشعراء؛ لأنه لا يعاظل بين القوافي ولا يتبع حواشي الكلام.

- **ولم يقصر إعجابه بالشعراء على الذين وافقوا المواعظ والسنن الدينية** بل نظر فنهم وفاضل بينهم في بلاغتهم ففضل امرأ القيس لأنه سابقهم خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصر».

- **وربما قضى الليلة ينشد شعره** حتى يبرق الفجر فيقول لجليسه الآن اقرأ يا عبد الله.

- **وندر بين أئمة الدين من غاص في أدب قومه** وعوصه ووعى من أشعارهم وطرفهم مثل ما وعاه، قال الأصمعي: ما قطع عمر أمرا إلا تمثل فيه ببيت شعر، ونحن نرجع إلى الشعر الذي تمثل به فنراه في أحسن موقع وأصدق شاهد ونلمح من قليل أخباره في خلوته أن الأدب كان جانبا من جوانبه التي ترق فيها حاشيته ويأنس فيها إلى قلبه ويرجع فيها إلى فطرته.

- **ونوادره مع الشعراء والرواة كثيرة تدل على شغفه بالبلاغة الصادقة وحفظه لأجمل ما يحفظ** بين أهل عصره كما تدل على ذلك خطبه ورسائله وشواهده، وأمثاله.

- **وقد يصح أنه نظم الشعر أو لا يصح** فقد نسبت إليه أبيات وأنكر هو أنه شاعر حيث يقول: لو نظمت الشعر لقلته في رثاء أخي، ولكن الصحيح أنه كان يحب الشعر البليغ، ويرويه ويوصي بروايته.

- استفاد عمر من بلاغة القرآن ونشأته هذه النشأة الخاصة؛ فقد كان عمر مستقيم الطبع مفطورا على الإنصاف،وكان وافر الحظ من ثقافة عصره أديبا مؤرخا فقيها مشاركا في سائر الفنون.

- **وذكر العقاد أنه كان خطيبا مطبوعا على الكلام ظل في إسلامه كما في الجاهلية :**

شديد الشغف بالشعر والأمثال والطرف الأدبية بل ظل كذلك بعد توليه الخلافة فكان يروي الشعر ويتمثل به ويوصي به، ويجعل ذلك من تمام المروءة والمعرفة عنده، وقال لابنه عبد الرحمن : « يا بني انسب نفسك - رحمك الله - واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه، ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقا ولم يقترف أدبا، ،وقال للمسلمين عامة : «ارووا الأشعار فإنها تدل على الأخلاق».

- **أما الخطابة فقد كانت فيه من صفات جسمه وذهنه كأنه خُلق ليقول**، فينطق ببعض الحروف من كلا شدقيه، وكان جهوري الصوت واضح النطق في إخراج الحروف كلها، وكانت كلماته كأنها خطب مرتجلات تقرأها- أي في كتاب - فكأنك تصغي إلى خطيب لا تفقد منه إلا الصوت المسموع، ولانطباعه على الكلام الذي لا تصنع فيه كان يستسهل كل كلام يوافق طبعه - **ولا يستصعب من الخطب شيئا إلا ما استشعر فيه المداراة.**

ونقل تعليق ابن المقفع والجاحظ على قول عمر : وقال : « وكلا القولين جائز فهو مطبوع على أن يتكلم إلى الناس كلام رجل يقود الرجال ومطبوع على الصدق الذي تثقل على صاحبه المداهنة».

- **وكانت متعته بطرائف الأدب من متع الحياة**، وموقفه مع البعض الدال على اعجابه بالبلغاء، وبوازعيه الأدبي والديني يوصي بتعلم العربية ولم يزل عمر الأديب هو الخليفة، لم ينه عن الشعر إلا كما ينهى المسؤول عن الدين، فنهى عن التشبيب والهجاء وعاقب عليه.

- وحكى العقاد قصة عمر مع الزبرقان والحطيئة:

وعلق عليها بأسلوبه الأدبي العالي بقوله : «وقد تجاوزنا فقلنا إن عمر نسي علمه بالشعر ليذكر إبراء الذمة في القضاء، وقد حاول جهده، فأفلح لو يفلح أديب في نسيان أدبه، ولكنه مطلب ما استطيع قط ولن يستطاع، فكان عمر في تخريجه للكلام وعلمه بما تنصرف اليه معانيه أخبر بالشعر من قاض لا يفقه منه إلا ظاهر لفظه ومعناه».

- رأس الحكمة عند عمر كما يرى العقاد:

فيقول : «على أن زبدة الثقافة كلها في أقطاب الحكم وعظماء الأعمال إنما تتلخص في شيء واحد هو **الدراية بالناس** ونفاذ البصر في شئون الدنيا وصدق الخبرة بدخائل النفس البشرية أو ما نسميه... بالرأي السليم والحكمة العملية وهو مجال كان عمر قليل النظراء فيه وحفظت له كلمات في معانيه يندر مثيلها بين كلمات الحكماء».

ومنها : «ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ولكنه الذي يعرف خير الشرين».

- اختلافهم في كون عمر شاعرا وتعليق العقاد :

وقد اختلفوا في قوله الشعر، فزعم الشعبي أنه كان شاعرا ورويت له أشعار، لا تشبهه ولا ترضيه ونفى هو عن نفسه حين قال : «لو كنت أقول الشعر لرثيت أخي زيدا».

ثم قرر أن هذا الخلاف لا طائل تحته،والمهم أنه كان مطبوعا على التعبير ذا عبقرية فيه، لا يشبه تعبير سواه فهو تعبير عمري في مفرداته وتراكيبه.

- ثم يختم العقاد نُبذ روائعه التي يحلل فيها بلاغات عمر؛ فيذكر من خصوصيات تعبيرات عمر :

فمنها: « لولا الخليفى لأذنت» وهو يعني الخلافة ولا يقصد الإغراب.

ومنها وهو ينقل خبر إسلامه إلى خاله : «وجئت إلى خالي فأعلمته فدخل إلى البيت وأجاف الباب» أي أوصده .

ومنها وهو يصف ما وقع في نفسه من الآية التي تلاها أبو بكر أنكر موت النبي فقال : « والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي» أي عجز عن القيام.

ومنها في الكتابة والقراءة ينهى عن العجلة : « شر الكتابة المشق وشر القراءة الهذرمة وأجود الخط أبينه ».

ويذكر امرأة كانت تسقى الناس في أد : « كانت تزفر للناس القرب» أي تحملها.

ومنها الرأي الفرد كالخيط السحيل، والرأي ان كالخيطين المبرمين والثلاثة مرار لا يكاد ينتقض».

ومنها سماحه بالبكاء : « مالم يكن نقع ولا لقلقة» أي مالم يثر التراب ويفرط في العويل.

ومنها وقد حار بأهل الكوفة : «أعضل بي أهل الكوفة ما يرضون بأمير ولا يرضاهم أمير».

ومنها : «إن قريشا تريد أن تكون مغويات لمال الله» أي مصائد تحتجنه دون عباد الله.

ومنها: «تمعددوا واخشوشنوا واقطعوا الركب وانزوا على الخيل نزوا ».أي تزينوا بزي العرب.

- أسماء وأعلام إنما هي ثقافة عمر ولغته :

ويلحق بما سبق من خصوصيات وإبداعات عمر تسمية مواليه بين (أسبق وأسلم ويرفـأ وفرقد وذكوان وفروح) وما شابه هذه الأسماء، وهي تسمية مفردة، تكاد تقتصر عليه، وإنما هي الطبيعة العمرية، تمثلت في صيغ الكلام وفي اختيار الأعلام، فلا تستطيع أن تسميها إغرابا أو عسلطة أو تعملا بنحو من أنحائه؛ إذ

ليس وراءها قصد متفق في جميع هذه الصيغ وأبين ما يبين فيها أنها من عَفْو البداهة هنا وهناك، وأنها تترجم عن الطبيعة العمرية أصدق ترجمة فهي قوية خشنة مستقلة جادة خالية من الزخرف.

ومحصل هذه الأخبار جميعا أن عمر كان من نخبة المثقفين في العربية وكان وافر السهم في ثقافة قومه وعصره.

بلاغات عمر عند الدكتور محمد علي الصلابي

ذكره طرفا من حكم عمر:

وقال عمر ﵁: «إذا رأيت من الرجل خصلة تسوءك فاعلم أن لها أخوات، وإذا رأيت من الرجل خصلة تسرّك، فاعلم أن لها أخوات، واعلم أن الرجل ليس بالرجل الذي إذا وقع في الأمر تخلص منه، ولكن الرجل الذي يتوقى الأمر حتى لا يقع فيه، واعلم أن اليأس غنى، وأن الطمع فقر حاضر، وأن المرء إذا يئس من شيء استغنى عنه».

قال: ومن كلامه وهو يخطب: «أيها الناس إن بعض الطمع فقر، وبعض اليأس غنى، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، إنكم كنتم تؤخذون بالوحي، على عهد رسول الله ﷺ، فمن أسرّ أخذ بسريرته،ومن أعلن أخذ بعلانيته، فأرونا أحسن أعمالكم، والله أعلم بما يغيب عنا منكم، أرونا علانية حسنة، فإنه من يحدّثنا منكم أن سريرته حسنة لم نصدقه إن كانت علانيته سيّئة، واعلموا أن بعض الشحّ شعبة من النفاق،فأنفقوا خيرا لأنفسكم ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]».

الفاروق والشعر والشعراء:

كانت الحركة الشعرية نشطة في زمن عمر فلا يخلو كتاب أدب من ذكر عمر وبخاصة في موضوع النقد الأدبية والآراء.

١- كان عمر أكثر الخلفاء الراشدين استماعا للشعر وتقويمه.حتى قالوا يكاد لا يعرض له موقف الا أنشد فيه شعرا.

٢- كان محفوظ عمر من الشعر قديمه وحديثه طيعا له مما ينبئ عن حافظة مستوعبة له مصنفة له كذلك.

٣- بل من حفظه وكماله ان كان يحفظ ما قيل من قبل المشركين ضد الإسلام وأنشد بعضه أمام حسسان مما استثار حفيظة حسان للرد.

٤- وبالجملة فقد كان عمر مرهف الحس، يحفظ الشعر ويرويه ويبدي فيه رأيا صوابا

٥ - لكنه لم يكن شاعرا كما قال هو عن نفسه.

٦ - كان إعجابه به ما دام هذا الشعر يعلي بقيمة أو مبدأ أو كرامة أو خلق من الأخلاق الكريم والقيم السامية.

٧ - موقف عمر من الحطيئة حين هجا الزبرقان. ورده عمر وعرض له في القول؛ حتى استشار حسان.فقضى على الحطيئة بالحبس.

٨ - وقد كان الشعر يحول حزم عمر إلى لين ورحمة.

٩ - نزعة عمر النقدية.

قد كان أكثر الناس تأثرا بالرسول في حكمه على الأدب إذا اكتملت نظرية الكمال لديه وقد تهيأت لعمر أسباب كثيرة جعلته ذا خبرة ودراية ومن ذلك :

١ - أحد المسؤولين عن رعاية القيم في المجتمع الجاهلي.

٢ - كانت له مكانة في قريش ومحط أنظار العرب.

٣ - كان خبيرا بالشعر العربي جاهليه، والاسلامي.

٤ - علمه بأيام العرب وأنسابها وعقيدتها وسلوكها.

٥ - حرصه على غشيان المجالس الأدبية.

وينقل الصلابي عن الدكتور محمد أبو النصر في كتابه (عمر بن الخطاب ص٢٢٤) : «كان لعمر صاحب رسول الله القدح المعلى والنر الثاقب والألمعية الهادفة والذكاء الخارق المصحوب بالإلهام والشفافية المبصرة، ومما يجعله يصيب المعنى فلا يكاد يخطئه وهو بجانب ذلك موفور الإحساس بما يقرأ أو يسمع وشديد التذوق للنص الأدبي وما احتوى عليه من قيم جمالية أو شعورية وذلك لفرط إحساسه به وإدراكه كنهه وغاياته».

مقاييس عمر في الحكم على النصوص:

١ - سلامة العربية:

فقد كان ذوقه مطبوعا على سلامة الفصحى وصحتها ويتأفف من اللحن وينفر منه وكان اللحن في العبارة كافيا ولأن يسقط النص ويرفضه، بل ويعاقب من يقع منه اللحن.

٢ - أنس الألفاظ والبعد عن المعاظلة والتقعيد:

ودلل قصة عمر في تفضيل زهير

٣- الوضوح والإبانة:

ومنه قول عمر : «واجعلوني من أمركم على الجلية».ومكاتبته إلى قضاته بالإبانة وعاقب على التقعر والتكلف.

٤- أن تكون الألفاظ بقدر المعاني.

٥- تحذيره من المكابلة بقوله : «إياك والمكابلة».

٦- جمال اللفظة في موقعها وعدم نقلها من مكانها.

مثل تعليقه على الشيب والإسلام في قول عبد بني الحسحاس، وعلق الدكتور :

لأن عمر أدرك بذوقه الذي صقله أن الإسلام في نفس المؤمن أقوى زجرا من قبيل الشيب ومن بعده... وجدير به أن يقدم في النص تمشيا مع أهميته وتأثيره في النفوس وهذا ما نأى عنه البيت.

٨- حسن التقسيم :

كان عمر بن الخطاب يتعجب من قول عبدة

والمرء ساع لأمر ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل

فيردده ويقول : «والعيش شح وإشفاق وتأميل »، ويقول: «ما أحسن ما قسم».

وساق ابن منقذ في كتابه البديع في نقد الشعر من أنواع حسن التقسيم هذا الذي ذكره عمر فقال: «اعلم أن التقسيم هو أن يقسم المعنى بأقسام تستكمله، فلا تنقص عنه، ولا تزيد عليه، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وقال بعضهم: والعيش شح وإشفاق وتأميل».

وساق ايضا قول زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

وإعجاب عمر به.

٩- وهناك مقاييس أخرى بجوار الفنية وهي المقاييس القيمية التي يرجوها عمر من وراء الأدب بأنواعه. والمطالع في مأثورات عمر، يجدها تعبر عن مقاييسه تلك :

كالصدق في التعبير عن المشاعر والخواطر.وتصوير العواطف النبيلة، لذا أعجب بقصيدة المخبل السعدي وأمية بن الأسكر الكناني، وكان عمر يؤثر المعاني المبتكرة المتمشية مع أخلاقيات الإسلام، وألا يتورط الأديب في هجاء ذميم أو سباب فاضح، أن نهش للأعراض أو التغني بالخمور وشربها، فوق ذلك أن يُصاغ صياغة محكمة ويعبر عنه بتصوير جميل وبيان حسن.

- ولعل من مواقفه التي تدلك على مقاييسه النقدية تعليقه على أبيات قالها النعمان حين ولاه ميسان،فلما سمعها عمر قال : وايم الله لقد ساءني. ثم عزله.

ولا غرابة فيما فعل عمر من عزله النعمان لأن الأخير كان أمير قوم وإمامهم في الصلاة وقدوتهم في الحياة وهذا الشعر وإن لم يمثل حياة رجل كان من أهل الهجرة الأولى لكنه يتعارض مع قيم هذا الدين وتأباه تعاليمه ومن ثم رفضه عمر وعاقب قائله».

ثم قرر الصلابي أن هذه أبرز الملامح النقدية التي تميز بها نقد عمر والتي تدل على أصالة النقد الأدبي في أطوار نشأته الأولى، وتبين نزعته واتجاهه حيث لم يعتمد على الذوق وحده في تقويم الأدب والحكم عليه، وإنما جنح إلى لون من الموضوعية الدقيقة في شرح النص وتبيان جماله أو قبحه والتعليل لما يستجاد أو يستهجن من نماذجه، وسيظل النقد العربي مدينا لعمر ما عاش يتوخى في النص سلامة العربية

وبلاغة عباراتها واستقلال المعنى بحظه التام من التعبير وصدق التكوين وحسن التصوير ووضوحه وهذه مقاييس نقدية دقيقة لا يختلف مع عمر فيها ناقد أصيل».

ومن جميل روائع الكُتّاب في عمر قول الشيخ طنطاوي في كتابه أخبار عمر: «أنا كلما ازددت اطلاعاً على أخبار عمر، زاد إكباري وإعجابي به، ولقد قرأت سير آلاف العظماء من المسلمين وغير المسلمين، فوجدت فيهم من هو عظيم بفكره، ومن هو عظيم ببيانه، ومن هو عظيم بخلقه، ومن هو عظيم بآثاره، ووجدت عمر قد جمع العظمة من أطرافها، فكان عظيم الفكر والخُلق والبيان، فإذا أحصيت عظماء الفقهاء والعلماء، ألفيت عمر في الطليعة، فلو لم يكن له إلا فقهه لكان به عظيماً، وإن عددت الخطباء والبلغاء كان اسم عمر من أوائل الأسماء، وإن ذكرت عباقرة المشرعين، أو نوابغ القواد العسكريين، أو كبار الإداريين الناجحين، وجدت عمر إماماً في كل جماعة، وعظيماً في كل طائفة، وإن استقريت العظماء الذين بنوا دولاً، وتركوا في الأرض أثراً، لم تكد تجد فيهم أ جلّ من عمر. وهو فوق ذلك عظيم في أخلاقه عظيم في نفسه».

فرضي الله عن عمر.



الباب الأول

في المختار من خطب أمير المؤمنين رضي الله عنه وأوامره



[١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

يَذْكُرُ وُقُوعَ الْإِسْلَامِ فِي قَلْبِهِ قَبْلَ إِسْلَامِهِ

«خَرَجْتُ أَتَعَرَّضُ رَسُولَ الله ﷺ قَبْلَ أَنْ أُسْلِمَ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي إِلَى الْمَسْجِدِ، فَقُمْتُ خَلْفَهُ، فَاسْتَفْتَحَ سُورَةَ الْحَاقَّةِ، فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُرْآنِ، فَقُلْتُ: هَذَا - وَالله - شَاعِرٌ كَمَا قَالَتْ قُرَيْشٌ، فَقَرَأَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، قُلْتُ: كَاهِنٌ، قَالَ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٤٢-٤٧]، فَوَقَعَ الْإِسْلامُ فِي قَلْبِي كُلَّ مَوْقِعٍ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (أتعرَّض): أعترض له فأمنعه أن يقصد مراده، وهذا الفعل يتعدّى بنفسه، فيقال: تعرَّضت فلانًا، ويتعدَّى باللام، فيقال: تعرَّضت لفلان.

مقتضى الحال: يحدِّث عمر رضي الله عنه في هذا النصّ أصحابه بعد إسلامه كيف دخل الإسلام في قلبه.

لطائف لغوية: قوله: (فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُرْآنِ)، الفعل (جعل) في اللغة له استعمالات عدَّة، فينصب مفعولًا واحدًا إن كان بمعنى (أوجد)، وينصب

١- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (١٠٨)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٢٨.

مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر إن كان بمعنى (اعتقد) أو (صيَّر)، ويكون فعلًا ناقصًا من أفعال الشّروع فيرفع المبتدأ وينصب الخبر إن كان بمعنى (شرع) ولا يكون خبره إلا جملة فعليَّة فعلها مضارع، كما في قوله هنا: (فجعلتُ أعجب).

البيان والبلاغة: قوله: (خرجتُ)لم يبيِّن المكان الذي خرج منه لئلا يشغل ذهن السامع بشيء لا يفيده؛ فما ذكره بعدُ هو المقصود. وقوله: (أتعرَّض): هذا الفعل جاء على صيغة (أتفعَّل) ماضي (تفعَّلَ) يفيد معنى التكلُّف، وتحتمل هذه الصيغة أيضًا معنى التكرار؛ أي أنَّه خرج ليعترض رسول الله يكرِّر ذلك أينما وجده، وهذا المعنى ظاهر من مجيء الفعل مضارعًا. وقوله: (**أتعرَّض رسول الله ﷺ**) هذا من أدب عمر رضي الله عنه مع النبيِّ ﷺ في عدم ذكره باسمه؛ إذ لم يكن وقت اعتراضه لرسول الله ﷺ يشهد له بالرسالة، ومع ذلك لم يقل: (**خرجت أتعرَّض لمحمَّد**). وقوله: (**قبل أن أسلم**) هذه الجملة فيها احتراس؛ لأنَّ ما ذكره عمرُ رضي الله عنه قبلُ مِن الاعتراض لرسول الله ﷺ لا يسوغ فعله لمسلم، فاحترس عمر بهذه الجملة وبيَّن أنَّ فعله ذاك كان قبل إسلامه. وقوله: (**فوجدته قد سبقني إلى المسجد**) الفاء في (فوجدته) فصيحة، تدلُّ على محذوف في الكلام، والتقدير: (خرجت أتعرَّض رسول الله ﷺ، فبحثت عنه، فوجدته سبقني إلى المسجد)، ففي الكلام إيجاز بالحذف. وفي قوله: (سبقني إلى المسجد) إشارة من عمر رضي الله عنه إلى أنَّه كان يعلم من رسول الله ﷺ اعتياده الذهاب إلى المسجد في هذا الوقت، فأراد أن يسبقه ليعترضه في طريقه، فوجده قد خرج قبله وسبقه إلى المسجد. وقوله: (**فقمت خلفه**)، الفاء في (فقمت) فصيحة تدل على محذوف؛ أي: (فأتيته فقمت خلفه)، ففي الكلام إيجاز بالحذف. وقوله: (**فجعلت أعجب من تأليف القرآن**)، استعمال فعل الشروع (جعلت) فيه دلالة

على أنَّ التعجُّب لم يأته دفعة واحدة، بل بدأ معه مع بدء استماعه لقراءة النبيّ -ﷺ، وصار يتجدَّد بتجدُّد استماعه للقراءة، وهذا المعنى لا يظهر فيما لو قال: (فعجبت مِن تأليف القرآن). وقوله: **(فقلت: هذا - والله - شاعر كما قالت قريش)** يحتمل أنّه شبه قوله في النبيِّ ﷺ بقول قريش فيه؛ أي: فقلت: إنَّه شاعر كما قالت قريش إنَّه شاعر، فوافق قولي قولَهم، ويحتمل أنّه شبَّه الحال الذي ظهر له مِن النبيِّ ﷺ بالحال الذي ذكرته قريش عنه؛ أي: فبان لي أنَّ حاله كما قالت قريش، وهذا أظهر.
وقوله: **(فقلت: كاهن)**، فيه إيجاز بالحذف؛ أي: فقلت: إنَّه كاهن كما قالت قريش.
وقوله: **(فوقع الإسلام في قلبي كلَّ موقع)**: فيه استعارة مكنيَّة، إذ شبَّه الإسلام بشيء محسوس يقع مِن علوٍّ ويستقرُّ في قلبه، فحذف المشبَّه به، وذكر شيئًا مِن لوازمه، وهو السُّقوط. وفي قوله: **(كلَّ موقع)** فيه تتميم؛ لأنَّ المعنى تمَّ عند قوله: (فوقع الإسلام في قلبي)، فأطنب بقوله: (كلّ موقع) ليزيد المعنى التامَّ حُسنًا، ومِن حُسن هذا المعنى أنَّ الإسلام لم يترك في قلبه مكانًا يمكن أن يقع فيه إلا وقد وقع فيه واستقرَّ. ولله درُّ الفاروق! أوجز في كلامه حين وصف حاله قبل وقوع الإسلام في قلبه، وكأنَّه يصف ذلك مستكرِهًا لذكره، فلمَّا وصف حاله حين وقع الإسلام في قلبه أطنب في الكلام متلذِّذًا به.

[٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

يَذْكُرُ إِسْلَامَهُ وَفَضْلَ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ

«أَتُحِبُّونَ أَنْ أُعلِمَكُمْ بُدُوَّ إِسْلَامِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: كُنْتُ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَبَيْنَا أَنَا فِي يَوْمٍ حَارٍّ فِي بَعْضِ طُرُقِ مَكَّةَ إِذْ لَقِيَنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: أَيْنَ تَذْهَبُ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ قُلْتُ: أُرِيدُ هَذَا الَّذِي الَّذِي الَّذِي، قَالَ: عَجَبًا لَكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ هَكَذَا، وَقَدْ دَخَلَ عَلَيْكَ هَذَا الْأَمْرُ بَيْتَكَ، قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: أُخْتُكَ قَدْ صَبَتْ، فَرَجَعْتُ مُغْضَبًا، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجْمَعُ الرَّجُلَ وَالرَّجُلَيْنِ إِذَا أَسْلَمَا عِنْدَ الرَّجُلِ بِهِ قُوَّةٌ يُصِيبَانِ مِنْ طَعَامِهِ، وَقَدْ كَانَ ضَمَّ إِلَى زَوْجِ أُخْتِي رَجُلَيْنِ، فَجِئْتُ حَتَّى قَرَعْتُ الْبَابَ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ: ابْنُ الْخَطَّابِ، وَكَانُوا يَقْرَءُونَ صَحِيفَةً مَعَهُمْ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتِي اخْتَفَوْا وَنَسُوا الصَّحِيفَةَ، فَقَامَتِ الْمَرْأَةُ فَفَتَحَتْ لِي، فَقُلْتُ: يَا عَدُوَّةَ نَفْسِهَا، قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكِ صَبَوْتِ، وَأَرْفَعُ شَيْئًا فِي يَدِي فَأَضْرِبُهَا، فَسَالَ الدَّمُ، فَلَمَّا رَأَتِ الدَّمَ بَكَتْ، وَقَالَتْ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، مَا كُنْتَ فَاعِلًا فَافْعَلْ، فَقَدْ أَسْلَمْتُ.

فَجَلَسْتُ عَلَى السَّرِيرِ فَنَظَرْتُ، فَإِذَا بِكِتَابٍ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ أَعْطِينِيهِ، قَالَتْ: لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، إِنَّكَ لَا تَغْتَسِلُ مِنَ الْجَنَابَةِ، وَلَا تَطْهُرُ، وَهَذَا لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، فَلَمْ أَزَلْ بِهَا حَتَّى أَعْطَتْنِيهِ، فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَلَمَّا مَرَرْتُ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ذُعِرْتُ وَرَمَيْتُ

بِالصَّحِيفَةِ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَإِذَا فِيهِ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، كُلَّمَا مَرَرْتُ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ الله ذُعِرْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي، حَتَّى بَلَغْتُ ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٧-٨]، فَقُلْتُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، فَخَرَجَ الْقَوْمُ يَتَنَادَوْنَ بِالتَّكْبِيرِ اسْتِبْشَارًا بِمَا سَمِعُوا مِنِّي، وَحَمِدُوا اللهَ، وَقَالُوا: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَبْشِرْ، فَلَمَّا أَنْ عَرَفُوا مِنِّي الصِّدْقَ قُلْتُ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي بِمَكَانِ رَسُولِ الله، قَالُوا: هُوَ فِي بَيْتٍ فِي أَسْفَلِ الصَّفَا، فَخَرَجْتُ حَتَّى قَرَعْتُ الْبَابَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ: ابْنُ الْخَطَّابِ، وَقَدْ عَرَفُوا شِدَّتِي عَلَى رَسُولِ الله، وَلَمْ يَعْلَمُوا إِسْلَامِي.

فَمَا اجْتَرَأَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِفَتْحِ الْبَابِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**افْتَحُوا لَهُ، فَإِنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يَهْدِهِ**»، فَفَتَحُوا لِي، وَأَخَذَ رَجُلٌ بِعَضُدِي، حَتَّى دَنَوْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**أَرْسِلُوهُ**» ، فَأَرْسَلُونِي فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَخَذَ بِمَجْمَعِ قَمِيصِي فَجَبَذَنِي إِلَيْهِ، وَقَالَ: «**أَسْلِمْ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، اللَّهُمَّ اهْدِهِ**»، قُلْتُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ الله، فَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ تَكْبِيرَةً سُمِعَتْ بِطُرُقِ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ اسْتَخْفَى، وَكُنْتُ لَا أَشَاءُ أَنْ أَرَى رَجُلًا إِذَا أَسْلَمَ يُضْرَبُ إِلَّا رَأَيْتُهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُلْتُ: مَا أُحِبُّ إِلَّا أَنْ يُصِيبَنِي مِمَّا يُصِيبُ الْمُسْلِمِينَ.

فَذَهَبْتُ إِلَى خَالِي، وَكَانَ شَرِيفًا فِيهِمْ، فَقَرَعْتُ عَلَيْهِ الْبَابَ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ: ابْنُ الْخَطَّابِ، فَخَرَجَ، فَقُلْتُ: أَشَعَرْتَ أَنِّي قَدْ صَبَوْتُ؟ قَالَ:

لَا تَفعَلْ، قُلْتُ: قَدْ فَعلْتُ، قَالَ: لَا تَفعَلْ، وَأَجَافَ الْبَابَ دُونِي، قُلْتُ: مَا هَذَا بِشَيْءٍ، فَخَرَجْتُ حَتَّى جِئتُ رَجُلًا مِنْ عُظَمَاءِ قُرَيْشٍ، فَقَرَعْتُ الْبَابَ، فَخَرَجَ، فَقُلْتُ: أَشَعَرْتَ أَنِّي قَدْ صَبَوْتُ؟ قَالَ: لَا تَفْعَلْ، قُلْتُ: قَدْ فَعلْتُ، فَدَخلَ فَأَجَابَ الْبَابَ، قَالَ: فَانْصَرَفْتُ، فَقَالَ لِي رَجُلٌ: أَتُحِبُّ أَنْ يُعْلَمَ بِإِسْلَامِكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِذَا جَلَسَ النَّاسُ فِي الْحِجْرِ فَائتِ فُلَانًا، رَجُلًا لَمْ يَكُنْ يَكْتُمُ السِّرَّ، فَأَصْغِ إِلَيْهِ، وَقُلْ لَهُ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ: إِنِّي قَدْ صَبَوْتُ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يَظْهَرُ عَلَيْكَ وَيَصِيحُ وَيُعْلِنُهُ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي الْحِجْرِ جِئتُ إِلَى الرَّجُلِ فَدَنَوْتُ فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ: إِنِّي قَدْ صَبَوْتُ، فَقَالَ: قَدْ صَبَوْتَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَرَفَعَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ وَقَالَ: أَلَا إِنَّ ابْنَ الْخَطَّابِ قَدْ صَبَا، فَثَابَ إِلَيَّ النَّاسُ فَضَرَبُونِي وَضَرَبْتُهُمْ، فَقَالَ خَالِي: مَا هَذَا؟ فَقِيلَ: ابْنُ الْخَطَّابِ، فَقَامَ عَلَى الْحِجْرِ فَأَشَارَ بِكُمِّهِ: أَلَا إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ ابْنَ أُخْتِي، فَانْكَشَفَ النَّاسُ عَنِّي، وَكُنْتُ لَا أَشَاءُ أَنْ أَرَى أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُضْرَبُ إِلَّا رَأَيْتُهُ، وَأَنَا لَا أُضْرَبُ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا بِشَيْءٍ حَتَّى يُصِيبَنِي مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمْهَلْتُ حَتَّى إِذَا جُلِسَ فِي الْحِجْرِ، دَخَلْتُ إِلَى خَالِي قُلْتُ: اسْمَعْ، قَالَ: مَا أَسْمَعُ؟ قُلْتُ: جِوَارُكَ عَلَيْكَ رَدٌّ، فَقَالَ: لَا تَفْعَلْ يَا ابْنَ أُخْتِي، قُلْتُ: بَلَى هُوَ ذَاكَ، قَالَ: مَا شِئْتَ، قَالَ: فَمَا زِلْتُ أَضْرِبُ وَأُضْرَبُ حَتَّى أَعَزَّ اللهُ الْإِسْلَامَ»[1].

١- رواهُ أحمدُ في «فضائلِ الصَّحابةِ» (٣٧٦)، والبيهقيُّ في «دلائلِ النُّبوَّةِ» ٢/ ٢١٦.

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (بُدُوَّ): مصدر (بدا)، يقال: بدا الأمر يبدو بَدْوًا وبُدُوًّا بوزن (فُعُول) بمعنى ظهر. (صَبَوتَ): خرجتَ مِن دِينك إلى غيره، وأصل الفعل: (صبأ) بالهمز بمعنى: طلع.

مقتضى الحال: يذكر لأصحابه كيف كان أوَّل إسلامه.

لطائف لغوية: قوله: (وَأَرْفَعُ شَيْئًا فِي يَدِي فَأَضْرِبَهَا) الواو حالية، وبعدها مبتدأ محذوف مقدَّر، أي: (وأنا أرفع شيئًا)؛ لأن الجملة الحالية المصدَّرة بفعل مضارع مثبت لا تدخل عليها واو الحال.

وقوله (ذُعِـرتْ) الفعل (ذُعِـر) مِن الأفعال التي جاءت على صيغة المبني للمفعول، مثل (عُنِي) و(وشُهِر) و(ذُهِل)، ومرفوعها فاعل لا نائب فاعل.

البيان والبلاغة: السمة العامَّة لهذا النصِّ الإيجاز واستخدام الجمل القصيرة، والبعد على المحسِّنات اللفظية، إلا ما جاء عفو الخاطر.

فقوله: (**أَتُحِبُّونَ أَنْ أُعْلِمَكُمْ بُدُوَّ إِسْلامِي؟**) فيه براعة استهلال؛ إذ بدأ كلامه بما يجذب انتباه السامعين ويشوِّقهم لمضمون كلامه، فالاستفهام هنا للتشويق. ثم استفتح خبر قصَّة إسلامه بما يزيد الكلام تشويقًا، وهو كونه مِن أشدِّ الناس على رسول الله ﷺ، ومع ذلك شرح الله صدره للإسلام وصار مِن أحسن الناس إسلامًا، فقال: (**كُنْتُ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ**). وقوله: (**فَبَيْنَا أَنَا فِي يَوْمٍ حَارٍّ فِي بَعْضِ طُرُقِ مَكَّةَ**): ذكره للوقت فيه تأكيد على شدَّة عداوته لرسول الله ﷺ قبل إسلامه، أي على الرغم مِن شدَّة الحرِّ خرج يبحث عنه لينال منه. وقوله: (**إِذْ

لَقِيَنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ) لم يسمِّ الرَّجُل لعدم الفائدة في ذكر اسمه. وقوله: (**أُرِيدُ هَذَا الَّذِي الَّذِي الَّذِي**) لم يصرِّح باسم (محمَّد) تحاشيًا لذكر اسمه، ولوصفه بما تتضمَّنه صلة الموصول مِن أوصاف، وتكرار الاسم الموصول يدلُّ على تكرار الأوصاف التي وصفه بها، ومِن أدب عمر رضي الله عنه مع جناب النبي صلى الله عليه وسلم أنه حين حدَّث أصحابه بهذه القصَّة حذف صلات الموصولات المتضمِّنة للأوصاف المستقبحة. وقوله: (**يَجْمَعُ الرَّجُلَ وَالرَّجُلَيْنِ إِذَا أَسْلَمَا عِنْدَ الرَّجُلِ بِهِ قُوَّةٌ يُصِيبَانِ مِنْ طَعَامِهِ**) (أل) الداخلة على (الرجُل) و(الرجُلين) وكذا (الرجُل به قوَّة) للعهد الذهني، لتعريف الحقيقة المعهودة في الذهن مِن غير تعيين لأفرادها. وقوله: (به قوَّة) هذه الجلمة حالية لـ(الرجُل) وتنكير المسند إليه فيها - وهو (قوة) - لإرادة نوع مِن أنواع القوَّة، وهو القوَّة التي يستطيع بها دفع اعتداء المشركين. وجملة (يصيبان مِن طعامه) جواب لسؤال مقدَّر؛ كأنه قيل: لِمَ يجمع الرجل والرجلين عند الرجل به قوَّة؟ فالجواب: يصيبان مِن طعامِه، لذا لم يصل هذه الجملة بما قبلها بالواو؛ إذ بينهما شِبه كمال اتِّصال، وهو مِن مواضع الفصل. وفي قوله: (يصيبان مِن طعامه) اكتفاء؛ إذ لم يقل: (يصيب من طعامه ويصيبان من طعامه)، مع أنَّه قدَّم الحديث عن الرجُل والرَّجُلين، وهذا مِن الإيجاز بالحذف. وقوله: (**وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَجْمَعُ الرَّجُلَ وَالرَّجُلَيْنِ إِذَا أَسْلَمَا عِنْدَ الرَّجُلِ بِهِ قُوَّةٌ يُصِيبَانِ مِنْ طَعَامِهِ، وَقَدْ كَانَ ضَمَّ إِلَى زَوْجِ أُخْتِي رَجُلَيْنِ**) هاتان الجملتان اعتراضيَّتان، والغرض منهما توضيح ما سيذكر بعدُ مِن وجود رجُلين في بيت زوج أخته. وقوله: (**فَجِئْتُ حَتَّى قَرَعْتُ الْبَابَ**) فيه حذف، والتقدير: (فجئت إلى بيت أختي حتى قرعت الباب)، واستخدامه لـ(حتَّى) مشعر بأنَّه جعل قرع الباب لمجيئه غاية، فبانتهاء مجيئه كان قرع الباب، وفي ذلك إشارة إلى مبادرته في الذهاب إلى أخته فور سماعه خبر إسلامها، و(أل) في (الباب)

للعهد الذهني. وقوله: (**وَكَانُوا يَقْرَؤُونَ صَحِيفَةً مَعَهُمْ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتِي اخْتَفَوْا وَنَسُوا الصَّحِيفَةَ**) وهذه الجملة اعتراضية أيضًا فيها زيادة توضيح، و(أل) في (الصحيفة) للعهد الذِكري. وقوله: (**فَقَامَتِ الْمَرْأَةُ فَفَتَحَتْ لِي**) (أل) في (المرأة) للعهد الذهني، والمرأة هي أخته. وقوله: (**فَقُلْتُ: يَا عَدُوَّةَ نَفْسِهَا، قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكِ صَبَوْتِ**)، قدَّم كلامه معها بجملة نداء (يا عدوَّة نفسها) بقصد الترويع والتهديد. وقوله: (**وَأَرْفَعُ شَيْئًا فِي يَدِي فَأَضْرِبُهَا**) لم يسمِّ الشيء الذي ضربها به كراهة ذكره لبشاعة ذلك الموقف. وقوله: (**فَسَالَ الدَّمُ، فَلَمَّا رَأَتِ الدَّمَ بَكَتْ**) أظهر كلمة (الدم) في الموضع الثاني وهو موضع إضمار، ومقتضى الظاهر أن يقول: (فلمَّا رأته بكت)، والإظهار هنا لاستثارة الإنكار على فعله. وقوله: (**فَجَلَسْتُ عَلَى السَّرِيرِ فَنَظَرْتُ، فَإِذَا بِكِتَابٍ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ**) استخدم السجع هنا استخدامًا غير مقصود بين (فنظرت) و(البيت). وحذف مفعول (نظرتُ) لدلالة السياق عليه، والتقدير: (فنظرتُ إلى ما حولي). وقوله: (**فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ أَعْطِينِيهِ**) الاستفهام هنا إنكاريٌّ. وقوله: (**فَلَمْ أَزَلْ بِهَا حَتَّى أَعْطَتْنِيهِ، فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**) استخدام (إذا) الفجائية يدلُّ على أنَّه فوجئ بما وجد في الصحيفة، وما قاله بعدُ يؤكِّد ذلك. وقوله: (**فَلَمَّا مَرَرْتُ بِـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ذُعِرْتُ وَرَمَيْتُ بِالصَّحِيفَةِ**) بين (مررتُ) و(ذعرتُ) جناس ناقص، وهو غير مقصود. وقوله: (رميتُ بالصحيفة) في تعدِّي الفعل (رمى) إلى مفعوله بالباء زيادة تعيين له. وقوله: (**ثُمَّ رَجَعْتُ فَإِذَا فِيهِ**: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾)، في قوله (ثم رجعتُ...) إيجاز بالحذف، والتقدير: (ثم رجعتُ أنظر في الكتاب). وقوله: (**كُلَّمَا مَرَرْتُ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ ذُعِرْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي**) شبَّه نفسه بشخص ذهل عنه ثم رجع إليه. وقوله: (**فَخَرَجَ الْقَوْمُ يَتَنَادَوْنَ بِالتَّكْبِيرِ اسْتِبْشَارًا بِمَا سَمِعُوا مِنِّي**) في قوله (يتنادون)

إشارة إلى أنَّهم لما استيقنوا مِن إيمان عمر صار ينادي بعضهم بعضًا بالتكبير، وكأنَّهم لشدَّة فرحهم ذهلوا عن أسمائهم وصار بعضهم ينادي بعضًا بكلمة (الله أكبر).
وقوله: (**فَلَمَّا أَنْ عَرَفُوا مِنِّي الصِّدْقَ قُلْتُ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي بِمَكَانِ رَسُولِ اللَّهِ**) (أل) في (الصدق) لبيان الحقيقة، وفي الكلام تجريد، وكأنَّهم جرَّدوه مِن كلِّ صفاته وأظهروا فيه صفة الصدق، وهذه الصفة هي المطلوبة في مثل هذا الموقف. وقوله: (**فَخَرَجْتُ حَتَّى قَرَعْتُ الْبَابَ**) في الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير: (فخرجت من بيت أختي، فتوجَّهتُ نحو مكان رسول الله ﷺ، فلما وصلتُ البيت قرعتُ الباب) وسبب هذا الإيجاز هو إشغال ذهن السامع بما هو أكثر فائدة وأهمية، إذ إنَّ أهمَّ ما في هذه القصَّة ما جرى في بيت أخته وما جرى عند دخوله على النبي ﷺ. و(أل) في (الباب) للعهد الذهني. قوله: (**قِيلَ: مَنْ هَذَا؟**) بنى الفعل لما لم يسمَّ فاعله لعدم العلم بالفاعل. وقوله: (**وَقَدْ عَرَفُوا شِدَّتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَلَمْ يَعْلَمُوا إِسْلامِي، فَمَا اجْتَرَأَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِفَتْحِ الْبَابِ**) هذه الجمل اعتراضية لتفسير تأخُّرهم في فتح الباب وبيان شدَّة الموقف. وبين جملتي (عرفوا شدَّتي على رسول الله) و(لم يعلموا إسلامي) مقابلة؛ فالمعرفة تقابل عدم العلم، والشدَّة على رسول الله تقابل الإسلام، ويظهر في هذه المقابلة حُسن تخيُّر عمر رضي الله عنه لألفاظه، وذلك في أمور، منها: أنَّه لما تحدَّث عن شدَّته عبَّر بالمعرفة، ولما تحدَّث عن إسلامه عبَّر بالعِلم، والمعرفة مجرَّد تصوُّر الشيء، والعِلم إدراك أحوال الشيء وصفاته، فالعِلم أخصّ مِن المعرفة، كأنَّه قال: إنَّهم تصوَّروا شدَّتي ولم يدركوا ما طرأ عليَّ مِن تحقُّق اتِّصافي بالإسلام، وكان مقتضى الظاهر أن يقابل بين كفره وإسلامه، إلا أنَّه عدل عن ذكر كفره وذكر شيئًا مِن مقتضياته وهو شدَّتُه على رسول الله ﷺ التي هي أبرز ما يُخشى منه. وقوله: (**فَمَا اجْتَرَأَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِفَتْحِ الْبَابِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «افْتَحُوا لَهُ، فَإِنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا**

يَهْدِهِ»، **فَفَتَحُوا لِي، وَأَخَذَ رَجُلٌ بِعَضُدِي**)، وقوله: (فما اجترأ أحد منهم) كلمة (أحد) نكرة في سياق نفي تعمُّ جميع الحاضرين في ذلك المجلس، وفي ذلك دلالة على خشيتهم جميعًا منه، ثم قال: (وأخذ رجُل بعضدي) ولم يقل: (أحد) وكأنَّه تقصَّد وصف مَن اجترأ على الإقدام عليه بالرجولة، وفي ذلك تأكيد لوصفه بالهيبة. وقوله: (**فَأَرْسَلُونِي فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ**) في قوله: (بين يديه) إشعار بالخضوع والتواضع للنبي ﷺ، ولا يظهر هذا المعنى لو قال: (فجلستُ أمامه). وقوله: (**قُلْتُ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ**) عدل عن قول: (وأنَّ محمَّدًا رسول الله) واستخدم ضمير المخاطَب زيادة في التعيين والتأكيد على أنَّ المشهود له بالرسالة هو الذي أمامه. وقوله: (**فَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ تَكْبِيرَةً سُمِعَتْ بِطُرُقِ مَكَّةَ**) مقتضى الظاهر أن يقول: (فكبروا تكبيرة) لكنه أظهر في موضع الإضمار لكمال العناية بهذا الوصف، وهو الإسلام. وقوله: (**وَكُنْتُ لا أَشَاءُ أَنْ أَرَى رَجُلًا إِذَا أَسْلَمَ يُضْرَبُ إِلا رَأَيْتُهُ**)، وقوله (أشاء) استخدم الفعل المضارع للدلالة على التجدُّد فمشيئته تتجدَّد بتجدُّد الداخلين في الإسلام، وقوله (رجلًا) نكرة في سياق النفي تفيد العموم، وقوله (رأيتُه) استخدم الفعل الماضي للدلالة على تحقُّق مراده ومشيئته. وقوله: (**مَا أُحِبُّ إِلا أَنْ يُصِيبَنِي مِمَّا يُصِيبُ الْمُسْلِمِينَ**) هذا القصر قصر ادِّعائي، أي أنَّه بعد إسلامه لم يكن يرغب في شيءٍ إلا أن يكون واحدًا مِن المسلمين يجري عليه ما يجري عليهم. وقوله: (**فَذَهَبْتُ إِلَى خَالِي، وَكَانَ شَرِيفًا فِيهِمْ، فَقَرَعْتُ عَلَيْهِ الْبَابَ**)، جملة (وكان شريفًا فيهم) اعتراضية للتنبيه على نفوذ قوله في قريش. وقوله: (**أَشَعَرْتَ أَنِّي قَدْ صَبَوْتُ؟**) عدل عن الخبر المجرَّد، فلم يقل: (إني قد صبوت)، وجاء بجملة إنشائيَّة استفهاميَّة للفت انتباه السامع؛ فيكون المعنى أكثر وقوعًا في نفسه. وقوله: (**فَخَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ رَجُلًا مِنْ عُظَمَاءِ قُرَيْشٍ**) نكَّر الرجُل واكتفى بذكر وصف

مِن أوصافه، لأنَّ الفائدة في ذكر أنَّه متَّصف بهذا الوصف. وقوله: (**فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي الحِجْرِ جِئْتُ إِلَى الرَّجُلِ فَدَنَوْتُ فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ: إِنِّي قَدْ صَبَوْتُ**) قوله: (إني قد صبوت) جاء بجملة خبرية مع هذا الرجُل بخلاف الرجُلَين السابقَين، فراعى حال المخاطَب في كلٍّ، فالأوَّلان أراد إخبارهما لذاتهما فجاء لهما بجملة استفهاميَّة لاستثارتهما، أمَّا هذا فإخبار عمر له ليس لذاته بل لينشر الخبر لغيره، فجاء له بجملة خبريَّة. وقوله: (**فَثَابَ إِلَيَّ النَّاسُ فَضَرَبُونِي وَضَرَبْتُهُمْ**) تقديم الجارّ والمجرور (إليَّ) على الفاعل (النَّاس) فيه تخصيص، أي: ثاب إليَّ الناس لا إلى غيري. وقوله: (**وَأَمْهَلْتُ حَتَّى إِذَا جَلَسَ فِي الحِجْرِ**) حذفَ مفعول (أمهلتُ) فلم يقل: (أمهلتُه) أو (أمهلتُ خالي) وذلك للعِلم به. وقوله: (**جِوَارُكَ عَلَيْكَ رَدٌّ**) قدَّم الجارَّ والمجرور (عليك) على متعلَّقه وهو الخبر (ردٌّ) للتخصيص. وقوله: (**قُلْتُ: بَلَى هُوَ ذَاكَ**) كان مِن الممكن الاكتفاء في تأكيده ردِّ الجوار بأن يقول: (بلى)، ولكنه زاد التأكيد بالجملة الاسمية (هو ذاك). وقوله: (**فَمَا زِلْتُ أَضْرِبُ وَأُضْرَبُ حَتَّى أَعَزَّ اللهُ الإِسْلامَ**) في قوله: (أَضرِبُ وأُضرَبُ) قدَّم الحديث عن نفسه، بخلاف قوله قبلُ: (فضربوني وضربتهم)، وذلك أنَّه في الموضع المتقدِّم كان متعطِّشًا إلى أن يصيبه ما يصيب المسلمين مِن الضرب والأذى فقدَّم الإخبار عن ضربهم له على ضربه لهم، أمَّا في هذا الموضوع فهو يخبر عن الحوادث التي تلت تلك الحادثة الأولى التي حصَّل فيها مراده، وهو الآن رجع إلى ما كان عليه مِن الشدَّة فلا يجرؤ أحد على أن يقدم على ضربه ابتداءً.

[٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ ﷺ
لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ إِسْلامِهِ

«يَا رَسُولَ اللهِ، لَا أَدَعُ مَجْلِسًا جَلَسْتُهُ فِي الْكُفْرِ إِلَّا أَعْلَنْتُ فِيهِ الْإِسْلَامَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المخاطب هو رسول الله ﷺ بعد أن أسلم عمر رضي الله عنه.

البيان والبلاغة: قدَّم جملة النداء (يا رسول الله) للفت انتباه رسول الله ﷺ وتنبيهه على أنَّه سيخصُّه بالكلام، ونكَّر (مجلسًا) في سياق النفي لتفيد العموم، وقدَّم الجارَّ والمجرورَ على المفعولِ به في قولِهِ: (أعلنتُ فيه الإسلام) للتنبيه. والقصر في هذا النَّص حقيقي تحقيقي، وبين كلمتي (الكفر) و(الإسلام) طباق.

١- رواهُ الطَّبرانيُّ في «المُعجَمِ الأوسطِ» (١٢٩٣).

[٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ ﷺ
فِي هِجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ

«اتَّعَدْتُ، لَمَّا أَرَدْنَا الْهِجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ[١] وَهِشَامُ بْنُ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ[٢] التَّنَاضِبَ مِنْ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ، فَوْقَ سَرِفَ، وَقُلْنَا: أَيُّنَا لَمْ يُصْبِحْ عِنْدَهَا فَقَدْ حُبِسَ، فَلْيَمْضِ صَاحِبَاهُ. قَالَ: فَأَصْبَحْتُ أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ عِنْدَ التَّنَاضِبِ، وَحُبِسَ عَنَّا هِشَامٌ، وَفُتِنَ فَافْتَتَنَ.

فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ نَزَلْنَا فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ، وَخَرَجَ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ إِلَى عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، وَكَانَ ابْنَ عَمِّهِمَا وَأَخَاهُمَا لِأُمِّهِمَا، حَتَّى قَدِمَا عَلَيْنَا الْمَدِينَةَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ، فَكَلَّمَاهُ وَقَالَا: إِنَّ أُمَّكَ قَدْ نَذَرَتْ أَنْ لَا يَمَسَّ رَأْسَهَا مُشْطٌ حَتَّى تَرَاكَ، وَلَا تَسْتَظِلَّ مِنْ شَمْسٍ حَتَّى تَرَاكَ، فَرَقَّ لَهَا، فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَيَّاشُ، إِنَّهُ - وَاللهِ - إِنْ يُرِيدُكَ الْقَوْمُ إِلَّا لِيَفْتِنُوكَ عَنْ دِينِكَ فَاحْذَرْهُمْ، فَوَاللهِ لَوْ قَدْ آذَى أُمَّكَ الْقَمْلُ لَامْتَشَطَتْ، وَلَوْ قَدِ اشْتَدَّ عَلَيْهَا حَرُّ مَكَّةَ لَاسْتَظَلَّتْ. قَالَ:

١- عيَّاشُ بنُ أبي ربيعةَ بنِ المغيرةِ المخزوميُّ، مِن المهاجرينَ الأوَّلينَ، ذو الهجرتين، وُلِد له بالحبشةِ ابنُه عبدُ الله، ثمَّ هاجرَ هو وعمرُ بنُ الخطَّابِ إلى المدينةِ، كان أخًا لأبي جهلِ بنِ هشام لأمِّه، خرج أبو جهلٍ، والحارثُ ابنا هشام إلى المدينةِ فتلطَّفا له، حتَّى رجعا به إلى مكَّة، فكانَ ممَّن يُعذَّبُ في الله معَ المستضعَفينَ الَّذين قنت فيهم النَّبيُّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - فقالَ: «اللَّهُمَّ أنجِ عيَّاشَ بنَ أبي ربيعةَ، والمُستضعَفينَ بمكَّةَ». «معرفة الصَّحابة» لأبي نُعيم ٤/ ٢٢٢٦.

٢- هشامُ بنُ العاصِ بنِ وائلِ السَّهميُّ. كان قديمَ الإسلامِ بمكَّةَ، وهاجرَ إلى أرضِ الحبشةِ في الهجرةِ الثَّانيةِ، ثمَّ قدِم مكَّةَ حين بلغه مهاجرُ النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - إلى المدينةِ يُريدُ اللّحاقَ به، فحبسهُ أبوه وقومُه بمكَّةَ حتَّى قدِم بعدَ الخندقِ على النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - المدينةَ، فشهِد ما بعدَ ذلك مِن المشاهدِ، وكانَ أصغرَ سِنًّا مِن أخيه عمرِو بنِ العاصِ، وليسَ له عقبٌ. «الطَّبقات الكُبرَى» ٤/ ١٩١.

فَقَالَ: أَبَرُّ قَسَمَ أُمِّي، وَلِي هُنَالِكَ مَالٌ فَآخُذُهُ. قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي لَمِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالًا، فَلَكَ نِصْفُ مَالِي وَلَا تَذْهَبْ مَعَهُمَا. قَالَ: فَأَبَى عَلَيَّ إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُمَا؛ فَلَمَّا أَبَى إِلَّا ذَلِكَ؛ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: أَمَا إِذْ قَدْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ، فَخُذْ نَاقَتِي هَذِهِ، فَإِنَّهَا نَاقَةٌ نَجِيبَةٌ ذَلُولٌ، فَالْزَمْ ظَهْرَهَا، فَإِنْ رَابَكَ مِنَ الْقَوْمِ رَيْبٌ، فَانْجُ عَلَيْهَا.

فَخَرَجَ عَلَيْهَا مَعَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: يَا ابْنَ أَخِي، وَاللهِ لَقَدِ اسْتَغْلَظْتُ بَعِيرِي هَذَا، أَفَلَا تُعْقِبُنِي عَلَى نَاقَتِكَ هَذِهِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَأَنَاخَ، وَأَنَاخَا لِيَتَحَوَّلَ عَلَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَوْا بِالْأَرْضِ عَدَوَا عَلَيْهِ، فَأَوْثَقَاهُ وَرَبَطَاهُ ثُمَّ دَخَلَا بِهِ مَكَّةَ، وَفَتَنَاهُ فَافْتَتَنَ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (اتَّعدتُّ) بوزن (افتعلتُ) مِن (وعد)، أي: تواعدتُ. و(التَّنَاضِبَ مِنْ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ) موضعٌ قريبٌ من مكَّةَ فوقَ سَرِفَ.

مقتضى الحال: يحدِّث عمر رضي الله عنه أصحابه عن قصَّة هجرته إلى المدينة.

لطائف لغوية: في قوله: **(اتّعَدْتُّ، لَمَّا أَرَدْنَا الْهِجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، أَنَا وعَيَّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص)** عطف الاسم الظاهر (عيَّاش) على ضمير الرفع المتَّصل في (اتَّعدتُّ)، لذا أكَّد الضمير المتصل بالضمير المنفصل (أنا)، والتوكيد بالضمير المنفصل هنا جائز لا واجب؛ لأنه فصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالجملة الاعتراضية. أمَّا في قوله: **(فَأَصْبَحْتُ أَنَا وَعَيَّاشُ)** فالتوكيد واجب لعدم الفصل.

١- رواهُ ابنُ إسحاقَ كما في «السِّيرةِ النَّبويَّةِ» لابنِ هشام ١/ ٤٧٤، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقات الكُبرى» ٣/ ٢٧١، والبزَّارُ في «البحرِ الزَّخَّارِ» (١٥٥)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٦٦٣، والنَّجَّادُ في «مُسنَدِ عُمرَ بنِ الخطَّابِ» ص٩٦، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٧٧٥٦)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٧/ ٢٤٢ و٧٤/ ١٧.

وفي قوله: (**وفُتن فافتتن**) كلمة (افتتن) جاءت على صيغة (افتعل) لإفادة معنى المطاوعة، أي مطاوعة الفاعل للفعل وقبوله له.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَمَّا أَرَدْنَا الْهِجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ**) هذه الجملة اعتراضيَّة لبيان وقت الحدث، وفي قوله: (أردنا) إضمار قبل الإظهار لتشويق السامع وجلب انتباهه. وقوله: (**وحُبسَ عنَّا هشامٌ، وفُتن فافتتن**) بنى الفعلين (حُبِس) و(فُتِن) لما لم يسمَّ فاعله للعلم بالفاعل وكراهة ذكره؛ إذ الفاعل كفار قريش. ثم أتى بجملة اعتراضية توضِّح الدافع لخروج أبي جهل والحارث إلى عيَّاش فقال: (**وَكَانَ ابْنَ عَمِّهِمَا وَأَخَاهُمَا لِأُمِّهِما**)، وقوله: (**يَا عَيَّاشُ، إِنَّهُ - وَاَللهِ - إِنْ يُرِيدُكَ الْقَوْمُ إِلَّا لِيَفْتِنُوكَ عَنْ دِينِكَ فاحذرْهم، فَوَاَللهِ لَوْ قَدْ آذَى أُمَّكَ القملُ لَامْتَشَطَتْ، وَلَوْ قَدْ اشْتَدَّ عَلَيْهَا حرُّ مَكَّةَ لَاسْتَظَلَّتْ**) قدَّم كلامه لعيَّاش بجملة النداء (يا عيَّاش) للتحبُّب وإبداء الشفقة، ثمَّ أكَّد له الكلام بـ(إنَّ) والقسم لما وجده متردِّدًا بين البقاء والذهاب مع أبي جهل والحارث، والضمير في (إنَّه) ضمير الشأن، فهو إضمار قبل الإظهار. و(أل) في (القوم) للعهد الذهني ويقصد بالقوم قريشًا أو أبا جهل والحارث. والقصر في جملة (إن يريدُك القومُ إلا ليفتنوك) حقيقي تحقيقي. وبين (امتشطت) و(استظلَّت) سجع جاء عفو الخاطر. وأما قوله: (**فَقُلْتُ: وَاللهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي لَمِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالًا، فَلَكَ نِصْفُ مَالِي وَلَا تَذْهَبْ مَعَهُما**) لما لم يستجب له عيَّاش في المرَّة الأولى حاول معه مرَّة أخرى مؤكِّدًا له الكلام بخمس مؤكِّدات، بالقسم، و(إنَّ)، واللام في (لَتعلم)، و(أنَّ)، واللام في (لَمِن). وقوله: (فلك نصف مالي ولا تذهب معهما) كان الأصل أن يقول: (فلا تذهب معهما ولك نصف مالي)؛ لأن إعطاءه نصف المال جزاء لعدم ذهابه، والأصل في الجزاء أن يتأخَّر عن الفعل المقتضي له كالشَّرط

وجوابه، إلا أَنَّه قدَّم الجزاء هنا للترغيب به وتحفيز عيَّاش على عدم الذهاب، وقوله: (**فَأَبَى عَلَيَّ إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُما**) القصر هنا ادِّعائي؛ أي: أبى كل شيء إلا أن يذهب معهما. وقوله: (**قُلْتُ لَهُ: أَمَا إِذْ قَدْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ، فَخُذْ نَاقَتِي هَذِهِ؛ فَإِنَّهَا نَاقَةٌ نَجِيبَةٌ ذَلُولٌ، فَالْزَمْ ظهرَها، فَإِنْ رَابَكَ مِنْ الْقَوْمِ ريْب، فانجُ عَلَيْهَا**) قوله: (فعلت ما فعلت) أبهم الفعل ولم يصرِّح به للتهويل منه. وقوله: (ناقتي هذه) اسم الإشارة فيه زيادة تعيين للناقة وإشادة بها. وقوله: (ريب) نكرة في سياق الشرط للعموم. وبين (ظهرها) و(عليها) سجع غير مقصود. وقوله: (**لَمَّا استَوَوْا بِالْأَرْضِ عدَوَا عَلَيْهِ**) في قوله: (استووا بالأرض) عدَّى الاستواء بالباء التي تفيد معنى الإلصاق، أي نزلوا على الأرض، وانخفضوا كالملتصقين بها، ففي الكلام مبالغة، وفي ذلك إشارة إلى إضمارهم نيَّة الانقضاض والعدو عليه. وقوله: (**فَأَوْثَقَاهُ وَرَبَطَاهُ ثُمَّ دَخَلَا بِهِ مَكَّةَ**) في الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير: (وربطاه وسارا به حتى دخلا به مكَّة). ثم ختم حديثه عن عيَّاش بما ختم به حديثه عن هشام بن العاص في قوله: (**وفُتن فافتتن**)، إلا أنّه في حديثه عن عيَّاش بنى الفعل (فتَنَاه) للفاعل فقال: (**وَفَتَنَاهُ فَافْتَتَنَ**) ، فهو نوع من التكرار، وغرضه الإشارة إلى أنَّهما لقيا المصير نفسه.

[٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي أَمْرِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

«إِنِّي كُنْتُ وَجَارٌ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ مِنْ خَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْأَمْرِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَهُ، وَكُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى الْأَنْصَارِ إِذَا هُمْ قَوْمٌ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَأْخُذْنَ مِنْ أَدَبِ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ، فَصِحْتُ عَلَى امْرَأَتِي، فَرَاجَعَتْنِي، فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي، فَقَالَتْ: وَلِمَ تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ، فَوَاللهِ إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ لَيُرَاجِعْنَهُ، وَإِنَّ إِحْدَاهُنَّ لَتَهْجُرُهُ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ، فَأَفْزَعَنِي، فَقُلْتُ: خَابَتْ مَنْ فَعَلَ مِنْهُنَّ بِعَظِيمٍ، ثُمَّ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: أَيْ حَفْصَةُ أَتُغَاضِبُ إِحْدَاكُنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: خَابَتْ وَخَسِرَتْ؛ أَفَتَأْمَنُ أَنْ يَغْضَبَ اللهُ لِغَضَبِ رَسُولِهِ ﷺ، فَتَهْلِكِينَ؟! لَا تَسْتَكْثِرِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا تُرَاجِعِيهِ فِي شَيْءٍ، وَلَا تَهْجُرِيهِ، وَاسْأَلِينِي مَا بَدَا لَكِ، وَلَا يَغُرَّنَّكِ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكِ هِيَ أَوْضَأَ مِنْكِ، وَأَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، يُرِيدُ عَائِشَةَ.

وَكُنَّا تَحَدَّثْنَا أَنَّ غَسَّانَ تُنْعِلُ النِّعَالَ لِغَزْوِنَا، فَنَزَلَ صَاحِبِي يَوْمَ نَوْبَتِهِ فَرَجَعَ عِشَاءً، فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا، وَقَالَ: أَنَائِمٌ هُوَ، فَفَزِعْتُ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ، وَقَالَ: حَدَثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ أَجَاءَتْ غَسَّانُ؟ قَالَ: لَا، بَلْ أَعْظَمُ مِنْهُ وَأَطْوَلُ، طَلَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ، قَالَ: قَدْ خَابَتْ حَفْصَةُ وَخَسِرَتْ،

كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هَذَا يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ، فَجَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي، فَصَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَدَخَلَ مَشْرُبَةً لَهُ، فَاعْتَزَلَ فِيهَا، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَإِذَا هِيَ تَبْكِي، قُلْتُ: مَا يُبْكِيكِ؟! أَوَلَمْ أَكُنْ حَذَّرْتُكِ؟! أَطَلَّقَكُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟!، قَالَتْ: لَا أَدْرِي هُوَ ذَا فِي الْمَشْرُبَةِ، فَخَرَجْتُ، فَجِئْتُ الْمِنْبَرَ، فَإِذَا حَوْلَهُ رَهْطٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ، فَجَلَسْتُ مَعَهُمْ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ، فَجِئْتُ الْمَشْرُبَةَ الَّتِي هُوَ فِيهَا، فَقُلْتُ لِغُلَامٍ لَهُ أَسْوَدَ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ، فَدَخَلَ، فَكَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ: ذَكَرْتُكَ لَهُ، فَصَمَتَ، فَانْصَرَفْتُ، حَتَّى جَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ الْمِنْبَرِ، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ، فَجِئْتُ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَجَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ الْمِنْبَرِ، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ، فَجِئْتُ الْغُلَامَ، فَقُلْتُ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مُنْصَرِفًا، فَإِذَا الْغُلَامُ يَدْعُونِي، قَالَ: أَذِنَ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالِ حَصِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ، قَدْ أَثَّرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ، مُتَّكِئٌ عَلَى وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قُلْتُ، وَأَنَا قَائِمٌ: طَلَّقْتَ نِسَاءَكَ، فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَيَّ، فَقَالَ: «لَا». ثُمَّ قُلْتُ، وَأَنَا قَائِمٌ: أَسْتَأْنِسُ، يَا رَسُولَ اللهِ؟ لَوْ رَأَيْتَنِي وَكُنَّا - مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى قَوْمٍ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَذَكَرَهُ فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ قُلْتُ: لَوْ رَأَيْتَنِي، وَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: لَا يَغُرَّنَّكِ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكِ هِيَ أَوْضَأَ مِنْكِ، وَأَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، يُرِيدُ عَائِشَةَ، فَتَبَسَّمَ أُخْرَى، فَجَلَسْتُ حِينَ رَأَيْتُهُ تَبَسَّمَ، ثُمَّ رَفَعْتُ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ فِيهِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ غَيْرَ أَهَبَةٍ ثَلَاثَةٍ، فَقُلْتُ: ادْعُ اللهَ فَلْيُوَسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ، فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ، وَأُعْطُوا الدُّنْيَا وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللهَ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: «**أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا**

ابْنَ الْخَطَّابِ؟! أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَغْفِرْ لِي.

فَاعْتَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ حِينَ أَفْشَتْهُ حَفْصَةُ إِلَى عَائِشَةَ، وَكَانَ قَدْ قَالَ: «مَا أَنَا بِدَاخِلٍ عَلَيْهِنَّ شَهْرًا» مِنْ شِدَّةِ مَوْجِدَتِهِ عَلَيْهِنَّ حِينَ عَاتَبَهُ اللهُ، فَلَمَّا مَضَتْ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ، دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَبَدَأَ بِهَا، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: إِنَّكَ أَقْسَمْتَ أَنْ لَا تَدْخُلَ عَلَيْنَا شَهْرًا، وَإِنَّا أَصْبَحْنَا لِتِسْعٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً أَعُدُّهَا عَدًّا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ»، وَكَانَ ذَلِكَ الشَّهْرُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**المَشْرُبة**): غرفة صغيرة. (**الأَهَبَة**): جمع إهاب، وهو الجلد الذي لم يدبغ.

مقتضى الحال: يخبر عمر رضي الله عنه عن حادثة شيوع أنَّ النبي ﷺ طلَّق نساءه.

لطائف لغوية: قوله: (**إِنِّي كُنْتُ وَجَارٌ لِي مِنَ الأَنْصَارِ**) عطف الاسم الظاهر (جار) على ضمير رفع وهو التاء في (كنتُ) من غير توكيد الضمير المتصل بالضمير المنفصل، وهذا منعه البصريون في سعة الكلام وأجازه الكوفيُّون[2]، ومثل ذلك ما رواه البخاري عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه قال لعمر: «كثيرًا ما كنتُ أسمعُ رسولَ الله ﷺ يقولُ:

١- رواه البخاريُّ في «صحيحِه» (٢٤٦٨)، ومسلمٌ في «صحيحِه» (١٤٧٩)، والتِّرمذيُّ في «السُّنَنِ» (٣٣١٨)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (٢٢٢)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٤١٨٧) و(٤٢٦٨).

٢- يُنظر: شرح التسهيل لابن مالك (٣/ ٣٧٤).

(كُنْتُ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَفَعَلْتُ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَانْطَلَقْتُ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ)»[١].

البيان والبلاغة: قوله: **(إِنِّي كُنْتُ وَجَارٌ لِي مِنَ الأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهِيَ مِنْ عَوَالِي المَدِينَةِ، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ مِنْ خَبَرِ ذَلِكَ اليَوْمِ مِنَ الأَمْرِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَهُ)**.

جملة (وهي من عوال المدينة) اعتراضية للتوضيح. وفي قوله: (وكنَّا نتناوب) أعاد كلمة (كنَّا) مع أنَّه ابتدأ الكلام بقوله: (كنت وجار لي)، فهذا تكرير لطول الفاصل للتنبيه. وفي قوله: **(وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا)** جمع مع التقسيم؛ إذ جمع بينه وبين جاره في حكم تناوب النزول على رسول الله – ﷺ – ، ثم قسَّم فبيَّن أنَّه ينزل في يوم، وجاره ينزل في اليوم التالي، وتنكير اليوم في **(فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا)** يفيد عدم التعيين، فليس لواحد منهما يوم بعينه يشهد فيه النبي ﷺ وإنما يتناوبان يومًا بعد يوم، وفي قوله: **(فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ مِنْ خَبَرِ ذَلِكَ اليَوْمِ مِنَ الأَمْرِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَهُ)** لفٌّ ونشر غير مرتَّب، إذ ذكر أولًا نزول جاره ثم نزوله، ولما فصَّل ذكر ما يترتَّب على نزوله ثم ما يترتَّب على نزول جاره. وفي قوله: **(وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَهُ)** إيجاز قِصَر؛ إذ لم يقل: (وإذا نزل جاءني من خبر ذلك اليوم من الأمر وغيره).

وقوله: **(وَكُنَّا – مَعْشَرَ قُرَيْشٍ – نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى الأَنْصَارِ إِذَا هُمْ قَوْمٌ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ)** فقوله: (معشر قريش) منصوب على الاختصاص، والتقدير: (أخصُّ معشر قريش)، فهذه جملة اعتراضية تفيد تقرير تعلُّق الحكم بمعشر قريش في نفس السامع، و(أل) في (النساء) لبيان حقيقة الجنس فتفيد العموم. واستعمال

١- صحيح البخاري، (ح٣٦٧٧).

(إذا) الفجائية في قوله: (فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم) تشعر بأن المهاجرين من قريش فوجئوا لما رأوا حال الأنصار من تغلُّب نسائهم عليهم، وقوله: (قوم تغلبهم نساؤهم) عبَّر عن الأنصار بكلمة (قوم) وهي نكرة تحتاج إلى ما يخصِّصها، فخصَّصاها بجملة (تغلبهم نساؤهم)، كأنَّه لما فوجئ بالأنصار تغلبهم نساؤهم لم يظهر له منهم إلا أنَّهم قوم يتَّصفون بتغلُّبِ نسائهم عليهم. وقوله: (تغلبهم نساؤهم) عرَّف النساء بالإضافة إلى الضمير لا بـ(أل) الجنسية كما قال قبلُ في حديثه عن معشر قريش، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ سبب تغلُّب نساء الأنصار على رجالها راجع إلى أمر يتعلَّق بنساء الأنصار على وجه الخصوص لا إلى شيء يتعلَّق بجنس النساء بعامَّة. وقوله: (**فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَأْخُذْنَ مِنْ أَدَبِ نِسَاءِ الأَنْصَارِ**) (طفق) تفيد البدء بحصول الشيء بعد أن لم يكن، أي أن نساء مهاجري قريش صرن يأتسين بنساء الأنصار في التجرُّؤ على مراجعة أزواجِهنَّ بعد أن لم يكن ذلك من عادتهم، وفي قوله (من أدب نساء الأنصار) يقصد معاملة نساء الأنصار لأزواجهنَّ، فهو عموم يراد به الخصوص.

وأما قوله: (**فَأَفْزَعَنِي**) حذف الفاعل لدلالة السياق عليه، والتقدير: (فأفزعني كلامها)، وجاء في بعض روايات البخاري: (فأفزعتني) بذكر الفاعل. وقوله: (**فَقُلْتُ: خَابَتْ مَنْ فَعَلَ مِنْهُنَّ بِعَظِيمٍ**) قوله: (فَعَلَ) ذكَّر الفعل مراعاة للفظ (مَن)، وجاء في بعض روايات البخاري: (مَن فعلت) بتأنيث الفعل، ومفعول (فعل) محذوف لاستعظامه، أي: (مَن فعل منهن ذلك مِن مراجعة رسول الله ﷺ)، وقوله: (بعظيم) الباء للسببية وهي متعلقة بـ(خابت)؛ أي خابت بسبب أمر عظيم، وفي بعض روايات البخاري: (جاءت) بدل (خابت) فتكون الباء للتعدية،

و(عظيم) مفعول (جاءت) وعليه فالمفعول غير محذوف. وقوله (عظيم) وصف، والموصوف محذوف وهو غضب الله لغضب رسوله، فاستغنى بذكر الوصف عن ذكر الموصوف لاستعظام ذكره. وقوله: **(ثُمَّ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي)** أي لفزعه لِبس ثيابه كيما اتَّفق من غير تأنٍّ، وهذا المعنى لا يظهر لو قال: (ثم لبست ثيابي).

وقوله: **(فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: أَيْ حَفْصَةُ أَتُغَاضِبُ إِحْدَاكُنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ؟)** الفاء في (فدخلت) فصيحة تدل على محذوف، والتقدير: (ثمَّ خرجتُ فأتيتُ بيتَ حفصةَ فدخلتُ عليها). وقوله: (أي حفصةُ) استخدم أداة النداء (أي) للتحبُّب. وقوله: (أتُغاضِب) الاستفهام إنكاري، وجاء الفعل (تُغاضب) على صيغة: (تُفاعل) لإفادة معنى المشاركة، أي تفعل ما يُغضب النبيَّ ﷺ فيُغضِبُها، فيكون الإغضاب من الطرفين. وقوله: (اليومَ حتى الليلِ) (أل) في (اليوم) لبيان الحقيقة من غير تعيين لفرد من أفرادها، أما في (الليل) فهي للعهد الذهني لتعيين ليل ذلك اليوم. ثم ظهر ما يدل على دقَّة تخيُّر عمر رضي الله عنه لكلامه في قوله: **(فَقُلْتُ: خَابَتْ وَخَسِرَتْ أَفَتَأْمَنُ أَنْ يَغْضَبَ اللهُ لِغَضَبِ رَسُولِهِ ﷺ، فَتَهْلِكِينَ)** أصل الكلام أن يقول: (خبتِ وخسرتِ، أفتأمنين ...) بدليل قوله: (فتهلكين)، لكنه عدل عن إسناد الفعل للمخاطب، وهي ابنته، وأسنده للغائب صونًا للفاعل، ولم يعدل عن إسناده للمخاطب في (فتهلكين) ليكون أبلغ في التحذير. ومن حكمته أنه بدأ في النهي عن الأخف عاقبةً ليكون أدعى للاستجابة فقال: **(لاَ تَسْتَكْثِرِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلاَ تُرَاجِعِيهِ فِي شَيْءٍ، وَلاَ تَهْجُرِيهِ)** فنهاها عن الاستكثار على رسول الله ﷺ ثم عن مراجعته ثم عن هجره. وقوله: **(وَلاَ يَغُرَّنَّكِ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكِ هِيَ أَوْضَأَ مِنْكِ، وَأَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ)** لم يذكر عائشة رضي الله عنها باسمها صونًا لها، وأتى

بضمير الفصل في قوله (هي أوضأ منك) للتوكيد.

وقوله: (**قَدْ خَابَتْ حَفْصَةُ وَخَسِرَتْ**) أسند الفعلين لابنته حفصة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لما وقع في ظنِّه أنَّ ما حذَّرها منه قد وقع، فلا فائدة حينها من العدول عن إسناد الفعلين إليها. وقوله: (**فَصَلَّيْتُ صَلاةَ الفَجْرِ مَعَ النَّبِيِّ** - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -) الفاء في (فصليتُ) فصيحة تدلُّ على محذوف، والتقدير: (فخرجتُ حتى أتيتُ المسجد فصليت مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). وقوله: (**فَدَخَلَ مَشْرُبَةً لَهُ، فَاعْتَزَلَ فِيهَا**) حذف مفعول (اعتزل) وأجراه مجرى الفعل اللازم لئلا يقيِّد الفعل به، فلم يقل: (اعتزل نساءه) أو (اعتزل الناس)، إذ لم يكن وقتها يعرف سبب اعتزال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقوله: (**قُلْتُ: مَا يُبْكِيكِ؟! أَوَلَمْ أَكُنْ حَذَّرْتُكِ؟! أَطَلَّقَكُنَّ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!) الاستفهام الأول (ما يبكيك) للتعجُّب، والثاني (أولم أكن حذَّرتك) للتوبيخ، والثالث (أطلقكنَّ رسول الله) للتقرير.

وأمَّا قوله: (**ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ**) فقد أبهم الفاعل فيه لتذهب نفس السامع في تعيينه كلَّ مذهب. وقوله: (**فَجِئْتُ المَشْرُبَةَ الَّتِي هُوَ فِيهَا**) وصف المشربة بالاسم الموصول لزيادة تقرير أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معتزل فيها، وعبَّر عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلة الموصول بضمير الغائب (هو) إشارة إلى غيابه واعتزاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقوله: (**فَقُلْتُ لِغُلَامٍ لَهُ أَسْوَدَ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ**) في قوله للغلام: (استأذن لعمر) صرَّح بذكر اسمه وعدل عن ضمير المتكلِّم فلم يقل له: (استأذن لي) ليؤكِّد للغلام ذكر اسمه عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلمه بمكانته عنده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيأذن له. وقوله: (**فَانْصَرَفْتُ، حَتَّى جَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ المِنْبَرِ**) كان بإمكانه الاكتفاء بـ(أل) العهدية في تعيين (الرهط) لأنَّه قد سبق ذكرهم، إلا أنَّه زاد فوصفهم بـ(الذين عند المنبر) ليذكِّر بحالهم وما كانوا عليه من البكاء مشيرًا إلى أنَّه أصابه من الحزن ما أصابهم بعد أن لم يأذن له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدخول

عليه. ثم استخدم نوعين من الإيجاز إيجاز حذف وإيجاز قِصَر في قوله: (**ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ، فَجِئْتُ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ**) فإيجاز الحذف في قوله: (فجئتُ)، والتقدير: (فجئتُ الغلام مرة أخرى، فقلتُ له: استأذن لعمر)، وإيجاز القصر في قوله: (فذكر مثله)، والتقدير: (فقال الغلام: ذكرتُك له، فصمتَ). وقوله: (**فَجَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ المِنْبَرِ**) أعاد ذكر الرهط بوصفهم بـ(الذين عند المنبر) ليشير إلى تجدُّد الحزن الذي أصابه أولًا بعد أن لم يأذن له النبي ﷺ ثانيًا. وقوله: (**فَجِئْتُ الغُلَامَ فَقُلْتُ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ**) في هذه المرة ترك إيجاز الحذف منبِّهًا إلى أنَّه أعاد للغلام الصيغة نفسها التي ذكرها في المرة الأولى من قوله: (استأذن لعمر)، ولم يذكر للغلام صيغة أخرى للاستئذان، وسبب التنبيه هنا أن النبي ﷺ أذن له كما سيذكر بعدُ، فأراد عمر أن يبيِّن أنَّ امتناع النبي ﷺ من الإذن له في المرة الأولى والثانية ليس لعلمه أنَّ عمر بالباب، وإنما لأمر آخر شغله، وإلا فمنزلة عمر رضي الله عنه عند النبي ﷺ لم تتغيَّر. ثم أطنب عمر رضي الله عنه في وصف الحال التي وجد عليها النبي ﷺ خلافًا لطبعه في إيجاز الكلام، وذلك ليبيِّن لمن يذكر له هذه الحادثة مدى تواضع النبي ﷺ، وليوضِّح سبب حواره مع النبي ﷺ في هذا الأمر مع أنَّه جاء من أجل الاستفسار عن الأمر الأول، وهو أطلَّق نساءه أم لا؟!، فقال: (**فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالِ حَصِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ، قَدْ أَثَّرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ، مُتَّكِئٌ عَلَى وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ**). وقوله: (**ثُمَّ قُلْتُ، وَأَنَا قَائِمٌ: طَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟**) جملة (وأنا قائم) جملة حالية ذكرها ليشير إلى شدَّة تلهُّفه لمعرفة صحَّة خبر طلاق النبي ﷺ لنسائه، إذ بيَّن بهذه الجملة أنَّه سأل فور دخوله قبل أن يجلس. وقوله: (**ثُمَّ قُلْتُ، وَأَنَا قَائِمٌ: أَسْتَأْنِسُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ لَوْ رَأَيْتَنِي وَكُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى قَوْمٍ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَذَكَرَهُ**) جملة (أستأنس) استفهامية محذوفة أداة الاستفهام.

وقوله: (لو رأيتني) (لو) للتمني، أي تمنَّيت - يا رسول الله - أن ترى حالي حين صِحتُ على امرأتي فراجعتني بعد أن لم تكن تفعله، وذلك بعد أن خالطت نساء الأنصار. وفي الكلام حذف من الراوي عن عمر ﵁، أشار إليه بقول: (فذكره)، والتقدير: (لو رأيتني وكنَّا معشرَ قريش نغلبُ النساءَ، فلما قدمنا على قوم تغلبهم نساؤهم، طفق نساؤنا يأخذن من أدب نسائهم، فصحت على امرأتي، فراجعتني، فأنكرتُ أن تراجعني، فقالت: ولِمَ تُنكر أن أراجعك؛ فوالله، إنَّ أزواج النبي ﷺ ليراجعنه).

وقوله: (**ثُمَّ رَفَعْتُ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ فِيهِ شَيْئًا يَرُدُّ البَصَرَ غَيْرَ أَهَبَةٍ ثَلَاثَةٍ**) قوله: (فوالله) أكَّد كلامه بالقسم لأنَّ ما سيقوله واصفًا به بيت النبي ﷺ بخلاف ما يليق به. وقوله: (شيئًا) نكرة في سياق النفي تفيد العموم، وقيَّد هذه النكرة بأنَّها (تردُّ البصر) أي تردُّ بصر من يبحث عن شيء يليق بجنابه ﷺ. وقوله: (**فَقُلْتُ: ادْعُ اللهَ فَلْيُوَسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ**) فيه حذف، والتقدير: (ادع الله يوسِّع على أمَّتك، فلْيوسِّع على أمَّتك) فجملة (فلْيوسعْ على أمَّتك) معطوفة على جواب الطلب المحذوف تفيد توكيده. وقوله: (**فَاعْتَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الحَدِيثِ حِينَ أَفْشَتْهُ حَفْصَةُ إِلَى عَائِشَةَ**) هذا بيان من عمر ﵁ لسبب اعتزال النبي ﷺ نساءه، وقوله: (ذلك الحديث) استخدم اسم الإشارة لاستحضار تلك الحادثة في الذهن، وهي التي جاء ذكرُها في فاتحة سورة التحريم.

[٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي مُوَافَقَاتِهِ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ

«وَافَقْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي ثَلَاثٍ، أَوْ وَافَقَنِي رَبِّي فِي ثَلَاثٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوِ اتَّخَذْتَ الْمَقَامَ مُصَلًّى، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وَقُلْتُ: لَوْ حَجَبْتَ عَنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ، وَبَلَغَنِي عَنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ شَيْءٌ فَاسْتَقْرَيْتُهُنَّ أَقُولُ لَهُنَّ: لَتَكُفُّنَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوْ لَيُبْدِلَنَّهُ اللهُ بِكُنَّ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ، حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَتْ: يَا عُمَرُ، أَمَا فِي رَسُولِ اللهِ مَا يَعِظُ نِسَاءَهُ، حَتَّى تَعِظَهُنَّ أَنْتَ؟ فَكَفَفْتُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التَّحريم: ٥]»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخبر عمر رضي الله عنه عن أمور تحدَّث بها فنزل القرآن يوافقه فيها.

١- رواه البخاريُّ في «صحيحِه» (٤٠٢) و(٤٤٨٣)، ومسلمٌ في «صحيحِه» (٢٣٩٩) مُختصَرًا، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (١٦٠) واللَّفظُ له، والدَّارميُّ في «السُّنَنِ» (١٨٩١)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٦٨٩٦).

البيان والبلاغة: قوله: (**وَافَقْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي ثَلَاثٍ، أَوْ وَافَقَنِي رَبِّي فِي ثَلَاثٍ**) جاء بـ(أو) للشك منه أهو مَن وافق ربَّه أم أنَّ ربَّه وافقه، وقدَّم القول بأنَّه هو من وافق ربَّه تأدُّبًا مع الله، وإلا فالله تعالى أنزل في كتابه ما يوافق قولَ عمر. وقوله: (ثلاث) في الموضعين حذف المعدود لدلالة السياق عليه. وقوله: (**لَوِ اتَّخَذْتَ الْمَقَامَ مُصَلى**) جاء طلبه بـ(لو) التي للتمنِّي تأدُّبًا مع النبي ﷺ حتى لا يفهم أن طلبه على وجه الأمر له. وقوله: (المقام) (أل) للعهد الذهني. وقوله: (**لَوْ حَجَبْتَ عَنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ**) جاء بـ(لو) في طلبه تأدُّبًا كما سبق. وقوله: (حجبتَ) حذف المفعول لئلَّا يتقيَّد به الفعل، فلم يقل: (لو حجبتَ الناس) أو (الرجال). وقوله: (فإنَّه يدخل عليك البرُّ والفاجر) بيَّن علة طلبه حجبَ أمَّهات المؤمنين، ولم يقتصر على ذكر الطلب لخصوصية هذا الأمر، وقوله: (عليك) من أدبه مع أمهات المؤمنين؛ إذ لم يقل: (يدخل عليهنَّ). وقوله: (البرُّ والفاجر) قدَّم (البرَّ) على (الفاجر) للعناية والإشارة إلى أنَّه حال أغلب مَن يدخل على بيوت النبي ﷺ. وقوله: (**وَبَلَغَنِي عَنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ شَيْءٌ**) لم يسمِّ هذا الشيء صونًا لجناب أمهات المؤمنين، وتنكير (شيء) لتقليله. وقوله: (**حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ**) لم يسمِّها احترامًا لها. وقوله: (**فَكَفَفْتُ**) أوجز الكلام إشارة منه إلى ترك جدالها.

[٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِرَسُولِ الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ –، وَقَدْ ذَكَرَ لَهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ رَأَى فِي الْجَنَّةِ قَصْرًا لَهُ وَصَرَفَهُ عَنْ دُخُولِهِ مَا عَلِمَهُ مِنْ غَيْرَتِهِ «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، أَوَعَلَيْكَ أَغَارُ؟!»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المخاطب هو رسول الله ﷺ أعفّ الناس وأطهرهم، وجَّه إليه عمر رضي الله عنه هذا الكلام بعد أن ذكر له أنَّه رأى في المنام قصره في الجنَّة ورأى بجانبه جارية تتوضَّأ فتذكَّر غَيرة عمر رضي الله عنه فولَّى مدبرًا.

لطائف لغوية: الجارُّ والمجرور (بأبي) متعلِّق بخبر محذوف تقديره: (مفديٌّ)، أي: أنت مفديٌّ بأبي وأمِّي.

البيان والبلاغة: مثل هذه المواقف يعجز فيها اللسان عن الكلام، فلم يجد عمر إلا أن قدَّم بين يدي كلامه فداءه للنبي ﷺ بأقرب الناس إليه وهم والداه فقال له: (بأبي أنت وأمي) مشعرًا بأنَّه أحبُّ الناس إليه، ثم أكَّد له أنَّ الكلام موجَّه إليه لا إلى غيره فأردف جملة النداء وقال: (يا رسول الله)، ثم جاء ردُّه على فعل النبي بهذه الكلمات والعَبرة تكاد تخنقه: (أوَ عليك أغار؟) افتتحها باستفهام يفيد

١- رواه البخاريُّ في «صحيحِه» (٣٦٧٩)، ومسلمٌ في «صحيحِه» (٢٣٩٤)، والتِّرمذيُّ في «السُّنَن» (٣٦٨٨)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (١٥٠٠٢) و(١٥١٨٩)، وابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (٢٩٠٤)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٥٤).

التعجُّب والنَّفي، وفي الكلام حذف، والتقدير: (أوَ عليك أغار عليها؟) أي: (أوَ على فعلك أغار عليها)، وتقديم الجارّ والمجرور (عليك) لكمال العناية، أما حذف الجار والمجرور (عليها) فلئلا يقيِّد الفعل به، مشيرًا بذلك إلى أنَّه لا يغار من فعل رسول الله ﷺ مهما فعل، رضي الله عنه وأرضاه.

[٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

«مَهْلًا يَا عَبَّاسُ، فَوَاللهِ لَإِسْلَامُكَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ، وَمَا بِي إِلَّا أَنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ إِسْلَامَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المخاطَب هو العبَّاس بن عبد المطَّلب أمام رسول الله ﷺ، حين أجار العبَّاس أبا سفيان قُبيلَ فتح مكَّة فأراد عمر ضرب عنقه، فقال له العبَّاس: «مهلًا يا عمرُ!، أما والله لو كان من رجال بني عديٍّ بن كعب ما قلت هذا، ولكنَّك عرفت أنَّه رجل من رجال بني عبد مناف»[٢].

البيان والبلاغة: بدأ كلامه مع العبَّاس بقوله: (مهلًا يا عباس) لينبِّهه إلى أنَّه تسرَّع في الحكم عليه حين قال: «أما والله لو كان مِن رجال بني عديٍّ بن كعب ما قلتَ هذا»، ثم قلب هذه التهمة، فقال: (**فوالله لَإِسْلَامُكَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ كَانَ أَحَبَّ**

١- رواهُ ابنُ إسحاقَ في «السِّيرةِ النَّبويَّةِ» لابنِ هشام ٢/ ٤٠٣، والطَّحاويُّ في «شرحِ معاني الآثارِ» (٥٤٥٠)، والطَّبرانيُّ في «المُعجَمِ الكبيرِ» (٧٢٦٤)، والضِّياءُ المقدسيُّ في «الأحاديثِ المختارة» (١٤٤)، والبيهقيُّ في «دلائلِ النُّبوَّةِ» ٥/ ٣٤، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢٣/ ٤٤٩.

٢- هذا سببُ ورود الأثرِ، فراجعه في ذات المصادر.

إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ) وأكَّد له الكلام بالقَسم واللام لأَنَّه كان يعتقد خلاف ذلك، وعلَّل له ذلك الادِّعاء ليزيد تقريره في نفسه فقال: (**وَمَا بِي إِلَّا أَنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ إِسْلَامَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ**)، والقصر في هذه العبارة قصر حقيقي تحقيقي؛ أي: ما حملني على حبِّ إسلامك أكثر مِن حبِّ إسلام والدِي لو أسلم إلا أنَّ إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطَّاب لو أسلم.

[٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

عَنْ عَطَاءِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لِمَنْ سَأَلَهُ بِفُحْشٍ وَغِلْظَةٍ

«قَسَمَ رَسُولُ الله ﷺ قَسْمًا، فَقُلْتُ: وَاللهَّ يَا رَسُولَ الله، لَغَيْرُ هَؤُلَاءِ كَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنْهُمْ[١]، قَالَ: «**إِنَّهُمْ خَيَّرُونِي أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أَوْ يُبَخِّلُونِي، فَلَسْتُ بِبَاخِلٍ**[٢]»[٣].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المخاطَب هو رسول الله ﷺ، بعد أن أعطى أناسًا مالًا سألوه إياه بغلظة وفحش.

البيان والبلاغة: قوله: (**قسما**) نكَّره ولم يذكر قدره لأنَّه يرى الحكم في قليله وكثيره سواءً. وقوله: (**وَاللهِ يَا رَسُولَ الله، لَغَيْرُ هَؤُلَاءِ كَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنْهُمْ**) بدأ كلامه مع رسول الله ﷺ بالقسم لتأكيد كلامه، وكذا أكَّده باللام في (لغير)، وذلك لما رآه أعطى هؤلاء مِن القسم مع فحشهم في الطلب ظنَّ أنه يراهم مستحقِّين للعطاء.

١- في «مُسنَدِ أحمدَ»: (لَغَيْرُ هَؤُلاءِ أَحَقُّ مِنْهُمْ: أَهْلُ الصُّفَّةِ).

٢- قالَ القاضي عياضٌ في «إكمالِ المعلم» ٣/ ٥٩٤: (معناهُ: أنَّه اشتطُّوا عليهِ في المسألةِ الَّتي تقتضي إنْ أجابَهم إليها حابهم، وإنْ منعهم آذَوْه وبَخَّلُوه، فاختارَ -عليهِ السَّلامُ- إعطاءَهم؛ إذ ليسَ البُخلُ مِن طباعِه، ومُدارَاةً لهم وتآلفًا، كما قالَ -عليهِ السَّلامُ-: «إنَّ شرَّ النَّاسِ مَن اتَّقاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ»، كما أمرَ بإعطائِه المؤلَّفةَ قلوبُهم).

٣- رواهُ مسلمٌ في «صحيحِه» (١٠٥٦)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (١٢٧)، والخطيبُ البغداديُّ في «البخلاءِ» (١١).

وكلمة (غير) موغلة في الإبهام فلا تُعَرَّف بالإضافة، وقدَّم اسم كان (غير هؤلاء) عليها لكمال العناية به وتقرير الحكم المتعلِّق به لرسول الله ﷺ.

[١٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

يَذْكُرُ فِيهِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

«كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ شَيْءٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ، فَقُلْتُ لِنَفْسِي: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، نَزَرْتَ[1] رَسُولَ الله ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْكَ، فَرَكِبْتُ رَاحِلَتِي فَتَقَدَّمْتُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ، فَإِذَا أَنَا بِمُنَادٍ يُنَادِي: يَا عُمَرُ، أَيْنَ عُمَرُ؟ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَظُنُّ أَنَّهُ نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نَزَلَتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ سُورَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١ - ٢]»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (نزرت فلاناً): إذا ألححت عليه في السؤال.

مقتضى الحال: يخبر عن حادثة حصلت بينه بين النبي ﷺ ظنَّ أنَّه أثقل فيها على النبي ﷺ.

١- نَزَرْتُ فُلَانًا: إذا ألححتَ عليهِ في السُّؤالِ. «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ ٨٠٦.

٢- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٤١٧٧)، والتِّرمذيُّ في «السُّنَنِ» (٣٢٦٢)، ومالكٌ في «المُوطَّإِ» (٦٩٣) مُرسَلًا، ومَوصُولًا في «الموطَّإ» بروايةِ أبي مصعبِ الزُّهريِّ (٢٧٢)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (٢٠٩) واللَّفظُ له، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٦٤٠٩)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٢٢٥٤)، و«دلائلِ النُّبوَّةِ» ٤/ ١٥٤.

البيان والبلاغة: قوله: (**كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ**) بدأ الكلام بما يشعر بالاعتذار للنبي ﷺ في انشغاله عنه، وذلك في قوله: (**فِي سَفَرٍ**)؛ فالمسافر غالبًا ما يكون مشغول الذهن، فيذهل عمَّن حوله. وقوله: (**فَسَأَلْتُهُ عَنْ شَيْءٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ**) لم يصرِّح بمسألته لعلَّه تحرَّج من ذكرها، وقوله: (فلم يردَّ عليَّ) أعمُّ مِن قول: (فلم يجبني). وقوله: (**فَقُلْتُ لِنَفْسِي: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، نَزَرْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ثَلاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْكَ**) في مخاطبته نفسَه تجريد؛ إذ جرَّد من نفسه إنسانًا يخاطبه ويلومه، وعبارة: (ثكلتك أمُّك) لا يراد بها ظاهرها إلا أنّها كثيرًا ما تقال عند اللَّوم أو العتاب. وقوله: (**فَرَكِبْتُ رَاحِلَتِي فَتَقَدَّمْتُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ**) كلمة (شيء) نكرة تشمل القرآن وغيره من الوحي. وقوله: (**فَإِذَا أَنَا بِمُنَادٍ يُنَادِي**) (إذا) الفجائية تدلُّ على أنَّه فوجئ بالمنادي ولم يكن يتوقَّعه، وقوله: (بمنادٍ) لم يصرِّح باسمه لعدم ترتُّب فائدة للسامع على معرفته. وقوله: (**فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَظُنُّ أَنَّهُ نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ**) تكرير عبارة (نزل فيَّ شيءٌ) مشعرٌ بأنَّ اللوم بلغ منه مبلغًا حتى أيقن بنزول شيء فيه.

[١١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

يَذْكُرُ الْعُسْرَةَ فِي تَبُوكَ

«خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى تَبُوكَ فِي قَيْظٍ شَدِيدٍ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا أَصَابَنَا فِيهِ عَطَشٌ شَدِيدٌ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّ رِقَابَنَا سَتَنْقَطِعُ، حَتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُنَا يَذْهَبُ يَلْتَمِسُ الْخَلَا فَلَا يَرْجِعُ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ رَقَبَتَهُ تَنْقَطِعُ، وَحَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْحَرُ بَعِيرَهُ فَيَعْصِرُ فَرْثَهُ فَيَشْرَبُهُ وَيَضَعُهُ عَلَى بَطْنِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ قَدْ عَوَّدَكَ فِي الدُّعَاءِ خَيْرًا فَادْعُ لَنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتُحِبُّ ذَاكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟**» قَالَ: نَعَمْ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ فَلَمْ يَرْجِعْهَا حَتَّى مَالَتِ السَّمَاءُ، فَأَظَلَّتْ، ثُمَّ سَكَبَتْ، فَمَلَئُوا مَا مَعَهُمْ، ثُمَّ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ فَلَمْ نَجِدْهَا جَاوَزَتِ الْعَسْكَرَ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (قيظ): شدة الحر.

مقتضى الحال: يخبر عن حادثة حصلت معهم وهم في الطريق إلى تبوك.

البيان والبلاغة: قوله: (**خَرَجْنَا ...فِي قَيْظٍ شَدِيدٍ**) يفهم من استعمال (في) الظرفية أن القيظ الشديد يحيط بهم من كلِّ جانب كالوعاء لهم. وقوله: (**فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا أَصَابَنَا**

١- رواهُ البزَّارُ في «البحرِ الزَّخَّارِ» (٢١٤)، والفريابيُّ في «دلائلِ النُّبوَّةِ» (٤٢)، وابنُ خزيمةَ في «صحيحِه» (١٠١)، والطَّبرانيُّ في «المُعجَمِ الأوسطِ» (٣٢٩٢)، والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٥٦٦)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٩٦٤١)، و«دلائلِ النُّبوَّةِ» ٥/ ٢٣١.

فِيهِ عَطَشٌ شَدِيدٌ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّ رِقَابَنَا سَتَنْقَطِعُ) قوله (**منزلا**) نكَّر المكان الذي نزلوا فيه لعدم الفائدة في تعيينه، ثم وصفه بجملة (**أَصَابَنَا فِيهِ عَطَشٌ شَدِيدٌ**) لأنَّ هذا الوصف هو المقصود لبيان الحال الذي كانوا عليه، وتنكير (**عطش**) للتكثير. وقوله: (**حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّ رِقَابَنَا سَتَنْقَطِعُ**) مِن المبالغة في وصف العطش، إذ العطش لا يقطع الرقاب، ثم كرر عبارة (**رَقَبَتَهُ تَنْقَطِعُ**) مرة أخرى في قوله: (**حَتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُنَا يَذْهَبُ يَلْتَمِسُ الْخَلَا فَلَا يَرْجِعُ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ رَقَبَتَهُ تَنْقَطِعُ**) لتأكيد المعنى وتمكينه في نفس السامع، وكذلك تكرير استخدام (**حتَّى**) مشعرٌ بشدَّة الغاية التي وصلوا إليها بسبب شدَّة العطش وظهر هذا جليا في قوله: (**وَحَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ لَيَنْحَرُ بَعِيرَهُ فَيَعْصِرُ فَرْثَهُ فَيَشْرَبُهُ**) والفاء في (**فَيَشْرَبُهُ**) فصيحة تدل على محذوف، والتقدير: (فيعصر فرثه فيخرج ما فيه من ماء فيشربه). وقوله: (**فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ فَلَمْ يُرْجِعْهَا حَتَّى مَالَتِ السَّمَاءُ، فَأَظَلَّتْ، ثُمَّ سَكَبَتْ، فَمَلَؤوا مَا مَعَهُمْ**) ففي قوله: (مالت السماء) مجاز عقلي؛ إذ السماء لا تميل، وإنَّما تميل الشمس فيها، واستخدام المجاز العقلي هنا مشعر بأنَّ شدَّة العطش بلغت فيهم مبلغًا عظيمًا حتى تخيلوا السماء تميل من مكانها. وقوله: (فأظلَّت) حذف الفاعل للعلم به وهو (السحابة) وكأنها الغائب الذي لا ينتظرون غيره فلا داعي لذكره. وقوله: (ثم سكبت) حذف المفعول للعلم به، وهو (المطر). وتعدُّد الإيجاز بالحذف يصوِّر الحال التي كانوا عليها مِن شدة العطش الذي يمنعهم مِن إطالة الكلام. وقوله: (**فَمَلَؤوا مَا مَعَهُمْ**) الاسم الموصول (ما) يفيد العموم، فلا يدلُّ على أوعية بعينها كالقربة أو المزادة ونحوها، بل يشمل كلَّ ما يمكن ملؤه بالماء، وكأنَّهم لشدَّة ما أصابهم من العطش خافوا أن يفقدوا الماء مرة أخرى فملؤوا كلَّ ما يمكن ملؤه بالماء، وفي ذلك إشارة أيضًا إلى غزارة المطر الذي نزل وكان كافيًا لملء كلِّ ما معهم.

[١٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ

«لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ، دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَثَبْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «**أَخِّرْ عَنِّي، يَا عُمَرُ**» فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: «**إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرْ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا**» قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمْكُثْ إِلَّا يَسِيرًا، حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَةَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [التَّوبة: ٨٤]، فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المخاطَب هو رسول الله ﷺ في أمر فعله ورأى عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن تركه أولى.

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (١٣٦٦)، والنَّسائيُّ في «السُّنَن» (١٩٦٦)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٣١٧٦) بزيادةِ: (فَعَجَبًا لِجُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ، انْصَرَفْتُ عَنْهُ، فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ مَشَى مَعَهُ، فَقَامَ عَلَى حُفْرَتِهِ حَتَّى دُفِنَ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَوَاللهِ مَا لَبِثَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: {﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التَّوبة: ٨٤]، فَمَا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى مُنَافِقٍ بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَا قَامَ عَلَى قَبْرِهِ).

البيان والبلاغة: قوله: (**دُعِيَ لَهُ رَسُولُ الله**) حذف فاعل (دعي) وبنى الفعل للمفعول إمَّا لعدم الفائدة في ذكر الفاعل، وإمَّا لعدم العلم به. وقوله: (**وَثَبْتُ إِلَيْهِ**) فيه إشارة إلى أنَّ عمر رأى خطورة هذا الأمر فلم يتمالك نفسه فأسرع إلى النبي ﷺ يحذِّره، ولم يعدِّ الفعل (وثبتُ) بـ(على) وإنَّما عدَّاه بـ(إلى) ليتضمَّن معنى (أسرعتُ). وقوله: (**أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ؟!**) الاستفهام هنا للإنكار، ولم يذكر ابن أبيٍّ باسمه كاملًا تحقيرًا له. وقوله: (**وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ**) لم يصرِّح بذكر أفعال ابن سلول لمن يحدِّثهم بالقصة لشهرتها. وقوله: (أعدِّد عليه قوله) إشارة إلى أنَّ أكثر إيذاء ابن سلول كان بالقول. وقوله: (**فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ**) حذف مفعول (أكثرتُ) استحياءً مِن ذكره. وقوله: (**فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ**) تقديم الجارِّ والمجرور (عليه) على الفاعل للتحسُّر. وقوله: (**فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَئِذٍ**) قوله: (بعد) حذف المضاف إليه كراهة ذكره، أي: بعد هذه الحادثة. وتقديم الجارِّ والمجرور (**عَلَى رَسُولِ الله**) على الظرف (**يَوْمَئِذٍ**) لكمال العناية وبيان أنَّ عجبَه ليس لمطلق حصول الجرأة يومئذٍ وإنَّما لأنها كانت على رسول الله ﷺ. ثم ختم حديثَهُ بقوله: (**وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**) تواضعًا منه بعد أن ظهر أنَّ القرآن أيَّده.

[١٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ رَأَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مُسَجًّى فِي بَيْتِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ

«وَاغَشْيَاهْ! مَا أَشَدَّ غَشْيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ»، فَقَالَ لَهُ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: يَا عُمَرُ! مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ عُمَرُ: «كَذَبْتَ بَلْ أَنْتَ رَجُلٌ تَحُوسُكَ فِتْنَةٌ[١]. إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَا يَمُوتُ حَتَّى يُفْنِيَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - الْمُنَافِقِينَ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (تحوسك): تخالطك.

مقتضى الحال: وقت وفاة النبي ﷺ.

البيان والبلاغة: بدأ عمر كلامه بالندب حين رأى رسول الله مسجًّى بثوب يظنُّه مغشيًّا عليه، فقال: (**واغشياه**)، ثمَّ لما رآه لا يتحرَّك ولا يتنفَّس مع يقينه أنَّه لا زال حيًّا تعجَّب، وقال: (**مَا أَشَدَّ غَشْيَ رَسُولِ اللهِ!**). ومقتضى الظاهر أن يستعمل ضمير المخاطَب فيقول: (ما أشدَّ غشيَك، يا رسول الله) لا سيَّما أنَّه يظنُّه لا زال حيًّا، لكنَّه عدل إلى اللفظ الذي قاله لما رأى النبي لا يتحرَّك ﷺ.

١- أَي: تُخالِطُك وتَحُثُّك عَلَى ركُوبِها. وَكُلُّ موضعٍ خالَطْتَه ووطِئْتَه فقد حُسْتَهُ وجُسْتَه. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (حوس).

٢- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٢٥٨٤١)، وإسحاقُ بنُ راهويهِ في «المُسنَدِ» (١٣٣٣).

وقوله للمغيرة: (**كَذَبْتَ، بَلْ أَنْتَ رَجُلٌ تَحُوسُكَ فِتْنَةٌ**) لا يقصد بالكذب ظاهره، ولكن يريد مجرَّد الخطأ في الحكم، ومقتضى الظاهر أن يقول للمغيرة: (بل رسول الله حيٌّ) إضرابًا عن قوله: (مات رسول الله)، ولكن عدل إلى قول: (بل أنت رجل تحوسك فتنة) مبيِّنًا علَّة قوله، كأنَّه قال: (بل هو حيٌّ، وإنَّما ادعيتَ موتة لفتنة خالطت عقلك لم تَعرف بسببها صواب الأمر)، ثمَّ بيَّن عمر ما حمله على هذا القول، فقال: (**إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَا يَمُوتُ حَتَّى يُفْنِيَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - الْمُنَافِقِينَ**)، فهذه الجملة جواب لسؤال محذوف تقديره: (لِمَ قلتَ هذا يا عمرُ؟) لذا جاءت مفصولة من غير واو العطف.

[١٤]
وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ

بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

«إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمْ يَمُتْ، وَلَكِنَّ رَبَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِ كَمَا أَرْسَلَ إِلَى مُوسَى، فَمَكَثَ عَنْ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَعِيشَ رَسُولُ الله ﷺ، حَتَّى يَقْطَعَ أَيْدِيَ رِجَالٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَأَلْسِنَتَهُمْ يَزْعُمُونَ، أَوْ قَالَ: يَقُولُونَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ مَاتَ»[1].

وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ بَعْدَهَا ذَاكِرًا تِلْكَ الْخُطْبَةَ: وَاللهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ[2].

فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ - وَقَدْ كَانَ حِينَ وَفَاةِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، بِالسُّنْحِ - فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَقَبَّلَهُ، وَقَالَ: (بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُذِيقُكَ اللهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا).

ثُمَّ خَرَجَ وَقَالَ لِعُمَرَ - وَقَدْ سَمِعَهُ يَحْلِفُ بِاللهِ: إِنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يَمُتْ -، فَقَالَ: أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ.

١- رواهُ ابنُ ماجه في «السُّنَنِ» (١٦٢٧)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (١٣٠٢٨) واللَّفظُ له، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨١٩١)، وعبدُ بنُ حميدٍ كما في «المُنتخَبِ مِن مُسندِه» (١١٦١)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٦٦٢٠).

٢- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٣٦٦٧)، واللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (٢٤٣٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٦٥٣٦)، و«الاعتقادِ» ص٣٤٦.

ثُمَّ وَقَفَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا، فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ الْمُسَدَّدَةِ: (أَمَّا بَعْدُ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]).

فَقَالَ عُمَرُ: «وَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ[١]، حَتَّى مَا تُقِلُّنِي[٢] رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا، عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ[٣]»[٤].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (عَقِرت): دهشت حتى ما استطعت الحراك. و(تقلُّني): تحملني.

مقتضى الحال: قال عمر رضي الله عنه هذا الكلام بعد ظهور خبر وفاة النبي ﷺ منكرًا على من اعتقد ذلك.

١- العَقَرُ بفتحتينِ: أن تُسلِمَ الرَّجلَ قوائمُه مِن الخوفِ. وقيلَ: هو أنْ يَفْجَأَهُ الرَّوْعُ، فَيَدْهَشَ، ولا يَستَطِيعَ أنْ يَتقدَّمَ أو يتأخَّرَ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (عقر).

٢- أي تحملني.

٣- قالتْ أمُّ المؤمنينَ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، كما في حديثِ البخاريِّ (٣٦٦٧)، في التَّعليقِ على خُطبتَيْ أبي بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا رغمَ اختلافِهما: (فَمَا كَانَتْ مِنْ خُطْبَتِهِمَا مِنْ خُطْبَةٍ إِلَّا نَفَعَ اللهُ بِهَا، لَقَدْ خَوَّفَ عُمَرُ النَّاسَ، وَإِنَّ فِيهِمْ لَنِفَاقًا فَرَدَّهُمُ اللهُ بِذَلِكَ).

٤- رواه البخاريُّ في «صحيحِه» (٤٤٥٤)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقات الكُبرَى» ٢/ ٢٧٠، وأبو نُعَيمٍ في «حلية الأولياءِ» ١/ ٢٩.

لطائف لغوية: في قوله: (**يَزْعُمُونَ - أَوْ قَالَ: يَقُولُونَ: - إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ مَاتَ**) إذا كانت الرواية: (يزعمون) يجب فتح همزة (أنَّ) بعدها؛ لأنَّها وما بعدها في تأويل مصدر، وإذا كانت: (يقولون) فبالكسر؛ لأنها جملة محكيَّة بالقول.

البيان والبلاغة: كان عمر رضي الله عنه يعتقد أن النبي ﷺ لم يمت فلذلك أكَّد كلامه بـ(إنَّ) في قوله: (**إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمْ يَمُتْ**) لأنَّ المخاطَب يعتقد خلاف ذلك، ثم قرَّر كلامه بأسلوب التشبيه في قوله: (**وَلَكِنَّ رَبَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِ كَمَا أَرْسَلَ إِلَى مُوسَى، فَمَكَثَ عَنْ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**) وذلك بتشبيه غياب النبي ﷺ بغياب موسى - عليه الصلاة والسلام - حين واعده ربُّه فغاب عن قومه أربعين ليلة، وقد أحسن عمر رضي الله عنه في اختيار المشبَّه به؛ لأنَّه أمر ثابت في القرآن لا ينكره مسلم.

وقوله: (**وَالله إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَعِيشَ رَسُولُ الله ﷺ، حَتَّى يَقْطَعَ أَيْدِي رِجَالٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَأَلْسِنَتَهُمْ**) ففي قوله: (والله إني لأرجو) أعاد تقرير كلامه مؤكِّدًا كلامه بالقسم و(إنَّ) واللام، وقوله (لأرجو) الرجاء يكون في أمر ممكن حصوله أو قريب حصوله. وقوله: (لأرجو أن يعيش رسول الله) ليس فيه دليل على أنَّ عمر غير متيقِّن من أنَّ النبي لا زال حيًّا، وإنَّما رجاؤه في أن تطول حياة النبي ﷺ مدَّة يقطع فيها أيدي رجال من المنافقين وألسنتهم. وقوله: (**حَتَّى يَقْطَعَ أَيْدِي رِجَالٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَأَلْسِنَتَهُمْ**) تنكير (رجال) للتحقير، وتأخير (أيدي) عن قوله (رجال من المنافقين) يشعر بأنَّ رأي عمر فيهم في الأصل أن تقطع أيديهم، ولكن لما شاع خبر وفاة النبي ﷺ ظنَّ أنَّ المنافقين مصدر هذه الإشاعة فأضاف قطع ألسنتهم، ثم علَّل قطع ألسنتهم بقوله: (**يَزْعُمُونَ - أَوْ قَالَ: يَقُولُونَ: - إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ مَاتَ**) فهذه الجملة جواب سؤال محذوف تقديره: (لِمَ تقطع ألسنتهم؟)، لذا جاءت

مفصولة من غير عطف بالواو. وقوله: (**وَاللهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ**) القصر هنا حقيقي تحقيقي وقد أكَّده بالقَسَم، وقوله (ذاك) استخدم اسم الإشارة للبعيد إشارة إلى بُعد ما كان يظنُّه.

وقوله: (**وَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاَهَا فَعَقِرْتُ، حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاَهَا، عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ**): فقوله: (ما هو إلا) الضمير (هو) للشَّأن فهو من الإضمار قبل الإظهار ففيه معنى التشويق، وتُفسِّرُه جملة (سمعت أبا بكر تلاها فعقرت ...)، والقصر هنا حقيقي تحقيقي. وقوله: (حين سمعته تلاها) كرر هذه الجملة لتقرير أنَّ ما حصل له كان بسبب سماعه أبا بكر يتلو تلك الآية. وقوله: (علمت أنَّ النبي ﷺ قد مات) جواب لسؤال محذوف، تقديره: (لم عَقِرت وأهويت إلى الأرض بعد سماع الآية؟). وقوله: (قد مات) استعمل (قد) للدلالة على أنَّ خبر موت النبي ﷺ تحقَّق وتقرَّر في نفسه.

[١٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي بَيْعَةِ السَّقِيفَةِ

«كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَعِيشَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى يَدْبُرَنَا[١] -يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ آخِرَهُمْ -، فَإِنْ يَكُ مُحَمَّدٌ ﷺ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نُورًا تَهْتَدُونَ بِهِ، هَدَى اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثَانِي اثْنَيْنِ، فَإِنَّهُ أَوْلَى الْمُسْلِمِينَ بِأُمُورِكُمْ، فَقُومُوا فَبَايِعُوهُ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِبُ الصحابة الذين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة النبي ﷺ ليختاروا خليفة له ﷺ.

البيان والبلاغة: بدأ عمر رضي الله عنه كلامه بما يدل على فصاحته وبلاغته فقوله: **(كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَعِيشَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى يَدْبُرَنَا)** فيها براعة استهلال؛ إذ فيها إشارة إلى أن بقاء النبي ﷺ بينهم يجنِّبهم الوقوع في الخلاف والنزاع، وهو - أي عمر - لا يرضى بحصول نزاع بين المهاجرين والأنصار، لذا كان يرجو بقاء النبي ﷺ بينهم، فقد تضمَّن كلامه أنَّ رسولهم واحد، وأنَّ رسول الله لا يرضى حصول خلاف بين

١- هو مُفسَّرٌ في الحديثِ، ويزيدُه بيانًا قولُ ابنِ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٢/ ٩٨: (أي يَخلُفَنا بعدَ موتِنا؛ يقالُ: دَبرتُ الرَّجلَ؛ إذا بَقِيتَ بعدَه).

٢- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٧٢١٩)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقات الكُبرى» ٢/ ٢٧٠، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٧٥٦)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٦٨٧٥)، والبغويُّ في «شرحِ السُّنَّةِ» (٢٤٨٩)، والبيهقيُّ في «دلائلِ النُّبوَّةِ» ٧/ ٢١٦-٢١٧.

المسلمين فواجب على من اتَّبعه ألا يرضى ذلك أيضًا. وقوله: (حتى يدبرنا) جعل الغاية التي يرجوها لحياة النبي ﷺ أن لا يبقى بعده أحد منهم.

وقوله: (**فَإِنْ يَكُ مُحَمَّدٌ ﷺ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نُورًا تَهْتَدُونَ بِهِ، بِمَا هَدَى اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ**) في قوله: (فإن يك محمَّد) ذكر النبي ﷺ باسمه مشيرًا إلى حقيقة أنَّه بشر يطرأ عليه ما يطرأ عليهم من الموت. وقوله: (فإن يك محمد قد مات) جملة شرطية جوابها محذوف تقديره: (فلا تختلفوا بعده)، وأمَّا قوله: (فإنَّ الله قد جعل بين أظهركم نورًا) فتعليل لجواب الشرط، والمعنى: (لا يسوغ لكم الاختلاف بعد موت النبي ﷺ وكتاب الله بينكم). وقوله: (نورًا) اختار هذه الصفة للقرآن لينبِّههم إلى أثره الذي ينبغي أن يظهر فيهم وهو تنوير صدورهم وتبصيرهم بالحق وقد أكَّد هذا المعنى بقوله: (تهتدون به)، وتنكير (نورًا) للتعظيم. وقوله: (هدى اللهُ محمّدًا) أعاد ذكر النبي ﷺ باسمه لشير إلى أنَّ القرآن نوَّر بصيرته وهداه إلى الحقِّ وهو بشر مثلكم.

ثم مهَّد لما سيذكر بعد من أحقية أبي بكر بالخلافة بذكر شيء من مناقبه، فقال: (**وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثَانِيَ اثْنَيْنِ، فَإِنَّهُ أَوْلَى الْمُسْلِمِينَ بِأُمُورِكُمْ، فَقُومُوا فَبَايِعُوهُ**) فقوله: (وإنَّ أبا بكر صاحب رسول الله) أكَّد لهم الكلام بـ(إنَّ) وإن كانوا غير منكرين، ولمَّا كان وصف الصحبة لرسول الله ﷺ يشترك فيه مع أبي بكر غيرُه ذكَّرهم بقول الله تعالى: (ثاني اثنين) مشيرًا إلى قوله: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ

وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة: ٤٠]، فهذه الآية تتضمَّن أمرين انفرد بهما أبو بكر عن سائر الصحابة بل عن سائر الناس أجمعين، الأول أنَّه وحده من شهد له الله في كتابه بصحبة النبي ﷺ، والآخر أنَّه رفيقه في الهجرة. واقتصار عمر على لفظ (ثاني اثنين) اكتفاء منه بالشاهد من الآية؛ لأنَّ المقام مقام إيجاز في الكلام لا يتَّسع للإطالة، كأنَّه قال: (كلُّكم يعلم قول الله في أبي بكر: (ثاني اثنين) ولا يخفى عليكم مضمونها ممَّا يشهد لأبي بكر في أحقِّيَّته بالخلافة). وقوله: (**فَإِنَّهُ أَوْلَى الْمُسْلِمِينَ بِأُمُورِكُمْ**) ذكر هذه الجملة بعد قوله (ثاني اثنين) لينبِّه الحاضرين إلى أنَّ الآية تدلُّ على مضمونها. وقوله: (**فَقُومُوا فَبَايِعُوهُ**) الفاء في (فقوموا) وفي (فبايعوه) للتعقيب؛ أي بعد أن تبيَّن لكم أنَّ أبا بكر أولى المسلمين بأموركم ينبغي أن تسارعوا بالقيام إليه لتبايعوه.

وما أحسن نسيج هذه الخطبة وأبلغها على اختصارها، فقد تسلسل فيها بمقدِّمات مقنعة بأنَّ أبا بكر أولى المسلمين بالخلافة، فقرَّر أنَّ الله أنزل القرآن يهتدي به من احتكم إليه، ثم بيَّن منزلة أبي بكر ودلَّل على ذلك من القرآن واستنبط من الآية التي استشهد بها أحقِّيَّة أبي بكر بالخلافة، فجعل الرضا بخلافةِ أبي بكرٍ رضي الله عنه من الاحتكام والخضوع والتسليم لكتاب الله تعالى.

[١٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ لِأَبِي بَكْرٍ

«أَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المخاطَب هو أبو بكر رضي الله عنه خير هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ**) جملة اسميَّة تعرَّف فيها المسند والمسند إليه، وهذا من أساليب القصر، أي: (أنت - لا غيرك - سيِّدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله)، وقوله: (سيِّدنا) و(خيرنا) و(أحبُّنا إلى رسول الله) جمع لأبي بكر هذه الصفات، بدأ فيها بالأقل منزلة ثم ارتقى بها، فكونه خيرهم أعلى منزلة من كونه سيِّدهم، وكونه أحبهم إلى رسول الله ﷺ أعلى من الصفتين السابقتين. وهذا التدرُّج بالمدح أشدُّ تأثيرًا في نفس السامع من العكس. وفي قوله: (سيِّدنا) و(خيرنا) و(أحبُّنا) سجع غير مقصود.

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٣٦٦٧)، والتِّرمذيُّ في «سُنَنِه» (٣٦٥٦)، وابنُ أبي عاصم في «السُّنَّةِ» (١١٦٦)، والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٤٤٢١)، واللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (٢٤٣٧)، وأبو نُعَيمٍ في «فضائلِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ» (١٨٥).

[١٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لَمَّا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي لَحْدٍ أَوْ شَقِّ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى عَلَتْ أَصْوَاتُهُمْ

«لَا تَصْخَبُوا[١] عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيًّا وَلَا مَيِّتًا»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (تصخبوا): الصَّخَب: ارتفاع الأصوات واختلاطها.

البيان والبلاغة: قوله: (لا تصخبوا) عبَّر بالصخب للتَّنفير من فعلهم، وكان من الممكن أن يعبِّر برفع الصوت كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات:٢]، إلا أنَّ لفظ (تصخبوا) أثقل في السمع فيكون أدعى لامتثال الأمر. وقوله: (حيًّا ولا ميّتًا) قدَّم الحياة على المات ليقرِّر المعنى؛ أي كما امتنعتم عن الصخب عنده في حياته امتنعوا عنه في مماته.

١- وفي نُسخةٍ لِلسُّنَنِ، كما في «حاشيةِ السِّنديِّ» ١/ ٤٧٢: («لَا تَضِجُّوا» بِكَسْرِ الضَّادِ المُعْجَمَةِ وَتَشْدِيدِ الجِيمِ؛ أَيْ لَا تَصِيحُوا).

٢- رواهُ ابنُ ماجه في «السُّنَنِ» (١٥٥٨).

[١٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَقَدْ عَزَمَ عَلَى قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ

«كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: «فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المخاطَب خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق حين شرع في قتال مانعي الزكاة.

البيان والبلاغة: قوله: (**كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟**) الاستفهام هنا إنكاري، وقوله: (وقد قال رسول الله) هذه الجملة حالية، فيكون الإنكار لا لمجرد قتال الناس، بل لقتالهم في حال نهي النبي ﷺ عن قتال من شهد ألا إله إلا الله. وقوله: (وقد قال) (قد) تفيد التحقيق، ليؤكِّد لأبي بكر أنَّ رسول الله ﷺ قال هذا الكلام. وأما قوله:

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٧٢٨٤)، ومسلمٌ في «صحيحِه» (٢٠)، وأبو داودَ في «السُّنَنِ» (١٥٥٦)، والتِّرمذيُّ في «السُّنَنِ» (٢٦٠٧)، والنَّسائيُّ في «السُّنَنِ» (٢٤٤٣)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (١١٧) و(٢٣٩) و(٣٣٥).

(فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ) في قوله: (ما هو إلا) هذا القصر حقيقي تحقيقي، والضمير (هو) ضمير الشأن، فهو إضمار قبل الإظهار فيفيد تشويق السامع لتفسيره، ومفسِّره جملة: (رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال)، و(قد) تفيد التحقيق فتؤكِّد الكلام، و(أل) في (الحق) لاستغراق صفات الجنس، وجملة (أنَّه الحقُّ) فيها قصر بتعريف طرفي الإسناد، أي: ليس الحق إلا في قتالهم، وهو قصر إضافي بالنظر إلى ما كان يراه عمر قبلُ من عدم قتالهم.

[١٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَهِيَ أَوَّلُ خُطْبَةٍ لَهُ حِينَ تَوَلَّى الْخِلَافَةَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدِ ابْتُلِيتُ بِكُمْ وَابْتُلِيتُمْ بِي، وَخَلَفْتُ فِيكُمْ بَعْدَ صَاحِبِي، فَمَنْ كَانَ بِحَضْرَتِنَا بَاشَرْنَاهُ بِأَنْفُسِنَا، وَمَهْمَا غَابَ عَنَّا وَلَّيْنَا أَهْلَ الْقُوَّةِ وَالْأَمَانَةِ، فَمَنْ يُحْسِنْ نَزِدْهُ حُسْنًا، وَمَنْ يُسِئْ نُعَاقِبْهُ، وَيَغْفِرُ اللهُ لَنَا وَلَكُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذه الخطبة وجَّهها عمرُ لعموم المسلمين بعد أن صار خليفة عليهم.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا بَعْدُ**) جرى على عادة العرب في خطبهم؛ يأتون بفصل الخطاب بعد افتتاح الخطبة وقبل الشروع في مقصودها. ثم استهل خطبته بكلمات فيها براعة استهلال توحي في نفس السامع أنَّ تولِّي الخلافة أمر فيه مشقَّة وتكليف لا تنعُّم وتشريف، وهي مسؤولية مشتركة بين الراعي والرعية، فقال: (**فَقَدِ ابْتُلِيتُ بِكُمْ وَابْتُلِيتُمْ بِي**) فأتى بـ(قد) التي تفيد التحقيق لتقرير المعنى وتأكيده في نفس المخاطب، وتقديم (ابتُليت بكم) على (ابتليتم بي) فيه إشارة إلى أنَّ المشقَّة الحاصلة من تولِّيه عليهم أعظم عليه منها عليهم. وقوله: (**وَخَلَفْتُ فِيكُمْ بَعْدَ صَاحِبِي**) تقديم الجارِّ والمجرور (فيكم) على الظرف (بعد صاحبي) لكمال العناية

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٣/ ٢٧٤، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٠٦، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٢٦٣.

وتنبيه المخاطب على أنَّه المقصود بالكلام. وقوله: (بعد صاحبي) ذكر صلته بأبي بكر لينبِّه المخاطب إلى أنَّه ليس بغريب عن شؤون الخلافة؛ فصاحبه هو الخليفة قبله وكان يستشيره في أمورها. وقوله: (**فَمَنْ كَانَ بِحَضْرَتِنَا بَاشَرْنَاهُ بِأَنْفُسِنَا**) (من) تفيد العموم سواء أقدِّرت اسمًا موصولًا أم اسم شرط، وقوله: (باشرناه) استخدم الفعل الماضي للدلالة على تحقُّق الفعل، وقول: (بأنفسنا) رفع بهذه الكلمة احتمال المجاز العقلي في (باشرناه). وقوله: (**وَمَهْمَا غَابَ عَنَّا وَلَّيْنَا أَهْلَ الْقُوَّةِ وَالْأَمَانَةِ**) (مهما) تفيد العموم، والفعل الماضي (ولَّينا) يفيد تحقيق حصوله.

وظهر فنُّ التقسيم في قوله: (**فَمَنْ كَانَ بِحَضْرَتِنَا بَاشَرْنَاهُ بِأَنْفُسِنَا، وَمَهْمَا غَابَ عَنَّا وَلَّيْنَا أَهْلَ الْقُوَّةِ وَالْأَمَانَةِ**)، واستخدام (من) و(مهما) اللتين للعموم يدلُّ على أنَّه سيجتهد في أن لا يقصِّر في حقِّ أحد من القسمين أيًّا كان. ثم أعاد استخدام أسلوب التقسيم بقوله: (**فَمَنْ يُحْسِنْ نَزِدْهُ حُسْنًا، وَمَنْ يُسِئْ نُعَاقِبْهُ**)، واستخدم في القسمين (من) الشرطية لئلا يخرج عن القسمة فرد من أفراد الرعية، وقوله: (يحسن) و(نزده) و(يسئ) و(نعاقبه) جاءت هذه الأفعال بصيغة المضارع للدلالة على أنَّ مَن عمل عملًا فإنَّه يحاسب عليه في وقته فلا يؤخَّر الجزاء عن العمل. وقد قابل بين (من يحسن نزده حسنًا) و(من يسئ نعاقبه)، إلا أنَّه جعل (نزده حسنًا) في مقابل (نعاقبه)، ومقتضى الظاهر أن يقول: (نحسن إليه) ففي هذا العدول إشارة إلى أنَّ العقاب بقدر الإساءة أمَّا الإحسان فزائد عن القدر الذي يستحقُّه صاحبه، وهذا من كمال عدل عمر رضي الله عنه، ومن تأثُّره بأسلوب القرآن الكريم؛ ففي قوله: (من يحسن نزده حسنًا) تأثَّر بقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾

[الشورى:٢٣]، وفي قوله: (ومن يسىء نعاقبه) تأثَّر بقول الله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣].

وقوله: (**وَيَغْفِرُ اللهُ لَنَا وَلَكُم**) ختم خطبته بطلب المغفرة من الله له وللمخاطبين إشارة إلى أنَّ التقصير حاصل من الطرفين، وتقديم الجارِّ والمجرور (لنا) على (لكم) للاهتمام؛ إذ لا إيثار في القرب.

[٢٠]

وَفِي أَوَّلِ خُطْبَةٍ لَهُ

اللَّيْلَةَ الَّتِي دُفِنَ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ

«إِنَّ اللهَ نَهَجَ سَبِيلَهُ، وَكَفَانَا بِرَسُولِهِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الدُّعَاءُ وَالِاقْتِدَاءُ، فَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي ابْتَلَانِي بِكُمْ وَابْتَلَاكُمْ بِي، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَبْقَانِي فِيكُمْ بَعْدَ صَاحِبَيَّ كَنَفَرٍ ثَلَاثَةٍ: اغْتَرَبُوا الطِّيَّةَ[١]؛ فَأَخَذَ أَحَدُهُمْ مُهْلَةً إِلَى دَارِهِ وَقَرَارِهِ، فَسَلَكَ أَرْضًا مُضِلَّةً، فَتَشَابَهَتِ الْأَسْبَابُ وَالْأَعْلَامُ، فَلَمْ يَزِلَّ عَنِ السَّبِيلِ، وَلَمْ يَخْرِمْ[٢] عَنْهُ حَتَّى أَسْلَمَهُ إِلَى أَهْلِهِ، فَأَفْضَى إِلَيْهِمْ سَالِمًا، ثُمَّ تَلَاهُ الْآخَرُ فَسَلَكَ سَبِيلَهُ وَاتَّبَعَ أَثَرَهُ فَأَفْضَى إِلَيْهِ سَالِمًا وَلَقِيَ صَاحِبَهُ، ثُمَّ تَلَاهُ الثَّالِثُ فَإِنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمَا، وَاتَّبَعَ أَثَرَهُمَا، أَفْضَى إِلَيْهِمَا سَالِمًا وَلَاقَاهُمَا، وَإِنْ هُوَ زَلَّ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا لَمْ يُجَامِعْهُمَا أَبَدًا. أَلَا إِنَّ الْعَرَبَ جَمَلٌ أَنِفٌ[٣] فَلَا أُعْطِيتُ بِخِطَامِهِ، أَلَا وَإِنِّي حَامِلُهُ عَلَى الْمَحَجَّةِ، مُسْتَعِينٌ بِاللهِ، أَلَا وَإِنِّي دَاعٍ فَأَمِّنُوا، اللَّهُمَّ إِنِّي شَحِيحٌ فَسَخِّنِي، اللَّهُمَّ إِنِّي غَلِيظٌ فَلَيِّنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي ضَعِيفٌ فَقَوِّنِي، اللَّهُمَّ أَوْجِبْ لِي بِمُوَالَاتِكَ وَمُوَالَاةِ أَوْلِيَائِكَ وِلَايَتَكَ وَمَعُونَتَكَ، وَأَبْرِزْنِي - بِمُعَادَاةِ عَدُوِّكَ - مِنَ الْآفَاتِ»[٤].

١- الطِّيَّةُ: النِّيَّةُ. قالَ الخليلُ: (الطِّيَّةُ تكونُ منزلًا وتكونُ منتأى. تقولُ منهُ: مَضَى لِطِيَّتِهِ؛ أي لِنِيَّتِهِ الَّتِي انتواها) «الصّحاح» ٦/ ٢٤١٥.

٢- لم يَخْرِمْ: أي ما عدل «الصّحاح» ٥/ ١٩١١.

٣- الجملُ الأَنِفُ: أي المأنوف، وهو الَّذي عَقَرَ الخِشاشُ أنفَه فهو لا يَمتنِعُ على قائِدِه لِلوَجَعِ الَّذي بِهِ «النِّهاية» ١/ ٧٥.

٤- ذكرهُ ابنُ الجوزيِّ في «مناقبِ أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطَّابِ» ص١٩٠.

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الطِّية): النيَّة للسفر وغيره، و(أخذ أحدهم مهلة): تقدَّمهم.

مقتضى الحال: يخاطب المسلمين بعد وفاة خليفة المسلمين أبي بكر رضي الله عنه.

البيان والبلاغة: قوله (**إنَّ اللهَ نَهَجَ سَبيلَهُ، وَكَفانا برسُولِهِ**) البدء بهذا الكلام فيه براعة استهلال ويناسب مقتضى الحال؛ إذ فيه بيان أنَّ معالم الدين متَّضحة لا تخفى بموت أحد. وأتى بالسَّجع بين (سبيله) و(برسوله). وقوله: (**فلَمْ يَبْقَ إلا الدُّعَاءُ والاقْتِدَاءُ**) أطلق الدعاء والاقتداء، فأمَّا إطلاق الدعاء فلِتذهب نفس السامع في تقييده كل مذهب، فقد يكون دعاء لطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، وقد يكون لطلب الثبات على الحق ونحو ذلك، و(أل) الداخلة على (الدعاء) لبيان الحقيقة، أمَّا إطلاق الاقتداء فلأنَّ تقييده معلوم ضرورةً لكلِّ مسلم، وهو الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم كما جاء مصرَّحًا بذلك في غير ما آية في كتاب الله، و(أل) الداخلة على (الاقتداء) للعهد الذهني.

وقوله: (**فالحَمْدُ لله الذي ابْتَلانِي بِكُمْ وابتَلاكُمْ بي**) أراد أن يقرر للمخاطبين حقيقة المشقَّة المترتِّبة على توليته عليهم، فابتدأ بحمد الله ليشوِّق المخاطب إلى انتظار سماع شيء محمود، فإذا هو يسمع أنَّ تولية عمر رضي الله عنه عليهم ابتلاء له ولهم، فيتقرَّر هذا المعنى في نفوسهم.

ثم استخدم ضرب المثل لتوضيح الصورة وتمكينها في نفس المخاطب وفقال: (**والحمْدُ لله الذي أَبقاني فِيكُمْ بَعْدَ صَاحِبيَّ كَنَفَرٍ ثَلاثةٍ: اغْتَرَبُوا الطِيَّةَ؛ فَأَخَذَ أحدُهُمْ**

مُهْلَةً إلى دارِهِ وَقرارَهِ، فسلَكَ أَرضًا مُضِلَّةً، فَتَشَابَهَتِ الأَسبابُ والأَعلامُ، فلَمْ يَزِلَّ عن السَّبيلِ، ولمْ يَخْرِم عنه حتَّى أَسْلَمَهُ إلى أهْلِهِ، فأَفْضَى إليهم سَالمًا، ثمَّ تَلاهُ الآخَرُ فَسَلَكَ سبيلَهُ واتَّبَعَ أَثَرَهُ فأَفْضَى إليه سَالمًا ولَقِيَ صَاحِبَهُ، ثمَّ تَلاهُ الثالِثُ فإنْ سَلَكَ سَبيلَهُما، واتَّبَعَ أَثَرَهُما، أَفْضَى إليهما سَالمًا ولاقاهُما، وإنْ هُوَ زَلَّ يَمينًا أو شِمالاً لَمْ يُجامِعْهُما أَبَداً)، فشبَّه نفسه مع صاحبيه رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه بثلاثة أشخاص اغتربوا في سفر، فتقدَّمهم أحدهم، وهو رسول الله ﷺ، إلى دار يستقرُّ فيها، فسلك طريقًا وعرة حتى وصل مراده، ثم تلاه الثاني، وهو أبو بكر رضي الله عنه، فاقتفى أثره حتى وصل، ثم تلاه الثالث، وهو عمر رضي الله عنه، ولا يزال في الطريق فإن اقتفى أثر صاحبيه وصل، وإن حاد عنه لم يصل إليهم. فهذا التشبيه تشبيه مُركَّب، والمشبَّه به يعطي صورة كاملة لحقيقة ما كان عليه رسول الله ﷺ وصاحباه، فالاغتراب في السفر يمثِّل الحياة الدنيا، والدار والقرار هي الآخرة، والأرض المضلَّة التي تشابهت فيها الأسباب والأعلام هي الطريق الموصلة إلى الجنَّة حُفَّت بالشهوات والشبهات والمكاره.

وقوله: **(ألا إنَّ العَرَبَ جَمَلٌ أنِفٌ فلا أَعطَيْتُ بِخِطَامِهِ، ألا وإنِّي حَامِلُهُ على المَحَجَّةِ، مُسْتعِينٌ بالله)** قوله: (العرب جَمَلٌ أَنِفٌ) شبَّه العرب بالجِمال الأُنُف في سهولة الانقياد ثم حذف أداة التشبيه فهو تشبيه مؤكَّد، وهذا التشبيه جاء في قول النبي ﷺ: «**المُؤْمِنُ كَالجَمَلِ الأَنِفِ حَيْثُما انْقِيدَ انْقَادَ**»[1]. وقوله: (فلا أعطيت بخطامه) حذف المفعول الأول لـ(أعطيت) لئلا يتقيَّد به، والتقدير: (فلا أعطيت أحدًا بخطامه)، وأدخل الباء الزائدة على المفعول الثاني (خطامه) للتوكيد. وقوله: (حامله على المحجَّة) تتمَّة للتَّشبيه، والمعنى المقصود من التشبيه أنَّ العرب سهلة

١- رواه أحمد في مسنده (ح١٧١٤٢) وابن ماجه في سننه (ح٤٣) عن العرباض بن سارية رضي الله عنه.

الانقياد ولن يتخلَّى عنهم لأحد، وسيحملهم على سلوك المنهج القويم الواضح البيِّن.

وقوله: (**ألا وإِنِّي دَاعٍ فَأَمِنُّوا، اللهُمَّ إِنِّي شَحِيحٌ فَسَخِّنِي، اللُهمَّ إِنِّي غَلِيظٌ فَلَيِّنِّي، اللهُمَّ إني ضَعِيفٌ فَقَوِّنِي، اللهُمَّ أَوْجِبْ لي بِمُوَالاتِكَ ومُوالاةِ أَولِيائِكَ، وَلايَتَكَ وَمَعُونَتَكَ، وأَبْرِرنِي بِمُعَادَاةِ عَدُوِّكَ مِنَ الآفاتِ**) ختم خطبته بالدُّعاء جريًا على سَننِ الخطبةِ في الإسلامِ، وكرَّرَ لفظ (اللهمَّ) لتأكيد طلب الدعاء من الله لا من سواه. وظهر في هذا الدعاء من المحسِّنات المطابقة والسجع والمقابلة، فجاء الطباق بين (شحيح) و(فسخِّني)، وبين (غليظ) و(فليِّنِّي)، وبين (ضعيف) و(فقوِّني)، وجاء السجع في (فسخِّني) و(فليِّنِّي) و(فقوِّني)، وجاءت المقابلة بين (موالاة أوليائك) و(معاداة عدوِّك).

[٢١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَفَ بَيْنَ الْخِرِبَيْنِ، وَهُمَا دَارَانِ لِفُلَانٍ

«شَوَى أَخُوكَ حَتَّى إِذَا أَنْضَجَ رَمَّدَ[1]»[2].

الشرح والتحليل:

الألفاظ والغريب: (رمَّد): ألقى الشيء في الرماد.

مقتضى الحال: يظهر من النَّص أنَّ الكلام لشخص افتتح عملًا بإحسان ثمَّ ختمه بإساءة، قال الميداني: «ويروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه مَرَّ بدارِ رجل عُرف بالصلاح، فسَمِعَ من داره صوت بعض الملاهي، فقال: شَوَى أخوك حتى إذا أَنْضَجَ رَمَّدَ»[3].

البيان والبلاغة: قوله: (**شَوَى أَخُوكَ حَتَّى إِذَا أَنْضَجَ رَمَّدَ**) حذف مفعول (شوى) و(أنضج) و(رمَّد) للعلم به، وهو الشواء، وقوله: (حتى) لإفادة الغاية، تشعر بانتظار الشاوي نضج الشواء. ضرب هذا المثل لمن عمل عملًا صالحًا ينتظر فيه الثواب من الله ثم ختم هذا العمل بإساءة أذهبت أجره، كحال هذا الشاوي الذي ينتظر نضج الشواء ليأكل فلمَّا قارب على النضج ألقاه في الرماد فلم ينتفع به.

١- قالَ أبو عُبَيدٍ في «غريبِ الحديثِ» ٣/ ٣٦٧: (يقولُ: إِنَّه لَمَّا أنضجَ شواهُ وجوَّده ألقاهُ في الرَّمادِ فأفسدَه. وهو مَثَلٌ يُضرَبُ للرَّجلِ يصطنعُ المعروفَ إلى الرَّجلِ ثمَّ يُفْسِدُه عليه بالامتنانِ أو، أنْ يقطعَها عنه لا يُتمُّها له).

٢- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (٧٨٦)، وابنُ أبي الدُّنيا في «قصرِ الأملِ» (٢٦٧).

٣- مجمع الأمثال (١/ ٣٦٠).

[٢٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

حِينَ تَوَلَّى الْخِلَافَةَ

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ، وَلَوْلَا رَجَاءُ أَنْ أَكُونَ خَيْرَكُمْ لَكُمْ، وَأَقْوَاكُمْ عَلَيْكُمْ، وَأَشَدَّكُمُ اسْتِضْلَاعًا بِمَا يَنُوبُ مِنْ مُهِمِّ أُمُورِكُمْ، مَا تَوَلَّيْتُ ذَلِكَ مِنْكُمْ، وَلَكَفَى عُمَرَ مُهِمًّا مُحْزِنًا انْتِظَارُ مُوَافَقَةِ الْحِسَابِ بِأَخْذِ حُقُوقِكُمْ كَيْفَ آخُذُهَا، وَوَضْعِهَا أَيْنَ أَضَعُهَا، وَبِالسَّيْرِ فِيكُمْ كَيْفَ أَسِيرُ! فَرَبِّي الْمُسْتَعَانُ، فَإِنَّ عُمَرَ أَصْبَحَ لَا يَثِقُ بِقُوَّةٍ وَلَا حِيلَةٍ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِرَحْمَتِهِ وَعَوْنِهِ وَتَأْيِيدِهِ.

إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَلَّانِي أَمْرَكُمْ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنْفَعَ مَا بِحَضْرَتِكُمْ لَكُمْ، وَإِنِّي أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِينَنِي عَلَيْهِ، وَأَنْ يَحْرُسَنِي عِنْدَهُ، كَمَا حَرَسَنِي عِنْدَ غَيْرِهِ، وَأَنْ يُلْهِمَنِي الْعَدْلَ فِي قَسْمِكُمْ كَالَّذِي أَمَرَ بِهِ، وَإِنِّي امْرُؤٌ مُسْلِمٌ وَعَبْدٌ ضَعِيفٌ، إِلَّا مَا أَعَانَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَلَنْ يُغَيِّرَ الَّذِي وُلِّيتُ مِنْ خِلَافَتِكُمْ مِنْ خُلُقِي شَيْئًا إِنْ شَاءَ اللهُ، إِنَّمَا الْعَظَمَةُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَيْسَ لِلْعِبَادِ مِنْهَا شَيْءٌ، فَلَا يَقُولَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ: إِنَّ عُمَرَ تَغَيَّرَ مُنْذُ وُلِّيَ، أَعْقِلُ الْحَقَّ مِنْ نَفْسِي وَأَتَقَدَّمُ، وَأُبَيِّنُ لَكُمْ أَمْرِي، فَأَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ أَوْ ظُلِمَ مَظْلَمَةً، أَوْ عَتَبَ عَلَيْنَا فِي خُلُقٍ، فَلْيُؤْذِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ، فَعَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللهِ فِي سِرِّكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ، وَحُرُمَاتِكُمْ وَأَعْرَاضِكُمْ، وَأَعْطُوا الْحَقَّ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَلَا يَحْمِلْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا عَلَى أَنْ تَحَاكَمُوا إِلَيَّ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي

وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ هَوَادَةٌ، وَأَنَا حَبِيبٌ إِلَيَّ صَلَاحُكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيَّ عَتَبُكُمْ، وَأَنْتُمْ أُنَاسٌ عَامَّتُكُمْ حَضَرٌ فِي بِلَادِ اللهِ، وَأَهْلُ بَلَدٍ لَا زَرْعَ فِيهِ وَلَا ضَرْعَ إِلَّا مَا جَاءَ اللهُ بِهِ إِلَيْهِ.

وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَعَدَكُمْ كَرَامَةً كَثِيرَةً، وَأَنَا مَسْئُولٌ عَنْ أَمَانَتِي وَمَا أَنَا فِيهِ، وَمُطَّلِعٌ عَلَى مَا بِحَضْرَتِي بِنَفْسِي إِنْ شَاءَ اللهُ، لَا أَكِلُهُ إِلَى أَحَدٍ، وَلَا أَسْتَطِيعُ مَا بَعُدَ مِنْهُ إِلَّا بِالْأُمَنَاءِ وَأَهْلِ النُّصْحِ مِنْكُمْ لِلْعَامَّةِ، وَلَسْتُ أَجْعَلُ أَمَانَتِي إِلَى أَحَدٍ سِوَاهُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (هَوادَة): صلح وسكون.

مقتضى الحال: يخاطب عموم المسلمين بعد أن تولَّى الخلافة.

البيان والبلاغة: قوله: (**يا أيها النَّاسُ**) بدأ خطبته بنداء المخاطب ليلفت انتباهه ويُعلمه أن الخطاب موجَّه إليه. وقوله: (**إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ**) أكَّد ما سيقول بـ(إنَّ) و(قد)، وبنى الفعل (وُلِّيت) للمفعول لعدم الحاجة إلى ذكر الفاعل، إذ الأمر قد حصل وتمَّ فالعِبرة بما هو آت. وقوله: (**وَلَوْلا رَجاءُ أَنْ أَكُونَ خَيْرَكُمْ لَكُمْ، وَأَقْوَاكُمْ عَلَيْكُمْ، وَأَشَدَّكُمْ اسْتِضْلاعًا بِمَا يَنُوبُ مِنْ مُهِمِّ أُمُورِكُمْ، مَا تَوَلَّيْتُ ذَلِكَ مِنْكُمْ**) قوله: (رجاء) يدلُّ على أمر ممكن الوقوع، وقد قيَّد هذا الرجاء بإضافته إلى المصدر المؤوَّل بعده وما عُطف عليه. وقوله: (ما تَوليتُ) بنى الفعل للمعلوم وأسنده إلى نفسه بعد أن بناه أوَّل كلامه للمفعول، فدلَّ على أنَّ إرادته نافذة في

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤ / ٢١٤-٢١٥، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٦٣ مُختصَرًا.

قبول هذه الولاية ورفضها. وبين (لكم) و(عليكم) و(أموركم) و(منكم) سجع.

وقوله: (**وَلَكَفَى عُمَرَ مُهِمًّا مُحْزِنًا انْتِظَارُ مُوَافَقَةِ الْحِسَابِ بِأَخْذِ حُقُوقِكُمْ كَيْفَ آخُذُهَا، وَوَضْعِهَا أَيْنَ أَضَعُهَا، وَبِالسَّيْرِ فِيكُمْ كَيْفَ أَسِيرُ**) في قوله: (لكفى عمرَ) عدل عن ضمير المتكلم إلى التصريح باسمه لينبِّه المخاطَب إلى أنَّه يتحدَّث عن عمر بصفته فردًا من المسلمين لا الخليفة، وقدَّم المفعول (عمر) على الفاعل (موافقة) لكمال الاهتمام والعناية. و(أل) في (الحساب) للعهد الذهني. وفي قوله: (آخذها) و(أضعها) و(أسير) التفات من الغيبة إلى ضمير المتكلِّم، كأنه يقول للمخاطب: إنَّ عمر الذي أحدِّثكم عنه هو أنا المتكلِّم أمامكم.

وقوله: (**فَرَبِّي الْمُسْتَعَانُ**) فيه قصر حقيقي تحقيقي بتعريف طرفي الإسناد، أي أنَّ المستعان على هذه الأمور هو ربي لا سواه. وقوله: (**فَإِنَّ عُمَرَ أَصْبَحَ لا يَثِقُ بِقُوَّةٍ وَلا حِيلَةٍ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِرَحْمَتِهِ وَعَوْنِهِ وَتَأْيِيدِهِ**) رجع فالتفت من ضمير المتكلِّم إلى الحديث عن نفسه بالتصريح باسمه. وتنكير (قوة) و(حيلة) في سياق النفي لإفادة العموم. وقوله: (**إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ وَلانِي أَمْرَكُمْ**) في قوله: (ولَّاني) أسند الفعل إلى الله تعالى هنا لينبِّه أنَّ توليته عليهم إنَّما هي بتقدير الله ومشيئته، وأكَّد ذلك بـ(إنَّ) و(قد). وقوله: (**وَقَدْ عَلِمْتُ أَنْفَعَ مَا بِحَضْرَتِكُمْ لَكُمْ**) الاسم الموصول (ما) يفيد العموم. وقوله: (**وَإِنِّي أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِينَنِي عَلَيْهِ، وَأَنْ يَحْرُسَنِي عِنْدَهُ، كَمَا حَرَسَنِي عِنْدَ غَيْرِهِ، وَأَنْ يُلْهِمَنِي الْعَدْلَ فِي قَسْمِكُمْ كَالَّذِي أَمَرَ بِهِ**) قوله: (أسأل) جاء بصيغة المضارع لإفادة التجدُّد وتكرار سؤال الله تعالى. وقوله: (كالذي أمر به) استخدم الاسم الموصول (الذي) للتعيين، وهذا الاسم الموصول وصف لمحذوف، والتقدير: (كالقَسْم الذي أمر به). وقوله: (**وَإِنِّي امْرُؤٌ**

مُسْلِمٌ، وَعَبْدٌ ضَعِيفٌ إِلا مَا أَعَانَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -) قوله: (امرؤ مسلم) وصف نفسه بأَنَّه مسلم مع أنَّ جميع المخاطبين يعلم ذلك، وذلك لينبِّههم إلى أنَّه مستسلم لأمر الله راض بقضائه وقدره. وقوله: (وعبد ضعيف إلا ما أعان الله) أردف هذا الوصف ليعلِّق قلوبهم بالله تعالى، والقصر هنا حقيقي تحقيقي. وقوله: **(وَلَنْ يُغَيِّرَ الَّذِي وُلِّيتُ مِنْ خِلافَتِكُمْ مِنْ خُلُقِي شَيْئًا إِنْ شَاءَ اللهُ، إِنَّمَا الْعَظَمَةُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَيْسَ لِلْعِبَادِ مِنْهَا شَيْءٌ، فَلا يَقُولَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ: إِنَّ عُمَرَ تَغَيَّرَ مُنْذُ وُلِّيَ)**. قوله: (ولن يغيِّر الذي ولِّيت) الاسم الموصول (الذي) صفة لمحذوف، حذف لدلالة الوصف عليه، وحُذف العائد من صلة الموصول أيضًا، وهو ضمير راجع إلى الموصوف المحذوف، والتقدير: (ولن يغيِّر الأمر الذي وليته). وقوله: (شيئًا) نكرة في سياق النفي فتفيد العموم. وقوله: (إنَّما العظمة لله) جاء بهذه الجملة اعتذارًا عن أيِّ تقصير يحصل منه؛ إذ العظمة والكمال لله وحده، والقصر هنا حقيقي تحقيقي. وقوله: (فلا يقولنَّ أحد منكم) كلمة (أحد) نكرة في سياق النهي تفيد العموم، ثمَّ خصَّص هذا العموم بقوله: (منكم). وقوله: **(فَأَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ أَوْ ظُلِمَ مَظْلَمَةً، أَوْ عَتَبَ عَلَيْنَا فِي خُلُقٍ، فَلْيُؤْذِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ)** قوله: (رجل) نكرة في سياق الشرط تفيد العموم، وتقديم الجارِّ والمجرور (له) على (حاجة) لكمال العناية، وتنكير (حاجة) للتصغير؛ أي: وإن كانت حاجته صغيرة فلا يتردَّد في طلبها. وقوله: (أو ظُلم مظلمة) بنى الفعل (ظُلم) للمفعول ليشمل كلَّ فاعل، ليُقبِل صاحبُ المظلمة أيًّا كان ظالمه، وتنكير (مظلمة) للتصغير كما في (حاجة). وقوله: (فإنَّما أنا رجل منكم) القصر هنا حقيقي تحقيقي، أي أنا منكم لست من غيركم فلا يتردَّدنَّ أحد في طلب حاجته مني. وقوله: **(فَعَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللهِ فِي سِرِّكُمْ وَعَلانِيَتِكُمْ، وَحُرُمَاتِكُمْ**

وَأَعْرَاضِكُمْ) بين (سركم) و(علانيتكم) طباق. وبين (علانيتكم) و(أعراضكم) سجع.

وقوله: (**فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ هَوَادَةٌ**) (أحد) نكرة في سياق نفي تفيد العموم. وتنكير (هوادة) للتقليل، ونفي القليل يستلزم نفي الكثير. وقوله: (**وَأَنَا حَبِيبٌ إِلَيَّ صَلاحُكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيَّ عَتْبُكُمْ**) قابل بين (حبيب إليَّ صلاحكم) و(عزيز عليَّ عتبكم). وبين (صلاحكم) و(عتبكم) سجع.

وقوله: (**وَأَهْلُ بَلَدٍ لا زَرْعَ فِيهِ وَلا ضَرْعَ إِلا مَا جَاءَ اللهُ بِهِ إِلَيْهِ**) قوله: (لا زرعَ فيه ولا ضرع) نفى جنس (الزرع) و(الضرع) وهذا النفي يفيد استغراق أفراد الجنس. وقوله: (**وَإِنَّ اللهَّ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ وَعَدَكُمْ كَرَامَةً كَثِيرَةً**) قوله: (وعدكم) فعل ماض يدل على تحقُّق حدوثه، وأكَّد ذلك بـ(إنَّ) و(قد). وقوله: (كرامة) التنكير هنا يفيد التكثير وقد أكَّد ذلك بالوصف. وقوله: (**وَأَنَا مَسْؤولٌ عَنْ أَمَانَتِي وَمَا أَنَا فِيهِ، وَمُطَّلِعٌ عَلَى مَا بِحَضْرَتِي بِنَفْسِي إِنْ شَاءَ اللهُ، لا أَكِلُهُ إِلَى أَحَدٍ**) الاسم الموصول (ما) يفيد العموم في قوله: (وما أنا فيه) وقوله: (ما بحضرتي). وقوله (بنفسي) يرفع احتمال المجاز العقلي في (مطَّلع)، وقوله: (أحد) نكرة في سياق النفي تفيد العموم. وقوله: (**وَلا أَسْتَطِيعُ مَا بَعُدَ مِنْهُ إِلا بِالأُمَنَاءِ وَأَهْلِ النُّصْحِ مِنْكُمْ لِلْعَامَّةِ**) (أل) الداخلة على (الأمناء) لاستغراق الوصف، و(أل) الداخلة على (النصح) لاستغراق أفراد الجنس. والجارُّ والمجرور (منكم) يفيد التخصيص. وقوله: (**وَلَسْتُ أَجْعَلُ أَمَانَتِي إِلَى أَحَدٍ سِوَاهُمْ إِنْ شاء الله**) قوله (أجعل) ضمَّن هذا الفعل معنى: (أسلِّم) لذا عدَّاه بـ(إلى).

[٢٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

عِنْدَ اسْتِخْلَافِهِ بَعْدَ وَفَاةِ الصِّدِّيقِ

«إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا، أَمِنَّاهُ، وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ، وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب عموم المسلمين في أوَّل خلافته، يبيِّن لهم سياسته.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ**) تنكير (أناسًا) يفيد التهويل. وقوله: (**وَإِنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ**) أكَّد لهم انقطاع الوحي بـ(إنَّ) و(قد)، واستخدام الفعل (انقطع) يفيد تحقيق وقوعه، مع أنَّ المخاطَبين غير منكرين، ولكن لما اعتادوا مدَّة على عهد رسول الله ﷺ أنَّ الله تعالى يبيِّن لرسوله بالوحي حال الناس ناسب أن ينبِّههم عمر بهذه الصيغة المؤكَّدة أنَّ الأمر قد تغيَّر. وقوله: (**وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ**) القصر هنا حقيقي تحقيقي. والجارُّ والمجرور (لنا) قيد يبيِّن به عمر رضي الله عنه أنَّ العِبرة بما ظهر له هو لا لغيره.

وقوله: (**فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا، أَمِنَّاهُ، وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ، وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ: إِنَّ سَرِيرَتَهُ**

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٢٦٤١).

حَسَنَةٌ) قوله: (خيرًا) و(سوءًا) نكرة في سياق الشرط تفيد العموم، وقد قابل هنا بين: (فمن أظهر لنا خيرًا أمنَّاه وقرَّبناه) و(ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه ولم نصدِّقه)، ولكن قال في الجملة الأولى: (وقرَّبناه) ولم يقابلها في الجملة الثانية بقول: (باعدناه) لئلَّا يُقنِّط من أظهر سوءًا من الرجوع إلى الحقِّ. وقال في الجملة الثانية: (ولم نصدِّقه) ولم يقابلها في الجملة الأولى بقول: (صدَّقناه) لأنَّ التصديق منزلة أعلى مِن أن يحظى بها مَن أظهر الخير مرَّة فحسب. وقوله: (ليس لنا من سريرته شيء) كلمة (شيء) نكرة في سياق النفي تفيد العموم. وقوله: (وإن قال: إنَّ سريرته حسنة) جملة شرطية حُذف جوابها لتقدُّم ما يدلُّ عليه، والتقدير: (فلن نصدِّقه ولن نأمنه).

[٢٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لَمَّا تَوَلَّى الْخِلَافَةَ

«ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ إِذَا قُلْتُهَا فَهَيْمِنُوا عَلَيْهَا: اللَّهُمَّ إِنِّي ضَعِيفٌ فَقَوِّنِي، اللَّهُمَّ إِنِّي غَلِيظٌ فَلَيِّنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي بَخِيلٌ فَسَخِّنِي»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (هيمنوا عليها): كونوا رقيبين على التزامي بها.

مقتضى الحال: يخاطب عموم المسلمين بعد توليه الخلافة عليهم.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه بما فيه لفت انتباه وتشويق للمخاطب، فقال: **(ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ إِذَا قُلْتُهَا فَهَيْمِنُوا عَلَيْهَا)** فتقديم المفعول (ثلاث) على عامله فيه لفت انتباه المخاطَب، وذكر العدد فيه تشويق له لمعرفة مضمونه والمقصود منه فيكون أكثر استعدادًا لتلقِّي الكلام. والمقصود بالكلمات هنا جُمَل، لكنَّه عبَّر عنها بالكلمات ليستسهل حفظها السامع، والتعبير عن الجملةِ بالكلمة كثيرٌ في لسان العربِ وله أمثلةٌ كثيرة في كتاب الله تعالى.

وقوله: **(اللَّهُمَّ إِنِّي ضَعِيفٌ فَقَوِّنِي، اللَّهُمَّ إِنِّي غَلِيظٌ فَلَيِّنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي بَخِيلٌ**

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبَقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٢٧٤، والدُّولابيُّ في «الكُنَى والأسماءِ» (١١٧٧)، والخَلَّالُ في «السُّنَّةِ» (٤٠٠)، وأبو نُعَيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥٣.

فَسَخِّنِي) هذه الأدعية الثلاثة مرت بنا من قبلُ في الأثر العشرين، وكأنَّ عمرَ رضي الله عنه كان يكثر من ذكرها، وقد تقدَّم الكلام عليها في الموضع المتقدِّم.

[٢٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

حِينَ تَوَلَّى الْخِلَافَةَ

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ تُؤْنِسُونَ مِنِّي شِدَّةً وَغِلْظَةً، وَذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكُنْتُ عَبْدَهُ وَخَادِمَهُ، وَكَانَ كَمَا قَالَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فَكُنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالسَّيْفِ الْمَسْلُولِ إِلَّا أَنْ يَغْمِدَنِي أَوْ يَنْهَانِي عَنْ أَمْرٍ فَأَكُفَّ، وَإِلَّا أَقْدَمْتُ عَلَى النَّاسِ لِمَكَانِ لِينِهِ، فَلَمْ أَزَلْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ وَهُوَ عَنِّي رَاضٍ، وَالْحَمْدُ للهِ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرًا، وَأَنَا بِهِ أَسْعَدُ، ثُمَّ قُمْتُ ذَلِكَ الْمَقَامَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَهُ، وَكَانَ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ فِي كَرَمِهِ وَدَعَتِهِ وَلِينِهِ، فَكُنْتُ خَادِمَهُ، وَكُنْتُ كَالسَّيْفِ الْمَسْلُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ أَخْلِطُ شِدَّتِي بِلِينِهِ، إِلَّا أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَيَّ فَأَكُفَّ وَإِلَّا أَقْدَمْتُ، فَلَمْ أَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ وَهُوَ عَنِّي رَاضٍ، وَالْحَمْدُ للهِ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرًا، وَأَنَا بِهِ أَسْعَدُ، ثُمَّ صَارَ أَمْرُكُمُ الْيَوْمَ إِلَيَّ، وَأَنَا أَعْلَمُ، فَسَيَقُولُ قَائِلٌ: كَانَ لَيَشْتَدُّ عَلَيْنَا وَالْأَمْرُ إِلَى غَيْرِهِ، فَكَيْفَ إِذَا صَارَ إِلَيْهِ؟ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَا تَسْأَلُونَ عَنِّي أَحَدًا، قَدْ عَرَفْتُمُونِي وَجَرَّبْتُمُونِي، وَعَرَفْتُ مِنْ سُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ مَا عَرَفْتُ، وَمَا أَصْبَحْتُ نَادِمًا عَلَى شَيْءٍ أَكُونُ أُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْهُ إِلَّا وَسَأَلْتُهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ شِدَّتِي الَّتِي كُنْتُمْ تَرَوْنَ قَدِ ازْدَادَتْ أَضْعَافًا إِذْ صَارَ الْأَمْرُ إِلَيَّ عَلَى الظَّالِمِ وَالْمُتَعَدِّي، وَالْأَخْذَ لِلْمُسْلِمِينَ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ قَوِيِّهِمْ، وَإِنِّي بَعْدَ شِدَّتِي تِلْكَ وَاضِعٌ خَدِّي بِالْأَرْضِ لِأَهْلِ الْعَفَافِ وَالْكَفِّ مِنْكُمْ وَالتَّسْلِيمِ، وَإِنِّي لَا

آبَى إِنْ كَانَ مِنِّي وَمِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِكُمْ أَنْ أَمْشِيَ مَعَهُ إِلَى مَنْ أَحْبَبْتُمْ مِنْكُمْ، فَلْيَنْظُرْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ، فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَأَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِكَفِّهَا عَنِّي، وَأَعِينُونِي عَلَى نَفْسِي بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِحْضَارِي النَّصِيحَةَ فِيمَا وَلَّانِي اللهُ مِنْ أَمْرِكُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب عموم المسلمين بعد تولِّيه الخلافة يبيِّن لهم سبب شدَّته.

لطائف لغوية: قوله: (**وَذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكُنْتُ عَبْدَهُ وَخَادِمَهُ**) (كنت) الأولى: تامَّة فتكتفي بمرفوعها، والثانية: ناقصة تحتاج إلى خبر.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ تُؤْنِسُونَ مِنِّي شِدَّةً وَغِلْظَةً**) بدأ كلامه بنداء المخاطَب ليلفت انتباهه، وقوله: (إنِّي قد علمت) أكَّد كلامه بـ(إنَّ) و(قد) واستعمل الفعل الماضي (علمت) ليؤكِّد حصول الفعل، كأنَّه يقول لهم: (أؤكِّد لكم علمي بما تجدون من شدَّتي وغلظتي، ومع ذلك أنا باقٍ على ما أنا عليه). وتقديم الجارِّ والمجرور (منِّي) على المفعول (شدَّة) للتخصيص. وتنكير (شِدَّة) و(غلظة) للتعظيم. وقوله: (**فَكُنْتُ عَبْدَهُ وَخَادِمَهُ**) أصل الكلام: (فكنت كعبده وخادمه) ثم حذف أداة التشبيه فصار تشبيهًا مؤكّدًا. ولم يكتف بوصف نفسه عبدًا لرسول الله ﷺ، بل أضاف أنَّه خادمه، لأنَّ العبد قد يأنف عن خدمة سيِّده، فالجمع بين العبودية والخدمة دليل كمال الطاعة. وقوله: (**فَكُنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالسَّيْفِ الْمَسْلُولِ إِلَّا أَنْ يَغْمِدَنِي أَوْ يَنْهَانِي عَنْ أَمْرٍ فَأَكُفَّ، وَإِلَّا أَقْدَمْتُ عَلَى النَّاسِ**

١- رواه الحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٤٣٤) مختصرًا، واللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (٢٥٢٦) واللَّفظُ له، والبيهقيُّ في «الاعتقادِ» ص٣٦٠، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٢٦٤-٢٦٥.

لِمَكَانِ لِينِهِ) شَبَّه نفسه بالسيف المسلول، والجامع بين المشبَّه والمشبَّه به كونُ كلٍّ منهما متأهِّب لدفع كل أذى واعتداء يعرض للنبي ﷺ. وقوله: (وإلا أقدمت على الناس) في الكلام حذف، والتقدير: (وإن لا يغمدْني أو ينهني أقدمت على الناس). وهذه الصورة التي رسمها عمر رضي الله عنه لنفسه تظهر مدى حبِّه وبذله من أجل النبي ﷺ. وقوله: (**فَلَمْ أَزَلْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ وَهُوَ عَنِّي رَاضٍ**) قوله: (على ذلك) استخدم اسم الإشارة لاستحضار الصورة السابقة في ذهن المخاطب. وقوله: (وهو عني راضٍ) تقديم الجارِّ والمجرور على عامله (راضٍ) لكمال الاهتمام والعناية. وقوله: (**ثُمَّ قُمْتُ ذَلِكَ الْمَقَامَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللهِ**) استعمال اسم الإشارة هنا لاستحضار الصورة السابقة مرة أخرى، وأنَّ عمر كان لأبي بكر كما كان للنبي ﷺ، وقوله: (مع أبي بكر خليفة رسول الله) أضاف وصف (خليفة رسول الله) ليبيِّن موجب تلك المعاملة، وهو أنَّ أبا بكر استوجب تلك المعاملة التي كان يعامل بها عمرُ النبي ﷺ لأنّه صار الخليفة بعده.

وقوله: (**وَكُنْتُ كَالسَّيْفِ الْمَسْلُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ أَخْلِطُ شِدَّتِي بِلِينِهِ**) قوله في حقِّ أبي بكر: (أخلط شدَّتي بلينه) وقد قال قبلُ في حديثه عن النبيِّ ﷺ: (وكنت بين يديه كالسيف المسلول ... لمكان لينه) يدلُّ على أنَّه كان أجرأ على أبي بكر منه على النبي ﷺ، إذا الخلط فيه مزيد جرأة. وقوله: (**إِلَّا أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَيَّ فَأَكُفَّ وَإِلَّا أَقْدَمْتُ**) في الكلام حذف، والتقدير: (وإن لا يتقدَّمْ إليَّ أقدمت). وقوله: (**ثُمَّ صَارَ أَمْرُكُمُ الْيَوْمَ إِلَيَّ، وَأَنَا أَعْلَمُ، فَسَيَقُولُ قَائِلٌ: كَانَ لَيَشْتَدُّ عَلَيْنَا وَالْأَمْرُ إِلَى غَيْرِهِ، فَكَيْفَ إِذَا صَارَ إِلَيْهِ؟**) (أل) الداخلة على (اليوم) للعهد الذهني ولا يراد بها تعيين يوم بعينه، وقوله: (وأنا أعلم) حذف مفعول (أعلم) لتذهب نفس السامع في تقديره كلَّ مذهب.

وقوله: (فسيقول قائل) تنكير الفاعل وإبهامه لاحتمال تعدُّده. وقوله: (ليشتدَّ علينا) أكَّد باللام لعلمه يقين الناس ببقاء شِدَّته. والاستفهام في قوله: (فكيف إذا صار الأمر إليه؟) للتهويل. وقوله: (**وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَا تَسْأَلُونَ عَنِّي أَحَدًا، قَدْ عَرَفْتُمُونِي وَجَرَّبْتُمُونِي**) قوله: (لا تسألون) هذا النفي للحاضر والمستقبل؛ أي: لا تسألون في الحال ولن تسألوا بعدُ، وقوله: (أحدًا) نكرة في سياق النفي لإرادة العموم. وقوله: (قد عرفتموني وجرَّبتموني) جواب لسؤال محذوف، كأنَّ المخاطَب يقول: (لِمَ لا نسأل عنك؟)، لذا فصل هذه الجملة ولم يصلها بالواو. وقوله: (**وَعَرَفْتُ مِنْ سُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ مَا عَرَفْتُ**) قوله: (ما عرفت) أبهم ما يعرفه من السنَّة للتكثير والتعظيم.

وقوله: (**وَمَا أَصْبَحْتُ نَادِمًا عَلَى شَيْءٍ أَكُونُ أُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْهُ إِلَّا وَسَأَلْتُهُ**) القصر هنا حقيقي تحقيقي. وقوله: (**وَاعْلَمُوا أَنَّ شِدَّتِي الَّتِي كُنْتُمْ تَرَوْنَ قَدِ ازْدَادَتْ أَضْعَافًا إِذْ صَارَ الْأَمْرُ إِلَيَّ عَلَى الظَّالِمِ وَالْمُتَعَدِّي، وَالْأَخْذِ لِلْمُسْلِمِينَ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ قَوِيِّهِمْ**) قوله: (شِدَّتي التي كنتم ترون) استعمل الاسم الموصول لوصف الشِدَّة بما تضمَّنته صلة الموصول، وهو أنَّ المخاطَب كان يراها قبل تولِّي عمر الخلافة، وفي الكلام تجوُّز؛ إذ الشدَّة لا تُرى وإنما يُرى أثرها. و(أل) في (الظالم) و(المعتدي) و(المسلمين) لاستغراق أفراد الجنس. وقوله: (والأخذ للمسلمين لضعيفهم من قويِّهم) استعمال البدل هنا يعلِّق الحكم في ذهن السامع بالمبدل منه (المسلمين) ابتداءً، فإذا استقرَّ في ذهنه الحكم تعلَّق بالبدل (ضعيفهم) على وجه التخصيص فيكون أثبت في الذهن وأمكن. وقوله: (**وَإِنِّي بَعْدَ شِدَّتِي تِلْكَ وَاضِعٌ خَدِّي بِالْأَرْضِ لِأَهْلِ الْعَفَافِ وَالْكَفِّ مِنْكُمْ وَالتَّسْلِيمِ**) قوله: (بعد شِدَّتي تلك) استعمال اسم الإشارة هنا يفيد استحضار معنى الشِدَّة في الذهن. وقوله: (واضعٌ

خدِّي بالأرض) اسم الفاعل (واضع) يدل على ثبوت الحكم واستقراره، والباء في (بالأرض) تفيد الإلصاق، فتدلُّ على كمال الخضوع والتواضع. وقوله: (والكفِّ منكم) الجارُّ والمجرور (منكم) يفيد تخصيص الحكم بالمخاطَب. وقوله: (**وَإِنِّي لَا آبى إِنْ كَانَ مِنِّي وَمِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِكُمْ أَنْ أَمْشِيَ مَعَهُ إِلَى مَنْ أَحْبَبْتُمْ مِنْكُمْ**) قول: (وإنِّي لا آبى) التعبير هنا بالجملة الاسميَّة يدل على ثبوت هذا الأمر عنده، بخلاف ما لو قال ابتداءً: (ولا آبى). وقوله: (إن كان مني ومن أحد منكم شيء من أحكامكم) جواب هذه الجلمة الشرطية محذوف لدلالة السياق عليه، وتنكير (شيء) للتقليل، وتوسط جملة الشرط بين الفعل (آبى) ومفعوله لتنبيه المخاطب على مضمونها. وقوله: (من أحببتم منكم) استعمال الاسم الموصول هنا لزيادة تقرير ما سيق له الكلام. وقوله: (**وَأَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِكَفِّهَا عَنِّي، وَأَعِينُونِي عَلَى نَفْسِي بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ**) شخَّص النفس فأعطاها صفة إنسان يحاول الاعتداء عليه، فطلب كفَّ اعتدائه والإعانة عليه.

[٢٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

حِينَ تَوَلَّى الْخِلَافَةَ

«مَا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيَرَانِي أَنْ أَرَى نَفْسِي أَهْلًا لِمَجْلِسِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -» فَنَزَلَ مِرْقَاةً، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ تُعْرَفُوا بِهِ، وَاعْمَلُوا بِهِ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ يَوْمَ تُعْرَضُونَ عَلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - **{لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}** [الحاقة: ١٨]، إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ حَقُّ ذِي حَقٍّ أَنْ يُطَاعَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، أَلَا وَإِنِّي أَنْزَلْتُ نَفْسِي مِنْ مَالِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِمَنْزِلَةِ وَلِيِّ الْيَتِيمِ، إِنِ اسْتَغْنَيْتُ عَفَفْتُ، وَإِنِ افْتَقَرْتُ أَكَلْتُ بِالْمَعْرُوفِ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (مَرقاةً) بفتح الميم وكسرها، هي الدَّرجة.

مقتضى الحال: يخاطبُ عمرُ رضي الله عنه الناس بعد استخلافه عليهم عقب وفاة أبي بكرٍ رضي الله عنه مُبيِّنًا طرفًا من سياسته وطريقته معهم.

١- رواهُ الدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (١٢٩١) [ورواه ابن قتيبة بسنده في عيون الأخبار بأطول مما هنا وأجود سياقا (١/ ٥٤-٥٥)].

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا كَانَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لِيَرَانِي أَنْ أَرَى نَفْسِي أَهْلًا لِمَجْلِسِ أَبِي بَكْرٍ** رضي الله عنه) استخدام لام الجحود في حقِّ الله تعالى مبالغة في نفي حدوث الفعل. وقوله: (**اقرؤوا الْقُرْآنَ تُعْرَفُوا بِهِ**) بني الفعل (تعرفوا) للمفعول لئلَّا يتقيَّد بفاعل بعينه. وقوله: (**وَاعْمَلُوا بِهِ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ**) بين (تعرفوا به) و(من أهله) سجع. وقوله: (**وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ يَوْمَ تُعْرَضُونَ عَلَى اللهِ**) قوله: (تزيَّنوا) أي بالأعمال الصالحة، ففي الكلام استعارة، إذ شبَّه الأعمال الصالحة بلباس حسن يتزيَّن به المرء، ثم حذف المشبه به، وحذف المشبَّه للعلم به. وبين (للعرض) و(تعرضون) مشاكلة. وقوله: (**إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ حَقُّ ذِي حَقٍّ أَنْ يُطَاعَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ**) قوله: (حقُّ ذي حقٍّ) إضافة الحق إلى صاحبه مبالغة في التعميم. وقوله: (**أَلَا وَإِنِّي أَنْزَلْتُ نَفْسِي مِنْ مَالِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِمَنْزِلَةِ وَلِيِّ الْيَتِيمِ**) كان يمكن أن يستعمل أسلوب التشبيه، فيقول: (آخذ من مال الله كأخذ وليِّ اليتيم من مال اليتيم)، لكنَّ العبارة التي أتى بها أصرح في التقيُّد بالحدِّ، فعدل عن أسلوب التشبيه؛ لأنَّ المعلوم أنَّ المشبَّه دون المشبَّه به.

[٢٧]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي شَأْنِ صَدَقَاتِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

«أَنْشُدُكُمَا بِاللهِ، هَلْ تَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالَا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنِّي أُحَدِّثُكُمْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، إِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ - كَانَ خَصَّ رَسُولَهُ ﷺ فِي هَذَا الْفَيْءِ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا غَيْرَهُ، فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦]، فَكَانَتْ هَذِهِ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ وَاللهِ مَا احْتَازَهَا دُونَكُمْ، وَلَا اسْتَأْثَرَهَا[١] عَلَيْكُمْ، لَقَدْ أَعْطَاكُمُوهَا وَقَسَمَهَا فِيكُمْ حَتَّى بَقِيَ هَذَا الْمَالُ مِنْهَا، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِمْ مِنْ هَذَا الْمَالِ، ثُمَّ يَأْخُذُ مَا بَقِيَ فَيَجْعَلُهُ مَجْعَلَ مَالِ اللهِ، فَعَمِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَيَاتَهُ، ثُمَّ تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَأَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَبَضَهُ أَبُو بَكْرٍ فَعَمِلَ فِيهِ بِمَا عَمِلَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ»، فَأَقْبَلَ عَلَى عَلِيٍّ، وَعَبَّاسٍ، وَقَالَ: «تَذْكُرَانِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ فِيهِ كَمَا تَقُولَانِ، وَاللهُ يَعْلَمُ: إِنَّهُ فِيهِ لَصَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ؟ ثُمَّ تَوَفَّى اللهُ أَبَا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: أَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ، فَقَبَضْتُهُ سَنَتَيْنِ مِنْ إِمَارَتِي أَعْمَلُ فِيهِ بِمَا عَمِلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَاللهُ يَعْلَمُ: إِنِّي فِيهِ صَادِقٌ

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ١/ ٢٢: (الاستئثار: الانفراد بالشَّيءِ ... ومنهُ حديثُ عمرَ) أي هذا.

بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ؟ ثُمَّ جِئْتُمَانِي كِلَاكُمَا، وَكَلِمَتُكُمَا وَاحِدَةٌ وَأَمْرُكُمَا جَمِيعٌ، فَجِئْتَنِي - يَعْنِي عَبَّاسًا - فَقُلْتُ لَكُمَا: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**» فَلَمَّا بَدَا لِي أَنْ أَدْفَعَهُ إِلَيْكُمَا، قُلْتُ: إِنْ شِئْتُمَا دَفَعْتُهُ إِلَيْكُمَا، عَلَى أَنَّ عَلَيْكُمَا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ: لَتَعْمَلَانِ فِيهِ بِمَا عَمِلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَمَا عَمِلْتُ فِيهِ مُنْذُ وَلِيتُ، وَإِلَّا فَلَا تُكَلِّمَانِي، فَقُلْتُمَا: ادْفَعْهُ إِلَيْنَا بِذَلِكَ، فَدَفَعْتُهُ إِلَيْكُمَا، أَفَتَلْتَمِسَانِ مِنِّي قَضَاءً غَيْرَ ذَلِكَ، فَوَاللهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، لَا أَقْضِي فِيهِ بِقَضَاءٍ غَيْرِ ذَلِكَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، فَإِنْ عَجَزْتُمَا عَنْهُ فَادْفَعَا إِلَيَّ فَأَنَا أَكْفِيكُمَاهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب العباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما بعد أن راجعاه في شأن نصيب أهل البيت من الفيء.

البيان والبلاغة: بدأ الكلام بقول: (أنشدكما الله) ليدل على أهمِّية ما سيسأل عنه في قوله: (**أَنْشُدُكُمَا بِاللهِ، هَلْ تَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَالَ ذَلِكَ؟**) والاستفهام هنا للتقرير. ثم صدَّر حديثه بقول: (**فَإِنِّي أُحَدِّثُكُمْ عَنْ هَذَا الأَمْرِ**) ليسترعي سمعهما، واستعمال الفعل المضارع (أحدِّثكم) من غير إدخال حرف تسويف عليه يدلُّ على شروعه في الحديث. وعدوله عن خطاب الاثنين إلى خطاب الجميع إشارة إلى أنَّ الكلام موجَّه إليهما وإلى من خلفهما مِن أهل البيت. وقوله: (هذا الأمر) يدلُّ استعمال اسم الإشارة للقريب على أنَّه سيحدِّث عن الأمر خبيرٌ به كأنَّما يعاينه

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٤٠٣٣)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (٤٢٥)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٢٧٣٠).

أمامه. وقوله: (**إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ كَانَ خَصَّ رَسُولَهُ ﷺ فِي هَذَا الفَيْءِ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا غَيْرَهُ**) قوله: (كان خصَّ) زيادة (كان) للتوكيد. وقوله: (في هذا الفيء بشيء) استعمال اسم الإشارة لاستحضار صورة المشار إليه في ذهن المخاطب، وتنكير (شيء) للتعظيم، وتنكير (أحدًا) في سياق النفي للتعميم.

وقوله: (**ثُمَّ - وَاللهِ - مَا احْتَازَهَا دُونَكُمْ، وَلاَ اسْتَأْثَرَهَا عَلَيْكُمْ، لَقَدْ أَعْطَاكُمُوهَا وَقَسَمَهَا فِيكُمْ حَتَّى بَقِيَ هَذَا المَالُ مِنْهَا**) النفي في قوله: (ما احتازها دونكم، ولا استأثرها عليكم) يثير في نفس السامع تساؤلًا عمَّا فعل فيها، فجاء بالجواب، فقال: (لقد أعطاكموها وقسمها فيكم) فهذه الجملة جواب لسؤال مقدَّر. وقوله: (قسمها فيكم) استعمال حرف الجرِّ (في) يشير بدلالته على معنى الظرفية إلى أنَّ القسمة لم تخرج عنهم؛ فهم محلُّ قَسْمها. وقوله: (**فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِمْ مِنْ هَذَا المَالِ**) قوله: (ينفق على أهله) استعمال الفعل المضارع (ينفق) يدل على أنَّ الإنفاق لم يكن في السنة دفعة واحدة، وإنَّما يستمر الإنفاق على طول السنة. وقوله: (**ثُمَّ يَأْخُذُ مَا بَقِيَ فَيَجْعَلُهُ مَجْعَلَ مَالِ اللهِ**) الاسم الموصول (ما) يفيد العموم، وفي صلة الموصول حذف، والتقدير: (ما بقي منها)، فحذف الجار المجرور (منها) لدلالة الكلام عليه. وقوله: (**فَعَمِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَيَاتَهُ**) انتصاب كلمة (حياته) على الظرفية إشارة إلى أنَّه ﷺ عمل بذلك إلى آخر حياته، ولو قال: (في حياته) لاحتمل المعنى أنَّه عمل ذلك مرة أو مرتين فقط.

وقوله: (**فَقَبَضَهُ أَبُو بَكْرٍ فَعَمِلَ فِيهِ بِمَا عَمِلَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ**) قوله: (فعمل فيه بما عمل به رسول الله) يقتضي هذا التعبير المطابقة التامة بين العملَين، فهو أبلغ مما لو قال: (فعمل فيه بمثل ما عمل رسول الله) على سبيل التشبيه، إذ

المماثلة لا يلزم منها المطابقة. وقوله: (وأنتم حينئذ) حذف خبر المبتدأ لكمال علم المخاطب به، والتقدير: (وأنتم - حينئذٍ - شاهدون). وقوله: (**تَذْكُرَانِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ فِيهِ كَمَا تَقُولاَنِ، وَاللهُ يَعْلَمُ: إِنَّهُ فِيهِ لَصَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ؟**) في الكلام أداة استفهام مقدَّرة، أي: (أتذكران ...)، والاستفهام للتعجُّب، وقوله: (كما تقولان) لم يصرِّح بوصفهما الذي وصفا به أبا بكر كأنَّه كره إعادته. وقوله: (والله يعلم إنَّه فيه لصادق بارٌّ راشد تابع للحقِّ) أكَّد كلامه بالقسم و(إنَّ) واللام لينفي عن أبي بكر ما قاله عنه علي والعباس رضي الله عنهما. وقوله: (**أَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللهِ** ﷺ) هذه الجملة الاسمية تعرَّف فيها طرفا الإسناد فتفيد القصر؛ أي: (أنا ولي رسول الله لا غيري). وقوله: (**واللهُ يَعْلَمُ: أَنِّي فِيهِ صَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ**) أكَّد كلامه في حقِّ نفسه بالقَسَم و(أنَّ) ولم يؤكِّده باللام لكمال أدبه مع أبي بكر، فمقتضى ذلك أنَّه يشهد لأبي بكر بالصدق والبر والرشد واتِّباع الحق فوق ما يشهد لنفسه.

وقوله: (**ثُمَّ جِئْتُمَانِي كِلاَكُمَا، وَكَلِمَتُكُمَا وَاحِدَةٌ وَأَمْرُكُمَا جَمِيعٌ**) قوله: (كلاكما) إشارة إلى أنَّ كلَّ واحد منهما جاء بإرادته من غير أن يجبره الآخر، وما قاله بعدُ يدلُّ على ذلك أيضًا. وقوله للعبَّاس: (**فَجِئْتَنِي، فَقُلْتُ لَكُمَا**) فيه إشارة إلى أنَّ عليًّا قدَّم عمَّه العبَّاس ليكلِّم عمر. وقوله: (**عَلَى أَنَّ عَلَيْكُمَا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ: لَتَعْمَلاَنِ فِيهِ بِمَا عَمِلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ** ﷺ **وَأَبُو بَكْرٍ وَمَا عَمِلْتُ فِيهِ مُنْذُ وَلِيتُ**) قوله: (على أنَّ عليكما عهد الله) قدَّم خبرَ أنَّ وهو الجارُّ والمجرور (عليكما) على اسمها للاهتمام والتخصيص. وقوله: (لتعملان فيه بما عمل فيه رسول الله) هذه الجملة جواب لسؤال محذوف، تقديره: (ما العهد الذي علينا؟). وقوله: (منذ وَلِيتُ) حذف المفعول لعلم المخاطَب به، والتقدير: (وليت الخلافة). وقوله: (**وَإِلا فَلاَ تُكَلِّمَانِي**)

هذه الجملة الشرطية فعل الشرط فيها محذوف لدلالة السياق عليه، والتقدير: (إلا تعملا فيه بما عمل فيه رسول الله فلا تكلِّماني). وقوله: (**أَفَتَلْتَمِسَانِ مِنِّي قَضَاءً غَيْرَ ذَلِكَ؟**) الاستفهام هنا للإنكار. وقوله: (**فَوَاللهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ**) الوصف هنا بالاسم الموصول لقصد الوصف بما تضمَّنته صلته. وتقديم الجارِّ والمجرور (بإذنه) على عامله (تقوم) للتخصيص. وقوله: (**فَإِنْ عَجَزْتُمَا عَنْهُ فَادْفَعَا إِلَيَّ فَأَنَا أَكْفِيكُمَاهُ**) حذف مفعول (فادفعا) لعلم المخاطَب به.

[٢٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، لَا تَدْخُلُوا عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا مَسْخَطَةٌ لِلرِّزْقِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب المهاجرين يحذِّرهم من مخالطة أهل الدنيا المنغمسين بها.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه بأسلوب النداء، فقال: (**يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ**) لينبِّه المخاطب أنَّ الكلام موجَّه إليه فيكون ذلك أدعى لاستجابته. وقوله: (**لَا تَدْخُلُوا عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا**) شبَّه أهل الدنيا المنغمسين في ملذَّاتها بأناس في بيت منشغلين بما فيه من ملذَّات، فنهى المهاجرين من الدُّخول عليهم في بيتهم، لئلَّا ينجرُّوا إلى الانشغال بما انشغل به أولئك، فالنهي عن الدخول مبالغة في الابتعاد واجتناب الاختلاط. وقوله: (**فَإِنَّهَا مَسْخَطَةٌ لِلرِّزْقِ**) بيَّن بهذة الجملة عِلَّة الأمر بعدم الدخول على أهل الدنيا، والضمير في (فإنَّها) عائد على الدنيا، فالعِلَّة ليست في أهل الدنيا لأشخاصهم، وإنَّما فيما هم فيه منشغلون. وقوله: (مسخطة) تحتمل أن تكون مصدرًا ميميًّا، أو اسم مكان للسخط، وهو أبلغ، كأنَّه يقول: (إن كنتم تظنُّون أنَّ رزقكم الذي فيه ترغبون موجود في متاع الدنيا فإيَّاكم؛ فإنَّ متاع الدنيا زائل فانٍ والدنيا مكان زواله وسخطه).

١- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (٧٦٠)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الجوعِ» (٨٠).

[٢٩]

وَمِنْ وَصِيَّةٍ لَهُ رضي الله عنه

لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه حِينَ وَجَّهَهُ إِلَى الْبَصْرَةِ

«أَبْعَثُكَ إِلَى أَخْبَثِ حَيَّيْنِ نَصَبَ لَهُمَا إِبْلِيسُ لِوَاءَهُ، وَرَفَعَ لَهُمَا عَسْكَرَهُ: إِلَى بَنِي تَمِيمٍ، أَفَظِّهِ، وَأَغْلَظِهِ، وَأَبْخَلِهِ، وَأَكْذَبِهِ؛ وَإِلَى بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، أَرْوَعِهِ[1]، وَأَخفِّهِ، وَأَطْيَشِهِ، فَلَا تَسْتَعِينُ بِأَحَدٍ مِنْهُمَا فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ»[2].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المخاطب هو أبو موسى الأشعري حين ولّاه عمر على البصرة.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَبْعَثُكَ إلى أَخْبَثِ حَيَّيْنِ نَصَبَ لَهُمَا إِبْلِيسُ لِواءَهُ، ورَفَعَ لهما عَسْكَرَهُ**) بدأ كلامه بما يشوِّق نفس المخاطب لمعرفة من المقصود بهذا الوصف. وقوله: (نصب لهما إبليس لواءه) تقديم الجارِّ والمجرور (لهما) على الفاعل (إبليس) للتنبيه وإفادة الاختصاص. وبين (لواءَه) و(عسكره) سجع. وقوله: (**إلى بني تَمِيم، أَفَظِّه، وأَغْلَظِهِ، وأَبْخَلِه، وأَكْذَبِهِ؛ وإِلَى بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، أَرْوَعِه، وأَخفِّه، وأَطْيَشِه**) قوله: (إلى بني تميم أفظّه ...) استعمل أسلوب الإبدال فعلَّق الحكم بالمبدل منه (بني تميم) ثم علَّقه بالبدل على وجه التخصيص ليكون أدعى لاستقرار الحكم في ذهن المخاطَب، كأنَّه قال له: (أبعثك إلى بني تميم، لكن ليس إلى كلِّ بني تميم؛ وإنَّما إلى أفظِّ ناس فيهم وأكثرهم غلظة وبخلًا وكذبًا)، وفي قول: (وإلى بكر بن وائل؛ أروعه ...) استعمل الأسلوب نفسه. وفي قوله: (**أبعثك إلى أخبث حيَّين ...: إلى**

١- أي: أخوفهم.

٢- رواهُ وكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ١/ ٢٨٥.

بني تميم ...، وإلى بكر بن وائل) استعمل أسلوب التوشيع، وهو من التوضيح بعد الإبهام، فالإبهام يحمل نفس المخاطب على تطلُّب معرفة توضيح هذا المبهم، وزاد هذا التطلُّب اتِّصاف هذا المبهم بالصفات المذكورة، فلما جاء التوضيح كان أشد وقعًا في نفس المخاطب. وإعادة حرف الجرِّ (إلى) في قوله: (إلى بني تميم) وقوله: (وإلى بكر بن وائل) لطول الفصل. وبين: (**أَفَظِّهِ**) و(**أَغْلَظِهِ**) و(**أَبْخَلِهِ**) و(**أَكْذَبِهِ**) و(**أَرْوَعِهِ**) و(**أَخَفِّهِ**) و(**أَطْيَشِهِ**) جناس.

وقوله: (**فَلَا تَسْتَعِينُ بِأَحَدٍ منهُمَا في شيءٍ من أَمْرِ المُسْلِمِينَ**) قوله: (فلا تستعينُ) (لا) نافية يراد بها النهي، فجملة (لا تستعين) خبرية يراد بها الطلب، فتكون آكد لامتثال المخاطب وقيامه بالطلب، كأنَّ الأمر قد حصل فصحَّ الإخبار عنه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة:٢٣٣].

[٣٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلَا أَنْ أَتْرُكَ آخِرَ النَّاسِ بَبَّانًا[١] لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ، مَا فُتِحَتْ عَلَيَّ قَرْيَةٌ إِلَّا قَسَمْتُهَا كَمَا قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْبَرَ[٢]، وَلَكِنِّي أَتْرُكُهَا خِزَانَةً لَهُمْ يَقْتَسِمُونَهَا»[٣].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب من حضره من المسلمين بشأن تقسيم الغنائم بين المسلمين.

١- أي: أتركُهم شيئًا واحدًا؛ لأنَّهُ إذا قَسَمَ البلادَ المفتوحةَ على الغانمينَ؛ بَقِيَ مَن لم يَحْضُرِ الغنيمةَ، ومَن يجيءُ بعدُ مِن المسلمينَ بغيرِ شيءٍ منها، فلذلك تركَها لتكونَ بينهم جميعِهم. قال أبو عُبَيدٍ: ولا أحسبُه عربيًّا. وقال أبو سعيدٍ الضَّريرُ: ليسَ في كلامِ العربِ «بَبَّان». والصَّحيحُ عندَنا «بَيَّانًا وَاحِدًا»، والعربُ إذا ذَكَرتْ مَن لا يُعرَفُ قالوا: «هَيَّان بنُ بَيَّان». المعنى: لأُسَوِّيَنَّ بينَهُمْ في العطاءِ، حتَّى يكونوا شيئًا واحدًا لا فَضْلَ لأحدٍ على غيرِه. قال الأزهريُّ: ليسَ كما ظَنَّ. وهذا حديثٌ مشهورٌ رواهُ أهلُ الإتقانِ. وكأنَّها لغةٌ يمانيَّةٌ، ولم تَفْشُ في كلامِ مَعَدٍّ، وهو والبَأْجُ بِمعنًى واحدٍ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (ببان).

٢- خيبر: بلدٌ كثيرُ الماءِ والزَّرعِ والأهلِ، وكانَ يُسمَّى ريفَ الحجازِ، وأكثرُ محصولاتِه التَّمرُ؛ لِكثرةِ نخلِه الَّذي يُقدَّرُ بالملايينِ، وقديمًا قالَ حسَّانُ:

فإنَّا ومَن يُهدِي القصائدَ نحوَنا ... كمُستبضِعٍ تمرًا إلى أهلِ خيبرَا

ولخيبرَ أوديةٌ فحولٌ تجعلُ مياهَه ثرَّارةً تسيلُ على وجهِ الأرضِ. ويبعدُ عن المدينةِ (١٦٥) كيلًا شمالًا على طريقِ الشَّامِ المارِّ بخيبرَ فتيماءَ. «معجم المعالم الجغرافيَّة في السِّيرةِ النَّبويَّةِ» لعاتقِ الحربيِّ ١/ ١١٨.

٣- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٤٢٣٥)، ويحيى بنُ آدمَ في «الخراجِ» (١٠٦)، وابنُ زَنجُويهِ في «الأموال» (٢٢٢) بلفظِ: «وَلَمْ أَتْرُكْهَا خِزَانَةً لَهُمْ يَقْتَسِمُونَهَا»، وأبو يعلى في «المُسنَدِ» (٢٢٤)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٢٨٢٢) و(١٢٨٣٠).

البيان والبلاغة: افتتح الكلام بالقسَم ليشعر بأهمِّيَّة مضمون الكلام الذي سيقوله، فقال: (**أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**). وأمَّا قوله: (**لَوْلاَ أَنْ أَتْرُكَ آخِرَ النَّاسِ بَبَّانًا لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ**) (أل) في (الناس) للعهد الذهني، ويقصد بهم المسلمين لا عموم الناس. وجملة (ليس لهم شيء) تفسيرية لما قبلها لذا جاءت مفصولة من غير عطف بالواو. و(شيء) نكرة في سياق النفي تفيد العموم لكنَّ هذا العموم مخصَّص بمحذوف يُفهم من السياق، والتقدير: (ليس لهم شيء ينفقون منه على أنفسهم). والمبتدأ بعد (لولا) محذوف لعلم المخاطب به، والتقدير: (لولا خشية أن أترك الناس ببَّانًا ليس لهم شيء) وكأنَّه حذف المبتدأ وترك المضاف إليه ليشير إلى أنَّ ما يخشاه حاصل لا محالة إذا قسم الغنائم كلَّها بين الناس. وقوله: (**مَا فُتِحَتْ عَلَيَّ قَرْيَةٌ إِلَّا قَسَمْتُهَا كَمَا قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْبَرَ**) بناء (فُتِحَتْ) للمفعول لكمال علم المخاطب بالفاعل؛ إذ الذي يفتح عليهم هو الله تعالى. وتقديم الجارِّ والمجرور (عليَّ) على نائب الفاعل للتخصيص، وتنكير (قرية) في سياق النفي يفيد العموم. واستعمال التشبيه في (قسمتها كما قسم النبي خيبر) إشارة إلى تشبُّهه واقتدائه بالنبي ﷺ في فعله؛ إذ كان يمكنه أن يقول: (قسمتها بين الناس) ولكنَّه عدل إلى أسلوب التشبيه لينبِّه المخاطَب إلى حرصه على الاقتداء بالنبي ﷺ. وقوله: (**وَلَكِنِّي أَتْرُكُهَا خِزَانَةً لَهُمْ يَقْتَسِمُونَهَا**) في قوله: (أتركها خزانة) تشبيه مؤكَّد، وأصل الكلام: (أتركها كالخزانة).

[٣١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ ذُو حَقٍّ فِي حَقِّهِ أَنْ يُطَاعَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَإِنِّي لَا أَجِدُ هَذَا الْمَالَ يُصْلِحُهُ إِلَّا خِلَالٌ ثَلَاثٌ: أَنْ يُؤْخَذَ بِالْحَقِّ، وَيُعْطَى فِي الْحَقِّ، وَيُمْنَعَ الْبَاطِلَ؛ وَإِنَّمَا أَنَا وَمَالُكُمْ كَوَلِيِّ الْيَتِيمِ إِنِ اسْتَغْنَيْتُ اسْتَعْفَفْتُ، وَإِنِ افْتَقَرْتُ أَكَلْتُ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَسْتُ أَدَعُ أَحَدًا يَظْلِمُ أَحَدًا وَلَا يَعْتَدِي عَلَيْهِ حَتَّى أَضَعَ خَدَّهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَضَعَ قَدَمِي عَلَى الْخَدِّ الْآخَرِ حَتَّى يُذْعِنَ لِلْحَقِّ، وَلَكُمْ عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ خِصَالٌ أَذْكُرُهَا لَكُمْ فَخُذُونِي بِهَا: لَكُمْ عَلَيَّ أَنْ لَا أَجْتَبِيَ شَيْئًا مِنْ خَرَاجِكُمْ وَلَا مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكُمْ إِلَّا مِنْ وَجْهِهِ، وَلَكُمْ عَلَيَّ إِذَا وَقَعَ فِي يَدِي أَنْ لَا يَخْرُجَ مِنِّي إِلَّا فِي حَقِّهِ، وَلَكُمْ عَلَيَّ أَنْ أَزِيدَ أَعْطِيَاتِكُمْ وَأَرْزَاقَكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ وَأَسُدَّ ثُغُورَكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ أَنْ لَا أُلْقِيَكُمْ فِي الْمَهَالِكِ وَلَا أُجَمِّرَكُمْ فِي ثُغُورِكُمْ[1]، وَقَدِ اقْتَرَبَ مِنْكُمْ زَمَانٌ قَلِيلُ الْأُمَنَاءِ كَثِيرُ الْقُرَّاءِ، قَلِيلُ الْفُقَهَاءِ، كَثِيرُ الْأَكْلِ، يَعْمَلُ فِيهِ أَقْوَامٌ لِلْآخِرَةِ يَطْلُبُونَ بِهِ دُنْيَا عَرِيضَةً تَأْكُلُ دِينَ صَاحِبِهَا كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ؛ أَلَا كُلُّ مَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلْيَصْبِرْ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ اللهَ عَظَّمَ حَقَّهُ فَوْقَ حَقِّ خَلْقِهِ، فَقَالَ فِيمَا عَظَّمَ مِنْ حَقِّهِ: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾، أَلَا وَإِنِّي لَمْ أَبْعَثْكُمْ أُمَرَاءَ وَلَا جَبَّارِينَ؛ وَلَكِنْ بَعَثْتُكُمْ أَئِمَّةَ الْهُدَى يُهْتَدَى بِكُمْ؛ فَأَدِرُّوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ حُقُوقَهُمْ، وَلَا تَضْرِبُوهُمْ فَتُذِلُّوهُمْ، وَلَا

١- تَجْمِير الْجَيْشِ: جَمْعهم فِي الثُّغُورِ، وحَبْسهم عَنِ الْعَوْدِ إِلَى أهْلِهِم. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (جمر).

تَحْمَدُوهُمْ فَتَفْتِنُوهُمْ، وَلَا تُغْلِقُوا الْأَبْوَابَ دُونَهُمْ فَيَأْكُلَ قَوِيُّهُمْ ضَعِيفَهُمْ، وَلَا تَسْتَأْثِرُوا عَلَيْهِمْ فَتَظْلِمُوهُمْ، وَلَا تَجْهَلُوا عَلَيْهِمْ، وَقَاتِلُوا بِهِمُ الْكُفَّارَ طَاقَتَهُمْ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ بِهِمْ كَلَالَةً فَكُفُّوا عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ. أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي أُشْهِدُكُمْ عَلَى أُمَرَاءِ الْأَمْصَارِ أَنِّي لَمْ أَبْعَثْهُمْ إِلَّا لِيُفَقِّهُوا النَّاسَ فِي دِينِهِمْ وَيَقْسِمُوا عَلَيْهِمْ فَيْأَهُمْ وَيَحْكُمُوا بَيْنَهُمْ؛ فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ رَفَعُوهُ إِلَيَّ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (أجمركم في ثغوركم) أجمعكم فيها وأمنعكم من العودة إلى دياركم، و(الكلالة) هنا، يرادُ بها الضعفُ والعيُّ.

مقتضى الحال: يخاطب عموم المسلمين مبيّنًا لهم شيئًا من منهجه في التعامل معهم والحكم فيما بينهم في الأمور المالية، والشطر الثاني من هذه الخطبة موجَّه - كما يظهر - إلى عمّاله أمام عامَّة الناس.

البيان والبلاغة: بدأ بقوله: (**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ ذُو حَقٍّ فِي حَقِّهِ أَنْ يُطَاعَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ**) وفي بدئه بهذا الكلام براعة استهلال؛ إذ يبيِّن أن طلب رضا الله مقدَّم على كل شيء، وفيه إشارة إلى أنَّه سيتكلَّم بعدُ في أمور متعلِّقة بالحقوق. ثم استخدم فنَّ التقسيم، فقال: (**وَإِنِّي لَا أَجِدُ هَذَا الْمَالَ يُصْلِحُهُ إلا خِلالٌ ثَلاثٌ: أَنْ يُؤْخَذَ بِالْحَقِّ، وَيُعْطَى فِي الْحَقِ، وَيمْنَعَ الْبَاطِلِ**) والقِسمة هنا حاصرة؛ لأنَّ القصر في قوله: (لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث) حقيقي تحقيقي. وبين (يؤخذ) و(يعطى) طباق، وكذا بين (يعطى) و(يمنع). وقوله: (**وَإِنَّمَا أَنَا وَمَالُكُمْ كَوَلِيِّ الْيَتِيمِ إِنِ اسْتَغْنَيْتُ**

١- رواهُ أبو يوسفَ في «الخراجِ» ص١٣٠، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٦٤ مختصرًا.

اسْتَعْفَفْتُ، وَإِنِ افْتَقَرْتُ أَكَلْتُ بِالْمَعْرُوفِ) القصر في قوله: (إنَّما أنا ومالكم كوليِّ اليتيم) قصر إضافي، والتشبيه في قوله (كوليِّ اليتيم) تشبيه مُركَّب؛ إذ شبَّه تصرُّفه في مال المسلمين بتصرُّف الوليِّ في مال اليتيم، واختيار المشبَّه به لكون اليتيم بحاجة إلى تدبير في ماله وعناية في جميع شؤونه من قبل الوليِّ عليه، وكذا المسلمون بحاجة إلى تدبير في أموالهم وعناية في جميع شؤونهم من قبل وليِّ الأمر عليهم. وقد ذكر عمر رضي الله عنه وجه الشبه بين تصرفه في مال المسلمين وتصرف الوليِّ في مال اليتيم في قوله: (إن استغنيتُ استعففتُ، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروفِ) فهاتان الجملتان تفسير لجملة التشبيه (أنا ومالكم كوليِّ اليتيم)، ومن لطيف ذكره لوجه الشبه أنَّ مِن أولياء اليتامى مَن يأكل مال اليتيم بغير حقٍّ، فلا يفعل عمر رضي الله عنه فعلهم، وإنَّما يعمل بما أمر القرآن به. وفي قوله: (إن استغنيتُ استعففتُ، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروفِ) اقتباس من القرآن من قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:٦]. وبين (إن استغنيت استعففت) و(إن افتقرت أكلت بالمعروف) مقابلة. وقوله: **(وَلَسْتُ أَدَعُ أَحَدًا يَظْلِمَ أَحَدًا وَلا يَعْتَدِي عَلَيْهِ حَتَّى أَضَعَ خَدَّهُ عَلَى الأَرْضِ، وَأَضَعُ قَدَمِي عَلَى الْخَدِّ الآخَرِ حَتَّى يُذْعِنَ لِلْحَقِّ)** تنكير (أحدًا) في الموضعين في سياق النفي يفيد العموم، فيشمل كلَّ ظالم ومظلوم. وقوله: (حتى أضع خدَّه على الأرض وأضع قدمي على الخدِّ الآخر) كناية عن كمال القدرة على أخذ الحق مِن الظالم وإجباره على الرجوع إلى الحق. وقوله: **(وَلَكُمْ عَلَيَّ - أَيُّهَا النَّاسُ - خِصَالٌ أَذْكُرُهَا لَكُمْ فَخُذُونِي بِهَا)** تقديم الجارِّ والمجرور (عليَّ) على المبتدأ (خصال) للتخصيص، كأنَّ عمر يقول للمخاطَبين: (هذه الخصال واجبة عليَّ لكم لا على غيري). وتنكير (خصال) للتكثير. وتوسُّط جملة النداء (أيها النَّاس) بين المبتدأ والخبر لتنبيه المخاطب إلى أهمِّيَّة الكلام الموجَّه إليه ليصغي إليه سمعه. وقوله:

(لَكُمْ عَلَيَّ أَنْ لَا أَجْتَبِي شَيْئًا مِنْ خَرَاجِكُمْ وَلا مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكُمْ إِلا مِنْ وَجْهِهِ، وَلَكُمْ عَلَيَّ إِذَا وَقَعَ فِي يَدِي أَنْ لَا يَخْرُجَ مِنِّي إِلا فِي حَقه، وَلَكُمْ عَلَيَّ أَنْ أَزِيدَ أُعْطِيَاتِكُمْ وَأَرْزَاقَكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ وَأَسُدَّ ثُغُورَكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ أَنْ لَا أُلْقِيَكُمْ فِي الْمَهَالِكِ وَلا أُجَمِّرَكُمْ فِي ثُغُورِكُمْ) تكرير الجارِّ والمجرور (لكم) للتأكيد على أنَّ الكلام للمخاطَب، ولام الجرِّ تفيد التمليك فتشير إلى أنَّ هذه الخصال المذكورة حقٌّ للمخاطَب. وقوله: (لا أجتبي شيئًا) تنكير (شيئًا) في سياق النفي يفيد العموم. وقوله: (إلا من وجهه) القصر هنا حقيقي تحقيقي. وقوله: (إذا وقع في يدي أن لا يخرج مني) إضمار فاعل (وقع) و(يخرج) لكمال علم المخاطب به. وبين (وقع في يدي) و(خرج مني) مقابلة. وقوله: (ولكم عليَّ أن أزيد أعطياتكم - إن شاء الله - وأسدَّ ثُغوركم) جاء بالجملة الاعتراضية (إن شاء الله) بعد ذكر الأعطيات والأرزاق لينبِّه المخاطب إلى أنَّ الرزق بيد الله أوَّلًا وآخرًا، وعمر إنَّما يقسم بينهم، كما قال النبي -ﷺ-: **(إنّما أنا قاسمٌ واللهُ يعطي)**[1].

وقوله: **(وَقَدِ اقْتَرَبَ مِنْكُمْ زَمَانٌ قَلِيلُ الأُمَنَاءِ كَثِيرُ الْقُرَّاءِ، قَلِيل الْفُقَهَاء، كثير الْأكل، يَعْمَلُ فِيهِ أَقْوَامٌ لِلآخِرَةِ يَطْلُبُونَ بِهِ دُنْيَا عَرِيضَةً تَأْكُلُ دِينَ صَاحِبِهَا كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ)** قوله: (قد اقترب) أكَّد حصول الاقتراب بـ(قد) ومجيء الفعل بصيغة الماضي. وبين (قليل) و(كثير) طباق. وبين (الأمناء) و(القرَّاء) و(الفقهاء) سجع. وقوله: (يعمل فيه أقوام) تنكير (أقوام) للتكثير. وقوله: (يطلبون به دنيا) تنكير (دنيا) للتحقير. وقوله: (تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب) شبَّه الدنيا حين تدخل على عمل الآخرة فتفسده وتذهب ثوابه بالنار حين تدخل على الحطب فتحرقه ولا تذر منه شيئًا، فهو تشبيه مُركَّب. وفي داخل هذا التشبيه استعارة؛ إذ

١- : رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧).

شبَّه الدنيا حين تفسد عمل الآخرة بالحيوان المفترس الذي ينقض على الفريسة فيأكلها ولا يبقي منها شيئًا، وكذا استعمل الاستعارة نفسها في قوله: (كما تأكل النارُ الحطبَ).

وقوله: (**أَلا كُلُّ مَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلْيَصْبِرْ**) افتتاحه هذه الجملة بـ(ألا) لتنبيه المخاطب على أهمِّيَّة مضمونها. وكلمة (كلُّ) تفيد العموم خصَّصها بالجارِّ والمجرور (منكم). وقوله: (فليتَّقِ الله ربَّه) استعمال الإبدال (الله ربَّه) لينبِّه المخاطَب إلى أنَّ الله الذي أمره بتقواه هو خالقه ومدبِّر أموره. وقوله: (**أَلا وَإِنِّي لَمْ أَبْعَثْكُمْ أُمَرَاءَ وَلا جَبَّارِينَ؛ وَلَكِنْ بَعَثْتُكُمْ أَئِمَّةَ الْهُدَى يُهْتَدَى بِكُمْ**) قوله: (ولكن بعثتكم) عدل عن الفعل المضارع إلى الماضي ليشير إلى أنَّ هذا الأمر ثابت مستقرٌّ عنده. وقوله: (أئمَّة الهدى) (أل) الداخلة على (الهدى) للعهد الذهني، وهو الهدى الذي جاء به الإسلام. وقوله: (يهتدى بكم) جواب لسؤال محذوف، تقديره: (لِمَ بعثتنا أئمَّة الهدى؟) وقوله: (**فَأَدِرُّوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ حُقُوقَهُمْ**) شبَّه حقوق المسلمين باللَّبن على سبيل الاستعارة، فحذف المشبَّه به وأبقى شيئًا من لوازمه وهو (الدَّرُّ)، وتشبيه حقوق المسلمين باللبن لبركته والخير الذي فيه ولكونه لا ينقطع. وقوله: (**وَلا تَضْرِبُوهُمْ فَتُذِلُّوهُمْ، وَلا تَحْمَدُوهُمْ فَتَفْتِنُوهُمْ**) قابل بين (لا تضربوهم فتذلُّوهم) و(لا تحمدوهم فتفتنوهم)، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: (فتعزُّوهم) في مقابل (فتذلُّوهم)، ولكنَّه عدل إلى قوله: (فتفتنوهم) لأنَّ إعزاز المسلم مطلوب، إنَّما خشي عمر من وقوع العُجْب والكبر لكثرة الحمد فيُفْتنون. وقوله: (**وَلا تُغْلِقُوا الأَبْوَابَ دُونَهُمْ فَيَأْكُلَ قَوِيُّهُمْ ضَعِيفَهُمْ**) قوله: (لا تغلقوا الأبواب دونهم) كناية عن عدم استقبال الولاة لرعيَّـتهم. وقوله: (**فَإِذا رَأَيْتُم بِهِمْ كَلالَةً فَكُفُّوا عَنْ ذَلِكَ**

فَإِنَّ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ) استعمال اسم الإشارة (ذلك) في الموضعين لحمل المخاطب على استحضار صورة المشار إليه في الذهن. وقد راعى تناسب الفواصل في قوله: (وَلَكِنْ بَعَثْتُكُمْ أَئِمَّةَ الْهُدَى يُهْتَدَى بِكُمْ؛ فَأَدِرُّوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ حُقُوقَهُمْ، وَلا تَضْرِبُوهُمْ فَتُذِلُّوهُمْ، وَلا تَحْمَدُوهُمْ فَتَفْتِنُوهُمْ، وَلا تُغْلِقُوا الأَبْوَابَ دُونَهُمْ فَيَأْكُلَ قَوِيُّهُمْ ضَعِيفَهُمْ، وَلا تَسْتَأْثِرُوا عَلَيْهِمْ فَتَظْلِمُوهُمْ، وَلا تَجْهَلُوا عَلَيْهِمْ، وَقَاتِلُوا بِهِمُ الْكُفَّارَ طاقتهم؛ فَإِذا رَأَيْتُم بِهِمْ كَلالَةً فَكُفُّوا عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ) واستخدم السجع فيها. ثم أعاد استخدام النداء في آخر خطبته ليسترعي انتباه السامع لأهمِّيَّة ما سيذكره لهم فقال: (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي أُشْهِدُكُمْ عَلَى أُمَرَاءِ الأَمْصَارِ أَنِّي لَمْ أَبْعَثْهُمْ إِلا لِيُفَقِّهُوا النَّاسَ فِي دينهم ويَقْسِمُوا عَلَيْهِم فَيْأَهُم وَيَحْكُمُوا بَيْنَهُمْ؛ فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ رَفَعُوهُ إِلَيَّ). والقصر في قوله: (لم أبعثهم إلا ليُفقِّهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيأهم ويحكموا بينهم) قصر حقيقي تحقيقي. وقوله: (فإن أشكل عليهم شيء) تنكير (شيء) في سياق الشرط يفيد العموم فيشمل كلَّ شيء يُشكل عليهم صغيرًا كان أم كبيرًا.

[٣٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِرَجُلٍ تَعَوَّذَ بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الضَّفَاطَةِ[1]، أَتُحِبُّ أَنْ لَا يَرْزُقَكَ اللهُ مَالًا وَوَلَدًا؟ أَيُّكُمُ اسْتَعَاذَ مِنَ الْفِتَنِ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلَّاتِهَا»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الضفاطة): الجهلُ وضعف الرأي.

مقتضى الحال: يخاطب رجلًا سمعه تعوَّذ بالله من الفتن.

البيان والبلاغة: قوله: (اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك من الضَّفاطة) استخدم أسلوب التعريض، إذ عرَّض بالرجل الذي سمعه يتعوَّذ بالله مِن الفتن أنَّ فيه ضفاطةً وضعفًا في الرأي؛ لأنَّه أطلق دعاءَه في التعوُّذ مِن الفِتن، والفِتن تشمل المالَ والولدَ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن:١٥]. وقوله: (**أَتُحِبُّ أَنْ لَا يَرْزُقَكَ اللهُ مَالاً وَوَلَدًا**) هذا الاستفهام إنكاري يبيِّن فيه عُمر وجه خطأ الرجُّل في تعوُّذِه، وتنكير (مالًا وولدًا) لإرادة نوع معيَّن مِنهما، أي: مالًا مباركًا وولدًا صالحًا. وقوله: (**أَيُّكُمْ اسْتَعَاذَ مِنَ الْفِتَنِ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلاتِهَا**) (أيُّ) الشرطية تُفيد العموم، وقد خصَّصها بإضافتها إلى ضمير المُخاطَب. وقوله: (استعاذ) حَذَف المستعاذ به – وهو الله – لكمال عِلم المخاطَب به.

١- أي: ضَعْفُ الرَّأيِ والجهلُ. وقدْ ضَفُطَ يَضْفُطُ ضَفَاطَةً فَهُوَ ضَفِيط. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (ضفط).

٢- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨٣٧٣).

[٣٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ ذَكَرَ مَا فَتَحَ اللهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ

«لَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَلْتَوِي، مَا يَجِدُ مَا يَمْلَأُ بَطْنَهُ مِنَ الدَّقَلِ[١]، وَمَا تَرْضَوْنَ إِلَّا أَلْوَانَ الطَّعَامِ، وَأَلْوَانَ الثِّيَابِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الدَّقَل): التمر الرديء.

مقتضى الحال: يُخاطِب مَن حوله مِن المسلمين الذين رأى فيهم ترفًا يذكِّرهم بحال النبي ﷺ وزهده في الدنيا.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَلْتَوِي**) أكَّد لهم الكلام بلام التوكيد و(قد) لما رأى حالهم يخالف هدي النبي ﷺ. وقوله: (**مَا يَجِدُ مَا يَمْلَأُ بَطْنَهُ مِنَ الدَّقَلِ**) هذه الجملة جواب لسؤال محذوف، تقديره: (ما سبب التوائه؟). وقوله: (**وَمَا تَرْضَوْنَ إِلا أَلْوَانَ الطَّعَامِ، وَأَلْوَانَ الثِّيَابِ**) القصر هنا قصر ادِّعائي، كأنَّهم لشدَّة شغفهم بملذَّات الدنيا لا يرضون شيئًا إلا ألوان الطعام وألوان الثياب. وتكرير كلمة (ألوان) لتأكيد الإنكار عليهم.

١- هو رديءُ التَّمرِ ويابسُه، وما ليسَ له اسمٌ خاصٌّ، فتراهُ لِيُبسِه ورداءتِه لا يجتمعُ ويكونُ منثورًا. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (دقل).

٢- رواهُ مسلمٌ في «صحيحِه» (٢٩٧٨)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (١٥٩) و(٣٥٣)، و«الزُّهدِ» (١٦٢)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الجوعِ» (٩)، وأبو يعلى في «المُسنَدِ» (١٨٣)، وابنُ بشرانَ في «أماليهِ» (١٠١٠) واللَّفظُ له، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤/ ١٢٤، والجمَّاعِيليُّ في «أحاديثه» (٦).

[٣٤]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

يَذْكُرُ فِيهِ مُسَابَقَتَهُ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه بِالصَّدَقَةِ

«أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**»، قُلْتُ: مِثْلَهُ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**» قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يذكر حادثة حصلت بينه وبين أبي بكر ظهر فيها سبقُ أبي بكر له.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ**) تنكير (يومًا) لعدم الحاجة إلى تعيينه. وقوله: (**فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي**) استعمال اسم الإشارة (ذلك) مشيرًا إلى أمر النبي ﷺ بالصدقة للدلالة على تكريم هذه الأمر وبيان علوِّ منزلته. وتنكير (مالًا) فيه إشارة إلى تحقير المال وعدم حرصه عليه. وقوله: (**الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا**) (أل) في (اليوم) للعهد الحضوري. وقوله: (إن سبقتُه يومًا) جملة شرطية حُذِف جوابها لتقدُّم ما يدلُّ عليه، والتقدير: (إن سبقته يومًا فسأسبقه

١- رواه أبو داودَ في «السُّنَنِ» (١٦٧٨)، والتِّرمذيُّ في «السُّنَنِ» (٣٦٧٥)، والدَّارميُّ في «السُّنَنِ» (١٧٠١)، وعبدُ بنُ حميدٍ كما في «المُنتخَبِ مِن مُسندِه» (١٤)، وابنُ أبي عاصمٍ في «السُّنَنِ» (١٢٤٠)، والبزَّارُ في «البحرِ الزَّخَّارِ» (١٥٩) و(٢٧٠)، وابنُ شاهينٍ في «شرحِ مذاهبِ أهلِ السُّنَّةِ» ١/ ١٥٧، والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (١٥١٠)، واللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (٢٤٢٩)، وأبو نُعَيمٍ في «فضائلِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ» (٤٧)، و«حليةِ الأولياءِ» ١/ ٣٢.

اليومَ). وتنكير (يومًا) في سياق الشرط لإفادة العموم. وقوله: (**قُلْتُ: مِثْلَهُ**) أوجز في الجواب حرصًا على البعد عن التسميع. وقوله: (**وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ**) (كلِّ) و(ما) الموصولة يفيدان العموم. وقوله: (**قُلْتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا**) قوله: (لا أسابقك) نفى سعيَه لمنافسته في شيء، ولم ينفِ احتمال سبقه؛ إذ لم يقل: (لا أسبقك) لأنَّه أبلغُ في الدلالةِ، وكأنَّه يئس من سبقِه إياهُ.

[٣٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ شَيَّعَ جَيْشَ المَدِينَةِ لِقِتَالِ يَزْدَجِرْدَ

«إِنَّ اللهَ تَعَالَى إِنَّمَا ضَرَبَ لَكُمُ الأَمْثَالَ، وَصَرَّفَ لَكُمُ الْقَوْلَ، لِيُحْيِيَ بِهِ الْقُلُوبَ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ مَيِّتَةٌ فِي صُدُورِهَا حَتَّى يُحْيِيَهَا اللهُ، مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَنْتَفِعْ بِهِ، وَإِنَّ لِلْعَدْلِ أَمَارَاتٍ وَتَبَاشِيرَ، فَأَمَّا الْأَمَارَاتُ فَالْحَيَاءُ وَالسَّخَاءُ وَالْهَيْنُ وَاللَّيْنُ، وَأَمَّا التَّبَاشِيرُ فَالرَّحْمَةُ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ أَمْرٍ بَابًا، وَيَسَّرَ لِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحًا، فَبَابُ الْعَدْلِ الِاعْتِبَارُ وَمِفْتَاحُهُ الزُّهْدُ.

وَالِاعْتِبَارُ ذِكْرُ الْمَوْتِ بِتَذَكُّرِ الْأَمْوَاتِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لَهُ بِتَقْدِيمِ الْأَعْمَالِ، وَالزُّهْدُ أَخْذُ الْحَقِّ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ قِبَلَهُ حَقٌّ، وَتَأْدِيَةُ الْحَقِّ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ لَهُ حَقٌّ وَلَا تُصَانِعْ فِي ذَلِكَ أَحَدًا، وَاكْتَفِ بِمَا يَكْفِيكَ مِنَ الْكَفَافِ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَكْفِهِ الْكَفَافُ لَمْ يُغْنِهِ شَيْءٌ. إِنِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللهِ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَحَدٌ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَلْزَمَنِي دَفْعَ الدُّعَاءِ عَنْهُ، فَأَنْهُوا شَكَاتَكُمْ إِلَيْنَا، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِلَى مَنْ يُبَلِّغُنَاهَا نَأْخُذُ لَهُ الْحَقَّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ[1]»، وَأَمَرَ سَعْدًا بِالسَّيْرِ، وَقَالَ: «إِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى زَرُودَ[2] فَانْزِلْ بِهَا، وَتَفَرَّقُوا فِيمَا حَوْلَهَا، وَانْدُبْ مَنْ حَوْلَكَ

١- مُتَعْتَع، بفتحِ التَّاءِ: أي مِن غيرِ أن يُصيبَه أذًى يُقلِقلُه ويُزعِجُه. يُقالُ: تَعْتَعَهُ فَتَتَعْتَعَ. و«غَيْرَ» منصوبٌ لأنَّه حالٌ للضَّعيفِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (تعتع).

٢- زَرُود: يجوزُ أن يكونَ مِن قولِهم: «جَمَلٌ زَرُودٌ» أي بلوعٌ، والزَّرْدُ: البلعُ، ولعلَّها سُمِّيت بذلك لابتلاعِها المياهِ الَّتي تُمطِرُها السَّحائبُ؛ لأنَّها رمالٌ بينَ الثَّعلبيَّةِ والخزيميَّةِ بطريقِ الحاجِّ مِن الكوفةِ. «معجم البلدان» ٣/ ١٣٩.

مِنْهُمْ، وَانْتَخِبْ أَهْلَ النَّجْدَةِ وَالرَّأْيِ وَالْقُوَّةِ وَالْعُدَّةِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (غير متتعتعٍ) أي من غير أن يصيبه ما يقلقه ويزعجه.

مقتضى الحال: يخاطب جيشه الذي وجَّهه لفتح بلاد فارس.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ اللهَ تَعَالَى إِنَّمَا ضَرَبَ لَكُمُ الأَمْثَالَ، وَصَرَفَ لَكُمُ الْقَوْلَ، لِيُحْيِيَ بِهِ الْقُلُوبَ**) قدَّم ذكر الله تعالى تبرُّكًا بالبدء باسمه، إذ كان يمكنه أن يقول ابتداءً: (إنَّما ضرب الله تعالى لكم الأمثال)، والقصر هنا ادِّعائي، تنبيهًا لأهمِّيَّة أثر القرآن في إحياء القلوب، وتحفيزًا للمخاطَب على الإقبال عليه. وتكرير الجارِّ والمجرور (لكم) للتخصيص. وقوله: (**فَإِنَّ الْقُلُوبَ مَيِّتَةٌ فِي صُدُورِهَا حَتَّى يُحْيِيَهَا اللهُ**) شبَّه القلوبَ الغافلة عن اتِّباع أوامر الله تعالى بالقلوبِ المَيِّتة على سبيل الاستعارة، وقوله: (في صدورها) تتميم؛ إذ القلوب لا تكون إلا في الصدور، وفائدة هذا التتميم تقرير مَوت القلوب بسكونها في الصدور وعدم تحرُّكها. وقوله: (**مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَنْتَفِعْ بِهِ**) (مَن) الشرطية تفيد العموم فالخطاب لكلِّ عاقل، وتنكير (شيئًا) في سياق الشرط يفيد العموم أيضًا. وقوله: (**وَإِنَّ لِلْعَدْلِ أَمَارَاتٍ وَتَبَاشِيرَ؛ فَأَمَّا الأَمَارَاتُ فَالْحَيَاءُ وَالسَّخَاءُ وَالْهَيْنُ وَاللِّينُ، وَأَمَّا التَّبَاشِيرُ فَالرَّحْمَةُ**) تقديم الخبر (للعدل) على اسم (إنَّ) لكمال العناية به، وتنكير (أمارات) و(تباشير) للتكثير. وقد استعمل هنا أسلوب اللفِّ والنشر المرتَّب في توضيح الأمارات والتباشير. و(أل) الداخلة على (الأمارات) و(التباشير) للعهد الذِكري. وفي قوله: (فأمَّا الأمارات

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٨٥، وعنهُ ابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ٩/ ٦١٤.

فالحياء..) وقوله: (وأمَّا التباشير فالرحمة) إيجاز بالحذف، والتقدير: (فأمَّا الأمارات فهي الحياء ..) و(أمَّا التباشير فهي الرحمة). وقوله: (**وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ أَمْرٍ بَابًا، وَيَسَّرَ لِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحًا، فَبَابُ الْعَدْلِ الاعْتِبَارُ وَمِفْتَاحُهُ الزُّهْدُ**) شبَّه العدل بالبيت على سبيل الاستعارة، وباب هذا البيت هو الاعتبار، ومفتاحه الزهد. واستعماله أسلوب الاستعارة لتوضيح العلاقة بين العدل والاعتبار والزهد. وتنكير (بابًا) و(مفتاحًا) للإفراد. ثم وضَّح بعد الإبهام، فبعد أن ذكر العلاقة بين العدل والاعتبار والزهد بيَّن أنَّ الاعتبار عامٌّ يريد به الخاص وكذا الزهد، فقال: (**وَالاعْتِبَارُ ذِكْرُ الْمَوْتِ بِتَذَكُّرِ الأَمْوَاتِ، وَالاسْتِعْدَادِ لَهُ بِتَقْدِيمِ الأَعْمَالِ، وَالزُّهْدُ أَخْذُ الْحَقِّ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ قِبَلَهُ حَقٌّ، وَتَأْدِيَةُ الْحَقِّ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ لَهُ حَقٌّ وَلا تُصَانِعْ فِي ذَلِكَ أَحَدًا، وَاكْتَفِ بِمَا يَكْفِيكَ مِنَ الْكَفَافِ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَكْفِهِ الْكَفَافُ لَمْ يُغْنِهِ شَيْءٌ**)، وقوله: (**وَلا تُصَانِعْ فِي ذَلِكَ أَحَدًا**) النفي هنا يراد به النهي، فالجملة خبرية يراد بها الطلب، والإخبار هنا لتوكيد النهي وتقريره، وتنكير (أحدًا) في سياق النَّهي يفيد العموم. وقوله: (مَن لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء) اسم الشرط (مَن) وتنكير (شيء) في سياق النفي يفيد العموم. وقوله: (**فَانْهُوا شُكَاتَكُمْ إِلَيْنَا، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِلَى مَنْ يُبَلِّغُنَاهَا نَأْخُذُ لَهُ الْحَقَّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ**) قوله: (فانهوا شكاتكم إلينا) في الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير: (فانهوا أمر شكاتكم بإيصالها إلينا). وفي قوله: (فمن لم يستطع فإلى من يُبلِّغناها) إيجاز بالحذف أيضًا، والتقدير: (فمن لم يستطع إيصال شكاته إلينا فليوصلها إلى مَن يُبلِّغناها). وقوله: (نأخذ له الحق) جواب لسؤال محذوف، وتقديره: (ماذا يحصل عند إيصال الشَّكاة؟). وقوله: (غير مُتعتَع) إيغال؛ لأنَّ المعنى تمَّ قبلها، لكن في ذكرها فائدة، وهي المبالغة في طمأنة المخاطَب بسماع شكاته.

ثم في الختام وجَّه كلامه لسعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه مودعًا له بقوله: (**إِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى زَرُودَ فَانْزِلْ بِهَا، وَتَفَرَّقُوا فِيمَا حَوْلَهَا، وَانْدُبْ مَنْ حَوْلَكَ مِنْهُمْ، وَانْتَخِبْ أَهْلَ النَّجْدَةِ وَالرَّأْيِ وَالْقُوَّةِ وَالْعُدَّةِ**) وبيَّن له كيف يفتح الحصن بكلام مختصَر موجز، والإيجاز هنا إيجاز قِصَر لتبقى هذه الكلمات عالقة في ذهنه ويَسهُل عليه تذكُّرها.

[٣٦]
وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ جَمَعَ عَلَى الْإِسْلامِ أَهْلَهُ، فَأَلَّفَ بَيْنَ الْقُلُوبِ، وَجَعَلَهُمْ فِيهِ إِخْوَانًا، وَالْمُسْلِمُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ كَالْجَسَدِ لَا يَخْلُو مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ شَيْءٍ أَصَابَ غَيْرَهُ، وَكَذَلِكَ يَحِقُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونُوا أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ، فَالنَّاسُ تَبَعٌ لِمَنْ قَامَ بِهَذَا الْأَمْرِ، مَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَرَضُوا بِهِ لَزِمَ النَّاسَ وَكَانُوا فِيهِ تَبَعًا لَهُمْ، وَمَنْ أَقَامَ بِهَذَا الْأَمْرِ تَبَعٌ لِأُولِي رَأْيِهِمْ مَا رَأَوْا لَهُمْ وَرَضُوا بِهِ لَهُمْ مِنْ مَكِيدَةٍ فِي حَرْبٍ كَانُوا فِيهِ تَبَعًا لَهُمْ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي إِنَّمَا كُنْتُ كَرَجُلٍ مِنْكُمْ حَتَّى صَرَفَنِي ذَوُو الرَّأْيِ مِنْكُمْ عَنِ الْخُرُوجِ، فَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُقِيمَ وَأَبْعَثَ رَجُلًا، وَقَدْ أَحْضَرْتُ هَذَا الْأَمْرَ، مَنْ قَدَّمْتُ وَمَنْ خَلَّفْتُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب جيشًا له مُوَدِّعًا لهم.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ جَمَعَ عَلَى الإِسْلامِ أَهْلَهُ**) ابتداء الكلام بـ(إنَّ) ودخول (قد) على الفعل الماضي (جعل) يؤكِّد للمخاطب ثُبوت أمر اجتماع المسلمين على دينهم، وأنَّ هذا الأمر هو مراد الله تعالى لهذه الأمَّة، فإن

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٨١.

افترق المسلمون فقد خالفوا أمر الله تعالى، وتقديم الجار والمجرورِّ (على الإسلام) على المفعول (أهله) فيه تخصيص وإشارة إلى أنَّ الذي ينبغي أن يجمع المسلمين هو دينُهم لا سواه. وقوله: (**فَأَلَّفَ بَيْنَ الْقُلُوبِ، وَجَعَلَهُمْ فِيهِ إِخْوَانًا**) (أل) الداخلة على (القلوب) للعهد الذهني؛ أي قلوب المسلمين. وتقديم الجار والمجرور (فيه) على المفعول (إخوانًا) للتخصيص، وهذا المعنى في هاتين الجملتين مقتبس من قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءً فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنًا ﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقوله: (**وَالْمُسْلِمُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ كَالْجَسَدِ لا يَخْلُو مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ شَيْءٍ أَصَابَ غيره**) شبَّه المسلمين بالجسد، ثمَّ بيَّن وجه الشبه وهو أنَّ المسلم يتأثَّر بما يصيب أخاه المسلم، وكذا الجسد إذا أصاب جزءًا منه شيءٌ تأثَّر به غيره من أجزاء الجسد، وتنكير (شيء) في الموضعين يفيد العموم، وهذا المعنى مقتبس من قول النبي ﷺ: «**تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى**»[1]. وقوله: (**وكذلك يحِقُّ على المسلِمِينَ أن يكُونُوا أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ**) المشبَّه به في قوله: (وكذلك) هو كون المسلمين صفًّا واحدًا مُتَّحدين كما هو مفهوم من قوله: (والمسلمون فيما بينهم كالجسد)، ووجه الشبه هو وجوب كلٍّ على المسلمين، أي: كما يجب أن يكونوا كالجسد يجب أن يكون أمرهم شورى بينهم. وقوله: (وبين ذوي الرأي منهم) لا تفيد واو العطف هنا معنى المغايرة، فقوله: (بين ذوي الرأي منهم) تخصيص لقوله: (بينهم)، كأنَّه قال: (يحقُّ على المسلمين أن يكونوا أمرهم شورى بينهم وأن تكون الشورى بين ذوي الرأي منهم)، ونسبةُ الحكم إلى الخاصِّ بعد العام أدعى لتقرير المعنى في نفس

١- رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

المخاطب؛ لأنَّ الأمر بالشورى بين ذوي الرأي جاء من طريقين، مِن طريق العام وذلك لكونهم مِن عموم المسلمين، ومِن طريق الخاصِّ بالتنصيص عليهم.

وقوله: (**فَالنَّاسُ تُبَّعٌ لِمَنْ قَامَ بِهَذَا الأَمْرِ، مَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَرَضُوا بِهِ لَزِمَ النَّاسَ وَكَانُوا فِيهِ تَبَعًا لَهُمْ، وَمَنْ أَقَامَ بِهَذَا الأَمْرِ تَبعٌ لأُولِي رَأْيِهِمْ مَا رَأَوْا لَهُمْ وَرَضُوا بِهِ لَهُمْ مِنْ مَكِيدَةٍ فِي حَرْبٍ كَانُوا فيه تبعًا هم**) في قوله: (فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر) (أل) الداخلة على (الناس) للعهد الذهني ويقصد بهم عامَّة المسلمين، وقوله: (لمن قام بهذا الأمر) استعمال اسم الإشارة للدلالة على علو شأن الشورى وأهلها الذين هم أهل الرأي. وفي قوله: (ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم النَّاسَ) قلب؛ وأصل الكلام: (لزمه النَّاسُ) فجعل ما اجتمع عليه الناس فاعلًا و(الناس) مفعولًا للمبالغة وتقرير لزوم الناس لهذا الأمر. وقوله: (ومَن أقام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم) أعاد استخدام اسم الإشارة لتأكيد علو شأن الشورى وأهلها. وقوله: (ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعًا لهم) هذه الجملة تفسير لما قبلها لذا جاءت مفصولة من غير عطف بالواو. وتكرير الجارِّ والمجرور (لهم) لتأكيد التخصيص. وتنكير (مكيدة) بعد (مِن) الزائدة للاستغراق فيشمل الكلام كلَّ مكيدة. وتنكير (حرب) لقصد عدم التعيين. ثم استخدم النداء في آخر كلامه لتنبيه المخاطب على أهمِّيَّته فقال: (**يا أيها النَّاسُ، إِنِّي إِنَّمَا كُنْتُ كَرَجُلٍ مُنْكُمْ حَتَّى صَرَفَنِي ذَوُو الرَّأْيِ مِنْكُمْ عَنِ الْخُرُوجِ، فَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُقِيمَ وَأَبْعَثَ رَجُلاً، وَقَدْ أَحْضَرْتُ هَذَا الأَمْرَ، مَنْ قَدَّمْتُ وَمَنْ خَلَّفْتُ**)، وقوله: (إنِّي إنَّما كنت كرَجُل منكم) القصر هنا حقيقي تحقيقي وقد أكَّده بـ(إنَّ)، وقوله: (فقد رأيت أن أقيم) استعمل الفعل الماضي (رأيتُ) المسبوق بـ(قد) للدلالة على تحقُّق ثبوت هذا القرار ونفوذه.

وقوله: (وقد أحضرتُ هذا الأمر) استعمال اسم الإشارة لحمل المخاطب على تصوُّر المقصود، وهو تغيير رأيه في الخروج مع الجيش. وفي قوله: (مَن قدَّمتُ ومَن خلَّفتُ) طباق بين (قدَّمتُ) و(خلَّفتُ).

[٣٧]
وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الرَّأْيَ إِنَّمَا كَانَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُصِيبًا لِأَنَّ اللهَ كَانَ يُرِيهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَّا الظَّنُّ وَالتَّكَلُّفُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب المسلمين في مسألة الاجتهاد بالرأي.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ الرَّأيَ**) أخرج لفظ (الرأي) من جملة القصر وجعل جملة القصر خبرًا له ليشير إلى أنَّ مضمونها خبر ثابت مستقرٌّ له؛ إذ القصر هنا حقيقي تحقيقي، والمعنى: أنَّ الرأي مِن رسولِ الله ﷺ مصيب دائمًا، وكان يمكنه أن يقول: (إنَّما كان الرأي مِن رسول الله مُصيبًا) لكنَّه قدَّم لفظ (الرأي) على (إنَّما) لكمال العناية ولَفتِ انتباه المخاطَب، وليكون تلقيه للخبر أكثر وقعًا في نفسه. و(أل) الداخلة على (الرأي) للعهد الذهني. وقوله: (**لأنَّ الله كان يريه**) حذف المَفعول الثاني لـ(يُري) لكمال عِلم المخاطَب به، والتقدير: (يُريه الحقَ والصوابَ). وقوله: (**إنَّما هو منَّا الظنُّ والتكلُّف**) ذكر السبب وأراد المسبَّب؛ فالظنُّ والتكلُّف سبب للرأي الذي لا يُوافِق الصواب دائمًا، وإنَّما ذكر السبب ليبيِّن عذره إن أخطأ في اجتهاده.

١- رواهُ أبو داودَ في «السُّنَنِ» (٣٥٨٦)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٣٥٨)، وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (٢٠٠٠).

وعند المقارنة بين حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحديثه عن نفسه يظهر أنَّه أطنب في حديثه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ المقام مقام مَدح، وأوجز في حديثه عن نفسه تواضعًا منه في مقابل الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٣٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«اجْتَنِبُوا أَعْدَاءَ اللهِ الْيَهُودَ، وَالنَّصَارَى فِي عِيدِهِمْ يَوْمَ جَمْعِهِم، فَإِنَّ السَّخَطُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ، فَأَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ، وَلَا تُعَلِّمُوا بِطَانَتَهُمْ[١] فَتَخَلَّقُوا بِخُلُقِهِمْ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (بطانةُ الرَّجل) جلساؤه الأقربون وأصحابُ سرِّهِ.

مقتضى الحال: يخاطب المسلمين يحذِّرهم مِن مشابهة اليهود والنصارى.

البيان والبلاغة: قوله: (**اجْتَنِبُوا أَعْدَاءَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فِي عِيدِهِمْ يَوْمَ جَمْعِهِم**) في قوله: (اجتنبوا أعداء الله اليهود والنصارى) استعمل أسلوب الإبدال بذكر الخاصِّ بعد العامِّ، فـ(اليهود والنصارى) بدل مِن (أعداء الله)، وفي ذلك تأكيد للأمر باجتنابهم، وذلك بتعليق الأمر بهم مرَّتين، مرَّة مِن طريق العموم لكونهم مِن أفراد أعداء الله، ومرَّة بالتنصيص عليهم، كأنَّه قال: (اجتنبوا أعداء الله اجتنبوا اليهود والنصارى) وهذا أبلغ تأثيرًا في نفس المخاطب. وقوله (يوم جمعهم) تتميم، فعيدهم هو اليوم الذي يجتمعون فيه، ولكن تمَّم بذكر هذا الظرف تنبيهًا للمخاطَب على اجتناب المظاهر التي تحصل منهم عند اجتماعهم. وقوله: (**فَإِنَّ السَّخَطُ يَنْزِلُ**

١- (بطانتهم): بطانةُ الرَّجلِ: صاحبُ سرِّه، وداخلةُ أمرِه الَّذي يُشاوِرُه في أحوالِه. «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ (٢٠٥٩).

٢- رواهُ البيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٨٩٤٠).

عَلَيْهِم، فَأَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ) شخَّص السخَط للتخويف منه، إذ هو أمر معنوي، وإنَّما الذي ينزل ويصيب هو أثر السخط وما يترتَّب عليه مِن العقوبات. وقوله: (**وَلَا تُعَلِّمُوا بِطَانَتَهُمْ فَتَخَلَّقُوا بِخُلُقِهِم**) هذا الأمر مفهوم مِن قوله قبلُ: (اجتنبوا أعداء الله)، ولكن أعاد هذا الأمر من باب ذكر الخاصِّ بعد العامِّ لأهمِّيَّته.

[٣٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِهِ عَاصِمٍ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْهَجِيرِ[١]، أَوْ عِنْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ

فَحَمِدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ أَرَى شَيْئًا مِنْ هَذَا الْمَالِ يَحِلُّ لِي قَبْلَ أَنْ أَلِيَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، ثُمَّ مَا كَانَ أَحْرَمَ عَلَيَّ مِنْهُ يَوْمَ وَلِيتُهُ، فَعَادَ بِأَمَانَتِي، وَإِنِّي كُنْتُ أَنْفَقْتُ عَلَيْكَ مِنْ مَالِ اللهِ شَهْرًا، فَلَسْتُ بِزَايِدِكَ عَلَيْهِ، وَإِنِّي كُنْتُ أَعْطَيْتُكَ ثَمَرَتِي بِالْعَالِيَةِ الْعَامَ، فَبِعْهُ فَخُذْ ثَمَنَهُ، ثُمَّ ائْتِ رَجُلًا مِنْ تُجَّارِ قَوْمِكَ، فَكُنْ إِلَى جَنْبِهِ فَإِذَا ابْتَاعَ شَيْئًا فَاسْتَشْرِكْهُ وَأَنْفِقْهُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (العالية) موضعٌ على بُعدِ بضعة أميال من المدينة من جهة نجدٍ.

مقتضى الحال: يخاطب ابنه عاصم بشأن الإنفاق عليه.

١- الهَجِيرُ: نصفُ النَّهارِ عندَ زوالِ الشَّمسِ معَ الظُّهرِ «القاموس» ص٦٣٨.

٢- رواهُ القاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (٥٦٦)، وابنُ زَنجُويهِ في «الأموالِ» (٨٢٧)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٦٩٩، وابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المال» (٢١٨)، و«الورعِ» (١٨٨)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٣٠.

البيان والبلاغة: بدؤه الكلام مع ابنه بحمد الله والثناء عليه فيه دلالة على أنَّه يخاطبه بصفته أمير المؤمنين لا بصفته والده، وفي ذلك إشعار بموضوع الكلام الذي سيوَجَّهه إليه. وقوله: (**فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ أَرَى شَيْئًا مِنْ هَذَا الْمَالِ يَحِلُّ لِي قَبْلَ أَنْ أَلِيَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ**) القصر هنا حقيقي تحقيقي، وكونه منفيًّا يقرِّر في نفس المخاطب أنَّ هذا المال كلُّه محرَّم عليه، ويؤكِّد ذلك تنكير (شيئًا) في سياق النفي، وبعد أن يستقر ذلك في نفسه يقع الاستثناء فيخرج المستثنى مِن الحكم. واستعمال اسم الإشارة في قوله: (مِن هذا المال) ليستحضر المخاطَب صورته في ذهنه، وفي ذلك نوع تخصيص. وقوله: (**ثُمَّ مَا كَانَ أَحْرَمَ عَلِيَّ مِنْهُ يَوْمَ وَلِيتُهُ فَعَادَ بِأَمَانَتِي**) حذف اسم (كان) لعدم تقييد الفعل باسم بعينه ولإفادة التعميم، والتقدير: (ثمَّ ما كان شيءٌ أحرمَ عليَّ منه)، وهذه الجملة تؤكِّد ما قرَّره قبل مِن تحريم مال المسلمين عليه، وفائدة تقرير هذا الأمر قطعُ مَطمع ابنه في طلب المال مِن بيت مال المسلمين. وقوله: (**وَإِنِّي كُنْتُ أَنْفَقَتُ عَلَيْكَ مِنْ مَالِ الله شَهْرًا، فَلَسْتُ بِزَايِدِكَ عَلَيْهِ**) مقتضى السياق أن يقول: (فلست بزايده عليك) لأنَّ الأصل أنَّ الزيادة في المال، وحرف الجرِّ (على) يدخل على المنفَق عليه، ولكنه عدل إلى قول: (فلست بزايدك عليه) ليشعره بامتناع زيادته من المال ومن غيره. وقوله: (**وَإِنِّي كُنْتُ أَعْطَيْتُكَ ثَمَرَتِي بِالْعَالِيَةِ الْعَامَ، فَبِعْهُ فَخُذْ ثَمَنَهُ**) إفراد (ثمرة) - وهي اسم جنس - يفيد العموم عند إضافتها، فكأنَّه قال له: (أعطيتك ثمري كلَّه). وقوله: (**ثُمَّ ائْتِ رَجُلًا مِنْ تُجَّارِ قَوْمِكَ فَكُنْ إِلَى جَنْبِهِ**) تنكير (رجلًا) لقصد عدم تعيينه. وقوله: (**فَإِذَا ابْتَاعَ شَيْئًا فَاسْتَشْرِكْهُ وَأَنْفِقْهُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ**) تنكير (شيئًا) لتقليله، أي: إذا باع شيئًا وإن قلَّ فاستشركه. وقوله: (وأنفقه

عليك وعلى أهلك) عطف قوله: (على أهلك) على قوله (عليك) من باب عطف الخاص على العامِّ للتنبيه على أهمِّيَّة الخاصِّ، وذلك أنَّ قوله: (أنفقه عليك) يتضمَّن نفقته على أهلِه.

[٤٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه لِزِيَادِ بْنِ أَبِيهِ[1]

وَقَدْ كَانَ كَاتِبًا لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، فَعَزَلَهُ فَسَأَلَهُ زِيَادٌ: أَعَنْ عَجْزٍ عَزَلْتَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَمْ عَنْ خِيَانَةٍ؟ فَقَالَ عُمَرُ: «لَا عَنْ ذَاكَ وَلَا عَنْ هَذَا، وَلَكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَحْمِلَ عَلَى الْعَامَّةِ فَضْلَ عَقْلِكَ»[2].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يجيب سؤال زياد ابن أبيه عن سبب عزله.

البيان والبلاغة: سأله زياد عن سبب عزله مخيِّرًا إياه بين أمرين في سؤاله؛ هما العجز والخيانة، فكان جواب عمر بنفيهما، فقال: (لا عن ذاك ولا عن هذا)، واستعماله اسم الإشارة في التعبير عنهما لتمييزهما وتعيينهما، فيفيد ذلك تأكيد نفيهما. ولم يقتصر عمر على الجواب فذكر سبب العزل بأسلوب التعريض، فقال:

١- أدركَ النَّبيَّ ﷺ ولم يَرَهُ، وأسلمَ في عهدِ أبي بكرٍ. وكانَ كاتبًا للمغيرةِ بنِ شعبةَ، ثُمَّ لأبي مُوسَى الأشعريِّ أيَّامَ إمرتِه على البصرةِ. ثمَّ ولَّاهُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ إمرةَ فارسَ. ولي البصرةَ لمعاويةَ حينَ ادَّعاهُ، وضمَّ إليهِ الكوفةَ، فكانَ يشتو بالبصرةِ، ويصيفُ بالكوفةِ، ويُولِّي على الكوفةِ إذا خرجَ منها عمرَو بنَ حُرَيثٍ، ويُولِّي على البصرةِ إذا خرجَ منها سَمُرةَ بنَ جُندُبٍ، ولم يكن زيادٌ مِن القُرَّاءِ ولا الفقهاءِ، ولكنَّه كانَ معروفًا، وكانَ كاتبًا لأبي موسى الأشعريِّ. «الطَّبقات الكُبرَى» ٧/ ٩٩، و«الأعلام» للزِّركليِّ ٣/ ٥٣.

٢- ذكرهُ الجاحظُ في «البيانِ والتَّبيين» ١/ ٢١٨، وابنُ قتيبةَ في «عيونِ الأخبار» ١/ ٤٥٠، وابنُ عبدِ ربِّهِ في «العقدِ الفريد» ٤/ ٢٥٠، وابنُ مِسْكَوَيْهِ في «تجاربِ الأُممِ» ١/ ٤١٢، والماورديُّ في «أدبِ الدُّنيا والدِّينِ» ص٢٤، وابنُ عبدِ البرِّ في «الاستيعاب» ٢/ ٥٢٤.

(كرهتُ أن أحمل على الناس فضل عقلك) يقصد أنَّه يخاف أن يشق على الناس لشدَّة فطنة زياد وحنكته وذكائه، كما قيل: إفراط العقل مضرٌّ بالجدِّ. وتقديم الجارِّ والمجرور (على الناس) على المفعول (فضل عقلك) لكمال العناية.

[٤١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

لِلْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه، وَقَدْ طَلَبَ مِنْهُ الْمُغِيرَةُ أَنْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ مِمَّنْ قَذَفُوهُ بِالزِّنَا

«اسْكُتْ، أَسْكَتَ اللهُ نَأْمَتَكَ[1]، أَمَا وَاللهِّ لَوْ تَمَّتِ الشَّهَادَةُ لَرَجَمْتُكَ بِأَحْجَارِكَ!»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (نأمتك): صوتك وهمسك.

مقتضى الحال: يخاطب المغيرةَ بن شعبة واليه على الكوفة.

البيان والبلاغة: بدؤه الكلام بفعل الأمر (اسكت) للزجر مِن الفعل الذي أراده المغيرة، ويقصد عمر بذلك منعَ ولاته من تخويف مَن أراد شكايتهم له. وقوله: (أسكت الله نأمتك) مِن الأدعية التي تقال عند الزجر ولا يراد بها ظاهرها، وفي هذا الدعاء مشاكلة لقوله: (اسكت). وفي قوله: (أما والله) قبل جملة الشرط (لو تمَّت الشهادة ..) نوع تهديد وتأكيد لوقوع الجواب إذا تحقَّق الشرط. وجعل جواب الشرط (لرجمتُك) فعلًا ماضيًا ودخول اللام عليه يؤكِّد تحقُّقه بتحقُّق الشرط أيضًا.

١- أي صوتك، مقاييس اللغة (٥/ ٧٧٣).

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٧٢، وعنهُ ابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٣٦٤، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ١٠/ ٥١.

[٤٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

عَنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ

«لَأَنْ أُصَلِّيَ الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُحْيِيَ اللَّيْلَ كُلَّهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يظهر مِن السياق أنَّ هذه الموعظة قالها عمر فيمن يحافظ على قيام الليل ويفرِّط في صلاة العشاء جماعةً، ولم يعيِّن عمرُ المخاطَبَ ليكون النُّصح أدعى للقبول.

البيان والبلاغة: قوله: (لأن أصلي العشاء في جماعة) أدخل اللام على المبتدأ لتأكيد اتِّصافه بالخبر، وفي قوله (العشاء) إيجاز بحذف المضاف، والتقدير: (فريضة العشاء). وتنكير (جماعة) لقصد عدم التعيين، فيُفهَم مِن هذا الإطلاق دُخول كلِّ جماعة في الحكم، لكن الإطلاق مقيَّد في الشرع بجماعة المسجد. وفي قوله: (أحيي الليل) استعارة؛ إذ شبَّه الليل بكائن والصلاة فيه هي روحه، فيُحيي هذا الكائن بإقامَة الروح فيه، وهذه الاستعارة التي تظهر فضل قيام الليل تُبيِّن عِظَم صلاة العشاء في جماعة، فإن كان الليل يُحيا بإقامة الصلاة فيه فكيف بصلاة العشاء في جماعة. وتوكيد (الليل) بقوله (كلَّه) يرفع احتمال إرادة قيام جزء مِن الليل.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠١٣).

[٤٣]
وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَيُّهَا النَّاسُ، أَصْلِحُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي رَزَقَكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَإِنَّ إِقْلَالًا فِي رِفْقٍ، خَيْرٌ مِنْ إِكْثَارٍ فِي خُرْقٍ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الخُرق) الجهلُ والحُمقُ.

البيان والبلاغة: قوله: (أصلحوا أموالكم التي رزقكم الله) الوصف بالاسم الموصول لتنبيه المخاطَب إلى ما تضمَّنته صلة الموصول مِن أنَّ ماله رزق مِن الله، امتنَّ به عليه ولو شاء لحرمه منه، وحذَف المفعول الثاني مِن (رزقكم) لكمال علم المخاطَب به، والتقدير: (رزقكموها). وقوله: (فإنَّ إقلالًا في رفق خير مِن إكثار في خُرق) قابل بين (إقلالًا في رفق) و(إكثار في خُرق)، وتنكير (إقلالًا) للتقليل، وتنكير (إكثارًا) للتكثير؛ يعني أنَّ أقلَّ الإنفاق في رفق خير مِن أكثر الإنفاق في خُرق. وتنكير (رِفق) للتعظيم، وتنكير (خُرق) للتحقير. ففي هذه المقابلة جمع أربعة مقاصد للتنكير. وبين (رِفق) و(خُرق) سجع.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (١٢٥).

[٤٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ مَرَّ بِقَوْمٍ يَتَمَنَّوْنَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ سَكَتُوا

«فِيمَ كُنْتُمْ؟» قَالُوا: كُنَّا نَتَمَنَّى. قَالَ: «فَتَمَنَّوْا، وَأَنَا أَتَمَنَّى مَعَكُمْ». قَالُوا: فَتَمَنَّ أَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: «أَتَمَنَّى رِجَالًا مِلْءَ هَذَا الْبَيْتِ مِثْلَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ[١]، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ[٢]؛ إِنَّ سَالِمًا كَانَ شَدِيدًا فِي ذَاتِ اللهِ، لَوْ لَمْ يَخَفِ اللهَ مَا أَطَاعَهُ. وَأَمَّا أَبُو عُبَيْدَةَ؛ فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**»[٣].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب قومًا هابوا إكمال حديثهم لما رأوه.

لطائف لغوية: في قوله: (فِيمَا كُنْتُمْ) أبقى ألف (ما) الاستفهامية المجرورة بحرف الجر، وهذا خلاف ما عليه لغة أكثر العرب؛ فأكثر العرب يحذفون ألف

١- في روايةِ أحمدَ، والحاكم: «أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ رِجَالًا مِثْلَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ».

٢- سالمٌ مولى أبي حُذَيفةَ بنِ عُتبةَ، أصلُه مِن إِصْطَخْرَ، والى أبا حُذَيفةَ. وإنَّما أعتقتْه ثُبَيتةُ الأنصاريَّةُ زوجةُ أبي حُذَيفةَ، وتبنَّاهُ أبو حُذَيفةَ. شهِد بدرًا والمشاهِدَ. وكانَ يؤمُّ المهاجرينَ بِقُباءٍ قبلَ قُدُومِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ-، ولَمَّا انكشفَ المسلمونَ يومَ اليمامةِ، قالَ: ما هكذا كُنَّا نفعلُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ، فحفرَ لنفسِه حفرةً، فقامَ فيها ومعَه رايةُ المهاجرينَ يومئذٍ، ثمَّ قاتلَ حتَّى قُتِلَ شهيدًا سنةَ اثنتي عشرةَ. «تاريخ الإسلام» ٢/ ٣٥-٣٦.

٣- رواهُ أحمدُ في «فضائلِ الصَّحابةِ» (١٢٨٠)، وابنُ أبي الدُّنيا في «المُتمنِّين» (١٥٤)، والدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلم» (٢٤٩٦) واللَّفظُ له، والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٥٠٠٥)، وأبو نُعَيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ١٠٢، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢٥/ ٤٧٤.

(ما) الاستفهامية المجرورة بحرف الجر، ومِن الإثبات قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

على ما قامَ يشتِمني لئيمٌ   كخنزيرٍ تمرَّغَ في رمادِ

البيان والبلاغة: قوله لهم ابتداءً (**فِيمَا كُنْتُمْ**) يُشعِر بدلالة الظرفيَّة لحرف الجرِّ (في) أنَّه رآهم يتحدَّثون فيما بينهم وكلامهم لا يجاوزهم إلى مَن حولهم. وقوله: (**أَتَمَنَّى رِجَالاً مِلْءَ هَذَا الْبَيْتِ مِثْلَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ**) تنكير (رجالًا) للتكثير، واستعمال اسم الإشارة في قولِه (ملء هذا البيت) للتَّعيين. ثم استعمل أسلوب اللفِّ والنشر غير المرتَّب فقال: (**إِنَّ سَالِمًا كَانَ شَدِيدًا فِي ذَاتِ اللهِ، لَوْ لَمْ يَخَفِ اللهَ مَا أَطَاعَهُ، وَأَمَّا أَبُو عُبَيْدَةَ؛ فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ**: (**لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**) فبعد أن ذكر أنَّه يتمنَّى مثل أبي عبيدة وسالم ذكر شيئًا ممَّا لكلٍّ منهما على غير الترتيب السابق، ولعلَّه أحبَّ أن يختم كلامه بحديث النبي ﷺ في أبي عبيدة فخالف الترتيب. وقوله: (لو لم يخف الله ما أطاعه) أثبت شدَّة خوف سالم مِن الله تعالى بالاعتماد على ما استقرَّ عند المخاطَب مِن علمه بكثرة طاعة سالم لله، وكأنَّه يقوله له: (إنَّ كثرة طاعة سالم سببها شدَّة خوفه مِن الله تعالى)، وجاء في بعض الروايات: (لو لم يخف الله ما عصاه)؛ أي لشدَّة تقواه فإنَّه مطيع لله على الدوام ولا يعصيه أبدًا حتَّى وإن قُدِّر أنَّه لا يخاف الله على سبيل الاستبعاد.

[٤٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِرَجُلٍ سَأَلَتْهُ أُمُّهُ أَنْ يُزَوِّجَهَا فَكَرِهَ ذَلِكَ

«زَوِّجْهَا، فَوَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ حَنْتَمَةَ بِنْتَ هِشَامٍ[١] سَأَلَتْنِي أَنْ أُزَوِّجَهَا لَزَوَّجْتُهَا»، فَزَوَّجَ الرَّجُلُ أُمَّهُ[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب رجلًا منع أمَّه مِن الزواج.

البيان والبلاغة: بدؤه الكلام مع الرجل بفعل الأمر فيه نوع ترهيب وزجر، وكأنَّ الأمر لعِظَمه لا يحتمل أن يقدِّم له بمقدِّمات. وقوله: (لو أنَّ حنتمة بنت هشام سألتني أن أزوِّجها لزوَّجتها) فيه تعريض للرجل بأنَّ الأمر الذي أقدم عليه لا يحق لأمير المؤمنين أن يفعل، فكيف هو؟! وقد أكَّد عمر ذلك بالقَسَم ليبيِّن للرجل أنَّه لا يقول ذلك ادِّعاءً بل حقيقةً.

١- وهي أمُّ عمرَ رضي الله عنه.
٢- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٧٩٤٥).

[٤٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي فَضْلِ الْحَجِّ

«لَوْ يَعْلَمُ الرَّكْبُ بِمَنْ أَنَاخُوا لَقَرَّتْ أَعْيُنُهُمْ بِالْفَضْلِ بَعْدَ الْمَغْفِرَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ، مَا رَفَعَتْ نَاقَةٌ خُفَّهَا، وَلَا وَضَعَتْهُ، إِلَّا رَفَعَ اللهُ لَهُ دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً، وَكَتَبَ لَهُ بِهَا حَسَنَةً»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب الحجيج يبيِّن لهم شيئًا مِن فضل الحجِّ.

البيان والبلاغة: بدأ الكلام بجملة الشرط ليشوِّق المخاطَب عند سماعه فعل الشرط أن يعرف جوابه فقال (**لَوْ يَعْلَمُ الرَّكْبُ بِمَنْ أَنَاخُوا لَقَرَّتْ أَعْيُنُهُمْ بِالْفَضْلِ بَعْدَ الْمَغْفِرَةِ**)، وزاد هذا التشويق ما في (مَن) مِن إبهام، فلمَّا يسمع الجواب (لقرَّت أعينهم بالفضل بعد المغفرة) يستقر في نفسه، وتقديم (الفضل) على (المغفرة) في الذِّكر مع أنَّه حاصل بعدها لتعجيل البُشرى. ثم أقسم عمر لشدَّة يقينه بالله تعالى فقال: (**وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ، مَا رَفَعَتْ نَاقَةٌ خُفَّهَا وَلَا وَضَعَتْهُ، إِلَّا رَفَعَ اللهُ لَهُ دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً، وَكَتَبَ لَهُ بِهَا حَسَنَةً**) وتنكير (ناقة) للتَّعين؛ يقصد كلَّ ناقة مِن نوق الركب مِن الحجيج، وقوله: (رفع الله له درجة وحطَّ عنه بها خطيئة وكتب له بها حسنة) أدخل الجارَّ والمجرور (بها) مع الخطيئة والحسنة ليبيِّن

١- رواه عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٨٨٠٢).

للمخاطَب أنَّ حطَّ الخطيئة وكتابة الحسنة كان بتلك الخطوة نفسها التي رُفع له بها درجة. وتنكير (درجة) و(خطيئة) و(حسنة) للإفراد. وهذا التعبير مقتبس من قول النبي ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يَمْشِي إِلَى الصَّلَاةِ إِلَّا كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةٌ وَيُرْفَعُ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَيُكَفَّرُ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ**»[١].

١- : مسند الطيالسي: (٣١١)، ومصنّف عبدالرزّاق (١٩٧٩).

[٤٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْلَا أَنْ يُتْرَكَ آخِرُ النَّاسِ لَا شَيْءَ لَهُمْ مَا افْتُتِحَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى الْكُفَّارِ إِلَّا قَسَمْتُهَا سُهْمَانًا كَمَا قَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْبَرَ سُهْمَانًا، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ جِرْيَةً تَجْرِي عَلَيْهِمْ، وَكَرِهْتُ أَنْ يُتْرَكَ آخِرُ النَّاسِ لَا شَيْءَ لَهُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب الناس بشأن تقسيم الغنائم.

البيان والبلاغة: قوله: (**وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْلَا أَنْ يُتْرَكَ آخِرُ النَّاسِ لَا شَيْءَ لَهُمْ، مَا افْتُتِحَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى الْكُفَّارِ إِلَّا قَسَمْتُهَا سُهْمَانًا كَمَا قَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْبَرَ سُهْمَانًا**) استخدام (لولا) الامتناعية في قوله: (لولا أن يُترك آخر الناس لا شيء لهم) لتقرير أنَّه ما امتنع مِن تقسيم الغنائم إلا خوف أن يُترك آخر الناس لا شيء لهم، وقد أكَّد ذلك بافتتاحه الكلام بالقَسَم، ووقوع (شيء) اسمًا لـ(لا) يفيد استغراقَ كلِّ ما يدخل تحتها. وبناء (يُترك) للمفعول لعدم الحاجة إلى تعيين الفاعل. وقوله: (ما افتُتِح على المسلمين قرية من قرى الكفَّار إلا قسمتها سُهمانًا) القصر هنا حقيقي تحقيقي، وبناء (افتُتح) للمفعول لكمال علم المخاطَب بالفاعل، وهو الله تعالى، وتنكير (قرية) في سياق النفي يفيد العموم، وقد خصَّ هذا العموم بالجارِّ والمجرور (مِن قرى الكفار)، وتنكير (سهمانًا) للتكثير. وقوله: (كما قسَّم رسول

١- رواه ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٦٤٨).

الله ﷺ خيبر سهمانًا) التشبيه هنا لتنبيه المخاطب إلى حرص عمر على التشبُّه بفعل رسول الله ﷺ والاقتداء به. وقوله: (**وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ جِرْيَةً تَجْرِي عَلَيْهِمْ وَكَرِهْتُ أَنْ يُتْرَكَ آخِرُ النَّاسِ لَا شَيْءَ لَهُمْ**) في قوله: (أردت أن يكون جرية تجري عليهم) شبَّه نتاج الغنائم مِن الأراضي ونحوها بالماء الجاري على سبيل الاستعارة لكثرة خيره. وقوله: (كرهت أن يُترك أخر الناس لا شيء لهم) تكرير هذه الجملة مشعر بأهمِّيَّة مضمونها عند عمر رضي الله عنه.

[٤٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

حِينَ أَرَادَ أَنْ يَسْتَعْمِلَ عَلى الْبَحْرَيْنِ[١]، فَسَمَّوْا لَهُ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيَّ

«ذَاكَ أَمِيرٌ أَمَّرَهُ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الطَّائِفِ فَلَا أَعْزِلُهُ»، فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَأْمُرُهُ يَسْتَخْلِفُ عَلَى عَمَلِهِ مَنْ أَحَبَّ وَتَسْتَعِينُ بِهِ، فَكَأَنَّكَ لَمْ تَعْزِلْهُ، فَقَالَ: «أَمَّا هَذَا فَنَعَمْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ خَلِّفْ عَلَى عَمَلِكَ مَنْ أَحْبَبْتَ وَاقْدَمْ عَلَيَّ»، فَخَلَّفَ أَخَاهُ الْحَكَمَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ عَلَى الطَّائِفِ[٢] وَقَدِمَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَوَلَّاهُ الْبَحْرَيْنِ[٣].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب بعض أهل مشورته في أمر استعمال رجل كفء على البحرين.

١- البَحْرين: وهو اسمٌ جامعٌ لبلادٍ على ساحلِ بحرِ الهندِ بينَ البصرةِ وعُمانَ، قيلَ: هي قصبةُ هجرَ. وقيل: هجرُ قصبةُ البحرينِ، وقد عدَّها قومٌ مِن اليمنِ، وجعلها آخرونَ قصبةً برأسِها. «معجم البلدان» ١/ ٣٤٧.

٢- الصَّحيحُ أنَّ عمرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - ولَّى عثمانَ بنَ أبي العاصِ الثَّقفيَّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - على البحرينِ وعُمانَ، وبعثَ معَه أخاه الحَكَمَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - خليفةً له على البحرينِ حينَ يخرجُ عثمانُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - للغزوِ، واستخلفَ على الطَّائفِ سفيانَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ ربيعةَ الثَّقفيَّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -. «المُحبَّر» لابنِ حبيبٍ ص١٢٧، و«تاريخ الطَّبريِّ» ٤/ ٢٤١.

٣- رواه ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٥/ ٥٠٩.

البيان والبلاغة: قوله: (**ذَاكَ أَمِيرٌ أَمَّرَهُ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الطَّائِفِ فَلَا أَعْزِلُهُ**) استعمال اسم الإشارة (ذاك) لبيان علوِّ شأنِ المشار إليه، وتنكير (أمير) للتعظيم، وقد خصَّ هذه الاسم بصفة رفيعة؛ وهي أنَّ رسول الله ﷺ أمَّره، وهذه الصفة تتضمَّن ثقة النبي ﷺ به. وقوله: (فلا أعزله) دخول (لا) النافية على المضارع يفيد النفي في الحاضر والمستقبل. ثم ذكر ما يُظهر مدى إجلالِ عمرَ لعثمان الثقفي وتقديره له، فقال: (**خَلِّفْ عَلَى عَمَلِكَ مَنْ أَحْبَبْتَ، وَاقْدِمْ عَلَيَّ**) ففي قوله: (على عملك) أضاف العمل إليه وكأنَّه صاحب التصرُّف فيه، وفي قوله: (مَن أحببت) ترك له الخيار في تعيين مَن أراد، وهذا مفهوم مِن اسم الموصول (مَن) الذي يفيد العموم. وفي قوله: (واقدم عليَّ) عبَّر عمر عن نفسه بضمير الواحد، ولم يقُل (واقدم علينا) تواضعًا منه.

[٤٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
وَقَدْ رَأَى رَجُلًا يَسْرِقُ قَدَحًا

«أَلَا يَسْتَحْيِي هَذَا أَنْ يَأْتِيَ بِإِنَاءٍ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتكلَّم عن رجل يسرق قدحًا للتحذير مِن سوء فعله.

البيان والبلاغة: الاستفهام في (ألا يستحيي هذا) للإنكار، وفيه معنى التعجُّب أيضًا، واستعمال اسم الإشارة (هذا) لتحقير فعل المشار إليه، ولتمييزه وتعيينه للمخاطَب؛ إذ غرض عمرَ مِن الكلام تحذير المخاطَب مِن فعل ذلك الرجل فكان لا بدَّ مِن تمييزه لهم وهو يقوم بذاك الفعل. وقوله: (**يَأْتِيَ بِإِنَاءٍ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ**) استعمال حرف الجرِّ (على) يُشير إلى ثِقَل المحمول؛ إذ مقتضى السِّياق أن يقول: (يحمله في يدِه)، لكن عدل إلى قول: (يحمله على عُنُقِه) للتَّهويل مِن مغبَّة ذلك الفِعل.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٥٤٥٧).

[٥٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«ثَلَاثٌ هُنَّ فَوَاقِرُ[١]: جَارُ سُوءٍ فِي دَارِ مُقَامَةٍ، وَزَوْجُ سُوءٍ إِنْ دَخَلْتَ عَلَيْهَا آذَتْك، وَإِنْ غِبْتَ عَنْهَا لَمْ تَأْمَنْهَا، وَسُلْطَانٌ إِنْ أَحْسَنْتَ لَمْ يَقْبَلْ مِنْك، وَإِنْ أَسَأْتَ لَمْ يُقِلْكَ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الفواقر): جمع (فاقرة)، هي الداهية التي تقسم فقار الظهر.

مقتضى الحال: يتحدَّث عن أمور قد تعرِضُ للإنسان تكون شديدة الوقع عليه.

البيان والبلاغة: بدأ بذكر العدد لشويق المخاطب ولفت انتباهه وحمله على الاستعداد لتلقي المعدود فقال: (ثلاثٌ هنَّ فواقر)، وضمير الفصل (هنَّ) يفيد التأكيد والقصر، إلا أنَّ القصر هنا ادِّعائي، كأنَّه يقول: (هذه الثلاث هي الفواقر فقط)، وهذا من باب المبالغة لشدَّة أثرها على الإنسان، وتنكير (فواقر) للتعظيم. ثم فصل بعد أن أجمل، فقال: (**جَارُ سُوءٍ فِي دَارِ مُقَامَةٍ، وَزَوْجُ سُوءٍ إِنْ دَخَلْتَ عَلَيْهَا آذتك، وَإِنْ غِبْتَ عَنْهَا لَمْ تَأْمَنْهَا، وَسُلْطَانٌ إِنْ أَحْسَنْتَ لَمْ يَقْبَلْ مِنْك، وَإِنْ أَسَأْتَ لَمْ يُقِلْكَ**)، وتنكير (جار) و(زوج) و(سلطان) لقصد عدم التعيين، وإضافة الموصوف إلى الصفة في: (جار سوء) و(زوج سوء) لتأكيد لصوق الصفة بموصوفها. وقوله: (إن دخلتَ عليها آذتك وإن غبتَ عنها لم تأمنها) قابَلَ فيه بين (إن دخلتَ عليها

١- جمعُ فاقرةٍ، وهي الدَّاهيةُ الكاسرةُ للظَّهرِ. «لسان العرب» لابن منظورٍ ١٠/ ٣٠٠.

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٥٩٥) [ونحوه في عيون الأخبار (١/ ٣)].

آذتك) و(إن غبتَ عنها لم تأمنها). و في قوله: (وسلطان إن أحسنت لم يقبل منك، وإن أسأت لم يُقلك) قابل بين (إن أحسنتَ لم يقبل منك) و(إن أسأتَ لم يُقلك)، وبين (منك) و(يقلك) سجع. وإسناد الكلام للمخاطب في (إن دخلتَ عليها آذتك وإن غبتَ عنها لم تأمنها) و(أحسنتَ لم يقبل منك، وإن أسأتَ لم يُقلك) ليتصوَّر المعنى في نفسه.

[٥١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي حَقِّ النَّاسِ بِالْفَيْءِ

«مَا عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٌ لَا تُمْلَكُ رَقَبَتُهُ إِلَّا وَلَهُ فِي هَذَا الْفَيْءِ حَقٌّ أُعْطِيَهُ أَوْ مُنِعَهُ، وَلَئِنْ عِشْتُ لَيَأْتِيَنَّ الرَّاعِي بِالْيَمَنِ حَقُّهُ قَبْلَ أَنْ يَحْمَرَّ وَجْهُهُ فِي طَلَبِهِ - يَعْنِي فِي طَلَبِهِ -»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب المسلمين يبيِّن لهم حقَّهم في الفيء.

البيان والبلاغة: في قوله: (**مَا عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٌ لا تُمْلَكُ رَقَبَتُهُ إِلا وَلَهُ فِي هَذَا الْفَيْءِ حَقٌّ أُعْطِيَهُ أَوْ مُنِعَهُ**) قصر حقيقي تحقيقي، وتنكير (مسلم) في سياق النفي للعموم، فيدخل في الحكم كلُّ مسلم، وبناء (تُملك) و(أُعطيه) و(مُنعه) لئلا يتقيَّد بفاعل بعينه؛ إذ لا حاجة لذكره. واستعمال اسم الإشارة في قوله: (هذا الفيء) لتعيين المشار إليه وتمييزه وطلب استحضار صورته في ذهن المخاطَب، وتنكير (حق) للتعظيم. وبين (أُعطيه) و(مُنعه) طباق. ثم أكد كلامه بعدة مؤكدات فقال: (**وَلَئِنْ عِشْتُ لَيَأْتِيَنَّ الرَّاعِي بِالْيَمَنِ حَقُّهُ قَبْلَ أَنْ يَحْمَرَّ وَجْهُهُ فِي طَلَبِهِ**) فأكَّد هذا الكلام بقسم مقدَّر وبلام القسم في (لئن) وبلام التوكيد في (ليأتينَّ) مع أنَّ المخاطَب غيرُ منكِرٍ،

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٢٩٩، وأحمدُ في «فضائلِ الصَّحابةِ» (٤٦٩)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٥٠.

لكن لما كان يتحدَّث عن أمر سيحقِّقه في المستقبل نزَّل المخاطَب منزل المنكِر لأنَّه لا يشاهد الأمر المتحدَّث عنه وقت الخطاب، و(أل) في (الراعي) لتعريف الحقيقة مِن غير تعيين لأفرادها. وقوله: (يحمَّر وجهه في طلبه) كناية على بذل المشقَّة في طلب الحقِّ.

[٥٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي كَرَاهِيَةِ أَنْ يُسَافِرَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ

«أَرَأَيْتَ إِنْ مَاتَ مَنْ أَسْأَلُ عَنْهُ؟»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتحدَّث عن الرَّجُل يسافر وحْدَه.

البيان والبلاغة: الاستفهام في قوله (أرأيتَ) للتقرير، وهو بهذه الصيغة آكد في حمل المخاطَب على الإقرار، وفيه إشارة إلى أهمِّيَّة الموضوع المتحدَّث عنه. واستعمال حرف الشرط (إن) للاستبعاد، لا لأنَّه يستبعد عليه الموت، بل ليبيِّن للمخاطَب مدى حرصه وشفقته على رعيَّته وأنَّه مسؤول عنهم في كلِّ ما يتعلَّق بهم وإن كان هذا الأمر مستبعدًا، فما كان محقَّقًا وقوعه فمِن باب أولى كتعرُّضه لقاطع طريق أو سِباع أو نحو ذلك. وقوله (مَن أسأل عنه؟) (مَن) تفيد العموم فتشمل كلَّ عاقل يمكن سؤاله، واستعمال الفعل (أسأل) بصيغة المضارع إشارة مِن عمر إلى أنَّه لن يتوقَّف عن السؤال فيما لو حصل لذلك الرجل أمر.

١- رواه عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٩٦٠٦).

[٥٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَيُّهَا النَّاسُ، أَصْلِحُوا مَعَايِشَكُمْ؛ فَإِنَّ فِيهَا صَلَاحًا لَكُمْ، وَصِلَةً لِغَيْرِكُمْ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب عموم المسلمين بخصوص إصلاح معايشهم.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه بالنداء للَفتِ انتباه المخاطَب، وجمع (معايشكم) للتَّنويع، وتقديم الجارِّ والمجرور (فيها) على اسم (إنَّ) فيه تخصيص، وتنكير (صلاحًا) و(صِلة) للتعظيم، وبين (لكم) و(لغيركم) سجع.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (١٤٥).

[٥٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الِاحْتِكَارِ

«لَا حُكْرَةَ فِي سُوقِنَا، لَا يَعْمِدُ رِجَالٌ بِأَيْدِيهِمْ فُضُولٌ مِنْ أَذْهَابٍ، إِلَى رِزْقٍ مِنْ رِزْقِ اللهِ نَزَلَ بِسَاحَتِنَا، فَيَحْتَكِرُونَهُ عَلَيْنَا، وَلَكِنْ أَيُّمَا جَالِبٍ جَلَبَ عَلَى عَمُودِ كَبِدِهِ[١] فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَذَلِكَ ضَيْفُ عُمَرَ، فَلْيَبِعْ كَيْفَ شَاءَ اللهُ، وَلْيُمْسِكْ كَيْفَ شَاءَ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (عمودُ الكبد) الظَّهر، سُمِّي بذلك لأنَّه يقيمُ الإنسانَ كما يقيم العمودُ الخيمةَ وغيرها.

مقتضى الحال: يخاطب عموم المسلمين يحذِّرهم مِن الاحتكار.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه بنفي جنس الحُكرة مبالغًا في النهي عنها فقال: **(لَا حُكْرَةَ فِي سُوقِنَا)**، فهذه الجملة خبرية يراد بها الطلب، ودخول (لا) النافية للجنس على (الحُكرة) يستغرق جميع أنواعها.

١- أرادَ بعمودِ كبدِه: ظهرَه، وذلكَ أنَّه يأتي به على تعبٍ ومشقَّةٍ، وإن لم يكن جاءَ به على ظهرِه، وإنَّما هو مَثَلٌ، وإنَّما سُمِّي الظَّهرُ عمودًا؛ لأنَّه يعمدُها، أي: يُقيمُها ويحفظُها. «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ (٤٣٢).

٢- رواه مالكٌ في «الموطَّإ» (٢٣٩٨)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٤٩٠١) و(١٤٩٠٣).

وقوله: (**لاَ يَعْمِدُ رِجَالٌ بِأَيْدِيهِمْ فُضُولٌ مِنْ أَذْهَابٍ إِلَى رِزْقٍ مِنْ رِزْقِ الله نَزَلَ بِسَاحَتِنَا، فَيَحْتكرونَهُ عَلَيْنَا**) النفي في قوله: (لا يعمد) يراد به النهي، فالجملة خبرية يراد بها الطلب. وتنكير (رجال) في سياق النفي لإرادة العموم، ومجيء (رجال) بصيغة الجمع مشعرٌ بتواطئهم، فالرجل وحده قد لا يستطيع الاحتكار فيتَّفق مع مَن يعينه على ذلك من التجار. وتنكير (فضول) للتكثير وجمعها للتنويع، ومجيء (أذهاب) بصيغة جمع القلَّة للتحقير. وتنكير (رزق) للتقليل، أي أنَّ هؤلاء أصحاب الأموال يطمعون فيما عند غيرهم وإن كان قليلًا، وقوله: (نزل بساحتنا) تشبيه للرزق بالمطر على سبيل الاستعارة لما فيه من الخير والنفع.

وقوله: (**وَلَكِنْ أَيُّمَا جَالِبٍ جَلَبَ عَلَى عَمُودِ كَبِدِهِ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَذَلِكَ ضَيْفُ عُمَرَ، فَلْيَبِعْ كَيْفَ شَاءَ الله، وَلْيُمْسِكْ كَيْفَ شَاءَ**) الاسم الموصول (أي) يفيد العموم، ومجيء (ما) بعده لتأكيد هذا العموم. وقوله: (على عمود كبده) كناية عن المشقة في الجلب والحمل، وقوله: (فذلك ضيف عمر) استعمال اسم الإشارة (ذلك) لبيان أهمِّيَّة المشار إليه، وفي قوله: (ضيف عمر) تشبيه مؤكَّد؛ كأنَّه قال: (من جلب بضاعته بكدِّه وتعبه فهو كضيف نازل عند عمر وفي حمايته لن يجبره على البيع أحد). وقوله: (فليبع كيف شاء الله، وليمسك كيف شاء) أضاف المشيئة إلى الله تنبيهًا للمخاطَب إلى أنَّ مشيئة الله هي النافذة، وناسب ذلك بعد ذكر الاحتكار ليعلم المخاطَب أنَّ الله تعالى لو لم يشأ نفوذ مشيئة العبد في الاحتكار لما نفذت. وبين (يبع) و(يمسك) طباق.

[٥٥]

وَمِنْ وَصِيَّةٍ لَهُ

لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ حِينَ أَرْسَلَهُ إِلَى الْعِرَاقِ[١]

«يَا سَعْدُ، سَعْدَ بَنِي وُهَيْب، لَا يَغُرَّنَّكَ مِنَ اللهِ أَنْ قِيلَ: خَالُ رَسُولِ اللهِ، وَصَاحِبُ رَسُولِ اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنَّهُ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، فَإِنَّ اللهَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إِلَّا طَاعَتَهُ، فَالنَّاسُ شَرِيفُهُمْ وَوَضِيعُهُمْ فِي ذَاتِ اللهِ سَوَاءٌ، اللهُ رَبُّهُمْ وَهُمْ عِبَادُهُ، يَتَفَاضَلُونَ بِالْعَافِيَةِ، وَيُدْرِكُونَ مَا عِنْدَهُ بِالطَّاعَةِ، فَانْظُرِ الْأَمْرَ الَّذِي رَأَيْتَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ مُنْذُ بُعِثَ إِلَى أَنْ فَارَقَنَا فَالْزَمْهُ؛ فَإِنَّهُ الْأَمْرُ. هَذِهِ عِظَتِي إِيَّاكَ إِنْ تَرَكْتَهَا وَرَغِبْتَ عَنْهَا حَبِطَ عَمَلُكَ، وَكُنْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

إِنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ حَرْبَ الْعِرَاقِ فَاحْفَظْ وَصِيَّتِي فَإِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى أَمْرٍ شَدِيدٍ كَرِيهٍ لَا يُخَلِّصُ مِنْهُ إِلَّا الْحَقُّ، فَعَوِّدْ نَفْسَكَ وَمَنْ مَعَكَ الْخَيْرَ، وَاسْتَفْتِحْ بِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَادَةٍ عَتَادًا، فَعَتَادُ الْخَيْرِ الصَّبْرُ، فَالصَّبْرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ أَوْ نَابَكَ، يَجْتَمِعْ لَكَ خَشْيَةُ اللهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ خَشْيَةَ اللهِ تَجْتَمِعُ فِي أَمْرَيْنِ: فِي طَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ. وَإِنَّمَا أَطَاعَهُ مَنْ أَطَاعَهُ بِبُغْضِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الْآخِرَةِ، وَعَصَاهُ مَنْ عَصَاهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَبُغْضِ الْآخِرَةِ.

١- العراق: هو البلادُ الَّتي يمرُّ فيها نهرا دجلةَ والفراتِ ثمَّ شطّ العربِ إلى البحرِ، وكان يقسمُ إلى عراقِ العربِ، وهو ما غربَ دجلةَ والشَّطِّ، وعراقِ العجمِ، وهو ما شرقَ دجلةَ والشَّطِّ. «معجم المعالم الجغرافيَّة» ص٢٠٢.

وَلِلْقُلُوبِ حَقَائِقُ يُنْشِئُهَا اللهُ إِنْشَاءً، مِنْهَا السِّرُّ وَمِنْهَا الْعَلَانِيَةُ؛ فَأَمَّا الْعَلَانِيَةُ: فَأَنْ يَكُونَ حَامِدُهُ وَذَامُّهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً، وَأَمَّا السِّرُّ فَيُعْرَفُ بِظُهُورِ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ، وَبِمَحَبَّةِ النَّاسِ؛ فَلَا تَزْهَدْ فِي التَّحَبُّبِ فَإِنَّ النَّبِيِّينَ قَدْ سَأَلُوا مَحَبَّتَهُمْ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا حَبَّبَهُ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا بَغَّضَهُ، فَاعْتَبِرْ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى بِمَنْزِلَتِكَ عِنْدَ النَّاسِ، مِمَّنْ يَشْرَعُ مَعَكَ فِي أَمْرِكَ. ثُمَّ سَرَّحَهُ فِيمَنِ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ مِنْ نَفِيرِ الْمُسْلِمِينَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب سعد بن أبي وقَّاص حين أرسله إلى العراق مودِّعًا له.

البيان والبلاغة: أطنب في ذكر اسم سعد تحبُّبًا، فقال: (**يَا سَعْدُ، سَعْدَ بَنِي وُهَيْبٍ**). وقوله: (**لا يَغُرَّنَّكَ مِنَ اللهِ أَنْ قِيلَ خَالُ رَسُولِ اللهِ وصاحبُ رسولِ اللهِ**) بناء الفعل (قيل) للمفعول لعدم الحاجة إلى تعيين الفاعل، فالشأن في القول دون النظر إلى القائل. وأما قوله: (**فَإِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّءِ، وَلَكِنَّهُ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ**) ففي الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير: (لا يمحو العمل السيِّئ بالعمل السيِّئ ولكنه يمحو العمل السيِّئ بالعمل الحسن) فحذف الموصوف استغناءً بالوصف. وبين (لا يمحو السيِّئ بالسيِّئ) و(يمحو السيِّئ بالحسن) مقابلة. وقوله: (**فَإِنَّ اللهَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إِلا طَاعَتَهُ**) القصر هنا قصر قلب، مع أنَّ المخاطَب لا يعتقد أنَّ بينه وبين الله نسبًا، ولكن لما كان بينه وبين رسول الله ﷺ نسب أراد عمرُ أن يحذِّره مِن أن يتَّكِل على نسبه، فبيَّن له أنَّ النسب لا ينفع عند الله تعالى، ولكنَّ طاعة الله تعالى هي التي تنفعه.

١- رواه الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٨٣-٤٨٤.

وقوله: (**فَالنَّاسُ شَرِيفُهُمْ وَوَضِيعُهُمْ فِي ذَاتِ اللهِ سَوَاءٌ**) (أل) في (الناس) لاستغراق أفراد الجنس، وقوله: (شريفهم ووضيعهم) تفصيل بعد إجمال، وبين (شريفهم) و(وضيعهم) طباق. وتقديم الجارِّ والمجرور (في ذات الله) على الخبر (سواء) لتنبيه. وقوله: (**اللهُ رَبُّهُمْ وَهُمْ عِبَادُهُ**) في قوله: (الله ربَّهم) قصر بتعريف طرفي الإسناد؛ أي: لا ربَّ لهم يصرِّف أمورهم إلا الله الذي يعبدون. وقوله: (**فَانْظُرِ الأَمْرَ الَّذِي رَأَيْتَ النبيَّ عَلَيْهِ مُنْذُ بُعِثَ إِلَى أَنْ فَارَقَنَا فَالْزَمْهُ فَإِنَّهُ الأَمْرُ**) في قوله: (فانظر الأمر الذي رأيت عليه النبي) وصف الأمر بالاسم الموصول لتمييزه بما تضمَّنته صلة الموصول، وقوله: (منذ بُعث) بناء الفعل (بُعث) للمفعول لكمال علم المخاطب بالفاعل. وقوله: (فإنَّه الأمر) حذف وصف (الأمر) لتذهب نفس المخاطَب في تعيينه كلَّ مذهب، والتقدير: (فإنَّه الأمر الذي ينجيك)، أو: (الأمر الذي به تفلح)، أو نحو ذلك. وقوله: (**هَذِهِ عِظَتِي إِيَّاكَ إِنْ تَرَكْتَهَا وَرَغِبْتَ عَنْهَا حَبِطَ عَمَلُكَ، وَكُنْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**) قوله: (هذه عظتي) استعمال اسم الإشارة (هذه) لحمل المخاطب على استحضار المشار إليه في ذهنه. وفي قوله: (حبط عملك وكنت من الخاسرين) اقتباس من قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥].

وقوله: (**إِنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ حَرْبَ الْعِرَاقِ**) التعبير بالفعل الماضي في قوله: (ولَّيتك) يفيد أنَّ الأمر قد تمَّ، وقد أكَّد ثبوت ذلك بـ(إنَّ) و(قد)، وكأنَّه يقول لسعد: (إنَّ هذا الأمر لا رجعة فيه). وقوله: (حرب العراق) باعتبار ما سيكون، فقد علِمَ عمرُ بفطنته أنَّ بلاد العراق لن تُفتح سلمًا، فلم يقل: (ولَّيتُك فتح العراق) ليشمل فتحها سلمًا وحربًا، وإنَّما قال: (حرب العراق) ليستعدَّ لذلك سعد أتمَّ استعداد.

وقوله: (**فَإِنَّكَ تُقْدمُ عَلَى أَمْرٍ شَدِيدٍ كَرِيهٍ لا يُخَلِّصُ مِنْهُ إِلا الْحُقُّ، فَعَوِّدْ نَفْسَكَ وَمَنْ مَعَكَ الخير**) تنكير (أمر) للتعظيم، وقد أكَّد ذلك بوصفه أنَّه (شديد كريه). والقصرُ في (لا يُخَلِّص منه إلا الحقُّ) حقيقي تحقيقي. وفي قوله: (فعوِّد نفسك ومن معك الخير) حذف المفعول استغناءً بذكر وصفه، والتقدير: (فعوِّد نفسك ومَن معك فعلَ الخير)، وحذف المفعول هنا لتعليق ذهن المخاطَب بصفة هذا المفعول. وقوله: (**واعلم أنَّ لكل عادة عتاداً، فعتاد الخير الصبر، فالصبر عَلَى مَا أَصَابَكَ أَوْ نَابَكَ، يَجْتَمِعُ لَكَ خَشْيَةُ الله**) بين (عادة) و(عتاد) جناس ناقص. وفي قوله: (فالصبر على ما أصابك أو نابك) وضع المصدر (الصبر) موضع فعل الأمر (اصبر) تأكيدًا تحقيق الأمر. وفي قوله: (يجتمع لك خشية الله) شبَّه الخشية بشيء متفرِّق متبدِّد يجتمع في الصدر عند تحقُّق الصبر.

وقوله: (**وَاعْلَمْ أَنَّ خَشْيَةَ الله تَجْتَمِعُ فِي أَمْرَيْنِ: فِي طَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ، وَإِنَّمَا أَطَاعَهُ مَنْ أَطَاعَهُ بِبُغْضِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الآخِرَةِ، وَعَصَاهُ مَنْ عَصَاهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وبُغْضِ الآخرةِ**) استعمل أسلوب التوشيع حين فسَّر الأمرين اللذين تجتمع فيهما خشية الله، وذلك في قوله: (خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته واجتناب معصيته)، وبعد أن جمع بين طاعة الله واجتناب معصيته في كونهما يجتمع فيهما خشية الله فرَّق بينهما في بيان سبب طاعة الله وسبب معصيته، فقال: (وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحبِّ الآخرة، وعصاه من عصاه بحبِّ الدنيا)، وقد قابل هنا بين (أطاعه مَن أطاعه ببغض الدنيا وحبِّ الآخرة) و(عصاه مَن عصاه بحبِّ الدنيا وبغض الآخرة). وقوله: (**وَلِلْقُلُوبِ حَقَائِقُ يُنْشِئُهَا الله إِنْشَاءً، مِنْهَا السِّرُّ، وَمِنْهَا الْعَلانِيَةُ، فَأَمَّا الْعَلانِيَةُ فَأَنْ يَكُونَ حَامِدُهُ وَذَامُّهُ فِي الْحُقِّ سَوَاءً، وَأَمَّا السِّرُّ فَيُعْرَفُ بِظُهُورِ الْحِكْمَةِ**

مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ، وَبِمَحَبَّةِ النَّاسِ) تنكير (حقائق) للتكثير، وقوله: (منها السر ومنا العلانية) هذا التقسيم استوفى فيه الحقائق، فهي لا تخلو من أن تكون سرًّا أو علانية. وقوله: (فأمَّا العلانية فأن يكون حامده وذامُّه في الحقِّ سواء، وأمَّا السرُّ فيُعرف بظهور الحكمة مِن قلبه على لسانه وبمحبَّة الناس) هذا التقسيم جاء على طريقة اللفِّ والنشر المرتَّب، فبعد أن عدَّد الحقائق وبيَّن أن منها السرَّ ومنها العلانية ذكر ما يعرف به كلٌّ منهما. وقد استعمل ضمير الغائب في (حامده) و(ذامُّه) و(قلبه) و(لسانه) مِن غير أن يسبق له مرجع يفسِّره ليشغل ذهن المخاطَب في تأمُّل هذه الحقائق مِن غير نظر في تعيين مَن تكون فيه. وقوله: **(فَلا تَزْهَدْ فِي التَّحَبُّبِ؛ فَإِنَّ النَّبِيِّينَ قَدْ سَأَلُوا مَحَبَّتَهُمْ)** في الكلام حذف، والتقدير: (فلا تزهد في التحبُّب إلى الناس) وفي قوله: (فإنَّ النبيين قد سألوا محبَّتهم) حسن تعليل. وقوله: **(وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا حَبَّبَهُ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا بَغَّضَهُ)** قابل بين (إذا حبَّب عبدًا حبَّبه) و(إذا أبغض عبدًا بغَّضه) وتنكير (عبدًا) في سياق الشرط للتعميم.

[٥٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِأَهْلِهِ، حِينَ يَنْهَى النَّاسَ عَنْ شَيْءٍ

«إِنِّي نَهَيْتُ عَنْ كَذَا وَكَذَا، وَالنَّاسُ إِنَّمَا يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ نَظَرَ الطَّيْرِ إِلَى اللَّحْمِ، فَإِنْ وَقَعْتُمْ وَقَعُوا، وَإِنْ هِبْتُمْ هَابُوا، وَإِنِّي - وَاللهِ - لَا أُوتَى بِرَجُلٍ مِنْكُمْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِمَّا نَهَيْتُ عَنْهُ النَّاسَ إِلَّا أَضْعَفْتُ لَهُ الْعُقُوبَةَ لِمَكَانِهِ مِنِّي، فَمَنْ شَاءَ فَلْيَتَقَدَّمْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَتَأَخَّرْ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أهله يحذِّرهم مِن أن يقدموا على ما ينهى عنه الناس.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه ببيان ما نهى عنه توطئة لما سيذكره لهم بعدُ، واستعمل الفعل (نهيتُ) بصيغة الماضي ليبيِّن أنَّ النهي ثبتَ ولا رجعة فيه. وقوله: (**وَالنَّاسُ إِنَّمَا يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ نَظَرَ الطَّيْرِ إِلَى اللَّحْمِ**) القصر هنا ادِّعائي لبيان مدى مراقبة الناس لهم لكونهم أهل بيت أمير المؤمنين. وفي قوله: (نظر الطير إلى اللحم) هذا تشبيه مؤكَّد حذفت فيه أداة التشبيه، وفائدة هذا التشبيه أن يتصوَّروا مدى مراقبة العامَّة لأفعالهم، وقوله: (**فَإِنْ وَقَعْتُمْ وَقَعُوا، وَإِنْ هِبْتُمْ هَابُوا**) قابل بين (إن وقعتم وقعوا) و(إن هبتم هابوا). ثم أكَّد مضمون هذا الكلام بـ(إنَّ) والقسم لأهمِّيَّته فقال:

١- رواه عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٧١٣)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٢٨٩، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣١٢٨٥)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٤١، والخطيبُ في «تاريخِ بغدادَ» ٥/ ٣٥٨، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٢٦٨-٢٦٩.

(وَإِنِّي – وَاللهِ – لَا أُوتَى بِرَجُلٍ مِنْكُمْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِمَّا نَهَيْتُ عَنْهُ النَّاسَ إِلَّا أَضْعَفْتُ لَهُ الْعُقُوبَةَ لِمَكَانِهِ مِنِّي) وبنى (أوتى) للمفعول لئلا يتقيَّد بفاعل بعينه؛ إذ العِبرة عنده بحصول مجرَّد الفعل، وقوله: (وقع في شيء) تنكير (شيء) في سياق النفي يفيد العموم. وقوله: (نهيتُ عنه الناس) قدَّم الجارَّ والمجرور (عنه) على المفعول للاهتمام. وقوله: (إلا أضعفتُ له العقوبة) القصر هنا حقيي تحقيقي. وقوله: **(فَمَنْ شَاءَ فَلْيَتَقَدَّمْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَتَأَخَّرْ)** هذه الجملة ظاهرها التخيير والمراد منها التهديد. وبين (فليتقدَّم) و(فليتأخَّر) طباق.

[٥٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

إِلَى جُنْدِهِ، وَهُمْ بِـ«خَانِقِينَ»[١]

«إِنَّ الْأَهِلَّةَ بَعْضُهَا أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الْهِلَالَ نَهَارًا، فَلَا تُفْطِرُوا حَتَّى يَشْهَدَ شَاهِدَانِ[٢] أَنَّهُمَا رَأَيَاهُ بِالْأَمْسِ، وَإِذَا حَاصَرْتُمْ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكُمْ عَلَى أَنْ تُنْزِلُوهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ فَلَا تُنْزِلُوهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَا حُكْمُ اللهِ فِيهِمْ، وَلَكِنْ أَنْزِلُوهُمْ عَلَى حُكْمِكُمْ، ثُمَّ احْكُمُوا فِيهِمْ مَا شِئْتُمْ، وَإِذَا قُلْتُمْ: لَا بَأْسَ، أَوْ لَا تَذْهَلْ، أَوْ مَتَرْسْ[٣] فَقَدْ آمَنْتُمُوهُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُ الْأَلْسِنَةَ»[٤].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (لا تَذْهَل) و(مَتَرْس) بالفارسية: بمعنى لا تخف.

مقتضى الحال: يخاطب جندًا من جنده قبل ذهابهم للجهاد.

١- خانِقِين: بلدةٌ من نواحي السَّوادِ في طريقِ هَمَذانَ من بغدادَ، بينها وبينَ قصرِ شيرينَ ستَّةُ فراسخَ لِمن يُريدُ الجبالَ، ومِن قصرِ شيرينَ إلى حُلوانَ ستَّةُ فراسخَ، وقال البشَّاريُّ: وخانقين أيضًا بلدةٌ بالكوفةِ، واللهُ أعلمُ. «معجم البلدان» ٢/ ٣٤١.

٢- عندَ ابنِ الجعدِ: (رَجُلَانِ مُسْلِمَانِ).

٣- مَتْرَس: كلمةٌ فارسيَّةٌ، معناه: لا تَخَفْ. «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ (١١٤٢).

٤- رواهُ أبو يوسفَ في «الخراج» ١/ ٢٢٤، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٤٣١)، وسعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٢٥٩٩)، وابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (٢٦٩٤)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٩٥٥٣) و(٣٤٠٨٥) و(٣٤٠٨٩)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٧٩٨٢) و(٨١٩١) و(٨١٩٢)، وصحَّحه في «معرفةِ السُّنَنِ والآثارِ» (٨٧٩٩).

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ الْأَهِلَّةَ بَعْضُهَا أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمُ الْهِلَالَ نَهَارًا، فَلَا تُفْطِرُوا حَتَّى يَشْهَدَ شَاهِدَانِ أَنَّهُمَا رَأَيَاهُ بِالْأَمْسِ**) لعلَّه بدأ بهذا الكلام لكونهم في رمضان فأراد أن يذكِّرهم بحكم يتعلَّق به، وقوله: (إنَّ الأهلَّة بعضها أكبر من بعض) استعمل أسلوب الإبدال لتقرير الحكم المتعلِّق بالبدل. وقوله: (**وَإِذَا حَاصَرْتُمْ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكُمْ عَلَى أَنْ تُنْزِلُوهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ فَلَا تُنْزِلُوهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَا حُكْمُ اللهِ فِيهِمْ، وَلَكِنْ أَنْزِلُوهُمْ عَلَى حُكْمِكُمْ**) هذا الكلام مقتبس من قول النبي ﷺ حين كان يؤمِّر أميرًا على جيش أو سريَّة ويوصيه ويقول له: «**وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا**»[1]، ولم ينسب عمرُ هذا الكلام إلى النبي ﷺ لشهرته وعلم المخاطَب بذلك. وقوله: (**ثمَّ احكموا فيهم بما شئتم**) (ما) الموصولة تفيد العموم، ولا يراد بها العموم على إطلاقه، بل هذا العموم مقيَّد بقواعد الشرع المقرَّرة. وقوله: (**وَإِذَا قُلْتُمْ لَا بَأْسَ أَوْ لَا تَذْهَلْ أَوْ مَتْرَسْ فَقَدْ آمَنْتُمُوهُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُ الْأَلْسِنَةَ**) في هذا الكلام إشارة مِن عمر رضي الله عنه إلى ضرورة مراعاة حال المخاطَب ومخاطبته بما يفهم.

١- : صحيح مسلم (١٧٣١).

[٥٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ سَأَلَهُ رَجُلٌ: إِنَّ لِي أُمًّا بَلَغَهَا مِنَ الْكِبَرِ أَنَّهَا لَا تَقْضِي حَاجَةً إِلَّا وَظَهْرِي مَطِيَّةٌ لَهَا، فَأُوطِيهَا وَأَصْرِفُ عَنْهَا وَجْهِي، فَهَلْ أَدَّيْتُ حَقَّهَا؟

«لَا، إِنَّهَا كَانَتْ تَصْنَعُ ذَلِكَ بِكَ وَهِيَ تَتَمَنَّى بَقَاءَكَ، وَأَنْتَ تَصْنَعُ ذَلِكَ بِهَا وَأَنْتَ تَتَمَنَّى فِرَاقَهَا»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب رجلًا ظنَّ أنَّه بخدمته لأمِّه قد وفَّاها حقَّها.

البيان والبلاغة: وجَّه الرجُل سؤالًا لعمرَ رضي الله عنه بأداة الاستفهام (هل)، فكان يمكن لعمر أن يك تفي في الجواب بـ(نعم) أو (لا)، لكنه لم يقتصر على ذلك، وعلَّل الجواب باستعمال أسلوب المقابلة بوجه يقنع المخاطَب، فقابل بين: (**إِنَّهَا كَانَتْ تَصْنَعُ ذَلِكَ بِكَ وَهِيَ تَتَمَنَّى بَقَاءَكَ**) و(**وَأَنْتَ تَصْنَعُ ذَلِكَ بِهَا وَأَنْتَ تَتَمَنَّى فِرَاقَهَا**)، واستعمال اسم الإشارة (ذلك) في الموضعين لطلب استحضار صورة المشار إليه في ذهن المخاطب.

١- رواهُ ابنُ وهبٍ في «الجامعِ» (٩٠)، وابنُ الجوزيِّ في «البرِّ والصِّلةِ» (١).

[٥٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي مُعَاتَبَةِ نَفْسِهِ

«عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ! بَخٍ بَخٍ! وَاللَّهِ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، لَتَتَّقِيَنَّ اللَّهَ، أَوْ لَيُعَذِّبَنَّكَ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (بَخٍ) كلمة تقال عند الرضا بالشيء أو التعجُّبِ منه.

مقتضى الحال: يخاطب عمر رضي الله عنه نفسه معاتبًا لها.

البيان والبلاغة: قوله: (**عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ**) ذكر اسمه ولقبه متعجِّبًا، يردِّد هذا الاسم الذي يسمعه مِن عامَّة المسلمين ويرى هيبتهم له، يتعجَّب مِن ذلك لأنَّه يعلم حقيقة نفسه ويعلم عجزه أمام الله، وفي قوله: (بَخٍ بَخٍ) يُشعر بأنَّه يعتبر تولِّيه الخلافة ابتلاءً مِن الله وقد رضي بهذا الابتلاء. ثم خاطب نفسه محذِّرًا مِن الاغترار بكونه خليفة بيده زمام الأمور، فقال: (**وَاللهِ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، لَتَتَّقِيَنَّ اللهَ، أَوْ لَيُعَذِّبَنَّكَ**) فبدأ بالحَلِف للتأكيد، وجرَّد اسمه مِن اللقب للتحقير وليذكِّر نفسه بأنَّ هذا المنصب لا يغنيه أمام الله، ثمَّ وضع لنفسه خيارين على سبيل المقابلة، فقال: (لتتَّقينَّ الله أو ليعذِّبنك) فجعل هذه القِسمة حاصرةً لا ثالث لها، وكان مقتضى

١- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإِ» (٣٦٣٨) وابنُ سعدٍ في «الطَّبَقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٢٩٢، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (٥٥)، وابنُ أبي الدُّنيا في «مُحاسَبةِ النَّفسِ» (٣).

السياق أن يقابل بين: (لتتَّقينَّ الله فتنجو) و(لتعصينَّه فيعذِّبنَّك)، لكنَّه حذف النتيجة مِن الجملة الأولى فقال: (لتتقينَّ الله)، واكتفى بذكر النتيجة في الجملة الثانية فقال: (ليعذِّبنَّك)، ومِن لطيف حذف النتيجة في الجملة الأولى أنَّه اكتفى بذكر ما هو مطلوب منه، وهو تقوى الله، ولم يذكر النتيجة لكمال يقينه بالله وأنَّه لا يُخلف وعده فقد وعد أن سينجي الذين اتَّقوا. ومِن لطيف الاكتفاء بالنتيجة في الجملة الثانية أنَّه كره ذكر عصيان الله، لكن ذكر ما يترتَّب على المعصية وهو العذاب ليخوِّف نفسه.

[٦٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْكُوفَةِ الْفُتْيَا

«أَمَّا صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي بَيْتِهِ تَطَوُّعًا: فَهُوَ نُورٌ، فَنَوِّرُوا بُيُوتَكُمْ وَمَا خَيْرُ بَيْتٍ لَيْسَ فِيهِ نُورٌ، وَأَمَّا مَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ مِنِ امْرَأَتِهِ حَائِضًا: فَلَكَ مَا فَوْقَ الْإِزَارِ وَلَا تَطَّلِعُونَ عَلَى مَا تَحْتَهُ حَتَّى تَطْهُرَ، وَأَمَّا الْغُسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ: فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اغْسِلْ رَأْسَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَفِضِ الماءَ عَلَى جِلْدِكَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يُجيب سائلًا عن مسائل فقهية.

البيان والبلاغة: يظهر مِن كلام عمر رضي الله عنه أنَّ السائل استفتاه عن أمور ثلاثة، عن صلاة الرجُل في بيته تطوُّعًا، وعن ما يحِلُّ للرجُل مِن امرأته وهي حائض، وعن غسل الجنابة، وقد أعاد عمر جُزءَ السؤال مع كل إجابة ليربط للسائل بين كل سؤال وإجابته، واستعمل أداة التفصيل (أمَّا) للفصل بين كلِّ سؤال زيادة في التوضيح. فقوله: (**أَمَّا صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي بَيْتِهِ تَطَوُّعًا: فَهُوَ نُورٌ، فَنَوِّرُوا بُيُوتَكُمْ، وَمَا خَيْرُ بَيْتٍ لَيْسَ فِيهِ نُورٌ؟**) هذه إجابة السؤال الأوَّل، وقوله: (فهو نور) اقتباس

١- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٨٦)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٨٧)، وابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (٢٥٦٨)، والبيهقيُّ في «السُّننِ الكُبرى» (١٥٠٠)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢٥/ ٢٨٥، والضِّياءُ المقدسيُّ في «الأحاديثِ المختارةِ» (٢٦٠).

مِن قول النبي ﷺ: (الصَّلاة نور)[١]، وقوله: (فنوِّروا بيوتكم) مِن باب المشاكلة، ويريد: أكثروا مِن صلاة التطوُّع في بيوتكم. وقوله: (ما خير بيت ليس فيه نور؟) هذا استفهام إنكاري وفيه معنى التعجُّب، يعني: أيُّ خير يُرجى في بيت لا يتطوَّع فيه أهله بالصلاة، وتنكير (بيت) في سياق الاستفهام يفيد العموم. وقوله: (**وَأَمَّا مَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ مِنِ امْرَأَتِهِ حَائِضًا: فَلَكَ مَا فَوْقَ الْإِزَارِ، وَلَا تَطَّلِعُونَ عَلَى مَا تَحْتَهُ حَتَّى تَطْهُرَ**) هذه إجابة السؤال الثالث، وقوله: (فلك ما فوق الإزار) هذه الإجابة أجاب بها النبي ﷺ سائلًا وجَّه له السؤال نفسه[٢]، وقوله: (ولا تطَّلعون) نفي يراد به النهي، فالجملة خبرية يراد بها الطلب، وجاءت بلفظ الخبر لتقرير النهي، وفي قوله: (ما تحته) كناية عن الفرْج، وقد ترك التصريح به استحياءً مِن ذِكره. وقوله: (**وَأَمَّا الْغُسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ: فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اغْسِلْ رَأْسَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَفِضِ الْمَاءَ عَلَى جِلْدِكَ**) هذا جواب السؤال الثالث، وهو مطابق لصفة اغتسال النبي ﷺ كما ذكر ذلك أزواجه - رضي الله عنهنَّ[٣]. ومِن هذه الإجابات يظهر حِرصُ عمر رضي الله عنه على التقيُّد بلفظ النبي ﷺ والاقتباس مِن كلامه، وقد جاء في بعض روايات هذا الأثر أنَّ عمر نفسَه سأل هذه الأسئلة للنبي ﷺ، وأجاب السائل بما أجابه النبي - ﷺ[٤].

١- : صحيح مسلم (٢٢٣).

٢- ينظر: سنن أبي داود (٢١٣).

٣- ينظر: صحيح البخاري (ح٢٤٨) وما بعده، وصحيح مسلم (ح٣١٦) وما بعده.

٤- ينظر: مصنف ابن أبي شيبة (ح١٦٨٣٤)، ومسند الطيالسي (ح٤٩)، ومصنف عبدالرزَّاق (ح٩٨٨).

[٦١]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

فِي حُرْمَةِ الْمُسْلِمِ

«ظُهُورُ الْمُسْلِمِينَ حِمَى اللهِ لَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ، إِلَّا أَنْ يُخْرِجَهَا حَدٌّ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخبر عن حُرمة المسلم.

البيان والبلاغة: قوله: (ظهور المسلمين حمى الله) تعريف طرفي الإسناد هنا يفيد القصر، وهذا القصر ادِّعائي، وقد شبَّهَ ظهور المسلمين بالحِمى الذي يُحظَرُ فلا يُقترب منه، وحذفَ أداة التشبيه فصار تشبيهًا مؤكَّدًا. وقوله: (لا تحلُّ لأحد) هذا الجملة تفسيرية تبيِّن وجه كون ظهور المسلمين حمىً، لذا فُصلت هذه الجملة ولم تُعطف على ما قبلها بالواو. وتنكير (أحد) في سياق النفي يفيد العموم. وقوله: (إلا أن يُخرِجَها حدٌّ) هذا القصر حقيقي تحقيقي، وفي قوله (يخرجها) ترشيح لتشبيه ظهور المسلمين بالحمى. وتنكير (حدٌّ) للإفراد.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٣٦٧٥).

[٦٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِخَالِدِ بْنِ عُرْفُطَةَ الْعُذْرِيِّ[١]، وَقَدْ أَخْبَرَهُ خَبَرَ النَّاسِ[٢]

«فَاللهُ الْمُسْتَعَانُ، إِنَّمَا هُوَ حَقُّهُمْ أُعْطُوهُ، وَأَنَا أَسْعَدُ بِأَدَائِهِ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ بِأَخْذِهِ، فَلَا تَحْمَدْنِي عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ مَالِ الْخَطَّابِ مَا أُعْطِيتُمُوهُ، وَلَكِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ فِيهِ فَضْلًا، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ أَحْبِسَهُ عَنْهُمْ، فَلَوْ أَنَّهُ إِذَا خَرَجَ عَطَاءُ أَحَدِ هَؤُلَاءِ الْعُرَيْبِ[٣] ابْتَاعَ مِنْهُ غَنَمًا، فَجَعَلَهَا بِسَوَادِهِمْ ثُمَّ إِذَا خَرَجَ الْعَطَاءُ الثَّانِيَةَ ابْتَاعَ الرَّأْسَ فَجَعَلَهُ فِيهَا.

فَإِنِّي - وَيْحَكَ يَا خَالِدَ بْنَ عُرْفُطَةَ - أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ يَلِيَكُمْ بَعْدِي وُلَاةٌ لَا يُعَدُّ الْعَطَاءُ فِي زَمَانِهِمْ مَالًا، فَإِنْ بَقِيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَوْ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ قَدِ اعْتَقَدُوهُ فَيَتَّكِئُونَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ نَصِيحَتِي لَكَ وَأَنْتَ عِنْدِي جَالِسٌ كَنَصِيحَتِي لِمَنْ هُوَ بِأَقْصَى ثَغْرٍ مِنْ ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ لِمَا طَوَّقَنِي اللهُ مِنْ أَمْرِهِمْ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ مَاتَ غَاشًّا لِرَعِيَّتِهِ لَمْ يرح رَائِحَةَ**

١- خالدُ بنُ عُرْفُطَةَ بنِ أبرهةَ، حليفُ بني زُهْرةَ، صحِبَ النَّبيَّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - وروى عنهُ، وكانَ سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ ولَّاهُ القِتالَ يومَ القادسيَّةِ، وهو الَّذي قتلَ الخوارجَ يومَ النُّخَيْلَةِ، ونزلَ الكوفةَ وابتنى بها دارًا. «الطَّبقات الكُبرى» ٤/ ٣٥٥.

٢- سألهُ عمرُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «مَا وَرَاءَكَ؟» فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، تَرَكْتُ مَنْ وَرَائِي يَسْأَلُونَ اللهَ أَنْ يَزِيدَ فِي عُمُرِكَ مِنْ أَعْمَارِهِمْ، مَا وَطِئَ أَحَدٌ الْقَادِسِيَّةَ إِلَّا عَطَاؤُهُ أَلْفَانِ أَوْ خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً، وَمَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا أُلْحِقَ عَلَى مِائَةٍ وَجَرِيبَيْنِ كُلَّ شَهْرٍ، ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى، وَمَا يَبْلُغُ لَنَا ذَكَرٌ إِلَّا أُلْحِقَ عَلَى خَمْسِمِئَةٍ أَوْ سِتِّمِئَةٍ، فَإِذَا خَرَجَ هَذَا لِأَهْلِ بَيْتٍ مِنْهُمْ مَنْ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَأْكُلُ الطَّعَامَ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِ، فَإِنَّهُ لَيُنْفِقُهُ فِيمَا يَنْبَغِي وَفِيمَا لَا يَنْبَغِي.

٣- العُرَيْبِ: تصغير العَرَبِ.

الْجُنَّةِ»[١]**»**[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (العُرَيْب) تصغيرُ العَرَب.

مقتضى الحال: يخاطب خالد بن عُرْفُطَة بعد أن أخبره بثناء الناس عليه حين وزع عليهم حقوقهم في بيت المال.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَاللهُ الْمُسْتَعَانُ، إِنَّمَا هُوَ حَقُّهُمْ أُعْطُوهُ، وَأَنَا أَسْعَدُ بِأَدَائِهِ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ بِأَخْذِهِ**) الفاء في (فالله المستعان) فصيحة دالة على محذوف، ولعل التقدير: (إن كان قولهم كما تقول فالله المستعان)، وإنَّما استعان بالله لعلمه بأنَّ المدح والثناء يورث العُجب والكبر فاستعان بالله لئلا يحصل له شيء مِن ذلك، ولم يذكر المستعان عليه للإطلاق، أي لتكون استعانته بالله على كل شيء ولا تتقيَّد بمذكور. وقوله: (إنَّما هو حقُّهم أُعطوه) القصر هنا حقيقي تحقيقي، وبناء (أعطوه) للمفعول لتعمُّد حذف الفاعل، فالفاعل هو المتكلِّم نفسه - أي: عمر -، أراد أن لا يكون له ذكر. وقوله: (فأنا أسعد بأدائه إليهم منهم بأخذه) بين (أدائه) و(أخذه) طباق. وقوله: (**وَلَكِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ فِيهِ فَضْلا**) قوله: (قد علمتُ) فيه دلالة على أنَّ عمر لا يتصرَّف في مال المسلمين إلا بعد تثبُّت، دلَّ على ذلك مجيء الفعل (علمتُ) بصيغة الماضي ودخول (قد) عليه. وقوله: (أنَّ فيه فضلًا) تقديم الجارِّ والمجرور (فيه) على اسم (أنَّ) فيه تخصيص، وتنكير (فضلًا) للتكثير. وقوله: (**فَلَوْ أَنَّهُ إِذَا خَرَجَ عَطَاءُ**

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٧١٥٠)، ومسلمٌ في «صحيحِه» (١٤٢)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (٢٠٢٩١)، والدَّارميُّ في «السُّنَنِ» (٢٨٣٨)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٤٤٩٥).

٢- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٢٩٨-٢٩٩، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٥٤.

أَحَدِ هَؤُلَاءِ الْعُرَيْبِ ابْتَاعَ مِنْهُ غَنَمًا، فَجَعَلَهَا بِسَوَادِهِمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجَ الْعَطَاءُ الثَّانِيَةَ ابْتَاعَ الرَّأْسَ فَجَعَلَهُ فِيهَا) (لو) هنا تفيد التمنِّي، واستعمال اسم الإشارة (هؤلاء) لتعيين المشار إليه للمخاطَب، وتنكير (غنمًا) للتقليل. وقوله: **(فَإِنِّي - وَيْحَكَ يَا خَالِدُ بْنَ عُرْفُطَةَ - أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ يَلِيَكُمْ بَعْدِي وُلَاةٌ لَا يُعَدُّ الْعَطَاءُ فِي زَمَانِهِمْ مَالًا، فَإِنْ بَقِيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَوْ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ قَدِ اعْتَقَدُوهُ فَيَتَّكِئُونَ عَلَيْهِ)** الجملة الاعتراضية (ويحك يا خالد بن عُرْفُطة) لِلفت انتباه المخاطَب ولا يراد بها ظاهر معناها. ومجيء الفعل (أخاف) بصيغة المضارع لإفادة الاستمرار والتجدُّد، أي أنَّ هذا الخوف لا يزال يتجدَّد معه لحرصه على رعيَّته، والجارُّ والمجرور (عليكم) لتقييد الفعل، وتنكير (ولاة) لقصد عدم التعيين، وفي قوله: (كان لهم شيء) تنكير (شيء) للتكثير. وفي قوله: (قد اعتقدوه) في الكلام حذف والتقدير: (اعتقدوه لهم) وحذفه لإنكاره. وقوله: **(فَإِنَّ نَصِيحَتِي لَكَ وَأَنْتَ عِنْدِي جَالِسٌ كَنَصِيحَتِي لِمَنْ هُوَ بِأَقْصَى ثَغْرٍ مِنْ ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ)** التشبيه في قوله: (نصيحتي لك وأنت عندي جالس كنصيحتي لمن هو بأقصى ثغر) تشبيه مقلوب، إذ مقتضى الظاهر أن يقول: (نصيحتي لمن هو بأقصى ثغر كنصيحتي لك)، لأنَّ وجه الشبه - وهو أحقِّية كل في النصح والإخلاص فيه - أظهر بالنسبة للمخاطَب في نصح عمر له، فكان أولى بأن يكون هو المشبَّه به، لكن أراد عمر أن يقرِّر استواء الرعية في النصح فجعل مَن في أقصى ثغر يَظهر فيه هذا الأمر أكثر مِن المخاطَب الذي هو عنده جالس. وقوله (جالس) تَتْميم، وفائدته إظهار مدى استئناس المخاطَب وارتياحه. وقوله: **(وَذَلِكَ لِمَا طَوَّقَنِي اللهُ مِنْ أَمْرِهِمْ)** شبَّه عمرُ الخلافة التي وُلِّيها بالطوق أحاط به فلم يستطع التخلص منه.

[٦٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِلنَّخَعِيِّينَ وَقَدِ اسْتَنْفَرَهُمْ لِقِتَالِ الْعَدُوِّ

«يَا مَعْشَرَ النَّخَعِ، إِنِّي أَرَى السَّرْوَ[١] فِيكُمْ مُتَرَبِّعًا، فَعَلَيْكُمْ بِالْعِرَاقِ وَجُمُوعِ فَارِسَ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (السَّرْو): سَخاءٌ في المروءة.

مقتضى الحال: يخاطِب النخعيِّين يستحثُّهم على قتال العَدُو.

البيان والبلاغة: بدء الكلام بنداء المخاطَب لِلَفت انتباهه وبيان أنَّ الكلام موجَّه له. وقوله: (أرى السَّرْو فيكم مُتربِّعًا) تجريد لصفة السَّرِو، وتشبيه لهذه الصفة بشخص رأى في معشر النخعيِّين مكانًا مناسبًا له فجلس متربِّعًا فيهم. وتقديم الجارِّ والمجرور (فيكم) على عامله (متربِّعًا) للتخصيص. وبعد أن أثنى عليهم عمر عمد إلى مقصده فاستحثَّهم على الخروج لقتال الفرس، فقال: (فعليكم بالعراق وجموع فارس)، والأمر بعد الثناء أدعى لاستجابة المخاطَب. والفاء في (فعليكم)

١- في «مُصنَّفِ ابنِ أبي شيبةَ» ط الرُّشد: (الشَّرَف)، وقولُه: «أرى السَّروَ فيكم مُتربِّعًا» أي: أرى الشَّرفَ فيكم مُتمكِّنًا. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (سرى).

٢- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٤٤٨)، وابنُ أبي خيثمةَ في «التَّاريخِ» (٣٨٢٨) و(٣١٩٢)، والطَّبريُّ في «تاريخه» ٣/ ٤٨٤.

تفيد السببية، وكأنَّ عمر قال لهم: (لما رأيت السَّرْو متربِّعًا فيكم وجدتكم أهلًا لقتال الفرس فأمرتكم بقتالهم). وعطف (جموع فارس) على (العراق) مِن عطف الخاص على العامِّ لإفادة التخصيص.

[٦٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي عَزْلِ شُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ[(١)]

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي وَاللَّهِ مَا عَزَلْتُ شُرَحْبِيلَ عَنْ سَخْطَةٍ، وَلَكِنِّي أَرَدْتُ رَجُلًا أَقْوَى مِنْ رَجُلٍ»[(٢)].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب الناس يبيِّن لهم سبب عزل شُرَحْبِيل بن حَسَنَة.

البيان والبلاغة: قوله: (إنِّي والله ما عزلت شرحبيل عن سخطة) أكَّد كلامه بـ(إنَّ) والقَسَم لكون المخاطَب يعتقد أنَّ شُرَحْبيل عُزل عن سخطة. وتنكير (سخطةٍ) للإفراد، ونفيها نفي لما هو أكثر منها. وتنكير (رجلًا) و(رجلٍ) لقصد عدم التعيين، وهذا مِن أدب عمر مع عمَّاله، لم ينص على أنَّه ضعيف ولم يذكر مَن هو أقوى مِنه.

١- شُرَحْبِيلُ بنُ عبدِ الله الكِنديُّ، حليفُ بني زُهرةَ، عُرِف بـ(شُرَحْبيلَ بنِ حَسَنَةَ)، وحَسَنَةُ أُمُّهُ، يُقالُ له: ذو الهجرتينِ: هجرةٍ بالحَبَشةِ، وهجرةٍ بالمدينةِ. أحدُ أمراءِ الأجنادِ بالشَّام، تُوفِّي بها في الطَّاعونِ في خلافةِ عمرَ. طُعِن هو وأبو عُبيدةَ بنُ الجرَّاحِ في يوم واحدٍ. «سير السَّلف الصَّالحين» ص٤٥٢.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٦٥، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢٢/ ٤٧٤.

[٦٥]

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ

فِي تَزْوِيجِ الأَعْرَابِ مِنْ ذَوَاتِ الأَحْسَابِ

«وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَأَمْنَعَنَّ فُرُوجَ ذَوَاتِ الْأَحْسَابِ إِلَّا مِنْ ذَوِي الْأَحْسَابِ[١]؛ فَإِنَّ الْأَعْرَابَ إِذَا كَانَ الْجَدْبُ فَلَا نِكَاحَ لَهُمْ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب المسلمين في شأن زواج الأعراب مِن ذوات الأحساب.

البيان والبلاغة: ابتداؤه الكلام بالقَسَم إشارة إلى أهمِّيَّة مضمون كلامه، وقوله: (لأمنعنَّ فُروج ذوات الأحساب) ذكر الجزء وأراد به الكل، وإنَّما ذكر الفَرْج إشارة منه إلى أنَّ مقصد الأعراب مِن الزواج هو قضاء الشهوة فقط، فاقتصر في المنع على ذكر الفَرْج لأنَّه المراد لهم. وقوله: (إلا مِن ذوي الأحساب) هذا القصر حقيقي تحقيقي، وقد حذف المستثنى منه لإرادة الإطلاق في الحُكم، والتقدير: (لأمنعنَّ فروج ذوات الأحساب مِن كلِّ أحد إلا مِن ذوي الأحساب).

١- في «مُصنَّفِ ابن أبي شيبةَ»: (إلَّا مِنَ الأَكْفَاءِ).

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٠٣٣١)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٧٩٩٨) مختصرًا.

[٦٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا بَالُ رِجَالٍ لَا يَزَالُ أَحَدُهُمْ كَاسِرًا وِسَادَتَهُ عِنْدَ الْمَرْأَةِ مُغِيبَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، يَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا، وَتَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ؟! عَلَيْكُمْ بِالْجَنْبَةِ[1]؛ فَإِنَّهَا عَفَافٌ؛ إِنَّمَا النِّسَاءُ لَحْمٌ عَلَى وَضَمٍ[2] إِلَّا مَا ذُبَّ عَنْهُ»[3].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: المرأة المُغِيبة: هي التي غاب عنها زوجها، و(الجَنْبَةُ) الاجتنابُ والعزلةُ.

مقتضى الحال: يخاطب المسلمين يعرِّض باللَّوم على رجال يتحدَّثون إلى نساء غاب عنهن أزواجهنَّ في سبيل الله.

١- قالَ الهَرَوِيُّ: يقولُ: اجتنِبُوا النِّساءَ والجُلوسَ إليهنَّ، ولا تَقْرَبُوا ناحيتَهنَّ. يُقالُ: رجلٌ ذو جَنْبَةٍ: أي ذو اعتزالٍ عنِ النَّاسِ، مُتَجنِّبٌ لهم. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (جنب).

٢- الوَضَمُ: الخَشَبَةُ، أو البارِيَةُ الَّتي يُوضَعُ عليها اللَّحْمُ، تَقِيهِ مِنَ الأرضِ. قال الزَّمخشرِيُّ: الوَضَمُ: كلُّ ما وقيتَ بِهِ اللَّحمَ مِنَ الأرضِ. أرادَ أنَّهنَّ في الضَّعفِ مثلُ ذلك اللَّحمِ الَّذي لا يَمتنِعُ على أحدٍ، إلَّا أنْ يُذَبَّ عنهُ ويُدفعَ. وقال الأزهريُّ: إنَّما خَصَّ اللَّحمَ على الوَضَمِ وشَبَّهَ به النِّسَاءَ؛ لأنَّ مِن عادةِ العربِ إذا نُحِرَ بعيرٌ لِجماعةٍ يقتسمون لحمَه أن يَقْلَعُوا شَجَرًا، ويُوضَمَ بعضُه على بعضٍ، ويُعَضَّى اللَّحمُ، ويُوضَعَ عليه، ثُمَّ يُلقَى لَحمُه عن عُرَاقِهِ، ويُقطَّعَ على الوَضَمِ، هَبْرًا لِلقَسْمِ، وتُؤَجَّجَ النَّارُ، فإذا سَقَطَ جَمْرُها، اشْتَوَى مَن حَضَرَ شيئًا بعدَ شيءٍ، على ذلك الجَمْرِ، لا يُمنَعُ منه أحدٌ، فإذا وَقعَتِ المَقاسِمُ حَوَّلَ كلُّ واحدٍ قَسْمَهُ عنِ الوَضَمِ إلى بيتِه، ولم يَعرِضْ له أحدٌ. فشَبَّهَ عمرُ النِّساءَ وقِلَّةَ امتناعِهِنَّ على طُلَّابِهنَّ مِن الرِّجالِ باللَّحمِ ما دامَ على الوَضَمِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (وضم).

٣- رواهُ هشامُ بنُ عمَّارٍ في «حديثِه» (١٢٤).

البيان والبلاغة: قوله: (ما بال رجال) يُعرِّض باللوم على أمر لا ينبغي أن يفعله الرجال. وقوله: (كاسرًا وسادته) كناية عن خرم المروءة. وقوله: (عند المرأة مُغِيبة في سبيل الله) (أل) الداخلة على (المرأة) لبيان الحقيقة مِن غير تعيين لأفرادها فلا تعرِّف مدخولها لذا جاءت الصفة (مغيَّبة) نكرة. وقوله: (يتحدَّث إليها وتتحدَّث إليه) تفسير لقوله: (كاسرًا وسادته). وقوله: (عليكم بالجَنْبَة فإنَّها عفاف) تنكير (عفاف) للتعظيم. وقوله: (إنَّما النساء لحم على وَضَم) هذا القصر ادِّعائي، وقد شبَّه النساء باللحم المعروض على وَضَم تشبيهًا مؤكَّدًا بحذف أداة التشبيه، والجامع بينهما سهولة تناول كلٍّ منهما، وقوله: (إلا ما ذُبَّ عنه) هذا القصر حقيقي تحقيقي. وجاء قوله: (إنَّما النساء لحم على وَضَم إلا ما ذُبَّ عنه) تذييلًا يؤكِّد ما ذكر قبل مِن ضرورة اجتناب النساء، وهذا التذييلُ جارٍ مجرى المثل.

[٦٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ جَعَلَ مَا أَخْطَأَتْ أَيْدِيكُمْ رَحْمَةً لِفُقَرَائِكُمْ، فَلَا تَعُودُوا فِيهِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب الناس بشأن الإنفاق على الفقراء.

البيان والبلاغة: قوله: (ما أخطأتْ أيديكم) استعمال الاسم الموصول (ما) لقصد الوصف بما تضمَّنته صلة الموصول، وفي قوله: (أخطأتْ أيديكم) إسناد مجازي؛ لأنَّ الذي يخطئ هو المرء بعقله، فإسناد الخطأ إلى الأيدي مجاز لأنَّ الإنفاق يكون بها. وتنكير (رحمة) للتعظيم. وقوله: (لفقرائكم) أضاف الفقراء إلى ضمير المخاطَب لِلَفت انتباه المخاطَب إلى أن الفقراء إنَّما هم منهم ليكونوا أرحم بهم وأشفق عليهم.

١- رواهُ الخطيبُ في «تاريخ بغدادَ» ٤/ ٤٨١، وقالَ مُحمَّدٌ: سألتُ ابنَ عُيَينةَ عنهُ غيرَ مرَّةٍ، فلم يَعرِفْهُ، فقلتُ لِبَقِيَّةَ: يا أبا مُحمَّدٍ، ما تفسيرُه؟ قال: هذا الحصادُ ما أخطأَ الِمنْجَلُ، فلا تَعُدْ فيهِ، ودَعْهُ لِلفقراءِ.

[٦٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَوْ كُنْتُ مُدَّعِيًا حَيًّا مِنَ الْعَرَبِ، أَوْ مُلْحِقَهُمْ بِنَا لَادَّعَيْتُ بَنِي مُرَّةَ بْنِ عَوْفٍ[1]، إِنَّا لَنَعْرِفُ فِيهِمُ الْأَشْبَاهَ مَعَ مَا نَعْرِفُ مِنْ مَوْقِعِ ذَلِكَ الرَّجُلِ حَيْثُ وَقَعَ. يَعْنِي عَوْفَ بْنَ لُؤَيٍّ[2]»[3].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يمدح بني مُرَّة بن عَوف.

البيان والبلاغة: قوله: **(لَوْ كُنْتُ مُدَّعِيًا حَيًّا مِنْ الْعَرَبِ، أَوْ مُلْحِقَهُمْ بِنَا لَادَّعَيْتُ بَنِي مُرَّةَ بْنِ عَوْفٍ)** تنكير (حيًّا) في سياق الشرط يفيد العموم. ولكون الادِّعاء والإلحاق مِن الأمور التي إن ثبتت استقرَّت ولزمت ناسب أن يعبِّر عنهما بصيغة اسم الفاعل في قوله: (مُدَّعِيًا) و(مُلحِقَهم)، وبين (مدَّعِيًا) و(مُلْحِقَهم) طباق. وفي قوله: (لادَّعيت بني مُرَّة) احتباك، والتقدير: (لادَّعيتُ بني مُرَّة أو ألحقتهم

١- قالَ ابنُ إسحاقَ: وكانَ القومُ أشرافًا في غَطَفانَ، وهم سادتُهم وقادتُهم. منهم: هَرِمُ بنُ سِنَانِ بنِ أبي حارثةَ بنِ مُرَّةَ بنِ نُشْبَةَ، وَخارجةُ بنُ سِنَانِ بنِ أبي حارثةَ، والحارثُ بنُ عوفٍ، والحُصَيْنُ بنُ الحُمَامِ، وهاشمُ بنُ حَرْمَلَةَ الَّذي يقولُ لهُ القائلُ:

أَحْيَا أَبَاهُ هَاشِمُ بْنُ حَرْمَلَهْ ... يَـوْمَ الْهَـبَـاآتِ وَيَـوْمَ الْيَعْـمَـلَهْ
تَرَى الْمُلوكَ عِنْدَهُ مُغَـرْبَلَهْ ... يَقْتُلُ ذَا الذَّنْبِ وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهْ

«السِّيرة النَّبويَّة» لابنِ هشام ١/ ١٠١.

٢- قالَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ١/ ٤٢٨: (قد ذكرَ ابنُ إسحاقَ كيفَ انتزحَ عوفُ بنُ لُؤيٍّ مِن مكَّةَ، وكيفَ أقامَ في بني غَطَفانَ وتزوَّجَ منهم، وانتسَب إليهم، ثُمَّ إنَّ بَنِيهِ ندِموا على ذلك، وجعلوا يلهجون بانتسابِهم إلى لُؤيِّ بنِ غالبٍ، وبنو مُرَّةَ بَطنٌ منهم أيضًا).

٣- رواهُ ابنُ هشامٍ في «السِّيرةِ النَّبويَّةِ» ١/ ٩٩، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ٣/ ٢٢٩.

بنا). وقوله: (**إِنَّا لَنَعْرِفُ فِيهِمْ الْأَشْبَاهَ مَعَ مَا نَعْرِفُ مِنْ مَوْقِعِ ذَلِكَ الرَّجُلِ حَيْثُ وَقَعَ**) هذه الجملة تعليل لما قبلها لذا جاءت مفصولة مِن غير عطف بالواو. وقوله: (لنعرف فيهم الأشباه) تقديم الجارِّ والمجرور (فيهم) على المفعول (الأشباه) للعناية والاهتمام. واستعمال اسم الإشارة (ذلك) لبيان علو الشأن.

[٦٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

إِذَا وَلَّى رَجُلًا عَمَلا

«إِنَّ الْعَمَلَ كِيرٌ[١]، فَانْظُرْ كَيْفَ تَخْرُجُ مِنْهُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: الكير: موقد النار الذي يبنيه الحدَّاد مِن الطين يلين فيه الحديد.

مقتضى الحال: يخاطِب مَن ولَّاه عَملًا.

البيان والبلاغة: هذه العبارة الموجزة وضَّح فيها عمر لِمَن ولَّاه عملًا حال هذا العمل، فقوله: (إنَّ العمل كِير) شبَّه العمل في أمر مِن أمور المسلمين بموقد النار الذي يُلان فيه الحديد، وحذف أداة التشبيه فصار تشبيهًا مؤكَّدًا، وإنَّما شبَّه ولاية أمر المسلمين بالكِير لأنَّ صاحبه إن قام عليه بحذر أنجز ما أراد ونجا مِن النار وانتفع بها عمل ونفع غيره، وإن استطال وتعدَّى موقفه منه وقع فيه واحترق بناره، وكذا مَن تولَّى شيئًا مِن أمور المسلمين، إن قام بهذا الأمر حقَّ قيامه انتفع ونفع غيره، وإن تعدَّى حدود الله رجع على نفسه بالإثم وصار مُتوعَّدًا بالنار يوم القيامة. لذا

١- الكِيرُ بالكسرِ: كِيرُ الحَدَّادِ، وهو المبنيُّ مِن الطِّينِ. وقِيلَ: الزِّقُّ الَّذي يُنفَخُ به النَّارُ، والمبنيُّ: الكُورُ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (كير).

٢- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٢٦.

قال عمر: (فانظر كيف تخرج منه) يعنى: كنْ قائما بعملِك على الوجهِ الذي يرضِي ربَّك وينجيكَ من عذابهِ.

[٧٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ[١]

«مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَحْسَنَ صُورَةً مِنْ جَرِيرٍ، إِلَّا مَا بَلَغَنَا مِنْ صُورَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب قومًا فيهم جرير بن عبد الله بعد أن رأى جريرًا ألقى رداءه ومشى بإزاره.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَحْسَنَ صُورَةً مِنْ جَرِيرٍ**) تنكير (رجلًا) في سياق النفي يفيد العموم، لكن هذا العموم جاء على سبيل الادِّعاء مبالغة في بيان حُسن صورة جرير، فالقصر في قوله: (**إِلَّا مَا بَلَغَنَا مِنْ صُورَةِ يُوسُفَ**) قصر ادِّعائي، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كانَ رسولُ الله ﷺ أحسنَ النَّاسِ وجهًا»،

١- جريرُ بنُ عبدِ الله البَجَليُّ، الأَحْمَسِيُّ، اليمنيُّ. وفد على رسولِ الله ﷺ سنةَ عشرٍ، فأسلمَ في رمضانَ، فأكرمَ رسولُ الله ﷺ مقدَمَه. وكانَ بديعَ الجمالِ، مليحَ الصُّورةِ إلى الغَايةِ، طويلًا، يصلُ إلى سنامِ البعيرِ، وكان نعلُه ذراعًا. اعتزلَ عليًّا ومُعاويةَ، وأقامَ بنواحي الجزيرةِ. تُوُفِّيَ سنةَ إحدى وخمسينَ على الصَّحيحِ. «تاريخ الإسلام» ٢/ ٤٨٠.

٢- رواهُ التِّرمذيُّ في «الشَّمائلِ المحمديَّة» (٢٢٣)، وجوَّد إسنادَه الحافظُ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٦٨٢ وقال: (وقد كان جريرٌ مِن أحسنِ النَّاسِ وجهًا، كما ثبتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ على وجهِهِ مَسحَةُ مَلَكٍ». فرضيَ اللهُ عن أصحابِ رسولِ الله ﷺ أجمعينَ).

وعليه فهو أحسن صورة مِن جرير رضي الله عنه، وإنَّما اختار عمر ذكر صورة يوسف لما استقرَّ في الأذهان مِن جمال صورته.

[٧١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

لِعُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ[١] رضي الله عنه

«قَدْ فَتَحَ اللهُ - جَلَّ وَعَزَّ - عَلَى إِخْوَانِكُمُ الْحِيرَةَ[٢] وَمَا حَوْلَهَا، وَقُتِلَ عَظِيمٌ مِنْ عُظَمَائِهَا وَلَسْتُ آمَنُ أَنْ يَمُدَّهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ أَهْلِ فَارِسَ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُوَجِّهَكَ إِلَى أَرْضِ الْهِنْدِ، لِتَمْنَعَ أَهْلَ تِلْكَ الْجِيزَةِ مِنْ إِمْدَادِ إِخْوَانِهِمْ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، وَتُقَاتِلَهُمْ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْكُمْ فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ، وَاتَّقِ اللهَ مَا اسْتَطَعْتَ، وَاحْكُمْ بِالْعَدْلِ، وَصَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، وَأَكْثِرْ ذِكْرَ اللهِ»[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الجِيزة) النَّاحيةُ، والجمعُ جِيَز.

مقتضى الحال: يخاطب عُتْبة بن غَزْوان أحد قوَّاده في فتح بلاد فارس.

١- عُتْبةُ بنُ غزوانَ بنِ جابرٍ المازنيُّ. كان رجلًا طوالًا جميلًا، وهو قديمُ الإسلام، كان إسلامُه بعدَ ستَّةِ رجالٍ، فهو سابعُ سبعةٍ في إسلامِه. هاجرَ في أرضِ الحبشةِ وهو ابنُ أربعينَ سنةً، ثُمَّ قدِم على النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ - وَهُوَ بمكَّةَ، وأقام معهُ حتَّى هاجرَ إلى المدينةِ مع المقدادِ بنِ عمرٍو، ثُمَّ شهِد بدرًا والمشاهدَ كلَّها، وكان يومَ قدِمَ المدينةَ ابنَ أربعينَ سنةً، وكانَ مِن الرُّماةِ المذكورينَ مِن أصحابِ رسولِ الله ﷺ، وكانَ أوَّلَ مَن نزل البصرةَ مِن المسلمينَ، وهو الَّذي اختطَّها. «الطَّبقات الكُبرَى» ٣/ ٩٨، و«الاستيعاب» ٣/ ١٠٢٦-١٠٢٧.

٢- الحِيرة، بكسرِ الحاءِ المهمَلةِ: مدينةٌ كانت على شاطئِ الفراتِ الغربيِّ، كانت عاصمةَ ملوكِ لخمٍ المشهورينَ بالمناذرةِ. وقد احتلَّتِ اليومَ مدينةُ النَّجفِ موقعَ الحِيرةِ على أميالٍ مِن آثارِ الكوفةِ. «معجم البلدن» ص١٠٧-١٠٨.

٣- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٩١.

البيان والبلاغة: لم يأمر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عتبة بن غزوان بمراده ابتداءً وإنَّما بيَّن له ما يشحذ همَّته على تنفيذ ما سيأمره به، فقال: (**قَدْ فَتَحَ اللهُ - جَلَّ وَعَزَّ - عَلَى إِخْوَانِكُمُ الْحِيرَةَ وَمَا حَوْلَهَا، وَقُتِلَ عَظِيمٌ مِنْ عُظَمَائِهَا، وَلَسْتُ آمَنُ أَنْ يَمُدَّهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ أَهْلِ فَارِسَ**) فبدؤه بهذا الكلام فيه براعة استهلال، وقوله: (إخوانكم) للفت انتباهه للصلة التي بين المسلمين لاستنهاض همَّته. وبناء (قُتِل) للمفعول لعدم الحاجة إلى ذكر الفاعل. وقوله: (**فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُوَجِّهَكَ إِلَى أَرْضِ الْهِنْدِ، لِتَمْنَعَ أَهْلَ تِلْكَ الْجِيزَةِ مِنْ إِمْدَادِ إِخْوَانِهِمْ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، وَتُقَاتِلَهُمْ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْكُمْ**) قوله: (أريد أن أوجِّهك) فيه تأدُّب مع المخاطَب؛ إذ لم يستعمل معه صيغة الأمر المباشر، وإنَّما بيَّن له مراده ورغبته. وقوله: (على إخوانكم) أعاد استخدام هذا اللفظ لتأكيد معنى الأخوَّة بين المسلمين. وقوله: (لعلَّ الله أن يفتح عليكم) قيَّد الفتح بالجارِّ والمجرور (عليكم) مع أنَّه يكون لعموم المسلمين، وذلك تكريمًا للمخاطَب. ثم ختم له الكلام بجمل قصيرة موجزة ليسهل عليه حفظها وتكون حاضرة في ذهنه فقال: (**فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ، وَاتَّقِ اللهَ مَا اسْتَطَعْتَ، وَاحْكُمْ بِالْعَدْلِ، وَصَلِّ الصَّلاةَ لِوَقْتِهَا، وَأَكْثِرْ ذِكْرَ اللهِ**)، وتكرير لفظ (الله) لتعليق قلب المخاطَب بالله تعالى.

[٧٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

إِذْ لَقِيَهُ الْمُقَلِّسُونَ[١] مِنْ أَهْلِ أَذْرِعَاتٍ[٢] بِالسُّيُوفِ وَالرَّيْحَانِ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: إِنَّهَا بَيْعَةُ الْأَعَاجِمِ[٣]، وَإِنَّكَ إِنْ تَمْنَعْهُمْ مِنْ هَذَا يَرَوْنَ أَنَّ فِي نَفْسِكَ نَقْضًا لِعَهْدِهِمْ

«دَعُوهُمْ، عُمَرُ وَآلُ عُمَرَ فِي طَاعَةِ أَبِي عُبَيْدَةَ»[٤].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتحدَّث للمسلمين بحضرة أبي عبيدة رضي الله عنه.

البيان والبلاغة: قوله: (عمر) ذكر اسمه مجرَّدًا تواضعًا لأبي عبيدة، وقوله: (وآل عمر) إظهار في موضع الإضمار، ومقتضى الظاهر أن يقول: (عمر وآله) وإنَّما أظهر لتقرير تجريد نفسه مِن لقب أمير المؤمنين تواضعًا لأبي عبيدة رضي الله عنه. وقوله: (في طاعة

١- هم الَّذين يلعبون بين يدي الأميرِ إذا وصلَ البلدَ، الواحدُ: مُقَلِّسٌ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (قلس).

٢- أَذْرِعات: بالفتح، ثمَّ السُّكون، وكسرِ الرَّاءِ، وعينٍ مُهمَلةٍ، وألفٍ وتاءٍ. كأنَّه جمعُ أَذْرِعَةٍ، جمع ذِراعٍ جمعَ قِلَّةٍ: وهو بلدٌ في أطرافِ الشَّامِ، يجاورُ أرضَ البلقاءِ وعَمَّانَ، وهي قريةٌ اليومَ مِن عملِ حُورانَ، داخلَ حدودِ الجمهوريَّةِ السُّوريَّةِ، قربَ مدينةِ «درعا» شمالًا، يدعها الطَّريق يسارًا وأنت تؤمُّ دمشقَ، وهي مِن أعمالِ مدينةِ درعا. «معجم البلدان» للحمويِّ ١/ ١٣٠، و«معجم المعالم الجغرافيَّة للسِّيرةِ النَّبويَّةِ» ص٢٢.

٣- في «الأموالِ»: (سُنَّة العَجَمِ، أو كلمةٌ نحوها). وفي «تاريخِ دمشقَ»: (سُنَّة العَجَمِ) و(بيعة الأعاجم).

٤- رواهُ ابنُ زَنجُويهِ في «الأموال» (٦٣٣)، والبلاذريُّ في «فُتُوحِ البُلدانِ» ص١٤١، وابنُ مُهنَّا في «تاريخِ داريَّا» ص٩٦، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٣٢/ ١١٦ و١١٧.

أبي عبيدة) حرف الجر (في) يفيد هنا الظرفية المجازية، وكأنَّ طاعة أبي عبيدة صارت

لعمر وآله كالظرف لا يخرجون منها.

[٧٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
لِشَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ[١]

«يَا شَقِيقُ، لَتَكْبِيرَةٌ وَاحِدَةٌ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب شَقيق بن سَلَمة أحد كبار التابعين.

البيان والبلاغة: بدؤه بنداء المخاطب فيه لفت لانتباهه وحمل له على الإصغاء. وقوله: (لتكبيرة واحدة) تنكير (تكبيرة) للإفراد، وقد أكَّد ذلك بوصفها بـ(واحدة)، ودخول لام الابتداء على (تكبيرة) لتأكيد اتصاف هذا المبتدأ بالخبر. وقوله: (خيرٌ مِن الدنيا وما فيها) اقتباس مِن كلام النبي ﷺ، فهذه العبارة كان يكثر مِن قولها النبي ﷺ، ومِن ذلك قوله: «**لَغَدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[٣]، وقوله: «**مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[٤]، وقوله: «**رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[٥].

١- شَقِيقُ بنُ سَلَمَةَ الأسديُّ: شيخُ الكوفةِ، مُخضرَمٌ، أدركَ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ- وما رآهُ، وكانَ مِن أئمَّةِ الدِّين. «سير أعلام النُّبلاء» ٤/ ١٦١.

٢- رواهُ ابن سعدٍ في «الطَّبَقاتِ الكُبرَى» ٦/ ٩٧، وأبو زُرعةَ الدِّمشقيُّ في «تاريخِه» ص٦٥٦، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢٣/ ١٦٤.

٣- رواه البخاري (ح٢٧٩٢)، ومسلم (ح١٨٨٠).

٤- رواه البخاري (ح٣٢٥٠).

٥- رواه مسلم (ح٧٢٥).

[٧٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ أُتِيَ بِسَارِقٍ يَزْعُمُ أَنَّهُ مَا سَرَقَ قَبْلَهَا

«كَذَبْتَ، وَاللهِ مَا كَانَ اللهُ لِيُسْلِمَ عَبْدًا عِنْدَ أَوَّلِ ذَنْبٍ[١]»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب سارقًا يدَّعي أنَّه يسرق لأوَّل مرَّة.

البيان والبلاغة: قوله: (كذبتَ، والله) استعمل الفعل (كذبتَ) بصيغة الماضي لتحقيق وقوعه، وأكَّد ذلك بالقَسَم لأنَّ المخاطَب مُنكِر. وقوله: (ما كان الله ليسلم عبدًا عند أوَّل ذنب) استعمل لام الجحود مع (كان) المنفية لتأكيد نفي اتِّصاف اسم (كان) بخبرها. وتنكير (عبدًا) لقصد عدم التعيين.

١- وقريبٌ منه قولُ السُّيوطيِّ في شرحِه لتقريبِ الإمامِ النَّوويِّ: (إنَّ اللهَ تعالى أَجرَى العادةَ أنَّه لا يَفضَحُ أحدًا مِن أوَّلِ مرَّةٍ). «تدريب الرَّاوي» ١/ ٣٩٢.

٢- رواهُ أبو داودَ في «الزُّهدِ» (٥٦).

[٧٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي عَمْرِو بْنِ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ(١)

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى هَدْيِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَدْيِ عَمْرِو بْنِ الْأَسْوَدِ»(٢).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: خطابه هذا عامٌّ لا يختص بمخاطَب بعينه.

البيان والبلاغة: بدأ بأسلوب الشرط ليبعث في نفس المخاطَب التشويق والتلهُّف لمعرفة جواب الشرط فقال: (مَن سرَّه أن ينظر إلى هدي رسول الله) ومقتضى السياق أن يقول: (من يسرُّه) بلفظ المضارع لأن السرور لم يحصل بعدُ، لكن لما كان عمر متيقّنًا مِن أنَّ المخاطَب يُسَرُّ بالنظر إلى هدي النبي ﷺ جاء بصيغة الماضي. وهذا

١- عمرُو بنُ الأسودِ، ويُقالُ: عُميرُ بنُ الأسودِ، أبو عِيَاضٍ العَنْسِيُّ الحِمْصِيُّ: أدركَ الجاهليَّةَ والإسلامَ، وكانَ مِن سادةِ التَّابعينَ دِينًا ووَرَعًا. تُوفِّي في خلافةِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ. «سير أعلام النُّبلاء» ٤/ ٧٩-٨١.

٢- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (١١٥)، وابنُ مُهنًّا في «تاريخ داريَّا» ص٥٧، وابنُ عساكرَ في «تاريخ دمشقَ» ٤٥/ ٤١٤. وقال الحافظُ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٦٨٣: (فيهِ انقطاعٌ بينَ حكيمِ بنِ عميرٍ، وضمرةَ بنِ حبيبٍ العَنسِيَّيْنِ الشَّامِيَّيْنِ الحِمْصِيَّيْنِ، وبينَ عمرَ بنِ الخطَّابِ؛ فإنَّهما لم يُدرِكاهُ. لكنَّ هذا ممَّا يُؤخَذُ عنهما، فإنَّهما مِن قبيلةِ عمرِو بنِ الأسودِ وبلدِه، وهما مِن الثِّقاتِ، فهذا عندَهما مِن المشهوراتِ. وكأنَّ عمرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- رواهُ بالشَّامِ لَمَّا قَدِمَها في فتحِ بيتِ المقدسِ، واللهُ أعلمُ).

قلتُ: وهو كذلكَ؛ ففي روايةِ ابنِ مُهنًّا عن ضَمْرةَ بنِ حبيبِ بنِ صُهيبٍ: أَنَّ عمرَو بنَ الأسودِ مَرَّ بعمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه وهو سائرٌ إلى الشَّامِ. ويظهرُ لي -واللهُ تعالى أعلمُ- أَنَّ حكيمَ بنَ عامرٍ وضمرةَ بنَ حبيبٍ إنَّما أخذا الحديثَ عن عمرِو بنِ الأسودِ، كما يظهرُ مِن روايةِ ابنِ مُهنًّا، فلا وجهَ حينئذٍ للقولِ بالانقطاعِ.

الأسلوب كان يستعمله النبي ﷺ كثيرًا، مِن ذلك قوله: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا**»[١]، وقوله: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[٢]، وقوله: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ**»[٣]. وقوله: (هدي رسول الله) عبَّر عن النبي محمَّد ﷺ بأنّه رسول الله إشارة إلى تخصيص الهدي بهديه وهو رسول الله.

١- رواه البخاري (ح١٣٩٧)، ومسلم (ح١٤).
٢- رواه البخاري (ح٢٠٦٧)، ومسلم (ح٢٥٥٧).
٣- رواه مسلم (ح١٥٦٣).

[٧٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ سَأَلَهُ رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ عَامِرِ بْنِ الظَّرِبِ[١] عَنْ حَالِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ

فَقَالَ: «أَمَّا فِي جَاهِلِيَّتِي: فَمَا نَادَمْتُ[٢] فِيهَا غَيْرَ لُمَةٍ[٣]، وَلَا هَمَمْتُ فِيهَا بِأَمَةٍ، وَلَا خِمْتُ[٤] فِيهَا عَنْ بُهْمَةٍ[٥]، وَلَا رَآنِي رَاءٍ إِلَّا فِي نَادٍ أَوْ عَشِيرَةٍ، أَوْ حَمْلِ جَرِيرَةٍ[٦]، أَوْ خَيْلٍ مُغِيرَةٍ»[٧].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (المُنادمةُ) مجالسةُ النَّاسِ أو تناولُ الشرابِ معهم، و(اللُّمَّة) التِّرب والموافق في السنِّ، وأصله من الملاءمة. و(خِمْتُ) جَبُنت، و(البُهْمَة) الأمرُ المُشكِلُ الغامضُ، و(الجريرة): الذنب يفعله الإنسان فيطالَب به.

١- عامرُ بنُ الظَّرِبِ بنِ عمرو بنِ عياذٍ العَدْوانيُّ: حكيمٌ، خطيبٌ، رئيسٌ، مِن الجاهليِّينَ. كانَ إمامَ مُضَرَ وحَكَمَها وفارسَها. وممَّن حرَّم الخمرَ في الجاهليَّة. وكانت العربُ لا تعدِلُ بفهمِه فهمًا، ولا بحُكمِه حُكمًا. وهو أحدُ المُعمَّرينَ في الجاهليَّةِ، وأوَّلُ مَن قُرِعت له العصا، وكان يُقالُ له: «ذُو الحِلْمِ». وفيهِ قولُ الشَّاعرِ:

إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِذِي الْحِلْمِ

«الأعلام» ٣/ ٢٥٢.

٢- المنادمة: المرافقة والمشاربة. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (ندم).

٣- اللُّمة: بضمِّ اللَّامِ، وتشديدِ الميمِ وتخفيفِها: المِثْلُ في السِّنِّ، والتِّرْبُ. قال الجوهريُّ: الهاءُ عِوضٌ مِن الهمزةِ الذَّاهبةِ مِن وَسَطِه. وهو ممَّا أُخِذَت عينُه: كَسَهٍ ومُذْ، وأصلُها فُعْلَةٌ مِن المُلاءَمةِ، وهي المُوافقةُ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (لمه).

٤- خِمت: مِن خام يخيم، أي: نكص وجَبُن.

٥- البُهَمُ: جمعُ بُهْمَةٍ، بالضَّمِّ: وهي مُشْكِلاتُ الأُمُورِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (بهم).

٦- الجريرة: الجناية والذَّنبُ الَّذي يفعلُه الإنسانُ، فيطالَبُ به. «جامع الأصول» (٧٥٣٩).

٧- ذكرهُ الجاحظُ في «البيانِ والتَّبيينِ» ٣/ ٢٠٠.

مقتضى الحال: يُجيب رجلًا سأله عن حاله في الجاهلية.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا في جَاهِلَيَّتِي: فَمَا نَادَمْتُ فيها غَيْرَ لُـمَّةٍ، ولا هَمَمْتُ فيها بأَمَةٍ، ولَا خِمتُ فيها عَنْ بُهْمَةٍ**) قوله: (أمَّا في جاهليَّتي) يشعر السامع أنَّه سيذكر بعد ذكر حاله في الجاهلية حالَه في الإسلام؛ لأن الأصل في استعمال (أمَّا) التي للتفصيل أن تأتي عند ذكر متعدِّد، لكنه حذف ذكر ذلك لدلالة الحال عليه، وفائدة هذا الأسلوب حمل المخاطَب على الانتباه للمقارنة بين الحالين. وقوله: (فما نادَمْتُ فيها غير لُمَّة) القصر هنا حقيقي تحقيقي. وقوله: (ولا هممتُ فيها بأَمَة) تنكير (أمَة) للإفراد، ونفي الهم بها نفي للهمِّ بأكثر منها. وقوله: (ولا خِمتُ فيها عن بُهْمَة) تنكير (بُهْمَة) للإفراد كتنكير (أمَة)، وتكرير ذكر الجار والمجرور (فيها) لتقرير أنَّ ما ذكره كان في الجاهليَّة، فما ذكره يُحمد عليه، وقد كان عليه في الجاهلية، وهذه الأمور الثلاثة لا تجتمع إلا في رجل عفيف كامل المروءة. وقد راعى في هذه الجمل الثلاث تناسب الفواصل فأتى بالسجع في (لُمَّة) و(أمَة) و(بُهْمَة).

وقوله: (**ولَا رَآني رَاءٍ إلا في نَادٍ أو عَشِيرَةٍ، أو حَمْلِ جَرِيرَةٍ، أو خَيْلٍ مُغيرَةٍ**) القصر هنا ادِّعائي للمبالغة في ترفُّعه عن سفاسف الأمور. وتنكير (راءٍ) في سياق النفي يفيد العموم. وتنكير (نادٍ) و(عشيرة) للتعظيم. وتنكير (جَريرة) لقصد عدم التعيين. وتنكير (خيل) للتعظيم. وقد راعى الفواصل هنا أيضًا، فاستعمل السجع في (عَشيرة) و(جَريرة) و(مُغيرة).

وقد استعمل عمر في كلامه هذا أسلوب التقسيم بشكل غير مباشر، فذكر ستَّة أشياء كان عليها في الجاهلية، الثلاثة الأولى منها في أمور خاصَّة به، والثلاثة الأخرى في أمور عامَّة تظهر للملأ.

[٧٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ قَدِمَ عَلَيْهِ بَعْضُ أَهْلِ الْكُوفَةِ

«مَنْ مُؤَذِّنُكُمْ؟» فَقَالُوا: عَبِيدُنَا وَمَوَالِينَا. فَقَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا يُقَلِّبُهَا: «عَبِيدُنَا وَمَوَالِينَا! إِنَّ ذَلِكُمْ بِكُمْ لَنَقْصٌ شَدِيدٌ، لَوْ أَطَقْتُ الْأَذَانَ مَعَ الْخِلِّيفَى[١] لَأَذَّنْتُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الخِلِّيفَى) الخلافة.

مقتضى الحال: يُخاطِب بعضَ أهل الكوفة يلومُهم على تقصيرهم في الحِرص على الأذان.

البيان والبلاغة: قوله: (مَن مُؤذِّنُكم) يحتمل أن يكون الاستفهام للتقرير، وتقليب اليد دلالة على الإنكار، وهو مِن الاستعانة في التعبير بالإشارة. وقوله: (عبيدُنا وموالينا!) أعاد كلامهم إنكارًا له وتعجُّبًا منه. وقوله: (إنَّ ذلكم بكم لنَقصٌ شدِيد) هذه الجملة جواب لسؤال محذف ورد في ذِهنِ المخاطَب حين رأى

١- الخِلِّيفَى، بالكسرِ والتَّشديدِ والقَصْرِ: الخِلافةُ، وهو وأمثالُه مِن الأبنيةِ كالرِّمِّيَّا والدِّلِّيلَى، مصدرٌ يدلُّ على معنى الكثرةِ؛ يريدُ به كثرةَ اجتهادِه في ضبطِ أمورِ الخلافةِ وتصريفِ أَعِنَّتِها. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (خلف). ولفظةُ (الخِلِّيفَى) أطبقتْ عليها المصادرُ الأوليَّةُ المتقدِّمةُ على «سُنَنِ البيهقيِّ»، ولذا أثبتُّها في الأصلِ.

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٨٦٩) و(١٨٧١)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٢٩٠، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٣٦٠)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٤٢، والطَّحاويُّ في «شرحِ مُشكِلِ الآثارِ» (٢١٩٩)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٠٢) واللَّفظُ له.

عمر ينكر عليه ويعيد كلامه، والتقدير: (لِمَ تعيدُ كلامنا؟) وتوكيد الكلام بـ(إنَّ) واللام معاملةً للمخاطَب معاملة المنكر؛ لأن فضل المؤذِّن في الإسلام لا يخفى، وزهدهم في هذا الفضل جعلهم كالمُنكرين له. واستعمال اسم الإشارة (ذلكم) للتعيين. وتنكير (نقص) للتهويل. وقوله: (لو أطقت الأذان مع الخِلِّيفى لأذَّنتُ) هذه الجملة عرَّض فيها عمر بالمخاطَبين مبيِّنًا لهم سبب إنكاره عليهم، وقوله: (الخِلِّيفى) استعمال هذه الصيغة إشارة إلى عِبء الخلافة عليه.

[٧٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي أَوَّلِ لَيَالِي رَمَضَانَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ هَذَا الشَّهْرَ كُتِبَ عَلَيْكُمْ صِيَامُهُ، وَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْكُمْ قِيَامُهُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَقُومَ فَلْيَقُمْ؛ فَإِنَّهَا نَوَافِلُ الْخَيْرِ الَّتِي قَالَ اللهُ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَنَمْ عَلَى فِرَاشِهِ، وَلْيَتَّقِيَنَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ: أَصُومُ إِنْ صَامَ فُلَانٌ، وَأَقُومُ إِنْ قَامَ فُلَانٌ، مَنْ صَامَ مِنْكُمْ أَوْ قَامَ فَلْيَجْعَلْ ذَلِكَ للهِ. وَلْيَعْلَمْ أَحَدُكُمْ أَنَّهُ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرَ صَلَاةً. أَقِلُّوا اللَّغْوَ فِي بُيُوتِ اللهِ» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ يَقُولُ: «أَلَا لَا يَتَقَدَّمَنَّ الشَّهْرَ مِنْكُمْ أَحَدٌ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، «أَلَا وَلَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْهُ - أَوْ يَصُومُوا حَتَّى يَرَوْهُ - إِلَّا أَنْ يُغَمَّ عَلَيْكُمْ؛ فَإِنْ يُغَمَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعُدُّوا عَلَى ثَلَاثِينَ، ثُمَّ لَا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوُا اللَّيْلَ يُغْسِقُ عَلَى الظِّرَابِ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الغَسَقُ) ظلمةُ الليل، و(الظِّرابُ) .

مقتضى الحال: هذا الكلام يُخاطِب به عموم المسلمين.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٧٧٤٨)، وابنُ أبي الدُّنيا في «فضائلِ رمضانَ» (٣١)، والخَلَّالُ في «المجالسِ العشرةِ» (٦٨).

البيان والبلاغة: قوله: (**فإنَّ هَذَا الشَّهرَ كُتِبَ عَلَيْكُمْ صِيامُهُ وَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْكُمْ قِيَامُهُ**) استعمال اسم الإشارة (هذا) لبيان علو مكانة المشار إليه. وبناء (كُتِب) للمفعول لكمال علم المخاطَب بالفاعل وتأثّرًا بلفظ الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة:١٨٣]، وبين (كُتِب عليكم صيامه) و(لم يُكتَب عليكم قيامه) مقابلة. وقوله: (**فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَقُومَ فَلْيَقُمْ، فَإِنَّهَا نَوَافِلُ الْخَيْرِ الَّتِي قَالَ اللهُ**) تقييد الفعل (استطاع) بالجارِّ والمجرور (منكم) للتخصيص. وحذف مفعول (يقوم) و(فليقم) لعلم المخاطَب به. وحذف مفعول (قال) لحمل ذِهن المخاطَب على التأمُّل لتعيينه فيكون ذلك أشد تأثيرًا في نفسه. وقوله: (**مَنْ صَامَ مِنْكُمْ أَوْ قَامَ، فَلْيَجْعَلْ ذَلِكَ لله**) استعمال اسم الإشارة (ذلك) للتعيين، أي لتعيين الصيام والقيام. وقوله: (**فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَنَمْ عَلَى فِرَاشِهِ**) هذه الجملة للتعريض بكسل مَن فرَّط بقيام رمضان. وقوله: (**وَلْيَتَّقِيَنَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ: أَصُومُ إِنْ صَامَ فُلَانٌ، وَأَقُومُ إِنْ قَامَ فُلَانٌ**) في قوله: (أصوم إن صام فلان) و(أقوم إن قام فلان) حذف جواب الشرط في الجملتين لتقدُّم ما يدلُّ عليهما، والتقدير: (إن صام فلان صمتُ) و(إن قام فلان قمتُ)، ومجيء فعل الشرط بصيغة الماضي إشارة إلى كمال التعليق على فعل فلان بتحقُّق ثبوته، يعني إن صام فلان أو قام وتحقَّق ثبوت ذلك حصل مني الصيام والقيام، فعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يحذِّر مِن هذا الأمر. وقوله: (**وَلْيَعْلَمْ أَحَدُكُمْ أَنَّهُ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرَ صَلَاةً**) يشير عمر هنا إلى حديث النبي ﷺ: «**وَلَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلَاةَ**»[١]، لكن جاء لفظ عمر بتنكير (صلاة) للتعظيم، مِن أجل الترغيب في أجرها. وقوله: (**أَقِلُّوا اللَّغْوَ فِي بُيُوتِ الله**) كرَّر عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذه الجملة لتقرير مضمونها، وكأنَّه وجد لغوًا في المسجد فأراد أن ينبِّه إلى ضرورة اجتنابه.

١- رواه البخاري (ح٦٤٧).

وقوله: (**أَلَا لَا يَتَقَدَّمَنَّ الشَّهْرَ مِنْكُمْ أَحَدٌ**) يشير إلى حديث النبي ﷺ: «**لاَ يَتَقَدَّمَنَّ أَحَدُكُمْ رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ كَانَ يَصُومُ صَوْمَهُ، فَلْيَصُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ**» ولعل عمرَ رضي الله عنه ترك ذكر الاستثناء الوارد في الحديث لشهرته، وإنَّما ينبِّه في كلامه على أصل المسألة. وتكريرُ عمرَ لهذه الجملة ثلاثًا لتقرير مضمونها. وقوله: (**أَلَا، وَلَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْهُ، - أَوْ يَصُومُوا حَتَّى يَرَوْهُ - إِلَّا أَنْ يُغَمَّ عَلَيْكُمْ، فَإِنْ يُغَمَّ، عَلَيْكُمْ أَنْ تَعُدُّوا عَلَى ثَلَاثِينَ**) في هذا الكلام إشارة إلى قول النبي ﷺ: «**صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمِّيَ عَلَيْكُمُ الشَّهْرُ فَعُدُّوا ثَلَاثِينَ**»[1]. وقوله: (**ثُمَّ لَا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوُا اللَّيْلَ يَغْسِقُ عَلَى الضِّرَابِ**) يشير إلى قول النبي ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ اللَّيْلَ قَدْ أَقْبَلَ مِنْ هَا هُنَا - وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ - فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**»[2]. وقد وضَّح عمر رضي الله عنه معنى إقبال الليل في قول النبي ﷺ بقوله: (حتى تروا الليل يغسق على الضراب). ويظهر في هذه الخطبة حرص عمر رضي الله عنه على الاقتباس من كلام النبي ﷺ والإشارة إليه.

١- رواه مسلم: (ح١٠٣١).
٢- رواه البخارd (ح)، ومسلم (ح١١٠١).

[٧٩]
وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
لِأَحَدِهِمْ

«مَا تَقُولُ فِي فُلَانٍ» قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ عُمَرُ: «هَلْ صَحِبْتَهُ فِي سَفَرٍ قَطُّ؟» قَالَ: لَا، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ عُمَرُ: «هَلْ جَرَتْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ خُصُومَةٌ قَطُّ؟» قَالَ: لَا، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ عُمَرُ: «فَهَلِ ائْتَمَنْتَهُ عَلَى دِرْهَمٍ، أَوْ دِينَارٍ قَطُّ؟» قَالَ: لَا، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ عُمَرُ: «لَا عِلْمَ لَكَ بِالرَّجُلِ، إِنَّمَا رَأَيْتَ رَجُلًا يَضَعُ رَأْسَهُ فِي الْمَسْجِدِ، يَرْفَعُهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يُخاطِب شخصًا يسأله عن حال آخرَ.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا تَقُولُ فِي فُلَانٍ؟**) الاستفهام بـ(ما) يفيد العموم، فعمر يريد مِن المخاطَب أن يقول كلَّ ما يعرفه عن ذاك الرجل. وقوله: (**هَلْ صَحِبْتَهُ فِي سَفَرٍ قَطُّ؟**) تنكير (سفر) في سياق الاستفهام يفيد العموم، ومجيء (قطُّ) لاستغراق ما مضى مِن الزمان. وقوله: (**فَهَلِ ائْتَمَنْتَهُ عَلَى دِرْهَمٍ، أَوْ دِينَارٍ قَطُّ؟**) تنكير (درهم) و(دينار) للإفراد، فالسؤال عن درهم واحد أو دينار واحد يشمل ما هو أكثر منه. وقوله: (**لَا عَلِمَ لَكَ بِالرَّجُلِ، إِنَّمَا رَأَيْتَ رَجُلًا يَضَعُ رَأْسَهُ فِي الْمَسْجِدِ، يَرْفَعُهُ**) قوله: (لا علم لك بالرجُل) نفى عن المخاطَب جنس العلم بالرجُل مبالغةً لأنَّه اعتبر

١- رواهُ الخُلْدِيُّ في «الفوائدِ والزُّهدِ» (٨)، والخطيبُ البغداديُّ في «الكفايةِ» ص٨٣.

أنَّ العِلم بظاهر حال الرجُل ليس علمًا يعتدُّ به. والقصر في (إنَّما رأيت رجلًا يضع رأسه في المسجد) قصر ادِّعائي، وقوله: (يضع رأسه في المسجد يرفعه) كناية عن أفعال الصلاة الظاهرة مِن غير اطِّلاع على باطنها.

[٨٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، جَاءَ يَسْتَعْدِيهِ عَلَى أَبِي سُفْيَانَ

«إِنِّي لَأَعْلَمُ النَّاسِ بِذَلِكَ الْمَوْضِعِ، وَلَرُبَّمَا لَعِبْتُ أَنَا وَأَنْتَ وَنَحْنُ غِلْمَانٌ، فَإِذَا قَدِمْتَ مَكَّةَ فَأْتِنِي بِأَبِي سُفْيَانَ»، فَلَمَّا قَدِمَ أَتَاهُ الْمَخْزُومِيُّ بِأَبِي سُفْيَانَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: «يَا أَبَا سُفْيَانَ، خُذْ هَذَا الْحَجَرَ مِنْ هَاهُنَا فَضَعْهُ هَاهُنَا»، فَقَالَ: وَاللهِ لَا أَفْعَلُ، فَقَالَ: «وَاللهِ لَتَفْعَلَنَّ»، فَقَالَ: لَا أَفْعَلُ، فَعَلَاهُ عُمَرُ بِالدِّرَّةِ، وَقَالَ: «خُذْهُ - لَا أُمَّ لَكَ - مِنْ هَاهُنَا فَضَعْهُ هَاهُنَا»، فَأَخَذَهُ فَوَضَعَهُ فَكَأَنَّ عُمَرَ دَخَلَهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ إِذْ لَمْ تُمِتْنِي حَتَّى غَلَبْتُ أَبَا سُفْيَانَ عَلَى رَأْيِهِ، وَذَلَّلْتَهُ لِي بِالْإِسْلَامِ»، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ الْقِبْلَةَ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ الَّذِي لَمْ تُمِتْنِي حَتَّى أَدْخَلْتَ قَلْبِي مِنَ الْإِسْلَامِ مَا ذَلَّلْتَنِي بِهِ لِعُمَرَ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: في النصِّ الأوَّل يخاطب عمرُ - رضي اللهُ عنه - رجلًا مِن بني مخزوم استعداه على أبي سفيان لكون أبي سفيان ظَلَمه بتعدٍّ على حدِّ أرض له، ثمَّ خاطبَ أبا سفيان - بعدُ - في ذاتِ الشأنِ.

١- رواهُ الفاكهيُّ في «أخبارِ مكَّةَ» (٢٠٣١)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ٥/ ٩، واللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (٢٧٩٤).

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي لَأَعْلَمُ النَّاسِ بِذَلِكَ الْمَوْضِعِ، وَلَرُبَّمَا لَعِبْتُ أَنَا وَأَنْتَ وَنَحْنُ غِلْمَانٌ**) قوله: (إنِّي لأعلم الناس بذلك الموضع) أكَّد الكلامَ للمخاطَب بـ(إنَّ) واللام ليطمئنَّ الرجل، واستعمل اسم الإشارة (ذلك) لتمييز المشار إليه، وهو موضع الأرض التي اعتدى في حدِّها أبو سفيان. وقوله: (ولربما لعبتُ أنا وأنت ونحن غلمان) في الكلام حذف، والتقدير: (لعبتُ أنا وأنت فيه)، وحذف الجارِّ والمجرور لعلم المخاطَب به، وقد ذكر عمر رضي الله عنه للرجُل هذا الكلام ليزيد له تأكيد معرفته بذلك الموضع. وقوله: (**يَا أَبَا سُفْيَانَ خُذْ هَذَا الْحَجَرَ مِنْ هَا هُنَا فَضَعْهُ هَاهُنَا**) ذكر جملة النداء لتخصيص المنادى بالخطاب، واستعمال اسم الإشارة (هذا) لتعيين المشار إليه. واستعمال (ها) التنبيه مع الظرف (هنا) في الموضعين فيه نوع استعلاء بطلب تنفيذ الأمر على وجه محدَّد. وقوله: (**وَاللهِ لَتَفْعَلَنَّ**) لما امتنع المخاطَب مِن تنفيذ الأمر أكَّد الأمر بالقسم واللام ونون التوكيد. وقوله: (**خُذْهُ - لَا أُمَّ لَكَ - مِنْ هَا هُنَا فَضَعْهُ هَا هُنَا**) عبارة (لا أمَّ لك) تقال عند التوبيخ ولا يراد بها ظاهر معناها، وتكرير عبارة (**مِنْ هَا هُنَا فَضَعْهُ هَا هُنَا**) لتقرير مضمونها. وقوله: (**اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ إِذْ لَمْ تُمِتْنِي حَتَّى غَلَبْتُ أَبَا سُفْيَانَ عَلَى رَأْيِهِ، وَذَلَّلْتَهُ لِي بِالْإِسْلَامِ**) قوله: (لك الحمد) تقديم الجارِّ والمجرور (لك) على المبتدأ للتخصيص، و(أل) الداخلة على (الحمد) للاستغراق.

[٨١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْ جُهَيْنَةَ كَانَ يَشْتَرِي الرَّوَاحِلَ، فَيُغْلِي بِهَا، ثُمَّ يُسْرِعُ السَّيْرَ، فَيَسْبِقُ الْحَاجَّ، فَأَفْلَسَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ الْأُسَيْفِعَ، أُسَيْفِعَ جُهَيْنَةَ[1] رَضِيَ مِنْ دِينِهِ وَأَمَانَتِهِ، أَنْ يُقَالَ: سَبَقَ الْحَاجَّ. أَلَا وَإِنَّهُ دَانَ مُعْرِضًا، فَأَصْبَحَ قَدْ رِينَ[2] بِهِ، فَمَنْ كَانَ لَهُ عَلَيْهِ دَيْنٌ؛ فَلْيَأْتِنَا بِالْغَدَاةِ، نَقْسِمْ مَالَهُ بَيْنَ غُرَمَائِهِ، وَإِيَّاكُمْ وَالدَّيْنَ، فَإِنَّ أَوَّلَهُ هَمٌّ وَآخِرَهُ حَرْبٌ»[3].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله (الرواحل): جمع راحلة، وهي الناقة القوية التي تحتمل الأسفار، وتقوى على بعد المسافة، وفي الحديث «إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ المِائَةِ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً». وقوله (يغالي): أي يعطي ثمنا غاليا أكثر من غيره حتى يحظى بالراحلة، كما يحصل في المُزايدات. وقوله (أسيفع): من السفعة، وهي السواد المشرب بحمرة، والوصف منه (أسفع) و(سفعاء) كما في الحديث «فَقَامَتِ امْرَأَةٌ

١- أي: استدانَ مُعرِضًا عنِ الوفاءِ. وكانَ أُسَيفِعٌ يشتري الرَّواحِلَ، ويَسبِقُ الحُجَّاجَ، فيتغالى بثمنِ ما اشتراهُ، فأفلَسَ. «الإصابة» ١/ ٣٤٣.

٢- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٢/ ٢٩٠-٢٩١: (أي أحاطَ الدَّينُ بمالِهِ؛ يقالُ: رِينَ بالرَّجلِ رَينًا؛ إذا وقعَ فيما لا يَستطيعُ الخروجَ منهُ. وأصلُ الرَّينِ: الطَّبعُ والتَّغطيةُ).

٣- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإِ» (٢٨٤٦)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٣٣٦٩)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٦٤ و٧٦٦ و٧٦٧، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٣٠، والطَّحاويُّ في «شرحِ مُشكِلِ الآثارِ» (٤٢٨٩).

مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ»، لكن المقصود به هنا: اسم الرجل الذي يستدين. وقوله (دانَ معرِضا) ويروى (ادَّان معرِضا): والمعنى أنه اقترض من الناس مالًا ليتمكن من شراء هذه الرواحل.

قال القاضي عياض: في «مشارق الأنوار» (٢/ ٧٥) - وينظر: مطالع الأنوار (٣/ ٥٩) -: «قوله في أسيفع جهينة «ادان معرضا» بسكون العين، قيل: معناه هنا المعترض لكل من يداينه، وقيل: معترضا ممكنا، أي: أدان من كل من يمكنه ويعترض له؛ يقال: عرض لي الأمر وأعرض، أي: أمكنني وهذا قد رده بعضُهم لأنَّ الحال إذا من غيره لا منه. وقيل: معرِضًا عن النصيحة في ألا يفعل ذلك ولا يستدين، قاله ابن شميل. وقيل: معرضا عن الأداء لا يبالي ألا يؤديه». وقال ابن عبد البر في «الاستذكار» (٧/ ٣٠٤) - وينظر: «المنتقى» للباجي (٦/ ١٩٧) -: «قوله (ادان معرضا) أي استدان متهاونا بذلك فأصبح قد رين به، أي: أُحِيط به، يريد أحاط به غرماؤه وأحاط الدَّينُ به». وقال البغوي في «شرح السنة» (٨/ ١٩٠) - وينظر: «شرح الزرقاني على الموطأ» (٤/ ١٣٢) -: «قوله: فادان معرضا، أي: استدان معرِضا عن الأداء». وقوله: (رين به) قال ابن الأثير في النهاية (٢/ ٢٩٠-٢٩١): «أي أحاط الدَّين بماله، يقال: رين بالرجل رينًا، إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه، وأصل الرَّين: الطبعُ والتغطية».

مقتضى الحال: المقام مقامُ خطبة، والمكان يبدو أنه في المسجد، ويحتمل أن يكون بجانب بيت هذا الرجل المَدِين الذي اجتمع دائنوه مزدحمين حول بيته يطالبونه بالسداد.

لطائف لغوية: قوله (الحاج): هنا جمع حاج، وهذا من النوادر أن يجمع «فاعِل»

على «فاعِل» أيضا، ونظيره جمع «سامِر» على «سامِر»، ويُقال: لا ثالث لهما، قال تعالى: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ}، أي الحجيج، ويحتمل أن يكون قد عبَّر بالمفرد عن الجمع لأن «أل» للاستغراق، كأنه قال: «كل من يقال فيه: حاج». وقوله (قد رَضِي من دينه): لفظةُ (من) هنا للبدَلِيَّة بمعنى: في مقابل أو عوض، كما في قوله تعالى: {أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ}.

البيان والبلاغة: لما كان الكلام موجها إلى الدائنين أصحاب الأموال بالقصد الأول، كان المقام مقام اختصار وإيجاز؛ لأن هؤلاء الناس همهم الأكبر تحصيل أموالهم واسترجاع حقوقهم، لذلك نلاحظ في كلام عمر رضي الله عنه هنا استعمال التعبيرات الموجزة التي تفيد المقصود بأخصر عبارة مع الدقة، مع أن قوله (فَإِنَّ الْأُسَيْفِعَ، أُسَيْفِعَ جُهَيْنَةَ) فيه نوع إطناب بالإفصاح بعد الإبهام أو التقييد بعد الإطلاق، إلا أنه مبني على الاختصار أيضا؛ لأنه لما قال أولا (الأسيفع) اختصارا، خشي أن يشتبه بأسيفع آخر، لا سيما والمقام مقام حقوق وديون لا يحتمل الاشتباه، فلذلك احترز مستدرِكا على نفسه بتعيين المراد فقال: (أُسَيْفِعَ جُهَيْنَةَ).

قوله: (قَدْ رَضِيَ مِنْ دِينِهِ وَأَمَانَتِهِ، أَنْ يُقَالَ: سَبَقَ الْحَاجَّ) معناه أن هذا الرجل قد باع دينه وأمانته في مقابل الحصول على هذا القول فقط، وعطف (الأمانة) على (الدين) ليبين مقدار خسارة هذا الرجل الذي باع أهم الأشياء عنده بهذا الثمن البخس.

وقوله (أَنْ يُقَالَ: سَبَقَ الْحَاجَّ) فيه نكتة لطيفة؛ لأنه لم يقل (أن سبق الحاج) فيثبت له هذا السبق على الحقيقة؛ إذ السبق هو الفوز والظفر، فلو قال ذلك لأوهم السامع بأن الصفقة ليست خاسرة، فيناقض أول الكلام آخره، لذلك قال (أَنْ يُقَالَ) أي أنه

رضِي بمجرد قول بعض الناس دون تحققه على الحقيقة، فاستعمال صيغة المجهول هنا إشارة إلى تحقير هذه الغاية وأنها ليست من الغايات التي يسعى إليها العقلاء، لا سيما إن كان الثمن المدفوع فيها هو الدين والأمانة.

قوله (دان معرضا، فأصبحَ قد رين به) كلام في غاية البلاغةِ والدِّقَّـة؛ لأنه لخص الأمر كله في كلمات قليلة جدا مع توفية المراد، وذلك لأن السامعِين المقصودِينَ بالأصالة هم الدائنون أصحاب الأموال، وهؤلاء لا يحتاجون إلى معرفة القصة لأنهم عايشوها بأنفسهم، فالإطناب في ذكرها يناقض المقام، ولكن لما كان هناك سامعون آخرون قد يحتاجون إلى معرفة ذلك، احتاج عمر إلى ذكر القصة؛ لأنه سوف يبني عليها كلاما فيما بعد، وهذان الأمران المتعارضان (أعني ذكر القصة وترك ذكرها) يحتاجان إلى بليغ عالم بمواقع الكلام وتصاريفه حتى يجمع بين الغرضين في كلام واحد، وقد تم لعمر هذا الأمر على أوفى ما يكون بهاتين العبارتين المختصرتين (دان معرضا، فأصبح قد رين به)، ونلاحظ أن قوله (دان) مبني للمعلوم، وقوله (مُعرِضا) اسم فاعل، وفي هذين اللفظين إشارة إلى أن ذلك مما جنته يداه وفعله بنفسه لم يحمله أحد عليه، وقوله (رِينَ به) إشارة إلى ما تورط فيه من الديون المحيطة به حتى صار لا يستطيع منها فكاكا، فكان استعمال المبني للمجهول مناسبا جدا للمقام.

قوله (فَمَنْ كَانَ لَهُ عَلَيْهِ دَيْنٌ، فَلْيَأْتِنَا بِالْغَدَاةِ): خلوص إلى المقصود بعد ما سبق من التقدمات، ونلاحظ في قوله (فَلْيَأْتِنَا بِالْغَدَاةِ) أنه حدد زمن المجيء ولم يحدد مكانه، وفي ذلك إشارة إلى أن مكانه معروف لا يحتاج إلى ذكر، وذلك إيماء إلى عدالته وإنصافه.

وقوله (نَقْسِمْ مَالَهُ بَيْنَ غُرَمَائِهِ) جواب الطلب السابق (فَلْيَأْتِنَا) وفيه تشويق للسامع الذي له حق؛ لأن مجرد الأمر بالإتيان لن يشجع السامع على المجيء إلا إذا عرف أنه سيأخذ حقه، لذلك كان ذكر جواب الطلب هنا مناسبا جدا للمقام، ومع ذلك ففي الكلام احتراز؛ إذ لم يقل: (نعطه من ماله)، وإنما قال: (نَقْسِمْ مَالَهُ بَيْنَ غُرَمَائِهِ) حتى يكون السامع على بينة من أنه لن يأخذ أكثر من حقه، وليعلم أيضا أن هناك غيره من الغرماء الذين سيتقاسمون معه المال.

وقوله (وَإِيَّاكُمْ وَالدَّيْنَ ...): فيه حسن الانتهاء، وفيه إجمال بعد تفصيل؛ لأن التحرز من الدين هو الغاية المقصودة من هذه القصة، لأنه هو الدرس الذي ينبغي تعلمه، بالاحتراز مما وقع فيه هذا المدين، وعبر عن ذلك بجملة من جوامع الكلم في صورة حكمة وموعظة عامة؛ ليسهل حفظها وترسخ في النفوس، تثبيتا للمقصود في الأذهان، وتوسيعا لنطاق النقل والرواية؛ لأن الناس تنشط إلى رواية الحكم وسماعها أكثر من غيرها.

وقوله (فَإِنَّ أَوَّلَهُ هَمٌّ وَآخِرَهُ حَرْبٌ): تعليل لما سبق من التحذير؛ لأن النفس إذا علمت العلة فيما يقال كان ذلك أسرع لها في القبول والإذعان. وفي هذه العبارة مطابقة رائعة لأنها موافقة للمقام؛ وذلك لسهولة فهمها وحفظها، وأيضا قوة أثرها؛ لأنها تفيد أنه ضرر محض في العاجل والآجل، قد أحاط به الخطر من جميع جوانبه. وفي هذه المطابقة نكتة أخرى في قمة الجمال؛ وذلك أن الناس في آرائهم يتفاوتون؛ فبعضهم يفضل اللذة العاجلة ولا يهمه ما تؤول إليه الأمور، وبعضهم ينظر إلى الآجل، فقد يقول قائل: «سوف أستدين لأستفيد الآن ولا يهمني ما يحصل بعد»، وقد يقول آخر: «لا يهمني ذل الاستدانة الآن؛ لأني سأستفيد من المال على المدى

الطويل»، لذلك جمع عمر رضي الله عنه بين بيان الضرر العاجل والضرر الآجل للدين، ردا على ما قد يخطر ببال الفريقين.

[٨٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ نَضْلَةَ[١] رضي الله عنه وَالِي مَيْسَانَ وَقَدْ بَلَغَهُ قَوْلُهُ[٢]:

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسْنَاءَ[٣] أَنَّ حَلِيلَهَا[٤] بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ[٥]

إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دَهَاقِينُ[٦] قَرْيَةٍ وَرَقَّاصَةٌ تَجْذُو[٧] عَلَى كُلِّ مَنْسِمِ[٨]

فَإِنْ كُنْتَ نَدْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَثَلِّمِ

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ تَنَادُمُنَا فِي الْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ[٩]

١- النُّعمانُ بنُ عَدِيِّ بنِ نَضْلَةَ العَدَويُّ: كانَ مِن مُهاجِرةِ الحبشةِ، هاجرَ إليها هو وأبوهُ عَدِيٌّ، فماتَ عديٌّ هناكَ بأرضِ الحبشةِ، فورثه ابنُه النُّعمانُ هناكَ، فكانَ النُّعمانُ أوَّلَ وارثٍ في الإسلامِ، وكانَ عديٌّ أبوهُ أوَّلَ مُورَثٍ في الإسلامِ، ثُمَّ ولَّى عُمَرُ النُّعمانَ مَيْسانَ، وهي كورةٌ واسعةٌ بينَ البصرةِ وواسطٍ، ولم يُولِّ عمرُ بنُ الخطَّابِ رجلًا مِن قومِه عدويًّا غيرَه. «الاستيعاب» ٤/ ١٥٠٢، و«أخبار النِّساء» لابن الجوزيِّ ص١١٤، و«معجم البلدان» لياقوت الحمويِّ ٥/ ٢٤٣.

٢- لَمَّا أرادَ النُّعمانُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - مِن امرأتِه الخروجَ معَه إلى مَيْسانَ أَبَتْ عليه، فلمَّا وصلَ إلى مَيْسانَ أرادَ أن يُغيِّرَها فترحَّل إليه، فكتبَ إليها هذه الأبياتَ. «الاستيعاب» ٤/ ١٥٠٢، و«أخبار النِّساء» لابن الجوزيِّ ص١١٤، و«معجم البلدان» لياقوت الحمويِّ ٥/ ٢٤٣.

٣- في «طبقاتِ ابنِ سعدٍ» ط إحسان عباس: (الخنساء) وهو تصحيفٌ، وقد صوَّبه د. عليّ محمّد عمر في تحقيقه للطَّبقاتِ، وعزا التَّصحيحَ أيضًا لنسخةٍ خطِّيَّةٍ للطَّبقاتِ في مكتبةِ أحمدَ الثَّالثِ.

٤- الحَلِيل: الزَّوْج.

٥- الحَنْتَم: جِرَارٌ مُدهنةٌ بِخُضرةٍ تَضرِبُ إلى الحُمْرة.

٦- الدَّهاقِينُ: جمعُ دِهْقانٍ، وهو العارفُ بأُمُورِ القريةِ ومنافعِها ومضارِّها.

٧- في «طبقاتِ ابنِ سعدٍ»، و«معجم البلدان»: (تَجْثُو عَلَى كُلِّ مَنْسِمِ).

٨- تجذو: تبرُك على ركبتيها. ويُريدُ بالَمنْسِمِ: طرَفَ قدمِها. وأصلُ المَنسِمِ للبعيرِ. وهو طرَف خُفِّه، فاستعاره هنا للإنسانِ. وروايةُ هذا الشَّطْرِ الأخيرِ في «معجم البلدانِ» عندَ الكلامِ على «مَيْسانَ»: (وصَنَّاجة تجثو على حرف مَنسِم)، والصَّنَّاجة: هي الَّتي تضرِبُ بالصَّنْجِ، وهو مِن آلاتِ الغِناءِ.

٩- الجَوْسَق: البُنْيانُ العالي، ويُقالُ: هو الحِصنُ.

فَقَالَ عُمَرُ: «إِنَّ ذَلِك لَيَسُوؤُنِي، فَمَنْ لَقِيَهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنِّي قَدْ عَزَلْتُهُ» وَعَزَلَهُ. فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللهِ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا صَنَعْتُ شَيْئًا مِمَّا بَلَغَكَ أَنِّي قُلْتُهُ قَطُّ، وَلَكِنِّي كُنْتُ امْرَأً شَاعِرًا، وَجَدْتُ فَضْلًا مِنْ قَوْلٍ، فَقُلْتُ فِيمَا تَقُولُ الشُّعَرَاءُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: «وَايْمِ اللهِ، لَا تَعْمَلُ لِي عَلَى عَمَلٍ مَا بَقِيتُ، وَقَدْ قُلْتَ مَا قُلْتَ»[١].

الشرح والتحليل

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ ذَلِك ليسوؤني، فَمَنْ لَقِيَهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنِّي قَدْ عَزَلْتُهُ**) استخدام اسم الإشارة (ذلك) لتعيين المشار إليه، وهو ما ذكره النعمانُ بن عدي في قوله: (لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ ... تَنَادُمُنَا فِي الْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ)، وكون اسم الإشارة للبعيد إشارة إلى ابتعاد عمر رضي الله عنه عن هذا الأمر. وقوله: (فمن لقيه فليخبره أني قد عزلتُه) اسم الشرط (مَن) يفيدُ العموم، وقد أكَّد خبر عزل النعمان بـ(أنَّ) و(قد) وقرَّر ثبوت ذلك بمجيء الفعل بصيغة الماضي. وقوله: (**وَايْمُ اللهِ، لَا تَعْمَلُ لِي عَلَى عَمَلٍ مَا بَقِيتُ، وَقَدْ قُلْتَ مَا قُلْتَ**) جملة (لا تعمل) خبرية يراد بها الطلب، ومجيء (عمل) في سياق النفي يفيد العموم، والإبهام في قوله: (قُلتَ ما قُلتَ) للتهويل.

١- رواهُ ابنُ هشام في «السِّيرةِ النَّبويَّةِ» ٢/ ٣٦٦، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٤/ ١٤٠-١٤١، وابنُ أبي الدُّنيا في «ذمِّ المُسكِرِ» (٤٤)، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٣٨-١٣٩.

[٨٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي السُّوقِ

«مَا بَالُ أَقْوَامٍ احْتَكَرُوا بِفَضْلِ أَذْهَانِهِمْ عَلَى الْأَرَامِلِ وَالْمَسَاكِينِ، فَإِذَا خَرَجَ الْجُلَّابُ بَاعُوا عَلَى نَحْوٍ مِمَّا يُرِيدُونَ مِنَ التَّحَكُّمِ، وَلَكِنْ أَيُّمَا جَالِبٍ جَلَبَ بِجَمَلِهِ عَلَى عَمُودِ كَتِدِهِ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ حَتَّى يَنْزِلَ بِسُوقِنَا فَذَلِكَ ضَيْفُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَلْيَبِعْ كَيْفَ شَاءَ اللهُ، وَلْيُمْسِكْ كَيْفَ شَاءَ اللهُ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الكَتَدُ والكَتِدُ): مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس، وقيل غير ذلك.

مقتضى الحال: يُخاطب المحتكرين يحذِّر مِن فعلهم.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا بَالُ أَقْوَامٍ احْتَكَرُوا بِفَضْلِ أَذْهَانِهِمْ عَلَى الْأَرَامِلِ وَالْمَسَاكِينِ**) عبارة (ما بال أقوام) تستعمل للإنكار على فاعل الفعل المذكور مِن غير تصريح باسمه؛ لأنَّ الغَرض هو التحذير مِن الفعل بغضِّ النظر عن فاعله، وتقييد الاحتكار بالجارِّ والمجرور (على الأرامل والمساكين) للزيادة في التنفير مِن فعلهم؛ إذ الاحتكار واقع على الجميع، لكنَّ أثره أشدُّ على الأرامل والمساكين الذين هم محلُّ الرأفة والشفقة. وقوله: (**فَإِذَا خَرَجَ الْجُلَّابُ بَاعُوا عَلَى نَحْوٍ مِمَّا يُرِيدُونَ مِنَ**

١- رواهُ ابنُ شبَّة في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٤٨.

التَّحَكُّمِ) تنكير (نحو) للتعيين، واستعمال الاسم الموصول (ما) للتقييد بما تضمَّنته صلة الموصول. وقوله: (**وَلَكِنْ أَيُّمَا جَالِبٍ جَلَبَ بِجَمَلِهِ عَلَى عَمُودِ كَتَدِهِ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ حَتَّى يَنْزِلَ بِسُوقِنَا فَذَلِكَ ضَيْفُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَلْيَبِعْ كَيْفَ شَاءَ اللهُ، وَلْيُمْسِكْ كَيْفَ شَاءَ الله**) قد سبق التعليق عليه عند شرح الأثر رقم ثلاثة وخمسين.

[٨٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا الكلام ليس لمخاطَبٍ بعينه بل هو عامٌّ لكلِّ أحد.

البيان والبلاغة: ابتداء الكلام بصيغة التفضيل توجد في نفس السامع تشوُّقًا لمعرفة المفضَّل، فإذا سمع المفضَّل - وهو قوله: (مَن أهدى إليَّ عيوبي) - استقرَّ في نفسه هذا المعنى. و(مَن) تفيد العموم ليتنافس في تحقيق مضمون صلتها كلُّ أحد.

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٢٩٣، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٤٦، والأصبهانيُّ في «اللَّطائفِ» (٢٦٨).

[٨٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«اتَّقُوا اللهَ فِي الْفَلَّاحِينَ، لَا تَقْتُلُوهُمْ، إِلَّا أَنْ يَنْصِبُوا لَكُمُ الْحَرْبَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الخطاب للعموم.

البيان والبلاغة: (أل) الداخلة على (الفلَّاحين) لاستغراق أفراد الجنس، والقصر في (إلا أن ينصبوا لكم الحرب) حقيقي تحقيقي، ويحتمل أن يكون ادِّعائيًّا مبالغة في الأمر بتجنُّب قتالهم.

١- رواهُ يحيى بنُ آدمَ في «الخراجِ» (١٣٢)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٨١٥٩).

[٨٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَاطِبٍ[١] فِي عَبِيدٍ لَهُ سَرَقُوا

«أَمَا - وَاللهِ - لَوْلَا أَنِّي أَظُنُّ أَنَّكُمْ تَسْتَعْمِلُونَهُمْ، وَتُجِيعُونَهُمْ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَجِدُ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ لَأَكَلَهُ، لَقَطَعْتُ أَيْدِيَهُمْ، وَلَكِنْ - وَاللهِ - إِذْ تَرَكْتُهُمْ لَأُغَرِّمَنَّكَ غَرَامَةً تُوجِعُكَ»، ثُمَّ قَالَ لِلْمُزَنِيِّ: كَمْ ثَمَنُهَا؟ قَالَ: «كُنْتُ أَمْنَعُهَا مِنْ أَرْبَعِمِئَةٍ»، فَقَالَ عُمَرُ: «أَعْطِهِ ثَمَانِمِئَةٍ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب عبدالرحمن بن حاطب يلومه لقسوته على عبيده وإجاعتهم حتى اضطروا للسرقة.

لطائف لغوية: قوله: (أَيْدِيَهُمْ) أضاف المثنَّى في المعنى إلى الجمع، وهذا يجوز فيه إفراد المضاف وتثنيته وجمعه، وقد استعمل هنا الجمع.

البيان والبلاغة: استفتح الكلام بـ(أما) لحمل المخاطَب على الإصغاء، ثم أتبع ذلك بالقَسَم ليبيِّن له أنَّه جادٌّ في كلامه، واستعمل (لولا) لبيان سبب امتناعه مِن تنفيذ عقوبة السرقة في العبيد الذين سرقوا. وقوله: **(لَوْلَا أَنِّي أَظُنُّ أَنَّكُمْ تَسْتَعْمِلُونَهُمْ، وَتُجِيعُونَهُمْ)** أكَّد الكلام للمخاطَب باستعمال (أنَّ) مرَّتين ليشعره

١- عبدُ الرَّحمنِ بنُ حاطبِ بنِ أبي بَلْتَعَة، وُلِد في عهدِ النَّبيِّ ﷺ، وروى عن عمرَ بنِ الخطَّابِ، ومات بالمدينةِ سنةَ ثمانٍ وستِّينَ، وكانَ ثقةً قليلَ الحديثِ. «الطَّبقات الكُبرَى» ٥/ ٦٤.

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٨٩٧٧).

بأنَّه متيقِّن ممَّا يقول له، والظَّنُّ هنا بمعنى اليقين لا الشك. وقوله: (تستعملونهم وتجيعونهم) أسند الفعلين إلى ضمير الجمع مع أنَّ المخاطَب واحد، إشارة إلى أنَّ مَن يستعمل العبيد أكثر مِن واحد، وفي ذلك مزيد إرهاق لهم، إلَّا أنَّ المخاطَب هو المسؤول لأنَّه مالكهم. وقوله: (**حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَجِدُ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ لَأَكَلَهُ**) استعمل الفعل (يجد) بصيغة المضارع إشارة إلى ما وجده مِن تكرار استعمال العبيد وإجاعتهم، ويترتَّب على ذلك استمرار سعي العبيد في البحث عن مصدر أكل ولو كان من طريق محرَّم. وقوله: (حرَّم الله عليه) تقييد التحريم بالجارِّ والمجرور (عليه) للتنبيه؛ فالتحريم لا يختصُّ به. وقوله: (**وَلَكِنْ - وَاللهِ - إِذْ تَرَكْتُهُمْ لَأُغَرِّمَنَّكَ غَرَامَةً تُوجِعُكَ**) في إعادة استعمال القَسَم مزيد تأكيد وتقرير، وتنكير (غرامة) للتعظيم والتهويل. وقوله: (**أَعْطِهِ ثَمَانِيَ مِائَةٍ**) حذف تمييز العدد لعلم المخاطَب به.

[٨٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ

«قَدْ رَمَيْنَا أَرْطَبُونَ[١] الرُّومِ بِأَرْطَبُونِ الْعَرَبِ، فَانْظُرُوا عَمَّ تَنْفَرِجُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (أرطبون)، كلمة معرَّبة، وهي لقب للقائد الأعلى للجيش البيزنطي.

مقتضى الحال: يخاطِب أصحابه حين بَعث عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى أرطَبُون الروم، يطمئنهم بأنَّ عَمْرًا كفءٌ لما أُرسِل إليه.

البيان والبلاغة: قوله: (رَمَينا) فيه استعارة؛ إذ شبَّه عَمْرًا بالسَّهم يَرمي به العدوَّ، ثمَّ حذف المشبَّه به وأبقى شيئًا مِن لوازمِه، وهو الرمي. وقوله: (بأرطَبُون العرب) لقَّب عَمْرًا رضي الله عنه بـ(أرطَبُون) مِن باب المشاكلة. وقوله: (فانظروا عمَّ تنفرج) أمَر المخاطَبِين بالترقُّب وأبهم المرتَقَب للتشويق.

١- أَرْطَبُون: رتبةٌ عسكريَّةٌ، ولقبٌ للقائدِ الأعلى للجيشِ البيزنطيِّ الَّذي يلي هرقلَ في المكانةِ.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٦٠٥، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٣٢٨، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ٩/ ٦٥٣.

[٨٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَه

وَقَدْ أَتَاهُ مَالٌ كَثِيرٌ مِنَ الْجِزْيَةِ

«إِنِّي لَأَظُنُّكُمْ قَدْ أَهْلَكْتُمُ النَّاسَ» قَالُوا: لَا - وَاللهِ - مَا أَخَذْنَا إِلَّا عَفْوًا صَفْوًا. قَالَ: «بِلَا سَوْطٍ، وَلَا نَوْطٍ[١]؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ عَلَى يَدَيَّ وَلَا فِي سُلْطَانِي»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (النَّوط) التعليق.

مقتضى الحال: يُخاطِب بعضَ عمَّاله بعد رجوعهم بمال كثير مِن الجزية.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي لَأَظُنُّكُمْ قَدْ أَهْلَكْتُمُ النَّاسَ**) أكَّد لهم الكلام بـ(إنَّ) واللام و(قد) لما رأى كثرة المال أمامه، وإنَّما عاملهم معاملة المنكِرين لأنَّه كان ينهاهم عن الإكثار والإكراه في أخذ الجزية، والمال الذي أتوه به يدلُّ على مخالفتهم أمره، فسبقهم بالتأكيد قبل أن ينكروا. وعبَّر عن الإكثار في أخذ الجزية بالإهلاك تنفيرًا مِن هذا الفعل وتنبيهًا إلى أنَّ مآلَ فِعلهم إهلاكُ الناس. وقوله: (**بِلَا سَوْطٍ وَلَا نَوْطٍ؟**) أضافه إلى كلامهم كالقيد له. وقوله: (**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ عَلَى يَدَيَّ وَلَا فِي سُلْطَانِي**) (أل) في (الحمد) للاستغراق، والوصف بالاسم الموصول (الذي) لقصد الوصف بما تضمَّنته صلته.

١- «بِلَا سَوْطٍ وَلَا نَوْطٍ» أي: بلا ضَرْبٍ ولا تَعْليقٍ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (نوط).

٢- رواهُ القاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (١١٤).

[٨٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي فَضْلِ أَهْلِ الْقَادِسِيَّةِ(١)

«أُولَئِكَ أَعْيَانُ الْعَرَبِ وَغُرَرُهَا، اجْتَمَعَ لَهُمْ مَعَ الْأَخْطَارِ الدِّينُ، هُمْ أَهْلُ الْأَيَّامِ وَأَهْلُ الْقَوَادِسِ»(٢).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الأيام): هي المعارك، و(القوادسُ) جمعُ قادسٍ، وهي السفينة العظيمة.

مقتضى الحال: يخاطب أصحابه يبيِّن لهم فضل أهل القادسية.

البيان والبلاغة: قوله: **(أُولَئِكَ أَعْيَانُ الْعَرَبِ وَغُرَرُهَا)** استعمل اسم الإشارة (أولئك) لبيان علو شأن المشار إليه، وقوله: (وغررها) شبَّه أهل القادسيَّة بالغُرَر، والغُرَّة شعر الناصية، ثمَّ حذف أداة التشبيه ليكون التشبيه مؤكَّدًا، وإنَّما شببهم

١- القادسيَّة كمؤنث القادِسِ: تقعُ القادسيَّةُ بينَ النَّجفِ والحِيرةِ إلى الشَّمالِ الغربيِّ مِن الكوفةِ، وإلى الجنوب مِن كربلاءَ. وفيها موقعةُ القادسيَّةِ، وهي أعظمُ الوقائعِ الَّتي حدثتْ بينَ المسلمينَ والفُرسِ، قالَ أهلُ الأخبارِ: ما زالَ الفرسُ هم الغالبون المُتسلِّطون على العربِ، حتَّى حدثَ يومُ ذي قارٍ، قربَ البصرةِ، فانتصفَ العربُ مِن الفرسِ، ولمَّا توجَّه المسلمون إلى فتحِ فارسَ سخِرت منهم الفرسُ واحتقرتْهم، فكان يومُ القادسيَّةِ، أعظمَ يومٍ انهزمَ فيه الفرسُ وزالتْ دولتُهم. كانتِ القادسيَّةُ بقيادةِ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ سنةَ ١٦ للهجرةِ، فكانت مِن أعظمِ وقائعِ المسلمينَ، وكانتْ أربعةَ أيَّامٍ: يومُ أَرْمَاثٍ، ويومُ أَغواثٍ، ويومُ عَمَاسٍ، وليلةُ الهَرِيرِ، ثمَّ يومُ القادسيَّةِ وفيهِ هزيمةُ الفرسِ وقتلُ رُستُمَ قائدِهم. «معجم المعالم الجغرافيَّة» صص٢٤٧-٢٤٨.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢٢.

بالغُرَر لأنَّ الغُرَّة تنبتُ على الناصية التي هي أشرف مكان في الإنسان. وقوله: (**اجْتَمَعَ لَهُمْ مَعَ الأَخْطَارِ الدِّينُ**) جواب لسؤال محذوف، والتقدير: (لِمَ أهل القادسية أعيان العرب وغُرَرُها؟). وقوله: (**هُمْ أَهْلُ الأَيَّامِ وَأَهْلُ الْقَوَادِسِ**) في هذه الجملة قصر بتعريف طرفي الإسناد، أي: هم أهل الأيام لا غيرهم، والقصر هنا ادِّعائي مبالغةً في الثناء عليهم.

[٩٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ أُتِيَ بِتَاجِ كِسْرَى وَزِينَتِهِ وَسِلَاحِهِ

«أَحْمِقْ بِامْرِئٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غَرَّتْهُ الدُّنْيَا! هَلْ يَبْلُغَنَّ مَغْرُورٌ مِنْهَا إِلَّا دُونَ هَذَا أَوْ مِثْلَهُ! وَمَا خَيْرُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ سَبَقَهُ كِسْرَى فِيمَا يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ! إِنَّ كِسْرَى لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ تَشَاغَلَ بِمَا أُوتِيَ عَنْ آخِرَتِهِ، فَجَمَعَ لِزَوْجِ امْرَأَتِهِ أَوْ زَوْجِ ابْنَتِهِ، أَوِ امْرَأَةِ ابْنِهِ، وَلَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ، فَقَدَّمَ امْرُؤٌ لِنَفْسِهِ وَوَضَعَ الْفُضُولَ مَوَاضِعَهَا تَحْصُلْ لَهُ، وَإِلَّا حُصِّلَتْ لِلثَّلَاثَةِ بَعْدَهُ، وَأَحْمِقْ بِمَنْ جَمَعَ لَهُمْ أَوْ لِعَدُوٍّ جَارِفٍ»[١].

الشرح والتحليل

البيان والبلاغة: بدؤه الكلام بالتعجُّب مِن حال مَن عرف الإسلام ثمَّ اغترَّ بالدنيا فيه براعة استهلال فقال: (**أَحْمِقْ بِامرئٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غَرَّتْهُ الدُّنْيَا!**). وتنكير (امرئ) للتحقير، وفي قوله: (غرَّته الدنيا) تشخيص للدنيا؛ وذلك بتشبيهها بامرأة تغرُّ وتخدع مَن يركن إليها. وقوله: (**هَلْ يَبْلُغَنَّ مَغْرُورٌ مِنْهَا إلا دُونَ هَذَا أَوْ مِثْلَهُ!**) الاستفهام هنا للنفي، وتنكير (مغرور) في سياق الاستفهام يفيد العموم، والتنكير هنا يفيد التحقير أيضًا، والقصر في قوله: (إلا دون هذا) حقيقي تحقيقي، واستعمال اسم الإشارة (هذا) لطلب استحضار صورة المشار إليه في ذهن المخاطب. وقوله:

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢٣.

(وَمَا خَيْرُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ سَبَقَهُ كِسْرَى فِيمَا يَضُرُّهُ وَلا يَنْفَعُهُ!) الاستفهام بـ(ما) للنفي والتعجُّب والتوبيخ، ونعت (امرئ) بـ(مسلم) لتنبيه المخاطَب إلى أنَّ اللَّوم منصبٌّ على مِن اتَّصف بالإسلام ثمَّ اتَّبع كسرى في الاغترار بالدنيا. وبين (يضرُّه) و(ينفعُه) طباق. وقوله: **(إِنَّ كِسْرَى لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ تَشَاغَلَ بِمَا أُوتِيَ عَنْ آخِرَتِهِ، فَجَمَعَ لِزَوْجِ امْرَأَتِهِ أَوْ زَوْجِ ابْنَتِهِ، أَوِ امْرَأَةِ ابنه، ولم يقدم لنفسه)** حذف مفعول (يزد) للتحقير، وبناء (أوتي) للمفعول لعدم الحاجة إلى تعيين الفعل، وحذف المفعول الثاني لحمل المخاطَب عل التأمُّل وإعمال الذهن في تعيينه ليعرفه فيحذر منه. وقوله: (لزوج امرأته) ذكر ذلك على اعتبار ما سيكون حين يموت ويخلفه على امرأته رجل آخر، وإنَّما خصَّ بالذِّكر زوج امرأته وزوج ابنته وامرأة ابنه لينبِّه المخاطَب إلى أنَّ المال الذي يجمعه دون أن ينفقه سيتصرَّف فيه مِن بعده غرباء عنه ليسوا مِن صلبه، فيكون ذلك أبلغ لزجره عن كنز المال، وقوله: (ولم يقدِّم لنفسه) تتميم ذَكَره ليزيد مِن حسرة المخاطَب. وقوله: **(فقدَّم امرؤ لِنَفْسِهِ وَوَضَعَ الْفُضُولَ مَوَاضِعَهَا تُحَصَّلُ لَهُ، وَإِلا حُصِّلَتْ لِلثَّلاثَةِ بَعْدَهُ)** هذه الجملة خبرية يراد بها الطلب، فالفعل (قدَّمَ) يراد به الأمر، لكنَّه عدل إلى الفعل الماضي لتأكيد تحقُّق ما يترتَّب على هذا الفعل. وتنكير (امرؤ) لإفادة العموم وعدم تقييد الفعل بفاعل معيَّن. وبناء (تُحصَّل) للمفعول لعدم الحاجة إلى ذكر الفاعل، وقوله: (وإلا حُصِّلتْ للثلاثة بعده) في الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير: (وإلَّا يفعل ذلك حصِّلتْ للثلاثة)، ومجيء الفعل (حُصِّلتْ) بصيغة الماضي لتقرير ثبوته إن تحقَّق الشرط. وقوله: **(وَأَحْمِقْ بِمَنْ جَمَعَ لَهُمْ أَوْ لِعَدُوٍّ جَارِفٍ)** ختم كلامه بأسلوب التعجُّب الذي بدأ به، وكأنَّه يقول: إنَّ

التعجُّب لا زال قائمًا لمن لم يتَّعظ بعد هذا البيان. وقد استعمل أسلوب التقسيم هنا، فجامِعُ المال مِن غير أن ينفقه في موضعه هو في حقيقة الأمر يجمع المال إمَّا لأهله مِن بعد وقد يؤول إلى غيرهم كزوج امرأته وزوج ابنته وامرأة ابنه، وإمَّا يسطو عليه عدوٌّ ينهب ماله، وهذه القسمة حاصِرةٌ.

[٩١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ أَتَتْهُ كُنُوزُ كِسْرَى، فَبَكَى فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: (وَمَا يُبْكِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَوَاللهِ إِنَّ هَذَا لَيَوْمُ شُكْرٍ، وَيَوْمُ سُرُورٍ، وَيَوْمُ فَرَحٍ):

«كَلَّا، إِنَّ هَذَا لَمْ يُعْطَهُ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا أُلْقِيَتْ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يُخاطب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه لَمَّا أنكر عليه بكاءه حين رأى كنوزَ كسرى وكثرتها بين يديه.

البيان والبلاغة: استعمل عمر رضي الله عنه أسلوب الحكيم في ردِّه على عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه ، فقوله: (كلَّا) ليس إنكارًا أن يكون ذلك اليوم يوم شكر وسرور وفرح بالنصر، ولكنَّه للردع مِن الفرح والسرور بالمال ومتاع الدنيا، ولذلك قال: (إنَّ هذا لم يعطه قوم قطُّ إلا أُلقيت بينهم العداوة والبغضاء) واستعمال اسم الإشارة (هذا) لتحقير المشار إليه، وتنكير (قوم) في سياق النفي يفيد العموم، والقصر في قوله: (إلا أُلقيت بينهم العداوة والبغضاء) قصر ادِّعائي للتخويف مِن عواقِب الحرص على المال وجمعه.

١- رواه ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (٧٦٨)، والمعافى بنُ عمرانَ في «الزُّهدِ» (٧)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٠٣٦)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٥٨٧)، وأحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٥٩٧)، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (٦٨)، وابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (١٨)، والخرائطيُّ في «مكارمِ الأخلاقِ» (٩٢٠)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرى» (١٣٠٣٤).

[٩٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ أَلْقَى بِسِوَارَيْ كِسْرَى لِسُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ[١] فَجَعَلَهُمَا سُرَاقَةُ فِي يَدِهِ، فَبَلَغَا مَنْكِبَيْهِ

«الْحَمْدُ للهِ، سِوَارَيْ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ فِي يَدِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ أَعْرَابِيٍّ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَكَ ﷺ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُصِيبَ مَالًا فَيُنْفِقَهُ فِي سَبِيلِكَ وَعَلَى عِبَادِكَ، وَزَوَيْتَ ذَلِكَ عَنْهُ نَظَرًا مِنكَ لَهُ وَخِيَارًا، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُصِيبَ مَالًا فَيُنْفِقَهُ فِي سَبِيلِكَ وَعَلَى عِبَادِكَ، فَزَوَيْتَ ذَلِكَ عَنْهُ نَظَرًا مِنكَ لَهُ وَخِيَارًا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ يَكُونَ هَذَا مَكْرًا مِنْكَ بِعُمَرَ! ثُمَّ قَالَ: تَلَا ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦]»[٢].

الشرح والتحليل

لطائف لغوية: قوله: (الْحَمْدُ للهِ، سِوَارَيْ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ فِي يَدِ سُرَاقَةَ) نصب (سواري) بفعل محذوف.

١- سُرَاقةُ بنُ مالكِ بنِ جُعْشُمٍ المُدْلِجيُّ الكِنانيُّ، كانَ في الجاهليَّةِ قائفًا، خرجَ في أثرِ رسولِ اللهِ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - وأبي بكرٍ في الهجرةِ، وأسلمَ بعدَ غزوةِ الطَّائفِ سنةَ ٨ هـ، وحسُنَ إسلامُه، ولهُ حديثٌ في العمرةِ. وقيلَ: تُوفِّيَ بعدَ مقتلِ عثمانَ، واللهُ أعلمُ. «تاريخ الإسلام» ٢/ ١٧٢.

٢- رواهُ البيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٣٠٣٦)، و«معرفةِ السُّنَنِ والآثارِ» (١٣١٩٦).

البيان والبلاغة: قوله: (**الْحَمْدُ لله، سِوَارَيْ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ فِي يَدِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ، أَعْرَابِيٍّ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ**) البدء بحمد الله فيه براعة استهلال؛ إذ يشعر السامع أنَّ الكلام في ذكر نعمة يُحمد الله تعالى عليها، والإضافة في (سواري كسرى) و(يد سراقة) للتعيين وزاد في تعريف المضاف إليه في الموضعين لتقرير ما أحدثه الإسلام مِن ذلَّة مَن عاداه وعزَّة مَن والاه، وزاد تقرير ذلك بذكر الوصف (أعرابي مِن بني مُدْلِج). وقوله: (**اللهُمَّ إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَكَ ﷺ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُصِيبَ مَالًا فَيُنْفِقَهُ فِي سَبِيلِكَ وَعَلَى عِبَادِكَ، وَزَوَيْتَ ذَلِكَ عَنْهُ نَظَرًا مِنْكَ لَهُ وَخِيَارًا**) في قوله: (إنِّي قد علمتُ أنَّ رسولك) استعمل المؤكِّدات ليبيِّن علمه اليقيني بما كان عليه رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه . وقوله: (كان يحبُّ أن يصيب مالًا) استعمل (كان) للدلالة على استمرار حدوث الفعل في الماضي والمداومة عليه، وتنكير (مالًا) للتكثير. وقوله: (وزويتَ ذلك عنه) استعمل اسم الإشارة لتعيين المشار إليه وتمييزه. وقوله: (نظرًا منك له) قدَّم الجارَّ والمجرور (منك) على الجارِّ والمجرور (له) للعناية والاهتمام. وقوله: (**وَزَوَيْتَ ذَلِكَ عَنْهُ نَظَرًا مِنْكَ لَهُ وَخِيَارًا، اللهُمَ إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُصِيبَ مَالًا فَيُنْفِقَهُ فِي سَبِيلِكَ وَعَلَى عِبَادِكَ**) كرَّر الألفاظ التي ذكرها مع النبي ﷺ ليقرِّر مطابقة فعل أبي بكر رضي الله عنه لفعل النبي ﷺ. وقوله: (**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ يَكُونَ هَذَا مَكْرًا مِنْكَ بِعُمَرَ**) استعمل اسم الإشارة لتعيين المشار إليه. وفي قوله: (عمر) بالتصريح بالاسم مع التجريد من اللقب إظهار للخضوع والتذلُّل لله تعالى.

[٩٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَقَدْ أَرْسَلَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ إِلَى عُمَرَ

فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لِنْ لِلنَّاسِ، فَإِنَّهُ يَقْدَمُ الْقَادِمُ فَتَمْنَعُهُ هَيْبَتُكَ أَنْ يُكَلِّمَكَ فِي حَاجَتِهِ حَتَّى يَرْجِعَ وَلَمْ يُكَلِّمْكَ. قَالَ: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، أَنْشُدُكَ اللهَ أَعَلِيٌّ وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدٌ أَمَرُوكَ بِهَذَا؟ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، وَاللهِ لَقَدْ لِنْتُ لِلنَّاسِ حَتَّى خَشِيتُ اللهَ فِي اللِّينِ، ثُمَّ اشْتَدَدْتُ عَلَيْهِمْ حَتَّى خَشِيتُ اللهَ فِي الشِّدَّةِ، فَأَيْنَ الْمَخْرَجُ؟»، فَقَامَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَبْكِي يَجُرُّ رِدَاءَهُ، يَقُولُ بِيَدِهِ أُفٍّ لَهُمْ بَعْدَكَ، أُفٍّ لَهُمْ بَعْدَكَ[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بعد أن طلب منه عبد الرحمن أن يلين للناس.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَنْشُدُكَ اللهَ، أَعَلِيٌّ وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدٌ أَمَرُوكَ بِهَذَا؟**) هذا الاستفهام للتقرير، وأدخل همزة الاستفهام على الفاعل لأنَّه تعجَّب مِن صدور الفعل من هؤلاء المذكورين ولم يكن تعجُّبه مِن مجرَّد صدور الفعل. وفي قوله: (أمروك بهذا) استعمل اسم الإشارة لتعيين المشار إليه. وقوله: (**يَا عَبْدَ**

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٣/ ٢٨٨، وابنُ شبَّةَ في «تاريخ المدينةِ» ٢/ ٦٨١ دونَ ذكرِ عليٍّ وسعدٍ، والبغويُّ في «حديثِ مُصعَبٍ الزُّبيريِّ» (١٤٦)، والبَلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٤٠، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٢٦٩.

الرَّحْمَنِ، وَاللهِ لَقَدْ لِنْتُ لِلنَّاسِ حَتَّى خَشِيتُ اللهَ فِي اللِّينِ، ثُمَّ اشْتَدَدْتُ عَلَيْهِمْ حَتَّى خَشِيتُ اللهَ فِي الشِّدَّةِ، فَأَيْنَ الْمَخْرَجُ؟) كرَّر جملة النداء (يا عبد الرحمن) ليجذب انتباه السامع ويحمله على الإصغاء لكلامه. وفي قوله: (والله لقد لِنتُ) أكَّد الكلام بالقَسَم واللام مع أنَّ المخاطَب غير منكر إلا أنَّ طلبه جعل عمر رضي الله عنه يعامله معاملة المنكر. و(أل) الداخلة على (اللين) و(الشدة) للعهد الذكري. وقوله: (فأين المخرج) حذف صفة (المخرج) لدلالة السياق عليها، والتقدير: (المخرج المنجي مِن ضعف اللين وقسوة الشدة).

[٩٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِلْحَارِثِ الثَّقَفِيِّ(١)

وَقَدْ سَأَلَهُ الْفُتْيَا فِي مَسْأَلَةٍ سَأَلَ عَنْهَا رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

«أَرِبْتَ عَنْ يَدَيْكَ! سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ سَأَلْتَ عَنْهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَيْمَا أُخَالِفَهُ؟!»(٢).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (أَرِبْتَ عن يدَيْكَ): سقطت من أجل مكروه يصيب يديك من قطع أو وجع، أو سقطت بسبب يديك.

مقتضى الحال: يخاطب الحارث الثقفي بعد أن سأله عن مسألة سأل عنها رسول الله ﷺ.

١- الحارثُ بنُ عبدِ الله بنِ أوسٍ الثَّقفيُّ، وربَّما قِيلَ فيه: الحارثُ بنُ أوسٍ. حجازيٌّ، سكنَ الطَّائفَ، روى في الحائضِ: «يكونُ آخرُ عهدِها الطَّوافَ بالبيتِ». «الاستيعاب» ١/ ٢٩٣.

٢- رواه أبو داودَ في «السُّنَنِ» (٢٠٠٤)، والتِّرمذيُّ في «السُّنَنِ» (٩٤٦)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (١٥٤٤٠) و(١٥٤٤٢)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٣٣٤٥)، والطَّحاويُّ في «شرحِ معاني الآثارِ» (٤٠٤٧)، والطَّبرانيُّ في «المُعجَمِ الكبيرِ» (٣٣٥٣) و(٣٣٥٤)، وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (٢٣٨٨)، واللَّفظُ لابنِ أبي شيبةَ.

البيان والبلاغة: قوله: (أَرِبْتَ عن يدَيْك) هذا الدعاء لا يراد به ظاهره، يقال للمخاطَب عند إرادة نسبة الخطأ إليه. وقوله: (سألتني عن شيء سألتَ عنه رسول الله) جواب لسؤال محذوف، تقديره: (لم تلومني؟). وتنكير (شيء) للتعيين. والاستفهام في كلام عمرَ رضي الله عنه جاء للإنكار.

[٩٥]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

لأَبِي الزَّوَائِدِ الْيَمانِيِّ[١]

«مَا يَمْنَعُكَ عَنِ النِّكَاحِ إِلَّا عَجْزٌ أَوْ فُجُورٌ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب أبا الزوائد اليماني لما رآه مُعرِضًا عن النكاح.

البيان والبلاغة: القصر في قوله: (ما يمنعك عن النكاح إلا عجز أو فجور) قصر ادِّعائي، فقد يمنع عن النكاح غير هذين، ولكن لما رأى عمر إعراض أبي الزوائد عن النكاح أراد أن يخوِّفه مِن فعله هذا فحصر أسباب امتناعه مِن النكاح في هذين الأمرين. وتنكير (عجْز) و(فُجور) للتهويل.

١- أبو الزَّوائدِ اليمانيُّ، ويُقالُ: ذو الزَّوائدِ الجُهنيُّ، له صحبةٌ، عدادُه في المدنيِّين. كنتُ معَ رسولِ الله -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ- في حجَّةِ الوداع، فسمعتُه يقولُ: «خُذُوا الْعَطَاءَ مَا كَانَ عَطَاءً، فَإِذَا تَجَاحَفَتْ قُرَيْشٌ الْمُلْكَ فِيمَا بَيْنَهَا، وَصَارَ الْعَطَاءُ رِشْوَةً عَلَى دِينِكُمْ؛ فَلَا تَأْخُذُوهُ». «أسد الغابة» ٢/ ٢١٧ و٦/ ١١٩، و«الإصابة» ٢/ ٣٤٤ و ٧/ ١٣٢.

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٠٣٨٤)، وسعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٤٩١)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٦١٥٨)، والفاكهيُّ في «أخبارِ مكَّةَ» (٦٧٤)، وأبو نُعَيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ٤/ ٦، والبيهقيُّ في «معرفةِ السُّنَنِ والآثارِ» (١٣٤٦٥).

[٩٦]
وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا بَالُ رِجَالٍ يَنْحَلُونَ أَوْلَادَهُمْ نُحْلًا، فَإِذَا مَاتَ أَحَدُهُمْ، قَالَ: مَالِي وَفِي يَدِي، وَإِذَا مَاتَ هُوَ، قَالَ: قَدْ كُنْتُ نَحَلْتُهُ وَلَدِي، لَا نِحْلَةَ إِلَّا نِحْلَةٌ يَحُوزُهَا الْوَلَدُ أَوِ الْوَالِدُ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (ينحلُونَ) يهبون ويُهدون، و(النُّحلُ) العطيَّةُ.

مقتضى الحال: يعرِّض عمر رضي الله عنه باللوم على أناس ينحلون أولادهم نحلًا، مِن غير أن يحوزها الأولاد، فإن مات الولد في حياة أبيه رجع أبوه في نحلته، وإن مات الرجل قبل ولده جرت النحلة على الولد.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا بَالُ رِجَالٍ يَنْحَلُونَ أَوْلَادَهُمْ نِحَلاً**) استخدم هذا الأسلوب في التعريض مِن غير تصريح باسم الفاعل للتحذير مِن الفعل بغضِّ النظر عن فاعله؛ ليكون التحذير عامًّا لكلِّ أحد، وتنكير (نحلًا) للتنويع. وقوله: (**فَإِذَا مَاتَ أَحَدُهُمْ، قَالَ: مَالِي وَفِي يَدِي**) في الكلام حذف مبتدأ لعلم المخاطَب به، والتقدير: (هذا مالي)، وفي قوله: (وفي يدِي) تميم فائدته تقرير ادِّعاء تملُّك المال. وقوله: (**وَإِذَا مَاتَ هُوَ، قَالَ: قَدْ كُنْتُ نَحَلْتُهُ وَلَدِي**) هذا الكلام تعبير عن لسان الحال، وكأنَّ الرجُل إذا مات قبل ولده وقد نحله نحلة فإنَّه لا يستطيع أن يرجع

١- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإ» (٢٧٨٤)، وسفيانُ بنُ عُيينَةَ في «حديثِه» (٧)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٠٤٩٥) واللَّفظُ له، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١١٩٥٣).

فيها، يقول: قد كنت نحلته ولدي. وعبَّر عن ثبوت ذلك بـ(قد) واستعمال الفعل (كان) ومجيء الفعل (نحل) بصيغة الماضي. وقوله: (**لاَ نِحْلَةَ إلاَّ نِحْلَةٌ يَحُوزُهَا الْوَلَدُ أو الْوَالِدِ**) القصر هنا إضافي، وهو قصر قلبٍ؛ لأنَّ الخطاب موجَّه لمن يفعل خلاف ذلك. وخبر (لا) النافية للجنس محذوف لدلالة السياق عليه، والتقدير: (لا نحلة نافذة) أو: (لا نحلة صحيحة). وتقديم (الولد) على (الوالد) لأنَّ الأكثر في العادة أن تكون النحلة مِن الوالد للولد، فالولد هو مَن يحوز النِّحلة في الغالب.

[٩٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنِّي - وَاللَّهِ - مَا أَدَعُ حَقًّا للهِ لِشِكَايَةٍ تَظْهَرُ، وَلَا لِضَبٍّ يُحْتَمَلُ[١]، وَلَا لِمُحَابَاةِ بَشَرٍ، وَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا عَاقَبْتَ مَنْ عَصَى اللهَ فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللهَ فِيهِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: الضبُّ: الغيظ والحقد.

مقتضى الحال: يوجّه هذا الكلام لعموم المسلمين.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي - والله - مَا أَدَعُ حَقًّا لله لِشِكَايَةٍ تَظْهَرُ، ولا لضَبٍّ يُحتَمَلُ، ولا لِمُحَابَاة بَشَرٍ**) بدأ كلامه بالتوكيد بـ(إنَّ) والقَسَم إشارة منه إلى أهمِّيَّة ما سيذكره، واستعمل الفعل (أدع) بصيغة المضارع للدلالة على استمراره على هذا الأمر، وتنكير (حقًّا) في سياق النفي يفيد العموم، وتنكير (شكاية) و(ضبٍّ) و(محاباة) للتحقير، وتنكير (بَشَر) لقصد عدم التعيين. وقوله: (**وإنَّكَ - والله - ما عَاقَبْتَ مَنْ عَصَى اللهَ فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللهَ فِيهِ**) استعمل هنا أسلوب المقابلة لتقرير المعنى المراد في نفس المخاطب، فقابل بين (عصى الله فيك) و(تطيع الله فيه) وزاد تقرير ذلك بالتوكيد بـ(إنَّ) والقسم، واستعمل الفعل (عاقب) بصيغة الماضي ليدُلَّ على ثبوت الحدث.

١- الضّبُّ، بالفتح والكسرِ: الغيظُ والحقدُ.

٢- ذكره الجاحظُ في «البيانِ والتَّبيينِ» ١/ ٢١٨.

[٩٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِسُنَيْنٍ[١]

«عَسَى الْغُوَيْرُ أَبْؤُسًا[٢]». فَقَالَ سُنَيْنٌ: مَا الْتَقَطُوهُ إِلَّا وَأَنَا غَائِبٌ. فَسَأَلَ عَنْهُ عُمَرُ، فَأُثْنِيَ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَقَالَ عُمَرُ: «فَوَلَاؤُهُ لَكَ، وَنَفَقَتُهُ عَلَيْنَا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ»[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الغوير): جمع غار، وقوله: (عسى الغوير أبؤسًا) مثل يقال لكلِّ شيء يُخاف أن يأتي منه شرٌّ.

١- سُنَيْنٌ أبو جَمِيلةَ، اختُلِفَ في صحبتِه، وذكرَ أبو سليمانَ بنُ زَبْرٍ أنَّه شهِد حُنَينًا، وأمَّا أبو أحمدَ العسكريُّ فذكره في جملةِ مَن وُلِد في أيَّامِه -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ- وماتَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ- وهو صغيرٌ، وفي موضعٍ آخرَ ذكره في (باب مَن وُلِدَ في الهجرةِ). وفي «تاريخِ أبي سعيدٍ هاشمِ بنِ مرثدٍ الطَّبرانيِّ» عنِ ابنِ معينٍ: ليست له رؤيةٌ. وذكره ابنُ سعدٍ في الطَّبقةِ الأولى مِن تابعي المدينةِ. وقال العجليُّ: تابعيٌّ ثقةٌ. «إكمال تهذيب الكمال» لمغلطاي ٦/ ١٢٦.

٢- أَبْؤُسٌ: جمعُ بَأْسٍ، وانتصبَ على أنَّه خبرُ عسى. والغُوَيرُ ماءٌ لكَلْبٍ ناحيةَ السَّماوة. وهذا المثلُ إنَّما تكلَّمت به الزَّبَّاءُ، وذلك أنَّها لَمَّا وجَّهتْ قَصيرًا اللَّخْميَّ بالعِيرِ ليحملَ لها مِن بُرِّ العرَاق وألطافِه، وكان يطلبُها بِزحلِ جَذِيمةَ الأبرشِ، فجعلَ الأحمالَ صناديقَ، وقد قيلَ: غرائر. وجعلَ في كلِّ واحدٍ منها رجلًا معه السِّلاحُ، ثمَّ تنكَّب بهم الطَّريقَ المنهجَ، وأخذَ على الغُوَيرِ، فسألتْ عن خبرِه، فأُخبِرتْ بذلكَ، فقالتْ: (عَسَى الْغُوَيْرُ أَبْؤُسًا). تقولُ: عسى أن يأتيَ ذلك الطَّريقُ بشَرٍّ، واستنكرتْ شأنَه حينَ أخذَ على غيرِ الطَّريقِ. وإنَّما أرادَ عُمرُ بهذا المثلِ أن يقولَ للرَّجلِ: لعلَّك صاحبُ هذا المنبوذِ. حتَّى أثنى عليه عَرِيفُه خيرًا. «غريب الحديث» لأبي عُبيدٍ (غور)، و«النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (بأس).

٣- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (بَابٌ: إِذَا زَكَّى رَجُلٌ رَجُلًا كَفَاهُ) مُعلَّقًا، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٦١٨٣)، وسعدانُ في «جُزئِه» (١١٢)، والطَّبرانيُّ في «المُعجَمِ الكبيرِ» (٦٤٩٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٢١٣٤) و(٢١٤٦٨)، والخطيبُ البغداديُّ في «الكفايةِ» ١/ ٩٦.

مقتضى الحال: يخاطِب سُنينًا في شأن عبد وجده عنده.

لطائف لغوية: قوله (عسى الغوير أبؤسًا) نصب (أبؤسًا) على أنَّه خبر لـ(عسى) وهذا نادر، إذ الأكثر أن يكون خبر (عسى) فعلًا مضارعًا مقرونًا بـ(أنْ).

البيان والبلاغة: ابتدأ كلامه بضرب المثل لتنبيه المخاطب إلى أمر ربما غفل عنه يتعلَّق بالمتحدَّث عنه، ولعلَّه تعمَّد الاقتصار على ذكر المثل لئلَّا يفهم مقصودَه غيرُ المخاطب، فقال: (**عَسَى الغُوَيْرُ أَبْؤُسًا**). وقوله: (**فَوَلَاؤُهُ لَكَ، وَنَفَقَتُهُ عَلَيْنَا مِنْ بَيْتِ المَالِ**) فقوله: (فولاؤه لك) الفاء هنا جوابية، وفي الكلام حذف، والتقدير: (إذا كان العبد كذلك فولاؤه لك). وفي قوله: (من بيت المال) أتى بهذا القيد للاحتراس؛ لأنَّ قوله: (نفقته عليه) قد يوهم أنَّ ذلك مِن نفقته الخاصَّة، فأتى بذلك القيد لدفع هذا التوهُّم.

[٩٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي رَجُلٍ رَاوَدَ امْرَأَةً عَلَى نَفْسِهَا، فَقَتَلَتْهُ

«ذَلِكَ قَتِيلُ اللهِ، لَا يُودَى أَبَدًا»[١].

الشرح والتحليل

البيان والبلاغة: استعمل اسم الإشارة (ذلك) للتحقير، والإضافة في قوله: (قتيل الله) بمعنى اللام؛ أي: (قتيل قتله القاتل لله)؛ لأنَّ الله أذن بقتله، فالتي قتلته فعلت ذلك لتصون عِرضها. وجملة (لا يودَى أبدًا) جملة تفسيرية لقوله: (قتيل الله)؛ لأنَّ المأذون بقتله لا دية له. وبناء الفعل (يودى) للمفعول لقصد عدم تعيين الفاعل. وزيادة الظرف (أبدًا) لتوكيد النفي في المستقبل.

١- رواه عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٧٩١٩)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٨٣٦٩)، وسعدانُ في «جُزئِه» (٩٥)، والخرائطيُّ في «اعتلالِ القلوبِ» (١٩١)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٧٦٤٩)، و«معرفةِ السُّنَنِ والآثارِ» (١٧٥٥١).

[١٠٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِمَوْلَاهُ أَسْلَمَ[١]، وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ فَرَسٍ لِعُمَرَ

«يَا أَسْلَمُ، كَمْ تَعْلِفُ الْفَرَسَ كُلَّ يَوْمٍ؟» قَالَ: «فَرَقًا مِنْ شَعِيرٍ»، فَقَالَ: «لَوْ صَرَفْنَاهُ إِلَى بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَبَعَثْنَا بِهِ إِلَى النَّقِيعِ، فَبَعَثَ بِهِ إِلَى النَّقِيعِ وَصَرَفَ عَلَفَهُ إِلَى بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الفَرَق)، و(النَّقيع).

مقتضى الحال: يخاطب مَولى له في أمرِ طعامِ فرسِهِ.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه بنداء المخاطَب للفت انتباهه، فقال: (**يَا أَسْلَمُ، كَمْ تَعْلِفُ الْفَرَسَ كُلَّ يَوْمٍ؟**). و(أل) الداخلة على (الفرس) للعهد الذهني. وقوله: (**لَوْ صَرَفْنَاهُ إِلَى بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَبَعَثْنَا بِهِ إِلَى النَّقِيعِ**) مِن تواضع عمر رضي الله عنه في خطابه مع مولاه أنّه لم يوجِّه له الكلام بصيغة الأمر المباشر، وإنَّما بدأ بـ(لو) التي للتمنِّي، وأسند الفعل (صرف) و(بعث) إلى لمتكلِّمين ولم يسنده إلى المخاطَب؛ ليكون مشارِكًا معه في الفعل. وتنكير (بيت) لقصد عدم التعيين.

١- أَسْلَمُ مَوْلَى عمرَ بنِ الخطَّابِ العدويِّ، اشتراهُ عمرُ بمكَّةَ لَمَّا حجَّ بالنَّاسِ سنةَ إحدى عشْرةَ في خلافةِ الصِّدِّيقِ. قالَ أبو عُبَيدٍ: تُوفِّي أسلمُ سنةَ ثمانينَ. «تاريخ الإسلام» ٢/ ٧٩١.

٢- رواهُ أحمدُ في «الزُّهدِ» (٦٠٢).

[١٠١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَقْرَؤُنَا أُبَيٌّ، وَأَقْضَانَا عَلِيٌّ، وَإِنَّا لَنَدَعُ مِنْ قَوْلِ أُبَيٍّ، وَذَاكَ أَنَّ أُبَيًّا يَقُولُ: لَا أَدَعُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب المسلمين يبيِّن لهم فضل أبيٍّ وعليٍّ رضي الله عنهما مع مقارنة بينهما.

البيان والبلاغة: ذكر عمر رضي الله عنه شيئًا مِن فضائل أبيّ وعليّ رضي الله عنهما ، واستعمل في ذلك أسلوب التقسيم الذي يُشبه اللَّف والنشر، مِن غير أن يكمل هذا التقسم، فبدأ بذكر ما تميَّز به كلٌّ مِن أُبيٍّ وعليٍّ رضي الله عنهما باستعمال اسم التفضيل، فقال: (أقرؤنا أبيٌّ، وأقضانا عليٌّ) وجاء السجع بين (أبيٍّ) و(عليٍّ) مِن غير تكلُّف، ثم ذكر ما يتعلَّق بأبيٍّ، وهو قوله: (**وَإِنَّا لَنَدَعُ مِنْ قَوْلِ أُبَيٍّ**)، واستعمل التوكيد بـ(إنَّ) واللام ليقرِّر أنَّ أبيًّا مع فضله وعلمه فإنَّه يُترَك مِن قوله. وحرف الجرِّ (مِن) يفيد التبعيض، أي: (ندع بعض قراءته التي ثبتت عندنا أنَّها نُسختْ)، وكان مقتضى التقسيم أن يذكر ما يتعلَّق بعليٍّ، ومقتضى السياق أن يقول: (وإنَّا لا ندع شيئًا مِن قضاء عليٍّ)، لكنَّه

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٤٤٨١)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (٢١٠٨٤)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٢/ ٣٣٩، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٠٧٥٥)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ٢/ ٩٧.

ترك ذكر ذلك لئلَّا يظنُّ المخاطَب أنَّه يتنقص مِن قدر أُبيٍّ فيزهد في أخذ القرآن منه؛ إذ كيف يُزهِّدُ في أخذ القرآن منه وهو أحد أربعة الذين أمر النبيُّ ﷺ بأخذ القرآن منهم[1].

١- : كما في الحديث المتّفق عليه أنّ النبي ﷺ قال: «خُذُوا القُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ؛ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَسَالِمٍ مولى حذيفة، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ».

[١٠٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَئِنْ عِشْتُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ لَأَجْعَلَنَّ عَطَاءَ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ: أَلْفٌ لِكُرَاعِهِ وَسِلَاحِهِ، وَأَلْفٌ نَفَقَةٌ لَهُ، وَأَلْفٌ نَفَقَةٌ لِأَهْلِهِ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الكُراعُ) اسمٌ يجمعُ الخيلَ.

مقتضى الحال: يخبر عن عزمه على زيادة عطاء المسلمين.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَئِنْ عِشْتُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ لَأَجْعَلَنَّ عَطَاءَ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ**) أكَّد كلامه بلام القسم واللام في الجواب ونون التوكيد ليبيِّن عزمه على تحقيق مراده في زيادة العطاء. وقوله: (الرجل المسلم) وصف الرجل بأنَّه (مسلم) ليبيِّن أنَّ الرجل يستحق العطاء لكونه مسلمًا، وأنَّ الإسلام هو الذي منحه هذا العطاء. ثم استعمل أسلوب التقسيم لتوضيح مصرف الآلاف الثلاثة، فقال: (**أَلْفٌ لِكُرَاعِهِ وَسِلَاحِهِ، وَأَلْفٌ نَفَقَةٌ له، وَأَلْفٌ نَفَقَةٌ لأَهْلِهِ**) وقدَّم ألف الكراع والسلاح للرعاية والاهتمام ولفت انتباه المخاطَب إلى الحرص على الجهاد في سبيل الله.

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٠٢، وابنُ زَنجُويهِ في «الأموالِ» (٩٥١)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٥٢.

[١٠٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ إِلَى الْقُرَّاءِ

«يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ، ارْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ فَقَدْ وَضَحَ الطَّرِيقُ، اسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، وَلَا تَكُونُوا عِيَالًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب القرَّاء الذين هم حفظة القرآن.

البيان والبلاغة: بدأ بنداء المخاطبين لبيان أنَّ الكلام الآتي موجَّه لهم، وأضاف لفظ (معشر) إلى (القرَّاء) ليشير إلى أنَّ القرَّاء كالجماعة الواحدة، جمع بينهم كتاب الله عزَّ وجلَّ. وقوله: (**ارْفَعُوا رُءُوسَكُمْ**) كناية عن الأمر باجتناب التذلُّل للناس واسترحامهم لطلب المال منهم، واستعمل الكناية هنا دون التصريح احترامًا للقرَّاء وصيانةً لجنابهم. وقوله: (**فَقَدْ وَضَحَ الطَّرِيقُ**) استعمل الكناية مرة أخرى، فهو يقصد أنَّ معالم الإسلام واضحة، ومِن وضوح معالمه أن يبتغي المرء بعمله الدار الآخرة وألَّا ينسى نصيبه مِن الدنيا، وقد أشار عمر إلى مقصده هذا في قوله: (**اسْتَبْقُوا الْخَيْرَاتِ، وَلَا تَكُونُوا عِيَالًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ**) فهذا مِن الإيضاح بعد الإبهام، فاستباق الخيرات يكون في عمل الآخرة، ونهيهم عن أن يكونوا عيالًا على الناس يتضمَّن الأمر بسعيهم لكسب رزقهم.

١- رواهُ ابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (١٩٢١)، وابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (٢١٩)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (١١٦٣).

[١٠٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ سَمِعَ خُطْبَةً لِزِيَادِ بْنِ أَبِيهِ

«هَذَا الْخَطِيبُ الْمِصْقَعُ[١]»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (المِصقع): البليغ.

مقتضى الحال: يتحدَّث عن زياد بن أبيه بعد أن سمع خطبة له أعجبته.

البيان والبلاغة: استعمل اسم الإشارة لبيان عُلوِّ شأن المشار إليه، وتعريف طرفي الإسناد في قوله (هذا الخطيب المصقع) يفيد القصر، وهذا القصر ادِّعائيٌّ لبيان مدى بلاغة زياد بن أبيه.

١- في «لسانِ العربِ» ٨/ ٢٠٣: خَطِيبٌ مِصْقَعٌ: أي بليغٌ.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٣٠، وابنُ عساكرَ في «تاريخ دمشقَ» ١٩/ ١٦٧، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٣٤٧، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ١٠/ ٢٣.

[١٠٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا تَعَلَّمُوا رَطَانَةَ الْأَعَاجِمِ، وَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ فِي كَنَائِسِهِمْ يَوْمَ عِيدِهِمْ، فَإِنَّ السَّخْطَةَ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الرطانة): هو الكلام غير المفهوم، ويُطلق على لغة الأعاجم.

مقتضى الحال: يأمر عموم المسلمين باجتناب تقليد الأعاجم (غير المسلمين) في لغتهم وعاداتهم كما ينهى عن مخالطتهم.

البيان والبلاغة: قوله: (لا تعلَّموا رطانة الأعاجم) عبَّر عن لسان الأعاجم بالرَّطانة التي هي الكلام غير المفهوم للتنفير منها، ونهى عن تعلُّمها بقصد المنع مِن استعمالها بين المسلمين. وقوله: (ولا تدخلوا عليهم في كنائسهم يوم عيدهم) قيَّد النهي عن الدخول عليهم بالجارِّ والمجرور (في كنائسهم) وظرف الزمان (يوم عيدهم) لبيان أنَّ مقصوده مِن هذا النهي هو النهي عن مخالطتهم في أمور تتعلَّق بعقيدتهم ودينهم. وقوله: (فإنَّ السخطة تنزل عليهم) السخطة في أصلها أمر معنوي، ويقصد بها هنا أثرها من أنواع العقاب، فذكر هنا السبب وهو السخطة وأراد المسبَّب عنها وهو العقاب، وأراد مِن ذلك أن يبيِّن للمخاطب أنَّ فعل غير المسلمين مِن الأعاجم المخالف لأمر الله تعالى يستجلب غضبه وسخطه الموجب لعقابه.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٦٠٩)، وأبو القاسمِ الحُرْفِيُّ في «فوائدِه» (٢٤)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٨٨٦١).

[١٠٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَيُّهَا النَّاسُ، لَا نَجِدَنَّ أَحَدًا بَعْدَ السُّنَّةِ فِي ضَلَالَةٍ رَكِبَهَا حَسِبَهَا هُدًى، وَلَا فِي هُدًى رَكِبَهُ حَسِبَهُ ضَلَالَةً، قَدْ بُلِّغَتِ الْأُمُورُ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ، وَانْقَطَعَ الْعُذْرُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب الناس يحذِّرهم مِن أن تلتبس عليهم السنة بالضلالة.

لطائف لغوية: قوله: (لا نجدنَّ) أدخل (لا) الناهية على الفعل المسنَد للمتكلمين، وهذا قليل.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَيُّهَا النَّاسُ**) وجَّه خطابه للناس ولم يقصره على المسلمين ليبيِّن للناس جميعًا هذا الأمر. وقوله: (**لَا نَجِدَنَّ أَحَدًا بَعْدَ السُّنَّةِ فِي ضَلَالَةٍ رَكِبَهَا حَسِبَهَا هُدًى، وَلَا فِي هُدًى رَكِبَهُ حَسِبَهُ ضَلَالَةً**) أسند الفعل (نجد) إلى ضمير المتكلِّمين ليكون النهي عن أن يجد أحد مِن المسلمين أحدًا التبست عليه السنة بالضلالة لا أن يقتصر على أن يجد هو وحده ذلك، وقد أكَّد هذا النهي بنون التوكيد الثقيلة. وتنكير (أحدًا) في سياق النهي يفيد العموم. وفي قوله: (بعد السُّنَّة) حذف، والتقدير: (بعد ظهور السنَّة). وفي قوله (في ضلالة ركبها حسبها هُدىً ولا في هُدىً حسبه ضلالة) حرف الجرِّ (في) الموضعين يفيد الظرفية المجازية. وقوله: (ضلالة

١- رواهُ ابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٨٠٠، وابنُ بطَّةَ في «الإبانةِ الكُبرَى» (١٦٢)، والخطيبُ البغداديُّ في «الفقيهِ والمتفقِّهِ» ١/ ٣٨٣.

ركبها) شبَّه الضلالة بالبحر الهائج حين يُركَب على سبيل الاستعارة، وفائدة هذا التشبيه التخويف مِن الوقوع في الضلالة؛ لأنَّ مَن وقع في ضلالة لا يكاد يخرج منها، كمن ركب بحرًا هائجًا فلا يكاد ينجو منه. وتنكير (ضلالة) و(هدى) للإفراد، ولا يخفى الطباق بينهما. ثم ختم خطبته بهذه الجمل الثلاث الموجزة، فقال: (**قَدْ بَلَغَتِ الْأُمُورُ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ، وَانْقَطَعَ الْعُذْرُ**) وقد استعمل فيها الأفعال (بلغت) و(ثبتت) و(انقطع) بصيغة الماضي ليشير إلى أنَّ الأمر انتهى وانقضى ولا سبيل إلى تغييره، وهذه الجمل الثلاث ساقها عمر رضي الله عنه بتسلسل منطقي، راعى فيه تقديم السبب على المسبَّب، فبلوغ الأمر سبب في ثبوت الحجَّة، وثبوت الحجَّة سبب في انقطاع العذر.

[١٠٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

«وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَشَارَ إِلَى السَّمَاءِ بِإِصْبَعِهِ إِلَى مُشْرِكٍ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَيْهِ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ قَتَلَهُ، لَقَتَلْتُهُ بِهِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب جنده يحذِّرهم مِن الغدر في الحرب ونكث العهد.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه بالقَسَم بصيغة (والذي نفس عمر بيده) إشارة إلى أهمِّيَّة ما سيقول. وقوله: (لو أنَّ أحدكم أشار إلى السماء بأصبعه إلى مشرك) الإشارة إلى السماء هنا كناية عن إعطاء الأمان للمشرك. وقوله: (ثمَّ نزل إليه على ذلك) النزول إلى المشرك كناية عن الاقتراب منه والتظاهر بترك قتاله، واستعمال اسم الإشارة (ذلك) لتعيين المشار إليه وبيان علو شأنه. وقوله: (لقتلته به) استعمل الفعل (قتلته) بصيغة الماضي مع أنَّه يخبر عن أمر سيفعله إن تحقَّق شرطه، فهذا العدول إلى صيغة الماضي لبيان ثبوت هذا الحكم، وقد أكَّد ذلك بدخول لام التوكيد عليه.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٤٣٥)، وسعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٢٥٩٧) و(٢٥٩٨)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٠٨٦)، وأبو طاهرٍ في «المُخلِّصيَّاتِ» (٣٩٥)، واللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (٦٥٨) واللَّفظُ له.

[١٠٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«ارْكَبُوا الْحَقَّ، وَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ، وَكُونُوا وَاعِظِي أَنْفُسِكُمْ، وَالْزَمُوا أَدَبَ الله لَكُمْ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: الغَمَرات جمع غَمْرة، وهي الشدة؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، أي شدائده.

مقتضى الحال: المقام غير منصوص في السياق، لكن يبدو أن الكلام قد سيق في خطبة من خطب الجمعة.

لطائف لغوية: غمَرات - بفتح الميم - جمع غَمْرة بسكون الميم، وتحريك الميم هنا واجب، فلا يصح أن يقال (غمْرات)، ومثل ذلك (حلْقة وحلَقات) خلافا لما يشيع بين طلبة العلم أن الصواب (حلْقات)، هذا في المفتوح، وأما المضموم والمكسور فيجوز فيه التحريك والإسكان، تقول (جِلْسة وجلْسات وجلِسات) وتقول (غرْفة وغرْفات وغرُفات).

البيان والبلاغة: لما كان المقام مقام خطبة من خطب الجمعة فيما يبدو، كان الأنسب استعمال الجمل القصيرة، والحكم المركزة، والوصايا المختصرة، والكلمات الجامعة، وهذا واضح في النص؛ إذ اشتمل - مع قصره - على أربع جمل من جوامع الكلم، كلها مبنية على صيغة الأمر. وقد يبدو للناظر بادي الرأي أن هذه الوصايا لا رابط

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧٠.

بينها، لكن عند التأمل يظهر فيها الترابط الجميل والترتيب الرائع؛ لأن الجملتين الأوليَيْنِ تتعلقان بتعامل العبد مع العباد، والأُخريَيْنِ تتعلقان بتعامل العبد مع الله - عز وجل -، فكأن المقصود الجمع بين الاستقامة في العبادات والمعاملات، هذا من جهة النظر الإجمالي، وأما النظر التفصيلي: فقوله (ارْكَبُوا الحَقَّ): معناه اتخذوا الحق مركبا؛ أي وسيلة تبلغكم إلى المقصود، وهذه العبارة مع قصرها تعبر عن المقصود بدقة عجيبة؛ لأن من كان الحقُّ مركبَه فلا بد أن يفلح في الدنيا والآخرة، وكذلك فإن من اتخذ الحق مركبا فسوف يصل إلى مقصوده بأسرع وسيلة وبأفضل طريقة، وكذلك فإن ركوب الحق يقتضي التسليم له؛ لأن الراكب يسير حيث سار به مركبه، فاستعمال «الركوب» أبلغ وأدق من قوله - مثلا -: «انصروا الحق» أو «اتبعوا الحق»، ولذلك يستعمل الركوب أيضا في الباطل للدلالة على شدة الانهماك فيه وبلوغه من الإنسان مبلغا عظيما، فقولك: «ركب الظلم» أو «ركب الجهل» أبلغ وأدق من قولك: «استعمل الظلم» أو «اتبع الجهل»، واستعمال «الركوب» بهذا المعنى معروف في الكلام كقولهم: «ركب الخطر» و«ركب الصعب» و«اركب الشر»، لكن استعماله مع «الحق» لم أقف عليه في كلام البلغاء إلا عند عمر رضي الله عنه ولذلك انتقاها علماء البيان في مختارات كلامه؛ كما في البيان للجاحظ ونثر الدر للأبي، بل ذكره ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة فيما انتقاه من سيرته وأخلاقه.

ولما كان لهذا الأمر (أعني: ركوب الحق) تبعات وعواقب أتبع هذه العبارة بعبارة أخرى مرتبطة بها. فقوله (خُوضُوا الغَمَراتِ) معناه: تحملوا الشدائد وابذلوا النفس والنفيس، وكأن هذا تنبيه على أن ركوب الحق السابق ذكره سوف يحتاج إلى صبر وتعب؛ لأن الحق شديد والاستقامة عليه أشد، ولا بد أن يُعادَى صاحب

الحق ويحارب، ومعلوم أن أهل الباطل لا يتركون وسيلة من وسائل دفع الحق إلا استعملوها، ومن ثم جاءت هذه العبارة في موضعها تماما، وكأنه يقول إن ركوب الحق يستلزم خوض الغمرات في سبيل تحقيقه والمحافظة عليه، ولذلك جاءت العبارة في رواية: «وَخُوضُوا إليهِ الغَمَراتِ» أي: إلى هذا الحق. و(الغَمْرةُ) يشتهر استعمالها في الانهماك في الباطل، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾، وقال: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، لكن المقصود بها هنا الشدائد الدنيوية وأنواع الأذى التي يلحقها أهل الباطل بأهل الحق. وأصل الغمرة: غمرة الموت، ثم استُعيرت لكل شدة، لكن استعمال لفظ (الغَمَراتِ) هنا دقيقٌ جدا؛ لأنه يفيد عظم الأهوال والشدائد التي يقابلها العبد في طريق الحق.

ولما كان قول الحق والصبر عليه صعبا، فقد يؤدي هذا إلى قلة المعين وفقدان الصديق، كما قال بعض السلف: «مَا تَرَكَ لي قولُ الحقِّ صاحِبًا»، فلما كان الأمر كذلك جاءت العبارة التالية مناسبة تماما لهذا المعنى. فقوله: (وَكُونُوا واعِظِي أنْفُسِكُم)، أي: لا تنتظروا من غيركم أن ينصحكم ويعظكم، بل عليكم أن تجعلوا من أنفسكم وعاظا لأنفسكم، لأن الإنسان أعلمُ بنفسه من غيره، وهو يعلم أخطاءه وذنوبه التي قد تخفى على الآخرين، هذا فضلا عن أفكاره وخطرات نفسه التي لا يظهر منها شيء، فهذا كله يحتاج إلى عظة داخلية ومعالجة شخصية من الإنسان لنفسه، ولذلك قيل: «مَن لم يكُن له مِن نفسِه واعظٌ = لم تَنفعْه المواعِظ».

لكنَّ الإنسان لا يمكن أن يصل إلى هذه الدرجة بالهوى والتشهي؛ لأن النفس أمارة بالسوء، فقد تزين لك الباطل وتجعله في صورة الحق، وقد تشوه لك الحق وتجعله في صورة الباطل، ولما كان الأمر كذلك جاءت العبارة التالية في موضعها

تماما. فقوله (والزَمُوا أدَبَ الله لَكُم): أي إنَّ وعظَكُم لأنفُسكم - السابق ذكره - لا يتم إلا باتباع ما أدبكم الله به في كتابه، وما أمركم به رسوله، وليس بالأهواء والشهوات، وقوله (الزَمُوا): دقيقٌ جِدًّا في موضعه؛ لأنه لو قال - مثلا -: «تأدبوا» أو «اعملوا» أو نحو ذلك لأوهم أن ذلك نصيحة أخرى بجانب النصيحة السابقة، لكنَّ هذه اللفظة أفادت هيمنة هذه النصيحة على النصيحة السابقة، أي أنكم حين وعظكم لأنفسكم لا بد أن تلزموا وتتبعوا أوامر الله لكم اتباعا تاما ولزوما أكيدا، واستعمال كلمة «أدب» في هذا السياق من أدق الاستعمالات؛ لأنه لو قال: «أوامر الله» -مثلا - لأوهم أن الاتباع والعمل يكون بالفرائض والواجبات فقط، فاستعمل هذه الكلمة ليشمل كل ما جاء في الشريعة من كلام الله ورسوله ﷺ، فإن قيل: إن كلمة الأدب لا تستعمل في الفرائض وإنما تستعمل في النوافل فقط، فالجواب أننا لو فرضنا ذلك فحينئذ تكون دلالة العبارة على الفرائض من باب أولى؛ لأنه لا يعقل أن تؤمر باتباع الفضائل والنوافل مع ترك الفرائض وإغفالها، فكأن المراد على هذا التقدير: «التزموا بالآداب والفضائل فضلا عن الفرائض والواجبات».

[١٠٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ فِي الشَّهَادَةِ

«مَا تَرَوْنَ فِي نَفَرٍ ثَلَاثَةٍ أَسْلَمُوا جَمِيعًا، وَهَاجَرُوا جَمِيعًا، لَمْ يُحْدِثُوا فِي الْإِسْلَامِ حَدَثًا، قَتَلَ أَحَدَهُمُ الطَّاعُونُ، وَقَتَلَ الْآخَرَ الْبَطْنُ، وَقُتِلَ الْآخَرُ شَهِيدًا؟» قَالُوا: الشَّهِيدُ أَفْضَلُهُمْ. فَقَالَ عُمَرُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إِنَّهُمْ لَرُفَقَاءُ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا كَانُوا رُفَقَاءَ فِي الدُّنْيَا»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن منزلة مَن قُتل بالطاعون أو مَبطونًا.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا تَرَوْنَ فِي نَفَرٍ ثَلَاثَةٍ أَسْلَمُوا جَمِيعًا وَهَاجَرُوا جَمِيعًا، لَمْ يُحْدِثُوا فِي الْإِسْلَامِ حَدَثًا، قَتَلَ أَحَدَهُمُ الطَّاعُونُ، وَقَتَلَ الْآخَرَ الْبَطْنُ، وَقُتِلَ الْآخَرُ شَهِيدًا؟**) الاستفهام هنا للتنبيه، وتنكير (نفر) للتقليل، وقد بيَّن عددهم بالوصف. وتنكير (حدثًا) للتحقير. وتقديم المفعول على الفاعل في (قتل أحدَهم الطاعونُ) و(قتل الآخرَ البطنُ) للرعاية والاهتمام. وفي قوله: (وقُتِلَ الآخرُ شهيدًا) عدل عن بناء الفعل (قتل) للفاعل إلى بنائه للمفعول لعدم الفائدة في ذكر الفاعل، بخلاف الجملتين السابقتين؛ لأنَّ نوع القتل فيهما يُعرف بذكر الفاعل. وقوله: (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ لَرُفَقَاءُ فِي الْآخِرَةِ كَمَا كَانُوا رُفَقَاءَ فِي الدُّنْيَا**) أكَّد الكلام بالقسم و(إنَّ)

١- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٢٨٤٤).

واللام لاعتقاد المخاطَب خلاف ذلك، واستخدم التشبيه في قوله: (كما كانوا في الدنيا) لتقرير ذلك.

[١١٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَوْ كُنْتُ تَاجِرًا مَا اخْتَرْتُ عَلَى الْعِطْرِ شَيْئًا، إِنْ فَاتَنِي رِبْحُهُ مَا فَاتَنِي رِيحُهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن شيئًا مِن فوائد بيع العطر.

البيان والبلاغة: قوله: (لو كنت تاجرًا) (لو) للتمنِّي، ولا يريد بها عمر رضي الله عنه حقيقة التمنِّي، وإنَّما مجرَّد الإخبار، واستعمال الفعل (اخترتُ) بصيغة الماضي فيه إشارة إلى أنَّ الأمر يقينِيٌّ عنده، وتنكير (شيئًا) في سياق النفي يفيد العموم. وجملة (إن فاتني ربحه ما فاتني ريحه) جواب لسؤال محذوف، تقديره: (لِمَ تختارُ الاتِّجار بالعطر؟)، وبين (ربحه) و(ريحه) جناس ناقص.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (٢٥١).

[١١١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

وَقَدْ قِيلَ لَهُ: لَوْ فَضَّلْتَ مَنْ بَعُدَتْ دَارُهُ عَلَى مَنْ قَاتَلَ الْعَدُوَّ بِفِنَائِهِ

«وَكَيْفَ أُفَضِّلُهُمْ عَلَيْهِمْ عَلَى بُعْدِ دَارِهِمْ، وَهُمْ شَجَنُ الْعَدُوِّ! وَمَا سَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ حَتَّى اسْتَطَبْتُهُمْ، فَهَلَّا فَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ بِالْأَنْصَارِ إِذْ قَاتَلُوا بِفِنَائِهِمْ مِثْلَ هَذَا!»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: الشَجَن: الهمُّ والحزن.

مقتضى الحال: يخاطب مِن اقترح عليه تفضيل المقاتلين الذين بعُدت دارهم عن العدوِّ على مَن اقتربوا منهم في العطاء.

البيان والبلاغة: قوله: (**وكَيْفَ أُفَضِّلُهم عَلَيْهِمْ على بُعدِ دارِهم، وَهُمْ شَجَنُ الْعَدُوِّ**) هذا الاستفهام إنكاري، وفيه تعجُّب مِن قولهم؛ قابلهم عمر رضي الله عنه بهذا الأسلوب لإنكار ما قالوا. وقوله: (وهم شجَن العدوِّ) سمَّى المقاتلين للعدو القريبين منهم بالشجن لأنَّهم يسبِّبون للعدوِّ الهمَّ والحزن، فهذه العبارة (شجَن العدوِّ) فيها إيجاز قِصَر؛ إذ هي قليلة الألفاظ كثيرة المعاني، فهي تعني أنَّ مَن قاتل العدوَّ بفنائه لقرب داره منه يُعدُّ مصدر همٍّ وحزَنٍ للعدوِّ؛ لأنَّ العدو يخشى مِن إغارته عليه في كلِّ لحظة، فلا يغمض له جفن ولا تنام له عين بسبب قربه منه. وقوله: (**وما سَوَّيتُ**

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٦٨، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٣١٥.

بينهم حتى استطبتهم) هذه العبارة فيها إيجاز حذف، والتقدير: (ما سوَّيت بين مَن بعُدت داره مِن العدوِّ ومَن قرُبت منه في الأعطيات حتَّى استطبتُ نفوسهم في ذلك) وقوله: (**فَهَلَّا فَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ بِالْأَنْصَارِ إذ قاتلوا بفنائهم مثل هَذَا!**) ختم إنكاره بهذه الحجَّة مِن خلال تشبيه ضمني، وهو أنَّ الأنصار قاتلوا العدوَّ بفناء دارهم، والمهاجرون كانت ديارهم بعيدة مِن العدوِّ، ومع ذلك لم يفضِّل النبيُّ ﷺ المهاجرين على الأنصار في الأعطيات، ولم يطالب المهاجرون بتفضيل أنفسهم في الأعطيات على الأنصار، فشبَّه عمر حاله في تسوية مَن قاتل العدو بفناء داره مع مَن بعُدت داره مِن العدوِّ بحال النبي ﷺ في التسوية بين المهاجرين والأنصار، وعليه فلا ينبغي لمن بعُدت داره مِن العدوِّ أن يطالب بتفضيل نفسه على مَن قاتل العدوَّ بفنائه.

[١١٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا شَيْءٌ أَحْسَنَ وَلَا أَنْفَعَ مِنْ كَلَامٍ[١]، حَلَلْتُ إِزَارِي وَأَخَذْتُ مَضْجَعِي، فَسَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الْمَنْزِلِ خُذُوا مِنْ دُنْيَا فَانِيَةٍ لِآخِرَةٍ بَاقِيَةٍ، وَاخْشَوُا الْمَعَادَ إِلَى اللهِ فَإِنَّهُ لَا قَلِيلَ مِنَ الأَجْرِ، وَلَا غِنَى عَنِ اللهِ تَعَالَى، وَلَا عَمَلَ بَعْدَ الْمَوْتِ، أَصْلَحَ اللهُ أَعْمَالَكُمْ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتحدَّث عن أثر الكلامِ الصالحِ الذي فيه تذكيرٌ بالآخرة.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا شَيْءٌ أَحْسَنُ وَلا أَنْفَعُ مِنْ كَلامٍ**) زاد (لا) في (ولا أنفع) لتوكيد النفي، ونكَّر (كلام) للتعظيم، وأبهمه وترك وصفه ليجلب انتباه السامع ويستثير ذهنه ليعرف بالتأمُّل وصفه، فيستقر في ذهنه، وقد بيَّن وصف هذا الكلام حين ساق قول القائل، وكأنَّه يقول: (ما شيءٌ أحسنُ ولا أنفعٌ مِن كلامٍ كالذي قاله هذا القائل). وقوله: (**حَلَلْتُ إِزَارِي وَأَخَذْتُ مَضْجَعِي**) ذكر حاله ليبيِّن تثبُّته ممَّا حصل معه في تلك الحادثة. وقوله: (**فَسَمِعْتُ قَائِلاً يَقُولُ**) الفاء في (فسمعت) فصيحة تشير إلى محذوف، والتقدير: (فنمتُ فسمعتُ قائلًا يقول في المنام). وتنكير

١- يريدُ: لا شيءَ أحسنُ ولا أنفعُ للمرءِ مِن كلامٍ فيه العِظةُ، ينفعُه في الدُّنيا، ويُذكِّرُه بالآخرةِ، كما بيَّن ذلك هو بنفسِه - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - في كلامٍ آخرَ له.

٢- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧٠.

(قائلًا) لعدم الحاجة إلى تعيين الفاعل؛ إذا العبرة بأن يعرف المخاطَب ما قال ذلك القائل. وقوله: (**السَّلامُ عَلَى أَهْلِ الْمَنْزِلِ، خُذُوا مِنْ دُنْيَا فَانِيَةٍ لآخِرَةٍ بَاقِيَةٍ، وَاخْشَوُا الْمَعَادَ إِلَى اللهِ؛ فَإِنَّهُ لا قَلِيلَ مِنَ الأَجْرِ، وَلا غِنًى عَنِ اللهِ تَعَالَى، وَلا عَمَلَ بَعْدَ الْمَوْتِ، أَصْلَحَ اللهُ أَعْمَالَكُمْ**) هذا الكلام هو ما قاله القائل الذي رآه عمر رضي الله عنه في منامه، وغالبُ الظنِّ أنَّه نقله بحروفه كما سمعه مِن ذلك القائل.

[١١٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّ ابْنَةً لِي وُئِدَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَإِنِّي اسْتَخْرَجْتُهَا فَأَسْلَمَتْ، فَأَصَابَتْ حَدًّا، فَعَمَدَتْ إِلَى الشَّفْرَةِ فَذَبَحَتْ نَفْسَهَا، فَأَدْرَكْتُهَا وَقَدْ قَطَعَتْ بَعْضَ أَوْدَاجِهَا فَدَاوَيْتُهَا فَبَرَأَتْ، ثُمَّ إِنَّهَا نَسَكَتْ فَأَقْبَلَتْ عَلَى الْقُرْآنِ فَهِيَ تُخْطَبُ إِلَيَّ فَأُخْبِرُ مِنْ شَأْنِهَا بِالَّذِي كَانَ؟ فَقَالَ عُمَرُ: «تَعْمِدُ إِلَى سَتْرٍ سَتَرَهُ اللهُ فَتَكْشِفُهُ؟ لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ ذَكَرْتَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهَا لَأَجْعَلَنَّكَ نَكَالًا لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ، بَلْ أَنْكِحْهَا نِكَاحَ الْعَفِيفَةِ الْمُسْلِمَةِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب رجلًا وقعت ابنته في معصية توجب حدًّا فأرادَ كشف أمرها لخاطبيها.

البيان والبلاغة: قوله: (**تَعْمَدُ إِلَى سَتْرٍ سَتَرَهُ اللهُ فَتَكْشِفُهُ؟**) هذا السؤال للإنكار والتوبيخ، وتنكير (ستر) للتعظيم، وزاد مِن تعظيمه حين وصفه بقوله: (ستره الله). وقوله: (**لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ ذَكَرْتَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهَا لَأَجْعَلَنَّكَ نَكَالًا لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ**) أكَّد كلامه بقَسَم مقدَّر دلَّ عليه بلام القَسَم، ونكَّر (شيئًا) للتعيين؛ أي: شيئًا يسوؤها، وأكَّد جواب القَسَم باللام ونون التوكيد. وقوله: (**بَلْ أَنْكِحْهَا نِكَاحَ الْعَفِيفَةِ**

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٠٦٩٠)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» ٢/ ٦٤٧، والحارثُ في «المُسنَدِ» كما في «بُغية الباحثِ» (٥٠٧) واللَّفظُ له.

المُسْلِمَةِ) الإضراب بـ(بل) هنا للفعل الذي قام به الرجل؛ نزَّل عمر فعلَ الرجل منزلة الكلام، فاستعمل (بل) للإضراب عنه. ووصف النكاح بنكاح (العفيفة المسلمة) للتقييد به وإخراج ما سواه.

[١١٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ[١]، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ[٢]، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو[٣]، وَغَيْرِهِمْ، وَقَدِ اسْتَنْكَرُوا إِعْطَاءَهُ غَيْرَهُمْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ

«إِنِّي إِنَّمَا أَعْطَيْتُكُمْ عَلَى السَّابِقَةِ فِي الْإِسْلَامِ، لَا عَلَى الْأَحْسَابِ»[٤].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب بعضَ كبراء قريش بعد أن أسلموا واعترضوا على إعطاء غيرهم أكثر منهم.

١- صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ الجُمَحِيُّ القرشيُّ، كانَ مِن كبراءِ قريشٍ، قُتِل أبوه معَ أبي جهلٍ، وأسلمَ بعدَ الفتحِ، وروى أحاديثَ، وحسُن إسلامُه، وشهِد اليرموكَ أميرًا على كُرْدُوسٍ. تُوفِّي سنةَ إحدى وأربعينَ. «سيرِ أعلامِ النُّبلاءِ» ٢/ ٥٦٢-٥٦٣.

٢- الحارثُ بنُ هشامٍ المخزوميُّ القرشيُّ، أخو أبي جهلٍ، فأسلمَ يومَ الفتحِ، وحسُن إسلامُه، وكان خيِّرًا، شريفًا، كبيرَ القدرِ. وهو الَّذي أجارتْهُ أمُّ هانئٍ، فقالَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ-: «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ». أعطاهُ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ- مِن غنائمِ حُنَينٍ مِئةً مِن الإبلِ. استُشهِدَ بالشَّامِ معَ مَن استُشهِدَ في طاعونِ عَمَوَاسَ، سنةَ ثماني عشْرَةَ. «سير أعلام النُّبلاءِ» ٤/ ٤١٩.

٣- سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو العامريُّ القرشيُّ، كان خطيبَ قريشٍ، وفصيحَهم، ومِن أشرافِهم. لمَّا أقبلَ في شأنِ الصُّلحِ، قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ-: «سَهُلَ أَمْرُكُمْ». تأخَّر إسلامُه إلى يومِ الفتحِ، ثمَّ حسُن إسلامُه. وكان قد أُسِرَ يومَ بدرٍ، وتخلَّصَ. وكان سمحًا، جوادًا، مُفوَّهًا. وقد قام بمكَّةَ خطيبًا عندَ وفاةِ رسولِ الله -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ- بنحوٍ مِن خطبةِ الصِّدِّيقِ بالمدينةِ، فَسَكَّنهم، وعظَّمَ الإسلامَ. استشهد يومَ اليرموكِ أو في طاعونِ عَمَوَاسَ. «سير أعلام النُّبلاء» ١/ ١٩٤-١٩٥.

٤- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٦١٣، وابنُ عساكرَ في «تاريخ دمشقَ» ١١/ ٥٠١ و٢٤/ ١١٩، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٩٤، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٣٣١.

البيان والبلاغة: بدأ مع المخاطَبين الكلامَ بـ(إنَّ) واستخدم أسلوب القصر لقلب ما يعتقدون، فهم ظنُّوا أنَّ الأعطيات تكون بحسب الأحساب، فبيَّن لهم أنَّها إنَّما تكون بحسب السابقة في الدخول في الإسلام، والقصر هنا حقيقي تحقيقي. وحذف المفعول الثاني لـ(أعطيتكم) لعلم المخاطَب به، وفي قوله: (على السابقة في الإسلام) إيجاز حذف، والتقدير: (على السابقة في الدخول في الإسلام).

[١١٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَيْسَ الْعَاقِلُ الَّذِي يَحْتَالُ لِلْأَمْرِ إِذَا وَقَعَ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَحْتَالُ لِئَلَّا يَقَعَ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يعطي نصيحة عامَّة للناس.

البيان والبلاغة: بدأ نصيحته بالنفي، ليكون أوَّل ما يتلقَّاه السامع، ليعلم أنَّ صفة العاقل منفية عن مَن احتال للأمر إذا وقع فيه، فتتشوَّق نفسه ليعلم مَن يستحقُّ هذا الصفة. و(أل) الداخلة على (العاقل) لاستغراق الصفة، أي الكامل في العقلانية. وقوله: (للأمر) أبهم هذا الأمر ليعمَّ كلَّ أمر. وقوله: (ولكنَّه الذي يحتال لئلَّا يقع) استعملَ الاسم الموصول (الذي) ليصف المقصود بما تضمَّنته جملة الصلة، وحذف الجار والمجرور (فيه) المتعلِّق بالفعل (يقع) لدلالة الأوَّل عليه.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧٠.

[١١٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَأَبِي أَيُّوب، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ[١]

«إِنَّ إِخْوَانَكُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ قَدِ اسْتَعَانُونِي بِمَنْ يُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَيُفَقِّهُهُمْ فِي الدِّينِ، فَأَعِينُونِي - رَحِمَكُمُ اللهُ - بِثَلَاثَةٍ مِنْكُمْ؛ إِنْ أَجَبْتُمْ فَاسْتَهِمُوا، وَإِنِ انْتَدَبَ ثَلَاثَةٌ مِنْكُمْ فَلْيَخْرُجُوا، فَقَالُوا: مَا كُنَّا لِنَتَسَاهَمَ؛ هَذَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، لِأَبِي أَيُّوبَ، وَأَمَّا هَذَا فَسَقِيمٌ، لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، فَخَرَجَ مُعَاذٌ وَعُبَادَةُ وَأَبُو الدَّرْدَاءِ، فَقَالَ عُمَرُ: ابْدَؤُوا بِحِمْصَ؛ فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ النَّاسَ عَلَى وُجُوهٍ مُخْتَلِفَةٍ، مِنْهُمْ مَنْ يُلَقَّنُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَوَجِّهُوا إِلَيْهِ طَائِفَةً مِنَ النَّاسِ، فَإِذَا رَضِيتُمْ مِنْهُمْ فَلْيَقُمْ بِهَا وَاحِدٌ وَلْيَخْرُجْ وَاحِدٌ إِلَى دِمَشْقَ وَالْآخَرُ إِلَى فِلَسْطِينَ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب عددًا مِن فقهاء الصحابة رضي الله عنهم العالِمين بكتاب الله تعالى يطلبُ منهم الذهاب إلى الشام لتعليم الناس كتابَ الله وتفقيهِهم في الدِّين.

لطائف لغوية: الفعل (استعان) تعدَّى بنفسه في قول عمر رضي الله عنه (قد استعانوني)

١- وهم خمسةٌ مِن الأنصارِ جمعوا القرآنَ على عهدِ رسولِ الله -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ-.

٢- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٢/ ٣٥٦، وابنُ عساكرَ في «تاريخ دمشقَ» ٢٦/ ١٩٤.

ومثله ما عن النبي ﷺ في افتتاح خطبه: «**إِنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ ..**»[1]، ويتعدَّى بالباء كما في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ إِخْوَانَكُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ قَدِ اسْتَعَانُونِي بِمَنْ يُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَيُفَقِّهُهُمْ فِي الدِّينِ؛ فَأَعِينُونِي رَحِمَكُمُ اللهُ بِثَلَاثَةٍ مِنْكُمْ، إِنْ أَجَبْتُمْ فَاسْتَهِمُوا، وَإِنِ انْتَدَبَ ثَلَاثَةٌ مِنْكُمْ فَلْيَخْرُجُوا**) بدأ كلامه بالدخول في بيان مقصده مِن غير تقدمة، وكأنَّ الأمر لا يحتمل تأخيرًا، واستعمل أسلوب التوكيد لتقرير كلامه، فبدأ بـ(إنَّ) وأدخل (قد) على الفعل (استعانوا) لتحقيق ثبوته. وفي قوله: (فأعينوني - رحمكم الله - بثلاثة منكم) جاء بالجملة المعترضة (رحمكم الله) للتحبُّب وليكون طلبه أدعى للتَّلبية والإجابة. وفي قوله: (إن أجبتم فاستهِمُوا، وإن انتُدب ثلاثة منكم فليخرجوا) ذكر لهم حالين؛ إمَّا أن يستجيب خمستُهم لطلبه، وإمَّا أن ينتدب ثلاثة منهم، وقدَّم الحال الأولى في الذكر لظنِّه أنَّها الأقربُ والأنسبُ. وقوله: (**ابْدَؤُوا بِحِمْصَ؛ فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ النَّاسَ عَلَى وُجُوهٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ مِنْهُمْ مَنْ يُلَقَّنُ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَوَجِّهُوا إِلَيْهِ طَائِفَةً مِنَ النَّاسِ، فَإِذَا رَضِيتُمْ مِنْهُمْ فَلْيَقُمْ بِهَا وَاحِدٌ، وَلْيَخْرُجْ وَاحِدٌ إِلَى دِمَشْقَ، وَالْآخَرُ إِلَى فِلَسْطِينَ**) قدَّم ذكر حمص للمراعاة والاهتمام؛ إذ كانت أشدَّ حاجة مِن غيرها، وقد بيَّن ذلك بقوله: (فإنَّكم ستجدون الناسَ ...)، وفي قوله: (منهم مَن يُلقَّن) اكتفاء، والسياق يقتضي أن يقول: (منهم من يُلقَّن، ومنهم مَن لا يحتاج إلى ذلك)، فاكتفى بذكر الأهم لتنبيه المخاطَب إليه، وقوله: (فإذا رأيتم ذلك) استعمَلَ اسم الإشارة لتعيين المشار إليه ولفت انتباه المخاطَب إليه. وفي قوله: (فوجِّهوا إليه طائفة مِن الناس) أفرد الضمير (إليه) باعتبار مَن يحتاج إلى تلقين

١- : يُنظر: صحيح مسلم، حديث رقم (٨٦٨).

صنفًا واحدًا، فجعل الضمير عائدًا إليه بهذا الاعتبار، وفائدة ذلك معاملة أفراد هذا الصنف معاملة واحدة. وتنكير (طائفة) للتعيين. وقوله: (فإذا رضيتم منهم فليقم بها واحد) حذفَ المرضيَّ عنه لدلالة السياق عليه، والتقدير: (فإذا رضيتم عن القراءة منهم)، ونكَّر (واحد) ولم يقيِّده استغناءً بفهم المخاطَب، والتقدير: (فليقم بها واحد منكم)، وفُهم ذلك - أيضًا - مِن خلال استعماله لأسلوب التقسيم في قوله: (وليخرج واحدٌ إلى دمشقَ، والآخرُ إلى فلسطينَ) فبهذه القسمة يتمُّ عددهم.

[١١٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْفَيْءِ

«الْفَيْءُ لِأَهْلِ هَؤُلَاءِ الْأَمْصَارِ وَلِمَنْ لَحِقَ بِهِمْ وَأَعَانَهُمْ، وَأَقَامَ مَعَهُمْ وَلَمْ يُفْرَضْ لِغَيْرِهِمْ؛ أَلَا فَبِهِمْ سُكِنَتِ الْمَدَائِنُ وَالْقُرَى، وَعَلَيْهِمْ جَرَى الصُّلْحُ، وَإِلَيْهِمْ أُدِّيَ الْجَزَاءُ، وَبِهِمْ سُدَّتِ الْفُرُوجُ وَدُوِّخَ الْعَدُوُّ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ تَرَكْتَ فِي بُيُوتِ الْأَمْوَالِ عُدَّةً لِكَوْنٍ إِنْ كَانَ!

فَقَالَ عُمَرُ: كَلِمَةٌ أَلْقَاهَا الشَّيْطَانُ عَلَى فِيكَ وَقَانِي اللهُ شَرَّهَا، وَهِيَ فِتْنَةٌ لِمَنْ بَعْدِي، بَلْ أُعِدُّ لَهُمْ مَا أَمَرَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ طَاعَةً للهِ وَرَسُولِهِ، فَهُمَا عُدَّتُنَا الَّتِي بِهَا أَفْضَيْنَا إِلَى مَا تَرَوْنَ، فَإِذَا كَانَ هَذَا الْمَالُ ثَمَنَ دِينِ أَحَدِكُمْ هَلَكْتُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن لمن يُعطى الفَيء.

البيان والبلاغة: قوله: (**الْفَيْءُ لأَهْلِ هَؤُلاءِ الأَمْصَارِ وَلِمَنْ لَحِقَ بِهِمْ وَأَعَانَهُمْ، وَأَقَامَ مَعَهُمْ، وَلَمْ يُفْرَضْ لِغَيْرِهِمْ**) بيَّن مصرفَ الفَيء بجملة اسميَّة؛ لأنَّ هذ الأمر ثابت لا يتغيَّر، وأتى بهذه الجملة مِن غير مؤكِّدات؛ لأنَّ هذا الأمرَ مذكورٌ في القرآن الكريم، فلا يحتاج إلى توكيد، وقد أشار بقوله: (ولم يفرض لغيرهم) إلى أنَّ هذا الأمر فُرِض مِن عند الله تعالى، وبنى الفعل (فُرِض) لعلم المخاطَب أنَّ الله

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٦١٥، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٩٥، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٣٣٣.

تعالى هو الذي يفرض ويأمر. وقوله: (**أَلا فَبِهِمْ سُكِنَتِ الْمَدَائِنُ وَالْقُرَى، وَعَلَيْهِمْ جَرَى الصُّلْحُ، وَإِلَيْهِمْ أُدِّيَ الْجِزَاءُ، وَبِهِمْ سُدَّتِ الْفُرُوجُ وَدُوِّخَ الْعَدُوُّ**) ساق هذا الكلام ليبيِّن لِمَ كان الفَيء لأولئك المذكورين، واستفتح هذا التعليل بـ(ألا) لتنبيه المخاطَب، والفاء في قوله: (فبِهم) فصيحة تدلُّ على محذوف، وترَك عمرُ رضي الله عنه ذكره ليلفت انتباه المخاطَب ويشحذ ذهنه لمعرفة هذا المحذوف، ولعلَّ التقدير: (ألا إنَّهم هم المستحقُّون للفَيء؛ فبِهم سُكنت المدائن والقرى ...). وتقديمُ الجارِّ والمجرور في قوله: (فبِهم سُكنت المدائن) و(عليهم جرى الصُلح) و(إليهم أُدِّي الجزاء) و(بهم سُدَّت الفروج) للعناية والاهتمام، وفي ذلك - أيضًا - نوعُ حصرٍ، أي تحصَّل كلُّ ذلك بسببهم لا بسبب غيرهم. وبناء الأفعال (سُكِنت) و(أُدِّي) و(سُدَّت) و(دُوُّخ) للمفعول لحمل المخاطَب على تأمُّل حصول هذه الأحداث مِن غير نظر في معرفة فاعلها. وقوله: (**كَلِمَةٌ أَلْقَاهَا الشَّيْطَانُ عَلَى فِيكَ وَقَانِي اللهُ شَرَّهَا، وَهِيَ فِتْنَةٌ لِمَنْ بَعْدِي**) تنكير (كلمة) للتحقير والتهويل، وزاد في تهويلها حين قال: (ألقاها الشيطان على فِيك)؛ إذ شبَّه تلك الكلمة بشيء محسوس يلقيه الشيطان. وفي قوله: (وقاني الله شرَّها، وهي لمن بعدي فتنة) عدل عن أسلوب المقابلة؛ فلم يقل: (ولن يوقى مَن بعدي شرَّها) لئلَّا يُفهم عنه أنَّه يستعجل الشرَّ لمن بعده، وإنَّما قال: (وهي فتنة لمن بعدي) تحذيرًا منها. وقوله: (**بَلْ أُعِدُّ لَهُمْ مَا أَمَرَنَا اللهُ وَرَسُولَهُ طَاعَةً للهِ وَرَسُولِهِ، فَهُمَا عُدَّتُنَا الَّتِي بِهَا أَفْضَيْنَا إِلَى مَا تَرَوْنَ**) أتى بـ(بل) للإضراب عن القول الذي قاله ذلك الرجل. وفي قوله: (طاعةً لله ورسوله) أظهر في موضع الإضمار؛ إذ سبق ذكر (الله ورسوله)، وإنَّما أظهر هنا تبرُّكًا بإظهار اسمهما، وتأكيدًا لطاعتهما، كأنَّه يقول: (طاعةً لله الذي أمر بذلك في كتابه، وطاعةً لرسوله الذي عمل بذلك). وقوله: (فهما عدَّتُنا) جمع بين الله ورسوله في الضمير (هما) مع أنَّه

فصل بينهما حين أظهر في مقام الإضمار، وكلا الأمرين جائز. وقوله: (إلى ما ترون) استعمل الاسم الموصول (ما) الذي يفيد العموم ليشمل كل خير حصل لهم بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ. وقوله: (**فَإِذَا كَانَ هَذَا الْمَالُ ثَمَنَ دِينِ أَحَدِكُمْ هَلَكْتُمْ**) ختم كلامه بهذه الوصية التي حوت تشبيهًا ضمنيًّا؛ إذ شبَّه مَن حرص على كنز مال الفَيء وخالف أمر الله تعالى في توزيعه بمن باع دينه بالمال، ولكنَّه أتى بكلام عامٍّ للتحذير مِن بيع الدِّين بالمال ليكون هذا التحذير صالحًا لكلِّ أحد، وفي قوله: (هذا المال) استعمل اسم الإشارة لتحقير المشار إليه، ولا يقصد بذلك تعيين مال الفَيء، فـ(أل) الداخلة على (المال) لبيان حقيقة الجنس لا للعهد.

[١١٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الرِّبَا

«لَا يَشْتَرِ أَحَدُكُمْ دِينَارًا بِدِينَارَيْنِ، وَلَا دِرْهَمًا بِدِرْهَمَيْنِ، وَلَا قَفِيزًا بِقَفِيزَيْنِ؛ إِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الرَّمَاءَ[١]، وَإِنِّي لَا أُوتَى بِأَحَدٍ فَعَلَهُ إِلَّا أَوْجَعْتُهُ عُقُوبَةً فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الرَّماء): الزيادة، ويقصد الرِّبا.

مقتضى الحال: يحذِّر المسلمين مِن الرِّبا.

البيان والبلاغة: بدأ بالنهي مباشرة مِن غير تقدمة لخطورة الرِّبا فقال: (**لَا يَشْتَرِ أَحَدُكُمْ دِينَارًا بِدِينَارَيْنِ، وَلَا دِرْهَمًا بِدِرْهَمَيْنِ، وَلَا قَفِيزًا بِقَفِيزَيْنِ**)، ولم يسند الفعل (يشتري) للجمع، مع أنَّ المخاطَب جماعة المسلمين، وإنَّما قال: (لا يشترِ أحدُكم) فوجَّه النهي لكلِّ واحد مِن المسلمين، ليكون أبلغ في النَّهي، وذلك ليعلم كلُّ واحد أنَّ النهي موجه إليه خاصَّة. وتنكير (دينارًا) و(درهمًا) و(قفيزًا) للإفراد. وقوله: (**إِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الرَّمَاءَ**) قدَّم الجارَّ والمجرور (عليكم) على المفعول للعناية والاهتمام، وسمَّى الرِّبا بغير اسمه المعروف إشارة إلى أنَّ العِبرة بالحقيقة لا بالاسم،

١- يعني الرِّبا. والرَّماء بالفتحِ والمدِّ: الزِّيادةُ على ما يحلُّ. ويُروَى: الإرماء. يُقال: أَرْمَى على الشَّيءِ إِرْماءً؛ إذا زادَ عليهِ، كما يُقالُ: أَرْبَى. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (رمي).

٢- رواهُ الطَّحاويُّ في «شرحِ معاني الآثارِ» (٥٧٨١).

فقد يختلف الاسم مع بقاء المسمَّى فيبقى الحكم نفسه. وقوله: (**وَإِنِّي لَا أُوتَى بِأَحَدٍ فَعَلَهُ إِلَّا أَوْجَعْتُهُ عُقُوبَةً، فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ**) بناء الفعل (أوتى) للمفعول للتحذير مِن وقوعه بغضِّ النظر عن الفاعل، وتنكير (أحد) في سياق النفي لإفادة العموم؛ لتشمل العقوبة كلَّ مَن أقدم على الرِّبا مِن غير استثناء. والقصر في (إلا أوجعته عقوبةً) حقيقي تحقيقي. وقوله: (في نفسه وماله) تتميم وفائدته زيادة التخويف وتقرير العقوبة.

[١١٩]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ تَأْخُذَنِي عَلَى غِرَّةٍ، أَوْ تَذَرَنِي فِي غَفْلَةٍ، أَوْ تَجْعَلَنِي مِنَ الْغَافِلِينَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يدعو الله تعالى ويستعيذ به.

البيان والبلاغة: يخاطِب عُمَر ربَّه - عزَّ وجلَّ -، ويستعيذ به مِن ثلاث، وقد بدأ دعاءه بنداء الله تعالى بقوله: (اللهمَّ) ليكون دعاؤه موجَّهًا إلى الله تعالى لا إلى غيره. واستعمل الفعل (أعوذ) بصيغة المضارع إشارة إلى أنَّه مستمرٌّ في الاستعاذة لا ينقطع عنها ولا يفتر. وفي قوله: (على غِرَّة) حذف متعلِّق غِرَّة، والتقدير: (على غِرَّة منِّي). وحرف الجر (في) في قوله: (في غفلة) للظرفية المجازية؛ شبَّه الغفلة بوعاء يحيط بمَن كان فيه، فطلب عمر ألا يُترك في هذا الوعاء. وتنكير (غِرَّة) و(غفلة) للتحقير، وبين (تأخذني) و(تذرني) طباق. وقوله: (أو تجعلني مِن الغافلين) أكَّد طلبه في البعد عن الوقوع في الغفلة بهذه الجملة.

١- رواهُ الضَّبِّيُّ في «الدُّعاءِ» (٧٣)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٠١٣١) و(٣٥٥٩٣)، وأبو نُعَيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥٤.

[١٢٠]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

«اللَّهُمَّ حَبِّبْنِي إِلَيْهِمْ وَحَبِّبْهُمْ إِلَيَّ، وَلَيِّنِّي لَهُمْ وَلَيِّنْهُمْ لِي»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يدعو الله تعالى ويطلب منه أن يحبِّبه إلى رعيَّته ويحبِّبهم إليه.

البيان والبلاغة: يخاطِب عُمر ربَّه - عزَّ وجلَّ -، يطلب منه أن يؤلِّف بينه وبين رعيَّته، فدعا بأمرين، المحبَّة واللِّين، ففي المحبَّة بدأ بالرعيَّة أن يوقع الله محبَّته في قلوبهم، ثم أن يوقع محبَّتهم في قلبه، وفي اللِّين عَكَس، فبدأ بنفسه وطلب أن يليِّنه الله لهم، ثم أن يُليِّنهم له، فبدأ بالأهمِّ في الحالين: ففي المحبَّة قدَّم طلبَ محبَّتهم له؛ لأنَّ محبَّتهم له توجب عليهم طاعته واستجابة أمره، فيسهل عليه سياستهم، وأمَّا في اللِّين فبدأ بنفسه؛ لأنَّ لينه معهم يوجب عليه الرِّفق بهم والسعي إلى توفير مطالبهم وراحتهم والحرص على مصالحهم.

١- رواهُ ابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٨٥٨.

[١٢١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ سَأَلَ النَّاسَ: كَيْفَ يَصْنَعُ بِكُمُ الْحَبَشَةُ إِذَا دَخَلْتُمْ أَرْضَهُمْ؟

فَقَالُوا: يَأْخُذُونَ عُشْرَ مَا مَعَنَا

قَالَ عُمَرُ: «فَخُذُوا مِنْهُمْ مِثْلَ مَا يَأْخُذُونَ مِنْكُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يسأل الناس عن معاملة الحبشة لهم إذا دخلوا أرضهم بمال للتجارة.

البيان والبلاغة: قوله: (**كيف يصنعُ بكم الحبشةُ إذا دخلتم أرضَهم؟**) سأل بقوله: (كيف يصنع بكم) وهو أعمُّ مِن أن يقول: (ما يأخذ منكم)، إذ سؤاله بـ(كيف يصنع بكم) يشمل كلَّ معاملة يُبديها لهم أهل الحبشة، فأراد أن يعرف ذلك لتكون معاملته لهم بالمثل. وقوله: (**فَخُذُوا مِنْهُمْ مِثْلَ مَا يَأْخُذُونَ مِنْكُمْ**) استخدم أسلوب التشبيه بـ(مثل) ليبيِّن للمخاطَبين كيف يعاملون أهل الحبشة بعبارة موجزة واضحة، ولتكون هذه العبارة قاعدة يرجعون إليها إن اختلفت معاملة أهل الحبشة، ولتصلح للتطبيق مع غير أهل الحبشة.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٠١٢١).

[١٢٢]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

فِي كَرَاهَةِ مُدَاوَمَةِ أَكْلِ اللَّحْمِ

«إِيَّاكُمْ وَاللَّحْمَ؛ فَإِنَّ لَهُ ضَرَاوَةً كَضَرَاوَةِ الْخَمْرِ[١]»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (ضراوة): عادة وإدمان.

مقتضى الحال: يحذِّر مِن مداومة أكل اللَّحم.

البيان والبلاغة: استخدم (إيَّا) للتحذير مِن أكل اللَّحم مطلقًا، ثمَّ قيَّد هذا الإطلاق حين بيَّن علَّة التحذير، وهي أنَّ مَن اعتاد أكل اللحم أدمن عليه كالإدمان على شرب الخمر، ففهم مِن ذلك أنَّ التحذير ليس مِن أكل اللحم مطلقًا، وإنَّما مِن مداومة أكله. وفائدة هذا الإطلاق أن يكون للتحذير وقْع في أذن السامع، وذلك أنَّ التحذيرَ مِن أكل اللحم حين يقرع أُذنَ السامع تتلهَّف نفسه لمعرفة السبب، لا سيَّما حين تكون النفس مجبولة على حبِّ أكله، فإذا سمع سبب التَّحذير استقرَّ ذلك في نفسه. وقد شبَّه الإدمان الحاصل مِن مداومة أكل اللحم بالإدمان الحاصل مِن شُرب الخمر للتهويل والتخويف.

١- أي إنَّ له عادةً ينزِعُ إليها كعادةِ الخمرِ. وقالَ الأزهريُّ: أراد أنَّ لهُ عادةً طلَّابةً لأكلِه، كعادةِ الخمرِ معَ شاربِها، ومَن اعتادَ الخمرَ وشرِبها؛ أسرفَ في النَّفقةِ ولم يترُكها، وكذلك مَنِ اعتادَ اللَّحم لم يكدْ يصبرُ عنه، فدخلَ في دأبِ المُسرِفِ في نفقتِه. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (ضرو).

٢- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّا» (٣٤٥٠)، والمعافى بنُ عمرانَ في «الزُّهدِ» (٢٦٢)، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (٤٧) واللَّفظُ له، وابنُ أبي الدُّنيا في «الجوعِ» (٢٨٢).

[١٢٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِأَبِي حَثْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ[١] وَقَدْ بَعَثَهُ لِخَرْصِ تَمْرِ خَيْبَرَ

«دَعْ لَهُمْ قَدْرَ مَا يَقَعُ، وَقَدْرَ مَا يَأْكُلُونَ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب أبا حَثْمة الأنصاري يبيِّن له كيف يخرص تمر خيبر.

البيان والبلاغة: بيَّن لأبي حَثْمة كيف يخرص التمر بعبارة موجزة؛ إذ طلب منه أن يترك لهم قدر ما يقع مِن النخل وقدر ما يأكلون، ففهم مِن ذلك أن الخرص يكون لما عدا ذلك. واستعمل الفعلين (يقع) و(يأكلون) بصيغة المضارع لينبِّه أبا حَثْمة إلى أن يقدِّر ما يقع مِن التمر طول موسم التمر وما يأكلون طول هذا الموسم، لا أن يقدِّر ما يحصل مِن ذلك في أوَّل الموسم، لأنَّ في هذا الثاني إجحافًا بأهل التمر.

١- أبو حَثْمَةَ بنُ ساعدةَ بنِ عديٍّ الأنصاريُّ الأوسيُّ الحارثيُّ، شهِد أحدًا معَ رسولِ الله -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ- وكانَ دليلَه إلى أُحُدٍ، وشهِد معَه خيبرَ، وأعطاه بخيبرَ سهمَه وسهمَ فرسِه، وشهِد المشاهدَ بعدَ خيبرَ، وكانَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ- وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ يبعثونه خارصًا، وتُوفِّي أوَّلَ مُلْكِ مُعاويةَ. «أسد الغابة» ٦/ ٦٦، و«الإصابة» ٧/ ٧٢-٧٣.

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٧٢٢١)، والقاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (١٤٤٩)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٠٦٦٣)، والطَّحاويُّ في «شرحِ معاني الآثارِ» (٣٠٩٨)، والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (١٤٦٥)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٧٤٤٦).

[١٢٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّ سَعْدًا قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ أَلْحَقْتُهُ فِي الْعَيْنِ»

«أُفٍّ أُفٍّ، أَيُعْطَى عَلَى كِتَابِ اللهِ؟!»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (ألحقته في العين) يعني: ألحقته في إعطاء العطية.

مقتضى الحال: يعرب عن تضجُّره حين بلغه أنَّ سعدًا رضي الله عنه يَعِد مَن يحفظ القرآن بإعطاء العطيَّة.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه باسم الفعل (أُفٍّ) ليبيِّن تضجُّره ممَّا بلغه، ثم كرَّر هذا اللَّفظ لتقرير تضجُّره، والاستفهام في: (أيُعطى على كتاب الله؟) للتعجُّب والإنكار، ووجه الإنكار أنَّ مَن يريد حفظ القرآن لا ينبغي له أن ينتظر عطيَّة مِن أحد؛ فما أعدَّه الله تعالى لحافظ القرآن خير له. وقد بنى الفعل (يُعطى) للمفعول، وحذف المفعول الثاني ليشمل الإنكار كلَّ عطيَّة.

١- رواهُ القاسمُ بنُ سلَّامٍ في «فضائلِ القرآنِ» ١/ ٢٠٩.

[١٢٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُما - وَهُمَا مُحْرِمَانِ

«تَعَالَ أُبَاقِيكَ فِي الْمَاءِ، أَيُّنَا أَطْوَلُ نَفَسًا»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب ابن عبّاس رضي الله عنهما يطلب منه أن يتنافس معه أيُّهما أطول نفسًا تحت الماء، وابن عبَّاس رضي الله عنهما أصغر مِن عمر بنحو أربعين سَنة.

البيان والبلاغة: يخاطب عمرُ - وهو أحد عظماء المسلمين سنًّا وقدرًا - ابنَ عبَّاس بعبارة لطيفة، فيقول: (تعال أباقيك في الماء) فاستعمال الفعل (أباقيك) بصيغة تدلُّ على المشاركة، لكنَّه أسند الفعل لنفسه، ولم يقل له: (باقني في الماء)، تواضعًا منه رضي الله عنه وليبيِّن له أنَّه هو مَن يرغب في منافسته. وجملة (أيُّنا أطول نفَسًا) جملة تفسيريَّة توضِّح سبب مقصد الطلب في الجملة التي قبلها، وفي قوله: (أيُّنا) استعمل (أيُّ) التي تفيد الإبهام؛ إذ لا يدري عُمر مَن أطول نفسًا، ليحثَّ ابن عبَّاس على قبول هذه المنافسة.

١- رواهُ الشَّافعيُّ في «المُسنَدِ» (٨٦١)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٩١٣٤)، وصحَّحه الحافظُ ابنُ كثيرٍ في «مسندِ الفاروقِ» ١/ ٣٠٦.

[١٢٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا يَرْكَبَنَّ الدَّابَّةَ فَوْقَ اثْنَيْنِ، وَلَا تَرْكَبُوا عَلَى مُسُوكِ[١] السِّبَاعِ، وَعَلَيْكُمْ بِالْأُزْرِ وَالْبِغَالِ، وَبِالسِّوَاكِ، وَتَقْلِيمِ الْأَظَافِرِ، وَقَصِّ الشَّوَارِبِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (مسوك): جمع (مَسك) وهو الجلد.

مقتضى الحال: ينهى عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ المسلمين عن أمور ويأمر بالتزام أمور، وأكثر هذه الأمور واردة عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

البيان والبلاغة: قوله: (**لا يَرْكَبَنَّ الدَّابَّةَ فَوْقَ اثْنَيْنِ**) أسند الفعل (يركبنَّ) للغائب لئلَّا يختص النهي بمخاطَب بعينه، فالنهي عامٌّ، وأكَّد النَّهي حين ألحق نون التوكيد الثقيلة بالفعل، وقوله: (فوق اثنين) يشمل كلَّ عدد فوق الاثنين، وقد روي عن النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه نهى أن يركب ثلاثة على دابَّة[٣]. وقوله: (**وَلا تَرْكَبُوا عَلَى مُسُوكِ السِّبَاعِ**) هنا التفت عمر في الفعل (تركبوا) إلى ضمير المخاطَب بعد أن أسند الفعل (يركبنَّ) للغائب، وفائدة هذا الالتفات أنَّ النهي في الأوَّل لكلِّ أحد مِن المسلمين وغيرهم؛ لما يلحق بالدابَّة المركوبة مِن ضرر، أمَّا النهي عن ركوب مسوك السباع فخاصٌّ بالمسلمين، فقد نهى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن لبس جلود السباع وافتراشها والركوب

١- المُسُوك: الجلود.

٢- رواه البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧٠.

٣- رواه الطبراني في الأوسط عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ (ح٧٥١٢)، وضّعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (ح٤٩٣).

عليها[١]، وإنَّما نهى عمر عن ركوب مسوك السباع مع أنَّ النهي ورد عن كلِّ انتفاع بها لأنَّ الركوب عليها كان أكثر ما يُنتفع به منها. وقوله: (**وَعَلَيْكُمْ بِالأُزْرِ وَالْبِغَالِ وَبِالسِّوَاكِ وَتَقْلِيمِ الأَظَافِرِ، وَقَصِّ الشَّوَارِبِ**) استعمل اسم فعل الأمر (عليكم) لبيان لزوم هذه المأمورات، وقد أدخل باء التعدية على (الأزر) وعلى (السواك) ليشير إلى أنَّ (الأزر) وما عطف عليها لها حكم، ثم (السواك) وما عطف عليه له حكم آخر. فقوله: (عليكم بالأزر والبغال) لعلَّ التقدير: (عليكم بالاهتمام بالأزر والبغال)، وقد يكون سبب الجمع بينهما أنَّهما مِن مظاهر الزينة. وأمَّا قوله: (وبالسواك وتقليم الأظافر وقصِّ الشارب) فالتقدير: (عليكم بتعاهد استعمال السواك وتقليم الأظافر وقصِّ الشارب) فهذه الثلاثة مِن سُنن الفِطرة الوارد الأمر بها، فقد ذكر النبي ﷺ عشرةً مِن الفِطرة، وذكر منها: «**السِّواكَ، وقَصَّ الشَّارِبِ، وتَقْلِيمَ الأَظْفارِ**»[٢].

١- يُنظر: سنن أبي داود (ح٤١٣١)، وسنن النسائي (ح٤٢٥٥)، وجامع الترمذي (ح١٧٧٠).
٢- صحيح مسلم (ح٢٦١)، وسنن النسائي (ح٥٤١).

[١٢٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا تُسَمُّوا الْحَكَمَ، وَلَا أَبَا الْحَكَمِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَلَا تُسَمُّوا الطَّرِيقَ السِّكَّةَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينبِّه عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى أمرين مِن المناهي اللَّفظيَّة، وردَ النهي عن الأوَّل منها عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَا تُسَمُّوا الْحَكَمَ، وَلَا أَبَا الْحَكَمِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ**) وجَّه عمر هذا النَّهي لكلِّ مخاطَب مِن المسلمين، وهذا النهي جاء عن النبي - صلى عليه وسلم -، فقد ورد أنَّه لما وفد إليه هانئ بن يزيد المذحجي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مع قومه سمعهم يُكنونه أبا الحكم، فدعاه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ، فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ؟**» فقال: إنَّ قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟**» قال: لي شُرَيح ومسلم وعبد الله. قَالَ: «**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**» قال: شُريح. «**فَأَنْتَ أَبُو**

١- رواه عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٩٨٥٩)، وشطرُه الأَوَّلُ رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧٠.

شُرَيْحٍ»[١]. فالنهي الذي أتى به عمر رضي الله عنه استنبطه مِن الحديث واقتبس علَّة الحكم مِن لفظ النبي صلى الله عليه وسلم. وقوله: (**وَلَا تُسَمُّوا الطَّرِيقَ السِّكَّةَ**) لم يذكر علَّة النهي هنا، والسِّكَّة في اللغة: السطر المصطفُّ مِن الشجر والنخيل، ويطلَق هذا اللفظ مجازًا على الطريق المستوي مِن الأزقَّة، ولا يظهر سبب نهي عمر رضي الله عنه عن تسمية الطريق بالسِّكَّة.

١- رواه أبو داود (ح٤٩٥٥)، والنسائي (ح٥٣٨٧)، وابن حبّان (ح٥٠٤)، والحاكم (ح٦٢).

[١٢٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لجَمْعٍ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَقَدْ طَلَبَهُمْ لِلْمَشُورَةِ

«إِنِّي لَمْ أُزْعِجْكُمْ إِلَّا لِأَنْ تَشْتَرِكُوا فِي أَمَانَتِي فِيمَا حُمِّلْتُ مِنْ أُمُورِكُمْ؛ فَإِنِّي وَاحِدٌ كَأَحَدِكُمْ، وَأَنْتُمُ الْيَوْمَ تُقِرُّونَ بِالْحَقِّ، خَالَفَنِي مَنْ خَالَفَنِي وَوَافَقَنِي مَنْ وَافَقَنِي، وَلَيْسَ أُرِيدُ أَنْ تَتَّبِعُوا هَذَا الَّذِي هَوَايَ، مَعَكُمْ مِنَ اللهِ كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ؛ فَوَاللهِ لَئِنْ كُنْتُ نَطَقْتُ بِأَمْرٍ أُرِيدُهُ مَا أُرِيدُ بِهِ إِلَّا الْحَقَّ».

قَالُوا: قُلْ نَسْمَعْ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ عُمَرُ: «قَدْ سَمِعْتُمْ كَلَامَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنِّي أَظْلِمُهُمْ حُقُوقَهُمْ. وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَرْكَبَ ظُلْمًا، لَئِنْ كُنْتُ ظَلَمْتُهُمْ شَيْئًا هُوَ لَهُمْ وَأَعْطَيْتُهُ غَيْرَهُمْ لَقَدْ شَقِيتُ؛ وَلَكِنْ رَأَيْتُ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ يُفْتَحُ بَعْدَ أَرْضِ كِسْرَى، وَقَدْ غَنَّمَنَا اللهُ أَمْوَالَهُمْ وَأَرْضَهُمْ وَعُلُوجَهُمْ، فَقَسَمْتُ مَا غَنِمُوا مِنْ أَمْوَالٍ بَيْنَ أَهْلِهِ، وَأَخْرَجْتُ الْخُمُسَ فَوَجَّهْتُهُ عَلَى وَجْهِهِ وَأَنَا فِي تَوْجِيهِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَحْبِسَ الْأَرَضِينَ بِعُلُوجِهَا، وَأَضَعَ عَلَيْهِمْ فِيهَا الْخَرَاجَ، وَفِي رِقَابِهِمُ الْجِزْيَةَ يُؤَدُّونَهَا فَتَكُونُ فَيْئًا لِلْمُسْلِمِينَ: الْمُقَاتِلَةِ، وَالذُّرِّيَّةِ، وَلِمَنْ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِمْ. أَرَأَيْتُمْ هَذِهِ الثُّغُورَ؟ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ رِجَالٍ يَلْزَمُونَهَا. أَرَأَيْتُمْ هَذِهِ الْمُدُنَ الْعِظَامَ؛ كَالشَّامِ، وَالْجَزِيرَةِ، وَالْكُوفَةِ، وَالْبَصْرَةِ، وَمِصْرَ؟ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَنْ تُشْحَنَ بِالْجُيُوشِ، وَإِدْرَارِ الْعَطَاءِ عَلَيْهِمْ. فَمِنْ أَيْنَ يُعْطَى هَؤُلَاءِ إِذَا

قُسِمَتِ الْأَرَضُونَ وَالْعُلُوجُ؟»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب جمعًا مِن المهاجرين والأنصار، يبيِّن لهم أمرًا اتُّهِمَ به ظُلْمًا.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي لَمْ أُزْعِجْكُمْ إلا لأَنْ تَشْتَرِكُوا فِي أَمَانَتِي فِيمَا حُمِّلْتُ مِنْ أُمُورِكُمْ**) بدؤه بهذا الكلام فيه براعة استهلال؛ إذ أشار في افتتاحه هذا إلى مضمون كلامه ومقصده. والقصر في قوله: (إلا لأن تشتركوا..) حقيقي تحقيقي. وقوله: (في أمانتي) سمَّى الخلافة أمانة لبيان حقيقتها، وأضافها إلى نفسه لبيان أنَّ هذه الأمانَة لزِمَته، ثمَّ لَمَّا كان في هذا التعبير نوع إبهام وضَّح ذلك بقوله: (فيما حُمِّلتُ مِن أموركم)، وبنى الفعل (حُمِّلتُ) للمفعول لأنَّ غرضه مِن الكلام ذكر الحَدَث مِن غير داعٍ لذكر الفاعل. وقوله: (**فَإِنِّي وَاحِدٌ كَأَحَدِكُمْ، وَأَنْتُمُ الْيَوْمَ تُقِرُّونَ بِالْحَقِّ، خَالَفَنِي مَنْ خَالَفَنِي وَوَافَقَنِي مَنْ وَافقنِي**) وجه الشبه في قوله: (واحد كأحدكم) هو أنَّ اجتهاده كاجتهادهم قد يكون مُصيبًا وقد يكون مخطئًا، فليس هو بمعصوم مِن الخطأ والزلل. وقوله: (وأنتم اليوم تقرُّون بالحقِّ) هذا الكلام فيه إيجاز بالحذف اعتمادًا على فهم المخاطَب، والتقدير: (فأنا أجتهد وأنتم اليوم تقرُّون بما وافقتُ الحقَّ في اجتهادي)، وكذا في قوله: (خالفني مَن خالفني ووافقني مَن وافقني) فيه إيجاز بالحذف، والتقدير: (ولست أبالي بعد ذلك؛ وافقني مَن وافقني وخالفني مَن خالفني)، واستعمال الاسم الموصول (مَن) في الموضعين لقصد الإبهام، لأنَّه لا يعنيه

١- رواهُ أبو يوسفَ في «الخراجِ» ص٣٥-٣٦.

شخص الموافق أو المخالف. وبين (وافقني مَن وافقني) و(خالفني مَن خالفني) مقابلة. وقوله: (**وَلَيْسَ أُرِيدُ أَنْ تَتَّبِعُوا هَذَا الَّذِي هَوَايَ؛ مَعَكُمْ مِنَ اللهِ كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ**) قوله: (ليس أريد) حذف اسم (ليس) وهو ضمير المتكلِّم لدلالة السياق عليه. وقوله: (هذا الذي هواي) استعمل اسم الإشارة لتحقير المشار إليه، وزاد في تحقيره حين استعمل الاسم الموصول (الذي) بدلًا منه وحذف صدر صلته، وصدر الصلة ضمير، والتقدير: (الذي هو هواي). وجملة (معكم مِن الله كتاب ينطق بالحقِّ) جملة تعليلية توضِّح سبب النفي الوارد في الجملة السابقة، وتقديم الجارِّ والمجرور (مِن الله) على المبتدأ (كتاب) لتنبيه المخاطَب إلى أنَّ هذا الكتاب مِن الله تعالى لا مِن غيره، ووصف هذا الكتاب بالجملة الفعلية (ينطق بالحق) إشارة إلى أنَّ هذا الكتاب صالح لكل زمان؛ فالفعل المضارع (ينطق) يدلُّ على الاستمرار، فالحدث الدالُّ عليه يتجدَّد بتجدُّد الزمان، وفي إسناد النطق إلى الكتاب مجاز؛ إذ الذي ينطق به هو القارئ، وإنَّما أسند النطق إلى الكتاب لأنَّ المنطوق لا يختلف باختلاف القارئ، فالعِبرة بما في هذا الكتاب. وقوله: (**فَوَاللهِ لَئِنْ كُنْتُ نَطَقْتُ بِأَمْرٍ أُرِيدُهُ مَا أُرِيدُ بِهِ إِلا الْحَقَّ**) أكَّد هذا الكلام بالقَسَم واللام لأنَّه اتُّهم بما يخالف هذا الذي قال، كما سيأتي في سياق الكلام. وتنكير (أمر) في سياق الشرط يفيد العموم، والقصر في (ما أريد به إلا الحقَّ) حقيقي تحقيقي. وقد حذف صدر جواب الشرط لدلالة السياق عليه، والتقدير: (لئن كنت نطقت بأمر أريده فإنِّي ما أريد به إلا الحقَّ).

وقوله: (**قَدْ سَمِعْتُمْ كَلامَ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنِّي أَظْلِمُهُمْ حُقُوقَهُمْ**) أدخل (قد) على الفعل الماضي (سمعتم) لبيان تحقُّق هذا الحدث، واستعمل اسم الإشارة (هؤلاء) لتعيين المشار إليه وتمييزه للمخاطَب، ووصف (القوم) بالاسم الموصول (الذي) بقصد وصفهم بما تضمَّنته جملة الصلة، وجاء بالفعل (أظلمهم) بصيغة المضارع إشارة إلى أنَّ أولئك القوم اتَّهموه بأنَّ ظلمه لهم تكرَّر غير مرَّة. وقوله: (**وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَرْكَبَ ظُلْمًا**) استعمل الفعل (أعوذ) بصيغ المضارع إشارة منه إلى أنَّه دائم الاستعاذة بالله مِن أن يظلم أحدًا. وتنكير (ظلمًا) للتقليل؛ كأنَّه يقول: (أستعيذ بالله مِن أن يقع مني قليل الظُّلم فضلًا عن كثيره). وقوله: (**لَئِنْ كُنْتُ ظَلَمْتُهُمْ شَيْئًا هُوَ لَهُمْ وَأَعْطَيْتُهُ غَيْرَهُمْ.. لَقَدْ شَقِيتُ**) تنكير (شيئًا) في سياق الشرط يفيد العموم، فيدخل في ذلك كلُّ ظلم وإن كان قليلًا. وقد حذف جواب الشرط الذي دلَّ عليه بقوله: (لقد شقيت) لتذهب النفس في تعيين هذا المحذوف كلَّ مذهب، وبين (ظلمتهم شيئًا هو لهم) و(أعطيته غيرهم) مقابلة. وقوله: (**وَلَكِنْ رَأَيْتُ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ يُفْتَحُ بَعْدَ أَرْضِ كِسْرَى، وَقَدْ غَنَّمَنَا اللهُ أَمْوَالَهُمْ وَأَرْضَهُمْ وَعُلُوجَهُمْ فَقَسَّمْتُ مَا غَنِمُوا مِنْ أَمْوَالٍ بَيْنَ أَهْلِهِ وَأَخْرَجْتُ الْخُمُسَ فَوَجَّهْتُهُ عَلَى وَجْهِهِ وَأَنَا فِي تَوْجِيهِهِ**) النفي في قوله: (لم يبق شيء يُفتح بعد أرض كسرى) ليس على إطلاقه، فكلمة (شيء) وإن كانت نكرة في سياق نفي وتفيد العموم، إلا أنَّ هذا العموم مخصَّص بمحذوف، تُرك لفهم المخاطَب، والتقدير: (فلم يبق شيء يمكننا الوصول إليه بعد أرض كسرى). وقوله: (فقسَّمتُ ما غنموا) الاسم الموصول (ما) يفيد العموم، فيدخل فيه كلُّ مال غنموه. وقوله: (وأنا في توجيهه) تتميم يفيد أنَّه لا يزال في توجيهه ولم ينته مِن ذلك بعدُ. وقوله: (**وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَحْبِسَ الأَرَضِينَ بِعُلُوجِهَا وَأَضَعَ عَلَيْهِمْ فيها الْخَرَاجَ وَفِي رِقَابِهِمُ الْجِزْيَةَ يُؤَدُّونَهَا فَتَكُونُ فَيْئًا لِلْمُسْلِمِينَ: الْمُقَاتِلَةِ**

وَالذُّرِّيَّةِ وَلِمَنْ يَأْتِي مِن بَعْدِهِمْ) استعمل الفعل (رأيت) بصيغة الماضي وأدخل عليه (قد) ليشير إلى أنَّ الأمر حُسِم وفُرِغ منه. و(أل) في الـ(الخراج) و(الجزية) للعهد الذهني، أي المعهودة في الشرع. وقوله: (المقاتلةِ والذرِّيَّةِ ولمن يأتي مِن بعدهم) هذا مِن التوضيح بعد الإبهام، وضَّح ما أبهم في قوله: (في رقابهم الجزية) فبيَّن على مَن تكون فيهم الجزية بأسلوب الإبدال. وقوله: **(أَرَأَيْتُمْ هَذِهِ الثغور لَا بُدَّ لَهَا مِنْ رِجَالٍ يَلْزَمُونَهَا، أَرَأَيْتُمْ هَذِهِ الْمُدُنَ الْعِظَامَ - كَالشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ والكوفة وَالْبَصْرَة ومصر - لَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَنْ تُشْحَنَ بِالْجُيُوشِ، وَإِدْرَارِ الْعَطَاءِ عَلَيْهِمْ)** استعمل أسلوب الاستفهام بـ(أرأيتم) في الموضعين للتقرير، واستعمل اسم الإشارة (هذه) في الموضعين لطلب استحضار صورة المشار إليه في ذهن المخاطَب وتعيينه له. وجملة: (لا بُدَّ لها مِن رجال) جواب لسؤال محذوف، تقديره: (ما لهذه الثُّغور؟)، وكذا قوله: (لا بُدَّ لها مِن أن تُشحَن بالجيوش) جواب لسؤال تقديره: (ما لهذه المُدُن؟).

وقوله: **(فَمِنْ أَيْنَ يُعْطَى هَؤُلاءِ إِذَا قُسِّمَتِ الأَرَضُونَ والعلوج)** ختم كلامه بهذا السؤال ليردَّ التهمة التي وُجِّهت إليه، وكأنَّ كل ما سبق بيانه لهم أراد به أن يحملهم على إقرار ما فعل، وطلب ذلك الإقرار بهذا السؤال، وبنى الفعلين (يُعطى) و(قُسِّمت) للمفعول لأنَّ القصد حصول الحدث بغضِّ النظر عن تعيين الفاعل.

[١٢٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِعُمَّالِهِ إِذَا بَعَثَهُمْ إِلَى الْأَمْصَارِ يَشْتَرِطُ عَلَيْهِمْ

«أَنْ لَا تَتَّخِذُوا عَلَى الْمَجَالِسِ الَّتِي تَجْلِسُونَ فِيهَا لِلنَّاسِ بَابًا، وَلَا تَرْكَبُوا الْبَرَاذِينَ، وَلَا تَلْبَسُوا الثِّيَابَ الرِّقَاقَ، وَلَا تَأْكُلُوا النَّقِيَّ، وَلَا تَغِيبُوا عَنْ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ، وَلَا تُطْمِعُوا فِيكُمُ السُّعَاةَ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (النقيِّ): الخبز يُصنَع مِن الدَّقيق الجيِّد.

مقتضى الحال: يخاطب عمَّاله حين يبعثهم إلى الأمصار ينهاهم عن جملة مِن الأمور.

البيان والبلاغة: نهى عن جملة مِن الأمور بـ(لا) الناهية الداخلة على الأفعال المضارعة، وأسند هذه الأفعال إلى ضمير المخاطبين ليعلموا أنَّهم هم المقصودون بهذا النهي لا غيرهم. وقوله: (**أَنْ لا تَتَّخِذُوا عَلَى الْمَجَالِسِ الَّتِي تَجْلِسُونَ فِيهَا لِلنَّاسِ بَابًا**) بدأ بهذا النهي لأهمِّيَّته؛ إذ هؤلاء العمَّال أُرسلوا لخدمة الناس فلا ينبغي أن يحتجبوا عنهم، ووصف (المجالس) بالاسم الموصول (الذي) بقصد وصفها بما تضمَّنته جملة الصلة، وتنكير (بابًا) للتعيين، يقصد به الباب الذي يمنع الناس مِن

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الجوعِ» (١٧٦)، والدِّينوريُّ في «المجالسةِ وجواهرِ العلم» (١٢٢٠)، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٣٧، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٧/ ٢٨٢، واللَّفظُ لابنِ الجوزيِّ.

الوصول إلى العمَّال، وعدم اتِّخاذ باب دون الناس دليلٌ حرص العامل على الرعيَّة وإخلاصه في خدمتهم. وقوله: (**وَلا تَرْكَبُوا الْبَرَاذِينَ، وَلا تَلْبَسُوا الثِّيَابَ الرِّقَاقَ، وَلا تَأْكُلُوا النَّقِيَّ**) ثنَّى بالنَّهي عن هذه الثلاثة، وهي نوع المركب والملبس والمأكل؛ لأنَّها دليل ظهور الرَّفاهية على العمَّال أمام العامَّة، وترك هذه الأنواع مِن المركب والملبس والمأكل دليل زهد العامل في متاع الدنيا. وقوله: (**وَلا تَغِيبُوا عَنْ صَلاةِ الْجَمَاعَةِ**) نهى عن الغياب عن صلاة الجماعة لأنَّها شعار صلاح دين العبد؛ إذ إنَّ الصلاة إن صلحت صلح سائر عمل العبد، وشهودها جماعة دليل المحافظة عليها. وقوله: (**وَلا تُطْمِعُوا فِيكُمُ السُّعَاةَ**) قدَّم الجارَّ والمجرور (فيكم) على المفعول به للتنبيه، واجتناب هذا الأمر الذي نهى عنه عمر دليل حنكة العامل ومعرفته في تدبير عمله.

[١٣٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ، أَصْلِحُوا هَذَا الْمَالَ فَإِنَّهُ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ يُوشِكُ أَنْ يَصِيرَ إِلَى الْأَمِيرِ الْفَاجِرِ أَوِ التَّاجِرِ النَّجِيبِ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب العرب يحثُّهم على إشغال المال فيما ينفع.

البيان والبلاغة: قوله: (يا معاشر العرب) جمع (معشر) باعتبار قبائل العرب، ليكون الكلام لجميع القبائل. وقوله: (أصلحوا هذا المال) استعمل الفعل (أصلحوا) مع المال ليطلب بإيجاز أن يكون استعمال المال إنفاقًا وادِّخارًا ومتاجرة في وجوه صالحة. واستعمل اسم الإشارة (هذا) لتنبيه المخاطَب إلى المشار إليه. وقوله: (فإنَّه خضرة حلوة) شبَّه المال بالفاكهة الخضراء المستلَذَّة على وجه الاستعارة، ووجه الشبه هو ميل النفس إلى كُلٍّ منهما وحرصها عليه. وهذه الاستعارة اقتبسها عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِن كلام النبي ﷺ، إذ قال: «**إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**»(٢).

وقوله: (**وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ يُوشِكُ أَنْ يَصِيرَ إِلَى الْأَمِيرِ الْفَاجِرِ أَوِ التَّاجِرِ النَّجِيبِ**) كرَّر

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (٦١).

٢- رواه البخاري (ح١٤٧٢)، ومسلم (ح١٠٣٥).

عبارة (هذا المال) للفت انتباه المخاطَب إلى أهمِّيَّة المشار إليه، واستخدم أسلوب التقسيم لبيان مآل المال على سبيل الادِّعاء، ليستحث المخاطَب على المسارعة في إصلاح المال، فبيَّن أنَّ مآله إمَّا إلى أمير فاجر يسطو عليه ويمنعه الناس، وإمَّا إلى تاجر نجيب يعرف كيف يتصرَّف فيه، ليكون المخاطَب هو الثاني ولا يتركه للأوَّل.

[١٣١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِمُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيِّ[١] وَقَدْ سَأَلَهُ عُمَرُ

«كَيْفَ تَرَانِي يَا مُحَمَّدُ؟» فَقَالَ: أَرَاكَ - وَاللهِ - كَمَا أُحِبُّ، وَكَمَا يُحِبُّ مَنْ يُحِبُّ لَكَ الْخَيْرَ، أَرَاكَ قَوِيًّا عَلَى جَمْعِ الْمَالِ، عَفِيفًا عَنْهُ، عَادِلًا فِي قَسْمِهِ، وَلَوْ مِلْتَ عَدَلْنَاكَ كَمَا يُعْدَلُ السَّهْمُ فِي الثِّقَافِ. فَقَالَ عُمَرُ: «هَاهْ». فَقَالَ: لَوْ مِلْتَ عَدَلْنَاكَ كَمَا يُعْدَلُ السَّهْمُ فِي الثِّقَافِ. فَقَالَ عُمَرُ: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَنِي فِي قَوْمٍ إِذَا مِلْتُ عَدَلُونِي»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الثِّقافُ) مَا تُسوَّى به الرِّماحُ ونحوها.

مقتضى الحال: يخاطب محمَّد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه أحدَ عمَّاله، يسأله عن حال نفسه مع الرعيَّة.

البيان والبلاغة: قوله: (كيف تراني يا محمَّد؟) سأله بأداة الاستفهام (كيف) لأنَّه يريد منه أن يخبره عن حاله مع الرعيَّة وحاله في أمور الخلافة، ولم يكتف بقول: (كيف تراني؟) بل جاء بجملة النداء؛ ليشعر المخاطَب بأنَّه يريد أن يوجِّه السؤال

١- مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ بنِ سَلَمَةَ الأنصاريُّ الأَوْسيُّ، مِن نُجَباءِ الصَّحابةِ، شهِد بدرًا والمشاهدَ. استعمله عمرُ على زكاةِ جُهَينةَ. وكان عمرُ إذا شُكِي إليه عامل نفَّذ مُحَمَّدًا إليهم ليكشفَ أمرَه. وكان مُحَمَّدٌ ممَّن اعتزلَ الفتنةَ، فلم يحضرِ الجملَ ولا صِفِّينَ؛ بل اتَّخذ سيفًا مِن خَشَبٍ، وتحوَّلَ إلى الرَّبَذةِ، فأقام بها مُدَيدةً. «سير أعلام النُّبلاء» ٢/ ٣٦٩.

٢- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (٥١٢).

إليه خاصة، وفي ذلك إكرام للمخاطَب ومزيد احترام له. وقوله: (هاه) أتى بهذا اللفظ ليشعر المخاطَب بأنَّه تعجَّب مِن شيء قاله، فرغبَ في إعادتِهِ كي يُشيرَ إلى أمر مُهم فيه. وقوله: (الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا مِلتُ عدَّلوني) ذكر هنا العبارة التي أعجبته مِن كلام محمَّد وطلب منه لأجلها أن يعيد كلامه، فحمد الله عليها، ووصف القوم الذين هو فيهم بتلك العبارة ليشيد بأهمِّيتها وكأنَّه يكتفي بأن تكون وصفًا للقوم الذين هو أميرهم.

[١٣٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي التَّرْغِيبِ فِي النِّكَاحِ

«مَا رَأَيْتُ مِثْلَ رَجُلٍ لَمْ يَلْتَمِسِ الْفَضْلَ فِي الْبَاهِ[١]، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النُّور: ٣٢] »[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الباه): النكاح.

مقتضى الحال: يتعجَّب ممَّن ترك النكاح.

البيان والبلاغة: قوله: (ما رأيت مثل رجل لم يلتمس الفضل في الباه) أتى بالنفي هنا للتعجُّب، وفي قوله: (مثل رجل) حذف المشبَّه ليلفت انتباه المخاطَب ويشحذ همَّته في تعيينه، والتقدير: (ما رأيت أمرًا غريبًا مثل رجل...)، وتنكير (رجل) لقصد عدم تعيينه، ووصفه بالجملة الفعلية (لم يلتمس الفضل بالباه) ليصلح الكلام في كلِّ رجُلٍ اتّصف بهذا الوصف. و(أل) في (الفضل) للعهد، وبيَّن ذلك حين ساق الآية الكريمة.

١- أي النِّكاح، قال ابنُ الأعرابيِّ: الباءُ والباءةُ والباهُ كلُّها مقولاتٌ. ابنُ الأنباريِّ: الباءُ النِّكاحُ. يُقالُ: فُلانٌ حريصٌ على الباءِ والباءةِ والباهِ، بالهاءِ والقَصْرِ؛ أي على النِّكاحِ؛ والباءةُ الواحدةُ، والباءُ الجمعُ، وتُجمَعُ الباءةُ على الباءاتِ. «لسان العرب» (بوأ).

٢- رواه عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٠٣٨٥) و(١٠٣٩٣).

[١٣٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِخَازِنِ بَيْتِ الْمَالِ فِي شَأْنِ شَيْخٍ كَبِيرٍ يَهُودِيٍّ ضَرِيرِ الْبَصَرِ أَلْجَأَتْهُ الْجِزْيَةُ إِلَى سُؤَالِ النَّاسِ

«انْظُرْ هَذَا وَضُرَبَاءَهُ؛ فَوَاللهِ مَا أَنْصَفْنَاهُ أَنْ أَكَلْنَا شَبِيبَتَهُ ثُمَّ نَخْذُلُهُ عِنْدَ الْهَرَمِ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾، وَالْفُقَرَاءُ هُمُ الْمُسْلِمُونَ، وَهَذَا مِنَ الْمَسَاكِينِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»[1].

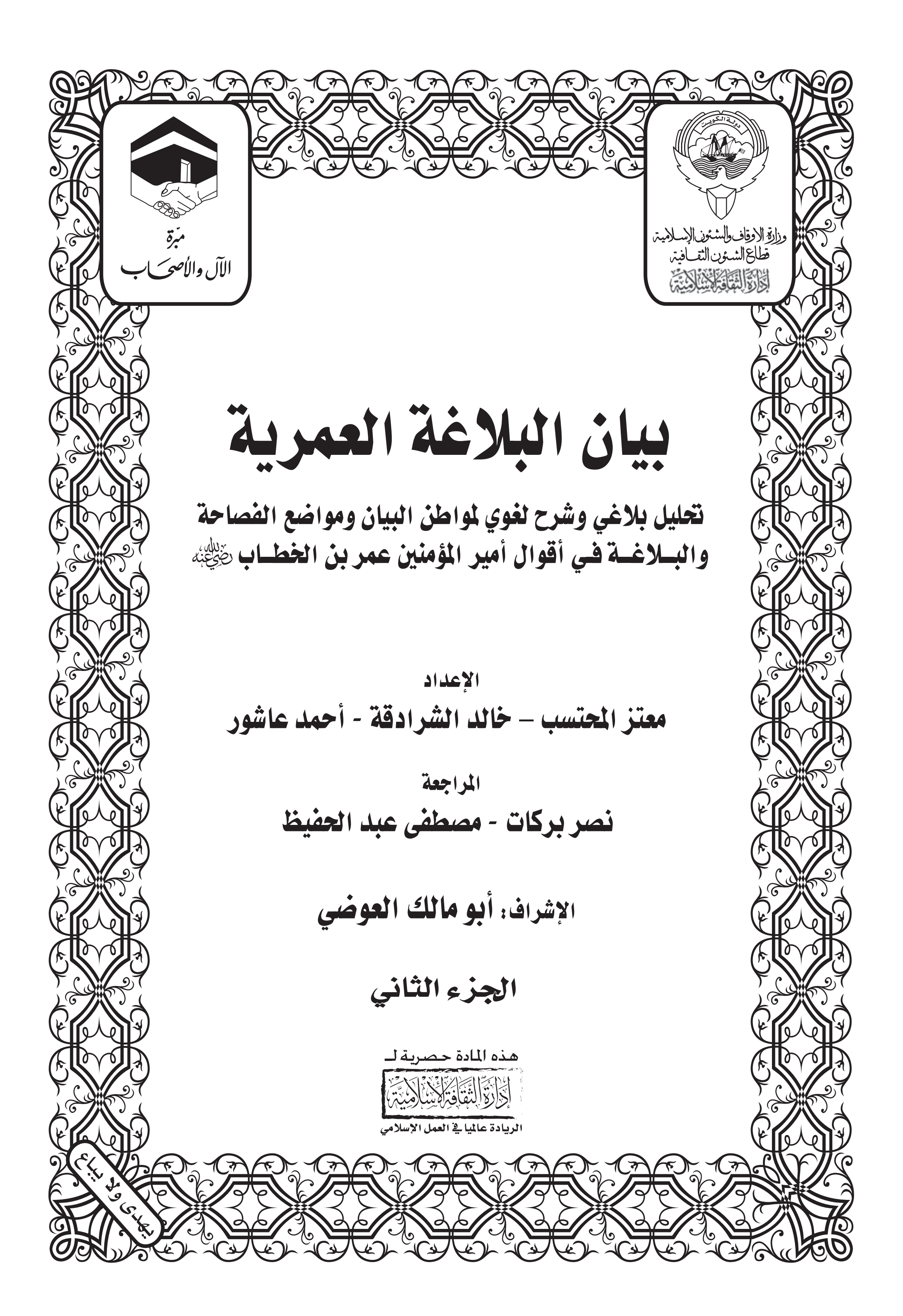
الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب خازن بيت المال، ليرفع الجزية عن عجزة أهل الكتاب المساكين ويعطيهم مِن الصدقة.

البيان والبلاغة: قوله: (**انظر هذا وضُرباءه**) استعمل اسم الإشارة لتعيين المشار إليه للمخاطَب. والأمر في قوله: (انظر) يدعو المخاطَب للتأمُّل لمعرفة سبب هذا الطلب، وقد بيَّن غرضه مِن هذا الطلب بقوله: (**فوالله ما أنصفناه؛ أن أكلنا شبيته، ثمَّ نخذله عند الهَرَم**)، وقوله: (أن أكلنا شبيته، ثمَّ نخذله عند الهَرَم) هذا تعليل لقوله: (ما أنصفناه)، وقد حذف لام التعليل قبل (أن) لدلالة السياق عليها. وفي قوله: (أكلنا شبيبته) استعارة؛ إذ شبَّه مرحلة الشبيبة عند ذلك الشيخ بطعام يُؤكَل، فأُكل ونفِد أكثره. وفي عدوله عن الإتيان بالفعل (أكلنا) بصيغة الماضي إلى الإتيان بالفعل (نخذله) بصيغة المضارع لفتة جميلة، وهي أنَّ الحدث الأوَّل قد انتهى

١- رواه أبو يوسفَ في «الخراج» ص١٣٩.

وفُرِغ منه، ثمَّ هذا الثاني وهو الخذلان لا يزال مستمرًّا قائمًا فحُقَّ له أن يتوقَّف وينتهي. وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]، **وَالْفُقَرَاءُ هُمُ الْمُسْلِمُونَ وَهَذَا مِنَ الْمَسَاكِينِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)** استدلَّ بالآية ليبيِّن أنَّ لذلك الرجل حقًّا في الصدقة، مِن خلال مقدِّمتين منطقيَّتين وحذف الاستنتاج وترك استنباطه لفهم المخاطَب، فالأولى أنَّ الفقراء الذين يستحقُّون الصدقة هم فقراء المسلمين، والثانية أنَّ هذا الرجل مسكين مِن أهل الكتاب، والنتيجة التي تركها لفهم المخاطَب هي أنَّ هذا المسكين مِن أهل الكتاب ينبغي إلحاقه بفقراء المسلمين ليستحقَّ الصدقة.



بيان البلاغة العمرية

تحليل بلاغي وشرح لغوي لمواطن البيان ومواضع الفصاحة والبلاغة في أقوال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الإعداد

معتز المحتسب – خالد الشرادقة - أحمد عاشور

المراجعة

نصر بركات - مصطفى عبد الحفيظ

الإشراف: **أبو مالك العوضي**

الجزء الثاني

هذه المادة حصرية لـ
إدارة الثقافة الإسلامية
الريادة عالميا في العمل الإسلامي

الطبعة الأولى - دولة الكويت

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الثقـافـة الإسـلاميـة

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw/thaqafa

تم الحفظ والإيداع بمركز المعلومات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

رقم الإيداع: 186 / 2017

[١٣٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِرَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ فِي المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ

«لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟!»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المكان هو المسجد النبوي، وفيه رجلان غريبان يرفعان أصواتهما بالحديث، فيراهما عمر على تلك الحال، فيوجه إليهما هذا الخطاب.

لطائف لغوية: قوله (أصواتكما) فيه إضافة الجمع إلى المثنى، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ وقوله ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾، وللعرب في هذا الباب مسالك: أولها وأشهرها استعمال الجمع كما هنا، والثاني: استعمال المفرد كقوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ وقوله: ﴿خَطْبُكُمَا﴾، وهو أقل من استعمال الجمع، وأكثر استعماله إذا كان دالا على الجمع كما في الآيتين. والثالث: استعمال المثنى؛ كقول الفرزدق:

بما في فؤادَينا من الهم والأسى فيبرأ منهاض الفؤاد المشعف

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه كلامه بقوله (لو) وهي أداة شرط، ولما كان

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٤٧٠)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٧١٢)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٤٣٤٦).

الشرط يقتضي تحقق المشروط عند حصوله، كان ذلك الافتتاح مؤذنا بأنه ذو قوة وسطوة وسلطان، وفي هذا تخويف للسامع يناسب المقام؛ إذ هما مخطئان بما فعلا من رفع الصوت في المسجد، فمجرد سماع أسلوب الشرط فيه تخويف للسامع، حتى إذا وصل إلى ذكر الشرط انقلب الخوف إلى أمن؛ لأنهما ليسا من أهل البلد، فمهما كان من عقوبة لهذا الشرط فلن تتحقق، و(أل) في البلد للعهد الحضوري، أي هذا البلد الذي أنتم فيه الآن، وفيه أيضا إشارة إلى رِفعة شأنه وأنه بلد معروف لا يحتاج إلى تعريف، أو يكون المقصود بالتعريف التفخيم والاحترام، وإنما عمم جميع من في البلد بالعقوبة المشروطة ليدل على قوته في تطبيق الشرع، وأن أوامره تصل لجميع أهل البلد، فلا يعذرون بجهل مثل هذا الأمر الواضح. وقوله (لأوجعتكما) فيه حذف للتمييزِ تخويفا؛ إذ لا يدري السامع هل يقصد (لأوجعتكما ضربا) أو (بطشا) أو (تنكيلا) أو غير ذلك، ولما كان ذهن السامع مستعدا بما سبق من التمهيد التخويفي للعقوبة كان الحذف أقوى أثرا.

فأنت ترى الشطر الأول من العبارة كيف اجتمع لعمر رضي الله عنه فيه: تخويف السامع، ثم تأمينه، ثم الإشارة إلى القدرة والسلطان، ثم الإشارة إلى احترام البلد ورفع شأنه.

وأما الشطر الثاني من العبارة ففيه إيضاح وتفسير لما سبق من الحكم والعقوبة الافتراضية، وكأنه توقع سؤالا من سائل يقول: «لم تقول هذا الكلام؟» فأجاب بذكر سبب العقوبة، ولذلك نلاحظ أن الشطر الثاني يختلف تماما عن الشطر الأول، فالأول فيه إبهام واختصار وحذف وإجمال، والشطر الثاني فيه إيضاح وبسط وتقرير وتفصيل؛ لأن الشطر الثاني مبني على أن السامع لم يفهم المراد فاقتضى البسط والإيضاح، ففي الكلام تفصيل بعد إجمال، وهذا يفيد التشويق

وجذب اهتمام السامع.

وقوله (تَرْفَعَانِ) يحتمل أن يقصدَ به التقرير، ويكون التقديرُ: (لأنكما ترفعان..)، ويحتمل أن يقصد به الاستفهام ويكون التقدير (أترفعان؟) أو (كيف ترفعان؟)، والاحتمال الثاني أقوى أثرا وأعظم بلاغة؛ لأنه – وإن كان في صيغة استفهام – يدل بالتضمن على أن المذكور هو سبب العقوبة، فكأنه جمع بين ذكر العقوبة والاستفهام عن سبب الفعل. والغرض من الاستفهام هنا هو التهويل والاستفظاع؛ أي كيف يمكن أن يصدر منكم مثل هذا الفعل في هذا المكان العظيم المحترم؟!

[١٣٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَوْ هَلَكَ حَمَلٌ مِنْ وَلَدِ الضَّأْنِ ضَيَاعًا بِشَاطِئِ الْفُرَاتِ خَشِيتُ أَنْ يَسْأَلَنِي اللهُ عَنْهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتحدَّث عن عِظَم مسؤوليَّة الخلافة التي وقعت عليه.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه بـ(لو) الشرطية إشارة إلى تحقُّق الجزاء إذا وقع الشرط، واستعمل الفعل (هلك) ليشمل كلَّ نوع سقوط وتلف، وأمَّا انتصاب المصدر (ضياعًا) على أنَّه نوع للهلاك فليس بقيد؛ بل ذكره لأنَّه أقلُّ أنواع الهلاك، وما فوقه داخل في الحكم مِن باب أولى، وتنكير (حمل) للتصغير، وقوله: (بشاطئ الفرات) قيد لا مفهوم له، وإنَّما ذكره للتمثيل لبعد المسافة بينهما، والغرض بيان أنَّه مسؤول عن رعيَّته وأملاكهم حتى في أقصى البلاد. وقوله: (خشيتُ أن يسألني الله عنه) لم يأت باللام في جواب (لو)، وكأنَّ هذا الأمر متحقِّق لا محالة مِن غير حاجة إلى تأكيد.

١- رواه ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦٢٧)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٥٤، والخَلَّالُ في «السُّنَّةِ» (٣٩٦).

[١٣٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا - مَا لَمْ نَرَكُمْ - أَحْسَنُكُمُ اسْمًا، فَإِذَا رَأَيْنَاكُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا، فَإِذَا اخْتَبَرْنَاكُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا وَأَعْظَمُكُمْ أَمَانَةً»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن أحبَّ المسلمين إليه.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب التقسيم لبيان أحبِّ الناس إليه، فجعل ذلك على ثلاث مراتب: الأولى لمن لم يرَهم، والثانية لمن رآهم دون أن يختبرهم، والثالثة لمن رآهم واختبرهم. وهذه القِسمة حاصرة، وقد ذكر عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذه المراتب متدرِّجًا مِن الأبعد إلى الأقرب. وقوله: (أحبُّكم إلينا) كرَّر هذه العبارة بلفظها لتقرير معناها. وفي قوله: (فإذا اختبرناكم) إيجاز بالحذف لدلالة السياق على المحذوف، والتقدير: (فإذا رأيناكم واختبرناكم). وفي قوله: (أصدقكم حديثًا وأعظمكم أمانة) عدل مِن اشتقاق اسم التفضيل مِن (الحُسْن) إلى اشتقاقه مِن (الصدق) و(العظمة)، وذلك أنَّه رتَّب هذا التفضيل على الاختبار، ومجرَّد (الحُسن) لا يكفي بعد الاختبار، فلا بدَّ أن يكون التفضيل في أمر أخصِّ منه.

١- رواه ابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّمتِ» (٤٨٤).

[١٣٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

وَقَدْ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: اتَّقِ اللهَّ

«لَا خَيْرَ فِيهِمْ إِنْ لَمْ يَقُولُوهَا لَنَا، وَلَا خَيْرَ فِينَا إِنْ لَمْ نَقْبَلْ»، وَأَوْشَكَ أَنْ يَرُدَّ عَلَى قَائِلِهَا[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن أهمِّيَّة نُصح الحاكم.

البيان والبلاغة: هذه العبارة الموجزة بيَّن فيها عمر رضي الله عنه دور المحكوم في نصح الحاكم، ودور الحاكم في قبول النصح، فنفى جنس الخيريَّة عن المحكوم إن ترك نصح الحاكم، ونفاها أيضًا عن الحاكم إن لم يقبل مِن المحكوم، وقوله: (إن لم يقولوها لنا) استخدم الضمير في (يقولوها) لحمل السامع على تحرِّي مرجع الضمير ومعرفة تلك الكلمة التي قالها ذلك القائل فتستقر في نفسه، وقيَّد الفعل (يقولوها) بالجارِّ والمجرور (لنا) ليشير بدلالة لام التبليغ الدَّاخلة على ضمير المتكلِّمين إلى أنَّ تلك الكلمة ينبغي أن تصل مِن القائل إلى الحاكم مباشرة لا أن تقال على الملأ، وأمَّا عند حديثه عن دور الحاكم فقد قال: (ولا خير فينا إن لم نقبل) فحذف مفعول (نقبل)

١- رواه أبو يوسفَ في «الخراجِ» ص٢٢.

ولم يقيِّده بالجارِّ والمجرور (منهم)، ليشير بذلك إلى أنَّ الحاكم ينبغي أن يقبل كلَّ نصح، لا أن يقتصر قبوله على تلك الكلمة فقط، وكذا ينبغي له أن يقبل النُّصح مِن كلِّ أحدٍ، وليس مِن رعيَّته فقط.

[١٣٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لأَبِي مَحْذُورَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

«أَمَا خَشِيتَ أَنْ يَنْخَرِقَ مُرَيْطَاؤُكَ[١]؟» قَالَ أَبُو مَحْـذُورَةَ: يَا أَمِيرَ الْـمُؤْمِنِينَ، قَدِمْتَ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُسْمِعَكُمْ أَذَانِي. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: «إِنَّ أَرْضَكُمْ - مَعْشَرَ أَهْلِ تِهَامَةَ - حَارَّةٌ؛ فَأَبْرِدْ ثُمَّ أَبْرِدْ» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، «ثُمَّ أَذِّنْ، ثُمَّ ثَوِّبْ آتِكَ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (المُرَيْطاء): الجلدة ما بين السُّرَّة والعانة. و(ثوِّب): أقم الصلاة.

مقتضى الحال: يخاطِب أبا مَحذورة أحد مؤذِّني النبي ﷺ حين قدم عمر مكَّةَ فسمعه يؤذِّن للظُّهر مبالغًا في رفع صوته.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَا خَشِيتَ أَنْ يَنْخَرِقَ مُرَيطَاؤُكَ؟**) الاستفهام هنا فيه معنى التعجُّب والإنكار، واستعمل معه الكناية في الإنكار؛ إذ لم يقل له: (لِمَ بالغتَ في رفع صوتك؟)، وإنَّما ذكر له ما يمكن أن ينتج عن المبالغة في رفع الصوت، وهو أن ينخرق الجلدُ الذي في أسفلِ سرَّتِه، لكثرة ما يعصر بطنه ليُخرج أعلى صوته،

١- هي الجلدةُ الَّتي بينَ السُّرَّةِ والعانةِ. وهي في الأصلِ مُصغَّرَةُ مَرْطَاءَ، وهي الملساءُ الَّتي لا شعرَ عليها، وقد تُقصَر. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (مرط).

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٦٨١٦)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٠٣).

فأشعره عمر في هذا الإنكار بشفقته عليه، وقوله: (ينخرق) جاء بالفعل بصيغة (ينفعل) لإفادة معنى المطاوعة؛ أي مطاوعة المفعول في المعنى للفاعل، كأنَّه قال له: (أما خشيتَ أن تخرقَ مُرَيطاءَك فينخرق؟). وقوله: (**إِنَّ أَرْضَكُمْ - مَعْشَرَ أَهْلِ تِهَامَةَ - حَارَّةٌ فَأَبْرِدْ ثُمَّ أَبْرِدْ**) هنا انتقل عمر إلى معنى آخر، فبين هذه الجملة وما قبلها كمال انقطاع، ففصل بينهما ولم يعطف بالواو. وقد أمره عمر بالإبراد؛ أي: بتأخير أذانِ صلاة الظهر إلى حين تنكسر حِدَّة الشمس، وأتى عمر بجملة النداء (معشر أهل تهامة) معترضة بين اسم (إنَّ) وخبرها لتخصيص المخاطَب بالكلام، وكرَّر قوله: (أبرد) مرَّتين أو ثلاثًا للتقرير وإطالة الحدث. وقوله: (**ثمّ أَذِّنْ، ثُمَّ ثَوِّبْ آتِكَ**) أتى بالفعل (آتك) جوابًا للطلب (أبرد) بعد تلك المعطوفات ليبيِّن له إنَّ جواب الطلب يتحقَّق بعد تحقُّق تلك المعطوفات كلّها.

[١٣٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِ عَبَّاسٍ

«اعْقِلْ عَنِّي ثَلَاثًا: الْإِمَارَةُ شُورَى، وَفِي فِدَاءِ الْعَرَبِ مَكَانَ كُلِّ عَبْدٍ عَبْدٌ، وَفِي ابْنِ الْأَمَةِ عَبْدَانِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب ابن عبَّاس رضي الله عنهما يبيِّن له أمورًا ثلاثة.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه بقول: (اعقل عنِّي ثلاثًا) ليحمل المخاطَب على الإصغاء ويشير إلى أهمِّيَّة ما سيذكر له، وأنَّه ينبغي أن يُعقَل ويقيَّد، وذكر عدد الأمور التي سيذكرها له ليستعد لضبطها وحفظها. وقوله: (الإمارة شورى) عبَّر بهذه الجملة المقتصرة على المسند والمسند إليه، وكأنَّه يقول له: (يكفي أن تعرف حقيقة الإمارة، ولا داعي لإطالة الكلام في بيانها). وقوله: (في فداء العرب: مكان كلِّ عبدٍ عبدٌ، وفي ابن الأمَة عبدانِ) قدَّم ذكر الجارِّ والمجرور (في فداء العرب) ليشير للمخاطَب بأنَّ ما سيذكره له بعد مقيَّد بهذا القيد، وهذان الأمران هما في الحقيقة واحد لأنَّهما في الفداء، ولكنَّه اعتبر في العدِّ كلَّ واحد منهما مستقلًّا بذاته ليضبط

١- رواه عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٧٦٠) و(١٨٥٢٧) و(١٩١٨٦)، والقاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (٣٦١).

المخاطَبُ كلَّ واحد منهما على حدة، وتنكير (عبد) في الموضع الأوَّل للإفراد، وفي الثاني لقصد عدم التعيين؛ يعني يصلح للفداء أيُّ عبد، وكذا في تنكير (عبدانِ).

[١٤٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

«أَهْلُ الشُّكْرِ مَعَ مَزِيدٍ مِنَ اللهِ؛ فَالْتَمِسُوا الزِّيَادَةَ، وَقَدْ قَالَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] »[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن فضل الشاكرين ويحث على شُكر النِّعم.

البيان والبلاغة: قوله: (أهل الشكر) أضاف كلمة (أهل) إلى (الشُّكر) مشيرًا بذلك إلى أنَّ الشاكرين تجمعهم رابطة واحدة. وقوله: (مع مزيد مِن الله) استعمل الظرف (مع) ليبيِّن المعيَّة الحاصلة لأهل الشكر التي تربطهم بالجزاء المترتِّب على شكرهم، وفائدة هذه المعيَّة بيان أنَّ ذلك الجزاء لا ينفكُّ عنهم ما داموا شاكرين. وقوله: (مزيد) استعمل المصدر الميمي في التعبير عن الزيادة لأنَّ المصدر الميمي أبلغ وأقوى في أداء المعنى مِن غيره من المصادر. وفي قوله: (فالتمسوا الزيادة) هذه كناية عن طلب مداومة الشكر، وقد بيَّن مقصده مِن هذه الكناية حين ساق الآية الكريمة، وفائدة استعمال هذه الكناية شحذ الهمَّة على تنفيذ الطلب ببيان ما يترتَّب عليه، وقد عدل هنا إلى استعمال المصدر العادي بعد أن استعمل قبلُ المصدر الميمي، ومِن لطيف ذلك بيان أنَّ مَن التمس مِن الله الزيادة أعطاه الله المزيد؛ أي: أعطاه فوق طلبه.

١- رواهُ الدِّينوريُّ في «المجالسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٦٨٧).

[١٤١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

وَقَدْ سَأَلَهُ وَفْدُ أَهْلِ الْكُوفَةِ عَنْ نَهْيِهِ أَنْ يَبْنُوا بُنْيَانًا فَوْقَ الْقَدْرِ

«مَا لَا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ السَّرَفِ، وَلَا يُخْرِجُكُمْ مِنَ الْقَصْدِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب أهل الكوفة يبيِّن لهم ما المأذون لهم به في البناء.

البيان والبلاغة: بيَّن لهم القدر المأذون لهم به في البنيان، واستعمل في ذلك أسلوب المقابلة بعبارة وجيزة، فقابل بين (لا يقرِّبكم مِن السَّرَف) و(لا يخرجكم مِن القصد)، ليكون المأذون به بينهما، لذا جعل الجملتين صلة للاسم الموصول (ما)، ووصف البنيان المأذون لهم به بـ(ما) الموصولة هذه بقصد الوصف بصلتها. و(أل) الداخلة على (السَّرَف) و(القصد) للعهد؛ أي: السَّرَف والقصد المعهودان في عرف الناس والشَّرع.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٤٤.

[١٤٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

لِقَيْسِ بْنِ مَرْوَانَ[١] وَقَدِ اشْتَكَى إِمْلَاءَ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَهْلَ الْكُوفَةِ الْمَصَاحِفَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِهِ

«وَيْحَكَ، وَاللهِ مَا أَعْلَمُهُ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ هُوَ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْ ذَلِكَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَزَالُ يَسْمُرُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ اللَّيْلَةَ كَذَاكَ فِي الْأَمْرِ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّهُ سَمَرَ عِنْدَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، وَأَنَا مَعَهُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَخَرَجْنَا مَعَهُ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَمِعُ قِرَاءَتَهُ، فَلَمَّا كِدْنَا أَنْ نَعْرِفَهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا كَمَا أُنْزِلَ؛ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»**. ثُمَّ جَلَسَ الرَّجُلُ يَدْعُو، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ لَهُ: **«سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ»**. وَاللهِ لَأَغْدُوَنَّ إِلَيْهِ فَلَأُبَشِّرَنَّهُ». قَالَ: «فَغَدَوْتُ إِلَيْهِ لِأُبَشِّرَهُ، فَوَجَدْتُ أَبَا بَكْرٍ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ فَبَشَّرَهُ، وَلَا وَاللهِ مَا سَابَقْتُهُ إِلَى خَيْرٍ قَطُّ إِلَّا سَبَقَنِي إِلَيْهِ»[٢].

١- قيسُ بنُ مروانَ الجُعفيُّ، خرجَ إلى الجزيرةِ أيَّامَ عليٍّ، وكانَ شريفًا كريمًا على معاويةَ، وهو أوَّلُ مَن نزلَ سُورًا مِن جُعْفَى، ولهُ يقولُ الشَّاعِرُ:

مَا زِلْتُ أَسْأَلُ عَنْ جُعْفَى وَسَيِّدِهَا   حَتَّى دُلِلْتُ عَلَى قَيْسِ بْنِ مَرْوَانَ

«الطَّبقات الكُبرَى» ٦/ ١٤٦.

٢- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (١٧٥)، وأبو يعلى في «المُسنَدِ» (١٩٤)، وابنُ خزيمةَ في «صحيحِه» (١١٥٦)، والطَّحاويُّ في «شرحِ مُشكِلِ الآثارِ» (٥٥٩٢)، والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٢٨٩٣)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢١٢٩)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٣٣/ ٩٧-٩٨.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يردُّ على قيس بن مروان في اعتراضه على ابن مسعود رضي الله عنه حين أملى الناسَ القرآنَ مِن حفظه.

لطائف لغوية: قوله: (**فَلَمَّا كِدْنَا أَنْ نَعْرِفَهُ**) أدخل (أن) على المضارع الواقع خبرًا لـ(كاد) وهو قليل، وورد غير مرَّة في كلام عمر رضي الله عنه ، فلعلها لغة اعتادها.

البيان والبلاغة: قوله: (**وَيْحَكَ، وَاللهِ مَا أَعْلَمُهُ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ هُوَ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْ ذَلِكَ**) بدأ عمر رضي الله عنه ردَّه على قيس بكلمة: (ويحك)، ليشعره بعِظَم ما اجترأ عليه، وقوله: (ما أعلمه) الضمير في (أعلمه) ضمير الشأن، فهو إضمار في موضع إظهار، وفائدته لفت انتباه السامع ليشغل ذهنه في البحث عن مفسِّر الضمير، فإذا سمع مفسِّره - وهو جملة (بقي مِن الناس أحد هو أحقُّ بذلك منه) - استقرَّ هذا المعنى في نفسه، وتنكير (أحد) في سياق النفي يفيد العموم، واستعمال اسم الإشارة (ذلك) في الموضع الأوَّل لبيان علوِّ شأن المشار إليه، ثمَّ أعاد استعماله لتقرير ذلك. وقوله: (**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَزَالُ يَسْمُرُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ اللَّيْلَةَ كَذَاكَ فِي الْأَمْرِ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ**) استعمل (كان) للدلالة على المداومة، وأكَّد ذلك بقوله: (لا يزال). و(أل) في (الليلة) للاستغراق، ولما أفرد (الليلة) ونصبها على الظرفية أفاد أنَّ الحدث - وهو السَّمَر - يستغرق هذه الليلة، وبدلالة (كان) المتقدِّمة مع (لا يزال) أفاد أنَّ ذلك كان يحدث كلَّ ليلة. وقوله: (كذاك في الأمر مِن أمور المسلمين) شبَّه سَمَر النَّبي ﷺ مع أبي بكر رضي الله عنه بفعل ابن مسعود رضي الله عنه ، وذكر وجه الشبه وهو أنَّ إمضاء الوقت في كلٍّ يكون في أمر مِن أمور المسلمين، وإنَّما ذكر وجه الشبه ليبيِّن فضل ابن مسعود وشرف ما يصنع. وقوله: (**فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ**

ﷺ، **وَخَرَجْنَا مَعَهُ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ**) استعمال (إذا) الفجائيَّة إشارة إلى أنَّهم فوجئوا بذلك الرجل الذي في المسجد قائمًا وحده يصلي؛ لعظيم فعله، وتنكير (رجل) مع ما ذكر مِن عظيم صنعه يحمل المخاطَب على التلهُّف ليعرف شخص ذلك الرجل. وقوله: (**فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ يَسْتَمِعُ قِرَاءَتَهُ**) أشار بقوله: (فقام) إلى أنَّ النبي اهتمَّ لأمر ذلك الرجل فترك ما خرج لأجله مِن أجل الاستماع لقراءة ذلك الرجل. وقوله: (**فَلَمَّا كِدْنَا أَنْ نَعْرِفَهُ**) أشار بقوله هذا إلى أنَّهم لم يعرفوه ابتداءً في ظلمة الليل حتى مع استماع قراءته إلا أنَّ النبي ﷺ كان قد عرفه. وقوله: (**ثُمَّ جَلَسَ الرَّجُلُ يَدْعُو**) لم يذكر عمرُ رضي الله عنه ابنَ مسعود رضي الله عنه باسمه مع أنَّه قد عرفه، وإنَّما قال: (جلس الرجل) بإدخال (أل) التي للعهد الذكري على (رجل) ليبيِّن للمخاطَب أنَّ ذلك الرجُل الذي فوجئوا بصلاته وحده في المسجد هو نفسه الذي جلس يدعو بعدُ، وهو نفسه الذي قال فيه النبي ﷺ: (**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**) فابن أمِّ عبد هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وقوله: (**وَالله لَأَغْدُوَنَّ إِلَيْهِ فَلَأُبَشِّرَنَّهُ**) هذا التأكيد بالقسم وإدخال اللام على جواب القسم والفعل المعطوف عليه، وكذا إدخال نون التوكيد الثقيلة على جواب القسم والفعل المعطوف عليه = كلُّ ذلك يؤكِّد فرح عمر بقول النبي ﷺ في ابن مسعود رضي الله عنه وعزمه على تبشيره به. وقوله: (**وَلا وَالله مَا سَابَقْتُهُ إِلَى خَيْرٍ قَطُّ إِلَّا سَبَقَنِي إِلَيْهِ**) زيادة (لا) في كلامه تفيد التوكيد، وتنكير (خير) في سياق النفي يفيد العموم فيدخل في ذلك كل أنواع الخير، والقصر في قوله: (إلا سبقني) حقيقي تحقيقي.

[١٤٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

إِذَا اسْتَعْمَلَ رَجُلا، وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ رَهْطًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَغَيْرِهِمْ

«إِنِّي لَمْ أَسْتَعْمِلْكَ عَلَى دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا عَلَى أَعْرَاضِهِمْ، وَلَكِنِّي اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَيْهِمْ لِتَقْسِمَ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ وَتُقِيمَ فِيهِمُ الصَّلَاةَ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَأْكُلَ نَقِيًّا وَلَا يَلْبَسَ رَقِيقًا، وَلَا يَرْكَبَ بِرْذَوْنًا وَلَا يُغْلِقَ بَابَهُ دُونَ حَوَائِجِ النَّاسِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب بهذا الكلام عمَّاله حين يكلِّفهم، يبيِّن لهم واجباتهم.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي لَمْ أَسْتَعْمِلْكَ عَلَى دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا عَلَى أَعْرَاضِهِمْ**) بدأ كلامه بهذا النفي لأمر معلوم أنه مِن الواجبات على مَن استُعمل في ولاية؛ فحِفظ دماء المسلمين وأعراضهم مِن أهمِّ ما يجب عليه، فليس النفي هنا على ظاهره، وإنَّما بدأ كلامه بنفي هذه الواجبات ليسترعي استماع المخاطَب ويجلب انتباهه ويبيِّن له أنَّ الواجبات عليه لا تقتصر على هذه الأمور المعلومة. وقوله: (**وَلَكِنِّي اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَيْهِمْ لِتَقْسِمَ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ وَتُقِيمَ فِيهِمُ الصَّلَاةَ**) دلَّ بـ(لكنَّ) على أنَّ هذا الأمر

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٥٩١).

الذي سيذكره أهمُّ مِن سابقه، وإنَّما كان أهمَّ منه لأنَّ إقامتَهُ أصعب والتقصير فيه أكثر. وتقديم الجارِّ والمجرور (عليهم) على المفعول به (الصلاة) للرعاية والاهتمام.

[١٤٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ بِالْهَوَى وَالْمَعْصِيَةِ يَسْقُطْ حَظُّهُ وَلَا يَضُرَّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ السُّنَّةَ وَيَنْتَهِ إِلَى الشَّرَائِعِ، وَيَلْزَمِ السَّبِيلَ النَّهْجَ ابْتِغَاءَ مَا عِنْدَ اللهِ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ، أَصَابَ أَمْرَهُ، وَظَفِرَ بِحَظِّهِ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَقُولُ: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، وَقَدْ ظَفِرَ أَهْلُ الْأَيَّامِ وَالْقَوَادِسِ بِمَا يَلِيهِمْ، وَجَلَا أَهْلُهُ، وَأَتَاهُمْ مَنْ أَقَامَ عَلَى عَهْدِهِمْ، فَمَا رَأْيُكُمْ فِيمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ اسْتُكْرِهَ وَحُشِرَ، وَفِيمَنْ لَمْ يَدَّعِ ذَلِكَ وَلَمْ يُقِمْ وَجَلَا، وَفِيمَنْ أَقَامَ وَلَمْ يَدَّعِ شَيْئًا وَلَمْ يَجْلُ، وَفِيمَنِ اسْتَسْلَمَ؟ فَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْوَفَاءَ لِمَنْ أَقَامَ وَكَفَّ لَمْ يَزِدْهُ غَلَبُهُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَنَّ مَنِ ادَّعَى فَصُدِّقَ أَوْ وَفَّى فَبِمَنْزِلَتِهِمْ، وَإِنْ كُذِّبَ نُبِذَ إِلَيْهِمْ وَأَعَادُوا صُلْحَهُمْ، وَأَنْ يُجْعَلَ أَمْرُ مَنْ جَلَا إِلَيْهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا وَادَعُوهُمْ وَكَانُوا لَهُمْ ذِمَّةً، وَإِنْ شَاءُوا تَمُّوا عَلَى مَنْعِهِمْ مِنْ أَرْضِهِمْ وَلَمْ يُعْطُوهُمْ إِلَّا الْقِتَالَ، وَأَنْ يُخَيِّرُوا مَنْ أَقَامَ وَاسْتَسْلَمَ: الْجِزَاءَ، أَوِ الْجَلَاءَ، وَكَذَلِكَ الْفَلَّاحُ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (جلا أهلُهُ) خرجوا من بلادهم إلى غيرها.

مقتضى الحال: قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذا الكلام بعد أن وصله كتاب مِن سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد فتح القادسيَّة، يطلب فيه أمره في أهل الذِّمَّة مِن عرَب العراق الذين نقضوا عهدهم في حال ضعف المسلمين.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٨٥.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ بِالْهَوَى وَالْمَعْصِيَةِ يَسْقُطْ حَظُّهُ وَلا يَضُرَّ إِلا نَفْسَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ السُّنَّةَ وَيَنْتَهِ إِلَى الشَّرَائِعِ، وَيَلْزَمِ السَّبِيلَ النَّهجَ ابْتِغَاءَ مَا عِنْدَ اللهِ لأَهْلِ الطَّاعَةِ، أَصَابَ أَمْرَهُ، وَظَفَرَ بِحَظِّهِ**) في افتتاحه خطبته بهذا الكلام براعة استهلال؛ إذ فيها إشعار بمضمون خُطبته، وفيها نوع تشويق حين أتى بضمير الشَّأن في: (إنَّه) ليحمل المخاطَب على تأمُّل الكلام ليعرف تفسير هذا الضمير، وقد فسَّر هذا الضمير مِن خلال أسلوب المقابلة التي قابل فيها بين: (مَن يعمل بالهوى والمعصية يسقط حظَّه ولا يضرُّ إلا نفسه) و(مَن يتبع السُّنَّة وينتهِ إلى الشرائع ويلزم السبيل النهج ابتغاء ما عند الله أصاب أمره وظفر بحظِّه)، واستعمل أسلوب الشرط في الجملتين إشارةً إلى تحقُّق الجواب عند تحقُّق الشرط، إلا أنَّه عدل عن الإتيان بجواب الشرط في الجملة الثانية فعلًا مضارعًا - كما فعل في الأولى، وهو قوله: (يسقط حظُّه ..) - إلى الإتيان به في فعلًا ماضيًا - وهو قوله: (أصاب أمره) -، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ هذا الجواب متحقِّق لا محالة عند حصول شرطه، أمَّا الأولى فقد يعفو الله تعالى عن مَن اتَّبع هواه ويهديه فلا يتحقَّق معه جواب الشرط، وهذا مِن رحمة الله تعالى بعباده. وفي قوله: (يسقط حظُّه) عبَّر بالسقوط إشارة إلى أنَّ حظَّ الإنسان ونصيبه يكون في علوٍّ والمعصية تسقطه وتطيح به، وهذا التعبير يخوِّف مَن يريد الإقدام على المعصية، وأكَّد هذا المعنى حين قابله - في حديثه عن مَن اتَّبع السُّنة - بقوله: (ظفر بحظِّه) أي ظفر بنصيبه في مكانه المرتفع العالي ولم يسقط فيضيع منه. والقصر في: (لا يضرُّ إلا نفسه) حقيقي تحقيقي. وقوله: (يتَّبع السُّنة وينته إلى الشرائع) شبَّه السُّنة -على سبيل الاستعارة - بطريقٍ مَن اتَّبعها فإنَّها توصله إلى شرع الله تعالى الذي ارتضاه لعباده. وقوله: (**وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:** ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ

رَبُّكَ أَحَدًا () استعمل اسم الإشارة (ذلك) ليجمع في ذهن المخاطَب المعنى السابق كله فتستبين له دلالة الآية عليه.

وقوله: (**وَقَدْ ظَفَرَ أَهْلُ الأَيَّامِ وَالْقَوَادِسِ بِمَا يَلِيهِمْ، وَجَلا أَهْلُهُ**) أكَّد ثبوت نصر المسلمين في القادسيَّة بـ(قد) ومجيء الفعل بصيغة الماضي. وفي إضافة (أهل) إلى (الأيام والقوادس) تشريف لهم ورفعة لشأنهم. وفي قوله: (بما يليهم) استعمل (ما) الموصول التي تفيد العموم لتشمل كلَّ ما يلي المنطقة التي ظفر بها المسلمون في القادسية. وقوله: (وجلا أهله) ذكَّر الضمير في (أهله) مراعاة للفظ (ما) في قوله: (ما يليهم). وقوله: (**وَأَتَاهُمْ مَنْ أَقَامَ عَلَى عَهْدِهِمْ، فَمَا رَأْيُكُمْ فِيمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ اسْتُكْرِهَ وَحُشِرَ، وَفِيمَنْ لَمْ يَدَّعِ ذَلِكَ وَلَمْ يُقِمْ وَجَلا، وفيمن أَقَامَ ولَمْ يَدَّعِ شَيْئاً ولَمْ يجْلُ، وفيمَنِ استَسْلَمَ**) هنا أتى عمر رضي الله عنه على مقصده، وهو أخذ المشورة فيمن أقام في أرض القادسية بعد فتحها وأعطى العهد، ثمَّ خالف في بعض الأمر أو زعم ما ليس بصحيح، فأشار عمر رضي الله عنه إلى طلب المشورة بقوله: (فما رأيكم فيمن...) ثم استعمل أسلوب التقسيم لبيان أحوال مَن أعطى العهد، ليأخذ رأي مَن استشارهم في كلِّ قِسم على حدة، فأوَّل أقسام مَن أعطى العهد: (مَن زعم أنَّه استُكره)، والثاني: (مَن لم يدَّعِ ذلك ولم يُقِم وجَلا)، والثالث: (مَن أقام ولم يدَّعِ شيئًا ولم يجلُ)، والرابع: (مَن استسلم)، بدأ بالأشد متدرِّجًا إلى الأخفِّ.

[١٤٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

لِلْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْكُوفَةِ

«يَا مُغِيرَةُ، لِيَأْمَنْكَ الْأَبْرَارُ، وَلْيَخَفْكَ الْفُجَّارُ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب المغيرة بن شعبة رضي الله عنه حين بعثه إلى الكوفة واليًا عليها.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه بنداء المخاطَب ليلفت انتباهه ويسترعي سمعه، ثمَّ بيَّن له بأسلوب المقابلة كيف يعامل الناس، فقابل بين: (ليأمَنْك الأبرارُ) و(ليخَفْك الفجَّارُ)، وتضمَّنت هذه المقابلة تقسيم الناس إلى: (أبرار) و(فجَّار)، فيعامل كل قسم بحسبه.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ١٦٥، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٤١٤.

[١٤٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ قَدِمَ عَلَيْهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِمَالٍ مِنْ مِصْرَ

«مَا جَبَيْتَ إِلَّا هَذَا؟» قَالَ عَمْرٌو: أَتَسْتَقِلُّ هَذَا؟ قَالَ: «إِنَّ الْأَرْضَ حَفَلَتْ حَفْلًا لَمْ تَحْفِلْ مِثْلَهُ، فَحَلَبْتَ وَبَقِيتْ» فَقَالَ عَمْرٌو: صَدَقْتَ، وَأَنَا أُعْطِيكَ عَهْدًا أَلَّا أَخُونَكَ، وَأَعْطِنِي مِثْلَهُ أَلَّا تُصَدِّقَ عَلَيَّ. فَقَالَ عُمَرُ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ، إِنِّي لَا آمَنُ إِنْ فَعَلْتُ أَنْ تَهُمَّ، وَإِنْ هَمَمْتَ حَنَثْتَ، وَايْمِ اللهِ لَأُكَمِّمَنَّ أَفْوَاهَكُمْ عَنْ هَذَا الْمَالِ كَمَا ظَلَفْتُ نَفْسِي عَنْهُ، فَلَوْ قَدْ مُتُّ لَتُكَافِحُنَّ عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (حَفَلَتْ): جمعتْ الماء، و(ظَلَفْتُ نفسي): كففتُها ومنعتُها.

مقتضى الحال: يخاطب عمرو بن العاص رضي الله عنه واليه على مصر.

البيان والبلاغة: قوله: **(مَا جَبَيْتَ إلا هَذَا؟)** هذا الاستفهام للتعجُّب، وحذف أداة الاستفهام استغناء بنبر الصوت، واستعمل اسم الإشارة (هذا) لتقليل شأن المشار إليه، والقصر هنا حقيقي تحقيقي. وقوله: **(إِنَّ الأَرْضَ حَفَلَتْ حَفْلًا لَمْ تَحْفَلْ مِثْلَهُ فَحَلَبْتَ وَبَقِيتَ)** استعمل أسلوب الكناية في قوله: (حفلتْ حفلًا) للدلالة على كثرة المطر وما ينتج عنه مِن زرع وثمار وخير، وبالغ في إثبات ذلك حين قال: (لم

١- رواهُ البَلاذُرِيُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧٩.

تحفل مثله)، وقوله: (فحلبتْ وبقيتْ) شبَّه الأرض بالناقة - على سبيل الاستعارة - حين يحفل اللبن في ضرعها ويجتمع ثم تُحلب ويبقى ضرعها ممتلئًا لغزارة اللبن فيه. وفي قوله: (فحلبتْ وبقيتْ) إيجاز بالحذف لعِلم المخاطَب بالمحذوف، والتقدير: (فحلبتْ لبنها وبقيتْ ممتلئة لبنًا). وقوله: (**أَمْسِكْ عَلَيْكَ، إِنِّي لا آمَنُ إِنْ فَعَلْتُ أَنْ تَهِمَّ، وَإِنْ هَمَمْتَ حَنِثْتَ، وَايْمُ اللهِ لأُكَمِّمَنَّ أَفْوَاهَكُمْ عَنْ هَذَا المَالِ كَمَا ظَلَفْتُ نَفْسِي عَنْهُ، فَلَوْ قَدْ مُتُّ لَتُكَافِحُنَّ عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ**) حذف مفعول (أمسك) ليلفِتَ انتباه المخاطَب، والتقدير: (أمسك عليك نفسك)، وحذف مفعول (فعلتُ) اختصارًا لسبق ذكره، وحذف متعلِّق (تهمَّ) لكراهة ذكره، والتقدير: (أن تهمَّ بالأخذ مِن المال لنفسك)، وفي قوله: (وإن هممتَ حنثتَ) أتى بفعل الشرط وجوابه فعلين ماضيين إشارة إلى تحقُّق حصولهما. وقوله: (لأكمِّمَنَّ أفواهكم عن هذا المال) عبَّر عن منعهم مِن أخذ المال بتكميم الأفواه لأنَّ أكل المال هو أكثر وجوه الانتفاع به، وقوله: (كما ظلفتُ نفسي) هنا عبَّر عن المنع بالظَّلْف لما فيه مِن معنى الشدَّة؛ ليشير إلى أنَّه لا يتهاون مع نفسه بل ربَّما يتشدَّد معها أكثر ممَّا يتشدَّد مع غيره. وقوله: (فلو قد متُّ) أدخل (قد) على الفعل (متُّ) ليشير إلى أنَّ الأمر محقَّق حصولُهُ لا محالة. وقوله: (لتكافحنَّ عليه بالسيوف) إشارة إلى ما يحصل مِن شِدَّة التنازع على المال.

[١٤٧]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

لَمَّا أَتَاهُ فَتْحُ الْقَادِسِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْفَتْحِ

«إِنِّي حَرِيصٌ عَلَى أَلَّا أَدَعَ حَاجَةً إِلَّا سَدَدْتُهَا مَا اتَّسَعَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ، فَإِذَا عَجَزَ ذَلِكَ عَنَّا تَأَسَّيْنَا فِي عَيْشِنَا حَتَّى نَسْتَوِيَ فِي الْكَفَافِ، وَلَوَدِدْتُ أَنَّكُمْ عَلِمْتُمْ مِنْ نَفْسِي مِثْلَ الَّذِي وَقَعَ فِيهَا لَكُمْ، وَلَسْتُ مُعْلِمَكُمْ إِلَّا بِالْعَمَلِ. إِنِّي - وَاللهِ - مَا أَنَا بِمَلِكٍ فَأَسْتَعْبِدَكُمْ، وَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ عَرَضَ عَلَيَّ الْأَمَانَةَ، فَإِنْ أَبَيْتُهَا وَرَدَدْتُهَا عَلَيْكُمْ، وَاتَّبَعْتُكُمْ حَتَّى تَشْبَعُوا فِي بُيُوتِكُمْ وَتَرْوَوْا، سَعِدْتُ. وَإِنْ أَنَا حَمَلْتُهَا، وَاسْتَتْبَعْتُهَا إِلَى بَيْتِي، شَقِيتُ، فَفَرِحْتُ قَلِيلًا وَحَزِنْتُ طَوِيلًا، وَبَقِيتُ لَا أُقَالُ وَلَا أُرَدُّ فَأُسْتَعْتَبَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب الناس بعد فتح القادسية.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي حَرِيصٌ عَلى أَلا أَدَعَ حَاجَةً إِلا سَدَدْتُهَا مَا اتَّسَعَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ، فَإِذَا عَجَزَ ذَلِكَ عَنَّا تَآسَيْنَا فِي عَيْشِنَا حَتَّى نَسْتَوِيَ فِي الْكَفَافِ**) تنكير (حاجة) للإفراد، والقصر في (إلا سددتها) حقيقي تحقيقي. وقوله: (اتَّسع بعضنا لبعض) كناية عن التوافق بينهم والألفة واحتمال بعضهم بعضًا، وقوله: (فإذا عجز ذلك عنَّا) قلب الإسناد؛ إذ مقتضى الكلام أن يقول: (فإذا عجزنا عن ذلك) ولكنَّه لم

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٨٣، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ٩/ ٦٣٦.

يسند العجز لهم كراهة له وتفاؤلًا بعدم وقوعه. وقوله: (**وَلَوَدِدْتُ أَنَّكُمْ عَلِمْتُمْ من نَفْسِي مِثْلَ الَّذِي وَقَعَ فِيهَا لَكُمْ**) أَكَّدَ كلامه باللام والقسَمِ الذي دلَّتْ عليهِ و(أنَّ)؛ لتأكيد المعنى في نفسِ السامعِ والإشارةِ إلى حرصِه على وقوع طلبِهِ. وقوله: (مِثْلَ الَّذِي وَقَعَ فِيهَا لَكُمْ) أضاف (مثل) إلى الاسم الموصول (الذي) ليكسبه المعنى المتضمَّن في جملة صلة الموصول. وقوله: (**وَلَسْتُ مُعْلِمَكُمْ إِلا بِالْعَمَلِ**) استعمل اسم الفاعل (مُعْلِمَكُمْ) للدلالة على ثبوت الحدث، فلمَّا أدخل عليه (ليس) دلَّ ذلك على ثبوت النفي، لذا كان القصر حقيقيًّا تحقيقيًّا. وقوله: (**إِنِّي وَاللهِ مَا أَنَا بِمَلِكٍ فَأَسْتَعْبِدَكُمْ، وَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ عَرَضَ عَلَيَّ الْأَمَانَةَ، فَإِنْ أَبَيْتُهَا وَرَدَدْتُهَا عَلَيْكُمْ وَاتَّبَعْتُكُمْ حَتَّى تَشْبَعُوا فِي بُيُوتِكُمْ، وَتُرْوَوْا، سَعِدْتُ، وَإِنْ أَنَا حملتها واستتبعتها إِلَى بَيْتِي شَقِيتُ، فَفَرِحْتُ قَلِيلًا، وَحَزِنْتُ طَوِيلًا، وَبَقِيتُ لا أُقَالُ وَلا أُرَدُّ فَأُسْتَعْتَبُ**) هنا بدأ بمعنى جديد، فبين هذا الكلام وما قبل كمال انقطاع، لذا فصل ولم يعطف بالواو. وقوله: (إنِّي – والله – ما أنا بمَلِك) أكَّد الكلام بـ(إنَّ) والقَسَم وأكَّد النفي بـ(ما) بإدخال الباء على خبرها. وقوله: (إنَّما أنا عبد الله) القصر هنا حقيقي تحقيق، وقد وصف المقصور عليه بقوله: (عَرَضَ عليَّ الأمانةَ) ليقيِّد القصر به. وقوله: (الأمانة) كنَّى بها عن الخلافة وولاية أمور المسلمين لبيان حقيقتها. ثمَّ استعمل أسلوب المقابلة ليبيِّن أنَّ حاله مع الأمانة تحتمل أحد أمرين، فقابل بين: (إن أنا أبيتها ورددتها عليكم واتَّبعتكم حتَّى تشبعوا في بيوتكم وتُرووا سعدتُ) و(إن أنا حملتها واستتبعتها إلى بيتي شقيتُ) وبدأ بذكر الاحتمال الأوَّل للرعاية والاهتمام. ثمَّ حين وضَّح قوله: (شقيتُ) استعمل المقابلة مرَّة أخرى، فقابل بين: (ففرحتُ

قليلًا) و(حزنتُ طويلًا) وكان مقتضى السياق أن يقابل (قليلًا) بـ(كثيرًا) لكنَّه عدل إلى (طويلًا) إشارة إلى استمرار الحزن. وقوله: (فبقيت لا أُقال ولا أُرَدُّ فأُستعتَب) بنى هذه الأفعال الثلاثة للمفعول تأكيدًا لعدم وجود فاعل يقوم بها.

[١٤٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَوْلَا أَنْ أَسِيرَ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ أَضَعَ جَنْبِي للهِ فِي التُّرَابِ، أَوْ أُجَالِسَ قَوْمًا يَلْتَقِطُونَ طَيِّبَ الْكَلَامِ كَمَا يُلْتَقَطُ طَيِّبُ التَّمْرِ؛ لَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ لَحِقْتُ بِاللهِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يذكر الأمر الذي يمنعه مِن الرغبة في الموت.

البيان والبلاغة: استخدم (لولا) الامتناعية لبيان ما يمنعه مِن طلب الموت؛ ليشير إلى أنَّ الرَّغبة عنده حاصلة في طلب الموت ولم يمنعه مِن ذلك إلا وجود الأمور التي سيذكرها، وأكَّد هذه الرغبة بقوله في جواب (لولا): (لأحببتُ ...). وقوله: (أسير في سبيل الله) كناية عن السعي في كلِّ ما يرضي الله تعالى، وقوله: (أضع جنبي لله في التراب) كناية عن التواضع لله تعالى، وقوله: (أجالس قومًا يلتقطون طيِّب الكلام) كناية عن شهود حلقات العلم والذكر والقرآن خاصَّة؛ إذ القرآن هو أطيب الكلام، وقوله: (لحقتُ بالله) كناية عن طلب الموت. وقد استعمل عمر رضي الله عنه هذه الكناية القريبة الواضحة في المواضع الأربعة ليحمل نفس المخاطَب على تأمُّل معاني ومقاصد هذه الكنايات فيستقر فيها معانيها. وتشبيه التقاط طيِّب الكلام بالتقاط طيِّب التمر لأنَّ أصحاب الفطر السليمة تحرص على كلٍّ.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّف» (١٩٧٦٥)، والبَلاذُرِيُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٤٢.

[١٤٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، «حَيْثُ كَانَ الْمَاءُ كَانَ الْمَالُ، وَحَيْثُ كَانَ الْمَالُ كَانَتِ الْفِتْنَةُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن كيف يكون الماء استدراجًا للفتنة، كما في الآية الكريمة.

لطائف لغوية: (كان) الواردة في هذا النصِّ في المواضع الأربعة تامَّة.

البيان والبلاغة: استخدم أسلوب الشرط بـ(حيث) المكانية لبيان أنَّ المكان الذي يكون فيه الماء يكون فيه الخير والمال، ثمَّ استخدم الأسلوب نفسه ليبيِّن أنَّ المكان الذي يكون فيه المال تحدثُ فيه الفتنة. وبين (الماء) و(المال) جناس ناقص.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (٤٠).

[١٥٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكْنِي أَبْنَاءُ الْهَمَذَانِيِّين وَالْإِصْطَخْرِيِّينَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْعَجَمِ، وَأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ الْعَرَبِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يدعو الله تعالى يطلب منه أن يقيه شرَّ أبناء الفُرس.

البيان والبلاغة: قوله: (**اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكْنِي أَبْنَاءُ الْهَمَذَانِيِّينِ وَالْإِصْطَخْرِيِّينَ**) أدخل (لا) الناهية على الفعل (يدركني) المسند إلى (أبناء) وليس هذا النهي على ظاهره، وإنَّما يطلب مِن الله تعالى أن يَحول دون أن يُدركوه بمكرهم وشرِّهم، وابتداؤه الكلام بنداء الله تعالى فيه إشارة إلى ذلك. وجاء في روايةٍ (**اللهمَّ لا تُدركني أبناء الهمذانيات والإصطخريات**) أضافهم إلى أمهاتهم ولم يضفهم إلى آبائهم؛ تحقيرًا لهم وتنبيهًا إلى الأمر الذي خشيه منهم وهو المكر الذي يُعرف به النساء، وكذا أنَّث الفعل (تدركني) لهذا المعنى.

١- رواهُ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٦٢٥، وعزاهُ للإسماعيليِّ.

[٣٠١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لسَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ(١)

«إِنِّي أَرَاكَ كَأَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا، أَرَاكَ تَظُنُّ أَنِّي قَتَلْتُ أَبَاكَ، إِنِّي لَوْ قَتَلْتُهُ لَمْ أَعْتَذِرْ إِلَيْكَ مِنْ قَتْلِهِ، وَلَكِنِّي قَتَلْتُ خَالِيَ الْعَاصَ بْنَ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ(٢)، فَأَمَّا أَبُوكَ فَإِنِّي مَرَرْتُ بِهِ وَهُوَ يَبْحَثُ بَحْثَ الثَّوْرِ بِرَوْقِهِ(٣)، فَحِدْتُ عَنْهُ(٤)، وَقَصَدَ لَهُ ابْنُ عَمِّهِ عَلِيٌّ فَقَتَلَهُ»(٥).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يبحثُ بحْثَ الثَّور بِرَوْقِه**): قال في المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: «بَحَثَ عن الأمر بحثًا، مِن باب نفع: استقصى، وبَحَثَ في الأرض: حفرها، وفي التنزيل: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣١]». وفي غريب الحديث للخطابي: «كالثَّور يَحمي أنفه بِرَوْقِه، معناه: يَذُبُّ عن

١- سعيدُ بنُ العاصِ بنِ أبي أُحَيْحَةَ الأُمَوِيُّ، قُتِل أبوهُ يومَ بدرٍ مشركًا، وخلفَ سعيدًا طفلًا. وكان أميرًا، شريفًا، جوادًا، مُمَدَّحًا، حليمًا، وَقُورًا، ذا حزمٍ وعقلٍ، يصلحُ للخلافةِ. ولي أمرَ الكوفةِ لعثمانَ بنِ عفَّانَ، وغزا طبرستانَ فافتتحها، وكان يومَ الدَّارِ معَ المُقاتِلةِ يذبُّ عن عثمانَ. وقدِ اعتزلَ الفتنةَ، فأحسنَ، ولم يقاتلْ معَ معاويةَ. «سير أعلام النُّبلاء» ٣/ ٤٤٤-٤٤٥.

٢- وذلك أنَّ أبا لهبٍ وجَّه العاصَ بنَ هشامٍ المخزوميَّ مكانَه، وكانَ قد لاعبه على إمرةٍ مطاعةٍ، فقمرَه، فبعثَه إلى بدرٍ بديلًا منهُ، فقتَله عمرُ بنُ الخطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -. «أنساب الأشراف» ٤/ ٣٠٣.

٣- الرَّوْقُ: القَرْنُ. انظر: «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (روق).

٤- فائدة: قال الحافظُ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٤٦٤: (فأمَّا ما يذكرُه بعضُ مَن لا يَعلَمُ مِن أنَّ عمرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قتلَ أباهُ - أي الخطَّابَ - يومَ بدرٍ؛ فغلطٌ، ولم يكن أبوه حيًّا يومئذٍ، بل لم يحضرْ بدرًا معَ المشركينَ أحدٌ مِن بني عديٍّ بإجماعِ أمَّهاتِ المغازي).

٥- رواهُ ابنُ هشامٍ في «السِّيرةِ النَّبويَّةِ» ٢/ ٢٠٢.

نَفْسه بقَرْنِه، والرَّوْق: القَرْن، وقال الشاعر:

فظَلَّ يعجم أعلى الرَّوْق منقبضًا   في حالِك اللَّون صِدْق غَير ذي أوَدِ».

مقتضى الحال: ورد في الروض الأنف للسهيلي مناسبة هذا النَّص: «بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس في المسجد - وعمر يومئذ أمير المؤمنين - إذ مرَّ به سعيد بن العاص رضي الله عنه، فسلَّم عليه، فقال له عمر: ...» هذا النَّص.

لطائف لغوية: ورد في النَّص قوله: **(إنِّي أراك كأنَّ في نفسِك شيئًا)**، والذي يشتهر عن **(كأنَّ)** وهي إحدى أخوات **(إنَّ)** أنها للتشبيه، وإلى هذا ذهب بعض العلماء ولم يجعلوا لها معنى غيره، وما خرج عن معنى التشبيه أوَّلوه بمعناه. والذين جعلوها لغير التشبيه جعلوا لها معاني أخرى، ننقلها بإيجاز من كلام المرادي في الجَنى الداني في حروف المعاني: «وجملة معاني (كأنَّ) أربعة معانٍ: الأوَّل: التَّشبيه، ولم يثبت لها أكثر البصريين غيره. الثاني: التحقيق. ذهب الكوفيون، والزجاجي إلى أنها قد تكون للتحقيق دون تشبيه، وجعلوا منه قول عمر بن أبي ربيعة:

كأنَّني حين أُمسي لا تكلمني   ذو بغية، يشتهي ما ليس موجودا

الثالث: أن تكون للشَّك، بمنزلة ظننت. ذهب إلى ذلك الكوفيون، والزجاجي، قالوا: إن كان خبرها اسما جامدا كانت للتشبيه، وإن كان مشتقًّا كانت للشَّك، بمنزلة ظننت. وإلى هذا ذهب ابن الطراوة، وابن السيد. قال ابن السيد: إذا كان خبرها فعلا أو جملة أو صفة = فهي للظَّن والحسبان، نحو: كأنَّ زيدًا قام، وكأن زيدًا أبوه قائم، وكأن زيدًا قائم.

الرابع: التقريب. هذا مذهب الكوفيين؛ ذهبوا إلى أنَّ (كأنَّ) تكون للتقريب،

وذلك في نحو: كأنَّك بالشتاء مقبل، وكأنَّك بالفَرَج آتٍ، وقول الحسن البصري: (كأنَّك بالدنيا لم تكن، وكأنَّك بالآخرة لم تزل)، والمعنى على تقريب إقبال الشتاء، وإتيان الفَرَج، وزوال الدنيا، ووجود الآخرة».

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه مخاطبا سعيد بن العاص رضي الله عنه بقوله: (**إني أراك كأنَّ في نفسِك شيئًا**)، فالجملة مؤكَّدة بـ (**إنَّ**) الثقيلة التي تفيد التوكيد المنافي للشَّك والمزيل للظنون، فهو يؤكد على ما يقول؛ لوثوقه بما عنده من العِلم، وجاء هذا التأكيد متناسقًا مع كلمة (**أراك**) التي هي من الرأي، وهو العِلم الذي ينافي الشَّك؛ فمعنى العبارة: (علمي مؤكَّد ...). وهذا التناسب بين الكلمتين الأولين قد يعكِّره ما في الكلمة الثالثة من الشَّك؛ فإنَّ (**كأنَّ**) كما سبق من كلام المرادي تفيد الشَّك - عند بعضهم -، ولو أخذنا بهذا الرأي فيكون مجيء الشَّك مع هذين التوكيدين؛ لاستبقاء شيء من العذر لسعيد حيث يدع له سعة من القول لينفي عنه ما اتهمه به عمر رضي الله عنه ، فكأنه يقول له: (أنت على سعة من قبول اللوم الموجَّه لك أو نفيه). وينتفي الإيراد على ما سبق بجعل (**كأنَّ**) للتشبيه - على رأي بعضهم -، فيكون معنى الجملة: (إني أراك وحالك يشبه حال الذي في نفسه شيء)؛ ليكون في الجملة تشبيه مع حذف المشبَّه به. وقوله: (**شيئًا**) نكرة أفادت العموم؛ فيكون هذا الشيء الذي في نفس سعيدٍ رضي الله عنه قابلا للتخمين؛ هل في نفسه حزن، أم غضب، أم ماذا؟ ولكن هذا التخمين لا يطول حتى يجد تفسيرا، وهو قوله: (**أراك تظن أني قتلت أباك**)، فانكشف الإبهام في كلمة (**شيئًا**) بهذه الجملة وخُصص بها؛ حيث هو غضب سعيد من عمر رضي الله عنهما لظنه أنه قاتل أبيه. وقوله: (**أراك**) كرَّرها مرة أخرى، وهذا التكرار فائدته التنويه على أهمِّية المكرَّر؛ ليدل على أنَّ عمر رضي الله عنه مهتم بما يلج

في نفس سعيد. وجاءت هذه الجملة مفصولة عن سابقتها ولم تتصل بها بشيء من حروف الربط؛ ليؤسِّس لجملة جديدة، وفائدة هذا التأسيس التأكيد على المعنى الذي تتضمنه هذه الجملة. وفي هذه الجملة عاد إلى الظن مرة أخرى بقوله: (**تظن أني قتلت أباك**)، ولكن قد يكون الظن - هنا - بمعنى العِلم والاعتقاد؛ حيث (ظنَّ) من الأضداد، وعلى الحالتين فالظن هذه المرَّة من سعيد لا من عمر، فيكون المعنى: (أظنك تظن أني ...). وهنا يفتح عمر رضي الله عنه قضية عظيمة، وهي أنَّ رجُلا يواجه آخر يظنُّ أنه قتل أباه من قبل، ولابد أنَّ سامع الحوار بين الرجلين يترقب ما يكون بعد ذلك. ثم يستأنف بجملة جديدة بينها وبين التي تليها فصل، تستقل بمعنى جديد مرتبط بما سبقه، وهو قوله: (**إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله**)، ولكن هل سيعتذر عمر رضي الله عنه لسعيد إن كان قتل أباه؟! أم يطلب منه تبرئته، ويؤكد له على أنه ليس مَن قتله ليطيب خاطره؟! ليس هذا ولا ذاك، بل إنه يبرِّئ نفسه من قتل العاص الأموي لا معتذرًا ولا متأسفًا، وينبئه بقتل العاص المخزومي، وهو خال عمر، وهو أعز على قلبه من أبي سعيد؛ ذلك أنَّ عمر رضي الله عنه قتل خاله العاص ببدر، فكأنه يقول له لا تهتم لقتل أبيك، كما أنني لا أهتم لقتل خالي، وهذه هي مزية عمر عن الناس أنه لا تأخذه في الله لومة لائم، فهو يقول له: (**ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة**)، فكأنه يقول له: (لو كنت قتلت أباك فلن آسى على قتله، وأنت فلا تأسَ على قتله، لأنني لم آسَ على قتل خالي). وهذا المعنى يشعر به الاستدراك الذي وقع في كلمة (**لكنَّ**) التي تفيد الاستدراك، فهو يستدرك على سعيد ظنه وفهمه بتخطئته ويطالبه بتصحيح علمه. وإيراد عمر رضي الله عنه لاسم خاله كاملا، ليس لرفع الإيهام عنه فلو كان قال: (خالي العاص) لكفى؛ لشهرة خاله، وشهرة عمر، فالرجل العَلم بين الناس لا يخفى عليهم حاله، ولا مَن هو عمه أو

خاله، هذا وإنَّ العاص بن هشام كان من سادات مخزوم، ولكنه ذكر اسمه تامًّا على طريقة العرب في حال فخرها بآبائها. وكأنَّ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يريد إعلامه بأنَّ هذا الذي ذكرتُ لك آباءه وأجداده - وهم مَن علمتَ من السيادة والرياسة، ومع هذه السيادة فهو خالي - فقد مددت يدي إليه بالقتل، فقتل أبيك - يا سعيد - عندي أهون. وفيما سبق من النَّص تكررت كلمة (إني) ثلاث مرات، مرَّتين بكسر الهمزة، ومرَّة بفتحها، وهذا شائع في كلام عمر؛ حيث هو من المكثرين للتوكيد. وفي جملة (**أراك كأن في نفسك**) تكررت الكاف ثلاث مرات فأعطت لحنًا جميلا. وورد الفعل (**قتل**) ومشتقاته ثلاثًا، ورابعة تأتي فيما بعد، وهذا التكرار يشبه الذي حصل لكلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في سورة النَّاس؛ حيث إنَّه لما كان الحديث جارٍ عن قتل رجُل تكررت الكلمة؛ لتستوفي المعنى في بيان مَن هو القاتل. وفي قوله: (**أراك**) وقوله: (**أباك**) جناس ناقص وسجع. وقوله: (**فأمَّا أبوك فإني مررت به يبحث بحث الثور بروقه**): في هذه الجملة يبيِّن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لسعيد الحال التي قُتل بها أبوه مصوِّرًا له الحالة بتشبيه أبيه بالثور في حال بحثه بقرنه، ونوع هذا التشبيه هو التشبيه التمثيلي؛ حيث يصوِّر لنا مشهدًا كاملا؛ حيث الشخوص والزمن والقصة، وذلك أدعى لاستيعاب الحال وتصوره تصورا كاملا. والظاهر أنَّ المراد بالبحث في قول عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ما بينته غير رواية من أنَّ البحث هو الحفرُ في الأرضِ كناية عن الإصابة والسقوط في الأرض، فيكون حاله حال الثور الصريع في الأرض، وقد جاء في الروض الأنف للسهيلي قال: «زعموا أن عمر قال: رأيته يبحث التراب كأنه ثور». وفي قوله: (**فحدتُ عنه**): بيان أنَّ الحال على عكس ما كان يظنُّ سعيد، وهو عزوف عمر عن قتله، وإنما قاتِله - كما في النص - هو عِليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ، وهذا قوله: (**وقصد له ابن عمِّه عليٌّ فقتله**). وفي قوله: (**حدتُ**) وقوله: (**قصد**) طباق.

[٣٠٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«عَلَيْكُمْ بِالْجَمَالِ وَاسْتِصْلَاحِ الْمَالِ، وَإِيَّاكُمْ وَقَوْلَ أَحَدِكُمْ: مَا أُبَالِي»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين حال ولا زمان ولا مكان هذا القول.

لطائف لغوية: قوله: (**عليكم**)، و(**إيَّاكم**): الأوَّل اسم فعل أمر سبق الحديث عنه في النَّص رقم أربعة وعشرين ومئتين، والثَّاني أسلوب تحذير سبق الحديث عنه في النَّص رقم واحد ومئتين، فليراجعهما المستزيد.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بمعنى صارم وقول حازم، باسم فعل الأمر (**عليكم**)، والأمر في اللغة طلب يقتضي التنفيذ، وكونه من خليفة ذي سلطان يجعل الطلب أقوى، وكونه من رجُل كعمر رضي الله عنه من حيث قوَّته في دين الله وكون طاعته مرضاة لله، وكونه رجلا ذا قوة ومهابة وشدَّة = كل ذلك كافٍ ليكون الأمر قد بلغ من القوة مبلغًا عظيمًا. وليس هذا وكفى، بل للصيغة التي أوردها عمر رضي الله عنه ما يزيد على تلك القوة كِفلا راجحًا؛ حيث أورد الأمر بصيغة اسم فعل الأمر في قوله: (**عليكم**)، وهذه الصيغة يستحسنها علماء اللغة لما فيها من الخفَّة والسُّرعة والاختصار والإيجاز والمبالغة. قال ابن يعيش: «والغرض منها الإيجاز، والاختصار، ونوع من المبالغة»، ومعنى اسم الفعل - هنا - الزموا. و(**الباء**) بعد اسم الفعل بقوله: (**عليكم بالجِمال**) تفيد معنى الاستعانة فيكون مجموع المعنيين،

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (٦٤) و(١٥٥).

أعني (**عليكم**) و(**الباء**): الزموا استعانتكم بالجِمال. وخصَّ الجِمال عن سائر ما يُركَب؛ لقوَّتها حيث تحمل ما لا يحمله غيرها، وتعمل ما لا يعمله غيرها، وكونها مما اختص به العرب عن غيرهم، وشهرتها في بلادهم أكثر منها في غيرهم، ولشرفها، حيث عظَّم الله - تعالى - أمرها في كتابه بقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]. ثم عطف على الجملة الأولى جملة أخرى، وذلك قوله: (**واستصلاح المال**). وعلاقة هذه الجملة بالتي قبلها: أنَّ الإبل في تربية الإبل والاهتمام بها صلاحًا للمال؛ لما سبق بيانه من قدرتها على الحمل، وكونها سفينة العرب في صحرائهم؛ فهي التي جعلتهم ينتقلون صيفًا وشتاءً بين الشام واليمن في رحلتي الصيف والشتاء؛ فالإبل بذاتها جزء من المال، واتخاذها للعمل جزء من استصلاح المال. والعطف بين الجملتين من باب عطف العام على الخاص؛ حيث المال أعم من الجِمال، وسبق لنا - في النَّص رقم ثلاثة وثمانين ومئة - أن نقلنا كلامًا لمعنى المال وكونه عامًّا لكل ما يملكه الناس من ذهب وفضة وعقار وحيوان وغير ذلك. وتقديمه الجِمال - وهي الأخص - على المال؛ لكون الجِمال أنفس أموال العرب، وأحظاها عندهم. وفي الجملة إيجاز بالحذف تقديره: وعليكم باستصلاح المال. والجملتان السابقتان فيهما أمر يقتضي الطاعة، وسجع ظاهر، وفيهما طلب فعل، وجاءتا متصلتين برابط الوصل (الواو)، وفيهما إيجاز بالقِصَر حيث الجُمل القصيرة ذات المعاني الكثيرة.

أمَّا القِسم الثاني من النَّص؛ فهو: نهي وطلب ترك، وذلك قوله: (**وإياكم وقول أحدكم: ما أبالي**). فلمَّا فرغ في الجملتين الأوليين من الأمر وطلب الفعل، حثَّ النَّاس في الجملة التي تليها على التَّرك ومجانبة الفعل؛ ليجتمع لهم خيران: خير

العمل والترك. وجاء النَّهي باستخدام أسلوب من أساليب العربيَّة، وهو التحذير، وفي هذا الأسلوب من قوة المعنى ما في استعمال اسم الفعل من المعنى؛ حيث القصر والإيجاز والاختصار مع المبالغة وزيادة المعنى، وتقدير الجملة: أحذِّركم واحذروا قول أحدكم: ما أبالي. ويظهر مما سبق أنَّ في الجملة حذفًا كثيرا؛ ففي أولها حذف فعل الأمر وما عطف عليه، وفي آخرها حذف المفعول من جملة (**ما أبالي**)؛ حيث لم نعلم ما هو الشيء الذي لا يبالي به، وهذا الحذف يبعد المعنى عن التخصيص ويجعله أكثر عمومية، ويبقي للتخمين مجالا واسعًا؛ حيث قد يكون المعنى: ما أبالي بالجِمال، ولا صلاح المال، أو: ما أبالي أخسرتُ مالي أم ربحتُ، أو أي شيء يصلح ليكون دالًّا على المحذوف الذي يتحدث في سياقه عن المال والكسب. ونرى أنَّ الجملتين السابقتين فيهما طلب فعل، وليس في الجملة الثالثة طلب ترك فعل، بل طلب ترك قول، ومما لابد من فهمه أنَّ طلب الكف عن الفعل يكون من باب أولى؛ حيث النَّهي عن القول يستلزم النهي عن الفعل، وهذا يسمَّى قياس الأَوْلى. وفي الجملة طباق حيث (**عليكم**) ضد (**إياكم**).

[٣٠٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

«أَيُّهَا النَّاس، إِنَّ بَعْضَ الطَّمَعِ فَقْرٌ، وَإِنَّ بَعْضَ الْيَأْسِ غِنًى، وَإِنَّكُمْ تَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ، وَتَأْمُلُونَ مَا لَا تُدْرِكُونَ، وَأَنْتُمْ مُؤَجَّلُونَ فِي دَارِ غُرُورٍ. كُنْتُمْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ، فَمَنْ أَسَرَّ شَيْئًا أُخِذَ بِسَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَعْلَنَ شَيْئًا أُخِذَ بِعَلَانِيَتِهِ؛ فَأَظْهِرُوا لَنَا أَحْسَنَ أَخْلَاقِكُمْ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالسَّرَائِرِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ أَظْهَرَ شَيْئًا وَزَعَمَ أَنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ لَمْ نُصَدِّقْهُ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا عَلَانِيَةً حَسَنَةً ظَنَنَّا بِهِ حُسْنًا. وَاعْلَمُوا أَنَّ بَعْضَ الشُّحِّ شُعْبَةٌ مِنَ النِّفَاقِ، فَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

أَيُّهَا النَّاس، أَطِيبُوا مَثْوَاكُمْ، وَأَصْلِحُوا أُمُورَكُمْ، وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَلَا تُلْبِسُوا نِسَاءَكُمُ الْقَبَاطِيَّ[1]؛ فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَشِفَّ[2] فَإِنَّهُ يَصِفُ.

أَيُّهَا النَّاس، إِنِّي لَوَدِدْتُ أَنْ أَنْجُوَ كَفَافًا لَا لِي وَلَا عَلَيَّ، وَإِنِّي لَأَرْجُو إِنْ عُمِّرْتُ فِيكُمْ يَسِيرًا أَوْ كَثِيرًا أَنْ أَعْمَلَ بِالْحَقِّ فِيكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَأَلَّا يَبْقَى أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - وَإِنْ كَانَ فِي بَيْتِهِ - إِلَّا أَتَاهُ حَقُّهُ وَنَصِيبُهُ مِنْ مَالِ اللهِ، وَلَا

١- جمع قُبطية؛ قال ابن الأثير في «النهاية» ٤/ ٦: (القُبْطِيَّةُ: الثَّوبُ مِن ثِيابِ مِصرَ رَقيقةً بيضاءَ، وكأنَّه منسوبٌ إلى القِبْطِ، وهم أهلُ مِصرَ. وضمُّ القافِ مِن تغييرِ النَّسَبِ، وهذا في الثِّيابِ، فأمَّا في النَّاس فقِبْطِيٌّ، بالكسرِ).

٢- قال ابنُ الأثيرِ في «النِّهاية» ٢/ ٤٨٦: (يقالُ: شَفَّ الثَّوبُ يَشِفُّ شُفُوفًا: إذا بدا ما وراءَه ولم يَستُرْهُ؛ أي إنَّ القَبَاطِيَّ ثيابٌ رِقاقٌ ضعيفةُ النَّسْجِ، فإذا لَبِسَتْها المرأةُ لَصِقَتْ بأَردافِها فوَصَفَتْها، فنَهى عن لُبْسِها، وأَحَبَّ أن يُكْسَيْنَ الثِّخانَ الغِلاظَ).

يُعْمِلُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ، وَلَمْ يَنْصُبْ إِلَيْهِ يَوْمًا. وَأَصْلِحُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي رَزَقَكُمُ اللهُ، وَلَقَلِيلٌ فِي رِفْقٍ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فِي عُنْفٍ. وَالْقَتْلُ حَتْفٌ مِنَ الْحُتُوفِ، يُصِيبُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ، وَالشَّهِيدُ مَنِ احْتَسَبَ نَفْسَهُ. وَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ بَعِيرًا فَلْيَعْمِدْ إِلَى الطَّوِيلِ الْعَظِيمِ فَلْيَضْرِبْهُ بِعَصَاهُ، فَإِنْ وَجَدَهُ حَدِيدَ الْفُؤَادِ فَلْيَشْتَرِهِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(الشُّح)**: قال في العين: «والشُّح: البخل، وهو الحرص. وهما يتشاحان على الأمر: لا يريد كل واحد منهما أن يفوته. والنعت: شحيح وشحاح، والعدد: أشحة. وقد شح يشح شحا». وقال الأزهري في تهذيب اللغة: «وفي حديث عمر رضي الله عنه : **(لا تلبسوا نساءكم القباطي؛ فإنه إلا يشف فإنه يصف)**. ومعناه: أنَّ قَباطِيَّ مِصر: ثيابٌ دِقاق، وهي مع دِقَّتِها صَفِيقَة النَّسج؛ فإذا لبستها المرأة لَصقَت بأردافِها فوصفتها، فنهى عمر رضي الله عنه عن إلباسها النساء؛ لأنها تلزق بِبَدَن المرأة؛ لِرِقَّتِها فيُرى خَلْقُها وراءها من خارج ناتِئًا يَصِفُها، وأمر أن يُكْسَين من الثِّياب ما غَلُظ وجَفا؛ لأنه أستر لخَلْقِها». وأمَّا **(الكَفاف)** في قوله: **(إِنِّي لوددت أن أنجو كَفافا)**، فقد قال الزمخشري في أساس البلاغة: «وعنده كفاف من العيش: ما كفَّ عن الناس، أي: أغنى، ونفقته الكفاف، وليس فيها فضل. وليتني أنجو منه كفافًا لا لي ولا عليَّ. ودعني كفاف: تكفُّ عني وأكف عنك. قال رؤبة:

فليت حظّي من نداك الضّافي ... والنفع أن تتركني كفاف».

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢١٥-٢١٦. وشطرُه الأوَّلُ: «تَعْلَمُونَ أَنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ، وَأَنَّ الْإِيَاسَ غِنًى، وَأَنَّهُ مَنْ أَيِسَ مِمَّا عِنْدَ النَّاسِ اسْتَغْنَى عَنْهُمْ» رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ» (٦٣١) و(٩٩٨)، ووكيعٌ في «الزُّهدِ» (١٨٢)، وابنُ وهبٍ في «الجامعِ» (٤١٨)، وأحمدُ في «الزُّهدِ» (٦١٣)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٦٧، والدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٥٥١)، وابنُ المُقرِئِ في «المُعجَمِ» (٢٤١)، وأبو نُعَيمٍ في «حِلْيَةِ الأولياءِ» ١/ ٥٠، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٥٧.

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبيِّن الحال ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا النَّص، قد يكون في خطبة جمعة، أو موعظة من مواعظه في المسجد، أو في السوق، أو دار الخلافة، والله تعالى أعلم.

لطائف لغوية: وردت الفاء الفصيحة كثيرًا في النَّص، فما هي الفاء الفصيحة؟ يقول الشيخ عبد الغني الدقر في معجم القواعد العربية: «الفاء الفصيحة: هي التي يحذف فيها المعطوف عليه مع كونه سببًا للمعطوف من غير تقدير حرف الشرط، وقيل: سمِّيت فصيحة؛ لأنها تفصح عن المحذوف، وتفيد بيان سببيته، وقال بعضهم: هي داخلة على جملة مسببة عن جملة غير مذكورة، نحو قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠]، أي: ضرب فانفجرت، ونحو قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: ١٦٨ - ١٧٠]، التقدير: فجاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر فكفروا به، ومثله قول أبي تمام:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا».

والهاء في (**فإنه**) من قوله: (**فإنه مَن أظهر شيئًا**): ضمير الشأن، وقد سبق الحديث عنها في النَّص رقم ثمانية وسبعين ومئة، فليراجع هناك.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله: (**أيها الناس**)، وقد سبق بيان فائدة النداء بهذه الصيغة = عند شرح النَّص رقم اثنين وثلاثين ومئتين، وبيَّنا هناك لماذا لم يقلْ: يا ناس أو يا مؤمنون أو نحوها. ثمَّ لعلَّه من المناسب أنْ نقسِّم هذا النصَّ إلى جزأين: الأوَّل: من بدايته حتى بداية الجزء الثاني، الذي يبدأ بقوله: (**أيها الناس، إني**

لوددت ...)؛ حيث يختلف الجزءان من حيث الصيغة الكلامية والبيانية والموضوع؛ فموضوع الجزء الأول عن الزُّهد والتقلُّل من الدنيا وما يشبه ذلك، والثاني عن المال واقتنائه وإصلاحه. وقوله: **(إنَّ بعض الطمع فقر، وإنَّ بعض اليأس غنى)**: هاتان الجملتان بينهما موازنة، وهو تشابه الوزن والمقاطع، وهذا سيتكرر معنا في هذا النَّص كثيرًا، بل وبعضها فيه ما يسمَّى الترصيع، وهو - زيادة على ما في الموازنة - تشابه القافية مع الوزن والمقاطع، كما أن الجُمل يكثر فيها التوكيد بـ **(إنَّ)** المثقلة، والتوكيد يزيد من ثقة السامع بكلام المتكلم، وثقة المتكلم بكلام نفسه، ونفي الشك من نفس السامع، وهذا سيكثر في هذا النَّص، وقد قدمنا الحديث عنه هنا لنستغني عن إعادته كلما ورد. كما اتصفت جُمل هذا النَّص بالقصر مع الإيجاز، وهذا القصر والإيجاز لابد منهما في نص طويل، وإلا لفسدت البلاغة وترهل الكلام لو طال، ولاجتمَع للمتكلم طول النَّص مع طول الجمل، وهذه مفسدة للبلاغة والفصاحة الذين يجعلان الإيجاز بلا خلل من سمات الفصحاء، ولذا سيكون الإيجاز كثيرًا هنا. نعود إلى الجُملة الأولى في النَّص وقوله: **(إن بعض الطمع فقر، وإن بعض اليأس غنى)**: على الأغلب أن يحصل الطامع على الغنى واليائس على الفقر، ولكن لما كان بعض الطمع بدون حاجة كان هذا الطمع فقرا؛ لأن صاحب الطمع لم يشبع من الدنيا، وهذا لن يشبعه شيء؛ لفقر نفسه، وسيجتهد في الدنيا اجتهاد الفقراء وطلبهم وتعبهم على غناه وعدم عوزه، ومثله اليائس من الدنيا والمكتفي منها بما يعطيه الكفاف فهو غني النفس لن يسعى في الأرض سعي المجهدين الفقراء، وسيكف باكتفائه من الدنيا عن الكد كما يفعل الأغنياء. وقوله: **(وإنكم تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون)**: في هذه الجملة ما تحدثنا عنه من السجع والإيجاز والترصيع، كما أن هذه الجملة مفسِّرة ومزيلة للإيهام في سابقتها، والجملة

التي تليها جاءت كخاتمة للجُمل السابقة، وهي قوله: (**وأنتم مؤجلون في دار غرور**). والجُمل السابقة ارتبطت ببعضها برابط (**الواو**) العاطفة، فبينها وصل، على خلاف الجُملة الآتية التي انفصلت عن الجُمل السابقة، فلا رابط بينها وبين ما سبقها من معنى ولا لفظ إلا روح السياق، والجملة هي قوله: (**كنتم على عهد رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – تؤخذون بالوحي**). فقوله: (**تؤخذون**) على صيغة ما لم يسمَّ فاعله، وهذا الإبهام في الفاعل يفتح بابًا للتأويل؛ حيث يجعل العقل يفكر، مَن هو الذي يأخذهم بالوحي؟ و(**الفاء**) في قوله: (**فمن أسرَّ شيئًا أخذ بسريرته**) تسمَّى الفصيحة، وهي التي تعطف على محذوف تدل عليه هذه الفاء، والمحذوف – هنا – يقدَّر بأن تقول: وأخذكم بالوحي فمَن أسرَّ شيئًا أخذ بسريرته. وقوله: (**أخذ بسريرته**): قد يكون معنى الأخذ هنا العذاب والحساب، فيكون معنى الجملة عذَّبه الله بسريرته، أو فضحه بها كما فضح المنافقين. وجاءت كلمة (**شيئًا**) نكرة فأفادت العموم. والباء في قوله: (**أخذ بسريرته**) هي السببية، أي: أخذ بسبب سريرته، وقال الشيء نفسه في الجملة التي تليها (**ومَن أعلن شيئا أخذ بعلانيته**). وفي الجملة – كما أسلفنا – موازنة، وفيها ما يسمَّى بالمقابلة؛ وهو: أن يكون في الجملة أكثر من طباق؛ حيث (**أسرَّ**) و(**سريرته**) ضد (**أعلن**) و(**علانيته**) وبالترتيب. ثم تأتي (الفاء الفصيحة) مرَّة أخرى في قوله: (**فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم**): والمحذوف الذي تدل عليه الفصيحة – هنا – يقدَّر بقولك: من أجل ما سبق ذكره فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم، أي: قد ذهب زمن الأخذ بالسِّرِّ لذهاب زمن الوحي، أمَّا الآن فلا نحكم إلا بالظاهر، ولا ترونا من ظاهركم إلا خيرًا، والله – تعالى – له الحكم على السرائر. والفاء الفصيحة – أيضًا – في الجملة التي تليها: (**فإنه مَن أظهر شيئًا وزعم أنَّ سريرته حسنة لم نصدقه**). وبعد

الفاء التوكيد بـ (إنَّ)، وضميرُ الشأن الذي سمي بهذا الاسم لأنه يعلي من شأن الشيء قبل سماعه والتحدث عنه، فهو أرجع الضمير إلى شيء لم يذكر بعد لتتهيأ الأسماع إلى سماعه وتتنبه له، وهنا يبيِّن أنَّ زعم النوايا الحسنة قد ولَّى ولا حكم إلا بالظاهر، والذي يظهر العلانية الحسنة نظن به الحسنى، وهذا قوله: (**ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسنا**). وفي كلمتي (**سريرته**) و(**علانية**) طباق. ثم رجع إلى الأسلوب الذي بدأ به، فقال: (**واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق**)، غير أنه زاد في هذه الجملة قوله: (**اعلموا**)؛ لتفيد الحث على العِلم، وتؤكِّد على هذه الجملة، وتدل على عدم نسيانها. ولماذا لم يقل في الجُمل المشابهة لها قبل قليل (**اعلموا**)؟ قد يكون الجواب لأنَّ هذه الجملة فيها معنى يختلف؛ حيث الأمر المقرر - هنا - أهم منه هناك، هناك كان يتحدث عن الفقر والغنى والطمع واليأس، وهنا يتحدث عن النِّفاق والشُّح، ولكن كيف يكون بعض الشح نفاقًا؟ عندما يكون طلب الإنفاق في الجهاد ونصرة الحقِّ والجهاد = فإن من يُعرِضُ عن ذلك - مع قدرته - لا يكون إلا من المنافقين غالبا، ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. ثم عاد إلى أول النَّص في قوله وندائه: (**أيها الناس**) تلاها خمس جمل: الأولى والثانية والثالثة أمر، والرابعة نهي، والخامسة تعليل للنهي؛ والأمر قوله: (**أطيبوا**) (**أصلحوا**) (**اتقوا**)، وهذه الأوامر يربطها حرف العطف (**الواو**)، وقد يظن الظَّانُّ - بادي الرأي - ألَّا تناسب في الترتيب بين هذه الثلاثة، غير أن التناسب موجود؛ حيث ذكر طيب المثوى، وهو إمَّا مثواه في الآخرة أو القبر، ثم ذكر إصلاح الأمر الذي هو سبب في طيب المرء، ثم ذكر الأمر بتقوى الله - تعالى -، والذي هو سبب في الصلاح وطيب المثوى. ثم جاء بالنهي وهو قوله: (**ولا تلبسوا نساءكم القباطي**)، وقد يقول القائل: وما علاقة ما سبق

من الأمر بهذا النهي، فقد كان يتحدث عن الآخرة وتقوى الله - تعالى - وإصلاح الأمور، وهنا يتحدث عن لبس النساء الذي هو من الأحكام الفرعية، فما مناسبة هذا بهذا؟ نقول: لما انتهى من الوعظ والتذكير بالله وتقواه وأمر الآخرة، ضرب لكل ذلك مثلا من الأمثلة التي يجب أن نتقي الله بها وجعلها خاتمة للموضوع، وقد يقال: إن لبس القباطي كان من المشاكل التي اشتهرت بين الناس، فناسب التذكير بها؛ لإلحاح الحال على ذلك، أو ربما ما ساق تلك المواعظ إلا من أجل هذه القضية، فبدأ بتذكير الناس بالله - تعالى - ليلتزموا بها بعده، ثم علَّل النَّهي عن هذا اللباس بالجملة الأخيرة بقوله: (**فإنه إن لم يشِفّ فإنه يصف**): وهذه العبارة فيها لطف وجمال؛ حيث توفر السجع، مع جعل خبر (**إن**) جملة تبدأ بـ (**إن**)؛ حيث (**إنَّ**) واسمها يشبهان في اللفظ والتركيب الخبر.

ظل النَّص الذي بين أيدينا حتى الآن يحتفظ بأسلوب متقارب من حيث تركيب الجمل، وذلك هو الجزء الأول من النَّص. والجزء الثاني منه يبدأ هنا؛ حيث راق لعمر رضي الله عنه أن يغير الأسلوب، وأعاد ما بدأ به النَّص، وهو النداء على النَّاس بقوله: (**أيها النَّاس**)، ولعله لما أطال الكلام خشي ملل النَّاس وتشتت أذهانهم فناداهم؛ ليوقظ الغافل منهم، وينبِّه مَن أصابه الملال، ويعيدهم إليه مستمعين. وقوله: (**إني لوددت أن أنجو كفافًا لا لي ولا علي**): قد سبقت هذه العبارة في النَّص رقم واحد وخمسين ومئة بلفظ قريب، فراجعها هناك. وقوله: (**وإني لأرجو إن عُمِّرتُ فيكم يسيرًا أو كثيرًا أن أعمل بالحق فيكم - إن شاء الله -**): هذه الجملة ابتدأت بتوكيدين: (**إنَّ**) و(**اللام**)، ثم الرجاء، ولم يذكر في الجملة مَن هو الذي يرجوه، ولابد أنه يرجو الله، وهذا يدل على أنَّ في الجملة حذفًا تقديره: أرجو من الله - تعالى - .... وهذا الإيجاز

بالحذف قابله إطناب، فما نقص هنا سُرعان ما تمَّ وزاد بعدُ، بل تكرَّر الإطناب في الجملة مرَّتين؛ الأولى في قوله: (**إن عُمِّرتُ فيكم يسيرًا أو كثيرًا**)، والمرة الثانية في نهاية الجملة عند قوله: (**إن شاء الله**). وفي قوله: (**إن عُمِّرتُ فيكم يسيرًا أو كثيرًا**): بنى الفعل على ما لم يسمَّ فاعله، وعدم تسمية الفاعل جاءت بسبب العِلم به وهو الله – تعالى –. وقوله: (**يسيرا أو كثيرا**): في اللفظين طباق. وفي الجملة بيان أنه على كل حال من الأحوال؛ طال العمر أم قصر فإنه سيبقى على الحال التي هو عليها من العمل بالحق، وهذا قوله: (**أن أعمل بالحق**). وجاء المصدر مؤوَّلا؛ ليتسنى له ذكر الفعل المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار والتكرار والدوام، ومثله الفعل المضارع في قوله: (**ألّا يبقى أحد من المسلمين – وإن كان في بيته – إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله**). وفي الجملة حصر؛ حيث حصر ما قبل (**إلا**)، وهو قوله: (**ألَّا يبقى أحد**)، بما بعدها، وهو قوله: (**أتاه حقه ونصيبه**). إذن، فلن يشذ أحد من الناس إلا أتاه الحق والنَّصيب من مال الله – تعالى –. وجاءت كلمة (**أحد**) نكرة في سياق النَّفي، وهذا يدل على العموم في كل أحد من الناس، ولكن هذا العموم خصص بقوله: (**من المسلمين**)، وهذا من الإطناب، وفائدته التخصيص. وفي قوله: (**حقه ونصيبه**) عطف الكلمة على معناها، وهذا من الإطناب، وفائدته زيادة التأكيد في الحق والنَّصيب. وقوله: (**من مال الله**) تذكير للناس أنَّ المال الذي بين يديه هو من مال الله – تعالى – وأنه لا يعطيهم من ماله ولا مال أبيه، وهذا من التواضع أن يذكِّر الناس بحقِّهم عنده. وفي الجملة السابقة تكررت الجملة الاعتراضية مرتين، وهذه الجملة – وهي قوله: (**وإن كان في بيته**) – جملة معترضة جاءت بصيغة الشرط، غير أن هذا الشرط حُذِف منه الجواب وبقي فعل الشرط، وتقديره: وإن كان في بيته فلن يبقى، ولكن كيف سيصل إليه حقه من مال الله – تعالى –؟ الجواب في

قوله: (**ولا يعمل إليه نفسه، ولا ينصب إليه يومًا**)، أي: لا يعمل للذهاب إليه ولا ينصب ويتعب في طلبه، وإنما يأتيه الحق في بيته؛ فهاتان الجملتان تفسير وتوضيح لقوله: (**وإن كان في بيته**). تحدَّث النَّص في بدايته عن شيء مما يخص المال، ولكنه اختص به أكثر عند قوله: (**إني لوددت أن أنجو كفافا**)، ومازال الحديث بخصوص المال مستمرًا، حتى نحى منحى النَّصح باستعمال المال والتدبير، فقال: (**وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله**)، ولم يبيِّن في النَّص كيف يُصلِح الرجل ماله، هل بالتدبير، أم بالتجارة أم بغير ذلك؟ فترك الأمر ليكون أكثر عمومية. وقوله: (**أموالكم**): جمع مال، والمال يجمع لتعدد أنواعه؛ كالأنعام، والعقار، والذهب والفضة وغيرها. وهو يؤكد على المسلمين أنَّ هذا المال كله من عند الله - تعالى - بقوله: (**التي رزقكم الله**)، وقوله: (**ولقليل في رفق خير من كثير في عنف**)، ويؤكد على هذه الجملة بـ (**اللام**) التي هي للتوكيد. وفي الجملة مقابلة؛ حيث إنَّ فيها أكثر من طباق؛ فالكلمات (**قليل**) و(**رفق**) ضد الكلمات (**كثير**) و(**عنف**) وبالترتيب. كما أنَّ مقاطع هذه الجملة ووزنها متشابهة، وهذا يسمى بالموازنة. وقوله: (**والقتل حتف من الحتوف، يصيب البرَّ والفاجر**): (**اللام**) في قوله: (**القتل**) للاستغراق، بحيث تستغرق كل نوع من أنواع القتل، و(**مِن**) في قوله: (**حتف من الحتوف**): بيانية تفيد بيان نوع القتل وبأنه من الحتوف. وفي كلمتي: (**البرَّ**) و(**الفاجر**) طباق. ثم اختار أحد أصناف المقتولين، وهو الشهيد، فقال: (**والشهيد مَن احتسب نفسه**). وفي الجملة حذف تقديره: ومَن كان حتفه القتل، وكان احتسب نفسه عند الله - تعالى - وهو يقاتل = فهو الشهيد. وفي نهاية النَّص اتجه الحديث إلى الخصوص، خارجًا عن العموم؛ حيث كان النَّص يقدم نصائح لإصلاح المال، وكيفية تعامل الناس مع أموالهم، ثم ختم بمثال خاص، يبيِّن فيه كيف يشتري الرجل بعيرًا، وهذا كما

وقع في خاتمة الجزء الأول من النَّص؛ حيثُ ضرب مثالا على ما سبق من القول، وبخاتمة الجزء الثاني منه ضرب مثالا آخر على ما كان ينصح الناس به من القول، وذلك قوله: (**وإذا أراد أحدكم بعيرا فليعمد إلى الطويل العظيم فليضربه بعصاه**).

وهذه الجملة الشرطية تقوم على شرط يتحقق بتحقق شيء، ولا يتحقق هذا الشرط إلا بتحقق هذا الشيء؛ فأمَّا الشرط فهو إذا أراد أحد شراء بعير، والمطلوب منه أن يعمد إلى الطويل العظيم .... وفي الجملة حذف تقديره: وإذا أراد أحدكم أن يشتري بعيرًا فليعمد .... وفي قوله: (**فليضربه بعصاه**): (**الفاء**) هي الفصيحة، تدل على معطوف عليه محذوف، تقديره: وقد عمد إلى الطويل العظيم فليضربه بعصاه. وقوله: (**بعصاه**) ولم يقل (**بالعصا**)، ليرشد الشاري بأن يضربه بعصاه لا بعصا غيره، وأن يهتم بشأن نفسه فتكون له عصا، وهذا تنبيه منه رضي الله عنه وإرشاد منه إلى أن الرجل ينبغي له اقتناء ما لابد له من الآلة التي يصلح بها أعماله ومعاشه.

و(**الفاء**) الفصيحة شاهدة في هذا النَّص بكثرة، وهي في قوله: (**فإن وجده حديد الفؤاد فليشتره**)، وسبق أن قلنا: الفاء الفصيحة تكون عطفا على محذوف، وتقدير المحذوف - هنا -: وقد ضربه - أو وبعد ذلك - فإن وجده حديد الفؤاد فليشتره.

وهذه الجملة الأخيرة جملة شرط، القول فيها كالقول السابق فيما مرَّ بنا من الجمل الشرطية في النَّص. ختامًا؛ هذا النَّص مليء بضروب البيان والبديع والبلاغة، وهذه الكثرة من صنوف البلاغة يسميها العلماء بالإبداع.

[٣٠٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي يَبْقَى وَيَهْلِكُ مَنْ سِوَاهُ؛ الَّذِي بِطَاعَتِهِ يَنْتَفِعُ أَوْلِيَاؤُهُ، وَبِمَعْصِيَتِهِ يُضَرُّ أَعْدَاؤُهُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِهَالِكٍ هَلَكَ مَعْذِرَةٌ فِي تَعَمُّدِ ضَلَالَةٍ حَسِبَهَا هُدًى، وَلَا فِي تَرْكِ حَقٍّ حَسِبَهُ ضَلَالَةً. وَإِنَّ أَحَقَّ مَا تَعَهَّدَ الرَّاعِي مِنْ رَعِيَّتِهِ تَعَهُّدُهُمْ بِالَّذِي للهِ عَلَيْهِمْ فِي وَظَائِفِ دِينِهِمُ الَّذِي هَدَاهُمُ اللهُ لَهُ؛ وَإِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نَأْمُرَكُمْ بِمَا أَمَرَكُمُ اللهُ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ، وَأَنْ نَنْهَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمُ اللهُ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، وَأَنْ نُقِيمَ أَمْرَ اللهِ فِي قَرِيبِ النَّاسِ وَبَعِيدِهِمْ، وَلَا نُبَالِيَ عَلَى مَنْ كَانَ الْحَقُّ.

أَلَا وَإِنَّ اللهَ فَرَضَ الصَّلَاةَ، وَجَعَلَ لَهَا شُرُوطًا، فَمِنْ شُرُوطِهَا: الْوُضُوءُ، وَالْخُشُوعُ، وَالرُّكُوعُ، وَالسُّجُودُ.

وَاعْلَمُوا أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ[١]، وَأَنَّ الْيَأْسَ غِنًى، وَفِي الْعُزْلَةِ رَاحَةٌ مِنْ خُلَطَاءِ السُّوءِ. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَرْضَ عَنِ اللهِ فِيمَا أُكْرِهَ مِنْ قَضَائِهِ؛ لَمْ يُؤَدِّ إِلَيْهِ فِيمَا يُحِبُّ كُنْهَ شُكْرِهِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ للهِ عِبَادًا يُمِيتُونَ الْبَاطِلَ بِهَجْرِهِ، وَيُحْيُونَ الْحَقَّ بِذِكْرِهِ، رَغِبُوا فَرُغِبُوا، وَرَهِبُوا فَرُهِبُوا، إِنْ خَافُوا فَلَا يَأْمَنُوا، أَبْصَرُوا مِنَ الْيَقِينِ مَا لَمْ يُعَايِنُوا فَخَلَصُوا بِمَا لَمْ يُزَايِلُوا. أَخْلَصَهُمُ الْخَوْفُ فَهَجَرُوا مَا يَنْقَطِعُ عَنْهُمْ لِمَا

١- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (٩٩٨)، وابنُ وهبٍ في «الجامعِ» (٤١٨) بلفظِ: «وَإِنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ حَاضِرٌ».

يَبْقَى عَلَيْهِمْ، الْحَيَاةُ عَلَيْهِمْ نِعْمَةٌ، وَالْمَوْتُ لَهُمْ كَرَامَةٌ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**فخلصوا لما لم يزايلوا**): قال الرازي في مختار الصحاح: «وزيَّله فتزيَّل؛ أَيْ: فَرَّقه فتفرَّق، ومنه قوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، والمزايلة: المفارقة، يقال: زايله مزايلة و زيالًا، أي: فارقه. والتزايل: التباين».

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبيِّن حال هذا النَّص إلا كونه ورد في خطبة كما وقع في مقدمة النَّص من رواية أبي يوسف في كتاب الخراج ما نصه: «خطب عمر الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ...» هذا النَّص، ولم يبيِّن: إن خطبة جمعة، أو غير ذلك.

لطائف لغوية: ابتدأ النَّص بقوله: (**أمَّا بعد**)، وقد سبق الحديث عن معناها وفائدتها وأحكامها عند شرح النص رقم اثنين وسبعين ومئتين. و(**ألا**) في قوله: (**ألا، وإن الله فرض الصلاة**): قد سبق الحديث عنها وبيان أحكامها وفائدتها في شرح النَّص رقم تسعة وخمسين ومئة، كما سبق الحديث عن (**الواو**) بعدها عند شرح النَّص رقم اثنين وخمسين ومئة، وسنعيده هنا لأننا سنحتاج إليه بعد قليل، وقد قلنا هناك: ولا يقولنَّ قائل: الواو للعطف والعطف وصل لا فصل، فإن المباركفوري في «تحفته» أعرب الواو - نقلًا عن القاري - في الحديث: «**ألا، وإن لكل مَلِكٍ حِمَى**» أعربها استئنافية، والاستئناف فصل لا وصل، فقال: «قال القاري في المرقاة: الأظهر أن الواو هي الابتدائية التي تسمي النُّحاة الاستئنافية الدالة على انقطاع ما بعدها عمَّا قبلها في الجُمَل، كما ذكره صاحب المغني». وهي إذا اعتبرناها عاطفةً فليستْ عاطفة على ما قبل ألا، قال الكازروني: «إنه معطوف على لفظ «الإنباه» ...

١- رواهُ أبو يوسفَ في «الخراجِ» ص٢٣.

والأَوْلى أن يقال: الواو استئنافية دالة على انقطاع ما بعدها عمَّا قبلها». وقوله: (**وفي العزلة راحة من خلطاء السوء**): في هذه الجملة قدَّم الخبر على المبتدأ وجوبا، وقد سبق بيان أحكام ذلك – أيضا – عند شرح النَّص رقم ثلاثة ومئتين. ووردت الفاء الفصيحة في النَّص أكثر من مرَّة، وقد تحدَّثنا عن معناها وفائدتها في النَّص السابق وغيره، فليراجع ذلك المستزيدُ.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله: (**أما بعد**)، وقد سبق الحديث عنها مطولا في النَّص رقم اثنين وسبعين ومئتين، ثم قال: (**فإني أوصيكم بتقوى الله**)، وكنا تكلمنا في النَّص المشار إليه عن الحذف في جملة (**أما بعد**)، وهذا الحذف أعقبه حذف مثله فيما بعد دلَّت عليه الفاء، وهي الفصيحة، وهي التي تعطف على محذوف، ثم أتى بـ (**إنَّ**) التي للتوكيد؛ ليؤكِّد على كلامه، وقد ناسب التكثير من الحذف، والتأكيد؛ كون النَّص طويلا. وجاء الفعل (**أوصي**) مضارعًا؛ ليدل على الاستمرار والتجدد والتكرار. والباء في قوله: (**بتقوى**) للاستعانة، أي: فاستعينوا بتقوى الله – تعالى –، ولما طلب منهم التقوى بين لهم علة وسبب التقوى والاستعانة بالله؛ ليساعدهم ذلك على قبول الطلب الذي طلبه منهم، فقال: (**الذي يبقى ويهلك مَن سواه**). وجاء الفعل (**يبقى**) بصيغة المضارع، وقد ذكرنا قبل قليل ما في المضارع من الميزة عن غيره. وفي كلمتي: (**يبقى، ويهلك**) طباق. ثم تابع بوصف الله – تعالى – والثناء عليه؛ ليذكِّر الناس بأنه لم يطلب منهم أن يتقوا إلا عظيمًا، فتابع قائلا: (**الذي بطاعته ينتفع أولياؤه، وبمعصيته يُضر أعداؤه**). وفي هذه الجملة ما يسمى بالترصيع؛ وهو: تشابه مقاطع الجمل بالوزن والقافية، والذي فيه يقول قدامة الكاتب: «وأحسن البلاغة: الترصيع والسجع ...». وفي الجملة – كذلك – ما

يسمى بالمقابلة؛ وهو: أن يكون في الجملة أكثر من طباق واحد، كما في جملتنا؛ حيث الكلمات: (**بطاعته**) و(**ينتفع**) و(**أولياؤه**) ضد الكلمات (**معصيته**) و(**يضر**) و(**أعداؤه**) وبالترتيب نفسه. وقد سبق الحديث عن (**باء الاستعانة**) قبل قليل، وهي موجودة في قوله: (**بطاعته**) وقوله: (**بمعصيته**)، كما سبق الحديث عن دلالة الفعل المضارع، وهو هنا قوله: (**ينتفع**) و(**يُضر**). وقوله: (**فإنه ليس لهالك هلك معذرة في تعمد ضلالة حسبها هدى، ولا في ترك حق حسبه ضلالة**): هذه الجملة ابتدأت بضمير الشأن وهو إرجاع الضمير على ما لم يذكر بعد، وفائدة هذا الرجوع إلى ما لم يسمَّ = تحفيز العقل للتفكير والتدبر والتخمين، فينتبه العقل ويستعد الذهن لسماع ما يأتي. وفي كلمة (**هالك**) وكلمة (**هلك**) جناس ناقص، وفيهما ما يسمى باشتقاق اللفظ من اللفظ. وفي قوله: (**تعمد ضلالة حسبها هدى**)، وقوله: (**ترك حق حسبه ضلالة**) مقابلة؛ حيث الكلمات (**تعمد**) و(**ضلالة**) و(**هدى**) ضد الكلمات (**ترك**) و(**حق**) و(**ضلالة**)، وفيه موازنة؛ لتشابه الجملتين في المقاطع والوزن، وفيه ما يسمى بعكس اللفظ؛ حيث عكس الألفاظ وأخرج منها جملة جديدة، ولولا اختلاف القافية لوجد فيها ترصيع. وقوله: (**وإن أحق ما تعهد الراعي من رعيته تعهدهم بالذي لله عليهم في وظائف دينهم الذي هداهم الله له**): جاءت هذه الجملة طويلة طولا لم يعهد من عمر رضي الله عنه الذي تعودنا على نصوصه الموجزة القصيرة، ولعل طول الجملة ناتج عن احتياج أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى تقرير مسألة تحتاج إلى تدليل وبرهان. وفي لفظة (**الراعي**) و(**الرعية**) ما يسمى باشتقاق اللفظ من اللفظ، ومثله في كلمتي (**تعهَّد**) و(**تعهُّدهم**). وقوله: (**وإنما علينا أن نأمركم بما أمركم الله به من طاعته، وأن ننهاكم عما نهاكم الله عنه من معصيته**): بدأ الجملة بقوله (**إنما**) المكونة من (إنَّ)، و(ما)، و(إنَّ) تفيد التوكيد، و(ما) كافَّة، لا

تكف التوكيد ولا تبطله، وإنما تكف الإعراب فحسب. وفي هذه الكلمة حصرٌ؛ حيث حصر أمر الرعية بما أمرهم به الله من الطاعة لا بغيره. وفي الجملة التي تليها عطف هذا الحصر؛ فحصر نهيه لهم بما نهاهم الله به من المعصية لا بغيرها. وفي الجملة حذف تقديره: وإنما وجب علينا أن ... ، وسبق أن بيَّـنَّا – كثيرًا – فائدة استخدام المصدر المؤوَّل دون الصريح، وأنه إنما يكون لبيان الزمن الذي وقع به الحدث، وهو – هنا – المضارع الذي يفيد التكرار والدوام والاستمرار، وذلك في قوله: (**أن نأمركم**) و(**أن ننهاكم**)؛ ليكون أمره بالطاعة ونهيه عن المعصية مستمرًا غير منقطع. والباء التي تفيد الاستعانة متوفرة بالنَّص، وهي في قوله: (**بما أمركم**) وقوله: (**بما نهاكم**). وحرف الجر (مِن) الذي جاء في قوله: (**من طاعته**) وقوله: (**من معصيته**) يفيد البيان؛ حيث يبيِّن نوع الأمر الذي أمر الله – تعالى – به، وهو الأمر بالطاعة، ونوع النهي الذي نهى عنه، وهو المعصية. والجملة – كما يتضح – تشبه ما سبق أن بيناه قبل قليل في جملتين سبقتا في النَّص من حيث المقابلة والترصيع؛ والمقابلة وقعت في الكلمات: (**نأمركم**) و(**أمركم**) و(**طاعته**) التي تقابل (**ننهاكم**) و(**نهاكم**) و(**معصيته**) وبالترتيب. والجملتان بينهما وصل لما بينهما من الشبه باللفظ والصياغة والترابط بالمعنى. وقوله: (**وأن نقيم أمر الله في قريب الناس وبعيدهم**): هذه الجملة موصولة بالتي سبقتها؛ لتواصل إتمام المعنى. والفعل المضارع (**أن نقيم**) جاء في المصدر المؤول، وذكرنا فائدته قبل قليل، ومثله في الجملة التي تليها في قوله: (**لا نبالي**)، وقوله: (**على من كان الحق**)؛ حيث (**على**) حرف استعلاء، والحق فوق كل أحد، فأي أحد عليه الحق، فالحق فوقه، وهو دون الحق. وفي قوله: (**قريب**) و(**بعيد**): طباق. وقوله: (**ألا، وإن الله فرض الصلاة وجعل لها شروطًا**): كما أشرنا فيما سبق – في اللطائف اللغوية –؛ إذا اعتبرنا (**الواو**) زائدة توكيدية، أو استئنافية

فلا حذف، ولا يقال: ثمة حذف؛ لأن التقدير: ألا فانتبهوا؛ لأن التنبيه حصل من معنى (**ألا**)، فهي بمعنى التنبيه. وإن كانت واو عطف، فإمَّا أن يكون العطف على محذوف مقدر كقولك: (أنبه)، أو على معنى التنبيه الذي تتضمنه أداة التنبيه، وعليه نقرر هل في الجملة فصل أو وصل. وقوله: (**إن الله فرض الصلاة**)، ولم يقل: (الصلاة فرضت)، ولا (فرض الله الصلاة)، فقدَّم اسم الله؛ ليقع في القلوب من الهيبة والإكبار لاسم الله الأعظم، ومن أجل هذا ابتدأ به. وكون الجملة اسمية دلت على الثبوت، لاسيَّما والخبر جملة فعلها ماضٍ، والفعل الماضي يدل على التحقق واليقين. وقوله: (**فمِن شروطها**): الفاء الفصيحة تعطف على محذوف، تقديره: وإن سئلت عن الشروط فمن .... وحرف الجر (**مِن**) للتبعيض؛ فهو يقول: سأسمي لك بعض الشروط، ثم شرع في تسميتها، فقال: (**الوضوء، والخشوع، والركوع، والسجود**). وهنا ندرك ما وقع من الاختلاف في المصطلحات الشرعية على مر العصور؛ حيث الركوع والسجود، من أركانها، وكذلك الخشوع فمن واجباتها، ولا مشاحة في الاصطلاح. وهذا الترتيب جاء مناسبا ومتناسقا، وقد ترقَّى بها من حيث المبتدأ إلى الذي يليه. وذكره لهذه الأربعة ليس اقتصارًا منه عليها - رغم أهميتها - غير أنَّ بعض ما يساويها أهمية لم يذكره؛ كالقيام واستقبال القبلة، فذكرها من باب ذكر المثال لا المهم والأهم، وليدلل على ضرورة الاعتناء بجزئيات الصلاة، ولو عددها كلها لطال المقال وكان الملال، فاكتفى بالمثال. ويجمع بين هذه الأربعة أنَّ فسادها يفسد الصلاة، وجميعها على وزن (فُعول)؛ حيث يجمعها لحن وتنغيم حسن، وهذا يسمونه في البلاغة اعتدال الوزن. وثمة سجع في كلمتي (**الخشوع**) و(**الركوع**). وربما ظنَّ الخليفة أنَّه أكثر في موعظته، فأحب أن يغيِّر أسلوبه ويصرف وجوه الناس إليه، فقال لهم: (**واعلموا أيها الناس أنَّ الطمع فقر**)،

ومِن أجل ذلك احتاج إلى ندائهم فقال: (**أيها الناس**)؛ ليفيق الغافل، وينتبه مَن شَغله شاغل. وفي قوله: (**اعلموا**): يؤكد على الناس ويوجهم للسماع منه وطلب العِلم منه. وقوله: (**أنَّ الطمع فقر، والغنى يأس**): في هذه الجملة ما سبق وبيَّـنَّاه من الموازنة والمقابلة. ثم ترك الموازنة في الجملة التي تليها؛ لكسر الرتابة، ولحاجته لتكثير اللفظ من أجل بلوغ الغاية من المعنى، فقال: (**وفي العزلة راحة من خلطاء السوء**)، وهنا حصر الراحة في العزلة من خلطاء السوء، وإن لم يكن حصرًا فزيادة اهتمام؛ حيث أَخَّر المبتدأ وقدَّم الخبر، ثم عاد يحثهم مرَّة أخرى ليستمعوا إليه، ويأخذوا علمهم عنه، فقال: (**واعلموا أنه**). وهذا الشيء الذي أمرهم بعلمه أكَّده حاثًّا عليه بـ (**أنَّ**) التي هي للتوكيد، وقد أشار إليه بالضمير (**الهاء**)، وهو ضمير الشأن الذي يعود على شيء لم يذكر بعد، وإنما يذكر لاحقا، ونوَّه إليه بضمير الشأن قبل ذكره؛ لتهييج النفوس، ولتتطلع إليه وتتشوق، ثم ذكره بعد ذلك بقوله: (**مَن لم يرضَ عن الله فيما أكره من قضائه، لم يؤدِّ إليه فيما يحب كنه شكره**)، وهذه جملة شرطية يتوقف تاليها على أولها؛ فمَن لم يحسن الرضا عن قَدَر الله في المكاره، لم يحسن شكر الله في كنه ما يشكر، أي: لا يحسن شكر الله عند النعم، فجعل الرضا بالسراء قرين الشكر على النعماء، فيلزم من وجود الثاني وجود الأول، ويفهم منه – إذا أعملنا مفهوم المخالفة – أنه يلزم من عدم الأول عدم الثاني. ثم عاد ليذكِّرهم بضرورة ما يقول، فوَّجه إليهم طلبًا بأن يعلموا ما يقول، مؤكِّدًا ذلك بـ (**أنَّ**) الثقيلة، فقال: (**واعلموا أنَّ لله عبادًا يميتون الباطل بهجره، ويحيون الحق بذكره**)، وفي هذه الجملة من تمام وصحة المقابلة والترصيع ما يعطي الجملة رونقا وحُسنا وجمالا؛ فقد قابل الكلمات: (**يميتون**) و(**الباطل**) و(**بهجره**) بضدها من الكلمات: (**يحيون**) و(**الحق**) و(**بذكره**) وبالترتيب. وفي الجملة حصرٌ لملكية العباد لله – تعالى –، وهذا

الحصر يدل على أنهم خالصون له من دون الناس، وجاء الحصر بتقديمه خبر (**إنَّ**) و(**لله**) على اسمها (**عبادًا**). وسبق بيان ما في المضارع من الديمومة والاستمرار في قوله: (**يميتون**) و(**يحيون**). وفي هذين الفعلين استعارة تبعية؛ ففي الأولى شَبَّه قمع الباطل بالإماتة بجامع انتهاء كل واحدة منها، ثم استعار اللفظ الدال على المشبه به وهو الموت؛ ليدل على المشبه وهو قمع الباطل على سبيل الاستعارة التصريحية، وكون الكلمة التي أجريت فيها الاستعارة مشتقة؛ سميت الاستعارة تبعية، وعليه يجوز إجراؤها بكلمة (**الباطل**)، فتقول شبَّه الباطل بكائن حي يموت، وحذف المشبه به وأبقى شيئا من لوازمه وهو الموت على سبيل الاستعارة المكنية، ومثله يقال في جملة: (**ويحيون الحق**). والباء في قوله: (**بهجره**) وقوله: (**بذكره**) للاستعانة، أي: مستعينين بذكره وهجره. وقوله: (**رغبوا فرُغبوا**): فيها حذف تقديره: رغبوا إلى الله والدار الآخرة، فرُغبوا من أهل الدنيا، وفيها ما يسمى باشتقاق اللفظ من اللفظ، وفيها جناس ناقص وسجع، ومثله يقال في الجملة التي تليها: (**رهبوا فرُهبوا**). أما الجملتان فيما بينهما ففيهما الترصيع والمقابلة والسجع والجناس الناقص؛ فهاتان الجملتان يحق أن يقال فيهما إبداع، وهو التكثير من المحسنات. وفي الجملة الشرطية: (**إن خافوا فلا يأمنوا**) ما قلناه من لزوم تاليها بلزوم أولها، وفيها طباق وحذف تقديره: إن خافوا الله والآخرة، فلا يأمنوا مكر الله – تعالى –. وقوله: (**أبصروا من اليقين ما لم يعاينوا فخلصوا بما لم يزايلوا**): (**مِن**) هي البيانية، وفي قوله: (**أبصروا**) وقوله: (**لم يعاينوا**): طباق بالسلب. و(**الفاء**) في قوله: (**فخلصوا**) تفيد التعقيب، وهذا دليل على سرعة الجزاء من الله – تعالى –. والباء في قوله: (**بما لم يزايلوا**) للتعدية، ومثالها قول الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧]، فالباء جاءت بمعنى الألف المزيدة للفعل، وهي الألف التي تفيد التعدية، فيكون المعنى: أذهب

الله نورهم، وهنا: (**خلصوا بها لم يزايلوا**)؛ أي أخلصهم ما لم يزايلوا، والمزايلة: المفارقة، وهنا مفارقة الدين والحق، فيكون المعنى فأخلصهم ما لم يفارقوا من الحق والدين، ويشهد لما قلنا قوله في التي بعدها: (**أخلصهم الخوف**)، وقد تكون (**الباء**) للمصاحبة، فيكون المعنى: فخلصوا بها لا يفارقهم من النعيم في الآخرة، أي: فازوا بها لا ينقطع، وهذا له شاهد من الجملة التي تليها، وذلك قوله: (**لما يبقى عليهم**)، وقوله: (**أخلصهم الخوف فهجروا ما ينقطع عنهم لما يبقى عليهم**)؛ فقوله: (**أخلصهم**) وقوله: (**خلصوا بها**) بمعنى واحد، على أن (**الباء**) للتعدية، فنوَّع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في أسلوبه؛ ليكسر الرتابة، ويحسن اللفظ. والفاء في قوله: (**فهجروا**) للتعقيب كالتي سبقت في قوله: (**فخلصوا**)، وهذا يدل على مسارعتهم لهجران ما ينقطع من الدنيا. والكلمات: (**ينقطع**) و(**عنهم**) ضد الكلمات: (**يبقى**) و(**عليهم**)، فكانت الموازنة. واختتم عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذا النَّص الطويل المليء بالبلاغة والبيان بقوله: (**الحياة عليهم نعمة، والموت لهم كرامة**)، وهذه الجملة التي فصل بينها وبين التي قبلها تُشعِر بشيء من الكلام محذوف، قد يقدر بقول: فلما فعلوا ما فعلوا وكان منهم ما كان فالحياة ... وعلى كل حال ففي الجملة فصل، والفصل هنا يعلي من رتبة الجملة الجديدة؛ لأنها تستقل بمعنى ينبغي عليها أن توفيه دون خلل، لا سيَّما إذا كان الفصل في اللفظ مع بقاء المعنى متصلا بما قبله، وهو كذلك في جملتنا، وعليه لابد من تقدير شيء يوصل طرفي الجملتين. و(**أل**) في كلمة (**الحياة**) للاستغراق، تستغرق مناحي الحياة الدينية والدنيوية، وهذا التعريف المستغرق سانده التنكير في كلمة (**نعمة**) التي تعم كل نعمة؛ فالكلمتان تدعم إحداهما الأخرى؛ هذه للاستغراق، وتلك للعموم، ومثله يقال في التي تليها. وثمة طباق في كلمتي (**الحياة**) و(**الموت**). وبعدُ: فهذا النَّص عزيز غزير مليء جميل ناضح بالبلاغة والبيان والبديع، واللغة والنحو.

[٣٠٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ ذُكِرَ عِنْدَهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ

«احْذَرُوا آدَمَ قُرَيْشٍ[١] وَابْنَ كَرِيمِهَا؛ فَإِنَّهُ لَا يَنَامُ إِلَّا عَلَى الرِّضَا، وَيَضْحَكُ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَيَتَنَاوَلُ مَا فَوْقَهُ مِنْ تَحْتِهِ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص مما يبيِّن الحال التي قيل فيها هذا النَّص أزيد من أن معاوية ذُكر عند عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فقال فيه ما قال، ولم يبين النَّص بأي شيء ذكر معاوية عند عمر رضي الله عنه.

البيان والبلاغة: لما ذُكر معاوية عند عمر رضي الله عنهما، وهو رجل من كُرماء مكة، فهو ابن أبي سفيان سيِّد مكة في الجاهلية، وهو معاوية بن أبي سفيان خال المؤمنين في الإسلام، وكاتب الوحي، راح عمر رضي الله عنه وهو رجل من العظماء - يقيِّم ابن أبي سفيان - وهو من العظماء جاهليةً وإسلامًا -، والناس مصغية ماذا سيقول هذا الرجل الذي كلامه لا يمحوه التاريخ عن رجل سيبقى في ذاكرة التاريخ؟! فقال ابن الخطَّاب: **(احذروا آدم قريش)**، وهنا تتشعب الفكرة، وينزل كل جزء منها في وادٍ، أيحذرون صاحب بطش وقوة، في غضبته هلكة وضياع؟! أم يحذرون فارسًا إذا زجر الخيل لم تدبر إلا وللسيف رواء، أليث الغاب، أم طامي العباب؟! ثم يتم

١- في «تاريخ الطَّبريِّ» وغيره: (فَتَى قُرَيْشٍ).
٢- «أنساب الأشراف» ٥/ ٤٩ [ونحوه في عيون الأخبار ١/ ٩، وقد نُسب لعمرو بن العاص أيضا].

عمرُ رضي الله عنه قوله واصفًا إيَّاه: (**وابن كريمها**)، وهنا تَخِفُّ الحِدَّة وتتغير الفكرة؛ حيث هوَّن الثناء عليه مما قد تذهب به الظنون. ثم شرع عمرُ رضي الله عنه يبيِّن ماذا يحذرون من أمر معاوية، فقال: (**فإنَّه لا ينامُ إلا على الرِّضا**)، وهذه الجملة بيَّنت الغموض في التي قبلها؛ حيث استعمل الفاء التي هي للسببية، وفصَّلت المجمل؛ حيث الحذر لا من باطش ولا جبَّار، ولكن من رجل لا ينام إلا راضيًا، فالجملة كناية عن صفة وهي الحِلم، ذلك أنه لا ينام واجدًا على خصمه ولا لائمًا أو معتبًا، أو هي كناية عن سرعته في استيفاء حقِّه والثأر لنفسه؛ فهو لا ينام حتى يرضى باستيفاء حقه ممن أساء إليه. وقوله: (**على الرِّضا**)، وقد علمنا أنَّ (**على**) تفيد الاستعلاء، فكأن الرِّضا أصبح - تحت معاوية - فراشًا ينام عليه، فهو متاع يملكه ويتخذه متى شاء. والجملة التي وصفت نومه على الرضا جاءت بصيغة الحصر؛ حيث حصرت النَّوم على الرضا لا على غيره، ليس هذا فحسب بل يزيده عمرُ رضي الله عنه وصفًا، فيقول: (**ويَضْحَكُ عِنْدَ الغَضَبِ**) وهذه أشد من صاحبتها، ألَّا تنام إلا راضيًا يسهل من حيث إن في الزمن ما يكفي للحليم أن ينام راضيًا، فلو خوصم أول النهار رضي آخره، ولكن أن يرضى عند الغضب فهذه أكبر من تلك، وبذا يكون عمر رضي الله عنه قد استعمل في وصف معاوية التَّرقِّي؛ وهو الوصف من الأدنى إلى الأعلى. وقد يكون المقصودُ بقوله: (**ويَضْحَكُ عِنْدَ الغَضَبِ**): أنَّ معاوية رضي الله عنه يستطيع إخفاء غضبه حتى يفاجئ خصمه باستيفاء حقِّه منه. وقوله: (**عند**) ظرف يدل - هنا - على الزمان، فضحك معاوية وغضبه متلازمان في آن واحد. ثمَّ يتابع عمر رضي الله عنه قائلا: (**ويتناول ما فوقَه من تحتِه**)، وهذه الثالثة لعلها هي السبب في التحذير من معاوية، وهي قدرته بحلمه على الغلبة والظفر؛ حيث لا يأخذ الناس من فوقهم فيتنبهون، وإنما يأخذهم من تحتهم من حيث لا يبصرونه، بحيث يغفلون عنه.

واستعماله الاسم الموصول **(ما)** بدل (مَن)؛ لأنَّ في (ما) عموم أكثر من الاسم الموصول (مَن)؛ حيث **(مَن)** تدل على ذات مَن يعقل، و**(ما)** تدل على ذات مَن لا يعقل وصفة مَن يعقل. وهذا النص فيه دليل على حلم معاوية رضي الله عنه وذكائه وقوة حيلته وسياسته ومقدرته على التحكم في نفسه وفي غضبه. وجاءت جُمل هذا النَّص موجزة من حيث اللفظ، غزيرة المعنى، ليس فيها إيجاز بالحذف، وإنما فيها إيجاز بلاغي، وهو ما يسمَّى بإيجاز القِصَر؛ وهو: ذكر المعنى الكثير في اللفظ القليل، كما خلتْ من الإطناب، وخلوها من القصر والإطناب يسمى بالمساواة؛ فهو لم يحتج للإيجاز لضرورة الوصف، ولم يحتج للإطناب خشية ضياع المعنى المراد في القول الكثير. وفي قوله: **(الرضا)** وقوله: **(الغضب)** طباق، ومثله في قوله: **(فوقه)** وقوله: **(تحته)**.

[٣٠٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«كُنَّا نَعُدُّ الْمُقْرِضَ بَخِيلًا، إِنَّمَا كَانَتِ الْمُوَاسَاةُ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (المواساة): قال في لسان العرب: «والمواساة: المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق، وأصلها الهمزة فقلبت واوًا تخفيفًا ... وقيل: لا يكون ذلك منه إلا من كفاف، فإن كان من فضلة فليس بمؤاساة».

مقتضى الحال: ليس في شيء من الرِّوايات ما يبيِّن الحال والزمان والمكان الذي قيل فيه هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله: **(إنَّما)**: كافة ومكفوفة، وقد سبق الحديث عنها في الأثر رقم أربعة وستين ومئتين، فليرجع إليه المستزيد.

البيان والبلاغة: في هذا النَّص القصير يبيِّن الخليفة حال الصحابة رضي الله عنهم وما كانوا عليه من الإيثار والكرم حتى قال: **(كنَّا نَعُدُّ المُقرِضَ بَخيلا)**. واستعماله لضمير الجمع يدل على عموم الحال في الصحابة أجمعين، والضمير هنا ليس من باب الدلالة على المفرد ليكون الجمع من باب تعظيم النفس، بل هو ضمير جمع يدل على جمع. واستعماله **(كان)** يدل على انقطاع الزَّمَن، أي أنَّ هذا الشيء حاصل في الزمن الأول ثمَّ انقطع، وهذا يدلُّك على عظمة عصر الصحابة رضي الله عنهم وما امتازوا به من الكرم والجود. وجاء هذا النَّص خاليًا من الإطناب؛ حيث المعتاد على مثل هذه الجُمل أن

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢١٣، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٥٧.

تكون بلفظ (كنَّا نَعُدُّ المُقرِضَ فينا بَخيلًا)، فجاء النَّص خلوًّا من زيادة كلمة (فينا)، ولو وردت هذه الكلمة لكانت من الإطناب الذي يفيد الاحتراز، وإنما استغنى عن هذا الاحتراز لعِلم الناس به، ومعرفتهم أنه إنما يقصد زمن الصحابة في عهد رسول الله ﷺ، فإذا كان المقرض بخيلًا، فماذا كان الحال يومئذ؟ وما هو معهود في أيامنا هذه أن المقرضين من أكرم الناس، وقلَّما تجد في هذا الزمان مَن يُقرِض! الجواب يأتي من تمام قول عمر رضي الله عنه؛ حيث يقول: (**إنَّما كانت المواساة**)؛ حيث حصرت الجملة النَّفقة في المواساة، وهذه الجملة مؤكَّدة بـ (**إنَّ**) ولم تكفَّها (**ما**) الكافَّة عن التوكيد، وإنما كفَّتها عن العمل لا عن المعنى. وفي الجملة إيجاز بالحذف تقديره: إنما كانت الحال مواساة الفقير للغني، هذا على اعتبار (**كان**) ناقصة، وعلى اعتبارها تامَّة فلا حذف ويكون المعنى (إنما وُجدت المواساة). ودلَّت كلمة المواساة على معنى العطيَّة بلا ثمن ولا مقابل، كما مرَّ من كلام ابن منظور، وأنَّ مَن أعطى ما زاد عن حاجته ليس معطيًا عندهم ولا مواسيًا، إنما المواساة تكون مع الكفاف والخصاصة. وقد حوى النص جملتين قصيرتين موجزتين، بينهما تشارك وارتباط؛ حيث جاءت الثانية معلِّلة ومبيِّنة للأولى، وكانت العلاقة بينهما علاقة المقدمة بالنتيجة.

[٣٠٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الِاسْتِخْلَافِ مِنْ بَعْدِهِ

«إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَحْفَظُ دِينَهُ، وَإِنِّي لَئِنْ لَا أَسْتَخْلِفْ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَسْتَخْلِفْ، وَإِنْ أَسْتَخْلِفْ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ قَدِ اسْتَخْلَفَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبدو أنَّ الخليفة قال هذا القول مرَّتين، ولكل مرَّة مناسبة، وننقل كلتيهما من رواية مُسلم. أمَّا الأولى فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «دخلتُ على حفصة، فقالت: أعلمتَ أنَّ أباك غير مستخلف؟ قال: قلتُ: ما كان ليفعل. قالت: إنه فاعل. قال: فحلفت أني أكلمه في ذلك، فسكتُّ حتى غدوتُ ولم أكلِّمه. قال: فكنت كأنما أحمل بيميني جبلا حتى رجعتُ فدخلتُ عليه، فسألني عن حال الناس وأنا أخبره، قال: ثمَّ قلت له: إني سمعتُ النَّاس يقولون مقالة، فآليتُ أن أقولها لك، زعموا أنك غير مستخلف، وإنه لو كان لك راعي إبل، أو راعي غنم، ثم جاءك وتركها رأيت أن قد ضيَّع فرعاية الناس أشد، قال: فوافقه قولي، فوضع رأسه ساعة، ثم رفعه إلي، فقال: ...» ثم ذكر النَّص. وأمَّا والرواية الثانية؛ فعن ابن عمر - أيضًا - قال: قال: حضرتُ أبي حين أصيب، فأثنوا عليه، وقالوا: جزاك الله

١- رواهُ مسلمٌ في «صحيحِه» (١٨٢٣)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (٣٣٢)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٧٦٣)، وأبو عوانةَ في «المُسنَدِ» (٧٠٠٢)، وأبو نعيمٍ في «حِلْيَةِ الأولياءِ» ١/ ٤٤، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٦٥٧٢)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٤٣١-٤٣٢.

خيرًا، فقال: راغب وراهب، قالوا: استخلف، فقال: «أتحمَّل أمركم حيًّا وميِّتًا، لوددتُ أن حظي منها الكفاف، لا عليَّ ولا ليَ ...» ثم ذكر النَّص.

لطائف لغوية: ورد في النَّص قوله: (**لئن لا أستخلِف**): واللام في قوله: (**لئن**) تسمَّى الموطِّئة للقَسم، وقد عارَض بعضُهم ذلك، ونقلنا هذا الخلاف في شرح النَّص رقم ثمانية وأربعين ومئتين، فليراجعه المستزيد. و(**الفاء**) في قوله: (**فإنَّ رسول الله ﷺ**) هي التي تقع في جواب الشرط. ولبيان متى ترتبط الفاء بجواب الشرط راجع النَّص رقم خمسة عشر ومئتين. و(**قد**) في قوله: (**قد استخلف**): تأتي - كما يقول النحاة - مع الماضي للتوكيد ومع المضارع للشك. وليس ذلك مضطردًا بل ربَّما خالفت ذلك، وانظر هذه المسألة في شرح النَّص رقم خمسة وثمانين ومئتين.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله: (**إن الله - عزَّ وجلَّ - يحفظ دينه**)، مفتتحًا هذه الجملة بـ (**إنَّ**) التي للتوكيد، وقد تكلَّمنا عليها كثيرًا. وجملة: (**عزَّ وجلَّ**) معترضة، وهذا النوع من الجُمل من الإطناب الذي يُراد به الذِّكر إن كان بعد لفظ الجلالة، ويكون للدعاء إن كان بعد اسم نبي أو رسول أو صحابي أو أحد السلف الصالحين، كما هو الحال في جمل: (ﷺ)، و(رضي الله عنه)، و(رحمه الله)، ونحوها. وقوله: (**يحفظ دينه**): فعل مضارع يدل على الاستمرار والتجدد فيدل على أن الله - تعالى - حافظ دينه دون انقطاع وأنه لا يتخلى عنه، كما دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨]. وقول عمر رضي الله عنه: (**دينه**): أضاف الدين إلى الله - تعالى -؛ حيث الدين كله لله، وهو أولى به، وهذا توكيد من الخليفة على صحة اعتقاد المسلمين، وأن دينهم ليس

محرَّفًا من عند البشر كسائر ما حُرِّف من الأديان. ثم استأنف الكلام بجملة جديدة مبتدئًا بـ (**الواو**) التي للاستئناف، فيقول: (**وإني لئن لا أستخلف**)، وقلنا: كثيرًا إن الاستئناف بين الجُمل لا يقطع صلتها بالتي قبلها، فلا نحتاج للوصل بين الجمل وربطها بحروف الربط الواصلة بينها لتكون مترابطة في المعنى، وإن الجمل المفصولة والجملة المستأنفة جزء منها ليتصل بعضها ببعض؛ لما بينها من المعنى المترابط الذي بعضه يأخذ بعنق بعض، كما يقول الزمخشري. والجملة كالتي سبقتها تبدأ بالتوكيد، غير أن هذه الجملة فيها تأكيدات ثلاثة: (**إنَّ**) الثقيلة، و(**اللام**) التي هي لتوطئة القسم المحذوف، والقسم المحذوف، وهذا التكثير من التوكيد استدعاه ما في الأمر من الأهمية؛ حيث هو لاتخاذ خليفة من المسلمين. وهذه الجملة شرطية يلتزم أحد طرفيها بالآخر وينبني عليه؛ فالطرف الأول من الشرط هو عدم استخلاف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحدًا بعده، وهذا مبني على أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يستخلف بعده أحدًا، وهذا اللازم الثاني من الشرط في قوله: (**فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يستخلف**) وهذا الارتباط برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبفعله دلَّ عليه الشرط. ومثله التزام طرفي الشرط في الجملة التي تليها، وهو قوله: (**وإن أستخلف فإن أبا بكر قد استخلف**)، وهذا تمسك أيضًا بسنة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقوله: (**قد استخلف**): (**قد**) تفيد التحقيق والتوكيد، وهذا - بالفعل - ما كان؛ فإن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد استخلف، ولعلَّ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لشدة حبه لصاحبيه نحى منحى وسطًا فهو لم يستخلف أحدًا بعينه، كما أنَّه لم يترك الاستخلاف كافَّة، وجاء بفعل وسط بين الاستخلاف وتركه فخيَّر الناس بين ستة من أفاضل أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي قوله: (**لا أستخلف**) وقوله: (**لم يستخلف**) معًا، وقوله: (**استخلف**) طباق بالسلب، كما أن كلمة: (**يستخلف**) دارت في هذا النَّص القصير أربع مرَّات؛ وذلك كونها محور الحديث. وفي النَّص من الإيجاز ما بلغ أنه - على قلَّة ألفاظه - عبَّر عن نيَّته لفعل أو عدم فعل أمر عظيم من أمور الإسلام، ألا وهو الاستخلاف.

[٣٠٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: تَغَيُّرُ الزَّمَانِ، وَزَيْغَةُ عَالِمٍ، وَجِدَالُ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ، وَأَئِمَّةٌ مُضِلُّونَ يُضِلُّونَ النَّاس بِغَيْرِ عَلْمٍ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في الروايات ما يبين سبب أو حال أو زمان أو مكان قول هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله: **(ما أخاف)** مصدر مؤول، وقد مرَّ الكلام عليه وبيان فوائد استعماله في النَّص رقم أربعة وتسعين ومئة، فليراجعه المستزيد.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله: **(إنَّ أخوف ما أخاف عليكم)**، وقد سبق نقاش ما في هذه العبارة في النَّص رقم تسعة وخمسين ومئتين وغيره. وقوله: **(تغيُّر الزَّمان)** فهذه أوَّل ما يخافه الراعي على رعيَّته، وهي أن يتغير الزمان، ولكن هل الزمان يتغير؟ ثم لو تغيَّر الزمان فإنَّ ذلك يكون باختلاف الليل والنهار، فماذا يضر أو ينفع؟ إذن هو لم يُرِد تغيُّر الزمان، ولكن مَن حلَّ فيه من الناس؛ فهو أراد الحالَّ فيه وأطلق المحل، وهذا مجاز مرسل علاقته الحالية، ولذلك الله - تعالى - في الحديث القدسي عن الذي يسب الدهر: «**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ**»؛ لأن الزمان نفسه لا يعمل شيئًا ولكن الله - تعالى - يبدل فيه ما يشاء، والناس بأيديهم يصنعون ما يشاءون. أمَّا الثانية: فـ **(زيغة عالم)**، وكما يقال: زلَّة العالِم زلَّة عالَم، والعلماء

١- رواهُ أبو الجهمِ في «جُزئِه» ص٥٤، وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ» (١٨٦٧)، والآجُرِّيُّ في «تحريمِ النَّردِ والشِّطرنجِ والملاهي» (٤٩).

هم الرأس في هذه الأمَّة، وفسادهم يؤذن بفساد الأمَّة. والثالثة: (**وجدال منافق بالقرآن**)، وذلك لما يخلفه الجدال الذي يتولاه المنافقون من إخفاء الحق، والطعن في دين الله - تعالى - وكتابه، وتأويل النَّص على غير مراده، والتشكيك بمسلَّمات الدِّين والنَّصوص، وزرع الفتن في نفوس الناس، وزعزعة اتصال الناس بدينهم. وفي الجملة حذف تقديره: وأثر جدال المنافق بالقرآن. والرابعة: قوله: (**وأئمة مضلُّون يضلون النَّاس بغير علم**): لما فرغ من ذكر الذين يختصون بالعِلم من العلماء، أو المشككين فيه من المنافقين = ذكر أهل الرياسة والسياسة، وهم رؤساء النَّاس في شئون الدنيا، وهم كالعلماء يفسد ويصلح الزمان بهم؛ فالله - تعالى - يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، كما صح عن عمر وعثمان رضي الله عنهما. وفي هذه الرابعة زاد عن الأمور الثلاثة السابقة بأنَّه لم يكتفِ بذكر الأئمة المضلين، وإنما فسَّر سبب ضلالهم بقوله: (**يضلون الناس بغير عِلم**)، فكشف لنا ما وقع في الجملة من الإبهام؛ حيث بيَّن كيف يُضل الأئمة المضلون الناس، فجاءت جملة (**بغير علم**) لبيان ذلك. فترتيب المذكورات في الجملة جاء متناسقًا ومتناسبًا؛ حيث ذكر في الأولى الأعم وهم سواد الناس في قوله: (**تغير الزمان**)، ثم بدأ يعطف الخاص على العام، فذكر صنفين منه، وهذان الصنفان كلاهما ممن يختص بدين الله - تعالى -، وهم العلماء والمنافقون، وذَكَر العالِم الزائغ عن دين الله قبل المنافق؛ حيث ضرره أكبر، ثم ذكر أهل الرياسة والسلطة، وكل العطف كان من باب عطف الخاص على العام. وذكر في النَّص الأحوال السابقة مبتدءًا بالمصدر (**تغير**)، و(**زيغة**)، و(**جدال**)، وفي الرابعة لم يقل: (ضلال الأئمة)، وهذا الخروج عن النسق أقل ما يستفاد منه التنويع، وكسر الرتابة، وقد يقال إن أئمة الضلال هم بأنفسهم فساد عريض؛ لما كثر فيهم الضلال والزيغ، وبهم يصلح الناس وبهم يفسدون، فقدَّمهم للتنويه بشأنهم.

[٣٠٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِكَعْبِ الْأَحْبَارِ، وَقَدْ نَشَرَ أَمَامَ عُمَرَ التَّوْرَاةَ وَسَأَلَهُ: أَيَقْرَؤُهَا؟

«إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا التَّوْرَاةُ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى يَوْمَ طُورِ سَيْنَاءَ، فَاقْرَأْهَا آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَإِلَّا فَلَا». فَرَاجَعَهُ كَعْبٌ، فَلَمْ يَزِدْهُ عُمَرُ عَلَى ذَلِكَ[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(آناء الليل وآناء النهار)** :قال القرطبي في تفسيره: «آناء الليل: ساعاته، وأحدها إنى وأنى وإني».

مقتضى الحال: جاء في رواية أبي مصعب الزهري لموطأ مالك بيان سبب هذا القول، فقال: «عن زيد بن أسلم، أنه قال: جاء كعب الأحبار إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقام بين يديه، فاستخرج من تحت يده مصحفًا، قد تشرمت حواشيه، فقال: يا أمير المؤمنين، في هذه التوراة فأقرؤها؟ فقال عمر: ...» هذا النَّص.

لطائف لغوية: في قوله: **(وإلا فلا)**: جملة شرطية حذف فعلها وجوابها. قال الأستاذ سعيد الأفغاني في «الموجز في قواعد اللغة العربية» في بيان الجملة التي يحذف فيها فعل الشرط وجوابه: «الفعل والجواب معا: يجوز حذفهما إن بقي من جملتيهما ما يدل عليهما مثل: (مَن يُلبِّك فأكرمه، ومَن لا فلا)، والأصل: (وإن لم يفِ فلا تعطه)».

١- رواهُ مالكٌ في «الموطَّإِ بروايةِ أبي مصعبٍ الزُّهريِّ» (٢٧٥).

البيان والبلاغة: رد عمر رضي الله عنه على كعب الأحبار فجعل الجواب بصيغة الشرط، الذي فيه قيام شيء على تحقق آخر؛ فأمَّا الأول مما يجب الالتزام بوجوده هو: أن تعلم بأنَّ هذه التوراة قد أنزلت على موسى، والشيء الثاني: قراءتها إذا تحقق الأول، فيتوقف على الإذن بقراءة التوراة أن تستيقن العِلم بأنها هي المنزَّلة من عند الله - تعالى - على نبيه موسى يوم الطور، ويلزم من فساد الأول فساد الثاني، وعدم تحقق الأول يلزم منه عدم تحقق الثاني. وقوله: (**تعلَم**): يريد العِلم الذي يفيد اليقين وينافي الشك، وناسب بعد العِلم أن يأتي بأداة التوكيد (**أنَّ**) فهي تؤكِّد للعِلم وتثبته. وفي قوله: (**التوراة التي أنزلت على موسى يوم طور سيناء**): هذه الجملة تفيد الاحتراز والاحتراس من ذهاب الذهن إلى توراة أخرى غير التي نزلت على موسى؛ حيث المراد - هنا - التوراة المحرَّفة التي يتداولها معاشر يهود، وفي هذا إثبات منه أن هذه التوراة التي يتداولها اليهود خالطها التحريف. وفي قوله: (**يوم طور سيناء**): احتراز أكثر خصوصية؛ حيث التوراة التي نزلت على موسى كان نزولها في طور سيناء، لا في مكان غيره، وهذا الاحتراز نوع من الإطناب. وقوله: (**فاقرأها آناء الليل وآناء النهار**): هذا هو الطرف الثاني للشرط، الذي لا يتم إلا بعد تحقق الطرف الأول منه، والطرف الثاني هو الإذن لكعب الأحبار أن يقرأ التوراة آناء الليل وآناء النهار. وهو لم يقل: (آناء الليل والنهار)، بل كرر لفظة (**آناء**)؛ لاختلاف آناء الليل عن آناء النهار؛ حيث آناء الليل أشد وطأ وأقوم قيلا. وفي كلمتي (**الليل**) و(**النهار**) طباق. وقوله: (**وإلا فلا**): هذه الجملة شرطية حذف فعل الشرط وجوابه فيها، وتقدير الكلام فيها: وإلا علمت بأنها التي نزلَت على موسى يوم طور سيناء فلا تقرأها. وفي هذا الحذف تسهيل في اللفظ على المتكلم والسامع، مع الدلالة على المعنى، وترك السامع للتخمين في معرفة المحذوف الذي قد يسهل على المتكلم تكثير أو

تورية المعاني في الكلام، ويستطيع السكوت على ما لا يريد الحديث عنه. وقد صحَّ وتمَّ الحذف في جملتنا؛ لدلالة الذي قبله عليه، والذي قبله جملة شرطية مثله، غير أنها جملة ذُكِر فيها فعل الشرط وجوابه.

[٣١٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِكَعْبِ الْأَحْبَارِ، حِينَ نَزَلَ بَيْتَ الْمُقْدِسِ

«أَيْنَ تُرَى أَنْ أُصَلِّيَ؟» فَقَالَ: إِنْ أَخَذْتَ عَنِّي؛ صَلَّيْتَ خَلْفَ الصَّخْرَةِ، فَكَانَتِ الْقُدْسُ كُلُّهَا بَيْنَ يَدَيْكَ. فَقَالَ عُمَرُ: «ضَاهَيْتَ[١] الْيَهُودِيَّةَ! لَا، وَلَكِنْ أُصَلِّي حَيْثُ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ»، فَتَقَدَّمَ إِلَى الْقِبْلَةِ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَبَسَطَ رِدَاءَهُ فَكَنَسَ الْكُنَاسَةَ فِي رِدَائِهِ، وَكَنَسَ النَّاسُ[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**ضاهيت**): قال الجوهري في الصحاح: «المضاهأة: المشاكلة، يقال: ضاهأت وضاهيت يهمز ولا يهمز، وقرئ بهما قوله تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبة: ٣٠]».

مقتضى الحال: المكان بيت المقدس، والحال أن عمر رضي الله عنه لما دخل بيت المقدس سأل عن الصخرة فأُرشِد إلى مكانها، وكنس المكان حتى اتضحت الصخرة وكانت مطمورة، فسأل عمرُ رضي الله عنه كعبَ الأحبار عن موضع الصلاة، ودار بينهما ما هو موجود في النَّص.

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٣/ ١٠٦: (أي: شَابهتَها وعارضتَها).

٢- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٢٦١)، والقاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (٤٣٠)، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٦٤٠)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢/ ١٧١ و٦٦/ ٢٨٦.

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﷺ خطابه بسؤال لكعب الأحبار، وهو من باب سؤال الفاضل للمفضول؛ تشاورا وتواضعا، والسؤال جاء عن شعيرة مهمة من شعائر الإسلام، وهذا يزيد عمر ﷺ قيمة وعظمة؛ حيث السائل أفضل وأعلم من المسئول؛ فهو خليفة المسلمين وأحد العشرة المبشرين وأفضل الناس بعد الأنبياء والصديق أبي بكرٍ. وكون السؤال عن أهم شعيرة في الإسلام وفي أطهر البقاع في بيت المقدس، كل هذا مجتمعا لا يزيد عمر ﷺ إلا عظمة وجلالا. والسؤال هو (**أين ترى أن أصلي؟**)، والسؤال - كما يتضح من نصه - موضوعه يخص فعلا من أفعال أمير المؤمنين؛ فهو يسأله أين يصلي؟ ولما أجابه كعب جوابا لا يرتضيه لم يجامله عمر ﷺ كعادته، فهو الجريء الصلب القوّال للحق. فلما رأى أنه جانب الحق والصواب = قال له: (**ضاهيت اليهودية**)، وفي هذه الجملة إيجاز بالحذف تقديره: لما قلت ما قلت ضاهيت اليهودية بأفعالهم؛ وذلك بجعلك بيت المقدس قِبلة دون الكعبة. وقوله (**لا**): هذا ما بقي من الجملة التي حُذِف أكثرها، ولم يبق منها إلا حرف النفي (**لا**)، وتقدير الجملة: لا أفعل ما أشرتَ عليَّ، ثم استدرك على مستشاره قائلا: (**ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ**)، وهذا الاستدراك فُهِم من أداة الاستدراك (**لكن**). و(**الواو**) استئنافية تؤسس لمعنى جديد، وناسب هذا الاستئناف أن جاء عقبه استدراك؛ حيث الاستدراك والاستئناف ينقلانك من موضوع إلى غيره، ليس مناقضا لما قبله في الاستئناف، ومناقض له في الاستدراك. وقوله: (**أصلي**): مضارع يفيد التجدد والاستمرار والحدوث، أي: سوف أستمر طيلة حياتي على فعل هذه الصلاة وأحافظ عليها. وجملة (ﷺ) إطناب؛ حيث الجملة المعترضة تفيد الدعاء.

[٣١١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنِّي لَأَرَى الرَّجُلَ فَيُعْجِبُنِي، فَأَقُولُ: لَهُ حِرْفَةٌ؟ فَإِنْ قَالُوا: لَا؛ سَقَطَ فِي عَيْنِي»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبيِّن الحال، ولا الزمان، ولا المكان الذي قال فيه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا النَّص.

لطائف لغوية: في قوله: (**لأرى الرجل**): جاءت كلمة (**الرجل**) محلَّاة بـ (**أل**) التعريف، وفي معناها ودلالتها يقول الرعيني في متمِّمَة الآجرومية: «فصل في المعرَّف بالأداة: وأمَّا المعرَّف بالأداة؛ فهو المعرَّف بالألف واللام، وهي قسمان: عهدية وجنسية، والعهدية: إما للعهد الذكري، نحو: ﴿فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ﴾ [النور: ٣٥]، والعهد الذِّهني، نحو: ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، وللعهد الحضوري، نحو: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. والجنسية: إمَّا لتعريف الماهية، نحو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وإمَّا لاستغراق الأفراد، نحو: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، أو لاستغراق خصائص الأفراد، نحو: أنت الرجل علمًا؛ وتبدل لام (أل) ميمًا في لغة حِمْيَر».

١- رواهُ الدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٠١٧).

البيان والبلاغة: قوله: (**إنِّي لأرى الرجل فيعجّبني**): ابتدأ هذا النَّص بالتوكيد بـ (**إنَّ**) ثم بـ (**اللام**) التي للتوكيد؛ ليجتمع في النَّص من بدايته توكيدان اثنان، ثم يبيِّن أنَّ الذي يراه رجل لا شيء غير ذلك، والذي دلَّ على ذلك تعريفه (**أل**) التعريف التي هي لبيان ماهية الجنس؛ كيلا يظنُّ الظانُّ أنَّه شيء من غير جنس الرجال. واقتضى التنويه على ذلك بسبب ما وقع في الجملة من الكلام بعد ذلك، فهو يقول بأنه: (**يسقُطُ من عَينِه**). وقد بيَّن أنَّ هذا الرجلَ يدخل قلبه دون تريُّث ولا تمهُّل، ما إن يراه حتى يعجبه، والذي دلَّنا على هذه العجلة في الإعجاب = (**الفاء**) والتي هي للعطف، وتفيد الترتيب والتعقيب، فهذا الرجل يملك من السِّمات والصِّفات ما يجعل رائيه يحبه بلا تمهُّل، ولكن عمر رضي الله عنه لم يبيِّن لنا أي شيء أعجبه بالرجل، هل هو حسن منظر ومظهر، أم حسن خُلُق وعقل ودِين، أم كل هذا؟ ثم يجد أنَّ هذا الإعجاب الذي كان بادي الرأي ما يلبث أن يضمحل ويصير بددا، يبدده جواب المسئول، وقد قيل له: له حرفة؟ فيقال: لا، فما يعود عمر رضي الله عنه به معجبا. وبذا يبدد عمر رضي الله عنه نظرية من نظريات الإعجاب والحب، وهي التي تقول: (الحب أعمى)؛ ليقول لنا: (الحب مبصر ذو عينين واسعتين يقظتين)؛ لأن السؤال عن الحال عِلم، والعِلم بصيرة. وقوله: (**فأقول**) هذه هي (**الفاء**) التي تفيد التعقيب؛ فهو عاجل إلى السؤال؛ ليؤكد إعجابه أو يدحضه، وهذا يدلنا على أن عمر رضي الله عنه لا يعجب إلا بما يقبل الذِّهن والعقل، لا ما يقتحم العين فيغشى على القلب فتعشى منه البصيرة. وقوله: (**فأقول: له حرفة؟**): في النَّص حذف تقديره: فأقول للناس: هل له حرفة؟ ونوع الاستفهام - هنا - حقيقي يراد منه الاستفهام، والسائل خلو من العِلم، وهو يسأل ليعلم. ثم تأتي بعد ذلك جملة شرطية، وقلنا من قبل: إن آخر جملة جواب الشرط يتوقف على تحقق أولها (فعل الشرط)، والجملة هي: (**فإن**

قالوا: لا؛ سقط من عيني). وفي الجملة إيجاز بالحذف تقديره: لا حرفة له. والجملة الأخيرة في النَّص قوله: (**سقط من عيني**): فيها كناية عن صفة، وهي الازدراء، الذي يناقض الإعجاب الذي وقع في نفسه في بداية الأمر، وقد يقال فيها استعارة تمثيلية، كما نقل الآلوسي في تفسيره عن القطب، أنه جعل المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، قال الآلوسي: «وجعل القطب ذلك من باب الاستعارة التمثيلية؛ حيث شبَّه حال النَّدم في النَّفس بحال الشيء في اليد في التحقيق والظهور، ثمَّ عبَّر عنه بالسقوط في اليد». ومثل الذي قاله القطب في اليد نقوله في العين، فنقول: حيث شبَّه حال الازدراء في النفس بحال الشيء في العين في التحقيق والظهور، ثمَّ عبَّر عنه بالسقوط من العين.

[٣١٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي أَهْلِ الْكُوفَةِ

«أَعْيَانِي وَأَعْضَلَ بِي أَهْلُ الْكُوفَةِ؛ مَا يَرْضَوْنَ أَحَدًا وَلَا يَرْضَى بِهِمْ، وَلَا يَصْلُحُونَ وَلَا يَصْلُحُ عَلَيْهِم»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبيِّن الحال، ولا الزمان، ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا النَّص.

لطائف لغوية: في قوله: (**أعياني وأعضل بي**) فعلان لفاعل واحد، وهذا ما يسمى بالتنازع، وقد قال في شأنه الإمام ابن هشام في شرح قطر الندى وبل الصدى: «يسمى هذا الباب باب التنازع، وباب الإعمال - أيضا -، وضابطه: أن يتقدم عاملان أو أكثر، ويتأخر معمول أو أكثر، ويكون كل من المتقدم طالبا لذلك المتأخر. مثال تنازع العاملين معمولا واحدا: قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]، وذلك لأنَّ ﴿ءَاتُونِي﴾ فعل وفاعل ومفعول يحتاج إلى مفعول ثان، ﴿أُفْرِغْ﴾ فعل وفاعل يحتاج إلى مفعول، وتأخر عنهما ﴿قِطْرًا﴾ وكل منهما طالب له. ومثال تنازع العاملين أكثر من معمول: ضرب وأكرم زيد عمرا. ومثال تنازع أكثر من عاملين معمولا واحدا: كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم، فـ(على إبراهيم) مطلوب لكل واحد من هذه العوامل الثلاثة. ومثال تنازع أكثر من عاملين أكثر من معمول: قوله - عليه

١- رواهُ إبراهيمُ بنُ سعدٍ في «جُزئِه» (١٤٥٥)، والفسويُّ في «المعرفةِ والتَّاريخِ» ٢/ ٧٥٤.

الصلاة والسلام -: «**تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ - دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ - ثَلاثًا وَثَلاثِينَ**»، فـ (**دُبُر**) منصوب على الظرفية، و(**ثلاث وثلاثين**) منصوب على أنه مفعول مطلق، وقد تنازعهما كل من العوامل الثلاثة السابقة عليهما. إذا تقرر هذا فنقول: لا خلاف في جواز إعمال أي العاملين أو العوامل شئت، وإنما الخلاف في المختار؛ فالكوفيون يختارون إعمال الأول لِسَبقه، والبصريون يختارون إعمال الأخير لِقُربه». وفي قوله: (**ما يرضَوْن أحدًا، ولا يَرضَى بهم**): تكررت (**لا**) بعد (**ما**)، وبعد (**لا**) في قوله: (**لا يصلحون ولا يصلح عليهم**)، فما فائدة هذا التكرار؟ قال ابن القيم في بدائع الفوائد في تعليقه على قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[الفاتحة: ٧]: «ما فائدة زيادة (**لا**) بين المعطوف والمعطوف عليه؟ ففي ذلك أربع فوائد: أحدها: أنَّ ذكرها تأكيد للنفي الذي تضمَّنه ﴿غَيْرِ﴾، فلولا ما فيها من معنى النفي لما عطف عليها بـ (**لا**) مع الواو، فهو في قوة (لا المغضوب عليهم ولا الضالين) أو (غير المغضوب عليهم وغير الضالين). الفائدة الثانية: أنَّ المراد المغايرة الواقعة بين النوعين، وبين كل نوع بمفرده، فلو لم يذكر (**لا**) وقيل: (غير المغضوب عليهم والضالين) أوهم أنَّ المراد ما غاير المجموع المركَّب من النوعين لا ما غاير كل نوع بمفرده، فإذا قيل: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ كان صريحا في أنَّ المراد صراط غير هؤلاء وغير هؤلاء، وبيان ذلك أنك إذا قلت: ما قام زيد وعمرو؛ فإنما نفيت القيام عنهما، ولا يلزم من ذلك نفيه عن كل واحد منهما بمفرده. الفائدة الثالثة: رفع توهُّم أنَّ الضالين وصف للمغضوب عليهم، وأنهما صنف واحد وصفوا بالغضب والضلال، ودخل العطف بينهما كما يدخل في عطف الصفات بعضها على بعض، نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٣] إلى

آخرها؛ فإن هذه صفات المؤمنين، ومثل قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١ – ٣]، ونظائره، فلما دخلت (لا) عُلِم أنهما صنفان متغايران مقصودان بالذكر، وكانت (**لا**) أولى بهذا المعنى من (**غير**) لوجوه أحدها: أنها أقل حروفا. الثاني: التفادي من تكرار ... الرابع: أن (**لا**) إنما يعطف بها بعد النفي؛ فالإتيان بها مؤذن بنفي الغضب عن أصحاب الصراط المستقيم كما نفى عنهم الضلال، و(**غير**) وإن أفهمت هذا فـ(لا) أدخل في النفي منها».

البيان والبلاغة: افتتح النَّص بفعل ماض عطف عليه فعلا ماضيا مثله، والفعل الماضي يفيد تحقق الأمر وثبوته، فيقول: (**أعياني وأعضل بي أهل الكوفة**)، وهنا فعلان اثنان لفاعل واحد، وهو (**أهل الكوفة**)، والعي والإعضال كلاهما واقعان على واحد، هو أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وليس كل أهل الكوفة مَن جلب له هذا العي والإعضال، وإنما أطلق الكل وأراد الجزء، وهذا مجاز مرسل علاقته الكلية. والجملة التي تليها تبين وتفصح عن الإبهام الذي وقع فيها، وتبيِّن السبب الذي من أجله جَهِد أمير المؤمنين رضي الله عنه، وهو قوله: (**ما يرضَوْن أحدًا ولا يرضى بهم**)، ولم يقل: (ما يرضون أحدا ويرضى بهم)، وإنما كرر النفي بزيادة (**لا**)؛ لكي يبيِّن أنَّ الرضا هنا غيره هناك، فهم لم يشتركوا برضا واحد، بل رضاه عنهم غير رضاهم عنه، فكل أنواع الرضا وأشكاله تم نفيه بين أهل الكوفة ومن يحكمهم. والفعل في الجملتين مضارع يدل على الدوام والاستمرار، وهذا هو حال أهل الكوفة، عدم الرضا بينهم وبين غيرهم مستمر غير منقطع. والجملة التي تليها (**لا يصلحون ولا يصلح عليهم**) يقال فيها ما قيل في التي قبلها، وبين الجملتين ترابط ووصل، كون الجملتين لهما المعنى نفسه، وبينهما ما سميناه بالترصيع؛ وهو توافق الوزن والتقفية بين الجملتين.

[٣١٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَيُّهَا النَّاس، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا لِي مِنْ أَكَالٍ[١] يَأْكُلُهُ النَّاس، إِلَّا أَنَّ لِي خَالَاتٍ مِنْ بَنِي مَخْزُوم، فَكُنْتُ أَسْتَعْذِبُ لَهُنَّ الْمَاءَ، فَيُقَبِّضْنَ لِيَ الْقَبَضَاتِ مِنَ الزَّبِيبِ». ثُمَّ نَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا أَرَدْتَ إِلَى هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: «إِنِّي وَجَدْتُ فِي نَفْسِي شَيْئًا، فَأَرَدْتُ أَنْ أُطَأْطِئَ مِنْهَا»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**لقد رأيتُني**): قال ابن حجر في فتح الباري: «بضم المثناة؛ والمعنى: رأيت نفسي». وقوله: (**وما لي من أَكال**): قال الأزهري في تهذيب اللغة: «وما ذقت أكالا، أي: ما يؤكل»، وقال في موضع آخر: «أبو عبيد عن الأصمعي: ما ذُقتُ أكالًا ولا لَمَاجًا ولا شَماجًا، أي: ما أكلتُ شيئًا».

مقتضى الحال: كما هو مبين في النَّص؛ أنَّ الخليفة خشي على نفسه شيئا من العُجب؛ فأراد أن يُهذِّب نفسه ويردها إلى دينها وتواضعها، وكما ورد في الروايات أنَّه رقي المنبر، وجمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال هذا النَّص.

لطائف لغوية: اللام في قوله: (**لقد رأيتُني**)، سبق الحديث عنها وعن فائدتها عند شرح النص رقم تسعة وستين ومئة. وقوله (**أستعذِب**)، وهي من الفعل (استعذَب) الذي أصله الثلاثي (عَذَب)، وقد زيدت إليها السين والتاء قبلها همزة

١- الأكال: يقالُ: ما ذقتُ أَكالًا، بالفتح، أي: طعامًا. «الصّحاح» ٤/ ١٦٢٥.

٢- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٢٩٣، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣١٥.

وصل، ويأتي هذا الوزن لمعانٍ، راجع لها النَّص رقم سبعة وخمسين ومئة. وقوله: (**قبَضات**) بفتح الباء، لا بإسكانها. وقد سبق بيان القول فيها: متى تسكن ومتى تفتح، فراجع له النَّص رقم ثمانية ومئة.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله: (**أيها الناس**) وقد سبق في النَّص رقم اثنين وثلاثين ومئتين الحديث عن قوله: (**أيها الناس**). أمَّا قوله: (**لقد رأيتني ومالي من أكال يأكله الناس**): هذه الجملة فيها توكيدان: (**اللام**) التي للابتداء، و(**قد**) التي للتحقيق والتوكيد، والقَسَم المحذوف توكيد ثالث لمن يقول بأن اللام التي ترتبط بـ (**قد**) لام قسم محذوف. وهذه التوكيدات سيقت مقدمة لقوله: (**رأيتُني**)، وهذه عبارة يستخدمها العرب في الإخبار عمَّا وقع منهم من الحدث، وهي - كما مرَّ - بمعنى (رأيت نفسي). والمعتاد أنَّ الإنسان إذا فعل فعلا فإنه لا يخبر به بقوله: (رأيتني) أو (رأيت نفسي)، وإنما يستخدم هذا التعبير في الحديث عن فعل غيره، فيقول: رأيت فلانا يفعل كذا وكذا، فيكون حذفها من باب الإيجاز والعِلم بها، وقد ذكر الرؤية هنا من أجل التوكيد على الخبر الذي يتحدث عنه. والفعل (**رأيت**) يدل على الإدراك بحاسة البصر بالعين، وعليه يكون الخبر أكثر توكيدا؛ كونه قد شوهد بالعين. وقوله: (**وما لي من أكال يأكله الناس**): هذه جملة حالية تبيِّن حال عمر رضي الله عنه في تلك اللحظة من الزمن. وقوله (**أكال**) نكرة في سياق النفي تعم، و(**مِن**) حرف زائد للتوكيد، والعموم والتوكيد يبينان بجلاء الحال التي كان عليه أمير المؤمنين رضي الله عنه؛ حيث تنفي أي نوع من الأكال - الذي يتوفر مع الناس - أن يكون موجودا عنده، وهذا الأكال، الذي هو غير متوفر قد حصر عدم توفره، عند أمير المؤمنين رضي الله عنه؛ حيث قوله: (**لي من أكال**) تقدم فيها الخبر - وجوبا

– على المبتدأ وهذا يفيد الحصر، فقد حصر نفي وجود الأكال عنده. و(**اللام**) في قوله: (**لي**) للملك، تفيد أنه لا يملك أي نوع من الأكال قل أو كثر. وجملة (**يأكله الناس**): فيها إطناب يستفاد منه الاحتراس؛ خشية أن يظن الظان أنَّ الذي كان يفتقده هو مما يزيد عن الحاجة من المحسنات. وقوله: (**من أكال يأكله**): فيها اشتقاق اللفظ من اللفظ. وهناك ثمَّة اختلاف في المعنى بين كلمة (**الناس**) في قوله: (**أيها الناس**)، وكلمة (**الناس**) في قوله: (**تأكله الناس**)؛ حيث الأولى للناس المخاطبين ممن يسمعونه، والثانية لعموم الناس من العرب والعجم. وقوله: (**إلا أن لي خالات من بني مخزوم**): هذا الاستثناء وقع بعد النفي فأفاد الحصر؛ حيث حصر ماله وما يملكه فيما وقع بعد (**إلا**). وقوله: (**خالات من بني مخزوم**): (**من**) هي البيانية تبيِّن من أي الناس هن خالاته. وجملة (**من بني مخزوم**) فيها إطناب يراد منه الإيضاح، ورفع اللبس فلا يظن أنَّ خالاته من غير بني مخزوم. وقوله: (**فكنتُ أستعذِب لهنَّ الماء**): وقوع الفعل المضارع (**أستعذب**) بعد (**كنت**) يدل على أنه حدث أكثر من مرة، ولو كان لمرة واحدة لقال (كنت استعذبت). وزيادة السين والتاء في قوله: (**أستعذب**) تفيد الطلب، أي كنت أطلب لهن الماء العذب. وقوله: (**لهن الماء**) (**اللام**) هي التي للملك، أي: كنت أطلب الماء العذب لهن لا لغيرهن. وقوله: (**فيقبضن لي القبَضات من الزَّبيب**) يبدو أنَّ خالاته كن لا يؤخرن أجره، ويسارعن لإعطائه أجره، دلَّ على ذلك (**الفاء**) التي للعطف مع الترتيب والتعقيب. وقوله: (**فيقبضن لي القبضات**): هو من اشتقاق اللفظ من اللفظ. وقوله: (**من الزبيب**): (**مِن**) هي البيانية التي تفيد بيان الجنس؛ حيث هذه القبضات من الزبيب. وقوله: (**من الزبيب**): إطناب يفيد الإيضاح والبيان.

[٣١٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي عَزْلِ الْقُضَاةِ

«لَأَنْزِعَنَّ فُلَانًا عَنِ الْقَضَاءِ، وَلَأَسْتَعْمِلَنَّ عَلَى الْقَضَاءِ رَجُلًا إِذَا رَآهُ الْفَاجِرُ فَرَقَهُ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**فَرَقه**): قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦]: «والفَرَق: الخوف الشديد». وقال المراغي في تفسيرها: «الفَرَق (بالتحريك): الخوف الشديد الذي يَفرُقُ بين القلبِ وإدراكِه».

مقتضى الحال: وقع في بعض الروايات عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «شكي ضعف أبي مريم الحنفي إلى عمر فأمر بعزله»، وجاء في بعضٍ آخر أنه ولَّى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. وفي هذا الأمر جاء هذا النص.

لطائف لغوية: قوله: (**إذا رآه الفاجر فَرَقَه**): (**إذا**) هنا تسمى الظرفية، وقد سبق الكلام عنها في النَّص رقم ستة وسبعين ومئة. وقوله: (**لأنزعنَّ**): أكد هذا الفعل بالنُّون، وقد سبق الحديث -في النَّص رقم اثنين وثمانين ومئة- عن شروط وجوب إضافة نون مشدَّدة آخر الفعل. وقوله: (**الفاجر**): سبق بيان معنى الفجور والفرق بينه وبين الفسق = عند شرح النَّص رقم سبعة وخمسين ومئتين.

١- رواهُ وكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القُضاةِ» ١/ ٢٧٠، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٢٩٩).

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بـ (**لام**) الابتداء التي تفيد التوكيد، فقال: (**لأنزعن فلانا عن القضاء**). ولأهمية هذا الأمر – الذي هو نزعُ قاضٍ من القضاة –؛ حيث له من القيمة الدينية والدنيوية ما يجعل أمره مُهِمًّا = اقتضى الأمر التوكيد بأحد المؤكدات، هذا لو لم نقل بأن قَسَمًا محذوفا سبق اللام، كما هو رأي كثير من العلماء، وإلا انضمَّ إلا (**اللام**) مؤكدٌ ثان، وهو القسم الذي هو اقوى في التوكيد، فيجتمع في أول الجملة – أو الفعل – توكيدان، تبعهما ثالث جاء في نهاية الفعل، وهو النون المشددة، وليس الأمر بأقل من أن يكون الفعل مسبوقا بتوكيدين، وملحوقا بثالث. وقول الراوي: (**فلانا**)، مبهما من غير تسمية: قد يكون أبا مريم الحنفي؛ حيث هو ممن عُزلوا عن القضاء لضعفهم، وقد يكون الإبهام وقع من غير عمر رضي الله عنه، أي: من أحد الرواة، أو يكون عمر رضي الله عنه لم يفصح عن اسم الرجل من باب الستر، والأول أولى؛ لأنَّ العزل لا ستر فيه، لاسيَّما وقد ذكر الرواة أنه عزله وأمر المغيرة أن يقضي في الناس، وكان المغيرة أمير البصرة. والجملة التالية اتصلت بهذه الجملة وارتبطت بها، وحرف الوصل بينهما (**الواو**). وقوله (**لأستعملنّ**): يقال فيها ما قيل في التي سبقتها. وفي كلمتي (**لأنزعنّ**) و(**لأستعملنّ**) طباق، وقد يكون طباق مثله بين (**عن**) و(**على**) في هذا الموضع على الأقل، فإن كان فيهما طباق، سمي مجموع الطباقين: مقابلة. وكلمة (**القضاء**): كرَّرها مرتين ولم يستعمل الضمير في المرة الثانية؛ وذلك لأهمية الكلمة ومدلولها؛ حيث القضاء من الأهمية بحيث لا يقبل التكنية والإضمار. وقوله: (**رجلا إذا رآه الفاجر فَرَقَه**): جاءت كلمة (**رجلا**) نكرة فتكون الجملة التي تليها صفة لها. وصفة هذا الرجل الذي سيوليه عمر رضي الله عنه (**إذا رآه الفاجر فَرَقَه**): فـ (**إذا**) هنا ليست الشرطية، وإنما هي الظرفية، وهذه الجملة الظرفية الزمانية تبيِّن ارتباط فعلين بزمن واحد؛ حيث يرتبط ويتزامن خوف

الفاجر مع رؤيته للقاضي الذي سيعيِّنه الخليفة على القضاء. وقوله: (**رآه**): لم يقل: (تقاضى إليه) أو (حكم عليه)، وإنما تكفي الرؤية لتكون رادعا لهذا الفاجر. وقوله: (**الفاجر**): ولم يقل: (الفاسق) أو (العاصي)؛ حيث (**الفاجر**) هو المنبعث المنهمك بالمعصية، فهذا (**الفاجر**) على ما فيه من الغلظة إذا رأى القاضي يهابه ويفرَق منه. ولم يقل: (خافه)؛ حيث الفَرَق كما مر من كلام المفسرين هو الخوف الشديد، فدلَّت كلمة (**فَرَقَ**) على الخوف وزيادة، والزيادة هي شدة الخوف، فأن تجد رجلا إذا رآه المنبعث في المعصية انبعث في الخوف، إذن إنه لرجل شديد. وقد بينت الروايات - كما أشرنا آنفا - أن ذلك الرجل كان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

[٣١٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ قَدِمَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَرَأَى كَأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ تَعْذِيرًا

«مَا هَذَا يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ؟! لَوْ شِئْتُ أَنْ يُدَهْمَقَ لِي كَمَا يُدَهْمَقُ لَكُمْ لَفَعَلْتُ[١]، وَلَكِنَّا نَسْتَبْقِي مِنْ دُنْيَانَا مَا نَجِدُهُ فِي آخِرَتِنَا، أَمَا سَمِعْتُمُ اللهَ قَالَ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] »[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يُدَهْمَق**): قال القاسم بن سلام في غريب الحديث: «قال الأصمعي قوله: يُدَهْمَق لي؛ الدَّهْمَقَة: لِين الطعام وطيبه ورقته، وكذلك كل شيء ليِّن، قال الأصمعي: وأنشدني خلف الأحمر في نعت الأرض، فقال: جَون روابي تُربِه دهامق، يعني: تربة لينة. وقال غيره: الدهمقة والدهقنة واحد، والمعنى في ذلك كالمعنى في الأوَّل سواء؛ لأن لين الطعام من الدهقنة».

مقتضى الحال: الحال أنَّ ناسا من أهل العراق قَدِموا المدينة، فنزلوا على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فقدَّم لهم من الطعام ما لم يرُق لهم، فجعلوا يأكلون مجاملة، فلامهم على رغبتهم في الدنيا، وبيَّن لهم أنَّ خشونة طعامه ليس إلا رغبة بما عند الله تعالى.

لطائف لغوية: في قوله: (**لفعلت**): اللام الواقعة جوابا لـ (**لو**)، سبق الحديث

١- أي: يُليَّن لي الطَّعامُ ويُجوَّد. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (دهمق).

٢- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦١٢)، وأبو نعيمٍ في «حِلْيَةِ الأولياءِ» ١/ ٤٩.

عنها في النَّص رقم خمسة وستين ومئة، فليرجع إليه المستزيد.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله: (**ما هذا يا أهل العراق؟**)، مستعملا أداة الاستفهام (**ما**) وهي يُسأل بها عن ذوات ما لا يعقل وصفات ما يعقل؛ فسؤاله ليس عن شيء عاقل، فهو يسأل عن صفة شيء، أو عن ذات غير عاقلة، فكأنه يقول لهم: (صفوا لي ما تفعلون). قوله: (**هذا**) إشارة لقريب، والقرب إما أن يكون قرب زمان أو مكان أو مكانة؛ أمَّا الزمان فنعم، فالحدث شاهد بين يديه، والمكان كذلك، وأما المكانة، فليست كذلك، إلا أن يقال: لما عظم الفعل بقلبه وعقله وأنكرته حواسه، عظم حتى اقترب من نفسه فسأل عنه سؤال القريب. واستعمل لنداء أهل العراق أداة ينادى بها القريب - أيضا -، ولكن لِمِ ناداهم وهم بين يديه شاهدون؟ ذلك أن النداء ينبِّه الغافل، ويزيد يقظة المتيقظ، فهو يريد أن يقول لهم : (انتبهوا)، وزادهم من التنبيه بزائدة بأن نسبهم إلى بلدهم العراق، فلم يقل: (يا رجال) أو (أيها الناس)؛ ليبين لهم أنه إنما يخصهم بالذكر والنداء، دون غيرهم. ونسبتهم إلى بلدهم فيه ما يقرُب وما يبعُد؛ حيث قد يُقرأ الحدث بمعانٍ يعرفها من عرف علاقة عمر رضي الله عنه بأهل العراق؛ ذلك أنهم يكثرون التشكي إليه، وهو يشكو منهم، وقد لا يكون من هذه الجانب، بل نسبهم إلى موطنهم الذي انحدروا منه وهم له محبون - لاسيَّما وهم في بلد اغتراب - وبلدهم الذي يذكرهم به سليل حضارات، فهو يرفع من شأنهم، وهذا الوجه قد يكون وجيها إذا علم أنهم كانوا لا يستسيغون طعامه. وثَمَّ تناسب في الألفاظ وتنغيم جميل في تكرار حرف المد (**الألف**) في نهايات الكلمات الثلاثة الأولى (**ما هذا يا**)، ومثله في كلمة (**العراق**)، ولحرف المد قوَّته في التنبيه؛ حيث المد يترك للمتكلم سعة تجعله يمد به الصوت

ويطيل بما يكفيه ويلبي حاجته. ومثل هذا التناسب تراه في (**الهاء**) في كلمتي (**هذا**) و(**أهل**)، مع (**العين**) في كلمة (**العراق**)؛ كون (**الهاء**) تشترك مع (**العين**) بكونهما حرفين حلقيين، وأضف إليهما (الهمزة) في كلمة (**أهل**). وفي قوله: (**أهل العراق**) مجاز مرسل علاقته الكلية؛ حيث أطلق الكل وأراد الجزء؛ كون الذين حضروا بين يديه ليسوا كل أهل العراق، بل بعضهم. وفي الجملة إطناب وإيجاز بالحذف؛ أما الإطناب ففي قوله: (**يا أهل العراق**)، وأما الإيجاز ففي قوله: (**ما هذا**)، وتقديره: ما هذا الذي تصنعون. والسؤال هنا ليس على الحقيقة؛ فهو لا يسأل ليعلم؛ لأنه رأى ما صنعوا، وإنما يسأل لينكر عليهم فعلهم، فكأنه يقول: ما هذا المنكر الذي تفعلون. وقوله: (**لو شئتُ أن يُدَهْمَق لي كما يُدَهْمَق لكم لفعلتُ**): نعلم أن (**لو**) الشرطية تدخل على الجملة فتجعلها جزأين، لا يتم جزؤها الثاني (**لفعلت**) إلا بتمام الأول (**شئت**)، وهو ما يسمى بالامتناع لامتناع؛ فقد امتنعت المشيئة فامتنع وجود (الفعل) وهو الدهمقة. ومر بنا كثيرا فائدة المصدر المؤول على الصريح: أنه يفيد في تحديد الزمان، وهو هنا في قوله (**يدهمق**) مضارع، أفاد الاستمرار والتجدد والتكرار، فهو غير منقطع، لو شاءه لاستمرَّ ليلا ونهارا. وفي قوله: (**يُدهمق**) استعمل الفعل الذي لم يُسم فاعله؛ لعدم الحاجة إلى معرفته، ولكي يجعل العقل يغور في الاستنباط والتقصي والتساؤل عمَّن سيدهمقُ لأمير المؤمنين رضي الله عنه. وهذا العموم الذي تقتضيه صيغة (ما لم يسم فاعله) تبعها خصوص، وهو قوله: (**لي**)، فكل الناس يمكن أن يكون ممن يدمهق له رضي الله عنه. وقوله: (**كما يدهمق لكم**): (**الكاف**) للتشبيه، وهو هنا تشبيه حقيقي لا مجازي، وهذه الجملة تشبه سابقتها من حيث الوزن، مع اختلاف في التقفية، وهذه هي الموازنة. وفي قوله: (**لي**) وقوله: (**لكم**) طباق. وقوله: (**لفعلت**): اللام الواقعة في جواب الشرط تفيد التوكيد، وهذا التوكيد يدل على القدرة، أي:

قدرة الخليفة على أن يفعل ما شاء؛ فخزائن الأرض بين يديه من مال الفرس والروم والشام ومصر. وهنا يتحفز العقل ليسأل: وما الذي يحبسه عما يريد؛ أَنَذْرٌ نَذَرَه، أم قُصورٌ في ذوقه فهو لا يصلح لاستعمال ملذات الدنيا، أم ماذا وراء التلة؟ وهنا يقطع عمر رضي الله عنه توارد الفكرة في ذهن صاحبها ويستدرك عليه بحرف الاستدراك **(لكنّ)**، ملتفتا بأسلوب الخطاب من الضمير المفرد كقوله: **(شئت)** إلى ضمير الجمع فقال: **(لكنا)**، وهذا الالتفات جاء متناسقا مع ما سبق من التنبيه والتنويه الذي استخدمه في أول النَّص. وفائدة الالتفات دفع الشرود، والحث على الاهتمام بما يأتي من القول. ثم يقول لمن ذهب بعقله المذاهب كلها: **(لكنا نستبقي من دنيانا ما نجده في آخرتنا)**: وهنا انكشف الغطاء وعُلم ما في الإناء، إذن فهو الزهد وطلب ما عند الله تعالى، لله درُّك يا عمرُ. واستعمال عمر رضي الله عنه لضمير الجمع **(نا)** في حديثه عن نفسه = لا ينافي زهده وتواضعه، والجواب عن ذلك ذو ثلاث شعب: أولها: إنما كان يقصد الجمع على حقيقته، أي: إنا معشر الصحابة ممن يسلك شعب الحق، فمن تربَّى في شِعب أبي طالب لا يدهمق طعاما، ولا يزوق بناء، ولا ينمق رداء. ثانيها: أنه أراد بهذا ألا يحمل زهدُه وتقلله من الدنيا = ألا يحملَ الناس على ازدرائه أو الاستهانة به؛ وما ينبغي للأمير أن يسمح بهذا قط؛ كي يبقي من مهابته ما يستقيم به حكمه ويُخضِع الناس له، لاسيما وهو يخاطب أهل العراق ويعلم ما فيهم من النُّفور والإباء. ثالثها: أنه لما كان يتحدث عن قدرته وسلطته وأنه لوشاء لفعل، ناسب أن يعظِّم من ذاته؛ كي يدرك سامعه أنه قادر مستطيع، وخلو يديه من زينة الدنيا ورياشها ليس إلا من زهده لا ضعفه. والتناسب في اللفظ والوزن بين جملتي **(نستبقي من دنيانا)** و**(ما نجده في آخرتنا)** مع اتحاد الوزن يسمى ترصيعا، وفيهما مقابلة؛ فالكلمات **(نستبقي)** و**(دنيانا)** ضد **(نجد)** و**(آخرتنا)** وبالترتيب. وهو يرد

عليهم تعذيرهم بملامة وإنكار، فينكر عليهم ما ينكرون، وذلك بسؤاله لهم (**أما سمعتم الله...؟**)؛ حيث السؤال هنا لم يخرج على الحقيقة، وإنما خرج مخرج الإنكار عليهم، فكأنه يقول لهم: هل غاب عنكم قول الله تعالى؟ وجاء الفعل (**سمعتم**) ماضيا ليدل على الثبوت وانتهاء الأمر، فهو يقول لهم كان ينبغي أن تكونوا سمعتم وأجبتم. وهذا يبين أن معنى (**سمع**) هنا قد تكون بمعنى استجاب كقولنا: سمع الله لمن حمده، وإن كانت بمعناها الظاهر فتدل على محذوف؛ لأنه لا يسألهم عن مجرَّد السماع، وإنما عن تلبية ما في الآية من معنى. وهذا النَّص سبق له شبيهان: النَّص رقم ستة وثلاثين ومئتين، ورقم اثنين وأربعين ومئتين.

[٣١٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَقَدْ دَخَلَ عَلَى عُمَرَ وَمَعَهُ كَاتِبٌ نَصْرَانِيٌّ

«لَا تُكْرِمُوهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ اللهُ، وَلَا تُدْنُوهُمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ اللهُ، وَلَا تَأْتَمِنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: لهذا الحديث قصة ومناسبة جاءت بها الروايات، نورد منها ما جاء في السنن الكبرى للبيهقي: «أن أبا موسى وفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ومعه كاتب نصراني، فأعجب عمر رضي الله عنه ما رأى من حفظه، فقال: (قل لكاتبك يقرأ لنا كتابا)، قال: إنه نصراني، لا يدخل المسجد، فانتهره عمر رضي الله عنه، وهمَّ به، وقال: ...» هذا النَّص.

البيان والبلاغة: يبدأ النَّص بالنَّهي فالأمير والخليفة هو الناهي، وهو مَن هو في مقام الدين؛ المحدَّث الذي لو كان نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان هو؛ فالنهي له من الجلالة والمهابة والأثر ما يعجز المتحدث عن وصفه، وعلى الرغم من أن المنهِيَّ والمؤدَّب في هذه القصة من عظماء المسلمين، وعلى جلالة أبي موسى وعظمته، لكن هذا لا يمنع من وعظه، وأمره ونهيه، فهو يقول له: (**لا تكرموهم إذ أهانهم الله**). وعلى الرغم من أن الذي أكرمهم في القصة واحد - هو أبو موسى - إلا أن الخِطاب

١- رواهُ ابنُ زَبْرٍ الرَّبَعِيُّ في «شُرُوطِ النَّصارى» (٢٤)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٤٠٩)، وفي «شُعَبِ الإيمانِ» (٨٩٣٩).

وُجِّه لعموم الناس، فلم يقل: (لا تكرمهم)، بل قال: **(لا تكرموهم)**، وهذا من حرصه على الخير وتعميمه، ونشر الفضيلة في الناس كافة. كما أن أبا موسى دخل على عمر رضي الله عنه برجل واحد من النَّصارى، ولكنه عمَّم الأمر على النَّصارى أجمعين، فلم يقل: (لا تكرمه) بل قال **(لا تكرموهم)**. وقوله: **(إذ)** ظرف للزمن الماضي، أي: قد أهانهم الله - تعالى - وانتهى الأمر، ولا أمر بعد أمر الله - تعالى -. وفي قوله: **(تكرم)** وقوله: **(أهان)** طباق. ثم جاءت بعد هذه الجملة جملتان رُبطت بالتي سبقتها برابط **(الواو)**؛ حيث هي متصلة لا فصل فيها؛ لأن الموضوع بينها متحد ومترابط ومتشابه، والجملتان التاليتان لا تختلفان عن السابقة بشيء، فيقال فيهما ما قيل في السابقة، إلا زيادة عبارة **(عز وجل)** في نهاية الثالثة. وكونها في نهاية النَّص أشعرت بأنها أُجِّلَت في الأولى والثانية؛ لتقال في الثالثة، فتقوم الثالثة بمقام الجملتين السابقتين. وما سبق حديث عن الجمل الثلاثة كل واحدة منها على حدة، أمَّا الثلاثة مجتمعة فبينها تناسب وتناسق في اللفظ وتقارب أو مساواة في الوزن، وهذا هو الترصيع. وكرَّر لفظ الجلالة **(الله)** في كل الجمل ولم يعبِّر عنه بالضمير؛ وذلك لأهمية ذكره وتعظيما لشأنه، حيث الجمل فيها ثلاث صفات عظيمة، تقابلها ثلاث خلافها؛ فاقتضى تعظيم الله - تعالى - تناسبا مع الجمل المادحة، وإجلالا له من الجمل الذامَّة، لاسيَّما وأن الكلام على مسمع من رجل لا يؤمن بما أنزل الله - تعالى - من الهُدى ولا بنبيه المجتبى صلى الله عليه وسلم؛ فذِكرُ الله - تعالى - على مسمعه يبعث العزة في نفس المسلمين.

[٣١٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي شُكْرِ نِعْمَةِ اللهِ - تَعَالَى - عَلَيْهِ وَقَدْ مَرَّ بِضَجْنَانَ[١] بَعْدَ حَجِّهِ

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْعَلِيُّ، الْمُعْطِي مَا شَاءَ مَنْ شَاءَ! كُنْتُ أَرْعَى إِبِلَ الْخَطَّابِ بِهَذَا الْوَادِي فِي مِدْرَعَةِ صُوفٍ، وَكَانَ فَظًّا يُتْعِبُنِي إِذَا عَمِلْتُ، وَيَضْرِبُنِي إِذَا قَصَّرْتُ، وَقَدْ أَمْسَيْتُ وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ اللهِ أَحَدٌ. ثُمَّ تَمَثَّلَ:

لَا شَيْءَ فِيمَا تَرَى تَبْقَى بَشَاشَتُهُ ... يَبْقَى الْإِلَهُ وَيُودِي الْمَالُ وَالْوَلَدُ[٢]

لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْمًا خَزَائِنُهُ ... وَالْخُلْدَ قَدْ حَاوَلَتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوا[٣]

وَلَا سُلَيْمَانُ إِذْ تَجْرِي الرِّيَاحُ لَهُ ... وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ فِيمَا بَيْنَهَا تَرِدُ[٤]

أَيْنَ الْمُلُوكُ الَّتِي كَانَتْ نَوَافِلُهَا ... مِنْ كُلِّ أَوْبٍ إِلَيْهَا رَاكِبٌ يَفِدُ

١- (ضَجْنَان) فَعَلَان مِن الضَّجَنِ، وهي: حَرَّةٌ شمالَ مكَّةَ يمرُّ الطَّريقُ بِنَعْفِها الغربيِّ، على مسافةِ ٥٤ كيلًا على طريقِ المدينةِ، تُعرَفُ اليومَ بِحَرَّةِ المحسنيَّة. «معجم المعالم الجغرافيَّة للسِّيرة النَّبويَّة» ص١٨٣.

٢- اتَّفقتِ المصادرُ على نسبةِ البيتِ الأوَّلِ فقط لِلفاروقِ عُمرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، وروى الطَّبريُّ في «تاريخه» بإسنادِه الأبياتِ المذكورةَ.

٣- الأبياتُ مِن (لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ) إلى (كَمَا وَرَدُوا)، روى ابنُ بشرانَ في «الأمالي» (١٣٠٢)، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظم» ٢/ ٣٧٣ عن ابنِ أبي الزِّنَادِ أنَّها لِوَرَقَةَ بنِ نوفلٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، وقال السُّهَيليُّ في «الرَّوضِ الأُنُفِ» ٢/ ١٦١: (نسبه أبو الفرجِ إلى ورقة، وفيه أبياتٌ تُنسَبُ إلى أُميَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ).

٤- عِندَ أبي بكرٍ العنبريِّ:

وَلَا سُلَيْمَانُ إِذْ دَانَ الشُّعُوبُ لَهُ ... وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَجْرِي بَيْنَهَا الْبَرَدُ

لَقَدْ نَصَحْتُ لِأَقْوَامٍ، وَقُلْتُ لَهُمْ ... أَنَا النَّذِيرُ فَلَا يَغْرُرْكُمُ أَحَدُ

لَا تَعْبُدُنَّ إِلَهًا غَيْرَ خَالِقِكُمْ ... وَإِنْ دُعِيتُمْ فَقُولُوا: بَيْنَنَا جَدَدُ

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانًا يَعُودُ لَهُ ... رَبُّ السَّمَاءِ إِلَهٌ وَاحِدٌ أَحَدُ

حَوْضًا هُنَالِكَ مَوْرُودًا بِلَا كَذِبٍ   لابد مِنْ وِرْدِهِ يَوْمًا كَمَا وَرَدُوا[١]

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**ضجنان**): قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: «ضجَنان؛ بالتحريك ونونين، قال أبو منصور: لم أسمع فيه شيئا مستعملا غير جبل بناحية تهامة يقال له ضجنان، ورواه ابن دريد بسكون الجيم، وقيل: ضجنان جبيل على بريد من مكَّة، وهناك الغميم في أسفله مسجد صلى فيه رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم -، وله ذكر في المغازي، وقال الواقدي: بين ضجنان ومكَّة خمسة وعشرون ميلا، وهي لأسلم وهذيل وغاضرة».

مقتضى الحال: الحال أن عمر رضي الله عنه مرَّ - وهو قافل من حجته - بوادي ضجنان فتذكَّر أيام صباه وما كان عليه من الحال والعوز، وما هو عليه الآن من الإمارة، فدفعه ذلك إلى أن قال هذا النَّص الذي بين أيدينا.

لطائف لغوية: (**إذا**) الظرفية في قوله: (**يتعبني إذا عملت**) قد سبق الحديث عنها في النَّص رقم ستة وسبعين ومئة. وقوله: (**بيني وبين الله**): نقول: (بيني وبينك) بتكرار كلمة (**بين**)، ونقول: (بين الراعي والرَّعيَّة) من غير تكرار كلمة (**بين**)، ولهذا التكرار وعدمه أسباب سبق الحديث عنها في النَّص رقم أربعة وتسعين ومئتين، فليراجعه طالب الزيادة.

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ» ٣/ ٢٦٦، وابنُ شبَّةَ في «تاريخ المدينةِ» ٢/ ٦٥٦، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (٨٤)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٢٩٩، والطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢١٩ واللَّفظُ له، وأبو بكرٍ العنبريُّ في «مجلسِه» (١٨)، والخرائطيُّ في «فضيلةِ الشُّكرِ للهِ على نعمتِه» (٤٣)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣١٦.

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﵁ خطابه بقوله: (**لا إله إلا الله**)، وهي كلمة التوحيد العظيمة، وقد ناسب البدء بتعظيم الله - تعالى - كون النَّص يتحدث فيما بعد عما بلغه عمر ﵁ من الرفعة والعظمة، وذلك قوله - فيما بعد -: (**وقد أمسيت وليس بيني وبين الله أحد**). أما كلمة التوحيد (**لا إله إلا الله**) ففيها حصر؛ حيث ورد الاستثناء مسبوقا بـ (**لا**) النافية للجنس التي تنفي كل فرد من جنس ما جاء بعدها، وهذا عموم يخصصه ما جاء بعد (**إلا**)؛ حيث حصر الألوهية بالله وحده. ولم يكتفِ عمر ﵁ بما في كلمة التوحيد من الذكر والوصف لله - تعالى - فأعقبها بذكر بعض من أسماء الله الحسنى تناسب الحال، حيث الحديث عن العظمة وبلوغ عمر ﵁ مبلغا عظيما، وهو إمارة المسلمين وهذه الأسماء هي: (**العظيم، العلي، المعطي ما شاء من شاء!**). أما (**العليُّ**) فناسب مع قوله: (**ليس بيني وبين الله أحد**)، وهو يُذَكِّر نفسه وسامعه أنه مهما علا فالله أعلى، لاسيما وقد قالها وهو راجع من الحج الذي فيه إعلاء وتعظيم لله - تعالى -، ويقال في: (**العظيم**) ما قيل في (**العلي**). وقوله: (**المعطي ما شاء من شاء**) ناسب الحديث عن عطاء الله؛ كونه مرَّ في موضع كان فيه راعيا للإبل في مدرعة صوف ثم أصبح (**ليس بينه وبين الله أحد**). وقوله: (**ما شاء من شاء**): في هذه الجملة تناسب في الوزن واللفظ والسجع؛ وهو ما يسمى الترصيع. وقوله: (**ما**) اسم موصول يدل على غير العاقل، و(**من**) تدل على العاقل، فيعطي الله - تعالى - ما لا يعقل لمن يعقل؛ ليحسن تدبيره، فمن أساء فلا عقل له. وتلك المقدمة من الذكر والتعظيم لله - تعالى - وبيان مشيئته قد سيقت لما بعدها، وذلك قوله: (**كنت أرعى إبل الخطاب**). وقد سبق القول أن (**كان**) مع المضارع تفيد التكرار المنقطع، أي: كان يداوم على ذلك ويكثر منه، ولو قال: (كنت رعيت) لدلت على المرة. وقوله: (**إبل الخطاب**) ولم يقل: (إبل أبي): لأن إضافة

الإبل إلى الخطاب تفيد الملك، ولما كان ما يملكه الخطاب هو الإبل التي هي أعز مال العرب ناسب إضافتها إلى صاحبها فذكره باسمه، وقد لا يبعد القول لو قلنا: لم يذكر أبوته له؛ لأنه في موطن ذكَّره بغلظته عليه، والأُبوَّة تناسبها الرحمة والحنوّ والعطف، وما ذكره عن الخطاب من الغلظة والجفاء لا يناسب ذكر الأبوة. وقوله: (**بهذا الوادي**): (**هذا**) اسم إشارة يدل على القريب، والقرب هنا قرب مكان. ثم يتابع عمر ﵁ وصف حاله في الصبا حتى ما فاته أن يذكر ملبسه فيقول: (**في مدرعة صوف**) وهذا من صدق الحديث، ودقة الوصف، وبُعد الذاكرة، فإن تذكر أيام الصبا لاسيما ما شق منها يبعث الحنين والوجد في النفس، وإن الرجل إذا تذكر صباه وأشياءه في صباه صدق ولو كان فيها ما يعيب؛ لأنه يكره أن ينفصل عن ذاته وأن يتبرأ منها، أضف إلى ذلك ما في هذا التذكر من التواضع؛ فالأمير الذي دانت له الفرس والروم لا يخجل من مدرعة الصوف. وهذه الصورة التي ينقلها عمر ﵁ عن حياته الأولى في الأيام الخوالي ناسبت ما هو عليه الآن، فمدرعة الصوف وخشن اللباس ما زال رفيقه، ورعي الإبل لم ينفك عنه، فهو اليوم راع يرعى أمَّة من البشر، فسبحان الذي حوَّله من راعي نَعَم إلى راعي أمم، ويستمر عمر ﵁ بنقل ملامح الصبا؛ حيث اجتمع عليه بُعد المكان عن مسكنه وأقرانه في حرَّة يرعى فيها أغلظ ما يرعى به الرعاة وهي الإبل، وأخشن لباس، ووالد غليظ، فالمكان واللباس والمهنة والوالي اجتمع فيهم من الغلظة ما قسى عليه فزاده طيبا؛ فإن قسوة الحياة إذا سقطت على الكريم صقلته، وإذا سقطت على اللئيم زادته لؤما وجعلته دنيئا، كالنار تسقط على العود فيخرج ريحه إن طيبا فطيب وإن نكدا فنكد. وقوله: (**يتعبني**): بصيغة المضارع تدل على المداومة والكثرة، ومثله في قوله: (**يضربني**). وجملة (**يتعبني إذا عملت**)، وجملة (**يضربني إذا قصرت**) بينهما تناسب في اللفظ

والصيغة مع اتحاد التقفية؛ وهذا هو الترصيع. وفي كلمتي (**قصرت**) و(**عملت**) طباق. ثم راح يبين حاله وما أصبح عليها بقوله: (**وقد أمسيت وليس بيني وبين الله أحد**)، والحرف (**قد**) يفيد التحقيق والتوكيد، وقد كان أيام صباه بينه وبين الناس آحاد وألوف، واليومَ ليس بينه وبين الله أحد.

[٣١٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي التَّوَاضُعِ وَالْأَكْلِ مَعَ الرَّقِيقِ، وَقَدْ جَاءَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بِجَفْنَةٍ يَحْمِلُهَا نَفَرٌ فِي عَبَاءَةٍ، فَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْ عُمَرَ، فَدَعَا لَهَا الْمَسَاكِينَ وَالْأَرِقَّاءَ فَأَكَلُوا مَعَهُ، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ:

«فَعَلَ اللهُ بِقَوْمٍ - أَوْ لَحَا اللهُ قَوْمًا[1] - يَرْغَبُونَ عَنْ أَرِقَّائِهِم أَنْ يَأْكُلُوا مَعَهُم». قَالَ صَفْوَانُ: إِنَّا - وَاللهِ - لَا نَرْغَبُ، وَلَكِنَّا نَسْتَأْثِرُ عَلَيْهِمْ، لَا نَجِدُ مِنَ الطَّعَامِ الطَّيِّبِ مَا نَأْكُلُ وَنُطْعِمُهُمْ»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(جفنة)**: جَفنة؛ بفتح الجيم، وهي أكبر من الصحفة، وهي أشبه بما يسمى في أيامنا بالطنجرة، قال الأزهري في تهذيب اللغة: «أبو عبيد عن الكسائي: أعظم القصاع الجفنة، ثم القصعة تليها تشبع العشرة، ثم الصحفة تشبع الخمسة ونحوهم، ثم المئكلة تشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصحيفة تشبع الرجل». وقوله: **(لحا الله قوما)**: قال ابن القطاع في كتاب الأفعال: «و(لحاه) الله - تعالى - قبَّحه ولعنه».

مقتضى الحال: الحال تبيِّنه الرواية التي جاءت في كتاب الأدب المفرد، برقم واحد ومئتين: قال: أبو مَحْذُورَةَ كنت جالسا عند عمرَ - رضي اللهُ عنه - إذ جاء

١- لَحَا اللهُ قَوْمًا: يعني قبَّحهم اللهُ.

٢- رواهُ الحسينُ بنُ حربٍ في «البِرِّ والصِّلةِ» (٣٥١)، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٢٠١).

صفوانُ بن أُمَيَّة بِجَفْنَة يحملها نفرٌ في عباءة فوضعوها بين يدَي عمر، فدعا عمر ناسا مساكين وأرقاء من أرقاء النَّاس حوله، فأكلوا معه. ثمَّ قال عند ذلك: ...» هذا النَّص.

لطائف لغوية: ورد في النَّص: (**يرغبون عن أرقائهم**): ما الفرق بين (رغب بالشيء)، و(رغب عن الشيء)؟ قال ابن سيده في المحكم: «ورغب في الشيء، رغبا، ورغبة، ورغبى، ورغبا: أراده، والرغيبة: الأمر المرغوب فيه، ورغب عن الشيء: تركه متعمدا، ورغب بنفسه عنه: رأى لنفسه عليه فضلا».

البيان والبلاغة: يفتتح عمر رضي الله عنه قوله بتنقيص قوم والدعاء عليهم، فيقول: (**فعل الله بقوم – أو لحا الله قوما –**)، والسامع لتنقيصِ عمر رضي الله عنه يفْرَق ويأخذه من الحذر ما يتمنى ألا تصيبه هذه اللعنة، لاسيما والكلام صادر عن أمير ذي سلطان، وواحدٍ من عباد الله الذين يقع كلامهم من الله بمكان، فمن أصابه منه لعنة فقد أصابه ما لا يُرجى بُرؤه، والناس تترقب تمام كلامه، وكل يرجو ألا يبلغه من ذلك شيء، حتى إذا تبين السامع أي الناس قبَّح، فإن كان بلغه من ذلك شيء باء بشرٍّ ما يُنتظر، وإن لم يبلغه من ذلك شيء حمد الله على النجاة. وقوله: (**يرغبون عن أرقائهم أن يأكلوا معهم**): جاء التقبيح ملائمًا لصنيع القوم؛ حيث ما فعلوه قبيح، فكان الجزاء من جنس العمل. وقوله: (**أرقائهم**) ولم يقل: (عبيدهم أو مواليهم)؛ لأن في كلمة (**الرقيق**) ما يدل على ضعف وانكسار وقلة حيلة، وإن التطاول على مَن هذه صفته من الضعفاء قلة عقل وقبح استحق صاحبها لعنة الأمير.

[٣١٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ سَمِعَ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ

«أَسَافَرْتَ مَعَهُ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «أَخَالَطْتَهُ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا تَعْرِفُهُ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: أنَّ الخليفة سمع رجلا يثني على رجل، ففطن عمر رضي الله عنه لذلك، فأراد أن يبين أن المدح لا ينبغي إلا أن يكون بعد المخالطة والسفر، فسأل الرجل عن ذلك، فأجابه بأنه لم يفعل، فقال هذا النَّص.

البيان والبلاغة: لما سمع ثناءً وإطراءً، ظنَّ أن الرجل خبير بصاحبه، ولا يمدح الرجلُ الرجلَ إلا إن خبره وعلم سيرته وسريرته، فبادر عمر رضي الله عنه إلى سؤاله فقال له: (**أسافرت معه؟**)، والاستفهام هنا على الحقيقة لا مجاز فيه، والخليفة إنما يريد بسؤاله أن يعلم. ولقائل أن يقول: لِمَ سأله عن السفر؟ قلنا: ما سمي السفر سفرا إلا لأنه يسفر عن طبائع الرجال ويكشف عن أحوالهم ويخرج خبيئاتهم؛ لما يتحصل به من الشقة والتعب من نفاد الزاد، وحذر أهل الحرابة، وقلة ذات اليد، وبعد الناصر، ووحشة الغربة، فمَن كان سيئ الطبع فُضِح وعُلم وزنه وشأنه، ومن كان سليم الطبع حسن السيرة والسريرة اتَّضح ذلك منه ومُدح، ولا يخبرك عن معادن الرجال مثل السفر. ثم سأله عن المخالطة التي قد تعني هنا الشركة في التجارة، وقد

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّمتِ» (٦٠٣).

سمي الشريك في التجارة خليطا، وهذا يذكرنا بقول نبي الله داودَ - عليه السلام -: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤]، ومنه يفهم أن القليل منهم من لا يبغي على شريكه، وذلك لما في مخالطة التجارة من الطمع في الكسب والاستيلاء على حصة الشريك والاستئثار بالربح والنفع ومَن نجا من هذه فهو كريم الطبع. وقد يكون عنى بالمخالطة الصحبة والرفقة والملازمة، وحري بمن خالط قرينا أن يكشف طبائعه وقد قال رسول الله ﷺ: «**الْمَرْءُ عَلَى دِيْنِ خَلِيْلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**»، وقال طرفة:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

ويقسم الأمير بقسم غليظ بقوله: (**والله الذي لا إله غيره، ما تعرفه**)، وهذا يبيِّن أنَّ الرجل لا يشهد على رجل بخير أو شر حتى يكون ابتلاه إما بسفر أو صحبة أو تجارة. وقد اجترأ عمر رضي الله عنه على هذا اليمين الغليظ ونفى ما أخبر به الرجل عن نفسه؛ ليقينه بألا يكشف عن الرجال إلا ما ذكره من الصفات. وقوله: (**ما تعرفه**) ولم يقل: (لا تعرفه)؛ لأن (ما) تنفي الحال التي يكون عليها صاحبها ولا تنفي ما بعد ذلك، و(لا) تنفي الحال وما استقبل من الزمان، وهذا يشعر أن الرجل قد يعلم في قابل حال صاحبه، فكأنه يقول له: اذهب فاعرفه.

[٣٢٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، وَقَدِ احْتَبَسَهُ عِنْدَهُ حَوْلًا

«يَا أَحْنَفُ، قَدْ بَلَوْتُكَ وَخَبَرْتُكَ، فَلَمْ أَرَ إِلَّا خَيْرًا، وَرَأَيْتُ عَلَانِيَتَكَ حَسَنَةً، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ تَكُونَ سَرِيرَتُكَ مِثْلَ عَلَانِيَتِكَ؛ فَإِنَّا كُنَّا نَتَحَدَّثُ: إِنَّمَا يُهْلِكُ هَذِهِ الْأُمَّةَ كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمٍ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الحال أنَّ الأحنف قدم على عمر رضي الله عنه فحبسه حولا، كما جاء في الروايات من قول الأحنف: «قدمتُ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاحتبسني عنده حولا»، فقال له هذا النَّص بعد الحول.

لطائف لغوية: ورد في النَّص: **(قد بلوتك وخبرتك)**، فما الفرق بين الابتلاء والاختبار؟ يقول أبو هلال العسكري في الفروق: «الفرق بين الابتلاء والاختبار: أنَّ الابتلاء لا يكون إلا بتحميل المكاره والمشاق، والاختبار يكون بذلك وبفعل المحبوب، ألا ترى أنه يقال: اختبَره بالإنعام عليه، ولا يقال: ابتلاه بذلك، ولا هو مبتلى بالنعمة، كما قد يقال أنه مختبر بها. ويجوز أن يقال: إن الابتلاء يقتضي استخراج ما عند المبتلى من الطاعة والمعصية، والاختبار وقوع الخبر بحاله في ذلك، والخبر العلم الذي يقع بكنه الشيء وحقيقته، فالفرق بينهما بيِّن». وورد في النَّص

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ» ٧/ ٩٤، وأحمدُ في «الزُّهدِ» (١٣٠٠)، والفريابيُّ في «صفةِ المنافقِ وذمِّ المنافقين» (٢٧)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢٤/ ٣١٠.

ذكر اسم (**الأحنف بن قيس**)، وكلمة (**الأحنف**) عَلَم، والعَلَم معرفة فلا يحتاج للتعريف، وقد سبق بيان سبب دخول (**أل**) التي للتعريف على بعض الأعلام، فراجع لذلك شرح النَّص رقم ثمانين ومئة فراجعه، إن أردت الاستزادة.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بنداء الأحنف بقوله: (**يا أحنف**)، وقد ناداه وهو بمقربة منه، وقادر على سماعه ولو لم ينادِه، ولكن النداء - هنا - غرضه التنبيه؛ ليعي المنادى أن الأمر يخصه، فيعتني بقول مناديه، ولا ينشغل باله بغير كلامه، وهذا التنبيه ناسبه ما جاء بعده من التوكيد والتحقيق الذي يستفاد من الحرف (**قد**). وقوله: (**بَلَوْتُك وخبرتك**): قدَّم (**بَلَوْتُك**) على (خبرتك)؛ حيث الثاني نتيجة عن الأول، هذا على أحد الأقوال في الفرق بينهما - كما مر من كلام أبي هلال العسكري - وقيل الابتلاء أخص؛ فهو في المكروه والشاق، والاختبار فيها وبالنعيم والخير. وسواء قلنا بالقول الأول أو الثاني، فالترتيب جاء بالترقي؛ ففي الأول من المقدمة إلى النتيجة، والثاني من الخاص إلى العام. وعمر رضي الله عنه لم يحكم على الأحنف إلا بعد الابتلاء والاختبار، خلافا لما وقع في النَّص السابق من الرجل الذي أثنى على رجل دون أن يبتليه أو يختبره، أو حتى يسافر معه أو يخالطه، ولم يمدح عمر رضي الله عنه الأحنف إلا بعد مرور عام من الابتلاء والاختبار، وبعد مرور العام امتدحه فقال: (**لم أر إلا خيرا**)، وهذا مدح فيه من المبالغة حتى إنه نفى عنه الشرور كلها، وحصر ما يراه منه بالخير، يبين هذا أسلوب الحصر الذي صيغت به الجملة، فلم يصدر من الأحنف بعام كامل إلا خيرا، وهذا الخير جاء عامًّا؛ كونه نكرة في سياق النفي. لكن هذا الخير على عمومه خصص بالعلانية دون السريرة، فقال له: (**ورأيت علانيتك حسنة**)، ومفهوم المخالفة أن السريرة لم تُر

بعد ولم تتضح، ووصفه العلانية بقوله: (**حسنة**) نكرة فيها عموم؛ لتعم كل نوع من أنواع الحسنات، أمَّا السريرة فلم يملك له منها شيئا إلا أن يوكلها لله رب العالمين، ويرجو الله - تعالى - لها الخير. ومن حسن الرجاء أنه استأنف له جملة جديدة مستعملا حرف (**الواو**) الذي للاستئناف، فقال: (**وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك**)، وهذا الاستئناف لأجل بيان أهمية الجملة، وذكرنا أن ميزة المصدر المؤول على الصريح أنه يظهر زمن الفعل، الذي هو هنا المضارع، الذي يدل على الاستمرار والدوام، فهو يقول له أرجو لك سريرة حسنة على الدوام. وفي كلمتي (**سريرتك**) و(**علانيتك**) طباق. وقوله: (**فإنا كنا نتحدث: إنما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم**): في الجملة حصر أفادته (**إنما**) التي هي للتوكيد والحصر، والحصر هنا ليس حصرا لكل أنواع الهلاك؛ وإنما لبيان أن المنافق لا يأتي منه إلا الهلاك.

[٣٢١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِمَوْلَاهُ أَسْلَمَ، عَنِ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ

«يَا أَسْلَمُ، لَا يَكُنْ حُبُّكَ كَلَفًا، وَلَا يَكُنْ بُغْضُكَ تَلَفًا». قَالَ أَسْلَمُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ عُمَرُ: «إِذَا أَحْبَبْتَ فَلَا تَكْلَفْ كَمَا يَكْلَفُ الصَّبِيُّ[١] بِالشَّيْءِ يُحِبُّهُ، وَإِذَا أَبْغَضْتَ فَلَا تُبْغِضْ بُغْضًا تُحِبُّ أَنْ يَتْلَفَ صَاحِبُكَ وَيَهْلِكَ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**كَلَفًا**): قال في مقاييس اللغة: «كلف: الكاف واللام والفاء = أصل صحيح يدل على إيلاع بالشيء وتعلق به، من ذلك الكلف، تقول: قد كلف بالأمر يكلف كلفا، ويقولون: (لا يكن حبك كلفا، ولا بغضك تلفا)».

وقوله: (**تَلَفًا**): قال في العين: «التلف: عطب وهلاك في كل شيء، والفعل تلف يتلف تلفا».

مقتضى الحال: الحال أن عمر رضي الله عنه أراد تعليم مولاه أسلم كيف يحب ويبغض، فدار بينهما ما في هذا النَّص من الحديث.

١- كَلِفَ الصَّبِيُّ: هو الوُلُوعُ بالشَّيءِ معَ شُغْلِ القلبِ.

٢- رواهُ ابنُ وهبٍ في «الجامع» (٢١٣) و(٢٣٠)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٢٦٩)، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (١٣٢٢)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٦١٧٣)، والبغويُّ في «شرحِ السُّنَّةِ» (٣٤٨١). [وباختصار في التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص ٢٩)]

لطائف لغوية: قوله: (**إذا أحببت فلا تكلف**): جملة شرطية، اقترن فيها جواب الشرط بالفاء، وقد سبق الكلام عن أحكام اقتران جواب الشرط بالفاء في النَّص رقم خمسة عشر ومئتين، فليراجعه المستزيد.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه الخطاب في هذا النَّص بنداء أسلم: (**يا أسلم**)، فالغرض من نداء مَن بين يديه - وهو سامعه دون أن يناديه - التنبيه، وإيقاظ حسِّه؛ ليكون أكثر إصغاء ووعيا لكلام المتحدث، وبعدما ناداه، وظن منه الإصغاء بدأ بنصحه، فقال: (**لا يكن حبك كلفا، ولا يكن بغضك تلفا**)، وهو نهي من أمير لواحد من رعيته، بل من خدمه، فهو واقع من عال؛ حيث هو إمام دنيا ودين، وساقط على واحد من الرعية يعمل في خدمة الأمير، فواحدة مما مضى تكفي لتكون أُذنا أسلم أكثر اتساعا واستماعا، وقلبه أكثر انصداعا وانصياعا، ثم راح يعلمه الاقتصاد في الحب والبغض، فلا يسرف في المحبة حتى يكلف ولا في البغض حتى يتمنى للخصم التلف. ومن حسن اللفظ وائتلافه أنه أورد كافات ثلاث في كلمات ثلاث متتالية (**يكن حبك كلفا**)، لاسيَّما وقوع الكاف الثانية في آخر كلمة (**حبك**)، ووقوعها في أول الثالثة في كلمة (**كلفا**) أعطت لحنا جميلا ممتعا. وبين جملة (**لا يكن حبك كلفا**) و(**لا يكن بغضك تلفا**) وصل، كان رابطه حرف (الواو)؛ لما بين الجملتين من تكامل في اللفظ والمعنى. وكرَّر قوله: (**لا يكن**) في الجملة الثانية، وهو قادر أن يقول: (لا يكن حبك كلفا وبغضك تلفا)، وهذا إطناب للتنويه، ولأهمية النهي والمعنى في قوله: (**لا يكن**). والجملتان متفقتان في الوزن واللفظ والتقفية، وهذا هو الترصيع. وفي كلمتي (**حبك**) و(**بغضك**) طباق. وفي (**كلفا**) و(**تلفا**) جناس ناقص. وليس في الجملتين إيجاز بالحذف، على ما فيهما من إيجاز

القصر؛ حيث اللفظ القليل مع المعنى الكثير، ووقع الإطناب في تكرار قوله: (**ولا يكن**). غير أن أسلم لم يبلغه المعنى بأتمه، رغم نداء الخليفة له ليصغي، أو ربما أنه لما أصغى ازداد انتباها فسأل؛ ليدرك المعنى باتساعه، فسأل الأمير المعلم غير هيَّاب ولا متوانٍ قائلا: (**وكيف ذلك؟**)، فراح المعلِّم يوسع له في الجواب، فقال مبينا ما سبق: (**إذا أحببت فلا تكلف كما يكلف الصبي، بالشيء يحبه**)، وهذه الجملة تفسر الجملة الأولى، ووقع فيها من الطول أكثر من الجملتين السابقتين؛ لما في الأولين من الإيجاز والاختصار، ولما في الثالثة - وهي المفسرة للأولى - من البسط والبيان؛ فهي مفسرة لما لم يفهمه أسلم من كلام الأمير، أو لما استزاده من الأمير، فلما كان السامع طالب زيادة كان المتكلم صاحب بسط. وتبدو لنا الجملة الشرطية بجزأيها من جملة الشرط وجوابه؛ حيث الجواب مرتبط بالفعل ارتباط المقدمة بالنتيجة، فالحب يرتبط بترك الكلف. وقوله: (**كما يكلف الصبي**): هذا تشبيه تمثيل؛ شبه صورة الرجل وقد أحب حبيبه وكلف به وبلغ به ما زاد عن الحد بصورة الصبي وقد أحب الشيء وكلف به بما زاد عن الحد، بجامع المبالغة والزيادة عن الحد في كل منهما. وهذا الكلف مرده على ترك التعقل والتفكر إلى حدِّ العمى والصمم، قال أبو الطيب:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... لكن عين السخط تبدي المساويا

وقال آخر:

وكذَّبت طرفي فيك والطرف صادق ... وأسمعت أذني فيك ما ليس تسمع

وفي قوله: (**لا تكلف**) و(**يكلف**): طباق بالسلب. وفي الجملة الأخيرة، وهي

قوله: (**وإذا أبغضت فلا تبغض بغضا تحب أن يتلف صاحبك ويهلك**) لما تكلم عن الحب وما أودى = تكلم عن البغض وما آذى، وطالب المبغض أن يقتصد كما طالب المحب أن يقتصد. وفي قوله: (**أبغضت فلا تبغض بغضا**): هذا يسمى اشتقاق اللفظ من اللفظ. وفي قوله: (**تبغض**) وقوله: (**تحب**) طباق. وقوله: (**يتلف**) مع قوله: (**يهلك**) من عطف اللفظ على معناه، وقد يسمى إطنابا. وتبين أن المختلف بين الجملتين في قوله: (**لا يكن حبك كلفا**) أن (**كلفا**) تعود على الضمير المستتر المقدر في المصدر (**حبك**)، وفي الجملة التي تليها تعود (**تلفا**) على الضمير المتصل في المصدر (**بغضك**)؛ ليكون الكلف عائدا على المحب، والتلف عائدا لا على المبغِض، بل على المبغَض.

[٣٢٢]
وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«كَذَبَ النَّسَّابُونَ، مَا يَرْجُونَ اللهَ تَعَالَى ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]، تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ وَتَعْرِفُونَ بِهِ مَوَارِيثَكُمْ، وَتَعَلَّمُوا مِنَ النُّجُومِ مَا تَعْرِفُونَ بِهِ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَهْتَدُونَ بِهِ السَّبِيلَ وَمَنَازِلَ الْقَمَرِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في الرواية التي بين أيدينا ما يدل على مناسبة هذا النَّص، غير أنه قد سبقت هذه الرواية في تاريخ ابن شبة - مصدر الرواية التي بين أيدينا - رواية أخرى جاء فيها الأمر بتعلم بالأنساب، ولعلها تكون القصة نفسها، على الرغم من اختلاف مخرج الروايتين. ومما جاء في هذه الرواية أنَّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «ألا وقد ذكر لي أن رجالا منكم قد أكثروا في إسماعيل وما ولد، والله أعلم بإسماعيل وما ولد، والله لينتهُنَّ عن ذلك، أو لألحقن كل قوم بجمرتهم، ألا وإن أبانا الذي لا يُشك فيه: إبراهيم».

لطائف لغوية: قوله: **(ساعات الليل والنهار)**: قدَّم الليل على النهار، ولهذا التقديم سر كبير في القرآن الكريم، وأمير المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما ذكره جاء به على نسق القرآن. قال الدكتور فاضل السامرائي في لمسات بيانية: «إن القرآن - كما ذكرت - يقدم الألفاظ ويؤخرها حسبما يقتضيه المقام، فقد يكون سياق الكلام - مثلا -

---

١- رواهُ المُعافى بنُ عمرانَ في «الزُّهدِ» (١٤٦)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» ٢/ ٤٨٧، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٧٩٨ واللَّفظُ له، والنَّجَّادُ في «مُسندِ عُمرَ بنِ الخطَّابِ» (٤١).

متدرجا حسب القِدَم والأولية في الوجود، فيرتب الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فخلق الجن قبل خلق الإنس بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، فذكر الجن أولاً ثم ذكر الإنس بعدهم، ... وجعلوا من ذلك تقديم الليل على النهار والظلمات على النور، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] فقدَّم الليل؛ لأنه أسبق من النهار وذلك لأنه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة، وقَدَّم الشمس على القمر؛ لأنها قبله في الوجود».

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله: (**كذب النسابون، ما يرجون الله – تعالى –**)، وتكذيبه للنسابين بسبب ما يقع منهم من الخطأ. و(**كذب**) قد تكون الحجازية التي بمعنى أخطأ، وقد تكون بمعنى الكذب المتعمد، وقد تكون بمعناهما. وقوله: (**ما يرجون الله – تعالى –**): قد تُرجح المعنى الثاني، أعني: الكذب المتعمد؛ حيث إن هذه الجملة موضحة ومفسرة للتي قبلها. ولما كان معناها جزءا من معنى التي قبلها، لم يجعل بينهما وصلا حتى كأنهما جملة واحدة، وأوردها بإيجاز حذف؛ حيث حذف أداة التعليل التي تقديرها: لأنهم ما يرجون الله – تعالى –. وقوله: (**ما**) تنفي الحال الذي هم عليه خلافا لـ (لا) التي تنفي الحال والاستقبال، وهذا لطف منه بالنسابين؛ حيث كذبهم في أمر واحد وليس في كل ما يروونه. ولما كان القول منه في شأن النسابين غليظا حيث كذَّبهم ووصفهم بأنهم (**ما يرجون الله – تعالى –**) خشي أن يظن ظان بأنه يقول ذلك من تلقاء نفسه، أو يجد أحد في

نفسه من قول عمر، فبادر بالاستشهاد بقوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾، فلا يبقى في نفس أحد وجدٌ أو ملامة، ولم يقل قبل الآية: (قال الله تعالى)؛ لاستعجاله للاستشهاد بالآية، وكون هذه الآية من المعلوم فلا تخفى على سامع. ثم لما ذكر النسابين بما يسوء، وغضَّ منهم خشي أن يظن بعض الناس أنه إنما يحرِّم علم الأنساب جملة، فاستدرك على صاحب الظن وأفسد عليه ظنه آمرا بتعلم ما ينفع من علم الأنساب، وذلك قوله: (**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم وتعرفون به مواريثكم**)، وهنا يضع لنا عمر رضي الله عنه قاعدتين شريفتين في أخذ العلم: أولاهما: أن العلم يستند إلى حجة وبرهان، وما سوى ذلك خرطُ قتاد، وكذب وفساد. ثانيهما: علم الأنساب واجب التعلم؛ من أجل صلة الرحم وفقه المواريث. وقوله: (مِن): هي التي بمعنى بعض؛ ليدل على أن علم الأنساب لا يؤخذ منه إلا ما نفع وصح. وقوله: (**أنسابكم**)، ولم يقل: (الأنساب): كي لا يشتغل أحد بنسب غيره فيقع في الخطأ والكذب والطعن في الأنساب. وقدَّم صلة الرحم على المواريث؛ لأنها أوجب، فصلة الرحم فرض عين، وتعلم المواريث من علم الكفايات؛ فيكفي أن يكون في القبيلة عالم واحد في المواريث تأخذ عنه الناس، ولا يكفي واصل رحم واحد بل لا يجوز لواحد من الناس ألّا يصل رحمه. ثم استطرد ليتحدث عن نفر آخرين من الناس وهم المنجمون، الذين حالهم في الكذب كالنسابين، بل هم أشد كذبا منهم وأضر؛ لأنهم يفسدون معتقد الناس ودينهم، ولم يقدم ذكر المنجمين على النسابين؛ لأن الحديث عن النسابين هو سبب المقال وأصله، وإنما ذُكر المنجمون استطرادا فقال: (**وتعلموا من النجوم ما تعرفون به ساعات الليل والنهار**)، وما

قيل في الجملة السابقة من ضرر علم النسب ونفعه، وما قيل في حرف الجر **(من)** يقال في هذه الجملة. وقوله: **(ساعات اليل والنهار)**: فيها إيجاز بالحذف، تقديره: ساعات الليل وساعات النهار. وفي كلمة **(الليل)** وكلمة **(النهار)** طباق. وقدَّم كلمة **(الليل)** على كلمة **(النهار)**؛ لأن ظهور النجوم يكون في الليل، أو لأن تمييز ساعات الليل أشق من تمييز ساعات النهار، وكون الليل هو سابق على النهار؛ حيث يبدأ اليوم بغياب الشمس. وقوله: **(وتهتدون به السبيل)**: **(الباء)** في قوله: **(به)** تفيد الاستعانة، فيكون المعنى: وتهتدون السبيل مستعينين به. والترتيب في هذه الجملة صحيح؛ حيث تدلى فيها من الأهم إلى المهم؛ حيث معرفة ساعات الليل والنهار التي نحتاجها كل يوم أكثر حاجة من اهتداء السبيل، والعلم بالسبيل يحتاجه كل أحد، أما العلم بمنازل القمر فالحاجة إليه في الشهر مرة.

[٣٢٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِيمَا يَلْزَمُ الْإِمَامَ مِنْ أَمْرِ الرَّعِيَّةِ

«وَاللهِ مَا أَحَدٌ أَحَقَّ بِهَذَا الْمَالِ مِنْ أَحَدٍ، وَمَا أَنَا بِأَحَقَّ بِهِ مِنْ أَحَدٍ، وَاللهِ مَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدٌ إِلَّا وَلَهُ فِي هَذَا الْمَالِ نَصِيبٌ إِلَّا عَبْدًا مَمْلُوكًا، وَلَكِنَّا عَلَى مَنَازِلِنَا مِنْ كِتَابِ اللهِ، وَقَسْمِنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَالرَّجُلُ وَبَلَاؤُهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَالرَّجُلُ وَقَدَمُهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَالرَّجُلُ وَغَنَاؤُهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَالرَّجُلُ وَحَاجَتُهُ، وَوَاللهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ؛ لَيَأْتِيَنَّ الرَّاعِيَ بِجَبَلِ صَنْعَاءَ حَظُّهُ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَهُوَ يَرْعَى مَكَانَهُ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال التي قال فيها عمر رضي الله عنه هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله: **(والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب)**:

ما نوع (الواو) في قوله: **(إلا وله)**؟ نأخذ الجواب من أبي حيان في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [الحجر: ٤]، قال في البحر المحيط: (والواو في قوله: ﴿**ولها**﴾، واو الحال. وقال بعضهم: مقحمة، أي: زائدة، وليس بشيء. وقرأ ابن أبي عبلة: بإسقاطها. وقال الزمخشري: الجملة واقعة صفة

١- رواهُ أبو داودَ في «السُّنَنِ» (٢٩٥٠) مختصرًا، ورواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٢٩٢) واللَّفظ له، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٢٩٩، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٩٣٧)، ومُحمَّدُ بنُ عاصم في «جُزئِه» (١٨)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٥٠، والطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢١١، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ» (١٢٩٧٢)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِه» ٤٤/ ٣٣٨، والضِّياءُ المقدسيُّ في «الأحاديثِ المختارةِ» (٢٧٧).

لقرية، ... وهذا الذي قاله الزمخشري وتبعه فيه أبو البقاء = لا نعلم أحدا قاله من النحويين، وهو مبني على أن ما بعد (**إلا**) يجوز أن يكون صفة، وقد منعوا ذلك ... وقال ابن مالك: وقد ذكر ما ذهب إليه الزمخشري من قوله في نحو (ما مررت بأحد إلا زيد خير منه) أن الجملة بعد (إلا) صفة لأحد: أنه مذهب لم يعرف لبصري ولا كوفي، فلا يلتفت إليه».

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله: (**والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد**)، ويبدأ هذا النَّص بالقَسم الذي هو أحد المؤكدات وأقواها، وهذا القَسَم والتأكيد جيء به؛ كونه يتحدث عن حقوق الناس وقسمة المال والعدل فيه، ولما في طبائع الناس من الميل للمال فجاء القسم مناسبا لهذا الحال. وقوله: (**أحد**): نكرة في سياق النفي تعم؛ حتى تعم كل أصحاب الحقوق، وقد زاد من عمومها حرف الجر الزائد (**من**) الذي يفيد التوكيد ويزيد العموم. وقوله: (**هذا المال**): أشار إليه باسم الإشارة (**هذا**) وهو للقريب، والقرب هنا قد يكون قرب مكان إن كان المال حاضرا بين يديه، أو قرب زمان إن كان فيئا قريبا، أو قرب مكانة؛ لعظمة الحق في هذا المال. وكيلا يظن ظان أنه لمكانته من الخلافة سيستأثر بشيء من المال = بادرهم بقوله: (**وما أنا بأحق به من أحد**). ولما نفى أن يكون أحد يزيد بحقه على أحد بيَّن أن لكل أحد حقا بهذا المال، وهو قوله: (**والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبدا مملوكا**)، وبدأ هذه الجملة بالقسم المؤكد. وقوله: (**من المسلمين**) خصصت العموم الذي ذكرناه في قوله: (**من أحد**)، فأخرجت غير المسلمين ثم عادت النكرة في سياق النفي؛ لتعم كل أحد من المسلمين. وقوله: (**إلا وله**): (**الواو**) حالية، كما سبق بيانه. وقوله: (**إلا عبدا مملوكا**): استثناء من الاستثناء. وفي

هذه الجملة إطناب وإيجاز: أما الإطناب: ففي قوله: (**مملوكا**)، وقد جاء بغرض التوضيح والبيان، فلا يختلط بمن كان عبدا فأُعتق. وأما الإيجاز: فهو إيجاز حذف تقديره: إلا عبدا مملوكا لا حق له. وقوله: (**ولكنا على منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله ﷺ**): هنا يتبين السبب الذي لأجله ساق عمر رضي الله عنه الاعتذار في قسم المال في أول النَّص؛ لأن الناس لا يأخذون المال بالسوية، وزيادة بعضهم على بعض في القسمة بسبب زيادة الفضل بينهم، وهذا التقسيم جاء بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ. ثم راح يبين عمر رضي الله عنه كيف تكون القسمة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقال: (**فالرجل وبلاؤه في الإسلام**)، وفي هذه الجملة حذف دلت عليه (الفاء الفصيحة)، وتقدير هذا الحذف: إن سألت عن قسمته فالرجل وبلاؤه في الإسلام. وقوله: (**في الإسلام**): تخصص البلاء بكونه في الإسلام لا في غيره من البلاء، ويقال مثل ذلك في الجمل التي تكررت فيها جملة (**في الإسلام**). ولكي يزيل ما في نفوس الناس من ظنهم بأن يفوت أحدهم شيء من حقه = قال لهم: (**ووالله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه**): وهو يقسم بالله على ما سيصنعه إذا أبقاه الله – تعالى –، وعليه أكد ذلك بالقسم و(**اللام**) المؤكدة الواقعة في جملة القسم. وفي قوله: (**لئن بقيت**) حذف تقديره: لئن بقيت حيا. وقوله: (**الراعي بجبل صنعاء**): خص الراعي بالذكر لكونه ممن لا يفطن له كما يفطن لسادات القوم وأعيانهم، وخص صنعاء بالذكر لبعدها – يومئذ – عن بلاد المسلمين، وخص الجبل بالذكر لوعورته، ولم يقل: (ليأتين الراعي في بيته)، بل في مكان عمله في رءوس الجبال، وهذا من مبالغته في إيصال الحقوق إلى أصحابها.

[٣٢٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ سَمِعَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَهَاهُ

«فَوَاللهِ مَا حَلَفْتُ بِهَا مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْهَا، ذَاكِرًا، وَلَا آثِرًا[١]»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**لا ذاكرا ولا آثرا**): قال ابن سلام في غريب الحديث: «أما قوله: (**ذاكرا**) فليس من الذكر بعد النسيان، إنما أراد متكلما به، كقولك: ذكرت لفلان حديث كذا وكذا، وقوله: (**ولا آثرا**) يريد: ولا مخبرا عن غيري أنه حلف به، يقول: لا أقول: إن فلانا قال: وأبي لا أفعل كذا وكذا، ومن هذا قيل: حديث مأثور - أي يخبر به الناس بعضهم بعضا، يقال منه: أثرت - مقصورا - الحديث، آثره أثرا، فهو مأثور وأنا آثر،على مثال فاعل. قال الأعشى:

إن الذي فيه تماريتما بين للسامع والآثر».

مقتضى الحال: الحال كما جاءت القصة في بعض الروايات: (سمع النبي ﷺ عمر رضي الله عنه وهو يحلف بأبيه، فقال: «**أَلَا إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**»، فقال عمر رضي الله عنه هذا النص.

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ١/ ٢٢: (أي: ما حَلَفتُ به مُبتدِئًا مِن نفْسي، ولا رَوَيتُ عن أحدٍ أنَّه حَلَفَ بها).

٢- رواهُ البخاريُّ في «صَحيحِه» (٦٦٤٧)، ومُسلِمٌ في «صحيحِه» (١٦٤٦)، والنَّسائيُّ في «السُّنَنِ» (٣٧٦٦)، وابنُ ماجه في «السُّنَنِ» (٢٠٩٤)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (١١٢)، والطَّيالسيُّ في «المُسنَدِ» (١٩٢٣)، والحُمَيديُّ في «المُسنَدِ» (٦٣٧)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٢٤٠٧).

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﵁ كلامه بقوله: (**فوالله ما حلفت بها منذ سمعت الرسول ﷺ**)، والجملة تدل على محذوف لابد من تقديره، يطلبه تمام المعنى، وتقتضيه (**الفاء**) الفصيحة التي تعطف على محذوف، تقديره - كما في بعض روايات النَّص -: منذ نهاني فوالله ما حلفت ... وجاء الحذف تاركا للقسم أن يكون في مفتتح الكلام، والقسم بالله - تعالى - هو من التوكيد، بل هو أشده؛ وذلك كي لا يقع في نفس السامع شك بقوله. ومما يؤكِّد صدقه أنه: لما نفى الحلف بغير الله أكده بأن سبقه بحلف بالله، فاستفدنا من حلفه - غير التوكيد - إثبات صدقه. وهذا النَّص يصلح ليكون نصًّا مشتملا على القول والتطبيق. وجملة (ﷺ) جملة اعتراضيه، وهي من الإطناب المراد به الدعاء والذكر. وفي كلمتي (**ذاكرا**) و(**آثرا**) تناسب في اللفظ والاشتقاق، وفيهما طباق، وفيهما سجع، وجناس ناقص. وقوله: (**ولا آثرا**): فيها إيجاز بالحذف تقديره: ولا حلفت بها آثرا.

[٣٢٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِغَيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ الثَّقَفِيِّ[١] وَقَدْ طَلَّقَ نِسَاءَهُ الْأَرْبَعَ، وَقَسَّمَ مَالَهُ بَيْنَ بَنِيهِ

«إِنِّي لَأَظُنُّ الشَّيْطَانَ فِيمَا يَسْتَرِقُ مِنَ السَّمْعِ سَمِعَ بِمَوْتِكَ، فَقَذَفَهُ فِي نَفْسِكَ، وَلَعَلَّكَ أَنْ لَا تَمْكُثَ إِلَّا قَلِيلًا، وَايْمِ اللهِ لَتُرَاجِعَنَّ نِسَاءَكَ، وَلَتَرْجِعَنَّ فِي مَالِكَ؛ أَوْ لَأُوَرِّثُهُنَّ مِنْكَ، وَلَآمُرَنَّ بِقَبْرِكَ فَيُرْجَمُ كَمَا رُجِمَ قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ[٢]»[٣].

١- غَيْلانُ بنُ سَلَمَةَ بنِ شُرَحْبيلِ الثَّقَفيُّ، أسلمَ بعدَ فتحِ الطَّائفِ ولم يُهاجِرْ، وكان أحدَ وُجوهِ ثقيفٍ ومُقدَّميهم، وكان عندَه عشرُ نسوةٍ، فأمرُه رسولُ الله - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - أن يتخيَّرَ منهنَّ أربعًا. وهو ممَّن وفدَ على كِسْرى، وخَبرُه معهُ عجيبٌ، قال كِسْرَى ذاتَ يوم: أيُّ ولدِك أحبُّ إليكَ؟ قال: الصَّغيرُ حتَّى يكبَرَ، والمريضُ حتَّى يبرأَ، والغائبُ حتَّى يَؤُوبَ. فقالَ كسرى: زه! ما لَكَ ولهذا الكلامِ! هذا كلامُ الحكماءِ، وأنت مِن قومٍ جُفَاةٍ لا حكمةَ فيهم، فما غذاؤك؟ قال: خبزُ البُرِّ. قال: هذا العقلُ مِن البُرِّ، لا مِن اللَّبنِ والتَّمرِ. وكانَ شاعرًا مُحسِنًا. توفي غيلانُ بنُ سلمةَ في آخرِ خلافةِ عمرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -. «الاستيعاب» ٣/ ١٢٥٦.

٢- قَسِيُّ بنُ مُنبِّهِ بنِ النَّبيتِ بنِ يقدمَ، مِن بني إيادٍ، أبو رِغَالٍ: جاهليٌّ، صاحبُ القبرِ الَّذي يُرجَمُ بينَ مكَّةَ والطَّائفِ. كان في الطَّائفِ، وهي دِيارُ ثقيفٍ، وكانت ثقيفٌ تُعيَّرُ به. «الأعلام» ٥/ ١٩٨.

وأبو رِغالٍ هذا، ذكرَ ابنُ إسحاقَ أنَّه هو الَّذي دلَّ أبرهةَ على الطَّريقِ إلى مكَّةَ ليهدمَ الكعبةَ، فلمَّا توفي رجمتْ قبرَه العربُ. «السِّيرة النَّبويَّة» لابن هشام ١/ ٤٧.

قلتُ: وفيهِ يقولُ جريرٌ:

إِذَا مَاتَ الْفَرَزْدَقُ فَارْجُمُوهُ ... كَرَجْمِكُمُ لِقَبْرِ أَبِي رِغَالِ

٣- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٤٦٣١)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٢٢١٦)، وأبو يعلى في «المُسنَدِ» (٥٤٣٧)، والرُّويانيُّ في «المُسنَدِ» (١٣٩٩)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٤١٥٦)، والطَّبرانيُّ في «مُسنَدِ الشَّاميِّين» (٣١٦٠)، وأبو نعيمٍ في «معرفةِ الصَّحابةِ» (٥٦٢٧)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٨/ ١٣٦-١٣٧ و٥٩/ ٣٩٣.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الحال كما جاء في الروايات «أن غيلان بن سلمة الثقفي: أسلم وتحته عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: اختر منهن أربعا، فلما كان في عهد عمر طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر، فقال: ...» هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله: (**وايم الله**): الهمزة في (**ايم**) همزة وصل؛ وهو واحدٌ من عشرة أسماء سُمِعتْ همزتها بالوصل على غير قياس. قال الحملاوي في شذا العرف في فن الصرف - باختصار -: «فصل في همزة الوصل؛ ولا تكون في حرف غير (**أل**)، ومثلها ... ولا في فعل مُضارع مطلقًا ولا في ماض ثلاثي كأمَر وأخذ، أو رُباعي كأكرم وأعطى، بل في الخماسي كانطلق واقتدر، والسُّداسي كاستخرج واحرنجم، وأمرهما، وأمر الثلاثي الساكنُ ثاني مضارعه لفظًا كاضرب، بخلاف نحو: هَبْ وعِدْ وقُلْ. ولا في اسم إلا مصادر الخماسي والسداسي، كانطلاق واستخراج، وفى عشرة أسماء مسموعة، وهى: اسمٌ، وَاسْتٌ، وابنٌ، وابنْمٌ، وابنة، وامْرُؤٌ، وامرَأة، واثْنان، واثْنتان، وايُمن المختصة بالقسم، وما عدا ذلك فهمزته همزة قطع». وفي قوله: (**فيرجم كما رجم قبر أبي رغال**): ورد تشبيه دل عليه أداة التشبيه (**الكاف**)، وهذا التشبيه ليس هو التشبيه المجازي الذي يتحدث عنه البلاغيون، وإنما هو تشبيه حقيقي لا مجاز فيه، ومثاله أن تقول لرجل: (أنت تشبه أخاك) تقصد في شكله، قال ابن أبي الإصبع، في تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: «التشبيه عبارة عن العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حال أو عقد، هكذا حد الرماني، وهذا هو التشبيه العام الذي يدخل تحته التشبيه البليغ وغيره. ثم إن الرماني بعد حده قال: والتشبيه تشبيهان: تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما كتشبيه الجوهر بالجوهر، كقولك:

ماء النيل مثل ماء الفرات، وتشبيه العرض بالعرض، كقولك: حمرة الخد كحمرة الورد، وتشبيه الجسم بالجسم، كقولك: الزبرجد مثل الزمرد، وتشبيه شيئين مختلفين بالذات يجمعهما معنى مشترك بينهما: كقولك، حاتم كالغمام، وعنترة كالضرغام، والتشبيه المتفق تشبيه حقيقة، والتشبيه المختلف تشبيه مجاز للمبالغة».

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله لغيلان: (**إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك**): بدأ النَّص بمؤكدين اثنين: (**إنَّ**) الثقيلة و(**اللام**)، وهذا توكيد لما ظنه عمر رضي الله عنه، والظن قد يكون بمعنى الاعتقاد الجازم، والأوجه أنه ليس اعتقادا جازما وإنما هو تشبيه لحال غيلان. وهذا التشبيه جاء بهذه الصورة وبهذا المثل؛ لينبه غيلان إلى شناعة ما صنعه، وأن هذا الفعل من نفث الشيطان. وربَّما أراد أمير المؤمنين رضي الله عنه تهديده بالقتل، فصاغ له هذه القصة التي بطلها الشيطان الذي وسوس له بهذا الصنيع، والتهديد - حينئذٍ - غير حقيقي؛ لأنَّ الذي صنعه غيلان لا تصل عقوبته إلى القتل بحال. وفي كلمتي (**السمع**) و(**سمع**) جناس ناقص، وسجع، واشتقاق اللفظ من اللفظ. وقوله (**فقذفه في نفسك**): (**الفاء**) تفيد التعقيب دلالة على سرعة البشارة من الشيطان، وهذا التعقيب يناسب ما عليه طبع الشيطان من السرعة في العمل والخفة والقدرة الخارقة، فجاءت (**الفاء**) مناسبة للحال. وقوله: (**ولعلك ألّا تمكث إلا قليلا**): (**لعل**) ليست للترجي - هنا -، فقد تأتي بمعنى الشك والظن، فهو لا يترجى موته ويتمناه، وإنما يقول: له أشك بقرب موتك، وقد يقول قائل: لا يمنع أن تكون للترجي لا لأن عمر رضي الله عنه يترجى موته ولكنه يعنِّفه بهذا الترجي. وفي جملة (**لا تمكث إلا قليلا**) حصرٌ لمكوثه بالقلة، وفيها إيجاز بالحذف تقديره: لا تمكث حيا إلا زمنا قليلا. ولما فرغ أمير المؤمنين رضي الله عنه من

تعنيفه وتوبيخه راح يأمره بما يُصلح ما أفسده، فقال له: **(وايم الله لتراجعن نساءك)**، فأثقل عليه بالقول مؤكدا ما أمره به بالقسم و**(اللام)** المؤكدة والنون المشددة، وهذه مؤكدات الثلاث لكي يعلم غيلان أن الأمير جادٌّ في أمره. وفي قوله: **(لتراجعن)** و**(لترجعن)**: جناس ناقص، وسجع، واشتقاق اللفظ من اللفظ. وجملة **(أو لأورثهن منك)**: خرجت مخرج التهديد، وكذلك قوله: **(ولآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال)** فهي للتهديد، أيضا. وفي هذه الجملة تشبيه، وهو تشبيه حقيقي لا مجاز فيه، وقد شبهه بأبي رغال؛ لأن كليهما من ثقيف، ولأن صنيع غيلان يشبه صنيع أبي رغال؛ فكلاهما جرَّ السوء والوبال على أهله، فهذا طلَّق نساءه وقسَّم ماله، وذلك تآمَر على قومه فدلَّ الأحباش على طريق كعبة الله ليهدموها.

[٣٢٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ صَالِحُو الْحَيِّ فِيهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، إِنْ غَضِبُوا غَضِبُوا لِأَنْفُسِهِمْ، وَإِنْ رَضُوا رَضُوا لِأَنْفُسِهِمْ، لَا يَغْضَبُونَ للهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَلَا يَرْضَوْنَ للهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ؛ فَاحْتَرِسُوا مِنَ النَّاسِ بِسُوءِ الظَّنِّ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قيل فيه هذا النَّص، وقد يكون من مواعظه أو خطبه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لطائف لغوية: اللام في قوله: (**غضبوا لأنفسهم**): هذه اللام في الأسماء تضارع (لام كي) في الأفعال، وقد سبق الحديث عنها في النَّص رقم ستين ومئة، فليراجعه المستزيد.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خطابه بقوله: (**ليأتينَّ على الناس زمان**)، فالنَّص من بدايته مثقل بالتوكيدات: أوَّلها: القسم المحذوف الذي دلت عليه (**اللام**) والنون المشددة في قوله: (**ليأتين**)، وثانيها: (**اللام**) التي هي للقسم المحذوف - إن قلنا به -، فإن لم نقل به - على رأي مَن لا يرى أنَّ ثمة قسما محذوفا - فهي لام الابتداء التي تفيد التوكيد، وثالثها: النون المشددة. وقوله: (**الناس**): (**أل**) التعريف هنا إما للاستغراق، وإما للعهد، والذي يبدو فيما يأتي من النَّص أنها للعهد، وأنه أراد

١- رواهُ الدَّانيُّ في «السُّنَنِ الواردةِ في الفِتَنِ» (٢٣٨).

(المسلمين) لا كل الناس. وقوله: (**زمان**): نكرة، وذلك يدل على أن هذا الزمان غير معلوم ولا مسمى. وثمة حذف في قوله: (**في أنفسهم**)، تقديره: يكون صالحي الحي فيه مشغولين في أنفسهم. وقوله: (**إن غضبوا غضبوا لأنفسهم**): هذه الجملة الشرطية تدل على أمرين لا يتم أحدهما إلا بتمام الآخر؛ فلا يغضب الصالحون إلا إذا غضبوا لأنفسهم. وقوله: (**إن غضبوا غضبوا لأنفسهم**): توالت كلمة (**غضبوا**) مرتين؛ الأولى في نهاية جملة الشرط، والثانية في أول جملة جواب الشرط، وهذا ما يسمى بتشابه الأطراف، كقوله تعالى: ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ [النور: ٣٥]. و(**اللام**) في قوله: (**لأنفسهم**) هي في الأسماء مثل (لام كي) في الأفعال بمعنى لأجل، وفيها إيجاز بالقصر؛ حيث كثير المعنى في قليل اللفظ. ومجيء قوله: (**غضبوا**) في آخر جملة الشرط، ثم وصل هذه الجملة بجملة أخرى، وربط بينهما بحرف (**الواو**) الذي هو للعطف، وذلك قوله: (**وإن رضوا رضوا لأنفسهم**). ويقال في هذه الجملة ما قيل في سابقتها. وفي الجملتين ما نسميه بالترصيع؛ لاتحاد الوزن والتقفية. وفيهما مقابلة حيث كلمتي (**غضبوا**) و(**غضبوا**) ضد الكلمتين (**رضوا**) و(**رضوا**)، وبالترتيب. وقوله: (**لا يغضبون لله – عز وجل –**): هذه الجملة توضيح وإتمام لمعنى لقوله: (**إن غضبوا غضبوا لأنفسهم**)؛ حيث في الجملة الأولى لم يبين غلطهم في أن يغضبوا لأنفسهم، فبينه في هذه الجملة كونه لا يكون لله – تعالى –، وأنَّ الغضب لأنفسهم مقدَّم على الغضب لله. واللام في قوله: (**لله**) يعني لأجل الله فهي (لام كي). وقوله: (**عز وجل**): إطناب يراد منه تعظيم الله – عز وجل –. ومثل ما قيل في هذه الجملة يقال في الجملة التي تليها (**ولا يرضون لله – عز وجل –**). أما الجملتان معًا فوصل بينهما بـ (**الواو**) التي هي للعطف. وفي الجملتين ما سبق وبيَّناه من الترصيع. وفي كلمتي (**يغضبون**)

و(**يرضون**) طباق. وقوله: (**فإذا كان ذلك الزمان؛ فاحترسوا من الناس بسوء الظن**): هذه الجملة الشرطية سبق في هذا النَّص أن بينا أن أحد طرفيها يلزم بوجود الآخر. وقوله: (**كان**): هي التامة بمعنى إذا جاء ذلك الزمان. وقوله: (**ذلك**): اسم إشارة للبعيد، وبُعد الزمان هنا قد يكون على الحقيقة فيكون عمر رضي الله عنه يرجو ألا يكون قريبا من زمنه وعهده، وقد يكون البعد هنا بعدا معنويا؛ لبعده عن الحق ولغرابته وشناعته. و(**أل**) التعريف في (**الزمان**) للعهد الذكري. و(**الفاء**) في قوله: (**فاحترسوا**) هي التي تقع في جواب الشرط. و(**أل**) التعريف في قوله: (**الناس**) قد تصلح هنا للاستغراق، أو للعهد الذي يعني المسلمين خاصة، كما بيَّنا من قبل. والباء في قوله: (**بسوء الظن**) تفيد الاستعانة؛ أي فاستعينوا بسوء الظن.

[٣٢٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

وَقَدْ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَرَأَيْتَ أَنْ لَوْ جَاءَكَ عَمُّ مُوسَى مُسْلِمًا، مَا كُنْتَ صَانِعًا بِهِ؟ قَالَ: «كُنْتُ - وَاللهِ - مُحْسِنًا إِلَيْهِ». قَالَ: فَأَنَا عَمُّ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ: «وَمَا رَابَكَ يَا أَبَا الْفَضْلِ؟! فَوَاللهِ لَأَبُوكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَبِي». قَالَ: آللهِ؟ قَالَ: «آللهِ؛ لِأَنِّي كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ أَحَبُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَبِي، فَأَنَا أُوثِرُ حُبَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى حُبِّي»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: تدل النَّصوص على أن العباس قال ما قاله لعمر رضي الله عنهما؛ لأنه كان له مطلب عند عمر، واختُلِف في هذا المطلب. قال ابن سعد في الطبقات: «عن الحسن قال: بقي في بيت مال عمر شيء بعد ما قسم بين الناس، فقال العباس لعمر وللناس ... قال: فأنا أحق به. أنا عم نبيكم ﷺ فكلَّم عمر الناس فأعطوه تلك البقية التي بقيت». وروى البلاذري أن سبب هذا النَّص هو ميازيب تصب في المسجد أمر بها عمر أن تقلع، ويبدو أن للعباس واحدا منها، فقد جاء في أنساب الأشراف للبلاذري: «عن أبي حصين قال: أمر عمر بقلع الميازيب التي تصب في المسجد، فأتاه العباس ... قال: اذهب فاصنع ما شئت».

لطائف لغوية: في قوله: (آلله): ما هذا المد الذي في كلمة لفظ الجلالة، وما

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٤/ ٣٠، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ٤/ ١٢.

معناها؟ قال ابن علان في دليل الفالحين: «آلله، بمد الهمزة: والأصل أألله بهمزتين؛ أولاهما للاستفهام والأخرى همزة (أل)، فأبدلت الثانية مدة، وجُرَّ الاسم الكريم، قيل: بالهمزة وهي من حروف القسم، وقيل: إنَّ حرف القسم مقدر بعدها، وهو الذي صححه ابن هشام».

البيان والبلاغة: لما رجا العباس من أمير المؤمنين زيادة توقير لمنزلته من رسول الله ﷺ ضرب له المثل في عم موسى، فلما علِمَ من الأمير أنه لو أدرك عمَّ موسى لأجَلَّه وأكبره؛ حيث قال له: (**كنتُ - والله - محسناً إليه**) فبادره العباس بالقياس، واحتج على أمير المؤمنين بأنه عم رسول الله ﷺ ملمحا بطلب شيء من الإجلال، فكان بينهما ما يأتي من الحوار. أما جواب عمر رضي الله عنه له بقوله: (**كنت - والله - محسناً إليه**)، والقسم المعترض في هذه الجملة استدركه عمر رضي الله عنه على نفسه كيلا يقع في نفس العباس شك فيما يقول. وقوله: (**وما رابك يا أبا الفضل؟! فوالله لأبوك أحب إلي من أبي**): لما أحس عمر رضي الله عنه أن في نفس عمِّ رسول الله ﷺ شيئا ظهر في تعريضه، بادره بالسؤال عما رابه. وقوله: (**رابك**) بصيغة الماضي ولم يقل: (يريبك)؛ لأن الريبة لا تكون إلا من حدث قد وقع فأوجد ريبة حلت بالعباس، فناسب أن يسأل عنها بصيغة الماضي، وقد نقول إن ثقة عمر بصحة ما يفعل وأنه لم يفعل ما يسيء إلى العباس ذهب به الظن إلى شيء جرى منه فنسيه، ولو كان متلبسًا به لكان عمر يعلمه فناسب أن يسأل عنه بصيغة الماضي؛ تحرزا من شيء وقع منه ونسيه. ومن رفق عمر رضي الله عنه بعَمِّ رسول الله ﷺ ناداه متلطفًا به (**يا أبا الفضل**)، وهذا النداء لا حاجة له كونه بين يديه ويحاوره، إذا علمنا أن النداء إنما يكون إما لبعيد أو لخفي عن البصر أو مَن كان شارد ذهن، والذي جرى بين الرجلين لا يدل على شيء من

ذلك، فلم يبقَ للنداء فائدة إلا التلطف والتحبب في ذكر اسمه، ثم لما ذكر اسمه أجراه بأحسن صيغة وهي التكنية، وقد سبق لنا أن قلنا بأن العرب تكثر من التكنية حتى غلبت على كثير منهم كنيته فأنست الناس اسمه - ولا أدلَّ على ذلك من أبي هريرة رضي الله عنه؛ حيث اشتهر في الناس - سلفا وخلفا - بكنيته، ثمَّ اختُلِفَ في اسمه على نجو من أربعين قولا -، والتكنية عند العرب للتوقير والمحبة والتكريم. وفي الجملة إيجاز بالحذف دلت عليه (الفاء) الفصيحة، وتقدير الحذف: إن ارتبت فوالله ... والقسم لتأكيد قوله لاسيما أنه ظن أن في نفس العباس ريبةً، فناسب أن يجيء بهذا التوكيد؛ ليدفع تلك الريبة، وزاد على ذلك التوكيد بتوكيد آخر، وهي (**اللام**) في قوله: (**لأبوك**)، ويحق لسائل أن يسأل: لم يحدث أمير المؤمنين العباس عن أفضلية أبيه على أبيه، وإنما سأله أبو الفضل عن أفضليته عنده؟ ولمجيب أن يجيب بأنَّ أمير المؤمنين رضي الله عنه أراد بذلك المبالغة في تطييب خاطر العباس رضي الله عنه وإزالة الشك في قلبه؛ لأن ما من أحد إلا ويقدم توقير أبيه على نفسه، فكيف إذا قدَّم أبا العباس على أبي نفسه؟! وهذا الأسلوب يسمونه أسلوب الحكيم؛ وهو: أن تُسأل عن شيء فتجيب على ما هو أولى منه. وقوله: (**من أبي**) ولم يقل: (من الخطاب)، كما جاء في نص قريب (كنت أرعى إبل الخطاب)، وقلنا هناك: لم يقل إبل أبي؛ لأنه ذكر هناك أن الخطَّاب كان فظاً وهذا ينافي ما في الأبوة فلم يذكرها، وهنا لما كان الحديث عن المحبة - والأبوة تقتضيها - ناسب أن يقول: (**أبي**). فلما سمع أبو الفضل من أبي حفص ما يدعو للعجب، ولما رأى أنه أعطاه من الحب ما بلغ الجدود، واستغرق الآباء، ففاض على الأبناء، وأن عمر رضي الله عنه يحب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من أبي نفسه = دَهِش، وصاح به (**آلله**)، ولابد أنه مد بها صوته بما يساوي قيمة المد الذي فيها، وهو اللازم؛ وهو الأطول مدا بين المدود! فأجابه عمر رضي الله عنه جوابا يساوي به سؤاله

فقال: (**آلله**). وفي هذه الكلمة من الإيجاز بالحذف ما فيها؛ أما الأولى فتقدير الحذف فيها: أبالله ما تقول إلا حقا، وفي الثانية: بالله ما أقول إلا حقا، وجاء هذا الحذف مناسبا للدهشة التي أسكتت الكلام وعطلته. ثم راح يعلل تلك المحبه بقوله: (**لأني كنت أعلم أنه أحب إلى رسول الله ﷺ من أبي**)، وهذا من عظيم الحب وأكمله بأن تحب ما يحبه حبيبك وتقدمه على ما تحب، وأن تحب ما يتصل به ويدلي إليه بسبب.

وفي قوله: (**أوثر حب رسول الله ﷺ على حبي**): الحرف (**على**) يفيد الاستعلاء، أي: إن حب رسول الله ﷺ يعلو ويظهر على حبي.

[٣٢٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّهُ كَانَ وُلَاةَ هَذَا الْبَيْتِ قَبْلَكُمْ طَسْمٌ، فَاسْتَخَفُّوا بِحَقِّهِ، وَاسْتَحَلُّوا حُرْمَتَهُ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ. ثُمَّ وَلِيَتْهُ بَعْدَهُمْ جُرْهُمُ، فَاسْتَخَفُّوا بِحَقِّهِ، وَاسْتَحَلُّوا حُرْمَتَهُ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ. فَلَا تَهَاوَنُوا بِهِ، وَعَظِّمُوا حُرْمَتَهُ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**طسم**): قال نشوان الحميري في شمس العلوم: «طسم: قبيلة من العرب الأولى كانوا باليمامة، وهم ولد طسم بن لاوذ بن سام بن نوح - عليه السلام -». وعن سكناه مكة قال ابن الأثير في النهاية: «طسم: في حديث مكة: (وسكانها طسم وجديس). هما قوم من أهل الزمان الأول. وقيل طسم: حي من عاد». أما (**جُرْهُم**): قال القلقشندي في نهاية الأرب: «بنو جرهم - أيضاً - بطن من القحطانية، وهم بنو جرهم من قحطان ... وكانت منازل بني قحطان اليمن، فلما ملك يعرب بن قحطان اليمن ولي أخاه جرهم الحجاز فاستولى عليه وملكه ... ولم يزالوا بمكة إلى أن نزل إسماعيل - عليه السلام - مكة فنزلوا عليه فتزوج منهم وتعلم لغتهم ... ثم استولت جرهم على أمر البيت، وتفرقت قبائل اليمن بسيل العرم، فنزلت خزاعة مكة وغلبوا جُرْهُم عليها فخرجت جرهم من مكة ورجعوا إلى ديارهم في اليمن، فأقاموا بها حتى هلكوا».

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩١٠٧)، والأزرقيُّ في «أخبارِ مكَّةَ» ١/ ٨٠، والفاكهيُّ في «أخبارِ مكَّةَ» (١٤٦٨).

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال التي قال فيها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا النَّص، إلا ما جاء في الروايات أنه قاله لقريش.

لطائف لغوية: في قوله: (**إنه كان**): الهاء ضمير الشأن، وقد سبق الحديث عنه في النَّص رقم ثمانية وسبعين ومئة. وقوله: (**فاستخفوا**): أصل الفعل (خفَّ)، ثم زِيد همزة الوصل والسين والتاء، وقد مرَّ معنا من قبل - في النَّص رقم سبعة وخمسين ومئة - فوائد بيان معاني ودلالات هذه الزيادة.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطابه بقوله: (**إنه كان ولاة هذا البيت قبلكم طسم**)، فابتدأ النَّص من مفتتحه بالتوكيد بـ (**إنَّ**) المصحوبة بضمير الشأن، وقد قلنا في نصوص سابقة: إن هذا الضمير يعود - في الغالب - على مذكور قبله، أما إذا جاء في أول النَّص فهنا يتشعب الفكر وينشغل العقل في التخمين والاستنتاج والتساؤل: على أي شيء يعود هذا الضمير؟! فينفتح من التخمين ما يحفِّز القلب والخاطر لمعرفة هذا الشيء الذي يعود عليه هذا الضمير. وبعضهم يسمي هذا الضمير بضمير القصة؛ لأنه يدل على قصة آتية، فما هذه القصة المخبأة وراء هذا الضمير؟! ثم يتابع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سرد قصته عن ولاية بيت الله الحرام؛ فيذكر لنا أن طسما كانوا ولاة هذا البيت. وقوله: (**هذا**) اسم إشارة يدل على القريب، والقرب قرب مكان ومكانة. وقوله: (**طسم**): هو اسم (**إنَّ**) مؤخر، وقدم خبرها عليها لأهميته على اسمها، إذا كلُّ من تولَّى أمر بيتِ الله - تعالى - فقد استفاد شرفًا ورفعة لا تزولُ إلا أن تزيلها معصيته لله - تعالى -، ولم ينشغل بذكر وتقديم (**طسم**) لهوانهم عليه لما وقع عليهم من إهلاك الله - تعالى - لهم، وهذا التأخير جاء مناسبا لأحداث القصة، وهذا من فطنته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقوله: (**فاستخفوا بحقه**): في الجملة إيجاز حذف

دلت عليه الفصيحة، أعني (الفاء)، وهي حرف عطف على محذوف، تقديره: ولوا بيت الله فاستخفوا بحقه. والسين والتاء في قوله: (**استخفوا**): مزيدة على أصل الفعل (خفَّ) إما تفيد الاعتقاد، أي: اعتقدوه خفيف الشأن، أو الاحتقار، أي: لم يعظموه حق التعظيم. وقوله: (**فاستخفوا بحقه**) يدل على أن حقه ثقيل وعظيم. وقوله: (**واستحلوا حرمته**): وُصِلت هذه الجملة بالتي سبقتها برابط حرف العطف (**الواو**) لما في الجملتين من تناسب في المعنى. وفي كلمة (**استحلوا**) وكلمة (**حرمته**) طباق. وقوله: (**فأهلكهم الله**): الفاء هي العاطفة تفيد الترتيب والتعقيب، أي: سرعة إهلاك الله لهم وأنه لم يمهلهم، وهذا جزاء من ألحد في بيت الله. ويتابع عمر رضي الله عنه سرد الحدث وتولية جرهم لبيت الله - تعالى -، وقد جاء السرد التاريخي لولاية بيت الله - تعالى - مرتباً حسب الزمن فتدلى من الأقدم إلى الأحدث ذاكرا ولاية طسم ثم ولاية جرهم وما فعل الله بهم، ثم ألمح أن قريشا وليته بعدهم ولم يذكره نصا، بل دل عليه الحذف الذي يقتضيه المعنى؛ حيث بدأ النَّصيحة لقريش؛ ليُفهم أن قريشا وليته بعد ذلك، ودل عليه أيضا (**الفاء**) الفصيحة في قوله: (**فلا تهاونوا به**)، وتقدير المحذوف: وقد وليتموهُ فلا تهاونوا به. وقوله: (**تهاونوا**): فيه حذف التاء تخفيفا؛ إذ أصله (تتهاونوا). وقوله: (**وعظموا حرمته**): عطف هذه الجملة على جملة (**ولا تهاونوا به**)، وهذا من عطف اللفظ على معناه؛ حيث عدم التهاون هو التعظيم، أو يقتضي التعظيم. وفي قوله: (**تهاونوا**) وقوله: (**عظموا**): طباق. وكان من الممكن أن يكون النَّص أوجز من ذلك لو قال: (إنه كان ولاة هذا البيت قبلكم طسم وجرهم، فاستخفوا بحقه واستحلوا حرمته فأهلكم الله)، ولكنه لم يفعل، وأفرد لكل جملة ما ترتب عليها؛ لبيان الأهمية، وبيان عظمة ما فعلوا، وقوة بطش الله - تعالى - بهم، وإهلاكه لهم.

[٣٢٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْعَطَاءِ مِنَ الْفَيْءِ

«لَأَزِيدَنَّهُمْ مَا زَادَ الْمَالُ، لَأَعُدَّنَّهُ لَهُمْ عَدًّا، فَإِنْ أَعْيَانِي كِلْتُهُ لَهُمْ كَيْلًا، فَإِنْ أَعْيَانِي حَثَوْتُهُ بِغَيْرِ حِسَابٍ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال التي قال فيها عمر رضي الله عنه هذا النَّص، وربما قاله في وقت جاءه فيه شيء من الفيء.

لطائف لغوية: قوله: (**حثوته بغير حساب**): الباء - هنا - باء العوض والمقابلة. وللباء معانٍ أخرى ألمح إليها ابن الصائغ في اللمحة في شرح الملحة - بشيء من الاختصار -: «ولها معان: أحدها: الإلصاق، كقولك: (مسحت يدي بالمنديل)، وتكون بمعنى الاستعانة، كقولك: (ضربت بالسيف)، وتكون بمعنى (على)، قال عمرو بن قميئة:

بودك ما قومي على أن تركتهم ... سليمى إذا هبت شمال وريحها

وتكون بمعنى (**من أجل**)، قال لبيد: غلب تشذر بالذحول ... وتكون للتعدية، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠] ... وتكون للمصاحبة، كقولك: (بعتك الدار بأثاثها)، وتكون بمعنى (في)، كقولك: (أقمت

١- رواهُ ابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٨١٢)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٥٣.

بالمدينة)، وتكون زائدة مع الفاعل، كقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩])، ومع المفعول، كقوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، ومع المبتدأ، كقولك: (بحسبك زيد)، ومع الخبر، كقولك: (ما زيد بقائم)، وتأتي بمعنى (عن)، كقول الشاعر:

فإن تسألوني بالنساء فإنني عليم بأحوال النساء طبيب

وتأتي بمعنى (من)، كقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، قيل: تكون بمعنى (يشرب منها)، وبمعنى (يشربها)؛ قال الهذلي يذكر السحاب:

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نئيج».

وقال الرضي في شرح الكافية: «وتكون للمقابلة نحو: اشتريته به، وبدلته به، وتكون مستقرا أيضا، نحو: هذا بذاك».

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله: (لأزيدنهم ما زاد المال) حيث التوكيد يحضر بأول النَّص، وهذه عادة يكثر منها عمر رضي الله عنه، وقد سبق أن نبهنا على مثل هذا فيما سبق. والتوكيدات هنا ثلاثة، على خلافٍ في دلالة اللام على قسم محذوف، وقد سبق تفصيل ذلك غير مرَّة. وأمَّا المؤكِّدان اللذان لا خلاف حولهما، فهما اللام ونون التوكيد الثقيلة. وقوله: **(ما زاد المال)**: مصدر مؤول، واستعمل المصدر المؤول ولم يستعمل الصريح لما سبق وذكرنا أن المؤول يستفاد منه في دلالة الزمن؛ حيث عُلم بهذا أن الزيادة من أمير المؤمنين رضي الله عنه لهم تستغرق الزمن الذي تستغرقه الزيادة في المال، وأنه لا يقطع عنهم الزيادة ما دام المال يزيد. وقوله **(لأزيدنكم)**: جاء بصيغة المضارع الدال على الاستمرار والتجدد والحدوث

والدوام. ثم راح عمر رضي الله عنه يبين الطريقة التي سيزيد بها المال للناس، فيقول: (**لأعدنه لهم عدًّا**): يؤكد على ذلك بـ (**اللام**) المؤكدة، والنون الثقيلة. وقوله: (**عدًّا**) مصدر فائدته تأكيد الفعل وبيانه؛ فهو يبيِّن أنَّ العد أكيد ولابد منه، وأنه سيعدُّه (عدًّا) لا بطريقة غير العدِّ، ولكن العد يحتاج إلى زمن يطول وعمل يرهق فيصاب العادُّ بالتعب فيعيى، إذن فالكيل، ولكن الكيل يعيي إن كان المال كثيرا وطالبوه كُثرا، إذن فالحثو الذي هو أسهل السبل، فلا يحتاج لعادٍّ، ولا لميزان ولا مكيال، والحثو أسرع الثلاثة وأسهلها، وهذا الترتيب في طريقة منح الناس للمال صحيح؛ حيث بدأ بالعد، وهذا يحتاج أن يمسك كل درهم ودينار من الدراهم والدنانير من أجل أن يستقيم العد، والأسهل منه المكيال، وهو أن يحمل بيده مكيالا حتى يمتلأ ويعطي كل أحد ما قُدِّر له من الكيل، وهذه الطريقة أسهل وأسرع وأسخى، أما الطريقة الأخيرة وهي الحثو، بأن يحثو بيده أو بيد من يعطيه فلا يحتاج بها لمكيال، وهذه أسرع من الطريقتين السابقتين وأسخى وأسهل، ومن أجل هذا قال في نهايتها: (**بغير حساب**). و(**الباء**) في قوله: (بغير حساب) للاستعانة أو العوض والمقابلة؛ فإن كانت للاستعانة فيكون المعنى: غير مستعينين بالحساب ولن نحسب على أحد ما نعطيه، وإن كانت للعوض فيكون المعنى: فلا نحسب عليكم أي شيء مقابل وعوض ما أعطيناكم. وفي قوله: (**لأعدنه لهم عدا**)، وقوله: (**كلته كيلا**) موازنة، وفيهما اشتقاق اللفظ من اللفظ؛ حيث اشتق المصادر من أفعالها.

[٣٣٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا هَبَّتِ الصَّبَا إِلَّا بَكَيْتُ عَلَى أَخِي زَيْدٍ[١]» وَكَانَ إِذَا لَقِيَ مُتَمِّمَ بْنَ نُوَيْرَةَ[٢] اسْتَنْشَدَهُ قَصِيدَتَهُ فِي أَخِيهِ:

وَكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً ... مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ: لَنْ نَتَصَدَّعَا

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكًا ... لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعًا[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(الصَّبا)** في قوله: **(ما هبَّت الصَّبا)**: ريح من الرياح. قال ابن النحاس في عمدة الكتاب - باختصار -: «معظم الرياح أربعٌ: الصبا، وهي تسمى أيضاً: القبول؛ لأنها تأتي في هبوبها من قبل المشرق، فتقابل المغرب ... والدبور تقابلها، وقيل لها: دبورٌ؛ لأن من استقبل المشرق استدبرها ... والشمال؛ لأنها عن

١- زيدُ بنُ الخطَّابِ بنِ نُفَيْلٍ العَدَوِيُّ: أخو أميرِ المؤمنينَ عمرَ، وكانَ أسنَّ مِن عمرَ، وأسلمَ قبلَه، شهِد بدرًا والمشاهدَ، وكان قد آخَى النَّبيُّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - بينَه وبينَ معنِ بنِ عديٍّ العجلانيِّ. وقالَ له عُمرُ يومَ بدرٍ: «الْبَسْ دِرْعِي». قال: إنِّي أريدُ مِن الشَّهادةِ ما تريدُ. فتركاها جميعًا. وكانت رايةُ المسلمين معَه يومَ اليمامةِ، فلم يزلْ يقدمُ بها في نحرِ العدوِّ، ثمَّ قاتلَ حتَّى قُتِلَ، فوقعتِ الرَّايةُ، فأخذها سالمٌ مولى أبي حُذَيفةَ. وحزن عليه عمرُ، وكان يقولُ: أسلمَ قبلي، واستشهدَ قبلي. «سير أعلام النُّبلاء» ١/ ٢٩٧-٢٩٨.

٢- مُتَمِّمُ بنُ نُوَيْرةَ اليَرْبُوعِيُّ التَّمِيمِيُّ، أسلمَ هو وأخوه مالكٌ، وبعثَ النَّبيُّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - مالكًا على صدقاتِ بني تميمٍ، وكان قد أسلمَ هو وأخوه مُتمِّمٌ. ومُتمِّمٌ صاحبُ المراثي الحسانِ في أخيه، وهو صاحبُ البيتِ السَّائرِ:

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكًا ... لِطُولِ افْتِرَاقٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعًا

«الإصابة» ٥/ ٥٦٦.

٣- رواهُ الدِّينوريُّ في «المجالسةِ وجواهرِ العلمِ» (٦٨٧) و(٢٠١٦)، والمدائنيُّ في «التَّعازي» (٤٨)، وابنُ عساكرَ في «تعزيةِ المسلم» (١٧) و(١٩).

شمال من استقبل المشرق، وهي: البحرية ... والجنوب؛ لأنها على الجانب الأيمن ممن استقبل المشرق».

وقال البقاعي في نظم الدرر: «وقال ابن القاص: وهي - أي الصبا - ريح معها روح وخفة، ونسيم تهب مما بين مشرق الشتاء ومطلع سهيل، ولها برد يقرص أشد من هبوبها، وتلقح الأشجار، ولا تهب إلا بليل، سلطانها إذا أظلم الليل إلى أن يسفر النهار وتطلع الشمس، وأشد ما يكون في وقت الأسحار وما بين الفجرين».

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبيِّن سببا رئيسا واضحا لهذا النَّص، ولكن هناك سبب عام كما في التعازي لأبي الحسن المدائني: «عن عوف، قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذا أصابته مصيبةٌ قال: فقدت زيداً فصبرت، وكان يقول: ما هبت الصبا إلا وجدت نسيم زيدٍ».

لطائف لغوية: قال: (**بكيت على أخي**) ولم يقل: (بكيت أخي) فما الفرق بينهما؟ قال في تاج العروس: «وقيل: بكاه: للتألم، وبكى عليه: للرقة، ومنه قول بعض المولدين: ما إن بكيت زمانا إلا بكيت عليه». وفي قوله: (**أخي زيد**) كلمة (**زيد**) عطف بيان، وقد تكون بدلا، فما الفرق بين عطف البيان والبدل؟ قال الغلاييني في جامع الدروس العربية - باختصار -: «يجب أن يكون عطف البيان أوضح من متبوعه وأشهر، وإلا فهو بدل نحو: (جاء هذا الرجل)، فالرجل بدل من اسم الإشارة، وليس عطف بيان ... البدل يكون هو المقصود بالحكم دون المبدل منه، وأما عطف البيان فليس هو المقصود، بل إن المقصود بالحكم هو المتبوع، وإنما جيء بالتابع (أي عطف البيان) توضيحا له وكشفا عن المراد منه. كل ما جاز أن يكون عطف بيان جاز أن يكون بدل الكل من الكل ... يكون عطف البيان جملة، كقوله

تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]، فجملة ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ ﴾ عطف بيان على جملة ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾. وقد منع النحاة عطف البيان في الجمل، وجعلوه من باب البدل، وأثبته علماء المعاني، وهو الحق».

البيان والبلاغة: علمنا أن عمر رضي الله عنه وجد وجدا شديدا إثر موت أخيه زيد، وعُلِم أن موته ملأ جوف عمر رضي الله عنه حزنا وشغل قلبه واستدرَّ مدامعه، وعلمه صنعة الرثاء حتى أنِس بمجالس أصحاب الرثاء كمتمِّم بن نويرة، فجاء عنه في تعزية المسلم: «فلم يكن شيء أحب إليه من أن يلقى حزينا»، حتى أُثر عنه بعض الكلام الذي أشبه الشعر، ومنه قوله: (**ما هبت الصبا إلا بكيت على أخي زيد**)، وقد درج هذا القول عند العرب، أعني: قولهم: (ما هبت الصبا إلا ...)، واختيارهم الصبا دون غيرها لما تجلبه من الإبراد، فإذا شعروا بهذه المتعة تذكروا من يحبون أن يشاركهم هذه النعمة. وفي الجملة استثناء وقع بعد نفي فأفاد الحصر؛ حيث حصر هبوب الصبا بتذكر زيد. وقوله: (**أخي زيد**): (**زيد**) هنا عطف بيان، فهي تبين مَن هو أخوه، فلو قال: (**أخي**) وسكت؛ لاحتجنا لبيان أي أخ هو من إخوانه، فلما قال: (**زيد**)، انجلى واتضح واستبان المبهم.

[٣٣١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِهِ عَبْدِ اللهِ وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ ابْتَاعَ مِنْ مَغْنَمِ جَلُولَاءَ بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا

«لَوْ عُرِضْتُ عَلَى النَّارِ، فَقِيلَ لَكَ: افْدِهِ. أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا؟» قَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَاللهِ، مَا مِنْ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، إِلَّا كُنْتُ مُفْتَدِيكَ مِنْهُ. فَقَالَ عُمَرُ: «كَأَنِّي أُشَاهِدُ النَّاسَ حِينَ تَبَايَعُوا، فَقَالُوا: عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ. أَنْتَ كَذَلِكَ. فَكَانَ أَنْ يُرَخِّصُوا عَلَيْكَ بِمِئَةٍ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يُغْلُوا عَلَيْكَ بِدِرْهَمٍ. وَإِنِّي قَاسِمٌ مَسْؤُولٌ، وَأَنَا مُعْطِيكَ أَكْثَرَ مَا رَبِحَ تَاجِرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، لَكَ رِبْحُ الدِّرْهَمِ دِرْهَمًا». ثُمَّ دَعَا التُّجَّارَ، فَابْتَاعُوهُ مِنْهُ بِأَرْبَعِمِئَةِ أَلْفٍ، فَدَفَعَ إِلَيَّ ثَمَانِينَ أَلْفًا، وَبَعَثَ بِالْبَقِيَّةِ إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، فَقَالَ: «اقْسِمْهُ فِي الَّذِينَ شَهِدُوا الْوَقْعَةَ، وَمَنْ كَانَ مَاتَ مِنْهُمْ فَادْفَعْهُ إِلَى وَرَثَتِهِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الحال أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما تاجر تجارة كانت جاءته من مغنم جلولاء، فربح بها ربحا عظيما، فرأى عمر رضي الله عنه أن ذلك المغنم كان بسبب قرابته منه وصحبته من رسول الله ﷺ، فأخذ منه المال وأعطاه ربح المثل وقسم باقيه على مَن شهد جلولاء.

لطائف لغوية: قوله: (**وإني قاسم مسؤول**)، لم يعطف الصفتين على بعضهما،

١- رواهُ القاسمُ بنُ سلَّام في «الأموالِ» (٦٣٨)، وابنُ زَنْجُويْهِ في «الأموالِ» (٩٧٣)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣١٠، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٢٣.

فلماذا؟ قال ابن كيكلدي في الفصول المفيدة في الواو المزيدة: «وقد تقدم أن الجملة إذا كانت في معنى الصفة لا تعطف، فالصفة الحقيقية أولى بذلك؛ لأنها متحدة بالموصوف، والعطف يقتضي المغايرة؛ ولهذا جاءت صفات الله – تعالى – غير معطوفة غالبا كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢]، ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]؛ لأنها صفات أزلية أبدية وافقت الذات في القِدم وليست مغايرة، وجاء في القرآن العظيم: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ [غافر: ٣] بعطف ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ دون غيرها، وقوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢] ... ولهذا كله جوَّز جماعة عطف الصفات بالواو مطلقا ... ولا شك أن تجويز هذا على الإطلاق ينقض قاعدتين كبيرتين: إحداهما: ... أن الصفة والموصوف كالشيء الواحد، والثانية: أن العطف يقتضي المغايرة». وقوله: **(ومن كان مات منهم)**: **(كان)** هنا زائدة. قال الشيخ الحازمي في فتح رب البرية: «والنوع الثالث من أنواع (كان): كان الزائدة، وهذه لا تحتاج إلى مرفوع ولا إلى منصوب ... وزيادة (كان) خلاف القياس؛ لأن القياس المطرد عند أهل اللغة أن الذي يزاد هو الحرف، وأما الفعل والاسم فالأصل عدم الزيادة إلا ما ثبت باستقراء وكان مطردا في لغة العرب؛ مثل: (كان) الزائدة، ولكن زيادتها مقيدة بأن تزاد في حشو يعني في أثناء الكلام، ولا تزاد أولا ولا آخرا، فلا يقال في مثل: (كان زيد قائما)، أن (كان) هذه زائدة، أو (زيد قائم كان) أنها زائدة، بل لابد أن تكون في أثناء الكلام، ولا تزاد إلا

بلفظ الماضي، وأن تزاد بين شيئين متلازمين، ليسا جارا ولا مجرورا، كالصفة مع الموصوف، تقول: جاء زيد كان العالم، وقعت (كان) زائدة بين الموصوف وصفته وهذا مسموع. وسمع أيضا: لم يوجد كان مثلك، زيدت بين الفعل والفاعل، وبين المبتدأ والخبر: زيد كان قائم، وبين الفعل ومفعوله، إلا أنه لا يقاس إلا في موضع واحد، وهو صيغة التعجب، كما مثَّل ابن مالك - رحمه الله - بذلك:

وقد تزاد كان في حشوكما   كان أصح علم من تقدما

ما كان أحسن زيدا، فأصل التركيب: ما أحسن زيدا، فزيدت (كان) بين ما التعجبية وفعل التعجب، وهذا قياس مطرد، وما عداه فهو مسموع. يعني ليس لك أن تزيد (كان) إلا في هذا الموضع فقط، وما عداه إنما يكون مبناه على السماع، والنقل عن لغة العرب، كذلك زيادتها بصيغة الفعل المضارع».

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه، يلوم ابنه عبد الله قائلا: (**لو عُرِضتُ على النار، فقيل لك: افده، أكنت مفتديا؟**) وهو بهذا يعلِّمه الحلال والحرام لا بطريق مباشر وإنما يضرب له المثل؛ لكي يسوقه إلى ما يريد بطريقة أكثر تشويقا، وهي أدعى لتكون أسرع حفظا وأخلد في الذاكرة، فلو قال له: إن الذي فعلته حرام فهذا قد يؤدي إلى النسيان، كما أن القصة المشوقة أوعظ وأجدر بالتذكير بالله - تعالى -، لاسيَّما وأنه ساق له القصة بأسلوب فيه من العاطفة ما فيه، والصورة التي عرضها عمر على ابنه رضي الله عنهما فيها من التنفير ما يدعو إلى الاتعاظ وترك المعصية. وقوله: (**كأني أشاهد الناس حين تبايعوا**): يشبه عمر رضي الله عنه نفسه بمن كان حاضرا تلك المبايعة ومشاهدا لها، وعلمنا هذا التشبيه من (الكاف) في قوله: (**كأني**)، وهو تشبيه حقيقي لا مجاز فيه. ويؤكد على ما يتصوره ويتخيله بـ (**إنَّ**)، فهو متأكد من هذا التخيل

والتصور حتى كأنه حقيقة لا ريب، فيها فأكَّده بـ (**إنَّ**). وقوله: (**فقالوا**): (**الفاء**) للتعقيب تدل على سرعة بيع الناس لابن عمر ورغبتهم فيها، وجاءت هذه (**الفاء**) الدالة على التعقيب مناسبة لما ذكره - بعدُ - من رغبة الناس أن يبايعوا ابن عمر ولو بالخسران. ثم راح يتخيل ما جرى في تلك المبايعة وما فعل الناس، وقالوه في رغبتهم للبيع لابن أمير المؤمنين، ثم رتب ما قالوه ترتيبا صحيحا متدليا من الأهم إلى المهم، وذلك قوله: (**عبد الله بن عمر، صاحب رسول الله ﷺ، وابن أمير المؤمنين، وأحب الناس إليه**)، فبدءوا بالتعريف به باسمه الذي لا يعرف إلا به ثم بوصفه، وأحسن صفة لابن عمر أنه (**صاحب رسول الله ﷺ**) والصفة الثانية (**ابن أمير المؤمنين**)، وقدَّم صحبته لرسول الله ﷺ على كونه ابنا لأمير المؤمنين، ثم كونه (**أحب الناس إليه**)، وكما قلنا هذا ترتيب صحيح. وقوله (**أنت كذلك**) هذه الجملة يؤكد فيها عمر رضي الله عنه قول الناس، ولعله أراد الثالثة، وهي قولهم: (**وأحب الناس إليه**)؛ حيث الأوليان لا يحتاجان لشهادة، فكل الناس تعرف أنه صاحب رسول الله ﷺ وابن أمير المؤمنين، أما الذي يحتاج لتأكيد منه بنفي أو إثبات، فهو قولهم: (**وأحب الناس إليه**). وفي الجملة تشبيه دلت عليه (الكاف)، ثم راح يبين ما في هذه الصفات التي يتصف بها ابن عمر من ضرر المحاباة في البيع، فقال: (**فكان أن يرخصوا عليك بمئة أحب إليهم من أن يغلوا عليك بدرهم**)، وفي الجملة حذف تقديره: فكان بيعهم أن يرخصوا عليك الثمن بمئة درهم أحب إليهم من أن يغلوا عليك الثمن بدرهم. وفي كلمتي (**يرخصوا**) و(**يغلوا**) طباق. وفي جملة (**يرخصوا عليك بمئة**) وجملة (**يغلوا عليك بدرهم**) موازنة. ثم أبطل بيعه لما ذكرنا من الحال وأحدث له بيعا جديدا بقوله: (**وإني قاسم مسؤول**)، وهذه الجملة مستأنفة؛ فـ(**الواو**) للاستئناف، وهذا الفصل بين الجملتين يؤسس لجملة جديدة ومعنى جديد، بينه وبين ما سبق

وصل في المضمون. وفي الجملة تأكيد بـ(**إنَّ**) الثقيلة. ولم يجعل بين كلمتي (**قاسم**) و(**مسؤول**) حرف عطف؛ لأنها صفات وفي حالة تعداد الصفات لا تعطف (بالواو)، كما سبق في اللطائف. وفيهما تنويع في الاشتقاق؛ فكلمة (**قاسم**) اسم فاعل، وكلمة (**مسؤول**) اسم مفعول. وفي قوله: (**وأنا معطيك أكثر ما ربح تاجر من قريش**): خصَّ تجار قريش دون غيرهم؛ كون قريش أمهر العرب في التجارة، وذلك وصفهم في القرآن ﴿ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾[قريش: ٢]، ولكون ابن عمر من قريش؛ فالقياس في إلحاق الحقوق يكون على أقرب الناس إليه. وجملة (**ولك ربح الدرهم درهما**): مبينة وموضحة للجملة التي قبلها. وفي الجملة حذف تقديره: أعطي لك ربح الدرهم درهما. والعامل الذي نصب كلمة: (**درهما**) هو المصدر (**ربح**). وجاءت كلمة (**الدرهم**) الأولى معرفة بـ(**أل**) التي للعهد الذهني، يعني: لك بكل درهم دفعته درهما تربحه، وبقيت كلمة (**درهم**) الثانية نكرة؛ كونها لم ترد بعد لا في الذكر ولا في الذهن. وقوله: (**اقسمه في الذين شهدوا الوقعة، ومن كان مات فادفعه إلى ورثته**)، أي: بين الذين شهدوا الوقعة؛ حيث من معاني (في) بين، كما في قوله تعالى: ﴿ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، قال الآلوسي في معناها: (في الناس، أي: فيما بينهم). و(**كان**) زائدة، تفيد توكيد المعنى.

[٣٣٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَفَاءَ عَلَيْكُمْ مِنْ بِلَادِ الْأَعَاجِمِ، مِنْ نِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، مَا لَمْ يُفِئْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا عَلَى أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ رِجَالًا سَيُلِمُّونَ بِالنِّسَاءِ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ وَلَدَتْ لَهُ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ الْعَجَمِ فَلَا تَبِيعُوا أُمَّهَاتِ أَوْلَادِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ أَوْشَكَ الرَّجُلُ أَنْ يَطَأَ حَرِيمَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين مناسبة هذا الحديث إلا أنه على منبر رسول الله ﷺ كما جاء في الرواية عن عبد الله بن سعيد، عن جده، أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه على منبر رسول الله ﷺ يقول: ....، ولعلها في خطبة جمعة.

لطائف لغوية: قوله: (**ما لم يفئ على رسول الله ﷺ ولا على أبي بكر** رضي الله عنه): سبق الحديث عن فائدة تكرار (**لا**) في قوله: (**ولا**)، وذلك عند شرح النص رقم اثني عشرَ وثلاثمئة.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بالنداء مناديا على المسلمين، قائلا: (**يا معشر المسلمين**) والمعشر: هم كل جماعة أمرهم واحد، وهذا من تكريمه لهم لما ناداهم بالمعشر، فكأنه قال لهم: أيها الناس الذين أمرهم واحد. وبعد ندائهم بهذا النداء الذي يحبون، قال لهم: (**إن الله قد أفاء عليكم من بلاد الأعاجم من نسائهم**

١- رواهُ البيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢١٧٧٤).

وأولادهم ما لم يفئ على رسول الله ﷺ)، وقد أكد مقاله بـ (**إنَّ**) و(**قد**)؛ لأنه حقٌّ قد وقع وتمَّ وهو حريصٌ ألا يخالطه شيء من الريب والشك. وقوله: (**إن الله قد أفاء عليكم**) تذكير بنعمة الله – تعالى – عليهم فلم يقل: (قد غنمتم)، بل ردَّ الفعل إلى الله – تعالى –. وقوله: (**من نسائهم وأولادهم**): (**من**) بيانية، وهي – هنا – تبين نوع هذا الفيء، وهو النساء والأولاد، وذكره النساء قبل الأولاد تدلى به من الكبير إلى الصغير، وكذلك ذكره لرسول الله ﷺ قبل أبي بكر رضي الله عنه تدلى به من الفاضل إلى المفضول. وفي قوله: (**أفاء**) وقوله: (**لم يفئ**) طباق بالسلب. وقوله: (**وقد عرفت أن رجالا سيلمون بالنساء**): (**قد**) تفيد التحقيق والتوكيد، وهذه المعرفة قد تكون من الظن والتجربة مع الناس وسابق أحوالهم، أو من باب أن أحدا أنمى إليه الخبر. وفي قوله: (**رجالا**) وقوله: (**النساء**): طباق، وكذلك قوله بعد قليل: (**رجل**) و(**امرأة**). وقوله: (**سيلمون**) في المستقبل، وهذا دليل على أنهم لم يلموا بهن بعد، وإنما حذَّر منه تحسبا واستباقا. وقوله: (**فأيما رجل ولدت له امرأة من نساء العجم فلا تبيعوا أمهات أولادكم**): في قوله: (**فأيما رجل ولدت له امرأة**) إيجاز بالحذف دلت عليه (**الفاء**) الفصيحة، تقديره: وقد علمتم ذلك؛ فأيما رجل ... وصيغة هذه الجملة تدل على العموم المستفاد من الشرط، ولاسيَّما (**أي**) والتوكيد في (**ما**) الزائدة، والعموم الذي في تنكير كلمة (**رجل**) و(**امرأة**)؛ فقد قال الغزالي معلقا على حديث: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ**». قال في المستصفى: «ونحن نعلم أن العربي الفصيح لو اقترح عليه بأن صيغة عامة دالة على قصد العموم مع الفصاحة والجزالة لم تسمح قريحته بأبلغ من هذه الصيغة». وفي قوله: (**فلا تبيعوا**) التفات من المفرد الغائب في قوله: (**أيما رجل**) إلى الجمع المخاطب، وفي الالتفات تفننٌ في جذب انتباه السامع. وهذا الالتفات عكسه من بعد؛ فانتقل من ضمير الجمع

المخاطب إلى المفرد الغائب، وذلك في قوله: (**فإنكم إن فعلتم أوشك الرجل أن يطأ حريمه وهو لا يشعر**)، وتنقُّله بين هذه الضمائر يكون حسب الحاجة، فلما كان الأمر من أجل الوعظ والنهي خاطبهم بالجمع المخاطب، ولما كان بضرب المثل ضربه على رجل مفرد غائب، وهذا من حسن الأدب معهم فكأنه يقول: فاعل ذلك ليس منكم، وحاشاكم أن تفعلوا ذلك، وناسب هذا الأدب ما جاء في آخر الجملة؛ حيث قال: (**وهو لا يشعر**) وهذه تبرئة لهم وله - أعني الرجل الذي ضربه كمثل - عن قصد الفاحشة والمنكر. وهذا يذكرنا بأدب النملة التي برأت سليمان - عليه السلام - وجنوده فقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

[٣٣٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ ذَكَرْتَ وَقُلْتَ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وَقُلْتَ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، وَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ لَا نَفْرَحَ بِمَا زَيَّنْتَهُ لَنَا، اللَّهُمَّ فَاجْعَلْنِي أُنْفِقُهُ فِي الْحَقِّ، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّهِ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ورد في بعض الروايات أن عبد الله بن الأرقم صاحب بيت مال المسلمين في زمن أبي بكر رضي الله عنه أتى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين إن عندنا حلية من حلية جلولاء، آنية من ذهب ووَرِق فانظر أن تفرغ لذلك يوما وترى فيه رأيك، فقال: إذا رأيتني فارغا فآذني فجاءه يوما، فقال: أراك اليوم فارغا. فقال: أجل، فابسط لي نطعا ثم أتى بذلك المال فصب عليه فدنا عمر رضي الله عنه حتى وقف عليه، وقال هذا النَّص.

١- رواهُ البخاريُّ في «صَحيحِه» تعليقًا، ووصله الدَّارقُطنيُّ في «غرائبِ مالكٍ» كما في «تغليقِ التَّعليقِ» (٥/ ١٦٤) بإسنادينِ: الأوَّلُ عن زيدِ بنِ أسلمَ، وهو منقطعٌ بينَ زيدٍ وعمرَ. والثَّاني: مِن طريقِ عبدِ العزيزِ بنِ يحيى عن مالكٍ عن زيدِ بنِ أسلمَ عن أبيهِ. قال الحافظُ: وهذا موصولٌ، لكنَّ سندَه إلى عبدِ العزيزِ ضعيفٌ. «فتح الباري» ١١/ ٢٥٩.

ورواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (٢٢٣)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٢٥.

لطائف لغوية: قوله: (**اللهم**): سبق الحديث عن هذه اللفظة ومعناها في الأثر رقم تسعة وسبعين ومئة، فليراجعه المستزيد. وقوله: (**فاجعلني**): وجعل - هنا - بمعنى صيَّر لا خلَق، والتفريق بينهما ينبني عليه - أحيانا - خلاف عقدي؛ فالمعتزلة فسروا قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] بمعنى خلقناه؛ ليوافق مذهبهم الذي يقول بخلق القرآن، وهذا قول فاسد يرد عليه ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية بقوله: «وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، فما أفسده من استدلال! فإن (جعل) إذا كان بمعنى (خلق) يتعدى إلى مفعول واحد كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى (خلق)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، ونظائره كثيرة فكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾».

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بالدعاء، فقال: (**اللهم إنك ذكرت وقلت**)، وقوله: (**اللهم**) بمعنى (يا الله)، ثم أكد الجملة بأداة التأكيد (**إنَّ**) فهو

يؤكد ما قاله الله – تعالى –؛ لإيمانه بأن الله – تعالى – لا يقول إلا حقا. وعطفه قوله: (**قلت**) على قوله: (**ذكرت**) من عطف الشيء على معناه؛ حيث إن الذي قاله هو ما ذكره، أو يقال: هو من عطف الخاص على العام، ومثله يقال في قوله: (**قلت**) في المرة الثانية؛ فالآيتان إحداهما تبين إباحة الزينة في الدنيا بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾، والثانية تبخس من شأنها، بقوله: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا﴾. وجمع عمر رضي الله عنه بين هذين المعنيين الذين يظن أنهما متناقضان أحسن جمع يصلح لكي يكون تفسيرا لدرء ما يظن أنه من التعارض، وذلك قوله: (**وإنا لا نستطيع أن لا نفرح بما زينته لنا، فاجعلني أنفقه في الحق وأعذني من شره**). وهذه الجملة مؤكدة بـ (**إنَّ**)، والجملة تبين الحال التي هم عليها. وقوله: (**إنا**) بضمير المتكلمين – لا المتكلم – فيه بيان حاله وحال الناس من قومه الذين يعيشون معه، فهو يبين أنه لا يستطيع ألا يفرح بزينة الله – تعالى –. و(**الباء**) في قوله: (**بما زينته لنا**)، أي: بسبب ما زينته لنا، وقد تكون للاستعانة، أي: لا نستطيع ألا نفرح مستعينين بالذي زينته. والفاء في قوله: (**فاجعلني**): فصيحة تدل على المحذوف، وتقديره هنا: وقد كان ما كان فاجعلني. ومعنى (**اجعلني**) – هنا – من الفعل (جعل) بمعنى صيَّر، لا بمعنى خلق؛ لاتخاذها مفعولين اثنين، والتي بمعنى (خلق) تكتفي بواحد. والمفعولان هما: الضمير (الياء)، وجملة (**أنفقه في الحق**). ثم لما ذكر ما في المال وإنفاقه من الحق، وهو الوجه الصحيح لإنفاقه، لم يفته أن يكون دعاؤه كاملا؛ فاستعاذ من الوجه الفاسد في إنفاقه، وهو قوله: (**وأعذني من شره**).

[٣٣٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه
وَقَدْ نَظَرَ إِلَى شَابٍّ نَكَّسَ رَأْسَهُ

«يَا هَذَا! ارْفَعْ رَأْسَكَ؛ فَإِنَّ الْخُشُوعَ لَا يَزِيدُ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ، فَمَنْ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ خُشُوعًا فَوْقَ مَا فِي قَلْبِهِ؛ فَإِنَّمَا أَظْهَرَ نِفَاقًا عَلَى نِفَاقٍ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الحال - كما ورد في رواية أخرى[٢] -: عن محمد بن عبد الله القرشي، عن أبيه؛ قال: «نظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى شاب قد نكس في الصلاة رأسه ...»، وقد تكون في صلاة جماعة والخليفة يجهز الصفوف، أو يكون صلاها منفردا.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بحرف النداء (**يا**)، وهو حرف ينادى به القريب والبعيد، وهو هنا للقريب، دل على ذلك أن المنادَى الذي لم يعرف عمر رضي الله عنه اسمه، ناداه بقوله: (**يا هذا**)؛ حيث (**هذا**) اسم إشارة للقريب، والقرب هنا قرب مكان. وكون حرف النداء (**يا**) ينتهي بحرف جوفي صلح لمد الصوت بحيث يكتفي المنادِي بتنبيه من يناديه، وزد على ذلك أن كلمة (**هذا**) حوَتْ حرفين اثنين من هذا الحرف الجوفي؛ لتصبح هذه العبارة على قِصَرها محتوية على ثلاثة حروف جوفية متقاربة. وهذا النداء الذي تتابع فيه هذا الحرف الجوفي = كان كافيا ليجعل

١- رواهُ الدِّينوريُّ في «المجالسةِ وجواهرِ العلم» (١٦٩١).
٢- انظر: «المجالسة وجواهر العلم»، رقم (٣١٩١).

المنادى متيقظا ومنتبها لما سيقوله الأمير، فقال له: (**ارفع رأسك**): فـ (**ارفع**) فعل أمر يراد به الإرشاد، ثم هو يفسر سبب أمره له برفع رأسه بقوله: (**فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب**). والذي يبين أن هذه الجملة تفسير لما قبلها (**الفاء**) وهي السببية؛ حيث يكون ما بعدها سببا لما قبلها، وهذه الجملة تصلح لتكون تعريفا لمصطلح الخشوع. وحصره الخشوع في القلب يدل على أن الجوارح خشوعها في الطاعة والعمل على ما يرضي الله – تعالى –. وقد أكد عمر ﵁ هذا الحصر بـ (**إنَّ**) الثقيلة. وقوله: (**في القلب**): جعل القلب ظرفا ومكانا يحل به الخشوع؛ حيث (**في**) ظرف مكان هنا. ثم راح يبين أثر الخشوع على الجوارح وتقسيمه إلى فاسد وصحيح، فإن زاد ظهوره على الجوارح أكثر مما هو في القلب فهو خشوع فاسد علته النفاق، وإن وافقه فخشوع صحيح سببه الإيمان. وقوله: (**فإنما أظهر نفاقا على نفاق**): حصر الخشوع الزائد عما في القلب بالنفاق وأنه لا يكون شيئا غير النفاق، ودل على هذا الحصر أداة الحصر (**إنما**) التي تدل على التوكيد أيضا. وقوله: (**نفاقا على نفاق**) قصد به نفاق العمل الظاهر على الجوارح، ونفاق القصد الذي محله القلب.

[٣٣٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ رَأَى رَجُلًا يَخْطِرُ[١] وَيَقُولُ: أَنَا ابْنُ بَطْحَاءِ مَكَّةَ كُدَيًّا فَكُدَاهَا[٢]

«إِنْ يَكُنْ لَكَ دِينٌ فَلَكَ كَرَمٌ، وَإِنْ يَكُنْ لَكَ عَقْلٌ فَلَكَ مُرُوءَةٌ، وَإِنْ يَكُنْ لَكَ مَالٌ فَلَكَ شَرَفٌ، وَإِلَّا فَأَنْتَ وَالْحِمَارُ سَوَاءٌ»[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: كلمة (**يخطِر**): قال ابن سيده في المخصص: «خطر في مشيه يخطر خطرا وخطرانا: حرَّك يده في مشيته، وهو من التبختر، و(الغطر) لغة في الخطر، مرَّ يغطر بيديه أي: يخطر». و(**كُدَيًّا فكُداها**): قال ابن دريد في جمهرة اللغة: «وكُداء وكُدَيّ: جبلان أو موضعان قريبان من مكة. قال عبيد الله بن قيس الرقيات:

أقفرت بعد عبد شمس كداء وكدي فالركن فالبطحاء».

مقتضى الحال: جاء في الروايات أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج يمشي وبين يديه رجل يخطِر، وهو يقول: أنا ابن بطحاء مكة كديا فكداها، فوقف عليه عمر، وقال هذا النص.

١- الخاطِرُ: المُتبختِرُ. يُقالُ: خَطَرَ يَخطِرُ؛ إذا تَبَخْتَرَ. «لسان العرب» ٤/ ٢٥٠.

٢- كَدَاءُ، بالفتح والمدِّ: جبلٌ بأعلى مكَّةَ عندَ المُحصَّبِ، بينَ جبلِ الحَجُونِ وقُعيقانَ، تصلُ بينَ وادي ذي طُوًى والأَبْطَحِ، وتُعرَفُ الآنَ باسمِ الحَجُونِ أو الحَجُولِ. وكُدَيٌّ، بالضَّمِّ والتَّنوينِ: ثَنِيَّةٌ بمكَّةَ يخرجُ منها الطَّريقُ مِن الحرمِ إلى جَرْوَلٍ، تفصلُ بينَ نهايةِ قُعيقانَ في الجنوبِ الغربيِّ وجبلِ الكعبةِ، وتعرفُ الآنَ بريعِ الرَّسامِ. انظر: «معجم البلدان» ٤/ ٤٣٩، و«معجم معالم الحجاز» ٧/ ١٩٦- ٢٠٢.

٣- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (٢٣٤)، والدِّينوريُّ في «المجالسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٠٨٨).

لطائف لغوية: جاءت (كان) في قوله: **(إن يكن)** تامة، وقد تحدثنا عنها في النَّص رقم سبعة وأربعين ومئتين، فراجعه هناك.

البيان والبلاغة: لما رأى عمر رضي الله عنه من الرجل كبرا وتعاليا على خلق الله أجابه جوابا يكسر كبره ورفعته على الناس ويعلمه مقامه بقوله: **(إن يكن لك دين فلك كرم)**، وهذه جملة شرطيه لا يتحقق آخرها إلا بتحقق أولها؛ فلا يتحقق كرم ابن آدم إلا بتحقُّقِ الدين في نفسه. والفعل **(يكن)** هنا تام، فالجملة بمعنى: إن وجد لك دين. وفي الجملة حذف تقديره: إن يكن لك دين يكن لك كرم. فجاءت هذه الجملة قصيرة وموجزة مع ما حملته من المعنى الكبير والكثير. ويقال في الجملتين اللتين بعد هذه الجملة ما قيل فيها. وبين الجمل الثلاثة ما يسمى بالموازنة؛ حيث اتحاد الوزن مع اختلاف التقفية، وبينها وصل اقتضاه تناسق المعنى واتصال اللفظ وتتابع السياق. والترتيب في الجمل جاء صحيحا؛ حيث تدلى به من الأعلى إلى الأدنى (الدين فالعقل فالمال)، وما رتبه على وجود هذه الخصال الثلاث جاء متسقا مع الحال، فمن نزع منه الدين فلا كرامة له عند الله - تعالى - لا في دنيا ولا آخرة، ومن نزع منه العقل ضاعت مروءته وجنح إلى الطيش والسفه، ومن فقَد المال فقَد ما يشرفه الناس به في الدنيا، ومن فقَدها جميعا فقَد الدنيا والآخرة وباء بالأخسرَين، ورحم الله - تعالى - من قال:

ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

وهذا القبح عبر عنه عمر رضي الله عنه بقوله: **(وإلا فأنت والحمار سواء)**، وفي الجملة إيجاز حذف تقديره: وإن لم يكن ذلك فيك فأنت والحمار سواء؛ فالذي لا كرامة له ولا مروءة ولا شرف هو الحمار. وجاء هذا الوصف اللاذع من عمر رضي الله عنه لما في عمر

من الجِد والجرأة في قول الحق، مع شيء من الحدة التي زادته جمالا وأناقة ومحبة؛ لأن حدته تثلج صدر المتبع للحق، فرجل مثل هذا يفخر على خلق الله بآبائه وأجداده ويحتقر قوما أكرمهم الله = ليس كثيرا ما قيل فيه، بل إن رسول الله ﷺ قال فيه أشد مما قاله عمر، فقد قال ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ مَنْ يَعْتَزِي بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَعِضُّوهُ، وَلَا تُكَنُّوْا**»، فلا ملامة على عمر رضي الله عنه ولا تثريب.

[٣٣٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَعْرِبُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ، وَتَفَقَّهُوا فِي السُّنَّةِ، وَأَحْسِنُوا عِبَارَةَ الرُّؤْيَا، فَإِذَا قَصَّ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ خَيْرًا فَلَنَا، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَعَلَى عَدُوِّنَا»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**أعرِبوا القرآن**): قال السيوطي في الإتقان: «المراد بإعرابه: معرفة معاني ألفاظه، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة، وهو ما يقابل اللحن؛ لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ولا ثواب فيها».

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين حال ولا زمان ولا مكان هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله: (**إن كان خيرا فلنا**): سبق أن تحدثنا عن اقتران جواب الشرط بالفاء في النَّص رقم خمسة عشر ومئتين. وسبق الحديث عن قوله: (**اللهم**) في النَّص رقم تسعة وسبعين ومئة.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله: (**أعربوا القرآن؛ فإنه عربي**)، وهذا فعل أمر لا يقف معناه عند الإرشاد والتوجيه، بل يتعداه إلى الوجوب؛ كون الأمر يختص بتلاوة القرآن وتعلمه وتعليمه، بل هو من أوجب الواجبات التي أمر الله - تعالى - بها عباده. ولمَّا طلب إعراب القرآن علل ذلك بقوله: (**فإنه عربي**)، و(**الفاء**) هنا هي السببية؛ حيث ما بعدها سبب لما قبلها، وأكد عربية القرآن بـ (**إنَّ**) الثقيلة،

١- رواهُ البيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٢٠٩٨).

والتوكيد هنا يستفاد منه في قوله: **(أعربوا)**؛ حيث إن توكيد العلة يقتضي توكيد المعلول. ثم عطف على الجملة الأولى **(وتفقهوا في السنة، وأحسنوا عبارة الرؤيا)**، وهذا الترتيب صحيح تدلى به من الأعلى إلى ما هو دونه؛ فالقرآن يعلو على السنة، والسنة تعلو على تعبير الرؤى. واختياره الأفعال (أعربوا، وتفقهوا، وأحسنوا) جاء مناسبا؛ حيث الغلط في القرآن يأتي من سوء إعرابه وفهم مدلولاته، والغلط في السنة يأتي من قِبل عدم الفقه بها، والغلط في الرؤيا يأتي من إساءة التعبير. ثم راح يبين كيف يحسن الرجل تعبير الرؤى، فقال: **(فإذا قصَّ أحدكم على أخيه فليقل: اللهم إن كان خيرا فلنا وإن كان شرا فعلى عدونا)**، وهذه الجملة مبينة وموضحة للتي قبلها، وجاءت هذه الجملة بصيغة الشرط؛ الذي ينبني جزؤه الثاني على الأول، ولا يتم إلا به. وقوله: **(على أخيه)** يشعر بألا يقص أحد رؤياه إلا على أخ أو حبيب أو لبيب، وهذا من قوله ﷺ: «**الرُّؤْيَا مُعَلَّقَةٌ بِرِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ يُحَدِّثْ بِهَا صَاحِبُهَا، فَإِذَا حَدَّثَ بِهَا وَقَعَتْ، وَلَا تُحَدِّثُوا بِهَا إِلَّا عَالِمًا، أَوْ نَاصِحًا، أَوْ لَبِيبًا، وَالرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»[(١)]. وقوله: **(اللهم)**: سبق أن بينا أن معناها (يا الله)، وهذه جملة للدعاء. وفي جملة **(إن كان خيرا فلنا، وإن كان شرا فعلى عدونا)** إيجاز بالحذف، تقديره: إن كان ما رأيته خيرا فخيره لنا، وإن كان ما رأيته شرا فشره على عدونا. وبين قوله: **(إن كان خيرا فلنا)** وقوله: **(إن كان شرا فعلى عدونا)** مقابلة؛ حيث الكلمات **(خيرا)** و**(لنا)** ضد الكلمات **(شرا)** و**(على عدونا)** وبالترتيب. وفي الجملتين ترصيع أو ما يقاربه؛ حيث اتحدت القافية وتقارب الوزنان.

١- قال في المقاصد الحسنة: «أبو داود وابن ماجة من حديث أبي رزين لقيط بن عامر العقيلي رفعه بهذا، وأخرجه أحمد والدارمي والترمذي ... وقال - يعني الترمذي -: إنه حسن صحيح، وصححه ابن حبان والحاكم وابن دقيق العيد وقال: إنه على شرط مسلم».

[٣٣٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
وَقَدْ بَلَغَهُ عَنْ بَعْضِ عُمَّالِهِ شَيْءٌ

«أَيَّتُهَا الرَّعِيَّةُ، إِنَّ لِلرُّعَاةِ عَلَيْكُمْ حَقًّا: الْمُنَاصَحَةُ بِالْغَيْبِ، وَالْمُعَاوَنَةُ عَلَى الْخَيْرِ. أَلَا وَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ حِلْمِ إِمَامٍ عَادِلٍ وَرِفْقِهِ، وَلَا جَهْلَ أَبْغَضُ إِلَى اللهِ مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ جَائِرٍ وَخُرْقِهِ. وَمَنْ يَأْخُذْ بِالْعَافِيَةِ فِيمَنْ بَيْنَ ظَهْرَيْهِ يُعْطَ الْعَافِيَةَ مِنْ فَوْقِهِ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(وخُرْقِه)** أي: وحمقه، قال ابن دريد في الجمهرة: «ورجل أخرق؛ أي أحمق، ومثل من أمثالهم: خرقاء وافقت صوفا، يعني رجلا أحمق له مال ينفقه في غير حقه». وقوله: **(بين ظهريه)**: قال في العين: «والظهران من قولك: أنا بين ظهرانيهم وظهريهم، وكذلك الشيء في وسط الشيء: هو بين ظهريه وظهرانيه، قال: ألبس دعصا بين ظهري أو عسا».

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال التي قال فيها الخليفة هذا النَّص، إلا ما وقع في بعض الروايات أنه قالها بسبب أنه بلغه عن بعض عمّاله شيء.

لطائف لغوية: قوله: **(أيتها الرَّعية)**: سبق الحديث عن النداء بـ **(أيها)** في النَّص رقم اثنين وثلاثين ومئتين. وفي قوله: **(للرعاة عليكم حقا)**: قد سبق الحديث عن

١- رواهُ أبو يوسفَ في «الخراجِ» ص٢٢، ووكيعٌ في «الزُّهدِ» (٤١٩)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» ٢/ ٦٠٢، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٧٤، والطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢٢٤.

أحوال تقدم الخبر على المبتدأ وجوبا، في النَّص رقم ثلاثة ومئتين.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بنداء الرعية (**يا أيتها الرعية**)، فالمنادَى معرفة محلى بـ (**أل**) وسبقه أي، والهاء للتنبيه، والنداء بهذه الصيغة يحتمل ما قال الرازي في تفسيره: «ونحن نقول: قول القائل: (يا رجل) يدل على النداء، وقوله: (يا أيها الرجل) يدل على ذلك أيضا، وينبئ عن خطر خطب المنادى له، أو غفلة المنادى»، فأي الشيئين أراد ابن الخطاب؟ أما الأول: فمحتمل من جهة عظمة الرعية في قلبه، وأما الثاني: فجاء في الرواية (**قد بلغه عن بعض عماله شيء**)، وليس في الروايات ما يبين هذا الشيء، فقد يكون العامل استخف الرعية واستغفلهم فناسب ذلك النداء، والأول أولى؛ حيث رعية عمر رضي الله عنه وولاته من خيرة الناس الذين ينبغي إجلالهم. وقوله: (**إن للرعاة عليكم حقا**): لَّما عظم الحق وكبر في نفسه أكده بـ (**إنَّ**) الثقيلة. وتقديمه خبر إن (**للرعاة**) على اسمها (**حقا**) يدل على أهمية المتقدم، وهو كونه (**للرعاة**)، وهذا التقديم يفيد الحصر، فجعله محصورا في الرعاة. وقوله: (**حقا**): نكرة تعم الحقوق كلها. وفي قوله: (**للرعاة**) وقوله: (**عليكم**) طباق. ثم راح يبين هذا الحق ويفصله، فقال: (**المناصحة بالغيب**)، وفي هذه الجملة إيجاز بالحذف تقديره: المناصحة بالغيب من حق الرعاة عليكم. و(**أل**) هنا للاستغراق، تستغرق كل أنواع النَّصيحة بالقول والمكاتبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقوله: (**بالغيب**)، يعني: ألا يستعملوا النفاق فيمدحونه بوجهه ويقدحونه بالغيب، وإنما أن ينصحوا له في الغيب - أيضا -. وقوله: (**والمعاونة على الخير**): بين هذه الجملة وسابقتها = موازنة؛ لاتحاد الوزن، مع اعتداله. واللفظتان (**المناصحة**) و (**المعاونة**) مشتقتان من الفعلين؛ (ناصح) و(عاون) على وزن فاعَلَ

الذي يدل عل المشاركة، وهذا ما ينبغي أن يكون بين الراعي والرعية من التبادل والتشارك في النَّصح والعون. ولَمَّا قرر ما قرره من التفاعل بين الراعي والرعية نبه الناس ولفتهم إليه طالبا منهم الإصغاء والالتفات إليه، مستعملا أداة التنبيه **(ألا)**، ثم قال: **(ألا وإنه ليس شيء أحب إلى الله من حلم إمام عادل ورفقه)**، وسبق أن قلنا بأن **(الواو)** التي بعد **(ألا)** هي التي للعطف فتدل على محذوف، أو تعطف على المعنى في قوله: **(ألا)** وهو بمعنى **(انتبه)**. والضمير **(الهاء)** في قوله: **(إنه)** ضمير شأن، والضمائر تعود – عادة – على مذكور، إلا ضمير الشأن فإنه يعود على شيء لم يذكر، يقدِّره السامع، وهنا ينطلق الذهن في التخمين فيعطي للأمر شأنا وأهمية؛ ولذا سمي ضمير الشأن، كما يسمى ضمير القصة؛ لأنه يدل على قصة محذوفة. ثم راح يبين هذه القصة أو ذلك الذي له شأن مؤكِّدا إياه بحرف التوكيد **(إنَّ)**. وقوله: **(شيء)** نكرة في سياق النفي تعمُّ، فلا يكون شيء مهما علا قدره أحب إلى الله من حلم إمام عادل ورفقه، وقد يقال: هل يكون الإمام عادلا بدون حلم و رفق؟ ربما يكون عادلا يأخذ بالحق دون عفو، فإن زاد عليه العفو كان حليما، فالحلم أعم من العدل من جهة، والعدل أعم من الحلم من جهة أخرى؛ حيث قد يكون الإمام ظالما حليما، ولكن لا يقال للظالم رفيقا؛ حيث الرفق يقتضي ألا تقع في الظلم، ولهذا قال: **(ورفقه)** ولم يكتف بذكر الحلم؛ لأن الحلم لما في القلب، والرفق لما في العمل، وعليه يكون الإمام عادلا بالحلم والرفق كليهما. وقوله: **(ولا جهل أبغض إلى الله من جهل إمام جائر وخرقه)**: النفي هنا يعمُّ كل شيء؛ حيث **(لا)** النافية للجنس تنفي أصل الشيء ووجوده، وهنا تقع على كل جهل يمكن أن يكون، فليس هو أبغض إلى الله من جهل الإمام. والفرق بين الجهل والخرق: أن الجهل نقص في العلم قد يُزال بالتعلُّم، وأما الخرق فهو نقص في العقل لا يزول بتعلم ولا بشيء. وبين

الجملتين موازنة؛ لاتحاد وزنهما، وفيهما ما يسمى بالمقابلة؛ حيث الكلمات (**أحب**) و(**حلم**) و(**عادل**) و(**رفقه**) ضد الكلمات (**أبغض**) و(**جهل**) و(**جائر**) و(**خرقه**) وبالترتيب. وأنهى خطابه بنصحٍ لمن ولوا من الناس أمرا بأن يأخذوا الناس بالعافية ليأخذهم الله - تعالى - بمثلها، فقال: (**ومن يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه يعط العافية من فوقه**)، وصاغها على صيغة الشرط الذي لا يتم آخره إلا بتمام أوله، فمن أراد أن تأتيه العافية من الله فلينعم بها على من ولي أمرهم. وفي الجملة مقابلة؛ حيث الكلمات (**يأخذ**) و(**بين ظهريه**) ضد الكلمات (**يعط**) و(**من فوقه**) وبالترتيب.

[٣٣٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الرَّأْيِ الْمَذْمُومِ

«اتَّهِمُوا الرَّأْيَ عَلَى الدِّينِ؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ(١) وَأَنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِرَأْيِي اجْتِهَادًا إِلَيْهِ مَا آلُو عَنِ الْحَقِّ، وَالْكِتَابُ يُكْتَبُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: (**اكْتُبُوا: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**). فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: إِذَنْ قَدْ صَدَّقْنَاكَ بِمَا تَقُولُ، وَلَكِنَّا نَكْتُبُ كَمَا نَكْتُبُ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. فَرَضِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَبَيْتُ عَلَيْهِمْ، حَتَّى قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ: (**تَرَى أَنِّي قَدْ رَضِيتُ، وَتَأْبَى؟!**) قَالَ عُمَرُ: «فَرَضِيتُ»»(٢).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**فلقد رأيتُني**) قال ابن حجر في فتح الباري: «بضم المثناة، والمعنى: رأيت نفسي». و(**يوم أبي جندل**): نورد قصة ذلك اليوم مع اختصار من كتاب البداية والنهاية، قال ابن كثير: «فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو

١- أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيلِ بنِ عَمْرٍو القُرشيُّ العامريُّ: أسلمَ قديمًا بمكَّةَ، فحبسَه أبوه وأوثقَه في الحديدِ، ومنعَه الهجرةَ، ثمَّ أفلتَ بعدَ الحديبيةِ، فخرجَ إلى أبي بَصيرٍ بالعيصِ، فلم يزلْ معهُ حتَّى ماتَ أبو بَصيرٍ، فقدِمَ أبو جندلٍ ومَن كانَ معَه مِن المسلمينَ المدينةَ على رسولِ الله – صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّم –، فلم يزلْ يغزو معَه حتَّى قُبِض رسولُ الله – صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّم –، فخَرجَ إلى الشَّامِ في أوَّلِ مَن خرجَ إليها مِن المسلمينَ، فلم يزلْ يغزو ويُجاهِدُ في سبيلِ الله، حتَّى ماتَ بالشَّامِ في طاعونِ عَمَوَاسَ سنةَ ثماني عشرةَ، في خلافةِ عمرَ بنِ الخطَّابِ، ولم يدعْ أبو جندلٍ عقبًا. «الطَّبقات الكبرى» ٧/ ٤٠٥.

٢- رواهُ أحمدُ في «فضائلِ الصَّحابةِ» (٥٥٨)، والبزَّارُ في «البحرِ الزَّخَّارِ» (١٤٨)، وابنُ الأعرابيِّ في «المُعجَم» (١٠٧٥) و(١٩٤٦)، والطَّبرانيُّ في «المعجمِ الكبيرِ» (٨٢)، والقطيعيُّ في «جزءِ الألفِ دينارٍ» (٣٠٣)، واللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (٢٠٨)، والضِّياءُ المقدسيُّ في «الأحاديثِ المختارةِ» (٢١٩).

وسهيل بن عمرو = إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ ... فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه، وقال: يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت فجعل ينتره بتلبيبه ويجره، يعني: يرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني! فزاد ذلك الناس إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ؛ فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا؛ إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَهْدَ اللهِ، وَإِنَّا لا نَغْدِرُ بِهِمْ**» قال: فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل، يمشي إلى جنبه، ويقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب».

مقتضى الحال: يبيِّن عمرُ رضي الله عنه لمستمعيه خطورة الاعتداد الزائد بالرأي والإعجاب به، ثمَّ يدلل لهم على ذلك بذكر طرفٍ مما كان منه يوم الحديبية؛ حيثُ اعترض سهيل بن عمرو على كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم) في كتاب الصُّلح بين رسول الله ﷺ وقريش، وقال: نكتب (باسمك اللهم)، فوافق الرسول ﷺ واعترض عمر.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه آمرا باحترام الدين ومقدِّما إياه على العقل والرأي بقوله: (**اتهموا الرأي على الدين**)، فصاحب الرأي مهما أصاب فلابد أن يلحقه الخلل، وليس ذلك بجائز في الدين. ثم راح يدلل على ما قال ويعلل ذلك بالمثال، ساردا لنا قصة جرت له أصاب فيها الشرعُ وأخطأ رأي عمر، وهو صاحب الرأي والعقل والحكمة والدين، وبدأ يقص علينا ما كان منه بقوله: (**فلقد رأيتني يوم أبي جندل**)، وهذه الجملة فيها توكيدان: (**اللام**) الابتدائية التي تفيد

التوكيد، و(**قد**) التي تفيد التحقيق والتوكيد، هذا إن لم نقدِّر قَسَما محذوفا، أما مع تقدير القَسَم المحذوف - على رأي بعضهم - فهي ثلاثة مؤكدات وتكون (**اللام**) هي الواقعة في جواب القسم. وقوله: (**رأيتُني**): بمعنى رأيت نفسي، وفي العادة لا يقول المتحدث: رأيت نفسي أشرب - مثلا -، ولكنه يقول: شربت، وقد جاء بها على هذه الصيغة من باب تأكيد الخبر كأنما تمَّت مشاهدته، فهو ينقل صورة للفعل حتى كأنه حاضر بين أيدينا. وقوله: (**يوم أبي جندل**) فيه حذف تقديره: يوم حدثت قصة أبي جندل، وقد سبق أن ذكرنا القصة. وقوله: (**برأيي اجتهادا**): في الجملة حذف تقديره: أجتهد برأيي اجتهادا، يبين عمر رضي الله عنه الحال التي بلغت منه حتى إنه اجتهد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم والكتاب يكتب بين يديه. وقوله: (**الكتاب**): (**أل**) للعهدية الذهنية؛ حيث نعلم من التاريخ أنه كتاب الصلح يوم الحديبية. وجاء قوله: (**يُكتب**) بصيغة ما لم يسم فاعله؛ حيث القصة تتحدث عن أمر لا داعي - هنا - لمعرفة الكاتب فأهمل ذكره؛ ولأنه اهتم بغيره كيلا يضيع لب الأمر والبغية من القصة. وقوله في نهاية القصة: (**فرضيتُ**): في الجملة إيجاز بالحذف، تقديره: قال ذلك فرضيت، والفاء هنا هي الفصيحة.

[٣٣٩]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ

«قَدْ تَرَى مَقَامِي، وَتَعْرِفُ حَاجَتِي، فَارْجِعْنِي مِنْ عِنْدِكَ يَا اللهُ بِحَاجَتِي، مُفَلَّجًا مُنَجَّحًا مُسْتَجِيبًا مُسْتَجَابًا لِي، قَدْ غَفَرْتَ لِي وَرَحِمْتَنِي». فَإِذَا قَضَى صَلاتَهُ، قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا أَرَى شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا يَدُومُ، وَلَا أَرَى حَالًا فِيهَا يَسْتَقِيمُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَنْطِقُ فِيهَا بِعِلْمٍ، وَأَصْمُتُ بِحُكْمٍ، اللَّهُمَّ لَا تُكْثِرْ لِي مِنَ الدُّنْيَا فَأَطْغَى، وَلَا تُقِلَّ لِي مِنْهَا فَأَنْسَى؛ فَإِنَّهُ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**مُفَلَّجًا**): قال في العين: «والفلج: الظفر بمن تخاصمه. وفلجت حجتك، وفلجت على صاحبك بحقك».

مقتضى الحال: كما جاء في الرواية أن عمر رضي الله عنه كان يقول هذا في دعائه إذا قام من الليل.

لطائف لغوية: قوله: (**قد ترى**): الأصل في (**قد**) أنها إذا دخلت على المضارع أفادت التقليل والشك، لكنها تفيد التكثير والتحقيق والتوكيد مع المضارع إذا دل السياق على ذلك، ولمزيد من البيان راجع النَّص رقم خمسة وثمانين ومئة. وفي قوله: (**مُفَلَّجا مُنَجَّحا مستجِيبا مُستَجابا لي**): في هذا النَّص لم يعطف الصفات بعضها على

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦٣٤).

بعض، وقد مر الكلام عليه في النَّص رقم واحد وثلاثين وثلاثمائة.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه ومناجاتَه ربَّه بقوله: (**قد ترى مقامي، وتعرف حاجتي، فارجعني من عندك يا الله بحاجتي**)، وقد قال هذا بعد أن تحقق وتأكد عنده أن الله – تعالى –يراه، ودل على هذا التحقق والتأكد (**قد**) التي تفيد ذلك. وقوله: (**ترى**) مضارع، والمضارع إذا سبقته (**قد**) أفاد الشك، وقد يراد بها التحقيق والتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وليس غريبا أن يبدأ مناجاته برؤية الله – تعالى – له، أليس هو من روى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». وجملة: (**ترى مقامي**) بيَّنتِ اعتقاد عمر رضي الله عنه في علم الله – تعالى – بما يظهر من حاله، وجملة: (**تعرف حاجتي**): بيَّنتِ اعتقاد عمر رضي الله عنه في علم الله – تعالى – بما في نفسه وما يخفى منها، ولابد أنَّ العطف تضمن التوكيد والتحقيق الذي أفادته (**قد**) في جملة المعطوف عليه، وعليه يقال: في الجملة إيجاز حذف. ولما ذكر حاله وعِلمَ الله به راح يطلب من الله ما يحتاجه ويرغبه، فقال: (**فارجعني من عندك – يا الله – بحاجتي**). ويصور لنا عمر رضي الله عنه حاله في هذه الجملة كأنه لما قام بين يدي ربه عرج إلى ملكوته، ووقف في رحاب سمائه، ولابد أن الروح قد فعلت وعرجت إلى باريها، فما عجز عنه الجسد لم يُعجز الروح. وقوله: (**من عندك**) يذكرنا بقول امرأة فرعون: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم: ١١]، وهذا جوار الجسد في الآخرة، وعمر رضي الله عنه جاورت روحه ربها في الدنيا. وجاء النداء بقوله: (**يا الله**) معترضا هذا الدعاء، فكأني به لما خاطب ربه وعلم أنه يراه فكأنه رأى ربه، فلما رآه قرب منه فناداه، ثم طلب الرجوع من عنده تصاحبه

حاجته، دلَّ على هذه المصاحبة (**الباء**) في قوله: (**بحاجتي**). وقوله: (**مُفَلَّجًا مُنَجَّحًا مُسْتَجِيبًا مُسْتَجَابًا لي**): هذه صفات لا يربطها حرف العطف، وقد ذكرنا أن الأصل عند تعداد الصفات ألا يربطها عطف. وفي الجملة حذف كثير قد يقدر بقولنا: مفلجا على عدوي، منجحا في أمري، مستجيبا لربي، مستجابا لي طلبي. وفي قوله: (**مستجيب**) و(**مستجاب**) طباق. كل ذلك وهو قائم بين يدي ربه، فإذا قضى من صلاته ناجى ربه وناداه قائلا: (**اللهم**)، وهي بمعنى (يا الله) حذفت أداة النداء فيها وعوض عنها بـ (الميم)، وقد سبق الحديث عن هذه العبارة وما فيها. وقوله: (**لا أرى شيئا من الدنيا يدوم، ولا أرى حالا فيها يستقيم**): هذه مقولة المبصر لحال الدنيا الخبير بشؤونها والمدرك لكُنْهِ حقيقتها. وجاء قوله: (**شيئا**) نكرة في سياق النفي فأفاد العموم؛ حيث لا يبقى شيء يدوم فيها، وهذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]. وقوله: (**من الدنيا**): إطناب أريد منه الاحتراز من مظنة أن الآخرة لا تدوم كذلك، كما احترز صاحبه أبو بكر على لبيد لما قال:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

فقال أبو بكر: (إلا نعيم الآخرة فإنه لا يزول). وما قيل في هذه الجملة يقال في التي تليها، وهو قوله: (**ولا أرى حالا فيها يستقيم**). وقد ربط بين الجملتين بـ (**الواو**)؛ لما في الجملتين من تقارب في اللفظ والمعنى، وهذا التقارب والتشابه في اللفظ مع التشابه في القافية = يسمى الترصيع. وقوله: (**اللهم اجعلني أنطق فيها بعلم**): لما ذكر الدنيا وزوالها وفناء نعيمها طلب من الله - تعالى - خير ما فيها، وهو العلم والحكم، وهذا يشبه قوله ﷺ: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيْهَا إِلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ**». وقوله: (**اجعلني**) يدل على اعتماده على ربه وعدم اغتراره

بنفسه. وجملة (**وأصمت بحكم**) موصولة مع التي سبقتها يربط بينهما حرف العطف (**الواو**)، وفيهما ترصيع؛ لاتحاد الوزن والقافية، وفيهما - أيضا - طباق؛ فقوله: (**أنطق**) ضد قوله: (**أصمت**). ثم تابع طالبا من الله - تعالى - ما يكفيه فلا يلهيه من هذه الدنيا، فيقول: (**اللهم لا تكثر لي من الدنيا فأطغى**). و(**الفاء**) في قوله (**فأطغى**) هي فاء السببية التي دلَّت على أنَّ الخوف من الطغيان سبب طلبه عدم الإكثار من الدنيا، ومثل ذلك يقال في (**الفاء**) في قوله: (**فأنسى**)؛ لأن قلة الدنيا تسبب نسيان الله - تعالى -، وذلك في قوله: (**ولا تُقلَّ لي فيها فأنسى**). وقد وصل بين الجملتين بـ (**الواو**). وفي الجملتين ترصيع؛ لاتحاد الوزن والقافية، وبينهما مقابلة؛ فالكلمات (**تكثر**) و(**فيها**) و(**أطغى**) ضد الكلمات (**تُقلَّ**) و(**منها**) و(**أنسى**) وبالترتيب. ثم علَّلَ هذه الجملة بجملة ختم بها النَّص، فقال: (**فإنه ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى**)، وبدأ هذه الجملة بـ (**إنَّ**) الثقيلة المؤكدة. وفي جملتي (**قلَّ وكفى**) و(**كثر وألهى**) ترصيع ومقابلة.

[٣٤٠]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

إِذَا قَنَتَ فِي رَمَضَانَ

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَأَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، وَانْصُرْهُمْ عَلَى عَدُوِّكَ وَعَدُوِّهِمْ، اللَّهُمَّ الْعَنْ كَفَرَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ وَيُقَاتِلُونَ أَوْلِيَاءَكَ، اللَّهُمَّ خَالِفْ بَيْنَ كَلِمَتِهِمْ، وَزَلْزِلْ أَقْدَامَهُمْ، وَأَنْزِلْ بِهِمْ بَأْسَكَ الَّذِي لَا تَرُدُّهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ. بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَعِينُكَ وَنَسْتَغْفِرُكَ، وَنُثْنِي عَلَيْكَ وَلَا نَكْفُرُكَ، وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ. بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، اللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَلَكَ نُصَلِّي وَنَسْجُدُ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ، نَرْجُو رَحْمَتَكَ، وَنَخَافُ عَذَابَكَ، إِنَّ عَذَابَكَ بِالْكُفَّارِ مُلْحِقٌ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: كان عمر رضي الله عنه يقول هذا الدعاء في القنوت في رمضان، كما جاء في الروايات التي ذكرت هذا النَّص.

لطائف لغوية: وردت في النَّص بعض الجمل التي قدَّمت ما حقه التأخير، مثل قوله: **(إياك نعبد)** قُدِّم المفعول على الفعل والفاعل، وقوله: **(لك نصلي)**، وقوله: **(إليك نسعى)** ولم يقل: (نصلي لك) و(نسعى إليك)، فما فائدة هذا التقديم؟ يقول

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٤٩٦٨) و(٤٩٦٩)، وابنُ خزيمةَ في «صحيحِه» (١١٠٠) والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٣١٤٣).

القزويني في الإيضاح في علوم البلاغة: «والتخصيص في غالب الأمر لازم للتقديم؛ ولذلك يقال في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، معناه: نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك، ونخصك بالاستعانة لا نستعين غيرك. وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، معناه: إن كنتم تخصونه بالعبادة، وفي قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أخرت صلة الشهادة في الأول وقدمت في الثاني؛ لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الثاني اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم. وفي قوله تعالى: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨]، معناه إليه لا إلى غيره، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩] معناه لجميع الناس من العرب والعجم على أن التعريف للاستغراق ... وكذلك يذهب في معنى قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] إلى أنه تعريض بأن الآخرة التي عليها أهل الكتاب ... ويفاد التقديم في جميع ذلك وراء التخصيص اهتماما بشأن المقدم».

البيان والبلاغة: يناجي عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ربه قائلا: (**اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات**)، فلا ينسى عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ المسلمين من دعائه، بل فصَّل فيه حتى أفرد المؤمنين عن المسلمين، والمؤمنات عن المسلمات، والمؤمنين والمسلمين عن المؤمنات والمسلمات، فأكثر من الإطناب وكان يكفي أن يقول: (اللهم اغفر للمسلمين) فتدخل المسلمات فيه تبعا، ويكون إفراد المسلمين على التغليب، ويدخل (المؤمنون والمؤمنات) في مسمى الإسلام؛ إذ كل مؤمن مسلم فيشمله الدعاء. وجاء هذا التنويع بالذكر من أجل التأكيد على أهمية المذكورين والتنويه بشأنهم. وبعد أن طلب من الله المغفرة لهم طلب منه أن يؤلف بين قلوبهم فقال: (**وألف بين قلوبهم**)،

وهذا مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ حيث ذكر الجزء وهو القلب وأراد الكل، أعني: أراد أن يقول (وألِّف بينهم)، وذَكَر القلوب لأنها محل الألفة والمحبة بين الناس. وقوله: **(وأصلح ذات بينهم)**: هل يقال هذه الجملة من عطف اللفظ على معناه؛ لأن تأليف القلوب هو إصلاح ذات البين؟ نقول: هذا صحيح في تأليف القلوب؛ لأنه لا يكون مع فساد ذات البين، كما يصح أن تتنافر القلوب دون أن يفسد ذات بينهم، فعليه هما مختلفتان، ودل على هذا **(الواو)** التي تفيد المغايرة. وذكره تأليف القلوب قبل صلاح ذات البين ترتيب صحيح؛ حيث لا يصلح ذات بينهم إلا بألفة قلوبهم. ثم طلب من ربه أن ينصرهم على عدوهم، فقال: **(وانصرهم على عدوك وعدوهم)**، وطلبه النَّصر بعد ألفة القلوب وصلاح ذات البين يدل على أنهما شرطان في النَّصر، فلا نصر إلا بهما، وهذا ترتيب حسن؛ حيث كل واحدة لا تكون إلا بالتي سبقتها. وقوله: **(عدوك وعدوهم)** دل على أن مَن عادى مَن ليس عدوا لله فلا نصرة له من الله، وأن العداوة لاتكون إلا لله. وتقديمه **(عدوك)** على **(عدوهم)** مِن تقديم العلَّة على المعلول والمقدمة على النتيجة، وهو ترتيب صحيح تدلى به من الأعلى إلى الأدنى. وقوله: **(العن كفرة أهل الكتاب)** يدل على أن منهم مَن ليس بكافر، وقد يقال بأن الإسلام نسخ دين أهل الكتاب، فمَن بقي منهم على دينه فهو كافر، فلا داعٍ لتقسيمهم إلى كافر ومسلم. وقد يجاب بأن بعضهم لم تبلغه الرسالة، أو يقال بأن من أسلم منهم يسمى مسلم أهل الكتاب على اعتبار ما كان عليه، فصح التقسيم. وهل اللعنة لا تقع على كفرة أهل الكتاب إلا إذا كذَّبوا الرسل وقاتلو الأولياء؟ قد يفهم هذا من قوله: **(اللهم العن كفرة أهل الكتاب الذين يكذبون رسلك ويقاتلون أولياءك)**، وقد لا يكون ذكرهم هنا من باب الشرطية، وإنما ذكرهم في سياق الحديث؛ كونهم فعلوا ذلك، والأول أولى. ثم راح يدعو على أهل الكتاب

بعكس ما دعا للمسلمين والمسلمات، فقال: (**اللهم خالف بين كلمتهم**)، وهذه المخالفة تدل على نفرة قلوبهم وفساد ذات بينهم، فاكتفى بالتعبير عن نفرة القلوب وفساد ذات البين باختلاف الكلمة. وقوله: (**كلمتهم**) مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ حيث أطلق الجزء وأراد به الكل، وهو الكلام الكثير والرأي. ثم دعا عليهم بقوله: (**وزلزل أقدامهم**)، وهو - أيضا - مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ حيث أطلق الجزء وأراد الكل، وهم الناس، فالمعنى: (اللهم زلزل كفرة أهل الكتاب)، وفيها كناية عن صفة، وهي الفرار وعدم الثبات. ثم تابع يدعو على أعداء الله وأعداء المسلمين قائلا: (**وأنزل بهم بأسك الذي لا ترده عن القوم المجرمين**)، وقد تكون (**الباء**) في قوله: (**بهم**) للاستعلاء بمعنى (على)، فيكون المعنى أنزل عليهم، أو تكون للظرفية بمعنى (في)، فيكون المعنى: (أنزل فيهم). ثم انتقل بدعائه من الدعاء على الكافرين إلى الدعاء للمسلمين، وقد كان الدعاء في الجزء الأول للمسلمين فيما بينهم وبين أنفسهم من صلاح ذات البين وألفة القلوب، ثم انتقل في الجزء الثاني بالدعاء على الكافرين بعكس ما دعاه للمسلمين، وطلب من الله النَّصرة عليهم، ثم عاد في الجزء الثالث من الدعاء يدعو للمسلمين فيما بينهم وبين ربهم من العبادة والإنابة، فقال: (**اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك**)، وهذا التفات؛ حيث كان يدعو للمسلمين بضمير الغائب، وهنا يدعو لهم بضمير المتكلمين. وقدم الاستغفار على الاستعانة لأن من مستلزمات عون الله - تعالى - لعبده ألَّا يكون من أهل الخطايا، فإذا غفر له ساغت إعانته، وكون الاستغفار عما مضى من الذنب، وطلب العون فيما يأتي فترتيب الزمان يقتضي تقديم الاستغفار على العون. وقوله: (**نثني عليك**): جعلها بعد الطلب من الله - تعالى - وهذا من أدب الطلب، وهو الاعتراف بفضل مَن تطلب منه، ثم ذكر براءته من كل مَن هو عدو له؛ فكانت

هذه البراءة وما سبقها من الثناء = كالشفاعة بين يدي ما سبق من طلب الغفران والإعانة. وفي قوله: (**إياك نعبد**) قدم المفعول على الفعل والفاعل، وتقديم ما حقه التأخير يدل على خصوصيته وأهميته، بل وحصره، فيكون المعنى: (لا نعبد إلا إياك)، ولو قال: (نعبدك) لم يكن هذا نافيا أن نكون عابدين لغيره. وقوله: (**ولك نصلي ونسجد**): قد يقال: هي من عطف الخاص على العام؛ حيث الصلاة والسجود جزء من العبادة. وتقديمه شبه الجملة (**لك**) على قوله: (**نصلي**) يفيد الحصر، فيكون المعنى: (**لا نصلى إلا لك**)، ومثله يقال: في تقديم (**وإليك نسعى**)؛ فلو قال: (نصلي لك) وقال: (نسعى إليك) لا يمنع أن نكون صلينا لغيره وسعينا إلى غيره. وعطف (**نسجد**) على (**نصلي**) من عطف الخاص على العام - أيضا - وذلك أن السجود جزء من الصلاة، وعطف السجود على الصلاة؛ لأهمية السجود على غيره، كما أن في الجملة إيجازَ حذف تقديره: لك نصلي ولك نسجد، وحذف مثله في قوله: (**وإليك نسعى ونحفد**) تقديره: وإليك نسعى وإليك نحفد. وفي هذه الجمل الثلاث ما يسمى بالترصيع؛ لاتحاد الوزن والقافية. وفي جملة (**نرجو رحمتك**) وجملة (**نخاف عذابك**) ترصيع ومقابلة؛ حيث الكلمات (**نرجو**) و(**رحمتك**) ضد الكلمات (**نخاف**) و(**عذابك**)، وبالترتيب.

[٣٤١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِمَوْلَاهُ هُنَيٍّ[١]

«يَا هُنَيُّ؛ اضْمُمْ جَنَاحَكَ[٢] عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ، وَأَدْخِلْ رَبَّ الصُّرَيْمَةِ[٣]، وَرَبَّ الغُنَيْمَةِ[٤]، وَإِيَّايَ وَنَعَمَ ابْنِ عَوْفٍ، وَنَعَمَ ابْنِ عَفَّانَ؛ فَإِنَّهُمَا إِنْ تَهْلِكْ مَاشِيَتُهُمَا يَرْجِعَا إِلَى نَخْلٍ وَزَرْعٍ، وَإِنَّ رَبَّ الصُّرَيْمَةِ، وَرَبَّ الغُنَيْمَةِ إِنْ تَهْلِكْ مَاشِيَتُهُمَا؛ يَأْتِنِي بِبَنِيهِ، فَيَقُولُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. أَفَتَارِكُهُمْ أَنَا، لَا أَبَا لَكَ؟! فَالْمَاءُ وَالْكَلَأُ أَيْسَرُ عَلَيَّ مِنَ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَايْمِ اللهِ إِنَّهُمْ لَيَرَوْنَ أَنِّي قَدْ ظَلَمْتُهُمْ، إِنَّهَا لَبِلَادُهُمْ فَقَاتَلُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَسْلَمُوا عَلَيْهَا فِي الْإِسْلَامِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا الْمَالُ الَّذِي أَحْمِلُ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ مَا حَمَيْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ بِلَادِهِمْ شِبْرًا»[٥].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(ربَّ الصُّرَيْمَة وربَّ الغُنَيْمَة)**: قال الحافظ في الفتح: «والصُّرَيْمَة بالمهملة مصغر، وكذا الغُنَيْمَة، أي: صاحب القطعة القليلة من الإبل والغنم».

١- هُنَيٌّ - بالتَّصغيرِ - مَوْلَى عُمرَ، أدركَ النَّبيَّ ﷺ، واستعملَهُ عمرُ على الحِمَى «الإصابة» ٦/ ٣٠٣.

٢- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٣/ ١٠١: (أي: أَلِن جانبَك لهم، وارفقْ بهم).

٣- الصِّرْمَةُ، بالكسرِ: القِطعةُ مِن الإبلِ ما بينَ العشرينَ إلى الثَّلاثينَ. وقيلَ غيرُ ذلكَ «القاموس» ص١٤٥٨.

٤- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٣/ ٢٧: (يريدُ صاحبَ الإبلِ القليلةِ والغَنَمِ القليلةِ).

٥- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٣٠٥٩)، و«مُوطَّأ مالكٍ (١)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٥٩٥)، وابنُ زَنْجُويْهِ في «الأموالِ» (١١٠٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١١٨٠٩).

مقتضى الحال: الحال أن عمر رضي الله عنه استعمل على الحِمى مولى له يقال له: (هُنَـيًّا) ثم قال له هذا النَّص يوصيه فيه، ويبين له ما يصنع في تولِّيه الحِمى.

لطائف لغوية: قوله: (**اضمم جناحك**)، هل في كلمة (**جناح**) مجاز أم لا؟ أهل العلم مختلفون في إثبات المجاز ونفيه في اللغة، ولكن كلمة (**جناح**) هنا ليست مجازية؛ لأن من معاني كلمة (**جناح**) الجانب، فجانب كل شيء جناحه، وعليه سننقل كلام العلماء في بيان معنى كلمة (جناح) في مواطن تشبه فيه هذا النَّص كقوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الإسراء: ٢٤]. قال الرازي في بيان وجه المجاز في الآية في تفسيره: «وذكر القفال - رحمه الله - في تقريره وجهين: الأول: أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية، فكأنه قال للولد: اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك. والثاني: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه، فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا الوجه. فإن قيل: كيف أضاف الجناح إلى الذل والذل لا جناح له؟ قلنا: فيه وجهان: الأول: أنه أضيف الجناح إلى الذل، كما يقال: حاتم الجود، فكما أن المراد هناك حاتم الجواد، فكذلك هاهنا المراد، واخفض لهما جناحك الذليل، أي المذلول. والثاني: أن مدار الاستعارة على الخيالات، فهاهنا تخيل للذل جناحا وأثبت لذلك الجناح ضعفا؛ تكميلا لأمر هذه الاستعارة». أما المانعون من المجاز فلهم تفسير غير هذا، قال الشنقيطي في كتابه منع جواز المجاز: «والجواب عن قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ أن الجناح هنا مستعمل في حقيقته؛ لأن الجناح يطلق لغة حقيقة على يد الإنسان وعضده وإبطه، قال تعالى:

﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ [القصص: ٣٢]، والخفض مستعمل في معناه الحقيقي الذي هو ضد الرفع؛ لأن مريد البطش يرفع جناحيه، ومُظهر الذل والتواضع يخفض جناحيه؛ فالأمر بخفض الجناح للوالدين كناية عن لين الجانب لهما، والتواضع لهما، كما قال لنبيه ﷺ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الشعراء: ٢١٥]. وإطلاق العرب خفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب أسلوب معروف، ومنه قول الشاعر:

وأنت الشهير بخفض الجناح فلا تك في رفعه أجدلا».

وقوله: (**وإياي ونَعَم ابن عوف** ...): في هذه الجملة يحذر عمر نفسه، في حين هو يريد تحذير غيره، فهل هذا سائغ في اللغة، وما حكمه وبيانه؟ قال الأشمونى في شرحه لألفية ابن مالك معلقا على متن ابن مالك في قوله:

وشذ (إياي) و(إياه) أشذ وعن سبيل القصد من قاس انتبذ

«(وشذ): التحذير بغير ضمير المخاطب، نحو: (إياي) في قول عمر رضي الله عنه: (لتذك لكم الأسل والرماح والسهام، وإياي وأن يحذف أحدكم الأرنب)، والأصل: إياي باعدوا عن حذف الأرنب، وباعدوا أنفسكم عن أن يحذف أحدكم الأرنب. ثم حذف من الأول المحذور ومن الثاني المحذر، ومثل إياي: إيانا وإياه وما أشبهه من ضمائر الغيبة المنفصلة، (أشذ) من (إياي)، كما في قول بعضهم: (إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب)، والتقدير: فليحذر تلاقي نفسه وأنفس الشواب، وفيه شذوذان: مجيء التحذير فيه للغائب وإضافة (إيا) إلى ظاهر، وهو (الشواب)، ولا يقاس على ذلك، كما أشار إلى ذلك بقوله: (وعن سبيل القصد من قاس انتبذ)،

أي: من قاس على إياي وإياه وما أشبههما فقد حاد عن طريق الصواب». وقوله: (أفتاركهم أنا): أصل الكلمة (فأتاركهم أنا)، وقد سبق الحديث عن تقديم همزة الاستفهام على حرف العطف في النَّص رقم اثنين وسبعين ومئتين، فارجع إليه غير مأمور.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بنداء مولاه (**هُنَيٍّ**) قائلا: (**يا هُنَيُّ**)؛ حيث حرف النداء (**يا**) المنتهي بحرف جوفي يعين على مد الصوت وإطالته؛ ليبلغ المنادِي حاجته من النداء، ويلقي في هذا الصوت طبعه في حال النداء؛ إن غضبا فغضب، أو تحذيرا، أو استنجادا، أو ترهيبا، فذلك كذلك، فيعلم المنادَى قبل أن يحدثه المنادِي ما هي حاله. ويفيد النداء بأنه يشد ذهن السامع ويوقظ قلبه وسمعه، فإن زاد على ذلك بذكر اسمه، علم أنه يخصه بالحديث ويكون وقع الحديث في نفسه أقوى رضا أو غضبا، أو غير ذلك، لاسيَّما إذا كان النداء ممن هو ليس قرينا للمنادَى، فنداء الصغير للكبير كنداء العبد ربه فيه خشوع وخضوع، ونداء الكبير للصغير فيه أمر وموعظة وطلب، ونداء الأم لولدها فيه حنان ورحمة، وكل حسب حاله؛ إما من حيث المكانة أو من حيث الطبع، كل ذلك يبينه ويجليه حرف النداء والاسم المنادَى. وفي نصنا نداء من أمير للمؤمنين، شديد الطبع، صاحب الدِّرَّة، مع رقة وتواضع وزهد - لاسيما في نصنا هذا -. هذا من حيث الدنيا، ومن حيث الدين: فخير الناس بعد صاحبيه الذَين سبقاه، وأحد العشرة، وهو المحدَث الملهم، وكل ذلك وقع على مولى من الموالي، ولكن النَّص يبين لنا أنه كان رفيقا به واعظا معلما، أنزله منه منزلة الولد أو التلميذ أو الصاحب، يقول له: (**اضمم جناحك عن المسلمين**)، ومما لم يختلفوا فيه أن معنى هذه العبارة وأشباهها مما ورد في القرآن: ألن

لهم جانبك، ولكن هل هي على الكناية أم الاستعارة، فمن لم يجز المجاز ومنع منه لم يجعل فيها استعارة، كما سبق في اللطائف، وجعلها كناية كما اتضح من كلام الشيخ الشنقيطي، ومن جعل فيها مجازا أجرى فيها الاستعارة المكنية كما سبق من نقل الرازي عن القفال – في تفسيره مفقود –. فإنْ قيل بالقول الثاني كان فيها استعارة مكنية؛ حيث شبه (**هُنَيًّا**) بطائر يخفض جناحه، فحذف الطائر وهو المشبه به مبقيا شيئا من لوازمه، وهو ضم الجناح حال هبوطه وخضوعه، على طريقة الاستعارة المكنية. وقوله: (**عن المسلمين**): قَيْدٌ؛ حيث غيرُهم لا يدخل في هذا اللين؛ فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين. ولما فرغ من طلب لين الجانب وطلب التواضع، طلب منه أن يجافي الظلم ويحذر دعوة المظلوم، فقال: (**واتق دعوة المظلوم**). ويتضح لنا من بداية النَّص أن نداء عمر رضي الله عنه لمولاه كان نداء رحيم ومعلم يعلم تلميذه، فهو يطالبه بالتواضع ولين الجانب وترك الظلم. وهذا الترتيب جاء بالترقي من المهم إلى الأهم، ومن الداني إلى العالي؛ حيث الظلم واقترافه أسوء من ترك التواضع واللين؛ إذ يشمل الأول الثاني وليس بالضرورة أن يشمل الثاني الأول، أعني: كل ظالم هاجر لِلِّين والتواضع، وليس كل هاجر للين ظالما. ثم راح يبين علة طلبه اتقاء دعوة المظلوم بقوله: (**فإن دعوة المظلوم مستجابة**)، فكرر قوله: (**دعوة المظلوم**) ولم يقل: (فإنها)؛ للأهمية والتنويه على خطرها، فاستجابة الله – تعالى – لدعوة المظلوم علة تجعل المسلم يخشى الظلم ويتقيه، ودلنا على كونها العلة (**الفاء**) التي هي للتعليل. والفرق بين فاء التعليل وفاء السببية: أن الأولى علة لما قبلها، والثانية سبب لما بعدها، فلو قال: (دعوة المظلوم مستجابة فاتقها)، كانت الفاء هنا السببية. ثم راح يبين له كيف يجتنب دعوة المظلوم دون أن يقول له: (هكذا يكون اجتنابها)؛ لدلالة السياق عليه؛ ففي الجملة حذف كالذي ذكرناه يقدره السياق،

وهو معلوم من قوله: (**وأدخل رب الصُّرَيْمَة، ورب الغُنَيْمَة**)، ففي الجملة حذف تقديره: وأدخل الحمى رب الصريمة، وأدخل الحمى رب الغنيمة. وفي جملتي (**رب الصُّرَيْمَة**) و(**رب الغُنَيْمَة**) ترصيع؛ لتناسب الوزن والتقفية. والتصغير في كلمتي (**الصريمة**) و(**الغنيمة**) تصغير يراد منه التقليل. وقدَّم (**الصريمة**) لأن الإبل أنفس من الغنم. ولم يقل: (رب الصريمة والغنيمة)، خشية أن يفهم من ذلك أنَّ ربهما واحد، فيكون المعنى: (أدخل الرجل الذي يملك الصريمة والغنيمة معا)، ولكنه كرر كلمة (**رب**)؛ ليدل على التغاير بينهما، وقد دلت عليه (الواو) التي تفيد ذلك. ومثله يقال في تكراره كلمة (**نَعَم**) في قوله: (**وإياي ونعم ابن عوف ونعم ابن عفان**). وهذا أسلوب تحذير تقدير الكلام فيه: أحذر نفسي، وأحذركم. ولكن كيف يحذر نفسه والكلام متجه لغيره، قيل: هو من المبالغة؛ لأنه لما حذر نفسه كان التحذير لغيره أولى؛ ليكون الوعظ أبلغ. قال الحافظ في الفتح - باختصار -: «قوله (وإياي) فيه تحذير المتكلم نفسه ... وإلا فالمراد في التحقيق إنما هو تحذير المخاطب، وكأنه بتحذير نفسه حذره بطريق الأولى، فيكون أبلغ، ونحوه نهي المرء نفسه، ومراده نهي من يخاطبه»، والمعنى: (لا تدخل نَعَم ابن عوف وابن عفان). والنهي ليس على الإطلاق - كما ذكر في الفتح -، ولكن إن ضاق المرعى فصاحب الغنيمة والصريمة أولى. وقوله: (**ابن عوف**) يعني عبد الرحمن رضي الله عنه، لم يسمه لشهرته، فراعى الإيجاز، ولمحبة العرب النسب إلى آبائهم وكبرائهم وعشائرهم، ومثل ذلك يقال في قوله: (**ابن عفان**). والترتيب بين (**ابن عوف**) و(**ابن عفان**) قد يكون راعى فيه كثرة المال، لاسيَّما وقد أضيف النَّعَم إليهما، وإذا كان الحديث بشأن النعم والمال، فمال ابن عوف أكثر، وإلا فعثمان أولى بالتقديم؛ لفضله على عبد الرحمن وسنه، ومصاهرته لرسول الله ﷺ. وقد يقال إن الصفات التي ذكرتُها هي التي منعته من

تقديمه على عبد الرحمن؛ لأنه في سياق منع، فتقديم عبد الرحمن في المنع أولى من عثمان؛ لغلبة عثمان في الصفات عليه. ثم علل منعهما عن غيرهما بقوله: (**فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعا إلى نخل وزرع**)، وتوكيده الجملة بـ (**إنَّ**) الثقيلة دليل على كثرة مالهما وشهرته. وتقديمه النخل على الزرع؛ لفضيلة النخل على الزرع، وهذا لا يخفى. وفيه دليل على تنوع المال والثراء عندهما رضي الله عنهما من ماشية ونخل وزرع، فهما أصبرُ على الفقد من غيرهما. ثمَّ استطرد في إتمام بيان العلَّة ذاكرًا حال ربِّ الصريمة والغنيمة، فقال: (**رب الصريمة ورب الغنيمة إن تهلك ماشيتهما يأتيني ببنيه فيقول يا أمير المؤمنين**). والإتيان بالبنين ليدل على حاجته، وصدق حاله، فيستجلب رأفة الأمير. وقوله: (**يا أمير المؤمنين**): فيها إيجاز بالحذف قدَّره الحافظ في الفتح بقوله: يا أمير المؤمنين أنا فقير، يا أمير المؤمنين أنا أحق، ونحو ذلك. ثم لما عرض حاجتهم وما سيكون منهم سأل مولاه قائلا: (**أفتاركهم**)، وأصل الجملة (فأتاركهم)، وتقدَّمَتِ الهمزة لأصالتها، و(الفاء) للعطف. والاستفهام - هنا - ليس على الحقيقة، فهو لا يريد طلب علم من مولاه عن نفسه، إذ هو أعلم بنفسه من المسئول، ولكنه لينكر أنه يتركهم، فالاستفهام للإنكار، فهو يريد أن يقول: لست تاركهم. ولم يقل هذا الكلام مباشرة لما في أسلوب الاستفهام من تأكيد المعنى، وما يجلبه على الجملة من التوكيد على عدم الترك. وجملة (**لا أبا لك**) جملة مجازية لا يراد منها حقيقتها، فهو لا يدعو على أبيه بالموت كما يدل ظاهر اللفظ. وقوله: (**فالماء والكلأ أيسر عليَّ من الذهب والورق**): لعل (**الفاء**) تشير إلى محذوف قد يقدر بقولك: لا تمنعهم عن الحمى؛ فالماء والكلأ أيسر ... وهذا سبب آخر لسماح عمر رضي الله عنه لهم بالرعي في الحمى غير الذي ذكره سابقا، ذلك أنهم إن لم يجدوا مرعى سيطلبون منه المال من الذهب والورق، فالماء والكلأ أيسر منهما. وترتيبه للماء قبل الكلأ، والذهب

قبل الورق ترتيب صحيح، فالماء أهم من الكلأ فالناس إليه أحوج، وهو سبب في نبات الكلأ، والذهب أنفس من الورق، فتدلى بهما من الأعلى إلى الأدنى. ثم أنشأ جملة تزدحم بالمؤكدات يقول: (**وايم الله، إنهم ليرون أني قد ظلمتهم**) فالقسم، و(**إنَّ**) و(**اللام**) مؤكِّدات لجملة (**يرون ...**)، والقسم نفسه و(**إنَّ**) و(**قد**) مؤكدات لجملة (**ظلمتهم**)، وهذا من خبرته بالناس أنه لا يرضيهم شيء. وقريب من ذلك ما سبق أن أحدهم يأتي ببنيه، ويقول: يا أمير المؤمنين. وفي رواية أنه قال: (**يُرون**)، أي أن أصحاب الدسائس هم من يسولون لهم ذلك. والفعل (**يرون**) هنا بمعنى يعتقدون. ثم بين علة قولهم هذا، فقال: (**إنها لبلادهم فقاتلوا عليها في الجاهلية**). وهذه الجملة الثالثة التي يعلل فيها عمر رَضِيَ الله عَنْهُ كلامه، وقد سبق جملتان هما: (**فإن دعوة المظلوم مستجابة**) وجملة (**فإنها إن تهلك ماشيتهما ...**)، وكلُّها عللها مبتدئا بـ (**إن**)، وهنا يؤكد أن البلاد لهم بـ (**إنَّ**) و(**اللام**)، فكأنه يلتمس لهم شيئا من العذر لما رأوا أنه ظلمهم. وقوله: (**فقاتلوا عليها في الجاهلية**): لو قال: (قاتلوا عليها) من دون (**الفاء**) لما كان في الجملة حذف، أما (**الفاء**) فلا يؤتى بها إلا لحاجة، وهي هنا الدلالة على المحذوف؛ فهي الفاء الفصيحة، وتقدير الحذف: قاتلهم الناس فقاتلوا عليها. وفي قوله: (**في الجاهلية**) وقوله (**في الإسلام**) طباق. ثم لما بسط حجتهم لما رأوا أنه ظلمهم راح يبسط حجته بأنه غير ظالم لهم، مقسما على ذلك بالذي نفسه بيده، فيقول: (**والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبرا**). و(**لولا**) هي التي تفيد الامتناع للوجود؛ فقد وجد المال الذي يحملهم عليه في سبيل الله فامتنع قوله: (**ما حميت عليهم**). وكلمة (**المال**) هنا خاصة بما يركب من الدواب التي تستعمل في الجهاد، وفي الجملة حذف تقديره: لولا المال الذي أحمل عليه المجاهدين. وقوله: (**في سبيل الله**) كناية عن الجهاد.

وقوله: (**شبرا**) نكرة في سياق النفي فأفادت العموم، أي: ما حميت عليهم أي شبر من الأرض قلَّ أو زاد. وفي قوله: (**أحمل**) و(**حميت**) جناس ناقص.

[٣٤٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُنَافِقُ الْعَلِيمُ». قَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ مُنَافِقًا عَلِيمًا؟ قَالَ: «عَالِمُ اللِّسَانِ، جَاهِلُ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الحال أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال هذا النَّص على منبر رسول الله ﷺ وبخطبة من خطبه، أما كونه على المنبر فقد دلت عليه رواية المروزي - في تعظيم قدر الصلاة -، وفيها أنه كان يكرر ذلك كثيرا: «قال أبو عثمان النهدي: سمعت عمر بن الخطاب، وهو على منبر رسول الله ﷺ يقول أكثر من عدد أصابعي هذه ...»، وكونها خطبة من خطبه كما ورد في رواية الفريابي - في صفة النفاق وذم المنافقين -: «عن أبي عثمان النهدي، قال: كنت عند عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فسمعته يقول في خطبته: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ...».

لطائف لغوية: **(ما أخاف)** من قوله: **(أخوف ما أخاف)** مصدر مؤول، وقد سبق الكلام عن الفرق بينه وبين الصريح، وميزته على الصريح = في النَّص رقم أربعة وتسعين ومئة، فليراجعه المستزيد.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطابه بقوله: **(إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة)**، وسبق لنا - في النَّص رقم تسعة وخمسين ومئتين - أن تحدثنا عن هذه

١- رواهُ المروزيُّ في «تعظيم قدرِ الصَّلاةِ» (٦٨٥)، والفريابيُّ في «صفةِ النِّفاقِ وذمِّ المنافقينَ» (٢٦)، والضِّياءُ المقدسيُّ في «الأحاديثِ المختارةِ» (٢٣٦)، وابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٦٦٠.

العبارة. وقوله: (**المنافق العليم**): فسَّر عمر رضي الله عنه كيف يجتمع النفاق وسعة العلم، وذلك بعد سؤالهم له: (**كيف يكون منافقا عليما؟**)، فأجابهم بقوله: (**عالم اللسان، جاهل القلب والعقل**)، فالمنافق العليم هو: من أعطاه الله لسانا عالما، أي: حجة وبيانا وفصاحة، ولم يعطه الفهم والعقل. وقوله: (**عالم اللسان**)، بمعنى: لسانه عالم. وكذلك قوله: (**جاهل القلب والعقل**) بمعنى: قلبه وعقله جاهلان. وفي كلمتي (**عالم**) و(**جاهل**) طباق، واعتدال في الوزن. ولم يكن ذلك الاعتدال في قوله: (**المنافق العليم**)؛ لتحوله من صيغة اسم الفاعل إلى الصفة المشبهة، ولم يعطف الصفات على بعضها بالواو كما مر بنا قبل نصوص، وهذا يدل على جواز العطف وتركه على الإطلاق؛ حيث قيل: يترك العطف في الوصف ما لم يتباين الوصفان، وهنا قد تباينا؛ فالجهل والعلم متباينان، فيبقى جواز ذلك على الإطلاق.

[٣٤٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«التَّوْبَةُ النَّصوحُ: أَنْ يَجْتَنِبَ الرَّجُلُ الْعَمَلَ السُّوءَ كَانَ يَعْمَلُهُ، يَتُوبُ إِلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْهُ، ثُمَّ لَا يَعُودُ فِيهِ أَبَدًا»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**التوبة النَّصوح**): هي التوبة الصادقة، وكلمة (**نَصوح**) صيغة مبالغة، وهي من (**نصحَ الثوبَ**) بمعنى: خاطه؛ وكأنَّ التائب يرقع ما خرقه بالمعصية. وقيل: من قولهم: (عسلٌ ناصحٌ)، أي: خالص.

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال التي قال فيها عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله: (... **السوء كانَ يعملُه**): وصفٌ للعمل من حيث المعنى، فتحتمل أن تكون نعتًا له؛ لأنَّ (**أل**) الداخلة عليه جنسيَّة فلا تعرَّف، والجملة بعد النكرة نعت لها، وتحتمل أن تكون حالًا له، لأنَّه نكرة مخصَّصة بالوصف، والأوَّل أظهر. وقوله: (**لا يعود فيه أبدا**)، ما الفرق بين (أبدا) و(قط)؟ قال أبو سهل الهروي في إسفار الفصيح: «ومعنى (**أبدا**): هو الزمان والدهر المستقبل الذي يأتي، وهو نقيض (قط)، وهو الزمان والدهر الماضي ... تقول: لن أفعله أبدا، أي: فيما استقبل من الزمان في عمري، ولم أفعله قط، أي: فيما مضي من الزمان». وقوله: (**التوبة النَّصوح**): لم يؤنث النَّصوح، وهنا نسأل متى يذكَّر المؤنث؟ ذكر العلماء حالات كثيرة نذكر منها ما كان على وزن (فعول) بمعنى فاعل، أو (فعيل)

١- رواهُ الطَّحاويُّ في «شرحِ مُشكِلِ الآثارِ» (١٤٦٣).

بمعنى مفعول، قال الغلاييني موضحا ذلك جامع الدروس العربية: «(فعول) بمعنى فاعل؛ كصبور وغيور، أو (فعيل) بمعنى مفعول؛ كقتيل وجريح ... وإن كان (فعول) بمعنى (مفعول) تلحقه التاء كأكولة بمعنى مأكولة، وركوبة بمعنى مركوبة، وحلوبة بمعنى محلوبة. ويقال أيضا: أكول وركوب وحلوب. وإن كان (فعيل) بمعنى (فاعل) لحقته التاء ككريمة وظريفة ورحيمة. وقد يجرد منها كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وإن كان بمعنى (مفعول)؛ فإن أريد به معنى الوصفية، وعلم الموصوف، لم تلحقه في الأكثر الأغلب كامرأة جريح، وقد تلحقه على قلة؛ كخصلة حميدة وفعلة ذميمة، وإن استعمل استعمال الأسماء لا الصفات لحقته التاء كذبيحة وأكيلة ونطيحة. وكذا إن لم يعلم الموصوف أمذكَّر هو أم مؤنَّث؟ مثل: (رأيت جريحة). أما إذا علم فلا، نحو: (رأيت امرأة جريحا) أو (رأيت جريحا ملقاة في الطريق)، ونحو: (كوني صبورا على المصائب، حمولا للنوائب)».

البيان والبلاغة: يقدم لنا عمر رضي الله عنه في هذا النَّص تعبيرا جميلا للتوبة النَّصوح، فيقول: **(التوبة النَّصوح أن يجتنب الرجل العمل السوء كان يعمله)** ولم يقل: (التوبة النَّصوحة) وقد علمنا أن الصفة تتبع الموصوف في التذكير والتأنيث، غير أن العلماء استثنوا من ذلك ما كان على وزن (فعول) أو (فعيل)، على ما سبق بيانه في اللطائف. ومن ذلك قول امرئ القيس:

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

و(أل) التعريف هنا للاستغراق تعم كل توبة، لكن الصفة التي بعدها **(النَّصوح)** خصصت ذلك العموم. وفي الجملة حذف تقديره: التوبة النَّصوح؛ هي أن يجتنب

... وجاءت جملة (**أن يجتنب**) مصدرا مؤولا فائدته بيان الزمن، فلم يقل: (التوبة النَّصوح اجتناب ...)، والزمن هنا هو المضارع الذي يدل على التجدد والحدوث والاستمرار، وعليه يكون الاجتناب دائما ومستمرا. وقوله: (**يجتنب**)، ولم يقل: (يترك) أو (يقلع) عن العمل السوء؛ لأن في الاجتناب زيادة معنى، حيث تعني ترك العمل السوء والبعد عنه، وعدم مخالطته؛ بحيث يكون الرجل في جانب والعمل السوء في جانب آخر. وقوله: (**كان يعمله**): هذا القيد يدل على أن من اجتنب العمل السوء ولم يكن يعمله لا يقال هو تاب عنه؛ لأنه لم يعمله أصلا. وقوله: (**يتوب إلى الله – عز وحل – منه**): قيد لابد منه؛ لكي تكون التوبة نصوحا، فربَّ رجل اجتنب العمل السوء لا توبة إلى الله، بل لعجز أو خوف أو غير ذلك، ولا يكون اجتناب المعاصي توبةً إلا إذا كان لله – تعالى –. وعبَّر بالفعل المضارع (**يتوب**) للدلالة على الاستمرار وضرورة تجديد التوبة. ولهذا الفعل متعلّقان: الأوَّل: (**إلى الله**) والثاني: (**منه**)، وتقديم المتعلّق الأوَّل على الثاني فيه إشارة إلى مسألة مهمَّة في التَّوبة، وهي الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، أي: أن تكون التوبة خالصة لله بغضِّ النظر عن نوع الذنب الذي وقع فيه العبد. أما كونها نصوحا فيأتي من قوله: (**ثم لا يعود فيه أبدا**). وقوله: (**أبدا**) للزمن المستقبل، أي: لا يعود فيه مدى الزمن الآتي كله. وقوله: (**يعود فيه**): (**في**) للظرفية، أي: لا يتلبس به، فجعل المعصية ظرفا والعاصي داخل فيه.

[٣٤٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَحَدَ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ قَدْ تَبَيَّنَ إِيمَانُهُ، وَرَجُلٌ كَافِرٌ قَدْ تَبَيَّنَ كُفْرُهُ. وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مُنَافِقًا يَتَعَوَّذُ بِالْإِيمَانِ، وَيَعْمَلُ غَيْرَهُ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يتعوذ بالإيمان**): قال الأزهري في تهذيب اللغة: «عَوَذَ: يقال: عاذ فلان بربه، يعوذ عوذا، إذا لجأ إليه واعتصم به. قال الله - جل وعز -: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]، معناه: إذا أردت قراءة القرآن، فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ووسوسته. وعاذ وتعوَّذ واستعاذ بمعنى واحد».

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه هذا النَّص.

البيان والبلاغة: في هذا النَّص يبين لنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من يخافه من الرجال على أمته ومن لا يخافه، فيقول: (**ما أخاف عليكم أحد رجلين**). وجاء النفي بحرف النفي (**ما**) وهو نفي للحال، أي: في الحال التي أنتم عليها الآن، ولو قال: (**لا أخاف**) فهو نفي للحال والاستقبال. وتخوفه على أمته أو عدم تخوفه عليهم دليل على اعتنائه بهم. وهذا الأسلوب الذي جاء به النَّص يسمى التوشيع؛ ومثاله أن تقول: مررت برجلين؛ أحدهما معلم، والثاني طالب. وفائدة التوشيع أنه يجعل السامع ينتظر بشوق تتمة الحديث؛ حيث إخبارك له بأنك مررت برجلين يشغل باله؛

١- رواهُ الفريابيُّ في «صفةِ النِّفاقِ وذمِّ المنافقينَ» (٢٨)، وعنهُ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٦٦١.

ليعلم من هم الرجلان، فيُحدِث عنده اهتماما يقود إلى التشويق، فلو قال: مررت بمعلم فالسامع لا ينتظر منه أنه مر بطالب أو بأحد آخر؛ لأنه لم يقدم لذلك، كما أن التوشيع ينظم حديث المتكلم وينظم اهتمام السامع. وقوله: **(رجلين)**: يدخل فيه النساء تبعا؛ حيث هن كما قال ﷺ: «**النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**»، فذكر الرجال ليس تخصيصا لهم، لكن هو على التغليب. ولما شوقنا لمعرفة هذين الرجلين بهذه المقدمة لاسيَّما أنه يتحدث عن الخوف والأمن راح يبين لنا حالهما فقال: **(رجل مؤمن قد تبين إيمانه)**، وهذا هو الرجل الأول؛ المؤمن الذي تحقق إيمانه، دلنا على هذا التحقق **(قد)** التي تفيد للتحقيق والتوكيد. وقوله: **(قد تبين إيمانه)**، أي: ظهر ظهورا لا يحتمل خلاف الإيمان. أما الرجل الثاني فهو **(رجل كافر قد تبين كفره)**. ويقال في تحقق كفره بـ **(قد)** ما قيل فيما سبق. وفي الجملتين ترصيع؛ لاتحاد الوزن والقافية، ومقابلة؛ حيث الكلمات **(مؤمن)** و**(إيمانه)** ضد الكلمات **(كافر)** و**(كفر)** وبالترتيب. ثم استدرك عمر رضي الله عنه ليقطع أمنه وعدم خوفه بخوف وعدم أمن، وجاء هذا الاستدراك بأداة الاستدراك **(لكن)**؛ حيث يقول: **(ولكن أخاف عليكم منافقا يتعوذ بالإيمان ويعمل غيره)**. وما زال عمر رضي الله عنه يؤكد لنا خوفه على الناس، وهذا من اهتمامه بشؤون الرعية. وفي الجملة حذف يمكن تقديره بقولنا: يتعوذ بالإيمان في العلن، ويعمل غيره في السر. وقوله: **(منافقا)** نكرة خصصها ما بعدها، وهو قوله: **(يتعوذ بالإيمان)**، وهذه الجملة صفة لهذا المنافق؛ كونها وقعت بعد نكرة. و(الباء) في قوله: **(بالإيمان)** بمعنى الاستعانة، أي: يستعين بالإيمان على إخفاء كفره، وهذا هو معنى النفاق، فهو بهذه العبارة عرَّف لنا معنى النفاق. وقوله: **(ويعمل غيره)** فيها إيجاز بالحذف دل عليه ما سبقه من كلام.

[٣٤٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّ رَجُلًا بِالْبَصْرَةِ ارْتَدَّ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ

«أَفَلَا حَبَسْتُمُوهُ ثَلَاثًا، وَأَطْعَمْتُمُوهُ كُلَّ يَوْمٍ رَغِيفًا، وَاسْتَتَبْتُمُوهُ؛ لَعَلَّهُ يَتُوبُ وَيُرَاجِعُ أَمْرَ اللهِ؟! اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ أَحْضُرْ، وَلَمْ آمُرْ، وَلَمْ أَرْضَ إِذْ بَلَغَنِي»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: أن رجل من قِبَل أبي موسى الأشعري قدم على عمر بن الخطاب - كما ورد في بعض الروايات -، فسأله عمر عن الناس، فأخبره. ثم قال له عمر: هل كان فيكم من مغربة خبر؟ فقال: نعم، رجل كفر بعد إسلامه، قال: فما فعلتم به؟ قال: قرَّبناه فضربنا عنقه، فقال عمر هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله: **(ضُرِبَتْ عُنُقُه)** أنَّثَ العُنُق، فما القول في تأنيثها؟ قال أبو الحسين الكاتب في المذكر والمؤنث: «ويجوز التذكير والتأنيث في اللسان والقفا والعنق». وقد ميَّز بعضهم بين كون النون ساكنة أو متحركة، كما قال ابن الأنباري في البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث: «وكذلك **(العنق)** يذكر ويؤنث. وقيل: إن ضُمَّت النون كان مؤنثا وإن سكنت كان مذكرا. وقال الأصمعي: لا أعرف فيه التأنيث». وقوله: **(أفلا حبستموه)**: سبق في النَّص واحد وأربعين وثلاثمائة بيان

١- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإِ» (٢٧٢٨)، والشَّافعيُّ في «المُسنَدِ» (١٦٠٨)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٨٦٩٥)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٥٢١)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٦٨٨٧)، و«معرفةِ السُّنَنِ والآثارِ» (١٦٦٢٠).

نوع الفاء، وأن الأصل تقدمها على الاستفهام. وقوله: (**حبستموه ثلاثا**): حذف الهاء من قوله: (**ثلاث**)، والأصل في العدد مخالفة المعدود، قال النووي في شرحه على مسلم: «وقوله ﷺ: (**ستا من شوال**) صحيح، ولو قال (ستة) بالهاء جاز أيضا. قال أهل اللغة: يقال صمنا خمسا وستا، وخمسة وستة، وإنما يلتزمون الهاء في المذكر إذا ذكروه بلفظه صريحا فيقولون صمنا ستة أيام، ولا يجوز ست أيام، فإذا حذفوا الأيام جاز الوجهان. ومما جاء حذف الهاء فيه من المذكر إذا لم يذكر بلفظه قوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، أي: عشرة أيام».

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه حاذفا بعض الكلام وموجزا، ولعل فجيعة الخبر الذي سمعه وبرأ منه جعله يختصر بعض الكلام ليصل إلى ما يريد فيقول: (**أفلا حبستموه ثلاثا؟!**) دلَّنا على هذا الحذف سياق الكلام، و(**الفاء**) الفصيحة؛ حيث أصل الجملة (فألا)، وتقدير هذا الحذف: إذا ارتد أفلا حبستموه؟! والاستفهام هنا ليس على حقيقته؛ فعمر رضي الله عنه لا يسأل ليعلم، وفي هذا الاستفهام ما فيه من التعجب والإنكار والإرشاد والتوجيه وتعظيم ما فعلوا، كما لا يخفى. وجملة (**حبستموه**) جملة كاملة فيها فعل وفاعل ومفعول وحرف زائد، وهو (الواو) الذي جيء به للإشباع وليسهل النطق بالعبارة لما عسرت بتوالي الحركات. ومثله يقال في قوله: (**أطعمتموه**)، وقوله: (**استتبتموه**). وقوله: (**ثلاثا**) فيه إيجاز بالحذف، وهنا نسأل هل المحذوف تقديره: ليال، أم أيام؟ إذ لا يمكن الاعتماد قي معرفة المعدود المحذوف على تذكير العدد؛ لأنَّ كون المعدود غير مذكور يجوز تذكير العدد وتأنيثه حتى ولو كان المعدود مذكرا، كما سبق بيانه. وجملة (**وأطعمتموه كل يوم رغيفا**) معطوفة على التي قبلها، والوصل بينهما يقتضيه سياق الكلام من أجل تمام المعنى،

وكون هذه الأعمال بعضها يرتبط ببعض، ومثله يقال في الجملة التي تليها، وهي (**استتبتموه**). وقوله: (**كل يوم**) يعم الأيام كلها؛ حيث (**كل**) من ألفاظ العموم بل هو أقواها. وقوله: (**استتبتموه**)، أي: طلبتم منه أن يتوب إلى الله – تعالى –. ونرى أن جملة (**أطعمتموه كل يوم رغيفا**) توسطت جملتين تدلان على أمرين عظيمين في التعامل مع المرتد وهما: الحبس والاستتابة، وأما إطعامه الرغيف والرفق به فهذا خارج عن أصل المسألة. وجاء رفق عمر رضي الله عنه به ولين جانبه رجاء أن يتوب هذا السجين إلى ربه ويعود إلى دينه، ودلنا على رجائه هذا (**لعل**) التي تفيد الترجي. وجملة (**يراجع أمر الله**) من عطف الخاص على العام؛ فالتوبة إلى الله والدخول في دينه أعم من مراجعة أمور الله وأمور الإسلام من صلاة وصيام وغير ذلك، إلا أن يكون عنى بقوله: (**يراجع أمر الله**): أن يعود إلى الإسلام بعد ردَّته. وفي الجملة إيجاز بالحذف تقديره: يتوب إلى الله ويراجع أمر الله. ويستأنف عمر رضي الله عنه جملة جديدة يبدأها بالدعاء مناديا ربه بقوله: (**اللهم**)، وقد رجا عمر رضي الله عنه إلى ربه لما رأى ما وقع فيه الناس من الخطأ، فخشي أن يدركه شيء من ذلك كونه راع ومسئول عن رعيته، وخشي أن يصيبه من ظلم هذا الرجل شيء = فراح يبرئ نفسه أمام ربه فناداه وناجاه قائلا: (**اللهم**)، وهي بمعنى (يا الله)، وقد سبق الحديث عنها كثيرا. واكتفى بعرض حاله على ربه دون أن يطلب منه شيئا؛ لعلم الله بما يريده من طلب براءته، وقد أكد على الحال التي هو فيها بـ(**إنَّ**)، وجاء هذا التأكيد لضرورة الموقف. وترتيبه لقوله: (**اللهم إني لم أحضر، ولم آمر، ولم أرض إذ بلغني**) ترتيب صحيح؛ حيث تدلى به من العالي إلى الداني، فأشد الأمر أن يكون حضر ظلم الرجل، ولو حضر لكان أَمَرَ؛ كونه الأمير، ولو أمر لكان رضي؛ لأنه لا يجبر على فعل شيء لا يريده؛ وذلك كونه أميرا أيضا، وهذه المراتب الثلاث هي مراتب النهي عن المنكر

الواردة في قوله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»؛ قوله: (**لم أحضر**) عذر عن التغيير باليد، وقوله: (**لم آمر**) عذر عن التغيير باللسان، وقوله: (**لم أرضَ**) يقابل قوله: (**فبقلبه**).

[٣٤٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا لِمَوَدَّةٍ أَوْ لِقَرَابَةٍ، لَا يَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا لِذَلِكَ؛ فَقَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يظهر من سياق الكلام أنَّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وجَّه هذا الكلام لعُمَّاله تحذيرًا لهم من استعمال غير الأكْفاء، وهذا معروف في سيرته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لطائف لغوية: كلمتا (**مودَّة**) و(**قرابة**) يحتملان أن يكونا مصدرين، إلا أنَّهما في هذا السياق اسمان محضان؛ لذا دخلت لام التعليل على (**مودَّة**)، ولو كانتا مصدرين لجاز انتصابهما على المفعول لأجله، إذ هما في المعنى علَّة للفعل (**استعمل**)، واللام الداخلة على (**قرابة**) يجوز حذفها؛ للاستغناء عنها بالعطف على اللام الأولى، وثبوتها للتوكيد. وهذه (اللام) قد سبق الحديث عنها في النَّص رقم ستين ومئة. وقوله: (**قد خان**) سبق الحديث عن معنى (**قد**) مع االفعل المضارع والماضي في النَّص رقم خمسة وثمانين ومئة.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خطابه بجملة شرطية يلزم من وجود آخرها وجود أولها، وذلك قوله: (**من استعمل رجلا لمودة أو لقرابة، لا يستعمله إلا لذلك، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين**)؛ حيث يلزم من استعمال الولاة لعمالهم لكونهم من أقربائهم وأهل مودتهم = خيانةٌ لله ورسوله والمؤمنين. وكلمة (**رجلا**)

١- رواهُ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٥٣٦ - ٥٣٧.

نكرة خصصها قوله: (**لمودة أو لقرابة**)، ليكون المعنى: رجلا ذا ود، أو رجلا قريبا. وقوله: (**استعمل**)، أي: اتخذه عاملا. و(**اللام**) في قوله (**لمودة**) هي التي بمعنى (لام كي) في الأفعال، والتي تعني (لأجْل)، ومثله يقال في قوله: (**لقرابة**). وجاءت الكلمتان (**مودة**) و(**قرابة**) نكرتين فأفادتا العموم؛ فلم يبين لنا أي نوع من المودة أو القرابة. والجملة التي بعدها (**لا يستعمله إلا لذلك**) جاءت لتؤكد المعنى السابق وتحصره؛ حيث الاستثناء بـ (**إلا**) بعد النفي بـ (**لا**) يفيد الحصر؛ حيث حصر الاستعمال بالمودة والقرابة، وجاءت بين فعل الشَّرط وجوابه؛ للاحتراس؛ فقد يكون ذو المودَّة أو القرابة كفئًا فلا يدخل في التحذير، وإنَّما المنع من استعمال ذي المودَّة أو القرابة لمجرَّد مودَّته أو قرابته. و(**اللام**) التي في قوله: (**لذلك**) مثل (اللام) التي في قوله: (**لمودة**) و(**لقرابة**)، وقد سبق القول فيها قبل قليل. ثم جاءت جملة جواب الشرط مقرونة بـ (**الفاء**) لوقوع (**قد**) في أول جواب الشرط، و(**قد**) تفيد التحقيق والتوكيد؛ لتؤكد جملة (**خان الله ورسوله والمؤمنين**). والترتيب في الجملة صحيح، تدلى به من الأعلى إلى الذي هو أدنى؛ فـ (**الله**) أعلى من (**رسوله**)، الذي هو أعلى من (**المؤمنين**).

[٣٤٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

إِذَا بَعَثَ الجُيُوشَ، وَعَقَدَ لَهُمُ الْأَلْوِيَةَ أَنْ يُوصِيَهُمْ بِتَقْوَى اللهِ الْعَظِيمِ، وَيَقُولَ:

«بِاسْمِ اللهِ، وَعَلَى عَوْنِ اللهِ، وَامْضُوا بِتَأْيِيدِ اللهِ، بِالنَّصرِ، وَبِلُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ، فَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، وَلَا تَعْتَدُوا؛ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. لَا تَجْبُنُوا عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلَا تُمَثِّلُوا عِنْدَ الْقُدْرَةِ، وَلَا تُسْرِفُوا عِنْدَ الظُّهُورِ، وَلَا تَقْتُلُوا هَرِمًا، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا وَلِيدًا، وَتَوَقَّوا قَتْلَهُمْ إِذَا الْتَقَى الزَّحْفَانِ، وَعِنْدَ حُمَّةِ النَّهَضَاتِ[١]، وَفِي شَنِّ الْغَارَاتِ. وَلَا تَغُلُّوا[٢] عِنْدَ الْغَنَائِمِ، وَنَزِّهُوا الْجِهَادَ عَنْ عَرَضِ الدُّنْيَا، وَأَبْشِرُوا بِالرَّبَاحِ فِي الْبَيْعِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(التقى الزحفان)**: يعني الجيشان، واحده زحف وهو الجيش. قال الزمخشري في أساس البلاغة: «وزحَفَ العسكر إلى العدو: مشوا إليهم في ثقل لكثرتهم، ولقوهم زحفاً». وقوله: **(النهضات)**: جمع نهضة. قال في اللسان: «وتناهض القوم في الحرب، إذا نهض كل فريق إلى صاحبه». وأما **(حمة النهضات)**: فقد قال الخطابي في غريب الحديث: «وحمة النهضات: شدتها ومعظمها، وحمة كل

١- حُمَّةُ النَّهَضَاتِ: أي شِدَّتها ومُعظَمها. وحُمَّةُ كلِّ شيءٍ: مُعظَمُه. «لسان العرب» ١٢/ ١٥٣.
٢- الغُلُولُ: الخيانةُ في المغنمِ، والسَّرَقُ مِن الغنيمةِ. «لسان العرب» ١١/ ٥٠٠.
٣- رواهُ ابنُ قتيبةَ في «عيونِ الأخبارِ» ١/ ١٨٥-١٨٦ [طبعة أخرى ١/ ١٠٧-١٠٨].

شيء: معظمه، يقال: حمة الحر، ويقال: حم له قضاء الله، بمعنى: قدر له، وحم الأمر: قدره، قال الشاعر:

وصاحب ليل كنت حم مبيته وقد حان من نجم العشاء خفوق

وقوله (**شن الغارات**): قال ابن فارس في مقاييس اللغة: «وأما إشنان الغارة: فإنما هو مشتق من الشنين، وهو قطران الماء من الشنة، كأنهم تفرقوا عليهم فأتوهم من كل وجه، ويقال: شننت الماء، إذا صببته متفرقا. وهو خلاف سننت».

وقوله: (**ولا تغلُّوا**): الغلول هو السرقة من الغنائم، قال ابن سلام في غريب الحديث: «وأما الغلول: فإنه من المغنم خاصة»، وقال ابن قتيبة في غريب الحديث: «والغلول في المغنم أصله أن الرجل كان إذا اختار من المغنم شيئا غلَّه، أي: أدخله في أضعاف متاعه وستره؛ فسمي الخائن غالا، يقال: غللت الشيء فانغل؛ أي أدخلته». وقوله: (**رباح**): بمعنى الربح، قال في الصحاح: «ربح في تجارته، أي: استشف. والرِبح والرَبَح مثال: شِبه وشَبَه: اسم ما ربحه. وكذلك الرَباح بالفتح. وتجارة رابحة: يربح فيها. وأربحته على سلعته، أي: أعطيته ربحا. وبعت الشئ مرابحة».

مقتضى الحال: الحال أن هذا النَّص كان يقوله عمر رضي الله عنه كلما سير جيشا؛ يوصيهم بما فيه من الوعظ، وقد ورد في رواية عيون الأخبار لابن قتيبة بيان هذا السبب قال: «عن حيوة بن شريح قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا بعث أمراء الجيوش أوصاهم بتقوى الله العظيم، ثم قال عند عقد الألوية: ...» هذا النص.

لطائف لغوية: كثر في النَّص إيراد حرف (**الباء**)، ولحرف الباء معان كثيرة

ذكرها ابن حيان في تفسيره للآية الأولى في الفاتحة، وهي قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، ننقلها هنا للفائدة، قال في البحر المحيط: «باء الجر تأتي لمعان: للإلصاق، والاستعانة، والقسم، والسبب، والحال، والظرفية، والنقل. فالإلصاق حقيقة: مسحت برأسي، ومجازا: مررت بزيد. والاستعانة: ذبحت بالسكين. والسبب: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾ [النساء: ١٦٠]. والقسم: بالله لقد قام. والحال: جاء زيد بثيابه. والظرفية: زيد بالبصرة. والنقل: قمت بزيد. وتأتي زائدة للتوكيد: شربن بماء البحر. والبدل: فليت لي بهم قوما، أي: بدلهم. والمقابلة: اشتريت الفرس بألف. والمجاوزة: ﴿تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، أي: عن الغمام. والاستعلاء: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ [آل عمران: ٧٥]. وكنَّى بعضهم عن الحال بالمصاحبة، وزاد فيها كونها للتعليل. وكنى عن الاستعانة بالسبب، وعن الحال، بمعنى: مع، بموافقة معنى اللام». ولم يبين ابن حيان نوع الباء في هذه الآية، ولم يختر لنا معنى منها، ولكن الآلوسي اختار في روح المعاني، فقال: «فالباء: إما للاستعانة أو المصاحبة أو الإلصاق أو الاستعلاء أو زائدة أو قَسَمِيَّة، والأربعة الأخيرة ليست بشيء، وإن استؤنس لبعض ببعض الآيات. واختلف في الأرجح من الأَوَّلَين؛ فالذي يشعر به كلام البيضاوي أرجحية الأول، وأُيِّدَ بأنَّ جعْلَه للاستعانة يُشعِر بأنَّ له زيادةَ مدخل في الفعل، حتى كأنه لا يتأتى ولا يوجد بدون اسم الله تعالى، ولا يخلو عن لطف. وما يدل عليه كلام الزمخشري = أرجحيةُ الثاني، وأُيِّدَ بأنَّ باء المصاحبة أكثر في الاستعمال من باء الاستعانة، لاسيَّما في المعاني وما يجري مجراها من الأفعال، وبأن التبرك باسم الله تعالى تأدب معه وتعظيم له بخلاف جعله للآلة؛ فإنها مبتذلة غير مقصودة بذاتها، وأن ابتداء المشركين بأسماء آلهتهم كان على وجه التبرك فينبغي أن يرد عليهم في ذلك، وأن الباء إذا حُمِلَت على

المصاحبة كانت أَدَلَّ على ملابسة جميع أجزاء الفعل لاسم الله تعالى منها إذا جُعِلَت داخلة على الآلة». وقوله رضي الله عنه: **(وذلك هو الفوز العظيم)**: ورد الفوز في القرآن موصوفا بثلاث صفات: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾، و﴿ٱلْكَبِيرُ﴾، و﴿ٱلْمُبِينُ﴾، وهذه الحالات الثلاث قال فيها الدكتور فاضل السامرائي - في برنامج لمسات بيانية، مع تصرف يسير -: «الله يذكر في كتابه العزيز ثلاثة أنواع من الفوز: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، و﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾، و﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أعلاها فضلا: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وأقل منه ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾، وأقل منهما ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾. ولذلك لو لاحظنا الاستعمال في القرآن الكريم لَمَّا ذكر ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ ذكره في موضعين: في صرف العذاب، والإدخال في رحمته - سبحانه وتعالى -، من غير ذكر لدخول الجنة في الحالين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الأنعام: ١٥ - ١٦]، فذكر صرف العذاب ولم يذكر دخول الجنة، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الجاثية: ٣٠]، فذكر الإدخال في الرحمة ولم يذكر الجنة. وأمَّا ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ فورد في موطن واحد في سورة البروج، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]، فذكر دخول الجنة من غير ذكر الخلود أو ألوان وأنواع النعيم فيها. أما الوصف بالعظيم فيزيد على ذلك في الجزاء إما بذكر الخلود أو ذكر المساكن الطيبة وما إلى ذلك، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]».

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﵁ خطابه بقوله (**باسم الله**)، وقد سبق من كلام الآلوسي ما يكفي لبيان الخلاف في معنى (**الباء**) هنا؛ فإذا كانت (**الباء**) للاستعانة فما أشرفه من معنى يبتدئ به أمير المؤمنين، فالاستعانة باسم الله طرحٌ لكل ما سواه - سبحانه وتعالى - وطلب العون منه وحده، وقد يُرَجِّحُ هذا المعنى ما تلاه من قوله: (**وعلى عون الله**)، فتكون هذه الجملة من عطف الشيء على معناه، وقد يقول قائل: إن (**الواو**) تفيد المغايرة، فلابد أن يكون معنى (**الباء**) ليس للاستعانة. وإن قلنا: للمصاحبة، فيكون المعنى كأنه يقول لهم: سيروا، والله صاحبكم في السفر إلى موطن القتال وفي الحرب والنَّصر. وهذا يذكرنا بما نقوله في دعاء السفر: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ**»، فكأن عمر ﵁ يقول: اللهم اصحبهم في غزوهم هذا. ومن كان الله صاحبه فمن خصيمه؟! وعلى المعنيين، ففي هذه الجملة إيجاز بالحذف تقديره: باسم الله سيروا. وحذفه للفعل من باب الاكتفاء باسم الله - تعالى - وطلب الاختصار في اللفظ. ولما سيَّرهم باسم الله سارع لطلب العون منه قائلاً: (**وعلى عون الله**)، وحرف الجر (**على**) حرف يفيد الاستعلاء، فكأن العون من الله بساط والجيوش الفاتحة تسير فوقه مستعينة به. وفي الجملة إيجاز بالحذف يقدر بقولنا: سيروا على عون الله. وبعد أن استعان بالله وأمرهم به، قال لهم: (**وامضوا بتأييد الله**)، فكأنَّ المُضِي سبقه شرطان لا يتم إلا بهما؛ وهما: الاستعانة بسم الله، وطلب العون منه. و(**الباء**) في قوله (**بتأييد**) للاستعانه - أيضا -، أي: فاستعينوا بتأييد الله. وهذا النَّص مليء بالاستعانة بالله إما لفظا صريحا أو معنى يفهم من النَّص. ثم راح يبين هذا التأييد فجعل تأييد الله لهم (**بالنَّصر، وبلزوم الحق، والصبر**). وتقديمه النَّصر على غيره لأنه الطلب الأسمى، لاسيما في هذا الموقف. وفي كلمتي (**النَّصر**) و(**الصبر**) جناس ناقص. وقوله: (**لزوم الحق**) يشمل لزومه مع العدو فلا

يعتدي الجيش على حرمات الله، وهذا من قوله: (**فلا تعتدوا؛ إن الله لا يحب المعتدين**). ولمَّا كان لزوم الحق صعبا لاسيما في الحروب كان أحوج ما يكون إلى الصبر فنبه عليه عمر رضي الله عنه وطلب الاستعانة به بقوله: (**والصبر**)؛ فيكون الترتيب صحيحا تدلَّى به من الأعلى - وهو النَّصر - إلى الأدنى - وهو الصبر -. وهنا يتحوَّل الحديث من نصيحةٍ للجندِ بتصحيح النيات وصدق التوكل والاستعانة بالله - تعالى - قبل المعركة إلى نصيحة للجند عما ينبغي أن يفعلوه خلال المعارك وبعدها، فابتدأ قائلاً: (**فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله**)، وفي هذه الجملة حذف دلت عليه (**الفاء**) الفصيحة، يمكن تقديره بقولنا: فإن سرتم بعون الله وتأييده فقاتلوا. وأول نصيحة وجهها للجيش - وقد بلغوا موطن القتال - أن يقاتلوا في سبيل الله، وقوله: (**في سبيل الله**) إطناب يراد منه الاحتراز؛ خشية أن يكون في سبيل غير الله، ومثله يقال في قوله: (**من كفر بالله**)، فهذان قيدان لمن أراد أن يقاتل؛ حيث لا يكون القتال إلا في سبيل الله ولمن كفر بالله. ومفهوم المخالفة من كلامه: لا تقاتلوا في سبيل الدنيا ولا لعرض من أعراضها ولا تقاتلوا إخوانكم المسلمين. ثم لما بين أسس القتال وأهم ما فيه - وهما ما ذكرنا من كونه في سبيل الله وكونه لمن كفر بالله - راح يبين لنا آداب القتال. وأول أدب يحدثنا عنه في قوله: (**ولا تعتدوا**)؛ وكونهم يقاتلون في سبيل الله فلابد أن يقاتلوا في سبيله كما يحب، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾. وهذه العبارة مقتبسة من القرآن الكريم، فهي جزء من الآية تسعين ومئة من سورة البقرة والآية رقم سبعة وثمانين من سورة المائدة. وفي كلمتي (**تعتدوا**) و(**المعتدين**) ما يسمى باشتقاق اللفظ من اللفظ. والأدب الثاني من آداب القتال جاء في قوله: (**ولا تجبُنوا**)، وهذا الأدب يختلف عن سابقه وعن لاحقه؛ فالسابق واللاحق يتحدثان عن الاعتداء في المعركة، والجبن ليس من

الاعتداء على أحد، بل هو نقص من النقائص؛ حيث يؤدي إلى الفرار وعدم الدخول في العراك، وأما الاعتداء فلا يكون إلا بعد دخول العراك، بل والنَّصر به. ولعلَّه ذكَّر به تحوطاً من وقوعه، وإلا فالذي يظهر من وصاياه أنه قد توقع النَّصر والغلبة، دلَّ على ذلك ما سيأتي من كلامه في الوصية بعدم المبالغة في الأذية، ولا تكون المبالغة إلا من قوي منتصر. والغالب المنتصر في المعارك يكون قويًّا ظاهرًا على عدوِّه؛ فربَّما حصل بذلك التمثيل والإسراف. ثم أوصى بآداب خارجة عن ساحة المعركة، أو هي داخل المعركة مع من لا يقاتل ولا يحمل سيفا، وهم الضعفاء من الناس: الهَرِم الطاعن في السن، والمرأة، والوليد، فقال: (**ولا تقتلوا هَرِما، ولا امرأة، ولا وليدا**)، والجامع بين هؤلاء = ضعفُهم وكونهم لا يحملون السلاح ولا يقاتلون ولا يقوون على ذلك. والترتيب بينهم صحيح؛ حيث بدأ بالهَرِم وهو الأكبر سنا ورأيا، ثم المرأة، ثم الوليد الذي هو أقل قوة ورأيا، فالقتال منه أبعد. وكرر (**لا**) في قوله: (**ولا امرأة ولا وليدا**)، وكان قادرا أن يقول: (لا تقتلوا هرما وامرأة ووليدا)، وهذا التكرار للتأكيد على من تكررت الأداة معه. وكما أن في هذا النَّص تكرارًا، ففيه إيجاز، وذلك كونه لم يقل: (**ولا تقتلوا هرما ولا تقتلوا امرأة ولا تقتلوا وليدا**). والكلمات الثلاث جاءت نكرات في سياق النفي فأفادت العموم؛ حيث لم يستثن النَّص أحدا من هؤلاء، بل لم يستثن حالا من الأحوال يكونون عليه، فذكر كل الحالات التي يمكن أن يلتقي الجيش بها مع هؤلاء القوم، وهي في قوله: (**وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند حمة النهضات، وفي شن الغارات**)، وهذا من معرفته - رضوان الله عليه - للحرب وأحوالها، وحسن أدبه وسياسته التي تعجز الأمم عن بلوغ مثلها. ثم جاء بالدليل على عجز الهرم والمرأة والوليد عن القتال = في قوله: (**اتقوا قتلهم**)، ولم يقل (قتالهم) من الفعل (قاتل) الذي يدل على المفاعلة؛

حيث القتال يكون بين طرفين، والقتل من طرف واحد وهو القاتل، وهذا دليل - أيضا - على عجزهم عن حمل السلاح وخوض المعركة. وقوله: (**اتقوا قتلهم**) معرضا عن قول (لا تقتلوهم)؛ لأنَّ اتقاء القتل فيه معنى النهي وزيادة، وذلك بجعل وقاء بينهم وبين القتل؛ فهم ليس فقط لن يقتلوا، بل وسيجعلون بينهم وبين القتل حاجزا ووقاء. و(**إذا**) - هنا - هي الظرفية، تبين زمان اتقاء ذلك، وهو عند التقاء الجيشين. وتوالي القافات في جملة (**وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان**) أعطت الكلام نغما جميلا. والموقف الثاني، الذي يتقون فيه قتلهم: هو عند (**حمة النهضات**)، أي: عند شدة الحرب وقوتها، والثالث: عند شن الغارات، وهو تفريقها وجعلها في جهات عدة، ولا تكاد الحرب تخرج عن هذه الأحوال الثلاثة، فيكون المعنى: لا تقتلوهم في جميع حالات الحرب، وإن كان للحرب حالات غيرها، فإنما جاء بالثلاثة كمثال على غيرها. وذكرُ هذه الثلاثة دون غيرها فيه تنويه على كثرة استعمالها، وشدتها. وفي النَّص إيجاز؛ حيث لم يقل: (وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وتوقوا قتلهم عند حمة النهضات، وتوقوا قتلهم في شن الغارات). وإن أكثر معاصي الحروب هي الإسراف في القتل والاعتداء على من لا يستحق القتل، هذا عند قيام الحرب، أما عند انقضائها فتكون المعصية بالغلول؛ وهو: السرقة من الغنائم قبل قسمتها؛ فحذَّر من ذلك قائلا: (**ولا تغُلُّوا عند الغنائم**). وقوله (**عند الغنائم**) إطناب؛ حيث الغلول لا يكون إلا في الغنائم - كما سبق من كلام ابن سلَّام -، ولو قال (**لا تغلّوا**) لكفى. والسامع يدرك أن النهي عن الغلول يكون عند الغنائم، لكن عمرَ رضي الله عنه أورد عبارة (**عند الغنائم**)؛ تنويها على العظمة التي من أجلها حُرِّم الغلول فجُعِل من الكبائر؛ وذلك لأن الغنائم من مال عامة الناس لا خاصتهم، ولكون مقام المجاهدِ مقام إخلاص وتضحية بالنفسِ وذَودٍ عن دين الله - تعالى -،

والغلول منافٍ لذلك كلِّهِ، دالٌّ على ضعف ودناءةِ نفسِ الغالِّ، فجاء التعظيم بحرمته مناسبا للحال. وتوالي حرفي (**الغين**) في كلمتين متتاليتين أعطى نغما جميلا.

وقوله: (**ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا**): قوله: (**عرض الدنيا**) يشمل العرض المباح والعرض الحرام؛ فإن كان العرض الحرام فيكون معناه الغلول، وعبَّر عنه بقوله: (**عرض الدنيا**)؛ ليبين أنَّ الغلول نقيصة في الجهاد الذي هو من عمل الآخرة. وإن كان عرضا حلالا = أنقص أجر جهاده من غير حرمةٍ ولا إثم. ومثل هذا المعنى سبق شبيهه في أول النَّص عند قوله: (**وامضوا بتأييد الله، بالنَّصر، وبلزوم الحق**)، ومن لزوم الحق تصحيح النية - كما ذكرنا -، فمن صحح نيته تنزه عن عرض الدنيا فنزه جهاده. ولما فرغ عمر رضي الله عنه من كلامه للجيش؛ حيث بين لهم كيف يكون الجهاد الصحيح من أوله إلى آخره = شرع يبشرهم بقوله: (**وأبشروا بالرباح في البيع الذي بايعتم به**)، ولابد أن هذه البشارة مشروطة بكل ما سبق ذكره من الاستعانة بالله وطلب النَّصر منه والاستعانة بالصبر وعدم الإسراف في المعارك لا بقتل ولا غلول، فمن سلم له ذلك وأدَّاه كما طلبه منه الأمير راح بالرباح. وجملة (**في البيع الذي بايعتم به**): تشبيه تمثيلي؛ حيث شبه الذي يقدم نفسه لله - تعالى - ويأخذ عوض ذلك الجنة، بالرجل يتاجر بالدراهم والعرض من عروض الدنيا، فيربح ويصيب من تلك التجارة ربحا عظيما. وقد سبق لنا الحديث عن التشبيه التمثيلي وما فيه من جمال وروعة؛ حيث يجعلك تشاهد قصة تجري أمامك، لها شخوص وحدث وحبكة وزمان ومكان؛ فالشخوص هم الشهداء يتاجرون مع الله تعالى، والحدث بيع وشراء وصفقات وربح وشهادة وجهاد. وأمَّا والزمان والمكان: فالفصل الأول في الدنيا، والثاني في الآخرة في جنة عرضها السموات والأرض، والحبكة موت البطل في معمعات الوغى، وتنحل الحبكة في نهاية القصة ببشارة

البطل بدخول الجنة، فيفوز فوزا عظيما، وهذا ما ختم به عمر رضي الله عنه خطابه، الربحُ والفوز؛ حيث يقول: (**وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيْمُ**)، وهذا اقتباس من القرآن الكريم؛ فهذه الجملة آية من القرآن، وقد تكررت في أكثر من سورة. وقوله: (**ذلك**): اسم إشارة للبعيد يشير به إلى الرِّبح والفوز العظيم الذي يفوز به المجاهد في سبيل الله – تعالى –، والبُعدُ هنا بعدُ مكانة ومنزلة. ثم وصف الفوز بالعظمة، وسبق في اللطائف أن تكلمنا عن أوصاف الفوز في القرآن الكريم، ودلالات كلٍّ منها.

[٣٤٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - حِينَ طُعِنَ

«كُلُّ أَسِيرٍ كَانَ فِي أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَفَكَاكُهُ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الحال أن عمر رضي الله عنه قال هذا النَّص حين طُعِن في المحراب في صلاة الفجر قبل موته.

لطائف لغوية: قوله: (**كل أسير**): الصحيح أنَّ (**كل**) من ألفاظ العموم، خلافا لمن أنكر ذلك. ونقتطف - هنا - شيئا من كلام الرازي الطويل في هذه المسألة، فقد قال في المحصول: «صيغة الكل والجميع تفيدان الاستغراق، ويدل عليه وجوه: الأول: أنَّ قوله: جاءني كل فقيه في البلد، يناقضه قوله: ما جاءني كل فقيه في البلد؛ ولذلك يستعمل كل واحد منهما في تكذيب الآخر، والتناقض لا يتحقق إلا إذا أفاد الكل الاستغراق؛ لأن النفي عن البعض لا يناقض الثبوت في البعض. الثاني: أن صيغة الكل مقابلة في اللفظ لصيغة البعض، ولولا أن صيغة الكل غير محتملة للبعض، وإلا لما كانت مقابلة لها ...».

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٩٣٧).

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله: (**كل أسير كان في أيدي المشركين من المسلمين**)؛ حيث (**كل**) من ألفاظ العموم، بل هي أقواها؛ لتعم جميع الأسرى، فلم يخص أحدا دون أحد، وهذا من عدله الذي اتصف به - رضوان الله عليه -. والظاهر أنَّ (**كان**) زائدة تفيد التوكيد. وقوله: (**في أيدي المشركين**): (**في**) تفيد الظرفية؛ ذلك أن المشركين محيطون به، وهذا يناسب حال الأسير؛ لضعفه وقلة حيلته وهوانه على من هو في أيديهم. وقوله: (**أيدي**): كناية عن صفة، بمعنى الملك، يعني: بملك وحوزة المشركين. و(**مِن**) في قوله: (**مِن المسلمين**) للبيان، فالذين يفكهم الأمير هم من المسلمين لا من غيرهم، وهذا تخصيص للعموم الذي أفادته (**كل**) كما سبق قبل قليل، فلا يتوهم أحد أنه يفك غير المسلمين. وفي كلمة (**المشركين**) وكلمة (**المسلمين**) طباق. وقوله: (**ففكاكه من بيت مال المسلمين**): في هذه الجملة حذف دلت عليه (**الفاء**) الفصيحة، وهي تعطف على محذوف يمكن تقديره بقولنا: إن سألت عن فكاكه، ففكاكه من بيت مال المسلمين. وكان قادرا أن يقول: (ففكاكه علينا)، أي: على الدولة، ولكنه آثر ذكر بيت مال المسلمين؛ لأن فيه تذكيرا بحقوقهم عليه، وفيه تحفيز لهم بأن يطالبوا بها لهم عند عمر رضي الله عنه، وهذا من تواضعه ونزاهته وحسن رعايته للمال.

[٣٤٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ لِشُرَيْحٍ الْقَاضي[١]

«أَنِ اقْضِ بِمَا اسْتَبَانَ لَكَ مِنْ كِتَابِ الله، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمْ كُلَّ كِتَابِ الله؛ فَاقْضِ بِمَا اسْتَبَانَ لَكَ مِنْ قَضَاءِ رَسُولِ الله ﷺ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمْ كُلَّ قَضِيَّةِ رَسُولِ الله؛ فَاقْضِ بِمَا اسْتَبَانَ لَكَ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُهْتَدِينَ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمْ كُلَّ مَا قَضَتْ بِهِ أَئِمَّةُ الْمُهْتَدِينَ؛ فَاجْتَهِدْ رَأْيَكَ، وَاسْتَشِرْ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالصَّلَاحِ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النَّص كتاب كتبه عمر رضي الله عنه يعلِّم فيه القاضي شريحا كيف يقضي بين الناس، كما ورد في الروايات عن الشعبي.

لطائف لغوية: قوله: (**أن اقضِ**): (**أنْ**) هنا تسمى التفسيرية؛ وقد جاءت الرواية عن الشعبي قال: كتب عمر إلى شريح: (**أن اقضِ**). والقول بـ (أن) التفسيرية مذهب البصريين، وجعلها سيبويه بمعنى (أي). وقد رفض الكوفيون تسميتها بالتفسيرية ووافقهم ابن هشام، وعامة النحاة على ما قاله البصريون. قال السيوطي يبين حالها في همع الهوامع: «التفسير: أثبته البصريون، وأنكر الكوفيون كون ذلك

١- شُرَيْحٌ القَاضِي أَبُو أُمَيَّةَ بنُ الحارثِ الكِنْدِيُّ، قاضي الكوفةِ. يُقالُ: لهُ صحبةٌ. ولم يَصِحَّ، بل هو مِمَّن أسلمَ في حياةِ النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -، وانتقلَ مِن اليمنِ زمنَ الصِّدِّيقِ. صحَّ أنَّ عمرَ ولَّاهُ قضاءَ الكوفةِ، فقيلَ: أقامَ على قضائِها سِتِّينَ سنةً. وقد قضى بالبصرةِ سنةً. وفَدَ زمنَ مُعاويةَ إلى دمشقَ. وكانَ يُقالُ له: قاضي المِصْرَينِ. «سير أعلام النُّبلاء» ٤/ ١٠٠.

٢- رواهُ الخطيبُ البغداديُّ في «الفقيهِ والمتفقِّهِ» ١/ ٤٩٠، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢٣/ ١٩.

من معانيها، وهي عندهم الناصبة للفعل. قال أبو حيان: وليس ذلك بصحيح؛ لأنها غير مفتقرة إلى ما قبلها ولا يصح أن تكون المصدرية إلا بتأويلات بعيدة، والكلام على مذهب البصريين، فنقول: أجريت (أن) في التفسير مجرى (أي)، لكن تفارقها في أنها لا تدخل على مفرد، لا يقال: مررت برجل أن صالح، وكأنهم أبقوا عليها ما كان لها من الجملة، وهي في هذا غير مختصة بالفعل بل تكون مفسرة للجملة الاسمية والفعلية، نحو: كتبت إليه أن افعل، وأرسل إليه أن ما أنت وهذا؟ ومنه: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ولـ (أن) التفسيرية شرطان: أحدهما: أن تكون مفسرة لما يتضمن القول أو يحتمله، لا لقول مصرح به أو محذوف أو فعل متأول بمعنى القول، فإن صرح بالقول خلصت الجملة للحكاية ... الثاني: ألا تتعلق بالأول لفظا، فلا تكون معمولة ولا مبنية على غيرها؛ ولذلك لم تكن تفسيرية في قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ١٠]؛ لأنها واقعة خبرا للمبتدأ، ولا في قولهم: كتبت إليه بأن قم؛ لأنها معمولة لحرف الجر، فإن لم تأت بحرف الجر جاز فيها الوجهان».

البيان والبلاغة: افتتح عمر رَضِيَ الله عَنْه خطابه الذي يبين فيه لشريح بماذا يقضي، وكيف يقضي في خصومات الناس وشؤونهم، مبتدئًا النَّص بقوله: **(أن اقض بما استبان لك من كتاب الله)**، فهو يحثه أن يستعين بفهمه لكتاب الله عند قضائه؛ حيث **(الباء)** في قوله: **(بما استبان)** تفيد الاستعانة، ولم يقل: **(بكتاب الله)** تحرزا من أن ليس كل الناس يفهم كتاب الله حسب مراد الله، فقد وقع الناس في خلاف عند استنباط معناه، فوكل الأمر إلى فهمه من كتاب الله لا إلى كتاب الله؛ تحرزا من غلط قد ينسبه إلى الله وكتابه. وقوله: **(لك)** في قوله: **(بما استبان لك من كتاب الله)** جيء

بها؛ لترشد شريحا إلى الأخذ بما استبان له في فهم كتاب الله لا بما استبان لغيره، وهذا حث وتحريض من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لشريح؛ ليجتهد في فهم كتاب الله. وفي النَّص حذف تقديره: اقض بين الناس. وقوله: (**فإن لم تعلم كل كتاب الله**): أراد بقوله: (**تعلم**): الفهم لتأويله، لا الحفظ، وإلا كيف يجعله قاضيا وقد فاته شيء من كتاب الله. وجملة (**فاقض بما استبان لك من قضاء رسول الله ﷺ**) يقال فيها ما قيل في الجملة التي سبقتها. ويرد في هذه الجملة إشكال؛ وهو: كيف نفصل بين كتاب الله وقضاء رسول الله؟ وهل يقال: إن قضاء رسول الله مختلف عن قضاء الله؟ هذا الفهم بعيد، وإنما مراد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هنا أن ما كان في كتاب الله فوافقه شيء من قضاء رسول الله وسنته إنما هما شيء واحد، والنِّسبة فيه إلى الله من باب التشريف والإجلال لله وحده، فلا يفهم منه أن الأخذ من كتاب الله منفصل عن سنة نبيه، فيكون المعنى: ابحث به فإن لم تجد فامض إلى سنة رسول الله، فمراده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما انفرد به رسول الله ولم يكن له أصل في كتاب الله فيقضى فيه بما انفردت به سنة رسول الله ﷺ. وقوله: (**فإن لم تعلم كل قضية رسول الله فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين**): لا ريب أنَّ القاضي مهما بلغ علمه لابدَّ أنه يفوته شيء من سنة رسول الله ﷺ؛ لعسر الإلمام بها، لاسيَّما أنها لم يكتمل جمعها في ذلك الزمن. وقوله: (**الأئمة المهتدين**): قد يراد به خاصة الصحابة وعامتهم، أو يراد به إضافة إلى ذلك علماء المسلمين من غير أصحاب رسول الله ﷺ، وهذا العموم أولى؛ لجواز إطلاق ذلك اللفظ عليهم. وقوله: (**فاجتهد رأيك، واستشر أهل العلم والصلاح**): تفريقه بين أهل العلم وأهل الصلاح؛ كون ليس كل ذي عِلم صالحا، وليس كل صالح ذا علم. وفي الجملة إيجاز تقديره: أهل العلم وأهل الصلاح. وفي الجملة يرد إشكال على تعميمنا بأن أئمة المهتدين هم العلماء من غير الصحابة؛ حيث قوله: (**واستشر

أهل العلم والصلاح) يدل على أنه لم يقصد به الفضلاء من الطراز الأول، فأولئك عبر عنهم بقوله: (**أئمة المهتدين**)، وقد يقال: هم هم؛ وإنما ذلك على ما قضوا، وهذا على ما يقضون، كأنه يقول: انظر في قضاء الأئمة من أهل الصلاح فخذ بما قضوا به، فإن لم تعلم لهم قضاء فشاورهم؛ لتعلم قضاءهم. وهذا النَّص فيه كثير من الإطناب، وكان عمر رضي الله عنه قادرا على أن يوجزه بنصف ما وقع له من الكلام كأن يقول: (أن اقض بما استبان لك من كتاب الله فإن لم تعلمه فبقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن لم تعلمه فبقضاء أئمة المهتدين، فإن لم تعلمه فاجتهد رأيك واستشر أهل العلم)، على ما جاء في جملنا هذه من الإطناب، وأكثر ما وقع الإطناب كان في الجمل التي تكرر اللفظ فيها كجملة (**اقض بما استبان لك**)، وجملة (**فإن لم تعلم**)، وتكرار المذكور آنفا دون رد الضمير إليه، وهذا النوع من الإطناب بالتكرار أريد منه التنويه على شرف المكرر وعلو شأنه والتلذذ بإعادة ذكره، والتنبيه عليه؛ ليعلمه المستمع ويتذكره ولا ينساه.

[٣٥٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ مَقَامًا، فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الخَلْقِ، حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا القول.

لطائف لغوية: قوله: (**مَقامًا**) بفتح الميم، يخلط الناس بينها وبين التي بضم الميم (مُقاما)؛ حيث كلتاهما إما مصدر ميمي، أو اسم مكان، غير أن التي بالفتح مصدر للفعل الثلاثي (قام)، قال في اللسان: «قام: يقوم قوما وقياما»، والمصدر الميمي منها (مَقاما) بالفتح، واسم المكان كذلك. والتي بالضم للرباعي (أقام) والمصدر (إقامة)، والميمي منها (مُقامًا)، وذلك قوله: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦]؛ لأنها دار إقامة من الفعل (أقام). ولكن ما الفرق بين المصدر الميمي والمصدر الصريح؟ يرى كثيرون أنه لا فرق، وهو رأي أكثر المتقدمين، واكتفى بعضهم بذكر أنه أبلغ، وأكثر عمقا من المصدر الصريح دون زيادة أو توضيح. ورأى الدكتور فاضل السامرائي رأيا ربما هو السابق إليه، خالفه فيه كثير من المعاصرين، ونكتفي هنا بإيراد بعض مما قاله من كتابه معاني الأبنية العربية: «إن المصدر الميمي في الغالب يحمل معه عنصر (الذات) بخلاف المصدر غير الميمي؛ فإنه حدث مجرد من كل

١- رواه البخاريُّ في «صحيحِه» (٣١٩٢).

شيء، فقوله تعالى: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] لا يطابق (وإليَّ الصيرورة)؛ فإن ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ يحمل معه عنصرا ماديا، وإن كلمة ﴿مُنقَلَبٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] لا تطابق (انقلاب) في المعنى، فـ(الانقلاب) حدث مجرد و(المنقلب) يحمل ذاتاً، و﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠] يختلف عن قولنا: (إليه السوق) فإن ﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾ يحمل معه ذاتا تساق بخلاف (السوق) الذي يدل على فعل السوق مجردا وكذلك الحياة والمحيا، والموت والممات، والنوم والمنام. فالمصدر غير الميمي حدث غير متلبس بشيء آخر، أما المصدر الميمي فإنه مصدر متلبس بذات في الغالب. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية: إن المصدر الميمي في كثير من التعبيرات يحمل معنى لا يحمله المصدر غير الميمي. فإن ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ - مثلاً - يعني نهاية الأمر بخلاف الصيرورة. قال تعالى: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، أي: منتهى أمركم، وتقول: (مصير الخشب رماد)، أي: نهاية أمره، ولا تقول: (صيرورة الخشب رماد) للمعنى نفسه، وتقول: (صيرورة الذهب خاتما أمر سهل)، وتقول: (يعجبني صيرورتك رجلا)، ولا تقول: (مصيرك رجلا)؛ فالمصير معناه نهاية الأمر بخلاف الصيرورة».

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بحديثه عن قيام قامه رسول الله ﷺ، جمع فيه عِلم الأوَّلِين والآخرين، فبدأ حديثه من حيث بدأ الكون، وأنهاه من حيث انتهى ثم بدأ ما بعده من عِلم الآخرة، وقام يصف لهم كل شيء فحفظ من حفظ ونسي من نسي، وعالِمِ القوم يومئذ أكثرهم حفظا، وأشدهم انتباها وحرصا. فيقول عمر رضي الله عنه: **(قام فينا النبي ﷺ مقاما)**: قوله: **(فينا)** ظرفية مكانية، أي: كنا متوافرين

حوله سامعين ما يقول، ولو لم يقل: (فينا) لربما ظن الظان أن مَن حضره قلَّة من النَّاس، أو آحاد منهم، ولكن قوله: **(فينا)** تنويه منه على أن أكثرهم حضر، حتى أحاطوه بالأسماع والأبصار، وهذا تنويه منه لعظمة ذلك القيام في ذلك اليوم وعظمة ذلك الحديث. وقوله: **(مقاما)**: إطناب أريد به بيان حال القيام، ولم يقل: **(قياما)** ولو قال ذلك؛ لدل على نوع القيام الذي قامه، وهو القيام بعينه لا جلوسا ولا قعودا، ولكن ليس هذا ما أراده عمر رضي الله عنه، وعليه لم يقل: (قياما)؛ حيث إن هذا المصدر يكتفي ببيان نوع القيام، وكون الرسول ﷺ قام فيهم قياما أو قعودا لا يؤثر كثيرا في المعنى إلا من باب بيان الهيئة التي كان عليها؛ ليعطينا الحدث كما وقع فينقله بصدق كأنك تراه، فيفيدنا أن الناقل صادق، وأن المنقول عنه مهتم بأمر الناس فقام؛ ليبين عظمة قوله. والقيام مستملح للخطيب، وهو من هيئات بل - عند البعض - من واجبات خطبة الجمعة؛ لما يتركه القيام من أثر في نفس السامع وبصره وسمعه. وكل هذه الفوائد من القيام تكون لو قال: (قام قياما) أمَّا (قام مقاما) فالفائدة أعظم، وهي تشمل الذي قلناه وزيادة؛ فقوله: **(مَقاما)** تحتمل أن تكون مصدرا ميميا، وتحتمل أن تكون اسم مكان، فأما كونها مصدرا ميميا فالمصدر الميمي أبلغ من الصريح من جهة زيادة المبنى، ونعلم أن زيادة المبنى تزيد في المعنى، فيقال فيه ما سبق وقلناه فيما لو قال: (قياما) وزيادة؛ حيث الميمي أبلغ من الصريح ويجعلك بعد سماعه تدرك أنَّ في الجملة حذفًا تقديره: قام فينا مقاما عظيما؛ فيتبين بذلك علة أنه عدم قوله: قام فينا قياما. وأما كونه اسم مكان فمحتمل، ويكون ما أراده من المكان ما سبق من قولنا أنه قام فيهم يحيطونه ويلتفون من حوله، وكله محتمل منفردا ومجتمعا. وقوله: **(فأخبرنا عن بدء الخلق)**: هل **(الفاء)** هي التعقيبية، فيكون المعنى: (قام وبعد أن قام أخبرنا)؟ أم هي الفصيحة، فيكون المعنى: (قام

فينا فقال قولا فأخبرنا)؟ كلاهما وارد، ولكلٍّ فائدة ودلالة. و(**أل**) التعريفية قد يراد بها الاستغراق؛ لتعم الخلق كلهم من إنس وجن وحيوان وكواكب ونجوم وكل ما خلق الله - تعالى -، وقد يكون أراد بها (**أل**) العهدية الذهنية، فيكون المعنى خاص بالإنسان، والأول أولى؛ لما روي عن مجاهد، قال: «بدء الخلق: العرش والماء والهواء، وخلقت الأرض من الماء». وقوله: (**حتى دخل أهل الجنه منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه**): تدلنا (**حتى**) على انتهاء الغاية، وبين البداية والنهاية أشياء لم يذكرها في هذا النَّص، وردت في الروايات عن رسول الله ﷺ وأصحابه. وقوله: (**دخل أهل الجنة منازلهم**): قوله: (**دخل**) فعل ماض، والقيامة لم تقم بعد، فكيف يدخلونها؟ الجواب: هي بمعنى: تحدث عن دخول أهل الجنة منازلهم، ودخول أهل النار منازلهم، وإنما أوردها بصيغة الماضي الذي يدل على الثبات وتحقق الوقوع؛ لأنه لما قال الرسول ﷺ ما قال وقع الخبر في قلب مؤمن مصدق بكل ما يقوله نبيه، فأشبه عنده ما وقع بما لم يقع. وفي هذه الصيغة من تثبيت هذه الحقيقة في نفس السامع بما لا يدع للشك محلا بعدم حدوث هذا. و(**أل**) في قوله: (**الجنة**) وقوله: (**النار**) هي للعهد الذهني، أي: الجنة والنار اللتان تعرفونها، وهما دارا النعيم والشقاء. وفي تلك الجملة لم يقل: (حتى دخل أهل الجنة والنار منازلهم)، ولم يقل: (حتى دخل أهل الجنة وأهل النار منازلهم)، وذلك للاختلاف البائن بين الصنفين من حيث الإيمان والكفر، ومن حيث النعيم والشقاء؛ فلما تباين الحال بينهما كان لابد من التفريق بينهما من حيث إن (**أهل الجنة**) يختلفون كل الاختلاف عن (**أهل النار**)، وأن منازل أهل الجنة تختلف عن منازل أهل النار اختلافا تاما، فناسب أن يفصل بينهما. وقد يقال: إن تسمية (**أهل النار**) و(**أهل الجنة**) بهذا الاسم - وهم الآن ليسوا أهلا لا لنار ولا لجنة - مجاز مرسل،

علاقته اعتبار ما سيكون. وفي جملة (**أهل الجنة منازلهم**) وجملة (**أهل النار منازلهم**) ترصيع؛ لاتفاق الوزن والقافية. وفي كلمتي (**الجنة**) و(**النار**) طباق. وتقديمه (**أهل الجنة**) على (**أهل النار**)؛ لأفضلية المقدم على المؤخر. وجملتا (**حفظ ذلك من حفظه**) و(**نسيه من نسيه**): فيهما ترصيع، ومقابلة؛ حيث الكلمات (**حفظ**) و(**حفظه**) ضد الكلمات (**نسي**) و(**نسيه**) وبالترتيب. وفي الجملتين ما يسمى باشتقاق اللفظ من اللفظ. وقوله: (**ذلك**): اسم إشارة للبعيد، والبعد - هنا - للزمان؛ لأنه يتحدث عن شيء قديم كان في عهد رسول الله ﷺ، وقد يقال: لبعد المكانة.

[٣٥١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِجَبَلَةَ بْنِ الْأَيْهَمِ الْغَسَّانِيِّ[(١)]

«يَا جُبَيْلَةُ». فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ قَالَ: «يَا جُبَيْلَةُ». فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ قَالَ: «يَا جَبَلَةُ». فَأَجَابَهُ، فَقَالَ: «اخْتَرْ مِنِّي إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُسْلِمَ، فَيَكُونَ لَكَ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْكَ مَا عَلَيْهِمْ، وَإِمَّا أَنْ تُؤَدِّيَ الْخَرَاجَ، وَإِمَّا أَنْ تَلْحَقَ بِالرُّومِ»[(٢)].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(الخراج)**: قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «الخراج لغة: من خَرَجَ يخرُجُ خُرُوجا، أي: بَرَز، والاسمُ الخراج، وأصله ما يخرج من الأرض. والجمع: أَخْراجُ، وأخارِيج، وأَخْرِجَة». وقال صاحب تهذيب اللغة: «قال الليث: الخَرْجُ والخراج واحد، وهو: شيء يخرِجُه القوم في السنة من مالهم بقدر معلوم ... ويقال: خارَجَ فلان غلامَه، إذا اتفقا على ضريبة يردُّها العبد على

١- جَبَلَةُ بنُ الأَيْهَمِ الغَسَّانِيُّ، مَلِكُ آلِ جَفْنَةَ بالشَّام، أسلمَ، وأهدى للنَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - هديَّةً، فلمَّا كان زمنُ عمرَ، ارتدَّ ولحِقَ بالرُّوم. وكان داسَ رجلًا، فلكمهُ الرَّجلُ، فهمَّ بقتلِه، فقالَ عمرُ: الْطِمْهُ بدلَها. فغضِب، وارتحلَ، ثمَّ ندمَ على ردَّتِه، نعوذُ باللهِ مِن العتوِّ والكِبرِ. هكذا ترجمَ له الذَّهبيُّ في «سيرِ أعلامِ النُّبلاءِ» ٣/ ٥٣٢.

قلتُ: ومِن المُحالِ أن يكونَ جَبَلَةُ قد أسلمَ، ثمَّ تحصلُ له تلك الحادثةُ فيُخيِّرُه عمرُ بينَ الإسلامِ أو الخراجِ أو اللَّحاقِ بالرُّومِ! فإمَّا أن تكونَ قصَّةُ إسلامِه ثمَّ ارتدادِه غيرَ صحيحةٍ، أو أنَّ كلامَ عمرَ المذكورَ آنفًا منسوبٌ لهُ ولم يقلْهُ. فإنَّه لا يُمكنُ الجمعُ بينَ المتناقضَينِ. على أنَّ مِن أهلِ العلمِ مَن يذهبُ إلى أنّ جَبَلَةَ لم يُسلِم قطُّ. انظر: «تاريخَ دمشقَ» ٧٢/ ٢٨.

٢- رواهُ القاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (٧٤)، وابنُ زَنْجُويْهِ في «الأموالِ» ص١٣٥.

سيده كل شهر، ويكونُ مخلىًّ بينه وبين عمله، فيقال: عبد مخارَجٌ. وقيل للجزية التي ضُرِبت على رقاب أهل الذمة: خراج».

مقتضى الحال: يخير أمير المؤمنين رضي الله عنه جبلة بن الأيهم بين ثلاث خصال، وليس في النصِّ ما يبين سبب وروده، وجاء في بعض الروايات - كما في تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر - أن جبلة بن الأيهم اختار أن يلحق بالروم.

لطائف لغوية: قوله: (**يا جُبَيْلَة**): سبق أن تكلمنا عن الغرض من التصغير عند شرح النَّص رقم تسعة وثمانين ومئة، فليراجعه المستزيد. وقوله رضي الله عنه: (**وإمَّا أن تؤدِّي الخراج**)، سبق تعريف الخراج، لكن ما الفرق بين الخراج والجزية؟ جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: «ووجه الصلة بين الخراج والجزية: أنهما يجبان على أهل الذمة، ويصرفان في مصارف الفيء. ومن الفروق بينهما: أن الجزية توضع على الرءوس، أما الخراج فيوضع على الأرض، والجزية تسقط بالإسلام، أما الخراج فلا يسقط بالإسلام، ويبقى مع الإسلام والكفر».

البيان والبلاغة: قوله: (**يَا جُبَيْلَةُ**): ناداه بصيغة التصغير؛ رغبة في استمالته، وتلطفًا معه في القول، وليس استكبارا عليه ولا تقليلا من مكانته. فلما لم يُجِبه عَدَل أمير المؤمنين رضي الله عنه عن التصغير إلى غيره، ثم حدد له ما ألقاه عليه من خيارات. وقوله: (**فَقَالَ**): سُبِق الفعل بالفاء؛ للدلالة على التعقيب والسرعة. ثم قال: (**اخْتَرْ**): وهو فعل أمر، والغرض منه التخيير، ووضع أمامه جميع الخيارات الممكنة، وتركه ليختار مصيره بيده. وقوله: (**إِمَّا أَنْ**): أسلوب تخيير، يقدِّم الشيء وبدائله المتاحة؛ كي يحدد المُخَيَّر رأيه واختياره. وكانت الخيارات هي: إما أن يسلم فيكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وإما أن يؤدي الخراج، وإما أن يلحق بالروم. وقد اختار جبلةُ أنْ

يلحق بالروم، كما جاء في تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر. وقد جاءت جمل النصِّ موجزةً إيجاز قِصر؛ لعدم احتمال المقام للإطناب، ولوضوح المعنى المراد، والتقدير: اختر مني إحدى ثلاث خصال أو خيارات: إما أن تُسلم لله - تعالى - فيكون لك ما للمسلمين من حقوق وعليك ما عليهم من واجبات، وإما أن تؤدِّي الخراج إلينا، وإمَّا أن ترحل وتلحق بالروم.

[٣٥٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِذِكْرِ النَّاسِ فَإِنَّهُ بَلَاءٌ، وَعَلَيْكُمْ بِذِكْرِ اللهِ فَإِنَّهُ رَحْمَةٌ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يحثُّ أمير المؤمنين رضي الله عنه سامعيه على ملازمة ذكر الله - تعالى -، والإعراض عن ذكر الناس، مبيناً عاقبة كلٍّ منهما.

البيان والبلاغة: بدأ عمر رضي الله عنه هذه النَّصيحة بقوله: (**لَا تَشْغَلُوا**)؛ حيث ينهى مَن يخاطبهم عن الانشغال بما لا يعود عليهم بالنفع، ويفهم منه الأمر بالاهتمام بما هو أهم وأولى من غيره. ويوازن بين ذكر الناس وذكر الله، وأن ذكر الله فيه النجاة، وذكر الناس فيه البلاء. وقوله: (**فإنه بَلَاءٌ**): أكد كلامه بـ (**إنَّ**) الثقيلة، وفيه كناية عن أنَّ ذكر الناس يشغل الذهن بتفاهات الأمور، والبحث عن الصغائر، وعليه تصبح حياة الإنسان مضطربة وغير مستقرة. وكلمة (**عَلَيكُم**): اسم فعل أمر فيه تحفيز للمسلمين وترغيب لهم على استبدال ذكر الله - عز وجل - بذكر الناس. و(الفاء) في قوله: (**فإنه بَلَاءٌ**) وقوله: (**فإنَّهُ رَحْمَةٌ**): هي الفاء السببية التعليلية. وقوله: (**إنَّهُ رَحْمَةٌ**): عبَّر بالجملة الاسمية المؤكدة بـ (**إنَّ**) الثقيلة؛ ليؤكد المعنى، ويؤكد رفعة

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّمتِ» (١٩٥)، و«ذمِّ الغِيبةِ والنَّميمةِ» (٥٨).

ذكر الله، ويحط ذكر ما دونه. وفي الجملتين إطنابٌ بتعليل النهي في الأولى والأمر في الثانية، كما أنَّ في النصِّ مقابلة بين الجملتين؛ حيث قابل بين (**لا تَشغلوا أنفسكم**) مع (**علَيكُم**)، وبين (**ذِكر النَّاس**) مع (**ذكر الله**)، وبين (**فإنَّه بلاء**) مع (**إنَّه رحمة**)، وتلك المقابلة أبرزت المعنى وزادته قوة وتجسيدا.

[٣٥٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا أَعْلَمَنِي بِطَرِيقِ الدُّنْيَا! لَوْلَا الْمَوْتُ وَخَوْفُ الْحِسَابِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبوح أمير المؤمنين رضي الله عنه لمستمعيه ببعض خواطر نفسه، مبينًا أنَّهم كانوا سيتعجبون من علمه بالدنيا وطرائقها، وشدة انشغاله بها = لولا ذكره الموت وخشيته الحساب.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا أَعْلَمَنِي بِـ**): أسلوب تعجب، جاء بصيغة (**ما أفعَلَ**) ليدلَّ على المبالغة في العلمِ بالدنيا، وأنَّ هذه السعة في العلم بالدنيا كادت أن تكون سعة في العمل لها لولا خشيته الآخرة. وقوله: (**لَوْلَا الموتُ وخوفُ الحساب**): (**لولا**) حرف امتناع لوجود، أي: امتناع انشغاله بالدنيا لخشيته الحساب بين يدي الله - تعالى -. وفي الجملة إيجاز بالقِصَر، والتقدير: ما أعلَمني بطريق الدنيا وأكثر انشغالي بها، لولا تذكري الموت وخشيتي الحساب.

١- رواهُ البَلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣١٣.

[٣٥٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِمَمْلُوكٍ رُومِيٍّ لَهُ يُدْعَى: (وُسَّق)[١]

«أَسْلِمْ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَسْلَمْتَ اسْتَعَنْتُ بِكَ عَلَى أَمَانَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَسْتَعِينَ عَلَى أَمَانَتِهِمْ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ». قَالَ وُسَّقُ: فَأَبَيْتُ، فَقَالَ: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة: ٢٥٦]. قَالَ وُسَّقُ: فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَعْتَقَنِي، وَقَالَ: «اذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه مملوكا له روميا غير مسلم اسمه وُسَّق، ويبدو أن عمر رضي الله عنه وجد فيه القوة والأمانة فأراد أن يستعمله، لكن منعه من ذلك أن وُسَّق كان كافرا، فعرض عليه الإسلام فأبى، فلم يُكرهه على ترك دينه – امتثالا لأمر الله تعالى –، ثم أعتقه عند وفاته.

البيان والبلاغة: قوله: **(أَسْلِمْ)**: بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه حديثه إلى وُسق بهذا الأمر الجازم؛ إذ موضوع الحديث من الأهمية بمكان؛ بحيث لا يحتمل الكناية ولا التورية. ثمَّ أردف ذلك بتعليل هذا الأمر فقال: **(فإنَّك إنْ أسلمتَ استعنتُ بك على أمانة المسلمين)**. وبدأ هذه الجملة التعليلية بـ **(إنَّ)** ليؤكِّد حديثه، ويُزيل من

١- ذكرَ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٦/ ١٥٨ أنَّه اسمُه (أُسَّقُ).

٢- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في (التَّفسيرِ) مِن «سُنَنِهِ» (٤٣١)، والقاسمُ بنُ سلَّام في «الأموالِ» (٨٧)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٢٦٩٠) مُختصَرًا، وابنُ زَنْجُويْهِ في «الأموالِ» (١٣٣)، وأبو نُعَيمٍ في «حِليةِ الأولياءِ» ٩/ ٣٤.

صدر سامعه كلَّ شك فيه، وليكون ذلك أقوى في تأليف قلبه وترغيبه في اعتناق الإسلام. والجملة الشرطية: (**إنْ أسلمتَ استعنتُ بكَ عَلى أمانةِ المُسلمين**) تفيد اشتراط حصول فعل الشرط ليتحقق جوابه، وذلك فيه ما فيه من الترغيب في حصول الشرط، وهو اعتناق ذلك الرومي للإسلام. ثم أطنب أمير المؤمنين ﵁ فعلَّل التعليل، وبيَّن سبب ذلك الاشتراط فقال: (**فإنه لا ينبغي لي أن أستعين على أمانتهم من ليس منهم**). والضمير في قوله: (**فإنه**): هو ضمير الشأن الذي يدلُّ على محذوف سابق، ظاهر معناه في السياق. وقوله: (**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**) اقتباسٌ من قول الله - تعالى -: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهذا الاقتباس يدلُّ على ارتباط أمير المؤمنين ﵁ بالقرآن الكريم، وحرصه على العمل به. وقوله: (**اذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ**): إسناد المشيئة إلى المملوك - هنا - كناية عن عتقه؛ إذ المملوك لا يملك ذلك إلا بإذن سيده.

[٣٥٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

حِينَ أَتَاهُ فَتْحُ الْقَادِسِيَّةِ

«أَعُوذُ بالله أَنْ يُبْقِيَنِي اللهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ حَتَّى يُدْرِكَنِي أَوْلَادُكُم مِنْ هَؤُلَاءِ». قَالُوا: «وَلِمَ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: «مَا ظَنُّكُمْ بِمَكْرِ الْعَرَبِيِّ وَدَهَاءِ الْعَجَمِيِّ، إِذَا اجْتَمَعَا فِي رَجُلٍ؟!»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(مكر)**: قال صاحب تاج العروس: «**(المكر)**: الخديعة والاحتيال. وقال الليث: احتيال في خفية. وقد مكر يمكُر مكرا. ومَكَر به: كاده ... والمَكْرُ: التَّدبير والحيلة في الحرب». وأما **(الدهاء)**، فجاء في المعجم الوسيط: «**(الدهاء)**: العقل، وجودة الرَّأي».

مقتضى الحال: الرواية تبين أن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال هذا الكلام عندما بلغه فتح القادسية وانتصار المسلمين.

لطائف لغوية: للمكر معانٍ كثيرة مختلفة، ذكر صاحب تاج العروس بعض هذه المعاني، فقال: «والمَكْرُ: المَغَرَةُ، والمَمْكورُ: الثوب المصبوغ به، كالمُمْتكِر، وقد مَكَرَه فامْتكَرَ، إذا صُبِغَ. والمكر: حُسن خَدَالَةِ السَّاقين، عن ابن سِيده، أي: في المرأة، وقد مَكُرَتْ، بالضم. والمكر: الصَّفير، وصوت نفخ الأسد. والمكر: سَقْيُ الأرض، يقال: امْكُروا الأرض؛ فإنَّها صُلْبَة، ثم احرثوها، يريد: اسقوها».

١- رواهُ الدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (١٥٣١).

البيان والبلاغة: قوله: (**أَعُوذُ بالله**): أسلوب خبري يراد به الإنشاء، والمعني: اللهم أعذني ...؛ فهو يستعيذ بالله أَن يبقى حيا حتى يرى بعينيه ما يتوقع من شر هذا الجيل المختلط من العرب والعجم. وقوله: (**بين أظهركم**): كناية عن الحياة. ثم أجاب ﷺ سائله الذي قال: ولم يا أمير المؤمنين؟ بقوله: (**مَا ظَنُّكُمْ بِمَكْرِ الْعَرَبِيِّ وَدَهَاءِ الْعَجَمِيِّ، إِذَا اجْتَمَعَا فِي رَجُلٍ؟!**)، والسؤال - هنا - ليس حقيقيا، وإنَّما هو سؤال تعجُّبي تقريري، يراد منه تعليل الجملة التي سبقته. وهذا السؤال يفتح المجال للذهن ليذهب كلَّ مذهب في تخيل السوء والشر الذي يمكن أن يصدر ممن اجتمع فيه هاتان الصفتان في آن واحد. وإسناد المكر إلى العربي في قوله: (**بِمَكْرِ**): كناية عن شدة مكره حتَّى صار المكر كأنه خاصٌّ به متجذر فيه. ونفس الكلام يقال في قوله ﷺ: (**وَدَهَاءِ الْعَجَمِيِّ**).

[٣٥٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«يَا أَيُّهَا النَّاس، إِنِّي دَاعٍ فَأَمِّنُوا: اللَّهُمَّ إِنِّي غَلِيظٌ فَلَيِّنِّي لِأَهْلِ طَاعَتِكَ بِمُوَافَقَةِ الْحَقِّ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، وَارْزُقْنِي الْغِلْظَةَ وَالشِّدَّةَ عَلَى أَعْدَائِكَ وَأَهْلِ الدَّعَارَةِ[١] وَالنِّفَاقِ، مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ مِنِّي لَهُم، وَلَا اعْتِدَاءٍ عَلَيْهِمْ. اللَّهُمَّ إِنِّي شَحِيحٌ فَسَخِّنِي فِي نَوَائِبِ الْمَعْرُوفِ، قَصْدًا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَبْذِيرٍ، وَلَا رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ، وَاجْعَلْنِي أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَكَ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ. اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي خَفْضَ الْجَنَاحِ وَلِينَ الْجَانِبِ لِلْمُؤْمِنِينَ. اللَّهُمَّ إِنِّي كَثِيرُ الْغَفْلَةِ وَالنِّسْيَانِ، فَأَلْهِمْنِي ذِكْرَكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَذِكْرَ الْمَوْتِ فِي كُلِّ حِينٍ. اللَّهُمَّ إِنِّي ضَعِيفٌ عَنِ الْعَمَلِ بِطَاعَتِكَ، فَارْزُقْنِي النَّشَاطَ فِيهَا وَالْقُوَّةَ عَلَيْهَا، بِالنِّيَّةِ الْحَسَنَةِ الَّتِي لَا تَكُونُ إِلَّا بِعَوْنِكَ وَتَوْفِيقِكَ. اللَّهُمَّ ثَبِّتْنِي بِالْيَقِينِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَذِكْرِ الْمَقَامِ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَالْحَيَاءِ مِنْكَ، وَارْزُقْنِي الْخُشُوعَ فِيمَا يُرْضِيكَ عَنِّي، وَالْمُحَاسَبَةَ لِنَفْسِي، وَإِصْلَاحَ السَّاعَاتِ، وَالْحَذَرَ مِنَ الشُّبُهَاتِ. اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي التَّفَكُّرَ وَالتَّدَبُّرَ لِمَا يَتْلُوهُ لِسَانِي مِنْ كِتَابِكَ، وَالْفَهْمَ لَهُ، وَالْمَعْرِفَةَ بِمَعَانِيهِ، وَالنَّظَرَ فِي عَجَائِبِهِ، وَالْعَمَلَ بِذَلِكَ مَا بَقِيتُ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[٢].

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» (٢/ ١١٩): (الدَّعارة: الفسادُ والشَّرُّ. ورجلٌ داعرٌ: خبيثٌ مُفسِدٌ).

٢- «العِقد الفريد» ٤/ ١٥٦.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الظاهر من النَّص أن عمر رضي الله عنه قال هذا الكلام في جمع من المسلمين، فربما كان ذلك عند توليه الإمارة أو في خطبة من خطبه.

البيان والبلاغة: قوله: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**): أسلوب نداء غرضه تنبيه المخاطبين وجذب انتباههم. وقوله: (**الناس**): يقصد به المسلمين، وفيه تعميم يوضح أن المسلمين عنده هم الناس؛ لأنهم أغلب الرعية، ولأنهم الأقرب إليه دينا. وقوله: (**إِنِّي دَاعٍ**): جملة خبرية مؤكدة بـ(**إنَّ**) غرضها الإخبار. وقوله: (**فَأَمِّنُوا**): جملة طلبية غرضها الحث على الاقتداء. وقوله: (**اللَّهُمَّ**): جملة دعائية غرضها التوسل إلى الله - تعالى - ودعاؤه. وقوله: (**إِنِّي غَلِيظٌ**): جملة خبرية مؤكدة بـ(**إنَّ**)، وفيها إدراك من عمر رضي الله عنه لنفسه، ووقوفه على ما يراه عيبا فيها، وسعي للإصلاح من شأنه. وقوله: (**فَلَيِّـنِّي**): دعاء إلى الله أن يجعله ليِّنا ولكن بقيود سيذكرها في باقي الجملة. وقوله: (**لِأَهْلِ طَاعَتِكَ**): تخصيص لموضع اللين الذي يطلبه عمر، يوضح أنَّ همَّه الأوَّل واهتمامه الرئيس هو إرضاء الله والحرص على طاعته. وقوله: (**بِمُوَافَقَةِ الحَقِّ**): تخصيص آخر، وتقييد للِّين المطلوب بأن يكون موافقا للحق وليس على إطلاقه. وقوله: (**ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ وَالدَّارِ الآخِرَةِ**): تقييد ثالث وتخصيص لطلبه بأن يكون اللين ابتغاء وجه الله؛ احترازا من أن يكون اللين مصانعة للرعية أو مداهنة لهم. وقوله: (**وَارْزُقْنِي**): فيه إيمان وتسليم بأن الأمر كله لله، وأن كل ما يصيب العبد هو من عند الله. وقوله: (**الغِلْظَةَ وَالشِّدَّةَ**): العطف للتوكيد. وقوله: (**عَلَى أَعْدَائِكَ**): تخصيص واحتراز وتقييد للدعاء، وإضافة الأعداء إلى الله - تعالى - فيه لوم لهم وتوبيخ. والعطف في قوله: (**وَأَهْلِ الدَّعَارَةِ والنِّفَاقِ**) للتوكيد. وقوله: (**مِنْ**

غَيْرِ ظُلْمٍ): احتراز يبين حرص الفاروق ﷺ على تحري العدل وعدم الظلم، حتى لأعداء الله وأهل الدعارة والنفاق. وقوله: (**مِنِّي**): حرص على أن لا يكون الظلم صادرا منه؛ لأنه قد يصدر منهم لأنفسهم بفعلهم للمعصية والمخالفة. وقوله: (**وَلَا اعْتِدَاءٍ**): العطف للتوكيد. وقوله: (**اللَّهُمَّ إِنِّي شَحِيحٌ**): رحم الله امرأ عرف قدر نفسه، هكذا كان الفاروق في تواضعه وسماحته ومعرفته لنفسه وحرصه على تقويمها وإصلاحها. وقوله: (**فَسَخِّنِي فِي نَوَائِبِ الْمَعْرُوفِ**): تقييد لطلب السخاء وتحديد لمواضعه. وقوله: (**قَصْدًا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَبْذِيرٍ، وَلَا رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ**): هذه هي الاشتراطات والحدود التي يرجوها الفاروق لطلبه. وفي الجملة تضاد بين (**قصد**) و(**سرف**) يوضح المعنى ويبرزه. وقوله: (**وَاجْعَلْنِي أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَكَ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ**): هذا هو مرجع عمر ﷺ دائما ومقصده في كل قول وعمل = ابتغاء وجه الله والدار الآخرة. وقوله: (**اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي خَفْضَ الْجَنَاحِ وَلِينَ الْجَانِبِ لِلْمُؤْمِنِينَ**): من يعرف سيرة الفاروق يعلم أنه من أشد الناس زهدا وعدلا وتواضعا، ولكنه كان شديدا في الحق، وهو هنا يستشعر في نفسه هذه الشدة ويدعو الله أن يلين جانبه للمؤمنين، ما أعظمك أيها الفاروق!، وما أعظم شدتك وقوتك في الحق! فبها أقمت دولة الإسلام. وقوله: (**اللَّهُمَّ إِنِّي كَثِيرُ الْغَفْلَةِ وَالنِّسْيَانِ**): رجل يحكم نصف الكرة الأرضية - تقريبا -، وتثقل كاهله المهام الجسام والمسئوليات، فهو يشعر بالتقصير ويظهر ذلك في ذكره ودعائه. وقوله: (**فَأَلْهِمْنِي ذِكْرَكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ**): إقرار بأنَّ الذكر والطاعة إلهام وهبة من الله، فهو يطلبه على كل حال. وقوله: (**وَذِكْرَ الْمَوْتِ فِي كُلِّ حِينٍ**): يدعو الفاروق ﷺ بأن يداوم على ذكر الموت في كل حين؛ لما في ذكره من وازع للزهد في الدنيا، ورادع عن حب الدنيا والركون إليها وواعظ بمن سبق. وقوله: (**اللَّهُمَّ إِنِّي ضَعِيفٌ عَنِ الْعَمَلِ بِطَاعَتِكَ**): فيه دوام الالتجاء إلى

الله، واستشعار الضعف والتقصير، وذلك من علامات إيمان الفاروق رضي الله عنه. وقوله: (**بِاليَقِينِ وَالبِرِّ والتَّقْوَى**): العطف للتوكيد. وتكرار لفظ (**اللَّهم**) في النصِّ للتلذذ بذكر الله – تعالى – والإلحاح عليه في الدعاء. وفي النصِّ إطنابٌ اقتضاه مقام الإلحاح على الله والتوسل له والطمع في جوده وكرمه والتلذذ بذكره – سبحانه وبحمده –.

[٣٥٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ الْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ بِدَارٍ إِلَّا عَلَى النُّجْعَةِ، وَلَا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلَّا بِذَلِكَ. أَيْنَ الطُّرَّاءُ الْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعُودِ اللهِ؟! سِيرُوا فِي الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَكُمُ اللهُ فِي الْكِتَابِ أَنْ يُورِثَكُمُوهَا؛ فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، وَاللهُ مُظْهِرٌ دِينَهُ، وَمُعِزٌّ نَاصِرَهُ، وَمُولِي أَهْلِهِ مَوَارِيثَ الْأُمَمِ. أَيْنَ عِبَادُ اللهِ الصَّالِحُونَ؟».

فَكَانَ أَوَّلُ مُنْتَدِبٍ أَبُو عُبَيْدِ بْنُ مَسْعُودٍ[١]، ثُمَّ ثَنَّى سَعْدُ بْنُ عُبَيْدٍ[٢]- أَوْ سَلِيطُ بْنُ قَيْسٍ[٣]- فَلَمَّا اجْتَمَعَ ذَلِكَ الْبَعْثُ، قِيلَ لِعُمَرَ: أَمِّرْ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ السَّابِقِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ. قَالَ: «لَا وَاللهِ لَا أَفْعَلُ؛ إِنَّ اللهَ إِنَّمَا رَفَعَكُمْ بِسَبْقِكُمْ وَسُرْعَتِكُمْ إِلَى الْعَدُوِّ، فَإِذَا جَبُنْتُمْ وَكَرِهْتُمُ اللِّقَاءَ؛ فَأَوْلَى

١- أبو عُبيدِ بنُ مسعودِ بنِ عمرٍو الثَّقفيُّ، والدُ المختارِ وصفيَّةَ زوجةِ ابنِ عمرَ. أسلمَ في عهدِ النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -، واستعمله عمرُ وسيَّرهُ على جيشٍ كثيفٍ إلى العراقِ، وإليهِ يُنسَبُ جِسرُ أبي عُبيدٍ، وكانتِ الوقعةُ عندَ هذا الجسرِ كما ذكرنا، وقُتل يومئذٍ أبو عُبيدٍ، والجسرُ بينَ القادسيَّةِ والحِيرةِ، ولم يذكرْهُ أحدٌ في الصَّحابةِ إلَّا ابنَ عبدِ البرِّ، ولا يَبعُدُ أن يكونَ لهُ رؤيةٌ وإسلامٌ. «تاريخ الإسلام» ٢/ ٨٠.

٢- سعدُ بنُ عُبيدِ بنِ النُّعمانِ، أبو زيدٍ الأنصاريُّ الأوسيُّ، أحدُ القُرَّاءِ الَّذينَ حفِظوا القرآنَ على عهدِ رسولِ اللهِ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -، استُشهِدَ بوقعةِ القادسيَّةِ، وقيلَ: إنَّه والدُ عُميرِ بنِ سعدٍ الزَّاهدِ أميرِ حمصَ لعمرَ. شهِدَ سعدٌ بدرًا وغيرَها، وكانَ يُقالُ لهُ: سعدٌ القارئُ. وذكرَ محمَّدُ بنُ سعدٍ أنَّ القادسيَّةَ سنةَ ستَّ عشرةَ، وأنَّه قُتِل بها ولهُ أربعٌ وستُّونَ سنةً. ونقلوا عنهُ أنَّه خطبَ النَّاسَ بالقادسيَّةِ فقالَ: إنَّا لاقو العدوِّ غدًا، وإنَّا مُستشهِدون غدًا، فلا تَغسِلوا عنَّا دمًا ولا نُكفَّنُ إلَّا في ثوبٍ كانَ علينا. «تاريخ الإسلام» ٢/ ٨٨.

٣- سَلِيطُ بنُ قَيسٍ النجاريُّ الأنصاريُّ، شهِد بدرًا وما بعدَها مِن المشاهدِ، وكانَ مِن الشُّجعانِ والمُبادِرينَ إلى البِرازِ، استُشهِدَ يومَ الجسرِ معَ أبي عُبيدِ بنِ مسعودٍ الثَّقفيِّ في خلافةِ عمرَ. «مشاهير علماء الأمصار» ص٢٤، و«الاستيعاب» ٢/ ٦٤٦.

بالرِّئَاسَةِ مِنْكُمْ مَنْ سَبَقَ إِلَى الدَّفْعِ، وَأَجَابَ إِلَى الدُّعَاءِ! وَاللهِ لَا أُؤَمِّرُ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَوَّلَهُمُ انْتِدَابًا»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(النُّجْعَة)**: هي - في الأصل -: طلب الكلأ في موضعه، كما في الصحاح. ولعلَّ أمير المؤمنين رضي الله عنه أراد بذلك: أنَّها لا تصلح لسُكناهم إلا بصورة عارضة لا دائمة. وقوله: **(الطُّرَّاء)**: قال الإمام ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «طَرَأَ على القوم يَطْرَأ طَرْءا وطُرُوْءا: أتاهم من مكان، أو طلع عليهم من بلد آخر، أو خرج عليهم من مكان بعيد فَجاءة، أو أتاهم من غير أن يعلموا، أو خرج عليهم من فَجْوة. وهم الطُّرَّاءُ والطُّرَآءُ. ويقال للغُرباء: الطرآء، وهم الذين يأتون من مكان بعيد». وقوله: (منتدِب)، أي: مجيب. قال في مختار الصِّحاح: «و(نَدَبَه) لأمر (فانْتَدَب) له، أي: دعاه له فأجاب. ورَجل (نَدْبٌ)، بوزن ضَرْب، أي: خفيف في الحاجة».

مقتضى الحال: قال الإمام الطبري في تاريخه: «أول ما عمل به عمر أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيباني إلى أهل فارس قبل صلاة الفجر من الليلة التي مات فيها أبو بكر رضي الله عنه، ثم أصبح فبايع الناس، وعاد فندب الناس إلى فارس وتتابع الناس على البيعة ففرغوا في ثلاث كل يوم يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس، وكان وَجْهُ فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم؛ لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم، قالوا: فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس إلى العراق فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود، وسعد بن عبيد الأنصاري ... وقام عمر -

---

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٤٥، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٤٥.

رحمه الله - في الناس فقال: ...» هذا النَّص. فعمر رضي الله عنه قال هذا الكلام بعد أن تولى الخلافة بأربعة أيام، لما أراد أن يوجِّه جيش المسلمين إلى بلاد فارس، ثم أمَّر عليهم أبو عبيد بن مسعود الثقفي.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ الْحِجَازَ لَيْسَ**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**إِنَّ**). وقوله: (**بِدَارٍ**): استخدام حرف الجر الزائد للتوكيد، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. وقوله: (**إِلا عَلَى النُّجْعَةِ**): الاستثناء بعد النفي أفاد القصر والتخصيص. وفي الجملة استعارة؛ حيث شبه الإقامة في الحجاز بالنُّجعة التي هي طلب الكلأ في موضعه، والجامع بين المشبه وهو المشبه به هو قلة المكث وعدم القرار في المكان. وقوله: (**وَلا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلا بِذَلِكَ**): الاستثناء بعد النفي أفاد القصر والتخصيص، أيضا. وقوله: (**أَيْنَ الطُّرَّاءُ الْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعُودِ اللَّهِ**): الاستفهام - هنا - ليس حقيقيا، وإنما هو استفهام استنكاري غرضه الحثُّ على المبادرة بالخروج في سبيل الله - تعالى -. وقوله: (**سِيرُوا فِي الأَرْضِ**): جملة طلبية غرضها الحث والتوجيه. وقوله: (**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**): اقتباس من القرآن الكريم، يدلُّ على تعلُّق عمر رضي الله عنه بالقرآن وتمسكه به. والغرض من الاقتباس تأكيد المعنى والتدليل عليه بدليل قاطع وحجة دامغة. وقوله: (**أَيْنَ عِبَادُ اللَّهِ الصَّالِحُونَ؟**): استفهام تحفيزي غرضه الحث والتشجيع. وقوله: (**لا - وَاللَّهِ - لا أَفْعَلُ**): جملة خبرية منفية ومؤكدة بالقسم. وقوله: (**إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا رَفَعَكُمْ**): جملة خبرية تعليلية مؤكدة بـ (**إِنَّ**)، وفيها قصر وحصر أفادته (**إِنَّما**). وقوله: (**وَاللهِ لا أُؤَمِّرُ**): جملة خبرية منفية ومؤكدة.

[٣٥٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«الْحَمْدُ لله الَّذِي أَعَزَّنَا بِالْإِسْلَامِ، وَأَكْرَمَنَا بِالْإِيمَانِ، وَخَصَّنَا بِنَبِيِّهِ ﷺ، وَهَدَانَا مِنَ الضَّلَالَةِ، وَجَمَعَنَا بَعْدَ الشَّتَاتِ عَلَى كَلِمَةِ التَّقْوَى، وَأَلَّف بَيْنَ قُلُوبِنَا، وَنَصَرَنَا عَلَى عَدُوِّنَا، وَمَكَّنَ لَنَا فِي بِلَادِهِ، وَجَعَلَنَا إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ؛ فَاحْمَدُوا اللهَ عِبَادَ الله عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ السَّابِغَةِ وَالْمِنَنِ الظَّاهِرَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ يَزِيدُ الْمُسْتَزِيدِينَ الرَّاغِبِينَ فِيمَا لَدَيْهِ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَى الشَّاكِرِينَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ذكر الواقدي في فتوح الشام أن عمر رضي الله عنه لما خرج من المدينة مع أصحابه متجها إلى بيت المقدس = كان إذ نزل منزلا لا يبرح منه حتى يصلي الصبح، فإذا انفتل من الصلاة أقبل على المسلمين وقال: ...، هذا النَّص.

البيان والبلاغة: قوله: (**الحمْدُ لله**): بِدء الخطاب بحمد الله فيه اقتداء بسنة النبي ﷺ. وقوله: (**أَعَزَّنَا بِالإِسْلَامِ**): إقرار من عمر رضي الله عنه بأن الإسلام هو سبب كل عِزَّة وخير يصيب المسلمين. وقوله: (**وَهَدَانَا مِنَ الضَّلَالَةِ، وجَمَعَنَا بَعْدَ الشَّتَاتِ**): بين هذه الكلمات تضاد يبرز المعنى ويوضحه. وقوله: (**فَاحْمَدُوا الله**): جملة طلبية غرضها النصح والإرشاد. وقوله: (**فَإِنَّ اللهَ يَزِيدُ**): جملة خبرية، غرضها تعليل الطلب السابق.

١- ذكره الواقديُّ في «فتوحِ الشَّامِ» ١/ ٢٢٨، وابنُ عبدِ ربِّه في «العقدِ الفريدِ» ٤/ ١٥٣-١٥٤.

[٣٥٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
لِكَعْبِ بْنِ سُورٍ[١] قَاضِي الْبَصْرَةِ

«نِعْمَ الْقَاضِي أَنْتَ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطبُ أمير المؤمنين رضي الله عنه قاضيه على البصرة - كعبَ بنَ سُور، مادحًا إياه بحسن القضاء. وليس في النص ما يبين الزمان أو المكان الذي التقاه فيه عمر رضي الله عنه.

البيان والبلاغة: قوله: (نِعْمَ القَاضِي أَنْتَ): أسلوب مدح، والغرض منه تحفيزه، وتحفيز غيره أن ينتهج نهجه.

١- كعبُ بنُ سَوْرٍ الأزديُّ، قاضي البصرةِ، ولِيَها لعمرَ وعثمانَ. وكانَ مِن نُبلاءِ الرِّجالِ وعُلَمائِهم. قُتِل يومَ الجملِ، قامَ يعظُ النَّاس ويذِّكرُهم، فجاءَه سهمُ غَرْبٍ فقتلَه، رحمهُ اللهُ تعالى. «سير أعلام النُّبلاء» ٣/ ٥٢٤.

٢- رواهُ وكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ١/ ٢٨٣.

[٣٦٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لأَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ، وَقَدْ بَعَثَهُ إِلَى الْعِرَاقِ

«اسْمَعْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَشْرِكْهُمْ فِي الْأَمْرِ، وَلَا تَجْتَهِدْ مُسْرِعًا حَتَّى تَتَبَيَّنَ؛ فَإِنَّهَا الْحَرْبُ، وَالْحَرْبُ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِيثُ[١] الَّذِي يَعْرِفُ الْفُرْصَةَ وَالْكَفَّ. إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أُؤَمِّرَ سَلِيطًا[٢] إِلَّا سُرْعَتُهُ إِلَى الْحَرْبِ، وَفِي التَّسَرُّعِ إِلَى الْحَرْبِ ضَيَاعٌ إِلَّا عَنْ بَيَانٍ، وَاللهِ لَوْلَا سُرْعَتُهُ لَأَمَّرْتُهُ، وَلَكِنَّ الْحَرْبَ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا الْمَكِيثُ»[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**الرَّجل المَكِيث**): قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «المكيثُ: الرَّزينُ الذي لا يعجل في أمره، وهم المُكَثاءُ والمَكِيثون».

مقتضى الحال: تُبين الرواية أن عمر رضي الله عنه قال هذا الكلام لأبي عبيد بن مسعود الثقفي قبل بعثه للعراق، وقد أمَّره على الجيش لِما رأى من إسراعه في الاستجابة للخروج في سبيل الله - تعالى -. وهذا النَّص هو تكملة للحوار الذي ذُكِر في النَّص رقم سبعة وخمسين وثلاثمئة، كما ورد في تاريخ الأمم للطبري.

١- يُقالُ: رَجُلٌ مَكِيثٌ؛ أي: رَزِينٌ غَيْرُ عَجُولٍ. «مقاييس اللُّغة» لابنِ فارسٍ (مكث).
٢- هو سَلِيطُ بنُ عمرٍو الأنصاريُّ - رضيَ اللهُ عنهُ -.
٣- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٤٥، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ» ٢/ ٢٧٣.

البيان والبلاغة: قوله: (**اِسْمَعْ ... وَأَشْرِكْهُمْ ... وَلا تَجْتَهِدْ**): بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بهذه الأوامر والنواهي الجازمة مع تعددها وتكررها؛ لأنَّ الأمر لا يحتمل التعريض ولا التواني. وقوله: (**وأَشرِكْهِم في الأمر**): كنَّى عن القرارات العظيمة بـ (**الأمر**)، و(**أل**) للعهد الذهني، والمقصود: أمر الحرب وشئونها. وقوله: (**حَتَّى تَتَبَيَّنَ**): حتَّى هي الغائية، والمقصود: أنه لابدَّ أن يتريث ويستمر في المشاورة حتى يصل إلى اليقين في أمره قبل بدء الحرب. وقوله: (**إِنَّهَا الْحَرْبُ**): بدأ بـ (**إنَّ**) التي تفيد التأكيد، والتأكيد - هنا - يراد به التعظيم والتهويل. وقوله: (**لا يُصْلِحُهَا**)، أي: لا يصلح لها. وقوله: (**يَعْرِفُ الْفُرْصَةَ وَالْكَفَّ**): في الجملة إيجاز بلاغي شديد، والتقدير: يعرف كيف يقتنص الفرصة، ومتى يلجأ إلى الكف. وقوله: (**إلا سُرْعَتُهُ**): الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر. وقوله: (**وَفِي التَّسَرُّعِ إِلَى الْحَرْبِ ضَيَاعٌ إِلَّا عَنْ بَيَانٍ**): ساق كلامه مساقَ الأمثال السائرة؛ ليكون كالدليل على ما يقول. وقوله: (**وَلَكِنَّ الْحَرْبَ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا الْمَكِيثُ**): أعاد تقرير هذا المبدأ بذات الصيغة المؤكدة التي تفيد الحصر، وختم به تأكيدا عليه، وليكون أرسخ وأبقى في ذهن مستمعه.

[٣٦١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لأَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ لِفَتْحِ فَارِسَ

«إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى أَرْضِ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَالْخِيَانَةِ وَالْجَبْرِيَّةِ، تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ قَدْ جَرُؤُوا عَلَى الشَّرِّ فَعَلِمُوهُ، وَتَنَاسَوُا الْخَيْرَ فَجَهِلُوهُ، فَانْظُرْ كَيْفَ تَكُونُ! وَاخْزُنْ لِسَانَكَ، وَلَا تُفْشِيَنَّ سِرَّكَ؛ فَإِنَّ صَاحِبَ السِّرِّ، مَا ضَبَطَهُ، مُتَحَصِّنٌ، لَا يُؤْتَى مِنْ وَجْهٍ يَكْرَهُهُ، وَإِذَا ضَيَّعَهُ كَانَ بِمَضِيعَةٍ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: تُبين الرواية أن عمر رضي الله عنه قال هذا الكلام لأبي عبيد بن مسعود الثقفي عند توجهه لفتح فارس، وكان هذا بعد توليه الخلافة بوقت قصير كما مرَّ في نصَّين سابقين.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّكَ تَقْدَمُ**): تأكيد على أنه قرَّر إرساله فعليه سماع النصيحة؛ لأنه غدًا سيكون في موضع المسئولية، والآن عليه أن يستثمر وجوده معه ويسترشد بكلامه. وقوله: (**أَرْضِ الْمَكْرِ**): استعارة مكنية، فليست هناك أرض مكر وأرض غير ذلك، وإنما استعار صفة خاصة بالبشر ليلصقها بغير البشر. وقوله: (**الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَالْخِيَانَةِ وَالْجَبْرِيَّةِ**): هنا استعارات ممتدة، فيها حسن تفصيل وتقسيم، تؤكد أن أهل هذه الأرض يقطنها أناس صفاتهم تحتاج إلى الحذر. و(**قوم**) في قوله: (**تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ**): نكرة للتعظيم من شأنهم، وأنهم قوم فيهم خصال كثيرة،

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٥٤، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ» ٢/ ٢٧٦.

والتعامل معهم أمر غير هين. وقوله: (**قَدْ جَرؤوا عَلَى الشَّرِّ فَعَلِمُوهُ**): كناية عن فسقهم وجرأتهم على الله – تعالى –، وأنهم لا يأبهون بالضعيف ولا يحترمون إلا القوي الذي يكسرهم. وقوله: (**وَتَنَاسَوُا الْخَيْرَ فَجَهِلُوهُ**): كناية عن قلوبهم الجاحدة المليئة بالقسوة والغلظة. وقوله: (**فَانْظُرْ**): فعل أمر فيه البصيرة والنظر والتفكير والحكمة. وقوله: (**كَيْفَ تَكُونُ؟!**): الاستفهام هنا ليس من أجل المعرفة، ولكن من أجل التفكر والتدبر. وقوله: (**وَاخْزُنْ لِسَانَكَ**): أمر أراد به الجزم والقطع بتوخي الحذر؛ لأن الأمر جلل يرى أمير المؤمنين أنه يحتاج للحزم، وعدم الميوعة. وقوله: (**وَلا تُفْشِيَنَّ سِرَّكَ**): استخدم الفعل المضارع؛ ليحمله معنى الأمر الممتد من زمن المتكلم إلى زمن المستقبل. وقوله: (**فَإِنَّ ... وَإِذَا كَانَ بِمَضْيَعَةٍ**): استعارة تصريحية صرح بما هو متخوف منه، وهو الضياع، واعتبره جنديا خرج بدون سلاح من حصن يقف على بابه ألف جندي وجندي، وأصبح صدره خاويا، يضرب عليه من يضرب.

[٣٦٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ بَلَغَهُ مَا جَرَى لِأَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنَ الِاسْتِبْسَالِ ثُمَّ الِاسْتِشْهَادِ

«اللَّهُمَّ، كُلُّ مُسْلِمٍ فِي حِلٍّ مِنِّي. أَنَا فِئَةُ كُلِّ مُسْلِمٍ؛ مَنْ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَفَظِعَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ فَأَنَا لَهُ فِئَةٌ. يَرْحَمُ اللهُ أَبَا عُبَيْدٍ، لَوْ كَانَ انْحَازَ إِلَيَّ لَكُنْتُ لَهُ فِئَةً»[(١)].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (فَفَظِعَ بِشَيْءٍ): قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «أَفْظَعَه الأمر، **وفَظِعَ به** فظاعة وفَظَعا واسْتَفْظَعَه وأَفْظَعَه: رآه فظيعا».

مقتضى الحال: تبين الرواية أن عمر رضي الله عنه قال هذا الكلام عندما بلغه ما جرى لأبي عبيد بن مسعود الثقفي وأصحابه من الاستبسال في قتال الفرسِ ثم الاستشهاد.

لطائف لغوية: قوله: (**اللهُمَّ**) بمعنى: ياالله، وقد سبق الحديث عنها غير مرة. وقوله: (**يرحمُ اللهُ أبا عبيد**): جملةٌ خبرية لفظا إنشائيةٌ معنى، والغرض منها الدعاء.

البيان والبلاغة: وقوله: (**اللَّهُمَّ**): دعاء ونداء لله - عز وجل -، فيه إجلال وتعظيم له - سبحانه -. وقوله: (**كُلُّ**): لفظ يدل على استغراق الحكم على الكل. وقوله: (**فِي حِلٍّ مِنِّي**): كناية على أنه لم يقصر في نصيحة، وفعل ما عليه. وقوله: (**أَنَا**

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٤٢٩)، والطَّبريُّ في «تاريخه» ٣/ ٤٥٤ و٤٥٨، و«المُنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٤٨، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ» ٢/ ٢٧٨.

فِئَة): يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦]. وقوله: (**لَوْ كَانَ**): (**لو**) حرف امتناع لامتناع مع تمني حدوث الشيء والرغبة فيه وإن كان محالا؛ لاستحالة عودة الماضي إلى الحاضر. وقوله: (**لَكُنْتُ لَهُ فِئَة**): وهنا جواب شرط (**لو**)؛ لأنه كان يتمنى ويتحسر على ما كان، ويعرف مسبقا استحالة عودة ما حصل كي يكون له رأي جديد فيه.

[٣٦٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِغُزَاةٍ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَالْأَزْدِ سَأَلُوهُ أَنْ يُرْسِلَهُمْ إِلَى الشَّامِ

«ذَلِكَ قَدْ كُفِيتُمُوهُ، الْعِرَاقَ الْعِرَاقَ! ذَرُوا بَلْدَةً قَدْ قَلَّلَ اللهُ شَوْكَتَهَا وَعَدَدَهَا، وَاسْتَقْبِلُوا جِهَادَ قَوْمٍ قَدْ حَوَوْا فُنُونَ الْعَيْشِ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُورِثَكُمْ بِقِسْطِكُمْ مِنْ ذَلِكَ، فَتَعِيشُوا مَعَ مَنْ عَاشَ مِنَ النَّاسِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: قدم على عمر رضي الله عنه غزاة بني كنانة والأزد في سبعمئة مقاتل - كما في بعض الروايات - فقال لهم رضي الله عنه: أي الوجوه أحب إليكم؟ قالوا: الشأم أسلافنا، فقال لهم: ... هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله (**كُفِيتُمُوهُ**): جملة تامة؛ فيها: فعل مبني للمفعول، ونائب فاعل، ومفعول. والميم علامة الجمع، والواو ناتجة من إشباع حركة الميم.

البيان والبلاغة: وقوله: (**ذَلِكَ**): إشارة إلى ما عرضوه عليه، واستخدم اسم الإشارة للبعيد؛ لبُعد ما بينهم وبين الشام، ولبعد هذا الرأي الذي طرحوه عن الصواب. وقوله: (**قَدْ كُفِيتُمُوهُ**): توكيد الأمر بـ (**قد**)، وجاء الفعل بعد (**قد**) في صيغة الماضي؛ ليبين أن الفعل انتهى وتأكد انتهاؤه ولا عودة فيه. وقوله: (**الْعِرَاقَ الْعِرَاقَ!**): أسلوب إغراء، يقصد توجهوا إلى العراق، والزموا طريقه؛ كي يكونوا

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٦٣.

سيفا من سيوف الله على عدوه وعدوهم هناك. وقوله: (**قَلَّلَ اللهُ شَوْكَتَهَا**): كناية عن ضعفها وعدم حاجتهم لكل هذه القوة. وقوله: (**قَدْ حَوَوْا**): أكد الكلام بـ (**قد**)، وأنهم جمعوا كل ما يمتعهم في دنياهم من عيش جميل، والجملة كناية عن الرفاهية التي يعيشون فيها. وقوله: (**لعلَّ اللهَ أَنْ يُورِثَكُمْ**): يفيد الترجِّي، وهو كناية عن رزق الله لهم وسعة عطائه.

[٣٦٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«كُونُوا أَوْعِيَةَ الْكِتَابِ، وَيَنَابِيعَ الْعِلْمِ، وَسَلُوا اللهَ رِزْقَ يَوْمٍ بِيَوْمٍ، وَلَا يَضُرُّكُمْ أَنْ لَا يُكْثِرَ لَكُمْ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النصِّ ما يبين المكان ولا الزمان ولا الحال التي قال فيها عمر ﵁ هذا القول الذي هو أليق بالخطب والمواعظ العامة، أو الخاصة بالقراء وطلبة العلم.

البيان والبلاغة: قوله: (**كُونُوا**): بدأ أمير المؤمنين ﵁ بهذا الأسلوب الإنشائي المباشر ليلقي في نفس مستمعيه أهمية الأمر الذي سيتحدث عنه. ثم بيَّن المراد، فقال: (**كُونُوا أَوْعِيَةَ الْكِتَابِ، وَيَنَابِيعَ الْعِلْمِ**)، وهاتان استعارتان متتاليتان؛ حيث شبَّه صدور العلماء بالأوعية التي تُحفظ فيها الكتب، بجامع الحفظ بينهما، كما شبه العلم بالماء الذي ينبع من العيون، وشبه صدور العلماء بتلك العيون؛ ووجه الشبه - هنا -: أنَّ العلم يصدُر عن صدور العلماء كما يصدر الماء عن العيون، والعلم يحيي الله به القلوب، كما يحيي اللهُ الأرض الميْتة بالماء. وهاتان الاستعارتان الرائعتان

١- رواهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٣٢)، وابنُ أبي الدُّنيا في «التَّواضعِ والخمولِ» (١٢) بزيادة: (وَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مَعَ الْمَوْتَى). وأبو نُعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥١ [وهو في البيان والتبيين (٢/ ٣٠٣) بلفظ (يضيركم)].

أسهمتا في إبراز وتجسيد وتقوية المعنى المراد، وسوقِه في صورة بديعة محببة إلى النفوس. وقوله: (**رِزْقَ يَوْمٍ بِيَوْمٍ**): كناية عن الكفاف، وترغيب في الرضى باليسير.

[٣٦٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الشَّامِ، وَقَدْ عَزَمَ الْقُفُولَ إِلَى الْمَدِينَةِ

«أَلَا إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ، وَقَضَيْتُ الَّذِي عَلَيَّ فِي الَّذِي وَلَّانِي اللهُ مِنْ أَمْرِكُمْ، إِنْ شَاءَ اللهُ، قَسَطْنَا بَيْنَكُمْ فَيْئَكُمْ وَمَنَازِلَكُمْ وَمَغَازِيَكُمْ، وَأَبْلَغْنَا مَا لَدَيْكُمْ، فَجَنَّدْنَا لَكُمُ الْجُنُودَ، وَهَيَّأْنَا لَكُمُ الْفُرُوجَ، وَبَوَّأْنَاكُمْ وَوَسَّعْنَا عَلَيْكُمْ مَا بَلَغَ فَيْئُكُمْ وَمَا قَاتَلْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ شَامِكُمْ، وَسَمَّيْنَا لَكُمْ أَطْمَاعَكُمْ، وَأَمَرْنَا لَكُمْ بِأَعْطِيَاتِكُمْ، وَأَرْزَاقِكُمْ وَمَغَانِمِكُمْ، فَمَنْ عَلِمَ عِلْمَ شَيْءٍ يَنْبَغِي الْعَمَلُ بِهِ فَبَلَّغَنَا، نَعْمَلُ بِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**قَسَطْنَا بَيْنَكُمْ فَيْئَكُمْ**)، أي: قسمناه بالعدل. قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «والإقساط والقِسْط: العدل. ويقال: أَقْسَطَ وقَسَطَ إذا عدل ...، فقد جاء قَسَطَ في معنى عَدَلَ؛ ففي العدل لغتان: قَسَطَ وأَقْسَطَ، وفي الجور لغة واحدة: قَسَط، بغير الألف». وقوله: (**بَوَّأْنَاكُمْ**): جاء في مختار الصحاح: «(تَبَوَّأ) منزلا: نزله، و(بَوَّأ) له منزلا و(بَوَّأَهُ) منزلا: هَيَّأه ومَكَّن له فيه».

مقتضى الحال: تبين الرواية أن عمر رضي الله عنه قال هذا الكلام لَمَّا أراد العودة إلى المدينة بعد زيارته للشام.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٦٦، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ١٠/ ٤٥.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَلا**): أداة استفتاح وتنبيه، غرضها تنبيه السامعين. وقوله: (**إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**إنَّ**) و(**قد**) والفعل الماضي. وقوله: (**بينكُم فَيْئَكُمْ**): فيه جناسٌ ناقص. وقوله: (**بينكُم فَيْئَكُمْ وَمَنَازِلَكُمْ**): فيه سجعٌ أعطى الكلام جرسا حلوا. وإضافة هذه الأشياء وما بعدها إلى المخاطبين يشعرهم بقيمتهم، وملكيتهم، وحفظِ حقوقهم. وقوله: (**وَهَيَّأْنَا لَكُمُ الْفُرُوجَ**): كناية عن التزويج من النساء. وقوله: (**نَعْمَلُ بِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ**): من تواضع الخليفة رضي الله عنه قبوله للنصح، وحثه للرعية على إسداء النصح إليه، واستعداده الكامل لتقبله. ثم ختم الرسالة بالجملة الإيمانية التي تنفي القوة والحول عن غير الله - تعالى - فقال: (**وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله**)، والاستثناء بعد النفي في هذه الجملة - وغيرها - يفيد الحصر. وقد استعمل أمير المؤمنين رضي الله عنه التقسيم في هذا النصِّ، وأطنب في بعض مواضعه؛ إذ المقام مقام تفصيل وبيانٍ، وهذا هو الأنسب للمقام.

[٣٦٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَنَا أُحَدِّثُكُمْ مَا أَسْتَحِلُّ مِنْ مَالِ اللهِ: حُلَّتَانِ: حُلَّةُ الْقَيْظِ، وَحُلَّةُ الشِّتَاءِ، وَمَا أَحُجُّ عَلَيْهِ مِنَ الظُّهُورِ وَأَعْتَمِرُ، وَقُوتِي وَقُوتُ أَهْلِي كَقُوتِ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، لَيْسَ بِأَغْنَاهُمْ وَلَا بِأَفْقَرِهِمْ، ثُمَّ أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدُ، يُصِيبُنِي مَا أَصَابَهُمْ». وَأُرَاهُ قَالَ: «بَعْدُ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**حُلَّةُ الْقَيْظِ**): الحُلَّة: إزار ورداء، والقيظ: شدة الحر.

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه رعيته مبينا لهم ما يأخذه من بيت المال عطاءً له؛ ليفرغ لحاجات الناس وأمور المسلمين؛ إذ لا ينبغي لمثله أن يشغله كسب المعاش عما ولاه الله - تعالى - من الإمرة والخلافة.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَنَا أُحَدِّثُكُمْ مَا أَسْتَحِلُّ**): بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بالجملة الخبرية، وبضمير المتكلِّم؛ ليعلم الجميعُ أنه سيتحدث عن نفسه بنفسه، ويطلعهم عمَّا ينالُه من بيت مال المسلمين. ثم استعمل أسلوب التقسيم والتفصيل؛ ليكون أقوى بيانا وإيضاحا. وقوله: (**حلة القيظ وحُلَّة الشتاء**): إضافة الحُلَّة إلى الصيف والشتاء إضافة عقلية مجازية، وهي من باب إضافة الشيء إلى زمنه. والتنكير في

١- رواهُ أبو عُبَيدٍ في «الأموالِ» (٦٦٣)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٣/ ٢٧٥، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٥٨٣)، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٩٨٩) واللَّفظُ له، والبَلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٠٧، والدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٣٩٤).

قوله: (**كَقُوتِ رَجُلٍ**) للإفراد والشيوع، أي: كقوت أيِّ رجل من قريشٍ. ثم قيَّد هذا العموم بقوله: (**لَيْسَ بِأَغْنَاهُمْ وَلَا بِأَفْقَرِهِمْ**). والنصُّ مليءٌ بالصور التي تبرز زهد أمير المؤمنين رضي الله عنه وحرصه على السلامة في مال الله - سبحانه وتعالى -.

[٣٦٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لا تَخُورُ[١] قُوَّةٌ مَا كَانَ صَاحِبُها يَنْزُو وَيَنزِعُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**تَخُورُ**): جاء في مختار الصحاح «(خار) الحَرُّ والرَّجُل يَخُور (خُئُورة) - بوزن فُعُولة - ضَعُف وانكسر. و (الخَوَر) بفتحتين: الضعف، تقول: (خَوِرَ) يُخُور (خَوارا)، ورَجُل (خَوَّار) بالتشديد، والجمع (خُور) بوزن طُور». وقوله: (**ينزو**): النَّزو: الوثبان، وأكثر ما يستعمل في إتيان الدواب بعضها البعض. وقوله: (**يَنزِعُ**): جاء في مختار الصحاح: «ونَزَع عن كذا: انتهى عنه».

مقتضى الحال: يُبيِّن أمير المؤمنين رضي الله عنه الحال التي بها يحفظ ذو القوة قوَّته.

البيان والبلاغة: قوله: (**لا تَخُورُ**): بدأ كلامه بالنفي الجازم الذي يجعل السامع متشوقا لمعرفة ما سيتنزل عليه هذا النفي، ثم بين ذلك فقال: (**لا تَخُورُ قُوَّة**). وقوله: (**قُوَّةٌ**): نكرة في سياق النفي أفادت العموم؛ فيدخل فيها قوة الجسم والمال والجيش والسلطان ... الخ. ثم أتبع هذا التعميم بذكر قيد خرج مخرج الشرط، فقال: (**مَا كَانَ صَاحِبُها يَنْزُو وَيَنزِعُ**). وقد ذكر أصحاب الغريب معاني في تفسير هذه الجملة، والذي نختاره فيها أنَّ المعنى: ما كان صاحبها وسطا في أموره؛ يأتي الشيء أحيانا

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» (٢/ ٨٧): (أي لن يضعفَ صاحبُ قوَّةٍ يقدرُ أن ينزعَ في قوسِه، ويثبَ إلى ظهرِ دابَّتِه).

٢- ذكرهُ في «البيانِ والتَّبيينِ» ٢/ ٢٠٨، قالَ الجاحظُ: يقولُ: لا تنتكثُ قوَّتُه ما دامَ ينزعُ في القوسِ، وينزو في السَّرجِ مِن غيرِ أن يستعينَ بِركابٍ.

ويذره أحيانا أخرى. وعلى ذلك، يكون بين قوله (**ينزو**) و(**ينزع**) طباقٌ ساهم في إبراز المعنى وتقويته. وقد ساق أمير المؤمنين رضي الله عنه كلامه مساق الأمثال السائرة؛ ليكون ذلك أقوى في إبراز المعنى وترسيخه في نفس السامع.

[٣٦٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَفْضَلُ اللِّينِ مَا كَانَ مَعَ سُلْطَانٍ، وَأَفْضَلُ الْعَفْوِ مَا كَانَ عَنْ قُدْرَةٍ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يضع أمير المؤمنين رضي الله عنه قاعدةً يوضِّحُ فيها أفضل صور اللين وحسن صور العفو.

لطائف لغوية: قوله (**أفضل**): صيغة أفعل التفضيل تدلُّ على اشتراك شيئين أو أكثر في صفة، مع زيادتها في أحدهما. وربَّما جاءت تلك الصيغة في حال الاستواء في الصفة أو عدم الاشتراك فيها. فمن الأول: قول الله - تعالى - في الإخبار عن ذاته العلية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، فمن المعلوم أنَّ بدء الخلق أول مرة وإعادته يستويان في قدرة الله - تعالى -، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَىۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وكون الثاني أهون من الأول إنَّما هو في عقل البشر وقياسهم فحسب. ومن الثاني: قول النسوة لعمر رضي الله عنه وقد قال لهن - كما في صحيح البخاري وغيره -: أي عدوات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلن: نعم، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومعلوم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشارك عمر رضي الله عنه ولا غيره في هاتين الصفتين، وذلك ظاهر في سيرته صلى الله عليه وسلم وفي سياق الحديث، كيف وقد قال الله - تعالى - في وصفه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٢٦.

﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؟! وإنَّما أردن نفي الصفة عن رسول الله ﷺ وإثباتها لعمر رضي الله عنه.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَفْضَلُ اللِّينِ**)، و(**أفضل العفو**): صيغة أفعل التفضيل تدلُّ على فضل اللين عند القوة والسلطان وفضل العفو عند المقدرة على اللين والعفو في غير هاتين الحالتين. وقوله: (**قُدْرَةٍ**): كناية عن توفر أسباب البطش، والامتناع عنه – حينئذ – يكون خوفا من الله – تعالى – وطمعا فيما عنده.

[٣٦٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«جَالِسُوا التَّوَّابِينَ؛ فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ شَيْءٍ أَفْئِدَةً»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينصحُ أمير المؤمنين رضي الله عنه مستمعيه بالإكثار من مجالسة التوَّابين؛ شافعا ذلك ببيان فائدة تلك النصيحة.

البيان والبلاغة: قوله: (**جَالِسُوا التَّوَّابِينَ**): (**التَّوابين**): جمعُ توَّاب، على زِنة (فعَّال)، وهي من أوزان المبالغة الدالة على كثرة الفعل وتكراره. والفاء في قوله: (**فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ شَيْءٍ أَفْئِدَةً**) هي الفاء السببية التعليلية. وقد أكد كلامه بـ (**إنَّ**)؛ ليُذهِب من نفس السامع كلَّ شك فيما يقول. وتنكير (**شيءٍ**) لإفادة العموم، ثم أتبع هذا التعميم بالتمييز الذي خصصه، وهو قوله: (**أفئدةً**).

١- رواهُ وكيعٌ في «الزُّهدِ» (٢٧٩)، وأحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٣١)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦٠٦)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» ٢/ ٤٥١، وابنُ أبي الدُّنيا في «التَّوبةِ» (١٤٤)، وأبو نعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥١.

[٣٧٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«السَّيِّدُ: الْجَوَادُ حِينَ يُسْأَلُ، الْحَلِيمُ حِينَ يُسْتَجْهَلُ، الْكَرِيمُ الْمُجَالَسَةِ لِمَنْ جَالَسَهُ، الْحَسَنُ الْخُلُقِ عِنْدَ مَنْ جَاوَرَهُ» أَوْ قَالَ: «حَاوَرَهُ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يُبين أمير المؤمنين رضي الله عنه المعنى الصحيح لـ (السيِّد)، مصحِّحا لمستمعيه ما قد يكون عندهم من مفاهيم خاطئة.

لطائف لغوية: قوله: (**الجواد**): هو الكريم المعطاءُ. ويشيع عند الكثيرين نطق (الجوّاد) بتشديد الواو. والصحيح التخفيف، وهو المذكور في عامَّة المصادر اللغوية وغيرها.

البيان والبلاغة: (**أل**) في قوله: (**السَّيِّدُ**): لبيان الحقيقة. وبين قوله: (**الْجَوَادُ حِينَ يُسْأَلُ**) وقوله: (**الْحَلِيمُ حِينَ يُسْتَجْهَلُ**) موازنة، كما أنَّ بين (**يُسأل**) و(**يُستجهل**) سجعًا. ومثل ذلك يقال في الجملتين التاليتين. وبناء الفعلين (**يُسْأَلُ**) و(**يُسْتَجْهَلُ**) للمفعول؛ لإفادة العموم، ولأنَّ العبرة بتحليه بهاتين الصفتين، بغض النظر عن الفاعل.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٢٦ [وأول جملتين منه في عيون الأخبار (١/ ٢٢٥) وزاد (البار بمن يعاشر)].

[٣٧١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«تَعَلَّمُوا الْمِهْنَةَ؛ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَحْتَاجَ أَحَدُكُمْ إِلَى مِهْنَتِهِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين رضي الله عنه سامعيه بتعلم المهن؛ معللا ذلك بما يؤكد قوله.

البيان والبلاغة: قوله: (**تَعَلَّمُوا**): الأمر هنا للاستحباب وليس للإيجاب؛ فهو يأمر كي يعدِّل كل امرئٍ من سلوكه. وقوله: (**فإنَّه**): الفاء سببية وما بعدها سبب لما قبلها، و(**إنَّهُ**) ضمير الشأن الذي سبق الحديث عنه مرارا. واستعمل فعل المقاربة (**يُوشِكُ**)؛ ليُلقي في نفس السامع أنَّ احتياجه للعمل بهذه النصيحة قد يكون قريبا جدًّا. وقوله: (**أَنْ يَحْتَاجَ**): استعمل المصدر المؤوَّل لما له من ميزة في إفادة زمن الفعل وبيان الفاعل.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (٣١٧).

[٣٧٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ كَالصَّبِيِّ، فَإِذَا احْتِيجَ إِلَيْهِ كَانَ رَجُلًا»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه ما ينبغي أن يكون عليه الرجل في بيته وبين أهله.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي أُحِبُّ**): بدأ بالجملة الخبرية مؤكِّدا كلامه بـ (**إنَّ**)؛ ليعلم سامعه أنَّ الأمر من الأهمية بمكان، وإن كان متعلقا بجانب يخفى على الكثيرين. و(**أل**) في (**الرَّجل**) للعموم. وقوله: (**فِي أَهْلِهِ**): كناية عن الزوجة والبيت. وقوله: (**كَالصَّبِيِّ**): الكاف للتشبيه، و(**أل**) للجنس، وشبه الرجل بالطفل في وداعته ولِينه وخفَّة ظله. وقوله: (**كَانَ رَجُلاً**): كناية عن استقامة أفعاله وسلوكه وقدرته على تحمل المسئولية. واستعمل اسم الشرط (**إذا**) تعبيرا عن قرب وقوع فعل الشرط، ثم جوابه.

١- ذكرهُ ابنُ دُرَيدٍ في «أماليهِ» ص١٦٠، وابنُ الجوزيِّ في «مناقبِ أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطَّابِ» ص١٨٠.

[٣٧٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَتَّخِذُونَ مَجَالِسَ، لَا يَجْلِسِ اثْنَانِ مَعًا حَتَّى يُقَالَ: مِنْ صَحَابَةِ فُلَانٍ؟ مِنْ جُلَسَاءِ فُلَانٍ؟ حَتَّى تُحُومِيَتِ الْمَجَالِسُ. وَايْمِ اللهِ إِنَّ هَذَا لَسَرِيعٌ فِي دِينِكُمْ، سَرِيعٌ فِي شَرَفِكُمْ، سَرِيعٌ فِي ذَاتِ بَيْنِكُمْ، وَلَكَأَنِّي بِمَنْ يَأْتِي بَعْدَكُمْ يَقُولُ: هَذَا رَأْيُ فُلَانٍ، قَدْ قَسَمُوا الْإِسْلَامَ أَقْسَامًا، أَفِيضُوا مَجَالِسَكُمْ بَيْنَكُمْ، وَتَجَالَسُوا مَعًا؛ فَإِنَّهُ أَدْوَمُ لِأُلْفَتِكُمْ، وَأَهْيَبُ لَكُمْ فِي النَّاسِ. اللَّهُمَّ مَلُّونِي وَمَلَلْتُهُمْ، وَأَحْسَسْتُ مِنْ نَفْسِي وَأَحَسُّوا مِنِّي، وَلَا أَدْرِي بِأَيِّنَا يَكُونُ الْكَوْنُ، وَقَدْ أَعْلَمُ أَنَّ لَهُمْ قَبِيلًا مِنْهُمْ، فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**تُحُومِيَت**): قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «يقال: أَحْمَيْت المكان، فهو مُحْمىً: إذا جعلته حِمىً». وقوله: (**قَبِيلا**): قال الرازي - رحمه الله - في مختار الصحاح: «(**القَبِيل**): الجماعةُ تكون من الثلاثة فصاعدا من قوم شتى؛ مثل: الروم والزِّنج والعرب والجمع (قُبُل)».

مقتضى الحال: ذكر الطبري في تاريخ الأمم أن عمر رضي الله عنه قال هذا الكلام لرجال من قريش. ويبدو أن عمر حين بلغه عنهم هذا الفعل أراد أن ينبههم لمغبته وسوء عاقبته، فقال لهم هذا النَّص.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢١٣-٢١٤، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧٣ مُختصَرًا.

البيان والبلاغة: قوله: (**بَلَغَنِي**): استخدم زمن الماضي؛ ليؤكد لهم متابعته لكل صغيرة وكبيرة في شأن المسلمين، مما يستوجب عليه النصح من جانبه، والسمع والطاعة منهم له. وقوله: (**أَنَّكُمْ تَتَّخِذُونَ**): أكد الكلام بالجملة الاسمية؛ ليبين أن ما سيقوله مازال مستمرا في مجالسهم؛ ولذلك جعل اهتمامه بالفعل المضارع المرفوع بثبوت النون. وقوله: (**لا يَجْلِس اثْنَانِ**): جاء النهي باستخدام صيغة المضارع؛ ليؤكد استمرار الأمر وانتقاله من وقت التكلم إلى وقت المستقبل. وقوله: (**حَتَّى تُحُومِيَتِ**): استخدم (**حتَّى**) الغائية؛ ليتصور السامع إلى أي حدٍّ بلغ الأمر. وقوله: (**وَايْم اللهِّ**): أسلوب قسم عربي مشهور تخلله اسم الله، والقسم أقوى المؤكدات. وقوله: (**لَسَرِيعٌ**): (**اللام**) زائدة، تفيد تأكيد مضمون الجملة التي بعدها، وفي الجملة كناية عن سرعة انتشار الأمر بما يتطلب الوقوف ضده ومجابهته. وقوله: (**وَلَكَأَنِي**): (**اللام**) للتأكيد، والجملة المنسوخة بعدها تفيد تشبيهه وكأنه شاخص معهم. وقوله: (**هَذَا رَأْيُ فُلانٍ**): كناية عن مرجعية الرأي واتكائها على رأي صحابي؛ فينشق الناس ويزداد الانشقاق بينهم. وقوله: (**قَدْ قَسَمُوا الإِسْلامَ أَقْسَامًا**): عبر بالمفعول المطلق؛ ليؤكد الفعل السابق عليه، ويثير الغيرة في نفوس السامعين، ويستنفر الهمم، واستخدم أكثر من أداة لتأكيد قوله. وقوله: (**أَدْوَمُ لأُلْفَتِكُمْ**): جاءت الكلمة على وزن أفعل التي تفيد التفضيل؛ فما ذكره من أسباب هو أعون على دوام الألفة من غيره. وقوله: (**وَأَهْيَبُ**): يقال فيها ما قيل في سابقتها. وقوله: (**اللَّهُمَّ مَلُّونِي وَمَلَلْتُهُمْ**): في الجملة إيجاز حذف، والتقدير: اللهم إنَّهم ملُّوني

وإنِّي مللتهم. وقوله: (**فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ**): الفاء هي السببية التعليلية، والقبضُ: يراد به الموت. وقوله: (**وَأَحْسَسْتُ مِنْ نَفْسِي وَأَحَسُّوا مِنِّي**): في الجملة طباقٌ، وكناية عن الضيق من مخالطة الناس.

[٣٧٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا[١]»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(تُسَوَّدُوا)**: قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «وفي حديث عمر رضي الله عنه «**تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا**»، أي: تعلموا العلم مادمتم صغارا، قبل أن تصيروا سادة منظورا إليكم فتستحيوا أن تتعلموه بعد الكبر فتبقوا جهالا. وقيل: أراد قبل أن تتزوجوا وتشتغلوا بالزواج عن العلم، من قولهم: اسْتَادَ الرَّجُل، إذا تزوج في سادَةٍ».

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين رضي الله عنه بالمبادرة إلى التفقه، قبل أن تحول الشواغل بين المرء وبين التفقه.

البيان والبلاغة: بدأ بقوله: **(تَفَقَّهُوا)**: وهو فعل أمر؛ ليفضي إلى المقصود من الكلام مباشرة، وأطلق الأمر ولم يقيده بقيدٍ إما ليكون شاملا لكلِّ فقه نافع أو

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» (٢/ ٤١٨): (أي تعلَّموا العلمَ ما دمتم صغارًا، قبلَ أن تَصيروا سادةً منظورًا إليكم، فتَستحيوا أن تتعلَّموه بعدَ الكِبَرِ، فتبقوا جُهَّالًا).

٢- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» مُعلَّقًا (باب ١٥)، والدَّارميُّ في «السُّنَنِ» (٢٥٦)، ووكيعٌ في «الزُّهدِ» (١٠٢)، وزهيرُ بنُ حربٍ في «العلم» (٩)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٦٦٤٠)، والمرْوَذيُّ في «أخبارِ الشُّيوخ وأخلاقِهم» (٢٨٣)، وابنُ البختريِّ في «الأمالي» (١٢٩)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (١٥٤٩)، وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (٥٠٨) و(٥٠٩)، والشَّجريُّ في «ترتيبِ الأمالي» (٢٥١).

اعتمادًا على ما في أذهان السامعين من أنَّ الفقه هو الفقه في الدين والتفقه في كتاب رب العالمين. وقوله: (**قبل أنْ تسودوا**): استعمل المصدر المؤوَّل لما له من ميزة في إفادة زمن الفعل وبيان الفاعل.

[٣٧٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي لُزُومِ السُّنَّةِ

«رُدُّوا الْجَهَالَاتِ إِلَى السُّنَّةِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يأمر أمير المؤمنين رضي الله عنه بردِّ الشبهات ونحوها إلى السنة؛ لأنها محكمة مفصلة.

البيان والبلاغة: بدأ بقوله: **(رُدُّوا)**: وهو فعل أمر؛ ليفضي إلى المقصود من الكلام مباشرة. و**(أل)** في قوله **(الجهالات)**: إما أنَّها للعهد؛ فيكون المقصود بها جهالات ذكرت في مجلس أمير المؤمنين أو قُبيله، وعلى ذلك يكون التقدير: ردُّوا الجهالات المذكورة إلى السنة. وإمَّا أنَّها للاستغراق، أي: ردُّوا كل الجهالات إلى السنة. وقوله: **(إِلَى السُّنَّةِ)**، أي: إلى ما صح من سنة رسول الله ﷺ، فـ **(أل)** - هنا - لا يصلح أن تكون إلَّا للعهد.

١- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (١٣٢٦)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٥٥٤٥)، و«الصُّغرَى» (٢٨٢٣).

[٣٧٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«نِعْمَ الْعِدْلَانِ[١]، وَنِعْمَ الْعِلَاوَةُ[٢]: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]»[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**الْعِدْلَانِ**): جاء في معجم العين للخليل بن أحمد - رحمه الله -: «**العِدلان**: الحِملان على الدَّابَّة من جانبَين، وجمعه: أعْدالٌ، عُدِلَ أحدهما بالآخر في الاستواء؛ كي لا يرجح أحدهما بصاحبه». وقوله: (**الْعِلَاوَةُ**): قال الرازي - رحمه الله - في مختار الصحاح: «(**العِلاوة**) بالكسر ما علَّيت به على البعير بعد تمام الوِقْر، أو علَّقته عليه كالسِّقاء والسَّفُّودِ. والجمع (العَلاوَى)، بفتح الواو؛ مثل: إداوة وأداوَى».

مقتضى الحال: يمدحُ أمير المؤمنين رضي الله عنه آيتين من كتاب الله - تعالى -، مبيِّنا أنهما كافيتان في الدلالة على المطلوب من الصبر عند الشدائد.

١- العِدْل والعَدْل، بالكسرِ والفتحِ: المِثْلُ. والعِدلانِ: المِثلانِ «النِّهاية» ٣/ ١٩١، «فتح الباري» ٣/ ١٧٢.

٢- العِلاوة: ما يُحمَلُ على البعيرِ وغيرِه، وهو ما وُضِع بينَ العِدلينِ. «لسان العرب» ١٥/ ٨٩.

٣- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» مُعلَّقًا، باب: الصَّبر عندَ الصَّدمةِ الأُولَى. والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٣٠٦٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٧١٢٦)، و«شُعَبِ الإيمانِ» (١٤٨٤) و(٩٢٣٩).

البيان والبلاغة: قوله: (**نِعمَ العِدلانِ**): بدأ بأسلوب المدح ليجذب انتباه سامعِه إلى ما سيأتي من ذكر الممدوح؛ فيكون ذلك أرسخ في ذهنه وأوعى في قلبه. ثم قال: (**نِعمَ العِدلانِ، ونِعمَ العِلاوةُ**): فكنَّى بـ (**العِدلان**) عن الصلاة والرحمة من الله - تعالى -، وبـ (**العلاوة**) عن الهداية، كما قال الحافظ في الفتح. وفي النصِّ اقتباسان من كتاب الله - تعالى - يدلان على تمسُّك أمير المؤمنين رضي الله عنه بكتاب الله - تعالى - وارتباطه به.

[٣٧٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَوْلَا ثَلَاثٌ لَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ لَقِيتُ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ -: لَوْلَا أَنْ أَضَعَ جَبْهَتِي للهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَأَجْلِسَ فِي مَجَالِسَ يُنْتَقَى فِيهَا طَيِّبُ الْكَلَامِ كَمَا يُنْتَقَى فِيهَا طَيِّبُ الثَّمَرِ، وَأَنْ أَسِيرَ فِي سَبِيلِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبوح أمير المؤمنين رضي الله عنه بما في نفسه من أسباب لولاها لكان الموتُ أحبَّ إليه من الحياة.

البيان والبلاغة: قوله: **(لولا)**: حرف امتناع لوجود، وهو دالٌّ على الشرط كذلك، وقد سبق الحديث عنه غير مرة. وقوله: **(لَأَحْبَبْتُ)**: **(اللام)** لام العاقبة، والفعل بعدها نتيجة لما قبلها. وقوله: **(أَنْ أَكُونَ قَدْ لَقِيتُ)**: استعمل المصدر المؤوَّل لما له من ميزة في إفادة زمن الفعل وبيان الفاعل، وصدَّر كلامه بـ **(قد)** فأفادت الجزم والتوكيد. وجملة: **(عزَّ وجلَّ)**: تكررت ثلاث مرات، وهي إطنابٌ يراد به ذكر الله - تعالى -، وتعظيمه، والتلذذ بذكره. وقوله: **(لله)**: دلت **(اللام)** على اختصاص السجود بكونه لله، فلا يكون ولا ينبغي أن يكونَ إلا لله - تعالى -. وقوله: **(كَمَا يُنْتَقَى)**: تشبيه تام؛ حيث شبه الكلام بأطايب الطعام، واستخدم **(كما)** لتدل على التشبيه المقصود.

١- رواهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٠٧).

[٣٧٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَنْ يَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ، وَلَمْ يَتَنَطَّعُوا تَنَطُّعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يَتَنَطَّعُوا**): قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «ومنه حديث عمر: «**لَنْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا عَجَّلْتم الفِطرَ، وَلَمَ تَنَطَّعُوا تَنطُّعَ أَهْلِ العِراق**»، أي: تتكلفوا القول والعمل».

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه أن تعجيل الفطر علامةٌ على بقاء الخير في هذه الأمة، خلافا لما اعتاده أهل العراق من التكلف بتأخيره.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَنْ يَزَالُوا**): بدأ بهذه العبارة الدالة على الاستقبال؛ تأكيدا لاستمرار هذا الحكم في المستقبل ما استمر شرطُه. وقوله: (**مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ**): (**ما**) هي المصدرية الظرفية، بمعنى: مدة استمرارهم في تعجيل الفطر. ومجيء المصدر في قوله: (**تَنَطُّعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ**) دلَّ على تأكيد الفعل وبيان صورته أو نوعه، فهو تنطُّعٌ من جنس ما يفعله أهل العراق من التنطع. وإضافة التنطع إلى أهل العراق يدلُّ على أنَّهم بلغوا فيه الغاية حتى صار صفة غالبة عليهم. وفي النصِّ تأثر واقتباس من حديث النبيِّ ﷺ المتفق عليه: «**لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ**».

١- رواهُ الفريابيُّ في «الصِّيامِ» (٤٦)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٥٨/ ١٨٤.

[٣٧٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«زَوِّجُوا أَوْلَادَكُمْ إِذَا بَلَغُوا، وَلَا تَحْمِلُوا آثَامَهُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين رضي الله عنه الآباء بالمبادرة إلى تزويج أولادهم فور البلوغ؛ كيلا يتحملوا سيئاتهم التي تسببها شهوة الولد إذا بلغ.

البيان والبلاغة: قوله: (**زَوِّجُوا أَوْلَادَكُمْ**): هو جواب شرط قُدِّم على أداة الشرط وفعلها لأهميته، والتقدير: إذا بلغ أولادكم فزوِّجوهم ... وقوله: (**إِذَا بَلَغُوا**): استعمل (**إذا**) الشرطية دون غيرها؛ للدلالة على قرب وقوع فعل الشرط. وقوله: (**وَلَا تَحْمِلُوا آثَامَهُمْ**): فيه إيجاز قِصَر شديد بليغ، والتقدير: ولا تؤخِّروا زواجهم فيقعوا في المعاصي بسبب شهوتهم، فيأثموا، فتحملوا آثامهم.

١- «مُسنَد الفاروقِ» لابنِ كثيرٍ ١/ ٣٩٧.

[٣٨٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَيُّهَا النَّاسُ، كُتِبَ عَلَيْكُمْ ثَلَاثَةُ أَسْفَارٍ: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ، كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْجِهَادُ، كُتِبَ عَلَيْكُمْ أَنْ يَبْتَغِيَ الرَّجُلُ بِمَالِهِ فِي وَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْمُسْتَعِينُ وَالتَّصْدِيقُ. فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ أَمُوتَ وَأَنَا أَبْتَغِي بِنَفْسِي وَمَالِي فِي وَجْهٍ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ فِي سَبِيلِ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ عَلَى فِرَاشِي، وَلَوْ قُلْتُ: إِنَّهَا شَهَادَةٌ. رَأَيْتُ أَنَّهَا شَهَادَةٌ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يحدّث أمير المؤمنين رضي الله عنه ببعض فرائض الله على عباده، ثمَّ يؤكِّد على أهمية العمل والسعي في سبيل الله - تعالى -.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَيُّهَا النَّاسُ**): تنبيه للناس لقربهم من نفسه، وحرصه على تعليمهم ما لهم وما عليهم من أمور الدنيا والدين. وقوله: (**كُتِبَ عَلَيْكُمْ ثَلَاثَة**)، أي: فرضت عليكم أمور ثلاثة حتمية عندما يتطلبها الأمر، ويستدعيها الموقف. وقوله: (**أَنْ يَبْتَغِيَ**)، أي: يتخذها وجهة له يقصدها في مرضاة الله، ويعقد عليها النية في الحاضر وما يستقبل من الزمان. وقوله: (**وَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ**): كناية عن عرض جميع الوجوه الممكنة، وأن يتخير منها ما يتطلبه الأمر وتختاره وتميل إليه النفس وتقتنع به. وقوله: (**فَالْمُسْتَغْنِي وَالْمُتَصَدِّقُ**): تفصيل بتعديد الوجوه الممكنة، وكأن المتحدث يوجه السامع إلى التفصيلات التي تغيب عن ذهنه. وقوله: (**فَوَالَّذِي**

١- رواهُ ابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٤٦، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٢٦٢٦)، والخلَّالُ في «الحثِّ على التِّجارةِ (٦٢).

نَفْسِي بِيَدِهِ): أسلوب قسم عرفت صيغته من سنة النبي ﷺ، وكثرت في أحاديثه الشريفة، وتناقلتها ألسن الصحابة ﭫ، وفيها الاعتماد في الأولى والأخرة على خالق الكون الذي بيده مقاليد الأمور. وقوله: (**لَأَنْ أَمُوتَ وَأَنَا أَبْتَغِي**): صدر جملته هذه باللام المؤكدة؛ لأهمية وخطر ما يأتي بعدها، والواو: حالية. وقوله: (**أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ** ...): استعمل المصدر المؤوَّل في (**أنْ أموتَ**) مرتين؛ لما له من ميزة في إفادة زمن الفعل وبيان الفاعل، وجاء الخبر على صيغة (أفعل) الدالة على المفاضلة بين شيئين. وقوله: (**وَلَوْ**): (**الواو**) وصلت السابق باللاحق، و(**لو**) أداة شرط تحمل معنى الامتناع للامتناع.

[٣٨١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِرَاعٍ شَكَا إِلَيْهِ الْجُوعَ بِأَرْضِهِ

«لَأَنْ أُخْطِئَ سَبْعِينَ خَطِيئَةً بِرُكْبَةَ[1]، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُخْطِئَ خَطِيئَةً وَاحِدَةً بِمَكَّةَ»[2].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه حرمة البلد الحرام، وأنَّ الذنب فيه أعظم من غيره.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَأَنْ أُخْطِئَ**): بدأ كلامه باللام الموطئة للقسم، والتي تفيد التوكيد، ثم أتبعها بالمصدر المؤول ليحمل معه الدلالة على الزمن والتذكير بالفاعل. وقوله: (**سَبْعِينَ خَطِيئَةً**): العدد - هنا - خرج مخرج المبالغة، وليس مقصودا في ذاته. وهذا التعبير مأخوذ من قول الله - تعالى -: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠]. وقوله: (**أَحَبُّ إِلَيَّ**): عبر بالمضارع؛ ليبعث روح الاستمرار في توجيه المعنى إلى المستقبل. وقد جاء لفظ النصِّ مساويا للمعنى؛ فلا إيجاز ولا إطناب.

١- رُكْبَة: مَوضِعٌ بالحجازِ بينَ غَمْرةَ وذاتِ عِرْقٍ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (ركب).

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٨٨٧١)، والأزرقيُّ في «أخبارِ مكَّةَ» ٢/ ١٣٤، والفاكهيُّ في «أخبارِ مكَّةَ» (١٤٣١).

[٣٨٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ رَأَى رَجُلا يَسْحَبُ شَاةً بِرِجْلِهَا لِيَذْبَحَهَا

«وَيْلَكَ! قُدْهَا إِلَى الْمَوْتِ قَوْدًا جَمِيلًا»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يزجر أمير المؤمنين رضي الله عنه رجلا رآه مخالفا لسنة الإسلام في الرأفة بالحيوان.

البيان والبلاغة: بدأ رضي الله عنه بقوله: (**وَيْلَكَ**)، وهي جملة دعائية بالشر، وفيها توبيخ وتحذير من غضب الله - تعالى -؛ واختيارها للبدء جعل الكلام صادما للسامع رادعا له عن الاسترسال فيما هو عليه من الخطأ. وقوله: (**قُدْهَا**): أمر، الغرض منه الإرشاد والنصح. وقوله: (**قَوْدًا جَمِيلا**): التعبير بالمصدر له قوته الدلالية في تأكيد المعنى، وزيادة التوضيح عند بيان النوع.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٨٦٠٥)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٩١٤٣).

[٣٨٣]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

لِرَاعٍ شَكَا إِلَيْهِ الْجُوعَ بِأَرْضِهِ

«أَلَسْتَ بِأَرْضٍ مَضَبَّةٍ[١]؟» قَالَ: بَلَى، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ عُمَرُ: «مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِالضِّبَابِ حُمْرَ النَّعَمِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «وهي أرض مَضَبَّة، أي: ذات ضِبَابٍ، مثل مأسَدَة، ومَذْأَبَة، ومَرْبَعة، أي: ذات أسود وذئاب ويَرَابيع».

البيان والبلاغة: قوله: (**أَلَسْتَ بِأَرْضٍ مَضَبَّةٍ؟!**): الاستفهام - هنا - ليس حقيقيًّا، وإنَّما هو استفهام تقريري؛ فعمر رضي الله عنه يعلم طبيعة أرض الرَّجل، لكنه يريد أن يقرره بهذه الحقيقة؛ كي يبني عليها كلامه. ثمَّ انطلق من هذا التقرير ليعلم الرَّجل أنَّ لأرضه ميزة لا تقدَّر بثمن، فقال: (**مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِالضِّبَابِ حُمْرَ النَّعَم**). وقدَّم كلمة (**بالضِّباب**) على اسم إنَّ (**حُمْرَ النَّعم**) للتخصيص والاهتمام والتأكيد. وقوله: (**حُمْرَ النَّعَم**): كناية عن الثمين من الأموال والأشياء؛ فقد كانت هذه الكلمة عند العرب كالمثل السائر يضرب للشيء النفيس.

١- أَرْضٌ مَضَبَّةٌ: أَي ذَاتُ ضِبَابٍ، مِثْلُ: مَأْسَدَةٍ، ومَذْأَبةٍ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (ضبب).
٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٨٦٧٧).

[٣٨٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ الرَّجْفَ مِنْ كَثْرَةِ الزِّنَا، وَإِنَّ قُحُوطَ الْمَطَرِ مِنْ قُضَاةِ السُّوءِ وَأَئِمَّةِ الْجَوْرِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين – أمير المؤمنين رضي الله عنه بعض الحقائق الغيبية التي تتعلق ببعض الذنوب وسوء عاقبتها.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ الرَّجْفَ**): بدأ كلامه بـ (**إنَّ**) التوكيدية؛ لأنَّ البعض قد يتشكك فيه؛ لأنه غيب غير ظاهر للعيان؛ ولأنَّ الأمر من الأهمية والخطورة بمكان. ثم فعل نفس الشيء في الجملة التالية، فقال: (**وإنَّ قحوط ...**). والإضافة إلى المصدر في قوله: (**قُضاة السوء وأئمة الجور**) أفادت المعنى قوَّة وتجسيدًا، فكأنَّ السُّوء صار عَلَمًا على هؤلاء القضاة، والجورَ صار كذلك على أولئك الأئمة، وهو كناية عن بلوغهم في السوء والجَور أقصاه. وفي النصِّ إيجازٌ بالقِصَرِ شديد، والتقدير: إنَّ الرَّجف عقوبة من الله على كثرة الزنا بين الناس، وإنَّ قحوط المطر عقوبة من الله على قضاء قضاة السوء وجور أئمة الجور.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «المطرِ والرَّعدِ والبرقِ» (٥٦).

[٣٨٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَبَيْتٌ بِرُكْبَةَ[١] أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عَشَرَةِ أَبْيَاتٍ بِالشَّامِ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: جاء في روايات هذا الأثر وشروحه أنَّ عمر رضي الله عنه خرج من المدينة يريد الشام، وفي الطريق بلغه نزول الطَّاعون بها، فقفَّى راجعا إلى المدينة، ثم قال هذا النصَّ.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَبَيْتٌ بِرُكْبَةَ**): بدأ باللام الموطئة للقَسمِ؛ استدعاءً لانتباه السامع وليذهب بالشكِّ عنه في كون الكلام حقيقيًّا مقصودًا لا مجازيًا عابرا. وقوله: (**أَحَبُّ إِلَيَّ**): استعمل (أفعل) التفضيل ليكون أبلغ في بيان المعنى ونقل الشعور. وقوله: (**عَشَرة أبيات**): ذِكرُ العدد - هنا - لا اعتبار له وإنَّما خرج مخرج المُبالغةِ. والجملة جاءتْ كناية عن الصِّحَّة والحياة من جهة وعن المرض والموت من جهة أخرى، كما بيَّنت كتب الشروح. وعلى ذلك يكون في الجملة طباق بين قوله: (**بيتٌ بركبة**)، وقوله: (**عشرة أبيات بالشام**).

١- رُكْبة: مَوضِعٌ بالحجازِ بينَ غَمْرةَ وذاتِ عِرْقٍ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (ركب).

٢- رواهُ مالكٌ في «الموطَّإ» (٣٣٣٣).

[٣٨٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِأَبِي سُفيَانَ بْنِ حَرْبٍ

«لَا أُحِبُّكَ أَبَدًا؛ رُبَّ لَيْلَةٍ غَمَمْتَ فِيهَا رَسُولَ اللهِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يوجِّه أمير المؤمنين خطابه لأبي سفيان رضي الله عنه، مبينا تحفظه في حبِّه وعلة ذلك.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين خطابه لأبي سفيان رضي الله عنه بالنفي وبهذا الحرف الممدود الذي يُعِين المتحدِّث على قضاء نَهَمته من النفي والتأكد من بلوغه أسماع المخاطب وجذب انتباهه له. ثم بين المنفيَّ بهذا الحرف فقال: (**لا أُحِبُّكَ أَبَدًا**). وقد أكَّد نفيَه بكلمة (**أَبَدًا**) التي تفيد استمرار النفي في المستقبل. وعقَّب على ذلك ببيان علة هذا الحكم، فقال: (**رُبَّ ليلةٍ غَمَمْتُ فِيها رَسُولَ الله**) ﷺ. ومع أنَّ (**رُبَّ**) تفيد الشكَّ والتقليل، ومع أنَّ أبا سفيان كان – حينئذٍ – مشرِكًا، إلا أنَّ ذلك كافٍ عند عمرَ رضي الله عنه لمعاتبة أبي سفيان هذا العتاب الشديد، وفي ذلك كناية قوية عن شدة حبه لرسول الله ﷺ.

١- رواهُ ابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢٣/ ٤٧١.

[٣٨٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَرَأَيْتُمْ إِنِ اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ خَيْرَ مَنْ أَعْلَمُ، وَأَمَرْتُهُ بِالْعَدْلِ؛ أَقَضَيْتُ مَا عَلَيَّ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «لَا، حَتَّى أَنْظُرَ فِي عَمَلِهِ: أَعَمِلَ مَا أَمَرْتُهُ، أَمْ لَا؟»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه مستمعيه مبينا لهم منهجه في اختيار وتقويم الولاة.

لطائف لغوية: قوله: (خَير): هو من صيغة أفعل التفضيل وإن لم يأخذ صورتها. وذلك أنَّ أصل (خير) و(شر): أخير وأشرُّ، ثم حذفت همزتها لكثرة الاستعمال حذفًا على غير قياس. ومن الجائز إرجاعها إلى الأصل عند استعمالها، كما في قول الراجز:

بـلال خـيرُ النـاسِ وابنُ الأخْيَرِ

وقد قُرِئ ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشَرُّ﴾ [القمر: ٢٦]، بفتح الشين وتشديد الراء.

وقد اجتمع في آية قرآنية واحدة استعمال كلمة (خير) لغير التفضيل، ثم

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٦٦٥)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرى» (١٦٦٥٥)، و«شُعَبِ الإيمانِ» (٧٠١٠)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ١٠/ ٢٦٢ و٤٤/ ٢٨٠.

للتفضيل، وذلك في قوله تعالى: ﴿... إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

البيان والبلاغة: الهمزة في قوله: (**أَرَأَيْتُمْ**) هي همزة الاستفهام، وبِدْء أمير المؤمنين رضي الله عنه بها = فيه من إثارة الذهن وجذب الانتباه ما فيه، وهذا أسلوب نبويٌّ بليغ له عشرات الأمثلة في سنة النبي ﷺ. واستعمل بعد ذلك أسلوب الشرط الذي يعلِّق تحقق الجواب على تحقق الشرط. وقوله: (**خَيْرَ مَنْ أَعْلَمُ**): عبَّر بصيغة التفضيل (**خير**) تقوية للمعنى ومبالغة في بيانه، وأتى بالفعل المضارع (**أعلم**) للدلالة على الاستمرار في هذا النَّهج حتى زمن الاستعمال. وقوله: (**أَقَضَيْتُ مَا عَلَيَّ؟**): فيه إيجاز بالحذف، والتقدير: أأكون - حينئذٍ - قضيتُ ما عليَّ أم لا؟ ويقال نفس الكلام في قوله: (**لا، حتَّى** ...)، والتقدير: لا أكون - حينئذٍ - قضيتُ ما عليَّ حتَّى ... ثم انتقل من الإيجاز إلى الإطناب في قوله: (**حَتَّى أَنْظُرَ فِي عَمَلِهِ: أَعَمِلَ مَا أَمَرْتُهُ، أَمْ لا**)؛ لأنَّ النظر في عملِه لا يُفهم منه إلا ما ذكره بعدُ. والغرض من هذا الإطناب والتفصيل بعد الإجمال: زيادة التأكيد والبيان. وإن كان هذا الإطناب لا يخلو من إيجاز، فقوله: (**أَعَمِلَ مَا أَمَرْتُهُ، أَمْ لا؟**) تقديره: أعمل ما أمرته به من العمل أم لم يعمل به؟

[٣٨٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِأَبِي ظَبْيَانَ[١]

«يَا أَبَا ظَبْيَانَ، اتَّخِذْ مِنَ الْحَرْثِ وَالسَّابِيَاءِ[٢]، مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلِيَكُمْ غِلْمَةُ قُرَيْشٍ، لَا يُعَدُّ الْعَطَاءُ مَعَهُمْ مَالًا»[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(السَّابِياء)**: قال ابن الأثير – رحمه الله – في النهاية في غريب الحديث والأثر «يريد به النِّتاج في المواشي وكثرتها. يُقال: إنَّ لآل فلان سابِياءَ، أي: مواشي كثيرة. والجمعُ: السَّوَابِي. وهي في الأصل: الجلدة التي يخرجُ فيها الولدُ، وقيل: هي المشيمة».

مقتضى الحال: يخاطبُ أمير المؤمنين رضي الله عنه أبا ظبيانَ آمرا إياه باتخاذ الزرع والإنتاج قبل أن يلي الأمر غلمان قريش فيقلَّ العطاء. وقد بيَّن ابن الأثير – رحمه الله – في النهاية: أنَّ عمر رضي الله عنه بدأ بسؤال أبي ظبيان عن مقدار عطائه.

١- حُصَيْنُ بنُ جُنْدُبِ بنِ عمرٍو، مِن علماءِ الكوفةِ. وكانَ ممَّن غزا القسطنطينيَّةَ معَ يزيدَ بنِ معاوية سنةَ خمسينَ. تُوفِّي سنةَ تسعٍ وثمانينَ. وقيلَ: سنةَ تسعينَ. «سير أعلام النُّبلاءِ» ٤/ ٣٦٢.

٢- يريدُ الزِّراعةَ والنِّتاجَ. والسَّابياءُ هي النِّتاجُ.

٣- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨٨٧٠)، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٥٧٦)، وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (١٣١٧)، واللَّفظُ للبخاريِّ.

البيان والبلاغة: قوله: (**يَا أَبَا ظَبْيَانَ**): بدأ أمير المؤمنين ﵁ حديثه بهذا النداء الذي يفيض رقة وعذوبة، وذلك: ظاهر في أمرين: الأول: أداة النداء (**يا**) التي للبعيد، والبعد هنا بعد مكانة لا مكان، أو يقال: إنَّه عدل إلى أداة النداء التي للبعيد؛ دفعا لغفلة المنادَى وطلبا لتنبيهه. والثاني: عدوله عن الاسم إلى الكنية، والعرب تعدُّ الكنية علامة على التوقير والتبجيل. وهذا من براعة استهلال أمير المؤمنين ﵁ حيث جعل هذا النداء اللطيف مقدمة بين يدي نصيحته، وذلك أدعى لقبولها. فلما رأى عمر ﵁ أنَّ حُصينًا قد تهيَّأ لاستقبال النصيحة شرع في نصحه فقال: (**اتَّخِذْ مِنَ الْحُرْثِ وَالسَّابِيَاءِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلِيَكُمْ غِلْمَةُ قُرَيْشٍ، لَا يُعَدُّ الْعَطَاءُ مَعَهُمْ مَالا**). وفي قوله: (**غِلْمَةُ قُرَيْشٍ**): جاءت (**غِلْمَة**): على وزن فِعلة، وهو من جموع القلة، تحقيرًا لشأنهم وإن كثُر عددهم.

[٣٨٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِسَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْجَعِيِّ[١]، وَمَنْ نَدَبَهُمْ مَعَهُ لِلْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ

«انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللهِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ؛ تُقَاتِلُونَ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، لَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا شَيْخًا هَمًّا، وَإِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى الْقَوْمِ فَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْجِهَادِ، فَإِنْ قَبِلُوا فَهُمْ مِنْكُمْ، فَلَهُمْ مَا لَكُمْ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ بِلَا جِهَادٍ، فَإِنْ قَبِلُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُ لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ، فَإِنْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى الْجِزْيَةِ، فَإِنْ قَبِلُوا فَضَعْ عَنْهُمْ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ، وَضَعْ فِيهِمْ جَيْشًا يُقَاتِلْ مَنْ وَرَاءَهُمْ، وَخَلِّهِمْ وَمَا وَضَعْتَ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَقَاتِلْهُمْ، فَإِنْ دَعَوْكُمْ إِلَى أَنْ تَعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَا تُعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَلَا ذِمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَلَكِنْ أَعْطُوهُمْ ذِمَمَ أَنْفُسِكُمْ، ثُمَّ قُولُوا لَهُمْ، فَإِنْ أَبَوْا عَلَيْكُمْ فَقَاتِلْهُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ نَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ»[٢].

١- سَلَمَةُ بنُ قَيْسٍ الأَشْجَعِيُّ الغَطَفانيُّ، لهُ صحبةٌ، ولهُ روايةٌ عنِ النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -، يُقالُ: نزلَ الكوفةَ. «الإصابة» ٣/ ١٢٨.

٢- رواهُ أبو يوسفَ في «الخراج» ص٢١١-٢١٢ مُختصَرًا، وسعيدُ بنُ منصورٍ في «سُنَنِه» (٢٤٧٦) واللَّفظُ لهُ، و«المنتظم في التَّاريخ» ٤/ ٢٧٧.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه أحد قادته ناصحا ومذكرا إياه ببعض الأمور والأحكام والأخلاق التي لابدَّ وأن ينتبه لها في قتاله عدوَّه.

البيان والبلاغة: قوله: (**انْطَلِقُوا**): أسلوب إنشائي، واستعمال فعل الأمر يحمل مدلول الإرشاد والتوجيه. وقوله: (**بِاسْمِ اللهِ**): الباء للاستعانة والتبرك باسم الله - تعالى -. وقوله: (**تُقَاتِلُونَ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ**): أَسلوب خبري الغرض منه التفصيل بعد الإجمال. وقوله: (**لَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً**): اعتمد على المضارع الذي انتقلت صيغته من المضارع إلى الأمر بـ (**لا**) الناهية، وتمديد العمل بالأمر من الحاضر إلى المستقبل الممتد إلى زمان آخر. وهنا في هذا التعدد حسن تقسيم، والتفصيل فيه دقة كبيرة، يبدأ بالتحذير من الغلو، والغدر، والتمثيل بالأجساد، والتعدي على المرأة. وقوله: (**فَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ**): الفاء تدل على الترتيب والتعقيب، والأسلوب إنشائي الغرض منه الأمر والإلزام بهذا الترتيب. وقوله: (**فَإِنْ قَبِلُوا**)، (**وَإِنْ أَبَوْا**) الجملة الشرطية تحمل الرأفة والرحمة في عرض القضية، ويكون جواب الشرط مبينا للحقوق والواجبات التابعة. وقوله: (**بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ**) القدر فيه الاستطاعة والديمومة عليه، وكناية عما يستطيعون من مال أو أعمال. وقوله: (**يُقَاتِلُ مَنْ وَرَاءَهُمْ**)، أي: يحميهم، وهو حقهم؛ فما داموا سلموا بدفع الجزية فعلى المسلمين حمايتهم، وإلا ترد إليهم جزيتهم.

[٣٩٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّ قَوْمًا يُفَضِّلُونَهُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ

«إِنِّي سَأُخْبِرُكُمْ عَنِّي وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ارْتَدَّتِ الْعَرَبُ، وَمَنَعَتْ شَاتَهَا وَبَعِيرَهَا، فَأَجْمَعَ رَأْيُنَا كُلِّنَا - أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ - أَنْ قُلْنَا: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُقَاتِلُ الْعَرَبَ بِالْوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ يَمُدُّهُ اللهُ بِهِمْ، وَقَدِ انْقَطَعَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَالْزَمْ بَيْتَكَ وَمَسْجِدَكَ؛ فَإِنَّهُ لَا طَاقَةَ لَكَ بِقِتَالِ الْعَرَبِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوَكُلُّكُمْ رَأْيُهُ عَلَى هَذَا؟ فَقُلْنَا: نَعَمْ. فَقَالَ: وَاللهِ لَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفَنِي الطَّيْرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا رَأْيِي!

ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللهَ، وَكَبَّرَهُ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاس، مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ. أَيُّهَا النَّاس، أَأَنْ كَثُرَ أَعْدَاؤُكُمْ، وَقَلَّ عَدَدُكُمْ؛ رَكِبَ الشَّيْطَانُ مِنْكُمْ هَذَا الْمَرْكَبَ؟! وَاللهِ لَيُظْهِرَنَّ اللهُ هَذَا الدِّينَ عَلَى الْأَدْيَانِ كُلِّهَا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ. قَوْلُهُ الْحَقُّ، وَوَعْدُهُ الصِّدْقُ، **{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}**[1] وَ**{كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ**

١- سورة الأنبياء: آية ١٨.

غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}[١]، وَاللهِ - أَيُّهَا النَّاس -، لَوْ أُفْرِدْتُ مِنْ جَمِيعِكُمْ لَجَاهَدْتُهُمْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أُبْلِيَ بِنَفْسِي عُذْرًا أَوْ أُقْتَلَ قَتْلًا. وَاللهِ - أَيُّهَا النَّاس -، لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا لَجَاهَدْتُهُمْ عَلَيْهِ، وَاسْتَعَنْتُ عَلَيْهِمُ اللهَ وَهُوَ خَيْرُ مُعِينٍ».

ثُمَّ نَزَلَ فَجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أَذْعَنَتِ الْعَرَبُ بِالْحَقِّ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه الناس، وقد بلغه تفضيل بعضهم له على أبي بكرٍ رضي الله عنه، مبينا جانبا من فضائل أبي بكر وسيرته التي فاق فيها سائر الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين -.

البيان والبلاغة: عبارات هذا النصِّ موزَّعة بين صاحبي رسول الله ﷺ عمر الفاروق وأبي بكر الصديق رضي الله عنهما . وقد افتتح عمر رضي الله عنه حديثه بالتأكيد بـ (**إنَّ**)؛ لأنَّ بعض المخاطبين في شك مما سيقول؛ حيث يفضلونه على أبي بكر رضي الله عنه. وقوله: (**وَمَنَعَتْ شَاتَهَا وَبَعِيرَهَا**): كناية عن منع زكاة المال؛ لأن الأنعام كانت أكثر أموال العرب آنذاك. وبين (**شَاتَهَا**) و(**بَعِيرَهَا**) سجع أعطى الكلام جرسا حلوا. وقوله: (**أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ**): إطناب بالتخصيص؛ أراد منه بيان ما في الضمير من إبهام. وقوله: (**فَالْزَمْ بَيْتَكَ وَمَسْجِدَكَ**): كناية عن طلب الانقطاع عن الناس، وترك الانشغال بأحوالهم. وقوله: (**ثُمَّ نَزَلَ فَجَاهَدَ**): استعمل الفاء الدالة على الترتيب

١- سورة البقرة: آية ٢٤٩.

٢- ذكرهُ المبرّدُ في «الكاملِ» ٢/ ٥٠٦-٥٠٧ ط الرِّسالة، والآبِيُّ في «نثرِ الدُّرِّ» ٢/ ١٠-١١، وابنُ حمدونٍ في «التَّذكرةِ» ١/ ١٢٠-١٢١.

مع التعقيب والسرعة = فيه دليل على أنَّ أبا بكر رضي الله عنه لم يلبث أن انشغل وانخرط في الجهاد في سبيل الله - تعالى - حتى حفظ الله - عز وجل - به هذا الدين.

[٣٩١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِأَبِي مَرْيَمَ الْحَنَفِيِّ[١]«وَاللهِ لَا أُحِبُّكَ حَتَّى تُحِبَّ الْأَرْضُ الدَّمَ الْمَسْفوحَ[٢]». قَالَ: فَتَمْنَعُنِي لِذَلِكَ حَقًّا؟ قَالَ عُمَرُ: «لَا». قَالَ: فَلَا ضَيْرَ، إِنَّمَا يَأْسَفُ عَلَى الْحُبِّ النِّسَاءُ[٣].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه أبا مريم الحنفي قاتلَ زيد بن الخطاب (أخي عمر)، مبينا له أنَّه لا يستطيع حبَّه أبدًا بسبب فعلته تلك، وإن تاب منها.

البيان والبلاغة: قوله: **(واللهِ لَا أُحِبُّكَ)**: بدأ عمر رضي الله عنه بالقسم أقوى أنواع المؤكِّدات؛ لأنَّ الخبر الذي سيلقيه على مسامع أبي مريم الحنفي شديد الوقع فلابدَّ أن يصحبه ما ينفي الشكَّ عنه، ولأنَّ القسم له ما ليس لغيره من قوة في استدعاء الانتباه وإصغاء السماع تشوقا لمعرفة المقسم عليه. وقوله: **(حتى تُحِبَّ الأَرْضُ)**: علَّق حبَّه إياه على أمر محال؛ كناية عن استحالة وقوع ذلك الحبِّ. وفي إسناد الحبِّ للأرض استعارة مكنية؛ حيث شبه الأرض بالإنسان، ثمَّ حذف المشبه به وأتي بشيء من لوازمه، وهو الحبُّ. وقوله: **(لا)**: فيه إيجاز بالحذف، والتقدير: لا أمنعك

١- أبو مريمَ إِيَاسُ بنُ صُبَيْحٍ الحنفيُّ، وكانَ مِن أهلِ اليمامةِ، وكانَ مِن أصحابِ مُسيلمةَ، وهو قتلَ زيدَ بنَ الخطَّابِ بنِ نُفَيلٍ يومَ اليمامةِ، ثمَّ تابَ وأسلمَ، وحسُن إسلامُه، وولِيَ قضاءَ البصرةِ بعدَ عمرانَ بنِ الحصينِ في زمنِ عمرَ بنِ الخطَّابِ. «الطَّبقات الكبرى» ٧/ ٩١.

٢- دَمٌ مَسفوحٌ: أي مُرَاقٌ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (سفح).

٣- ذكرهُ الجاحظُ في «البيانِ والتَّبيينِ» ٢/ ٦٠، والمبرّدُ في «الكاملِ» ٢/ ١٤٥، والآبيُّ في «نثرِ الدُّرِّ» ٢/ ٢٧.

لذلك حقًّا. وهذا جريٌّ من عمر رضي الله عنه على سنن العرب والعربية الفصيحة في حذف ما يُعلم من الكلام. قال ابن مالك النحوي - رحمه الله -:

وحذف ما يُعـلم جـائزٌ، كما   تقـول: زيـد، بعد: من عنـدكما؟

[٣٩٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي فَضْلِ مَسْجِدِ قُبَاءٍ

«وَالله لَأَنْ أُصَلِّيَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ صَلَاةً وَاحِدَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَرْبَعًا، بَعْدَ أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ صَلَاةً وَاحِدَةً. وَلَوْ كَانَ هَذَا الْمَسْجِدُ بِأُفُقٍ مِنَ الْآفَاقِ لَضَرَبْنَا إِلَيْهِ آبَاطَ الْإِبِلِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يحدِّث أمير المؤمنين رضي الله عنه عن مسجد قباء وفضله.

البيان والبلاغة: قوله: (**وَالله**): بدأ بالقسم الذي هو أقوى أنواع المؤكِّدات؛ لأنَّ الخبر الذي سيلقيه على مسامع الناس قد يكون غريبا عندهم، فيتشككون فيه. والبدء بالقسم - كذلك - يجبر الأسماع على الالتفات والانتباه لما سيقال؛ إذ لا يصدر القسم من أمثال عمر رضي الله عنه إلا في الأمور العظام والأحداث الجسام. ثم أردف التأكيد بالقسم بالتأكيد باللام؛ فازداد التأكيدُ تأكيدا. وقوله: (**لأَنْ أُصَلِّيَ**): استعمل المصدر المؤول - الذي تقديره: لصلاتي ... - لما له من دلالة على الزمن، وإشارة إلى الفاعل، وهو يتميز بذلك عن المصدر الصريح. وقوله: (**فِي هَذَا المسجِدِ**): إمعانٌ في التَّحديد والتخصيص، يذهب بكلِّ احتمال لإرادة غير هذا المسجد. وقوله: (**صلاةً واحدةً**): أتى بذكر العدد - هنا - للتأكيد لا للتمييز؛ إذ العدد (واحد) و(اثنان) يشتق من لفظ المعدود، ولا يحتاج إلى تمييز. وقوله: (**أحبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِ**

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩١٤١) و(٩١٦٣)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ١/ ٢٤٥، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ١/ ٤٦.

الْمَقْدِسِ أَرْبَعًا): استعمل أفعل التفضيل لبيان شدة المحبة، وأتي بالمصدر المؤول لنفس العلة السابقة. وفي الجملة إيجاز بالحذف، والتقدير: أحبُّ إلي من أن أصلي في مسجد بيت المقدس أربع صلوات. وقوله: **(بَعْدَ أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ صَلَاةً وَاحِدَةً)**: إطناب يراد به التقييد والاحتراز من أن يفهم أحدٌ أن التفضيل - هنا - عامٌّ على كلِّ حال، وأنَّ الصلاة في مسجد قباء أفضل من الصلاة في المسجد الأقصى مطلقا. وقوله: **(وَلَوْ كَانَ هَذَا الْمَسْجِدُ بِأُفُقٍ مِنَ الْآفَاقِ لَضَرَبْنَا إِلَيْهِ آبَاطَ الْإِبِلِ)**: **(لو)** حرف امتناع لوجود دالٌّ على الشرط. والشرط - هنا - كون المسجد بأفق من الآفاق، وجوابه **(ضربنا له آباط الإبل)**، وقد امتنع الجواب لامتناع الشرط؛ إذ المسجد بالمدينة وليس بأفق من الآفاق. وتنكير **(أفقٍ)** للتعميم. وقوله: **(لَضَرَبْنَا إِلَيْهِ آبَاطَ الْإِبِلِ)**: اللام للتأكيد، والجملة كناية عن السفر الطويل الشاق، وعن تعظيم مسجد قباء؛ إذ لا يكون مثل هذا السفر إلا إلى مكان عظيم فاضل.

[٣٩٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ رَأَى رَجُلًا مُتَمَاوِتًا يُظْهِرُ النُّسُكَ

«لَا تُمِتْ عَلَيْنَا دِينَنَا، أَمَاتَكَ اللهُ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**المتماوت**): هو الذي يُبالغ في إظهار التخشُّع والسكينة، وكأنَّه مشرف على الموت.

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه رجلا يظنُّ أنَّ من التنسُّك والتعبُّد المبالغةَ في الخضوع والخشوع أمام النَّاس.

البيان والبلاغة: قوله: (**لا تُمِتْ عَلَيْنا دِيْننا**): فيه استعارة مكنيَّة؛ إذ شبَّه عمر رضي الله عنه الدينَ بكائن حيٍّ، ثمَّ حذف المشبَّه به، وهو هذا الكائن، وذكر شيئًا من لوازمه، وهو الموت، ثمَّ شبَّه تخشُّع الرجل وخضوعه بالإقدام على إماتة ذلك الكائن. وفي تعلُّق الفعل (**تُمِت**) بحرف الجرِّ (**على**) تضمُّن لمعنى (**تفسد**)، أي: لا تُفسِد علينا ديننا؛ إذ يستقيم اللفظ بحذف (**على**) ومجرورها. وفي ذكر هذا الجار والمجرور فائدة أخرى وهي: التخصيص والعناية، كأنَّ عمر رضي الله عنه يقول لذلك المتماوت: إنَّك بعملك هذا تفسد علينا نحن ديننا؛ فمغبَّة عملك ليست عليك وحدك. وقوله: (**أماتك الله**):

١- ذكرهُ المبرّدُ في «الكاملِ» ٢/ ١٢٢ ط دار الفكر العربيّ، وأبو حيَّانَ التَّوحيديُّ في «البصائرِ والذَّخائرِ» ٦/ ٣٨، والآبيُّ في «نثرِ الدُّرِّ» ٢/ ٢٧، والزَّمخشريُّ في «ربيعِ الأبرارِ» ٢/ ١٧٠.

فيه مشاكلة لفظيَّة لقوله: (**لا تمت**). وهذه الجملة دعاء لا يراد بها ظاهره، فهو ممَّا يجري على الألسنة من غير قصد لحقيقة معناه، كقولهم: ثكلتك أمُّك، وتربت يداك، ونحوها.

[٣٩٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

«إِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ - قَدِ اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمُ الشُّكْرَ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّ فِيمَا آتَاكُمْ مِنْ كَرَامَةِ الْآخِرَةِ وَالدُّنْيَا، عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ مِنْكُمْ لَهُ، وَلَا رَغْبَةٍ مِنْكُمْ فِيهِ إِلَيْهِ، فَخَلَقَكُمْ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا، لِنَفْسِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَكَانَ قَادِرًا أَنْ يَجْعَلَكُمْ لِأَهْوَنِ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ لَكُمْ عَامَّةَ خَلْقِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْكُمْ لِشَيْءٍ غَيْرِهِ، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[1]».

ثُمَّ جَعَلَ لَكُمْ سَمْعًا وَبَصَرًا. وَمِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكُمْ نِعَمٌ عَمَّ بِهَا بَنِي آدَمَ، وَمِنْهَا نِعَمٌ اخْتَصَّ بِهَا أَهْلَ دِينِكُمْ، ثُمَّ صَارَتْ تِلْكَ النِّعَمُ خَوَاصُّهَا وَعَوَامُّهَا فِي دَوْلَتِكُمْ وَزَمَانِكُمْ وَطَبَقَتِكُمْ، وَلَيْسَ مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ نِعْمَةٌ وَصَلَتْ إِلَى امْرِئٍ خَاصَّةً إِلَّا لَوْ قُسِّمَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْهَا بَيْنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ أَتْعَبَهُمْ شُكْرُهَا، وَفَدَحَهُمْ حَقُّهَا، إِلَّا بِعَوْنِ اللهِ مَعَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، فَأَنْتُمْ مُسْتَخْلَفُونَ فِي الْأَرْضِ، قَاهِرُونَ لِأَهْلِهَا، قَدْ نَصَرَ اللهُ دِينَكُمْ، فَلَمْ تُصْبِحْ أُمَّةٌ مُخَالِفَةً لِدِينِكُمْ إِلَّا أُمَّتَانِ: أُمَّةٌ مُسْتَعْبَدَةٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، يَجْزُونَ لَكُمْ، يُسْتَصْفَوْنَ مَعَايِشَهُمْ وَكَدَائِحَهُمْ وَرَشْحَ جِبَاهِهِمْ، عَلَيْهِمُ الْمُؤُونَةُ وَلَكُمُ الْمَنْفَعَةُ. وَأُمَّةٌ تَنْتَظِرُ وَقَائِعَ اللهِ وَسَطَوَاتِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، قَدْ مَلَأَ اللهُ قُلُوبَهُمْ رُعْبًا، فَلَيْسَ لَهُمْ مَعْقِلٌ يَلْجَؤُونَ إِلَيْهِ، وَلَا مَهْرَبٌ يَتَّقُونَ بِهِ،

١- سورة لقمان: آية ٢٠.

قَدْ دَهِمَتْهُمْ جُنُودُ الله - عَزَّ وَجَلَّ - وَنَزَلَتْ بِسَاحَتِهِمْ، مَعَ رَفَاغَةِ الْعَيْشِ، وَاسْتِفَاضَةِ الْمَالِ، وَتَتَابُعِ الْبُعُوثِ، وَسَدِّ الثُّغُورِ بِإِذْنِ الله، مَعَ الْعَافِيَةِ الْجَلِيلَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى أَحْسَنَ مِنْهَا مُذْ كَانَ الْإِسْلَامُ، وَاللهُ الْمَحْمُودُ، مَعَ الْفُتُوحِ الْعِظَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَ مَعَ هَذَا شُكْرُ الشَّاكِرِينَ وَذِكْرُ الذَّاكِرِينَ وَاجْتِهَادُ الْمُجْتَهِدِينَ، مَعَ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لَا يُحْصَى عَدَدُهَا، وَلَا يُقْدَرُ قَدْرُهَا، وَلَا يُسْتَطَاعُ أَدَاءُ حَقِّهَا إِلَّا بِعَوْنِ الله وَرَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ! فَنَسْأَلُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي أَبْلَانَا هَذَا، أَنْ يَرْزُقَنَا الْعَمَلَ بِطَاعَتِهِ، وَالْمُسَارَعَةَ إِلَى مَرْضَاتِهِ.

وَاذْكُرُوا - عِبَادَ الله - بَلَاءَ الله عِنْدَكُمْ، وَاسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ وَفِي مَجَالِسِكُمْ مَثْنَى وَفُرَادَى، فَإِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ لِمُوسَى: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾[1]، وَقَالَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]، فَلَوْ كُنْتُمْ إِذْ كُنْتُمْ مُسْتَضْعَفِينَ مَحْرُومِينَ خَيْرَ الدُّنْيَا عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ الْحَقِّ، تُؤْمِنُونَ بِهَا، وَتَسْتَرِيحُونَ إِلَيْهَا، مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِالله وَدِينِهِ، وَتَرْجُونَ بِهَا الْخَيْرَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ؛ لَكَانَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَشَدَّ النَّاسِ مَعِيشَةً، وَأَثْبَتَهُمْ بِالله جَهَالَةً، فَلَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي اسْتَشْلَاكُمْ بِهِ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ حَظٌّ فِي دُنْيَاكُمْ، غَيْرَ أَنَّهُ ثِقَةٌ لَكُمْ فِي آخِرَتِكُمُ الَّتِي إِلَيْهَا الْمَعَادُ وَالْمُنْقَلَبُ، وَأَنْتُمْ مِنْ جَهْدِ الْمَعِيشَةِ عَلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ أَحْرِيَاءُ أَنْ تَشُحُّوا عَلَى نَصِيبِكُمْ مِنْهُ، وَأَنْ تَظْهَرُوهُ عَلَى غَيْرِهِ، فَبَلْهَ مَا إِنَّهُ قَدْ جَمَعَ لَكُمْ فَضِيلَةَ الدُّنْيَا وَكَرَامَةَ الآخِرَةِ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يُجْمَعَ لَهُ

١- سورة ابراهيم: آية ٥.
٢- سورة الأنفال: آية ٢٦.

ذَلِكَ مِنْكُمْ، فَأُذَكِّرُكُمُ اللهَ الحَائِلَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ إِلَّا مَا عَرَفْتُمْ حَقَّ اللهِ فَعَمِلْتُمْ لَهُ، وَقَسَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ عَلَى طَاعَتِهِ، وَجَمَعْتُمْ مَعَ السُّرُورِ بِالنِّعَمِ خَوْفًا لَهَا وَلِانْتِقَالِهَا، وَوَجَلًا مِنْهَا وَمِنْ تَحْوِيلِهَا؛ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَسْلَبُ لِلنِّعْمَةِ مِنْ كُفْرَانِهَا، وَإِنَّ الشُّكْرَ أَمْنٌ لِلْغَيْرِ، وَنَمَاءٌ لِلنِّعْمَةِ، وَاسْتِيجَابٌ لِلزِّيَادَةِ، هَذَا للهِ عَلَيَّ مِنْ أَمْرِكُمْ وَنَهْيِكُمْ وَاجِبٌ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**فَدَحَهُمْ حقُّها**)، أي: أعياهم وأثقلهم قضاء حقِّها. وقوله: (**رَفَاغَةِ العَيْشِ**): جاء في الصحاح: «الرَّفْغُ: السعة والخصب. يقال: رَفُغَ عيشُه بالضم رَفاغَةً: اتَّسع ... وترَفَّغَ الرجل: توسَّع، فهو في رَفاغِيةٍ من العيش، مثال ثمانية». وقوله: (**اسْتَشْلَاكُمْ**): جاء في الصحاح: «واستشلاه واشْتَلاه، أي: استنقذه. وكلُّ مَن دعوته حتى تخرجه تنجيه من موضع هلكة، فقد استشليته وأشتليته».

مقتضى الحال: هذا النصُّ نصيحة نفيسة من أمير المؤمنين رضي الله عنه لأمة الإسلام في حياته وبعد مماته، ولعل تلك النصيحة كانت في إحدى خطبه ومواعظه رضي الله عنه.

البيان والبلاغة: استهلَّ أمير المؤمنين رضي الله عنه حديثه بـ (**إنَّ**) ثم (**قد**) المؤكِّدتين؛ ليعلم السامع أنه على يقين تامٍّ مما سيقول، ثم قال: (**إِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ - قَدِ اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمُ الشُّكْرَ**)، وقوله: (**سبحانه وبحمده**): إطناب أراد به تنزيه الله - تعالى - والتلذذ بذكره، والباء في العبارة للمصاحبة، أي: أسبحه حامدا إياه. قوله: (**ولم تكونوا شيئا**): تنكير (**شيئا**) في العبارة للتعميم والتحقير. وبين قوله: (**إليه**)

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢١٦ - ٢١٨.

و(**عليه**): سجعٌ أبرز المعنى وأعطى الكلام جرسا حلوا. وبين الجملتين (**جعل لكم ... ولم يجعلكم لشيء غيره**) مقابلة تبرز المعنى وتقويه. وقد أردف ذلك كلَّه بآية قرآنية أكَّدت كلامه، وكانت دليلا على صحَّته، وقد أعطاه ذلك قوة، وأظهر ارتباط أمير المؤمنين بكتاب الله - تعالى -. وقوله: (**ثُمَّ صَارَتْ تِلْكَ النِّعَمُ خَوَاصُّهَا وَعَوَامُّهَا فِي دَوْلَتِكُمْ وَزَمَانِكُمْ وَطَبَقَتِكُمْ**): بين (**خواصها وعوامها**): سجع وطباق، أعطى المعنى قوة في الوضوح وحلاوة في الصوت، وكذا السجع في قوله: (**دَوْلَتِكُمْ وَزَمَانِكُمْ وَطَبَقَتِكُمْ**)، والعطف بين هذه المفردات متقاربة المعنى = يراد به التأكيد والمبالغة في إظهار المنة. وبين الجملتين (**أَتْعَبَهُمْ شُكْرُهَا، وَفَدَحَهُمْ حَقُّهَا**): ترادفٌ يقوي المعنى، وسجعٌ يعطي اللفظ جرسا حلوا. وقوله: (**فَلَمْ تُصْبِحْ أُمَّةٌ مُخَالِفَةً لِدِينِكُمْ إِلَّا أُمَّتَانِ**): الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر، والحصر هنا حصر حقيقي. وقد شرع بعد هذا الإجمال في التفصيل، فذكر أوصاف كلِّ أمة بما يدل عليها ويبين المقصود. وفي قوله: (**يَسْتَصْفُونَ مَعَايِشَهُمْ وَكَدَائِحَهُمْ وَرَشْحَ جِبَاهِهِمْ، عَلَيْهِمُ الْمُؤُونَةُ وَلَكُمُ الْمَنْفَعَةُ**): كناية عن شدة جهدهم، وأنه تسخير من الله - سبحانه وتعالى - لهم؛ كرامة لأمة الإسلام وفضلا من الله عليهم. وفيه أيضا سجع بين (**مَعَايِشَهُمْ**) و(**كَدَائِحَهُمْ**) و(**جِبَاهِهِمْ**)، ومقابلة بين (**عَلَيْهِمُ الْمُؤُونَةُ**) و(**لَكُمُ الْمَنْفَعَةُ**)، مما أسهم في إبراز المعنى وتقويته. وقوله: (**وَقَائِعَ اللهِ وَسَطْوَاتِهِ**): كناية عن الجهاد وشدة بأس المسلمين. وقوله: (**قَدْ مَلَأَ اللهُ قُلُوبَهُمْ رُعْبًا**): استعارة مكنية؛ حيث شبه القلوب بالأوعية تملأ ثم حذف المشبه به، وأتى بشيء من لوازمه وهو الملء، لكنها لا تملأ ماء، بل تملأ رعبا، وهذه استعارة ثانية في تجسيد الرعب وتشبيهه بالسوائل تملأ الآنية، والجملة كناية عن رعبهم المستمر. وقوله: (**رَفَاغَةِ الْعَيْشِ، وَاسْتِفَاضَةِ الْمَالِ، وَتَتَابُعِ الْبُعُوثِ**): العطف مع تقارب المعنى؛ للتأكيد، وهو إطناب ناسب موطن

الامتنان وإظهار نعمة الله - سبحانه وتعالى -. وفي قوله: (**شُكْرُ الشَّاكِرِينَ وَذِكْرُ الذَّاكِرِينَ وَاجْتِهَادُ الْمُجْتَهِدِينَ**) سجع ظاهر، أعطى المعنى وضوحا وجرسا حلوا، كما ساهم العطف في تقوية المعنى وتأكيده. ومثل ذلك يقال في قوله: (**النِّعَم الَّتِي لَا يُحْصَى عَدَدُهَا، وَلَا يُقْدَرُ قَدْرُهَا، وَلَا يُسْتَطَاعُ أَدَاءُ حَقِّهَا**)، وقوله: (**يَرْزُقَنَا الْعَمَلَ بِطَاعَتِهِ، وَالْمُسَارَعَةَ إِلَى مَرْضَاتِهِ**)، وقوله: (**خَوْفًا لَهَا وَلِانْتِقَالِهَا، وَوَجَلًا مِنْهَا وَمِنْ تَحْوِيلِهَا**). وقوله: (**عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ الْحَقِّ**): استعارة مكنية؛ حيث شبه الحق بشيء محسوس ذي شعب، ثم حذف المشبه به، وأتى بشيء من لوازمه وهو الشعبة. وتعبيره بالأفعال المضارعة: (**تُؤْمِنُونَ، وَتَسْتَرِيحُونَ، وَتَرْجُونَ**) وغيرها = يدلُّ على تجدد واستمرار المعنى إلى المستقبل. وقد تميز النصُّ - بوجه عام - بالإطناب؛ حيث المقام مقام تعديد لنعم الله - سبحانه وتعالى - وامتنان بها؛ ولذلك استعمل أسلوب التقسيم والتفصيل غير مرة، وأكثر من المحسِّنات اللفظية التي أبرزت المعاني وأعطت الكلام رونقا وجرسا حلوا.

[٣٩٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ رَأَى قَوْمًا سَمَرُوا بَعْدَ الْعِشَاءِ

«أَسَمَرًا مِنْ أَوَّلِهِ، وَنَوْمًا مِنْ آخِرِهِ؟!»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: دلَّت الرواية أن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال هذا الكلام لقوم رآهم جالسين للسمر بعد العشاء، فقال لهم ذلك مستنكرا عليهم فعلهم، ومتعجبا من تفريطهم في اغتنام الفضائل التي تكون في آخر الليل.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَسَمَرًا**) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: أتسمرون سمرًا، والاستفهام هنا استفهام إنكاري؛ فهو ينكر عليهم ما يقومون به، فيقضون أول الليل في السمر، ثم ينامون آخره غافلين عن فضائله. وقوله: (**وَنَوْمًا**): مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: تنامون نومًا. وقوله: (**مِنْ أَوَّلِهِ**، ... **مِنْ آخِرِهِ**): المطابقة بين التعبيرين أبرزت المعنى ووضحته وأفادت المضمون.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢١٣٤).

[٣٩٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا تَزْهَدُنَّ فِي إِخْفَاءِ الْحَقْوِ[١]؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ مَا تَحْتَ الْحَقْوِ خَافِيًا فَهُوَ أَسْتَرُ، فَإِنْ يَكُ فِيهِ شَيْءٌ فَهُوَ أَخْفَى لَهُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الحَقْو**): الخَصر، أو معقد الإزار من الإنسان. ويُطلقُ - كذلك - على الإزار ذاته، وهو المقصود - هنا -. وفي الحديث المتفق عليه عن أمِّ عطية الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخل علينا رسول الله ﷺ حين توفيت ابنته، فقال: «**اغْسِلْنَهَا ثَلَاثًا، أَوْ خَمْسًا، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنْ رَأَيْتُنَّ ذَلِكَ، بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَاجْعَلْنَ فِي الآخِرَةِ كَافُورًا - أَوْ شَيْئًا مِنْ كَافُورٍ - فَإِذَا فَرَغْتُنَّ فَآذِنَّنِي**»، فلمَّا فرغنا آذانه، فأعطانا حقوَه، فقال: «**أَشْعِرْنَهَا إِيَّاهُ**»، تعني: إزاره.

مقتضى الحال: يخاطب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النساء ناصحا إياهُنَّ بمزيد من الستر وإخفاء ما تحت الحقو.

البيان والبلاغة: استهل أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديثه للنساء بالنهي الصريح المباشر، فقال: (**لَا تَزْهَدُنَّ ...**): فالأسلوب إنشائي، نهي، الغرض منه الإرشاد والتأديب والحث على المبالغة في الستر. ثمَّ أتبع أمير المؤمنين النهي بذكر علته، مؤكِّدا تلك العلة بحرف التوكيد (**إنَّ**)؛ كي يزيل كلَّ شك فيها من نفوس السامعات، فقال:

١- أي: لا تزهدن في غِلَظِ الإزارِ، وهو حثٌّ على تركِ التَّنعُّمِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (جفا).
٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٥٠٣٧).

(**فَإِنَّهُ إِنْ ...**)، والضمير - هنا - هو ضمير الشأن الذي سبق الحديث عنه غير مرة. واستعمل أسلوبَي الشرط والتقسيم؛ زيادة في الإيضاح والبيان، وتعديدا لفوائد الستر والإخفاء. وقوله: (**فَهُوَ أَخْفَى لَهُ**): استعمل الجملة الاسمية للدلالة على ثبوت الحكم واستقراره، وأتى بالضمير لأنه أنقى للجرس الصوتي من تكرار كلمة الحقو.

[٣٩٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَنِ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي الْمَسْجِدِ فَلْيُصَلِّ عَلَى ثَوْبِهِ، وَمَنْ زَحَمَهُ النَّاسُ فَلْيَسْجُدْ عَلَى ظَهْرِ أَخِيهِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبدو أنَّ أمير المؤمنين ﷺ قال هذا القول يوم الجمعة أو في إحدى خطبه لما اشتد الحر وازدحم الناس في المسجد.

البيان والبلاغة: قوله: (مَن): اسم موصول للعاقل، واستعماله يدلُّ على تعميم الحكم. وهو - أيضا - من أدوات الشرط، وقد أفاد تعليق الجواب - وهو الصلاة على الثوب أو السجود على ظهر الأخ - على حصول الشرط - وهو اشتداد الحر على المصلي أو ازدحام المسجد -. وقوله: (**يومَ الجُمُعة في المسْجد**): إطنابٌ بذكر قيد خرج مخرج الغالب، ولم يُرِدْ به حقيقة التقييد. وقوله: (**فَلْيُصَلِّ**): جواب الشرط مقترن بالفاء، وفيه دلالة على التعقيب من غير تراخٍ، وهو ما يناسب أمر الصلاة التي لا عذر لأحد في تركها أو التهاون فيها. ويقال في الجملة الثانية ما قيل في الأولى. وبين الجملتين موازنة في المقدار والأسلوب وانتقاء العبارات والألفاظ.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٥٤٦٩)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٧٣٥)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (٢١٧)، والطَّيالسيُّ في «المُسنَدِ» (٧٠)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٥٦٢٩) و(٥٦٣٠)، و«معرفةِ السُّنَنِ والآثارِ» (٦٣٥٧).

[٣٩٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ رَأَى رَجُلًا عَلَيْهِ هَيْئَةُ السَّفَرِ يَنْتَظِرُ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ

«إِنَّ الْجُمُعَةَ لَا تَحْبِسُ مُسَافِرًا؛ فَاخْرُجْ مَا لَمْ يَحِنِ الرَّوَاحُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: دلَّت الرواية أن عمر رضي الله عنه قال هذا الكلام يوم الجمعة لرجل عليه هيئة السفر، قد أجَّل سفره وجلس ينتظر صلاة الجمعة.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ الْجُمُعَةَ لَا تَحْبِسُ مُسَافِرًا**): بدأ عمر رضي الله عنه حديثه بأداة التوكيد (**إنَّ**) وبالجملة الاسمية الدلة على ثبات الحكم واستقراره؛ لأنَّ حال المخاطَب يدلُّ على أنه معتقد خلاف ما سيقول. وفي الجملة استعارة مكنية؛ حيث شبَّه الجمعة بالشخص الذي يمنع ويحبس عن فعل الشيء، ثم حذف المشبه به وأبقى شيئا من لوازمه، وهو الحبس. قوله: (**مُسافِرًا**): التنكير –هنا – لإرادة التعميم في الحكم. وقوله: (**فَاخْرُجْ**): الفاء هي الفصيحة، والتقدير: إذا كان الأمر كذلك، فاخرج ... والأمر – هنا – للإباحة لا الإيجاب، كما يدلُّ عليه السياق. وقوله: (**ما لَمْ يَحِنِ الرَّواح**): قيدٌ وشرط قيَّد به الإباحة السابقة، أي: إباحة الخروج والشروع في السفر يوم الجمعة.

١- رواهُ الشَّافعيُّ في «المُسنَدِ» (٤٥٨)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٥٥٣٧) بهذا اللَّفظِ.

[٣٩٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدِ اسْتَنْكَرَ النَّاس مِنْهُ الِاكْتِفَاءَ بِالِاسْتِغْفَارِ فِي الِاسْتِسْقَاءِ

«لَقَدْ طَلَبْتُ الْمَطَرَ بِمَجَادِيحِ[1] السَّمَاءِ الَّتِي تُسْتَنْزَلُ بِهَا الْمَطَرُ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١١-١٢]. ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]»[2].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: جاء في الرواية أنَّ أمير المؤمنين رضي الله عنه قال هذا القول لَمَّا استنكر الناس منه الاكتفاء بالاستغفار في دعاء الاستسقاء.

١- المَجَادِيحُ: واحدُها مِجْدَحٌ، والياءُ زائدةٌ للإشباعِ. والقياسُ أن يكونَ واحدُها مِجْدَاحٌ، فأمَّا «مِجْدَحٌ» فجمعُه مَجَادِحُ. والمِجْدَحُ: نجمٌ مِن النُّجوم. وقيلَ: هو الدَّبَرانِ. وقيلَ: هو ثلاثةُ كواكبَ كالأَثافِي؛ تشبيهًا بالمِجْدَحِ الَّذي لهُ ثلاثُ شُعَبٍ، وهو عندَ العربِ مِن الأنواءِ الدَّالَّةِ على المطرِ، فجُعِلَ الاستغفارُ مُشبَّهًا بالأنواءِ؛ مُخاطَبَةً لهم بما يَعرِفونهُ، لا قولًا بالأنواءِ. وجاءَ بلفظِ الجمعِ؛ لأنَّه أرادَ الأنواءَ جميعَها الَّتي يزعمونَ أنَّ مِن شأنِها المطرُ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (جدح).

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٤٩٠٢)، وسعيدُ بنُ منصورٍ في (التَّفسيرِ) مِن «سُننِه» (١٠٩٥)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٢٠، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٨٤٢٩)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٣٧، وابنُ أبي الدُّنيا في «المطرِ والرَّعدِ والبرقِ» (٨٤)، والطَّبرانيُّ في «الدُّعاءِ» (٩٦٤).

البيان والبلاغة: قوله: (**لَقَدْ طلبتُ**): بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه كلامه مؤكِّدا باللام وقد؛ لأنَّ المستمع مخالف له. وقوله: (**بِمَجَادِيحِ السَّماءِ**)، أي: نجومها الكبار التي كانت العرب تعتقد أنَّها تؤثِّر في إنزال الأمطار، وهو كناية عن عظمة الاستغفار وشدة أثره في إنزال الأمطار. وقوله: (**تُسْتَنْزَلُ**): بنى الفعل للمفعول؛ لصرف الاهتمام إليه، ولأنه غير خاص بفاعل دون آخر. ثم أتى بدليل قوله مقتبسا آيتين من كتاب الله - تعالى - تدلان على ذلك، وهذا فيه إظهارٌ لحجته ودحض لحجة المخالف، وبيان لتعلق عمر رضي الله عنه بالقرآن الكريم وتمسكه به.

[٤٠٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

عَامِ الرَّمَادَةِ

«أَيُّهَا النَّاس، اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّكَ وَبَقِيَّةِ آبَائِهِ وَكِبَارِ رِجَالٍ؛ فَإِنَّكَ تَقُولُ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾[1]؛ فَحَفِظْتَهُمَا لِصَلَاحِ أَبِيهِمَا؛ فَاحْفَظِ اللَّهُمَّ نَبِيَّكَ فِي عَمِّهِ؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ كُنْتَ غَفَّارًا، اللَّهُمَّ أَنْتَ الرَّاعِي لَا تُهْمِلُ الضَّالَّةَ، وَلَا تَدَعُ الْكَسِيرَةَ بِمَضِيعَةٍ[2]، اللَّهُمَّ قَدْ ضَرَعَ الصَّغِيرُ، وَرَقَّ الْكَبِيرُ، وَارْتَفَعَتِ الشَّكْوَى، وَأَنْتَ تَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى. اللَّهُمَّ أَغِثْهُمْ بِغِيَاثِكَ قَبْلَ أَنْ يَقْنَطُوا فَيَهْلِكُوا، فَإِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ».

فَمَا بَرِحُوا حَتَّى عَلَّقُوا الْحِذَاءَ، وَقَلَصُوا الْمَآزِرَ، وَطَفِقَ النَّاس بِالْعَبَّاسِ يَقُولُونَ: هَنِيئًا لَكَ يَا سَاقِيَ الْحَرَمَيْنِ[3].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (ضَرَعَ) في قوله: (ضَرَعَ الصَّغير): قال صاحب الصحاح: «الضَرَعُ، بالتحريك: الضعيف. وإنَّ فلانا لضارِعُ الجسم، أي: نحيفٌ ضعيفٌ».

١- سورة الكهف: آية ٨٢.

٢- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٣/ ١٠٨: (المَضِيعة، بكسرِ الضَّادِ: مَفعِلةٌ مِن الضَّياع: الاطِّراح والهوان).

٣- ذكرهُ ابنُ عبدِ ربِّه في «العِقدِ الفريدِ» ٤ / ١٥٥.

مقتضى الحال: هذا النَّص قاله عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في عام الرمادة، وقد ذكر ابن الأثير في كتاب الكامل في التاريخ قصة هذا النَّص فقال: «قال أهل بيت من مزينة لصاحبهم، وهو بلال بن الحارث: قد هلَكنا فاذبح لنا شاة. قال: ليس فيهن شيء. فلم يزالوا به حتى ذبح فسلخ عن عظم أحمر، فنادى: يا محمداه! فأُرِي في المنام أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أتاه فقال: أبشر بالحيا، إيت عمر فأقرئه مني السلام، وقل له إني عهدتك وأنت وفي العهد شديد العقد، فالكيس الكيس يا عمر! فجاء حتى أتى باب عمر فقال لغلامه: استأذن لرسول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فأتى عمر فأخبره، ففزع وقال: رأيت به مَسًّا؟ قال: لا، فأدخله، وأخبره الخبر، فخرج فنادى في الناس وصعد المنبر فقال: نشدتكم الله الذي هداكم هل رأيتم مني شيئا تكرهون؟ قالوا: اللهم لا، ولم ذاك؟ فأخبرهم ففطنوا ولم يفطن عمر، فقالوا: إنما استبطأك في الاستسقاء فاستسق بنا. فنادى في الناس، وخرج معه العباس ماشيا، فخطب وأوجز وصلى ثم جثا لركبتيه، وقال: اللهم عجزت عنا أنصارنا وعجز عنا حولُنا وقوتنا وعجزت عنا أنفسنا، ولا حول ولا قوة إلا بك، اللهم فاسقنا وأحي العباد والبلاد، وأخذ بيد العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإن دموع العباس لتتحادر على لحيته، فقال: ...» هذا النَّص.

وهذا الأثر واللذان بعده وردوا في عام الرمادة، وهذا العام كان في آخر السنة السابعة عشر من هجرة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى أول السنة الثامنة عشر، وسُمِّيَ بعام الرمادة لأسباب ذكرها الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى -، فقال: «وسميت عام الرمادة؛ لأن الأرض اسودت من قلة المطر، حتى عاد لونُها شبيها بالرماد، وقيل: لأنها كانت تسفي الريح ترابا كالرماد، ويمكن أن تكون سميت لكل منهما، والله أعلم»[1] وقد

١- البداية والنهاية (١٠/ ٦٨).

اتبع الفاروق رضي الله عنه العديد من السبل لمحاربة هذا البلاء الذي حل بالأمة وسوف نستعرض السبل التي عمل الفاروق بها في إدارة الأزمة من خلال الأحاديث التالية.

البيان والبلاغة: كان أول منزل من المنازل التي عكف عليها الفاروق لإدارة الأزمة التي حلت بالبلاد والعباد هو: الاستعانة بالله - عز وجل - والتضرع إليه، والتوسل إليه بدعاء الصالحين؛ فالمقام - هاهنا - مقام تضرع ودعاء لرب العباد - سبحانه وتعالى -، فعلى الرغم من الإجراءات الإدارية العديدة التي قام بها الفاروق رضي الله عنه إلا أنه جعل التضرع لله - عز وجل - منزله الدائم الذي أقام فيه قبل الأزمة وأثنائها وبعدها. فيبدأ خطبته البليغة باسترعاء انتباه المستمعين، قائلا: (**أَيُّهَا النَّاسُ**): وكأنه استخدم (**أيها**) لما فيها من مدٍّ للصَّوْت وطول النفس معه، وكأن المتلقي شارد الذهن فينفذ هذا النداء إلى أركانه فيهزها، ويوقظ حواسه لاستشعار الخطر الذي يلم بهم، ثم يمضي إلى صلب الموضوع: (**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا**): السين والتاء في (**استغفروا**) يُزادان في الفعل لتضمينه طلب شيء مرغوب في حصوله لحاجة ملحة إليه من قِبَلِ الطالب. وتتجلي ظاهرة التناص في القول السابق من قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح : ١٠]. وفي اختيار الفاروق رضي الله عنه للآية مناسبة للسياق الذي هو بصدد الحديث عنه؛ فلما كان الغرض الاستسقاء وطلب الغيث جاء الاستغفار مناسبًا للسياق؛ إذ إن الآية التالية لهذا الآية: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [نوح : ١١]. واستخدام الأمر - هاهنا - للحث على الدعاء والإرشاد. ثم يقول: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ، وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**): والدعاء هنا الغرض منه التذلل والتضرع، وفي ذلك تأصيل للفكرة التي مارسها الفاروق رضي الله عنه في تلك الأيام العصيبة فقد روي أنه في تلك الأزمة ألزم

نفسه أن لا يأكل سمنًا ولا سمينًا حتى يكشف الله ما بالنَّاس، فاسودَّ لونه وتغير جسمه حتى كاد يخشى عليه من الضعف، وهو - هنا - أمرهم بالاستغفار وكان أول المستغفرين، مستخدمًا التوكيد بـ (**إِنَّ**). وأما قوله: (**وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**) ففيه إشارة لما ثبت عن الفاروق رضي الله عنه في تلك المحنة أنه قال: (**اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ وَلَمْ يُكْشَفْ إِلَّا بِتَوْبَةٍ**). ومما سبق يُلاحظ أنه رضي الله عنه في عبارته الموجزة السابقة أشار لمعنيين في غاية العمق بكلمات يسيرة. ثم ينتقل الفاروق رضي الله عنه للتوسل بدعاء العباس وسائر آل البيت - رضي الله عنهم أجمعين - مستخدمًا القياس بين حالهم وحال الغلامين اللذين حفظهما الله - تعالى - لصلاح أبيهما، وفي ذلك بيان لعميق فهم الفاروق رضي الله عنه للقرآن الكريم وقدرته على تأويل آياته، وفيه دلالة - أيضًا - على أن القرآن دستور شامل لإدارة حياة المسلم في كافة الظروف. ويعود بعد ذكر عم النبي صلى الله عليه وسلم تارة أخرى للاستغفار فيقول: (**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ كُنْتَ غَفَّارًا**)، وفيه توكيد للدلالة على أهمية الاستغفار في النوازل التي تلم بالنَّاس. وقوله: (**اللَّهُمَّ أَنْتَ الرَّاعِي لَا تُهْمِلُ الضَّالَّةَ، وَلَا تَدَعُ الْكَسِيرَةَ بِمَضْيَعَةٍ، اللَّهُمَّ قَدْ ضَرَعَ الصَّغِيرُ، وَرَقَّ الْكَبِيرُ، وارْتَفَعَتِ الشَّكْوَى، وَأَنْتَ تَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**): في هذه السطور يثني الفاروق على ربه - سبحانه وتعالى - ويتذلل إليه فيقول: إنك سبحانك قيوم السماء والأرض حتى البهيمة الضالة ترعاها وترزقها، وكذلك تقوم على البهيمة الضعيفة بالمفازة؛ فيا رب إن الصغار قد ضعفوا، والكبار قد نحفوا، فارتفعت شكواهم إليك مستغيثين برحمتك؛ وإنك سبحانك تعلم ما نخفي وما نعلن. وقد تجلت في الفقرة السابقة العديد من المظاهر البلاغية؛ فنجد السجع في الأزواج التالية: (**الضَّالَّةَ، مَضْيَعَةٍ**)، و(**الصَّغِيرُ، الْكَبِيرُ**)، (**الشَّكْوَى، أَخْفَى**)، وجمال السجع يكمن في إعطاء جرس موسيقي يجذب انتباه المتلقي، ويظهر مقدرة وبلاغة المُلْقِي. وكذلك نجد

التضاد بين: (**الصَّغِيرُ، الْكَبِيرُ**)، (**الرَّاعِي، الضَّالَة**)، وجماله يكمن في تأكيد المعنى وتوضيحه. ومراعاة النظير بين: (**الرَّاعِي، الضَّالَة**) (**الكَسِيرَة، مَضْيَعَة**) (**ضَرَع، الصَّغِير**) (**رَقَّ الكَبِير**)، فتوافق وائتلف كل لفظ من الألفاظ السابقة واللفظ الذي تلاه، وفي ذلك تأكيد للمعنى - أيضًا -. وفي الفقرة السابقة - ككل - مساواة؛ حيث جاءت المعاني بقدر الألفاظ، والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها عن بعض دون حشو أو إطناب. وفي قوله: (**وَأَنْتَ تَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**): تأثر بقول الله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وكذا بقول النبي ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاس؛ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**»، وقد يجوز الاصطلاح على هذا بالتناص الخفي. ثم يعود بعد التضرع والتذلل والابتهال لجلال الله الوهاب الرزاق للسؤال: (**اللَّهُمَّ أَغِثْهُمْ بِغِيَاثِكَ**)، وهذا أسلوب إنشائي أمرٌ، الغرض منه الدعاء والتذلل. وفي قوله: (**قَبْلَ أَنْ يَقْنَطُوا**): دلالة على حرص عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رعيته أن يصيبهم غضب من الله تعالى. وقوله: (**فَيَهْلَكُوا**): الفاء هنا للسرعة، وكأن من يقنط من روح الله يصيبه هلاك وعذاب سريعٌ من الله - تعالى -. ثم يقول: (**فَإِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**) وهنا يتجلى التناص مرة أخرى مع قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] والفاء - أيضًا - للسرعة والتعقيب.

[٤٠١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي عَامِ الرَّمَادَةِ

«أَيُّهَا النَّاس، اتَّقُوا اللهَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَفِيمَا غَابَ عَنِ النَّاس مِنْ أَمْرِكُمْ؛ فَقَدِ ابْتُلِيتُ بِكُمْ، وَابْتُلِيتُمْ بِي، فَمَا أَدْرِي: السَّخْطَةُ عَلَيَّ دُونَكُمْ، أَوْ عَلَيْكُمْ دُونِي، أَوْ قَدْ عَمَّتْنِي وَعَمَّتْكُمْ؟! فَهَلُمُّوا فَلْنَدْعُ اللهَ يُصْلِحْ قُلُوبَنَا، وَأَنْ يَرْحَمَنَا، وَأَنْ يَرْفَعَ عَنَّا الْمَحْلَ»، فَرُئِيَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ رَافِعًا يَدَيْهِ يَدْعُو اللهَ، وَدَعَا النَّاس، وَبَكَى وَبَكَى النَّاس مَلِيًّا، ثُمَّ نَزَلَ[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**المَحْل**): قال صاحب معجم الصحاح: «المَحْلُ: الجَدبُ، وهو انقطاع المطر، ويُبس الأرض من الكلاء».

مقتضى الحال: سبقت الإشارة إليه عند شرح النص السابق.

البيان والبلاغة: مازال الفاروق رضي الله عنه يلح على الأمة في طلب الدعاء من الله - تعالى -كاشف الضر عن عباده، فبعد أن أمر الرعية بالاستغفار ذهب إلى علاج أمراض الأمة وأمرهم بتقوى الله - تعالى -، قال: (**أَيُّهَا النَّاس**) وقد سبق الكلام على أن الغرض من النداء استرعاء الانتباه، و(**أي**): من المعروف أنها لنداء القريب، وهنا استخدمها عمر رضي الله عنه للناس كافة؛ لحثهم على سرعة الاستجابة لما يقول. ثم

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٢٢، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٠٢.

قال: (اتَّقُوا اللهَّ فِي أَنْفُسِكُمْ): الأسلوب إنشائي أمر الغرض منه الحث والإرشاد، وفيه تناص خفي أيضًا؛ حيث تأثر بالعديد من الآيات التي ربطت بين فتح أبواب الخير والسعة وبين تقوى الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]. وقوله: (وَفِيمَا غَابَ عَنِ النَّاس مِنْ أَمْرِكُمْ): عطف على (فِي أَنْفُسِكُمْ) و(مِنْ) في قوله: (مِنْ أَمْرِكُمْ): للتبعيض؛ لحث النَّاس على مراعاة الله في الخلوات، وفيه دلالة على أن القوم يُمنعون الخير بذنوب البعض. ثم قال: (فَقَدِ ابْتُلِيتُ بِكُمْ، وَابْتُلِيتُمْ بِي) وابتلاء الفاروق بالأمة من قول النبي ﷺ لأبي ذر: «إِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِى عَلَيْهِ فِيهَا»، وكذا قوله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»، وغيرها من الآثار الواردة عن النبي ﷺ في الوالي الذي لا يقوم بحق رعيته. و(قد) للتحقيق. وقدَّم ابتلاءه بالرعية؛ للدلالة على استشعاره المسئولية، ثم ذكر عدم معرفته لسبب هذا البلاء بقوله: (فَمَا أَدْرِي، السُّخْطَةُ عَلَيَّ دُونَكُمْ، أَوْ عَلَيْكُمْ دُونِي، أَوْ قَدْ عَمَّتْنِي وَعَمَّتْكُمْ؟!)، واستخدم أسلوب الاستفهام للدلالة على حيرته في الأمر، وكذا توجيه اللوم لنفسه ولرعيته بأنَّ ما ألمَّ بالرعية جاء بذنب، فبعدما دعاهم للتقوى والحرص على مراقبة الله في الخلوات، جاء الاستفهام؛ ليكون إيقاظا لضمائرهم وكأنَّ لسان حال الفاروق: سلوا أنفسكم من أين أتينا؟! وتقديم نفسه في قوله: (السُّخْطَةُ عَلَيَّ دُونَكُمْ) دلالة على تواضعه رضي الله عنه ومعاتبة نفسه بشكل دائم. ثم أتبع سؤاله بقوله: (فَهَلُمُّوا فَلْنَدْعُ اللهَ): الفاء هنا تفيد السرعة، وكأنه يأمرهم

بالمسارعة إلى مغفرة ربهم، واستخدم اسم الفعل الأمر (**هلم**) و(لام الأمر) في (**لندع**)؛ للدلالة - أيضا - على أمرهم بتلبية الأمر والتضرع لله - تعالى -. ثم ذكر ما يدعون الله به فقال: (**يُصْلِحْ قُلُوبَنَا، وَأَنْ يَرْحَمَنَا، وَأَنْ يَرْفَعَ عَنَّا الْمُحْلَ**).

[٤٠٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي عَامِ الرَّمَادَةِ

«لَوْ لَمْ أَجِدْ لِلنَّاسِ مِنَ الْمَالِ مَا يَسَعُهُمْ لَأَدْخَلْتُ عَلَى كُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ عُدَّتَهُمْ، فَقَاسَمُوهُمْ أَنْصَافَ بُطُونِهِمْ، حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِالْحَيَا؛ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْلِكُوا عَلَى أَنْصَافِ بُطُونِهِم»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: سبق الإشارة إليه عند شرح النص رقم أربعمئة.

البيان والبلاغة: وردت هذه الكلمات بعد أن فتح الله - سبحانه وتعالى - على المسلمين بالخير والبركات من السماء بالغيث، ومن باقي الأقطار الإسلامية بالمؤن والخيرات، فبعد أن حمد الفاروق رضي الله عنه ربه - عز وجل - قال تلك الكلمات. وتلحظ هنا أن الفاروق استخدم أسلوب الشرط بـ(**لَوْ**) و(**لو**) كما قال عنه سيبويه: «حرف لما كان سيقع لوقوع غير»، أي: لتعليق الأمر في المستقبل، ومن فوائد استخدامه التحذير، أي: إن وقع للمسلمين أمر مثل هذا الأمر مستقبلا. وقوله: (**لَأَدْخَلْتُ**): اللام الواقعة هنا في جواب (**لو**) تدل على المماطلة في جعل الأمر واقعًا، وقد اصطلح الزركشيُّ[٢] على تسمية هذه اللام بـ(مسبوقة)، وينبغي أن تسمَّى (لام

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٩٥-٣٩٦.
٢- يُنظر البرهان في علوم القرآن (٤/ ٣٣٧، ٣٣٨).

التسويف)[1]؛ لأنها تفيد ما يفيده كلٌّ من (السين، وسوف) من دلالة على التسويف تارة، والمماطلة تارة أخرى في إيقاع الفعل. وفي كل الأحوال جاء الأسلوب مناسبًا لمقتضى الحال؛ نظرا لأن الفاروق قد علَّق الفعل في المستقبل، فكأنه قال: (إذا حدث كذا سوف أفعل كذا). وفي قوله: (**فَقَاسَمُوهُمْ أَنْصَافَ بُطُونِهِمْ**): تناص خفي بقول النبي ﷺ: «**طَعَامُ الاثْنَيْنِ كَافِي الثَّلَاثَةِ، وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ كَافِي الأَرْبَعَةِ**»، وفي ذلك دلالة على عقلية الفاروق رضي الله عنه في تطويع النَّص الديني للنوائب والنوازل الدنيوية. والفاء في قوله: (**فَقَاسَمُوهُمْ**) للترتيب والتعقيب. واستخدامه (**حتى**) في قوله: (**حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِالْحَيَا**) مناسبة للسياق؛ لأنها لما يستقبل من الزمان، وتحديد الغاية المرجوة جعلها الفاروق رضي الله عنه مقرونة بمشيئة الله - سبحانه وتعالى - من باب الخضوع لجلاله - سبحانه -. وقوله: (**فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْلَكُوا عَلَى أَنْصَافِ بُطُونِهِم**): أسلوب مؤكد بـ (**إنَّ**) واستخدام الأداة (**لن**) تفيد النفي في المستقبل. وقوله: (**أَنْصَافِ بُطُونِهِم**): كناية عن حالة التقشف التي سوف يفرضها عليهم، ويلاحظ اعتماد الفاروق رضي الله عنه في المقولة السابقة على تعليق الأمر كله في المستقبل؛ فاستخدم أدوات الإيجاب والنفي كلها لتعليق الأمر في المستقبل، فكان البناء اللغوي البلاغي متناسقًا مناسبًا لأسلوب الشرط الذي بدأ بـ (**لو**) وجاء كل ما بعدها في جملة جواب الشرط مُعَلَّقًا في المستقبل.

١- يُنظر النحو الوافي (٤/ ٤٩٧، ٤٩٨).

[٤٠٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ

«أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا كُنَّا نَقْرَأُ: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨] فِي آخِرِ الزَّمَانِ كَمَا جَاهَدْتُمْ فِي أَوَّلِهِ»، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: وَمَتَى ذَلِكَ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: «إِذَا كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ الْأُمَرَاءَ، وَبَنُو الْمُغِيرَةِ الْوُزَرَاءَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: اختلفت نظرة المفسرين عن نظرة المؤرخين للأثر السابق؛ فقد ساق المفسرون[٢] الأثر في سياق التدليل على أن قوله: (**في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله**) كان تفسيرًا من النبي ﷺ للآية. أما المؤرخون فقد ساقوا الأثر الذي ساقه البيهقي في الدلائل مستشهدين به على أن الفئة الباغية هي التي قتلت عمارًا رضي الله عنه؛

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «الأمالي» (٦٩)، والبيهقيُّ في «دلائلِ النُّبوَّةِ» ٦/ ٤٢٢، وعزاهُ السُّيوطيُّ في «الدُّرِّ المنثورِ» لابنِ مَرْدَوَيْهِ ٦/ ٧٨.
قالَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٥٩٦: (وهو غريبٌ معَ نظافةِ إسنادِه، واللهُ أعلمُ).
وقالَ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ٩/ ١٩٦: (ذكرهُ البيهقيُّ هاهنا، وكأنَّهُ يَستشهِدُ به على ما عَقَدَ لهُ البابَ بعدَهُ مِن ذكرِ الحَكَمَيْنِ وما كانَ مِن أمرِهما، فقالَ: بابُ ما جاءَ في إخبارِهِ - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ - عنِ الحَكَمَيْنِ اللَّذَيْنِ بُعِثَا في زمنِ عليٍّ - رضيَ اللهُ عنهُ -).

٢- وفي «تفسير الرازي» (٢٣/ ٢٥٥) قال: «واعلم أنه يبعد أن تكون هذه الزيادة من القرآن، وإلا لنقل كنقل نظائره، ولعله إن صح ذلك عن الرسول فإنما قاله كالتفسير للآية». ونقل ابن عادل كلامه في «اللباب» (١٤/ ١٥٧)، وفي «غرائب القرآن» للنيسابوري (٥/ ١٠٢) قال: «قال العلماء: لو صحت هذه الرواية فلعل هذه الزيادة من تفسير الرسول ﷺ ليست من نفس القرآن وإلا لتواترت». وكذا في «روح المعاني» (٩/ ١٩٩) قال الألوسي: «ولا يخفى عليك حكم هذه القراءة»، ثم نقل كلام النيسابوري.

فقد ساقه الذهبي مرتين[١] الأولى في تاريخ الإسلام تحت باب (من إخباره ﷺ بالكوائن بعده فوقعت كما أخبر)، والثانية في سير أعلام النبلاء تحت فصل (في معجزاته ﷺ) وسبقه حديث النبي ﷺ قال لعمار: «**تَقْتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِيَةُ**»، ولحقه حديث النبي ﷺ: «**تَمْرُقُ مارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِن المُسْلِمِينَ يَقْتُلُها أَوْلَى الطَّائِفَتَينِ بِالحَقِّ**».

وقد ساقه ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية[٢] تحت باب: (إخباره ﷺ عن الفتن الواقعة في خلافة عثمان)، وللعلماء كلام كثير في الفتنة التي دارت بين الصحابة[٣].

وإن كان المتن مخالفًا لما ورد من أفعال الفاروق رضي الله عنه؛ فعندما توفي الصديق عام ١٣هـ بويع الفاروق بالخلافة فسار على نهج صاحبيه في استعمال بني أمية والثقة بهم، فلم يعزل أحدًا منهم مِن عمل، ولم يجد على أحد منهم مأخذًا والكل يعرف صرامة عمر، وتحريه أمر ولاته وعماله وتقصيه أعمالهم وأخبارهم، ومحاسبتهم بكل دقة وحزم، فاستمرارهم في عهده يدل على أمانتهم وكفايتهم، فقد بقي يزيد بن أبي سفيان واليًا على دمشق، كما زاد عمر في عمل معاوية بالشام[٤] فإن كان جهادهم واجبًا كما ورد في المتن السابق؛ فكان أحرى بالفاروق رضي الله عنه أن يقصيهم عن المناصب ولا يضع فيهم ثقة تؤهلهم فيما بعد لتولي مناصب عليا. أما المكان والزمان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا الكلام فغير معروفين.

١- «تاريخ الإسلام» تحقيق الدكتور بشار عواد (١/ ٧١٩)، «سير أعلام النبلاء» تحقيق شعيب الأرناؤوط (٢/ ٣٣٩).

٢- البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي (٩/ ١٩٦).

٣- وقد حقق القضية الشيخ محب الدين الخطيب في تعليقه على كتاب العواصم من القواصم للإمام المالكي أبي بكر بن العربي طبعة مكتبة السنة، وكذا الدكتور علي محمد الصلابي في أكثر من مؤلَّف من مؤلفاته ولعل أبرزها كتاب فتنة مقتل عثمان بن عفان وموقف الصحابة منها، طبعة مؤسسة اقرأ.

٤- الدولة الأموية، علي محمد الصلابي (١/ ٥٢-٥٣).

البيان والبلاغة: في قوله: (**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا كُنَّا نَقْرَأُ**): أسلوب إنشائي استفهام الغرض منه التقرير، واستخدم الأسلوب الإنشائي لجذب انتباه المتلقي، ولأن كلامه لا يحتمل إلا الصدق. واستخدم (**كنا**) للدلالة على تأكيد الفعل في الماضي، أما قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [الحج: ٧٨]، فالجهاد بصيغة المفاعلة حقيقة شرعية في قتال أعداء المسلمين في الدين؛ لأجل إعلاء كلمة الإسلام أو للدفع عنه، ومعنى (**في**) التعليل، أي: لأجل الله ولأجل نصر دينه، وإضافة جهاد إلى ضمير الجلالة لأدنى ملابسة، أي: حق الجهاد لأجله. أما قوله: (**فِي آخِرِ الزَّمَانِ كَمَا جَاهَدْتُمْ فِي أَوَّلِهِ**): فقد ورد في (مقتضى الحال) أنها تفسيرية وليست من نفس القرآن، والكاف في (**كما**)؛ لتشبيه حالهم في آخر الزمان بحالهم في أوله، وبين (**آخر**) و(**أوله**): تضاد يؤكد المعنى ويبرزه. وفي قوله: (**إِذَا كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ الْأُمَرَاءَ، وَبَنُو الْمُغِيرَةِ الْوُزَرَاءَ**): عبر هنا عن المستقبل بالماضي (**كان**)؛ لأنه بمثابة الأمر الواقع لا محيد عنه لبيان تحقق الخبر، والفعل الماضي هنا جاء لفظًا لا حكمًا، و(**إذا**) ظرف لما يستقبل من الزمن. والأصل في (**إذا**) أن يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه[1]، فاستخدم (**إذا**) الشرطية و(**كان**) الماضية الدالة على وقوع الخبر في المستقبل لا محيد عن ذلك؛ لتأكيد تحقق الجهاد في الله إذا صار بنو أمية الأمراء، وبنو المغيرة وزراءهم.

١- «الإيضاح في علوم البلاغة»، للقزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي (٢/ ١١٧).

[٤٠٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ حِينَ قُحِطَ النَّاس[١]:

«اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا[٢] فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»[٣].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: قد فَصَّلْنَا القول في بيان ما حدث في عام الرمادة فيما مضى، فراجع غير مأمور.

١- قالَ ابنُ بطَّالٍ في «شرحِه لصحيحِ البخاريِّ» ٣/ ٩: «وأمَّا استسقاءُ عمرَ بالعبَّاسِ؛ فإنَّما هو للرَّحِمِ الَّتي كانتْ بينَه وبينَ النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ -، فأرادَ عمرُ أن يَصِلَها بمراعاةِ حقِّهِ، ويتوسَّلَ إلى مَن أمرَ بصِلةِ الأرحامِ بها وصلوهُ مِن رَحِمِ العبَّاسِ، وأن يجعلوا ذلكَ السَّببَ إلى رحمةِ الله - تعالى -».

٢- ومعنى قولِه: «كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا» أي: بدُعائِه وشفاعتِه. ولهذا تَوسَّلوا بعدَ موتِه بدُعاءِ العبَّاسِ وشفاعتِه، لَمَّا تعذَّرَ عليهمُ التَّوسُّلُ بِهِ بعدَ موتِه، كما كانوا يَتوسَّلونَ بِهِ في حياتِه. ولم يُرِدْ عُمرُ بقولِه: «كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا» أن نسألك بحُرمتِه أو نُقسِمُ عليكَ بِهِ مِن غيرِ أن يكونَ هو داعيًا شافعًا لنا، كما يفعلُه بعضُ النَّاسِ بعدَ موتِه؛ فإنَّ هذا لم يكونوا يفعلونهُ في حياتِه، إنَّما كانوا يتوسَّلون بدعائِه. ولو كانوا يفعلونهُ في حياتِه؛ لكانَ ذلكَ مُمكِنًا بعدَ موتِه كما كانَ في حياتِه، ولم يكونوا يحتاجونَ أن يتوسَّلوا بالعبَّاسِ. وكثيرٌ مِن النَّاسِ يغلطُ في معنى قولِ عمرَ، وإذا تدبَّره عرفَ الفرقَ. ولو كانَ التَّوسُّلُ بِهِ بعدَ موتِه مُمكِنًا كالتَّوسُّلِ بِهِ في حياتِه؛ لَمَا عَدَلُوا عنِ الرَّسُولِ - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ - إلى العبَّاسِ. «الأَخنائِيَّة» لابنِ تيميَّةَ ص ٤٦٤.

٣- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (١٠١٠) و(٣٧١٠)، وابنُ أبي عاصمٍ في «الآحادِ والمثاني» (٣٥١)، وأبو عوانةَ في «المُسنَدِ» (٢٥٢٠)، والآجُرِّيُّ في «الشَّريعةِ» (١٧٤٤)، والطَّبرانيُّ في «المعجمِ الكبيرِ» (٨٤)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٦٤٢٧)، والبغويُّ في «شرحِ السُّنَّة» (١١٦٥)، والفسويُّ في «المعرفةِ والتَّاريخ» ١/ ٥٠٤، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٤/ ٢٨، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشق» ٢٦/ ٣٥٥-٣٥٦.

البيان والبلاغة: تدور كل الشروح والفتاوى التي تناولت هذا الحديث بالكلام حول مشروعية التوسل، وبالنظر للجانب البلاغي لحديث الفاروق ﵁ نجد أنه بدأ حديثه متضرعًا لله - سبحانه وتعالى - بقوله: (**اللهم**)، وهذا أسلوب إنشائي نداء غرضه الدعاء والتضرع، ثم يتبع تضرعه لله بـ (**إِنَّا**) ويُلاحظ التوكيد بـ (**إِنَّ**) الثقيلة؛ للدلالة على أنهم كانوا يهرعون للنبي ﷺ في كل أمر. أما قوله: (**كُنَّا**): فتفيد أن ذلك كان في حياته، وأنهم توقفوا عن ذلك بعد مماته، وإذا كان التوسل به ﷺ غير جائز بعد مماته، فهو غير جائز بمن دونه بعد مماته من باب أولى، وهو ما استشهد به المانعون للتوسل. أما قوله: (**فَتَسْقِينَا**): الفاء هنا للسرعة والتعقيب. وقوله: (**نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا**)، أي: بدعائه إليك، واعتمد الفاروق ﵁ في قوله السابق على ثقافة المتلقي بما عرفه مما شرَّع النبي ﷺ للأمة. وقوله: (**فَاسْقِنَا**): أسلوب إنشائي أمر، الغرض منه الدعاء والتذلل لله - عز وجل -، والفاء للدلالة على أمله في سرعة استجابته - سبحانه وتعالى -؛ طمعا فيما في خزائنه من الجود والخير.

[٤٠٥]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ

«اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي السَّعَادَةِ فَأَثْبِتْنِي فِيهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي عَلَى الشِّقْوَةِ فَامْحُنِي مِنْهَا وَأَثْبِتْنِي فِي السَّعَادَةِ؛ فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثْبِتُ، وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المكان مكة المكرمة في بيت الله الحرام، الزمان غير محدد، وقد تناول العلماء هذا الأثر في سياق حديثهم عن مسألة المحو والإثبات في الصحف، ومعروف أن مسألة المحو والإثبات إنما تكون في الصحف التي بأيدي الملائكة، وأما أُم الكتاب (وهو اللوح المحفوظ) ففيه القضاء المبرم الذي لا يقبل الزيادة ولا النقصان. فبناءً على ما تقدم يكون معنى دعاء الفاروق رضي الله عنه: اللهم إن كنت كتبتني في الصحف التي بأيدي الملائكة شقيًّا فامحني من الشقاء وأثبتني في أهل السعادة، وأعني على ذلك، وهذا إيمان جازم من عمر رضي الله عنه أن الذي يملك السعادة والشقاء هو الله - عز وجل -، وأنه سبحانه بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. أما حاصل استشهاده رضي الله عنه بقوله - سبحانه وتعالى -: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ من الأقدار ﴿**وَيُثْبِتُ**﴾ ما يشاء منها، فهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه

١- رواهُ اللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (١٢٠٧).

قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال على الله - سبحانه وتعالى - أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها وهي فروع له وشعب؛ فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابًا ولمحوها أسبابًا، لا تتعدى تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببًا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببًا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببًا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ[1].

البيان والبلاغة: المتأمل في ضراعة الفاروق رضي الله عنه يجد أن الحديث كله يحتوي على أصوات مهموسة كالتاء والسين والهاء والفاء والثاء والشين والكاف والحاء، وقد ناسب ذلك سياق التضرع والخفاء والخفض في دعاء الرب - سبحانه وتعالى -. واعتمد رضي الله عنه في حديثه على الطباق في قوله: (**فَأَثْبِتْنِي، فَامْحُنِي**)، (**السَّعَادَةِ، الشِّقْوَةِ**)، (**تَمْحُو، وَتُثْبِتُ**) (**فِيهَا، مِنْهَا**) والمقابلة بين: (**إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي السَّعَادَةِ فَأَثْبِتْنِي فِيهَا**)، (**وَإِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي عَلَى الشِّقْوَةِ فَامْحُنِي مِنْهَا**)، وكل ما سبق يؤكد المعنى ويبرزه. ثم يبرز الفاروق رضي الله عنه بلاغة وبيانًا وثقافة دينية وفهمًا عاليًا للنص القرآني؛ إذ يردُّ قول نفسه إلى قول الله - تعالى -: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ

١- «تفسير العلامة السعدي» ص٤١٩، ٤٢٠.

ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [الرعد : ٣٩]، وكأنه أراد أن يقول: أن دعوته في سياق فهم المتلقي لقوله - تعالى - السابق الإشارة إليه. ففي قوله تناص خفي مع قول الله - تعالى -، وقد أكده باقتباس النَّص القرآني.

[٤٠٦]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

«اللَّهُمَّ كَبِرَتْ سِنِّي، وَضَعُفَتْ قُوَّتِي، وَخَشِيتُ الِانْتِشَارَ مِنْ رَعِيَّتِي؛ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ عَاجِزٍ وَلَا مَلُومٍ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ذُكر[٢] أن المكان الذي كان فيه الفاروق وقتئذ البقيع؛ وأنه لم يلبث شهرًا حتى مات، أي: في العام الثالث والعشرين من هجرة النبي ﷺ.

البيان والبلاغة: انظر للحقل الدلالي الذي اختاره الفاروق رضي الله عنه لطرح فكرته: (**الكِبر، الضعف، الخشية، العجز**) فكل تلك الكلمات عندما يستمع إليها المتلقي في حديث واحد تنتقل إليه الحالة الشعورية التي كان يعانيها الفاروق رضي الله عنه وهي حالة الشعور بدنو الأجل؛ فقد استطاع بتفرد أن يطرح مقدمات تتناسب مع الدعاء الذي اختتم به مقولته البليغة؛ فبعد مناداة الرب - عز وجل - بقول: (**اللَّهُمَّ**) قدم ما يعانيه من كبر السن، وضعف القوة، والخوف من تفرق الأمة، ثم مضى لسبيله قائلا: (**فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ عَاجِزٍ وَلَا مَلُومٍ**). وتمني الفاروق رضي الله عنه الموت في هذا

١- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإ» (٣٠٤٤)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٦٣٨) و(٢٠٦٣٩)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٣٤ و٣٣٥، وأحمدُ في «فضائلِ الصَّحابةِ» (٦٠٨)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخ المدينةِ» ٣/ ٨٧٢ و٨٧٦ و٨٧٧، والفاكهيُّ في «أخبارِ مكَّةَ» (١٧٩٧)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤١١، وابنُ أبي الدُّنيا في «مُجابي الدَّعوةِ» (٢٤)، وابنُ أبي عاصمٍ في «الآحادِ والمثاني» (٩٠)، والخطَّابيُّ في «العزلةِ» ص٧٧، وأبو نُعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥٤ و٢/ ١٤، والخطيبُ في «تاريخِ بغدادَ» (٢٦٠٩)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٠٩.

٢- في «جامع معمر بن راشد» (١١/ ٣١٥).

الحديث جائز؛ لأنه محمول على خشية الفتنة، ومنه قوله ﷺ: «**وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ**»، فلما خشي الفاروق رضي الله عنه تفرق الرعية ودب روح الفتنة بينهم تمنى الموت وعلق موته بأن يكون (**غير عاجز**)، أي: على درأ الفتنة، (**ولا ملوم**)، أي: غير مسئول فيها. والسجع في: (**سِنِّي، قُوَّتِي، رَعِيَّتِي**) يعطي جرسا موسيقيا يجذب ذهن المتلقي. وبين (**ضَعُفَتْ، عَاجِزٍ**): ترادف يؤكد المعنى المراد إيصاله للمتلقي. وكذا الطباق بين: (**ضَعُفَتْ**) و (**قُوَّتِي**) يؤكد المعنى ويبرزه.

[٤٠٧]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

يَطْلُبُ فِيهِ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللهِ

«اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي شَهَادَةً فِي سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ مَوْتِي فِي بَلَدِ رَسُولِكَ ﷺ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ذكر صاحب عمدة القاري أن سبب قول عمر رضي الله عنه ذلك أنه لما سمع النَّبيَّ ﷺ دعا بقوله: «**اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كحُبِّنا لمَكَّة**»، سأل عمر الله - تعالى - أن يجعل موتَه في المدينة؛ إظهارا لمحبته إياها كمحبته لمكة، وإعلاما بصدقه في ذلك بسؤاله الموت فيها. وقيل: ذكر ابن سعد سبب دعائه بذلك، وهو ما أخرجه بإسناد صحيح عن عوف بن مالك أنَّه رأى رؤيا فيها أنَّ عمر شهيد يستشهد، فقال لما قصها عليه: أنَّى لي بالشهادة وأنا بين ظهراني جزيرة العرب، لستُ أغزو، والناس حولي؟! ثم قال: بلى وبلى، يأتي بها الله، إن شاء الله تعالى.

البيان والبلاغة: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فحصر المولى - تبارك وتعالى - تقبل الدعاء في مَن اتقى ربه، وإنَّا لنشهد أن الفاروق رضي الله عنه من المتقين؛ فقد دعا بقوله: (**شهادة في سبيلك**)، فقبل الله دعاءه ورزق الشهادة، وقتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، ضربه في خاصرته وهو في صلاة الصبح. وقوله: (**واجعل موتي في بلد رسولك**)، ووقع كذلك، ودفن عند أبي بكر، وأبو بكر

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (١٨٩٠)، ومالكٌ في «المُوطَّإ» (١٦٨٠)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٥٥٠) و(١٩٦٣٧)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٣١.

عند النبي ﷺ، فالثلاثة في بقعة واحدة هي من أشرف البقاع[1]. وقد حقت دعوة المصطفى ﷺ: «**اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ**» بشوق الفاروق رضي الله عنه للدفن بتلك البقعة؛ فالمرء لا يسأل الله - عز وجل - أن يُقبر إلا في أحب البقاع إلى قلبه. والأثر السابق موجز اعتمد الفاروق فيه على المباشرة ولكنه أحدث في الأثر - المؤلف من جملتين فقط - جرسًا موسيقيًّا يجذب انتباه المتلقي في: (**سَبِيلِكَ**) و (**رَسُولِكَ**).

١- يُنظر: «عمدة القاري»، بتصرف يسير (١٠/ ٢٥٢).

[٤٠٨]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

«اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَتْلِي بِيَدِ رَجُلٍ صَلَّى لَكَ سَجْدَةً وَاحِدَةً، يُحَاجُّنِي بِهَا عِنْدَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينادي أمير المؤمنين رضي الله عنه ربَّه داعيا إياه ألا يكون موتُهُ على يد مسلم، وقد استجاب الله - سبحانه وتعالى - دعوته وحقق رجاءه.

البيان والبلاغة: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وظلت كلماته تجوب صدور أصحابه ليل نهار، فبشارة النبي صلى الله عليه وسلم للفاروق رضي الله عنه ظلت عقيدة في نفسه ينتظر أن يأتيه أجله شهيدًا بين يدي الله - عزَّ وجلَّ -؛ ألم يرد في السنة عن ابْنِ عُمَرَ قَالَ: رَأَى النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - ثَوْبًا أَبْيَضَ، فَقَالَ: «**أَجَدِيدٌ قَمِيصُكَ أَمْ غَسِيلٌ**؟ فَقَالَ: بَلْ جَدِيدٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **الْبَسْ جَدِيدًا، وَعِشْ حَمِيدًا، وَمُتْ شَهِيدًا**»، فلما علم الفاروق رضي الله عنه أنه سيموت شهيدًا رأى أن قاتله إن كان من أهل الإسلام، لابد أن يكون له حسنات، فَرُبَّمَا وفَّت حسناتُه بعد القصاص، وبقي له ما يدخل به الجنَّة، وإذا دخل الجنَّة لم يبلغ انتصاره منه، وقال أبو الوليد الباجي: «إنَّما قال ذلك عمر إشفاقًا للمسلم»[٢]. وقال ابن عبد البرِّ: «أراد أن يكون قاتله مخلدًا في النار، ولا يكون كذلك إلا من لم يسجد لله سجدة ولم يعمل

١- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإ» (١٦٧٥)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٩٠٣، والآجُرِّيُّ في «الشَّريعةِ» (١٣٩٩)، وأبو نُعَيم في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥٣.

٢- «المسالك في شرح موطأ مالك» (٥/ ٨٥،٨٦).

من الخير والإيمان مثقال ذرة، وقد استجاب الله له فجعل قتله بالمدينة بيد فيروز النَّصراني أو المجوسي أبي لؤلؤة، عَبد المغيرة بن شعبة الصحابي»[1]، قال محمد بن رشد: «وقد قيل إنه إنما أراد ألا يقتله أحد من أهل القبلة بتأويل يستحل به قتله، فيكون له بذلك عند الله عذر بسبب أنه لم يقتله إلا وهو يعتقد الطاعة لله - عز وجل - بقتله فيخف عنه دينه، فهذا أظهر»[2]. وقد جعل أمير المؤمنين رضي الله عنه السجود في قوله: (**سَجْدَةً واحِدَةً**) كناية عن الإسلام. ومعلوم أن الكافر لا يقام له يوم القيامة وزنًا، ولا تسمع منه حجة؛ لأن حجته داحضة ولا تأويل إلا لمؤمن موحد؛ لذا سأل الله أن يكتب شهادته على يد كافر وقد كان؛ فصلى الله على من بشر بالشهادة، ورضي الله عمن انتظرها بإيمان ويقين.

١- «الاستذكار» لابن عبد البر (٥/ ٩٩).

٢- «البيان والتحصيل» (١٨/ ٦٤).

[٤٠٩]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

«اللَّهُمَّ تَوَفَّنِي مَعَ الْأَبْرَارِ، وَلَا تُخَلِّفْنِي فِي الْأَشْرَارِ، وَقِنِي عَذَابَ النَّارِ، وَأَلْحِقْنِي بِالْأَخْيَارِ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يناجي أمير المؤمنين رضي الله عنه ربه، راجيا وسائلا إياه أمورا من أمور الآخرة تدور حول الفوز بالجنة والنجاة من النار.

البيان والبلاغة: تضرُّع الفاروق رضي الله عنه لربه - جل وعلا - لا ينقطع. والمعاني واضحة في الأثر السابق، ولكن الفاروق رضي الله عنه نظمها بشكل جذب فيها انتباه السامع فاعتمد في المقام الأول في حديثه على السجع؛ فبالنظر في فواصل الجمل تجدها متفقة في الحرف الأخير: (**الْأَبْرَارِ، الْأَشْرَارِ، النَّارِ، بِالْأَخْيَارِ**). كما أنه اعتمد على إبراز المعنى وتأكيده في الطباق بين الأزواج التالية: (**تَوَفَّنِي، تُخَلِّفُنِي**) و(**الْأَبْرَارِ، الْأَشْرَارِ**)، والمقابلة بين: (**تَوَفَّنِي مَعَ الْأَبْرَارِ، تُخَلِّفُنِي فِي الْأَشْرَارِ**)، والترادف بين: (**الْأَبْرَارِ، الْأَخْيَارِ**). وكل المحسنات السابقة لها أثر في تأكيد المعنى وإبرازه، كما عمل السجع على جذب انتباه السامع.

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ» ٣/ ٣٣٠، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٦٢٩)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٠٩.

[٤١٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي السَّنَةِ الَّتِي قُتِلَ بِهَا

«يَا أَيُّهَا النَّاس، أَلَا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَعرِفُكُمْ إِذْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ، وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ، وَإِذْ يُنبِئُنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ. أَلَا وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدِ انْطَلَقَ، وَقَدِ انْقَطَعَ الْوَحْيُ، وَإِنَّمَا نعرِفُكُمْ بِمَا نَقُولُ لَكُمْ: مَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا، وَأَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ مِنكُمْ لَنَا شَرًّا ظَنَنَّا بِهِ شَرًّا، وَأَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ، سَرَائِرُكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ. أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَتَى عَلَيَّ حِينٌ وَأَنَا أَحْسَبُ أَنَّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ يُرِيدُ اللهَ وَمَا عِنْدَهُ، فَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ بِآخِرَةٍ أَنَّ رِجَالًا قَدْ قَرَؤُوهُ يُرِيدُونَ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاسِ، فَأَرِيدُوا اللهَ بِقِرَاءَتِكُمْ، وَأَرِيدُوهُ بِأَعْمَالِكُمْ.

أَلَا إِنِّي وَاللهِ مَا أُرْسِلُ عُمَّالِي إِلَيْكُمْ لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ[1]، وَلَا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ، وَلَكِنْ أُرْسِلُهُمْ إِلَيْكُمْ لِيُعَلِّمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنَّتَكُمْ، فَمَنْ فُعِلَ بِهِ شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِذًا لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ[2]». فَوَثَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَوَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَعِيَّةٍ، فَأَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ، أَئِنَّكَ لَمُقْتَصُّهُ مِنْهُ؟ قَالَ: «إِي وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ، إِذًا لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ، أَنَّى لَا أُقِصَّنَّهُ مِنْهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقِصُّ مِنْ نَفْسِهِ؟ أَلَا لَا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ فَتُذِلُّوهُمْ، وَلَا

١- أَبْشَارَكم: جمعُ بَشَرةٍ، وهيَ ظاهرُ جِلْدِ الإِنسانِ. «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ (٢٠٦٩).

٢- (أُقِصَّنَّهُ): آخُذُ مِنهُ القِصَاصَ بِما فَعَلَ بِهِ. «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ (٢٠٦٩).

تُجَمِّرُوهُمْ[١] فَتَفْتِنُوهُمْ، وَلَا تَمْنَعُوهُمْ حُقُوقَهُمْ فَتُكَفِّرُوهُمْ[٢]، وَلَا تُنْزِلُوهُمُ الْغِيَاضَ[٣] فَتُضَيِّعُوهُمْ»[٤].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المقام مقام ترهيب وإلزام بتقوى الله – تعالى –، والزمان في عام ثلاثة وعشرين من هجرة النبي ﷺ، والمكان لم يجزم به ولعله مقر الخلافة الراشدة في مدينة النبي – ﷺ.

البيان والبلاغة: ظل اقتران العدل بذكر الفاروق رضي الله عنه من البديهيات؛ فإذا أَلَّفَ الكُتَّابُ وخطب الخطباء في العدل لابد من ذكر مواقف لعمر الخير رضي الله عنه فاتحين أمام الناس مجالات جديدة لمن أراد الاقتداء بالفاروق رضي الله عنه. وخطاب الفاروق رضي الله عنه موجَّه – هنا – للناس عامة ملوحٌ بذكر المنافقين. فبدأ خطبته البليغة قائلا: **(أيها النَّاس)**: وفي هذا النداء تنبيه للغافل، وهو يُعِدُّ السامع للحديث التالي؛ فالخطاب – هاهنا – ليس لكل من يستمع إلى الحديث من النَّاس الحاضرين، بل هو للناس قاطبة القاصي منهم والداني، ثم يمضي إلى الغرض من حديثه فيفتتح بقوله: **(أَلا)**، وهي افتتاحية يراد بها العناية بما بعدها وتوجيه ذهن السامع إليه، وتفيد المبالغة في

١– قولُه: «وَلَا تُجَمِّرُوهُم»، قالَ السِّندِيُّ: مِنَ التَّجمِيرِ، بالجيمِ والرَّاءِ المُهمَلةِ. وتَجمِيرُ الجيشِ: جمعُهم في الثُّغورِ، وحَبْسُهم عنِ العَوْدِ إلى أهليهِم.

٢– فَتُكَفِّرُوهُم: أي تَحمِلُوهم على الكُفْرانِ وعَدَمِ الرِّضا بِكُم، أو على الكُفرِ باللهِ؛ لِظَنِّهِم أَنَّهُ ما شَرَعَ الإنصافَ في الدِّينِ.

٣– الغِيَاض: جمعُ غَيْضةٍ، بِفَتحِ الغَينِ: وهِيَ الشَّجرُ المُلْتَفُّ، قِيلَ: لِأَنَّهم إذا نَزَلُوها تفرَّقُوا فِيهَا، فتَمَكَّنَ مِنهُم العَدُوُّ.

٤– رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٢٨٦)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٥٩٢)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخ المدينةِ» ٣/ ٨٠٧، و«مُسنَد أبي يَعْلَى» (١٩٦)، و«شرح مُشكِلِ الآثارِ» (٣٥٢٨)، والحاكمُ في «المُستَدرَكِ» (٨٣٥٦).

تقريره وتأكيد مضمونه ووجوب الاهتمام بالاعتبار به، وسنلاحظ أنها الفاصلة التي سيضعها الفاروق كلما انتقل من عنصر إلى عنصر آخر. وفي العنصر الأول يقول رضي الله عنه: (**إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ**): انظر للوسائل التي استخدمها الفاروق للتوكيد؛ فيبدأ بـ (**إنَّا**) للتوكيد، ثم يليها بـ (**إنَّما**) للحصر، ثم (**كنَّا**) التي يعمل استخدامها في المقام السردي على إجبار المتلقي لاستحضار صورة الماضي والعيش فيه. واستخدام الفعل الماضي هنا (**نعرفكم**) للتأكيد. ثم يقول: (**إِذْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ، وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ، وَإِذْ يُنْبِئُنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ**): وبالنظر للحروف - من حيث الجهر والهمس -، تجد حرف: الذال، والظاء، والباء، واستخدام الأصوات المجهورة في الخطابة بعد النداء بـ (**يا أيها النَّاس**)، فيه استرعاء تام للانتباه، فتشعر أنك في مقام وعظي، وكأن المستمع يقول: من أراد الفاروق بقوله؟ فيبدأ كل جملة بـ (**إذ**) الفجائية فتستشعر أن المنافقين في هذا الوقت في حالة ترقب وذعر كلما استكانت جوارحهم باغتهم بإذ الفجائية .. وإذ .. وإذ. ولم يكتف بتلك المؤثرات الصوتية فينتقل إلى استخدام أسلوب الالتفات في الانتقال من الماضي (**كنا نعرفكم**) للمستقبل الذي يعبر عن الماضي (**ينـزل، ينبئنا**) وذلك يزيد المستمع إغراقا في الماضي، فكأنه أخذهم لتلك الأيام فراحوا يتصورون نزول تلك الآيات في أيام النبي ﷺ. أما تعبير (**بين ظهرانينا النبي ﷺ**): فقد يُرى أنها مباشرة خالية من المجاز، والحقيقة أن فيها جمالا، وإلا فما الفارق بين قوله: (**بين ظهرانينا النبي**)، وبين: (بيننا النبي)؟! فكأنه أراد بقوله هذا أن يعبر عن سعادتهم وطمأنينتهم بوجود رسول الله ﷺ بينهم، كمن أراد أن يعبر عن اطمئنانه بوجود شخص فيقول: (**فلان في ظهري**)، أي: أنه مرتكن إليه يأوي إليه في كل صغيرة وكبيرة. ويعود عمر رضي الله عنه إلى تكرار: (**أَلا**)، كما أشرنا آنفا أنها الفاصلة التي سيأخذ بها المستمع من عنصر لآخر. وهذه المرة يقول: (**وَإِنَّ**

النَّبِيَّ ﷺ قَدِ انْطَلَقَ، وَقَدِ انْقَطَعَ الْوَحْيُ): يُلاحظ في قول الفاروق رضي الله عنه أنه لم يرد أن يقول أن النبي ﷺ قد مات، فقال: (**انطلق**)، وكأن الكلمة مازالت ثقيلة على لسان الفاروق رضي الله عنه. ثم يقول: (**وَإِنَّمَا نَعْرِفُكُمْ بِمَا نَقُولُ لَكُمْ**): هنا حصر معرفته بحال هؤلاء القوم بما يراه وبما يناسب آدميته والموقف بعد وفاة النبي ﷺ. ثم يستخدم الطباق بين الأزواج التالية: (**خَيْرًا**) و(**شَرًّا**) وبين (**أَظْهَرَ**) و(**سَرَائِرُكُمْ**) وبين (**أَحْبَبْنَاهُ**) و(**أَبْغَضْنَاهُ**)، وقد وافقت تلك المتضادات الحالة الشعورية للموقف الذي عقده الفاروق رضي الله عنه للمقارنة بين حالين فالطباق بجانب تأكيده للمعاني أضاف لونًا من استحضار المستمع للصورة التي أرادها الفاروق. وبالنظر للحقل المستخدم في توصيل الفكرة: (**أَظْهَرَ، أَحْسِبُ، خُيِّلَ**): كلها كلمات تدل على عدم الجزم بالأمر؛ فلو (**أظهر**) أخذه وبما أظهره؛ لعدم معرفته بما أخفى سواء كان خيرا أو شرا، و(**أحسب**): لغلبة الظن هو يحسب كذا ولكنه غير متيقن من الصواب، و(**خيل**): كذا التخييل قد يأتي بالأمر على حقيقته وقد ينافي الحقيقة بالضد تمامًا. أما في قوله: (**أَلا إِنَّ رِجَالًا قَدْ قَرَؤُوهُ يُرِيدُونَ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاس، فَأَرِيدُوا اللهَ بِقِرَاءَتِكُمْ، وَأَرِيدُوهُ بِأَعْمَالِكُمْ**): تضمين لمعنى الحديث الشريف لأول من تسعر بهم النار يوم القيامة، فقد قال الرسول ﷺ: «**فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهَّ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ. فَيَقُولُ اللهَّ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟! قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟! قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ. فَيَقُولُ اللهَّ: لَهُ كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ! وَيَقُولُ اللهَّ: لَهُ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ!**» فكأنما الفاروق رضي الله عنه أراد إنقاذ القارئ من أجل النَّاس من مصير ينتظره، وكأنه يقول له: إن كنت تخدعني بجميل ما تُظهر فعند الله ما تُظهر وما تخفي. ثم ينتقل لعنصر جديد بدأه كعادته قائلا: (**أَلَا**) وهذا العنصر

ابتعد فيه عن محادثة النفس البشرية الأمارة بالسوء، انتقل من المقام الوعظي إلى المقام الإداري في سياق متسق متصل لا يشعر المتلقي بهذا الانتقال، فيقول: (**إِنِّي - وَاللهِ - مَا أُرْسِلُ عُمَّالِي إِلَيْكُمْ لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ، وَلا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ**): يبدأ الفاروق كلمته بالتوكيد بـ (**إِنَّ**) الثقيلة والقسم؛ تأكيدا لكلامه حتى لا يتخلل نفس المتلقي أي إحساس خلاف ما يقوله الفاروق رضي الله عنه. ثم يستخدم المجاز المرسل في قوله: (**أَبْشَارَكُمْ**)، وعلاقته الجزئية. وكذا في تخصيصه للبشر بالذكر دون الجسد؛ لعل ذلك لأن البشرة والجلد أول ما يتأثر بهذا الإيلام الجسدي الذي قد يكون في أكثره أكثر إيلاما على النفس. فيقر من خلال الفكرة السابقة أنه لم يرسل الأمراء لضرب الخلق أو لجباية المال، ثم يستدرك على ذلك بقوله: (**وَلَكِنْ أُرْسِلُهُمْ إِلَيْكُمْ لِيُعَلِّمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنَّتَكُمْ**)، فالغاية من إرسال الأمراء تعليم الدين، ثم يستخدم أسلوب الزجر لمن تخطى ما أقره في قوله: (**فَمَنْ فُعِلَ بِهِ شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ**). وأسلوب التوكيد في قوله: (**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِذًا لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ**): أكد القول بالقَسَمِ واللام، ومما يدل على صرامته: ردُّ فعل الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه إذ وثب - كما نقل الراوي - متسائلا عمن يؤدب رعيته، فتتجلى عدالة وبلاغة الفاروق في رد بليغ، فقال: (**إِي - وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ -، إِذًا لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ**) فـ (**إِي**): حرف إيجاب لا يستعمل إلا في القسم، وهمزتها مكسورة والياء فيها ساكنة، والقسم بعده واللام ونون التوكيد الثقيلة في (**لَأُقِصَّنَّهُ**)، كلها للتأكيد عن مضي الفاروق في قوله دون رجعة مهما كانت دوافع الأمير لإهانة فرد من أفراد الرعية. ثم يقول: (**أَنَّى لا أُقِصَّنَّهُ مِنْهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُقِصُّ مِنْ نَفْسِهِ؟!**): أسلوب إنشائي استفهام الغرض منه الاستنكار والتعجب، كيف لا أقتص لمسلم حقه وقد اقتص النبي صلى الله عليه وسلم من نفسه؟! ولعل في ذلك إشارةً للقصة المشهورة أنَّ رسول الله

ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزيَّة؛ حليف بني عدي ابن النجار، قال: وهو مستنتل من الصف، فطعنه رسولُ الله ﷺ بالقدح في بطنه، وقال: «**اسْتَوِ يا سَواد**». فقال: يا رسول الله، أوجعتني، وقد بعثك الله بالعدل، فأقدني. قال: فقال له رسول الله ﷺ: «**اسْتَقِدْ**». قال: يا رسول الله، إنَّك طعنتني، وليس عليَّ قميص. قال: فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: «**اسْتَقِدْ**» قال: فاعتنقه، وقبَّل بطنه! قال: «**ما حَمَلَكَ عَلَى هَذا يا سَوَاد؟**» قال: يا رسول الله، حضرني ما ترى، ولم آمن القتل، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا رسول الله ﷺ له بخير. والآن نمضي مع (**ألا**) الأخيرة التي تضمنت الفكرة الأخيرة والتي أراد أن يختتمها بكلمة جامعة لكل ما أوضحه في الأثر وأضاف إليه أفكارا جديدة، فيقول: (**لَا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ فَتُذِلُّوهُمْ**): وفيه تأكيد على عزة المسلم، (**وَلا تُجَمِّرُوهُمْ فَتَفْتِنُوهُمْ**)، أي: لا تبعدوهم عن زوجاتهم فيفتتنوا، وفي ذلك أثر ورد عن الفاروق رضي الله عنه، عن عبد الله بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه ... وأرقني أن لا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله أني أراقبه ... لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر، أو أربعة أشهر، فقال عمر: لا أحبس أحدًا من الجيوش أكثر من ذلك. ثم يقول: (**وَلا تَمْنَعُوهُمْ حُقُوقَهُمْ فَتُكَفِّرُوهُمْ**) وفي هذا القول بيان لبُعد نظر الفاروق رضي الله عنه أن يولد جحدهم حقوقهم شعورا بالكفر بالله لعدم إنصافهم. ثم يقول: (**وَلا تُنْزِلُوهُمُ الْغِيَاضَ فَتُضَيِّعُوهُمْ**)؛ حرصا منه على حياة المسلم؛ ففي الأولى يحفظ كرامة المسلم،

وفي الثانية يحفظ عفة المسلمة والمسلم، وفي الثالثة يحفظ للمسلم إقرار مبدأ العدل والمساواة، وفي الرابعة يحفظ للمسلم حياته. وفي ذلك النسق استخدم الأسلوب الإنشائي النهي والغرض منه الزجر والتحذير، واستخدم الجرس الموسيقي المتمثل في السجع في المقطع الأخير في قوله: (**فَتُذِلُّوهُمْ، فَتَفْتِنُوهُمْ، فَتُكَفِّرُوهُمْ، فَتُضَيِّعُوهُمْ**)، والسجع يعمل على جذب انتباه المستمع كما أشرنا آنفًا. وهذا النصُّ قد تكررت أجزاء منه في النصوص رقم اثنين وستين ومئة، وخمسة وأربعين ومئتين، ورقم ستة وثلاثين وخمسمئة.

[٤١١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

يَذْكُرُ فِيهَا أَمْرَ الِاسْتِخْلَافِ مِنْ بَعْدِهِ

«إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ دِيكًا نَقَرَنِي ثَلَاثَ نَقَرَاتٍ، وَإِنِّي لَا أُرَاهُ إِلَّا حُضُورَ أَجَلِي، وَإِنَّ أَقْوَامًا يَأْمُرُونَنِي أَنْ أَسْتَخْلِفَ، وَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيُضِيعَ دِينَهُ، وَلَا خِلَافَتَهُ، وَلَا الَّذِي بَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ، فَإِنْ عَجِلَ بِي أَمْرٌ؛ فَالْخِلَافَةُ شُورَى بَيْنَ هَؤُلَاءِ السِّتَّةِ[1] الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، وَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَقْوَامًا يَطْعَنُونَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، أَنَا ضَرَبْتُهُمْ بِيَدِي هَذِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَأُولَئِكَ أَعْدَاءُ اللهِ الْكَفَرَةُ الضُّلَّالُ، ثُمَّ إِنِّي لَا أَدَعُ بَعْدِي شَيْئًا أَهَمَّ عِنْدِي مِنَ الْكَلَالَةِ، مَا رَاجَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ مَا رَاجَعْتُهُ فِي الْكَلَالَةِ، وَمَا أَغْلَظَ لِي فِي شَيْءٍ مَا أَغْلَظَ لِي فِيهِ، حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِي صَدْرِي، فَقَالَ: «**يَا عُمَرُ، أَلَا تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ؟**»، وَإِنِّي إِنْ أَعِشْ أَقْضِ فِيهَا بِقَضِيَّةٍ يَقْضِي بِهَا مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَمَنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ» ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ عَلَى أُمَرَاءِ الْأَمْصَارِ، وَإِنِّي إِنَّمَا بَعَثْتُهُمْ عَلَيْهِمْ لِيَعْدِلُوا عَلَيْهِمْ، وَلِيُعَلِّمُوا النَّاسَ دِينَهُمْ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِمْ ﷺ، وَيَقْسِمُوا فِيهِمْ فَيْئَهُمْ، وَيَرْفَعُوا إِلَيَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْرِهِمْ. ثُمَّ إِنَّكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - تَأْكُلُونَ شَجَرَتَيْنِ لَا أُرَاهُمَا إِلَّا خَبِيثَتَيْنِ: هَذَا الْبَصَلَ، وَالثُّومَ، لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا وَجَدَ رِيحَهُمَا مِنَ الرَّجُلِ فِي الْمَسْجِدِ أَمَرَ بِهِ

١- السِّتَّةُ: عُثمانُ، وعَلِيٌّ، وطَلحَةُ، والزُّبَيرُ، وسَعدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ، وعَبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ. ولم يُدخِلْ سَعيدَ بنَ زيدٍ معَهم، وإنْ كانَ مِن العشرةِ المُبشَّرينَ بالجنَّةِ؛ لأنَّه مِن أقاربِه.

فَأُخْرِجَ إِلَى الْبَقِيعِ؛ فَمَنْ أَكَلَهُمَا فَلْيُمِتْهُمَا طَبْخًا»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المكان: مدينة رسول الله ﷺ، والزمان: قبيل وفاة الفاروق رضي الله عنه أي: في عام الثالث والعشرين من هجرة النبي ﷺ، والمقام: هنا تنوع بين إصدار أوامر إدارية، والتأصيل لمسائل قضائية خاصة بالمواريث، وتعليم النَّاس مهام أمراء الأمصار، ووعظ ديني.

البيان والبلاغة: المتأمل في الخطبة يجد الفاروق رضي الله عنه قد تناول أربعة أفكار من خلالها؛ أما الفكرة الأولى فتتمثل في قضية الاستخلاف، وهي قضية سياسية تناولها في قوله: (**إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ دِيكًا نَقَرَنِي**) إلى قوله: (**فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَأُولَئِكَ أَعْدَاءُ الله، الْكَفَرَةُ الضُّلَّالُ**). استحضِر معي المشهد: الآن الفاروق رضي الله عنه يقف في النَّاس خطيبًا، فيصدِّر قوله بالحديث عن رؤيا رآها قائلا: (**إِنِّي رَأَيْتُ**)، أي: في المنام، (**كَأَنَّ دِيكًا نَقَرَنِي**)، أي: ضربني بمنقاره، وهنا يتوقف المتلقي ويدور في خلده وما الخير أو الشر في ذلك؛ فيبادره الفاروق قائلا: (**وَإِنِّي لَا أُرَاهُ إِلَّا حُضُورَ أَجَلِي**): أسلوب مؤكد بـ (**إِنَّ**) كما استخدم أسلوب القصر المراد منه التخصيص، فيقول: وإني لا أظن الرؤيا إلا أنها إشارة إلى حضور أجلي وقربه، وكان كما رأى، فقد ضربه أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بالخنجر في صلاة الصبح ثلاث طعنات، فاحتُمِل إلى البيت واستشهد، وقد تحققت له دعواته التي تعرضنا لها في الآثار السابقة فمات شهيدًا ومات في بلد الرسول؛ فهو من قوم ﴿صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] فصدقهم

١- رواهُ مسلمٌ في «صحيحِه» (٥٦٧)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (٨٩) و(١٨٦) و(٣٤١) و(٣٦٢) و(٣٦٣)، والطَّيالِسيُّ في «المُسنَدِ» (٥٣)، والحُميدِيُّ في «المُسنَدِ» (٢٩) مُختصَرًا، وابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (١٢٨٢)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨٢١٧)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٢٠٩١).

الله. وهنا قد استقبل المتلقي الرؤيا وعرف تأويلها: الخليفة الصارم العادل يُصرِّح بدنو أجله فالخلق بين اثنين؛ حزين وسعيد. أما الحزين فالمؤمن ودعوى حزنه: أولًا: على فَقْدِ فاروق الأمة مَن سدَّ باب الفتن بقوته وصرامته وعدله، ثانيًا: خشيته على الأمة وتفرقها بعد وفاة هذا القائد الذي أجبر أكثر الكارهين للإسلام والمسلمين على الاعتراف بحكمته وحنكته في تدبير الأمور. أما السعيد فالمنافق والكافر، ودعوى سعادته: أنه خلص ممن جعله ذليلا كسيرًا غير قادر على إشعال الفتن حتى في أحلك وأصعب الظروف التي أصابت المسلمين في عهد الفاروق رضي الله عنه، وبعد موته ستجتهد تلك الفئة الضالة على إشعال نيران الفتن من جديد؛ لتفتيت عضد الأمة الإسلامية، وقد كان ما سعِدوا لأجله. وهنا ينتقل بنا الفاروق لداعي يطمئن به الأمة من بعده؛ فرضي الله عنه، كان يعمل لتلك الأمة لا لنفسه، فمن يعمل في منصب ما فإنه لا يضره ما يكون من بعده، أمَّا مَن يعمل لله فإنه يؤمِّن الحال للرعية كي يستقروا بعد عزله أو استقالته أو موته، فيقول: (**وَإِنَّ أَقْوَامًا يَأْمُرُونَنِي أَنَّ أَسْتَخْلِفَ**): في القول دليل على تواضع الفاروق رضي الله عنه، وخفض الجناح للناصح في أمر الأمة؛ فإنه يُؤْمَر - وهو أمير المؤمنين - من رجل من رعاياه! والمراد من قوله: إن أقواما طلبوا أن أعين خليفة بعدي. ثم يقول: (**وَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيُضَيِّعَ دِينَهُ، وَلَا خِلَافَتَهُ، وَلَا الَّذِي بَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ**): وثق الفاروق رضي الله عنه أن الله لن يضيع الإسلام ولا المسلمين، وفيه الجملة حذف تقديره: سواء استخلفتُ أم لم أستخلف = لن يضيع الله دينه. فكان الفاروق رضي الله عنه بين أمرين: فإن استخلف فإن أبا بكر قد استخلف، وإن ترك الاستخلاف فقد تركه رسول الله ﷺ. ثم يقول: (**فَإِنْ عَجِلَ بِي أَمْرٌ، فَالْخِلَافَةُ شُورَى بَيْنَ هَؤُلَاءِ السِّتَّةِ، الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ**)، أي: يتشاورون فيما بينهم بشأنها، ويتفقون على واحد منهم، وليس المراد

أن يحكموا معًا، وهؤلاء الستة هم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، ولم يدخل سعيد بن زيد معهم - وإن كان من العشرة المبشرين بالجنة -؛ لأنه من أقاربه؛ فإلى أي حدٍّ كان عدله رضي الله عنه ففي آخر أيامه يخشى أن يُقال قد ولى رجلًا من أقاربه. ثم يقول: (**وَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَقْوَامًا يَطْعَنُونَ فِي هَذَا الْأَمْرِ**): والمراد بـ (**الأمر**) جعل الخلافة في أحد الستة، وقد كان ما تنبأ به رضي الله عنه، وفيه دليل على بُعد نظر الفاروق رضي الله عنه. ثم يقول: (**أَنَا ضَرَبْتُهُمْ بِيَدِي هَذِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ**): وفيه نصح وإرشاد لمن بعده بأن يسلك نفس الطريق الذي سلكه لدرءِ الفتن؛ فإنه بحزمه وقوته أرغمهم على الاستسلام وعدم الخروج وعدم إثارة الفتن. ثم يقول: (**فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَأُولَئِكَ أَعْدَاءُ اللهِ، الْكَفَرَةُ الضُّلَّالُ**): فإن طعنوا في استخلافي وأثاروا الفتن واستحلوا ذلك فهم كَفرة ضُلَّال، وإن لم يستحلوا ذلك ففعلهم فعل الكفرة. وفي وصفهم بالكفرة الضُّلال تصريح لمن بعده بأن يُنزلوا بهم ما يستحقه الكفار إن أرادوا إشعال الفتن. ثم انتهى الفاروق رضي الله عنه من الحديث عن أمر الاستخلاف ودمج بين رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ورؤية الصديق رضي الله عنه فترك حرية الاختيار للمسلمين بين ستة من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، وأمرَهم بردع من خالف تلك الفكرة حتى يستقر حال الأمة بعد وفاته. وهنا ينطلق للفكرة الثانية وهي مسألة من مسائل المواريث؛ فالمتأمل لنسق الحديث يجده تغير تمامًا عن الفكرة الأولى التي تعرض لها، وتلك الفكرة أخذت من قوله: (**ثُمَّ إِنِّي لَا أَدَعُ بَعْدِي شَيْئًا أَهَمَّ عِنْدِي مِنَ الْكَلَالَةِ**) إلى قوله: (**يَقْضِي بِهَا مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَمَنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ**).

والكلالة: الميت يكون له إخوة وليس له أصل ولا فرعٌ وارث. ومشكلتها فيمن مات عن إخوة أشقاء وإخوة لأم وزوج، وقد أشرك عمر الأشقاء مع الإخوة لأم؛ لأن تطبيق الأنصباء النِّصف للزوج والثلث للإخوة لأم، لا يبقى للأشقاء

سوى السدس، فقال الأشقاء لعمر: اجعل أبانا حجرًا في اليم؛ فنحن نشاركهم في الأم التي يرثون بسببها، فأشركهم، وهذه المسألة تسمى الحجرية أو المشتركة أو العمرية. وقوله: (**أَلا يكفِيْكَ آيةُ الصَّيْفِ**)، أي: الآية التي نزلت في الصيف، وهي قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]. وسبب طعن النبي ﷺ بإصبعه في صدره ما قاله الإمام النووي: «ولعلَّ النبي ﷺ إنما أغلظ له لخوفه من اتكاله واتكال غيره على ما نص عليه صريحا وتركهم الاستنباط من النصوص، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فالاعتناء بالاستنباط من آكد الواجبات المطلوبة؛ لأن النصوص الصريحة لا تفي إلا بيسير من المسائل الحادثة، فإذا أهمل الاستنباط فات القضاءُ في معظم الأحكام النازلة أو في بعضها. والله أعلم»[١]. ثم ينتقل إلى الأمر الثالث الذي يتضمن توصية أمرائه على الأمصار بالرعية، وتلك الفكرة تبدأ من قوله: (**اللهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ عَلَى أُمَرَاءِ الْأَمْصَارِ**) إلى قوله: (**وَيَرْفَعُوا إِلَيَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْرِهِمْ**). وقد تعرضنا لمثل هذا في الأثر السابق، وتكلمنا فيه بما يغني عن الإعادة هنا. وقد استخدم السجع في تلك الفكرة دون غيرها من الأفكار التي تعرض لها في الأثر، وكأنه أراد جذب الانتباه إليه، وعندما يخرج من النسق الذي وضع فيه الفكرة إلى نسق آخر سيجذب ذهن المتلقي = فسوف يشعر المتلقي أن تلك النغمة التي كانت في الفواصل قد انتهت فيستعد لتلقي فكرة جديدة. ثم يتعرض للأمر الأخير الذي يختص بجانب العبادات وتعاليم دخول المسجد، وهو من قوله: (**ثُمَّ إِنَّكُمْ، أَيُّهَا النَّاس، تَأْكُلُونَ شَجَرَتَيْنِ**) إلى آخر الأثر؛ فيتحدث عمَّن أكل ثوما أو بصلا، وفيه اقتباس من قول النبي ﷺ: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**

١- شرح صحيح مسلم للإمام النووي (١١/ ٥٧-٥٨).

الْخَبِيثَةِ شَيْئًا، فَلَا يَقْرَبَنَّا فِي الْمَسْجِدِ»، ثم يقول: (**فَمَنْ أَكَلَهُمَا فَلْيُمِتْهُمَا طَبْخًا**): فمن أراد أكلهما فليُمِت رائحتهما بالطبخ، وإماتة كل شيء كسر قوته وحدته. ويُلاحظ على خطبة الفاروق السابقة: تنوع الموضوعات بها، وفيه أكثر من فائدة. لكنا نخصُّ منها فائدتين: أما الأولى: فللحاكم؛ وهي: أن يتطرق إلى كل شئون الرعية السياسية والدينية والقضائية. والثانية: فللخطيب؛ وهي: أن ينوع في حديثه فلا يظل طوال خطبته في موضوع واحد يمله المتلقي فيشرد، فكلما تنوعت الموضوعات كلما استطاع المتلقي التركيز، والخروج بالفائدة المرجوة، فرضي الله عن الفاروق وعن سائر الصحابة.

[٤١٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي آخِرِ حَجَّةٍ حَجَّهَا

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي قَائِلٌ لَكُمْ مَقَالَةً قَدْ قُدِّرَ لِي أَنْ أَقُولَهَا، لَا أَدْرِي لَعَلَّهَا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِي، فَمَنْ عَقَلَهَا وَوَعَاهَا فَلْيُحَدِّثْ بِهَا حَيْثُ انْتَهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، وَمَنْ خَشِيَ أَنْ لَا يَعْقِلَهَا فَلَا أُحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيَّ: إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ = آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا، رَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: وَاللهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللهِ. فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللهُ، وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ، مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوِ الِاعْتِرَافُ. ثُمَّ إِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ فِيمَا نَقْرَأُ مِنْ كِتَابِ اللهِ: «أَنْ لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ؛ فَإِنَّهُ كُفْرٌ بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، أَوْ إِنَّ كُفْرًا بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ». أَلَا، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أُطْرِيَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**». ثُمَّ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قَائِلًا مِنْكُمْ يَقُولُ: وَاللهِ، لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ بَايَعْتُ فُلَانًا. فَلَا يَغْتَرَّنَّ امْرُؤٌ أَنْ يَقُولَ: إِنَّمَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ فَلْتَةً، وَتَمَّتْ. أَلَا، وَإِنَّهَا قَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللهَ وَقَى شَرَّهَا، وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ تُقْطَعُ الْأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مِثْلَ أَبِي بَكْرٍ. مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يُبَايَعُ هُوَ وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ؛ تَغِرَّةً[١] أَنْ يُقْتَلَا. وَإِنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْ خَبَرِنَا،

١- قَالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهاية» ٣/ ٣٥٦: (التَّغِرَّةُ: مصدرُ غَرَّرْتُهُ؛ إِذَا أَلْقَيْتَهُ في الغَرَرِ ... وفي الكَلَامِ مُضَافٌ محذوفٌ تقديرُه: خَوْفَ تَغِرَّةٍ أَن يُقتَلَا؛ أي خَوْفَ وُقُوعِهِما في القَتلِ ... ويَجوزُ أَنْ يكونَ قولُه: «أَنْ يُقْتَلَا» بدلًا مِن «تَغِرَّة»، ويكونُ المُضافُ مَحذُوفًا كالأَوَّلِ. ومَن أضافَ «تَغِرَّة» إلى «أَنْ يُقْتَلَا» فَمعناهُ خوفَ تَغِرَّتِهِ=

حِينَ تَوَفَّى اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ: أَنَّ الْأَنْصَارَ خَالَفُونَا، وَاجْتَمَعُوا بِأَسْرِهِمْ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، وَخَالَفَ عَنَّا عَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ وَمَنْ مَعَهُمَا، وَاجْتَمَعَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: يَا أَبَا بَكْرٍ، انْطَلِقْ بِنَا إِلَى إِخْوَانِنَا هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَنْصَارِ. فَانْطَلَقْنَا نُرِيدُهُمْ، فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنْهُمْ، لَقِيَنَا مِنْهُمْ رَجُلَانِ صَالِحَانِ، فَذَكَرَا مَا تَمَالَأَ عَلَيْهِ الْقَوْمُ، فَقَالَا: أَيْنَ تُرِيدُونَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ؟ فَقُلْنَا: نُرِيدُ إِخْوَانَنَا هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَا: لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَقْرَبُوهُمْ، اقْضُوا أَمْرَكُمْ. فَقُلْتُ: وَاللهِ لَنَأْتِيَنَّهُمْ. فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَاهُمْ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَإِذَا رَجُلٌ مُزَمَّلٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ. فَقُلْتُ: مَا لَهُ؟ قَالُوا: يُوعَكُ. فَلَمَّا جَلَسْنَا قَلِيلًا تَشَهَّدَ خَطِيبُهُمْ، فَأَثْنَى عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَنَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ وَكَتِيبَةُ الْإِسْلَامِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ رَهْطٌ، وَقَدْ دَفَّتْ دَافَّةٌ مِنْ قَوْمِكُمْ، فَإِذَا هُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْتَزِلُونَا مِنْ أَصْلِنَا، وَأَنْ يَحْضُنُونَا مِنَ الْأَمْرِ. فَلَمَّا سَكَتَ أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، وَكُنْتُ قَدْ زَوَّرْتُ[١] مَقَالَةً أَعْجَبَتْنِي، أُرِيدُ أَنْ أُقَدِّمَهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ، وَكُنْتُ أُدَارِي مِنْهُ بَعْضَ الْحَدِّ[٢]، فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: عَلَى رِسْلِكَ. فَكَرِهْتُ أَنْ أُغْضِبَهُ، فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَكَانَ هُوَ أَحْلَمَ

= قتلِهما. ومعنى الحديثِ: أنَّ البيعةَ حقُّها أن تقعَ صادرةً عنِ المشورةِ والاتِّفاقِ، فإذا استبدَّ رجلانِ دونَ الجماعةِ، فبايعَ أحدُهما الآخرَ؛ فذلكَ تظاهرٌ منهما بشقِّ العصا، واطِّراحِ الجماعةِ. فإنْ عُقِدَ لأحدٍ بيعةٌ؛ فلا يكونُ المعقودُ لهُ واحدًا منهما، وليكونا مَعزولَينِ منَ الطَّائفةِ الَّتي تتَّفقُ على تمييزِ الإمامِ منها؛ لأنَّه إنْ عُقِدَ لواحدٍ منهما وقدِ ارتكبا تلكَ الفَعْلةَ الشَّنيعةَ الَّتي أحفظَتِ الجماعةَ، مِنَ التَّهاوُنِ بهِم، والاستغناءِ عَن رأيِهم؛ لم يُؤمَنْ أن يُقتلا).

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهاية» ٢/ ٣١٨: (أي هَيَّأْتُ وأَصلَحتُ. والتَّزويرُ: إصلاحُ الشَّيءِ. وكلامٌ مُزَوَّرٌ: أي مُحَسَّنٌ).

٢- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهاية» ١/ ٣٥٣: (الحَدُّ والحِدَّةُ سواءٌ، مِنَ الغضبِ. يُقالُ: حَدَّ يَحِدُّ حَدًّا وحِدَّةً؛ إذا غَضِبَ).

مِنِّي وَأَوْقَرَ، وَاللهِ مَا تَرَكَ مِنْ كَلِمَةٍ أَعْجَبَتْنِي فِي تَزْوِيرِي، إِلَّا قَالَ فِي بَدِيهَتِهِ مِثْلَهَا أَوْ أَفْضَلَ مِنْهَا حَتَّى سَكَتَ، فَقَالَ: مَا ذَكَرْتُمْ فِيكُمْ مِنْ خَيْرٍ فَأَنْتُمْ لَهُ أَهْلٌ، وَلَنْ يُعْرَفَ هَذَا الْأَمْرُ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ، هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا، وَقَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، فَبَايِعُوا أَيَّهُمَا شِئْتُمْ. فَأَخَذَ بِيَدِي، وَبِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، وَهُوَ جَالِسٌ بَيْنَنَا، فَلَمْ أَكْرَهْ مِمَّا قَالَ غَيْرَهَا، كَانَ - وَاللهِ - أَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي، لَا يُقَرِّبُنِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمٍ، أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تُسَوِّلَ[1] إِلَيَّ نَفْسِي عِنْدَ الْمَوْتِ شَيْئًا لَا أَجِدُهُ الْآنَ. فَقَالَ قَائِلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ[2]، وَعُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ[3]، مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ. فَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ، حَتَّى فَرِقْتُ مِنَ الِاخْتِلَافِ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَدَكَ، يَا أَبَا بَكْرٍ. فَبَسَطَ يَدَهُ، فَبَايَعْتُهُ، وَبَايَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ، ثُمَّ بَايَعَتْهُ الْأَنْصَارُ. وَنَزَوْنَا عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ. فَقُلْتُ: قَتَلَ اللهُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ. قَالَ عُمَرُ: وَإِنَّا - وَاللهِ - مَا وَجَدْنَا فِيمَا حَضَرْنَا مِنْ أَمْرٍ أَقْوَى مِنْ مُبَايَعَةِ أَبِي بَكْرٍ، خَشِينَا إِنْ فَارَقْنَا الْقَوْمَ - وَلَمْ تَكُنْ بَيْعَةٌ - أَنْ يُبَايِعُوا رَجُلًا مِنْهُمْ بَعْدَنَا، فَإِمَّا بَايَعْنَاهُمْ عَلَى مَا لَا نَرْضَى،

١- قَالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهاية» ٢/ ٤٢٥: (التَّسوِيلُ: تَحسِينُ الشَّيءِ وَتَزيِينُهُ وتَحبِيبُهُ إلى الإنسانِ لِيَفعلَهُ أو يَقُولَهُ).

٢- هو تصغيرُ (جِذْلٍ)، وهو العُودُ الَّذي يُنصَبُ للإبلِ الجَرْبَى لِتَحْتَكَّ به، وهو تصغيرُ تعظِيمٍ، أي: أنا مِمَّن يُستَشْفَى بِرَأْيِه، كما تَسْتَشْفِي الإِبلُ الجَرْبَى بالاحْتِكاكِ بهذا العُودِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (جذل).

٣- (عُذَيْقُها): تصغيرُ العَذْقِ، بفتحِ العينِ: وهو النَّخلةُ. و(المُرَجَّبُ): المُسندُ بالرُّجْبةِ، وهي خشبةٌ ذاتُ شُعبتينِ، وذلكَ إذا طالتِ الشَّجرةُ وكثُر حملُها؛ اتَّخذوا ذلكَ لها، لِضَعفِها عن كثرةِ حملِها. والمعنى أَنِّي ذُو رأيٍ يُستَشفَى بهِ في الحوادثِ، لا سيَّما في مثلِ هذهِ الحادثةِ، وأَنِّي في ذلكَ كالعودِ الَّذي يَشفِي الجَرَبَى، وكالنَّخلةِ الكثيرةِ الحملِ، مِن توفُّرِ مَوادِّ الآراءِ عندِي، ثمَّ إنَّه أشار بالرَّأيِ الصَّائبِ عندَه، فقالَ: «مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ». «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ (٢٠٧٦).

وَإِمَّا نُخَالِفُهُمْ فَيَكُونُ فَسَادٌ؛ فَمَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَلَى غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يُتَابَعُ هُوَ وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ؛ تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: جاء في الروايات أنَّ عمر رضي الله عنه خطب هذه الخطبة في المدينة عقب عودته من آخر حجة حجَّها، وقد أودع هذه الخطبة طائفة من النصائح والتحذيرات الهامة التي رأى أنَّ الناس لا يستغنون عنها بعده، لاسيما أمر البيعة والخلافة.

البيان والبلاغة: اشتمل الأثر السابق للفاروق رضي الله عنه على فكرتين: أما الفكرة الأولى: فمن قوله: (**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَائِلٌ لَكُمْ مَقَالَةً قَدْ قُدِّرَ لِي أَنْ أَقُولَهَا**) إلى قوله: (**إِنَّ كُفْرًا بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ**). والنَّص الذي بين أيدينا يبدأ بقوله: (**أَمَّا بَعْدُ**): وهي فصل الخطاب، وقد مرت الإشارة إليها سابقًا. ثم يضع مقدمة قبل المضي في الفكرة الأولى؛ لاسترعاء الانتباه فيقول: (**فَإِنِّي قَائِلٌ لَكُمْ مَقَالَةً ... إلخ**). والغرض من تلك المقدمة حث المتلقي على الأخذ عنه وحفظ ووعي ما يقول، وقد قصرت تلك المقدمة وقصر المقدمات من البلاغة والجزالة. يقول الطاهر ابن عاشور في معرض حديثه عن المقدمات القصيرة: «وليكون سنة للخطباء فلا يطيلوا المقدمة؛ كي لا ينسبوا إلى العي؛ فإنه بمقدار ما تطال المقدمة يقصر الغرض»، ثم يمضي للغرض الرئيس من مقالته، والتي تضمنت الحديث عن آية الرجم، وآية الرجم كانت قرآنًا يتلى مدة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نسخ الله لفظها وبقي حكمها، والحكمة من نسخ التلاوة مع بقاء الحكم الابتلاء والاختبار لقوة إيمان هذه الأمة

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٦٨٣٠)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (٣٩١)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٧٥٨)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨١٩٨)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٤١٣)، واللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (٢٤٣٦)، وأبو نُعَيمٍ في «تثبيتِ الإمامةِ» (٥٢).

ومسارعتها إلى طاعة ربها، وقد أجاب الزركشي عن الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم بقوله: «هنا سؤال، وهو أن يقال: ما الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم؟ وهلا أبقيت التلاوة ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها؟ وأجاب صاحب الفنون، فقال: إنما كان كذلك ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظن، من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به فيسرعون بأيسر شيء، كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام، والمنام أدنى طرق الوحي»[١].

يقول الفاروق: (**فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا**)، وإن مراحل الترتيب المنطقي في التلقي لابد أن تمر بتلك المراحل (القراءة) ثم (التعقل) ثم (الوعي)، وفي ذلك العرض يقر الفاروق ﵁ بأمرين: الأول: أن تنفيذ الأحكام على عهد النبي ﷺ كان يخضع لمعيارين: أولهما: فسمعنا وأطعنا، وثانيهما: ما طرحه الفاروق ﵁ من القراءة والتعقل والوعي الذي لا يأتي إلا بعد تفهيم النبي ﷺ كيفية الحكم وكيفية تنفيذه ... إلخ. الثاني: أن الأمر أصبح حتمًا مقضيًّا لا يحتاج لتأويل أو احتمال. ويؤكد كلامه بقوله: (**رَجَمَ رَسُولُ الله ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ**): والمراد من هذا القول أن الأمر بالنسبة إليهم صار فرضًا عُمل به في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته، مما يسد باب الفتن في الأمر. وقوله: (**فَأَخْشَى، فَيَضِلُّوا**): استخدم الفاروق ﵁ تلك الأفعال؛ ليؤكد مدى حرصه على ألا يقع المسلمون فيما بعد في محظور شرعي فتكون النتيجة (**فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللهُ**)، وفيه دليل أن الأمم تضل وتهلك بترك ما أمر الله به. ومن قوله: (**وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ الله حَقٌّ**) إلى قوله: (**أَوِ الاعْتِرَافُ**) تفصيل بعد إجمال، أي: أنه فصل في تلك العبارة ما أجمله في قوله: (**فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَ عَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا**). وينتقل الفاروق هنا للفكرة الثانية وتتضمن تلك

١- «البرهان» للزركشي (٢/ ٣٧).

الفكرة الحديث عن حادثة سقيفة بني ساعدة، فيبدأ كبدايته في أول الأثر بمقدمة؛ لجذب انتباه المتلقي فيقول: (**أَلَا ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ**: ...). وقد أُشير إلى (**ألا**) والغرض منها في الانتقال من فكرة إلى أخرى. وقد أتبع (**ألا**) الاستفتاحية بـ (**ثم**) التي تفيد الترتيب والتراخي، و(**إنَّ**) التي تفيد التأكيد، وأورد حديث النبي ﷺ، وهذا الحديث غير مرتبط بالموضوع الأول الذي تناوله، فيعمل هذا الحديث على عصف ذهن المتلقي؛ فيتوارد لذهنه: ماذا يريد الفاروق بهذا الحديث؟! فيقول الفاروق: (**ثُمّ إِنَّه بُلَغَنِي أَنَّ قَائِلًا مِنْكُمْ**): وتلك العبارة توازي قول الرسول ﷺ: «**ما بالُ أَقْوامٍ**»، وهذا الأسلوب يسمى بأسلوب التعريض، ويستخدم حين يرتكب فرد أو جماعة خطأ، فلا يجب أن يواجه أيا منهم بالإنكار المباشر الصريح؛ حفظًا لماء الحياء في وجوههم، ورعاية لطيب خواطرهم، أو لغرض تعميم النَّصيحة لئلا يقع غيرهم في مثل ما وقعوا فيه. وقوله: (**وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ تُقْطَعُ الأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ**): قطع أعناق الإبل كناية عن طول وكثرة السير، أي: ليس فيكم مثل أبي بكر في الفضل والتقدم بحيث يستحق السفر إليه والحرص عليه؛ لأنه سبق كل سابق فلذلك مضت بيعته على حال فجأة وقى الله شرها فلا يطمعن أحد في مثل ذلك. والقول كناية عن عظيم فضل الصديق رضي الله عنه وعظم مكانته في قلب عمر رضي الله عنه.

وقوله: (**إِلَى إِخْوَانِنَا هَؤُلَاءِ مِنَ الأَنْصَارِ**) استخدام لفظة (**إِخْوَانِنا**) في مقام يخيل للجهال أنه مقام تصارع على سلطة أو دنيا = درأ ما في تلك النفوس الخبيثة، ودل على أن الوازع الأول والدافع هو دافع الأخوة والحفاظ على ترابط الأمة. وقوله: (**فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنْهُمْ**): يلاحظ في اختيار الفاروق للألفاظ المستخدمة أنها تدل على الرفق؛ مثل: (**دنونا**)، فالعبارة للدلالة على أن المحرك الأصلي هو الود بين المؤمنين.

وقوله: (**وَاللهِ لَنَأْتِيَنَّهُمْ**): استخدام القَسَم ولام التأكيد ونون التوكيد الثقيلة للدلالة

على عزمهم في المضي إلى السقيفة درءًا للفتن. وقوله: (**كُنْتُ قَدْ زَوَّرْتُ مَقَالَةً أَعْجَبَتْنِي**): كناية عن بلاغة الفاروق رضي الله عنه وترويه؛ فقد استمع لمقالة ابن عبادة رضي الله عنه وأخذ يرتب في ذهنه مقالة توحد الصف، وذلك لا يتأتى إلا لرجل متقد الذهن حاضر العبارة لديه قدرة على الإقناع تنبع تلك القدرة من شخصية يجلها الحضور ويقدرون قيمتها. وقوله: (**أُرِيدُ أَنْ أُقَدِّمَهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ**): تلك العبارات كأن الفاروق أراد بها أن يخبر المتلقي بعظيم قدر الصدِّيق في قلبه، فحين يقول: (**أُقَدِّمَهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ**) وكأن المجلس ليس فيه إلا الصديق. ففي ذلك دلالة على مكانته رضي الله عنه في قلب الفاروق وسائر الصحابة رضي الله عنهم. وقوله: (**فَكَرِهْتُ أَنْ أُغْضِبَهُ**): كناية - أيضًا - عن احترامه للصديق وتقديمه إياه. وقوله: (**فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْر فَكَانَ هُوَ أَحْلَمَ مِنِّي وَأَوْقَرَ**): في استخدام أفعل التفضيل (**أحلم**) و (**أوقر**) إقرار من الفاروق رضي الله عنه على أفضلية الصديق رضي الله عنه. وقوله: (**وَاللهِ مَا تَرَكَ مِنْ كَلِمَةٍ أَعْجَبَتْنِي فِي تَزْوِيرِي، إِلَّا قَالَ فِي بَدِيهَتِهِ مِثْلَهَا أَوْ أَفْضَلَ مِنْهَا**) كناية عن أمرين: الأول: بلاغة الصديق رضي الله عنه وأنه كان الأصلح لقيادة تلك المرحلة العصيبة بعد وفاة المعلم الأكبر، والثاني: بُعد نظر الفاروق رضي الله عنه وإنصافه وإقراره بالفضل لأهله وإن فاقوه فضلا. وقوله: (**كَانَ - وَاللهِ - أَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي، لاَ يُقَرِّبُنِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمٍ، أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ**): كناية عن توقير الصديق رضي الله عنه، ألا يعد هذا الموقف ككل وهذا السكوت والتقديم في كل شيء تقديرًا من الفاروق رضي الله عنه وبرًّا لقسمه فيما ورد عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رضى الله عنه - يَقُولُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهَّ صلى الله عليه وسلم يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي؛ فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا؛ فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ صلى الله عليه وسلم: «**مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟**» قُلْتُ: مِثْلَهُ. قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ - رضى الله عنه - بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهَّ صلى الله عليه وسلم:

«**مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟**» قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ: لاَ أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا.
وقوله: (**فَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ، حَتَّى فَرِقْتُ مِنَ الِاخْتِلاَفِ**): يحرص الفاروق - ههنا - على تصوير المشهد بطريقة حيَّة واضحة؛ فالحركة في الذهاب والقيام والصوت في مثل العبارة السابقة = كلها من المثيرات الحسية التي تعمل على استحضار المشهد، وحرص المتلقي على ألا يفوت أي لحظة ولو لم تكن مؤثرة في الحدث. وقوله: (**قَتَلَ اللهُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ**): وجه قول عمر: (قتل الله سعد) هو: الإخبار عما قدر الله - تعالى - من إهماله وعدم صيرورته خليفة، وإما دعاء صدر عنه عليه في مقابلة عدم نصرته للحق، وقيل: إنما هو من باب الزجر عن الإقبال على ما يفرق كلمة المسلمين. وقوله: (**فَمَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَلَى غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلاَ يُتَابَعُ هُوَ وَلاَ الَّذِي بَايَعَهُ، تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلا**): هذا القول تكرر مرتين وإنما كرره الفاروق رضي الله عنه من باب ترسيخ الفكرة في الأذهان، وفيه حث على تقديم المشورة لجميع المسلمين وعدم انفراد قوم بالبيعة دون غيرهم. و(**التغرة**): يقال: غرر بنفسه تغريرًا وتغرة، إذا عرَّضها للهلكة، أي: لأن ذلك تغرير لأنفسهما بالقتل، أي: إذا فعل ذلك فقد غرر بنفسه ونفس صاحبه وعرضهما للقتل.

[٤١٣]

وَمِنْ وَصِيَّةٍ لَهُ

بَعْدَ أَنْ طَعَنَهُ أَبُو لُؤْلُؤَةَ الْمُجُوسِيُّ

«أُوصِيكُمْ بِكِتَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا مَا اتَّبَعْتُمُوهُ». قَالَ: قُلْنَا: أَوْصِنَا. قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِالْمُهَاجِرِينَ؛ فَإِنَّ النَّاس سَيَكْثُرُونَ، وَيَقِلُّونَ، وَأُوصِيكُمْ بِالْأَنْصارِ؛ فَإِنَّهُمْ شِعْبُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَجَأَ إِلَيْهِ، وَأُوصِيكُمْ بِالْأَعْرَابِ؛ فَإِنَّهُمْ أَصْلُكُمْ وَمَادَّتُكُمْ». ثُمَّ سَأَلْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَعَدُوُّ عَدُوِّكُمْ، وَأُوصِيكُمْ بِذِمَّتِكُمْ؛ فَإِنَّهَا ذِمَّةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ، وَرِزْقُ عِيَالِكُمْ، قُومُوا عَنِّي». فَمَا زَادَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذه وصية مودِّع، وصية أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو على فراش الموت بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي. وفيها يوصي أمير المؤمنين رضي الله عنه بالتمسك بكتاب الله - تعالى - ثم برعاية حق كلٍّ من المهاجرين والأنصار والأعراب وأهل الذمة.

البيان والبلاغة: المتأمل في الأثر السابق يجد الفاروق رضي الله عنه قد خامرت كلماته كلمات النبي ﷺ، وتلك الظاهرة قد أشرنا لها في غير موضع، وتسمى بظاهرة التناص. ففي قول الفاروق رضي الله عنه: (**أُوصِيكُمْ بِكِتَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا مَا اتَّبَعْتُمُوهُ**) تناص جلِي بقول رسول الله ﷺ في سنن الترمذي: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الآخَرِ: كِتَابُ اللهِ**

١- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٣٦٢)، وابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (١٢٨٢) واللَّفظُ لهُ، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٣٦، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٩٣٧، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٨٧٤٠).

حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ...». وكذلك تناص بين قول الفاروق ﷺ: (**أُوصِيكُمْ بِالْمُهَاجِرِينَ؛ فَإِنَّ النَّاس سَيَكْثُرُونَ، وَيَقِلُّونَ**) وقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْأَنْصَارَ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَإِنَّ النَّاسَ سَيَكْثُرُونَ وَيَقِلُّونَ؛ فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَاعْفُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**»، وإن كان النبي ﷺ ذكر الأنصار وذكر الفاروق المهاجرين - رضي الله عنهم أجمعين -، وجمال التناص يتمثل في تفاعل النُّصوص بعضها ببعض؛ فالفاروق ﷺ يقول القول فيتذكر الحضور قول النبي ﷺ فما يزيدهم إلا تمسكا بتلك الوصية. أما قوله: (**فَإِنَّ النَّاس سَيَكْثُرُونَ، وَيَقِلُّونَ**) ففيه إشارة إلى دخول قبائل العرب والعجم في الإسلام، وكذا أن المهاجرين يقلون؛ لأنهم عدد معروف، ومن يلده المهاجرون من الأولاد فليسوا بمهاجرين، وفيه - أيضًا - حث على إجلال المهاجرين لما قدموا وبذلوا من أجل الإسلام. وقوله: (**شِعْبُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَجَأَ إِلَيْهِ**): شبههم بشِعب بين جبلين فيه مرعى احتمى المهاجرون به للامتناع عن الأعداء، وفيه ثناء على الأنصار وعلى الدور العظيم الذي قدَّموه من أجل حماية الإسلام. وقوله: (**وَأُوصِيكُمْ بِالْأَعْرَابِ**): (**أل**) التي في قوله (**الأعراب**) هي التي لبيان حقيقة الجنس وماهيته وطبيعته بقطع النظر عما يصدق عليه من أفراده، وعلى هذا تحمل (**أل**) الداخلة على (**الأعراب**)؛ فليسوا جميعًا يصدق فيهم قوله - تعالى -: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩٧]، بل إن منهم كافرًا شديد الكفر والنفاق والنبو عن استماع الكلام الطيب، ومنهم مؤمن يسارع إلى الخيرات، فلا تعارض بين قول الفاروق وقول الله - سبحانه وتعالى -. وقوله: (**وَأُوصِيكُمْ بِذِمَّتِكُمْ؛ فَإِنَّهَا ذِمَّةُ نَبِيِّكُمْ**): فقوله: (**ذمتكم**) ثم قوله: (**ذمة نبيكم**): للتأكيد وحثهم على العناية بالذميين؛ فإن لم تكن تلك العناية لذمتكم فلذمة النبي ﷺ. وقد قَدَّمَ

الوفاء بالعهد والرعاية على المال، فجعل المحرك الأول محرك الوفاء بالعهد، ثم أعقبه بقوله: (**ورزق عيالكم**)؛ إشارةً إلى ما يؤخذ منهم من الجزية. ويُلاحظ في الأثر عامة استخدام (**أَنَّ**) الثقيلة في خمس مناسبات للتأكيد، كما أنه فصَل كل وصية من الوصايا الخمس بكلمة (**أوصيكم**)، فكأن الكلمة جاءت لقرع الأسماع بالبدء في وصية جديدة.

[٤١٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ يُحْتَضَرُ[١]

«أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرِضَاهُ؛ فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ أَبِي بَكْرٍ وَرِضَاهُ؛ فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللهِ - جَلَّ ذِكْرُهُ - مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا تَرَى مِنْ جَزَعِي؛ فَهُوَ مِنْ أَجْلِكَ وَأَجْلِ أَصْحَابِكَ. وَاللهِ لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يوجِّه أمير المؤمنين حديثه لابن عباس رضي الله عنهما رادًّا عليه حين ذكَّره بسابقته في الإسلام.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - مَنَّبِهِ عَلَيَّ**): (**أَمَّا**) حرف تفصيل في قول ابن مالك، والجمهور يقدِّرون (**أَمَّا**) بـ(**مهما يكن من شيء**)، فحذف فعل الشرط وأداته، وأقيمت (**أَمَّا**) مقامها. وجواب الشرط (**فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ**) وفي (**إنما**) قصر، واستخدم الفاروق الشرط للتشويق، والقصر للتخصيص. وقوله: (**وَأَمَّا مَا تَرَى مِنْ جَزَعِي فَهُوَ مِنْ أَجْلِكَ**

١- وقد قالَ لهُ ابنُ عبَّاسٍ: (يا أَميرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَئِنْ كَانَ ذَاكَ، لَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ أَبَا بَكْرٍ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ صَحَبَتَهُمْ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُمْ، وَلَئِنْ فَارَقْتَهُمْ لَتُفَارِقَنَّهُمْ وَهُمْ عَنْكَ رَاضُونَ).

٢- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٣٦٩٢).

وَأَجْلِ أَصْحَابِكَ): سبق الكلام عنها في الأولى. وقوله: **(طِلاَعَ الأَرْضِ ذَهَبًا)**: كناية عن زهده في الدنيا، فلو كان يملك ما يملأ الأرض حتى يطلع ويسيل لطلب أن يزول مقابل رحمة الله - تعالى -. واستخدم أسلوب القسم في قوله: **(وَالله، لَوْ أَنَّ لِي طِلاَعَ الأَرْضِ ذَهَبًا لاَفْتَدَيْتُ)**: استخدم القسم **(والله)** وجواب القسم **(لافتديت)**؛ للتأكيد على أن الحياة الدنيا لا تعني له شيئا، وأنه ما يريد إلا النجاة من عذاب الله - سبحانه وتعالى -، وهذا من زهد الفاروق رضي الله عنه وعظيم خلقه. وقوله: **(لَا أَجْرَ وَلَا وِزْرَ)**: بين **(أجر)** و**(وزر)** تضاد يؤكد المعنى ويبرزه. وقوله: **(وَدِدْتُ أَنِّي أَنْجُو لَا أَجْرَ وَلَا وِزْرَ)**: يدل على خشيته من الله - سبحانه وتعالى -، وقد ضمن طلب المغفرة والعفو من الله - سبحانه وتعالى - في هذا المعنى البديع.

[٤١٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِ عَبَّاسٍ بَعْدَ أَنْ طَعَنَهُ أَبُو لُؤْلُؤَةَ الْمَجُوسِيُّ

«وَإِنَّ لِلْأَحِبَّاءِ نَصِيبًا مِنَ الْقَلْبِ، وَمَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي أَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَلَكِنِّي كَرِهْتُهُ حِينَ نَزَلَ، وَلَقَدْ تَرَكْتُ زَهْرَتَكُمْ كَمَا هِيَ، مَا لَبِسْتُهَا فَأَخْلَقْتُهَا[1]، وَلَمْ تَكُنْ يَانِعَةً[2] فِي أَكْمَامِهَا[3] أَكَلْتُهَا، وَمَا جَنَيْتُ مَا حَمَيْتُ مِنْهَا إِلَّا لَكُمْ، وَلَا أَخْرَجْتُهَا فِي سِوَاكُمْ، وَلَا فِي غَيْرِ مَصْلَحَتِكُمْ. وَمَا تَرَكْتُ وَرَائِي دِرْهَمًا مَا عَدَا اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا، وَلَوَدِدْتُ أَنَّهَا فِي... فِي حَرْثِكُمْ هَذَا»[4].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يواصل أمير المؤمنين حديثه لابن عباس رضي الله عنهم، وهو على فراش الموت بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي.

البيان والبلاغة: قوله: (**وَإِنَّ لِلْأَحِبَّاءِ نَصِيبًا مِنَ الْقَلْبِ**): (**إنَّ**) للتوكيد، و(**نصيبا**) نكرة للتعظيم؛ لأن المقام مقام تعظيم وتقدير، و(**من**) للبيان. وقوله: (**وَمَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي أَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَلَكِنِّي كَرِهْتُهُ حِينَ نَزَلَ**): (**لكن**) هنا للعطف والاستدراك بعد الجحود في (**وما كنت**). وقوله: (**ظن**) جاءت هنا على حقيقتها، أي: أنها لغير

١- بالقافِ، والفاءِ. فبِالقافِ: مِن إخْلَاقِ الثَّوبِ: تَقْطِيعه، وقد خَلُقَ الثَّوبُ، وأَخْلَقَ. وأمَّا الفاءُ فبِمعنى العِوَضِ والبَدَلِ، وهو الأَشبهُ. ورسمُ الكلمةِ يحتملُ الاثنينِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (خلق).

٢- يانعة: أي ناضجة، يُقالُ: أَيْنَعَ؛ إذا أَدْرَكَ ونَضِجَ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (ينع).

٣- أَكْمَام: جمعُ كِمٍّ، بالكسرِ: وهو غِلافُ الثَّمرِ والحَبِّ قبلَ أَنْ يَظْهَرَ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (كمم).

٤- رواهُ أبو داودَ في «الزُّهدِ» (٥٣).

التيقن من الشيء، ويتضح مفهوم كراهة الموت - ههنا - من خلال ما ورد في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**». قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ، قَالَ: «**لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**». ثم يقول: (**وَلَقَدْ تَرَكْتُ زَهْرَتَكُمْ كَمَا هِيَ مَا لَبِسْتُهَا فَأَخْلَقْتُهَا، وَلَمْ تَكُنْ يَانِعَةً فِي أَكْمَامِهَا أَكَلْتُهَا**): (**زهرتكم**): إشارة إلى الحياة الدنيا، وقد ورد ذلك في قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه:١٣١]، وفي قوله السابق استعارة مكنية؛ شبه فيها الحياة الدنيا برداء يلبس فيبلى، وسر جمالها التجسيد، وكذا في قوله: (**وَلَمْ تَكُنْ يَانِعَةً فِي أَكْمَامِهَا أَكَلْتُهَا**): استعارة مكنية؛ شبه الحياة الدنيا بفاكهة ناضجة في غلافها وسر جمالها التجسيد - أيضا -. والمراد من التشبيهين أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم ينل من الخلافة خيرا من الدنيا، ولكنه نُصِّب خليفة وهو زاهد في الخلافة، وترك الدنيا بحلاوتها دون أن يغتر بشيء من ملذاتها. أما قوله: (**وَمَا جَنَيْتُ مَا حَمَيْتُ مِنْهَا إِلَّا لَكُمْ**): (**الحِمى**) الموضع الذي يُحمى ويُدافع عنه كالدار والرعي وما إلى ذلك، وهذا القول فيه دلالة على زهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الدنيا وملاذها. وقوله: (**وَلَا أَخْرَجْتُهَا فِي سِوَاكُمْ، وَلَا فِي غَيْرِ مَصْلَحَتِكُمْ**): القول فيه دلالة على حرص الفاروق على توزيع المال في المسلمين بالعدل ورعاية مصالحهم بما قسم الله - عز وجل -. وقوله: (**وَمَا تَرَكْتُ وَرَائِي**):

تمثيل لحال بُعْدِهِ عنه؛ لأن ما يترُك المرء من متاع الدنيا بعد موته يكون بارحه وتَرَكَهُ.

والقول عامة فيه تدليل على ما قاله في العبارات بالدليل القطعي أنه ما كسب شيئًا من الدنيا.

[٤١٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

لَمَّا طَعَنَهُ أَبُو لُؤْلُؤَةَ المَجُوسِيُّ، وَأَوْقَظُوهُ لِلصَّلَاةِ بَعْدَ أَنْ سُجِّيَ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ

«نَعَمْ، وَلَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ». فَقَامَ، فَصَلَّى وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَمًا[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: في لحظة من أصعب وأشق لحظات أمير المؤمنين رضي الله عنه، وهو بين الحياة والموت، يُحدِّثنا عن الصلاة ومنزلتها في الإسلام.

البيان والبلاغة: ربما لم يرد في النَّص نكت بلاغية تُذكر، ولكن في الأثر ما يُسمى ببلاغة الموقف، والأثر كاملا ذُكِر على النحو التالي: لَمَّا طُعِنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - حَمَلْنَاهُ إِلَى بَيْتِهِ فَلَمَّا أَسْفَرَ قُلْنَا: نُهَبُّهُ بِذِكْرِ الصَّلَاةِ، فَقُلْنَا لَهُ: الصَّلَاةَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: نَعَمْ، وَلَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ. فقوله: **(نعم)** ههنا حرفُ تذكير لما بعده، والمقام هنا ليس مقام تذكير، ولكن بلاغة الموقف - ههنا - اقتضت تذكيرهم بتعظيم قدر الصلاة وإن شقَّ على المرء القيام.

١- رواهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٥٦).

[٤١٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

لَمَّا طَعَنَهُ أَبُو لُؤْلُؤَةَ المَجُوسِيُّ

«مَنْ طَعَنَنِي؟» قَالُوا: أَبُو لُؤْلُؤَةَ، غُلَامُ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ. فَقَالَ عمر: «اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ قَاتِلِي يُحَاصِمُنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي سَجْدَةٍ سَجَدَهَا للهِ، قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعَرَبَ لَنْ تَقْتُلَنِي»[١].

وَقَالَ لِلْعَبَّاسِ: «هَذَا عَمَلُكَ وَعَمَلُ أَصْحَابِكَ. وَاللهِ، لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكُمْ أَنْ تَجْلِبُوا إِلَيْنَا مِنْهُمْ أَحَدًا، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ أُخَاصِمْ فِي دِينِي أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[٢].

ثُمَّ أَتَاهُ طَبِيبٌ، فَسَقَاهُ نَبِيذًا، فَخَرَجَ مِنْهُ، فَقَالَ النَّاس: هَذِهِ حُمْرَةُ الدَّمِ. ثُمَّ جَاءَهُ آخَرُ، فَسَقَاهُ لَبَنًا، فَخَرَجَ اللَّبَنُ يَصْلِدُ[٣]، فَقَالَ لَهُ الَّذِي سَقَاهُ اللَّبَنَ: اعْهَدْ عَهْدَكَ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ عُمَرُ: «صَدَقَنِي أَخُو بَنِي مُعَاوِيَةَ»، ثُمَّ دَعَا النَّفَرَ السِّتَّةَ الَّذِينَ جَعَلَ فِيهِمُ الْخِلَافَةَ[٤]، فَقَالَ: «إِنِّي نَظَرْتُ فِي النَّاس،

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٧٧٥).

٢- رواهُ ابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٩٠٣، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧١.

٣- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايَة» ٣/ ٤٦: أي يَبْرُقُ ويَبِضُّ.

٤- وهم: عُثمانُ بنُ عفَّانَ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ، وطلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ، والزُّبَيرُ بنُ العوَّامِ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ، وسعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ، رضيَ اللهُ عنهُم أجمعينَ.

قالَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٦٧٦: (فهؤلاءِ رؤُوسُ قريشٍ في الجاهليَّةِ، وسادةُ المسلمينَ في الإسلامِ، ومِمَّن سمَّاهم رسولُ اللهِ - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ - ونصَّ عليهِم بأنَّهم مِن أهلِ الجنَّةِ. وفيهم سعيدُ بنُ زيدِ بنِ عمرِو بنِ نُفَيلٍ العَدَوِيُّ أنَّهُ مِن أهلِ الجنَّةِ، وإنَّما تركهُ عمرُ ولم يذكرْه معَ أهلِ الشُّورى؛ لأنَّهُ مِن قبيلتِهِ، وخَتَنُه على أختِهِ فاطمةَ بنتِ الخطَّابِ، فخشيَ - رضيَ اللهُ عنهُ - إن ذكرَهُ معَهم أن=

فَلَمْ أَرَ فِيهِمْ شِقَاقًا، فَإِنْ يَكُنْ شِقَاقٌ فَهُوَ فِيكُمْ، قُومُوا فَتَشَاوَرُوا، ثُمَّ أَمِّرُوا أَحَدَكُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يدور الحديث بجوار فراش الموت الذي رقد عليه أمير المؤمنين ﵁، وحين أيقن بأنه ميتٌ، وهنا شرع يوصي بأهم ما يشغله، وهو أمر المسلمين والخلافة.

البيان والبلاغة: يبدأ الأثر بتساؤل الفاروق ﵁: (**مَنْ طَعَنَنِي؟**)، والاستفهام أراد به هنا الاطمئنان، وقد اتضح مراده لما عرف أن القاتل مجوسي كافر؛ فحمد الله - سبحانه وتعالى - وكَبَّرَ. وقوله: (**الله أكبر**): فيه محذوف تقديره: من كل شيء؛ للتعظيم وعلو الشأن. وقوله: (**الحمد لله**): تفيد استحقاق الله - تعالى - الحمد وحده دون غيره؛ لأنها تدل على الحصر. و(**اللام**) في (**الحمد**) لتعريف الجنس، فدلت على انحصار استحقاق هذا الجنس لله - تعالى -. وجاء بـ (**سَجْدَةٍ**) نكرة أراد بها أي نوع من أنواع العبادة لله - عزَّ وجلَّ -؛ فالمراد بها إطلاق التعبد لله - سبحانه وتعالى -. وقال: (**سَجَدَهَا لله**): (**اللام**) في (**لله**) للاستحقاق؛ فكأنه أراد أن هذا المجوسي الكافر قد يكون قد سجد للنار أو لشجر أو لصنم، فعيَّن السجود لله. وقوله: (**قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعَرَبَ لَنْ تَقْتُلَنِي**): والظن هنا في معنى التحقق؛ لأن المقام هنا مقام يقين لا يحتمل الشك، وأتى بـ (**كنت**) الدالة على الماضي في الحكاية، ثم تحول للمضارع في: (**أظن، تقتلني**) وهو أسلوب التفات أراد به جذب انتباه

=يُرجِّحوه لذلكَ، فتَرَكَهُ. وأمَّا أبو عُبَيدةَ بنُ الجرَّاح: فكانَ قد ماتَ قبلَ ذلكَ بنحوٍ مِن ستِّ سنينَ - رضيَ اللهُ عنهُ، وأرضاهُ -، وإلَّا فقدْ كانَ عِندَ عُمرَ أهلًا لِذلكَ وفوقَ ذلكَ).

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٧٧٥).

المتلقي. أما قوله: (**هَذَا عَمَلُكَ وَعَمَلُ أَصْحَابِكَ**): أراد بالعبارة السابقة توجيه اللوم لكل من أتى بمثل هذا المجوسي الكافر للعمل في ديار المسلمين. وقوله: (**وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكُمْ**): أسلوب مؤكد بالقسم واللام وقد؛ لبيان استنكار هذا الفعل، وكذا للدلالة على تكرار النهي عن الفعل. وقوله: (**لَمْ أُخَاصِمْ فِي دِينِي أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**) قد أشرنا لمثله في الأثر رقم ثمانية وأربعمئة. وأما قوله: (**إِنِّي نَظَرْتُ فِي النَّاس فَلَمْ أَرَ فِيهِمْ شِقَاقًا**)؛ ففيه دلالتان: الأولى: دلالة على حالة الاستقرار التي أرسى الفاروق رضي الله عنه قواعدها في ديار المسلمين، والثانية: دلالة على استقرار النَّاس على فضلهم وعظم قدرهم وكذا ثقة النَّاس في اختيار الفاروق رضي الله عنه فيمن ترك فيهم الشورى. وقوله: (**فَإِنْ يَكُنْ شِقَاقٌ فَهُوَ فِيكُمْ**): فيه تحفيز لأهل الحل والعقد بحزم أمرهم وعدم التناحر على السلطة؛ لينتقل هذا الاستقرار فيما بينهم للرعية. وقوله: (**قُومُوا فَتَشَاوَرُوا، ثُمَّ أَمِّرُوا أَحَدَكُمْ**): أراد بالأمر الإسراع في اتخاذ القرار، والتشاور فيما بينهم، وعدم عزوف أحدهم بالأمر دون الآخرين. وقوله: (**ثم**) للتراخي، وفيه دلالة على أن يكون اختيار الأمير بعد تَرَوٍّ فيما بين أهل الحل والعقد.

[٤١٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

حِينَ طُعِنَ، وَقَدْ دَعَا عَلِيًّا، وَعُثْمَانَ، وَالزُّبَيْرَ، وَسَعْدًا، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ

«إِنِّي نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ، فَلَمْ أَرَ عِنْدَهُمْ شِقَاقًا[١]، فَإِنْ يَكُ شِقَاقٌ فَهُوَ فِيكُمْ، ثُمَّ إِنَّ قَوْمَكُمْ إِنَّمَا يُؤَمِّرُونَ أَحَدَكُمْ أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ. فَإِنْ كُنْتَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ يَا عَلِيُّ فَاتَّقِ اللهَ، وَلَا تَحْمِلْ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ. وَإِنْ كُنْتَ يَا عُثْمَانُ عَلَى شَيْءٍ فَاتَّقِ اللهَ، وَلَا تَحْمِلْ بَنِي أَبِي مُعَيْطٍ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ. وَإِنْ كُنْتَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ فَاتَّقِ اللهَ، وَلَا تَحْمِلْ أَقَارِبَكَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ. فَتَشَاوَرُوا، ثُمَّ أَمِّرُوا أَحَدَكُمْ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: لا يزال الحديث دائرا على فراش الموت، وفي الأمر الذي يُهِم أمير المؤمنين ﵁، وهو مصلحة المسلمين وأمر الخلافة. والحديث - هنا - موجه لخمسة من أهل الشورى، ثم خصَّ منهم الثلاثة الذين غلب على ظنه أنَّ واحدا منهم سيكون خليفته.

البيان والبلاغة: قوله: (إِنَّمَا يُؤَمِّرُونَ أَحَدَكُمْ): أسلوب قصر، الغرض منه التخصيص، أي: تخصيص أمر الستة الذين ترك الفاروق ﵁ الشورى بينهم = في ثلاثة فقط، وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف ﵃.

١- الشِّقاق: الخِلاف. «جامع الأصول» (٥٦٧).

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٧٧٦)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٤٣ و٣٤٤، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٢٢، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٤٣٧.

وقوله: (**أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ**): (**أيها**) هنا لاسترعاء انتباههم. وقوله: (**فَإِنْ كُنْتَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ النَّاس**): تنكير (**شيء**) للعموم والشمول، أي: أي شيء تُولى عليه، مهما صغر أو كبر. و(**من أمر**): (**من**) هنا بيانية، أراد بيان حقيقة الشيء الذي أطلقه، وهو ما كان متعلِّقا بالناس، وأمَّا ما كان من شأنه هو فله أن يفعل فيه ما شاء. وقوله: (**يَا عَلِيُّ**): النداء الغرض منه جذب انتباه المتلقي لما يقول. وقوله: (**فَاتَّقِ اللهَ**): الأمر هنا الغرض منه حثه رضي الله عنه على تقوى الله - سبحانه وتعالى - في أمر المسلمين عامة. وقوله: (**وَلَا تَحْمِلْ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى رِقَابِ النَّاس**): أسلوب النهي - هنا - الغرض منه التحذير. وقوله: (**على رقاب النَّاس**): أسلوب بليغ فكأن مَن يولي أقاربه ويوليهم اهتمامًا أكثر مِن اهتمامه بباقي الرعية = قد وضعهم فوق أعناق النَّاس، وفيه تصوير لمدى المعاناة التي يعانيها النَّاس بتمييز فئة فوقهم دون وجه حق.

[٤١٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

لِابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ عُمَرَ، وَسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، وَالْمَنِيَّةُ تَخْتَرِمُهُ

«اعْلَمُوا أَنِّي لَمْ أَقُلْ فِي الْكَلَالَةِ شَيْئًا، وَلَمْ أَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِي أَحَدًا، وَأَنَّهُ مَنْ أَدْرَكَ وَفَاتِي مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ؛ فَهُوَ حُرٌّ مِنْ مَالِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -». فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ: أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَشَرْتَ بِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَائْتَمَنَكَ النَّاس، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ، وَائْتَمَنَهُ النَّاس. فَقَالَ عُمَرُ: «قَدْ رَأَيْتُ مِنْ أَصْحَابِي حِرْصًا سَيِّئًا، وَإِنِّي جَاعِلٌ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى هَؤُلَاءِ النَّفَرِ السِّتَّةِ الَّذِينَ مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ». ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: «لَوْ أَدْرَكَنِي أَحَدُ رَجُلَيْنِ، ثُمَّ جَعَلْتُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَيْهِ لَوَثِقْتُ بِهِ: سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يكملُ أمير المؤمنين رضي الله عنه كلماته الأخيرة على فراش الموت، متمما ومؤكدا بعضَ ما سبق من وصاياه.

البيان والبلاغة: قوله: **(اعْلَمُوا)**: افتتح كلامه بالأمر مباشرة؛ لأن المقام ضيق لا يحتمل المقدمات والتمهيدات، والأمر أجلب للانتباه وأكثر استدعاء للذهن. وقوله: **(شَيْئًا)** و**(أَحَدًا)**: نكرتان في سياق النفي أفادتا العموم، والتقدير: لم أقل

١- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (١٢٩)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٣/ ٣٤٢، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٢١، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٤٢٧.

في الكلالة أي شيء، ولم أستخلف بعدي أيَّ أحد. وقوله: (**وَإِنِّي جَاعِلٌ هَذَا الْأَمْرَ**): أكَّد كلامه بحرف التأكيد (**إنَّ**) وباسم الفاعل (**جاعِلٌ**) والجملة الاسمية، وهما يدلان على ثبوت الحكم واستقراره، وهو اختيار هؤلاء النفر. ثم أشار إلى الاستخلاف باسم الإشارة (**هذا**) مبالغة في تعيين موضوع الحديث لأهميته، وأتبعه بقوله (**الأمر**): و(**أل**) هنا للعهد الذكري. وقوله: (**وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ**): قدم الجار والمجرور لمزيد من التعيين والاختصاص والتأكيد، الذي هو سمة من سمات هذا النص، والجملة الحالية تحمل بيان حجة عمر رضي الله عنه في اختيار هؤلاء الستة، وتعليل كلامه السابق. وقوله: (**لَوْ أَدْرَكَنِي أَحَدُ رَجُلَيْنِ، ثُمَّ جَعَلْتُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَيْهِ لَوَثِقْتُ بِهِ: سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**): (**لو**) حرف امتناع لامتناع دالٌّ على الشرط؛ فقد امتنع استخلافه سالما وأبا عبيدة رضي الله عنهما لامتناع إدراكهما إياه، وفي الجملة معنى التمني. وقد أطنب عمر رضي الله عنه في هذه الجملة فاستعمل أسلوب التقسيم وأتى باسمي الصاحبين الكريمين كاملا = بقصد البيان، ومبالغة في توضيح الأمر للسامع.

[٤٢٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الِاسْتِخْلَافِ مِنْ بَعْدِهِ

«لَوْ أَدْرَكْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ لَوَلَّيْتُهُ، فَإِنْ قَدِمْتُ عَلَى رَبِّي، فَقَالَ لِي: مَنْ وَلَّيْتَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؟ قُلْتُ: سَمِعْتُ عَبْدَكَ وَخَلِيلَكَ ﷺ يَقُولُ: «**لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**». وَلَوْ أَدْرَكْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، ثُمَّ وَلَّيْتُهُ، ثُمَّ قَدِمْتُ عَلَى رَبِّي فَقَالَ لِي: مَنْ وَلَّيْتَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؟ قُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ عَبْدَكَ وَخَلِيلَكَ ﷺ يَقُولُ: «**يَأْتِي بَيْنَ الْعُلَمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِرَتْوَةٍ**». وَلَوْ أَدْرَكْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، ثُمَّ وَلَّيْتُهُ، ثُمَّ قَدِمْتُ عَلَى رَبِّي فَسَأَلَنِي: مَنْ وَلَّيْتَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؟ لَقُلْتُ: سَمِعْتُ عَبْدَكَ وَخَلِيلَكَ ﷺ يَقُولُ: «**سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ، سَلَّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ**»[١]»[٢].

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ[٣]: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ؟ فَقَالَ عُمَرُ: «قَاتَلَكَ اللهُ، وَاللهِ مَا أَرَدْتَ اللهَ بِهَذَا! أَسْتَخْلِفُ رَجُلًا لَيْسَ يُحْسِنُ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ؟!»[٤].

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٣٧٥٧)، والتِّرمذيُّ في «السُّنَنِ» (٣٨٤٦)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (١٧٥٠)، و«فضائلِ الصَّحابةِ» (١٣) و(١٤٨٤)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٨٨٦، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٧٠٩١)، والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٥٢٩٥).

٢- رواهُ أحمدُ في «فضائلِ الصَّحابةِ» (١٢٨٧)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٨٨٦، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١١/ ٧٢ مُختصَرًا، وابنُ أبي عاصمٍ في «الآحادِ والمثاني» (٦٩٧) مُختصَرًا، والشَّاشيُّ في «المُسنَدِ» (٦١٧)، والمَحامِليُّ في «أماليه» (٢٠٨)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٥٨/ ٤٠٤.

٣- قالَ عثمانُ بنُ مسلمٍ، كما في روايةِ البلاذريِّ: (يَعني بالرَّجُلِ: المُغيرةَ بنَ شُعبةَ).

٤- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٣/ ٣٤٣، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٢١، والخلَّالُ=

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: لا يزال الحديث دائرا على فراش الموت، وفي الأمر الذي يُهِم أمير المؤمنين رضي الله عنه، وهو مصلحة المسلمين وأمر الخلافة.

البيان والبلاغة: قوله: **(أَدْرَكْتُ)** يقدِّر أمير المؤمنين؛ عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحابة رسول الله ﷺ ويعرف قدرهم، ويعدد مآثرهم، وأنه يحتكم إلى تزكية رسول الله ﷺ. وقوله: **(لَوَلَّيْتُهُ)**: (اللام) دليل الحرص على اتخاد القرار وبكل حزم. و**(لَوْ)** في قوله: **(لَوْ أَدْرَكْتُ)**: حرف شرط غير جازم، يربط بين جملتي الشرط والجواب، ويفيد امتناع لامتناع. واستخدام الجملة الشرطية دليل على محاسبة نفسه قبل محاسبة ربه له. وقوله: **(من وَلَّيْتَ؟)** اعتبر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن المسؤولية قائمة على عاتقه، يُسأل عنها وفي أخر أنفاسه. وقوله: **(هَذِهِ الْأُمَّةِ)**: يقصد بها أمة الإسلام. واستخدام (اللام) مع **(لَوَلَّيْتُهُ)** مع جميع الصحابة الذين ذكرهم، أما مع خالد بن الوليد القائد العسكري المخضرم، استخدم **(ثُمَّ)** يدل على أنه يقدره ويعرف مكانته، وحزمه، وحكمته وأنه رجل حرب، وهي صفة من صفات رجل الدولة ولكن قدَّم عليه من قدم من صحابة رسول الله، فكل له تقديره وتقدير ما اتصف به. وقوله: **(رَجُلٌ)** نكرة، مجهول غير معلوم. وقوله: **(قَاتَلَكَ اللهُ)**: أسلوب دعاء الغرض منه الزجر والتوبيخ والاستهجان والرفض. وقول الرجل له: **(فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ؟)**: استفهام الغرض منه الحث والتذكير، بأسلوب إنشائي. وقول عمر بن الخطاب عن خالد بن الوليد: **(سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ)** اعتبار أن خالدًا واحد من كل، استخدمه ربه على المشركين.

= في «السُّنَّةِ» (٣٤٤).

[٤٢١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
لِأَصْحَابِ الشُّورَى

«تَشَاوَرُوا فِي أَمْرِكُمْ؛ فَإِنْ كَانَ اثْنَانِ وَاثْنَانِ؛ فَارْجِعُوا فِي الشُّورَى، وَإِنْ كَانَ أَرْبَعَةٌ وَاثْنَانِ؛ فَخُذُوا صِنْفَ الْأَكْثَرِ»(١).

وَقَالَ: «إِنِ اخْتَلَفْتُمْ دَخَلَ عَلَيْكُمْ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ مِنَ الشَّامِ، وَبَعْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ(٢) مِنَ الْيَمَنِ، فَلَا يَرَيَانِ لَكُمْ فَضْلًا إِلَّا بِسَابِقَتِكُمْ»(٣).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: لا يزال حديث أمير المؤمنين رضي الله عنه ممتدا حول الخليفة القادم وكيفية اختياره من بين الستة نفر الذين اختارهم عمر رضي الله عنه للشورى.

البيان والبلاغة: يُعلي أمير المؤمنين رضي الله عنه مبدأ الشورى ويرسِّخه في نفوس أصحابه، ويحرص عليه ويثمِّن الرغبة فيه، ويحذِّر من الفتنة التي تنشأ من التعصب للرأي الفردي غير المجمع عليه، وهذه الفتنة تهز أركان الدولة الإسلامية من

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٣/ ٦١.

٢- عبدُ الله بنُ أبي رَبِيعةَ بنِ المُغِيرةِ المخزوميُّ، والدُ الشَّاعرِ المشهورِ عُمرَ، وأخو عيَّاشٍ، كانَ اسمُه بَحِيرًا، فسمَّاهُ النَّبيُّ - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ - عبدَ الله. وكانَ أحدَ الأشرافِ، ومِن أحسنِ النَّاس صورةً، وهو الَّذي بَعثَتْهُ قريشٌ معَ عمرِو بنِ العاصِ إلى النَّجاشيِّ لأَذيَّةِ مُهاجِرةِ الحبشةِ، ثمَّ أسلمَ وحسُن إسلامُه. ولَّاهُ رسولُ الله - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ - الجَندَ ومخاليفَها، فبقِي فيها إلى أيَّامِ فتنةِ عثمانَ، فجاءَ لِينصرَهُ، فوقعَ عنْ راحلتِه، فماتَ بقربِ مكَّةَ. «تاريخ الإسلام» ٢/ ٢٥٦.

٣- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» [مُتمِّم الصَّحابة]: (١٤٩)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٩/ ١٢٤.

شامها إلى يمنِها. وقوله: (**تَشَاوَرُوا فِي أَمْرِكُمْ**): يحمل الأمر الإلزام بالتنفيذ المباشر من أجل تحقيق الشورى؛ كي يعم العدل. و(**كان**) في قوله: (**فإن كان اثنان ...**) وقوله: (**وإن كان أربعةٌ واثنان**): تامة غير ناقصة، والمعنى: فإن خرج اثنان ... واستعمل أمير المؤمنين رضي الله عنه أسلوب الشرط والتفصيل في غير موضع من النص لتعديد الاحتمالات والاختيارات أمام السامع؛ لأهمية الأمر وخطورته.

[٤٢٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ نَظَرَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَالْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ الْحَارِثِ[١]

«يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، إِنَّ قَوْمَكُمْ يَكْرَهُونَ أُلْفَتَكُمْ، وَيَخَافُونَ أَنْ يَصِيرَ الْأَمْرُ لَكُمْ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَظٌّ مَعَكُمْ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يوجه أمير المؤمنين خطابه لابن عباس في حضرة آخرين من قريش - رضي الله عن الجميع - مبينا ما يعلمه عما في صدورهم في أمر الخلافة.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بنداء عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، والنداء فيه استدعاء للانتباه وجذب للأسماع والأذهان، وإشارة إلى خطورة ما سيأتي من الحديث. ثم بدأ حديثه بـ(**إنَّ**) التوكيدية ليؤكِّد خطورة الأمر الذي سيتحدَّث فيه، ويزيل كل شك فيه من ذهن ابن عباس رضي الله عنهما . وفي قوله: (**قومكم، ألفتكم، لكم**): سجع يقوي المعنى ويسترعي الانتباه. وقوله: (**يَكْرَهُونَ، يَخَافُونَ، يَصِيرَ، يَرَوْنَ، يَكُنْ**): التعبير بالفعل المضارع يحمل المعنى على الحاضر الممتد إلى زمن المستقبل. وقوله: (**وَيَـرَوْنَ**): الرؤية - هنا - هي القلبية التي بمعنى: يعتقدون، وليست

١- الحارثُ بنُ نوفلِ بنِ الحارثِ الهاشميُّ، أسلمَ معَ أبيهِ، ووليَ مكَّةَ لعمرَ وعثمانَ. وقدِ استعملهُ النَّبيُّ ﷺ على بعضِ العملِ، وقيلَ: إنَّه نزلَ البصرةَ، وبنى بها دارًا. ماتَ في خلافةِ عثمانَ عن نحوٍ من سبعينَ سنةً. «سير أعلام النُّبلاء» ١/ ١٩٩.

٢- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧٤.

البصرية. واستعمل اسم الشرط (**إِذَا**): إشارة إلى قرب تحقق الشرط وجوابه.

وقوله: (**حَظٌّ**): جاء نكرة في سياق النفي فأفاد العموم، والمعنى: ويعتقدون أنَّه إذا كانت الخلافة لكم لم يكن لهم فيها معكم أي حظ أو نصيب.

[٤٢٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

يُوصِي بِهِ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِهِ

«أُوصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي خَيْرًا، وَأُوصِيهِ بِالْمُهَاجِرِينَ خَيْرًا: أَنْ يَعْرِفَ حُقُوقَهُمْ، وَأَنْ يُنْزِلَهُمْ عَلَى مَنَازِلِهِمْ. وَأُوصِيهِ بِالْأَنْصَارِ الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلُ خَيْرًا: أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَيَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ. وَأُوصِيهِ بِأَهْلِ الْأَمْصَارِ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُمْ رِدْءُ[1] الْإِسْلَامِ، وَغَيْظُ الْعَدُوِّ، وَبَيْتُ الْمَالِ، وَلَا يَرْفَعُ فَضْلَ صَدَقَاتِهِمْ إِلَّا بِطِيبِ أَنْفُسِهِمْ. وَأُوصِيهِ بِأَعْرَابِ الْبَادِيَةِ؛ فَإِنَّهُمْ أَصْلُ الْعَرَبِ، وَمَادَّةُ الْإِسْلَامِ: أَنْ تُؤْخَذَ صَدَقَاتُهُمْ مِنْ حَوَاشِي أَمْوَالِهِمْ[2]، وَتُرَدَّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ. وَأُوصِيهِ بِأَهْلِ الذِّمَّةِ خَيْرًا: أَلَّا يُكَلِّفَهُمْ إِلَّا طَاقَتَهُمْ، وَأَنْ يُقَاتِلَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَأَنْ يَفِيَ لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ»[3].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذه وصية من أمير المؤمنين رضي الله عنه يرسلها على فراش الموت وعبْر حُجُب الغيب إلى الخليفة الآتي بعده، يوصيه فيها بأداء حقوق الناس، لاسيما المهاجرون والأنصار والأعراب وأهل الذمة.

١- الرِّدءُ: العونُ. «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ (٢٠٨٥).

٢- أي: صِغار الإبِلِ؛ كابنِ المَخاضِ، وابنِ اللَّبونِ. واحدُها حاشِيةٌ. وحاشِيةُ كُلِّ شيءٍ: جانبُهُ وطَرَفُهُ. وهو كحديثِ: «اتَّقِ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ». «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (حشا).

٣- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٣٧٠٠)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٦٩١٧)، وأبو يوسفَ في «الخراجِ» ص٢٣، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٠٥٨)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨٢١٤)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٦٤، والخلَّالُ في «السُّنَّةِ» (٦٢)، واللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (٢٥٤١).

البيان والبلاغة: قوله: (**أُوصي**) عبَّر بالمضارع؛ كي يفيد المعنى الحال والاستمرار، ففي حاله هو يوصي، ويخلي مسئوليته الفردية أمام ربه، وينتقل بحدث الوصية من زمنه الحالي إلى زمن المستقبل، ويكون العمل بالوصية ممتدا إلى أزمان آخر. وقوله: (**خَيْرًا**)، أي: لا تكون الوصية إلا في الخير، الذي فيه الخير للناس. وقوله: (**وَأُوصِيهِ بِالْمُهَاجِرِينَ ....، الْأَنْصَارِ... ، بِأَهْلِ الْأَمْصَارِ ....، بَأَعْرَابِ الْبَادِيَةِ...، بِأَهْلِ الذِّمَّةِ**): هنا حسن تقسيم، واعتراف بدور كل فريق، وقدم المهاجرين في تحمل تبعات نشر الدين وتركهم ديارهم وأهليهم في مكة؛ لنصرة دين الله، وسابقة الأنصار في مناصرة المسلمين، وأنهم آووا المهاجرين، وآخى بينهم رسول الله، وبيَّن حقوق كل فريق وواجباته. وقوله: (**يُنزِلُهُمْ عَلَى مَنَازِلِهِمْ**): أسهم تحقق الجناس بين الكلمتين في توضيح الانسجام الصوتي، وجاء بجرس موسيقي يقع في النفس موقعا خاصا. والمقابلة بين (**يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ**)، (**يَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ**) تبرز المعنى وتقويه. وقد سبق نحو هذا النص تحت رقم ثلاثة عشر وأربعمئة.

[٤٢٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لَمَّا طُعِنَ وَجَاءَهُ النَّاسُ يُثْنُونَ عَلَيْهِ وَيُوَدِّعُونَهُ

«أَبِالْإِمَارَةِ تُزَكُّونَنِي؟ لَقَدْ صَحِبْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ وَهُوَ عَنِّي رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتُ أَبَا بَكْرٍ، فَسَمِعْتُ وَأَطَعْتُ، فَتُوُفِّيَ أَبُو بَكْرٍ وَأَنَا سَامِعٌ مُطِيعٌ، وَمَا أَصْبَحْتُ أَخَافُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا إِمَارَتَكُمْ هَذِهِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه، وهو بين يدي الموت، مَن زكاه بعدله في إمارته وسيره فيها بالحقِّ، مبينا له حقيقة الأمر، وأنه لا يخشى على نفسه سوى تلك الإمارة.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَبالإمارَةِ تُزَكُّونَنِي؟!**): استفهام إنكاري، استعمله أمير المؤمنين رضي الله عنه إنكارا على من زكَّاه بالإمارة. ثم قال: (**لَقَدْ صَحِبْتُ**)، فأكَّد قوله بـ (اللام، وقد) لأنَّ المخاطب قد يكون مخالفا له فيما يقول. وقوله: (**وَهُوَ عَنِّي رَاضٍ**): قدم الجار والمجرور تأكيدا وتخصيصا، والجملة الحالية تبين حال النبي ﷺ حين مات، وهو الرضا عن عمر رضي الله عنه. وقوله: (**وَأَنَا سَامِعٌ مُطِيعٌ**): جعل الحال - هنا - لنفسه على خلاف الجملة الأولى؛ لأنَّ العبرة في الأولى برضا رسول الله ﷺ قبل فعل عمر وصنيعه، والعبرة في الثانية بفعل عمر قبل رضا أبي بكر رضي الله عنهما. وقوله: (**وَمَا أَصْبَحْتُ أَخَافُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا إِمَارَتَكُمْ هَذِهِ**): الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر، فكأنه لم يخش شيئا أتاه سوى تلبُّسه بهذه الإمارة، فلله درُّك يا عمر!

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٥٥، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨٢٢٨).

[٤٢٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْخِلَافَةِ

«لِيَعْلَمْ مَنْ وَلِيَ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِي، أَنْ سَيُرِيدُهُ عَنْهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ. إِنِّي لَأُقَاتِلُ النَّاسَ عَنْ نَفْسِي قِتَالًا، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ أَقْوَى عَلَى هَذَا الْأَمْرِ مِنِّي لَكُنْتُ أَنْ أُقَدَّمَ فَيُضْرَبَ عُنُقِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ آتِيَ إِلَيْهِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يُخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه خليفة المسلمين بعده، موجِّها له بعض النصائح عبر إبراز سيرته فيها.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه خطابه بالأمر المباشر للخليفة بعده عبر إدخال لام الأمر على الفعل المضارع في قوله: **(لِيعلَمْ)**، وذلك أنَّ الأمر خطير والوقت ضيق بما لا يحتمل الأسلوب غير المباشر في التوجيه. وقوله: **(هَذَا الْأَمْرَ)**: استخدم اسم الإشارة **(هذا)** إمعانا في التعيين والتخصيص، و(أل) في العبارة للعهد الذهني؛ إشارة إلى الخلافة. وقوله: **(الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ)**: كناية عن العموم، والمقصود: سيريده عنه الجميع. وقوله: **(إِنِّي لَأُقَاتِلُ النَّاسَ عَنْ نَفْسِي قِتَالا)**: أكَّد الجملة إنزالا للسامع منزلة المرتاب فيها، ثم كنَّى بالقتال عن مجاهدة نفسه

١- رواهُ ابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٦٩٣.

على مخالفة رغبات الناس؛ بيانا لصعوبة ومشقة هذه المجاهدة، ثم أعاد تأكيدها بالمفعول المطلق (**قتالا**) المؤكد للمعنى. وقوله: (**أَقْوَى عَلَى هَذَا الْأَمْرِ مِنِّي**): قدَّم الجارَّ والمجرور تأكيدا عليه؛ لأَنَّه أهم ما يُهِمه وهو لبُّ الحديث وموضوعه.

[٤٢٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَهُوَ يُحْتَضَرُ

«احْفَظْ عَنِّي ثَلَاثًا؛ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا يُدْرِكَنِي النَّاسُ: أَمَّا أَنَا فَلَمْ أَقْضِ فِي الْكَلَالَةِ قَضَاءً، وَلَمْ أَسْتَخْلِفْ عَلَى النَّاسِ خَلِيفَةً، وَكُلُّ مَمْلُوكٍ لَهُ عَتِيقٌ». فَقَالَ لَهُ النَّاسُ: اسْتَخْلِفْ. فَقَالَ: «أَيَّ ذَلِكَ أَفْعَلُ فَقَدْ فَعَلَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، إِنْ أَدَعْ إِلَى النَّاسِ أَمْرَهُمْ فَقَدْ تَرَكَهُ نَبِيُّ اللهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَإِنْ أَسْتَخْلِفْ فَقَدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، أَبُو بَكْرٍ». فَقُلْتُ لَهُ: أَبْشِرْ بِالْجَنَّةِ، صَاحَبْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَطَلْتَ صُحْبَتَهُ، وَوُلِّيتَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَوِيتَ وَأَدَّيْتَ الْأَمَانَةَ. فَقَالَ: «أَمَّا تَبْشِيرُكَ إِيَّايَ بِالْجَنَّةِ؛ فَوَاللهِ لَوْ أَنَّ لِي - قَالَ عَفَّانُ: فَلَا وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَوْ أَنَّ لِي - الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا؛ لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ هَوْلِ مَا أَمَامِي قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ الْخَبَرَ. وَأَمَّا قَوْلُكَ فِي أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَوَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَفَافًا، لَا لِي وَلَا عَلَيَّ. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ نَبِيِّ اللهِ ﷺ فَذَلِكَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ما يزال حديث أمير المؤمنين رضي الله عنه على فراش الموت، والحديث - هنا - موجَّه لابن عباس رضي الله عنهما حول ثلاثة أمور أراد أمير المؤمنين التأكيد عليها، ثم جوابا على تبشير ابن عباس له بسابقته في الإسلام وحسن بلائه في الخلافة.

١- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٣٢٢)، والطَّيالسيُّ في «المُسنَدِ» (٢٦)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٩٢٣.

البيان والبلاغة: اختص أميرُ المؤمنين ابنَ عباس بما تلاه عليه؛ لمكانة الأخير عنده، ومعرفة مقامه عند رسول الله ﷺ من قبل. والتعبير بالفعل والمصدر المشتق منه يؤكد أن الأمر مهم ويحتاج إلى نظر، ولا يجب تركه دون تحديد. وقوله: (**كُلُّ مملوك**): المعنى فيه استغراق للحكم، الغرض منه التوسع في باب العتق. وقوله: (**خَيْرٌ مِنِّي**): تميَّز أمير المؤمنين؛ عمر بن الخطاب في تعبيره بنكران الذات. وقوله: (**فَأَطَلْتَ صُحْبَتَهُ**): دليل على علم المخاطب اليقيني بما يوجهه له المتكلم. وقوله: (**لافْتَدَيْتُ، لَوَدِدْتُ**): (**اللام**) واقعة في جواب (**لو**)، وتفيد التوكيد والسرعة المبادرة للفكاك مما قد يلحق به. هذا، وقد مرَّ شيءٌ من معاني هذا النص في نصوص سابقة.

[٤٢٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِهِ عَبْدِ اللهِ وَهُوَ يَحْتَضِرُ

«إِذَا وَضَعْتَنِي فِي لَحْدِي؛ فَأَفْضِ بِخَدِّي إِلَى الْأَرْضِ، حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَ خَدِّي وَبَيْنَ الْأَرْضِ شَيْءٌ»[١].

وَقَالَ: «يَا بُنَيَّ، إِذَا حَضَرَتْنِي الْوَفَاةُ فَاحْرُفْنِي، وَاجْعَلْ رُكْبَتَيْكَ فِي صُلْبِي، وَضَعْ يَدَكَ الْيُمْنَى عَلَى جَبِينِي، وَيَدَكَ الْيُسْرَى عَلَى ذَقَنِي، فَإِذَا قُبِضْتُ فَأَغْمِضْنِي، وَاقْصِدُوا فِي كَفَنِي؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ لِي عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ أَبْدَلَنِي خَيْرًا مِنْهُ، وَإِنْ كُنْتُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ سَلَبَنِي فَأَسْرَعَ سَلْبِي، وَاقْصِدُوا فِي حُفْرَتِي؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ لِي عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَسَّعَ لِي فِيهَا مَدَّ بَصَرِي، وَإِنْ كُنْتُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ ضَيَّقَهَا عَلَيَّ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعِي. وَلَا تُخْرِجُنَّ مَعِي امْرَأَةً، وَلَا تُزَكُّونِي بِمَا لَيْسَ فِيَّ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ أَعْلَمُ بِي. وَإِذَا خَرَجْتُمْ بِي فَأَسْرِعُوا فِي الْمَشْيِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ لِي عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ قَدَّمْتُمُونِي إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لِي، وَإِنْ كُنْتُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ كُنْتُمْ قَدْ أَلْقَيْتُمْ عَنْ رِقَابِكُمْ شَرًّا تَحْمِلُونَهُ»[٢].

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٦٠، وأحمدُ في «الزُّهدِ» (٦٣٤) واللَّفظُ لهُ، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٣٧، وابنُ أبي الدُّنيا في «المُحتضَرينَ» (٤٢)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٤٤٥.

٢- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٥٨، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٣٦-٤٣٧، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٤٤٦ و٦٤/ ١٥٩.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذه وصية أخيرة من أمير المؤمنين لابنه عبد الله رضي الله عنهما، يوصيه فيها بما ينبغي أن يكون عقب وفاته.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِذَا ... فَـ**) اعتمد في كلامه على الجملة الشرطية، وجاء بجواب الشرط مقترنًا بالفاء؛ للدلالة على رغبته في تنفيذ شرطه والإسراع فيه، والحزم في تنفيذ رغبته ووصيته. وقوله: (**حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَ خَدِّي وَبَيْنَ الْأَرْضِ شَيْءٌ**): إطنابٌ بالتفصيل بعد الإجمال، أراد به تأكيد المعنى وألا يترك للسامع احتمالا للتأويل. وقوله: (**يَا بُنَيَّ**): نادى ابنه القريبَ مكانا ومكانة بأداة النداء (**يا**) التي للبعيد؛ إنزالا له منزلة البعيد حُكما كالساهي والغافل؛ ليكون ذلك أدعى لجذب انتباهه. وقوله: (**حَضَرَتْنِي الْوَفَاةُ**): إسناد الحضور للوفاة مجاز عقلي، والمقصود: إذا حضرني ملك الموت للموت أو قبض روحي. وقوله: (**وَإِنْ كُنْتُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ**): كنَّى عن الشر بعدما صرح بذكر الخير؛ كراهية لذكر الشر ورغبة في حصول الخير. وفي النص إطناب ناشئٌ عن التفصيل بعد الإجمال والتعليل بعد ذكر الحكم، والغرض منه التأكيد وزيادة الإيضاح والبيان.

[٤٢٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ سَمِعَ ابْنَتَهُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ حَفْصَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - تَنْدُبُهُ

«يَا عَبْدَ اللهِ، أَجْلِسْنِي؛ فَلَا صَبْرَ لِي عَلَى مَا أَسْمَعُ»، فَأَسْنَدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ إِلَى صَدْرِهِ، فَقَالَ لَهَا: «إِنِّي أُحَرِّجُ عَلَيْكِ بِمَا لِي عَلَيْكِ مِنَ الْحَقِّ أَنْ تَنْدُبِينِي بَعْدَ مَجْلِسِكِ هَذَا، فَأَمَّا عَيْنُكِ فَلَنْ أَمْلِكَهَا؛ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ مَيِّتٍ يُنْدَبُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ إِلَّا الْمَلَائِكَةُ تَمْقُتُهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: لا نزال مع الكلمات الأخيرة لأمير المؤمنين رضي الله عنه على فراش الموت، والحديث - هنا - بشأن ندب أم المؤمنين حفصةَ أباها عمر رضي الله عنهما وتشديده في النهي عن ذلك.

البيان والبلاغة: قوله: (**يَا عَبْدَ اللهِ**) في هذا الموضع يناديه باسمه؛ لأن الموقف يحتاج حزمًا وحِدَّة. وقوله: (**إِنِّي أُحَرِّجُ عَلَيْكِ**): كناية عن الرفض التام المطلق لما يسمعه من بكاء أهله عليه، وفيه تذكير لها بحقه عليها. وقوله: (**فَأَمَّا عَيْنُكِ فَلَنْ أَمْلِكَهَا**): كنَّى عن الدمع بالعين، وشبه العين بمتاع يُمتلك ويوزع على النَّاس. وقوله: (**لَيْسَ مِنْ مَيِّتٍ**): أتى بها يفيد استغراق الحكم للكل؛ فهو أمر عام لا يتجزأ.

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٦١، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٣٨، والحارثُ في «مُسنَدِه» كما في «بُغيةِ الباحثِ» (٢٦٤)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٤٤٨.

[٤٢٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، اذْهَبْ إِلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -، فَقُلْ: يَقْرَأُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ عَلَيْكِ السَّلَامَ. ثُمَّ سَلْهَا أَنْ أُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيَّ».

فَقَالَتْ عَائِشَةَ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي، فَلَأُوثِرَنَّهُ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسِي.

فَلَمَّا أَقْبَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا لَدَيْكَ؟ قَالَ: أَذِنَتْ لَكَ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ عُمَرُ: «مَا كَانَ شَيْءٌ أَهَمَّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَضْجَعِ، فَإِذَا قُبِضْتُ فَاحْمِلُونِي، ثُمَّ سَلِّمُوا، ثُمَّ قُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ. فَإِنْ أَذِنَتْ لِي، فَادْفِنُونِي، وَإِلَّا فَرُدُّونِي إِلَى مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ. إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَحَقَّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، فَمَنِ اسْتَخْلَفُوا بَعْدِي فَهُوَ الْخَلِيفَةُ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا» فَسَمَّى عُثْمَانَ، وَعَلِيًّا، وَطَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرَ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ. وَوَلَجَ عَلَيْهِ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَبْشِرْ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، بِبُشْرَى اللهِ، كَانَ لَكَ مِنَ الْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ اسْتُخْلِفْتَ فَعَدَلْتَ، ثُمَّ الشَّهَادَةُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ. فَقَالَ: «لَيْتَنِي يَا ابْنَ أَخِي وَذَلِكَ كَفَافًا لَا عَلَيَّ وَلَا لِي. أُوصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ خَيْرًا: أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَأَنْ يَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ. وَأُوصِيهِ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا، الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ:

أَنْ يُقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَيُعْفَى عَنْ مُسِيئِهِمْ. وَأُوصِيهِ بِذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ ﷺ: أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَأَنْ لَا يُكَلَّفُوا فَوْقَ طَاقَتِهِمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين ولده عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وقد أمره أن يستأذن أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن يُدفن مع صاحبيه، ثم ينتقل بالحديث إلى أمر الخلافة والخليفة بعده، موجها له بعض النصائح.

البيان والبلاغة: قوله: **(سَلْهَا)** جاءت هذه الكلمة على هذا التركيب كناية عن التلطف والأدب الجم مع أم المؤمنين عائشة زوجة رسول الله ﷺ، وابنة حبيبه أبي بكر الصديق - رضى الله عنه -؛ ولذلك صدر اسمها بكنيتها: أم المؤمنين قبل ذكر اسمها. وقول أم المؤمنين: **(فَلَأُوثِرَنَّهُ اليَوْمَ عَلَى نَفْسي)**: كناية عن الموافقة على طلبه، وهو رد على الأدب بأدب. والتعبير بكلمة **(اليَوْمَ)**: دليل على اعتبار الحال في الزمان والمكان. وقوله: **(عَلَى نَفْسي)**: استلهام من قوله - عز وجل -: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. وقوله: **(مَا لَدَيْكَ؟)**: استفهام يدل على تعجل الجواب؛ لتمنيه أن يكون ردها إيجابيا كما وقع في ظنه بها، وعلمه بكرمها، وسخاء وجود نفسها.

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (١٣٩٢)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨٢١٤)، والخلَّالُ في «السُّنَّةِ» (٦٢)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٦٩١٧)، والآجُرِّيُّ في «الشَّريعةِ» (١٣٩٦)، واللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (٢٥٤١)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٦٥٧٩).

وقوله: (**مَا كَانَ شَيْءٌ أَهَمَّ**): نكَّر (**شيءٌ**) في سياق النفي لتفيد العموم، والجملة كناية عن حرصه الشديد على مرافقة حبيبيه رسول الله ﷺ، والصديق أبي بكر رضي الله عنه.

وقول الشاب من الأنصار: (**أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللهِ**) فيه إجمال، ويحتاج إلى تفصيل. وقد مرَّ معنا قريبا ما يقارب هذا النص في اللفظ والمعنى.

[٤٣٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَهُوَ يُحْتَضَرُ

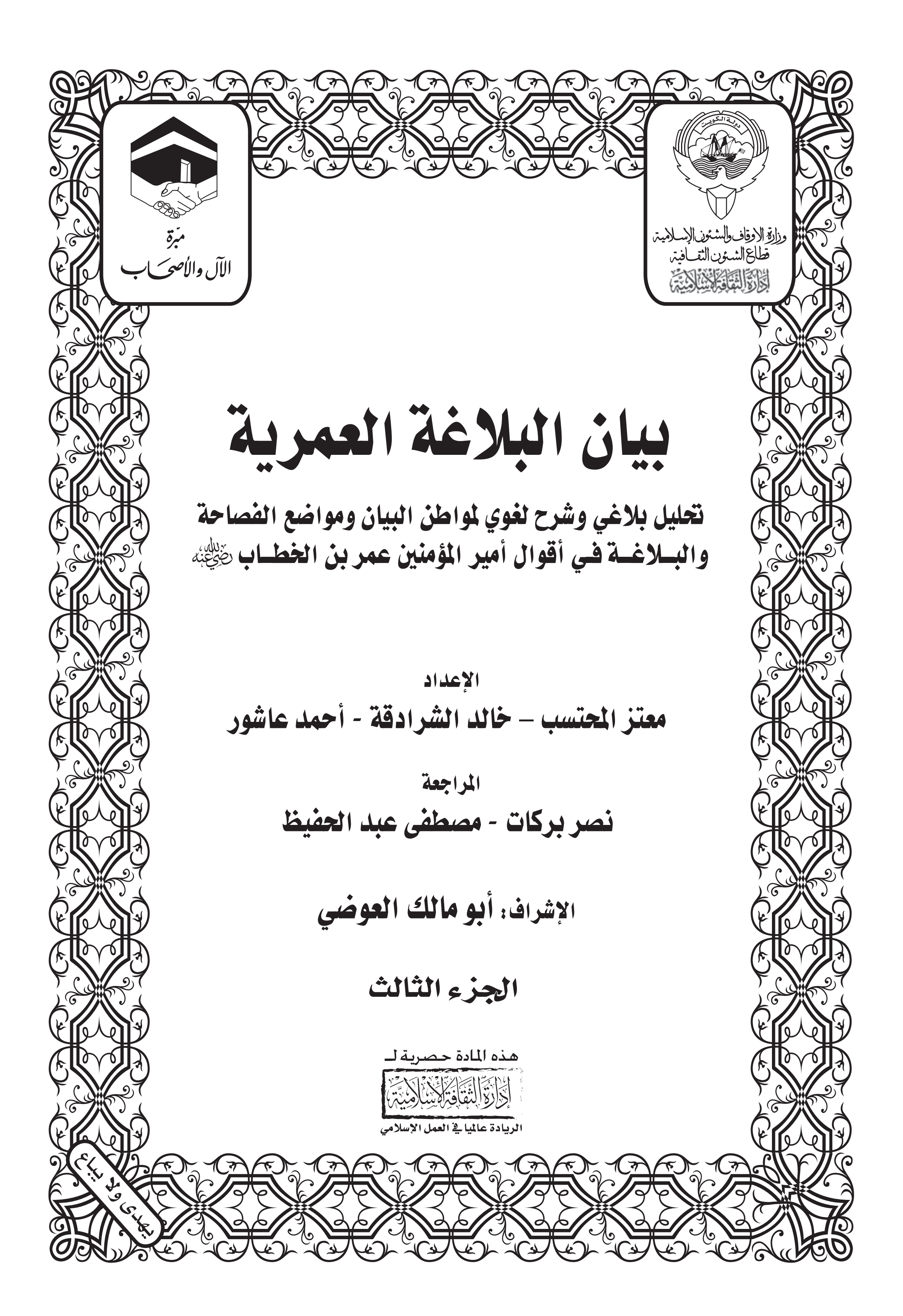
«ظَلُومٌ لِنَفْسِي غَيْرَ أَنِّيَ مُسْلِمٌ ... أُصَلِّي الصَّلَاةَ كُلَّهَا وَأَصُومُ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النصُّ شيء من خواطر عمر رضي الله عنه التي جاشت في نفسه وهي تفيض إلى بارئها - سبحانه وتعالى -.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه كلامه بحذف المبتدأ وتصدير الخبر؛ للعلم بالمبتدأ ورعاية للوزن وتأكيدا على المعنى، فقال: (**ظَلُومٌ لِنَفْسِي**): و(**ظَلُومٌ**): صيغة مبالغة تدلُّ على الإكثار من الفعل، وهي كناية عن كثرة السيئات والذنوب. وقوله: (غَير أنِّي): استدراك أراد به تصحيح ما قد يسبق إلى الذهن من انعدام حسنات ذلك الظلوم لنفسه، أو أنه قد يئس من رحمة الله - تعالى -؛ ولذلك أطنب في تفصيل هذه الجملة الدالة على رجائه رحمة الله - تعالى - فقال: (**أُصَلِّي الصَّلَاةَ كُلَّهَا وَأَصُومُ**). وقوله: (**كُلَّهَا**): توكيد معنوي، وهو من ألفاظ العموم؛ فالتأكيد منصب على وفائه بجميع الصلوات المفروضة عليه من غير تقصير في شيء منها.

١- ذكرهُ ابنُ عبدِ البرِّ في «الاستيعابِ» ٣/ ١١٥٧، وابنُ الأثيرِ في «أسدِ الغابةِ» ٤/ ١٥٦، و«الكامل في التَّاريخِ» ٢/ ٤٢٩.



بيان البلاغة العمرية

تحليل بلاغي وشرح لغوي لمواطن البيان ومواضع الفصاحة والبلاغة في أقوال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الإعداد

معتز المحتسب – خالد الشرادقة - أحمد عاشور

المراجعة

نصر بركات - مصطفى عبد الحفيظ

الإشراف: أبو مالك العوضي

الجزء الثالث

هذه المادة حصرية لـ

إدارة الثقافة الإسلامية

الريادة عالميا في العمل الإسلامي

الطبعة الأولى - دولة الكويت

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الثقافة الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw/thaqafa

تم الحفظ والإيداع بمركز المعلومات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

رقم الإيداع: 186 / 2017



البابُ الثَّاني

في المُختارِ مِن كُتُبِ أميرِ المؤمنينَ ﷺ ورسَائِلِه



[٤٣١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّاسِ بِالْجَابِيَةِ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُقِمْ أَمْرَ اللهِ فِي النَّاسِ إِلَّا حَصِيفُ الْعُقْدَةِ[١] ، بَعِيدُ الْغِرَّةِ[٢]، لَا يَطَّلِعُ النَّاسُ مِنْهُ عَلَى عَوْرَةٍ، وَلَا يَحْنَقُ فِي الْحَقِّ عَلَى جِرَّةٍ[٣] ، وَلَا يَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ»[٤].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: رسالة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى واليه على الشام أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، والموضع الذي قرئ فيه الكتاب: الجابية، وهي مدينة بالشام، وباب الجابية بدمشق. يُذَكِّرُ أميرُ المؤمنين في هذه الرسالة واليَ الشام أمينَ الأمة = يذكره اللهَّ في الرعية، وهو من باب التذكير ليس إلا، إذ ثبت عن الفاروق رضي الله عنه لما جاء الشام ورأى ما فيه أمين الأمة من شدة العيش قال: **(غيَّرتنا الدنيا كلنا غيرك، يا أبا عبيدة)**.

لطائف لغوية: **(أمَّا بعد)**: يقول عنها ابن الأثير: «وأما الاقتضاب: قطع الكلام

١- حَصِيفُ العُقدة: الحصيفُ: المُحكمُ العقلِ. والعُقدة: الرَّأي والتَّدبير. «لسان العرب» ٩/ ٤٨.

٢- في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٢٦: (إِلَّا عَفِيفُ الْفِعْلِ، بَعِيدُ الْقَعْرِ). وقولُه: (بَعِيدُ الغِرَّةِ): الغِرَّةُ هي الغفلةُ. والمرادُ؛ أي: مَن بَعُدَ حِفظُه لِغفلةِ المُسلمينَ. «النِّهاية» ٣/ ٣٥٥.

٣- الحَنَقُ: الغيظُ. والجِرَّةُ: ما يُخرِجُهُ البعيرُ عن جوفِه ويَمضغُه. والمرادُ: لَا يَحْقِدُ على رَعِيَّتِه. فضَربَ الجِرَّةَ لِذلكَ مثلًا. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (جرر).

٤- رواهُ أبو عُبَيدٍ في «الخُطَبِ والمواعظِ» (١٣٥)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٥٤٤)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (١٠٩)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٢٧٩. [وذكره ابن عبد البر في بهجة المجالس (١/ ٣٣١) بلفظ (لا يقيم ... بعيد الغور)]

واستئناف كلام آخر غيره، بلا علاقة تكون بينه وبينه. فمن ذلك ما يقرب من التخلص، وهو: فصل الخطاب، والذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه (**أما بعد**)؛ لأن المتكلم يفتتح كلامه في كل أمر ذي شأن بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه = فصل بينه وبين ذكر الله - تعالى - بقوله: (**أما بعد**). ومن الفصل الذي هو أحسن من الوصل لفظه هذا، وهي علاقة وكيدة بين الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره»[1]. وقد مرَّ بنا مزيد من البيان حولها عند شرح النص رقم اثنين وسبعين ومئتين.

البيان والبلاغة: استهل الفاروق رضي الله عنه رسالته البليغة بقوله: (**أَمَّا بَعْدُ**)، ثم استخدم أسلوب القصر الإضافي بالنفي والاستثناء في قوله: (**فَإِنَّهُ لَمْ يُقِمْ أَمْرَ اللَّهِ فِي النَّاس إِلا ...**)، فالمقصور: (**لم يقم أمر الله في النَّاس**)، والمقصور عليه: (**حصيف العقدة ...**) إلخ، فَعُدَّ من قبيل القصر الإضافي؛ إذ إن القائم بأمر الله لابد أن تتوافر فيه تلك الصفات، ولكن ليس على سبيل حصر الصفات وإنما على سبيل ذكر بعضها، والغرض منه التخصيص. ثم يعدد تلك الصفات التي اشترطها في القائم بأمر الله فيقول: (**حَصِيفُ الْعُقْدَةِ**)، والحصفُ لغة هو: الشيء المحكم الذي لا خلل فيه، والعقدة: موضع العقد من الحبل، وأراد بالأولى: محكم العقل، وبالثانية: الرأي والتدبير، والتعبير ككل قصد به: المحكم في رأيه وتدبيره، وفيه استعارة مكنية؛ حيث شبه من حزم رأيه وأحكم تدبير أمره بمن أحكم عقدة الحبل. ثم يذهب إلى الصفة الثانية: (**بَعِيدُ الْغِرَّةِ**): والغِرة، هي: الغفلة، والمراد بالتعبير السابق: ألا يغفل كباقي الرعية، وبما أن الغفلة والسهو من طباع البشر = فقد طلب منه أن يحرص أن يكون يقظًا أكثر الوقت وأن تكون غفلته بعيدة، وذلك من بلاغة الفاروق رضي الله عنه أنه لما علم صعوبة الطلب أمره بما يستطيع

١- «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» (٣/ ١٣٩).

الاستجابة له، و(**بَعِيدُ الْغِرَّةِ**) كناية عن اليقظة. وقوله: (**لَا يَطَّلِعُ النَّاس مِنْهُ عَلَى عَوْرَةٍ**): أمر بمراعاة الله وتعظيم حرماته في السر والعلن؛ لأن مَن حسنت سريرته حسنت علانيته؛ فإذا كان في الخفاء محمودا لم يطلع النَّاس من ظاهره على عورة. وفي هذا القول تعريض، وفيه أيضًا إلزام للوالي بأن يكون أسوة حسنة لرعيته. وقوله: (**وَلَا يَحْنَقُ فِي الْحَقِّ عَلَى جِرَّةٍ**): الحنق لغة: شدة الاغتياظ، وأحنق الصلب: لزق بالبطن، والجِرَّة: ما يخرجه البعير من جوفه ويمضغه، والمقصود: ألا يحقد الوالي على رعيته، وفي التعبير استعارة مكنية؛ حيث شبه الحقد بما يخرجه البعير من جوفه ويمضغه ثم يرجعه إلى جوفه مرة أخرى، وفيه تصوير بديع لما يحدث من عملية الترجيع والتكرير للشيء كناية عن إضماره الحقد والغل، وفيه أمر ألا يحمل على رعيته غلا أو حقدا، وفيه تعريض – أيضًا – بالتواضع والضعة وخفض الجناح للرعية. وقوله: (**وَلَا يَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ**): في القول تناص صريح بقول النبي ﷺ: «**أَقِيمُوا حُدُودَ اللهِ فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ**»، وفيه لزوم قول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألا يداهن فيه النَّاس ولا يلتفت إلى لائميهم، بل يُغيِّر بكل ما يقدر عليه؛ من فعل أو قول، ما لم يخشَ آثار فتنة وتسبب منكر أشد منه. ثم جاء الختام بقوله: (**وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ**)، وقد جاءت رسالته – رضي الله تعالى عنه وأرضاه – بليغة خاضعة لقواعد الرسائل؛ حيث بدأت بقوله: (**من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح. سلام عليك**)[1]، ثم فصل الخطاب (**أما بعد**)، ثم الصدر ثم خاتمة (**والسلام عليك**)، وجاء ذلك في سياق بديع، واستخدم السجع؛ لخلق جرس موسيقي يشد انتباه المتلقي في قوله: (**الْعُقْدَةِ، الْغِرَّةِ، عَوْرَةٍ، جِرَّةٍ**). وقد جمع عمر رضي الله عنه في هذا النصِّ أهم

١- لم ترد تلك المقدمة في النقل الذي بين أيدينا وإنما ورد في غير مصدر؛ مثل: الإشراف في منازل الأشراف ص١٥٦، و«جامع الأحاديث» (٢٨/ ١٨٩)، و«كنز الأعمال» (٥/ ٧٧٦)، و«تاريخ دمشق» (٤٤/ ٢٧٩).

الصفات التي ينبغي أن يتحلَّى بها الأئمة، وقد شملت تلك الصفات ما هو مطلوب في الإمام وما يعين على إقامته للعدل بين الناس. وقد عرض أمير المؤمنين هذه الصفات في أسلوب متسلسل بليغ، مترقيا من الأدنى إلى الأعلى، ثم ختمها بالسلام كما بدأها به. واشتمل النَّص ككل على المساواة في المعاني دون زيادة أو نقصان.

[٤٣٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَهْلِ الْبَصرَةِ

«إِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَبَا مُوسَى؛ لِيَأْخُذَ مِنْ قَوِيِّكُمْ لِضَعِيفِكُمْ، وَلِيُقَاتِلَ بِكُمْ عَدُوَّكُمْ، وَلِيَدْفَعَ عَنْ دِينِكُمْ، وَلِيَجْبِيَ لَكُمْ فَيْئَكُمْ، ثُمَّ يَقْسِمَهُ فِيكُمْ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: وَلِيَ أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قضاء البصرة مع ولايتها من عام سبعة عشر من الهجرة إلى عام خمسة وعشرين، والظاهر أن تلك الرسالة إلى أهل البصرة في بداية ولاية أبي موسى رضي الله عنه أي: في العام السابع عشر من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، والمقام هنا مقام أمر؛ فأمير المؤمنين رضي الله عنه يرسل رسالة يأمر الرعية فيها بطاعة الوالي.

البيان والبلاغة: في النَّص تعريض؛ حيث إن ظاهرها أمر للرعية ولكن المتأمل للنص يجد أنه احتوى على أمر للوالي كذلك؛ فكل عبارة أمر من الخليفة للرعية كانت أمرًا للوالي كذلك. يبدأ الفاروق رسالته البليغة بقوله: (**إِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَبَا مُوسَى**)، وقد استخدم منذ البداية أسلوب التوكيد بـ (**إِنَّ**) و(**قَدْ**) وصيغة فعَّلت في قوله: (**وَلَّيْتُ**) وهي هنا للتعدية، وجاء أسلوب التوكيد في العبارة مناسبًا للقرار الصادر من أمير المؤمنين رضي الله عنه للرعية بضرورة الاستجابة لأمره وللوالي الجديد. ثم يبدأ بالجملة الاستئنافية: (**لِيَأْخُذَ مِنْ قَوِيِّكُمْ لِضَعِيفِكُمْ**): استخدم لام التعليل؛ ليبين لهم وللوالي المهام التي من أجلها نَصَّبَهُ عليهم واليًا، العبارة كناية عن العدل الذي دعا

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٧١، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٦٠/ ٣٨، وابنُ كثيرٍ في «البداية والنِّهايةِ» ١٠/ ٤٩.

الوالي لإقامته بين أفراد الرعية؛ فقد يقع الحق للقوي على الضعيف، ولكن من استطاع أن ينصر الضعيف المظلوم، سهل عليه نصر القوي المظلوم. وفي العبارة السابقة إيجاز؛ فقد أرسى مبادئ المساواة في جملة واحدة. وفي القول - أيضًا - تناص خفي بقول الصديق رضي الله عنه في خطبته حين تولى الخلافة: (والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله)، وفيه - أيضًا - تناص خفي بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم الواردة في نصر المظلوم؛ مثل: «**أُمِرَ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ يُضْرَبُ فِي قَبْرِهِ مِئَةَ جَلْدَةٍ، فَلَمْ يَزَلْ يَسْأَلُهُ وَيَدْعُو حَتَّى صَارَتْ جَلْدَةً وَاحِدَةً، فجُلِد جلدةً واحدةً، فَامْتَلأَ قَبْرُهُ عَلَيْهِ نَارًا، فَلَمَّا ارْتَفَعَ عَنْهُ وَأَفَاقَ، قَالَ: عَلامَ جَلَدْتُمُونِي؟ فقِيلَ له: إِنَّك صَلَّيْت صَلاةً واحِدَةً بِغَيْرِ طَهُورٍ، وَمَرَرْت عَلَى مَظْلُومٍ فَلَمْ تَنْصُرْهُ**». وجمع بين المتضادين: (**قَوِيُّكُمْ لِضَعِيفِكُمْ**)؛ لتأكيد المعنى وتوضيحه. وقوله: (**وَلِيُقَاتِلَ بِكُمْ عَدُوَّكُمْ**): جاء بقتال الأعداء بعد إقامة العدل الداخلي؛ لبيان أن الهدف المنشود للمسلم بعد أن ينال حقوقه الداخلية من مساواة وعدل أن يتجه لنصرة دين الله. وكلمة (**عَدُوَّكُمْ**): نكرة للعموم والشمول، وما عدو المسلم إلا عدو الله؛ فجاء في هذه العبارة الوجيزة ذكر الفاروق لفريضة الجهاد في سبيل الله - تعالى -، ويؤكده قوله: (**وَلِيَدْفَعَ عَنْ دِينِكُمْ**)، فما يكون دفاع الراعي عن دين الله إلا برعية من الأقوياء الأشداء على أعداء الله وأعدائهم، فجاء ترتيب الدفع عن الدين بعد قتال الأعداء مناسبًا؛ لأن الرعية هي الدرع الواقي الذي يصد به الراعي عن دين الله، وهي - أيضًا - من الكلمات الجامعة؛ فالدفع عن الدين لا يكون بالقتال فقط، بل بالقدوة الحسنة ومراعاة الله سِرًّا وعَلَنًا، ويكون بدرء الفتن والعمل على إقامة شرع الله في النَّاس. وقوله: (**وَلِيَجْبِيَ لَكُمْ فَيْئَكُمْ**): انتقل إلى الحديث عن الفيء ونحوه، مؤخِّرًا رتبتها من حيث الانتقال الطبيعي للأمر في الشئون العادية؛ فإن الغنائم - في الأغلب - لا تأتي

إلا بعد قتال، وكذلك أخَّرها من حيثُ السمو؛ فإن المسلم لا يقاتل أعداء الله إلا للدفع عن دين الله، فليس الأمر بالذي يسعى له المؤمن المخلص. وقوله: (**ثُمَّ يَقْسِمَهُ فِيكُمْ**): هي - أيضًا - مهمة من مهام الوالي؛ فلابد أن يكون هو القائم على جمع الغنائم، وهو القائم أيضًا على تقسيمها. ويلاحظ أن الفاروق استخدم (الواو العاطفة) في النَّص كله، وفي الجملة الأخيرة عطف بـ (**ثم**) ومن المتعارف عليه أن (الواو) تستخدم للترتيب والتعقيب أما (ثم) فتستخدم للترتيب - أيضًا - مع التراخي في الزمن؛ وكأن الفاروق رضي الله عنه يوجه رسالة خفية أن يكون هَمُّ المسلم أولا وأخيرًا دين الله، أما تأخير الفيء؛ فلعدم أهميته، ولصرف نظر المسلم عنه. كما أنه اعتمد على السجع في النغمة الموسيقية (**كم**) في (**عليكم، قويكم، ضعيفكم، بكم، عدوكم، دينكم، فيئكم، فيكم**)؛ لجذب انتباه المتلقي. كما أن بين الأزواج التالية: (**يأخذ، يدفع**) و(**يجبي، يقسم**): طباقا يبرز المعنى ويؤكده.

[٤٣٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ

«أَنْ لَا يَدْخُلَ الرَّجُلُ الْحَمَّامَ إِلَّا بِمِئْزَرٍ، وَلَا تَدْخُلَهُ امْرَأَةٌ إِلَّا مِنْ سَقَمٍ، وَعَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّورِ، وَاجْعَلُوا اللَّهْوَ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: الْخَيْلِ، وَالنِّسَاءِ، وَالنِّضَالِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النَّص من النَّصوص المجمَّعة، أي: إن الفاروق رضي الله عنه لم ينطق به في مشهد واحد، وهو موجه لأمراء الأجناد. وأمير الجند - بالمصطلح الحديث -: قائد الكتيبة التي كانت توجه للفتح ونشر الإسلام. ولعل الفاروق رضي الله عنه استشعر خطورة تَأثُّر الجند بعادات وتقاليد أهل البلاد المفتوحة فأراد أن يرشدهم.

البيان والبلاغة: احتوى النصُّ على عدة رسائل من أمير المؤمنين رضي الله عنه: الرسالة الأولى: **(أَنْ لَا يَدْخُلَ الرَّجُلُ الْحَمَّامَ إِلَّا بِمِئْزَرٍ)**: استخدم أسلوب القصر بالنفي والاستثناء، والغرض منه التخصيص والتحذير؛ فقد ضَمَّنَ في رسالته الأولى معنى الأمر والتحذير. وفي الرسالة الأولى تناص ظاهر بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَلا يَدْخُلَ الحَمَّامَ إلا بِمِئْزَرٍ**»، وفي ذلك أمر للرجال بحفظ عوراتهم؛ فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مِمَّا مَلَكَتْ يَمِينُكَ**»، فَقَالَ: الرَّجُلُ يَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: «**إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ فَافْعَلْ**»، قلت: فالرَّجُلُ يَكُونُ خَالِيًا؟ قَالَ: «**فَاللهُ**

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١١٣٣)، وابنُ الجعدِ في «مُسندِه» (٢٣٧٤)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١١٨٦)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٧٣٨٧)، والنَّص المذكورُ جمعِي.

أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ»، وذلك درءًا للفتن والشبهات والشهوات. والرسالة الثانية: (**وَلَا تَدْخُلُهُ امْرَأَةٌ إِلَّا مِنْ سَقَمٍ**): فيها عطف على الرسالة الأولى، وفيها - أيضا - أسلوب قصر الغرض منه التخصيص والتحذير. والأسلوب الإنشائي (**وَلَا تَدْخُلُهُ**): نهي، الغرض منه التحذير، ولكن التخصيص في الأولى كان بالسماح للرجل بدخول الحمام إن لبس مئزره، أما هنا نهي للمرأة عن دخول الحمام إلا لِعِلَّةٍ يُرجى الشفاء منها؛ وقد صح عن النبي ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُدْخِلْ حَلِيلَتَهُ الْحَمَّامَ**»، وعن أبي المليح الهذلي، أن نسوة من أهل حمص استأذن على عائشة، فقالت: لعلكن من اللواتي يدخلن الحمامات، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ وَضَعَتْ ثِيَابَهَا فِي غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا، فَقَدْ هَتَكَتْ سِتْرَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ**». والمانع هو ذاته في الرسالة الأولى والدافع هو الحفاظ على المرأة. والرسالة الثالثة: (**وَعَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّورِ**): أسلوب إنشائي أمر الغرض منه الحث والإرشاد، وهذه الرسالة من الرسائل الجامعة فقد اختصر الفاروق رضي الله عنه حديثا طويلا بجملة مختصرة فإنَّ من موضوعات سورة النور تضمنها العديد من الآداب الاجتماعية التي يجب أن يتمسك بها المؤمنون في حياتهم العامة والخاصة؛ كالاستئذان عند دخول البيوت، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، وحرمة اختلاط الرجال بالنساء الأجنبيات، وآداب الستر والحجاب وعدم التبرج، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة من العفاف والستر والنزاهة والطهر، كل هذه الأوامر اقتصرها الفاروق بضرورة تعلم المرأة هذه السورة؛ فبما أن المرأة هي المربية فلابد لها أن تدرس هذه المعاني التي تضمنتها السورة؛ لتبثَّها في أبنائها. والرسالة الرابعة: (**وَاجْعَلُوا اللَّهْوَ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: الْخَيْلِ وَالنِّسَاءِ وَالنِّضَالِ**): بدأ بأسلوب إنشائي أمر، والغرض منه الحث والإرشاد، واللهو المقصود به هنا: اللهو المباح، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ ذكر الكثير من حالات اللهو المباح، ولم يقتصر الأمر على الأشياء التي ذكرها الفاروق رضي الله عنه؛ فقد ورد عن النبي

ﷺ أنه سابق السيدة عائشة رضي الله عنها، وكذلك حين أذن النبي ﷺ لها برؤية الحبشة وهم يلعبون بالحراب في المسجد، وغير ذلك من مظاهر اللهو المباح التي تضمنتها السيرة العطرة. والمتأمل لحديث الفاروق عمر رضي الله عنه يجد فيه تناصًّا بالحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ لَهْوٌ وَلَعِبٌ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَرْبَعَةً: مُلَاعَبَةُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَتَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ، وَمَشْيُ الرَّجُلِ بَيْنَ الْغَرَضَيْنِ، وَتَعْلِيمُ الرَّجُلِ السِّبَاحَةَ**». وقد خصَّ الفاروق رضي الله عنه (**الخيل**) إشارة إلى الفروسية، فالفروسية رياضة النبلاء والقادة؛ لأنها تدل على شجاعة وثبات ورباطة جأش وقوة عزيمة. ولقد حث الشرع على أن يكون الترفيه البدني مُعِينًا على الاستعداد العسكري للجهاد، وأجاز بذل العوض فيه. ثم أشار إلى (**النساء**)؛ لأن لهو الرجل مع نسائه يعصمه من النظر المحرم والفعل المحرم، وفيه إشارة خفية وأمر للرجل بملاعبة زوجته وملاطفتها، وذم من يتبع سبيلا غير ذلك. ونهاية أشار إلى (**النضال**)، والمقصود من النضال: الرمي، وهو من أجمل وأمتع وسائل الترفيه الرمي بالسلاح للتمرين على الإصابة والدقة؛ فقد ثبت في صحيح مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، **أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**».

والمتأمل في اللهو الذي حض عليه الفاروق رضي الله عنه يجد الغرض منه الاستعداد للجهاد سواء بممارسة رياضة الفروسية، أو القدرة على إصابة الهدف بممارسة رياضة الرمي، أو عدم صرف ذهن المسلم إلى الشهوات المحرمة بحضه على اللهو مع نسائه. وقد مرَّت بعض أجزاء هذا النصِّ في النص رقم أربعة عشر وخمسمئة.

[٤٣٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ، فِي رِجَالٍ غَابُوا عَنْ نِسَائِهِمْ

«أَنِ ادْعُ فَلَانًا وَفُلَانًا، نَاسًا قَدِ انْقَطَعُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَخَلَوْا مِنْهَا، فَإِمَّا أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى نِسَائِهِمْ، وَإِمَّا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَيْهِنَّ بِنَفَقَةٍ، وَإِمَّا أَنْ يُطَلِّقُوا وَيَبْعَثُوا بِنَفَقَةِ مَا مَضَى»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه أحد أمراء الجند في شأن جنود طال بُعدهم عن نسائهم، مبينا لهم ما يجب على هؤلاء الجنود.

البيان والبلاغة: قوله: (أَنِ ادْعُ): سبق بيان (أَنْ) هذه وفائدتها بالتفصيل عند شرح النص رقم تسعة وأربعين وثلاثمئة، فراجعه إن أردت الاستزادة. وقد بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بالأمر الصريح تعظيما للخطب وتأكيدا على أميره للامتثال. وقوله: (**فَلَانًا وَفُلَانًا، نَاسًا قَدِ انْقَطَعُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَخَلَوْا مِنْهَا**): هذه العبارة للراوي وليست لأمير المؤمنين رضي الله عنه؛ فإنَّ أمير المؤمنين لابدَّ وأن يصرِّح بأسماء هؤلاء الجنود، وإلا لم تحصل الفائدة من الكتاب، إلا أنَّ الراوي لم يصرح باسمهم لعدم وجود فائدة من ذلك؛ إذ الحكم عامٌّ فيهم وفي غيرهم، ولذلك نصَّ على وصفهم؛ لأنه ما يتعلق به الحكم. وقوله: (**فَإِمَّا ... وَإِمَّا ... وإِمَّا ...**): أسلوب تخيير، واستخدم

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٢٣٤٦)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٩٣٥٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٥٧٠٦).

- هنا - التفصيل والإطناب زيادة في البيان وإقامة للحجة على المخاطب. وقوله: (**يُطَلِّقُوا وَيَبْعَثُوا بِنَفَقَةِ مَا مَضى**): (**الواو**) بين (**يُطَلِّقُوا**) و(**يَبْعَثُوا**) دليل على تتابع الفعل.

[٤٣٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

فِي امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ أَسْلَمَتْ، وَلَمْ يُسْلِمْ زَوْجُهَا

«أَنْ خَيِّرُوهَا: فَإِنْ شَاءَتْ فَارَقَتْهُ، وَإِنْ شَاءَتْ قَرَّتْ عِنْدَهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذه فتوى من أمير المؤمنين رضي الله عنه في شأن امرأة أسلمت وبقي زوجها على الشرك.

البيان والبلاغة: بدأ بالأمر كما في النص السابق، ولنفس الغرض. ثم استخدم أسلوب الشرط بيانا أنَّ الأمر لا يحتمل سوى هذين الأمرين، وفصَّل في الشرطين وقسَّم إمعانا في البيان والإيضاح كيلا يلتبس الحكم على المتلقِّي. وقوله: (**وَإِنْ شَاءَتْ قَرَّتْ عِنْدَهُ**): يقصد أن تبقى عنده حتى تنتظر إسلامه، إن آنست فيه خيرًا، وحفظت نفسها منه.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٠٠٨٣) و(١٢٦٦٠).

[٤٣٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجُرَّاحِ رضي الله عنه[١] وَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهِ عَنْ رَجُلٍ أَقَرَّ بِالزِّنَا، وَادَّعَى جَهْلَهُ بِالتَّحْرِيمِ

«إِنْ كَانَ عَلِمَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَهُ فَحُدُّوهُ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَعْلَمْ فَعَلِّمُوهُ، وَإِنْ عَادَ فَحُدُّوهُ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذه فتوى أخرى من أمير المؤمنين رضي الله عنه في شأن رجل زنا وأقرَّ بالزنا، ثمَّ ادعى جهله بالتحريم لقرب عهده بالإسلام.

البيان والبلاغة: يؤكِّد هذا الكتاب أن الجهل بالشيء يسقط الذنب، وإن كان علم به فيعذب بما اقترفت يداه، وإن لم يعلم يجب أن نعلمه بالأمر؛ كي لا يقع فيه ثانية، وإن عاد وفعله، يعد استهتارا بأحكام الله فيجب أن يعاقب. واقترن جواب الشرط بالفاء؛ لعظم الأمر، ولوقوع الفعل في صيغة الماضي، وللدلالة على امتداد العمل به في زمن التكلم والمستقبل. وقوله: **(فَحُدُّوهُ)**: كررها مرتين حثًّا على الحزم عند التجاوز، والجرأة في معالجة الباطل. وقد استخدم هنا أسلوب الشرط والتفصيل كما جاء في النص السابق، ولنفس الغرض.

١- قالَ ابنُ حجرٍ في «التَّلخيصِ الحبيرِ» ٤/ ١١٣: هكذا أخرجهُ عبدُ الرَّزَّاقِ عنِ ابنِ عُيَينةَ. وأخرجهُ أيضًا عن مَعمَرٍ عنْ عَمرِو بنِ دينارٍ وزادَ: «إنَّ الَّذي كتبَ إلَى عُمرَ بذلكَ هو أبو عُبيدةَ بنُ الجرَّاحِ». وفي روايةٍ لهُ: أنَّ عثمانَ هو الَّذي أشارَ بذلكَ على عُمرَ، رضيَ اللهُ عَنْهُمَا.

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٣٦٤٣)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٩٣٥٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٥٧٠٦).

[٤٣٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه

«أَنْ أَعْطِ النَّاس أَعْطِيَتَهُمْ وَأَرْزَاقَهُمْ» فَكَتَبَ إِلَيْهِ حُذَيْفَةُ: إِنَّا قَدْ فَعَلْنَا، وَبَقِيَ شَيْءٌ كَثِيرٌ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: «إِنَّهُ فَيْؤُهُمُ الَّذِي أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ، لَيْسَ هُوَ لِعُمَرَ وَلَا لِآلِ عُمَرَ، اقْسِمْهُ بَيْنَهُمْ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا خطاب حازم جازم شديد اللهجة من أمير المؤمنين إلى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يأمره فيه أن يقسم في الناس فيئهم لا يبقي منه شيئا.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه خطابَه بـ (أَنْ) التفسيرية التي سبقت الإشارة إليها قريبا، ثم أتبع ذلك بأمر واضح لحذيفة رضي الله عنه بأن يقسم في الناس حقوقهم المالية. وفي قوله: (**أَنْ أَعْطِ النَّاس أُعْطِيَتَهُمْ**)، و(**إِنَّهُ فَيْؤُهُمُ الَّذِي أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ**): تحقق الانسجام الصوتي بين الفعل والمصدر، واشتقاق للفظ من اللفظ، وكناية عن طلبه تحقيق العدل بين النَّاس وإعطاء الحقوق لأهلها. وقوله: (**إِنَّهُ فَيْؤُهُمُ**): بدأ بالتأكيد وضمير الشأن؛ لأنَّ المخاطب شاك في صواب اجتهاد أمير المؤمنين؛ فناسب ذلك التأكيد. ثم أطنب في البيان فقال مثبتا: (**الَّذِي أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ**)، ثم أعاد نافيا (**لَيْسَ هُوَ لِعُمَرَ وَلَا لِآلِ عُمَرَ، اقْسِمْهُ بَيْنَهُمْ**)، والإطناب يوضح مقصده النبيل، وأنه لا يبتغي شيئا لنفسه، ولا لأهله.

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٢٩٩، وعنهُ البلاذريُّ في «فُتُوحِ البُلدانِ» ص٤٣٥.

[٤٣٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ دَخَلَ الْحَمَّامَ فَتَدَلَّكَ بَعْدَ النُّورَةِ بِثَخِينِ عُصْفُرٍ مَعْجُونٍ بِخَمْرٍ

«بَلَغَنِي أَنَّكَ تَدَلَّكْتَ(١) بِخَمْرٍ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ ظَاهِرَ الْخَمْرِ وَبَاطِنَهُ، كَمَا حَرَّمَ ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ، وَقَدْ حَرَّمَ مَسَّ الْخَمْرِ إِلَّا أَنْ تُغْسَلَ كَمَا حَرَّمَ شُرْبَهَا، فَلَا تُمِسُّوهَا أَجْسَادَكُمْ فَإِنَّهَا نَجَسٌ، وَإِنْ فَعَلْتُمْ فَلَا تَعُودُوا».

فَكَتَبَ إِلَيْهِ خَالِدٌ: إِنَّا قَتَلْنَاهَا، فَعَادَتْ غَسُولًا غَيْرَ خَمْرٍ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: «إِنِّي أَظُنُّ آلَ الْمُغِيرَةِ قَدِ ابْتُلُوا بِالْجَفَاءِ، فَلَا أَمَاتَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ(٢)!»(٣).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين قائد جيوشه خالد بن الوليد رضي الله عنه منكرا عليه تدلُّكه بشيء فيه خمر، ورادًّا عليه اجتهاده في ذلك.

١- الدَّلُوكُ بِالفَتحِ: اسمٌ لِمَا يُتَدَلَّكُ به مِن المَغسُولَاتِ؛ كالعَدَسِ، والأُشْنانِ، وَالأشياءِ المُطيِّبة. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (دلك).

٢- في «غريبِ الحديثِ» لأبي عُبيدٍ: «وَإِنِّي لَأَظُنُّكُمْ آلَ المُغِيرَةِ ذَرْءَ النَّارِ»، وقالَ بعدَها: يُروَى «ذَرْء» بِالهمزةِ، ويُروَى «ذَرْو» بالواوِ. فمَن قالَ: «ذَرْء» بالهمزةِ؛ فإنَّه أرادَ خَلْقَ النَّارِ؛ أي: إنَّكُم خُلِقتُم لها. مِن قَولِهِم: ذَرَأَ اللهُ الخَلْقَ يَذْرَؤُهُمْ ذَرْءًا. ومَن قالَ: «ذَرْو» بِالواوِ؛ فهو مِن: ذَرَا يَذْرُو. قالَ تعالَى: {تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} أي: إنَّكُم تُذْرَوْنَ في النَّارِ ذَرْوًا.

٣- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٦٦، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ١٦/ ٢٦٥، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٣٥٩، وابنُ العديمِ في «بُغيةِ الطَّلبِ» ٧/ ٣١٥٩، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ١٠/ ٤٥.

البيان والبلاغة: قوله: (**بَلَغَنِي أَنَّكَ**): لم يذكر من أبلغه ذلك لعدم الفائدة من ذكره، واستعاض عن ذلك بتأكيد علمه عن طريق حرف النصب والتوكيد (**أنَّ**). وفي قوله: (**كَمَا حَرَّمَ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ**) تأثر بالقرآن الكريم وبقوله - تعالى -: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠]. وقوله: (**وَقَدْ حَرَّمَ مَسَّ الْخَمْرِ إِلَّا أَنْ تُغْسَلَ كَمَا حَرَّمَ شُرْبَهَا، فَلَا تُمِسُّوهَا أَجْسَادَكُمْ فَإِنَّهَا نَجَسٌ، وَإِنْ فَعَلْتُمْ فَلَا تَعُودُوا**): إطناب استعمل فيه أسلوب التفصيل والتقسيم، بغرض الإمعان في البيان والإيضاح والتأكيد. وقوله: (**فَإِنَّهَا نَجَسٌ**): هذا هو المقصود من الجمل السابقة؛ ولذلك أكَّده بـ (**إنَّ**) والجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبوت الحكم واستقراره. وقول عمر رضي الله عنه: (**ابْتُلُوا بِالْجَفَاءِ**)، أي: بقسوة القلب، والميل إلى العصيان. ولم يبن الفعل للفاعل؛ تأدبا مع الله - تعالى - إذ لا يُنسب الشر إليه. وقوله: (**فَلَا أَمَاتَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ!**): إطنابٌ ظاهره الدعاء، وفيه تعريض بالتحذير أن يقع فيه أو يستمر عليه.

[٤٣٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ أَمِيرًا، وَابْنَ مَسْعُودٍ مُعَلِّمًا وَوَزِيرًا، وَقَدْ جَعَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ عَلَى بَيْتِ مَالِكُمْ، وَإِنَّهُمَا لَمِنَ النُّجَبَاءِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَاسْمَعُوا لَهُمَا وَأَطِيعُوا، وَاقْتَدُوا بِهِمَا، وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِابْنِ أُمِّ عَبْدٍ[١] عَلَى نَفْسِي، وَبَعَثْتُ عُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ[٢] عَلَى السَّوَادِ[٣]، وَرَزَقْتُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ شَاةً، فَاجْعَلْ شَطْرَهَا وَبَطْنَهَا لِعَمَّارٍ، وَالشَّطْرَ الْبَاقِي بَيْنَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ»[٤].

١- وهو عبدُ الله بنُ مَسعودٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ -.

٢- عُثمانُ بنُ حُنَيفِ بنِ وَاهِبِ الأَوْسِيُّ الأنصاريُّ. قالَ التِّرمذيُّ: إنَّه شهد بدرًا. وقالَ الجمهورُ: أوَّلُ مشاهدِه أُحُدٌ. عمِل لعمرَ، ثُمَّ لِعليٍّ - رضيَ اللهُ عنهما -، وولَّاهُ عُمرُ بنُ الخطَّابِ - رضيَ اللهُ عنهُ - مساحةَ الأرضين وجِبايَتَها، وضربَ الخراجَ والجزيةَ على أهلِها، وولَّاهُ عليٌّ - رضيَ اللهُ عنهُ - البصرةَ، فأخرجهُ طلحةُ والزُّبيرُ - رضيَ اللهُ عنهُما - حينَ قدِما البصرةَ، ثُمَّ قدِم عليٌّ - رضيَ اللهُ عنهُ -، فكانتْ وقعةُ الجَمَلِ، فلمَّا خرجَ عليٌّ - رضيَ اللهُ عنهُ - مِنَ البصرةِ ولَّاها عبدَ اللهِ بنَ عبَّاسٍ - رضيَ اللهُ عَنْهُمَا -. سكنَ عثمانُ بنُ حُنَيفٍ الكوفةَ، وبقِي إلى زمانِ مُعاويةَ. «الاستيعاب» ٣/ ١٠٣٣، و«الإصابة» ٤/ ٣٧١- ٣٧٢.

٣- (قالَ أبو عُبَيدٍ في «الأموال» (١٨٢): (يُقالُ: إنَّ حَدَّ السَّوَادِ الَّذي وقعتْ عليهِ المِساحةُ مِن لَدُنْ تُخُومِ المَوصِلِ، مَادًّا معَ الماءِ إلى ساحلِ البحرِ، بِبِلَادِ عَبَّادَانَ مِن شَرْقِيِّ دِجلةَ، هذا طُولُهُ. وأمَّا عَرْضُهُ فَحَدُّهُ مُنقطَعُ الجبلِ مِن أرضِ حُلْوانَ، إلى مُنتهَى طُرُقِ القادسيَّةِ المُتَّصِلُ بِالعُذَيْبِ مِن أرضِ العربِ، فهذه حُدُودُ السَّوَادِ، وعليهِ وَقَعَ الخراجُ).

ونقلَ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٥٠١ عنِ الكَلْبيِّ قولَهُ: إنَّما سُمِّي السَّواد؛ لأنَّ العربَ حينَ جاؤُوا نَظرُوا إلى مِثلِ اللَّيلِ مِن النَّخلِ والشَّجرِ والماءِ، فَسمَّوهُ سَوَادًا.

٤- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٢/ ٢٥٥، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٢٩٠٣)، وأحمدُ في «فضائلِ الصَّحابةِ» (١٥٤٧)، والفَسَوِيُّ في «المعرفةِ والتَّاريخِ» ٢/ ٥٣٣، وابنُ أبي خيثمةَ في «تاريخِه» (٣٥٤٤)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١/ ١٦٣، وابنُ أبي عاصمٍ في «الآحادِ والمثاني» (٢٤٦)، والطَّحاويُّ في «شرحِ مُشكِلِ الآثارِ» (٢٧٧٠)، والطَّبرانيُّ في «المُعجَمِ الكبيرِ» (٨٤٧٨)، والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٥٦٦٣)، والبيهقيُّ في «المَدخَلِ إلى السُّنَنِ الكُبرَى» (١٠١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين ﵁ أهل الكوفة مبينا منزلة من أرسل إليهم من الأمراء والعلماء، وموضحًا مهمَّة كلٍّ منهم.

البيان والبلاغة: يبين أمير المؤمنين ﵁ لأهل الكوفة ما أكرمهم به من أمراء وعلماء، ثم يبين للآخرين حدود الإدارة لإمارتهم، فحدد الأمير والوزير والمعلم ومسئول بيت المال، ووضح للرعية قدر من اختار لهم بأنهم أصحاب الحبيب محمد ﷺ وأنهم من أهل بدر - رضوان الله عليهم -، وأنه آثرهم بهم على نفسه. وبيَّن لهم عطاءهم؛ كي يسد باب التكسب على أيديهم. فقوله: **(أَمَّا بَعْدُ)**: فصل الخطاب، يستخدم للدخول إلى صلب الموضوع والتنبيه إلى ما سيأتي أو للانتقال من موضوع إلى آخر، والتقدير: انتبهوا لما سأذكر لكم. وقوله: **(أميرا ... وزيرا)**: بين اللفظين سجع أعطى الحديث جرسا حُلوا، وأسهم في تقوية وإبراز المعنى. وكذلك في قوله: **(شَطْرَهَا وَبَطْنَهَا)**. وقد صدَّر أمير المؤمنين ﵁ جُلَّ جمل النصِّ بالمؤكِّدات؛ كي لا يترك ذرة من شكٍّ في نفس السامع نحو هؤلاء الأمراء والعلماء الذين سيكونون قادة لتلك النواحي، ولذات السبب أطنب في بيان المعنى مستعملا أسلوب التفصيل والتقسيم.

[٤٤٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيِّ[١] رضي الله عنه وَعُمَّالِهِ

«أَنْ لَا يَجُدَّ أَمِيرُ الْجَيْشِ، وَلَا أَمِيرُ سَرِيَّةٍ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى يَطْلُعَ الدَّرْبَ قَافِلًا، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَحْمِلَهُ الْحَمِيَّةُ عَلَى أَنْ يَلْحَقَ بِالْمُشْرِكِينَ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه عُمَير بن سعد الأنصاري وعمَّالَه في شأن إقامة الحدود في أرض الحرب.

البيان والبلاغة: قوله: (أَنْ لا يَجُدَّ): (أنْ) هي التفسيرية التي سبق الحديث عنها، وقد بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بالنهي الصريح المباشر لأهمية الأمر وخطورته. وقوله: (**أَنْ لَا يَجُدَّ أَمِيرُ الْجَيْشِ، وَلَا أَمِيرُ سَرِيَّةٍ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**): نكَّر الكلمات (أمير) و(**رجلا**) في سياق النهي لإفادة العموم. و(**حتَّى**) في قوله: (**حَتَّى يَطْلُعَ الدَّرْبَ قَافِلا**) هي الغائية، بيَّن فيها غاية ونهاية هذا الحظر والنهي الذي نهى عنه. ثم أطنب مؤكِّدا ومبيِّنا سبب هذا النهي؛ فقال: (**فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَحْمِلَهُ الْحَمِيَّةُ عَلَى أَنْ يَلْحَقَ بِالْمُشْرِكِينَ**)، واستعمل المصدر المؤول في قوله (**أن تحمله**) و(**أن يلحق**) لما له من

١- عُمَيْرُ بنُ سعدٍ الأنصاريُّ الأوسيُّ، كانَ يُقالُ لهُ: (نَسِيجُ وَحْدِهِ)، سَمَّاهُ بهذا عمرُ لإعجابِه به. صحِبَ رسولَ الله -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ-، وهو الَّذي رفعَ إلى النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ- كلامَ الجُلَاسِ بنِ سُوَيدٍ، وكانَ يتيمًا في حِجْرِه، وشهِد فتوحَ الشَّامِ، واستعملهُ عمرُ على حمصَ إلى أن ماتَ. وكانَ مِن الزُّهَّادِ، وتُوفِّي في مُلكِ مُعاويةَ. «الإصابة» ٤/ ٥٩٦.

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٣٧٠)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكبرى» (١٨٢٢٦).

ميزة في بيان زمن الفعل وفاعله. وهذا التوجيه مأخوذ من أمر النبي ﷺ، كما جاء في سنن أبي داود - وغيره - عن جنادة بن أبي أمية، قال: كنا مع بسر بن أرطاة في البحر، فأتي بسارق يقال له: مِصْدَر، قد سرق بختية، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَا تُقْطَعُ الْأَيْدِي فِي السَّفَرِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَقَطَعْتُهُ**».

[٤٤١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَأُمَرَاءِ الْكُوفَةِ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ جَاءَنِي مَا بَيْنَ الْعُذَيْبِ[١] وَحُلْوَانَ[٢]، وَفِي ذَلِكُمْ مَا يَكْفِيكُمْ إِنِ اتَّقَيْتُمْ وَأَصْلَحْتُمْ، واجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ مَفَازَةً»[٣].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين أميره سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأمراء الكوفة، يخبرهم بفتح ما بين العُذيب وحُلوان.

البيان والبلاغة: قوله: **(أَمَّا بَعْدُ)**: سبق الإشارة إليها وبيان فائدتها. وقوله: **(فَقَدْ جَاءَنِي)**: أكد الكلام بـ **(قد)** الدالة على التحقيق. وقوله: **(ما بين ... و ...)**: تفيد تحديد المكان، إن كان المقصود المكان، والزمان إن كان المقصود الزمان. وقوله: **(وَفِي ذَلِكُمْ مَا يَكْفِيكُمْ إِنِ اتَّقَيْتُمْ وَأَصْلَحْتُمْ)**: تقدم جواب الشرط على فعل الشرط؛ تأكيدا عليه وتخصيصا لمعناه.

١- العُذَيْبُ: تصغيرُ العَذْبِ، وهو الماءُ الطَّيِّبُ. وهو ماءٌ بينَ القادسيَّةِ والمُغِيثَةِ، بينَه وبينَ القادسيَّةِ أربعةُ أميالٍ، وإلى المُغِيثَةِ اثنانِ وثلاثونَ ميلًا، وقيلَ: هو وادٍ لبني تميمٍ. وهو مِن منازلِ حاجِّ الكوفةِ، وقيلَ: هو حدُّ السَّوادِ. «معجم البلدان» ٤/ ٩٢.

٢- حُلْوانُ، بِالضَّمِّ ثُمَّ السُّكونِ: وهو اسمٌ لِعِدَّةِ مواضعَ، أبرزُها: حُلْوَانُ العراقِ؛ وهي في آخِرِ حدودِ السَّوادِ ممَّا يلي الجبالَ مِن بغدادَ. وأمَّا فتحُها فإنَّ المسلمينَ لَمَّا فرغوا مِن جَلُولاءَ، ضمَّ هاشمُ بنُ عتبةَ بنِ أبي وقَّاصٍ، وكانَ عمُّه سعدٌ قد سيَّرهُ على مقدمتِه إلى جريرِ بنِ عبدِ اللهِ في خيلٍ ورتَّبهُ بِجَلولاءَ، فنهضَ إلى حُلْوانَ، فهربَ يَزدجردُ إلى أصبهانَ، وفتحَ جريرٌ حُلْوانَ صُلحًا علَى أن كفَّ عنهم، وآمَنهم على ديارِهم وأموالِهم، ثمَّ مضى نحوَ الدِّينَوَرِ. «معجم البلدان» ٢/ ٢٩٠-٢٩١.

٣- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٤٥٣).

[٤٤٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه

«إِنْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ جَلُولَاءَ فَسَرِّحِ الْقَعْقَاعَ بْنَ عَمْرٍو[١] فِي آثَارِ الْقَوْمِ، حَتَّى يَنْزِلَ بِحُلْوَانَ فَيَكُونَ رِدْءًا لِلْمُسْلِمِينَ، وَيُحْرِزَ اللهُ لَكُمْ سَوَادَكُمْ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أميرُ المؤمنين قائدَ جيوشه سعدَ بن أبي وقاص رضي الله عنهما مبينا له الخطة التي ينبغي اتباعها حتى يكتمل فتح السواد.

البيان والبلاغة: استهلَّ عمرُ رضي الله عنه خطابه بالشرط الذي ينبغي ألا يحدث جوابه إلا بحدوثه، وهو فتح جلولاء. وأما الجواب فهو إرسال القعقاع بن عمرو في آثار القوم حتَّى يصل إلى حُلوان ليكون ظهيرا للمسلمين. وقوله: (**وَيَحْرِزَ اللهُ لَكُمْ سَوَادَكُمْ**): نسب الفعل إلى الله - سبحانه وتعالى - تأدبا مع الله - تعالى - وردًّا للفضل إلى أهله.

١- القَعْقاعُ بنُ عمرٍو التَّميميُّ، قيلَ: إنَّهُ شَهِدَ وفاةَ رسولِ الله - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ-. ولهُ أثرٌ عظيمٌ في قتالِ الفُرسِ في القادسيَّةِ وغيرِها. وكانَ أحدَ الأبطالِ المَذكورينَ، يُقالُ: إنَّ أبا بكرٍ قال: صوتُ القَعقاعِ في الجَيشِ خيرٌ مِن ألفِ رجلٍ. وشهِدَ الجملَ معَ عليٍّ، وكانَ الرَّسُولَ في الصُّلحِ يومئذٍ بينَ الفريقينِ، وسكنَ الكوفةَ. «تاريخ الإسلام» ٢/ ٣٧٨.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٣٤، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ٢١٥، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٣٤٥.

[٤٤٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه فِي أَمْرِ زُهْرَةَ بْنِ حَوِيَّةَ التَّمِيمِيِّ[١]

«تَعْمِدُ إِلَى مِثْلِ زُهْرَةَ - وَقَدْ صَلِيَ بِمِثْلِ مَا صَلِيَ بِهِ، وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْ حَرْبِكَ مَا بَقِيَ - تَكْسِرُ قَرْنَهُ[٢]، وَتُفْسِدُ قَلْبَهُ؟! أَمْضِ لَهُ سَلَبَهُ، وَفَضِّلْهُ عَلَى أَصْحَابِهِ عِنْدَ الْعَطَاءِ بِخَمْسِمِئَةٍ»[٣]، «أَنَا أَعْلَمُ بِزُهْرَةَ مِنْكَ، وَإِنَّ زُهْرَةَ لَمْ يَكُنْ لِيُغَيِّبَ مِنْ سَلَبٍ سَلَبَهُ شَيْئًا، فَإِنْ كَانَ الَّذِي سَعَى بِهِ إِلَيْكَ كَاذِبًا فَلَقَّاهُ اللهُ مِثْلَ زُهْرَةَ فِي عَضُدَيْهِ يَارَقَانِ، وَإِنِّي قَدْ نَفَّلْتُ كُلَّ مَنْ قَتَلَ رَجُلًا سَلَبَهُ»[٤].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين قائد جيشه سعد بن أبي وقاص في شأن زُهرةَ بن حويَّة التميمي - رضي الله عنهم أجمعين -، وقد منعه سعدٌ سلَبَه بعد أن اتهمه البعض بالغلول.

البيان والبلاغة: افتتح أمير المؤمنين كتابه إلى سعد رضي الله عنهما بسؤال استنكاري ينكر

١- زُهْرةُ بنُ حَوِيَّةَ - أو جَوِيَّةَ - التَّميميُّ، أوفدهُ مَلِكُ هَجَرَ على النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - فأسلمَ، ثمَّ شهِدَ القادسيَّةَ معَ سعدٍ، وكانَ على مُقدِّمةِ الجيشِ في القادسيَّةِ في قتالِ الفرسِ. وذكرهُ معَ سعدٍ في القادسيَّة ذكرًا جميلًا، كانَ سعدٌ يُرسِلُه للغارةِ واتِّباعِ الفرسِ، وهو الَّذي قَتَلَ جالينوسَ، وأخذَ سَلَبَهُ. وقيلَ: بل قتلَه كثيرُ بنُ شهابٍ، وبالقادسيَّةِ قُتِلَ زُهرةُ هذا. «الاستيعاب» ٢/ ٥٦٥.

٢- قَرْنُ الإنسانِ: جانبُ رأسِه. «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ (٧٥٦١).

٣- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٦٨، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٣١٤.

٤- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٦٨.

فيه ما فعله سعدٌ بزهرة بن حويَّة. وقوله: (**وَقَدْ صَلِيَ بِمِثْلِ مَا صَلِيَ بِهِ، وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْ حَرْبِكَ مَا بَقِيَ**): التنكير في الجملتين للتعظيم والتهويل، والتقدير: وقد صلِي بالأمور العظام ... وقد بقي لك من حربك هول شديد ... وقوله: (**تَكْسِرُ قَرْنَهُ**): كنَّى بالقرن عن البأس والقوة، وفي العبارة استعارة مكنية؛ حيث شبه زهرة بالكبش القوي النطَّاح، ثم حذف المشبه وأتى بشيء من لوازمه وهو القرن. وقوله: (**وَإِنَّ زُهْرَةَ لَمْ يَكُنْ لِيُغَيِّبَ مِنْ سَلَبٍ سَلَبَهُ شَيْئًا**): بدأ العبارة بـ (**إِنَّ**) المؤكِّدة لأنَّ المخاطب شاكٌّ في محتواها. وكذلك بالغ في التوكيد في قوله: (**وَإِنِّي قَدْ نَفَّلْتُ**): لأنَّ هذا الحكم يخالف ما حكم به سعدٌ في شأن زهرة رضي الله عنه .

[٤٤٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَسِرْ مِنْ شَرَافَ نَحْوَ فَارِسَ بِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ، وَاسْتَعِنْ بِهِ عَلَى أَمْرِكَ كُلِّهِ، وَاعْلَمْ فِيمَا لَدَيْكَ أَنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى أُمَّةٍ عَدَدُهُمْ كَثِيرٌ، وَعُدَّتُهُمْ فَاضِلَةٌ، وَبَأْسُهُمْ شَدِيدٌ، وَعَلَى بَلَدٍ مَنِيعٍ - وَإِنْ كَانَ سَهْلًا - كَؤُودٍ[١] لِبُحُورِهِ وَفُيُوضِهِ وَدَآدِئِهِ، إِلَّا أَنْ تُوَافِقُوا غَيْضًا مِنْ فَيْضٍ.

وَإِذَا لَقِيتُمُ الْقَوْمَ أَوْ أَحَدًا مِنْهُمْ فَابْدَؤُوهُمُ الشَّدَّ وَالضَّرْبَ، وَإِيَّاكُمْ وَالْمُنَاظَرَةَ لِجُمُوعِهِمْ، وَلَا يَخْدَعُنَّكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ خَدَعَةٌ مَكَرَةٌ[٢]، أَمْرُهُمْ غَيْرُ أَمْرِكُمْ، إِلَّا أَنْ تُجَادُّوهُمْ. وَإِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى الْقَادِسِيَّةِ - وَالْقَادِسِيَّةُ بَابُ فَارِسَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَهِيَ أَجْمَعُ تِلْكَ الْأَبْوَابِ لِمَادَّتِهِمْ، وَلِمَا يُرِيدُونَهُ مِنْ تِلْكَ الْآصُلِ، وَهُوَ مَنْزِلٌ رَغِيبٌ خَصِيبٌ حَصِينٌ دُونَهُ قَنَاطِرُ[٣]، وَأَنْهَارٌ مُمْتَنِعَةٌ - فَتَكُونُ مَسَالِحُكَ[٤] عَلَى أَنْقَابِهَا، وَيَكُونُ النَّاسُ بَيْنَ الْحَجَرِ وَالْمَدَرِ عَلَى حَافَّاتِ الْحَجَرِ وَحَافَّاتِ الْمَدَرِ، وَالْجِرَاعُ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ الْزَمْ مَكَانَكَ فَلَا تَبْرَحْهُ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا أَحَسُّوكَ أَنْغَضْتَهُمْ وَرَمَوْكَ بِجَمْعِهِمُ الَّذِي يَأْتِي عَلَى

١- الكَؤُودُ: المُرتقى الصَّعبُ، وهي الصَّعُودُ. «تهذيب اللُّغة» للأزهريِّ ١٠/ ١٧٨.

٢- خَدَعَةٌ: جمعُ خادعٍ. ومَكَرَةٌ: جمعُ ماكرٍ. مِثلُ كافرٍ وكَفَرَةٍ، وفاجرٍ وفَجَرَةٍ.

٣- القنطرةُ: ما يُبنَى على الماءِ لِلعُبورِ عليه، والجِسْرُ أعمُّ منهُ؛ لأنَّه يكونُ بناءً وغيرَ بناءٍ. «معجم الفروق اللُّغوية» ص١٦٣.

٤- المَسالِحُ: جمعُ مَسْلَحةٍ، وهم قومٌ ذَوُو سِلاحٍ. والمَسْلَحةُ أيضًا كالثَّغْرِ والمَرْقَبِ، يكونُ فيهِ أقوامٌ يرقُبُونَ العدوَّ لِئلَّا يطرُقَهم، فإذا رَأَوْهُ أعلَمُوا أصحابَهم لِيَتأهَّبُوا لهُ. «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ (٧٤٨٤).

خَيْلِهِمْ وَرَجْلِهِمْ وَحَدِّهِمْ وَجِدِّهِمْ، فَإِنْ أَنْتُمْ صَبَرْتُمْ لِعَدُوِّكُمْ وَاحْتَسَبْتُمْ لِقِتَالِهِ وَنَوَيْتُمُ الْأَمَانَةَ رَجَوْتُ أَنْ تُنْصَرُوا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ لَا يَجْتَمِعُ لَكُمْ مِثْلُهُمْ أَبَدًا إِلَّا أَنْ يَجْتَمِعُوا، وَلَيْسَتْ مَعَهُمْ قُلُوبُهُمْ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى كَانَ الْحَجَرُ فِي أَدْبَارِكُمْ، فَانْصَرَفْتُمْ مِنْ أَدْنَى مَدَرَةٍ مِنْ أَرْضِهِمْ إِلَى أَدْنَى حَجَرٍ مِنْ أَرْضِكُمْ، ثُمَّ كُنْتُمْ عَلَيْهَا أَجْرَأَ وَبِهَا أَعْلَمَ، وَكَانُوا عَنْهَا أَجْبَنَ وَبِهَا أَجْهَلَ، حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِالْفَتْحِ عَلَيْهِمْ، وَيَرُدَّ لَكُمُ الْكَرَّةَ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**آصُل**): قال في تاج العروس: «الأصْل: أسفلُ الشَّيء يقال: قعد في أصل الجبل، وأصل الحائط، وقلع أصل الشجر، ثم كثر حتى قيل: أصل كل شيء: ما يستند وجود ذلك الشيء إليه، فالأب أصل للولد، والنهر أصل للجدول، قاله الفيومي. وقال الراغب: أصل كل شيء قاعدته التي لو توهِّمَتْ مُرتَفِعَة ارتفع بارتفاعها سائره، وقال غيره: الأصل: ما يبنى عليه غيره ...ج: أُصُول لا يكَسَّرُ على غير ذلك، كما في المحكم، وآصُلٌ بالمَدِّ وضم الصادِ». وقوله: (**جِراع**): قال في تاج العروس: «وقيل: الجَرْعاءُ: رَمْلٌ يرتفع وسطه، وترِقُّ نواحيه. وقال ابن الأثِيرِ: الأَجْرَعُ: المكان الواسع الذي فيه حُزُونَةٌ وخُشُونَةٌ. والجَرَعُ، محركة: الجمع، أي جمع جَرَعَةٍ، بحذف الهاءِ، وقيل: الجَرَعُ مفرد مثل الأجرعِ، وجمعه أجراع وجِراع. وجمع الجرعة، بالفتح: جِرَاعٌ، بالكسر». وقوله: (**أَنْغَضتَّهم**): قال في مختار الصحاح: «نَغَضَ رَأْسَهُ من باب نَصَرَ وَجَلَسَ، أي: تحرَّك، و(**أَنْغَضَ**) رأسه حركه كالمتعجِّبِ من الشيء. ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١]. و(**نغض**)

١- رواهُ الطَّبَريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٩٠-٤٩١، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٦٢.

فلان رأسه، أي: حَرَّكَهُ يتعدَّى ويلزم». والمعني: إذا فعلتَ ذلك حرَّكتهم وأَحْفَظتهم عليك.

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه قائد جيوشه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مبينا له كيف يكون العمل في قتال الفرس وفتح القادسية.

البيان والبلاغة: قوله: (**أما بعد**): هي عبارة فصل الخطاب التي سبق الحديث عنها مرارا. وقوله: (**فَسِرْ مِن ...**): استهلَّ أمير المؤمنين رضي الله عنه حديثه بالأمر الصريح الجازم؛ لأنه يتحدَّث عن خطط حربية، وهو الأمر الذي لا يحتمل التلميح أو التأجيل. وقد بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بعدد من الأوامر الإيمانية المتعددة التي تدلُّ على شدة تعلقه بربه - سبحانه وتعالى - وأنَّه حريص على أن يكون القادة والجنود - كلاهما - مثلَه. وقوله: (**عَدَدُهُمْ كَثِيرٌ، وَعُدَّتُهُمْ فَاضِلَةٌ، وَبَأْسُهُمْ شَدِيدٌ**): هذه صفات متعددة للأمة المذكورة؛ لأنَّ الجمل بعد النكرات صفات، وقد عدَّد أمير المؤمنين الصفات وفصل بينها بالواو؛ لإرادة التعديد والتكثير وإبراز كلِّ صفة على حدة لما لها من أهمية بالغة. وقوله: (**وَإِذَا لَقِيتُمُ الْقَوْمَ أَوْ أَحَدًا مِنْهُمْ فَابْدَؤُوهُمُ...**): استعمل أداة الشرط إذا؛ لأنَّ الأمر متوقع أو متيقن الحدوث، لا شك فيه، والفاء في قوله: (**فَابْدَءُوهُمُ**): الفاء تفيد السرعة، وهذا هو الأليق بالحرب التي تقوم على الخفة والمباغتة. ثم أتبع ذلك بالتحذير فقال: (**إِيَّاكُمْ وَالْمُنَاظَرَةَ**)، والتحذير من أقوى صور النهي؛ إذ فيه إشارة إلى سوء عاقبة المخالفة للنهي والتحذير. وقوله: (**وَلَا يَخْدَعُنَّكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ خَدَعَةٌ مَكَرَةٌ**): أكَّد أمير المؤمنين رضي الله عنه نهيه هنا بعدَّة مؤكِّدات لأنَّ الأمر في غاية الأهمية؛ فمنها: نون التوكيد الثقيلة، والإطناب بتعليل النهي، و(**إنَّ**) المؤكِّدة، وتوالي الوصفين (**خَدَعَةٌ مَكَرَةٌ**) مع تقارب معناهما، والجملة الاسمية التي

تدل على ثبوت الحكم واستقراره. وقوله: (**فَإِنَّهُمْ خَدَعَةٌ مَكَرَةٌ، أَمْرُهُمْ غَيْرُ أَمْرِكُمْ**): عدَّد الأوصاف من غير عطف؛ بيانا لثبوت وتلازم تلك الصفات فيهم. وقوله: (**وَالْقَادِسِيَّةُ بَابُ فَارِسَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَهِيَ أَجْمَعُ تِلْكَ الْأَبْوَابِ لِمَادَّتِهِمْ، وَلِمَا يُرِيدُونَهُ مِنْ تِلْكَ الْآصُلِ**): كناية عن مركزية القادسية في بلاد الفرس، وأهميتها لهم. وقوله: (**وَلَيْسَتْ مَعَهُمْ قُلُوبُهُمْ**): كناية عن الجبن والخوف.

[٤٤٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَتَعَاهَدْ قَلْبَكَ، وَحَادِثْ جُنْدَكَ بِالْمَوْعِظَةِ وَالنِّيَّةِ وَالْحِسْبَةِ، وَمَنْ غَفَلَ فَلْيُحْدِثْهُمَا، وَالصَّبْرَ الصَّبْرَ، فَإِنَّ الْمَعُونَةَ تَأْتِي مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، وَالْأَجْرَ عَلَى قَدْرِ الْحِسْبَةِ، وَالْحَذَرَ الْحَذَرَ عَلَى مَنْ أَنْتَ عَلَيْهِ وَمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، وَأَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَاكْتُبْ إِلَيَّ أَيْنَ بَلَغَكَ جَمْعُهُمْ، وَمَنْ رَأْسُهُمُ الَّذِي يَلِي مُصَادَمَتَكُمْ؛ فَإِنَّهُ قَدْ مَنَعَنِي مِنْ بَعْضِ مَا أَرَدْتُ الْكِتَابَ بِهِ قِلَّةُ عِلْمِي بِمَا هَجَمْتُمْ عَلَيْهِ، وَالَّذِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ أَمْرُ عَدُوِّكُمْ، فَصِفْ لَنَا مَنَازِلَ الْمُسْلِمِينَ، وَالْبَلَدَ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَدَائِنِ، صِفَةً كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَاجْعَلْنِي مِنْ أَمْرِكُمْ عَلَى الْجَلِيَّةِ، وَخَفِ اللهَ وَارْجُهُ، وَلَا تُدِلَّ بِشَيْءٍ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَكُمْ، وَتَوَكَّلَ لِهَذَا الْأَمْرِ بِمَا لَا خُلْفَ لَهُ، فَاحْذَرْ أَنْ تَصْرِفَهُ عَنْكَ، وَيَسْتَبْدِلَ بِكُمْ غَيْرَكُمْ».

فَكَتَبَ إِلَيْهِ سَعْدٌ بِصِفَةِ الْبُلْدَانِ: إِنَّ الْقَادِسِيَّةَ بَيْنَ الْخَنْدَقِ وَالْعَتِيقِ، وَإِنَّ مَا عَنْ يَسَارِ الْقَادِسِيَّةِ بَحْرٌ أَخْضَرُ فِي جَوْفٍ لَاحٍّ إِلَى الْحِيرَةِ بَيْنَ طَرِيقَيْنِ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَعَلَى الظَّهْرِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَعَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ يُدْعَى الْحُضُوضَ، يَطْلُعُ بِمَنْ سَلَكَهُ عَلَى مَا بَيْنَ الْخَوَرْنَقِ وَالْحِيرَةِ، وَمَا عَنْ يَمِينِ الْقَادِسِيَّةِ إِلَى الْوَلَجَةِ فَيْضٌ مِنْ فُيُوضِ مِيَاهِهِمْ. وَإِنَّ جَمِيعَ مَنْ صَالَحَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ قَبْلِي أَلْبٌ لِأَهْلِ فَارِسَ، قَدْ خَفُّوا لَهُمْ، وَاسْتَعَدُّوا لَنَا. وَإِنَّ الَّذِي أَعَدُّوا لِمُصَادَمَتِنَا رُسْتُمَ فِي أَمْثَالٍ لَهُ مِنْهُمْ، فَهُمْ يُحَاوِلُونَ إِنْغَاضَنَا وَإِقْحَامَنَا،

وَنَحْنُ نُحَاوِلُ إِنْغَاضَهُمْ وَإِبْرَازَهُمْ، وَأَمْرُ اللهِ بَعْدُ مَاضٍ، وَقَضَاؤُهُ مُسَلَّمٌ إِلَى مَا قَدَّرَ لَنَا وَعَلَيْنَا، فَنَسْأَلُ اللهَ خَيْرَ الْقَضَاءِ، وَخَيْرَ الْقَدَرِ فِي عَافِيَةٍ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: «قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكَ وَفَهِمْتُهُ، فَأَقِمْ بِمَكَانِكَ حَتَّى يُنْغِضَ اللهُ لَكَ عَدُوَّكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا مَا بَعْدَهَا، فَإِنْ مَنَحَكَ اللهُ أَدْبَارَهُمْ فَلا تَنْزِعْ عَنْهُمْ حَتَّى تَقْتَحِمَ عَلَيْهِمُ الْمَدَائِنَ؛ فَإِنَّهُ خَرَابُهَا إِنْ شَاءَ اللهُ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتواصل الخِطاب من أمير المؤمنين رضي الله عنه لقائد الجيش سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ناصحا له ولجنده ومستفسرا عن صفة الموضع الذي هو فيه وما ينبني على ذلك من عمل.

البيان والبلاغة: قوله: (**أمَّا بعد**): فصل الخطاب الذي تحدَّثنا عنه غيره مرة. وقوله: (**وَالصَّبْرَ الصَّبْرَ**): أسلوب حث وإغراء، وهو تأكيد لفظي لأهمية وضرورة الصبر وأنه لا يكون نصر إلا بهما، وكذلك قوله: (**الْحَذَرَ الْحَذَرَ**). وقوله: (**فَإِنَّ الْمَعُونَةَ تَأْتِي مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، وَالْأَجْرَ عَلَى قَدْرِ الْحِسْبَةِ**): صدَّر كلامه بالتأكيد بـ(**إنَّ**)، وساقه مساق المثال السائر والقاعدة الثابتة؛ ليكون أرسخ في الذهن وأكثر تعلقا بها. وقوله: (**صِفَةً كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهَا**): تشبيه للوصف بالرؤية تأكيدا لضرورة الدقة في الوصف. وقوله: (**وَاجْعَلْنِي مِنْ أَمْرِكُمْ عَلَى الْجَلِيَّةِ**): كناية عن شدة الجلاء والوضوح. وقوله: (**قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكَ**): بدأ كلامه بالتأكيد لأنَّ المخاطب غائب، واحتمال عدم وصول الكتاب قائم عنده. وإسناد المجيء للكتاب إسناد مجازيٌّ، والمعنى: قد جاءني حامل الكتاب بالكتاب.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخه» ٣/ ٤٩١-٤٩٢.

[٤٤٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه

«إِنِّي قَدْ أُلْقِيَ فِي رُوعِي: أَنَّكُمْ إِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ هَزَمْتُمُوهُمْ، فَاطَّرِحُوا الشَّكَّ، وَآثِرُوا التَّقِيَّةَ عَلَيْهِ، فَإِنْ لَاعَبَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنَ الْعَجَمِ بِأَمَانٍ، أَوْ قَرَفَهُ بِإِشَارَةٍ أَوْ بِلِسَانٍ، فَكَانَ لَا يَدْرِي الْأَعْجَمِيُّ مَا كَلَّمَهُ بِهِ، وَكَانَ عِنْدَهُمْ أَمَانًا؛ فَأَجْرُوا ذَلِكَ لَهُ مَجْرَى الْأَمَانِ. وَإِيَّاكُمْ وَالضَّحِكَ. وَالْوَفَاءَ الْوَفَاءَ؛ فَإِنَّ الْخَطَأَ بِالْوَفَاءِ بَقِيَّةٌ، وَإِنَّ الْخَطَأَ بِالْغَدْرِ الْهَلَكَةُ، وَفِيهَا وَهْنُكُمْ وَقُوَّةُ عَدُوِّكُمْ، وَذَهَابُ رِيحِكُمْ، وَإِقْبَالُ رِيحِهِمْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي أُحَذِّرُكُمْ أَنْ تَكُونُوا شَيْنًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَسَبَبًا لِتَوْهِينِهِمْ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه قائد جيوشه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مرة أخرى، يجرِّؤه على الإقدام على قتال الفرس، ومذكرا إياه بأخلاق القتال.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي قَدْ أُلْقِيَ فِي رُوعِي**): بدأ كلامه بالتأكيد لخطورة الأمر، ولأنه سينبني عليه قتال ودماء. وقوله: (**أَنَّكُمْ إِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ هَزَمْتُمُوهُمْ**): عاد بالتأكيد في كلامه تارة أخرى، واستعمل أداة الشرط (**إذا**): توقعا لحصول المشروط قريبا، وقد كان. وقوله: (**فَإِنْ لَاعَبَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنَ الْعَجَمِ بِأَمَانٍ، أَوْ قَرَفَهُ بِإِشَارَةٍ أَوْ بِلِسَانٍ**): أراد بعبارته هذه التكنية عن أدنى ما يمكن أن يحسبه الأعجمي أمانا،

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٩٣، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٢٩٠.

وأنه لابدَّ أن يجري مجرى الأمان. قوله: (**وَإِيَّاكُمْ وَالضَّحِكَ**): نهي شديد استخدم فيه أسلوب التحذير الذي هو من أقوى صيغ النهي. وقوله: (**الْوَفَاءَ الْوَفَاء**): استخدم الإغراء والتوكيد اللفظي مبالغة في الحث على الوفاء لخطورة المقام الذي هم فيه؛ ولذلك أتبع ذلك بالإطناب في بيان العلة. وقوله: (**وَذَهَابُ رِيحِكُمْ، وَإِقْبَالُ رِيحِهِمْ**): كنَّى عن القوة بالريح، وهو في ذلك متأثر بقول الله - تعالى -: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦].

[٤٤٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ ﵁
إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﵁

وَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهِ سَعْدٌ أَنَّ مَلِكَ فَارِسَ قَدْ وَلَّى رُسْتُمَ بْنَ الْفَرُّخْزَاذِ الْأَرْمَنِيَّ حَرْبَهُ

«لَا يَكْرُبَنَّكَ مَا يَأْتِيكَ عَنْهُمْ، وَلَا مَا يَأْتُونَكَ بِهِ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَابْعَثْ إِلَيْهِ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْمُنْظَرَةِ[١] وَالرَّأْيِ وَالْجَلَدِ يَدْعُونَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ دُعَاءَهُمْ تَوْهِينًا لَهُمْ، وَفَلْجًا عَلَيْهِمْ، وَاكْتُبْ إِلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين قائد جيشه ﵁؛ ردًّا على خطابه حول تولية ملك الفرس لرستم قائدًا على جيوشهم، وما ينبغي أن يفعله.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَا يَكْرُبَنَّكَ**): بدأ بالنهي المؤكد بالنون المثقلة؛ تشجيعا لسعد ﵁ وتجريئا له على قتال عدوه. وقوله: (**مَا يَأْتِيكَ عَنْهُمْ، ولَا مَا يَأْتُونَكَ بِهِ**): أطنب في تعديد الفاعل تأكيدًا للنهي وتعميما له.

١- في «الكاملِ في التَّاريخ»: (أَهْلِ الْمُنَاظَرَةِ). وفي «البدايةِ والنِّهايةِ»: (أَهْلِ النَّظَرِ).
٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٩٥، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخ» ٢/ ٢٩٢، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ٩/ ٦١٩.

[٤٤٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيِّ رَدًّا عَلَى تَعْرِيضِهِ بِجَرِيرٍ الْبَجَلِيِّ

«إِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأَسْتَعْمِلَكَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يوجه أمير المؤمنين رضي الله عنه خطابه للمثنى بن حارثة الشيباني، مقرِّعا له حين عرَّض بالصحابي الجليل جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي لَمْ أَكُنْ لأَسْتَعْمِلَكَ**): تعدد المؤكدات في هذه الجملة الخبرية المنفية للتوكيد، فالجملة مؤكدة بـ (إن، وكان التامة، واللام). وقوله: (**رَجُلٍ**) تنكير رجل للتقليل. وقوله: (**مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ**): بيان لفضل الصحابة، وتوبيخ للمثنى على تعريضه بجرير.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٧٢.

[٤٤٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيِّ، لَمَّا بَلَغَهُ اجْتِمَاعُ الْفُرْسِ عَلَى يَزْدَجِرْدَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَاخْرُجُوا مِنْ بَيْنَ ظَهْرَيِ الْأَعَاجِمِ، وَتَفَرَّقُوا فِي الْمِيَاهِ الَّتِي تَلِي الْأَعَاجِمَ عَلَى حُدُودِ أَرْضِكُمْ وَأَرْضِهِمْ، وَلَا تَدَعُوا فِي رَبِيعَةَ أَحَدًا وَلَا مُضَرَ وَلَا حُلَفَائِهِمْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ النَّجَدَاتِ وَلَا فَارِسًا إِلَّا اجْتَلَبْتُمُوهُ، فَإِنْ جَاءَ طَائِعًا وَإِلَّا حَشَرْتُمُوهُ، احْمِلُوا الْعَرَبَ عَلَى الْجِدِّ إِذْ جَدَّ الْعَجَمُ، فَلْتَلْقُوا جِدَّهُمْ بِجِدِّكُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يوجه أمير المؤمنين رضي الله عنه خطابه للمثنى بن حارثة الشيباني، مبينا له كيف يواجه الفرس وقائدهم يَزدجِرْد.

البيان والبلاغة: قوله: (**أمَّا بعد**): فصل الخطاب الذي يمهد للانتقال إلى صلب الموضوع. ويلاحظ في النص: الإيجاز والمباشرة؛ ولذلك عدَّد الأوامر والنواهي وتابع بينها، فقال: (**فَاخْرُجُوا**)، (**وَتَفَرَّقُوا**)، (**وَلاتَدَعُوا**). وقوله: (**أحدا**) و(**فارسا**) جاء نكرة في سياق النفي ليفيد الحصر، أي: لا تتركوا أحدا، أيَّ أحد. وقوله: (**الْعَرَبَ**): أطلق الكل وأراد البعض، وهو ربيعة ومضر.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٧٨.

[٤٥٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إلى الأحنف بن قيس لما بلغه تغلبه على المُرْوَيْنِ وَبَلْخَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَلَا تَجُوزَنَّ النَّهَرَ، وَاقْتَصِرْ عَلَى مَا دُونَهُ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ بِأَيِّ شَيْءٍ دَخَلْتُمْ عَلَى خُرَاسَانَ؛ فَدَاوِمُوا عَلَى الَّذِي دَخَلْتُمْ بِهِ خُرَاسَانَ يَدُمْ لَكُمُ النَّصرُ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَعْبُرُوا فَتُفَضُّوا»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه الأحنف بن قيس بعد تغلبه على المُرْوَيْنِ وَبَلْخَ، مبينا له كيف يفعل فيما بعد.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَلَا تَجُوزَنَّ النَّهَرَ**): بدأ بالنهي المؤكَّد بنون التوكيد الثقيلة؛ تحذيرا له من خطورة ذلك الأمر الذي قد يشكل خطرا على المسلمين، و(**أل**) في (**النهر**): للعهد الذهني. وقوله: (**وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَعْبُرُوا فَتُفَضُّوا**): تحذير من العُبور، مؤكد بذكر العلة من النهي والتحذير؛ زيادة في التأكيد والتحذير.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه».

[٤٥١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى مَلِكِ الرُّومِ، وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ كَلِمَةٍ يَجْتَمِعُ فِيهَا الْعِلْمُ كُلُّهُ

«أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لَهَا تَجْتَمِعْ لَكَ الْحِكْمَةُ كُلُّهَا. وَاعْتَبِرِ النَّاسَ بِمَا يَلِيكَ تَجْتَمِعْ لَكَ الْمَعْرِفَةُ كُلُّهَا»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذه خلاصة غالية يسديها الفاروق رضي الله عنه لمن سأله عن كلمة يجتمع فيها العلم، والعلم هنا هو العلم الذي يساعده على العمل.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ**): في الجملة اقتباس وتأثر من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**». و(**أل**) في (**للنَّاس**): للاستغراق فتعمُّ جميع الناس، أو للعهد الذهني فتقتصر على المسلمين. وبين الكلمات: (**أَحِبَّ، اكْرَهْ، تُحِبُّ، تَكْرَهُ**): طباق يوضح المعنى ويؤكده، وبين الجملتين: (**أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لَهَا**) مقابلة أسهمت في إبراز المعنى وتقويته. وقوله (**كُلُّهَا**) في قوله: (**تَجْتَمِعْ لَكَ الْمَعْرِفَةُ كُلُّهَا**) توكيد معنوي.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢٥٩، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٣٩.

[٤٥٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - حِينَ بَعَثَهُمَا إِلَى الشَّامِ

«أَنِ انْظُرُوا إِلَى رَجُلٍ مِنْ صَالِحِي مَنْ قَبْلَكُمْ، فَاسْتَعْمِلُوهُ عَلَى الْقَضَاءِ، وَارْفَعُوهُمْ، وَأَوْسِعُوا عَلَيْهِمْ، وَأَغْنُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يوجه أمير المؤمنين خطابه إلى الصاحبين أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل - رضي الله عن الجميع - مبينا لهم صفات القاضي الذي سينتخبونه وحقَّه عليهما.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بـ **(أن)** التفسيرية، التي أتبعها بالأمر بالنظر والبحث عن الشخص المناسب للقضاء. وقوله: **(ارْفَعُوهُمْ، وَأَوْسِعُوا، وَأَغْنُوهُمْ)**: تكرار الأمر فيه كناية عن وجوب الاهتمام التام بأحوال القضاة تفريغا لهم للقضاة لمهمتهم العظيمة. وبين **(ارْفَعُوهُمْ)** و**(أَغْنُوهُمْ)** سجع أسهم في إبراز المعنى، وأعطى الكلام جرسا حُلوا.

١- رواهُ ابنُ المقرئِ في «المُعجَمِ» (١٢٤٤)، وعفَّانُ بنُ مسلمٍ في «أحاديثِه» (٢٨)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٥٨/ ٤٣٥.

[٤٥٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ يَعْهَدُ إِلَيْهِ

«خُذِ الصَّدَقَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ طُهْرَةً لِأَعْمَالِهِمْ، وَزَكَاةً لِأَمْوَالِهِمْ، وَحُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ اللهِ، الْعَدَاءُ فِيهَا حَيْفٌ وَظُلْمٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَالتَّقْصِيرُ عَنْهَا مُدَاهَنَةٌ فِي الْحَقِّ وَخِيَانَةٌ لِلْأَمَانَةِ، فَادْعُ النَّاسَ بِأَمْوَالِهِمْ إِلَى أَرْفَقِ الْمَجَامِعِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى مَصَالِحِهِمْ، وَلَا تَحْبِسِ النَّاسَ أَوَّلَهُمْ لِآخِرِهِمْ؛ فَإِنَّ الرَّجْزَ[١] لِلْمَاشِيَةِ عَلَيْهَا شَدِيدَةٌ عَلَيْهَا مُهْلَكَاتٌ، وَلَا تَسُقْهَا مَسَاقًا يُبْعِدُ بِهَا الْكَلَأَ، وَرُدَّهَا فَإِذَا أَوْقَفَ الرَّجُلُ عَلَيْكَ غَنَمَهُ، فَلَا تَعْتَمْ مِنْ غَنَمِهِ، وَلَا تَأْخُذْ مِنْ أَدْنَاهَا، وَخُذِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَوْسَطِهَا، وَلَا تَأْخُذْ مِنْ رَجُلٍ إِنْ لَمْ تَجِدْ فِي إِبِلِهِ السِّنَّ الَّتِي عَلَيْهِ إِلَّا تِلْكَ السِّنَّ مِنْ شَرْوَى[٢] إِبِلِهِ، أَوْ قِيمَةَ عَدْلٍ، وَانْظُرْ ذَوَاتِ الدَّرِّ، وَالْمَاخِضَ مِمَّا تَجِبُ مِنْهُ الصَّدَقَةُ فَتَنَكَّبْ عَنْهَا عَنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّهَا مَالُ حَاضِرِهِمْ، وَزَادُ مُغْرِبِهِمْ+، أَوْ مُعِدِّيهِمْ+، وَذَخِيرَةُ زَمَانِهِمْ. ثُمَّ اقْسِمْ لِلْفُقَرَاءِ، وَابْدَأْ بِضَعَفَةِ الْمَسْكَنَةِ، وَالْأَيْتَامِ، وَالْأَرَامِلِ، وَالشُّيُوخِ، فَمَنِ اجْتَمَعَ لَكَ مِنَ الْمَسَاكِينِ، فَكَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ يَتَعَاقَبُونَ وَيَتَحَامَلُونَ؛ فَاقْسِمْ لَهُمْ مَا كَانَ مِنَ الْإِبِلِ يَتَعَاقَبُوهُ حَمْلَهُمْ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْغَنَمِ امْنَحْهُمْ، وَمَنْ كَانَ فَذًّا فَلَا تُنْقِصْ كُلَّ خَمْسَةٍ مِنْهُمْ مِنْ فَرِيضَةٍ أَوْ عَشْرٍ شَيْئًا إِلَى خَمْسَ عَشْرَةَ مِنَ الْغَنَمِ»[٣].

١- ذكرهُ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٢/ ٢٠٦ بلفظِ: (الرَّجْن) بالنُّونِ، وقال: (رَجَنَ الشَّاةَ رَجْنًا؛ إذا حَبَسَهَا، وَأَسَاءَ عَلَفَهَا).

٢- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٢/ ٤٧٠: (أي مِن مِثْلِ إِبِلِهِ. والشَّرْوَى: المِثْلُ. وهذا شَرْوَى هذا؛ أي: مِثْلُهُ).

٣- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٦٨٢٢).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه أحد عماله، يبين له كيف يجمع الزكاة وكيف يقسمها بين مستحقيها.

البيان والبلاغة: استهل أمير المؤمنين رضي الله عنه حديثه بالأمر الصريح لعامله، مقتبسا من القرآن الكريم ومتأثرا بقوله – تعالى –: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]. وقد أطنب أمير المؤمنين في تعليل هذا الأمر وبيان حكمته معدِّدا أسبابه، فقال: (**طُهْرَةً لِأَعْمَالِهِمْ، وَزَكَاةً لِأَمْوَالِهِمْ، وَحُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ الله**). وبين الجملتين في قوله: (**فَادْعُ النَّاس بِأَمْوَالِهِمْ إِلَى أَرْفَقِ الْمَجَامِعِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى مَصَالِحِهِمْ، وَلَا تَحْبِسِ النَّاس أَوَّلَهُمْ لِآخِرِهِمْ**): مقابلة أسهمت في إثراء وإبراز المعنى وتقويته وتجليته. وكذا في قوله: (**لَا تَأْخُذْ مِنْ أَدْنَاهَا، وَخُذِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَوْسَطِهَا**). وقوله: (**فَإِنَّهَا مَالُ حَاضِرِهِمْ، وَزَادُ مُغْرِبِهِمْ، وَذَخِيرَةُ زَمَانِهِمْ**): عدَّد صفات الأنعام تأكيدا لأهميتها عند العرب، ووجوب رعاية ذلك عند أخذ الصدقة. وفي الجملة سجع واضح أعطى الكلام جرسا حُلوا، وكذا في قوله: (**يَتَعَاقَبُونَ وَيَتَحَامَلُونَ**). والنص يغلب عليه أسلوب التقسيم والتفصيل والإطناب لأنَّ المقام فتيا دقيقة لا يحتمل سوى ذلك.

[٤٥٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّ آذِينَ بْنَ الْهُرْمُزَانِ قَدْ جَمَعَ جَمْعًا

«ابْعَثْ إِلَيْهِمْ ضِرَارَ بْنَ الْخَطَّابِ(١) فِي جُنْدٍ، وَاجْعَلْ عَلَى مُقَدِّمَتِهِ ابْنَ الْهُذَيْلِ الْأَسَدِيَّ، وَعَلَى مُجَنِّبَتَيْهِ عَبْدَ اللهِ بْنَ وَهْبٍ الرَّاسِبِيَّ(٢) حَلِيفَ بَجِيلَةَ، وَالْمُضَارِبَ بْنَ فُلَانٍ الْعِجْلِيَّ(٣)»(٤).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النص كتابٌ من أمير المؤمنين إلى قائد الجيوش سعد بن أبي وقاص

١- ضِرَارُ بنُ الخطَّابِ بنِ مِرْداسٍ القُرشيُّ الفِهْرِيُّ: فارسٌ شاعرٌ، صحابيٌّ، مِنَ القادة، مِن سُكَّانِ الشَّرَاةِ، فوقَ الطَّائفِ. قاتَلَ المسلمينَ يومَ أُحُدٍ والخندقِ أشدَّ قتالٍ، وأسلمَ يومَ الفتحِ، وهو الَّذي خاطبَ النَّبيَّ - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ - يومَ الفتحِ قائلًا:

يَا نَبِيَّ الْهُدَى إِلَيْكَ لَجَا ... حَيُّ قريشٍ ولاتَ حِينَ لَجَاءِ
حِينَ ضَاقَتْ عَلَيهِم سَعَةُ الأَرْ ... ضِ وعَادَاهُمُ إِلهُ السَّمَاءِ
والتقتْ حَلْقَتَا البِطانِ على القَوْ ... مِ ونُودُوا بالصَّيْلَمِ الصَّلْعاءِ
إِنَّ سَعدًا يُريدُ قَاصِمَةَ الظَّهْـ ... ـرِ بأهلِ الحَجُونِ والبطحاءِ

«الطَّبقات الكُبرَى» ٥/ ٤٥٤، و«الإصابة» ٣/ ٣٩٢-٣٩٣.

٢- عبدُ الله بنُ وهبٍ الرَّاسِبيُّ، مِن بَني رَاسِبِ بنِ مالكِ بنِ مَيْدَعَانَ بنِ مالكِ بنِ نَصرِ بنِ الأزدِ: لهُ إدراكٌ، وليسَ لهُ صحبةٌ، شهِد فتوحَ العراقِ معَ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ. وكانَ عجبًا في كثرةِ العبادةِ حتَّى لُقِّبَ ذا الثَّفِناتِ؛ كانَ لكثرةِ سُجودِه صارَ في يديهِ ورُكبتَيهِ كَثَفِناتِ البعيرِ. كانَ معَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ في حُرُوبه، ولَمَّا وقعَ التَّحكيمُ أنكرهُ جماعةٌ فِيهم الرَّاسبيُّ، فاجتمعوا بالنَّهْرَوانِ - بينَ بغدادَ وواسطٍ -، وأمَّرُوهُ عليهِم، فقاتلَهم عليٌّ - رضيَ اللهُ عنهُ -، وقُتِلَ الرَّاسبيُّ في هذه الوقعةِ. «الإصابة» ٥/ ٧٨.

٣- مُضارِبُ بنُ زيدٍ العجليُّ، كانَ مِن قُوَّادِ المُثَنَّى بنِ حارثةَ وأُمرائِه على مُقدِّمتِه لَمَّا سارَ إلى مُحارَبةِ أهلِ العراقِ، وذلكَ سنةَ ثلاثَ عشرةَ، ثمَّ شهِد بعدَ ذلكَ القادسيَّةَ. «الإصابة» ٦/ ٩٩.

٤- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخه» ٤/ ٣٧.

رضي الله عنها يأمره فيه باتخاذ تدبير محدد لمواجهة جيش آذِينَ بنِ الهُرْمُزَانِ.

البيان والبلاغة: استهل أمير المؤمنين كتابه بالجملة الطلبية في قوله: (**ابْعَثْ**)؛ لأنَّ الأمر جد لا يحتمل سوى التوجيه المباشر. وقوله: (**حَلِيفَ بَجِيلَةَ**) إطنابٌ أراد منه تمييز عبد الله الراسبي كي لا يختلط بغيره، وهكذا في الأسماء الثلاثة التي في النص.



[٤٥٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه

«إِنَّ اللهَ قَدْ فَتَحَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الشَّامَ وَالْعِرَاقَ، فَابْعَثْ مِنْ عِنْدِكَ جُنْدًا إِلَى الْجَزِيرَةِ، وَأَمِّرْ عَلَيْهِمْ أَحَدَ الثَّلَاثَةِ: خَالِدَ بْنَ عُرْفُطَةَ، أَوْ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ[١]، أَوْ عِيَاضَ بْنَ غَنْمٍ[٢]»[٣].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ كتابٌ من أمير المؤمنين إلى قائد الجيوش سعد بن أبي وقاص رضي الله عنها يأمره فيه بإرسال جندٍ إلى الجزيرة، مبينا من يُؤمِّر عليهم.

١- هاشمُ بنُ عُتبةَ بنِ أبي وقَّاصٍ الزُّهْرِيُّ، ابنُ أخي سعدٍ، ويُعرَفُ بالمِرْقالِ. وُلِد في حياةِ النَّبِيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -، ولم تَثبُتْ لهُ صُحْبةٌ، وشَهِدَ اليرموكَ وأُصِيبتْ عينُه يومئذٍ، وشهِد فتحَ دمشقَ، وكانَ أحدَ الأشرافِ، وكانتْ معهُ رايةُ عليٍّ يومَ صِفِّينَ. «تاريخ الإسلام» ٢/ ٣٣١.

٢- عياضُ بنُ غَنْمٍ الفِهريُّ، أسلمَ قبلَ الحديبيةِ وشهدَها معَ رسولِ اللهِ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -، فبايعَ بيعةَ الرِّضوانِ. وكانَ خَيِّرًا، صالحًا، زاهدًا، سَخيًّا، وهو الَّذي افتتحَ الجزيرةَ صُلحًا. وحضرَ فتحَ المدائنِ معَ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ. وكانَ عمرُ بنُ الخطَّابِ ولَّاهُ الإمارةَ بالشَّامِ بعدَ أبي عُبيدةَ بنِ الجرَّاحِ، وبها كانتْ وفاتُه. «سير أعلام النُّبلاء» ٢/ ٣٥٤، و«الإصابة» ٤/ ٦٢٩.

٣- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٥٣، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٣٥٧.

البيان والبلاغة: استهل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديثه بالتأكيد بـ (إنَّ) و(قد) والجملة الاسمية الدالة على ثبوت الحكم واستقراره، وليس ذلك لشك سعد فيما سيقول، ولكن لأنه أراد أن يؤسس على هذا الخبر أمرا هامًّا ولذلك أكَّد عليه. وقوله: (**أَحَدَ الثَّلَاثَةِ: خَالِدَ بْنَ عُرْفُطَةَ، أَوْ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ، أَوْ عِيَاضَ بْنَ غَنْمٍ**): استعمل أسلوب اللف والنشر والتقسيم، وأطنب بذكر أسماء القادة المقترحين؛ زيادة في البيان ومبالغة في الإيضاح.

[٤٥٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجُرَّاحِ رضي الله عنه، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ حُصِرَ بِالشَّامِ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ

«سَلَامٌ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ مَا تَنْزِلُ بِعَبْدٍ مُؤْمِنٍ مِنْ مُنْزَلِ شِدَّةٍ يَجْعَلِ اللهُ بَعْدَهَا فَرَجًا، وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ، وَإِنَّ اللهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠]»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النص كتاب من أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة رضي الله عنه يواسيه وينصحه حين حاصره العدو وتألب عليه بالشام.

البيان والبلاغة: قوله: (**سلام**): اقتضب وأوجز في مقدمة الكتاب إسراعا في بلوغ المقصود، ثم أتى بفصل الخطاب (**أمّا بعد**) ليبدأ في المراد. ثم بدأ كلامه بالفاء والتأكيد وضمير الشأن؛ طلبا للاهتمام وتأكيدا على أهمية الأمر، وتنكير (**عبد**) للعموم والشمول. ومثل ذلك في قوله: (**وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ**). والتضاد في قوله: (**عُسْرٌ يُسْرَيْنِ**) يبرز المعنى ويؤكده.

١- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإِ» (١٦٢١)، وابنُ المباركِ في «الجهادِ» (٢١٧)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٥٣٢) و(٣٣٨٤٠)، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (٨٠)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الفرجِ بعدَ الشِّدَّةِ» (٣١)، والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٣١٧٦)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٩٥٣٨)..

[٤٥٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه فِيما بَلَغَهُ مِنْ أَمْرِ الزِّنَا

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ رَقِيَ إِلَيَّ مِنْ حَدِيثِكَ حَدِيثٌ، فَإِنْ يَكُنْ مَصْدُوقًا عَلَيْكَ، فَلَأَنْ تَكُونَ مِتَّ قَبْلَ الْيَوْمِ خَيْرٌ لَكَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النص كتاب من أمير المؤمنين إلى المغيرة بن شعبة رضي الله عنهما يستوثق منه خبرا بلغه عنه.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَإِنَّهُ قَدْ رَقِيَ**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**إنَّ**)، و(**قد**) والفعل الماضي، والضمير ضمير الشأن، وقد سبق الحديث عن دلالته في النص رقم ثمانية وسبعين ومئة. واختيار الفعل (**رَقِي**) دون (**بلغ**) فيه بيان لعلو شأن الإمارة والأمير، وذلك أنسب عند التعامل مع المخطئ. وقوله: (**مَصْدُوقًا**): استعمل صيغة اسم المفعول بيانا لعدم أهمية الفاعل، وأنَّ الأهمَّ هو التثبت من صدق الخبر.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٩٤٢١).

[٤٥٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه

«أَنِ اسْتَنْشِدْ مَنْ قِبَلَكَ مِنَ الشُّعَرَاءِ مَا قَالُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ»، فَأَرْسَلَ الْمُغِيرَةُ إِلَى الْأَغْلَبِ الْعِجْلِيِّ[١]، فَقَالَ: أَنْشِدْنِي. فَقَالَ: أَرَجَزًا تُرِيدُ أَمْ قَصِيدًا؛ فَقَدْ سَأَلْتَ هَيِّنًا مَوْجُودًا؟ ثُمَّ أَرْسَلَ الْمُغِيرَةُ إِلَى لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ[٢]، فَقَالَ: أَنْشِدْنِي. فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ أَنْشَدْتُكَ مِمَّا قَدْ عُفِيَ عَنْهُ مِنْ شِعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ. قَالَ: لَا، أَنْشِدْنِي مَا قُلْتَ فِي الْإِسْلَامِ. فَانْطَلَقَ إِلَى أَدِيمٍ، فَكَتَبَ فِيهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَقَالَ: أَبْدَلَنِي اللهُ مَكَانَ الشِّعْرِ هَذَا.

فَكَتَبَ الْمُغِيرَةُ بِذَلِكَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: «إِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ حَقَّ الْإِسْلَامِ إِلَّا لَبِيدَ بْنَ رَبِيعَةَ، فَأَنْقِصْ مِنْ عَطَاءِ الْأَغْلَبِ خَمْسَمِئَةٍ وَاجْعَلْهَا فِي عَطَاءِ لَبِيدٍ»، فَرَكِبَ إِلَيْهِ الْأَغْلَبُ، فَقَالَ: تُنْقِصُ عَطَائِي مِنْ أَنْ أَطَعْتُكَ؟! فَرَدَّ الْخَمْسَمِئَةِ، وَأَقَرَّ فِي عَطَاءِ لَبِيدٍ الْخَمْسَمِئَةِ[٣].

١- الأغلبُ بنُ جُشَمَ بنِ سعدٍ العِجْليُّ، عُمِّرَ في الجاهليَّةِ طويلًا، وأدركَ الإسلامَ، فحسُن إسلامُه، وهاجرَ إلى المدينةِ بعدَ موتِه -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-، ولهذا لم يذكرْهُ أحدٌ في الصَّحابةِ. ثُمَّ كان ممَّن توجَّه إلى الكوفةِ معَ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، فاستُشهد في وقعةِ نَهاوندَ، فقبرُه هناكَ معَ قبورِ الشُّهداءِ، وهو أوَّلُ مَن رجزَ الأراجيزَ. «المنتظم» لابنِ الجوزيِّ ٤/ ٢٨١، و«الإصابة» ١/ ٢٤٩-٢٥٠.

٢- لَبِيدُ بنُ ربيعةَ بنِ مالكٍ الهَوَازِنِيُّ العامريُّ: وفدَ على النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ- فأسلمَ وحسُن إسلامُه، وكانَ أحدَ أشرافِ قومِه، نزلَ الكوفةَ، وكانَ لا تهبُّ الصَّبا إلَّا نحرَ وأطعمَ، وكانَ قدِ اعتزلَ الفتنَ. «تاريخ الإسلام» ٢/ ٤٣٦.

٣- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (١٤).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النص كتاب من أمير المؤمنين إلى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه يأمره بجمع أشعار العرب، ثم يتابع ذلك معه ويوجهه كيف يصنع مع الشعراء.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين خطابه بـ (**أن**) التفسيرية، ثم أتبع ذلك بالأمر (**اسْتَنْشِدْ**)، أي: اطلب الشعراء واستمع إليهم. وقوله: (**الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ**): بين اللفظين طباق يبرز المعنى وينوع فيه. قوله: (**أَحَدٌ**): نكرة في سياق النفي أفادت العموم، ثم عاد إلى التقييد بقوله: (**مِنْ الشُّعَراء**). وقوله: (**إِلَّا لَبِيدَ بْنَ رَبِيعَةَ**): الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر.

[٤٥٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى عُمَّالِهِ فِي الْأَمْصَارِ

«أَنْ لَا يَجْلِدَنَّ أَمِيرُ جَيْشٍ وَلَا سَرِيَّةٍ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَدًّا، وَهُوَ غَازٍ، حَتَّى يَقْطَعَ الدَّرْبَ قَافِلًا؛ لِئَلَّا تَحْمِلَهُ حَمِيَّةُ الشَّيْطَانِ فَيَلْحَقَ بِالْكُفَّارِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه عُمَّالَه على الأمصار في شأن إقامة الحدود في أرض الحرب.

البيان والبلاغة: النص رقم أربعين وأربعمئة مشابه لهذا النص لفظا ومعنى، وقد تقدم شرحه هناك بما يغني عن الإعادة هنا.

١- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٢٥٠٠)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٩٤٦٤).

[٤٦٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى عُمَّالِهِ فِي الْأَمْصَارِ

«أَنْ لَا تُطِيلُوا بِنَاءَكُمْ؛ فَإِنَّهُ مِنْ شَرِّ أَيَّامِكُم»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المقام مقام تحذير ونهي عن إطالة البناء، والزمان والمكان غير مذكورين.

البيان والبلاغة: تعرَّض الفاروق في القول السابق لمسألة التطاول في البنيان، وقد اختلف العلماء في مسألة تطاول البنيان على ثلاثة أقوال: أما القول الأول: فيقول بتحريم البناء إذا زاد عن الحاجة. والقول الثاني: كراهة التطاول في البنيان والتوسع فيه زيادة عن الحاجة. والقول الثالث: يبيح التوسع في البناء. وقول الفاروق رضي الله عنه يميل تجاه الرأي الأول، وفيه تناص خفي بقوله ﷺ في حديث جبريل: «... **إِذَا رَأَيْتَ رِعَاءَ الْبَهْمِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**»، والحديث السابق من أدلة المانعين، وكذا استشهدوا بقوله ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيُؤْجَرُ فِي نَفَقَتِهِ كُلِّهَا إِلَّا فِي الْبِنَاءِ**»، وفيه أن التطاول والزخرفة في البناء لا أجر فيها؛ لأنها لا يكون لها نية صالحة؛ إذ المباحات تصير طاعات بالنية، فدل على أن التطاول والزخرفة ليست من المباحات، وكذا قول الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٨/ ٤٨٦، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٤٥٢)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٢٠، وابنُ أبي الدُّنيا في «قصرِ الأملِ» (٢٨٣).

[الشعراء : ١٢٨-١٢٩]، وجه الدلالة أن الله عاب عليهم بناء القصور المرتفعة بدون حاجة وإنما للفخر، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف : ٣١]. وقد ذكر شيخ الإسلام في هذا الفصل قولا فصلا فيما يخص فقه التعامل مع المباحات؛ إذ قال: «وَأَمَّا الْمُبَاحَاتُ: فَيُثَابُ عَلَى تَرْكِ فُضُولِهَا، وَهُوَ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِمَصْلَحَةِ دِينِهِ، كَمَا أَنَّ الْإِسْرَافَ فِي الْمُبَاحَاتِ مَنْهِيٌّ عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان : ٦٧]»[1]. فبدأ عمر رضي الله عنه بالنهي عن إطالة البناء مستخدمًا (**أن**) المخففة من الثقيلة و(**لا**) النافية. وأتبع بذكر علة هذا الفعل؛ فبدأ باستخدام الفاء الدالة على السببية والتعليل، ثم استخدم (**إن**)؛ للتوكيد وللدلالة على عاقبة أمرهم السيئة. فكأنَّ الحديثَ السابق ضمَّن الفاروق رضي الله عنه فيه عاقبة أمر المسرفين المبذرين الذين يتطاولون في البنيان دون حاجة. وفي قوله: (**بِنَاءَكُمْ، أَيَّامِكُمْ**): سجع يعطي جرسًا موسيقيًّا؛ لجذب انتباه المتلقي.

---

١ () «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ١٣٣).

[٤٦١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

إِلَى يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ[١] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَالِي الْيَمَنِ لِإِجْلَاءِ أَهْلِ نَجْرَانَ[٢]

«ائْتِهِمْ، وَلَا تَفْتِنْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، ثُمَّ أَجْلِهِمْ، مَنْ أَقَامَ مِنْهُمْ عَلَى دِينِهِ، وَأَقْرِرِ الْمُسْلِمَ، وَامْسَحْ أَرْضَ كُلِّ مَنْ تُجْلِي مِنْهُمْ، ثُمَّ خَيِّرْهُمُ الْبُلْدَانَ، وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّا نُجْلِيهِمْ بِأَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ: أَلَّا يُتْرَكَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ؛ فَلْيُخْرَجُوا، مَنْ أَقَامَ عَلَى دِينِهِ مِنْهُمْ، ثُمَّ نُعْطِيهِمْ أَرْضًا كَأَرْضِهِمْ؛ إِقْرَارًا لَهُمْ بِالْحَقِّ عَلَى أَنْفُسِنَا، وَوَفَاءً بِذِمَّتِهِمْ فِيمَا أَمَرَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، بَدَلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جِيرَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَغَيْرِهِمْ، فِيمَا صَارَ لِجِيرَانِهِمْ بِالرِّيفِ»[٣].

١- يَعْلَى بنُ أُمَيَّةَ التَّميميُّ، ويُقالُ لهُ أيضًا: يَعْلَى بنُ مُنْيَةَ. ومُنْيَةُ هي أُمُّهُ مُنْيَةُ بِنتُ غَزْوَانَ، أُخْتُ عُتبةَ بنِ غزوانَ. أسلمَ يومَ الفتحِ، وشهدَ الطائفَ وتبوكًا، وهو القائلُ: «غزوتُ معَ رسولِ الله - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ - جيشَ العُسْرَةِ، وكانَ مِن أوثقِ أعمالي في نفسي». ولهُ أخبارٌ في السَّخاءِ، وهو أوَّلُ مَن أرَّخَ الكتبَ، واستعملهُ أبو بكرٍ على حُلْوانَ في الرِّدَّةِ، ثمَّ استعملهُ عمرُ على نَجرانَ، واستعملهُ عثمانُ على اليمنِ فأقامَ بصنعاءَ. وهو أوَّلُ مَن ظاهرَ للكعبةِ بكسوتينِ، أيَّامَ ولايتِه على اليمنِ، صنعَ ذلكَ بأمرِ عثمانَ. «الطَّبقات الكبرى» ٥/ ٤٥٦، و«تاريخ الإسلام» ٢/ ٥٥١، و«الأعلام» ٨/ ٢٠٤.

٢- نَجْرَان على وزنِ فَعْلَان: لها ذكرٌ كثيرٌ في السِّيرةِ، ولها حوادثُ تملأُ مُجلَّدًا منذُ الجاهليَّةِ إلى يومِنا هذا. وهي مدينةٌ عريقةٌ عُرِفت منذُ أن عُرِف للعربِ تاريخٌ، تتكوَّنُ مِن مجموعةِ مدنٍ صغيرةٍ في وادٍ واحدٍ، ولذا فكلَّما اندثرتْ مدينةٌ مِن تلكَ المدنِ حملتِ الأخرى اسمَ نجرانَ، وهي وادٍ كبيرٌ كثيرُ المياهِ والزَّرعِ، يسيلُ مِن السّراةِ شرقًا حتَّى يصبَّ في الرُّبعِ الخالي، وتقعُ على الطَّريقِ بينَ صعدةَ وأبها، على قرابةِ (٩١٠) أكيالٍ جنوبَ شرقيِّ مكَّةَ، في الجهةِ الشَّرقيةِ مِن السّراةِ، وتربطُها بكلٍّ مِن مكَّةَ والرِّياضِ وشرورى في الرُّبعِ الخالي = طريقٌ مُعبَّدةٌ، ولها مطارٌ، وفيها آثارٌ أهمُّها مدينةُ الأخدودِ، وما كانَ يُعرَف بكعبةِ نجرانَ. «معجم المعالم الجغرافيَّة» لعاتقٍ الحربيِّ ص٣١٤.

٣- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٤٦.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الحدث: أمر الفاروق عمر ﵁ يعلى بن أمية ﵁ بإجلاء اليهود عن نجران. الزمان: عام عشرين[١] من هجرة النبي ﷺ. وقد ورد العديد من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحض على إجلاء اليهود والنَّصارى من جزيرة العرب، ومنها: أن النبي ﷺ أوصى ابن عباس ﵄ بثلاث وصايا منها قوله: «**أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**»، وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**لأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لاَ أَدَعَ إِلَّا مُسْلِمًا**»، وفي مسند الإمام أحمد عن عائشة ﵂ قالت: كَانَ آخِرُ مَا عَهِدَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ أَنْ قَالَ: «**لَا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ**»، وفي موطأ الإمام مالك كَانَ مِنْ آخِرِ مَا تَكَلَّمَ بِهِ رَسُولُ اللهَّ ﷺ أَنْ قَالَ: «**قَاتَلَ اللهَُّ الْيَهُودَ وَالنَّصارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، لاَ يَبْقَيَنَّ دِينَانِ بِأَرْضِ الْعَرَبِ**». هذه النَّصوص وغيرها تدل دلالة قاطعة على أنه لا يجوز لليهود والنَّصارى وغيرهم من الكفار أن يبقوا في جزيرة العرب، وتلك النَّصوص لا يمكن الطعن فيها بالتضعيف أو التأويل أو دعوى النسخ؛ وذلك أنها مخرَّجة في الصحيحين وبعضها في المسند وبعضها في السنن. أما بخصوص نصارى نجران فقد ورد عدة أسباب لإخراجهم: فالسبب الأول: جاء في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ إلى أهل نجران ما أورده ابن زنجويه: «وكان فيما أخذ النبي ﷺ في صلحه على أهل نجران: أن من أكل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة»[٢]، وقال ابن قدامة في المغني: «فأما إخراج أهل نجران منه؛ فلأن النبي ﷺ صالحهم على ترك الربا، فنقضوا عهده»[٣]. والسبب الثاني: ذكره القاضي أبو يوسف حيث قال: «وكان

١- «لوامع الأنوار البهية»، لشمس الدين السفاريني الحنبلي (٢/ ٣٢٤).
٢- «الأموال» لابن زنجويه (١/ ٤١٨).
٣- «المغني» (٩/ ٣٥٧).

عمر رضي الله عنه أجلاهم؛ لأنه خافهم على المسلمين، وقد كانوا اتخذوا الخيل والسلاح في بلادهم فأجلاهم عن نجران اليمن وأسكنهم نجران العراق»[١]. والسبب الثالث: ما أورده القاسم بن سلام من خلال كتاب عمر رضي الله عنه إليهم قبل إجلائهم: «حدثنا ابن أبي زائدة، عن ابن عون، قال: قال لي محمد بن سيرين: انظر كتابا قرأته عند فلان بن جبير، فكلم فيه زياد بن جبير، قال: فكلمته فأعطاني فإذا في الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عمر أمير المؤمنين إلى أهل رعاش كلهم، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنكم زعمتم أنكم مسلمون، ثم ارتددتم بعد، وإنه من يتب منكم ويصلح لا يضره ارتداده، ونصاحبه صحبة حسنة، فادَّكروا ولا تهلكوا، وليبشر من أسلم منكم. فمن أبى إلا النصرانية فإن ذمتي بريئة ممن وجدناه بعد عشر تبقى من شهر الصوم من النصارى بنجران. أما بعد، فإن يعلى كتب يعتذر أن يكون أكره أحدا منكم على الإسلام أو عذبه عليه، إلا أن يكون قسرا جبرا ووعيدا لم ينفذ إليه منه شيء. أما بعد، فقد أمرت يعلى أن يأخذ منكم نصف ما علمتم من الأرض، وإني لن أريد نزعها منكم ما أصلحتم»[٢]. أما عن سبب إجلاء عمر ليهود ونصارى خيبر؛ فقد ورد في رواية للبخاري: أخبرني نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن عمر بن الخطاب أجلى اليهود، والنصارى من أرض الحجاز، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظهر على أهل خيبر، أراد أن يخرج اليهود منها، وكانت الأرض لما ظهر عليها لليهود وللرسول وللمسلمين، فسأل اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتركهم على أن يكفوا العمل ولهم نصف الثمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**نُقِرُّكُم عَلَى ذَلِكَ ما شِئْنَا**»، فأقروا حتى أجلاهم عمر في إمارته إلى تيماء، وأريحا[٣].

١- «الخراج» لأبي يوسف ص٨٧.

٢- «الأموال» للقاسم بن سلام ص١٣٠.

٣- صحيح البخاري (٤/ ٩٥).

وورد عند البخاري، أيضا: «لما فَدَعَ أهل خيبر عبد الله بن عمر، قام عمر خطيبا، فقال: إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أموالهم، وقال: «**نُقِرُّكُمْ مَا أَقَرَّكُمُ اللهُ**»، وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك، فعدي عليه من الليل، ففُدِعَت يداه ورجلاه، وليس لنا هناك عدو غيرهم، هم عدونا وتهمتنا وقد رأيت إجلاءهم»[١].

وأخيرا قال ابن سلام: «ألا تراه غلظ عليهم أكل الربا خاصة من بين المعاصي كلها، ولم يجعله لهم مباحا، وهو يعلم أنهم يركبون من المعاصي ما هو أعظم من ذلك: من الشرك، وشرب الخمر، وغيره إلا دفعا عن المسلمين، وأن لا يبايعوهم به فيأكل المسلمون الربا، ولولا المسلمون ما كان أكل أولئك الربا إلا كسائر ما هم فيه من المعاصي، بل الشرك أعظم، وإنما أجلاهم عمر عن بلادهم، وقد علم أن لهم عهدا مؤكدا من رسول الله ﷺ؛ بتركهم ما شرط عليهم رسول الله ﷺ من أكل الربا»[٢].

البيان والبلاغة: الرسالة من الرسائل الإدارية؛ إذ إنها موجهة من أمير المؤمنين إلى أحد عماله، مُحدَّدًا الغرض منها، مُرتَّبة فيها الخطوات التي أمر فيها الخليفة عامله باتباعها، ويظهر من خلال تلك الخطوات حكمة الفاروق رضي الله عنه، ونستعرضها فيما يلي: بدأ رسالته بقوله: (**ائْتِهِمْ**): أسلوب إنشائي أمر الغرض منه الحث على سرعة المضي في الأمر، واستخدم الفعل الأمر هنا كتكليف إلزامي بالفعل. وقوله: (**وَلَا تَفْتِنْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**): أسلوب إنشائي نهي الغرض منه كراهة فتنتهم عن دينهم، وفيه تكليف إلزامي بترك الأمر وعدم فتنتهم. وفي الجملة السابقة تناص خفي بقول الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وفيها أيضا كناية عن حفظ المسلمين لعهودهم

١- صحيح البخاري (٣/ ١٩٢-١٩٣).

٢- «الأموال» لابن سلام ص٢٤٧.

مع أهل الذمة المسالمين وعدم إجبارهم على الدخول في الدين. ثم قال: (**ثُمَّ أَجْلِهِمْ**): استخدم العطف بـ (**ثم**) لإفادة التراخي في تأجيلهم، أي: لا تتسرع في إخراجهم حتى يدبروا أمر خروجهم. وفيه كناية عن سماحة الفاروق رضي الله عنه. وقوله: (**مَنْ أَقَامَ مِنْهُمْ عَلَى دِينِهِ**): فيها تفصيل بعد إجمال فبعدما أجمل في قوله: (**أجْلِهم**)، فَصَّلَ في قوله: (**مَنْ أَقَامَ مِنْهُمْ عَلَى دِينِهِ**). ثم يستطرد قائلا: (**وَأَقْرِرِ الْمُسْلِمَ**): أسلوب إنشائي أمر الغرض منه الوجوب. وذِكْرُ حال المسلمين من باب حصر جميع القائمين في البلدة وكيفية التعامل معهم. وهنا تظهر لمحة من لمحات العدل الذي أرساه عمر رضي الله عنه في التعامل مع الرعية من المسلمين وغيرهم؛ إذ قال: (**وَامْسَحْ أَرْضَ كُلِّ مَنْ تُجْلِي مِنْهُمْ**): (**امسح الأرض**)، أي: قسها. و(**كل**) هنا للعموم والشمول، والعبارة السابقة كناية عن عدل الفاروق رضي الله عنه. ثم يقول: (**ثُمَّ خَيِّرْهُمُ الْبُلْدَانَ**): تم التلميح في مقتضى الحال على ما اقترفه هؤلاء من تجاوزات أدت إلى إجلائهم، ورغم ذلك أقام الفاروق رضي الله عنه فيهم العدل فأتاح لهم اختيار البلد التي يحبون الانتقال إليه، ثم يعترض نسق الحديث بمعلومة: (**وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّا نُجْلِيهِمْ بِأَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ**): كناية عن أن عمر رضي الله عنه كان وقافًا عند كلام الله - سبحانه وتعالى - وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم. وفي قوله: (**أَلَّا يُتْرَكَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ**) اقتباس من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لَا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ**». ثم يعود لسياق الحديث عن قوانين إخراجهم، ويكرر قاعدتين كان قد تناولهما: (**فَلْيُخْرَجُوا، مَنْ أَقَامَ عَلَى دِينِهِ مِنْهُمْ**)، (**ثُمَّ نُعْطِيهِمْ أَرْضًا كَأَرْضِهِمْ**)، والتكرار للتأكيد على حقهم. وقوله: (**إِقْرَارًا لَهُمْ بِالْحَقِّ عَلَى أَنْفُسِنَا، وَوَفَاءً بِذِمَّتِهِمْ فِيمَا أَمَرَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، بَدَلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جِيرَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَغَيْرِهِمْ فِيمَا صَارَ لِجِيرَانِهِمْ بِالرِّيفِ**): يدور حديث الفاروق رضي الله عنه السابق حول إعطاء أهل الذمة حقوقهم، وفي ذلك تضمين لمعاني الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في حق أهل

الذمة كقول النبي ﷺ: «**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، وواضح تأثر الفاروق رضي الله عنه فيما فعل من إجلائهم بأمر النبي ﷺ، وكذلك تأثره بكيفية الإجلاء، وإعطائهم حقوقهم من الأرض ومكان الإقامة. والرسالة ككل دلالة على أن الفاروق كان وقَّافا عند كلام الله – تعالى –، قائما بالقسط بين أفراد رعيته، فرضي الله عن الفاروق وسائر صحابة رسول الله ﷺ.

[٤٦٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

إِلَى يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَالِي الْيَمَنِ

وَقَدْ بَلَغَهُ مِنْهُ أَنَّ رِجَالًا قَتَلُوا امْرَأَةً مِنْ حِمْيَرَ[١] فَأُتِيَ بِهِمْ، فَوُجِدَتْ أَكُفُّهُمْ مُخَضَّبَةً بِدَمِهَا

«لَوْ تَمَالَأَ عَلَيْهِ أَهْلُ صَنْعَاءَ؛ لَقَتَلْتُهُمْ جَمِيعًا»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: رسالة من الفاروق عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى عامله باليمن يعلى بن أمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وسبب الرسالة، وهو الثابت الصحيح في الكتب الصحاح: أن امرأة بصنعاء غاب عنها زوجها، وترك في حجرها ابنًا له من غيرها - غلامًا يقال له: أصيل -، فاتخذت المرأة بعد زوجها خليلا، فقالت له: إن هذا الغلام يفضحنا فاقتله، فأبى فامتنعت منه، فطاوعها، فاجتمع على قتل الغلام: الرجل ورجل آخر والمرأة وخادمها، فقتلوه، ثم قطعوا أعضاءه، وجعلوه في وعاء من أدم فطرحوه في بئر ليس فيه ماء. فأُخِذ خليلها فاعترف، ثم اعترف الباقون، فكتب يعلى - وهو يومئذ أمير - بشأنهم إلى عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى - عنه فكتب إليه عمر بقتلهم.

١- اختلفتِ الرِّواياتُ في المقتولِ، فذكرتْ بعضُها أنَّه رجلٌ، وذكرتْ أخرى أنَّه صبيٌّ، وذكرُ ابنُ وهبٍ في «الجامعِ» قصَّتَه، وذكرتْ أخرى أنَّها امرأةٌ، وذكرتْ أخرى أنَّها مِن حِميَرَ، واللهُ أعلمُ بالصَّوابِ.

٢- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٦٨٩٦)، ومالكٌ في «المُوطَّإ» (٣٢٤٦)، وابنُ وهبٍ في «الجامعِ» (٤٨٨)، والشَّافعيُّ في «المُسنَدِ» (١٦١٠)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٨٠٦٩) و(١٨٠٧٥) و(١٨٠٧٦) و(١٨٠٧٧) و(١٨٠٧٩)، وابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (٢٢٧٠)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٨٠٥٠) و(٢٨٢٦٦) و(٢٨٢٦٧) و(٢٨٢٦٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٦٣٩٥) و(١٦٣٩٦) و(١٦٣٩٧) و(١٦٣٩٨).

البيان والبلاغة: لعل يعلى ﷺ تكلم مع عمر ﷺ في شأن قتل الجماعة بالواحد؛ فأجابه عمر ﷺ قائلا: «**لَوْ تَمَالَأَ عَلَيْهِ أَهْلُ صَنْعَاءَ لَقَتَلْتُهُمْ جَمِيعًا**». والجملة شرطية متمثلة من أداة الشرط: (**لو**) وفعل الشرط: (**تَمَالَأَ**). و(اللام) في قوله: (**لَقَتَلْتُهُمْ**) واقعة في جواب (لو). و(**قَتَلْتُهُمْ**): جملة جواب الشرط. وقوله: (**تمالأ**)، أي: تظاهروا وتعاونوا واجتمعوا. والجملة كلها كناية عن مضي الفاروق ﷺ في القصاص لفرد من جماعة متآمرة عليه؛ حفاظا على الأنفس وتحقيقا لمعنى الإحياء.

[٤٦٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ

«يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، أَنْتُمْ رَأْسُ الْعَرَبِ، وَجُمْجُمَتُهَا، وَسَهْمِي الَّذِي أَرْمِي بِهِ إِنْ أَتَانِي شَيْءٌ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا، وَإِنِّي بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَاخْتَرْتُهُ لَكُمْ، وَآثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي إِثْرَةً»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا كتاب من أمير المؤمنين رضي الله عنه لأهل الكوفة يبين فيه فضلهم وفضل من آثرهم به من الأمراء والعلماء.

البيان والبلاغة: سبق شرح هذا النص تحت نصوص سابقة؛ فانظر شرح النص رقم ثمانية وخمسين ومئة، ورقم ثمانية وثلاثين ومئتين، وغيرهما.

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٦/ ٧، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣١١٢)، ووكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ٢/ ١٨٨، والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٥٣٧٩).

[٤٦٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلَا - أَنْزَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ رُخْصَةً فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ، إِلَّا فِي أَمْرَيْنِ: الْعَدْلِ فِي السِّيرَةِ، وَالذِّكْرِ. فَأَمَّا الذِّكْرُ؛ فَلَا رُخْصَةَ فِيهِ فِي حَالَةٍ، وَلَمْ يَرْضَ مِنْهُ إِلَّا بِالْكَثِيرِ. وَأَمَّا الْعَدْلُ؛ فَلَا رُخْصَةَ فِيهِ فِي قَرِيبٍ وَلَا بَعِيدٍ، وَلَا فِي شِدَّةٍ وَلَا رَخَاءٍ. وَالْعَدْلُ - وَإِنْ رُئِيَ لَيِّنًا - فَهُوَ أَقْوَى وَأَطْفَأُ لِلْجَوْرِ، وَأَقْمَعُ لِلْبَاطِلِ مِنَ الْجَوْرِ، وَإِنْ رُئِيَ شَدِيدًا فَهُوَ أَنْكَشُ لِلْكُفْرِ. فَمَنْ تَمَّ عَلَى عَهْدِهِ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ، وَلَمْ يُعِنْ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ فَلَهُمُ الذِّمَّةُ، وَعَلَيْهِمُ الْجِزْيَةُ. وَأَمَّا مَنِ ادَّعَى أَنَّهُ اسْتُكْرِهَ مِمَّنْ لَمْ يُخَالِفْهُمْ إِلَيْكُمْ أَوْ يَذْهَبْ فِي الْأَرْضِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ بِمَا ادَّعَوْا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ تَشَاؤُوا، وَإِنْ لَمْ تَشَاؤُوا فَانْبِذُوا إِلَيْهِمْ، وَأَبْلِغُوهُمْ مَأْمَنَهُمْ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين واليَه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما معظما أمر العدل ووجوبه، ومبينا كيف تكون معاملة أهل الذمة.

البيان والبلاغة: بدأ النص بفصل الخطاب (**أَمَّا بَعْدُ**) الذي يفصل بين المقدمة والموضوع، ويُعِين على الولوج إليه. ثم استهل كلامه بالتأكيد بـ (**إِنَّ**) بيانا لأهمية الموضوع الذي سيتحدث فيه. واستعمل رضي الله عنه أسلوب التفصيل والتقسيم وأسلوب

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٨٥.

اللف والنشر في قوله: (**إِلَّا فِي أَمْرَيْنِ: الْعَدْلِ فِي السِّيرَةِ، وَالذِّكْرِ. فَأَمَّا الذِّكْرُ**)؛ ليكون أكثر بيانا وأقوى إيضاحا. وكذلك في قوله: (**فَمَنْ تَمَّ عَلَى عَهْدِهِ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ، وَلَمْ يُعِنْ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ فَلَهُمُ الذِّمَّةُ، وَعَلَيْهِمُ الْجِزْيَةُ. وَأَمَّا مَنِ ادَّعَى أَنَّهُ اسْتُكْرِهَ** ...). وقوله: (**وَلَمْ يَرْضَ مِنْهُ إِلَّا بِالْكَثِيرِ**): الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر. وقد أطنب في قوله: (**وَأَمَّا الْعَدْلُ؛ فَلَا رُخْصَةَ فِيهِ فِي قَرِيبٍ وَلَا بَعِيدٍ، وَلَا فِي شِدَّةٍ وَلَا رَخَاءٍ**) طلبا للتأكيد وزيادة البيان والإيضاح كيلا يترك لأحد عذرا. واستعمل أفعل التفضيل غير مرة؛ ليكون أقوى في البيان والدلالة على المعنى.

[٤٦٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه وَهُوَ بِالْقَادِسِيَّةِ

«أَنْ جَنِّبِ النَّاس أَحَادِيثَ الْجَاهِلِيَّةِ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْأَحْقَادَ، وَتُنْشِئُ الضَّغَائِنَ. وَعِظْهُمْ بِآيَاتِ اللهِ مَا نَشِطُوا لِلاسْتِمَاعِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أميرُ المؤمنين قائد جيوشه سعدَ بن أبي وقاص رضي الله عنهما ينهاه عن إثارة أحاديث الجاهلية؛ مبينا سبب ذلك النهي.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بـ (**أن**) التفسيرية، وأتبع ذلك بالأمر المباشر، و(**أل**) في قوله: (**الناس**) للعهد الذهني، والمقصود به: المسلمون لاسيما حديثو الإسلام. ثم أطنب بذكر علل ذلك الأمر فقال: (**فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْأَحْقَادَ، وَتُنْشِئُ الضَّغَائِنَ**). وأتبع ذلك بأمر جديد، فقال: (**وَعِظْهُمْ بِآيَاتِ اللهِ مَا نَشِطُوا لِلاسْتِمَاعِ**).

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنساب الأشراف» ١٠/ ٣٢٧.

[٤٦٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه وَهُوَ بِالْمَدَائِنِ

«أَنْ أَقِرَّ الْفَلَّاحِينَ عَلَى حَالِهِمْ، إِلَّا مَنْ حَارَبَ أَوْ هَرَبَ مِنْكَ إِلَى عَدُوِّكَ فَأَدْرَكْتَهُ، وَأَجْرِ لَهُمْ مَا أَجْرَيْتَ لِلْفَلَّاحِينَ قَبْلَهُمْ، وَإِذَا كَتَبْتُ إِلَيْكَ فِي قَوْمٍ فَأَجْرُوا أَمْثَالَهُمْ مَجْرَاهُمْ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يكاتب أميرُ المؤمنين سعدَ بن أبي وقاصٍ رضي الله عنهما في شأن فلاحي المدائن، ماذا يصنع معهم، بعد أن منَّ الله - سبحانه وتعالى - على المسلمين بفتحها.

البيان والبلاغة: قوله: بدأ أمير المؤمنين في هذا النص - كما في عدد من النصوص السابقة - بـ(**أن**) التفسيرية ثم بأسلوب الطلب في صورة الأمر؛ مما يدل على المتابعة الشديدة من أمير المؤمنين لعماله وقادة جيوشه. وقوله: (**فَأَدْرَكْتَهُ**): فيه إيجاز، والتقدير: فلا تقرَّهم على حالهم وعاملهم بما يقتضي حالهم.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٣٠.

[٤٦٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ

«أَنِ احْتَازُوا فَيْئَكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا، فَتَقَادَمَ الْأَمْرُ يَلْحَجْ[1]، وَقَدْ قَضَيْتُ الَّذِي عَلَيَّ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ عَلَيْهِمْ، فَاشْهَدْ»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يَلْحَجْ**): من اللَّحج، وهو النُّشوب، أي: دخول الشيء في الشيء وعلوقه به. والمقصود، والله أعلم: أنه سيصعب نزعه وحيازته بعد ذلك.

مقتضى الحال: يأمر أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أهلَ الكوفة بأن يحتازوا فيئهم قبل أن يتغير الأمر ويتقادم وتحول دون ذلك الحوائل.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بـ (**أن**) التفسيرية، كما فعل في النص السابق، ثم أطنب في تعليل أمره بحيازة الفيء مبينا علة ذلك الأمر. وبدأ الجملة التعليلية بـ (**إنَّ**) التأكيدية؛ تنزيلا للمخاطب منزلة الشاك. وقوله: (**فَيْئَكُمْ**): الإضافة إلى ضمير المخاطب فيها تنبيه للسامع وحث على المبادرة إلى المطلوب.

١- لَحِجَ في الأمرِ يَلحَجُ؛ إذا دخلَ فيه ونَشِبَ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (لحج).

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٣٢.

[٤٦٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلى أَهْلِ السَّوَادِ

«أَنِ اعْمِدُوا إِلَى الصَّوَافِي الَّتِي أَصْفَاكُمُوهَا اللهُ، فَوَزِّعُوهَا عَلَى مَنْ أَفَاءَهَا اللهُ عَلَيْهِ: أَرْبَعَةُ أَخْمَاسٍ لِلْجُنْدِ، وَخُمْسٌ فِي مَوَاضِعِهِ إِلَيَّ، وَإِنْ أَحَبُّوا أَنْ يُنْزِلُوهَا فَهُوَ الَّذِي لَهُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: في هذا الرسالة يخاطب الفاروق ولاته آمرا وموجها لهم بتقسيم الصَّوافِي، وهي: الأَمْلاكُ والأراضي التي جَلاَ عنها أَهْلُها، أَو ماتُوا ولا وَارثَ لها بين من غنموها، بِنِسب محددة.

البيان والبلاغة: قوله: (**اعْمَدُوا**): فعل أمر يدل على النَّصح والإرشاد، والحزم في إدارة الأمور، والإلمام بشئون الرعية والتدخل المباشر من رأس الدولة في كافة أمورهم. وقوله: (**أَصْفَاكُمُوهَا الله**): يوضح عميق إيمان الفاروق بأن كل ما يحدث ويكون هو بتقدير الله؛ فهو يؤمن بذلك ويعلِّمه رعيته. وقوله: (**فَوَزِّعُوهَا**): أمر للمصدقين بتوزيع هذه الصوافي وتقسيمها، وفيه من تحرِّي العدل والإنصاف في القسمة. وقوله: (**عَلَى مَنْ أَفَاءَهَا اللهُ عَلَيْهِ**): فيه توضيح للمستحقين لهذه الصوافي، مَن هم وما نسبة كل منهم. وقوله: (**أَفَاءَهَا اللهُ**): فيه تكرار لنسبة الأمور لله وردها إليه؛ لتأكيد هذا المعنى وترسيخه. وقوله: (**أَرْبَعَةُ أَخْمَاسٍ لِلْجُنْدِ**): فيه تشجيع

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٣١.

للجند وحث لهم على مواصلة الجهاد وفَهم وإدراك من الخليفة لمآلات الأمور. وقوله: (**وَخُمْسٌ فِي مَوَاضِعِهِ إِلَيَّ**): فيه حرص من أمير المؤمنين على حق الدولة وبيت مال المسلمين في أموال كل منهم. وقوله: (**وَإِنْ أَحَبُّوا أَنْ يَنْزِلُوهَا**): فيه تخيير للرعية وتوسعة عليهم وتيسير لهم.

[٤٦٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه وَهُوَ بِالْقَادِسِيَّةِ

«إِنِّي قَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ أَهْلَ الْحِجَازِ وَأَهْلَ الشَّامِ، فَمَنْ أَدْرَكَ مِنْهُمُ الْقِتَالَ قَبْلَ أَنْ يَتَفَقَّؤُوا فَأَسْهِمْ لَهُمْ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله : (**تفقّؤوا**): مأخوذ من: تَفَقَّأَ الدُّمَّلُ والقَرْحُ، إذا انْشَقَّ وخرج ما فيه. ولعلَّ المقصود: انتهاء المعركة، وبروز معالم النصر.

مقتضى الحال: الخطاب موجه من الفاروق رضي الله عنه بالمدينة المنورة إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالعراق، وذلك في عام خمسة عشر من الهجرة تقريبا وقت معركة القادسية.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي قَدْ بَعَثْتُ**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**إنَّ**) و(**قد**) والفعل الماضي. وقوله: (**إِلَيْكَ**): مخاطبة للقائد العسكري سعد بن أبي وقاص الغرض منها التشجيع وبث الثقة. وقوله: (**أَهْلَ الْحِجَازِ وَأَهْلَ الشَّامِ**): تعميم ذكر فيه الكل وأراد البعض؛ للكناية عن كثرة من أرسلهم، ولذلك كرَّر كلمة (**أهل**) في المرة الثانية ولم يكتف بالعطف على الأولى. وقوله: (**فَمَنْ أَدْرَكَ**): جملة شرطية، وقوله: (**مِنْهُمُ**): للتخصيص. وقوله: (**قَبْلَ أَنْ يَتَفَقَّئُوا**): تحديد دقيق لتفاصيل التقسيم

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٨٩٧).

وتوقيته ومستحقيه. وقوله: (**فَأَسْهِمْ**): تكليف بالأمر المباشر وتفويض من الخليفة لولاته بالتصرف بما يشجع المجاهدين ويحقق الصالح العام.

[٤٧٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ

«إِنَّ نَاسًا يَأْخُذُونَ مِنْ هَذَا المَالِ لِيُجَاهِدُوا، ثُمَّ لَا يُجَاهِدُونَ، فَمَنْ فَعَلَهُ؛ فَنَحْنُ أَحَقُّ بِمَالِهِ حَتَّى نَأْخُذَ مِنْهُ مَا أَخَذَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: لم يُذكر المناسبة أو الوقت الذي قيل فيه، وهو موجه من الخليفة إلى أهل الكوفة.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ نَاسًا**): (**إِنَّ**) للتوكيد، وتنكير (**ناسًا**) للتحقير وعدم تعيينهم وتسميتهم؛ سترًا عليهم من أن يفتضحوا على الملأ. وقوله: (**يَأْخُذُونَ مِنْ هَذَا المَالِ لِيُجَاهِدُوا**): توضيح يبين إحاطة الخليفة بما يحدث وعدم غفلته. وقوله: (**فَمَنْ فَعَلَهُ**): جملة شرطية تحذيرية للتهديد. وقوله: (**نَأْخُذَ مِنْهُ مَا أَخَذَ**): دليل على العدل وعدم المبالغة والإسراف في العقوبة.

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» باب: (الجَعَائِلِ وَالحُمْلَانِ في السَّبِيلِ) مُعلَّقًا، ووصلَهُ في «التَّاريخِ الكبيرِ» في ترجمة عمرِو بنِ أبي قُرَّةَ عن إسحاقَ. ورواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٤٩٧).

[٤٧١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«أُوصِيكَ بِمَا أَوْصَاكَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَأَنْهَاكَ عَمَّا نَهَاكَ عَنْهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَآمُرُكَ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَالْفِقْهِ، وَالتَّفَهُّمِ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَعِبَارَةِ الرُّؤْيَا. وَإِذَا قَصَّ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ رُؤْيَا فَلْيَقُلْ: خَيْرٌ لَنَا، وَشَرٌّ لِعَدُوِّنَا»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المقام مقام وعظ من خليفة المسلمين إلى أحد أمرائه، ولم يُذكر زمن القول ولا مكانه.

البيان والبلاغة: قوله: (**أُوصِيكَ**)، (**وَأَنْهَاكَ**): فيه تواضع من الخليفة، وحسن صحبة لولاته. وقوله: (**أَوْصَاكَ بِهِ الْقُرْآنُ**): فيه حضٌّ له على إتباع القرآن والتخلق بأخلاقه وآدابه. وقوله: (**وَآمُرُكَ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ**): يبين مدى حرص الخليفة على تطبيق الشرع والاحتكام إلى القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ والتفقه في الدين. وقوله: (**وَإِذَا قَصَّ أَحَدُكُمْ**): جملة شرطية غرضها النّصح. وقوله: (**فَلْيَقُلْ: خَيْرٌ**): حث على التفاؤل والاستبشار بالرؤيا. وبين (**لنا**) و(**عدونا**): سجع وطباق أبرز المعنى وأعطاه جرسا حلوا.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٩١.

[٤٧٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«لَا تَسْتَقْضِيَنَّ إِلَّا ذَا مَالٍ، وَذَا حَسَبٍ؛ فَإِنَّ ذَا الْمَالِ لَا يَرْغَبُ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ، وَإِنَّ ذَا الْحَسَبِ لَا يَخْشَى الْعَوَاقِبَ بَيْنَ النَّاسِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يُخاطب أمير المؤمنين عامله أبا موسى الأشعريَّ رضي الله عنهما مبينا له صفات من يستحق تولي القضاء، وعلة ذلك.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَا تَسْتَقْضِيَنَّ**): نهي غرضه النُّصح والإرشاد مؤكد بالنون. وقوله: (**إِلَّا ذَا مَالٍ**): استثناء ناقص منفي غرضه الحصر والتخصيص. وتنكير (**مالٍ**) للتكثير. وقوله: (**فَإِنَّ ذَا المَالِ**) تأكيد وتعليل للنهي وتبيين لأسبابه، وكذا في الجملة التي تليها. وبين كلمة (**النَّاس**) في الجملتين جناس تامٌّ.

١- رواهُ وكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ١/ ٧٧.

[٤٧٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«يَا أَبَا مُوسَى، إِنِّي مُسْتَعْمِلُكَ، إِنِّي أَبْعَثُكَ إِلَى أَرْضٍ قَدْ بَاضَ بِهَا الشَّيْطَانُ وَفَرَّخَ، فَالْزَمْ مَا تَعْرِفُ، وَلَا تَسْتَبْدِلْ فَيَسْتَبْدِلَ اللهُ بِكَ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين أبا موسى الأشعريَّ رضي الله عنهما ، مبينا له ما في الأرض التي أرسله إليها من السوء، وكيف يعالج ذلك.

البيان والبلاغة: قوله: (**يَا أَبَا مُوسَى**): أسلوب نداء غرضه التنبيه، واستعمل هنا أداة النداء (**يا**) التي للبعيد؛ إنزالا للمنادى منزلة البعيد؛ إمعانا في التنبيه. وقوله: (**إِنِّي مُسْتَعْمِلُكَ**)، (**إِنِّي أَبْعَثُكَ**): جمل خبرية مؤكدة، تدل على ثبوت الحكم واستقراره. وقوله: (**إِلَى أَرْضٍ**): تنكير (**أرض**) للتحقير. وقوله: (**قَدْ بَاضَ بِهَا الشَّيْطَانُ**): جملة خبرية مؤكدة، وفيها استعارة مكنية؛ حيث شبَّه الشيطان وكأنه طائر يبيض ويفرخ، مما يدل على استشراء الفساد وكثرته فيها. وقوله: (**فَالْزَمْ مَا تَعْرِفْ**): أمر ونصيحة بالتزام الكتاب والسنة والاحتكام إليهما في كل أمر، وعبر عنهما بـ(**ما تعرف**)؛ ليدل على أنهما أهم وأجلُّ من أن يُجهلا، ولثقته في أبي موسى أن مثله يعرفهما. وقوله: (**وَلَا تَسْتَبْدِلْ**): نهي وتحذير عن التخلي عن القرآن والسنة

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٧٠، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٦٠/ ٣٨.

واستبدالهما بغيرهما من الشرائع. وقوله: (**فَيَسْتَبْدِلُ اللهُ بِكَ**): تحذير مما سيؤدي إليه ذلك، وبيان لعاقبته.

[٤٧٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«أَنْ يُغَسِّلُوا دَانْيَالَ بِالسِّدْرِ وَمَاءِ الرَّيْحَانِ، وَأَنْ يُصَلَّى عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ دَعَا رَبَّهُ أَنْ لَا يَلِيَهُ[١] إِلَّا الْمُسْلِمُونَ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ذكر الإمام الطبري في تاريخه أنَّ نبي الله دانيال مات بالسُّوس، «فكان هنالك يستسقى بجسده، فلما افتتحها المسلمون أتوا به فأقروه في أيديهم، حتى إذا ولَّى أبو سبره عنهم إلى جند سابور = أقام أبو موسى بالسوس وكتب إلى عمر فيه، فكتب إليه ...» هذا النصَّ.

البيان والبلاغة: بدأ النصُّ بـ (**أنْ**) التفسيرية التي تحلُّ محل المقدمة قبل الكلام، قوله: (**يُغَسِّلُوا دَانْيَالَ**): أمر يدل على إحاطة عمر رضي الله عنه وعلمه بالأمم السابقة وأنبيائها. وقوله: (**بِالسِّدْرِ وَمَاءِ الرَّيْحَانِ**): فيه حرص على تكريم نبي الله دانيال؛ مرضاة لله تعالى. وقوله: (**يُصَلَّى عَلَيْهِ**): حرص على تطبيق الشرائع الإسلامية على نبي من الأمم السابقة؛ لفهم عمر وإدراكه أن الإسلام هو دين كل الأنبياء.

١- عِندَ البيهقيِّ: «نبيٌّ دعا ربَّهُ أنْ لا يوليه إلَّا المُسلِمونَ». وعندَ ابنِ عساكرَ: «فإنَّهُ نبيٌّ دعا رَبَّهُ ألَّا يُوَارِيَهُ إلَّا المُسلِمُونَ».

٢- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٥١٠) والبيهقيُّ في «دلائلِ النُّبوَّةِ» ١/ ٣٩١ واللَّفظُ لهُ، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٦٧/ ١٦٠.

وقوله: (**فَإِنَّهُ نَبِيٌّ دَعَا**): تعليل للأمر السابق وتوضيح لأسبابه. وقوله: (**لَا يَلِيه إِلَّا الْمُسْلِمُونَ**): استثناء ناقص منفي أفاد القصر والتخصيص.

[٤٧٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ سَتَرَتْ بَيْتَهَا كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ، وَإِنِّي عَزَمْتُ عَلَيْكَ لَمَا أَرْسَلْتَ إِلَيْهَا حِينَ تَقْرَأَ كِتَابِي مَنْ يَنْزِعَ سُتُورَهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النصُّ كتابٌ من أمير المؤمنين إلى أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنهما في شأن امرأة سَترت بيتها بسِترٍ كستر الكعبة، يأمره بإرسال من ينزع ذلك الستر.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا بَعْدُ**): جملة استهلالية، الغرض منها جذب الانتباه لما سيقال. وقوله: (**فَإِنَّهُ بَلَغَنِي**): فيه حث لأبي موسى على التحري والتثبت من هذا الخبر، ولم يذكر المبلِّغ؛ لتركيز الاهتمام على الخبر لا على المخبر. والتنكير في قوله: (**امْرَأَةً**) للجهالة. وقوله: (**كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ**): فيه استنكار واستعظام أن تشبه بيوت النَّاس ببيت الله الحرام. وقوله: (**وَإِنِّي عَزَمْتُ عَلَيْكَ**): طلب مؤكد بـ (**إنَّ**)، و(**عزمت عليك**)، أي: أقسمت عليك، ودلالته واضحة في الحث والتحفيز. وقوله: (**لَمَا أَرْسَلْتَ**): أسلوب طلب مؤكد بـ (**لام القسم**)، و(**ما**) الزائدة للتأكيد، والفعل الماضي الدال على انقضاء الحدث. وقوله: (**حِينَ تَقْرَأَ كِتَابِي**)؛ للدلالة على

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٩١.

خطورة الأمر، والحث على سرعة تغييره. وقوله: (**مَنْ**): اسم موصول يستخدم للعاقل، وفيه تنكير للمرسَل؛ دلالة على عدم أهمية تعيينه وتسميته. وقوله: (**يَنْزِعَ سُتُورَهُ**): فيه دلالة على رحمة عمر برعاياه وعدم المبادرة إلى معاقبة المخطئ إذا كان خطؤه عن جهل، فهو يكتفي بنزع ستور البيت دون معاقبة صاحبته.

[٤٧٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى حُرْقُوصِ بْنِ زُهَيْرٍ [١]

«بَلَغَنِي أَنَّكَ نَزَلْتَ مَنْزِلًا كَؤُودًا، لَا تُؤْتَى فِيهِ إِلَّا عَلَى مَشَقَّةٍ، فَأَسْهِلْ وَلَا تَشُقَّ عَلَى مُسْلِمٍ وَلَا مُعَاهَدٍ. وَقُمْ فِي أَمْرِكَ عَلَى وَجَلٍ تُدْرِكِ الْآخِرَةَ، وَتَصْفُ لَكَ الدُّنْيَا. وَلَا تُدْرِكَنَّكَ فَتْرَةٌ وَلَا عَجَلَةٌ؛ فَتَكْدَرَ دُنْيَاكَ، وَتَذْهَبَ آخِرَتُكَ» [٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النصُّ كتابٌ من أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى أحد قادة الجند، وهو حُرْقُوصُ بن زهير السعديُّ، يأمره فيه ببعض ما يُصلح دنياه وآخرته.

البيان والبلاغة: في هذا الحديث دلالة على أن الراشدين كانوا يجيزون تدابير ولاتهم متى اقتنعوا بوجاهتها، ويوجهونهم لتغييرها إذا ثبت لهم خطؤها. ونجد الحرص على

١- حُرْقُوصُ بنُ زُهَيْرٍ السَّعْدِيُّ: فارسٌ شجاعٌ، زعمَ بعضُ مَن ترجمَ لهُ أنَّهُ هو ذو الخويصرةِ التَّميميُّ، ولا دليلَ ينهضُ بهذا، وقد كنتُ أميلُ إلى التَّفريقِ بينَهما؛ لِاستحالةِ أن يكونَ عمرُ بنُ الخطَّابِ الَّذي شهد ما فعلهُ ذو الخويصرةِ في تقسيمِ غنائمِ حُنينٍ، حتَّى طلبَ مِن النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - أن يضربَ عنقَه، هو الَّذي يعتمدُ عليهِ في القتالِ ويَرتضِيه بعدَ ذلكَ، حتَّى وقفتُ على قولِ الهيثمِ بنِ عديٍّ: إنَّ الخوارجَ تزعمُ أنَّ حُرقوصَ بنَ زهيرٍ كانَ مِن أصحابِ النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -، وأنَّهُ قُتِلَ معَهم يومَ النَّهْرَوانِ، قالَ: فسألتُ عن ذلكَ، فلم أَجِدْ أحدًا يعرفُه. أمرهُ عمرُ بنُ الخطَّابِ بقتالِ الهُرْمُزانِ، فاستولى على سوقِ الأهوازِ ونزلَ بها. ويُذكَرُ مِن جملةِ الخارجينَ على عُثمانَ، ثُمَّ شهِد صِفِّينَ معَ عليٍّ. وبعدَ الحكمينِ صارَ مِن أشدِّ الخوارجِ على عليٍّ، وكانَ أميرَ الرَّاجلةِ في جيشِهم، فقُتِلَ فيمَن قُتِلَ بالنَّهرَوانِ. «الإصابة» ٢/ ٤٤.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٧٨-٧٩.

مصالح الناس شغلَهم الشاغل في كل التعليمات التي يوجهونها، فعندما استقر أحد الولاة بجبل الأهواز وهو منطقة وعرة كتب إليه عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: (**بلغني أنك نزلت منزلا كؤودا**)، فقال: (**بَلَغَنِي**)؛ ليشعر المخاطَب أنه لم يتأكد بعدُ من الخبر، ويدل أيضا على حرص الخليفة على استقصاء أحوال رعيته واهتمامه بكل ما يرِده عنهم. وقوله: (**كَئُودا**): صفة مشبَّهة تدلُّ على صعوبة المُرْتَقى أو مشقة المصعد من (كأَدَ). وقوله: (**لَا تُؤْتَى فِيهِ إِلَّا عَلَى مَشَقَّةٍ**): فيه دلالة على وعورة هذه المنطقة، وصعوبة الارتقاء إليها مما يسبب مشقة للناس إذا أرادوا الوصول للوالي حرقوص بن زهير والاحتكام إليه في أمورهم. وقوله: (**فَأَسْهِلْ**): أمره عمر بأن ينزل عن هذا المنزل الكئود وأن يسكن السهل؛ ليكون قريبا من الرعية، وليسهل عليهم الوصول إليه، وفي ذلك مراعاة من عمر لصالح رعيته وحرص منه على التيسير عليهم. وقوله: (**وَلَا تَشُقَّ عَلَى مُسْلِمٍ**) فيه تأكيد للمعنى السابق، وهو حرص عمر على مصالح رعيته. وقوله: (**وَلَا مُعَاهَدٍ**): يدل على عظمة دين الإسلام وحرصه على الوفاء للمعاهدين والإحسان إليهم. وقوله: (**وَقُمْ فِي أَمْرِكَ عَلَى رِجْلٍ**): جملة طلبية غرضها النَّصح والإرشاد، وكناية عن الحرص والحذر الشديد وتحري مصلحة الرعية وعدم التهاون أو التفريط. وقوله: (**تُدْرِكِ الآخِرَةَ**): جواب الطلب، وفيه توضيح لعاقبة الإخلاص في العمل ومراعاة الرعية، وفيه تشجيع وحث لحرقوص على ذلك. وقوله: (**وَتَصْفُ لَكَ الدُّنْيَا**): عطف على جواب الطلب، وفيه أيضا تحفيز له بحسن العاقبة، وفيه استعارة مكنية وكأن الدنيا ماء يصفو ويروق، وكناية عن طيب العيش. وقوله: (**وَلَا تُدْرِكَنَّكَ فَتْرَةٌ**): نهي مؤكد بالنون، وتنكير (**فترة**) للتقليل، وفيه نهي لحرقوص عن التفريط في أمر الرعية أو التكاسل ولو قليلا. وقوله: (**وَلَا عَجَلَةٌ**): عطف على (**فترة**)، وبينهما تضاد يبرز

المعنى ويوضحه، والعطف؛ لتأكيد النهي. وقوله: (**فَتُكَدِّرَ دُنْيَاكَ وتُذْهِبَ آخِرَتَكَ**): تحذير من سوء عاقبة الإفراط والتفريط، وتوضيح لمغبة ذلك في الدنيا والآخرة. وبين (**دُنياك**) و(**آخرتك**) تضاد يبرز المعنى ويوضحه.

[٤٧٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَبِي جَنْدَلٍ رضي الله عنه، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ قَدْ وَسْوَسَ

«مِنْ عُمَرَ، إِلَى أَبِي جَنْدَلٍ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، فَتُبْ، وَارْفَعْ رَأْسَكَ، وَابْرُزْ، وَلَا تَقْنَطْ؛ فَإِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَقُولُ: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ رسالة من أمير المؤمنين إلى أبي جندل رضي الله عنهما يذكره فيها بما يدفع عنه وساوسه، ويجعله يؤمل في رحمة الله - تعالى -.

البيان والبلاغة: قوله: **(من عمر إلى أبي جندل)** ذِكر اسمه مجردا من الألقاب فيه تواضع وحسن خلق. وبدء الرسالة بآية قرآنية فيه حسن استهلال. وقوله: **(فتب)**: جملة طلبية فيها نصح وإرشاد. وقوله: **(وارفع رأسك)**: كناية عن الثقة بالله وبالنفس، والعزة للمؤمن الواثق. وقوله: **(وابرُز)**: تكرار الأمر للنصح والإرشاد، وفيه نهي عن العُزلة والانطواء. وقوله: **(ولا تقنط)**: نهي عن القنوط واليأس. ومجمل الرسالة يدل على حرص عمر رضي الله عنه على تتبع أصحابه ورجاله واستقصاء أخبارهم وأحوالهم، وتعهدهم بالنَّصيحة.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٧٠٧٨)، والطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٩٧ واللَّفظُ لهُ، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٨٢٢٧)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢٥/ ٣٠٣، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ١٠/ ٧١.

[٤٧٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

لِعُتْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ[١] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِأَذْرِبِيجَانَ

«إِذَا رَأَيْتُمُ الْهِلَالَ نَهَارًا قَبْلَ أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ تَمَامَ ثَلَاثِينَ فَأَفْطِرُوا، وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ بَعْدَ أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ فَلَا تُفْطِرُوا حَتَّى تُمْسُوا»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين واليه عتبةَ بنَ فرقدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهما يأمره ويعلمه بعض أحكام الصيام.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِذَا رَأَيْتُمُ**): جملة شرطية، وحرف الشرط (**إذا**) يستخدم للأمور كثيرة أو متوقعة الحدوث، أما (إنْ) فيستخدم للأمور نادرة الحدوث، واستخدام الضمير فيه تعميم؛ حيث أطلق الكل وأراد البعض، أي: إذا رأى بعضكم. وقوله: (**الْهِلَالَ**): (اللام) لام العهد، والمراد هلال رمضان. وقوله: (**نَهَارًا**): ظرف زمان عام، حدده بقوله: (**قَبْلَ أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ**). وقوله: (**ثَلَاثِينَ**): ذكر العدد وحذف المعدود؛ للعهد، والمراد ثلاثين يوما. وقوله: (**فَأَفْطِرُوا**): جواب الشرط، وفيه توجيه ونصح للرعية، واهتمام بأمورهم الدينية، وتعليم لفقه الصيام.

١- عُتبةُ بنُ فَرقدٍ السُّلَمِيُّ، لَهُ صحبةٌ وروايةٌ، غزا معَ رسولِ الله - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - غزوتَينِ، وروى أبو المعافى في «تاريخِ الموصلِ» عن حُصينٍ - وهو مِن أقرباءِ عُتبةَ - أنَّه شهد خيبرَ، وقُسِم لهُ منها، فكانَ يُعطِيهِ لبني أخوالِه عامًا ولبني أعمامِه عامًا. وأنَّ عمرَ ولَّاهُ في الفتوحِ، ففتح الموصل سنة ثمان عشرة مع عياضِ بنِ غَنْمٍ، وبلغ بالفتح أذربيجانَ، ثمَّ نزل بعد ذلك الكوفة ومات بها. «أسد الغابة» ٣/ ٥٦١، و«الإصابة» ٤/ ٣٦٤.

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٧٣٣٢)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٧٩٨٥).

[٤٧٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، أَوْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ[١] رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي كَتَبْتُ إِلَيْكَ بِكِتَابٍ لَمْ آلُكَ وَنَفْسِي فِيهِ خَيْرًا؛ الْزَمْ خَمْسَ خِلَالٍ يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ، وَتَحْظَى بِأَفْضَلِ حَظِّكَ: إِذَا حَضَرَكَ الْخَصْمَانِ؛ فَعَلَيْكَ بِالْبَيِّنَاتِ الْعُدُولِ وَالْأَيْمَانِ الْقَاطِعَةِ، ثُمَّ أَدْنِ الضَّعِيفَ حَتَّى يَنْبَسِطَ لِسَانُهُ وَيَجْتَرِئَ قَلْبُهُ، وَتَعَاهَدِ الْغَرِيبَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا طَالَ حَبْسُهُ تَرَكَ حَاجَتَهُ وَانْصَرَفَ إِلَى أَهْلِهِ، وَإِذَا الَّذِي أَبْطَلَ حَقَّهُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِهِ رَأْسًا، وَاحْرِصْ عَلَى الصُّلْحِ مَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ الْقَضَاءُ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: من رسائله - رضي الله عنه وأرضاه - لأمرائه على الأقطار الإسلامية، يأمرهم فيها بالعدل في القضاء بين الرعية. والروايات متضاربة أكانت الرسالة لأبي عبيدة أم لمعاوية رضي الله عنهما، ولم يُذكر زمان ولا مكان تلك الرسالة.

البيان والبلاغة: إن الحديث عن عدالة الفاروق رضي الله عنه يستطيع المرء التماسه من خلال الجانب الفعلي والقولي، والمقام هنا مقام تذوق للجانب القولي الذي نلتمسه

١- عندَ أبي يوسفَ، وابنِ أبي الدُّنيا أنَّ الكِتابَ وُجِّهَ إلى أبي عُبيدةَ. وعندَ وكيعٍ البغداديِّ، وقاضي المارستانِ أنَّه لمعاويةَ. وتردَّد البلاذريُّ فقال: (إلى أبي موسى، أو معاوية)!

٢- رواهُ أبو يوسفَ في «الخراجِ» ص١٣٠، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٩١، وابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (١٠٩)، ووكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ١/ ٧٥، وقاضي المارستان في «أحاديثِ الشُّيوخِ الثِّقاتِ» (٣٤٣).

في العديد من الأحاديث التي يأمر فيها أمراءه بالعدل والمساواة. وهذا النَّص من جملة النَّصوص التي استعرضناها وسنستعرضها فيما هو آتٍ - بإذن الله تعالى -. يبدأ الفاروق رضي الله عنه بفصل الخِطَاب **(أما بعد)**، وبها فصل الخِطَاب - الذي يبدأ عادة بالحمد والثناء - عن الموضوع الرئيس الذي يرغب الحديث عنه. ثم يقول: **(فَإِنِّي كَتَبْتُ إِلَيْكَ بِكِتَابٍ لَمْ آلُكَ وَنَفْسِي فِيهِ خَيْرًا)**، فاستعمل **(إنَّ)** الثقيلة والفعل الماضي **(كتب)** للتوكيد. وقوله: **(لَمْ آلُكَ وَنَفْسِي فِيهِ خَيْرًا)**: فيه دليل أن الإمام ينبغي له أن يكتب إلى عماله في كل وقت يوصيهم، وفيه بيان على أنه لم يُقَصِّر بل بالغ في تذكيره وتذكير نفسه بالخير[1]. أما قوله: **(الْزَمْ خَمْسَ خِلَالٍ يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ وَتَحْظَ بِأَفْضَلِ حَظِّكَ)**: فقد بدأ هذا الخطاب الإلزامي الآمر الحازم الذي لا يستقيم القضاء إلا به = بالفعل **(الزم)**، وعلى الرغم من إلزامية الفعل = تعطي جملتا جواب الطلب تعزيزًا فوق الزاميته وسلطته؛ إذ في اتباع هذه الخصال الخمس سلامة الدين وأفضلُ الأجر والثواب. ويفهم ضمنًا أن عدم اتباعها يحول الحوافز الإيجابية إلى حوافز سلبية. وقد أشرنا إلى أن أسلوب التحذير يثير شوق المتلقي لسماع ما هو آت خاصة إن علم شدة وصرامة الآمر، فتجد المتلقي متطلعا إلى الاستماع إلى تلك الخصال التي فيها سلامة الدين والأخذ بأفضل الحظ؛ ولذلك قدَّم جواب الطلب المتضمن الحوافز الإيجابية قبل الشروع في تعدادها، فقال: **(يسلم لك دينك، وتأخذ فيه بأفضل حظك)**؛ لينقاد المتلقي إليها وفي ذهنه تلك الحوافز تؤثر فيه وتدعم تقبله، ومما له صلة بالفعل **(الزم)** العدد الذي أعقبه فهو مبهم، ويأتي التفصيل مفسِّرا. والانتقال بين الإبهام والتفصيل يضفي جاذبية وتأكيدًا عند المتلقي، وهو ينتظر إيضاح ما أبهم بالعدد. فقوله: **(الزم خمس)**: يشكل تركيبًا محوريًّا لا تكتمل دلالته إلا بعد النظر في

١- يُنظر «المبسوط»، للسرخسي، بتصرف يسير (١٦/ ٦٥).

التراكيب التفصيلية التالية له التي تترابط فيما بينها بمقتضى الاتصال التفصيلي. ثم يبدأ في تفصيل تلك الخصال الخمس التي تجعل المتلقي مهيئا ذهنيا لتلقيها فيقول: (**إِذَا حَضَرَكَ الْخَصْمَانِ فَعَلَيْكَ بِالْبَيِّنَاتِ الْعُدُولِ وَالْأَيْمَانِ الْقَاطِعَةِ**)، فصدَّر الفاروق رضي الله عنه حديثه بـ (**إذا**) الشرطية. ثم لجأ إلى لون آخر من الأمر وهو اسم الفعل (**عليك**) وفي استخدامه إبعاد للرتابة التي قد يحدثها تكثيف الأفعال الأمرية المباشرة في النَّص، فضلًا عن كونه يخفف من وقع الأمر المباشر في نفس المتلقي، واسم الفعل كذلك آكد وأبلغ في الإفادة من الأفعال التي يقال إنها جاءت بمعناها. ومعنى: (**الْبَيِّنَاتِ الْعُدُولِ وَالْأَيْمَانِ الْقَاطِعَةِ**): فيه أمر للقاضي بتحري الدقة بالسماع إلى الأدلة البينة والعدول، واللجوء إلى اليمين القاطعة لفض الخصومة والمنازعة، ثم ينتقل إلى فعل الأمر المباشر في قوله: (**ثُمَّ أَدْنِ الضَّعِيفَ حَتَّى يَنْبَسِطَ لِسَانُهُ وَيَجْتَرِئَ قَلْبُهُ**): فـ (**أدن**): أسلوب إنشائي أمر، الغرض منه التوجيه والإرشاد. وقد انتقل الخطاب إلى الرقة؛ لارتباطه بالضعف، والإدناء هنا معنوي، أي: قربه من نفسك ولا تزدريه، وهو كذلك مادي، أي: قربه مكانًا ولا تقصيه؛ ليستمد منك القوة، وليستشعر الأمان فيدلي بحجته، ويطالب بحقِّه. ولم يرد بهذا الأمر تقديم الضعيف على القوي، وإنما أراد الأمر بالمساواة؛ لأن القوي يدنو بنفسه لقوته والضعيف لا يتجاسر على ذلك، والقوي يتكلم بحجته، وربما يعجز الضعيف عن ذلك فعلى القاضي أن يدني الضعيف؛ ليساويه بخصمه حتى يقوى قلبه وينبسط لسانه فيتكلم بحجته. وفي المعنى تضمين للمساواة بين الطرفين ونصرة الضعيف. وقوله: (**وَتَعَاهَدِ الْغَرِيبَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا طَالَ حَبْسُهُ تَرَكَ حَاجَتَهُ وَانْصَرَفَ إِلَى أَهْلِهِ**): والأمر الرابع: (**تعاهد**) ارتبط بالغرباء، فالغريب في عهدة القاضي وفي ذمته، فكأنه أمانة عند القاضي عليه المحافظة عليه إلى حين عودته إلى دياره وقد نال حقه دونما غبن

وطول انتظار. وقد قيل: هذا أمر بتقديم الغرباء عند الازدحام في مجلس القضاء؛ فإن الغريب قلبه مع أهله فينبغي للقاضي أن يقدمه في سماع الخصومة؛ ليرجع إلى أهله. وقد كان رسول الله ﷺ يأمر بتعاهد الغرباء، وقيل: مراده أن الغريب منكسر القلب. ثم يقول: (**وَإِذَا الَّذِي أَبْطَلَ حَقَّهُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِهِ رَأْسًا**)، فإذا لم يخصه القاضي بالتعاهد عجز عن إظهار حجته فيترك حقه ويرجع إلى أهله، والقاضي هو من تسبب في تضييع حقه حين لم يرفع به رأسا. و(رفع الرأس) كناية عن الاهتمام به والجهر بحقه. وأخيرا: (**وَاحْرُصْ عَلَى الصُّلْحِ مَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ الْقَضَاءُ**): وفيه دليل أن القاضي مندوب إليه أن يدعو الخصم إلى الصلح، خصوصا في موضع اشتباه الأمر. وبالنظر للوحدات الفعلية الآمرة: (**الْزَمْ**)، (**فَعَلَيْكَ**)، (**أَدْنِ**)، (**تعَاهَدِ**)، (**احْرُصْ**) يمكننا توزيع تلك الأفعال على مجموعتين ينضم تحت أولاها: (**الْزَمْ، فَعَلَيْكَ**)، ويندرج في ثانيها: (**أَدْنِ، تَعَاهَدِ، احْرُصْ**) وتلعب كلا المجموعتين دورًا تأثيريًّا مميزًا؛ فقد كان عمر رضي الله عنه دقيقا جدًّا في اختيار أفعال الأمر حسب ما يقتضيه المقام، وما يستدعيه الجوُّ النفسيُّ في التعامل مع النَّاس؛ فاستخدم الفعل (**الزم**) وما يدور في فلكه من أفعال الأمر؛ ليربط بين الخصال الخمس في ضرورة الاتباع، وحين جاء إلى التفصيل تنوعت صيغ الأفعال وقوتها حسب مقام كل خصلة؛ إذ لجأ إلى اسم فعل الأمر (**عليك**) في مقام البينة واليمين والصلح، في حين اتخذ الأمر مسارًا عاطفيًّا نفسيًّا في مقام الضعف والغربة والمساواة فيما هو غير مادي.

[٤٨٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

إِلَى أَبِي سَبْرَةَ بْنِ أَبِي رُهْمٍ الْعَامِرِيِّ[١] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

وَقَدْ كَاتَبَهُ فِي عَبْدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَعْطَى أَهْلَ جُنْدَيْسَابُورَ[٢]، فَقَالُوا: إِنَّا لَا نَعْرِفُ حُرَّكُمْ مِنْ عَبْدِكُمْ، قَدْ جَاءَ أَمَانٌ فَنَحْنُ عَلَيْهِ، قَدْ قَبِلْنَاهُ

«إِنَّ اللهَ عَظَّمَ الْوَفَاءَ، فَلَا تَكُونُونَ أَوْفِيَاءَ حَتَّى تَفُوا. مَا دُمْتُمْ فِي شَكٍّ، أَجِيزُوهُمْ، وَفُوا لَهُمْ»[٣].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين أبا سبرةَ بن أبي رُهم رضي الله عنهما في شأن عبد مسلم أعطى مشركي جنديسابور أمانا، أن يمضي لهم ذلك الأمان.

البيان والبلاغة: قوله: (إِنَّ اللهَ عَظَّمَ الوَفَاءَ): جملة خبرية، مؤكدة بـ (إِنَّ)، واستعمال الفعل الماضي (عظَّم) يدلُّ على ثبوت الحكم واستقراره. وقوله: (لا تَكُونُونَ): الفعل المضارع يدل على الاستمرار والتجدد، وقد عُلِّق على شرط أو قيد

١- أبو سَبْرَةَ بنُ أبي رُهْمٍ القرشيُّ العامريُّ: قديمُ الإسلام، هاجرَ الهجرتينِ جميعًا، شهد بدرًا، وأُحُدًا، والخندقَ، والمشاهدَ كلَّها معَ رسولِ الله - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -. وآخى رسولُ الله - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - بينَه وبينَ سلامةَ بنِ وَقشٍ، ولم يختلفوا في شهودِه بدرًا والمشاهدَ كلَّها، وَإنَّما اختلفوا في هجرتِه إلى الحبشةِ. تُوفِّي أبو سبرةَ في خلافةِ عثمانَ. «أسد الغابة» ٦/ ١٣٠.

٢- جُنْدَيْسَابُورُ: مدينةٌ بِخُوزستانَ، بناها سابورُ بنُ أردشيرَ، فنُسِبت إليه، وأَسكنَها سبيَ الرُّومِ وطائفةً من جُندِه. «معجم البلدان» ٢/ ١٧٠.

٣- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٩٣.

وهو تحقق الوفاء فعلا لا قولا فحسب. وقوله: (**حَتَّى تَفُوا**): صيغت الجملة على غرار الحديث الشريف: «**لا تَدْخُلونَ الجَنَّةَ حَتَّى تُؤمِنُوْا ...**». وقوله: (**فِي شَكٍّ**): تنكير (**شك**) للتقليل. وقوله: (**أَجِيزُوهُمْ**)، (**وَفُوا**): في هذا الأمر دليل على عظمة الإسلام ومساواته بين المسلمين، وكذلك على عظمة الفاروق رضي الله عنه وحسن فهمه للإسلام.

[٤٨١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

لِعُتْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ رضي الله عنه بِأَذْرَبِيجَانَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَائْتَزِرُوا[١]، وَارْتَدُوا[٢]، وَانْتَعِلُوا[٣]، وَأَلْقُوا الْخِفَافَ[٤]، وَأَلْقُوا السَّرَاوِيلَاتِ، وَعَلَيْكُمْ بِالشَّمْسِ؛ فَإِنَّهَا حِمَامُ الْعَرَبِ، وَعَلَيْكُمْ بِلِبَاسِ أَبِيكُمْ إِسْمَاعِيلَ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَعُّمَ، وَزِيَّ الْعَجَمِ، وَتَمَعْدَدُوا[٥]، وَاخْشَوْشِنُوا[٦]، وَاخْلَوْلِقُوا، وَاقْطَعُوا الرُّكُبَ[٧]، وَانْزُوا نَزْوًا، وَارْمُوا الْأَغْرَاضَ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - نَهَى عَنِ الْحَرِيرِ إِلَّا هَكَذَا وَهَكَذَا. وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى. فَمَا عَلِمْنَا أَنَّهُ يَعْنِي الْأَعْلَامَ»[٨].

١- أي: شُدُّوا الأُزرَ. انظر: «لسان العرب» ٤/ ١٦.

٢- أي ضَعُوا عليكمُ الأَرْدِيَةَ. انظر: «لسان العرب» ١٤/ ٣١٦-٣١٧.

٣- أي: الْبِسُوا النِّعالَ. انظر: «لسان العرب» ١١/ ٦٦٧.

٤- يعني مِن الثِّياب. في «لسان العرب» ٩/ ٨٢: (الخُفَاخِفُ: صوتُ الثَّوبِ الجديدِ إذا لُبِسَ وحَرَّكتَه).

٥- يُقالُ: تَمَعْدَدَ الغُلامُ؛ إذا شَبَّ وغَلُظَ. وقيلَ: أرادَ: تَشَبَّهوا بعَيْشِ مَعَدِّ بنِ عدنانَ. وكانوا أهلَ غِلَظٍ وقَشَفٍ. أي: كونوا مِثْلَهم، ودَعُوا التَّنَعُّمَ وزِيَّ العَجَمِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (معد).

٦- ويُروَى بالباءِ: «اخْشَوْشِبُوا». قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهاية» ٢/ ٣٢: (اخْشَوْشَبَ الرَّجُلُ: إذا كانَ صُلْبًا خَشِنًا في دِينِه، ومَلبَسِه، ومَطعَمِه، وجميعِ أحوالِه. ويُروَى بالجيمِ وبالخاءِ المُعجَمةِ والنُّونِ. يُريدُ: عِيشُوا عَيْشَ العربِ الأُولَى، ولا تُعوِّدوا أنفسَكم التَّرفُّهَ، فيَقعُدَ بكم عنِ الغَزْوِ).

٧- الرِّكَابُ لِلسَّرْجِ كالغرز للرَّحل، والجمع رُكُبٌ «غريب الحديث» لأبي عُبيدٍ ٣/ ٣٢٥، «لسان العرب» ١/ ٤٣٠، «القاموس» ص١١٧، وإنَّما أمرهم بذلكَ حتَّى يعتادوا ركوبَ الخيلِ بغيرِ رُكُبٍ.

٨- رواهُ ابنُ الجعدِ في «مُسنَدِه» (٩٩٥)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٥٤٥٤)، وأحمدُ في «مُسنَدِه» (٣٠١) مُختصَرًا [وهو في عيون الأخبار (١/ ١٣٢) مسندا بتقديم وتأخير].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ كتاب من أمير المؤمنين لعامله عتبة بن فرقد رضي الله عنه ينصحه بجملة من النصائح تدور حول انتهاج نهج العرب في العيش وترك رفاهية العجم.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا بَعْدُ**): اقتضاب يشبه التخلص، ينتقل به الفاروق من مقدمة الرسالة إلى موضوعها. وقوله: (**فَائْتَزِرُوا**): يوضح مدى اهتمام الفاروق بأدق تفاصيل حياة الرعية وحرصه على كل ما ينفعهم ويصلح شأنهم من لباس ونعل ... إلخ. وقوله: (**وَعَلَيْكُمْ**): اسم فعل أمر بمعنى الزموا. وقوله: (**حَمَامُ الْعَرَبِ**): تشبيه بليغ شبه الشمس بالحمام ليبين فوائدها المتعددة. وقوله: (**أَبِيكُمْ**): الإضافة لضمير المخاطبين؛ لإثارة عاطفة القربى. وقوله: (**وَإِيَّاكُمْ**): اسم فعل أمر بمعنى احذروا، غرضه التحذير. وقوله: (**وَالتَّنَعُّمَ**): حذرهم من التنعم رغم أنه محبب للنفوس، وفي ذلك بُعد نظر من عمر الفاروق وإحاطة ببواطن الأمور وعدم اغترار بنعيم الدنيا. وقوله: (**وَزِيَّ الْعَجَمِ**): تحذير من التبعية والتقليد وحث على الاستقلالية والثقة بالنفس. وقوله: (**وَتَمَعْدَدُوا**): نصائح متتالية في مجملها تنهى عن التنعم وتحض على الزهد والإعراض عن الدنيا.

[٤٨٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى جَزْءِ بْنِ مُعَاوِيَةَ التَّمِيمِيِّ[١] رضي الله عنه (عَامِلِ الْأَهْوَازِ)[٢]

«أَنِ اعْرِضُوا عَلَى مَنْ قِبَلَكُمْ مِنَ الْمَجُوسِ، أَنْ يَدَعُوا نِكَاحَ أُمَّهَاتِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ وَأَخَوَاتِهِمْ، وَأَنْ يَأْكُلُوا جَمِيعًا كَيْمَا نُلْحِقَهُمْ بِأَهْلِ الْكِتَابِ، وَاقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَكَاهِنٍ»[٣]، «وَانْهَوْهُمْ عَنِ الزَّمْزَمَةِ[٤]»[٥].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النص كتاب من أمير المؤمنين إلى عامله على الأحواز جزء بن معاوية التميمي رضي الله عنه يأمره أن يعرض على المجوس قِبَلَه أمورًا إن التزموها سنَّ فيهم سنة أهل الكتاب.

البيان والبلاغة: قوله: **(اعْرِضُوا)**: جملة طلبية، غرضها الأمر، وفي الجملة تخيير للمجوس وحسن تطبيق لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

١- جَزْءُ بنُ مُعاويةَ التَّميميُّ السَّعديُّ، عمُّ الأحنفِ بنِ قيسٍ. قالَ ابنُ عبدِ البرِّ: كانَ عامِلَ عمرَ على الأهوازِ. وقيلَ: لهُ صحبةٌ. ولا يَصِحُّ. وعاشَ جَزْءٌ إلى أن وَلِيَ لزيادٍ بعضَ عملِه. «الإصابة» ١/ ٥٨٦.

٢- الأَهْوَاز، آخِرُه زايٌ، وهي جمعُ هوز، وأصله حوز، فلمَّا كثر استعمالُ الفرسِ لهذه اللَّفظةِ؛ غيَّرتها حتَّى أذهبتْ أصلَها جملةً؛ لأنَّه ليسَ في كلامِ الفرسِ حاءٌ مهملةٌ، وإذا تكلَّموا بكلمةٍ فيها حاءٌ؛ قلبوها هاءً، فقالوا في حَسَن: «هَسَن». وفي مُحَمَّدٍ: «مُهمَّد». ثمَّ تلقَّفها منهم العربُ، فقُلبت بحكم الكثرةِ في الاستعمالِ، وعلى هذا يكونُ «الأهوازُ» اسمًا عربيًّا سُمِّي بهِ في الإسلامِ، وكان اسمُها في أيَّامِ الفرسِ «خوزستان». «معجم البلدان» ١/ ٢٨٤.

٣- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٣٢٢)، وابنُ زَنْجُويْهِ في «الأموالِ» (١٣٥).

٤- الزَّمْزَمَةُ: كلامٌ يقولهُ المجوسُ عندَ أكلِهم بصوتٍ خَفِيٍّ. «النِّهاية» ٢/ ٣١٣.

٥- رواهُ أبو داودَ في «السُّنَنِ» (٣٠٤٣)، وقالَ الألبانيُّ: صحيحٌ.

وقوله: (**مِنَ**) للتبعيض. وقوله: (**وَاقْتُلُوا**): أمر حاسم قاطع لا تهاون فيه. وقوله: (**كُلَّ**): توكيد لفظي يدل على الجدية والحسم. وقوله: (**سَاحِرٍ وَكَاهِنٍ**): العطف أيضا للتوكيد. وقوله: (**وَانْهَوْهُمْ**): جملة طلبية توضح مدى إحاطة الخليفة بأحوال رعيته وحسن معاملته لأهل الديانات الأخرى.

[٤٨٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

إِلَى الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ[١] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُوَ بِالْبَحْرَيْنِ

«أَنْ سِرْ إِلَى عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ، فَقَدْ وَلَّيْتُكَ عَمَلَهُ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى، لَمْ أَعْزِلْهُ إِلَّا يَكُونُ عَفِيفًا صَلِيبًا شَدِيدَ الْبَأْسِ، وَلَكِنِّي ظَنَنْتُ أَنَّكَ أَغْنَى عَنِ الْمُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ مِنْهُ، فَاعْرِفْ لَهُ حَقَّهُ، وَقَدْ وَلَّيْتُ قَبْلَكَ رَجُلًا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ، فَإِنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ تَلِيَ وُلِّيتَ، وَإِنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَلِيَ عُتْبَةُ، فَالْخَلْقُ وَالْأَمْرُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَاعْلَمْ أَنَّ أَمْرَ اللهِ مَحْفُوظٌ بِحِفْظِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ، فَانْظُرِ الَّذِي خُلِقْتَ لَهُ فَاكْدَحْ لَهُ، وَدَعْ مَا سِوَاهُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا أَمَدٌ وَالْآخِرَةَ أَبَدٌ، فَلَا يَشْغَلَنَّكَ شَيْءٌ مُدْبِرٌ خَيْرُهُ عَنْ شَيْءٍ بَاقٍ شَرُّهُ، وَاهْرَبْ إِلَى اللهِ مِنْ سَخَطِهِ، فَإِنَّ اللهَ يَجْمَعُ لِمَنْ شَاءَ الْفَضِيلَةَ فِي حُكْمِهِ وَعِلْمِهِ. نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكَ الْعَوْنَ عَلَى طَاعَتِهِ وَالنَّجَاةَ مِنْ عَذَابِهِ»[٢].

١- العَلاءُ بنُ عبدِ الله بنِ عمادٍ الحَضْرَمِيُّ، كانَ مِن حُلَفاءِ بني أُميَّةَ، ومِن سادةِ المُهاجِرينَ. واستعملَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ- العلاءَ على البحرينِ، وأقرَّهُ أبو بكرٍ، ثُمَّ عمرُ. كان يُقالُ: إنَّه مُجابُ الدَّعوةِ، وخاضَ البحرَ بكلماتٍ قالَها، وذلكَ مشهورٌ في كتبِ الفتوحِ. «سير أعلام النُّبلاء» ١/ ٢٦٢، و«الإصابة» ٤/ ٤٤٥.

٢- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٤/ ٣٦٢، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ٢٤٢.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: رسالة بديعة من أمير المؤمنين إلى عامله العلاء بن عبد الله الحضرمي رضي الله عنهما يأمره بالسير إلى عتبة بن غزوان رضي الله عنه لِيَلِي عمله، وينصحه بما يقربه من الله - تعالى -.

البيان والبلاغة: قوله: (**سِرْ**): جملة طلبية، والأمر بالسير ليس هو المراد بذاته ولكن المراد هو التوجه وتنفيذ الأمر. وقوله: (**فَقَدْ وَلَّيْتُكَ عَمَلَهُ**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**قد**)، والفعل الماضي. وقوله: (**وَاعْلَمْ**): جملة طلبية، غرضها النَّصح والإرشاد. وقوله: (**عَلَى رَجُلٍ**): تنكير رجل للتعظيم، وفيه تنبيه للعلاء بن الحضرمي ليعرف لعتبة قدره. وقوله: (**مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ**): تعظيم لعتبة بن غزوان وعرفان بقدره وفضله، وفي الوقت نفسه تفضيل لمصلحة المسلمين العامة على الأفراد، فرغم فضل عتبة وقدره إلا أن مصلحة المسلمين في هذا الوقت تقتضي غيره. وقوله: (**لَمْ أَعْرِفْهُ إِلَّا يَكُونُ**): استثناء ناقص منفي غرضه القصر والتأكيد. وقوله: (**عَفِيفًا صَلِيبًا شَدِيدَ الْبَأْسِ**): تعدد الصفات الطيبة يوضح قدر عتبة وقيمته. وقوله: (**وَلَكِنِّي**): استدراك يوضح تقدير الفاروق للأمور وتفضيله لمصلحة المسلمين العامة على أي اعتبارات أخرى. وقوله: (**ظَنَنْتُ**): يوضح تواضع عمر وعدم تشبثه برأيه وإدراكه أن اجتهاده قد يصيب وقد يخطئ. وقوله: (**أَغْنَى عَنِ الْمُسْلِمِينَ**): أفعل التفضيل يثبت وجود صفة الغَناء في كل من عتبة والعلاء ولكنها في العلاء أكثر، وفي ذلك - أيضًا - تقدير لقدر عتبة رغم عزله. وقوله: (**فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ**): تخصيص جانب التفضيل وتحديده؛ لأن عتبة قد يفضله في جوانب أخرى. وقوله: (**فَاعْرِفْ لَهُ حَقَّهُ**): جملة طلبية غرضها النَّصح والإرشاد، وفيها مراعاة من عمر لمشاعر عتبة

وحرص على رضاه. وقوله: (**رَجُلا**): تنكير (**رجلا**)؛ لعدم الرغبة في تعيينه لعدم أهمية ذلك. وقوله: (**فَإِنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ تَلِيَ وُلِّيتَ**): جملة شرطية غرضها تثبيت قاعدة أن كل شيء بيد الله وإقرارها في قلب العلاء. وقوله: (**فَالْخَلْقُ وَالْأَمْرُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَاعْلَمْ أَنَّ أَمْرَ الله مَحْفُوظٌ بِحِفْظِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ**): نصائح إيمانية يهدف منها عمر إلى تثبيت اليقين بقلب ولاته. وقوله: (**فَانْظُرِ**): جملة طلبية غرضها النَّصح والإرشاد. وقوله: (**خُلِقْتَ**): بناء الفعل لما يعرف اسمه، وهو الله - تعالى -، فيه لمحة إيمانية لطيفة. وقوله: (**لَهُ**): أسلوب قصر غرضه الحصر والتخصيص. وقوله: (**فَاكْدَحْ**): فيه حث على السعي لمرضاة الله والجد في طاعته. وقوله: (**وَدَعْ**): أمر غرضه النَّص والإرشاد. وقوله: (**مَا سِوَاهُ**)، (**ما**) الموصولة للإطلاق والتعميم. وقوله: (**الدُّنْيَا أَمَدٌ وَالْآخِرَةَ أَبَدٌ**): (**الدُّنْيَا**) و(**الْآخِرَة**) بينهما تضاد، و(**أمد**) و(**أبد**): بينهما جناس ناقص، وتضاد يوضح المعنى ويبرزه. وقوله: (**فَلَا يَشْغَلَنَّكَ**): نهي مؤكد بالنون. وقوله: (**شَيْءٌ**): التنكير للتقليل والتعميم. وقوله: (**وَاهْرُبْ إِلَى الله**): كناية عن التوبة والرجوع إلى الله. وقوله: (**فَإِنَّ اللهَ يَجْمَعُ**): جملة خبرية مؤكدة، غرضها النَّصح والإرشاد.

[٤٨٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ رضي الله عنه

«يَا عُتْبَةُ، إِنِّي قَدِ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَى أَرْضِ الْهِنْدِ، وَهِيَ حَوْمَةٌ مِنْ حَوْمَةِ الْعَدُوِّ، وَأَرْجُو أَنْ يَكْفِيَكَ اللهُ مَا حَوْلَهَا، وَأَنْ يُعِينَكَ عَلَيْهَا، وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَى الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ أَنْ يَمُدَّكَ بِعَرْفَجَةَ بْنِ هَرْثَمَةَ[١]، وَهُوَ ذُو مُجَاهَدَةِ الْعَدُوِّ وَمُكَايَدَتِهِ، فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ فَاسْتَشِرْهُ وَقَرِّبْهُ، وَادْعُ إِلَى اللهِ، فَمَنْ أَجَابَكَ فَاقْبَلْ مِنْهُ، وَمَنْ أَبَى فَالْجِزْيَةُ عَنْ صَغَارٍ وَذِلَّةٍ، وَإِلَّا فَالسَّيْفُ فِي غَيْرِ هَوَادَةٍ، وَاتَّقِ اللهَ فِيمَا وُلِّيتَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُنَازِعَكَ نَفْسُكَ إِلَى كِبْرٍ يُفْسِدُ عَلَيْكَ إِخْوَتَكَ، وَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَعَزَزْتَ بِهِ بَعْدَ الذِّلَّةِ، وَقَوِيتَ بِهِ بَعْدَ الضَّعْفِ، حَتَّى صِرْتَ أَمِيرًا مُسَلَّطًا وَمَلِكًا مُطَاعًا، تَقُولُ فَيُسْمَعُ مِنْكَ، وَتَأْمُرُ فَيُطَاعُ أَمْرُكَ، فَيَا لَهَا نِعْمَةٌ، إِنْ لَمْ تَرْفَعْكَ فَوْقَ قَدْرِكَ وَتُبْطِرْكَ عَلَى مَنْ دُونَكَ! احْتَفِظْ مِنَ النِّعْمَةِ احْتِفَاظَكَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَلَهِيَ أَخْوَفُهُمَا عِنْدِي عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَدْرِجَكَ وَتَخْدَعَكَ، فَتَسْقُطَ سَقْطَةً تَصِيرُ بِهَا إِلَى جَهَنَّمَ، أُعِيذُكَ بِاللهِ وَنَفْسِي مِنْ ذَلِكَ. إِنَّ النَّاسَ أَسْرَعُوا إِلَى اللهِ حِينَ رُفِعَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا فَأَرَادُوهَا، فَأَرِدِ اللهَ وَلَا تُرِدِ الدُّنْيَا، وَاتَّقِ مَصَارِعَ الظَّالِمِينَ»[٢].

١- عَرْفَجَةُ بنُ هَرثَمَةَ بنِ عبدِ العُزَّى بنِ زهيرٍ البارقيُّ، أحدُ الأمراءِ في الفتوحِ. وذكروا أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيق أمدَّ بِهِ جَيْفَرَ بنَ الجُلَنْدَى لَمَّا ارتدَّ أهلُها. «الإصابة» ٤/ ٤٠١.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٩٣، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ٩/ ٦٤٠.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: رسالة ووصية رائقة من أمير المؤمنين إلى عتبة بن غزوان رضي الله عنهما حين استعمله على أرض الهند، يأمره فيها ببعض ما يجب عليه فعله، ويوصيه بتقوى الله - تعالى -.

البيان والبلاغة: قوله: (**يَا عُتْبَةُ**): بدأ الرسالة بالنداء للتنبيه. وقوله: (**إِنِّي قَدِ اسْتَعْمَلْتُكَ**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**إن**)، و(**قد**)، والفعل الماضي. و(**الحومة**): أشدُّ مواضع القتال، وفي استخدام هذا اللفظ تحذير لعتبة؛ لتوخي الحيطة والحذر. وقوله: (**وَأَرْجُو أَنْ يَكْفِيَكَ اللهُ مَا حَوْلَهَا، وَأَنْ يُعِينَكَ عَلَيْهَا**): جمل دعائية، غرضها تنبيه عتبة وتشجيعه على بذل ما في وسعه لحمايتها. وقوله: (**يَمُدَّكَ**): إجراء فيه تشجيع ودعم لعتبة. وقوله: (**ذُو مُجَاهَدَةِ الْعَدُوِّ وَمُكَايَدَتِهِ**): ذكر أوصاف عرفجة فيه طمأنةٌ لعتبة، وكناية عن دهاء عرفجة وقوة بأسه. وقوله: (**فَاسْتَشِرْهُ وَقَرِّبْهُ**): جمل طلبية غرضها النَّصح والإرشاد. وقوله: (**فَمَنْ أَجَابَكَ**): جملة شرطية يعلِّم فيها عمر واليه كيفية التعامل مع البلاد المفتوحة، وفيه إيجاز بحذف الجار والمجرور المتعلق بالفعل (**أجاب**). وقوله: (**فَاقْبَلْ مِنْهُ**): فيه إيجاز بحذف المفعول به. وقوله: (**فَالْجِزْيَةَ**): فيه إيجاز بحذف الفعل والمفعول الأول، والمراد: فألزمه الجزية. وقوله: (**صَغَارٍ وَذِلَّةٍ**): العطف لتوكيد المعنى، والتنكير للتكثير والتحقير. وقوله: (**فَالسَّيْفَ**): إيجاز بحذف الفعل والفاعل. وقوله: (**وُلِّيتَ**): بناء الفعل للمجهول فيع تواضع من عمر؛ لأنه هو الفاعل. وقوله: (**وَإِيَّاكَ**): اسم فعل أمر بمعنى احذر. وقوله: (**تُنَازِعَكَ نَفْسُكَ**): استعارة مكنية صور فيها النفس كأنها مصارع يصارع الرجل وينازعه، ثم حذف المشبه به وأتى بشيء من لوازمه، وهو المنازعة.

وقوله: (**كِبْرٍ**): التنكير للتقليل والتحقير. وقوله: (**وَقَدْ صَحِبْتَ**): (**الواو**) واو الحال، و(**قد**) للتوكيد. وقوله: (**فَعَزَزْتَ بِهِ بَعْدَ الذِّلَّةِ، وَقَوِيتَ بِهِ بَعْدَ الضَّعْفِ**): التضاد بين (**عزِّزْتَ، والذِّلَّةِ**) وبين (**قَويت، والضَّعف**) يبرز المعنى ويوضحه. وقوله: (**حَتَّى**): يفيد الغاية. وقوله: (**تَقُولُ فَيُسْمَعُ**): فاء السرعة تبين ما صار إليه من العزة والتمكين، وبناء الفعل (**يُسمع**) للمجهول أفادت العموم والإطلاق، ومثله قوله: (**وَتَأْمُرُ فَيُطَاعُ**). وقوله: (**فَيَالَهَا نِعْمَةٌ**): أسلوب تعجب، فيه تذكير بهذه النعم. وقوله: (**إِنْ لَمْ تَرْفَعْكَ فَوْقَ قَدْرِكَ**): أسلوب شرط يوضح متى تكون السلطة نعمة ومتى تصير نقمة على صاحبها. وقوله: (**احْتَفِظْ**): جملة طلبية فيها تحذير من الاغترار بالنعم. وقوله: (**احْتِفَاظَكَ**): مفعول مطلق مبين للنوع. وقوله: (**وَلَهِيَ**): لام القسم للتوكيد. وقوله: (**عِنْدِي**): تقديم شبه الجملة للتخصيص. وقوله: (**فَتَسْقُطَ**): (**الفاء**) فاء السببية، والجملة تحذير من المعاصي. وقوله: (**أُعِيذُكَ بِاللهِ وَنَفْسِي**): تقديم ضمير المخاطب في الدعاء فيه تواضع وحسن خلق من الخليفة رضي الله عنه. وقوله: (**إِنَّ النَّاس أَسْرَعُوا إِلَى اللهِ**): جملة خبرية غرضها التحذير بالاعتبار. وقوله: (**حتى رُفِعَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا فَأَرَادُوهَا**): فيه اعتبار بأحوال النَّاس واغترارهم بالدنيا. وقوله: (**فَأَرِدِ اللهَ**): جملة طلبية غرضها النَّصح والإرشاد. وقوله: (**فَأَرِدِ اللهَ وَلا تُرِدِ الدُّنْيَا**): فيه تضاد مقابلة تبرز المعنى وتوضحه. وقوله: (**مَصَارِعَ الظَّالِمِينَ**): في الجملة إيجاز، والتقدير: إياك والظلم فتبوء بمصارع الظالمين.

[٤٨٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ رضي الله عنه

«إِنَّ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ خَرَجَ بِجَيْشٍ، فَأَقْطَعَهُمْ أَهْلُ فَارِسَ، وَعَصَانِي، وَأَظُنُّهُ لَمْ يُرِدِ اللهَ بِذَلِكَ، فَخَشِيتُ عَلَيْهِمْ إِنْ لَا يُنْصَرُوا أَنْ يُغْلَبُوا وَيَنْشَبُوا، فَانْدُبْ إِلَيْهِمُ النَّاسَ، وَاضْمُمْهُمْ إِلَيْكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُجْتَاحُوا»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يُجْتَاحُوا**)، أي: يُستأصلوا.

مقتضى الحال: يخاطب أميرُ المؤمنين واليَه عتبة بن غزوان في شأن العلاء بن الحضرمي - رضي الله عن الجميع - ومخالفته أمر أمير المؤمنين، ثم يبين له التوجيه الصحيح في تلك الحال.

البيان والبلاغة: قوله: (**وَعَصَانِي**): فيه تعبير عن حزن الفاروق وأسفه لما فعل واليه. وقوله: (**وَأَظُنُّهُ**): تواضع من عمر رضي الله عنه واتهام لرأيه وعدم تكبر. وقوله: (**فَخَشِيتُ**): فيه حرص من الفاروق على المسلمين برغم عصيان الوالي له. وقوله: (**يُنْصَرُوا**): بناء الفعل للمفعول في موضع الهزيمة أو عدم النَّصر من حسن الأدب مع الله - تعالى -. وقوله: (**يُغْلَبُوا وَيُنْشَبُوا**): تحذير من عواقب معصية الله وأولي

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٨١، وعنهُ ابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ١٠/ ٥٥.

الأمر. وقوله: (**فَانْدُبْ**): جملة طلبية فيها أمر بالإسراع في النجدة. وقوله: (**النَّاس**): أطلق الكل وأراد البعض للتعميم. وقوله: (**يُجْتَاحُوا**): بناء الفعل للمجهول لعدم أهمية تعيين الفاعل.

[٤٨٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى قُطْبَةَ بْنِ قَتَادَةَ السَّدُوسِيِّ رضي الله عنه[١]

«إِنَّهُ أَتَانِي كِتَابُكَ أَنَّكَ تُغِيرُ عَلَى مَنْ قِبَلَكَ مِنَ الْأَعَاجِمِ، وَقَدْ أَصَبْتَ وَوُفِّقْتَ. أَقِمْ مَكَانَكَ، وَاحْذَرْ عَلَى مَنْ مَعَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ كتاب من أمير المؤمنين إلى قطبة بن قتادة السدوسي رضي الله عنهما يُقِر فيه فعله في قتال الأعاجم، ويأمره بالإقامة على ما هو عليه حتى يأمره بشيء آخر.

البيان والبلاغة: قوله: **(إِنَّهُ أَتَانِي)**: جملة خبرية مؤكدة بـ **(إنَّ)**. وقوله: **(أَنَّكَ تُغِيرُ عَلَى مَنْ قِبَلَكَ)**: ذكر محتوى الكتاب لتحديد الكتاب المقصود وتعيينه. وقوله: **(وَقَدْ أَصَبْتَ)**: فيه إقرار وتأييد لقطبة فيما توجه إليه. وقوله: **(وَوُفِّقْتَ)**: العطف؛ لتأكيد الإقرار. وقوله: **(أَقِمْ مَكَانَكَ)**: جملة طلبية فيها أمر حاسم بالتريث والانتظار. وقوله: **(حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي)**: **(حتى)** للغاية. والخطاب دليل على حسم الفاروق في أمور الفتح والجهاد وتأييده لآراء ولاته إذا ثبتت وجاهتها.

١- قُطْبَةُ بنُ قتادةَ بنِ جريرٍ السَّدُوسِيُّ، أبو الحويصلةِ، قال البخاريُّ: لهُ صحبةٌ. وقالَ ابنُ حبَّانَ: أتى النَّبيَّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - فبايعهُ. استخلفهُ خالدُ بنُ الوليدِ على البصرةِ لَمَّا سارَ إلى السَّوادِ. «الإصابة» ٥/ ٣٣٩.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٩٣.

[٤٨٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ يَجْلِسُ لِلرَّعِيَّةِ فَوْقَ جَبَلٍ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَأَسْهِلْ تُثْمِرْ. وَالسَّلَامُ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النصُّ الوجيز رسالة من أمير المؤمنين إلى أخيه وواليه سمرة بن جندب رضي الله عنهما يأمره باتخاذ مكان سهل قريب من الناس؛ كي يكون ذلك أيسر لهم وأثمر.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا بَعْدُ**): جملة افتتاحية ينتقل بها من مقدمة الرسالة إلى محتواها. وقوله: (**فَأَسْهِلْ**)، أي: أقم في السهل وانزل عن الجبل، وصياغة الفعل فيها إيجاز، والجملة طلبية. وقوله: (**تُثْمِرْ**): جواب الطلب، فيه حث وتشجيع على سكنى السهل وترك الجبل، والرسالة موجزة أيما إيجاز.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٥٠.

[٤٨٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

لِعُتْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ رضي الله عنه بِأَذْرَبِيجَانَ وَقَدْ أَرْسَلَ لَهُ عُتْبَةُ بَعِيرًا يَحْمِلُ خَبِيصًا حُلْوًا

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَلَيْسَ مِنْ كَدِّ أَبِيكَ، وَلَا مِنْ كَدِّ أُمِّكَ، فَأَشْبِعِ الْمُسْلِمِينَ مِمَّا تَشْبَعُ مِنْهُ فِي رَحْلِكَ، وَإِيَّاكُمْ وَزِيَّ الْأَعَاجِمِ وَنَعِيمَهَا، وَعَلَيْكُمْ بِالْمَعَدِّيَّةِ[1]»[2].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين واليَه عتبة بن فرقد رضي الله عنهما مقرِّعا، وآمرا له بالتوسعة على المسلمين.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا بَعْدُ**): جملة افتتاحية مقتضبة ينتقل بها من مقدمة الرسالة إلى موضوعها. وقوله: (**فَلَيْسَ مِنْ كَدِّ أَبِيكَ**): فيه إيجاز بحذف اسم ليس، والجملة فيها تعنيف شديد، ولوم للوالي على تنعمه دون رعيته. وقوله: (**وَلَا مِنْ كَدِّ أُمِّكَ**): العطف؛ لتوكيد المعنى وتوضيحه. وقوله: (**الْمُسْلِمِينَ**): أطلق الكل وأراد البعض، والمراد: رعيته. وقوله: (**مِمَّا تَشْبَعُ مِنْهُ**): فيه حث للوالي على المساواة بينه وبين رعيته، وهذا من قمة عدل الفاروق. وقوله: (**وَإِيَّاكُمْ**): تحذير من التبعية والانهزام وتقليد الأعاجم.

١- أي: بِاللِّبْسَةِ الخَشِنةِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (معد).

٢- رواهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٣٩).

[٤٨٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ الْقُوَّةَ فِي الْعَمَلِ: أَنْ لَا تُؤَخِّرَ عَمَلَ الْيَوْمِ لِغَدٍ؛ فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ تَدَارَكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَعْمَالُ، فَلَمْ تَدْرُوا بِأَيِّهَا تَأْخُذُونَ، فَأَضَعْتُمْ، وَإِنَّ الْأَعْمَالَ مُؤَدَّاةٌ إِلَى الْأَمِيرِ مَا أَدَّى الْأَمِيرُ إِلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَإِذَا رَتَعَ الْأَمِيرُ رَتَعُوا، وَإِنَّ لِلنَّاسِ نَفْرَةً عَنْ سُلْطَانِهِم، فَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكَنِي - أَوْ قَالَ: تُدْرِكَنَا -؛ فَإِنَّهَا ضَغَائِنُ مَحْمُولَةٌ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُتَّبَعَةٌ، فَأَقِيمُوا الْحَقَّ وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(تداركت عليكم)**: تدارك القومُ، ادَّاركوا: أَدْرَكَ بعضُهم بعضًا، ولحِق آخِرهُم بأوَّلهِم. تداركَتِ الأخبارُ: تتابَعَت، تلاحَقَتْ. تَدَارَكَت الأعمال، أي: تتابعت وتراكمت وتكاثرت حتى تعجزوا عن أدائها. وقوله: **(رَتَعَ)**: رَتَعَتِ الماشية تَرْتَعُ رُتوعًا، أي: أكلت ما شاءت. ويقال: خرجنا نَرْتَعُ ونلعب، أي: ننعم ونلهو، وإبلٌ رِتاعٌ: جمعُ راتِعٍ، وقومٌ راتِعونَ. والموضعُ مَرْتَع. وأَرْتَعَ إبلَه فَرَتَعَتْ، وقومٌ مُرْتِعونَ. وأَرْتَعَ الغيثُ، أي: أنبت ما تَرْتَعُ فيه الإبل. وقوله: **(نُفْرَة)**: من النفور والجفاء. وقوله: **(ضَغَائِنُ)**: جمع ضغينة، وهي: الأحقاد والإحن. وقوله: **(مُؤْثَرَة)**: أي: مفضلة على غيرها، من الأثرة التي حذر منها الرسول ﷺ في قوله: «**سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً** ...».

١- رواهُ أبو عُبيدٍ في «الأموالِ» (١٠)، و«الخطبِ والمواعظِ» (١٣٦).

مقتضى الحال: المقام مقام وعظ وإرشاد ونصح وتوجيه من عمر رضي الله عنه الذي كان يحرص على تعهد عماله وولاته بين حين وآخر، يذكرهم بالله وينبههم على ما قد يغفل عنه بعضهم من حقوق الرعية.

البيان والبلاغة: استهل عمر رضي الله عنه خطابه لعامله أبي موسى الأشعري بقوله: (**أَمَّا بَعْدُ**)؛ ليستثير انتباهه لما سيرد في الخطاب من نصائح، وكون أبي موسى الأشعري من كبار صحابة النبي صلى الله عليه وسلم لم يمنع عمر من توجيه النُّصح له. وقوله: (**فَإِنَّ الْقُوَّةَ فِي الْعَمَلِ أَنْ لَا تُؤخرَ**): جملة خبرية فيها معنى الإنشاء؛ حيث استعاض عمر عن توجيه الأمر مباشرة إلى أبي موسى بجملة خبرية يفهم منها اللبيب أنها حض له على المبادرة بالعمل وعدم التسويف والتأجيل. وتنكير قوله: (**عَمَل**) و(**غَد**) للعموم والشمول؛ فالمراد أن لا يؤخر عملا، أيَّ عمل، صغيرا كان أو كبيرا، عظيما كان أو حقيرا، لغَد، أي غد. وقوله: (**إِذَا فَعَلْتُمْ**): أسلوب شرط، وهذا الأسلوب والذي بعده الغرض منها التحذير؛ للتنبيه والتخويف من التسويف وإضاعة الأعمال، عن طريق توضيح عواقب هذه الأمور ومآلاتها في جواب هذه الجملة الشرطية. ويؤكد ذلك تعدد الأفعال المذكورة في جواب الشرط: (**تَدَارَكَتْ**)، (**فلم تَدْرُوا**)، (**فَأَضَعْتُمْ**). وقوله: (**مُؤَدَّاة**): اسم مفعول لم يذكر فاعله؛ ليدل على العموم فإذا أدى الأمير ما عليه فإن غالب الرعية ومعظمها يؤدون أعمالهم، اقتداء به وتأسيا. وقوله: (**فَإِذَا رَتَعَ الْأَمِيرُ رَتَعُوا**): فعل الشرط هو نفس فعل الجواب؛ ليدل على أن الجزاء من جنس العمل. وقوله: (**وَإِنَّ لِلنَّاسِ نُفْرَةً**): تقديم لخبر (**إنَّ**) على اسمها للاختصاص والتنبيه، وتنكير (**نُفْرَةً**): للتعظيم والتهويل والتحذير. وقوله: (**سُلْطَانِهِم**): أضاف السلطان إلى ضمير الغائبين العائد على النَّاس؛ ليبين ارتباطهم بالسلطان وحبهم

لطاعته، ورغم ذلك ينفرون عنه ويعصونه ويخرجون عليه إذا قصَّر في رعايتهم والقيام على مصالحهم. وقوله: (**فَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكَنِي**): تعوذ عمر من هذه النفرة وتخوفه منها رغم سعيه لإقامة دولة العدل، ورغم تلقيب النَّاس له بالفاروق، وهذا من خصائص عمر التي تميز بها، وهو دوام الخوف من الله والمراقبة له واستصغار عمله رضي الله عنه. وقوله: (**مَحْمُولَة**)، (**مُؤْثَرَة**)، (**مُتَّبَعَة**): استعمل أسماء المفعولين دون ذكر الفاعلين؛ لجهالة الزمان والقوم الذين تحدُث في عهدهم هذه الفتنة. وقوله: (**وَدُنْيَا مُؤْثَرَة، وَأَهْوَاء مُتَّبَعَة**): تحذير من الأثرة واتباع الهوى اللذين حذر منهما النبي ﷺ في قوله: «**حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ**». وقوله: (**فَأَقِيمُوا الْحَقَّ**): استعارة مكنية؛ شبه فيها الحق وكأنه بناء يؤمر الولاة بإقامته. وقوله: (**وَلَوْ سَاعَة مِنْ نَهَار**): فيه حذف على غرار قول المصطفى ﷺ: «**الْتَمِسْ، وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ**»، أي: ولو كانت مدة إقامتكم للحق ساعة من نهار. وتنكير (**نهار**) للعموم والشمول.

[٤٩٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ

«إِذَا تَدَاعَتِ الْقَبَائِلُ فَاضْرِبُوهُمْ بِالسَّيْفِ، حَتَّى يَصِيرُوا إِلَى دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ كتاب حاسم من أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى أمراء جنده، يأمرهم بقتال من دعا إلى الشرك أو دعوة جاهلية، حتَّى يعود إلى دعوة الإسلام.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِذَا تَدَاعَتِ**): جملة شرطية غرضها الأمر والتوجيه، وأتى بالفعل بصيغة الماضي ووزن التفاعل؛ لتحري التأكد من حدوث التداعي والتألب والتعاضد والتعاون والإصرار على سيِّئ الفعل. وقوله: (**الْقَبَائِلُ**): فيه تحقير للقبائل وتذكير بالجاهلية والعصبية القبلية، والتعريف بـ (**أل**) للعموم والإطلاق. وقوله: (**فَاضْرِبُوهُمْ**): جملة طلبية حاسمة غرضها الأمر والحسم. وقوله: (**بِالسَّيْفِ**): التعريف بـ (**أل**) العهد؛ للتهديد والوعيد وتعظيم السيف والتخويف به. وقوله: (**حَتَّى يَصِيرُوا**): (**حتى**) تفيد الغاية، مما يدل أن الأمر بالضرب والقتال مسبب بسبب وله غاية إذا تحققت يتوقف. وقوله: (**يَصِيرُوا**): تفيد التحول والانتقال وتغير الحال من الكفر إلى الإيمان. وقوله: (**إِلَى دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ**): فيه حرص من عمر على دعوة النَّاس وهدايتهم، وإدراك لوظيفته الأولى وهي الدعوة إلى الإسلام.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨٣٤٠).

[٤٩١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ، وَأَنْفِذْ إِذَا تَبَيَّنَ لَكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ، آسِ[١] بَيْنَ النَّاسِ فِي مَجْلِسِكَ، وَفِي وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ؛ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ[٢]، وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ، فَالْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ النَّاسِ إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا، وَلَا يَمْنَعْكَ مِنْ قَضَاءٍ قَضَيْتَ بِهِ الْيَوْمَ، فَرَاجَعْتَ فِيهِ نَفْسَكَ، وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ، أَنْ تُرَاجِعَ فِيهِ الْحَقَّ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ، وَلَا يُبْطِلُ الْحَقَّ شَيْءٌ، وَإِنَّ مُرَاجَعَةَ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ. الْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا يَتَلَجْلَجُ[٣] فِي نَفْسِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي قُرْآنٍ وَلَا سُنَّةٍ، ثُمَّ اعْرِفِ الْأَشْبَاهَ وَالْأَمْثَالَ، وَقِسِ الْأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ اعْمِدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللهِ وَأَشْبَهِهَا بِالْحَقِّ فِيمَا تَرَى، فَاجْعَلْ لِمَنِ ادَّعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمَدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَةً أَخَذَ بِحَقِّهِ، وَإِنْ عَجَزَ عَنْهَا اسْتَحْلَلْتَ عَلَيْهِ الْقَضِيَّةَ؛ فَإِنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْعُذْرِ، وَأَجْلَى لِلْعَمَى. الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ، أَوْ مُجَرَّبًا عَلَيْهِ شَهَادَةُ زُورٍ، أَوْ ظَنِينًا[٤] فِي

١- آسِ بينَ النَّاس: أي سَوِّ بينهم «الكامل في اللُّغة» ١/ ١٧.

٢- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ١/ ٤٦٩: (أي: في مَيلِكَ معه لشَرَفِه. والحَيفُ: الجَورُ والظُّلمُ).

٣- تَلَجْلَجَ: أي تَردَّدَ في صَدرِك، وقَلِقَ ولم يَستقِرَّ. «لسان العرب» ٢/ ٣٥٦.

٤- أو ظَنِينًا في وَلَاءٍ أو نَسَبٍ، أي: مُتَّهَم. «الكامل في اللُّغة» ١/ ١٨.

وَلَاءٍ أَوْ قَرَابَةٍ؛ فَإِنَّ اللهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرَائِرَ، وَدَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْأَيْمَانِ. وَإِيَّاكَ وَالْغَلَقَ، وَالْغِلَظَ، وَالضَّجَرَ، وَالتَّأَذِّي بِالنَّاس عِنْدَ الْخُصُومِ، وَالتَّنَكُّرَ لِلْخُصُوم فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ الَّتِي يُوجِبُ اللهُ فِيهِ الْأَجْرَ، وَيُحْسِنُ فِيهِ الذُّخْرَ، فَمَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُ - وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ - كَفَاهُ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاس، وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي قَلْبِهِ شَانَهُ اللهُ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ عَبْدِهِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ[١] -، وَعَاجِلِ رِزْقِهِ، وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: وَلِيَ أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قضاء البصرة مع ولايتها من عام سبعة عشر إلى خمسة وعشرين من الهجرة، ما عدا سنة اثنين وعشرين من الهجرة؛ حيث تولى البصرة مع قضائها لعمر، وتلك الرسالة إلى أبي موسى الأشعري في بداية ولايته رضي الله عنه، أي: في العام السابع عشر من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم. والمقام هنا مقام إرشاد وعظة؛ فأمير المؤمنين رضي الله عنه يأمر الراعي بطاعة الله في رعيته، وتعد تلك الرسالة بكل ما حملته من تشريعات قضائية تعد مرسومًا قضائيًّا يحتاج إليه القضاة جميعًا، والولاة الذين كان القضاء جزءًا من مهامهم.

١- وفي «إعلامِ المُوقِّعينَ» ٢/ ١٢٥: «فما ظنُّك بثوابِ عبدِ الله» قالَ ابنُ القيِّم: (يريدُ بِهِ تعظيمَ جزاءِ المُخلِصِ، وبيانَ أنَّ جزاءَ العاملينَ كما ذُكِرَ في القرآنِ مِرارًا لا يقدَرُ قدرُه عندَ اللهِ، وأنَّهم سيُوفَّوْن أجرَهم في هذه الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ).

٢- رواهُ ابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٧٦، ووكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ١/ ٧٠، والدَّارقطنيُّ في «السُّنَنِ» (٤٤٧١)، والشَّجريُّ في «ترتيبِ الأمالي الخميسيَّةِ» (٢٦٢٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٥٣٧)، و«معرفةِ السُّنَنِ والآثارِ» (١٩٧٩٢).

البيان والبلاغة: اجتمع في هذه الرسالة البليغة التوجه التشريعي والقانوني والأدب القضائي الذي صِيغَ بأسلوب أدبي يعتمد على الإقناع العقلي والتأثير العاطفي، ونلتمس ذلك من خلال ما يلي: بدأ الفاروق - رضي الله تعالى عنه - بقوله: (**سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**): فتلك البداية من خصائص الرسائل بعد الإسلام؛ إذ تبدأ بالسلام، ثم حمد الله - تعالى -. و(**أَمَّا بَعْدُ**): هي فصل الخطاب لقطع الكلام واستئناف كلام آخر غيره، بلا علاقة تكون بينه وبينه؛ فقد بدأ الفاروق حديثه بالسلام وذكر الله وتحميده، فلما أراد الخروج إلى الغرض المطلوب من الخطاب فصل حديثه بـ: (**أما بعد**). وقوله: (**فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ**): أسلوب مؤكد بـ (**إنَّ**) الثقيلة؛ للدلالة على أهمية القضاء كفريضة واجبة قاطعة لا يمكن أن تستقيم حياة البشر بدونها، والوجوب في حكمها مستمد من قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، ومن قوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨]، والكلام في الآية الكريمة موجه للنبي ﷺ، وذلك يسمى بلاغيًّا بالتناص الخفي. و(**القضاء**) هو: الحكم بين النَّاس بالحق، فهو ضروري لمساس الحاجة إليه؛ لإنصاف المظلوم من الظالم وقطع المنازعات التي هي مادة الفساد، وغير ذلك من المصالح التي لا يستتب الأمن ولا يسود النظام في المجتمع الإنساني إلا برعايتها والقيام عليها بالأحكام المبنية على الأوامر والنواهي المستنبطة من شرع سماوي. وقوله: (**محكمة**): يريد به أن ما يحكم به الحاكم نوعان: أحدهما: فرض محكم غير منسوخ؛ كالأحكام الكلية التي أحكمها الله في كتابه فهي لا تحتمل النسخ ولا التخصيص ولا التأويل أو هي الأحكام التي عرف وجوبها بالعقل. والقسم الثاني: من الأحكام التي سنها رسول الله ﷺ. وهذان النوعان هما المذكوران

في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ فَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ**»[١]. وقوله: (**وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ**)، أي: طريقة مسلوكة في الدين يجب اتباعها على كل حال. والملاحظ على العبارة الأولى أن الفاروق اعتمد الوضوح والمباشرة في التعبير؛ فقد بدأ بتعريف القضاء، واعتمد في تعريفه على العبارات الموجزة، وهذا ما ترمي إليه الرسائل الإدارية، فتكون غاية النَّص توصيل فكرة للمتلقي بألفاظ واضحة بعيدة عن التصنع والتطويل. فالعبارة الأولى: (**فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ**): فيها إيجاز بعبارة مجملة بعيدة عن الإطناب والشرح؛ لاعتماده على فهم متلقي الرسالة. ثم يقول: (**فافهم إذا أدلي إليك**) و(**الإدلاء**): رفع الخصومة إلى الحاكم، و(**الفهم**): إصابة الحق في إدراك ما يلقى إليه، فمعناه: عليك ببذل المجهود في إصابة الحق إذا أدلي إليك، وقيل: اسمع كلام كل واحد من الخصمين وافهم مراده، وبهذا يؤمر كل قاض؛ لأنه لا يتمكن من تمييز المُحِق من المبطل إلا بذلك، وربما يجري على لسان أحد الخصمين ما يكون فيه إقرار بالحق لخصمه، ويقول العلامة ابن قيم الجوزية معلقا على قول الفاروق: «(**فافهم إذا أدلي إليك**)؛ لأن صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده؛ لأن صحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ومادته: حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الله في السر والعلانية. ويقطع مادته: اتباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى. ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما: فهم الواقع، والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط بها علما.

١- أخرجه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٤/ ٣٦٩ - ٧٩٤٩)، وضعفه الذهبي.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو: فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر»[١]. ويُلاحظ على كلام الفاروق رضي الله عنه أنه سيبدأ من تلك الجملة: (**فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ**) في توجيه الأوامر للقاضي. والأسلوب الإنشائي الأمر الغرض منه ههنا النَّصح والإرشاد، وتلك النَّصيحة الأولى وقد مضى تفسيرها. ثم يمضي إلى النَّصيحة الثانية: (**وَأَنْفِذْ إِذَا تَبَيَّنَ لَكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ**): ومراد الفاروق رضي الله عنه هنا التحريض على تنفيذ الحق إذا فهمه الحاكم، ولا ينفع تكلمه به إن لم يكن له قوة تنفيذه، فهو تحريض منه على العلم بالحق والقوة في تنفيذه، والأسلوب الآمر ههنا كسابقه الغرض منه النَّصح والإرشاد. وزاد من البلاغة هنا استخدامه أسلوب التفصيل بعد الإجمال؛ فقد أجمل القول في: (**وَأَنْفِذْ إِذَا تَبَيَّنَ لَكَ**)، ثم فصله في بيان مراده في قوله: (**فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ**)، واستخدم التأكيد بـ (**إِنَّ**) للدلالة على قطعية الأمر. ثم ينطلق للنصيحة الثالثة: (**آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَجْلِسِكَ، وَفِي وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ**)، أي: أنه لابد على القاضي أن يسوي بين الخصوم إذا تقدموا إليه، اتفقت أحوالهم وصفاتهم أو اختلفت؛ لأن كلمة (**النَّاس**) اسم جمع تتناول الكل. والتسوية تكون في النظر إلى الخصمين، والإقبال عليهما في جلوسهما بين يديه حتى لا يقدم أحدهما على الآخر؛ لأن هذا عنوان عدله في الحكومة، فمتى خص أحد الخصمين بالدخول عليه أو القيام له أو بصدر المجلس والإقبال عليه والبشاشة له والنظر إليه = كان عنوان حيفه وظلمه. و قوله: (**وَجْهِكَ**): مجاز مرسل علاقته الجزئية، وإنما ذكر الوجه؛ لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل عليه بوجهه؛ لأن أول ما يستقبل الإنسان الوجه فعبر به عن

١- «إعلام الموقعين» (١/ ٦٩).

إقباله على الخصمين، وعدم الالتفات لأحدهما دون الآخر. وقوله: (**عدلك**): فإن كان حضه على مراعاة الإقبال على الخصمين والبشاشة في وجههما، فالعدل بهما أولى وأجدر والعطف بين الفعلين؛ للتأكيد على أهميتهما. ثم ينتهج نفس المنهج الذي اتبعه في النَّصيحة السابقة فيقول: (**حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ**): فإذا قدَّم الشريف طمع في ظلمه، أي: في أن تكون الغلبة له، وانكسر بهذا التقديم قلب خصمه الضعيف فيخاف الجور وييأس من عدله، وربما يتمكن الشريف عند التقديم من التلبيس على القاضي، ويعجز الضعيف عن إثبات حقه بالحجة، والقاضي هو المتسبب لذلك بإقباله على أحدهما وتركه التسوية بينهما في المجلس، ويصير متهما بالميل أيضًا. فيظهر من خلال ما سبق احترام الفاروق لمشاعر الضعفاء، وفي قوله تناص خفي بقول الخليفة الأول الصديق ﵁: «والضعيفُ فيكم قوي عندي حتى أرجع إليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله»، فالنَّصان يحضان على توجيه الاهتمام بالضعيف وعدم العناية بشريف القوم على حساب من لا ناقة له ولا جمل. وانظر هنا إلى الانتقال المنطقي الذي انتقل إليه الفاروق ببراعة فائقة بعد أن أمره بما سبق الإشارة إليه، فقد يجد تساويًا في الحجج المنطقية المقدمة من كلا الطرفين، فماذا على القاضي أن يفعل؟! يقول الفاروق ﵁: (**فَالْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ**): وهذا تناص جلي من قول النبي ﷺ؛ فعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ إِلَّا فِي الْقَسَامَةِ**» و(**البينة**): كل ما يبين الدعوى ويظهر المقصود، وهي حجة المدعي التي يُثبت بها دعواه، وذهب جمهور الفقهاء إلى أن المراد بالبينة: الشهود، وذهب فريق آخر إلى أن البينة هي: كل ما يبين الحق ويظهره من الشهود، والإقرار، والقرائن، وغير ذلك. أما اليمين فلا يلجأ

القاضي إلى تحليف المدعى عليه إلا عند عجز المدعي عن إقامة البينة فإذا حلف المدعَى عليه اليمين قضى الحاكم بإبرائه، فإن أحضر المدعِي بينة بعد ذلك حكم بها القاضي، وللفاروق رضي الله عنه قول في هذا: «البينة الصادقة أحب إليَّ من اليمين الفاجرة». ومن توجهت إليه اليمين فعليه أن يحلف ولا يترك حقه، وقد أمر عمر بذلك فقال وهو على المنبر يخطب النَّاس وفي يده عصا: (**يا أيها النَّاس لا تمنعكم اليمين من حقوقكم؛ فوالذي نفسي بيده إن في يدي لعصا**). وقوله: (**وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ النَّاس، إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالا**): وفي ذلك الحديث أيضًا تناص جلي بحديث عمرو بن عوف المزنيِّ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلاَّ صُلْحًا حَرَّمَ حَلاَلاً، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا، وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ، إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلاً، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا**». وقد ندب الله – سبحانه وتعالى – إلى الصلح في كثير من الآيات الكريمة، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات : ٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء : ١٢٨]، لهذا كان القاضي مأمورًا بدعاء الخصمين إلى الصلح، كما أن الفاروق رضي الله عنه حض على الصلح فقال: «ردوا الخصوم حتى يصطلحوا؛ فإن فصل القضاء يحدث بين القوم الضغائن»، وقال أيضًا: «ردوا الخصوم لعلهم أن يصطلحوا؛ فإنه آثر للصدق وأقل للخيانة»، وقال أيضًا: «ردوا الخصوم إذا كانت بينهم قرابة؛ فإن فصل القضاء يورث بينهم الشنآن والعداوة والبغضاء»، وذلك كله مأخوذ من المعلم الأكبر صلى الله عليه وسلم في قضائه؛ فعن أم سَلَمَة قالت: أتى رَسُولَ اللهَّ – صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رَجُلَانِ يَخْتَصِمَانِ في مواريث لهما لم تكن لهما بينة إلا دعواهما، فقال النَّبِيُّ – صلى اللهُ عليه وسلم –: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ**

مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ بِشَيْءٍ فَلاَ يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا؛ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ» فَبَكَى الرَّجُلَانِ، وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: حَقِّي لَكَ؛ فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**أَمَّا إِذْ فَعَلْتُمَا مَا فَعَلْتُمَا فَاقْتَسِمَا وَتَوَخَّيَا الْحَقَّ ثُمَّ اسْتَهِمَا ثُمَّ تَحَالا**». وقوله: (**إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالا**): استثنى من الصلح ما يتعلق بشرائع الله وحدوده؛ فالتسامح والمصالحة تكون في حق العباد إن قبلوا الصلح، أما حق الله فلا صلح فيه، ولابد من إقامة الحد درءًا للفتن المترتبة على ذلك. وقد مضت الإشارة إلى الترتيب المنطقي الذي يتبعه الفاروق رضي الله عنه في حصر المواقف التي قد تواجه القاضي. وهنا ينتقل الفاروق للحديث عن القاضي ذي النفس الوقَّافة على الحق الأوابة إلى الصواب؛ فيقول: (**وَلَا يَمْنَعَكَ مِنْ قَضَاءٍ قَضَيْتَ بِهِ الْيَوْمَ فَرَاجَعْتَ فِيهِ نَفْسَكَ، وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ، أَنْ تُرَاجِعَ فِيهِ الْحَقَّ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ، وَلَا يُبْطِلُ الْحَقَّ شَيْءٌ، وَإِنَّ مُرَاجَعَةَ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ**). يقول ابن قيم الجوزية في إعلام الموقعين: «يريد إنك إذا اجتهدت في حكومة ثم وقعت لك مرة أخرى، فلا يمنعك الاجتهاد الأول من إعادته؛ فإن الاجتهاد قد يتغير، ولا يكون الاجتهاد الأول مانعا من العمل بالثاني إذا ظهر أنه الحق؛ فإن الحق أولى بالإيثار؛ لأنه قديم سابق على الباطل، فإن كان الاجتهاد الأول قد سبق الثاني والثاني هو الحق فهو أسبق من الاجتهاد الأول؛ لأنه قديم سابق على ما سواه، ولا يبطله وقوع الاجتهاد الأول على خلافه، بل الرجوع إليه أولى من التمادي على الاجتهاد الأول. قال عبد الرزاق: حدثنا معمر عن سماك بن الفضل عن وهب بن منبه عن الحكم بن مسعود الثقفي قال: قضى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في امرأة توفيت وتركت زوجها وأمها وأخوتها لأبيها وأمها وأخويها لأمها، فأشرك عمر بين الأخوة للأم والأب والإخوة للأم في الثلث، فقال له رجل: إنك لم تشرك

بينهم عام كذا وكذا، قال عمر: تلك على ما قضينا يومئذ، وهذه على ما قضينا اليوم. فأخذ أمير المؤمنين في كلا الاجتهادين بما ظهر له أنه الحق، ولم يمنعه القضاء الأول من الرجوع إلى الثاني، ولم ينقُضِ الأول بالثاني، فجرى أئمة الإسلام بعده على هذين الأصلين»[1]. وقوله: (**فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ**): كناية عن أن الحق ثابت لا يتغير بتغير الأحوال والأزمان. وبين (**الحق**) و(**الباطل**): تضاد يبرز المعنى ويؤكده، وبين (**مُرَاجَعَةَ الْحَقِّ**) و(**التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ**): طباق يؤكد المعنى ويبرزه. وهنا ينتقل لحادثة جديدة قد تصادف القاضي في مهمته، يتعرض لها الفاروق في حصره المنطقي المبهر، فيقول: (**الْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا يَتَلَجْلَجُ فِي نَفْسِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي قُرْآنٍ وَلَا سُنَّةٍ، ثُمَّ اعْرِفِ الْأَشْبَاهَ وَالْأَمْثَالَ، وَقِسِ الْأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ اعْمَدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللهِ وَأَشْبَهِهَا بِالْحَقِّ فِيمَا تَرَى**): ومراده أن القاضي يحكم أولا بما في القوانين المشروعة، فإن لم يجد فيقضي بمقتضى العرف، أي: يعمد إلى المشابهة والقياس، فإن لم يجد فبمقتضى مبادئ القانون الطبيعي وقواعد العدل، وله - أيضًا - أن يعمد إلى المشابهة أو القياس على نظائر الواقعة الواردة عليه في الشريعة الإسلامية ويقضي فيها كما قضت به. ويبدأ حديثه بأسلوب الإغراء (**الفهم الفهم**): وصيغة الإغراء إذا تقدمت فإنها تطرق سمع السامع فينتفض من شواغله، ويلقى انتباهه، وخاصة إن عرف في مغريه حرص الناصح الأمين. واستخدام الفعل (**يتلَجْلَج**) الذي يفيد التردد والارتباك، وكأن تكرار المقطع (لج) (لج) ناسب ذاك التردد القائم في النفس فكان اختيار اللفظ موافقا للسياق. وقوله: (**اعْرِفِ الْأَشْبَاهَ وَالْأَمْثَالَ**)، وقوله: (**قِسِ الْأُمُورَ**)، وقوله: (**اعْمَدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللهِ**): أساليب إنشائية أمر الغرض منها النَّصح والإرشاد، والعبارة السابقة كلها للدلالة على إعمال العقل إن غاب النقل والمرونة

١- «إعلام الموقعين» (١/ ٨٦ - ٨٧).

في استنباط الأحكام. وقوله: (**فَاجْعَلْ لِمَنِ ادَّعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمَدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ**)؛ لأن المدعي قد تكون حجته أو بينته غائبة، فعلى القاضي أن يضرب له أمدًا ليحضر حجته؛ حتى إذا قال: شهودي حاضرون، أمهله ليأتي بهم لربما لم يأتِ بهم في المجلس الأول بناء على أن الخصم لا ينكر حقه لوضوحه فيحتاج إلى مدة ليأتي بهم. وبعدما أقام البينة إذا ادعى الخصم الدفع أمهله القاضي ليأتي بدفعه؛ فإنه مأمور بالتسوية بينهما في عدله، وليكن إمهاله على وجه لا يضر؛ فإن الاستعجال إضرار بمدعي الدفع وفي تطويل مدةِ إمهاله إضرار بمن أثبت حقه، وخير الأمور أوسطها، وأصل التركيب: (فاجعل أمدا لمن ادعى ...)، ولكنه قدم شبه الجملة؛ للتخصيص والتوكيد. ثم يقول: (**فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَةً أَخَذَ بِحَقِّهِ، وَإِنْ عَجَزَ عَنْهَا اسْتَحْلَلْتَ عَلَيْهِ الْقَضِيَّةَ؛ فَإِنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْعُذْرِ، وَأَجْلَى لِلْعَمَى**)، ومعنى ذلك: أنه إذا أقام المدعي بينة على حقه حكم له القاضي بحقه، وإن أعجزه ذلك حكم برفض دعواه، وإن ادعى المدعَى عليه بدفع وإقامة الحجة على دفعه = حكم القاضي بمقتضى دفعه. وقوله: (**اسْتَحْلَلْتَ عَلَيْهِ الْقَضِيَّةَ**)، أي: كان حلالا لك أيها القاضي أن تدفع دعوى المدعي، ومعنى هذا: أن المدعي الذي يحل من صاحبه ما حرم عليه، بأن يدعي عليه دعوى لا دليل له عليها، استحل القاضي عليه الدعوى، أي: دفع دعواه وكان دفعه حلالا؛ لأن المدعي هو البادئ بارتكاب ما حرم، ولهذا قالوا: إن إحلال البادئ ظلم وإحلال الدافع مباح. ويمكن تفسير معنى: (**استحللت عليه القضية**): بأنه من المقرر شرعًا أنه إذا استكملت للقاضي شرائط الحكم وجب عليه القضاء فورا؛ إلا في ثلاث حالات يجوز فيها تأخير الحكم: رجاء الصلح، إذا ارتاب في الشهود فله تأخير الحكم حتى يتثبت، إذا استمهله المدعي حتى يحضر بينته أو استمهله المدعى عليه ليحضر بينة على الدفع، فإن لم يكن شيء من ذلك وقد أخَّر القضاء فإنه يأثم؛

لتركه الواجب، ويستحق العزل؛ لفسقه ويعزر؛ لارتكابه ما لا يجوز شرعًا. وعلى هذا يكون مراد عمر ﷺ أنه إذا عجز المدعى عليه عن إحضار البينة على الدفع وطلب أجلا آخر لا يجيبه القاضي، وصار في حل من القضاء للمدعي؛ لأنه إذا أجابه مع قيام بينة المدعي على دعواه يأثم ويعزر ويستحق العزل. وقوله: (**فَإِنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْعُذْرِ، وَأَجْلَى لِلْعَمَى**)، أي: لإزالة الاشتباه، وأبلغ في العذر للقاضي عند توجه القضاء عليه؛ لأنه إذا وجه القضاء بعد إمهاله حتى يظهر عجزه عن الدفع انصرف من مجلسه شاكرا له ساكتا، وإذا لم يمهله انصرف شاكيا منه، يقول: مال إلى خصمي ولم يسمع حجتي ولم يمكني من إثبات الدفع عنده. واستخدم أفعل التفضيل (**أَبْلَغُ**) و (**أَجْلى**)؛ لبيان أن حال تأخره عن إحضار البينة يكون القاضي قد أمهله وبلغ من لدنه عذرًا، فجاءت أفعل التفضيل؛ لبيان أن الإمهال والعذر أولى من غيره. ثم ينتقل الفاروق ﷺ لعنصر جديد يتناول فيه حدَّ العدالة، فيقول: (**الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ، أَوْ مُجَرَّبًا عَلَيْهِ شَهَادَةُ زُورٍ، أَوْ ظَنِّينًا فِي وَلَاءٍ أَوْ قَرَابَةٍ**): أصَّل الفاروق ﷺ بدءا بقوله: (**المسلمون عدول**)، فتلك القاعدة الأصلية التي ارتضاها الله - تعالى - للمسلم المؤمن؛ فكل مسلم عدل باعتبار اعتقاده؛ لأن دينه يمنعه من الإقدام على ما يعتقد الحرمة فيه، ففي ذلك دلالة على ضرورة صدقه في شهادته. وقوله: (**بعضهم على بعض إلا ...**): استخدام الفاروق ﷺ لهذا التعبير فيه بيان؛ فقد أورد القاعدة الرئيسة (**المسلمون عدول**)، ثم يأتي لاحقًا المستثنون من هؤلاء العدول، ولكن هل كل من لا يأتي بفعل من الأفعال المستثناة يعدُّ عدلا بنفس النسبة مع صاحبه؟ بالقطع يتفاوت النَّاس في العدالة فبعض النَّاس أعدل من بعض على وجه الإجمال وعدم تعيين الفاضل من المفضول؛ ذلك أن كل فريق اشتركوا في صفة العدالة لا يخلون من أن

يكون بعضهم أفضل من بعض في الصفة نفسها. ثم يذهب للمستثنين من القاعدة العامة: (مَجْلُودًا فِي حَدٍّ)، فمن جلد في حدٍّ؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - نهى عن قبول شهادته، إلا أن يتوب إلى الله - تعالى -، ولكن القاعدة العامة عدم قبول شهادتهم، وفيها تناص خفي بقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤]، ثم ينتقل إلى الفعل الثاني الذي يطعن في عدالة المسلم: (أَوْ مُجَرَّبًا عَلَيْهِ شَهَادَةُ زُورٍ): فمن جرب عليه شهادة الزور - ولو مرة واحدة - فلا يوثق بعد ذلك في شهادته؛ لظهور خيانته بارتكاب كبيرة من الكبائر، وقد تأثر ﷺ في قوله بالعديد من الآثار التي قالت بالطعن في من عُلِمَ عليه شهادة الزور؛ كقول النبي ﷺ: «عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ»[1]. وقد قرن الله - سبحانه وتعالى - الإشراك بالله بقول الزور، فقال: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠-٣١]، وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلاثًا». قَالُوا: بَلَى، يا رَسُولَ الله. قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِالله وَعُقوقُ الْوالِدَيْنِ». وَجَلَسَ، وَكانَ مُتَّكِئًا، فَقالَ: «أَلا، وَقَوْلُ الزُّورِ». قَالَ: فَما زَالَ يُكَرِّرُها، حَتَّى قُلْنا: لَيْتَهُ سَكَتَ. والفعل الثالث والأخير: (أَوْ ظِنِّينًا فِي وَلَاءٍ أَوْ قَرَابَةٍ)، أي: متهمًا في ولاء أو قرابة. وعلى هذا لا تجوز شهادة السيد لعتيقه بمال، أو شهادة العتيق لسيده إذا كان لا يزال منقطعًا إليه يناله نفعه، وكذلك لا تقبل شهادة القريب لقريبه، وقد اختلف الفقهاء في ذلك؛ فمنهم من جوَّز شهادة القريب لقريبه مطلقًا، ومنهم من منع شهادة الأصول للفروع والفروع للأصول، وجوَّز شهادة الأقارب بعضهم لبعض. وفي قوله: (الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ، أَوْ مُجَرَّبًا عَلَيْهِ

١- أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي، وضعفه الألباني.

شَهَادَةُ زُورٍ، أَوْ ظَنِّينًا فِي وَلَاءٍ أَوْ قَرَابَةٍ): استخدام الاستثناء أفاد الحصر؛ وفي القول كله تناص خفي بما ورد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَجُوزُ شَهَادَةُ خَائِنٍ وَلَا خَائِنَةٍ، وَلَا مَحْدُودٍ فِي الإِسْلَامِ، وَلَا ذِي غِمْرٍ عَلَى أَخِيهِ**»[١]. ويجدر الإشارة إلى اعتراض ابن حزم على العبارة السابقة؛ فقد عارضها بما رواه مالك بن أنس في الموطأ: قَدِمَ على عمر بن الخطَّاب رَجُلٌ مِن أهل العراقِ، فقالَ: لقد جئتك لأمرٍ ما له رأسٌ ولا ذَنَبٌ. فقال عمر: ما هو؟ قال: شَهاداتُ الزُّورِ ظهرتْ بِأرضِنا. فقال عمر: أَوَقد كانَ ذلكَ؟! قال: نعم. فقال عمر: وَاللهِّ لاَ يُؤْسَرُ رَجُلٌ فِي الإسلاَم بغيرِ العُدُولِ. وعلَّق ابن فرحون على قول عمر: «وقول عمر رضي الله عنه في هذه الرسالة: (**الْمُؤْمِنُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ**)، رجع عمر - رحمه الله - عن ذلك بما رواه مالك في الموطأ، وهذا يدل على رجوعه عما في هذه الرسالة»[٢]. نعود لسياق النَّص فبعد أن تحدث عن أصحاب العدالة ومن سقطت عدالتهم = ينتقل لبيان آخر رضي الله عنه فيقول: (**فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرَائِرَ وَدَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْأَيْمَانِ**). وقوله: (**فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرَائِرَ**): يعني أن المحق والمبطل ليس للقاضي طريق إلى معرفة حقيقته؛ فإن ذلك غيب ولا يعرف الغيب إلا الله؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق : ٩]، فالسَّرائِرُ ما أسرَّ في القلوب من العقائد والنيَّات وما أخفي من الأعمال، وبلاؤها تعرفها وتصفحها والتمييز بين ما طاب منها وما خبث، ولا طريق للقاضي لمعرفتها إلا بما يظهر عنده من الحجة وما يقوم من برهان. أما قوله: (**وَدَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْأَيْمَانِ**)، فالمراد بالبينات الأدلة والشواهد كدلالة الحمل على الزنا، ورائحة الخمر

١- أخرجه أبو داود وابن ماجه، وحسنه الألباني.

٢ ( ) «تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام» (١/ ٣١).

على السكران، أما الأيمان فيراد بها أيمان الزوج في اللعان وأولياء القتيل في القسامة. وبين قوله: (**تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرَائِرَ**) وقوله: (**دَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ**): طباق يؤكد المعنى ويبرزه. واستخدم الفاروق في العبارة السابقة اليُسر في التعبير، وكأنه أراد أن يخبره بأنه لن يستطيع الاطلاع على كل شيء ولو حرص على ذلك. وفي إخباره بأن الله يعلم السر وأخفى رفع للحرج عن القاضي لو أخطأ أو جانبه الصواب في حكم ما وقد تحرى أشد التحري قبل الحكم، وفيه دليل على رفق عمر رضي الله عنه بمن يوكل إليه القضاء بين الخلق. ثم يعود مرة أخرى لتحذيره فيقول: (**وَإِيَّاكَ وَالْغَلَقَ وَالْغِلَظَ وَالضَّجَرَ وَالتَّأَذِّيَ بِالنَّاس عِنْدَ الْخُصُومِ، وَالتَّنَكُّرَ لِلْخُصُومِ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ الَّتِي يُوجِبُ اللهُ فِيهِ الْأَجْرَ، وَيُحْسِنُ فِيهِ الذُّخْرَ**): (**الغلق والغلظ والضجر**): كلها أنواع من إظهار الغضب؛ فـ(**الغلق**): ضيق الصدر وقلة الصبر، و(**الغلظ**): ضد الرقة في الخلق والطبع والفعل والمنطق والعيش، و(**الضجر**): القلق من الغم، وفلان ضجر معناه ضيق النفس، والقاضي منهي عن ذلك؛ لأنه يكسر قلب الخصم به ويمنعه من إقامة حجته ويشتبه على القاضي بسببه طريق الإصابة وربما لا يفهم كلام أحد الخصمين. وقوله: (**وَالتَّأَذِّيَ بِالنَّاس عِنْدَ الْخُصُومِ**): يعني إظهار الملال منهم إذا أطال أحدهم في كلامه بما لا حاجة به إليه، فلا ينبغي للقاضي أن يظهر التأذي بذلك ما لم يتجاوز المتكلم الحد، فإذا تكلم بما يرجع إلى الاستخفاف بالقاضي ويذهب بحشمة مجلس القضاء = فحينئذ يمنعه عن ذلك ويؤدبه. أما: (**وَالتَّنَكُّرَ لِلْخُصُومِ**): فهو أن يقطب وجهه إذا تقدم إليه خصمان، فإن فعل ذلك مع أحدهما فهو جور، وإن فعله معهما ربما عجز المحق عن إظهار حقه فذهب وترك حقه. أما قوله: (**فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ الَّتِي يُوجِبُ اللهُ فِيهِ الْأَجْرَ، وَيُحْسِنُ فِيهِ الذُّخْرَ**): يريد القضاء في مجالس الحكم؛ لأن الحلم وترك الضجر والغلق وإظهار البشر مع النَّاس محمود

في كل موضع وفي مجلس القضاء أولى؛ لأنه مما يوجب الله به الأجر ويحسن الذكر، وقد صدَّر العبارة الماضية بأسلوب التحذير **(إياك)**، وصيغة التحذير إذا تقدمت فإنها تطرق سمع السامع فينتفض من شواغله، ويلقى انتباهه، وخاصة إن عرف في محذره الشدة والصرامة، وقد كان رضي الله عنه لا تأخذه في الله لومة لائم. وقد وظف العديد من المترادفات كـ: **(الغلق، والغلظ، والضجر، والتنكر)**، وكلها معان تصب في بوتقة الضيق وإظهار الملل من المتحدث، وتوظيفها يفيد الإنكار على من ينتهج هذا النهج من القضاة. وقوله: **(فَمَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُ وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ، كَفَاهُ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاس، وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي قَلْبِهِ شَانَهُ اللهُ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ عَبْدِهِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَعَاجِلِ رِزْقِهِ، وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ الله)**. والعبارة السابقة يختتم بها الفاروق رضي الله عنه هذا الحديث الماتع بعظات تتلخص في: إخلاص النية لله، وترك الرياء والنفاق؛ فمن خلصت نيته فيما بينه وبين الله - تعالى - ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين النَّاس.

وقد وردت العديد من الآثار في المرائين، منها قوله - تعالى -: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ: «**قَالَ الله تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»، وعن جُندب بن عبد الله بن سفيان رضي الله عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ، وَمَنْ يُرائِي يُرائِي اللهُ بِهِ**».

وأما قوله: **(فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَعَاجِلِ رِزْقِهِ، وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ)**، فمراده أن المرائي بعمله يقصد اكتساب محمدة أو نوال شيء مما في يد النَّاس، فإذا ترك الإخلاص فاته ثواب الله - تعالى -، فالعاقل إذا قابل ما هو موعود له من الله - تعالى - عند التقوى والإخلاص بما يطمع فيه من جهة النَّاس = ترجح ما عند الله

لا محالة وذلك عاجل الرزق، كما قال – تعالى –: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، والمغفرة والرحمة كما قال الله – تعالى –: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ثم اختتم مقالته الخالدة بقوله: (**وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ الله**)؛ فإلقاء السلام من خصائص النثر الأدبي في صدر الإسلام بدءًا وختامًا، وفيه إعمال بأمر رسول الله ﷺ: «**لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**». وختامًا؛ هناك لمحات مجملة يجدر الإشارة إليها بعد تناول هذا الأثر العظيم: فقد تميزت رسالة الفاروق رضي الله عنه بالإيجاز؛ فتم التعبير عن الأفكار بأقل قدر من الألفاظ الدالة الموحية من غير أن يخل ذلك بالبيان، ومن غير انحراف عن جادة القصد بفضول الحديث وتكرار المعاني. وكذا يلاحظ تكثيف وتلاحم التراكيب والجمل وتماسكها؛ لتؤدي دورًا في إيصال المعنى إلى المتلقي والتأثير فيه. وكان الإيجاز أولى بالاستخدام في هذا المقام الإداري البحت؛ فلا مجال للتصوير واستخدام الصور البيانية والمحسنات إذ المقصود امتلاك أُذُن المتلقي وبث كل المعلومات المطلوب إيصالها دون صرف انتباهه لأي عارض آخر. كذا نلمح الوضوح الدلالي للألفاظ والتعبيرات والبعد بالكلية عن الكلمات والتعبيرات التي تحمل بين طياتها أكثر من معنى أو تثير غموضًا، وهو من سمات الأدب الإداري.

[٤٩٢]

وَمِنْ كِتَاب لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ لِلنَّاسِ وُجُوهٌ يَرْفَعُونَ حَوَائِجَ النَّاس، فَأَكْرِمْ وُجُوهَ النَّاس، فَحَسْبُ الْمُسْلِمِ الضَّعِيفِ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ يُنْصَفَ فِي الْحُكْمِ وَالْقِسْمَةِ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**وجوه**): يقال: وَجُهَ - بالضم - وَجاهَةً، فهو وَجِيهٌ: إذا كان له حظٌّ ورُتبة، والوجه مُستَقبلُ كلِّ شيء. والمراد به هنا صفوة النَّاس وكبراؤهم والقائمون على مصالحهم.

مقتضى الحال: المقام هنا مقام نصح وتوجيه من خطاب أرسله عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أحد عماله.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَمْ يَزَلْ**): يدل على الاستمرار وكون هذا الأمر من طبائع البشر. وقوله: (**لِلنَّاسِ وُجُوه**): تأخير المبتدأ النكرة وتقديم الخبر شبه الجملة عليه؛ للتنبيه والتعظيم والتفخيم. وفي العبارة تورية؛ حيث تحتمل كلمة وجوه معنى قريبا هو الوجه الذي هو جزء من الرأس، ومعنى بعيدا هو المراد، وهو خيار النَّاس وسادتهم. وقوله: (**يُنْصَفَ**): بناء الفعل للمجهول وعدم ذكر الفاعل؛ لتوجيه الاهتمام إلى الفعل نفسه، وهو إنصاف الضعيف أيا كان فاعله.

١- رواهُ ابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (١١٦٣)، وأحمدُ في «فضائلِ الصَّحابةِ» (٦٤٩)، والدِّينوريُّ في «المجالسةِ وجواهرِ العلمِ» (٤٣١)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٦٦٨٨).

[٤٩٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ لِلنَّاسِ نَفْرَةً عَنْ سُلْطَانِهِمْ؛ فَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ يُدْرِكَنِي وَإِيَّاكَ عَمْيَاءُ مَجْهُولَةٌ، وَضَغَائِنُ مَحْمُولَةٌ؛ فَأَقِمِ الْحُدُودَ وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَإِذَا عَرَضَ لَكَ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا للهِ وَالْآخَرُ لِلدُّنْيَا فَآثِرْ نَصِيبَكَ مِنَ اللهِ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا تَنْفَدُ وَالْآخِرَةَ تَبْقَى، وَأَخِفِ الْفُسَّاقَ، وَاجْعَلْهُمْ يَدًا يَدًا وَرِجْلًا رِجْلًا. عُدْ مَرِيضَ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْضُرْ جَنَائِزَهُمْ، وَافْتَحْ بَابَكَ، وَبَاشِرْ أُمُورَهُمْ بِنَفْسِكَ؛ فَإِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - جَعَلَكَ أَثْقَلَهُمْ حِمْلًا، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ قَدْ فَشَا لَكَ وَلِأَهْلِ بَيْتِكَ هَيْئَةٌ فِي لِبَاسِكَ وَمَطْعَمِكَ وَمَرْكَبِكَ لَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ مِثْلُهَا؛ فَإِيَّاكَ يَا عَبْدَ اللهِ أَنْ تَكُونَ بِمَنْزِلَةِ الْبَهِيمَةِ مَرَّتْ بِوَادٍ خَصْبٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَهَا هَمٌّ إِلَّا السِّمَنُ وَالْمَاءُ، وَإِنَّمَا حَتْفُهَا فِي السِّمَنِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَامِلَ إِذَا زَاغَ زَاغَتْ رَعِيَّتُهُ، وَأَشْقَى النَّاسِ مَنْ شَقِيَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين أخاه وعامله أبا موسى الأشعري رضي الله عنهما ناصحا إياه ببعض الأمور المتعلقة بسياسة الناس، وتقوى الله - تعالى -.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَإِنَّ لِلنَّاسِ نَفْرَةً**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**إن**)، وتقديم

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (١١٩٨) [وبغير سند في عيون الأخبار (١/ ١١)، وينظر: البيان والتبيين (٢/ ٢٩٣)].

الخبر وتأخير المبتدأ للتخصيص والاهتمام، وتنكير (**نفرة**) للتعظيم والتهويل والتحذير. وقوله: (**سُلْطَانِهِمْ**): إضافة السلطان إلى الضمير العائد على النَّاس؛ لتوضيح العلاقة والارتباط الوثيق بين الرعية والحاكم، وتحذير للحاكم من الاطمئنان لهذه العلاقة والركون إليها والاتكال عليها. وقوله: (**فَأَعُوذُ بِالله**): التعوذ بالله فيه دلالة على خطورة الأمر ووجوب الحذر والتيقظ. وقوله: (**يُدْرِكَنِي وَإِيَّاكَ**): قدَّم ضمير المتكلم على المخاطب على غير عادته في الدعاء؛ لأن الأمر جلل ويخاف عمر أن يدركه، ويحذِّر المخاطَب من ذلك. وقوله: (**عَمْيَاءُ مَجْهُولَةٌ، وَضَغَائِنُ مَحْمُولَةٌ**): تعديد الأوصاف واستخدام اسم المفعول؛ لتأكيد الخطر والتحذير منه. وقوله: (**فَأَقِمِ الحُدُودَ**) بعد أن بيَّن خطورة الأمر ونبَّه على أهميته بدأ في النَّصائح والإرشادات التي تساعد على تجنبه، وأولها: إقامة الحدود، وعرَّف الحدود بـ (**أل**) التي العهد؛ لأنها معروفة ومعلومة للمخاطَب. وقوله: (**وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ**): تنكير (**ساعة**)، و(**نهار**): للتقليل، وفيه حث على الحرص على أقل ما يمكن تطبيقه من الحدود. وقوله: (**وَإِذَا عَرَضَ لَكَ أَمْرَانِ**): جملة شرطية غرضها النَّصح والإرشاد، وتقديم شبه الجملة (**لك**) للتخصيص. وقوله: (**فَآثِرْ**): جملة طلبية غرضها النَّصح والإرشاد. وقوله: (**نَصِيبَكَ**): الإضافة إلى ضمير المخاطب؛ لبيان الارتباط الوثيق للحث على اختيار ما يرضي الله والإيمان بالقضاء والقدر. وقوله: (**فإِنَّ الدُّنْيَا تَنْفَدُ وَالْآخِرَةَ تَبْقَى**): تعليل وتفسير للنصيحة السابقة. وقوله: (**وَأَخِفِ الْفُسَّاقَ**): فيه حث على تحقيق هيبة الدولة ونشر الحق بتخويف الفساق دون الحاجة إلى عقابهم. وقوله: (**يَداً يَداً وَرِجْلاً رِجْلاً**): أمر بالتفريق بين الفساق، والحرص على عدم اجتماعهم؛ حتى لا يدبروا الشر والمكائد ضد الدولة. وقوله: (**عُدْ مَرِيضَ الْمُسْلِمِينَ**): تتوالى نصائح عمر فيما يشبه الوصية العامة غير المخصصة

لأبي موسى وحده، وإضافة (**مريض**) إلى (**المسلمين**)؛ للحث على عيادته، والتذكير برابطة الأخوة في الدين. وقوله: (**وَاحْضَرْ**)، و(**افْتَحْ**)، و(**بَاشِرْ**): أفعال أمر في جمل طلبية غرضها النَّصح والإرشاد. وقوله: (**فَإِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ مِنْهُمْ**): أسلوب قصر غرضه التخصيص والتوكيد. وقوله: (**غَيْرَ أَنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - جَعَلَكَ أَثْقَلَهُ حِمْلا**): استدراك وتذكير بالمسئولية الملقاة على عاتق الحاكم. وقوله: (**أَثْقَلَهُمْ**): أفعل تفضيل؛ لاستشعار المسئولية. وقوله: (**وَقَدْ بَلَغَنِي**): يُشعر المخاطب بأنه غير متأكد مما بلغه، ويعطيه فرصة لنفيه. وقوله: (**فَشَا**): دليل على الشيوع والانتشار. وقوله: (**لَكَ وَلِأَهْلِ بَيْتِكَ**): تقديم شبه الجملة والعطف للتوكيد. وقوله: (**هَيْئَةٌ**): التنكير للتعظيم والتفخيم. وقوله: (**لِبَاسِكَ وَمَطْعَمِكَ وَمَرْكَبِكَ**): فيه تعدد لمظاهر الثراء والرفاهية. وقوله: (**لَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ مِثْلُهَا**): تكرار هذا المعنى في رسائله؛ للحث على المساواة بين الحاكم والمحكوم. وقوله: (**فَإِيَّاكَ، يَا عَبْدَ اللهِ**): النداء للتنبيه والمبالغة في التحذير. وقوله: (**بِمَنْزِلَةِ الْبَهِيمَةِ**): تشبيه بليغ، يرسم فيه صورة منفرة للإنسان المنعم المرفه الذي همه الدنيا، وتعريف (**البهيمة**) للإطلاق. وقوله: (**بِوَادٍ**): تنكير (**واد**) للعموم والشمول، ووصفه بقوله: (**خَصْبٍ**) للتوضيح. وقوله: (**فَلَمْ يَكُنْ لَهَا هَمٌّ إِلا**): أسلوب قصر غرضه التخصيص، وفيه تبيين للذي يجعل همه الأول التنعم بالشهوات. وتنكير (**هَمٌّ**): للتقليل. وقوله: (**وَإِنَّمَا حَتْفُهَا فِي السِّمَنِ**): أسلوب قصر للتخصيص. وإضافة (**حتف**) للضمير؛ للارتباط الوثيق. وقوله: (**وَاعْلَمْ**): تنبيه وتذكير. وقوله: (**إِذَا زَاغَ زَاغَتْ رَعِيَّتُهُ**): جملة شرطية تطابق مبدأ: «الجزاء من جنس العمل». وقوله: (**وَأَشْقَى النَّاس**): استعمل أفعل التفضيل لتأكيد المعنى والنصح. وقوله: (**شَقِيَتْ بِهِ**): باء الجر للسببية. وقوله: (**رَعِيَّتُهُ**): الإضافة للضمير لبيان الارتباط.

[٤٩٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ أَسْعَدَ الرُّعَاةِ مَنْ سَعِدَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ، وَإِنَّ أَشْقَى الرُّعَاةِ عِنْدَ الله - عَزَّ وَجَلَّ - مَنْ شَقِيَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْتَعَ فَيَرْتَعَ عُمَّالُكَ، فَيَكُونَ مَثَلُكَ عِنْدَ الله - عَزَّ وَجَلَّ - مَثَلَ الْبَهِيمَةِ، نَظَرَتْ إِلَى خَضِرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَرَعَتْ فِيهَا تَبْتَغِي بِذَلِكَ السِّمَنَ، وَإِنَّمَا حَتْفُهَا فِي سِمَنِهَا. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النصُّ كجزء من النصِّ السابق، وقد سبق بيان مقتضاه هناك.

البيان والبلاغة: سبق شرح أكثر عبارات هذا النصِّ في شرح النصِّ السابق، وبيان أهم ما فيه من وجوه البيان والبلاغة.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٥٨٩)، وأبو نُعَيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥٠، والحِنَّائيُّ في «فوائدِه» (١٧٣)، وابنُ البخاريِّ في «مَشيختِه» (٤٧).

[٤٩٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«مَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُ؛ كَفَاهُ اللهُ تَعَالَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِغَيْرِ مَا يَعْلَمُ اللهُ مِنْ قَلْبِهِ شَانَهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَمَا ظَنُّكَ فِي ثَوَابِ اللهِ فِي عَاجِلِ رِزْقِهِ وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ؟! وَالسَّلَامُ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النصُّ كجزء من النصِّ قبل السابق، وقد سبق بيان مقتضاه هناك.

البيان والبلاغة: سبق شرح أكثر عبارات هذا النصِّ خلال شرح النصِّ قبل السابق، وقد بينا هناك أهم ما فيه من وجوه البيان والبلاغة.

١- رواهُ هنَّادٌ في «الزُّهدِ» ٢/ ٤٣٦، وأبو نعيمٍ في «حلية الأولياء» ١/ ٥٠.

[٤٩٦]

وَمِنْ وَصِيَّةٍ لَهُ

كَتَبَهَا قَبْلَ اسْتِشْهَادِهِ

«أَنْ لَا يُقَرَّ لِي عَامِلٌ أَكْثَرَ مِنْ سَنَةٍ، وَأَقِرُّوا الْأَشْعَرِيَّ - يَعْنِي أَبَا مُوسَى - أَرْبَعَ سِنِينَ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النصُّ وصية من أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بما ينبغي سلوكه مع عماله بعد وفاته.

البيان والبلاغة: قوله: **(أَنْ لَا يُقَرَّ لِي عَامِلٌ)**: حِرص الفاروق على الوصية فيه اقتداء وتطبيق لسنة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقوله: **(لَا يُقَرَّ)**: بناء الفعل للمجهول يدل على دقة الفاروق في التعبير وانتقاء الألفاظ والأساليب؛ فهو مشرف على الموت وهو لم يحدد للمسلمين من سيخلفه، وبالتالي فهو لا يعلم من سيطبق هذه الوصية، فبنى الفعل للمفعول؛ ليناسب الحال. وقوله: **(عَامِلٌ)**: التنكير للعموم والشمول والإطلاق. وقوله: **(وَأَقِرُّوا)**: استثناء من الحكم السابق، وفيه مراعاة لمصلحة الرعية، وحرص عليها حتى في أصعب اللحظات. وقوله: **(لَا يُقَرَّ ... وَأَقِرُّوا)**: طباق يبرز المعنى ويقويه، وفيه - أيضا - ما يعرف باشتقاق اللفظ من اللفظ.

١- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (١٩٤٩٠).

[٤٩٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُؤَدِّبْ رَعِيَّتَكَ بِمِثْلِ أَنْ تَبْدَأَهُمْ بِالْغِلْظَةِ وَالشِّدَّةِ عَلَى أَهْلِ الرِّيبَةِ، بَعُدُوا أَوْ قَرُبُوا؛ فَإِنَّ اللِّينَ بَعْدَ الشِّدَّةِ أَمْنَعُ لِلرَّعِيَّةِ، وَأَحْشَدُ لَهَا، وَإِنَّ الصَّفْحَ بَعْدَ الْعُقُوبَةِ أَرْغَبُ لِأَهْلِ الْحَزْمِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ كتاب من أمير المؤمنين إلى أخيه وعامله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم، يبين فيه الطريقة المثلى لردع الرعية وتأديبهم.

البيان والبلاغة: استهل أمير المؤمنين رضي الله عنه كتابه بفصل الخطاب (**أمَّا بعد**)؛ لينتقل به إلى المقصود، ثم أتبع ذلك بتأكيد كلامه بحرف التأكيد (**إنَّ**) بيانا لأهمية ما سيلي من الكلام، وأنه متأكد منه تمام التأكد واليقين. وقوله: (**لَمْ تُؤَدِّبْ رَعِيَّتَكَ بِمِثْلِ**): أسلوب قصر للتخصيص والتوكيد، وإضافة الرعية إلى ضمير المخاطب للارتباط. وقوله: (**أَنْ تَبْدَأَهُمْ**): عدل عن المصدر الصريح إلى المؤول؛ لما له من دلالة على الفاعل وزمن الفعل. وقوله: (**بِالْغِلْظَةِ وَالشِّدَّةِ**): العطف مع الترادف للتوكيد. وقوله: (**بَعُدُوا أَوْ قَرُبُوا**): بين اللفظين تضاد يبرز المعنى ويؤكده. وقوله: (**اللِّينَ بَعْدَ الشِّدَّةِ**): فيه – أيضا – تضاد يبرز المعنى ويؤكده. وقوله: (**أَمْنَعُ لِلرَّعِيَّةِ، وَأَحْشَدُ**): أفعل التفضيل، والعطف للتوكيد. قوله: (**الصَّفْحَ بَعْدَ الْعُقُوبَةِ**): فيه – كذلك – تضاد يبرز المعنى ويؤكده.

١- رواهُ ابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٧٤.

[٤٩٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ قَيْسَارِيَّةَ[1]، فَسِرْ إِلَيْهَا، وَاسْتَنْصِرِ اللهَ عَلَيْهِمْ، وَأَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، اللهُ رَبُّنَا وَثِقَتُنَا، وَرَجَاؤُنَا وَمَوْلَانَا، نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ»[2].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ كتاب من أمير المؤمنين إلى أخيه وعامله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، يعلمه فيه بأنه قد ولّاه إمرة قيسارية، ويأمره بالسير إليها، والحرص على أسباب النصر الحقيقية.

البيان والبلاغة: استهل أمير المؤمنين رضي الله عنه كتابه - كما في الكتاب السابق وغيره - بفصل الخطاب (**أمّا بعد**)؛ لينتقل به إلى المقصود، ثم أتبع ذلك بتأكيد كلامه بحرف التأكيد (**إنَّ**) (**وقد**) والفعل الماضي؛ بيانا لأهمية ما سيلي من الكلام، وأن الحكم قد استقر وتأكَّد تماما، فلا وجه للارتياب فيه. وقوله: (**فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**إنَّ**)، و(**قد**)، والفعل الماضي. وقوله: (**فَسِرْ إِلَيْهَا وَاسْتَنْصِرِ اللهَ**): جملة طلبية. وقوله: (**وَاسْتَنْصِر**): وزن استفعل يدل على طلب النَّصر بالتذلل

١- قَيْسارِيَّةُ: بلدٌ على ساحلِ بحرِ الشَّام، تُعدُّ في أعمالِ فِلَسطِينَ، بينها وبينَ طَبريَّةَ ثلاثةُ أيَّام، وكانتْ قديمًا مِن أعيانِ أُمَّهاتِ المدنِ، واسعةَ الرُّقعةِ، طيِّبةَ البُقعةِ، كثيرةَ الخيرِ والأهلِ. «معجم البلدان» ٤/ ٤٢١.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٦٠٤.

لله والدعاء. وقوله: (**وَأَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ: لاحَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ** ...): دائما ما يركز الفاروق على الجانب الإيماني والعقدي في رسائله لولاته؛ حتى يذكرهم بالله، وحتى لا تنسيهم الدنيا هدفهم الأسمى.

[٤٩٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه

«فَغَمِّضْ عَنِ الدُّنْيَا عَيْنَكَ، وَوَلِّ عَنْهَا قَلْبَكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُهْلِكَكَ كَمَا أَهْلَكَتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ؛ فَقَدْ رَأَيْتَ مَصَارِعَهَا، وَأُخْبِرْتَ بِسُوءِ أَثَرِهَا عَلَى أَهْلِهَا، كَيْفَ عَرِيَ مَنْ كَسَتْ، وَجَاعَ مَنْ أَطْعَمَتْ، وَمَاتَ مَنْ أَحْيَتْ، إِنَّهَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْآخِرَةِ سِتْرٌ مِثْلَ الْخِمَارِ تُبْصِرُ مَا . . . [1] إِلَيْهَا سَلَفُكَ، وَأَنْتَ غَائِبٌ مُنْتَظِرٌ مَتَى سَفَرُهُ فِي غَيْرِ دَارِ مُقَامٍ، قَدْ نَضَبَ مَاؤُهَا، وَهَاجَتْ ثَمَرَتُهَا، فَأَحْزَمُ النَّاسِ الرَّاحِلُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا بِزَادٍ بَلَاغٍ»[2].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ كتاب من أمير المؤمنين إلى أخيه أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما، ينصحه فيه بالزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَغَمِّضْ عَنِ الدُّنْيَا عَيْنَكَ**): كناية عن الزهد والترفع عن الدنيا وشهواتها. وقوله: (**عَيْنَكَ**): ذكر العين مفردة للتقليل، وعدم النظر والتطلع للدنيا ولو بعين واحدة. وقوله: (**وَوَلِّ عَنْهَا**): العطف للتوكيد. وقوله: (**وَإِيَّاكَ أَنْ تُهْلِكَكَ**): أسلوب تحذير. وقوله: (**كَمَا أَهْلَكَتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ**): فيه حث على الاعتبار بالسابقين. وقوله: (**فَقَدْ رَأَيْتَ مَصَارِعَهَا وَأُخْبِرْتَ بِسُوءِ أَثَرِهَا**): حثٌّ

١- بياضٌ في أصلِ الكِتابِ.

٢- رواهُ أبو داودَ في «الزُّهدِ» (١٠٢).

على التدبر والاعتبار بأحوال الدنيا مع من سبق. وقوله: (**كَيْفَ عَرَى مَنْ كَسَتْ**): جملة خبرية جاءت على صيغة السؤال؛ للتنبيه. وقوله: (**وَجَاعَ**)، و(**مَاتَ**): العطف للتوكيد. وقوله: (**عَرَى مَنْ كَسَتْ، وَجَاعَ مَنْ أَطْعَمَتْ، وَمَاتَ مَنْ أَحْيَتْ**): التضاد بين معاني الأفعال يوضح المعنى ويؤكده، وبين الجمل سجعٌ أعطى الكلام جرسا حلوا. وقوله: (**إِنَّهَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْآخِرَةِ سِتْرٌ**): جملة خبرية مؤكدة، وفيها تقديم لشبه الجملة على خبر (**إنَّ**) للتوكيد، وتشبيه بليغ للدنيا بالستر بين العبد وآخرته. وقوله: (**وَأَنْتَ غَائِبٌ مُنْتَظِرٌ مَتَى سَفَرُهُ**): تذكير بحال الإنسان في الدنيا وعدم بقائه فيها، وفيه تشبيه بليغ للإنسان بالمسافر الذي ينتظر الرجوع. وقوله: (**فِي غَيْرِ دَارِ مُقَامٍ**): تأكيد على نفس المعنى السابق ذكره. وقوله: (**نَضَبَ مَاؤُهَا وَهَاجَتْ ثَمَرَتُهَا**): تنفير من الدنيا وتذكير بعيوبها، وبين الجملتين سجعٌ أعطى الكلام جرسا حلوا. وقوله: (**فَأَحْزَمُ النَّاس الرَّاحِلُ مِنْهَا**): أسلوب تفضيل، وتعريف (**الراحل**) للتعظيم. وقوله: (**غَيْرِهَا**): المراد بها الآخرة دار القرار، ولم يسمها للتشويق.

[٥٠٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه، وَقَدْ وَلَّاهُ عَلَى جُنْدِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه

«أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي يَبْقَى وَيَفْنَى مَا سِوَاهُ، الَّذِي هَدَانَا مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَخْرَجَنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَقَدِ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَى جُنْدِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، فَقُمْ بِأَمْرِهِمُ الَّذِي يَحِقُّ عَلَيْكَ، لَا تُقَدِّمِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى هَلَكَةٍ رَجَاءَ غَنِيمَةٍ، وَلَا تُنْزِلْهُمْ مَنْزِلًا قَبْلَ أَنْ تَسْتَرِيدَهُ لَهُمْ، وَتَعْلَمَ كَيْفَ مَأْتَاهُ، وَلَا تَبْعَثْ سَرِيَّةً إِلَّا فِي كَثْفٍ مِنَ النَّاسِ، وَإِيَّاكَ وَإِلْقَاءَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْهَلَكَةِ، وَقَدْ أَبْلَاكَ اللهُ بِي وَأَبْلَانِي بِكَ، فَغَمِّضْ بَصَرَكَ عَنِ الدُّنْيَا، وَأَلْهِ قَلْبَكَ عَنْهَا، وَإِيَّاكَ أَنْ تُهْلِكَكَ كَمَا أَهْلَكَتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، فَقَدْ رَأَيْتَ مَصَارِعَهُمْ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**تَستَرِيْدُه**): من راد المكان إذا طلبه، فهو رائد. والمعنى: لا تنزل الناس منزلا قبل أن تطلع عليه.

مقتضى الحال: ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن هذا الكتاب كان أول كتاب كتبه عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة حين ولاه على الجند، بعد عزل خالد بن الوليد رضي الله عنه.

البيان والبلاغة: قوله: (**أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي يَبْقَى وَيَفْنَى مَا سِوَاهُ، الَّذِي هَدَانَا مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَخْرَجَنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**): في قوله: (**أوصيك**): جاء

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٣٤، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظم في التَّاريخِ» ٤/ ١٣٦، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٢٦٨، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ٩/ ٥٧٦.

الفعل بصيغة المضارع؛ للدلالة على أنه مستمر على هذا الفعل، وأطنب في ذكر صفات الله – تعالى –؛ تلذذا بذكره وتشويقا لأبي عبيدة. واستعمل الاسم الموصول **(الذي)** في الموضعين؛ للوصف بما تضمَّنته جملة الصلة. وبين **(يبقى)**، و**(يفنى)**: طباق، وكذا بين **(هدانا)**، و**(الضلالة)**، وبين **(الظلمات)**، و**(النور)**، وفائدة هذا الطباق حمل المخاطب على تصوُّر هذه المعاني، والمقابلة بينها؛ لاستشعار عظمة الله – تعالى – وفضله. ومجيء الفعلين **(هدانا)**، و**(أخرجنا)** بصيغة الماضي فيه إشارة إلى أن مدلولهما قد حدث وثبت واستقرَّ. وجملة: **(أخرجنا من الظلمات إلى النور)**: مقتبسة من قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]. وفي ابتداء عمر ﷺ كلامه بهذه الافتتاحية براعة استهلال؛ فقوله: **(يبقى ويفنى ما سواه)** فيه مناسبة لعزل خالد وتولية أبي عبيدة، فكل ما سوى الله – تعالى – يفنى ويزول ويطرأ عليه التغيير والتبديل. وفي قوله: **(الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور)**: تذكير بفضل الله – تعالى –، وهذا يستلزم شكره والخضوع لأمره والسعي لنشر دينه، وخروج أبي عبيدة ومَن معه للفتوح داخل في الخضوع لأمر الله والسعي لنشر دينه. وقوله: **(وَقَدِ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَى جُنْدِ خالد بن الْوَلِيدِ، فَقُمْ بِأَمْرِهِمُ الَّذِي يَحِقُّ عَلَيْكَ، لا تُقَدِّمِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى هَلَكَةٍ رَجَاءَ غَنِيمَةٍ، وَلا تُنْزِلْهُمْ مَنْزِلاً قَبْلَ أَنْ تَسْتَرِيدَهُ لَهُمْ، وَتَعْلَمَ كَيْفَ مَأْتَاهُ، وَلا تَبْعَثْ سَرِيَّةً إِلا فِي كَثْفٍ مِنَ النَّاسِ، وَإِيَّاكَ وَإِلْقَاءَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْهَلَكَةِ)**: قوله: **(قد استعملتك)**: مجيء الفعل بصيغة الماضي، ودخول **(قد)** عليه يفيد أن الأمر قد ثبت وانقضى. وقوله: **(قم بأمرهم الذي يحقُّ عليك)**: استعمل الاسم الموصول **(الذي)** للتعيين. وقوله: **(لا تقدِّم المسلمين لهلكة رجاء غنيمة)**: تنكير **(هلكة)** للتعظيم، وتنكير **(غنيمة)** للتحقير. وقوله: **(لا تنزلهم منزلًا قبل أن تستريده لهم)**: تنكير

(**منزلا**) في سياق النهي يفيد العموم، وتقييد الفعل (**تستريد**) بالجارِّ والمجرور (**لهم**)؛ لبيان الرعاية والاهتمام بالمجرور. وقوله: (**وتعلم كيف مأتاه**): استعمل المصدر الميمي (**مأتى**) للمبالغة. وقوله: (**ولا تعبث سرية إلا في كثف من الناس**): القصر هنا حقيقي تحقيقي. وقوله: (**وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة**): هذه الجملة تذييل تؤكِّد منطوق جملة: (**لا تقدِّم المسلمين لهلكة رجاء غنيمة**)، وتؤكِّد مفهوم الجمل التي بعد هذه الجملة، وقد ساقها بأسلوب التحذير؛ لتقرير وتأكيد أهمية الحفاظ على جيش المسلمين وعدم التفريط في رعايتهم. وقوله: (**وَقَدْ أَبْلاكَ اللهُ بِي وَأَبْلانِي بِكَ، فَغَمِّضْ بَصَرَكَ عَنِ الدُّنْيَا، وَأَلْهِ قَلْبَكَ عَنْهَا**): استعمل أسلوب العكس المعنوي بين (**أبلاك الله بي**) و(**أبلاني بك**)؛ لحمل المخاطب على التسليم للأمر. وفي قوله: (**فغمِّض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها**): استعارة بتشبيه الدنيا بامرأة حسناء تفتن مَن نظر إليها، فينبغي غضُّ البصر عنها والانشغال بغيرها. وفي قوله: (**فغمِّض بصرك**) ترشيح للاستعارة. وقوله: (**وَإِيَّاكَ أَنْ تَهْلِكَك كَمَا أَهْلَكَتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، فَقَدْ رَأَيْتَ مَصَارِعَهُمْ**): في هذا الكلام حسن ختام؛ وذلك بأمر المخاطب من خلال التلويح والرمز أن يتدبَّر القرآن وينظر كيف كان عاقبة الأمم التي خالفت أمر الله؛ ليعتبر بها.

[٥٠١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه

«أَنْ عَلِّمُوا غِلْمَانَكُمُ الْعَوْمَ، وَمُقَاتِلَتَكُمُ الرَّمْيَ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب واليه على الشام أبا عبيدة رضي الله عنه يأمره بتعليم الغلمان السباحة وتعليم المقاتلة الرمي.

لطائف لغوية: قوله: (**غِلمانكم**): قال ابن سيده: الغلام الطار الشارب، وقيل: هو من حين يولد إلى أن يشيب، والجمع: أَغْلِمَة وغِلْمَة وغِلْمَان. وأمَّا (**الصبيُّ**)؛ فهو: من لَدُن يولد إلى أن يفطم، والجمع: أصبِيَة وصِبْوَة وصِبْيَة وصَبْيَة وصِبْوان وصُبْوان وصِبيان. ورُبَّما أطلق أحدهما على الآخر.

البيان والبلاغة: قوله: (**علِّموا**): وجَّه الأمر لأبي عبيدة رضي الله عنه، وأسند الفعل إلى ضمير الجمع إشارة إلى أنَّ الأمر لا يقتصر عليه، بل هو لمن تحت ولايته في الشام أيضا. وأضاف (**غلمان**) و(**مقاتِلة**) إلى ضمير المخاطبين؛ تذكيرا لهم بمسؤوليَّتهم عن أولئك، وليكونوا أحرص على تنفيذ الأمر. وقوله: (**ومقاتلتكم الرمي**): لم يُعِد الأمر (**علِّموا**) واكتفى بعطف هذين المعمولين على معمولَي (**علِّموا**) السَّابق؛ ليشعرهم بأنَّ الأمر واحد فلا ينبغي لهم الأخذ ببعضه وترك بعض. وعلى ذلك،

١- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٣٢٣)، وسعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٢٤٥٥)، و«المُنتقَى» لابنِ الجارودِ (٩٦٤).

ففي الجملة إيجازٌ واضح، والتقدير: وعلموا مقاتلتكم الرمي. وقد استعمل عمر رضي الله عنه هنا أسلوب التقسيم؛ فقسَّم الذكور إلى غلمان ومقاتلة، وبيَّن ما ينبغي لكل قسم منهما، وبدأ بذكر ما للغلمان؛ للرعاية والاهتمام؛ إذ سيصيرون فيما بعدُ مقاتلةً.

[٥٠٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه، وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ الَّذِي يَبْدَأُ بِهِ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَابْدَؤُوا بِدِمَشْقَ، فَانْهَدُوا لَهَا، فَإِنَّهَا حِصْنُ الشَّامِ وَبَيْتُ مَمْلَكَتِهِمْ، وَاشْغَلُوا عَنْكُمْ أَهْلَ فِحْلَ[١] بِخَيْلٍ تَكُونُ بِإِزَائِهِمْ فِي نُحُورِهِمْ، وَأَهْلَ فِلَسْطِينَ، وَأَهْلَ حِمْصَ، فَإِنْ فَتَحَهَا اللهُ قَبْلَ دِمَشْقَ؛ فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَأَخَّرَ فَتْحُهَا حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ دِمَشْقَ؛ فَلْيَنْزِلْ بِدِمَشْقَ مَنْ يُمْسِكُ بِهَا، وَدَعُوهَا، وَانْطَلِقْ أَنْتَ وَسَائِرُ الْأُمَرَاءِ حَتَّى تُغِيرُوا عَلَى فِحْلَ، فَإِنْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ؛ فَانْصَرِفْ أَنْتَ وَخَالِدٌ إِلَى حِمْصَ، وَدَعْ شُرَحْبِيلَ وَعَمْرًا، وَأَخْلِهِمَا بِالْأُرْدُنِّ[٢] وَفِلَسْطِينَ، وَأَمِيرُ كُلِّ بَلَدٍ وَجُنْدٍ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ إِمَارَتِهِ»[٣].

١- فِحْلٌ: بكسرِ أوَّلِه، وسكونِ ثانيه، وآخرُه لامٌ: اسمُ مَوضِعٍ بالشَّام، كانتْ فيهِ وقعةٌ للمسلمينَ معَ الرُّوم، ويومُ فِحْلٍ مذكورٌ في الفتوحِ، وأظنُّه عجميًّا، لم أرهُ في كلامِ العربِ، قُتِل فيه ثمانون ألفًا مِن الرُّوم، وكانَ بعدَ فتحِ دمشقَ في عامٍ واحدٍ. «معجم البلدان» ٤/ ٢٣٧.

٢- الأُرْدُنُّ: بضمِّ الهمزةِ، وسكونِ الرَّاء، وضمِّ الدَّالِ المهملةِ، وآخرُه نونٌ مُشدَّدةٌ، ولا يُنطَقُ إلَّا مُعرَّفًا بالألفِ واللَّام. والأُرْدُنُّ في ذاكَ الزَّمانِ كانَ إقليمًا كبيرًا مِن بلادِ الشَّام، يمتدُّ مِن البحرِ الميِّتِ جنوبًا إلى صُورَ مِن لبنانَ شمالًا، ويصلُ إلى البحرِ الأبيضِ غربًا، ويشملُ مِن الشَّرقِ إقليمَ البلقاءِ حيثُ كانتْ جُرَشُ قصبةَ تلك الكورةِ. «معجم المعالم الجغرافيَّة» ص٢٢-٢٣.

٣- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٣٧-٤٣٨، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢/ ١٢٨، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٤٣، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٢٦٩، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ٩/ ٥٧٧.

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**انهَدُوا**): قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «المناهدة في الحرب: المناهضة. وفي المحكم: المُناهَدة في الحرب: أن ينْهَد بعض إلى بعض، وهو في معنى نَهَض، إلا أن النهوض: قيام عن قعود، والنهود: نهوض على كل حال. ونَهَد إلى العدو ينهَد، بالفتح: نهض. أبو عبيد: نهد القوم لعدوهم: إذا صمدوا له وشرعوا في قتاله». و(**فِحل**): اسم موضع بالشام.

مقتضى الحال: يخاطب عمر بن الخطاب أبا عبيدة رضي الله عنهما قائدَ جيوش فتح الشام، يجيبه عن سؤاله بخصوص أي المناطق يبدأ بها.

لطائف لغوية: في قوله: (**وَانْطَلِقْ أَنْتَ وَسَائِرُ الأُمَرَاءِ**)، وقوله: (**فَانْصَرِفْ أَنْتَ وَخَالِدٌ**): عطف الاسم الظاهر على ضمير الرفع المستتر في (**انطلق**)، و(**انصرف**)؛ لذا فصل بالضمير المنفصل (**أنت**)، وفي هذا يقول ابن مالك:

وإن على ضـمـيرِ رفـعٍ متَّـصـل عطفتَ فافصل بالضمير المنفصل

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا بَعْدُ، فَابْدَؤُوا بِدِمَشْقَ، فَانْهَدُوا لَهَا، فَإِنَّهَا حِصْنُ الشَّامِ وَبَيْتُ مَمْلَكَتِهِمْ**): بدأ بعد فصل الخطاب بـ(**أمَّا بعد**) بذكر الجواب مباشرة؛ مراعاةً للمقام؛ إذ الأمر يتطلَّب الاستعجال في الردِّ، وعلَّل الجواب بقوله: (**فإنّها حصن حصين**) معَ أنَّ المقام مقام إيجاز؛ وذلك ليبيِّن لهم أنَّ اختيار البدء بدمشق ليس عبثا، ولينبِّه قائد الجيش كيف يتصرَّف. وقوله: (**وَأَشْغِلُوا عَنْكُمْ أَهْلَ فِحْلَ بِخَيْلٍ تَكُونُ بِإِزَائِهِمْ فِي نُحُورِهِمْ، وَأَهْلَ فِلَسْطِينَ وَأَهْلَ حِمْصَ**): هنا رجع إلى الإيجاز الذي يتطلَّبه المقام، فقال: (**وأهلَ فلسطين وأهل حمص**): فحذفَ، والتقدير: وأشغلوا

عنكم أهل فلسطين بخيل تكون بإزائهم في نحورهم، وأشغلوا عنكم أهل حمص بخيل تكون بإزائهم في نحورهم. وقوله: (**في نحورهم**): تتميم يفيد تعيين موقعهم من العدوِّ، وكذا يفيد طلب الاستعداد لهم. وقوله: (**فَإِنْ فَتَحَهَا اللهُ قَبْلَ دِمَشْقَ فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَأَخَّرَ فَتْحُهَا حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ دِمَشْقَ فَلْيَنْزِلْ بِدِمَشْقَ مَنْ يُمْسِكُ بِهَا، وَدَعُوهَا**): استعمل هنا أسلوب التقسيم الحاصر، فدمشق إمَّا أن تُفتَح وإمَّا أن يتأخَّر فتحها، ولم يذكر أنَّها لن تُفتَح؛ لأنَّ الله – تعالى – وعد على لسان رسوله ﷺ بفتح الشام فلا شكَّ في ذلك. وقوله: (**فذاك الذي نحبُّ**): استعمل اسم الإشارة؛ لبيان علوِّ شأن المشار إليه، وأخبر عنه بالاسم الموصول بقصد وصفه بما تضمَّنته صلة الموصول. وحين قابل عمر رضي الله عنه بين (**إن فتحها الله قبل دمشق**) و(**وإن تأخَّر فتحها**) تأدَّب مع الله أيّما أدب، فذكر اسمه في الحال التي يحبها فأسند (**فتحها**) إليه جلَّ وعلا، وحين ذكر الحال الأخرى، وهي تأخُّر فتح تلك المناطق عدل عن إسناد ذلك إلى الله فلم يقل: (وإن أخَّر الله فتحها). وقوله: (**فلينزل بدمشق من يمسك بها**): الاسم الموصول (**من**) يفيد العموم فيصلح لذلك الفعل كل أحد يتَّصف بصلة الموصول (**يمسك بها**). وقوله: (**وَانْطَلِقْ أَنْتَ وَسَائِرُ الأُمَرَاءِ حَتَّى تُغِيرُوا عَلَى فِحْلَ**): عطف (**سائر الأمراء**) على ضمير المخاطب (**أنت**)؛ ليشير إلى أنَّهم تبعٌ له. وقوله: (**فَإِنْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَانْصَرِفْ أَنْتَ وَخَالِدٌ إِلَى حِمْصَ**): حذف مفعول (**فتح**)؛ لكمال علم المخاطب به. وقوله: (**وَدَعْ شُرَحْبِيلَ وَعَمْرا وَأَخْلِهِمَا بِالأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ**): استعمل عمر رضي الله عنه هنا أسلوب اللف والنشر المرتَّب، فجمع بين شرحبيل وعمرو بجيشَيهما في أن يتركهما أبو عبيدة ولا يكونا معه لفتح حمص. ثمَّ ذكر له ما يأمر به كلَّ واحد منهما، وهو أن يذهب شرحبيل وجيشه إلى الأردن ويذهب عمرو وجيشه إلى فلسطين، ولم يعيِّن عمر ما لكلِّ واحد منهما اعتمادا على

فهم أبي عبيدة. وقوله: (**وَأَمِيرُ كُلِّ بَلَدٍ وَجُنْدٍ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ إِمَارَتِهِ**): ختم عمر ﷺ كتابه بهذه الجملة الموجزة إيجاز قِصَر، ومفادها أنَّ كلَّ أمير جندٍ هو أمير البلد التي وُجِّه إليها بعد فتحها حتى تُجمع كلُّ تلك البلاد المفتوحة تحت ولاية واحدة. وتقدير كلامه: وأمير كل بلدٍ وُجِّه إليها وجند تحت إمرته هو أميرٌ على الناس الذين يسكنون تلك البلاد بعد أن تُفتح، حتى يخرجوا من إمارته حين يولَّى عليهم غيره. وتأمَّل هذا الكتاب تجد أنَّ عمر ﷺ لم يكتفِ بالجواب عن سؤال أبي عبيدة في أي المناطق يبدأ أوَّلا، بل زاد له بيان ما يحتاج إليه، وهذا ما يعرف بـ «جواب الحكيم».

[٥٠٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إلى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ

«يَا سَعْدُ، سَعْدَ بَنِي أُهَيْبٍ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا؛ حَبَّبَهُ إِلَى خَلْقِهِ، فَاعْرِفْ مَنْزِلَتَكَ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - بِمَنْزِلَتِكَ مِنَ النَّاسِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا لَكَ عِنْدَ اللهِ مِثْلُ مَا للهِ عِنْدَكَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب سعدَ بنَ أبي وقَّاص رضي الله عنه قائدَ جيشه في فتح القادسية؛ ناصحًا له ومبينا كيف يعرف مقامه عند الله - تعالى -.

لطائف لغوية: قوله: (**يا سعدُ سعدَ بني أُهَيبٍ**) كرَّر المنادى، فالأوَّل يجوز فيه الفتح والضم، والثاني بالنصب فقط، وفي ذلك يقول ابن مالك:

في نحوِ سعدُ سعدَ الأوسِ ينتصب   ثانٍ، وضُم وافتح أوّلا تُصِب

البيان والبلاغة: بدأ بنداء المخاطب وكرَّر اسمه؛ تأكيدا وتحبُّبا، وليُشعره بأنَّه يخصُّه بمضمون هذا الكتاب، وليكونَ أحرص على امتثال ما فيه. وقوله: (**إنَّ اللهَ - تَعَالَى - إذَا أَحَبَّ عَبْدا حَبَّبَهُ إِلَى خَلْقِهِ**): استعمل أداة الشرط (**إذا**) إشارةً إلى تحقق وقوع الجواب، وقرَّر ذلك حين جاء بالجواب (**حبَّبه**) فعلا ماضيا. وتنكير (**عبدا**) في سياق الشرط يفيد العموم، فكل عبد أحبَّه الله - تعالى - حبَّبه إلى خلقه. وقوله:

١- ذكرهُ الجاحظُ في «البيانِ والتَّبيينِ» ١/ ٢١٨، وابنُ عبدِ ربِّه في «العقدِ الفريد» ١/ ١٦٣، والماورديُّ في «أدبِ الدُّنيا والدِّين» ١/ ١٣٧.

(فَاعْرِفْ مَنْزِلَتَك مِنْ الله - تَعَالَى - بِمَنْزِلَتِك مِنْ النَّاسِ): هنا أعاد تقرير ما ذكره قبلُ، وكأنَّه يقول: **(اعرف محبَّة الله لك بمحبَّة الناس لك)**، لكنَّه عبَّر عن المحبَّة بالمنزلة؛ ليشير إلى أنَّ المحبَّة درجات ومنازل، وليست على منزلة واحدة، والغرض من ذلك ترغيب المخاطب في السعي إلى نيل أعلى المنازل. وقوله: **(وَاعْلَمْ أَنَّ مَا لَك عِنْدَ الله مِثْلُ مَا لله عِنْدَك)**: استعمل هنا الفعل **(اعلم)** بعد أن استعمل قبلُ الفعل **(اعرف)**؛ لأنَّه أراد هنا معنى التيقُّن، واستعمل الاسم الموصول **(ما)** في الموضعين لإرادة العموم، واستعمل أداة التشبيه **(مثل)** لإفادة تمام المشابهة.

[٥٠٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَقَدْ بَلَغَهُ دُخُولُ سَعْدٍ مَدَائِنَ كِسْرَى

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ عَبْدِ اللهِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي بِتَقْوَاهُ سَعِدَ مَنْ سَعِدَ، وَبِتَرْكِهَا شَقِيَ مَنْ شَقِيَ، ثُمَّ قَدْ عَرَفْتَ بَلَاءَ اللهِ عِنْدَنَا أَيُّهَا الرَّهْطُ؛ إِذِ اسْتَنْقَذَنَا مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَأَخْرَجَنَا مِنْ عِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ، وَهَدَانَا مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، وَعَرَفْتَ مَخْرَجَنَا مِنْ عِنْدِهِمْ، وَخَرَجْنَا، زَادُ الرَّهْطِ عَلَى بَعِيرٍ، مَنْ بَلَغَ مِنَّا مَأْمَنَهُ بَلَغَ مَجْهُودًا، وَمَنْ أَقَامَ بِأَرْضِهِ أَقَامَ مَفْتُونًا فِي دِينِهِ، مُعَذَّبًا فِي بَدَنِهِ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا عَلَى تِلْكَ مِنْ حَالِنَا يُقْسِمُ: «**لَتَأْخُذُنَّ كُنُوزَ قَيْصَرَ وَكِسْرَى**». فَنَافَقَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ مُنَافِقُونَ، فَأَبْقَاكَ اللهُ حَتَّى رَأَيْتَ ذَلِكَ بِعَيْنِكَ، وَوَلِيتَهُ بِنَفْسِكَ، وَأَرَانَاهُ مَعَكَ، فَأَعْرِضْ عَنْ زَهْرَةِ مَا أَنْتَ فِيهِ؛ حَتَّى تَلْقَى[١] الْمَاضِينَ[٢] الَّذِينَ دَفَقُوا[٣] فِي شِمَالِهِمْ، لَاصِقَةً بُطُونُهُمْ بِظُهُورِهِمْ، لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ، لَمْ تَفْتِنْهُمُ الدُّنْيَا وَلَمْ يَفْتَتِنُوا بِهَا، أَسْرَعُوا فَلَمْ يَنْشَبُوا أَنْ لَحِقُوا»[٤].

١- الحُمَّاضُ: نبتٌ جبليٌّ، وهو مِن عُشْبِ الرَّبيعِ، وورقُه عِظامٌ ضخامٌ فُطْحٌ، إلَّا أنَّه شديدُ الحَمْضِ يأكلُه النَّاس، وزهرُه أحمرُ، وورقُه أخضرُ مُشرَبٌ حُمْرَةً، كأنَّ نصفَ لونِه أحمرُ ونصفَه أخضرُ، ويتناوسُ في ثمرِه مِثلَ حَبِّ الرُّمَّانِ، يأكلُهُ النَّاس شيئًا قليلًا، واحدتُه حُمَّاضةٌ. «المحكم» لابن سيده ٣/ ١٣٨.

٢- في الأصل: (الماضيين)، وهو تصحيفٌ، والصَّحيحُ ما أثبتُّه.

٣- دَفَقَ: الدَّالُ والفاءُ والقافُ أصلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ قياسُهُ، وهو دَفْعُ الشَّيءِ قُدُمًا. «مقاييس اللُّغة» ٢/ ٢٨٦.

٤- رواهُ أبو داودَ في «الزُّهدِ» (٥٤).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الرَّهْطُ**): ما معنى الرَّهط وما الفرق بينه وبين النَّفر؟ جاء في الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ما ملخصه: «الرهط: الجماعةُ نحو العشرة يرجعون إلى أب واحد. وسُمُّوا رهطًا تشبيها بالرَّهط الذي هو: قطعةٌ شقِّقَت سيورا ولم تقطع أطرافها، مثل: الشِّراك، فتكون فروعها شتى وأصلها واحد. وأمَّا النَّفر؛ فهم: الجماعة نحو العشرة من الرجال خاصة، ينفرون لقتال وما أشبهه ومنه قوله – عز وجل –: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨]، ثم كثر حتى سُموا نفرا، وإن لم ينفروا». و(**دَفَقُوا**): تقدَّموا ودفعوا إلى الإمام. و(**يَنْشَبُوا**): قال ابن الأثير – رحمه الله – في النهاية: «ولم ينشب أن فعل كذا: أي لم يلبث. وحقيقته: لم يتعلق بشيء غيره، ولا اشتغل بسواه».

مقتضى الحال: يخاطب سعدَ بن أبي وقَّاص رضي الله عنه أحدَ قادة جيوش فتح العراق، بعد أن دخل مدائن كسرى.

لطائف لغوية: (**أيُّها**) في قوله: (**أيُّها الرهط**): في محلِّ نصب على الاختصاص. وجملة (**زاد الرهط على بعير**): جملة حالية وصاحب الحال هو ضمير الفاعل في (**خرجنا**)، والرابط بين جملة الحال وصاحبها ضمير مقدَّر، أي: زاد الرَّهط منَّا على بعير. والغرض من هذه الجملة بيان الحال التي كانوا عليها من الفقر حين خرجوا من مكَّة.

البيان والبلاغة: قوله: (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ عَبْدِ اللهِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**): هذه

الافتتاحية فيها نوع إطناب إذا ما قورنت بافتتاحيات الكتب التي أرسلها عمرُ لِسعدٍ رضي الله عنهما قبل خوض المعركة؛ وذلك أنَّ الأمر بعد النصر قد استقرَّ فساغ الإطناب في الكلام. وتنكير (**سلام**) للتعظيم، واستعمال الفعل (**أحمدُ**) بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار. وقوله: (**أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي بِتَقْوَاهُ سَعِدَ مَنْ سَعِدَ، وَبِتَرْكِهَا شَقِيَ مَنْ شَقِيَ**): استعمل الفعل (**أوصيك**) بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والدوام. وبين (**بتقواه سعِدَ من سعِد**) و(**بتركها شقي من شقي**): مقابلة. واستعمال الاسم الموصول (من) في الموضعين يفيد العموم. وقوله: (**ثُمَّ قَدْ عَرَفْتَ بَلَاءَ اللهِ عِنْدَنَا أَيُّهَا الرَّهْطُ؛ إِذْ اسْتَنْقَذَنَا مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَأَخْرَجَنَا مِنْ عِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ، وَهَدَانَا مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، وَعَرَفْتَ مَخْرَجَنَا مِنْ عِنْدِهِمْ، وَخَرَجْنَا زَادُ الرَّهْطِ عَلَى بَعِيرٍ، مَنْ بَلَغَ مِنَّا مَأْمَنَهُ بَلَغَ مَجْهُودا، وَمَنْ أَقَامَ بِأَرْضِهِ أَقَامَ مَفْتُونا فِي دِينِهِ مُعَذَّبا فِي بَدَنِه**): هنا أطنب مرة أخرى في بيان فضل الله - تعالى - عليهم بالإسلام وإنقاذهم من الشرك، وفي ذكر الحال التي كان عليها المسلمون أوَّلَ أمرهم من الضعف، مع أنَّ المقام مقام فرح بالنصر؛ ليذكِّره بنعمة الله عليهم، وليدفع العُجب الذي قد يقع لهم بعد النصر. وقوله: (**أيُّها الرَّهط**): استعمل أسلوب الاختصاص؛ ليخص المسلمين الأوائل بالحكم. وقد عبَّر عنهم بلفظ (**الرَّهط**)، فـ (**أل**) هنا للعهد الذهني، والتعبير عنهم بلفظ (**الرَّهط**) إشارة إلى قلَّتهم. وقوله: (**وأخرجنا من عبادة أصنامهم**): استعمال الفعل (**أخرجنا**) فيه دلالة على أنَّهم كانوا منغمسين في عبادة الأصنام. وفي قوله: (**عبادة أصنامهم**): أضاف الأصنام إلى الضمير العائد على المشركين إشارة إلى أنَّ هذه الأصنام ابتدعوها من عند أنفسهم فهي خاصَّة بهم. وقوله: (**وخرجنا زاد الرهط على بعير**): (**أل**) في (**الرهط**) تحتمل أن تكون للعهد الذكري لإرادة الرهط الذي سبق ذكرهم، وإمَّا إن تكون للعهد الذهني لإرادة

ما هو متعارف عليه في الذهن من مفهوم الرهط، وفي الاحتمال الأوَّل مبالغة في بيان قلَّة ما عندهم من طعام؛ إذ لازم هذا الاحتمال أن يكون كلُّ المسلمين الذين خرجوا من مكَّة لهم من الطعام حمل بعير واحد. وتنكير (**بعير**) يراد به الإفراد. وقد استعمل أسلوب التقسيم في قوله: (**من بلغ منَّا مأمنه بلغ مجهودا، ومن أقام بأرضه أقام مفتونا في دينه معذّبا في بدنه**)؛ ليبيِّن أنَّ المسلمين قبل الهجرة كانوا على قسمين لا ثالث لهما، قسم خرج وهاجر من بلده فارًّا بدينه بمشقَّة وجهد وعناء، وقسم لم يهاجر وبقي معرَّضا للأذى والعذاب من قِبَل المشركين. وقوله: (**وَمُحَمَّدٌ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا عَلَى تِلْكَ مِنْ حَالِنَا يُقْسِمُ: «لَتَأْخُذُنَّ كُنُوزَ قَيْصَرَ وَكِسْرَى»، فَنَافَقَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ مُنَافِقُونَ**): هنا ذكر النبيَّ ﷺ باسمه صريحا ليبين أنَّه في ذلك الوقت قد كذَّب برسالته منافقون. وقوله: (**فنافق**) بمعنى: فكذَّب، ولكنَّه عدل إلى التعبير بالنفاق لأنَّه حقيقة مَن كذَّب بكلام النبي ﷺ. وفي قوله: (**فنافق في ذلك منافقون**) استعمل اسم الإشارة لتعيين المشار إليه، ولم يعيِّن المنافقين تنزُّها عن ذكر أسمائهم، فأبْهَم وقال: (**منافقون**). وقوله: (**فَأَبْقَاكَ اللهُ حَتَّى رَأَيْتَ ذَلِكَ بِعَيْنِكَ وَوَلِيتَهُ بِنَفْسِكَ، وَأَرَانَاهُ مَعَكَ**): قوله: (**ذلك**) استعمل اسم الإشارة لطلب استحضار صورة المشار إليه في ذهن المخاطب. وقوله: (**بعينك**) احتراس، فائدته دفع توهُّم أن يكون معنى (رأيت): علمتَ، فيكون الفعل قلبيًّا، بل هو: (رأى) البصَرية. وقوله: (**وأراناه معك**): الفعل (أرى) هنا بصري أيضا لا قلبي، وعمر ومَن معه في المدينة لم يروا بأعينهم فتح مدائن كسرى، وإنما رأوا أثر ذلك من الأسرى والغنائم. وقوله: (**فَأَعْرِضْ عَنْ زَهْرَةِ مَا أَنْتَ فِيهِ حَتَّى تَلْقَى الْمَاضِينَ الَّذِينَ دَفَقُوا فِي شِمَالِهِمْ، لَاصِقَةٌ بُطُونُهُمْ بِظُهُورِهِمْ، لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ، لَمْ تَفْتِنْهُمُ الدُّنْيَا وَلَمْ يَفْتَتِنُوا بِهَا، أَسْرَعُوا فَلَمْ يَنْشَبُوا أَنْ لَحِقُوا**): في قوله: (**ما أنت فيه**) استعمل الاسم الموصول

(ما) لإفادة العموم، فيشمل كلَّ متاع الدنيا. وقد وصف الماضين بجُمل عدَّة، وهي: (**الذين دفقوا في شمالهم**)، و(**لاصقة بطونهم بظهورهم**)، و(**ليس بينهم بين الله حجاب**)، و(**لم تفتنهم الدنيا ولم يفتتنوا بها**)، و(**أسرعوا فلم ينشبوا أن لحقوا**)، وهذه الجمل لم يصل بينها بالعطف بالواو، بل عمد إلى القطع ليكون كلُّ وصف قائما بذاته.

[٥٠٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى الْقُضَاةِ مَعَ أَوَّلِ قِيَامِهِ

«لَا تَبُتُّوا الْقَضَاءَ إِلَّا عَنْ مَلَإٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ رَأْيَ الْوَاحِدِ يَقْصُرُ، وَمَنْ لَزِمَهُ الْقَضَاءُ فَلْيَصْبِرْ وَلْيَحْتَسِبْ، وَلَا تَحْمِلُوا عَلَى حُكَّامِكُمْ مَا جَرَّ عَلَيْكُمْ شُهُودُكُمْ؛ فَإِنَّ الْحَاكِمَ يَحْكُمُ عَلَى مَا يَسْمَعُ، أَوْ يُشْهَدُ بِهِ عِنْدَهُ، وَاللهُ حَسِيبٌ لِلشَّاهِدِ وَالآخِذِ لِغَيْرِ الْحَقِّ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**تَبُتُّوا**): البتُّ هو القطعُ، والمقصود: لا تقطعوا وتصدروا أحكام القضاء إلا بالقيد المذكور.

مقتضى الحال: يخاطب القضاة الذين عيَّنهم، يبيِّن لهم كيف يقضون بين الناس، ويرشد الناس الذين يحتكمون إلى القضاء.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧٦، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٣٦، واللَّفظُ للبلاذريِّ.

البيان والبلاغة: قوله: (**لا تَبُتُّوا الْقَضَاءَ إِلا عَنْ مَلأٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**): القصر هنا حقيقي تحقيقي؛ لأَنَّه أمر إلزام. وقوله: (**إلا عن ملأٍ من المسلمين**): فيه إيجاز حذف، والتقدير: إلَّا أن يصدر عن استشارة وشهادة ملأٍ من المسلمين؛ لذا استعمل حرف الجر (**عن**). وقوله: (**فَإِنَّ رَأْيَ الْوَاحِدِ يَقْصُرُ**): فيه إيجاز حذف أيضا، والتقدير: يقصر عن بلوغ الصواب والحق. وقوله: (**وَمَنْ لَزِمَهُ الْقَضَاءُ فَلْيَصْبِرْ وَلْيَحْتَسِبْ**): هنا انتقل عمر رضي الله عنه إلى نصح المحكومين ومن وقع عليهم القضاء بعد أن نصح القضاة. وقوله: (**من**) تحتمل أن تكون موصولة وأن تكون شرطية، وعلى كلا الحالين تفيد العموم، فالحكم عام لكل من لزمه القضاء. وعبارة (**فليصبر وليحتسب**): تقال لمن وقعت له مصيبة، كما جاء في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أرسلت بنت النبي صلى الله عليه وسلم إليه أنَّ ابنا لي قُبِضَ فأتِنا، فأرسل يُقرئ السلام، ويقول: «**إنَّ لله ما أخذَ، ولهُ ما أعطى، وكلُّ شيءٍ عندَ الله بأجل مسمَّى، فلْتَصبرْ ولْتحتِسبْ**»[1]، وهنا استعمل عمر رضي الله عنه هذه العبارة؛ تحسُّبا لوقوع ما لا يرضى به المحكوم عليه فيكون كالمصيبة عليه. وقوله: (**وَلا تَحْمِلُوا عَلَى حُكَّامِكُمْ مَا جَرَّ عَلَيْكُمْ شُهُودُكُمْ**): أضاف الحكَّام والشهود إلى ضمير المخاطبين إشارة لهم إلى أنَّ الحكَّام والشهود منهم، فجدير بالحاكم أن يتحرَّى في الحكم، وجدير بالشاهد أن يتحرَّى في الشهادة. وقوله: (**وَاللهُ حَسِيبٌ لِلشَّاهِدِ وَالآخِذِ لِغَيْرِ الْحَقِّ**): ختم كلامه بهذه الجملة؛ ليُطمئن المحكوم عليه بأنَّ الحقَّ لا يضيع عند الله – تعالى –، وبدأ بذكر الشاهد توعُّدا؛ لأنَّ الآخذ لغير الحقِّ ما أخذ حقَّ غيره إلا بشهادة الشاهد.

١- رواه البخاري (ح١٢٨٤) ومسلم (ح٩٢٣).

[٥٠٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى أُمَرَاءِ الأَمْصَارِ

«بِأَنَّ لَكُمْ - مَعْشَرَ الْوُلَاةِ - حَقًّا فِي الرَّعِيَّةِ، وَلَهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ حِلْمٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ، وَلَا أَعَمَّ نَفْعًا، مِنْ حِلْمِ إِمَامٍ وَرِفْقِهِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ جَهْلٌ أَبْغَضَ إِلَى اللهِ، وَلَا أَعَمَّ ضَرًّا، مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وَخُرْقِهِ[١]، وَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبِ الْعَافِيَةَ فِيمَنْ هُوَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ يُنْزِلِ اللهُ عَلَيْهِ الْعَافِيَةَ مِنْ فَوْقِهِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الخُرق**): الجهل والحُمق.

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه ولاته وعمّاله مبينا لهم ما ينبغي أن يتحلَّى به الولاة وما ينبغي أن يجتنبوه من الخصال والأخلاق.

البيان والبلاغة: قوله: (**بِأَنَّ لَكُمْ مَعْشَرَ الْوِلَاةِ حَقًّا فِي الرَّعِيَّةِ وَلَهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ**): قدَّم خبر (**أَنَّ**)، أي: (**لكم**) على اسمها، أي: (**حقًّا**) للتخصيص. واستعمل أسلوب التخصيص في (**معشرَ الولاة**)؛ ليُشعر المخاطَب بأنَّه هو المقصود بالحكم. واستعمل أداة التشبيه (**مثل**)؛ لتقرير مماثلة حق الرعية على الولاة لحقِّ الولاة على رعيَّتهم. وقوله: (**فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ حِلْمٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ وَلَا أَعَمَّ نَفْعاً مِنْ حِلْمِ إِمَامٍ وَرِفْقِهِ، وَإِنَّهُ**

١- الخُرْق، بِالضَّمِّ: الجَهْلُ والحُمقُ. وقد خَرِقَ يَخْرَقُ خَرَقًا فهو أخرق. والاسمُ الخُرْقُ بالضَّمِّ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (خرق).

٢- رواهُ هنَّادٌ في «الزُّهدِ» ٢/ ٦٠٢، والدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٠٨٩).

لَيْسَ جَهْلٌ أَبْغَضَ إِلَى اللهِ وَلَا أَعَمَّ ضَرًّا مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وَخُرْقِهِ): قابل بين قوله: **(ليس من حلمٍ أحبَّ إلى الله ولا أعمَّ نفعا من حلم إمام ورفقه)**، وقوله: **(ليس جهل أبغضَ إلى الله ولا أعمَّ ضرًّا من جهل إمام وخرقه)**؛ ليُظهر مدى الفرق بين حلم الإمام برعيته وجهله بهم، وليحمل الأمراء على أن يرفقوا برعيَّتهم ويجتنبوا إلحاق الضرر بهم. وتنكير (**حلم**) و(**جهل**) في سياق النفي يفيد العموم، إلا أنَّه أدخل (**من**) الزائدة على (**حلم**)؛ لزيادة التنصيص على العموم، وليُغلِّب جانب الترغيب في الاتصاف بالحلم على جانب التنفير من الاتصاف بالجهل. وقوله: **(وَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبِ الْعَافِيَةَ فِيمَنْ هُوَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ يُنْزِلِ اللهُ عَلَيْهِ الْعَافِيَةَ مِنْ فَوْقِهِ)**: ختم وصيَّته للأمراء بهذه الجملة التي تحثُّ الأمير على الحرص على رعيَّته وطلب الخير لهم. واستعمل (**مَن**) الشرطية؛ ليعمَّ الحكمُ كلَّ راعٍ. واستعمل (**مَن**) الموصولة؛ ليعمَّ الحكمُ كلَّ فرد من الرعية. وقوله: **(يُنزل عليه العافية من فوقه)**: قدَّم الجارَّ والمجرور (**عليه**) على مفعول (**يُنزل**) للتخصيص. وقوله: (**من فوقه**): تتميم يفيد تأكيد نزول العافية عليه.

[٥٠٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ

«ذُكِرَ لِي أَنَّ (مطرس) بِلِسَانِ الْفَارِسِيَّةِ: الْأَمَنَةُ، فَإِنْ قُلْتُمُوهَا لِمَنْ لَا يَفْقَهُ لِسَانَكُمْ؛ فَهُوَ آمِنٌ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أهل الكوفة، ينبِّهم إلى أنَّهم إن قالوا أو فعلوا ما يَفهم منه الأعاجمُ أمانًا أنه أمانٌ يجب الوفاء به، ويحرم نقضه بغير موجب.

البيان والبلاغة: قوله: (**ذُكر**): لم يُسمِّ الفاعل؛ لعدم الحاجة إلى ذكره. وقوله: (**لمن لا يفقه لسانكم**): استعمل (مَن) الموصولة؛ ليعم الحكم كل مَن اتَّصف بالوصف المضمَّن في صلة الموصول. وقوله: (**فهو آمن**): جعل جواب الشرط جملة اسمية؛ ليدل على ثبوت هذا الحكم.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٤٠٠).

[٥٠٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«إِنَّكَ لَمْ تَنَلْ عَمَلَ الْآخِرَةِ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنَ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه يحثُّه على الزهد في الدنيا.

البيان والبلاغة: جاء عمر رضي الله عنه بهذه الموعظة بصيغة الجملة الاسمية وابتدأها بـ (إنَّ) المؤكِّدة؛ ليقرِّر ما تضمَّنته هذه الوصية. وقوله: (**لم تنل**): جاء بالفعل بصيغة المضارع ونفاه بـ (لم)؛ ليدل على استمرار نفي الحدث الذي يدل عليه الفعل. وقوله: (**بشيء**): هذه النكرة في سياق النفي تفيد العموم. وتأخير ذكر (**الزهد في الدنيا**) إلى آخر الكلام يشوِّق المخاطَب لمعرفة ما سيق الكلام من أجله، فيستقر معناه في نفسه.

١- رواهُ [وكيع في الزهد (ص ٢٢١) وعنه] أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٤٧) [وزاد (وإياك ومذاق الأخلاق ودناءتها) هكذا بالذال، وينظر النَّص التالي].

[٥٠٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«إِنَّ الْحِكْمَةَ لَيْسَتْ عَنْ كِبَرِ السِّنِّ، وَلَكِنَّهُ عَطَاءُ اللهِ يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ، فَإِيَّاكَ وَدَنَاءَةَ الْأُمُورِ وَمَذَاقَ الْأَخْلَاقِ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(مذاق الأخلاق)**: الأخلاق التي يشوبها ما يكدِّرها. وجاء في بعض الروايات بلفظ (مداقَّ الأخلاق)، وبهذا اللفظ ورد في المجالسة للدينوري، وعنه كنز العمال وغيره. وورد في مكارم الأخلاق للخرائطي عن إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: «كانوا يكرهون مداق الأخلاق، ويستحبون أن يكون فيهم غفلة السادة»، فلعل المقصود بذلك - على هذا اللفظ - شدة التدقيق في صغار الأمور والمحاسبة على الحبة والدانق، ولذلك قابله بـ (غفلة السادة)، أي: التغافل عن عمد وترك سفاسف الأمور وتوافهها حتى لا تؤثر في معالي الأمور. ومن كلام بعض البلغاء: «من لم يستظهر بالحزم على مداق الأخلاق ودناءتها، ويزجر النفس عن شهواتها، قصر دون رميته، ولم يدرك الثناء الذي سما إليه بأمنيته». وأما بلفظ **(مذاق)** فقد فسره محقق كتاب الزهد لوكيع فقال: «(مذاق الأخلاق)، أي: اختلاط

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (٢٣٦) [بلفظ (ومراق الأخلاق)]، ووكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ١/ ٢٨٥ [بلفظ (ومداني الأخلاق)]، والدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٠٨٩) [بلفظ (مداق) بالدال، وقال المحقق: سنده ضعيف] [وذكره ابن الجوزي في المناقب (ص ١٧٧) وعنه ابن المبرد في محض الصواب (٢: ٦٨٥) بحذف آخر كلمتين] [ورواه وكيع في الزهد (ص: ٢٢١) بلفظ (إن الفقه ليس عن كبر السن، ولكنه عطاء الله ورزقه .. وإياك ومراق الأخلاق ودناءتها)].

محمودها بمذمومها من قولهم: مذق اللبن أو الشراب بالماء إذا خلطه به فأكثر فيه الماء، ومن المجاز: يمذق الود، ووده ممذوق، وماذقه في الود مذاقا، وهو مماذق في وده ومذاق: إذا لم يخلصه». وأما بلفظ (مراق): فقد فسره محقق كتاب الزهد أيضا فقال: «من الرقة؛ فمن المجاز: أرقت بكم أخلاقكم، إذا شحوا ومنعوا خيرهم». وأما بلفظ (مداني): فهو من الدناءة، وهي الخصلة المذمومة.

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، يبيِّن له حقيقة الحكمة، ويحذِّره مما يكدِّر صفوَها.

لطائف لغوية: قوله: (**إيَّاك**): أسلوب تحذير له صورٌ، سبق الحديث عنها في شرح النص رقم واحد ومئتين، فليراجعه المستزيد.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ الحِكْمَةَ لَيْسَتْ عَنْ كِبَرِ السِّنِّ**): بدأ كلامه بنفي ما يتبادر إلى الذهن أنَّه مصدر الحكمة؛ ليشحذ ذهن المخاطب لطلب المصدر الحقيقي لها. وفي الكلام إيجاز حذف، والتقدير: ليست ناتجة عن كبر السنِّ. وقوله: (**وَلَكِنَّهُ عَطَاءُ اللهِ يُعْطِيهِ مِنْ يَشَاءُ**): الضمير في (**لكنَّه**) ضمير الشأن، فهو من الإضمار قبل الذكر، وفسَّره بجملة (**عطاء الله يعطيه من يشاء**). وأضاف (**عطاء**) إلى اسم الله تشريفا، وجاء بالفعل (**يعطيه**) بصيغة المضارع إشارة إلى أنَّ العطاء مستمرٌّ ولم ينقطع. وقوله: (**فَإِيَّاكَ وَدَنَاءَةَ الأُمُورِ وَمَذاقَ الأَخْلاقِ**): لما ذكر عمرُ قبلُ أنَّ الحكمة لا تُنال بتقدُّم السنِّ أشار هنا إلى ما ينبغي للحكيم أن يترفَّع عنه، فحذَّره من أن يصدر عنه شيء من سفاسف الأمور أو أن يشوب أخلاقه ما يُفسدها، واستعمل في ذلك أسلوب التحذير بـ (**إيَّاك**).

[٥١٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه

«قَدْ فَشَتْ لَكَ فَاشِيَةٌ مِنْ مَتَاعٍ، وَرَقِيقٍ، وَآنِيَةٍ، وَحَيَوَانٍ، لَمْ تَكُنْ لَكَ حِينَ وُلِّيتَ مِصْرَ!» فَكَتَبَ عَمْرٌو: إِنَّ أَرْضَنَا أَرْضُ مَتْجَرٍ وَمُزْدَرَعٍ، فَنَحْنُ نُصِيبُ فَضْلًا عَمَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِنَفَقَتِنَا. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: «إِنِّي قَدْ خَبَرْتُ مِنْ عُمَّالِ السُّوءِ مَا كَفَى، وَكِتَابُكَ إِلَيَّ كِتَابُ ضَجِرٍ قَدْ أَقْلَقَهُ الْأَخْذُ بِالْحَقِّ؛ فَقَدْ سُؤْتُ بِكَ ظَنًّا، وَقَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْكَ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ لِيُقَاسِمَكَ مَالَكَ، فَاخْرُجْ مِمَّا يُطَالِبُكَ بِهِ، وَاعْفِهِ مِنَ الْغِلْظَةِ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّهُ بَرِحَ الْخَفَاءُ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**فَشَتْ**)، أي: انتشرت وكثرت. و الـ(**مُزْدَرَعِ**): موضع الزرع. وقوله: (**بَرِحَ الخفاءُ**)، أي: ظهر الأمرُ واتَّضح. قال ابن منظور في لسان العرب: «الأزهري: بَرِحَ الخفاءُ، معناه: زال الخفاء. وقيل: معناه ظَهر ما كان خافيا وانكشف، مأخوذ من براح الأرض، وهو البارز الظاهر. وقيل: معناه ظهر ما كنتُ أُخفِي».

مقتضى الحال: يخاطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن العاص رضي الله عنه واليه على مصر يستفهم منه عن سبب زيادة ماله.

البيان والبلاغة: قوله: (**قَدْ فَشَتْ لَكَ فَاشِيَةٌ مِنْ مَتَاعٍ وَرَقِيقٍ وَآنِيَةٍ وَحَيَوَانٍ لَمْ تَكُنْ لَكَ حِينَ وُلِّيتَ مِصْرَ**): استعمل الفعل (**فشت**) الدال على سرعة الانتشار إشارة

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٦٩، وأبو الفرجِ البغداديُّ في «الخراجِ» ص٣٣٩.

إلى سرعة ظهور هذا المال له ممَّا لفت الأنظار إليه، وجاء هذا الفعل بصيغة الماضي بقصد تقرير ثبوته، وأكَّد ذلك بإدخال (**قد**) عليه. وتنكير (**فاشية**)، و(**متاع**)، و(**رقيق**)، و(**آنية**)، و(**حيوان**): لإرادة التكثير. وبناء الفعل (**وُلِّيت**) للمفعول لِعِلم المخاطب بالفاعل. وقوله: (**إِنِّي قَدْ خَبَرْتُ مِنْ عُمَّالِ السُّوءِ مَا كَفَى**): أكَّد قول بـ (**إنَّ**) و(**قد**) ليؤكِّد خبرته بعُمَّال ومكرهم، وليزول كلُّ شك في ذلك عن نفسِ عمرٍو رضي الله عنه. وقوله: (**ما كفى**): استعمل الاسم الموصول (**ما**) لإبهام المخبَر به بقصد التهويل. وقوله: (**وَكِتَابُكَ إِلَيَّ كِتَابُ ضَجِرٍ قَدْ أَقْلَقَهُ الأَخْذُ بِالْحَقِّ**): أضاف (**كتاب**) إلى الصفة المشبَّهه (**ضجر**)، ثمَّ فسَّر هذا الصفة بجملة (**قد أقلقه الأخذ بالحقِّ**)، والغرض من ذلك أن يصف المخاطِب الذي هو صاحب الكتاب بهذا الوصف، لكن بطريق غير مباشر. وقوله: (**وَقَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْك مُحَمَّدَ بنَ مَسْلَمَةَ لِيُقَاسِمَكَ مَالَكَ، فَاخْرُجْ مِمَّا يُطَالِبُكَ بِهِ، وَاعْفِهِ مِنَ الْغِلْظَةِ عَلَيْكَ، فَإِنَّهُ بَرِحَ الْخَفَاء**): قوله: (**قد وجَّهت**) أتى بالفعل (**وجَّهت**) بصيغة الماضي ليُعلِم المخاطَب أنَّ هذا الأمر قد انتهي وفُرغ منه، وأكَّد ذلك بإدخال (**قد**) عليه. وقوله: (**ليقاسمك مالك**): أضاف المال إلى المخاطب مع أنَّه يرى أنَّه ليس له، وذلك من باب التنزُّل، وليقطع الجدال في ذلك، يعنى كأنَّه يقول له: (وإن كان هذا المال مالك فسيقاسمك فيه). وقوله: (**فاخرج مما يطالبك به**): إشارة إلى أنَّ المخاطَب قد أحيط به فلا يخرج ممَّا هو فيه إلا بامتثال الأمر. وقوله: (**واعفه من الغلظة عليك**): إشارة للمخاطَب بأنَّ المرسَل إليه لن يتهاون معه. وقوله: (**فإنَّه بَرِحَ الخفاءُ**): كناية عن ثبوت الحكم ومضيِّه؛ إذ هو حكمٌ مبني على أمرٍ واضحٍ لا لبس فيه ولا غموض.

[٥١١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه بِمِصرَ يَذْكُرُ لَهُ مَا أَصَابَ الْمَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ مِنَ الْقَحْطِ

«مِنْ عَبْدِ اللهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، إِلَى الْعَاصِ بْنِ الْعَاصِ: سَلَامٌ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَلَعَمْرِي يَا عَمْرُو، مَا تُبَالِي إِذَا شَبِعْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ أَنْ أَهْلِكَ أَنَا وَمَنْ مَعِي؛ فَيَا غَوْثَاهُ، ثُمَّ يَا غَوْثَاهُ». فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: «لِعَبْدِ اللهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَيَا لَبَّيْكَ، ثُمَّ يَا لَبَّيْكَ! قَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ بِعِيرٍ أَوَّلُهَا عِنْدَكَ وَآخِرُهَا عِنْدِي. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ».

فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِعِيرٍ عَظِيمَةٍ، فَكَانَ أَوَّلُهَا بِالْمَدِينَةِ وَآخِرُهَا بِمِصْرَ، يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَلَمَّا قَدِمَتْ عَلَى عُمَرَ وَسَّعَ بِهَا عَلَى النَّاسِ، وَدَفَعَ إِلَى أَهْلِ كُلِّ بَيْتٍ بِالْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا بَعِيرًا بِمَا عَلَيْهِ مِنَ الطَّعَامِ، وَبَعَثَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ، وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ يَقْسِمُونَهَا عَلَى النَّاسِ، فَدَفَعُوا إِلَى أَهْلِ كُلِّ بَيْتٍ بَعِيرًا بِمَا عَلَيْهِ مِنَ الطَّعَامِ؛ أَنْ يَأْكُلُوا الطَّعَامَ، وَيَنْحَرُوا الْبَعِيرَ، فَيَأْكُلُوا لَحْمَهُ، وَيَأْتَدِمُوا شَحْمَهُ، وَيَحْتَذُوا جِلْدَهُ، وَيَنْتَفِعُوا بِالْوِعَاءِ الَّذِي كَانَ فِيهِ الطَّعَامُ لِمَا أَرَادُوا مِنْ لِحَافٍ أَوْ غَيْرِهِ، فَوَسَّعَ اللهُ بِذَلِكَ عَلَى النَّاسِ.

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عُمَرُ؛ حَمِدَ اللهَ، وَكَتَبَ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ مَعَهُ. فَقَدِمُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ عُمَرُ: «يَا عَمْرُو؛ إِنَّ اللهَ قَدْ فَتَحَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِصْرَ، وَهِيَ كَثِيرَةُ الْخَيْرِ وَالطَّعَامِ، وَقَدْ أُلْقِيَ فِي رُوعِي -

لِمَا أَحْبَبْتُ مِنَ الرِّفْقِ بِأَهْلِ الْحَرَمَيْنِ، وَالتَّوْسِعَةِ عَلَيْهِمْ حِينَ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِصْرَ، وَجَعَلَهَا قُوَّةً لَهُمْ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ - أَنْ أَحْفِرَ خَلِيجًا مِنْ نِيلِهَا حَتَّى يَسِيلَ فِي الْبَحْرِ؛ فَهُوَ أَسْهَلُ لِمَا نُرِيدُ مِنْ حَمْلِ الطَّعَامِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ؛ فَإِنَّ حَمْلَهُ عَلَى الظَّهْرِ يَبْعُدُ وَلَا نَبْلُغُ مِنْهُ مَا نُرِيدُ؛ فَانْطَلِقْ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ، فَتَشَاوَرُوا فِي ذَلِكَ حَتَّى يَعْتَدِلَ فِيهِ رَأْيُكُمْ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يَأْتَدِمُوا**): من الإدام، بالكسر، والأُدْم، بالضم؛ وهو: كلُّ يؤكل بالخبز. وقوله: (**يَحْتَذُوا جِلْدَهُ**): يتخذوه حِذاءً. و(**لِحَاف**): قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «قال أبو عبيد: اللِّحاف كل ما تغطيت به. ولَحَفْتُ الرجل ألحَفُه: إذا فعلت به ذلك، يعني: إذا غطيتُه».

مقتضى الحال: يخاطب عمرو بن العاص رضي الله عنه يستحثُّه ويستنجده لإغاثة أهل المدينة من القحط، ثمَّ يخاطبه مشاوِرًا في حفر خليجٍ يمتدُّ من النيل إلى البحر الأحمر.

لطائف لغوية: قوله: (**يَا غَوْثَاهُ**): أسلوب ندبةٍ، وهو صورةٌ من صور النداء يراد بها التوجُّع أو التفجُّع، وقد كرره لتأكيد توجُّعه وتفجُّعه رضي الله عنه لما أصاب المسلمين من الجوع والعوز. وقوله: (**رُوعي**): يخلط الكثيرون بين (الرُّوع) بضمِّ الراء و(الرَّوع) بفتحها. قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «الرَّوْعُ والرُّواع والتَّرَوُّع: الفَزَعُ ... والرُّوع: موضع الرَّوْع، وهو القَلبُ». ومن الأوَّل قول النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في دعائه: «**اللَّهُمَّ آمِنْ رَوْعاتي**»، جمع رَوعة؛ وهي: الفَزعة. ومن الثاني قوله صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رُوْعِي** ...»، أي: ألقى في قلبي أو نفسي. وقوله: (**انطلق أنتَ**

١- رواهُ ابنُ عبدِ الحكمِ في «فتوحِ مصرَ» ص١٩٠.

وأصحابُكَ): جاء فيه الفصل بالضمير المنفصل (**أنتَ**) بين المعطوف عليه، وهو ضمير الرفع المستتر في الفعل (**انطلق**)، والمعطوف، وهو كلمة (**أصحابك**). وهذا الفصلُ واجبٌ عند العطف على ضمائر الرفع المستترة، كما يجب عند العطف على ضمائر الرفع المتصلة. وفي ذلك يقول ابن مالكٍ - رحمه الله - في ألفيته:

وإن علـى ضمير رفـع متصـل عطـفت فافصل بالضمير المنفصل

وقال ابن عقيل في شرحه على الألفية: «الضمير المرفوع المستتر في ذلك كالمتصل، نحو: اضرب أنت وزيد، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، فـ (**زَوْجُكَ**) معطوف على الضمير المستتر في اسكن، وصحَّ ذلك للفصل بالضمير المنفصل وهو (**أَنْتَ**)».

البيان والبلاغة: قوله: (**سَلَامٌ؛ أَمَّا بَعْدُ؛ فَلَعَمْرِي يَا عَمْرُو، مَا تُبَالِي إِذَا شَبِعْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ أَنْ أَهْلِكَ أَنَا وَمَنْ مَعِي؛ فَيَا غَوْثَاه، ثُمَّ يَا غَوْثَاه**): أوجز في كلامه إيجازا يناسب ما هم فيه من الشدَّة، فلم يطل في السلام وافتتاح الكتاب. واستعمل أسلوب التعريض في قوله: (**ما تبالي إذا شبعت أنتَ ومن معك أن أهلك أنا ومن معي**)؛ لتحريك نفس المخاطب وحثِّها على المبادرة في تلبية المطلوب. واستعمل أسلوب المقابلة بين (**شبعت أنتَ ومن معك**) و(**أن أهلك أنا ومن معي**)؛ ليُظهر له حقيقة ما هم عليه. وكرَّر قوله: (**يا غوثاه**)؛ لتقرير طلبه. وقوله: (**يَا عَمْرُو؛ إِنَّ اللهَ قَدْ فَتَحَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِصْرَ، وَهِيَ كَثِيرَةُ الخَيْرِ وَالطَّعَامِ**): قوله: (**إنَّ الله قد فتح على المسلمين مصر**): أكَّد للمخاطب الكلام بـ (**إنَّ**) و(**قد**). ومجيء الفعل (**فتح**) بصيغة الماضي، مع أنَّه غير منكِر، ولكن أراد أن يقرِّر له أنَّ الله هو من امتنَّ بفتح مصر، وأنَّ خيرَها منَّة من الله - أيضا -؛ تمهيدا لما سيذكره بعدُ من مواصلة إمداد

المدينة ومكَّة من خير مصر. وقوله: (**كثيرة الخير والطعام**): عطف (**الطعام**) على (**الخير**) من عطف الخاص على العام، نصَّ على الخاص؛ لأنَّه الخير الذي يقصد طلبه. وقوله: (**وَقَدْ أُلْقِيَ فِي رُوعِي - لِمَا أَحْبَبْتُ مِنَ الرِّفْقِ بِأَهْلِ الْحَرَمَيْنِ، وَالتَّوْسِعَةِ عَلَيْهِمْ حِينَ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِصْرَ وَجَعَلَهَا قُوَّةً لَهُمْ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ - أَنْ أَحْفِرَ خَلِيجًا مِنْ نِيلِهَا حَتَّى يَسِيلَ فِي الْبَحْرِ**): بنى الفعل (**ألقي**) للمفعول؛ لعلم المخاطَبِ بالفاعل، ولشغل ذهنه بالحدث. وأتى بالجملة المعترضة (**لما أحببت ...**) بين الفعل ونائب الفاعل الذي هو المصدر المؤوَّل (**أن أحفر ...**)؛ لإعلام المخاطب بأهمِّيَّة مضمون هذه الجملة المعترضة. وقوله: (**بأهل الحرمين**): اختار هذا الاسم ولم يقل: (أهل المدينة ومكَّة)؛ ليذكِّر المخاطب بحرمة هذين البلدين فيستعطفه على أهلها ويزيد من حرصه عليهم. وقوله: (**حين فتح الله عليهم مصر**): قيَّد الفعل (**فتح**) بالجارِّ والمجرور (**عليهم**)؛ ليقرِّر للمخاطب أنَّ فتح مصر كان لعموم المسلمين ومنهم أهل الحرمين لذا خصَّهم بالذكر. وقدَّم الجارَّ والمجرور (**عليهم**) على المفعول (**مصر**) لمزيد الاهتمام. وفي قوله: (**حتى يسيل في البحر**): مجاز عقلي في إسناد السيل للخليج؛ إذ السيل للماء الذي في الخليج. و(**أل**) الداخلة على (**البحر**) للعهد الذهني، ويقصد به البحر الأحمر. وقوله: (**فَإِنَّ حَمْلَهُ عَلَى الظَّهْرِ يَبْعُدُ، وَلَا نَبْلُغُ مِنْهُ مَا نُرِيدُ**): قوله: (**الظَّهر**): (**أل**) للعهد الذهني، ويقصد ظهر الجمال والبغال التي يُحمل عليه، وهو مجاز بذكر الجزء وإرادة الكل. وقوله: (**يبعد**): عدل عن قول: (يصعب) إلى استعمال هذا الفعل؛ إشارة إلى ما يحقِّقه حفر الخليج من تقريب المسافة. وقوله: (**فَانْطَلِقْ أَنْتَ وَأَصْحَابكَ فَتَشَاوَرُوا فِي ذَلِكَ حَتَّى يَعْتَدِلَ فِيهِ رَأْيُكُمْ**): استعمل اسم الإشارة (**ذلك**)؛ لطلب تصوُّر المشار إليه في ذهن المخاطب، وقدَّم الجارَّ والمجرور (**فيه**) على الفاعل (**رأيكم**) للتخصيص، وكأنَّه أراد ألا يشغلوا فكرهم بشيء حتى ينتهوا من المشورة في هذا الأمر.

[٥١٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه

«سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ كَثْرَةِ كُتُبِي إِلَيْكَ فِي إِبْطَائِكَ بِالْخَرَاجِ، وَكِتَابِكَ إِلَيَّ بِبُنَيَّاتِ(١) الطَّرِيقِ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنِّي لَسْتُ أَرْضَى مِنْكَ إِلَّا بِالْحَقِّ الْبَيِّنِ، وَلَمْ أُقَدِّمْكَ إِلَى مِصْرَ أَجْعَلُهَا لَكَ طُعْمَةً وَلَا لِقَوْمِكَ، لَكِنِّي وَجَّهْتُكَ لِمَا رَجَوْتُ مِنْ تَوْفِيرِ الْخَرَاجِ وَحُسْنِ سِيَاسَتِكَ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاحْمِلِ الْخَرَاجَ؛ فَإِنَّمَا هُوَ فَيْءُ الْمُسْلِمِينَ، وَعِنْدِي مَنْ تَعْلَمُ: قَوْمٌ مَحْصُورُونَ. وَالسَّلَامُ». فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، مِنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهُ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَسْتَبْطِئُنِي فِي الْخَرَاجِ، وَيَزْعُمُ أَنِّي أَعْنِدُ عَنِ الْحَقِّ، أَنْكُبُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَرْغَبُ عَنْ صَالِحِ مَا تَعْلَمُ، وَلَكِنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ اسْتَنْظَرُونِي إِلَى أَنْ تُدْرِكَ غَلَّتُهُمْ، فَنَظَرْتُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَكَانَ الرِّفْقُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْ أَنْ يُخْرَقَ بِهِمْ، فَنَصِيرَ إِلَى مَا لَا غِنَى لَهُمْ عَنْهُ. وَالسَّلَامُ(٢).

١- بُنَيَّاتُ الطَّرِيقِ: هي الطُّرُقُ الصِّغارُ تَتَشعَّبُ مِن الجادَّةِ، وهي التُّرَّهاتُ. «الصّحاح» للجوهريِّ ٦/ ٢٢٨٧.

٢- ذكرهُ ابنُ عبدِ الحكمِ في «فتوحِ مصرَ» ص١١٠.

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**بُنيات الطريق**): الطرق الصغار تتفرع من طريق أوسع وأهم، ويكنَّى بها عن السفاسف والتُّرَّهات.

مقتضى الحال: يخاطب عمرو بن العاص رضي الله عنه يطلب منه أن يعجِّل في دفع خراج أرض مصر.

لطائف لغوية: قوله: (**يَسْتَبْطِئُنِي**) و(**اسْتَنْظَرُونِي**): سبق الحديث عن وزن استفعل ومعانيه ودلالاته، فراجع لذلك كتاب «نُزهة الطَّرْف شرح بناء الأفعال في علم الصَّرْف»، لصادق البيضاني.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ كَثْرَةِ كُتُبِي إِلَيْكَ فِي إِبْطَائِكَ بِالْخَرَاجِ، وَكِتَابِكَ إِلَيَّ بِبُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ**): استعمل مع المخاطَب أسلوب التعريض في قوله: (**عجبت من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج**)؛ ليُعلِمه بطولِ تأخُّره، وأنَّ ذلك غير معهود منه، فهي إشارة من عمر لعمرو رضي الله عنهما لِيفسِّر إبطاءه. وقوله: (**وكتابك إليَّ ببنيَّات الطريق**): كنَّى عن أعذار عمرو رضي الله عنه بهذه العبارة؛ ليُعلمه بأنَّها غير مقنعة. وقوله: (**وَقَدْ عَلِمْتَ أَنِّي لَسْتُ أَرْضَى مِنْكَ إِلَّا بِالْحَقِّ الْبَيِّنِ**): أكَّد كلامه وقرَّره هنا بـ (**قد**) ومجيء الفعل (**علم**) بصيغة الماضي و(**إنَّ**) وأسلوب القصر، وذلك لما بدا من المخاطَب ما ظاهره مخالفة هذا الكلام الذي سبق تقريره. والقصر هنا في قوله: (**لست أرضى منك إلا بالحق البين**) حقيقي تحقيقي. وقوله: (**وَلَمْ أُقَدِّمْكَ إِلَى مِصْرَ أَجْعَلُهَا لَكَ طُعْمَةً وَلَا لِقَوْمِكَ، لَكِنِّي وَجَّهْتُكَ لِمَا رَجَوْتُ مِنْ تَوْفِيرِ الْخَرَاجِ وَحُسْنِ سِيَاسَتِكَ**): تقديم الجار والمجرور (**لك**) على المفعول (**طعمة**) للتخصيص، ولكن

لما تقدَّم النفي بـ (لم) انتفى التخصيص. وزيادة (لا) في (**ولا لقومك**) لزيادة تقرير النفي. والقصر المتحصِّل من النفي بـ (لم) مع الإثبات بـ (**لكن**) قصر إضافي، وهو قصر قلب، لما ظهر من عمل المخاطب. وقوله: (**فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاحْمِلِ الخَرَاجَ، فَإِنَّمَا هُوَ فَيْءُ المُسْلِمِينَ، وَعِنْدِي مَنْ تَعْلَمُ: قَوْمٌ مَحْصُورُونَ. وَالسَّلَامُ**): قوله: (**فإذا أتاك**): استعمل اسم الشرط (**إذا**) للإشارة إلى تحقُّق وقوع الشرط، وأكَّد تقرير ذلك بمجيء فعل الشرط فعلا ماضيا، واستعمل اسم الإشارة (**هذا**)، لتعيين المشار إليه. والقصر في (**فإنَّما هو فيء المسلمين**): قصر حقيقي تحقيقي. وجملة (**قوم محصورون**) تفسير للاسم الموصول وصلته (**مَن تعلم**).

[٥١٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

لِابْنِهِ عَبْدِ اللهِ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ؛ فَإِنَّهُ مَنِ اتَّقَاهُ وَقَاهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ جَزَاهُ، وَمَنْ شَكَرَهُ زَادَهُ. اجْعَلِ التَّقْوَى نُصْبَ عَيْنَيْكَ وَجِلَاءَ قَلْبِكَ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ، وَلَا أَجْرَ لِمَنْ لَا خَشْيَةَ لَهُ، وَلَا مَالَ لِمَنْ لَا رِفْقَ لَهُ، وَلَا جَدِيدَ لِمَنْ لَا خَلَقَ لَهُ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**جِلَاءَ قَلْبِكَ**): قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «جَلَوْتُ، أي: أوضحت وكشفتُ. وجَلَّى الشيء، أي: كشفه. وهو يُجَلِّي عن نفسه، أي: يُعَبِّرُ عن ضميره. وتجَلَّى الشيءُ، أي: تكشَّف». و(**خَلَق**): قديمٌ بالي.

مقتضى الحال: يخاطب ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يوصيه بتقوى الله - تعالى - ووصايا أخرى.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ؛ فَإِنَّهُ مَنِ اتَّقَاهُ وَقَاهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ جَزَاهُ، وَمَنْ شَكَرَهُ زَادَهُ**): قوله: (**فإنِّي أوصيك**): استعمل الفعل (**أوصي**) بصيغة المضارع؛ دلالة على الاستمرار والمداومة. وجعل الفعل خبرا في جملة اسمية مصدَّرة بـ (**إنَّ**)؛ لإفادة ثبوت ذلك وتأكيده. وقوله: (**من اتَّقاه وقاه**): استعمل الجناس الناقص بين (**اتَّقاه**) و(**وقاه**)؛ لتثبيت المعنى في نفس المخاطب. ومجيء

١- رواهُ أبو عُبَيدٍ في «الخطبِ والمواعظِ» (١٣٧)، وقاضي المارستانِ في «أحاديثِ الشُّيوخِ الثِّقاتِ» (٦٠٠).

جواب الشرط فعلا ماضيا في: (**من اتّقاه وقاه**) و(**من أقرضه جزاه**) يفيد تحقُّق هذا الجواب عند تحقُّق شرطه، وبين (**وقاه**) و(**جزاه**) سجع. وقوله: (**اِجْعَلِ التَّقْوَى نُصْبَ عَيْنَيْكَ وَجِلَاءَ قَلْبِكَ**): التقوى أمر معنوي، ولكنَّه شخَّصها وجعلها كالأمر الحسي؛ ليستحضر المخاطب معناها. وقوله: (**وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ، وَلَا أَجْرَ لِمَنْ لَا خَشْيَةَ لَهُ، وَلَا مَالَ لِمَنْ لَا رِفْقَ لَهُ، وَلَا جَدِيدَ لِمَنْ لَا خَلَقَ لَهُ**): ختم كلامه بجمل أربعة موجزة متقاربة في اللَّفظ متَّحدة في الأسلوب، وهو أنَّه نفى جنس النتيجة لمن انتفى عنده جنس سببها، وفي الجملِ موازنةٌ واضحة، وإيجاز حذف؛ إذ التقدير: لا عمل مقبول لمن ...، ولا أجر حاصلٌ لمن ...إلخ.

[٥١٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

«بَلَغَنِي أَنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ اتَّخَذُوا الْحَمَّامَاتِ، فَلَا يَدْخُلَنَّ أَحَدٌ - أَوْ قَالَ: مُسْلِمٌ - إِلَّا بِمِئْزَرٍ، وَلَا يَذْكُرْ فِيهِ اسْمَ اللهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهُ - أَوْ قَالَ: لَا يَذْكُرُوا للهِ فِيهِ اسْمًا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهُ -، وَلَا يَسْتَنْقِعِ اثْنَانِ فِي حَوْضٍ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (يَسْتَنْقِع)، أي: يجتمع. والاستنقاع: اجتماع فيه ثبوت. يُقال: استَنْقَع الماء في الغدير، أي: اجتمع وثبت.

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، في شأن اتخاذ الناس الحمامات العامَّة.

البيان والبلاغة: قوله: (**بَلَغَنِي أَنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ اتَّخَذُوا الْحَمَّامَاتِ**): لم يذكر مَن أبلغه؛ لعدم الحاجة إلى ذكره، وحذف المفعول الثاني لـ (**اتَّخذ**)؛ لعلم المخاطب به. وقوله: (**فَلَا يَدْخُلَنَّ أَحَدٌ إِلَّا بِمِئْزَرٍ**): هذا القصر حقيقي تحقيقي، فالأمر فيه أمر إلزام. وتنكير (**أحد**) في سياق الأمر يفيد العموم - وكذا: (**مسلم**) في الرواية الأخرى - فالأمر يعمُّ كلَّ أحد. وقوله: (**وَلَا يَذْكُرْ فِيهِ اسْمَ اللهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهُ، - أَوْ قَالَ: لَا يَذْكُرُوا للهِ فِيهِ اسْمًا حتَّى يَخْرُجُوا مِنْهُ -**): قوله: (**اسم الله**): (**اسم**) مفرد

١- رواهُ البيهقيُّ في «شعبِ الإيمانِ» (٢٣٩٤).

أضيف إلى معرفة فيعم كل اسم لله - تعالى -، وعلى الرواية الأخرى: (**لا يذكروا الله فيه اسما**) جاء (**اسم**) نكرة في سياق نهي فيعم أيضا كل أسماء الله - تعالى -. وقوله: (**وَلَا يَسْتَنْقِعِ اثْنَانِ فِي حَوْضٍ**): تنكير (**حوض**) للإفراد، أي: في حوض واحد.

[٥١٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -

وَقَدْ أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْهُمَا فِيهِ: سَلَامٌ عَلَيْكَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّا عَهِدْنَاكَ وَأَمْرُ نَفْسِكَ لَكَ مُهِمٌّ، وَأَصْبَحْتَ قَدْ وُلِّيتَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحْمَرِهَا وَأَسْوَدِهَا، يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْكَ الشَّرِيفُ وَالْوَضِيعُ وَالْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ، وَلِكُلٍّ حِصَّتُهُ مِنَ الْعَدْلِ، فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ عِنْدَ ذَلِكَ يَا عُمَرُ، فَإِنَّا نُحَذِّرُكَ يَوْمًا تَعْنُو[1] فِيهِ الْوُجُوهُ، وَتَجِفُّ فِيهِ الْقُلُوبُ، وَتُقْطَعُ فِيهِ الْحُجَجُ، يَمْلِكُ قَهْرَهُمْ بِجَبَرُوتِهِ، وَالْخَلْقُ دَاخِرُونَ لَهُ، يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ، وَيَخَافُونَ عِقَابَهُ، وَإِنَّا كُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَيَرْجِعُ إِلَى آخِرِ زَمَانِهَا؛ أَنْ يَكُونَ إِخْوَانُ الْعَلَانِيَةِ أَعْدَاءَ السَّرِيرَةِ، وَأَنْ نَعُوذَ بِاللهِ أَنْ يَنْزِلَ كِتَابُنَا إِلَيْكَ سِوَى الْمَنْزِلِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قُلُوبِنَا؛ فَإِنَّا كَتَبْنَا بِهِ نَصِيحَةً لَكَ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِمَا: مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «سَلَامٌ عَلَيْكُمَا. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّكُمَا كَتَبْتُمَا إِلَيَّ تَذْكُرَانِ أَنَّكُمَا عَهِدْتُمَانِي وَأَمْرُ نَفْسِي لِي مُهِمٌّ، وَأَنِّي قَدْ أَصْبَحْتُ قَدْ وُلِّيتُ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحْمَرِهَا وَأَسْوَدِهَا، يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيَّ الشَّرِيفُ وَالْوَضِيعُ وَالْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ، وَلِكُلٍّ حِصَّةٌ مِنْ ذَلِكَ. وَكَتَبْتُمَا: فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ عِنْدَ ذَلِكَ يَا عُمَرُ؟ وَأَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ عِنْدَ

١- العاني: الخاضع المُتذلِّل. قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ}، وهيَ تَعنُو عُنُوًّا. وجئتُ إليكَ عانيًا: أي: خاضعًا كالأسيرِ المُرتهنُ بذنوبِه. «كتاب العين» ٢/ ٢٥٢.

ذَلِكَ لِعُمَرَ إِلَّا بِاللهِ. وَكَتَبْتُمَا تُحَذِّرَانِي مَا حُذِّرَتْ بِهِ الْأُمَمُ قَبْلَنَا، وَقَدِيمًا كَانَ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِآجَالِ النَّاسِ يُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ، وَيُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ مَوْعُودٍ، حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. كَتَبْتُمَا تَذْكُرَانِ أَنَّكُمَا كُنْتُمَا تُحَدَّثَانِ أَنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَيَرْجِعُ فِي آخِرِ زَمَانِهَا: أَنْ يَكُونَ إِخْوَانُ الْعَلَانِيَةِ أَعْدَاءَ السَّرِيرَةِ. وَلَسْتُمْ بِأُولَئِكَ، لَيْسَ هَذَا بِزَمَانِ ذَلِكَ، وَإِنَّ ذَلِكَ زَمَانٌ تَظْهَرُ فِيهِ الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ، تَكُونُ رَغْبَةُ بَعْضِ النَّاسِ إِلَى بَعْضٍ لِصَلَاحِ دُنْيَاهُمْ، وَرَهْبَةُ بَعْضِ النَّاسِ مِنْ بَعْضٍ. كَتَبْتُمَا بِهِ نَصِيحَةً تَعِظَانِي بِاللهِ أَنْ أُنْزِلَ كِتَابَكُمَا سِوَى الْمُنْزِلِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قُلُوبِكُمَا، وَأَنَّكُمَا كَتَبْتُمَا بِهِ وَقَدْ صَدَقْتُمَا، فَلَا تَدَعَا الْكِتَابَ إِلَيَّ؛ فَإِنَّهُ لَا غِنَى بِي عَنْكُمَا. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(تَعْنُو)**: تذِلُّ وتخضعُ، مأخوذٌ من العُنُوِّ؛ وهو: الذلُّ والخضوع. ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]. وقوله: **(داخرون)**: جمع داخر، وهو: الذليل المُهان.

مقتضى الحال: يخاطب أبا عبيدة ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما، يردُّ على كتاب لهما أرسلاه إليه ينصحانه فيه.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٥٩٢)، وأبو عبيدٍ في «الخطبِ والمواعظِ» (١٤٥)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» (٥٣٣)، والطَّبرانيُّ في «المعجمِ الكبيرِ» (٤٥)، وأبو نعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٢٣٧.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَإِنَّكُمَا كَتَبْتُمَا إِلَيَّ تَذْكُرَانِ أَنَّكُمَا عَهِدْتُمَانِي وَأَمْرُ نَفْسِي لِي مُهِمٌّ**): أعاد لهما ما كتباه إليه ليبيِّن لهما أنَّه قرأ كتابهما ووعى ما فيه. وفي أثناء إعادة كلامهما يكرِّر عبارة: (**كتبتما**) ليقرِّر لهما أنَّه يوقن أنَّ هذا الكلام منهما لا من غيرهما. وفي إعادة كلامهما نقل أكثره بنصِّه، ونقل بعضه بمعناه بحسب ما فهم منه. وقوله: (**كَتَبْتُمَا تَذْكُرَانِ أَنَّكُمَا كُنْتُمَا تُحَدَّثَانِ أَنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَيَرْجِعُ فِي آخِرِ زَمَانِهَا: أَنْ يَكُونَ إِخْوَانُ الْعَلَانِيَةِ أَعْدَاءَ السَّرِيرَةِ، وَلَسْتُمْ بِأُولَئِكَ، لَيْسَ هَذَا بِزَمَانِ ذَلِكَ**): هنا أدرج كلاما له بيانا لما جاء في كلامهما. وقوله: (**ولستم بأولئك**): استعمل اسم الإشارة (**أولئك**) للاستبعاد. وقوله: (**ليس هذا بزمان ذلك**): هنا استعمل اسم الإشارة في الموضعين؛ لتعيين المشار إليه. وقوله: (**فَلَا تَدَعَا الْكِتَابَ إِلَيَّ فَإِنَّهُ لَا غِنَى بِي عَنْكُمَا. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا**): (**أل**) في (**الكتاب**) تفيد بيان الحقيقة. وقوله: (**لا غنى بي عنكما**): أفاد بدخول (**لا**) النافية للجنس حقيقة عدم إمكان استغنائه عنهما؛ كناية عن شدَّة حاجته إلى نُصحهما.

[٥١٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ إِلَى أُمَرَائِهِ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ؛ فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهَا، فَمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا كَانَ قَمِنًا أَنْ يُبَارَكَ لَهُ فِيهَا، وَمَنْ أَخَذَهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ كَانَ كَالْآكِلِ الَّذِي لَا يَشْبَعُ، وَاحْتَسِبُوا إِلَى اللهِ أَعْمَالَكُمْ[١]، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِأَرْضِ عَدُوِّكُمْ، لَا يَفْقَهُونَ كَلَامَكُمْ، فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالذِّمَّةَ، فَإِنْ أَشَارَ أَحَدُكُمْ إِلَى عَدُوِّهِ بِيَدِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: وَاللهِ لَئِنْ نَزَلْتَ لَأَقْتُلَنَّكَ، فَنَزَلَ؛ إِنَّمَا نَزَلَ حِينَ أَشَارَ إِلَى السَّمَاءِ، وَذَلِكَ عَقْدُهُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (قَمِنًا): قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية ما ملخصه: «يقال: قَمِن وقَمَن وقَمِين، أي: خليق وجدير. فمن فتح الميم لم يُثَنِّ ولم يجمع ولم يؤنث؛ لأنه مصدر، ومن كسر ثنى وجمع وأنث؛ لأنه وصف، وكذلك القَمِين. ومن ذلك قوله النبي ﷺ: **(أَمَّا الركوعُ فعَظِّموا الرَّب فِيهِ، وَأَمَّا السُّجود فأكْثِروا فِيهِ مِنَ الدُّعاء فَإِنَّهُ قَمِنٌ أَنْ يُسْتجابَ لَكُمْ)**».

١- ذكرهُ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ١/ ٣٨٢، وزادَ: «فإنَّ مَن احتَسَب عملَه؛ كُتِب لهُ أجرُ عملِه وأجرُ حِسْبتِه»، وقالَ: (فالاحتسابُ مِن الحَسْبِ، كالاعتدادِ مِن العَدِّ، وإنَّما قيلَ لِمَن يَنوِي بعملِه وجهَ الله: احْتَسَبَهُ؛ لأنَّ لهُ - حينئذٍ - أن يعتدَّ عملَه، فجعلَ في حالِ مُباشَرةِ الفعلِ كأنَّهُ مُعتدٌّ به).

٢- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٢٩٢٧)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٥٨٦)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٥٧، وابنُ بشرانَ في «أماليه» (٨٦٦)، والنَّص المذكورُ جمعي.

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه أمراءه، ناصحًا إياهم بتقوى الله، والوفاء بالعهد.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَإِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهَا، فَمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا كَانَ قَمِنا أَنْ يُبَارَكَ لَهُ فِيهَا، وَمَنْ أَخَذَهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ كَانَ كَالْآكِلِ الَّذِي لَا يَشْبَعُ**): اقتباس من حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ**»[1]، وفي رواية: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا بُورِكَ لَهُ فِيهَا**»[2]، إلَّا أنه أدخل أسلوب التحذير (**فإيَّاكم وإيَّاها**) وكأنَّه أراد أن يبيِّن مقصد النبي من الحديث، وهو التحذير من الانجرار وراء متاع الدنيا الزائل. وقوله: (**كان قمنا**) إنَّما قال ذلك؛ لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أخبر عن ذلك، وما قاله النبي صلى الله عليه وسلم حري به أن يحصل. وقوله: (**وَاحْتَسِبُوا إِلَى اللهِ أَعْمَالَكُمْ**): قدَّم الجارَّ والمجرور (**إلى الله**) على المفعول (**أعمالكم**)؛ للتخصيص، أي: لا يكون احتساب هذه الأعمال إلَّا إلى الله – تعالى –. وقوله: (**وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِأَرْضِ عَدُوِّكُمْ لَا يَفْقَهُونَ كَلَامَكُمْ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالذِّمَّةَ**): (**أل**) في (**العهد**) و(**الذمَّة**) عهديَّة، أي: العهد والذمَّة التي بيَّنها الله ورسوله. وقوله: (**فَإِنْ أَشَارَ أَحَدُكُمْ إِلَى عَدُوِّهِ بِيَدِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: وَاللهِ لَئِنْ نَزَلْتَ لَأَقْتُلَنَّكَ، فَنَزَلَ، إِنَّمَا نَزَلَ حِينَ أَشَارَ إِلَى السَّمَاءِ، وَذَلِكَ عَقْدُهُ**): قوله: (**إلى السماء**): يقصد بالسماء جهة العلو؛ كناية عن تأكيد القسم؛ إذ العلوُّ من صفات الله – تعالى–.

١- رواه البخاري (ح٦٤٤١)، ومسلم (ح١٠٣٥).

٢- رواه ابن حبَّان في صحيحه (ح٤٥١٢).

[٥١٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَتَفَقَّهُوا فِي السُّنَّةِ، وَتَفَقَّهُوا فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَأَعْرِبُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ، وَتَمَعْدَدُوا؛ فَإِنَّكُمْ مَعَدِّيُّونَ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**تمعددُوا**)، أي: تمسَّكوا بخصال العرب الحميدة الذين يرجع نسبهم إلى معدِّ بن عدنان.

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه يطلب منه أنْ يأمر من تحته بالتفقُّه في الدين والعربية.

لطائف لغوية: قوله: (**تمعددُوا**): اشتقَّ من الاسم الجامد (معدٍّ) فعلا على وزن (تفعلل)، ولذلك نظائر في العربية. قال الأستاذ عباس حسن - رحمه الله - في كتابه النحو الوافي: «يشتق الفعلُ من الاسم العربي الجامد غير الثلاثي على وزن: (فعلل) متعديًا، وعلى وزن (تفعلل) لازمًا».

البيان والبلاغة: قوله: (**فَتَفَقَّهُوا فِي السُّنَّةِ، وَتَفَقَّهُوا فِي الْعَرَبِيَّةِ**): أعاد ذكر الفعل (**تفقَّهوا**)؛ لتقرير التفقُّه في كلٍّ من السُّنَّة والعربية، من غير أن يُتفقَّه في أحدهما دون الأخر، ولكنه قدَّم الأمر بالتَّفقُّه في السنَّة للأهمِّيَّة. وقوله: (**وَأَعْرِبُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ**

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٦١٦٤)، وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (٢٢٢٨).

عَرَبِيٌّ، وَتَمَعْدَدُوا؛ فَإِنَّكُمْ مَعَدِّيُّونَ): هنا ذكر علَّة الأمر مع أنَّه قبلُ اكتفى بذكر الأمر مجرَّدا، وفائدة ذكر علَّة الأمر – هنا – ترغيب المخاطَب في امتثال الأمر حين يعرف علَّته. وبين الفعلين (**تفقَّهوا**) و(**تمعددوا**) سجعٌ؛ حيث تشابهت فواصلهما.

[٥١٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

«صَلِّ الظُّهْرَ إِذَا زَاغَتِ الشَّمْسُ، وَالْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضَاءُ نَقِيَّةٌ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا صُفْرَةٌ، وَالْمَغْرِبَ إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَأَخِّرِ الْعِشَاءَ مَا لَمْ تَنَمْ، وَصَلِّ الصُّبْحَ وَالنُّجُومُ بَادِيَةٌ مُشْتَبِكَةٌ، وَاقْرَأْ فِيهَا بِسُورَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ مِنَ الْمُفَصَّلِ[١]»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(مشتبكة)**: قال ابن الأثير - رحمه الله - في جامع الأصول: «اشتباكُ النُّجومِ: ظهورُ صغارِها بينَ كبارِها، حتَّى لا يَخفَى منها شيءٌ». - **(المفصَّل)**: آخر حزب من القرآن الكريم والذي يضمُّ السور القصار. وسُمِّي بذلك لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة، وينتهي بسورة الناس، واختلف في بداية، والمشهور: أنه يبدأ بسورة (ق).

١- وفي رواية: «صَلِّ الظُّهْرَ حِينَ تَزُولَ الشَّمْسُ، وَصَلِّ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ بَيْضَاءُ نَقِيَّةٌ، وَصَلِّ الْمَغْرِبَ حِينَ تَغِيبُ الشَّمْسُ، أَوْ حِينَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ، وَصَلِّ الْعِشَاءَ حِينَ يَغِيبُ الشَّفَقُ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، وَإِنَّ ذَلِكَ سُنَّةٌ، وَأَقِمِ الْفَجْرَ بِسَوَادٍ، أَوْ بِغَلَسٍ، أَوْ بِالسَّوَادِ، وَأَطِلِ الْقِرَاءَةَ». رواهُ الحارثُ في «مُسنَدِه» كما في «بُغية الباحثِ» (١١٣).

وفي لفظٍ آخرَ: «كَتَبْتُ فِي الصَّلَاةِ، وَأَحَقُّ مَا تَعَاهَدَ الْمُسْلِمُونَ أَمْرُ دِينِهِمْ. وَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي، حَفِظْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا حَفِظْتُ، وَنَسِيتُ مِنْهُ مَا نَسِيتُ، فَصَلِّ الظُّهْرَ بِالْهَجِيرِ، وَالْعَصْرَ وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ، وَالْمَغْرِبَ لِفِطْرِ الصَّائِمِ، وَالْعِشَاءَ مَا لَمْ تَخَفْ رُقَادَ النَّاسِ، وَالصُّبْحَ بِغَلَسٍ، وَأَطِلِ الْقِرَاءَةَ فِيهَا». ذكرهُ البوصيريُّ في «إتحاف الخيرةِ» (٧٨٣)، وابنُ حجرٍ في «المطالبِ العاليةِ» (٢٥١)، وعزياهُ عن إسحاقَ بنِ راهويهِ في «مُسنَدِه».

٢- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإِ» (١٠)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٣٦)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٧٢٩).

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري ﷺ، مذكرا إياه بأوقات الصلاة.

لطائف لغوية:

البيان والبلاغة: بيَّن عمر لأبي موسى ﷺ أوقات الصلاة التي بيَّنها لهم رسول الله - ﷺ، فألفاظ هذا الكتاب مقتبسة من كلام للنبي ﷺ، وإنَّما كتب عمر بهذه الأوقات لأبي موسى ﷺ ولا شك أنَّ أبا موسى يعرفها؛ ليذكِّره بأهمِّيَّة الحفاظ على الصلوات المفروضة في وقتها. وقوله: (**والعَصرَ** ... **والمغربَ** ...): فيه إيجازٌ، والتقدير: وصلِّ العصرَ ... وصلِّ المغربَ.

[٥١٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ

«بَلَغَنِي أَنَّ نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ يَدْخُلْنَ الْحَمَّامَاتِ وَمَعَهُنَّ نِسَاءٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَازْجُرْ عَنْ ذَلِكَ، وَحُلْ دُونَهُ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**فازْجُرْ**): الزَّجر هو المنع والنهي والانتهار.

مقتضى الحال: يخاطب أبا عبيدة رضي الله عنه في شأن دخول نساء المسلمين الحمَّامات مع نساء الكافرين.

البيان والبلاغة: قوله: (**بَلَغَنِي أَنَّ نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ يَدْخُلْنَ الْحَمَّامَاتِ وَمَعَهُنَّ نِسَاءٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**): لم يذكر عمر رضي الله عنه مَن أبلغه الخبر؛ لعدم الفائدة في تعيينه. ونكَّر (**نِسَاءً**)؛ لأنَّ الحكم لا يتعلَّق بنساء بعينهن، وإنَّما هو لكلِّ النِّساء المؤمنات. وقوله: (**نساء المؤمنين والمهاجرين**): عطف (**المهاجرين**) على (**المؤمنين**): من عطف الخاصِّ على العامِّ للرِّعاية والاهتمام. وقوله: (**فَازْجُرْ عَنْ ذَلِكَ وَحُلْ دُونَهُ**): عطف (**حل دونه**) على (**ازجر عن ذلك**) ليس من الإطناب، فالزجر يكون قبل حصول الشيء، والحيلولة دون الشيء تكون إذا حصل ووقع، فكأنَّ عمر يقول لأبي عبيدة: (ازجر عن حصول ذلك، فإن خالف أحد هذا الأمر وحصل منه فامنعه ولا تتركه).

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١١٣٤)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٣٥٤٢) و(١٣٥٤٣).

[٥٢٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

«لَا تَبِيعَنَّ، وَلَا تَبْتَاعَنَّ، وَلَا تُشَارَنَّ[1]، وَلَا تُضَارَّنَّ، وَلَا تَرْتَشِ فِي الْحُكْمِ، وَلَا تَحْكُمْ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَأَنْتَ غَضْبَانُ»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**لا تشارنَّ**): لا تعمل بأحد شرًّا.

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه يوصيه بأمور يتوجب امتناعه عنها لأجل الحُكم.

البيان والبلاغة: في قوله: (**لا تبيعنَّ ولا تبتاعنَّ**): طباق بين (**تبيعنَّ**) و(**تبتاعنَّ**)، ولأنَّ البيع قد يُفهم منه الابتياع؛ ذكر الفعلين ونهى عنهما. وقوله: (**لا تشارَنَّ ولا تضارَّنَّ**): هذان الفعلان متقاربان في المعنى، وكان يمكنه أن يكتفي بالنهي عن أحدهما، ولكن أورد النهي عن الفعلين؛ لتأكيد المعنى وتقريره. وقوله: (**ولا ترتشِ في الحكم**): قيَّد النهي عن الارتشاء بالجارِّ والمجرور (**في الحكم**)، مع أنَّ النَّهي عامٌّ لا يتقيَّد به، ولكنَّه في الحُكم أعظم جُرما وخطرا؛ لما فيه من إضاعة الحقوق. وقوله: (**ولا تحكم بين اثنين وأنت غضبان**): اقتباس من قول النبي ﷺ: «**لَا يَحْكُمْ أَحَدٌ**

١- تُشَارَنَّ؛ أي: لا تفعلْ به شَرًّا يُحوِجُه إلى أن يفعلَ بكَ مِثلَه. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (شرر).
٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٥٢٩٠).

بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ»[١]. وفي الجمل إطنابٌ غرضه التأكيد على المعنى وتقريره، وسجع بيِّن في فواصل الجملة الأربعة الأولى.

١- رواه مسلم (ح١٧١٧).

[٥٢١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

«أَنْ مُرْ مَنْ قِبَلَكَ مِنْ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ: أَنْ يُصَدِّقْنَ حُلِيَّهُنَّ، وَلَا يَجْعَلْنَ الْهَدِيَّةَ وَالزِّيَارَةَ تَقَارُضًا بَيْنَهُنَّ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**يُصدِّقن**): يخرجن الصدقة.

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه في شأن حُلِيِّ وهدايا النساء.

البيان والبلاغة: قوله: (**من نساء المسلمين**): أضاف (**نساء**) إلى (**المسلمين**) للتخصيص، ليتقيَّد الحكم بهذا القيد. وقوله: (**ولا يجعلن الهديَّة والزيارة تقارضا بينهنَّ**): شبَّه الهديَّة والزيارة إن كانتا مكافأة لهديَّة أو زيارة سابقة بالتقارض، ووجه الشبه بينهما تقدُّم مماثِل في كلٍّ، فيكون الردُّ مساويا في القدْر للسابق. وقد يكون المراد النَّهي عن عدِّ الهدية بين النسوة دينًا حقيقيًّا يجبُ وفاؤه.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٠٢٥٧)، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (١٧٦٤)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٧٥٤٣).

[٥٢٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

«إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا؛ فَأَعْلِمْنِي يَوْمًا مِنَ السَّنَةِ لَا يَبْقَى فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ دِرْهَمٌ، حَتَّى يُكْتَسَحَ اكْتِسَاحًا؛ حَتَّى يَعْلَمَ اللهُ أَنِّي قَدْ أَدَّيْتُ إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه في شأن وكيفية إنفاق ما في بيت مال المسلمين.

البيان والبلاغة: قوله: (**كتابي هذا**): استعمل اسم الإشارة لتعيين المشار إليه للمخاطب. وقوله: (**فأعلمني يوما من السنة**): تنكير (**يوما**) للإفراد. وقوله: (**لا يبقى في بيت مال المسلمين درهم**): قدَّم الجارَّ والمجرور (**في بيت**) على الفاعل (**درهم**) للعناية والاهتمام، ونكَّر (**درهم**) للإفراد. وقوله: (**حتَّى يُكتسح اكتساحا**): بنى الفعل (**يُكتسح**) للمفعول؛ ليبيِّن للمخاطب أهمِّيَّة الحدث بغضِّ النظر عن الفاعل، وأكَّد أهمِّيَّة حصول هذا الحدث على الوجه التام من غير تجوُّز حين أتى بالمصدر (**اكتساحا**). وقوله: (**حتَّى يعلم الله أنِّي قد أدَّيت إلى كلِّ ذي حقٍّ حقَّه**): بيَّن للمخاطب ضرورة حصول ما هو مسئول عنه أمام الله فأتى بالفعل (**أدَّيت**) بصيغة

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٣/ ٣٠٣، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٩٣٣)، وابنُ عساكرَ في «تاريخ دمشقَ» ٤٤/ ٣٤٣، قالَ الحسنُ البصريُّ في التَّعليقِ على هذا الخبرِ: (فأَوسعَ اللهُ عليهِ، فأَخذَ صَفْوَها، وتَركَ كَدرَها، حتَّى أَلحقَهُ اللهُ بِصاحِبَيْهِ).

الماضي مسبوقا بـ (**قد**)، وجعله خبرا لجملة اسميَّة مصدَّرة بـ (**أنَّ**). وفي قوله: (**إلى كلِّ ذي حقّ**) استعمل لفظ (**كلِّ**) لإفادة العموم، وقد خصَّص هذا العموم حين أضافه إلى (**ذي حقٍّ**)؛ ليشمل الحكم كل من اتَّصف بهذا الوصف. وقد قدَّم الجارَّ والمجرور (**إلى كل**) على المفعول (**حقَّه**)؛ للأهمِّيَّة والعناية، وأضاف المفعول (**حق**) إلى ضمير الغائب (**الهاء**)؛ لتقرير ملك هذا الغائب واختصاصه بهذا الحق.

[٥٢٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ حِينَ افْتَتَحَ الْعِرَاقَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ أَنَّ النَّاسَ سَأَلُوكَ أَنْ تَقْسِمَ بَيْنَهُمْ مَغَانِمَهُمْ وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا؛ فَانْظُرْ مَا أَجْلَبَ النَّاس عَلَيْكَ إِلَى الْعَسْكَرِ مِنْ كُرَاعٍ أَوْ مَالٍ فَاقْسِمْهُ بَيْنَ مَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَاتْرُكِ الْأَرَضِينَ وَالْأَنْهَارَ لِعُمَّالِهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ فِي أَعْطِيَاتِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ قَسَمْتَهَا بَيْنَ مَنْ حَضَرَ، لَمْ يَكُنْ لِمَنْ بَقِيَ بَعْدَهُمْ شَيْءٌ. وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكَ أَنْ تَدْعُوَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَمَنِ اسْتَجَابَ لَكَ، وَأَسْلَمَ قَبْلَ الْقِتَالِ فَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لَهُ مَا لَهُمْ، وَلَهُ سَهْمٌ فِي الْإِسْلَامِ، وَمَنِ اسْتَجَابَ لَكَ بَعْدَ الْقِتَالِ، وَبَعْدَ الْهَزِيمَةِ فَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَالُهُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ أَحْرَزُوهُ قَبْلَ إِسْلَامِهِ. فَهَذَا أَمْرِي، وَعَهْدِي إِلَيْكَ. وَلَا عُشُورَ عَلَى مُسْلِمٍ، وَلَا عَلَى صَاحِبِ ذِمَّةٍ، إِذَا أَدَّى الْمُسْلِمُ زَكَاةَ مَالِهِ، وَأَدَّى صَاحِبُ الذِّمَّةِ جِزْيَتَهُ الَّتِي صَالَحَ عَلَيْهَا، إِنَّمَا الْعُشُورُ عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ إِذَا اسْتَأْذَنُوا أَنْ يَتَّجِرُوا فِي أَرْضِنَا، فَأُولَئِكَ عَلَيْهِمُ الْعُشُورُ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**كُراع**): الكراع في سياق القتال هي: الخيل والسلاح.

وأما ما سوى ذلك؛ فقد جاء في المعجم الوسيط: «الكُراع من الإنسان: ما دون

١- رواهُ يحيى بنُ آدمَ في «الخراج» (٤٩) و(١٢١)، والقاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (١٥٠)، وابنُ زَنْجُويْهِ في «الأموالِ» (٢٢٩)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٨٣٦٩).

الركبة إلى الكعبِ. ومن البقر والغنم: مُستدق الساق العاري من اللحم، يذكر ويؤنث. والجمع: أكرُع وأكارِعُ. وفي المثل: (لا تُطْعِم العبد الكُراع؛ فيطمع في الذراع)». و(**العُشُور**): قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب ما ملخصه: «العُشُور: جمع عُشر؛ وهو: ما يؤخذ من أموال غير المسلمين على تجاراتهم ونحوها. والذي يلزمهم من ذلك عند الشافعي: ما صولحوا عليه وقت العهد، فإن لم يصالحوا على شيء فلا يلزمهم إلا الجزية. وقال أبو حنيفة: إن أخذوا من المسلمين إذا دخلوا بلادهم أخذنا منهم إذا دخلوا بلادنا للتجارة».

مقتضى الحال: يخاطب سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه في شأن مغانم المسلمين في بلاد العراق، وسياسته فيمن أسلم ومن لم يسلم من أهلها.

لطائف لغوية: قوله: (**الأَرَضِين**): جمع الأرضين جمع مذكر سالم، ولا يعدُّ من جمع المذكر السالم لأنه لم يجمع شروطه. وإنَّما ألحق به وجرى مجراه في الإعراب. وفي ذلك يقول ابن مالك - رحمه الله -:

وبِــــه عِـــشـــرُونـــــا ... وبـــابــه أُلـحِـــقَ والأَهْـلُـونــا

أولــو وعـــالــمـون عـلـيـونـا ... وأَرَضُـــون شـــذَّ والسِّـنُـونـا

البيان والبلاغة: قوله: (**فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ أَنَّ النَّاسَ سَأَلُوكَ أَنْ تَقْسِمَ بَيْنَهُمْ مَغَانِمَهُمْ، وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ**): أعاد للمخاطب مضمون كتابه ليبيِّن له أنَّه قرأه ووعاه واهتمَّ به. وقوله: (**فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَانْظُرْ مَا أَجْلَبَ النَّاسُ عَلَيْكَ إِلَى الْعَسْكَرِ مِنْ كُرَاعٍ أَوْ مَالٍ، فَاقْسِمْهُ بَيْنَ مَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَاتْرُكِ الْأَرَضِينَ وَالْأَنْهَارَ لِعُمَّالِهَا؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ فِي أُعْطِيَاتِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ قَسَمْتَهَا بَيْنَ مَنْ حَضَرَ، لَمْ يَكُنْ**

لِمَنْ بَقِيَ بَعْدَهُمْ شَيْءٌ): قوله: **(جاءك كتابي)**: أسند المجيء إلى الكتاب على سبيل المجاز العقلي. وقوله: **(أجلب الناس عليك)**: يريد بالناس الجندَ الذين شاركوا في القتال، فـ**(الناس)**: عام يراد به الخصوص. وقوله: **(من كراع ومال)**: أدخل حرف الجر **(مِن)** على **(كراع ومال)** مع تنكيرهما؛ لتفيد استغراق جنسهما. وقوله: **(فاقسمه بينَ مَن حضر من المسلمين)**: **(مَن)** الموصولة في الجملة تفيد العموم، فيشمل الحكم كل مَن اتَّصف بصِلتها، ولم يقيِّد الفعل **(حضر)** بالمعركة؛ لعلم المخاطب بذلك. وقوله: **(من المسلمين)**: تتميم؛ لأنَّ الفيء والغنيمة لا تقسم إلا بين المسلمين، وفائدة هذا القيد: التنبيه على أنَّ اتِّصافهم بالإسلام أوجب لهم هذا الحق. وقوله: **(واترك الأرضين والأنهار لعُمَّالها)**: جاء بالأرضين والأنهار بلفظ الجمع؛ ليشمل أنواعها، وأضاف العمَّال إليها؛ ليشير إلى اختصاصهم بها. وقوله: **(ليكون ذلك في أعطيات المسلمين)**: استعمال حرف الجر **(في)** من دقَّة التعبير، ففي ذلك إشارة إلى أنَّ أعطيات المسلمين تشمل تلك الأرضين والأنهار وتشمل غيرها. وقوله: **(إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء)**: بين **(مَن حضر)** و**(مَن بقي)** طباق، وفي الظرف **(بعدهم)** تتميم؛ إذ المعنى مفهوم بدون هذا القيد، ولكنَّه جاء به إشارة إلى أنَّ مَن بقي إنَّما سبب عدم أخذهم مِن القسمة هو تأخُّرهم عن أولئك الذين حضروها. وتنكير **(شيء)** في سياق النفي يفيد العموم، فيعم كل ما هو من مال الغنيمة والفيء. وقوله: **(وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكَ أَنْ تَدْعُوَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَمَنِ اسْتَجَابَ لَكَ، وَأَسْلَمَ قَبْلَ الْقِتَالِ فَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لَهُ مَا لَهُمْ، وَلَهُ سَهْمٌ فِي الْإِسْلَامِ، وَمَنِ اسْتَجَابَ لَكَ بَعْدَ الْقِتَالِ، وَبَعْدَ الْهَزِيمَةِ فَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَالُهُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ أَحْرَزُوهُ قَبْلَ إِسْلَامِهِ)**: ذكَّر المخاطب بمضمون كتاب سابق لهذا الكتاب؛ ليقرِّر مضمونه لأهميته وتعلقه بهذا الكتاب. وقوله: **(فَهَذَا أَمْرِي، وَعَهْدِي**

إِلَيْكَ): استعمل اسم الإشارة؛ لتعيين المشار إليه وتمييزه من غيره. وتعريف طرفي الإسناد يفيد القصر، وهذا القصر ادِّعائي، فائدته بيان أهمية هذا المطلوب، لا أنَّ المخاطب غير مأمور بغيره. وقوله: (**وَلَا عُشُورَ عَلَى مُسْلِمٍ، وَلَا عَلَى صَاحِبِ ذِمَّةٍ، إِذَا أَدَّى الْمُسْلِمُ زَكَاةَ مَالِهِ، وَأَدَّى صَاحِبُ الذِّمَّةِ جِزْيَتَهُ الَّتِي صَالَحَ عَلَيْهَا، إِنَّمَا الْعُشُورُ عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ، إِذَا اسْتَأْذَنُوا أَنْ يَتَّجِرُوا فِي أَرْضِنَا، فَأُولَئِكَ عَلَيْهِمُ الْعُشُورُ**): هنا انتقل إلى موضوع آخر، وهو (**العشور**)، لكن له صلة بالفيء والغنائم؛ لتعلق هذه الأشياء بالمال. وقوله: (**لا عشور على مسلم ولا على صاحب ذمَّة**): أدخل (**لا**) النافية للجنس على (**العشور**) وأتى بلفظ (**العشور**) جمعا؛ للمبالغة في نفي جميع أنواعها. ثمَّ أعاد (**لا**) في: (**ولا على صاحب ذمَّة**)؛ لتأكيد النفي. وتنكير (**مسلم**) لإرادة الجنس؛ فكل من اتَّصف بهذا الوصف داخل في الحكم. ثمَّ قيَّد النفي المفهوم من (**لا**) النافية للجنس فأتي بأداة الشرط (**إذا**) في قوله: (**إذا أدَّى المسلم زكاة ماله، وأدَّى صاحب الذمَّة جزيته التي صالح عليها**). ووصف (**جزيته**) بالاسم الموصول (**الذي**)؛ لتخصيصه بالمعنى المفهوم من جملة الصلة، ولا يفهم من هذا الشرط أنَّ المسلم إذا لم يؤدِّ الزكاة وصاحبَ الذمَّة إذا لم يؤدِّ الجزية = أنَّ عليهما العشور، وإنَّما ذكر هذا الشرط؛ ليبيِّن أنَّ المسلم وصاحب الجزية إن أُعفوا من دفع العشر فلا يعنى ذلك أنَّهم سلموا من دفع مستحقَّات أخرى. ولدفع توهُّم أن يكون ذلك الشرط على حقيقته أطنب واحترس بقوله: (**إنَّما العشور على أهل الحرب إذا استأذنوا أن يتَّجروا في أرضنا، فأولئك عليهم العشور**)، والقصر هنا حقيقي تحقيقي. والقيد في قوله: (**إذا استأذنوا**): إشارة إلى ضرورة استئذان غير المسلم عند اتِّجاره في أرض المسلمين. وفي قوله: (**فأولئك عليهم العشور**): أعاد هذا المعنى - وإن اختلف اللفظ - لتقرير مضمونه، وتأكيد دفع التوهُّم السابق.

[٥٢٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ

«إِنَّكَ كَتَبْتَ تَسْأَلُنِي عَنْ قَوْمٍ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ فِي خِفَّةِ الْإِسْلَامِ، فَمَاتُوا، قَالَ: تُرْفَعُ أَمْوَالُ أُولَئِكَ إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ. وَكَتَبْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الرَّجُلِ يُسْلِمُ فَيُعَادُّ الْقَوْمَ وَيُعَاقِلُهُمْ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ وَلَا لَهُمْ عَلَيْهِ نِعْمَةٌ، فَاجْعَلْ مِيرَاثَهُ لِمَنْ عَاقَلَ وَعَادَّ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**عادَّ القوم**): صار يُعدُّ فيهم. و(**عاقل القوم**): ناصرهم في الدِّية وغيرها.

مقتضى الحال: يخاطب عمرو بن العاص رضي الله عنه، يجيبه عن أسئلة تتعلق بالفرائض، أرسل يستفتيه فيها.

البيان والبلاغة: ذكر للمخاطب نصَّ السؤالين اللذين سألهما، وبعد كلِّ سؤال إجابته، إشارة إلى ضرورة ربط الإجابة بالسؤال المذكور واقتصاره عليه. وقوله: (**تُرْفَعُ أَمْوَالُ أُولَئِكَ إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ**) بنى الفعل (**تُرفع**) للمفعول؛ لتعليق ذهن المخاطب بالحدث من غير تعيين للفاعل. واستعمل اسم الإشارة (**أولئك**)؛ لتعيين المشار إليه. وقوله: (**فَاجْعَلْ مِيرَاثَهُ لِمَنْ عَاقَلَ وَعَادَّ**): حذف مفعولَي (**عادَّ**)

١- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٢٠٩).

و(**عاقل**)؛ لعلم المخاطب بهما. وقدَّم (**عاقل**) على (**عادَّ**) مع أنَّ سؤال المخاطب كان فيه تقديم (**من عادَّ**) على (**من عاقل**)، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ (**من عاقل**) أولى بالتقديم والاهتمام؛ لأنَّ من عاقل قوما فهو مشارك لهم بنفسه وماله، أمَّا من عادَّ قوما فهو مشارك لهم في نفسه دون ماله، فبيَّن عمر للمخاطب ما هو أولى، وهذا من أسلوب الحكيم.

[٥٢٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَهْلِ الشَّامِ

«أَنْ عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمُ السِّبَاحَةَ وَالرَّمْيَ وَالْفُرُوسِيَّةَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أهل الشَّام في شأن تعليم أولادهم ما فيه تقوية لبدنهم، وزرع الشجاعة في نفوسهم.

البيان والبلاغة: قوله: **(علِّموا)**: أسند الفعل إلى ضمير المخاطِبين، ولم يقيِّده بمخاطب بعينه؛ ليكون كل مخاطب داخلا في الأمر. وأضاف **(الأولاد)** إلى ضمير المخاطبين ليذكِّرهم باختصاصهم بهم؛ ليكون ذلك أدعى لحرصهم عليهم. وقدَّم ذكر السباحة؛ للاهتمام والتنبيه، ولأنها قد يُغفَل عنها بخلاف الرمي والفروسية.

١- رواهُ إسحاقُ القرَّابُ في «فضائلِ الرَّمْيِ» (١٥).

[٥٢٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَقَدْ كَتَبَ لَهُ فِي الرَّاهِبِ يَمُوتُ لَيْسَ لَهُ وَارِثٌ

«أَنْ أَعْطِ مِيرَاثَهُ الَّذِينَ كَانُوا يُؤَدُّونَ جِزْيَتَهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب عمرو بن العاص رضي الله عنه، يجيبه عن سؤال له بشأن ميراث الراهب إذا مات.

البيان والبلاغة: قوله: (**أعط ميراثَه الذين كانوا يؤدُّون جزيته**): المفعول الأوَّل هو الاسم الموصول؛ لأنّه فاعل في المعنى، فحقُّه التقديم على المفعول الثاني (**ميراثَه**)، ولكنَّه قدَّم المفعول الثاني على الأوَّل؛ لأنَّ المفعول الثاني هو المذكور في السؤال، فالسؤال يختصُّ به. واستعمل الاسم الموصول (**الذين**)؛ لبيان علَّة تخصيصه بالحكم، وذلك من خلال ما تضمَّنته جملة الصلة.

١- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٣١٥٩٦).

[٥٢٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى عُمَّالِهِ

«إِنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ؛ فَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ. وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ. ثُمَّ كَتَبَ: أَنْ صَلُّوا الظُّهْرَ إِذَا كَانَ الْفَيْءُ ذِرَاعًا، إِلَى أَنْ يَكُونَ ظِلُّ أَحَدِكُمْ مِثْلَهُ. وَالْعَصْرَ وَالشَّمْسُ مُرْتَفِعَةٌ بَيْضَاءُ نَقِيَّةٌ قَدْرَ مَا يَسِيرُ الرَّاكِبُ فَرْسَخَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ. وَالْمَغْرِبَ إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ. وَالْعِشَاءَ إِذَا غَابَ الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ. فَمَنْ نَامَ فَلَا نَامَتْ عَيْنُهُ، فَمَنْ نَامَ فَلَا نَامَتْ عَيْنُهُ، فَمَنْ نَامَ فَلَا نَامَتْ عَيْنُهُ. وَالصُّبْحَ وَالنُّجُومُ بَادِيَةٌ مُشْتَبِكَةٌ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه عمَّالَه، يذكِّرهم بأهمية الصلاة ومواقيتها.

لطائف لغوية: جاء في النصِّ ذكر **(الفيء)** و**(الظل)**، فما الفرق بينهما؟ قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية: «والظل: الفيءُ الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس، أيَّ شيء كان. وقيل: هو مخصوص بما كان منه إلى زوال الشمس، وما كان بعده فهو الفيء».

١- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإ» (٩)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٣٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٩٦)، والحِنَّائيُّ في «الفوائدِ» (٢٩٦).

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ؛ فَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا، حَفِظَ دِينَهُ. وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ**): قوله: (**إنَّ أهمَّ أمركم عندي الصلاة**): الأصل أن يقول: (إنَّ الصلاةَ أهمُّ أمركم عندي)؛ لأنَّ الخبر في المعنى هو (**أهمَّ**)، لكنَّه قلب وجعل الخبر مبتدأ؛ لتشويق السامع. ثمَّ بيَّن سبب كون الصلاة أهمَّ أمر المخاطبين عنده؛ ليكونوا أحرص عليها. واستعمل في ذلك أسلوب المقابلة؛ لتقرير المعنى، فقال: (**فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع**) فقابل بين: (**من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه**) و(**من ضيَّعها فهو لما سواها أضيع**). وقوله: (**أَنْ صَلُّوا الظُّهْرَ، إِذَا كَانَ الْفَيْءُ ذِرَاعا، إِلَى أَنْ يَكُونَ ظِلُّ أَحَدِكُمْ مِثْلَهُ. وَالْعَصْرَ وَالشَّمْسُ مُرْتَفِعَةٌ بَيْضَاءُ نَقِيَّةٌ، قَدْرَ مَا يَسِيرُ الرَّاكِبُ فَرْسَخَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ وَالْمَغْرِبَ إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ. وَالْعِشَاءَ إِذَا غَابَ الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ، فَمَنْ نَامَ فَلَا نَامَتْ عَيْنُهُ، فَمَنْ نَامَ فَلَا نَامَتْ عَيْنُهُ، فَمَنْ نَامَ فَلَا نَامَتْ عَيْنُهُ. وَالصُّبْحَ وَالنُّجُومُ بَادِيَةٌ مُشْتَبِكَةٌ**): هذه الكلمات التي فيها بيان أوقات الصلاة تكرَّرت من عمر رضي الله عنه لعماله[1]. وتكرار قوله في هذا الأثر: (**فمن نام فلا نامت عينه**): توكيد لفظي يراد به التهويل والتقبيح لترك صلاة العشاء.

١- يُنظر شرح النص رقم (٥١٨).

[٥٢٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَقَدْ فَتَحُوا تُسْتَرَ، فَوَجَدُوا رَجُلًا أَنْفُهُ ذِرَاعٌ فِي التَّابُوتِ، كَانُ أَهْلُ تُسْتَرَ يَسْتَظْهِرُونَ وَيَسْتَمْطِرُونَ بِهِ

«إِنَّ هَذَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَالنَّارُ لَا تَأْكُلُ الْأَنْبِيَاءَ، وَالْأَرْضُ لَا تَأْكُلُ الْأَنْبِيَاءَ. فَكَتَبَ أَنِ انْظُرْ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ فَادْفِنُوهُ فِي مَكَانٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ غَيْرُكُمَا»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه في شأن نبيٍّ ميِّت كان أهل تُستر يتوسَّلون به.

لطائف لغوية: قوله (**انظر أنت وأصحابك**): سبق - عند شرح الأثر رقم أحد عشر وخمسمئة - الحديث عن حكم عطف الاسم الظاهر على الضمير المستتر، فراجعه غير مأمور.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ هَذَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَالنَّارُ لَا تَأْكُلُ الْأَنْبِيَاءَ، وَالْأَرْضُ لَا تَأْكُلُ الْأَنْبِيَاءَ**): استعمال اسم الإشارة (**هذا**) فيه تعيين للمشار إليه. وتنكير (**نبي**) للإفراد. وفي قوله: (**والنار لا تأكل الأنبياء، والأرض لا تأكل الأنبياء**): كان يمكن أن يجمع بين (**النار**) و(**الأرض**) في جملة واحدة، فيوجز ويقول: (والنار والأرض

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٥١١).

لا تأكلان الأنبياء)، بل كان يمكن أن يقتصر على قول: (والأرض لا تأكل الأنبياء) اقتصارا على الحال التي يتحدَّث عنها، ولكنَّه أفرد كل واحدة بجملة، وفي ذلك تشريف للأنبياء، وتلذُّذ بالحديث عن تكريم الله - تعالى - لأنبيائه؛ فأطنب في الكلام؛ ففي ذكر (**النار**) إشارة إلى تكريم الله لهم في الآخرة، وفي ذكر (**الأرض**) إشارة إلى تكريم الله لهم في الدنيا. ومقتضى الظاهر أن يقول: (والأرض لا تأكل الأنبياء، والنار لا تأكل الأنبياء)؛ لأنَّ حفظ الله لهم في الدنيا من أن تأكلهم الأرض حاصل قبل حفظه لهم في الآخرة من أن تأكلهم النار، ولكنه قدَّم قوله: (**والنار لا تأكل الأنبياء**) على قوله: (**والأرض لا تأكل الأنبياء**)؛ لأنَّ حفظ الله لأنبيائه من النار أمر مسلَّم به عند كلِّ مسلم، فكأنَّه أراد أن يقول: (كما أنَّ الله حفظ أنبياءه من أن تأكلهم النار، فقد حفظهم من أن تأكلهم الأرض). وقد ورد ذكر حفظ الله - تعالى - لأنبيائه من أن تأكلهم الأرض في قول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ**»[1]. وفي قول عمر رضي الله عنه: (**والنار لا تأكل الأنبياء، والأرض لا تأكل الأنبياء**): تشبيه للنار والأرض - على سبيل الاستعارة - بالحيوان المفترس الذي يأكل جسد من تمكَّن منه. وقوله: (**انْظُرْ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ فَادْفِنُوهُ فِي مَكَانٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ غَيْرُكُما**): قيَّد الفعل (**انظر**) بفاعل محدَّد ولم يقل: (**انظروا**) بقصد اقتصار الفعل على الفاعل المذكور. وتنكير (**مكان**) مقصود، وأكَّد تنكيره حين وصفه بقوله: (**لا يعلمه أحد**)، وتنكير (**أحد**) في سياق النفي للعموم، فهذه الألفاظ بهذا الأسلوب تبيِّن شدَّة حرص عمر رضي الله عنه على حماية جناب التوحيد، وقطع السبل الموصلة إلى الشرك، بإخفاء ما قد يخرم ذلك. وتقديمه الحديث عن

١- رواه أحمد (ح١٦١٦٢)، وأبو داود (ح١٠٤٧) والنسائي (ح١٣٧٤)، وابن ماجه (ح١٠٨٥).

تكريم الله – سبحانه وتعالى – لأنبيائه مع إطناب في الحديث إشارة من عمر ﵁ إلى أنَّ منع التوسُّل بالأنبياء والصالحين لا يلزم منه التنقُّص من قدرهم وتكريم الله – تعالى – لهم.

[٥٢٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

«إِنَّ النِّسَاءَ يُعْطِينَ أَزْوَاجَهُنَّ رَغْبَةً وَرَهْبَةً، فَأَيُّمَا امْرَأَةٍ أَعْطَتْ زَوْجَهَا شَيْئًا، فَأَرَادَتْ أَنْ تَعْتَصِرَهُ(١)؛ فَهِيَ أَحَقُّ بِهِ»(٢).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (تعتصره): تحبسه، وقيل: ترتجعه.

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين رضي الله عنه عن حكم وأنواع العطية من المرأة لزوجها.

لطائف لغوية: قوله: (**أيُّما**): هو اسم شرط مركب من (أيّ) الشرطية، و(ما) الزائدة.

البيان والبلاغة: البدء بقوله: (**إِنَّ النِّسَاءَ يُعْطِينَ أَزْوَاجَهُنَّ رَغْبَةً وَرَهْبَةً**): فيه براعة استهلال؛ إذ يقدِّم بمقدِّمة يبني عليها الحكم الذي سيذكره بعدُ. وقد استعمل أسلوب التقسيم ليبيِّن أنَّ النِّساء حين يعطين أزواجهنَّ عطيَّة لا يخلو حالهنَّ في الإعطاء من أن يكون رغبةً أو رهبةً، فقال: (**إنَّ النساء يعطين أزواجهن رغبة ورهبة**): وهذه القسمة حاصرة. ولا يخفى ما بين (**رغبة**) و(**رهبة**) من طباق. وقوله: (**فَأَيُّمَا امْرَأَةٍ أَعْطَتْ زَوْجَهَا شَيْئًا فَأَرَادَتْ أَنْ تَعْتَصِرَهُ فَهِيَ أَحَقُّ بِهِ**): تنكير

١- تَعْتَصِره؛ أي: تَحْبِسه عنِ الإعطاءِ، وتَمْنَعه مِنهُ. وكلُّ شيءٍ حَبَسْتَهُ ومَنَعْتَهُ فقدِ اعْتَصَرْتَهُ. وقيلَ: يَعْتَصِر: يَرْتَجِعُ. واعْتَصَرَ العطيَّةَ؛ إِذَا ارتجَعَهَا. والمعنَى أَنَّ الوالدَ إذا أَعْطَى ولدَه شيئًا؛ فلهُ أن يأخذَه منهُ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (عصر).

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٦٥٦٢)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢١١٢٢) واللَّفظُ لهُ.

(**امرأة**) و(**شيئا**) في سياق الشرط يفيد العموم؛ فالحكم يشمل كلَّ امرأة تُعطي وكلَّ شيءٍ يعطَى. ومجيء جواب الشرط (**فهي أحقُّ به**) جملة اسميَّة؛ إشارة إلى أنَّ هذا الحكم ثابت لا يتغيَّر.

[٥٣٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى عُمَّالِهِ

«أَلَّا تُفَرِّقُوا بَيْنَ السَّبَايَا وَأَوْلَادِهِنَّ»[١] و«لَا تُفَرِّقُوا بَيْنَ الْأَخَوَيْنِ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه عمَّالَه في شأن السبايا والأسرى.

البيان والبلاغة: (أل) في (السبايا) و(الأخوين): للاستغراق؛ فالنَّهي شامل للتفريق بين أيِّ امرأة من السبي وأولادها، والتفريق بين أيِّ أخوين. وفي تكراره الفعل (تُفَرِّقوا): إطناب، الغرض منه التأكيد على وجوب الامتثال للنهي الثاني، امتثالهم للنهي الأول.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٣٢٧٢).

٢- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٣٢٥٩).

[٥٣١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ

«أَنْ لَا تُقْتَلَ نَفْسٌ دُونِي»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين ﵁ عمَّاله وأمراءه يأمرهم ألا يُقدموا على قتل أحدٍ في حدٍّ أو غيره، إلا بعد الرجوع إليه.

البيان والبلاغة: قوله: (**لا تُقتَل نفس دوني**): بنى الفعل (**تُقتَل**) للمفعول؛ ليكون الحكم عامًّا من غير أن يتقيَّد بفاعل بعينه. ومجيء (**نفس**) نكرة في سياق النفي يفيد العموم؛ لذا فأمرُه بألا تُقتل نفس دونَه يشمَل كلَّ فاعل ومفعول به.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٨٤٨٩).

[٥٣٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيِّ وَالِي حِمْصَ وَدِمَشْقَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَانَّهُ مَنْ قِبلَكَ[١] مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُكَاتِبُوا أَرِقَّاءَهُمْ عَلَى مَسْأَلَةِ النَّاسِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله (**قِبلَكَ**)، أي: في جهتك أو ناحيتك.

مقتضى الحال: يخاطب واليه على حمص ودمشق يأمره أن ينهى الناس عن مكاتبة عبيدهم على استجداء وسؤال النَّاس.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَن قِبَلك**): يشمل كلَّ مَن كان في ناحيته لذا قيَّد هذا الظَّرف بالجارِّ والمجرور (**من المسلمين**). وقوله: (**على مسألة الناس**): قد يكون من باب التجوُّز في العبارة؛ لبيان حقيقة ما يؤول إليه الأمر حين يُكاتب العبدُ على ما يشقُّ عليه جمعُهُ وتحصيلُهُ.

١- مضبوطة في الأصل: (قَبِلَك) بفتح القاف وكسر الباء، وهو وهم، والصواب: قِبَلك؛ أي: مَن كان ناحيتَك من المسلمين، وهذا الضبط (قِبَلَكَ) موافق لما في السنن الكبرى للبيهقي (ح٢١٦١٩).

٢- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٢٦٤٢)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢١٦١٩).

[٥٣٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى أَمِيرِ الطَّائِفِ فِي عَسَلٍ مَنَعَ أَهْلُهُ مِنْ صَدَقَتِهِ

«إِنْ أَعْطَوْكَ مَا كَانُوا يُعْطُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَاحْمِ لَهُمْ، وَإِلَّا فَلَا تَحْمِهَا لَهُمْ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**فاحم له**): قال ابنُ الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر: «وفي حديث عمر: (كتب إلى عامله بالطائف في خلايا العسل وحمايتها: إن أدى ما كان يؤديه إلى رسول الله ﷺ من عشور نحله فاحم له، فإنما هو ذباب غيث يأكله من شاء)، يريد بالذباب النحل، وإضافته إلى الغيث على معنى أنه يكون مع المطر حيث كان، ولأنه يعيش بأكل ما ينبته الغيث. **ومعنى حماية الوادي له**: أن النحل إنما يرعى أنوار النبات وما رخص منها ونعم، فإذا حميت مراعيها أقامت فيها ورعت وعسلت فكثرت منافع أصحابها، وإذا لم تحم مراعيها احتاجت إلى أن تبعد في طلب المرعى، فيكون رعيها أقل. وقيل: معناه أن يحمي لهم الوادي الذي تعسل فيه فلا يترك أحد يعرض للعسل؛ لأن سبيل العسل المباح سبيل المياه والمعادن والصيود، وإنما يملكه من سبق إليه، فإذا حماه ومنع الناس منه وانفرد به وجب عليه إخراج العشر منه عند من أوجب فيه الزكاة» اهـ.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٠١٤٦).

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه واليه على الطائف في شأن قوم امتنعوا من أداء زكاة عسلهم.

البيان والبلاغة: قوله: (**إن أعطوك ما كانوا يُعطون رسول الله**): جعل المفعول الثاني لـ (**أعطَوك**) الاسمَ الموصول (**ما**) التي تفيد الإبهام؛ لئلَّا يتحدَّد بمقدار معيَّن وإنَّما يتقيَّد بالوصف المذكور في جملة الصِّلة. وقوله: (**فاحمِ لهم**): حذف مفعول (**احمِ**)؛ لكمال علم المخاطب به. وقوله: (**وإلَّا فلا تحم لهم**): فيه إيجاز حذف، والتقدير: وإن لا يعطونك ما كانوا يُعطون رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تحم لهم، وترك ذكر ذلك كراهةَ حصوله.

[٥٣٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

يَوْمَ الْيَرْمُوكِ، إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ

وَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ جَاشَ[١] إِلَيْنَا الْمَوْتُ، وَطَلَبَ الْمَدَدَ:

«إِنَّهُ قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكُمْ تَسْتَمِدُّونِي، وَإِنِّي أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَعَزُّ نَصْرًا وَأَحْضَرُ جُنْدًا: اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَاسْتَنْصِرُوهُ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ نُصِرَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي أَقَلَّ مِنْ عِدَّتِكُمْ، فَإِذَا أَتَاكُمْ كِتَابِي هَذَا فَقَاتِلُوهُمْ، وَلَا تُرَاجِعُونِي»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أبا عبيدة رضي الله عنه يرد على كتاب له فيه طلب المدد.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّهُ قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكُمْ تَسْتَمِدُّونِي**): بدأ بإخبار المخاطَب أنَّ كتابه قد وصله، وأكَّد حديثه بـ (**إنَّ**) و(**قد**) لينتفي كلُّ شك في ذهن المخاطَب في عدم اطلاعه على الكتاب، وزاد ذلك تأكيدا بأن أتبعه بذكر مضمون الكتاب ليُعلِمه بأنَّه قد قرأه ووعاه، وفي إسناد المجيء إلى الكتاب مجاز عقلي. وقوله: (**وَإِنِّي أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَعَزُّ نَصراً وَأَحْضَرُ جُنْدا: اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -**): قوله: (**إِنِّي أدلُّكم**): جاء بالفعل بصيغة المضارع إشارة إلى المداومة والاستمرار على هذا الأمر، ومجيء الفعل خبرا لجملة اسميَّة مصدَّرة بـ (**إنَّ**) يؤكِّد ثبوت ذلك ويقرِّره. واستعمال

١- جَاشَ؛ أي: فَاضَ وتَدَفَّقَ وأَقْبَلَ. «النِّهاية» ١/ ٣٢٤، «لسان العرب» ٦/ ٢٧٦، «القاموس» ص٧٥٦.

٢- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٣٤٤)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» (٥٤٨٥)، والضِّياءُ المقدسيُّ في «الأحاديثِ المختارةِ» (٢٦٢).

الاسم الموصول (**مَن**) فيه تشويق للمخاطب؛ وذلك أنَّ الاسم الموصول فيه إبهام، فإذا سمعه المخاطب تشوَّفت نفسه لسماع صلة هذا الموصول ليرتفع إبهامه، وصلة الموصول فيها ذكر صفات مَن طلبه المخاطب، وقد زاد من التشويق مجيء اسمَي التفضيل (**أعز**) و(**أحضر**) في صلة الموصول؛ إذ فيهما إبهام أيضا، وارتفع هذا الإبهام بتمييزهما بـ (**نصرا**) و(**جندا**)، لكن صلة هذه لم يتعيَّن بها المقصود بالاسم الموصول، بل زادت من تشوُّف المخاطب وتشوُّقه لمعرفة المقصود بهذا الاسم الموصول، فلمَّا سمع ما ارتفع به الإبهام، وهو قوله: (**اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -**) استقرَّ في نفسه وثبت. وقوله: (**فَإِذَا أَتَاكُمْ كِتَابِي هَذَا فَقَاتِلُوهُمْ، وَلا تُرَاجِعُونِي**): استعمل اسم الإشارة (**هذا**)؛ لتعيين المشار إليه للمخاطب. والفاء في (**فقاتلوهم**): تفيد الترتيب مع التعقيب، فمجيئها يدلُّ على الأمر بقتال العدوِّ فور وصول الكتاب من غير تأخُّر.

[٥٣٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ الْمُزَنِيِّ

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ عَبْدِ اللهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ جُمُوعًا مِنَ الْأَعَاجِمِ كَثِيرَةً قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ بِمَدِينَةِ نَهَاوَنْدَ[١]، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَسِرْ بِأَمْرِ اللهِ، وَبِعَوْنِ اللهِ، وَبِنَصْرِ اللهِ، بِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تُوطِئْهُمْ وَعْرًا فَتُؤْذِيَهُمْ، وَلَا تَمْنَعْهُمْ حَقَّهُمْ فَتُكَفِّرَهُمْ، وَلَا تُدْخِلَنْهُمْ غَيْضَةً؛ فَإِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**غَيْضَة**): قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر: «وفي حديث عمر (لا تنزلوا المسلمين الغياض فتضيعوهم). الغياض: جمع غيضة، وهي الشجر الملتف؛ لأنهم إذا نزلوها تفرقوا فيها، فتمكن منهم العدو» اهـ.

مقتضى الحال: يخاطب النعمانَ بن مقرَّن أحدَ قادة جيوشه في شأن معركة نهاوند.

البيان والبلاغة: قوله: (**سَلَامٌ عَلَيْك**): تنكير (**سلام**) للتعظيم. وقوله: (**فَإِنِّي أَحْمَدُ**

١- نَهَاوَنْد: بفَتح النُّونِ الأُولى وتُكسَرُ، والواوُ مفتوحةٌ، ونونٍ ساكنةٍ، ودالٍ مُهمَلةٍ: هي مدينةٌ عظيمةٌ في قَبلةِ همذانَ، بينَهما ثلاثةُ أيَّامٍ، وهي مِن فتوحِ أهلِ الكوفةِ. «معجم البلدان» ٥/ ٣١٣.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ١١٤- ١١٥.

إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ): تكرَّرت هذه العبارة في كتب عمر رضي الله عنه، واستعماله الفعل (**أحمد**) بلفظ المضارع إشارة إلى استمراره على هذا الأمر. وقوله: (**فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ جُمُوعًا مِنَ الْأَعَاجِمِ كَثِيرَةً قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ بِمَدِينَةِ نَهَاوَنْدَ**): قوله: (**قد بلغني**): استعمل الفعل (**بلغني**) بلفظ الماضي وأدخل عليه (**قد**)؛ ليحقِّق للمخاطب ثبوت هذا الأمر. وتنكير (**جموعا**) للتكثير، وأكَّد ذلك بالوصف (**كثيرةً**). وجاء في رواية: (**كثيرةٌ**) بالرفعِ لا النصب، وقطعُ إتباعِها لموصوفها المنصوب والعدولُ بها إلى الرفع فيه لفت لانتباه السامع. وقوله: (**قد جمعوا لكم**): حذف مفعول (**جمعوا**)؛ لتذهب نفس المخاطب في تحديده كل مذهب؛ ليكون على استعداد وتأهُّب. وقوله: (**فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَسِرْ بِأَمْرِ اللهِ، وَبِعَوْنِ اللهِ، وَبِنَصْرِ اللهِ، بِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**): الباء في (**بأمر الله**) و(**بعون الله**) و(**بنصر الله**) تفيد الاستعانة، وتحتمل المصاحبة، أمَّا الباء في (**بمن معك**) فهي لتعدية الفعل (**سِرْ**) إلى المفعول. وقدَّم تلك المجرورات على المفعول (**بمن معك**)؛ للرعاية والاهتمام بتلك المجرورات. وفي الجملة إطنابٌ ظاهر غرضه التأكيد، مع التلذذ والاستبشار بذكر الله - تعالى -. وقوله: (**وَلَا تُوَطِّئْهُمْ وَعِرًا فَتُؤْذِيهِمْ، وَلَا تَمْنَعْهُمْ حَقَّهُمْ فَتَكْفُرَهُمْ، وَلَا تُدْخِلَنْهُمْ غَيْضَةً؛ فَإِنَّ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ**): نكَّر (**وعرا**) و(**غيضة**) بعد النهي؛ لإفادة العموم، ولكنَّه لم يفعل ذلك في (**حقَّهم**) وعدل عن التنكير إلى التعريف بالإضافة؛ لتنبيه المخاطَب إلى اختصاصهم بذلك الحق؛ فالإضافة بمعنى لام الملك، كأنَّه قال: (لا تمنعهم حقًّا لهم). وقوله: (**فإنَّ رجلا**): نكَّر (**رجلا**) للإفراد، كأنَّه قال: (**فإنَّ رجلا واحدا من المسلمين أحب**). وقوله: (**وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ**): ختم كتابه بالسلام، إلا أنَّه عرَّفه هنا بعد أن نكَّره في أوَّل كتابه، فـ (**أل**) هنا للعهد الذكري، يعني أنَّه ختم كتابه بالسلام الذي بدأ به.

[٥٣٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ الْمُزَنِيِّ وَهُوَ بِنَهَاوَنْدَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَصَلُّوا الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، وَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ فَلَا تَفِرُّوا، وَإِذَا ظَفِرْتُمْ فَلَا تَغُلُّوا»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب النعمانَ بن مقرّن يذكِّره بأمر الصلاة، ويخبره كيف يصنع عند ملاقاة العدو.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا بَعْدُ فَصَلُّوا الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا**): بدأ بذكر الصلاة لأهميتها. وقوله: (**الصلاة**): حذف الصفة، والتقدير: الصلاة المفروضة، وهذا الحذف للاستغناء بـ (**أل**) العهدية في (**الصلاة**) في تعيين الموصوف - في الذهن - مقرونا بصفته. وقوله: (**وَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ فَلَا تَفِرُّوا، وَإِذَا ظَفَرْتُمْ فَلَا تَغُلُّوا**): استعمل (**إذا**) الشرطية إشارة إلى تحقُّق وقوع جواب الشرط. وقد استعمل أسلوب التقسيم ليبيِّن للمخاطب ما ينبغي أن يكون عليه في ساحة المعركة، فذكر أنَّ لهم حالين: حال لقاء العدو، وحال الظفر على العدو، وكانت القسمة العقلية تقتضي حالا ثالثة هي حال هزيمتهم أمام العدو، ولكنَّه أغفلها وترك ذكرها؛ تفاؤلا بالنَّصر، وكراهة ذكر حال تسوء المسلمين. وبين (**تفرُّوا**) و(**تغلُّوا**) سجع.

١- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٢٣٨٦)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٤٩١) و(٣٤٤٩٢) واللَّفظُ لهُ.

[٥٣٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ الْمُزَنِيِّ[١]

«اسْتَبْشِرْ، وَاسْتَعِنْ فِي حَرْبِكَ بِطُلَيْحَةَ[٢]، وَعَمْرِو بْنِ مَعْدِيكَرِبَ[٣]، وَلَا تُوَلِّهِمَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا؛ فَإِنَّ كُلَّ صَانِعٍ هُوَ أَعْلَمُ بِصِنَاعَتِهِ»[٤].

١- النُّعمانُ بنُ مُقرِّنٍ المُزنيُّ: أوَّلُ مَشاهِدِه الأحزابُ، وشهد بيعةَ الرِّضوانِ، وفتحَ مكَّةَ، وكانَ معَه لِواءُ «مُزَينَةَ» فيها. سكنَ البصرةَ، ثمَّ تحوَّل عنها إلى الكوفةِ. ووجَّهَهُ سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ - بأمرِ عمرَ - إلى مُحاربَةِ الهُرْمُزانِ، فزحفَ بجيشِ الكوفةِ إلى الأهوازِ، وهزمَ الهُرمزانَ. وتقدَّم إلى تُسْتَرَ، فشهِد وقائعَها، وعادَ إلى المدينةِ بشيرًا بفتحِ القادسيَّةِ، ولمَّا وصلتِ الأخبارُ لعمرَ باجتماعِ أهلِ أصبهانَ وهمدانَ والرَّيِّ وأذربيجانَ ونهاوندَ؛ أقلقهُ ذلكَ، فولَّاهُ قتالَهم. وخرجَ النُّعمانُ إلى الكوفةِ، فتجهَّز، وغزا أصفهانَ ففتحَها، وهاجمَ نهاوندَ فاستُشهِد فيها. ولمَّا بلغَ عمرَ مقتلُه؛ دخلَ المسجدَ ونعاهُ إلى النَّاس على المنبرِ، ثمَّ وضعَ يدَه على رأسِه يبكي. «سير أعلام النُّبلاء» ١/ ٤٠٣، و«الأعلام» لِلزِّركليِّ ٨/ ٤٢.

٢- طُلَيْحَةُ بنُ خُوَيْلِدِ بنِ نَوْفَلٍ الأَسَديُّ: أسلمَ سنةَ تسعٍ، ثمَّ ارتدَّ، وظلمَ نفسَه، وتنبَّأ بنجدٍ، وتمَّت لهُ حروبٌ معَ المسلمينَ، ثمَّ انهزمَ، وخُذِل، ولحِقَ بآلِ جَفْنَةَ الغَسَّانِيِّينَ بالشَّام، ثمَّ ارْعَوى وأسلمَ، وحسُن إسلامُه لَّما تُوفِّي الصِّدِّيقُ، وأحرمَ بالحجِّ. قالَ ابنُ سعدٍ: كانَ طُلَيحةُ يُعدُّ بألفِ فارسٍ لِشجاعتِه وشدَّتِه، أبلى يومَ نهاوندَ، ثمَّ استُشهِد. «سير أعلام النُّبلاء» ١/ ٣١٦-٣١٧.

٣- عمرُو بنُ مَعْدِ يكَرِبَ [مَعْدِي كَرِبَ] بنِ رَبيعةَ الزُّبَيدِيُّ: فارسُ اليمنِ، وصاحبُ الغاراتِ المذكورةِ. وفَد على المدينةِ سنةَ ٩ هـ في عشرةٍ مِن بني زُبَيدٍ، فأسلمَ وأسلموا، وعادُوا. ولمَّا تُوفِّي النَّبيُّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - ارتدَّ عمرٌو في اليمنِ، ثمَّ رجعَ إلى الإسلامِ، فبعثهُ أبو بكرٍ إلى الشَّامِ، فشهِد اليرموكَ، وذهبتْ فيها إحدى عَينَيهِ. وبعثهُ عمرُ إلى العراقِ، فشهِد القادسيَّةَ، وأبلى فيها بلاءً حسنًا. وكانَ عصيَّ النَّفسِ، أبيَّها، فيهِ قسوةُ الجاهليَّةِ. وأخبارُ شجاعتِه كثيرةٌ. لهُ شعرٌ جيِّدٌ، أشهرُه قصيدتُه الَّتي يقولُ فيها:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

تُوفِّي على مقربةٍ مِن الرَّيِّ. وقيلَ: قُتِل عطشًا يومَ القادسيَّةِ. «الطَّبقات الكبرى» ٥/ ٥٢٦، و«الأعلام» للزِّركليِّ ٥/ ٨٦.

٤- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٤٩٣).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب النعمانَ بن مقرِّن يبشِّره بالنصر ويرشده إلى ما يفعل في قتاله.

البيان والبلاغة: قوله: (**اسْتَبْشِرْ**) لم يقيِّد هذا الفعل بما يبيِّن المستبشَر به؛ لتكون البشارة أوقعَ في النفس، وليشوِّق المخاطَب إلى معرفتها. وقوله: (**وَلَا تُوَلِّهَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا**): مجيء (**شيئا**) نكرة في سياق النهي يفيد العموم. وقوله: (**فَإِنَّ كُلَّ صَانِعٍ هُوَ أَعْلَمُ بِصِنَاعَتِهِ**): هذا تذييل جرى مجرى المثل، أكَّد به مفهوم قوله: (**لا تولِّها من الأمر شيئا**). وأتى بضمير الفصل بين اسم (**إنَّ**) وخبرهم؛ ليؤكِّد اتِّصاف اسم (**إنَّ**) بالخبر.

[٥٣٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَه

لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، وَقَدْ شَاوَرَهُ فِي جَارِيَةٍ أَرَادَ أَنْ يَشْتَرِيَهَا

«لَا تَتَّخِذْ مِنْهُنَّ؛ فَإِنَّهُنَّ قَوْمٌ لَا يَتَعَايَرُونَ[١] الزِّنَا، وَإِنَّ اللهَ نَزَعَ الْحَيَاءَ مِنْ وُجُوهِهِمْ كَمَا نُزِعَ مِنْ وُجُوهِ الْكِلَابِ، وَعَلَيْكَ بِجَارِيَةٍ مِنْ سَبَايَا الْعَرَبِ تَحْفَظُكَ فِي نَفْسِهَا، وَتَخْلُفُكَ فِي وَلَدِهَا»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يتعايرون الزِّنا**)، أي: يعدُّونه عارًا، فيُعير بعضُهم بعضًا به، إذا وقع منهم.

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، ناصحًا إياه حين استشاره في شراء جارية من العجم.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَا تَتَّخِذْ مِنْهُنَّ، فَإِنَّهُنَّ قَوْمٌ لَا يَتَعَايَرُونَ الزِّنَا**): حذف مفعول (**تتَّخذْ**)؛ كراهة ذكره، والتقدير: لا تتَّخذ منهنَّ جارية، ثم استعمل فاء السببية في ذكر علَّة النَّهي، فقال: (**فإنَّهنَّ قومٌ ...**). وقوله: (**وَإِنَّ اللهَ نَزَعَ الْحَيَاءَ مِنْ وُجُوهِهِمْ كَمَا نَزَعَ مِنْ وُجُوهِ الْكِلَابِ**): استعمل أسلوب التشبيه؛ لينفِّر المخاطب من تلك الجارية، فشبَّه النِّساء اللاتي منهنَّ تلك الجارية بالكلاب، وذكر وجه الشبه بين

١- أي: لا يرونه عارًا.

٢- رواهُ ابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٣٨/ ٤٢٧.

المشبَّه والمشبَّه به، وهو خلو كلٍّ من الحياء؛ ليقرِّره في كلٍّ منهما. وفي الجملة استعارة مكنية؛ حيثُ شبه الحياء بالغطاء أو الشيء المحسوس يُنزعُ عن الوجه. وحذف مفعول (**نزع**) في الموضع الثاني؛ لدلالة السياق عليه. وقوله: (**وَعَلَيْكَ بِجَارِيَةٍ مِنْ سَبَايَا الْعَرَبِ تَحْفَظُكَ فِي نَفْسِهَا وَتَخْلُفُكَ فِي وَلَدِهَا**): نكَّر (**جارية**) للإفراد. وقوله: (**تحفظك في نفسها وتخلفك في ولدها**): جواب لسؤال محذوف مفهوم من الجملة السابقة؛ تقديره: لمَ أتَّخذ جارية من سبايا العرب. وبين (**نفسها**) و(**ولدها**) سجعٌ، وبين الجملتين موازنة.

[٥٣٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

لِأَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ وَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهِ فِي رَجُلٍ مُسْلِمٍ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

«إِنْ كَانَ لِصًّا أَوْ حَارِبًا فَاضْرِبْ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ لِطِيَرَةٍ مِنْهُ فِي غَضَبٍ فَأَغْرِمْهُ أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (طِيَرَةٍ): الطِيرةُ هي: الفأل الرديء يُتشاءم به، وتطلقُ كذلك على الزلَّة والخطأ، وهو الأنسب هنا.

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، يردُّ عليه وقد استفتاه في رجل مسلم قتل رجلاً من أهل الكتاب.

البيان والبلاغة: استعمل في الجواب أسلوب التقسيم؛ إشارة إلى أنَّ حال القاتل لا يخلو من أحد أمرين، فقال: (**إِنْ كَانَ لِصًّا أَوْ حَارِبا فَاضْرِبْ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ لِطِيَرَةٍ مِنْهُ فِي غَضَبٍ فَأَغْرِمْهُ أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ**): وفي قوله: (**وَإِنْ كَانَ لِطِيَرَةٍ مِنْهُ فِي غَضَبٍ**): حذف خبر (**كان**) وأبقى المتعلّق به - (**لِطيرة منه**) الذي يبيِّن علّته - دليلا عليه، والتقدير: وإن كان قتله لطيرة منه.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٨٤٨٠).

[٥٤٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

«سَلَامٌ عَلَيْكُمْ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ أَخْبَرَنِي بِكَذَا وَكَذَا، وَإِنِّي أُقْسِمُ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَ بِهِ مَا فَعَلْتَ فِي مَلَإٍ مِنَ النَّاسِ لَمَا جَلَسْتَ فِي مَلَإٍ مِنْهُمْ فَاقْتَصَّ مِنْكَ، وَإِنْ كُنْتَ فَعَلْتَ بِهِ مَا فَعَلْتَ فِي خَلَاءٍ فَاقْعُدْ لَهُ فِي خَلَاءٍ فَيَقْتَصَّ مِنْكَ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري، بخصوص رجل شكاه إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه.

لطائف لغوية: قوله: (**كذا وكذا**): كلمة (كذا) – كما قال الأستاذ عباس حسن في النحو الوافي – هي: «كلمة مركبة من (كاف) التشبيه، و(ذا) الإشارية، وصارت بعد التركيب كلمة واحدة ثابتة، تؤدي معنى جديدا مستقلا، لا صلة له بالتشبيه ولا الإشارة». وتستعمل كلمة (**كذا**) كنايةً عن عمل أو عدد. قال صاحب المصباح المنير: «يقال: فعلت كذا، وقلت كذا. فإن قلتَ: فعلتُ كذا وكذا؛ فلتعدد الفعل. والأصل (ذا)، ثم أدخل عليها كاف التشبيه بعد زوال معنى الإشارة والتشبيه، وجعل كناية عما يراد به. وهو معرفة فلا تدخله الألف واللام» اهـ.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٥١٨)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٨٠٩، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٦٠٢٧).

البيان والبلاغة: قوله: (**فَإِنَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ أَخْبَرَنِي بِكَذَا وَكَذَا**): بدأ بذكر سبب إرسال هذا الكتاب؛ ليكون المخاطب على علم بمضمون الكتاب. وقوله: (**وَإِنِّي أُقْسِمُ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَ بِهِ مَا فَعَلْتَ فِي مَلَأٍ مِنَ النَّاسِ لَمَا جَلَسْتَ فِي مَلَأٍ مِنْهُمْ فَاقْتَصَّ مِنْكَ، وَإِنْ كُنْتَ فَعَلْتَ بِهِ مَا فَعَلْتَ فِي خَلَاءٍ فَاقْعُدْ لَهُ فِي خَلَاءٍ فَيَقْتَصَّ مِنْكَ**): قوله: (**إنِّي أقسم عليك**): استعمل أسلوب القسم ليبيِّن للمخاطب أنَّه جادٌّ في كلامه غير هازل. ثمَّ استعمل أسلوب التقسيم، فذكر له أنَّه في اعتدائه على ذلك الرجل على حالين، وذكر مع كلِّ حال ما يترتَّب عليها. وقوله: (**إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَ بِهِ مَا فَعَلْتَ**): كرَّر هذه العبارة في الموضعين للتخويف والتهديد. واستعمل (**ما**) الموصولة للإبهام؛ لكراهة التصريح بالفعل. وقوله: (**لما جلست**): أدخل (**لام**) التوكيد و(**ما**) الزائدة على الفعل؛ لتقرير حصوله، وزاد في تقرير ذلك حين أتى بالفعل (**جلست**) بصيغة الماضي. وقوله (**فاقتَصَّ منكَ**) و(**فيَقْتَصَّ منك**): بإسناد الفعل إلى الشاكي في الحالين، وجاء في رواية: (**فأقتصُّ منك**) و(**فيُقْتَصَّ منك**): فأسند الفعل لنفسه في الحال الأولى، وبناه للمفعول في الحال الثانية؛ وذلك أنَّ الحال الأولى أشد ضررا فتعيَّن أن يكون هو الذي يقتصُّ بنفسه، وأمَّا في الثانية – وهي أخفُّ – فيقتص أي واحد.

[٥٤١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى الأَمْصَارِ

«إِنِّي لَمْ أَعْزِلْ خَالِدًا عَنْ سَخْطَةٍ وَلَا خِيَانَةٍ، وَلَكِنَّ النَّاس فُتِنُوا بِهِ، فَخِفْتُ أَنْ يُوكَلُوا إِلَيْهِ وَيُبْتَلَوْا بِهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ الصَّانِعُ، وَأَلَّا يَكُونُوا بِعَرَضِ فِتْنَةٍ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**بعَرَضِ فتنةٍ**): أراد - والله أعلم -: متعرِّضين لفتنة.

مقتضى الحال: يبيِّن سبب عزل خالد بن الوليد رضي الله عنه من إمارة الجيش.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي لَمْ أَعْزِلْ خَالِدا عَنْ سَخْطَةٍ وَلا خِيَانَةٍ**): قوله: (**عن سخطة ولا خيانة**): استعمل حرف الجر (**عن**) إشارة إلى أنَّ المتعلَّق به محذوف، وتقدير الكلام: لم أعزل خالدا صادرا رأيي عن سخطة ... وتنكير (**سخطة**) و(**خيانة**) للإفراد، وزاد (**لا**) لتوكيد النفي. وقوله: (**وَلَكِنَّ النَّاسَ فُتِنُوا بِهِ**): بنى الفعل (**فُتنوا**) للمفعول؛ للفت انتباه المخاطَب إلى وقوع الحدث على المفعول، من غير داع لذكر الفاعل. وقوله: (**فَخِفْتُ أَنْ يوكلوا إِلَيْهِ وَيُبْتَلَوا بِهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ الصَّانِعُ، وَأَلا يَكُونُوا بِعَرَضِ فِتْنَةٍ**): قوله: (**أَنَّ الله هو الصانع**): أتى بضمير الفصل بين اسم (**أنَّ**) وخبرها؛ لتأكيد اتصاف الاسم بالخبر.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٦٨، وابنُ عساكرَ ١٦/ ٢٦٨، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ» ٤/ ٢٣١، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ» ٢/ ٣٦٠، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ١٠/ ٤٧.

[٥٤٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَهْلِ رُعَاشٍ[١]

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، إِلَى أَهْلِ رُعَاشٍ كُلِّهِمْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّكُمْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ مُسْلِمُونَ، ثُمَّ ارْتَدَدْتُمْ بَعْدُ، وَإِنَّهُ مَنْ يَتُبْ مِنْكُمْ وَيُصْلِحْ لَا يَضُرُّهُ ارْتِدَادُهُ، وَنُصَاحِبُهُ صُحْبَةً حَسَنَةً، فَادَّكِرُوا وَلَا تَهْلِكُوا، وَلْيُبْشِرْ مَنْ أَسْلَمَ مِنْكُمْ، فَمَنْ أَبَى إِلَّا النَّصْرَانِيَّةَ فَإِنَّ ذِمَّتِي بَرِيئَةٌ مِمَّنْ وَجَدْنَاهُ بَعْدَ عَشْرٍ تَبْقَى مِنْ شَهْرِ الصَّوْمِ مِنَ النَّصَارَى بِنَجْرَانَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ يَعْلَى كَتَبَ يَعْتَذِرُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَهَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، أَوْ عَذَّبَهُ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَسْرًا جَبْرًا، وَوَعِيدًا لَمْ يَنْفُذْ إِلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ أَمَرْتُ يَعْلَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْكُمْ نِصْفَ مَا عَلِمْتُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِنِّي لَنْ أُرِيدَ نَزْعَهَا مِنْكُمْ مَا أَصْلَحْتُمْ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أهل رعاش الذين ظهر منهم ارتداد عن الإسلام.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِلَى أَهْلِ رُعَاشٍ كُلِّهِمْ**): أكَّد (**أهل**) بـ (**كلِّهم**)؛ لرفع احتمال عدم الإحاطة والشمول، وفي ذلك إشارة إلى أنَّه يريد إيصال مضمون كتابه هذا إلى كلِّ أهل رعاش من غير استثناء لأحد منهم. وقوله: (**فَإِنَّكُمْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ**

١- الرُّعاش، بضمِّ أوَّلِه، وبالشِّينِ المُعجَمةِ: موضعٌ مِن أرضِ نجرانَ. «معجم ما استعجم» للبكريِّ ٢/ ٦٦٠.
٢- رواهُ القاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (٢٧٧)، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٤٢٤).

مُسْلِمُونَ، ثُمَّ ارْتَدَدْتُمْ بَعْدُ): استعمل الفعل (**زعم**) إشارة إلى أنَّ ما كانوا عليه من الإسلام مجرَّد زعم منهم؛ لأنَّهم ارتدُّوا بعدُ، فعجيب أمر مَن ذاق حلاوة الإسلام ثم رغب عنه. وقوله: (**وَإِنَّهُ مَنْ يَتُبْ مِنْكُمْ وَيُصْلِحْ لَا يَضُرُّهُ ارْتِدَادُهُ، وَنُصَاحِبُهُ صُحْبَةً حَسَنَةً، فَادَّكِرُوا وَلَا تَهْلِكُوا، وَلْيُبْشِرْ مَنْ أَسْلَمَ مِنْكُمْ**): الضمير في (**وإنَّه**) ضمير الشأن، فهو إضمار قبل ذكر المفسِّر؛ ليحمل المخاطَب على التلهُّف لسماع المفسِّر فيستقر في نفسه حين يسمعه، وقد فسَّر هذا الضمير بقوله: (**من يتب منكم**).

وقوله: (**من يتب منكم ويصلح**): اقتباس من قول الله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٣٩]، وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقوله: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ [الفرقان: ٧١]، وغير ذلك من الآيات التي أعقبت التوبة بالإصلاح في العمل. وقوله: (**ونصاحبه صحبة حسنة**): تنكير (**صحبة**) للتعظيم.

وقوله: (**فادَّكروا ولا تهلكوا**): عبَّر عن الامتثال لأمره في الرجوع إلى الإسلام بالادِّكار؛ لأنَّ الادِّكار سبب له، وعبر عن الإعراض عن الامتثال لأمره بالهلاك؛ لأنَّ الهلاك نتيجة له ومسبَّب عنه، فنوَّع في التعبير: مرَّة ذكر السبب ومرَّة ذكر المسبَّب.

وفي قوله: (**وليبشر من أسلم منكم**) اكتفاء عن قول: (**وليحذر مَن أعرض منكم**)، وإنَّما اكتفى بذكر ما ذكر رغبةً منه في حصول ذلك لجميع المخاطبين. وقوله: (**فَمَنْ أَبَى إِلَّا النَّصْرَانِيَّةَ فَإِنَّ ذِمَّتِي بَرِيئَةٌ مِمَّنْ وَجَدْنَاهُ بَعْدَ عَشْرٍ تَبْقَى مِنْ شَهْرِ الصَّوْمِ مِنَ النَّصَارَى بِنَجْرَانَ)**: القصر في قوله: (**من أبى إلا النصرانية**) حقيقي تحقيقي، وفصل بين الضمير في (**وجدناه**) والحال منه: (**من النصارى بنجران**) بالظرف (**بعد عشر تبقى من شهر الصوم**)؛ لتنبيه المخاطب إلى ضرورة أن يعرفوا هذا الوقت. وقوله: (**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ يَعْلَى كَتَبَ يَعْتَذِرُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَهَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ أَوْ عَذَّبَهُ**

عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَسْرا جَبْرا وَوَعِيدا لَمْ يَنْفُذْ إِلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ): أتى بفصل الخطاب **(أمَّا بعدُ)**: هنا ليشعر المخاطب بأنَّه انتقل إلى موضوع جديد؛ ليكون المخاطب أكثر استعدادا لتلقي هذا الكلام، وقد ذكر في هذا الكلام مضمون كتاب أرسله إليه عاملُه على رُعاش. وقوله: **(أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ أَمَرْتُ يَعْلَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْكُمْ نِصْفَ مَا عَلِمْتُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِنِّي لَنْ أُرِيدَ نَزْعَهَا مِنْكُمْ مَا أَصْلَحْتُمْ)**: أتى بفصل الخطاب هنا مرَّة أخرى ليؤكِّد للمخاطب ضرورة الانتباه إلى هذا الكلام الذي ذكر فيه ردَّه على كتاب يعلى، والقصد من ذلك أن يُحيطهم علما به. وقوله: **(وإنِّي لن أريد نزعها منكم ما أصلحتم)**: ليس من ضمن ردِّه على كتاب يعلى، ولكنَّه تعقيب على ردِّه، أراد به الاحتراس من أن يفهم المخاطب أن كلامه السابق مطلق، والقصد من ذلك ترغيبهم في الرجوع إلى الإسلام.

[٥٤٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنه

«الْزَمِ الْحَقَّ يَلْزَمْكَ الْحَقُّ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب معاوية بن أبي سفيان واليه على الشام.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب الطلب وجواب الطلب؛ للدلالة على وجوب تحقُّق جواب الطلب عند تحقُّق فعله. وفي قوله: (**يلزمك الحق**): تشخيص للحق؛ إذ شبَّهه بإنسان له إرادة واختيار، يلزم من لزمه. وهنا إطنابٌ سببه الإظهار في موضع الإضمار، ومقتضى الظاهر أن يقول: (**الزم الحقَّ يلزمك**) بإضمار (**الحقُّ**) الذي هو فاعل (**يلزمك**)؛ لتقدُّم ذكره، ولكنه جاء على خلاف مقتضى الظاهر، فأظهره لتقرير المعنى والتأكيد عليه.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣١٢٩٤).

[٥٤٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

«إِنِّي لَا أُرَانَا إِلَّا قَدْ أَجْحَفْنَا بِالْجَدِّ؛ فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَقَاسِمْ بِهِ مَعَ الْإِخْوَةِ، مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ الثُّلُثُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ مُقَاسَمَتِهِمْ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**أجحفنا بالجدِّ**): قال ابن منظور – رحمه الله – في لسان العرب: «وأجحف بالأمر: قارب الإخلال به. وسنة مجحفة: مضرة بالمال. وأجحف بهم الدهر: استأصلهم».

مقتضى الحال: يخاطب الصحابي الفقيه عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في شأن ميراث الجد؛ فقد كان ابن مسعود يرى رأي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في أنَّ الجد يشارك الإخوة في الميراث، فإذا كثروا أُعطي السدس، ثمَّ رأى عمر أنَّ في ذلك إجحافا بالجدِّ؛ لأنَّه بمنزلة الأب، فرأى أن يُعطى ما هو أفضل له بين الثلث ومقاسمة الإخوة.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي لَا أُرَانَا إِلَّا قَدْ أَجْحَفْنَا بِالْجَدِّ**): القصر هنا حقيقي تحقيقي. وقوله: (**لا أُرانا**): لم يسند الفعل لنفسه فحسب، وإنَّما أسنده لضمير الجمع العائد عليه وعلى ابن مسعود؛ لأنَّهما اشتركا في الرأي، وأدخل (**قد**) على

١- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٥٩)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣١٨٦٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٢٤٣٧).

الفعل الماضي (**أجحفنا**)؛ لتحقيق ثبوته. وقوله: (**فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَقَاسِمْ بِهِ مَعَ الْإِخْوَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ الثُّلُثُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ مُقَاسَمَتِهِمْ**): استعمل اسم الإشارة (**هذا**)؛ لتعيين المشار إليه. واستعمل الفعل (**قاسِم**) للدلالة على المشاركة يعني أن يشارك الجدُّ الإخوة في الحصَّة، نصيبُه كنصيبهم. وقوله: (**ما بينه**): الضمير في (**بينه**) عائد على المصدر المحذوف المفهوم من جملة (**فقاسم به مع الإخوة**)، كأنَّه قال: (ما بين مقاسمته مع الإخوة وبين أن يكون ...). وفي قوله: (**ما بينه وبين**) كرَّر كلمة (**بين**)؛ لإيضاح الفصل بين الطريفين الذين بينهما تخيير.

[٥٤٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ

«أَنْ مُرُوا النَّاسَ يَحُجُّونَ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَأَحِجُّوهُ مِنْ مَالِ اللهِ»[1].

الشرح والتحليل:

مقتضى الحال: يخاطب أمراء الأجناد في شأن أمر الناس بالحجِّ.

البيان والبلاغة: (أل) في (**النَّاس**) للعهد الذهني، فلا تعم الناس كلهم، وإنَّما يقصد بـ (**النَّاس**) هنا المسلمين منهم. وقوله: (**فمن لم يستطع**): حذف مفعول (**يستطع**)؛ لدلالة الجملة السابقة عليه، والتقدير: فمن لم يستطع الحجَّ. وقوله: (**فأحجُّوه**) أفرد الضمير العائد على (**مَن**) مراعاة للفظها، فلم يقل: (**فأحجُّوهم**)، وفي ذلك تفاؤل بأن يكون مَن لا يستطيع الحجَّ أفرادا قليلين.

١- رواهُ ابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٩٠٧).

[٥٤٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«إِيَّاكَ وَالضَّجْرَةَ، وَالْغَضَبَ، وَالْغَلَقَ[١]، وَالتَّأَذِّي بِالنَّاسِ عِنْدَ الْخُصُومَةِ». وفيه: «أَلَّا يَقْضِيَ إِلَّا أَمِيرٌ؛ فَإِنَّهُ أَهْيَبُ لِلظَّالِمِ، وَلِشَاهِدِ الزُّورِ، وَإِذَا جَلَسَ عِنْدَكَ الْخَصْمَانِ، فَرَأَيْتَ أَحَدَهُمَا يَتَعَمَّدُ الظُّلْمَ؛ فَأَوْجِعْ رَأْسَهُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الضُّجرة**): التبرُّم والضيق. و(**الغلَق**): قال ابن الأثير – رحمه الله – في النهاية في غريب الحديث والأثر: «الغلَق، بالتحريك: ضيق الصدر وقلة الصبر. ورجل غَلِق: سيئ الخُلُق».

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، يحذِّره وينصحه في أمور تتعلق بالقضاء بين الناس.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِيَّاكَ وَالضَّجْرَةَ، وَالْغَضَبَ، وَالْغَلَقَ، وَالتَّأَذِّي بِالنَّاسِ عِنْدَ الْخُصُومَةِ**): نهاه عن أمور بألفاظ متقاربة المعنى، وكان بإمكانه أن يأتي بلفظ جامع لها مكتفيا به، لكنَّه أتى بهذه الألفاظ زيادة في التفصيل؛ لتقرير النهي عنها. وقوله: (**أَلَّا يَقْضِيَ إِلَّا أَمِيرٌ؛ فَإِنَّهُ أَهْيَبُ لِلظَّالِمِ، وَلِشَاهِدِ الزُّورِ. وَإِذَا جَلَسَ عِنْدَكَ الْخَصْمَانِ،**

١- الغَلَق، بالتَّحريكِ: ضِيقُ الصَّدرِ، وقلَّةُ الصَّبرِ. ورَجُلٌ غَلِقٌ: سَيِّئُ الخُلُقِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (غلق).
٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٦٧٦).

فَرَأَيْتَ أَحَدَهُمَا يَتَعَمَّدُ الظُّلْمَ، فَأَوْجِعْ رَأْسَهُ): القصر في (**لا يقضي إلا أمير**) حقيق تحقيقي؛ لأنَّه جاء في سياق أمر، ثمَّ علل هذا الأمر. وقوله: (**أهيب للظالم ولشاهد الزور**): كرَّر لام التعدية، فجاء بها مع (**الظالم**) و(**شاهد الزور**)؛ لتقرير تعدِّي الهيبة إلى كلٍّ. وقوله: (**فَأَوْجِعْ رَأْسَهُ**): استعمل أسلوب الكناية؛ لكون التعبير المكَنَّى به ينبِّه على معنىً لا يؤدِّيه اللَّفظ الصَّريح المكنَّى عنه، وهنا ينبِّه على أنَّ الظالم ما تجرَّأ على الظلم إلَّا لوسوسة شيطان تدور في رأسه، فأراد عمر رضي الله عنه طردها من الرأس.

[٥٤٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى أُمَرَاءِ الْأَمْصَارِ

«أَنْ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُسَوِّفِينَ[1] بِفِطْرِكُمْ، وَلَا تَنْتَظِرُوا بِصَلَاتِكُمُ اشْتِبَاكَ النُّجُومِ[2]»[3].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(اشتباك النُّجوم)**: سبق بيان معناه عند شرح النص رقم ثمانية عشرة وخمسمئة.

مقتضى الحال: يخاطب أمراء الأمصار، يأمرهم بتعجيل الفطر وعدم تأخير صلاة المغرب، ولعلَّه أرسل هذا الكتاب قبيل دخول شهر رمضان؛ للتذكير بهذه الأمور التي تتعلَّق به.

البيان والبلاغة: قوله: **(لا تكونوا)** و**(لا تنتظروا)**: أسند الفعلين إلى ضمير الجمع العائد على أمراء الأمصار، والمقصود هم ورعاياهم، وإنَّما أسند الأمر إليهم؛ لأنَّهم المسؤولون عن فرض هذه الأمور في رعاياهم. وقد ذكر هنا أمرين أمر بهما المخاطبين، اقتبسهما من كلام النبي ﷺ الأول: ألَّا يكونوا من المسوِّفين بالفطر،

١- في (٢٠٩٣) من «مُصنَّفِ عبدِ الرَّزَّاقِ»: (المسْبُوقِينَ).

٢- اشتباكُ النُّجوم: ظهورُ صغارِها بينَ كبارِها، حتَّى لا يَخفَى منها شيءٌ. «جامع الأصول» (٣٢٩٨).

٣- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٩٣) و(٧٥٩٠)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٩٠٣٩).

وهذا أخذه من قول النبي ﷺ: «**لا يَزالُ النَّاسُ بخيرٍ ما عجَّلوا الفِطْرَ**»[1]، والثاني: ألَّا يؤخِّروا صلاة المغرب إلى أن تشتبك النجوم، وقد أخذه من قول النبي ﷺ: «**لا تَزالُ أُمَّتِي على الفِطرَةِ، ما لَمْ يُؤَخِّرُوا المغْرِبَ حَتَّى تَشْتَبِكَ النُّجُومُ**»[2]، إلَّا أنَّه في الأوَّل عبَّر عن الأمر بتعجيل الفطر الوارد في الحديث بالنَّهي عن التسويف فيه. وفي الثاني أتى بلفظ (**الصلاة**) مضافة إلى المخاطبين فقال: (**صلاتكم**) ولم يحدِّدها اعتمادا على فهم المخاطب، وقد عُبِّر عنها في الحديث بلفظ (**المغرب**) من غير ذكر (**الصلاة**) اعتمادا على فهم المخاطب أيضا.

١- رواه البخاري (ح١٩٥٧)، ومسلم (ح١٠٩٨).

٢- رواه أحمد (ح٢٣٥٣٤)، وأبو داود (ح٤١٨)، وابن ماجه (ح٦٨٩)، وابن خزيمة (ح٣٣٩).

[٥٤٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

وَقَدْ سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ لَا يَشْتَهِي الْمَعْصِيَةَ وَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَفْضَلُ، أَمْ رجل يَشْتَهِي الْمَعْصِيَةَ وَلَا يَعْمَلُ بِهَا؟

فَكَتَبَ: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَهُونَ الْمَعْصِيَةَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾[1][2]».

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يجيب عن سؤال وُجِّه إليه.

البيان والبلاغة: تألَّف هذا الجواب من قسمين: الأوَّل: اقتبسه من لفظ السائل، وهو: (**إِنَّ الذِينَ يَشْتَهُونَ الْمَعْصِيَةَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا**)، والثاني: من لفظ آية مطابق مضمونها للجواب، وهو قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]، مع أن الآية نزلت في سياق غير هذا؛ إذ إنَّها نزلت فيمن كان يخفض صوته بحضرة النبي ﷺ، ولكنَّ عمر شبَّه حال الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها بحال أولئك تشبيها ضمنيًّا، وذلك أنَّ الذين يشتهون المعصية يكون في داخلهم رغبة لفعلها، وخشيتهم من الله تمنعهم، كالذين كانوا يخفضون أصواتهم عند رسول الله، كانت لهم رغبة في رفع أصواتهم

١- سورة الحجرات: الآية ٣.

٢- ذكرهُ ابنُ كثيرٍ في «تفسيرِ القرآنِ العظيمِ» ٧/ ٣٦٨، وعزاهُ إلى «كتابِ الزُّهدِ» للإمامِ أحمدَ، ولم أقِف عليهِ في المطبوعِ.

لطبيعة فيهم، إلا أنَّ خشيتهم من الله، وتعظيمهم لمقام رسول الله ﷺ منعهم من ذلك. فما أبعد نظر هذا الملهم رضي الله عنه وأدَّق فهمه!

[٥٤٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه وَهُوَ بِالْبَصْرَةِ

«إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَأْذَنُ لِلنَّاسِ جَمًّا غَفِيرًا، فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَأْذَنْ لِأَهْلِ الشَّرَفِ، وَأَهْلِ الْقُرْآنِ وَالتَّقْوَى وَالدِّينِ، فَإِذَا أَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ فَأْذَنْ لِلْعَامَّةِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**جمًّا غفيرا**): قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «يقالُ: جاء القوم جمًّا غفيرا، والجماء الغفير، وجماء غفيرا: أي مجتمعين كثيرين».

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه واليه على البصرة، يطلب منه أن يميِّز أهل الفضل والعلم من العامَّة في المجلس.

البيان والبلاغة: قوله: (**إنه بَلَغَنِي أَنَّكَ تَأْذَنُ لِلنَّاسِ جَمًّا غفيرًا**): ذكر للمخاطَب ما بلغه من غير أن يذكر المبلِّغ؛ لعدم الحاجة إلى تعيينه، وفي كلامه هذا إيجاز حذف، والتقدير: تأذن للناس في الدخول عليك والجلوس إليك جمًّا غفيرا. وقوله: (**فَأْذن لأهلِ الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين**): عطف (**الدين**)، و(**التقوى**) على (**القرآن**) من غير أن يكرِّر كلمة (**أهل**)؛ لأنه لا فصل بينها، فأهل القرآن هم

١- رواهُ وكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ١/ ٢٨٦، والدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٤٤٢).

أهل التقوى وأهل الدين، وظاهر عبارته أنَّ أهل الشرف مغايرون لأهل القرآن والتقوى والدين، وليس كذلك، ولكنه من عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ أفضل أهل الشرف هم أهل القرآن والتقوى والدين. وقوله: (**فَإِذَا أَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ**): لم يقل: فإذا جلسوا؛ لأنَّ قوله: (**أخذوا مجالسهم**) فيه مزيد معنى، وهو تمام الجلوس والاطمئنان في المجلس.

[٥٥٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه وَقَدِ اشْتَكَى إِلَيْهِ مَا يَلْقَى مِنْ أَهْلِ مِصْرَ

«كُنْ لِرَعِيَّتِكَ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَكَ أَمِيرُكَ، وَرُفِعَ إِلَيَّ عَنْكَ أَنَّكَ تَتَّكِئُ فِي مَجْلِسِكَ، فَإِذَا جَلَسْتَ فَكُنْ كَسَائِرِ النَّاسِ وَلا تَتَّكِئْ». فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٌو: أَفْعَلُ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. وَبَلَغَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّكَ لَا تَنَامُ بِاللَّيْلِ وَلَا بِالنَّهَارِ، إِلَّا مُغَلَّبًا! فَقَالَ: «يَا عَمْرُو! إِذَا نِمْتُ بِالنَّهَارِ ضَيَّعْتُ رَعِيَّتِي، وَإِذَا نِمْتُ بِاللَّيْلِ ضَيَّعْتُ أَمْرَ رَبِّي»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب عمرو بن العاص رضي الله عنه، حين شكاه أهل مصر إلى أمير المؤمنين، ينصحه ببعض ما يتعلق بشئون الحكم وسياسة الناس.

البيان والبلاغة: قوله: (**كُنْ لِرَعِيَّتِكَ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَكَ أَمِيرُكَ**): استعمل أسلوب التشبيه ليوضِّح للمخاطب الصورة التي ينبغي أن يكون عليها مع رعيَّته تمام إيضاح، وفي هذا الاستعمال إيجاز قِصَر؛ إذ لو أراد أن يعبِّر عن المقصود من غير استعمال أسلوب التشبيه لطال الكلام. وهذا التشبيه اقتبسه من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**فمَن أحبَّ أن يُزحزَحَ عن النَّارِ، ويُدخَلَ الجنّةَ، فلتأتِهِ منيّتُهُ وهو يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ، وليأتِ إلى النَّاسِ الذي يُحِبُّ أن يُؤتى إليه**»[٢]. وقولُه رضي الله عنه: (**وَرُفِعَ إِلَيَّ**

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٣٥٨٦)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٢٧٣.
٢- رواه مسلم (ح١٨٤٤).

عَنْكَ أَنَّكَ تَتَّكِئُ فِي مَجْلِسِكَ، فَإِذَا جَلَسْتَ فَكُنْ كَسَائِرِ النَّاسِ وَلا تَتَّكِئْ): بنى الفعل (**رُفع**) للمفعول لعدم الحاجة إلى تعيين الفاعل. وقوله (**ولا تتّكئ**): تتميم؛ إذ المعنى مفهوم لو اقتصر على (**فكن كسائر الناس**)، ولكنه زاد جملة (**ولا تتّكئ**)؛ لتقرير وتأكيد المعنى. وقوله: (**يَا عَمْرُو! إِذَا نِمْتُ بِالنَّهَارِ ضَيَّعْتُ رَعِيَّتِي، وَإِذَا نِمْتُ بِاللَّيْلِ ضَيَّعْتُ أَمْرَ رَبِي)**: بدأ كلامه بنداء المخاطب ليجلب انتباهه. وفي قوله: (**ضيَّعت رعيَّتي**): إيجاز بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، والتقدير: ضيَّعت أمر رعيَّتي، ولكنَّه لما أتى على الحديث عن حقِّ الله - تعالى - قال: (**ضيَّعت أمر ربي**)، فصرَّح بذكر المضاف؛ تأدُّبا مع الله - تعالى -.

[٥٥١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

لِأَهْلِ لُدٍّ[١]

«بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَعْطَى عَبْدُ الله عُمَرُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ لُدٍّ، وَمَنْ دَخَلَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ فِلَسْطِينَ أَجْمَعِينَ، أَعْطَاهُمْ أَمَانًا لِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَلِكَنَائِسِهِمْ وَصُلُبِهِمْ، وَسَقِيمِهِمْ وَبَرِيئِهِمْ وَسَائِرِ مِلَّتِهِمْ: أَنَّهُ لَا تُسْكَنُ كَنَائِسُهُمْ، وَلَا تُهْدَمُ، وَلَا يُنْتَقَصُ مِنْهَا وَلَا مِنْ حَيِّزِهَا وَلَا مِلَلِهَا، وَلَا مِنْ صُلُبِهِمْ، وَلَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَلَا يُكْرَهُونَ عَلَى دِينِهِمْ، وَلَا يُضَارُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ. وَعَلَى أَهْلِ لُدٍّ، وَمَنْ دَخَلَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ فِلَسْطِينَ: أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ كَمَا يُعْطِي أَهْلُ مَدَائِنِ الشَّامِ، وَعَلَيْهِمْ إِنْ خَرَجُوا مِثْلُ ذَلِكَ الشَّرْطِ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أهل لُدٍّ؛ يبيِّن لهم ما أعطاهم من الأمان، وما يلزمهم بذلك.

البيان والبلاغة: قوله: (**هَذَا مَا أَعْطَى عَبْدُ الله عُمَرُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ لُدٍّ وَمَنْ دَخَلَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ فِلَسْطِينَ أَجْمَعِينَ**): استعمال اسم الإشارة (**هذا**) فيه تعيين للمشار إليه، والمشار إليه هو ما سيذكره في هذا الكتاب. وقد حذف المفعول الثاني

١- لُدٌّ: بالضَّمِّ، والتَّشديد، وهو جمعُ أَلَدّ. والأَلَدُّ: الشَّديدُ الخصومةِ. قريةٌ قربَ بيتِ المقدسِ مِن نواحي فلسطينَ، ببابِها يُدرِكُ عيسى ابنُ مريمَ الدَّجَّالَ، فيَقتُلُه. «معجم البلدان» ٥/ ١٥.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٦٠٩-٦١٠.

لـ (**أعطى**)؛ للاستغناء باسم الإشارة (**هذا**) عن ذكره. واسم الإشارة (**هذا**) فيه إبهام، ولمَّا أخبر عنه بالاسم الموصول (**ما**) زاد الإبهام، وهذا الأسلوب يحمل المخاطب على الإصغاء لما في الكتاب حتى يتعيَّن في ذهنه المشارُ إليه، ويرتفع الإبهام الذي حصل لديه، فيستقر المعنى في نفسه، ويبقى عالقا في خُلدِه. وقوله: (**أَعْطَاهُمْ أَمَانًا لِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَلِكَنَائِسِهِمْ وَصُلُبِهِمْ وَسَقِيمِهِمْ وَبَرِيئِهِمْ وَسَائِرِ مِلَّتِهِمْ**): هذا إيضاح للإبهام الحاصل في الجملة السابقة. وتنكير (**أمانا**) للتعظيم. وإدخال لام الاستحقاق على (**كنائسهم**): فيه إشارة إلى تمييزها وتخصيصها بالأمان. وبين: (**أنفسهم**) و(**أموالهم**) و(**كنائسهم**) و(**صُلُبهم**) و(**سقيمهم**) و(**بريئهم**) و(**مِلَّتهم**) سجعٌ ظاهرٌ غيرُ متكلَّف. وبين (**سقيمهم**) و(**بريئهم**): طباق. وقوله: (**أَنَّهُ لَا تُسْكَنُ كَنَائِسُهُمْ وَلَا تُهْدَمُ، وَلَا يُنْتَقَصُ مِنْهَا وَلَا مِنْ حَيِّزِهَا وَلَا مِلَلِهَا، وَلَا مِنْ صُلُبِهِمْ وَلَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَلَا يُكْرَهُونَ عَلَى دِينِهِمْ، وَلَا يُضَارَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ**): هذا تفصيل للأمان المذكور في الجملة السابقة. وبناء الأفعال: (**تُسكَن**) و(**تُهدَم**) و(**يُنتقَص**) و(**يُكرَهون**) و(**يُضارَّ**) للمفعول يُفهَم منه أنَّ النَّهي عن حصول هذه الأفعال عام لا يتقيَّد بالنهي عن حصولها من فاعل بعينه، ومعنى ذلك أنَّ عمر رضي الله عنه أعطاهم في ذلك الأمان من أن يفعله المسلمون أو غيرهم. وقوله: (**وَعَلَى أَهْلِ لُدٍّ، وَمَنْ دَخَلَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ فِلِسْطِينَ: أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ كَمَا يُعْطِي أَهْلُ مَدَائِنِ الشَّامِ، وَعَلَيْهِمْ إِنْ خَرَجُوا مِثْل**): الجار ومجروره وما عُطِف عليه في (**على أهل لُدٍّ ومن دخل معهم ...**) متعلِّق بخبر، بحذف تقديره: واجب. والمبتدأ هو (**أن يعطوا**)، وقدَّم متعلَّق الخبر على المبتدأ؛ لتنبيه المخاطب إلى أنَّ الخبر يخصُّه هو ومن معه. وقوله: (**كما يُعطي أهل مدائن الشام**): فائدة التشبيه هنا بيان المساواة في المعاملة بين المخاطبين وبين غيرهم من أهل الكتاب الذين فتح المسلمون بلادهم.

[٥٥٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

لِأَهْلِ إِيلِيَاءَ[١]

«بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَعْطَى عَبْدُ الله عُمَرُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ إِيلِيَاءَ مِنَ الْأَمَانِ، أَعْطَاهُمْ أَمَانًا لِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَلِكَنَائِسِهِمْ وَصُلْبَانِهِمْ، وَسَقِيمِهَا وَبَرِيئِهَا وَسَائِرِ مِلَّتِهَا: أَنَّهُ لَا تُسْكَنُ كَنَائِسُهُمْ، وَلَا تُهْدَمُ، وَلَا يُنْتَقَصُ مِنْهَا، وَلَا مِنْ حَيِّزِهَا، وَلَا مِنْ صَلِيبِهِمْ، وَلَا مِنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَلَا يُكْرَهُونَ عَلَى دِينِهِمْ، وَلَا يُضَارُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا يَسْكُنُ بِإِيلِيَاءَ مَعَهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْيَهُودِ. وَعَلَى أَهْلِ إِيلِيَاءَ أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ كَمَا يُعْطِي أَهْلُ الْمَدَائِنِ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا الرُّومَ وَاللُّصُوتَ[٢]، فَمَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ آمِنٌ عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ، حَتَّى يَبْلُغُوا مَأْمَنَهُمْ، وَمَنْ أَقَامَ مِنْهُمْ فَهُوَ آمِنٌ، وَعَلَيْهِ مِثْلُ مَا عَلَى أَهْلِ إِيلِيَاءَ مِنَ الْجِزْيَةِ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْ أَهْلِ إِيلِيَاءَ أَنْ يَسِيرَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ مَعَ الرُّومِ، وَيُخَلِّيَ بِيَعَهُمْ وَصُلُبَهُمْ = فَإِنَّهُمْ آمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى بِيَعِهِمْ وَصُلُبِهِمْ حَتَّى يَبْلُغُوا مَأْمَنَهُمْ، وَمَنْ كَانَ بِهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَبْلَ مَقْتَلِ فُلَانٍ، فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ قَعَدَ، وعَلَيْهِ مِثْلُ مَا عَلَى أَهْلِ إِيلِيَاءَ مِنَ الْجِزْيَةِ، وَمَنْ شَاءَ سَارَ مَعَ الرُّومِ، وَمَنْ شَاءَ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ شَيْءٌ حَتَّى يُحْصَدَ حَصَادُهُمْ. وَعَلَى مَا فِي هَذَا الْكِتَابِ عَهْدُ

١- إِيلِيَاءُ، بكسرِ أَوَّلِه واللَّامِ، وياءٍ، وألفٍ ممدودةٍ: اسمُ مدينةِ بيتِ المقدسِ، قيلَ: معناهُ بيتُ اللهِ. «معجم البلدان» ١/ ٢٩٣.

٢- اللَّصْتُ مِثلُ اللِّصِّ: السَّارِقُ، وجمعُه لُصُوتٌ.

اللهِ، وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، وَذِمَّةُ الْخُلَفَاءِ، وَذِمَّةُ الْمُؤْمِنِينَ، إِذَا أَعْطُوا الَّذِي عَلَيْهِمْ مِنَ الْجِزْيَةِ»[1]. شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَكَتَبَ وَحَضَرَ سَنَةَ خَمْسَ عَشْرَةَ.

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (اللُّصوت): قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «اللَّصْتُ، بفتح اللام: اللِّصُّ في لغة طيِّءٍ، وجمعه لُصُوت. وهم الذين يقولون للطَّسِّ: طَسْتٌ. وأنشد أبو عُبيد:

فَتَرَكْنَ نَهْدًا عَيِّلا أَبناؤُهُمْ وبَنِي كِنانةَ كاللُّصُوتِ المُرَّدِ».

مقتضى الحال: يخاطب أهل إيلياء بعد فتحها، مبيِّنا العهد والأمان الذي بينه وبينهم، وما يجب على كلٍّ من الطرفين.

البيان والبلاغة: قوله: (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا أَعْطَى عَبْدُ اللهِ عُمَرُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ إِيلْيَاءَ مِنَ الأَمَانِ، أَعْطَاهُمْ أَمَانا لِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَلِكَنَائِسِهِمْ وَصُلْبَانِهِمْ، وَسَقِيمِهَا وَبَرِيئِهَا وَسَائِرِ مِلَّتِهَا: أَنَّهُ لَا تُسْكَنُ كَنَائِسُهُمْ وَلَا تُهْدَمُ، وَلَا يُنْتَقَصُ مِنْهَا وَلَا مِنْ حَيِّزِهَا، وَلَا مِنْ صَلِيبِهِمْ، وَلَا مِنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَلَا يُكْرَهُونَ عَلَى دِينِهِمْ، وَلَا يُضَارُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا يَسْكُنُ بِإِيلْيَاءَ مَعَهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَعَلَى أَهْلِ إِيلْيَاءَ أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ كَمَا يُعْطِي أَهْلُ الْمَدَائِنِ**): سبق التعليق على مثل هذه العبارات في النص رقم واحد وخمسين وخمسمئة. وقوله هنا: (**ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود**): كلمة (**أحد**) نكرة جاء في سياق نفي فأفادت

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٦٠٩.

العموم. و(مِن) بيانية، فصار المنع من سكنى إيلياء يشمل كل أحد من جنس اليهود. وقوله: (**وَعَلَيْهِمْ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا الرُّومَ وَاللُّصُوتَ، فَمَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ آمِنٌ عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَبْلُغُوا مَأْمَنَهُمْ، وَمَنْ أَقَامَ مِنْهُمْ فَهُوَ آمِنٌ**): تقديم الجار والمجرور (**عليهم**) - المتعلِّق بالخبر - على المبتدأ (**أن يُخرجوا**) يفيد التخصيص، أي: أنَّ هذا الأمر مطلوب منهم لا من غيرهم. وتقديم الجار والمجرور (**منها**) على المفعول (**الروم واللصوت**) للعناية والاهتمام. وفي قوله: (**فمن خرج منهم فإنَّه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم**): راعى لفظَ (مَن) فأفرد الضمير في (**منهم**) و(**فإنَّه**) و(**آمن**) و(**نفسه**) و(**ماله**)؛ إشارة إلى أنَّ كلَّ واحد منهم له حقٌّ بعينه في هذا الأمان. ثمَّ راعى معنى (**مَن**) فأتى بالضمير مجموعا في (**يبلغوا مأمنهم**)، والسرُّ في هذا العدول هو أنَّه ذكر هنا الغاية التي ينتهي إليها الأمان، وهذا الأمر مشترك بينهم، فلا داعي لتخصيص كل واحد منهم بذلك. وفي قوله: (**ومَن أقام منهم فهو آمن**): أعاد مراعاة لفظ (**مَن**) فأفرد الضمير في (**فهو آمن**)؛ لتقرير المعنى الذي أشار إليه قبل، وهو أنَّ كلَّ واحد منهم له حقٌّ في الأمان. وقوله: (**وَمَنْ أَحَبَّ مِنْ أَهْلِ إِيلْيَاءَ أَنْ يَسِيرَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ مَعَ الرُّومِ وَيُخَلِّيَ بِيَعَهُمْ وَصُلُبَهُمْ فَإِنَّهُمْ آمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى بِيَعِهِمْ وَصُلُبِهِمْ، حَتَّى يَبْلُغُوا مَأْمَنَهُمْ**): فقوله: (**مَن أحب**): يفيد الحرية المطلقة في الاختيار المبني على الرغبة. وقوله: (**يسير بنفسه**): الجار والمجرور (**بنفسه**) فيه تتميم؛ لأنَّ المرء لا يسير إلا ونفسه معه، وفائدة هذا التتميم تقرير ما ذكره قبل من كامل حرِّيتهم في الاختيار. و(**أل**) في (**الروم**) للعهد الذكري. وسرُّ العدول من مراعاة لفظ (**مَن**) في (**يسير بنفسه وماله**) إلى مراعاة المعنى في (**فإنَّهم آمنون على أنفسهم وعلي بِيعهم ...**): هو أنَّه لا يريد أن يُنشئ أمانا جديدا، وإنَّما يريد أن يُعلِمهم بأنَّ الأمان الذي يتمتَّع به كلُّ واحد منهم، وهم مقيمون، فإنَّه

يبقى لهم إذا خرجوا من إيلياء. وقوله: (**وَمَنْ كَانَ بِهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ قَبْلَ مَقْتَلِ فُلَانٍ، فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ قَعَدُوا عَلَيْهِ مِثْلَ مَا عَلَى أَهْلِ إِيلْيَاءَ مِنَ الْجِزْيَةِ، وَمَنْ شَاءَ سَارَ مَعَ الرُّومِ، وَمَنْ شَاءَ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ فَإِنَّهُ لَا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ شَيْءٌ حَتَّى يُحْصَدَ حَصَادُهُمْ**): فقوله: (**مِن أهل الأرض**): يريد به كل مَن أقام بإيلياء ممَّن ليس مِن أهلها، فهو عامٌّ يراد به الخاص. وقوله: (**قعدوا عليه**): الضمير في (**عليه**) عائد على الأمان، وحرف الجر (**على**) هنا للاستعلاء المجازي. واستعمال التشبيه في قوله: (**مثل ما على أهل إيلياء**)؛ لإفادة استواء المشبَّه والمشبَّه به في أخذ الجزية. وكلمة (**شيء**) في (**لا يؤخذ منهم شيء**): نكرة في سياق نفي أفادت العموم. وقد استعمل عمر رضي الله عنه أسلوب التقسيم أكثر من مرة، فقسَّم في كتابه هذا المقيمين بإيلياء قسمين: الأوَّل: مَن هم مِن أهلها، والثاني: مَن أقام بها وليس مِن أهلها. ثمَّ قسَّم حال المقيمين مِن أهلها بعد فتحها ثلاثة أقسام، وذكر ما لكلٍّ، وهذه الأقسام هي: مَن أراد أن يخرج منها وحده، ومَن أراد أن يبقى مقيما بها، ومَن أراد أن يخرج مع الروم. ثمَّ قسَّم مَن ليس مِن أهلها ثلاثة أقسام - أيضا -، وذكر ما لكلٍّ، وهذه الأقسام هي: مَن أراد أن يبقى مقيما بإيلياء، ومَن أراد أن يخرج مع الروم، ومَن أراد أن يرجع إلى أهله. وقوله: (**وعَلَى مَا فِي هَذَا الكِتَابِ عَهْدُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ وَذِمَّةُ الْخُلَفَاءِ وَذِمَّةُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا أَعْطُوا الذِي عَلَيْهِمْ مِنَ الجِزْيَةِ**): اسم الإشارة (**هذا**) يفيد التعظيم. وتكرار كلمة (**ذمَّة**) لتقرير المعنى. وإعادة ذكر الشرط (**إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية**) في آخر الكتاب - مع أنَّه ذكره قبلُ -؛ لتنبيه المخاطب إليه.



الباب الثالث

فِي المُختارِ مِن حِكَمِ أميرِ المُؤمِنينَ ﷺ ومواعَظِهِ وكلامِهِ الدَّالِّ على زُهدِهِ وكمالِ ورعِهِ

[٥٥٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَوَاضَعَ لله رَفَعَ اللهُ حَكَمَتَهُ[١]، وَقَالَ: انْتَعِشْ[٢] نَعَشَكَ اللهُ. فَهُوَ فِي نَفْسِهِ صَغِيرٌ أَوْ فَقِيرٌ، وَفِي أَنْفُسِ النَّاسِ كَبِيرٌ. وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَكَبَّرَ، وَعَدَا طَوْرَهُ وَضَعَهُ اللهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَالَ: اخْسَأْ خَسَأَكَ اللهُ. فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ، وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ صَغِيرٌ، حَتَّى إِنَّهُ أَحْقَرُ وَأَصْغَرُ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ مِنَ الْخِنْزِيرِ»[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**حَكَمَتَه**): أصلُ الحكَمةِ: أسفلُ وجه الإنسانِ، ورفعُها: كناية عن رفع المنزلة والعزَّة. و(**انتعِش**): ارتفِع، كما في النهاية لابن الأثير - رحمه الله -. و(**خَسأَك**): الخَسْءُ والخُسوءُ: طردٌ وإبعاد مع إذلالٍ وانتقاص. قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «الخاسئ: المطرود. وخسأ الكلب يخسؤه خَسْأ وخُسُوءا، فخَسَأ وانْخَسَأ: طرده. قال: كالكلب، إن قيل له: اخسَأ انخسأ، أي: إن طردته انطرد ... يقال: خسأتُه فخسأ، أي: أبعدته فبعد».

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ١/ ٤٢٠: (أي قَدْرَهُ ومَنزلتَهُ، كما يُقالُ: لهُ عِندَنا حَكَمةٌ؛ أي: قَدْرٌ. وفُلانٌ عالي الحَكَمةِ. وقِيلَ: الحَكَمةُ مِنَ الإنسانِ: أَسفلُ وَجهِهِ، مُستعارٌ مِن مَوضعِ حَكَمةِ اللِّجامِ، ورَفعُها كِنايةٌ عَنِ الإعزازِ؛ لأنَّ مِن صفةِ الذَّليلِ تَنكيسَ رأسِه).

٢- أيِ: ارتفَع. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (نعش).

٣- رواهُ أبو داودَ في «الزُّهدِ» (٧٣)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦٠٢)، وابنُ أبي الدُّنيا في «التَّواضعِ والخمولِ» (٧٨)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٥٠، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٧٧٨٨)، و«الآدابِ» (٢٠٢).

مقتضى الحال: ليس في النصِّ ما يبيِّن مقتضى الحالِ، إلَّا أنَّها موعظةٌ من أمير المؤمنين رضي الله عنه قد تكون في إحدى خطبه أو مواعظه.

البيان والبلاغة: استعمل في هذه الموعظة أسلوب التقسيم، فجعل الناس على صنفين؛ متواضع ومتكبِّر. واستعمل أسلوب الشرط؛ لذكر ما لكلٍّ منهما، إشارةً إلى تحقُّق الجواب عند تحقُّق الشرط. وكرَّر عبارة (**إنَّ العبد**)؛ لتقرير معنى العبودية. وفي قوله: (**إنَّ العبد إذا تواضع لله رفع الله حَكَمَته**): أظهر اسم (**الله**) في الموضع الثاني وهو موضع إضمار؛ تبرُّكا بذكر اسمه، وتحقيقا لحصول مفعوله. واستعمل الطباق بين (**تواضع**) و(**رفع**) في قوله: (**إذا تواضع لله رفع الله حكمته**)، وبين (**تكبر**) و(**وضع**) في: (**إذا تكبرَّ وضعه الله على الأرض**)؛ لتمكين المعنى في نفس السامع. واستعمل أسلوب المقابلة في قوله: (**فهو في نفسه صغير وفي أعين الناس كبير**)، وفي قوله: (**فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس صغير**)؛ لإظهار حقيقة المعنى، وليشجِّع المتواضع في الأوَّل، ويثبِّط المتكبِّر في الثاني. وأكَّد ثبوت هذا المعنى وقرَّره حين أتى بالجملة الاسميَّة في الموضعين.

[٥٥٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ خَطَبَ عِنْدَهُ رَجُلٌ، فَأَكْثَرَ الْكَلَامَ:

«إِنَّ تَشْقِيقَ الْكَلَامِ مِنْ شَقَاشِقِ[1] الشَّيْطَانِ»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(الشقاشق)**: جمع شقشقة، وهي لهاة البعير.

مقتضى الحال: يوجِّه هذه النصيحة لرجل أكثر من الكلام وتقعَّر في خطبته.

البيان والبلاغة: شبَّه حال المتكلِّم حين يتقعَّر في الكلام ويتشدَّق فيه ويكثر منه لغير فائدة بحال الشيطان حين يُزبِد ويُخرج شِقْشِقته، ووجْه الشبه بشاعةُ كلٍّ؛ في المشبَّه بشاعة المسمَع، وفي المشبَّه به بشاعة المنظر. والأصل في **(الشقاشق)** أنها للبعير، لكنَّه استعارها للشيطان لما استقرَّ في النفوس من بشاعة منظره، كما في قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥] فصار التشبيه تشبيه محسوس بمعقول. وحرف الجرِّ **(من)** في قوله: **(مِن شقاشق الشيطان)**: لابتداء الغاية، فيفيد أنَّ ابتداء خروج مثل هذا الكلام يكون من شقاشق الشيطان ثمَّ يلقيه

١- الشَّقاشِقُ، واحِدتُها شِقْشِقَةٌ؛ وهيَ الَّتي إذا هَدَرَ الفحلُ مِن الإبلِ العِرابِ خاصَّةً خَرجتْ مِن شِدقِه شَبيهةً بِالرِّئةِ. فشبَّه عمرُ إكثارَ الخاطبِ مِنَ الخُطبةِ بِهَدْرِ البعيرِ في شِقْشِقَتِه، ثُمَّ نَسَبَها إلى الشَّيطانِ؛ وذلكَ لِمَا يُدخِلُ فيها مِن الكذبِ وتزويرِ الخاطبِ الباطلَ عندَ الإكثارِ مِن الخُطبِ، وإِنْ كانَ الشَّيطانُ لا شِقشقةَ لهُ، إنَّما هذا مَثَلٌ. «غريب الحديث» للقاسم بنِ سلَّام (شقق).

٢- رواهُ ابنُ وهبٍ في «الجامعِ» (٣٢٢)، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٨٧٦)، وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (١٨٨٠).

على لسان المتكلِّم، أو أنَّه لبيان الجنس، فيفيد أنَّ مثل هذا الكلام من جنس شقاشق الشيطان كريه المنظر. وجمعَ (**الشقاشق**) ولم يقل: (من شقشقة الشيطان) مع أنَّ للبعير شِقْشِقَة واحدة، والأصل بقاء العدد في المستعار له؛ وذلك لأنَّ الجمع فيه إشارة إلى تعدُّد الأنواع، يعني أنَّ شقاشق الشيطان كثيرة متنوعة، وتشقيق الكلام نوع منها.

[٥٥٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي التَّنْفِيرِ مِنَ الْكَذِبِ

«إِنَّ فِي الْمَعَارِيضِ مَا يَكُفُّ - أَوْ يَعِفُّ - الرَّجُلَ عَنِ الْكَذِبِ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**المَعارِيض**): قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «المَعارِيضُ: جمع مِعراض، مِن التَّعريضِ، وهو خِلافُ التصريحِ من القول. يقال: عرفت ذلك في مِعْراض كلامه ومَعْرِض كلامه، بحذف الألف».

مقتضى الحال: ينفِّر من الكذب، ويبيِّن ما يمكن أن يعين على تركه.

البيان والبلاغة: شبَّه المعاريض - على وجه الاستعارة - برجُلٍ مَن استعان به أعانه وكفَّه عن الكذب.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٦٦١٩)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» ٢/ ٦٣٦، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٨٨٤)، والطَّحاويُّ في «شرحِ مُشكِلِ الآثارِ» (٢٩٢٤)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٨٤١)، و«شُعَبِ الإيمانِ» (٤٤٥٧).

[٥٥٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْخِلَافَةِ

«لَا يَصْلُحُ هَذَا الْأَمْرُ إِلَّا بِشِدَّةٍ فِي غَيْرِ تَجَبُّرٍ، وَلِينٍ فِي غَيْرِ وَهَنٍ»[(١)].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن الأمر الذي تسير به الخلافة على وجهها الصحيح.

البيان والبلاغة: استعمل اسم الإشارة (**هذا**) للتعظيم. والقصر في: (**لا يصلح هذا الأمر إلا ...**): حقيقي تحقيقي. وفي استعمال أسلوب المقابلة إيضاح وبيان للسياسة التي تسير عليها الخلافة، فقابل بين (**شِدَّة في غير تجبر**) و(**لين في غير وهن**). وقيَّد الشِّدَّة بالجارِّ والمجرور (**في غير تجبر**)؛ لدفع توهُّم أن يخالط الشدَّة تجبُّر، وكذا قيَّد اللِّين بالجارِّ والمجرور في قوله: (**في غير وهن**)؛ لدفع توهُّم أن يخالط اللين وهن.

١- رواهُ أبو يوسفَ في «الخراجِ» ص١٣١، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ» ٣/ ٣٤٤، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣١٢١١)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤١٩، والخَلَّالُ في «السُّنَّةِ» (٣٤٣).

[٥٥٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**التُّؤدة**): التأنِّي.

مقتضى الحال: يبيِّن فضل التأنِّي في الأمور، وأنَّه محمود إلا في أمور الآخرة.

البيان والبلاغة: قدَّم الجارَّ والمجرور في قوله: (**في كل شيء**) على الخبر (**خير**)؛ لتنبيه المخاطب، ولفت انتباهه. والقصر في (**إلا ما كان من أمر الآخرة**) حقيقي تحقيقي. وإفراد (**أمر**) للتعظيم. وعمر رضي الله عنه أراد في هذه الموعظة أن يقابل بين أمور الدنيا وأمور الآخرة، بأنَّ التؤدة مطلوبة في أمور الدنيا، والإسراع مطلوب لأمور الآخرة، ولكنه ترك أسلوب المقابلة واستعمل القصر؛ لتقرير المعنى، وترك ذكر المطلوب في أمور الآخر اعتمادا على فهم المخاطب.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦١٩)، وأحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٢٥).

[٥٥٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِيَّاكَ وَمُؤَاخَاةَ الْأَحْمَقِ؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا أَرَادَ أَنْ يَنْفَعَكَ فَضَرَّكَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يحذِّر من مؤاخاة الأحمق؛ مبيِّنا سبب ذلك.

لطائف لغوية: سبق الحديث عن أسلوب التحذير وصوره عند شرح النص رقم واحد ومئتين، فراجعه غير مأمور.

البيان والبلاغة: ابتدأ كلامه بـ (**إيَّاك**)؛ لتكون أول ما يقرع أذن السامع، فيكون للتحذير وقْعٌ في نفسه. و(**أل**) في (**الأحمق**): لبيان الحقيقة، فتفيد جنس هذا المذكور. ولم يكتفِ عمر رضي الله عنه بالتحذير، وإنَّما أعقب ذلك بذكر العلَّة؛ ليكون كلامه أدعى للاستجابة، فقال: (**فإنَّه ربَّما أراد أن ينفعك فضرَّك**). وفي قوله: (**فضرَّك**) عدل عن استعمال الفعل بصيغة المضارع وأتى به بصيغة الماضي إشارة إلى أنَّه متحقِّق لا محالة. وبين (**ينفعك**) و(**ضرَّك**) طباق.

١- ذكرهُ الجاحظُ في «البيانِ والتَّبيينِ» ٣/ ٣٠٩، وابنُ قتيبةَ في «عيونِ الأخبارِ» ٢/ ٤٧.

[٥٥٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«النَّاس طَالِبَانِ: فَطَالِبٌ يَطْلُبُ الدُّنْيَا، فَارْفُضُوهَا فِي نَحْرِهِ؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا أَدْرَكَ الَّذِي طَلَبَ مِنْهَا فَهَلَكَ بِمَا أَصَابَ مِنْهَا، وَرُبَّمَا فَاتَهُ الَّذِي طَلَبَ مِنْهَا فَهَلَكَ بِمَا فَاتَهُ مِنْهَا. وَطَالِبٌ يَطْلُبُ الْآخِرَةَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ الْآخِرَةِ فَنَافِسُوهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن حال الناس في طلب الدنيا والآخرة، وشأنَ كلٍّ من القسمين.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب التقسيم ليبيِّن أصناف الناس. وذكر موقف المخاطَب من كلِّ صنف، فذكر أنَّهم على صنفين؛ طالب يطلب الدنيا، وطالب يطلب الآخرة، وهذا التفصيل بعد الإجمال يحمل المخاطب على الإصغاء؛ ليعرف تفصيل ما ابتدأ المتكلِّم بإجماله. وفي قوله: (**طالب يطلب**): أتى بالفعل المضارع (**يطلب**)، مع أنَّ المعنى يتمُّ لو قال: (**طالب دنيا ...، وطالب آخرة**)، وفائدة إيراد الفعل المضارع هنا: الإشارة إلى أنَّ طالب كل منهما يستمرُّ في تحصيل مطلوبه. وقوله: (**فارفضوها في نحره**) ضمَّن الفعل (**ارفضوها**) معنى الفعل (ألقوها)، كأنَّه قال: (ارفضوها وألقوها في نحره)، وهذا التعبير يُخيِّل للمخاطَب أنَّ طالب الدنيا يُغري غيرَه ليطلب الدنيا مثله، لذا قال: (**ارفضوها**). وقوله: (**فَإِنَّهُ رُبَّمَا أَدْرَكَ الَّذِي**

١- ذكرهُ الجاحظُ في «البيانِ والتَّبيينِ» ٣/ ٩٤، والآبيُّ في «نثرِ الدُّرِّ» ٢/ ٣٦، والماورديُّ في «أدبِ الدُّنيا والدِّينِ» ص١٢٢.

طَلَبَ مِنْهَا فَهَلَكَ بِمَا أَصَابَ مِنْهَا. وَرُبَّمَا فَاتَهُ الَّذِي طَلَبَ مِنْهَا فَهَلَكَ بِمَا فَاتَهُ مِنْهَا): هنا استعمل التقسيم مرَّة أخرى؛ ليبيِّن أنَّ طالب الدنيا له حالان: فهو إمَّا أن يدرك ما طلب من الدنيا، وإمَّا أن يفوته ما طلب، وعلى الحالين هو هالك. وفي قوله: **(فإنَّه ربَّما أدرك الذي طلب منها فهلك بما أصاب منها)**: حذف مفعول **(طلب)**، ومفعول **(أصاب)**؛ كراهة ذكره، وكلاهما ضمير عائد على الاسم الموصول قبله. وفي هذا السياق استعمل الاسم الموصول **(الذي)**، ثم استعمل الاسم الموصول **(ما)** ومن أسرار هذا التغيير في الاستعمال أنَّه أراد في الأوَّل تعيين المقصود بالاسم الموصول فاستعمل **(الذي)** يعني: أدرك مطلوبه بعينه، لكنَّه في الموضع الثاني أراد معنى العموم فاستعمل **(ما)**، يعنى: هلك بكلِّ ما أصاب من الدنيا. وكذا في قوله: **(وربَّما فاته الذي طلب منها فهلك بما فاته منها)**. وقوله: **(وَطَالِبٌ يَطْلُبُ الْآخِرَةَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ الْآخِرَةِ فَنَافِسُوهُ)**: لم يذكر هنا حال طالب الآخرة وما يحصِّل من مطلوبه، كما فعل في حديثه عن طالب الدنيا، وإنَّما اكتفى بأمر المخاطَب بمنافسة هذا الصنف، وفي هذا الأسلوب تشويق للمخاطب وتحفيز له على منافسة هذا الصنف؛ ليعرف بنفسه ما يحقِّق مِن هذا الطلب.

[٥٦٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ تَذَاكَرَ أَصْحَابُهُ عِنْدَهُ الْحَسَب

فَقَالَ: «حَسَبُ الْمَرْءِ دِينُهُ[١]، وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ، وَأَصْلُهُ عَقْلُهُ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أصحابه يبيِّن لهم حقيقة الحسَب والمروءة والأصل، وقد سبق نحو ذلك في النص رقم ثلاثة وثمانين ومئتين.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب المشاكلة، فشاكل لفظُه لفظَ المخاطَبين، وغايَر في المعنى؛ تنبيها إلى أن هذا هو الذي ينبغي، وهذا من أسلوب الحكيم، فجعلَ الحسَب الدين، وجعل المروءة الخلُق، وجعل أصل المرء عقلَه. وبين الجمل الثلاث موازنةٌ، وسجعٌ غير متكلَّف.

١- ذكرهُ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ١/ ٣٨١ بلفظِ: «حَسَبُ المَرءِ خُلُقُهُ، وكَرمُهُ دِينُهُ». وقالَ: (الحَسَبُ في الأَصلِ: الشَّرَفُ بالآباءِ وما يُعدُّهُ النَّاس مِن مَفاخِرِهم. وقِيلَ: الحَسَبُ والكَرمُ يكونانِ في الرَّجُلِ وإنْ لم يكنْ لهُ آباءٌ لهم شَرَفٌ، والشَّرفُ والمَجدُ لا يكونانِ إلَّا بالآباءِ).

٢- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٦٤٦٦)، و«الأدبِ» (٢٨٧) و(٢٨٨)، وابنُ أبي الدُّنيا في «العقلِ وفضلِه» (٥)، والخرائطيُّ في «مكارمِ الأخلاقِ» (١٣)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٨١١).

[٥٦١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

«مَا وَجَدْتُ لَئِيمًا قَطُّ إِلَّا وَجَدْتُهُ رَقِيقَ الْمُرُوءَةِ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**المُروءَة**): ترك ما كان مذمومًا عند أهل الصلاح والعقل.

مقتضى الحال: يبيِّن قلة مروءة اللئيم.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب القصر ليبيِّن رقَّة مروءة اللَّئيم، وهذا القصر حقيقي؛ وهو معرفته بلئيم إلا مع وجود هذه الصفة فيه، وقد أكَّد القصر بالظَّرف (**قطُّ**). وتنكير (**لئيما**) في سياق النفي أفاد العموم. وتكرار الفعل (**وجدت**) فيه إشارة إلى أنَّ هذا الأمر أمر محسوس مشاهد.

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (١٦٥٩).

[٥٦٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَعْقَلُ النَّاس أَعْذَرُهُمْ لَهُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن أعقل النَّاس، وفضل الإعذار لهم.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب التفضيل؛ للتنبيه على فضل التماس العذر للناس، فجعل أعقل الناس - على سبيل الادِّعاء - هو أكثر الناس التماسا للأعذار لهم. وهذا الأسلوب فيه تشويق للسامع؛ لأنَّ النفس تتشوَّف إلى معرفة الأفضل، فحين تسمع صيغة التفضيل تصغي لها السمع؛ لتعرف الفاضل.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «مداراةِ النَّاس» (٤١)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٧١. [وذكره الثعالبي فيما اختاره من أقوال عمر في (التمثيل والمحاضرة ص ٢٩)]

[٥٦٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْمَوَدَّةِ

« إِذَا رَزَقَكَ اللهُ مَوَدَّةَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ فَتَشَبَّثْ بِهَا مَا اسْتَطَعْتَ »[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن فضل المودَّة بين المسلمين.

البيان والبلاغة: استعمل الفعل (رزق)؛ لأنَّ الرزق عند الناس أمر يبحثون عنه، ويرغبون فيه، فإذا سمعه المخاطَب لفت انتباهه وأصغى للحديث. وقوله: **(مودَّة امرئ مسلم)**: نكَّر (امرئ) للإفراد. وقيَّد هذه النكرة بالوصف **(مسلم)**؛ لأنَّ غير المسلم لا يُحرَص على مودَّته. وقوله: **(فتشبَّث بها ما استطعت)**: شبَّه المودَّة بأمر محسوس يُمكن أن يُتشَّبث به، وقيَّد هذا التشبُّث بـ **(ما)** المصدرية الظرفية؛ ليكون المخاطَب حريصا على تحقيق هذا الأمر بصورة مستمرَّة.

١- رواهُ ابنُ سمعونٍ في «أماليه» (١٠٥).

[٥٦٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا تَظُنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ فِي مُسْلِمٍ شَرًّا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلًا»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يحثُّ على التماس الأعذار للناس وإحسان الظن بهم.

البيان والبلاغة: بدأ الكلام بـ(**لا**) الناهية؛ ليكون النهي أوَّل ما يقرع أذن السامع، فيقع في قلبه أنَّ الكلام أمر لابدَّ من الانتهاء عنه. وتنكير (**كلمة**) للإفراد. وتنكير (**مسلم**) للتعظيم، وهذا الوصف استُغني به عن ذكر الموصوف (**رجل**). وتقييد الفعل (**خرجت**) بالجارِّ والمجرور (**مِن فِي مسلم**) خرجَ مخرج الغالب؛ فخروج الكلمة من فِي مسلمة له الحكم نفسه. وفي قوله: (**تجد لها في الخير محملا**): قدَّم الجارَّ والمجرور (**في الخير**) على المفعول (**محملا**) للتنبيه والاهتمام. وتنكير (**محملا**) للإفراد، يعنى لو وجد محملا واحدا في الخير لتلك الكلمة وجب حمله عليه، فكيف إذا وجدت محامل كثيرة؟!

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «مداراةِ النَّاس» (٤٥).

[٥٦٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا تَنْظُرُوا إِلَى صَلَاةِ امْرِئٍ، وَلَا صِيَامِهِ، وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ إِذَا حَدَّثَ، وَإِلَى وَرَعِهِ إِذَا أَشْفَى[١]، وَإِلَى أَمَانَتِهِ إِذَا ائْتُمِنَ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (أشفى): قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «أي: أشرف على الدنيا وأقبلت عليه».

مقتضى الحال: يبيّن أنَّ دين المرء الحق يظهر في صدقه وورعه وأمانته، ولا يقتصر على أعماله الظاهرة.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَا تَنْظُرُوا إِلَى صَلَاةِ امْرِئٍ وَلَا صِيَامِهِ**): تنكير (**امرئ**) لقصد عدم التعيين، ومجيء النكرة في سياق النهي يفيد العموم. وقوله: (**ولا صيامه**): زاد (**لا**) لتأكيد النفي. وقوله: (**وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ إِذَا حَدَّثَ، وَإِلَى وَرَعِهِ إِذَا أَشْفَى، وَإِلَى أَمَانَتِهِ إِذَا ائْتُمِنَ**): كان يمكن أن يكتفي بأن يقول: (ولكن انظروا إلى صدق حديثه، وإلى ورعه، وإلى أمانته)، ولكنه زاد الظرف (**إذا حدَّث**) والظرف (**إذا أشفى**) والظرف (**إذا ائتمن**) تتميما؛ لأنَّ هذه الظروف هي أشدُّ ما يكون المرء بحاجة فيها إلى تلك الأفعال التي قُيِّدت بها. وهنا كرَّر حرف

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٢/ ٤٨٩: (أي أَشْرَفَ على الدُّنيا، وأَقبلَتْ عليهِ). وفي رِوايةٍ: (إذا أَشَافَ) وهو بمعنى أَشْفَى. يُنظَرَ: «النِّهاية» ٢/ ٥٠٩.

٢- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الورعِ» (٢١٤).

الجر (**إلى**) مع (**الصدق**) ومع (**الورع**) ومع (**الأمانة**)، وقبلُ لم يأتِ به مع (**الصيام**) واكتفى بالداخل على (**الصلاة**)، ومن لطيف ذلك أنَّه أراد قبلُ ذكرَ بعض أنواع العبادات الظاهرة فجعلها كالشيء الواحد، لكن في قوله: (**انظروا إلى صدق حديثه إذا حدَّث، وإلى ورعه إذا أشفى، وإلى أمانته إذا ائتمن**) قصد أن يُنظَر إلى كلٍّ واحد من هذه الثلاثة على حدة.

[٥٦٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مُرُوءَةُ الرَّجُلِ عَقْلُهُ، وَشَرَفُهُ حَالُهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن فضل وأهمية رجاحة العقل وحسن الأحوال للمرء.

البيان والبلاغة: جعل رجاحة عقل المرء كاملَ مروءته، وما يظهر من حاله تعاملا وأخلاقا وتصرُّفا هو كاملَ شرفه، وذلك على سبيل الادِّعاء والمبالغة؛ لأنَّ رجاحة العقل هي ما يحفظ للمرء مروءته، والحال الظاهرة للمرء من تعامل وأخلاق هي ما يصون شرفه. وفي كلامه لم يقيِّد العقل بالرجاحة، وكذا أطلق الحال ولم يقيِّدها بما يظهر عليها، وذلك اعتمادا على فطنة المخاطَب. وفي الجملتين إيجاز واضحٌ؛ حيثُ قلة الألفاظ وغزارة المعاني.

١- رواهُ القاليُّ في «أماليه» ٢/ ١٦٧.

[٥٦٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ مِنَ النَّاسِ نَاسًا يَلْبَسُونَ الصُّوفَ إِرَادَةَ التَّوَاضُعِ، وَقُلُوبُهُمْ مَمْلُوءَةٌ عُجْبًا وَكِبْرًا»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن حال من يتظاهر بالتواضع وهو يبطن خلافه.

البيان والبلاغة: قوله: (**إنَّ مِن النَّاس ناسا**): قدَّم الجارَّ والمجرور (**من الناس**) على اسم (**إنَّ**)؛ ليحصر ذهن المخاطَب فيمَن يتعلَّق به الكلام. ونكَّر (**ناسا**) للإبهام. وقوله: (**يلبسون الصوف**): حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، والتقدير: يلبسون ملابس الصوف، وهذه الإضافة من إضافة الموصوف إلى صفته، فحذف الموصوف؛ استغناءً بالصفة، وليلفت ذهن المخاطب إليها. وقوله: (**إرادة التواضع**): أراد تعليل الفعل (**يلبسون**)، فلم يقل: (يلبسون الصوف تواضعا)، وإنَّما قال: (**إرادة التواضع**)؛ ليبيِّن أنَّهم يلبسونه لا لذات التواضع، لكنهم يريدون التظاهر به لأغراض أخرى. وقوله: (**وقلوبهم مملوءة عجبا وكبرا**): شبَّه القلوب بالأوعية، وشبَّه العُجب والكِبر بشيء يملؤها، ونصب (**عُجبا**) و(**كِبرا**) على التمييز إشارة إلى امتلاء تلك القوب بها عن آخرها.

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهِرِ العلمِ» (٢٦٧٦).

[٥٦٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا النَّارُ فِي يَبْسِ الْعَرْفَجِ[١] بِأَسْرَعَ مِنَ الْكَذِبِ فِي فَسَادِ مُرُوءَةِ أَحَدِكُمْ؛ فَاتَّقُوا الْكَذِبَ، وَاتْرُكُوهُ فِي جِدٍّ وَهَزْلٍ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**العرفج**): نوع من النبت، شديد الاشتعال.

مقتضى الحال: يبيِّن خطر الكذب على المروءة، وينهى عنه.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب التفضيل؛ ليبيِّن أنَّ إفساد الكذب للمروءة أسرع من انتشار النار في العرفج اليابس، ولكنَّه لم يقل: (إفساد الكذب لمروءة أحدكم أسرع من انتشار النار في يبَس العرفج)، بل عكس أسلوب التفضيل وجاء به منفيًّا وابتدأ بذكر المفضول؛ وذلك أنَّه لما استقرَّ في النفوس سرعة انتشار النار في العرفج اليابس، ابتدأ بذكره منفيًّا؛ ليجلب انتباه السامع ويشوِّقه إلى معرفة ما هو أسرع منه، حتى إذا سمعه استقرَّ في نفسه. وحرف الجرِّ (في) في قوله: (**في يبس العرفج**): يفيد الظرفية الحقيقية، أمَّا في قوله: (**في فساد**): فيفيد الظرفية المجازية. وقوله: (**فَاتَّقُوا الْكَذِبَ، وَاتْرُكُوهُ فِي جَدٍّ وَهَزَلٍ**): جمع بين الأمر بالاتِّقاء والأمر بالترك؛ ليكون أمره أبلغ في دفع الكذب، فاتِّقاء الشيء يكون قبل حصوله، وتركه

١- العَرْفَجُ: شجرٌ معروفٌ صغيرٌ، سريعُ الاشتِعالِ بِالنَّارِ، وهو مِن نباتِ الصَّيفِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (عرفج).

٢- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهِرِ العلمِ» (١٧٤٤).

يكون بعد وقوعه، فعلى هذا يكون النهي عن الكذب مطلقا في جميع الحالات. ونصَّ على حالتَي (**الجد والهزل**) - وإن كانت النفوس تتسمَّح به في الهزل أكثر -؛ ليبيِّن أن الكذب في الحالين سواء. وبين (**جد**) و(**هزل**) طباق.

[٥٦٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

«نَسْتَعِينُ بِقُوَّةِ الْمُنَافِقِ، وَإِثْمُهُ عَلَيْهِ»[١]

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيّن أنَّه قد يستعين بالمنافق مع علمه بأنَّه منافق، وعلمه أيضا بأنَّه آثم في نفاقه، وليس له أجر في عمل.

البيان والبلاغة: قوله: (**نستعين بقوَّة المنافق**): عدَّى الاستعانة إلى (**قوة المنافق**) ولم يقل: (نستعين بالمنافق)؛ إشارة إلى أنَّه لم يستعن بالمنافق لذاته، وإنَّما به لقوَّة عنده. ولم يكتفِ بهذا الكلام، بل أتى بقوله: (**وإثمه على نفسه**) احتراسا؛ لدفع توهُّم أن يكون المنافق مأجورا في الاستعانة به، ولدفع توهُّم أن تكون الاستعانة به ساترا عليه، أو رافعة من شأنه، أو غاضَّة من عظيم إثمه.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣١٢٩٥).

[٥٧٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الدُّنْيَا

«مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَنَفْجَةِ أَرْنَبٍ[١]»[٢]

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(نفجة أرنب)**: قفزته.

مقتضى الحال: يبيِّن سرعة انقضاء الدنيا إذا ما قورنت بالآخرة.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب التشبيه؛ لبيان سرعة انقضاء الدنيا، فشبَّه مدَّة الدنيا قياسا مع مدَّة الآخرة بقفزة أرنب، ووجه الشبه سرعة كلٍّ، وكونها تأتي بغتةً. ونكَّر **(أرنب)** للتقليل، وأكَّد التشبيه بأسلوب القصر، وهو قصر ادِّعائي لتقريب الصورة. وحرف الجرِّ **(في)** يفيد المقايسة، ويفيد الظرفية المجازية، أي: مدَّة الدنيا في جانب مدَّة الآخرة.

١- أي: كَوَثْبَتِهِ مِن مَجْثَمِهِ، يُرِيدُ في تَقلِيلِ المُدَّةِ. «شرح السُّنَّة» للبغويِّ ١١/ ٢٤٢.

٢- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (١١٨٢)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» (٥٧٢)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦١٦)، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (٦٠)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الزُّهدِ» (١٣) و«قِصَرِ الأملِ» (١٢٨)، و«ذمِّ الدُّنيا» (١٣)، وابنُ الأعرابيِّ في «الزُّهدِ وصفةِ الزَّاهدينَ» (١١٩).

[٥٧١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً إِلَّا وَجَدَ لَهُ فِي النَّاس حَاسِدًا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأً أَقْوَمُ مِنَ الْقِدْحِ لَوَجَدَ لَهُ النَّاسُ مَنْ يَغْمِزُ عَلَيْهِ[1]، فَمَنْ حَفِظَ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(القِدْح)** - بكسر القاف وإسكان الدال -: السهم بلا نصل.

مقتضى الحال: يبين حال الناس مع النِّعم، ويأمر بحفظ اللسان عن السوء.

البيان والبلاغة: قوله: **(مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً إِلَّا وَجَدَ لَهُ فِي النَّاسِ حَاسِدًا)**: القصر هنا حقيقي تحقيقي. وتنكير **(عبد)** في سياق النفي يفيد العموم. واستعمال لفظ **(عبد)** فيه إشارة إلى افتقاره إلى تلك النعمة من الله - تعالى - وحاجته إليها. وتنكير **(نعمة)** للإفراد. وقوله: **(وجد له في الناس حاسدا)**: استعمل الفعل **(وجد)** بصيغة الماضي لتقرير حصوله. وأفرد **(حاسدا)** للدلالة على الأقل مع احتمال أكثر من ذلك، ونكَّره للتحقير. والجار والمجرور **(له)** متعلِّق بالمفعول الأول لـ **(وجد)**، وهو **(حاسدا)**، والتقدير: وجد حاسدا له في الناس، فقدَّم الجارَّ والمجرور **(له)** على متعلَّقه للتنبيه، وكذا قدَّم الجارَّ والمجرور **(في الناس)** - الواقع موقع المفعول الثاني لـ **(وجد)** - على المفعول الأوَّل **(حاسدا)** للتنبيه أيضا، ولفت الانتباه. وقوله: **(وَلَوْ**

١- أي: معيبًا طاعنًا. «لسان العرب» ٥/ ٣٩٠.

٢- «مناقب أمير المؤمنين عمر» لابنِ الجوزيِّ ص٢٠٣.

أَنَّ امْرَأً أَقْوَم مِنَ القَدَحِ لَوَجَدَ لَهُ النَّاسُ مَنْ يَغْمِزُ عَلَيْهِ): أراد بيان شدَّة استقامة المرء باستعمال أسلوب التفضيل، ففضَّله على (**القِدْح**) لما عُرف عند العرب من شدَّة استقامته؛ لأن القِدح لابدَّ من أن يكون مستقيما استقامةً تامَّة ليُصيب الهدف، وقد ورد التشبيه بالقِدْح لبيان شدَّة الاستقامة في قول النبي ﷺ: «**اقرؤوا القرآنَ، وابتغوا به اللهَ، مِن قَبلِ أن يأتيَ قومٌ يُقيمونَهُ إقامةَ القِدْحِ، يتعجَّلونَه، ولا يتأجَّلونَه**»[١].

وقوله: (**لوجد له الناس**): قيَّد الفعل (**وجد**) بالجارِّ والمجرور (**له**) للتخصيص.

وقوله: (**من يغمز عليه**): استعمل الاسم الموصول (**من**) لإفادة العموم، وعدَّى الفعل (**غمز**) بـ (**على**)؛ لتضمُّنه معنى الفعل (**عاب**). وقوله: (**فَمَنْ حَفِظَ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ**): جعل كلًّا من فعل الشرط وجواب الشرط فعلا ماضيا؛ للدلالة على تأكيد تحقُّق الجواب عند تحقُّق الشرط. وفي الجملة إيجاز حذفٍ، والتقدير: فمن حفظ لسانه عن السوء سترَ اللهُ عورته.

١- رواه أحمد وأبو داود.

[٥٧٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي فَسَادِ الدِّينِ وَهَلَاكِ النَّاس

«قَدْ عَلِمْتُ مَتَى صَلَاحُ النَّاس، وَمَتَى فَسَادُهُمْ: إِذَا جَاءَ الْفِقْهُ مِنْ قِبَلِ الصَّغِيرِ اسْتَعْصَى عَلَيْهِ الْكَبِيرُ. وَإِذَا جَاءَ الْفِقْهُ مِنْ قِبَلِ الْكَبِيرِ تَابَعَهُ الصَّغِيرُ، فَاهْتَدَيَا»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه أسباب صلاح الناس وفسادهم، وأهمية أخذ العلم عن الأكابر دون غيرهم.

البيان والبلاغة: قوله: (**قَدْ عَلِمْتُ مَتَى صَلَاحُ النَّاسِ وَمَتَى فَسَادُهُمْ**): أكَّد ثبوت علمه بصلاح الناس وفسادهم باستعماله الفعل (**عَلِم**) - الذي يفيد اليقين - بصيغة الماضي وإدخال الحرف (**قد**) عليه الذي يفيد التحقيق. واستعمل المصدر (**صلاح**) و(**فساد**) ولم يستعمل الفعل من هذين المصدرين؛ وذلك لئلَّا يقيِّد الصلاح والفساد بوقت معيَّن. وقدَّم ذكر (**الصلاح**) على ذكر (**الفساد**) للتفاؤل بالصلاح. واستعمل أسلوب اللَّف والنَّشر غير المرتَّب؛ لبيان متى يكون صلاح الناس ومتى يكون فسادهم، وإنَّما استعمله مشوَّشا غير مرتَّب اعتمادا على فهم السامع، فبعد أن ذكر أنه يعلم متى يكون صلاح الناس ومتى يكون فسادهم، ذكر متى يكون فساد

١- رواهُ ابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (١٠٥٥)، وعزاهُ الحافظُ ابنُ حجرٍ في «فتحِ الباري» ١٣/ ٣٠١ - ٣٠٢ إلى «مُصَنَّفِ قَاسِمِ بْنِ أَصْبَغَ»، وصحَّحهُ.

الناس، فقال: (**إِذَا جَاءَ الْفِقْهُ مِنْ قِبَلِ الصَّغِيرِ اسْتَعْصَى عَلَيْهِ الْكَبِيرُ**)، ثم ذكر متى يكون صلاحهم، فقال: (**وَإِذَا جَاءَ الْفِقْهُ مِنْ قِبَلِ الْكَبِيرِ تَابَعَهُ الصَّغِيرُ، فَاهْتَدَيَا**).

وبين (**الصغير**) و(**الكبير**) في الموضعين طباق، وبين الجملتين مقابلة.

[٥٧٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا يَحْزُنْكَ أَنْ يُجْعَلَ لَكَ كَثِيرُ حَظٍّ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكَ، إِذَا كُنْتَ ذَا رَغْبَةٍ فِي أَمْرِ آخِرَتِكَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه أنَّ إقبال الدنيا على المرء ليست علامة سوء، ما بقي مقبلا على الآخرة راغبا فيها.

البيان والبلاغة: قوله: (**لا يحزنك أن يُجعل لك كثير حظ من أمر دنياك**): بنى الفعل (**يُجعل**) للمفعول؛ لتقييد ذهن السامع بالحدث الذي يفيده هذا الفعل، ولأنَّ الذي يُقدِّر الحظَّ معلوم ضرورةً، وهو الله - تعالى -. وقوله: (**كثير حظ**): أضاف الصفة (**كثير**) إلى موصوفها (**حظ**)؛ لتأكيد لصوقها به. وقوله: (**أمر دنياك**): أضاف (**الدنيا**) لضمير المخاطب - مع أنَّها عامَّة مشتركة بين الناس -؛ لأنَّها في نظر كل فرد كأنَّها خاصَّة به. وفي قوله: (**إذا كنت ذا رغبة في أمر آخرتك**): تنكير (**رغبة**) يفيد التعظيم. وفي قوله: (**أمر آخرتك**): أضاف (**الآخرة**) إلى ضمير المخاطب؛ لتحفيزه على الاهتمام بها على اعتبار أنها حق له إن عمل لها. وبين (**دنياك**) و(**آخرتك**) طباق.

١- «مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب» لابنِ الجوزيِّ ص١٨١.

[٥٧٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ الْوَالِيَ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِأَرْبَعٍ، إِنْ نَقَصَ وَاحِدَةً لَمْ يَصْلُحْ لَهُ أَمْرُهُ: قُوَّةٍ عَلَى جَمْعِ هَذَا الْمَالِ مِنْ أَبْوَابِ حِلِّهِ، وَوَضْعِهِ فِي حَقِّهِ، وَشِدَّةٍ لَا جَبَرُوتَ فِيهَا، وَلِينٍ لَا وَهَنَ فِيهِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن أمير المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الصفات الأربعة التي بها صلاح الولاة.

البيان والبلاغة: قوله: **(إِنَّ الْوَالِيَ لا يَصْلُحُ إِلا بِأَرْبَعٍ)**: جعل خبر المبتدأ جملة فعلية؛ للدَّلالة على ضرورة استمرار اتِّصاف المبتدأ بهذا الخبر. وجاء في الجملة الخبرية بأسلوب القصر الحقيقي التحقيقي؛ لتأكيد المعنى. وقوله: **(إلا بأربع)**: ذكر العدد مبهمًا؛ ليلفت ذهن السامع ويشوِّقه لمعرفة هذه الصفات، فيكون لها وقع في نفسه حين يسمعها، وهذا الأسلوب ورد في أحاديث كثيرة، ومن ذلك قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا حسدَ إلا في اثنتينِ: رجلٌ آتاه اللهُ مالا فسلّطه على هلكته في الحقِّ، ورجلٌ آتاه اللهُ الحكمةَ فهو يقضي بها ويعلِّمها**»[٢]. وقوله: **(إِنْ نَقَصَ وَاحِدَةً لَمْ يَصْلُحْ لَهُ أَمْرُهُ)**: أتى بهذه الجملة الاعتراضية؛ لتأكيد أنَّ جملة القصر السابقة جملة قصر حقيقي تحقيقي لا ادِّعائي. وفي قوله: **(لم يصلح له أمره)**: الجارُّ والمجرور **(له)** فيه تتميم؛ إذ المعنى مكتمل من دونه، لكن فيه تنبيه للوالي أنَّ أمره إن لم يصلح

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٣٠٣٤).

٢- رواه البخاري ومسلم.

فإنَّ ضرر عدم صلاحه لا يقتصر على غيره، بل يرجع عليه أيضا. وقوله: (**قُوَّةٍ عَلَى جَمْعِ هَذَا الْمَالِ مِنْ أَبْوَابِ حِلِّهِ، وَوَضْعِهِ فِي حَقِّهِ**): هاتان الصفتان هما الأولى والثانية من الأربعة، وهما متعلِّقتان بالمال، قدَّمهما على الصفتين الثالثة والرابعة؛ لكمال العناية بالأمر الذي تتعلَّقان به. وفي قوله: (**قوَّة على**): حرف الجر (**على**) يفيد الاستعلاء المجازي. وقوله: (**هذا المال**): استعمل اسم الإشارة؛ للتعيين، ويقصد به مال بيت مال المسلمين. وقوله: (**من أبواب حلِّه**): شبَّه موارد بيت المال من صدقة وزكاة وفيء ونحوها ببيوت لها أبواب، والطريقة المشروعة لجمع المال من هذه الموارد تكون من خلال طلبها من أبوابها المشروعة لهذا الأمر. وبين (**حلِّه**) و(**حقِّه**) جناس ناقص. وقوله: (**وَشِدَّةٍ لا جَبَرُوتَ فِيهَا، وَلِينٍ لا وَهَنَ فِيه**): هاتان الصفتان هما الثالثة والرابعة من الصفات الأربع، وهما متعلِّقتان بتعامل الوالي مع رعيَّته، استعمل فيهما أسلوب المقابلة، فقابل بين الصفتين؛ لينبِّه الوالي إلى ضرورة الجمع بينهما.

[٥٧٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَنْ خَافَ اللهَ لَمْ يَشْفِ غَيْظَهُ، وَمَنِ اتَّقَى اللهَ لَمْ يَصْنَعْ مَا يُرِيدُ، وَلَوْلَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَكَانَ غَيْرُ مَا تَرَوْنَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه صفاتِ التقيِّ الذي يخشى الله - سبحانه وتعالى -.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَنْ خَافَ اللهَ لَمْ يَشْفِ غَيْظَهُ، وَمَنِ اتَّقى اللهَ لَمْ يَصْنَعْ مَا يُرِيدُ**): مجيء الفعلين (**خاف**) و(**اتَّقى**) بصيغة الماضي؛ لتقرير ثبوت معناهما. وقوله: (**لم يشفِ**)، و(**لم يصنع**) استعمل أداة النفي (**لم**)؛ لإفادة النفي المؤكَّد. وفي قوله: (**ومن اتّقى الله**): أظهر اسم الله - تعالى - في موضع إضمار، إذ مقتضى السياق أن يقول: (ومن اتَّقاه)، وفائدة الإظهار هنا تقرير تعليق التقوى بالله وحده، والتلذذ بذكره - سبحانه وبحمده -. وقوله: (**لم يصنع ما يريد**): الاسم الموصول (**ما**) يفيد العموم. وقوله: (**وَلَوْلَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَكَانَ غَيْرُ مَا تَرَوْنَ**): هذه الجملة فيها إيجاز قِصَر؛ فالمعنى الذي يريده: أنَّه لولا وجود يوم القيامة وما فيه من الحساب وردِّ الحقوق لأصحابها = لسعى كلُّ إنسان في الدنيا لأخذ حقِّه واعتدى الناسُ بعضُهم على بعض، لكن مَن آمن بالله واليوم الآخر وأيقن بالحساب = وكَل أمره إلى الله -

---

١- رواهُ أبو داودَ في «الزُّهدِ» (١٠٥)، والدُّولابيُّ في «الكُنَى والأسماءِ» (١٤٧٩)، والدِّينوريُّ في «المجالسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٣٦٤)، وأبو نُعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ٨/ ٥٧.

تعالى – واحتسب أمره عنده. أو يُقال: لولا يوم القيامة آتٍ وفيه ما فيه من الحساب والجزاء الأهوال = لكان مني مع الناس من الشدة والحزم غير ما ترون من اللين والرأفة.

[٥٧٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

حِينَ مَرَّ بِمَزْبَلَةٍ، فَاحْتَبَسَ عِنْدَهَا، فَكَأَنَّ أَصْحَابَهُ تَأَذَّوْا بِهَا

«هَذِهِ دُنْيَاكُمُ الَّتِي تَبْكُونَ عَلَيْهَا، وَتَحْرِصُونَ عَلَيْهَا»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يصف أمير المؤمنين رضي الله عنه الدنيا لأصحابه، يزهِّدهم فيها.

البيان والبلاغة: شبَّه الدنيا بأمر مشاهَد حاضر أمام المخاطَب، وهو المزبلة، وقلب التشبيه، وحذف أداة التشبيه، وكلُّ ذلك لتقرير اشتراك المشبَّه والمشبَّه به في وجه الشبه، وهو القذارة، وأصل التشبيه هو: (دنياكم كهذه المزبلة). واستعمل اسم الإشارة (**هذه**)؛ لتعيين المشار إليه، ولفت انتباه المخاطَب إليه. ووصف (**دنياكم**) بالاسم الموصول (**التي**)؛ للتوصُّل إلى وصفها بالمعنى الذي تتضمَّنه جملة صلة الموصول.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «قصرِ الأملِ» (٢٩٧)، وأحمدُ في «الزُّهدِ» (٦١٦)، وأبو نعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٤٨، وابنُ بشرانَ في «الأمالي» (١٢١٨).

[٥٧٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي رَجُلٍ أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: اسْكُتْ؛ فَقَدْ أَكْثَرْتَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

«دَعْهُ، لَا خَيْرَ فِيهِمْ إِنْ لَمْ يَقُولُوهَا لَنَا، وَلَا خَيْرَ فِينَا إِنْ لَمْ نَقْبَلْ». وَأَوْشَكَ أَنْ يَرُدَّ عَلَى قَائِلِهَا[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينهى أمير المؤمنين رضي الله عنه عن منع النَّاس من نصح الأمراء، ويبين أنه يجب على الأمراء قبوله.

البيان والبلاغة: قوله: (**دَعْهُ**): في هذه الكلمة إقرار للآمر بالتقوى، وزجر للمنكِر عليه. وقوله: (**لَا خَيْرَ فِيهِمْ إِنْ لَمْ يَقُولُوهَا لَنا، وَلا خَيْرَ فِينا إِنْ لَمْ نَقْبَلْ**): في قوله: (**لا خير**) في الموضعين نفي جنس الخيرية عند عدم تحقُّق الشرط. والإضمار في قوله: (**لم يقولوها**): فيه حمل للمخاطَب على تذكُّر تلك الكلمة التي قالها الآمر بالتقوى. وقوله : (**إن لم نقبل**): حذف مفعول (**نقبل**) لئلَّا يتقيَّد الفعل به.

١- رواهُ أبو يوسفَ في «الخراج» ص٢٢، والزُّبيرُ بنُ بكَّارٍ في «الأخبارِ الموفّقيَّاتِ» ص ٢٢٨، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٧٣، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣١٣.

[٥٧٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِذَا رَأَيْتَ مِنَ الرَّجُلِ خَصْلَةً تَسُوؤُكَ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا أَخَوَاتٍ، وَإِذَا رَأَيْت مِنَ الرَّجُلِ خَصْلَةً تَسُرُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا أَخَوَاتٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ بِالرَّجُلِ الَّذِي إِذَا وَقَعَ فِي الْأَمْرِ تَخَلَّصَ مِنْهُ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَتَوَقَّى الْأَمْرَ حَتَّى لَا يَقَعَ فِيهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَأْسَ غِنًى، وَأَنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ حَاضِرٌ، وَأَنَّ الْمَرْءَ إِذَا يَئِسَ مِنْ شَيْءٍ اسْتَغْنَى عَنْهُ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يضع أمير المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ منهجا تُعرف به أخلاق الناس، ثم يبين بعض الأخلاق المحمودة.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِذَا رَأَيْتَ مِنَ الرَّجُلِ خَصْلَةً تَسُوؤُكَ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا أَخَوَاتٍ، وَإِذَا رَأَيْتَ مِنَ الرَّجُلِ خَصْلَةً تَسُرُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا أَخَوَاتٍ**): استعمل أداة الشرط (**إذا**) إشارة إلى توقُّع حصول فعل الشرط وجوابه. وتقديم الجار والمجرور (**من الرجل**) على المفعول (**خصلة**) - في الموضعين - يفيد تنبيه المخاطب. و(**أل**) في (**الرجل**) - في الموضعين - للعهد الذهني، والمقصود هو الرجل الذي يكون معه تعامل أو به التقاء. وتنكير (**خصلة**) للإفراد. وقوله: (**فاعلم أن لها أخوات**): العلم هنا يفيد اليقين، وأكّد هذا اليقين مجيءُ معمول الفعل (**اعلم**) مصدرا مؤوّلا من (**أنَّ**) واسمها وخبرها. وتنكير (**أخوات**) للتكثير. وقوله: (**وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ**

١- ذكرهُ الأصبهانيُّ في «سيرِ السَّلفِ الصَّالحينَ» ص١٤٥.

بِالرَّجُلِ الذِي إِذَا وَقَعَ فِي الأَمْرِ تَخَلَّصَ مِنْهُ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الذِي يَتَوَقَّى الأَمْرَ حَتَّى لَا يَقَعَ فِيهِ): في قوله: (**واعلم أنَّ الرجل**): حذف صفة الرجل؛ لتذهب نفس السامع في تعيينها كلَّ مذهب، والتقدير: الرجل العاقل، وكذا في قوله: (**ولكنَّ الرجل**). وقوله: (**وقع في الأمر**): حرف الجر (**في**) يفيد الظرفية المجازية. وفي قوله: (**يتوقَّى الأمر**): أظهر (**الأمر**) في موضع إضمار، إذ قد سبق ذكره، ومن فائدة الإظهار هنا زيادة التقرير. وقوله: (**وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَأْسَ غِنًى، وَأَنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ حَاضِرٌ، وَأَنَّ المَرْءَ إِذَا يَئِسَ مِنْ شَيْءٍ اسْتَغْنَى عَنْهُ**): أعاد ذكر عبارة (**اعلم أنَّ**)؛ لتنبيه المخاطَب إلى أنَّ ما يقوله أمر مهم لابدَّ مِن تيقُّنه. وبين (**أنَّ اليأس غنى**) و(**أنَّ الطمع فقر حاضر**) مقابلة، وكان مقتضى السياق أن يقول: (اعلم أنَّ اليأس غنى آجل)، لكنه حذف صفة (**غنى**) إشارة إلى أن اليأس والقناعة غنًى في كلِّ حال، وليس مقيَّدا بوقت بعينه. وقوله: (**وأنَّ المرء إذا يئس من شيء استغنى عنه**): هذه الجملة تفسيرية لقوله: (**واعلم أن اليأس غنى**).

[٥٧٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا تَنْظُرُوا إِلَى صِيَامِ أَحَدٍ وَلَا صَلَاتِهِ، وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ إِذَا حَدَّثَ، وَأَمَانَتِهِ إِذَا ائْتُمِنَ، وَوَرَعِهِ إِذَا أَشْفَى»[١].

الشرح والتحليل

سبق مثل هذا النص بلفظ مقاربٍ جدًّا.

الألفاظ والغريب: (**أشفى**): تقدم بيان معناها عند شرح النص رقم خمسة وستين وخمسمئة.

مقتضى الحال: يبيِّن أمير المؤمنين رضي الله عنه أنَّ دين المرء الحق يظهر في صدقه وورعه وأمانته، ولا يقتصر على أعماله الظاهرة.

البيان والبلاغة: سبق مثل هذا النص جدًّا تحت رقم خمسة وستين وخمسمئة، ولفظه: «**لَا تَنْظُرُوا إِلَى صَلَاةِ امْرِئٍ، وَلَا صِيَامِهِ، وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ إِذَا حَدَّثَ، وَإِلَى وَرَعِهِ إِذَا أَشْفَى، وَإِلَى أَمَانَتِهِ إِذَا ائْتُمِنَ**». وقوله: (**لَا تَنْظُرُوا إِلَى صِيَامِ أَحَدٍ وَلَا صَلَاتِهِ**): كلمة (**أحد**) في سياق النفي تفيد العموم، فالكلام هنا يعمُّ كلَّ أحد. وفي قوله: (**ولا صلاته**): (**لا**) هنا زائدة؛ لتوكيد النفي وتقريره. والمقصود بالصلاة والصيام هنا النوافل لا الفروض؛ لأن التفاضل بين الناس يحصل فيها غالبا، وإنَّما أطلق ذكر الصيام والصلاة هنا اعتمادا على السياق وفهم المخاطب،

١- رواهُ أبو نُعَيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ٣/ ٢٧، والبيهقيُّ في «الزُّهدِ الكبيرِ» (٨٦٧).

والصيام والصلاة هنا إشارة إلى الأعمال الظاهرة للعبد. وقوله: (**وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ إِذَا حَدَّثَ، وَأَمَانَتِهِ إِذَا ائْتُمِنَ، وَوَرَعِهِ إِذَا أَشْفَى**): بنى الفعل (**ائتمن**) للمفعول؛ لئَّلا يتقيَّد بفاعل بعينه، والمقصود أنَّه أمين مع كل أحد ائتمنه. وفي قوله: (**وورعه إذا أشفى**): إيجاز حذف، والتقدير: وورعه عن الدنيا إذا أشفى عليها. والصدق والأمانة والورع هنا إشارة إلى الأعمال الباطنة للعبد. والمقصود بالنظر في هذا النص هو النظر الذي ينبني عليه الحكم بصلاح العبد، فتقدير الكلام: لا تنظروا - في الحكم على العبد بالصلاح - إلى أعماله الظاهرة، ولكن انظروا إلى أعماله الباطنة.

[٥٨٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«الْخُرْقُ فِي الْمَعِيشَةِ أَخْوَفُ عِنْدِي عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَوَزِ[١]؛ لِأَنَّهُ لَا يَبْقَى مَعَ الْفَسَادِ شَيْءٌ، وَلَا يَقِلُّ مَعَ الْإِصْلَاحِ شَيْءٌ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الخرق في المعيشة**) هو: سوء الإدارة في إنفاق المال، و(**العوز**): الفقر والحاجة.

مقتضى الحال: يبيِّن أمير المؤمنين رضي الله عنه أنَّ العجز وقلة الحيلة في طلب المعاش أخوف عنده وأسوأ أثرا من العوَز والحاجة.

البيان والبلاغة: قوله: (**الْخُرْقُ فِي الْمَعِيشَةِ أَخْوَفُ عِنْدِي عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَوَزِ**): قدَّم الجارَّ والمجرور (**عندي**) على الجارِّ والمجرور (**عليكم**) إشارة إلى اهتمامه بهذا الأمر. وقوله: (**لِأَنَّهُ لَا يَبْقَى مَعَ الفَسَادِ شَيْءٌ، وَلَا يَقِلُّ مَعَ الْإِصْلَاحِ شَيْءٌ**): هذه العبارة تعليل للجملة السابقة، وجارية مجرى الأمثال، وهي مؤلَّفة من جملتين بينهما مقابلة، وكان السياق يقتضي أن يقول: (لا يبقى مع الإفساد شيء)؛ لأنَّ (**الإفساد**) يقابل (**الإصلاح**)، لكنه عدل إلى قوله: (**لا يبقى مع الفساد شيء**)؛ لأنَّ الإفساد إلحاق الضرر بالشيء، أمَّا الفساد فهو تضرُّر الشيء وتلفٌ يحصل فيه سواء من ذاته أو من

١- العَوَز، بالفتحِ: العُدْمُ وسُوءُ الحالِ. «النِّهاية» ٣/ ٣٢٠.

٢- رواهُ وكيعٌ في «الزُّهدِ» (٤٦٩)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» (٦٥٤)، والخَلَّالُ في «الحثِّ على التِّجارةِ» (١٤)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ١/ ٣٩٥.

قِبَل غيره، فالفساد أعمُّ من الإفساد، وملاءمة الفساد للخرق في المعيشة أكثر من ملاءمة الإفساد لها. وكان مقتضى السياق أيضا أن يقول: (ولا يفنى مع الإصلاح شيء)؛ لأنَّ الفناء يقابل البقاء، لكنَّه عدل إلى قول: (**لا يقل**)؛ لأنَّ نفي حصول القلَّة في الشيء أبلغ في الدلالة على المحافظة عليه من نفي فنائه.

[٥٨١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ

«مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ، وَمَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ. وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ قَلَّ خَيْرُهُ. وَمَنْ كَثُرَ أَكْلُهُ لَمْ يَجِدْ لِذِكْرِ اللهِ لَذَّةً، وَمَنْ كَثُرَ نَوْمُهُ لَمْ يَجِدْ فِي عُمُرِهِ بَرَكَةً. وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ فِي النَّاسِ سَقَطَ حَقُّهُ عِنْدَ اللهِ، وَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى غَيْرِ الِاسْتِقَامَةِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**سَقَطُهُ**): السَّقطُ من الكلام: خطؤه ورديئه.

مقتضى الحال: يبيِّن أمير المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جملة من الأخلاق التي ينبغي أن يجتنبها المؤمن، مع بيان سوء عاقبتها في الدنيا والآخرة.

البيان والبلاغة: هذا النص حوى حِكَمًا تُكتب بماء الذَّهب، ذهب كثيرٌ منها مثلا؛ لإحكام معانيها ورصانة ألفاظها؛ فقد امتازت هذه الجُمَلُ بإيجاز اللَّفظ وجزالته، مع تضمُّنها معانيَ عظيمةً، كما أنَّ عددا من فواصل هذه الجُمَل متناسقة في اللفظ من خلال السجع. وفي قوله: (**مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ**): بين (**كثُر**) و(**قلَّت**)

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الحلم» (١٢٦)، والطَّبرانيُّ في «المُعجَمِ الأوسطِ» (٢٢٥٩)، والقُضاعيُّ في «مُسنَدِه» (٣٧٤)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٣/ ١٧٥.

طباق. وفي قوله: (**وَمَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ**): بنى الفعلين (**استُخِفَّ**) و(**عُرِف**) للمفعول؛ لئلَّا يقيِّده بفاعل بعينه. وقوله: (**وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ قَلَّ خَيْرُهُ**): استعمل هنا أسلوب المقدِّمات المتسلسلة، كلُّ مقدِّمة تقود إلى التي بعدها، وهذا الأسلوب من أساليب إقناع المخاطَب وبين (**كثُر**) و(**قلَّ**) مطابقة. وقوله: (**وَمَنْ كَثُرَ أَكْلُهُ لَمْ يَجِدْ لِذِكْرِ اللهِ لَذَّةً، وَمَنْ كَثُرَ نَوْمُهُ لَمْ يَجِدْ فِي عُمُرِهِ بَرَكَةً**): استعمال الفعل المضارع (**يجد**) المنفي بـ (**لم**) في الموضعين يفيد أنَّ الفعل يتجدَّد نفيه باستمرار وجود مسبِّب نفيه. وتنكير (**لذَّة**) و(**بركة**) للتقليل. ونفي القليل هنا يستلزم نفي الكثير. وقوله: (**وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ فِي النَّاسِ سَقَطَ حَقُّهُ عِنْدَ اللهِ، وَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى غَيْرِ الِاسْتِقَامَةِ**): ختم كلامه بذكر ما يترتَّب على الإكثار من الكلام في الناس، معَ أنَّه سبق أن ذكر أنَّ من كثر كلامه كثر سقطه، فإعادة ذكر الإكثار من الكلام في الناس هنا من باب ذكر الخاص بعد العام؛ لخطورة هذا الفعل. وذكر أنَّه يترتَب على هذا الفعل عقابان؛ تخويفا من الوقوع فيه. وفي قوله: (**خرج من الدنيا**): شبَّه الدُّنيا ببيت على وجه الاستعارة، وشبَّه حال الذي يُتوفَّى وينتقل من الدنيا إلى الآخرة بالذي يخرج من ذلك البيت. وبين جمل النص موازنة أعطت النصَّ رونقا وجمالا.

[٥٨٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ الْوَالِيَ إِذَا طَلَبَ الْعَافِيَةَ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ أَعْطَاهُ اللهُ الْعَافِيَةَ مِمَّنْ هُوَ فَوْقَهُ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن أمير المؤمنين رضي الله عنه ما ينبغي أن يتحلَّى به الوالي من طلب العافية فيما بينه وبين رعيته، وحسن عاقبة ذلك له.

البيان والبلاغة: في قوله: (**إِنَّ الوَالِيَ إِذَا طَلَبَ العَافِيَةَ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ أَعْطَاهُ اللهُ العَافِيَةَ مِمَّنْ هُوَ فَوْقَهُ**): جعل الجملة الشرطية خبرا في جملة اسميَّة؛ لتقرير ثبوت الشرط. وأدخل (**إنَّ**) على المبتدأ؛ لتوكيد ذلك. واستعمال الاسم الموصول (**من**) في الموضعين يفيد العموم، ويتقيَّد هذا العموم بالصفة المضمَّنة في جملة الصلة. وبين (**دونه**) و(**فوقه**) طباق، وبين الجملتين موازنة.

١- رواهُ ابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٢١.

[٥٨٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِقَبِيصَةَ بْنِ جَابِرٍ الْأَسَدِيِّ

«إِنِّي أَرَاكَ إِنسَانًا فَصِيحَ اللِّسَانِ فَسِيحَ الصَّدْرِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الرَّجُلِ عَشَرَةُ أَخْلَاقٍ: تِسْعَةٌ صَالِحَةٌ، وَوَاحِدَةٌ سَيِّئَةٌ، فَيُفْسِدُ التِّسْعَةَ الصَّالِحَةَ الْخُلُقُ السَّيِّئُ؛ اتَّقِ عَثْرَاتِ الشَّبَابِ – أَوْ قَالَ: غِرَّاتِ الشَّبَابِ –»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه قبيصةَ بن جابرٍ الأسَدِيَّ، مثنيا عليه، ومحذِّرًا إياه بعضَ الخصال التي تُخشى على مثله.

لطائف لغوية: قوله: (**أراك**): الفعل (أرى) يتعدَّى لمفعول واحدٍ إذا كان من الرؤية، وإلى مفعولين إذا كان من أفعال القلب، بمعنى: أعلم أو أعتقد، كما هو الحال – هنا –. وقوله: (**عَثْرات**) و(**غِرَّات**): تقدَّم معنا عند شرح النص رقم ثمانية ومئة بيان متى تسكن عين الكلمة في مثل هذا الجمع، ومتى تُحرَّك، فراجعه غير مأمور.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي أَرَاكَ إِنسَانًا فَصِيحَ اللِّسَانِ فَسِيحَ الصَّدْرِ**): مجيء الفعل (**أراك**) بصيغة المضارع يفيد التجدُّد والاستمرار، ومجيء المفعول الثاني لهذا الفعل كلمة (**إنسان**) فيه إشارة إلى أنَّه يراه يتمتَّع بصفات الإنسان الكامل، ثمَّ وصفه بأنَّه:

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٨٢٤٠)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٩٨٦١)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٩/ ٢٤٣ و٤٩/ ٢٤٦.

(**فصيح اللسان فسيح الصدر**): دلالة على أنَّه يمتاز بهاتين الصفتين. وبين (**فصيح**) و(**فسيح**) جناس ناقص. وقوله: (**وَقَدْ يَكُونُ فِي الرَّجُلِ عَشَرَةُ أَخْلَاقٍ؛ تِسْعَةٌ صَالِحَةٌ وَوَاحِدَةٌ سِيِّئَةٌ، فَيُفْسِدُ التِّسْعَةَ الصَّالِحَةَ الْخُلُقُ السَّيِّئُ**): في قوله: (**قد يكون**): الحرف (**قد**) هنا يفيد التوقُّع. وتقديم الجار المجرور المتعلِّق بخبر (**يكون**) على اسمها (**عشرة أخلاق**)؛ للتنبيه. واستعمل أسلوب التقسم في بيان أنَّ الأخلاق منها صالح ومنها سيِّئ، فقال: (**تسعة صالحة، وواحدة سيِّئة**). وكان الأصل أن يقول: (**وواحد سيِّئ**) بالتذكير؛ لأنَّ المعدود: (**خُلُق**)، ولكنَّه عدل إلى التأنيث على تقدير: وخَصلةٌ واحدةٌ سيّئة؛ مراعاة للتأنيث في (**تسعة صالحة**). وقوله: (**فيُفسدُ التسعةَ الصالحة الخلُقُ السَّيِّئ**): تقديم المفعول (**التسعة**) على الفاعل (**الخلقُ**)؛ للاهتمام والتحذير. وفي قوله: (**الخلق السيِّئ**): حذف صفة (**الخلق**)؛ لدلالة السياق عليه، والتقدير: الخلق الواحد. وقوله: (**اتَّقِ عَثَرَاتِ الشَّبَابِ**): ختم كلامه بهذه الوصية التي هي تذييل لما سبق ذكره، ففيها توكيد لمفهوم ما سبق؛ لأنَّ اتِّقاء عثرات الشباب فيه اجتناب الأخلاق السيِّئة؛ ولأنَّ المرء أكثر ما يقع منه أخلاق سيِّئة وهو في مرحلة الشباب.

[٥٨٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا يُتَعَلَّمُ الْعِلْمُ لِثَلَاثٍ، وَلَا يُتْرَكُ لِثَلَاثٍ: لَا يُتَعَلَّمُ لِيُمَارَى[1] بِهِ، وَلَا يُبَاهَى بِهِ، وَلَا يُرَاءَى بِهِ. وَلَا يُتْرَكُ حَيَاءً مِنْ طَلَبِهِ، وَلَا زَهَادَةً فِيهِ، وَلَا رِضًا بِالْجَهْلِ مِنْهُ»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يمارِي**): من المِراء والمماراة، وهو: الجدال والملاحاة.

لطائف لغوية: قوله: (**الزَّهادة**): مأخوذ من الزهد، وقد عرَّفه الجوهري في الصحاح بقوله: «الزُّهدُ: خلاف الرَغبة. تقول: زهِد في الشئ وعن الشئ، يَزْهَدُ زَهَدًا وزَهادَةً. وزَهَد يَزْهَدُ لغة فيه. وفلان يَتَزَهَّد، أي يتعبد. والتزهيد في الشئ وعن الشئ: خلاف الترغيب فيه». وقال صاحب مقاييس اللغة: «قال الخليل: الزهادة في الدنيا، والزهد في الدين خاصة». ويتعدَّى الفعل زهِد بـ (في) و(عن) ومن الخطأ تعديته بـ (الباء)، فلا يُقالُ: زهدت بالدنيا. وقد نصَّ على ذلك صاحب معجم الصواب اللغوي.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَا يُتَعَلَّمُ الْعِلْمُ لِثَلَاثٍ ولَا يُتْرَكُ لِثَلَاثٍ**): بدأ بهذا الكلام؛ ليشوِّق السامع لمعرفة تتمَّة الكلام، فذكر العدد مجمَلا، ثمَّ ذكر المعدود، فهو تفصيل بعد إجمال، يقرِّر المعنى في ذهن السامع. وقوله: (**لا يُتعلَّم**) و(**لا يُترك**):

١- المُمارَاة: المُجادَلة والمُلَاحَاة. «جامع الأصول» (٣٢١٦).

٢- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّمتِ» (١٣١)، والبيهقيُّ في «المدخلِ إلى السُّنَنِ الكُبرَى» (٤١٤).

جاء بالفعلين بصيغة المضارع؛ ليكون النهي عنهما متجدِّدا على مَرِّ الزمان، وبناهما للمفعول؛ ليكون النهي عامًّا لكلِّ أحد. وقوله: (**لَا يُتَعَلَّمُ لِيُمَارَى بِهِ، وَلَا يُبَاهَى بِهِ، وَلَا يُرَاءَى بِهِ**): بدأ بذكر ما لا ينبغي أن يكون الدافع لطب العلم من أجله، وهي أمور متعلِّقة بالنيَّة، فبدأ بها؛ لأنها أشدُّ خطرا من التي بعدها، وهي مقتبَسة من قول النبي ﷺ: «**مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ = أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ**»[1]، إلَّا أنَّ عمر رضي الله عنه بنى الأفعال (**يمارى**) و(**يباهى**) و(**يراءى**) للمفعول، وحذف هذا المفعول؛ ليكون الزجر عن حصول هذه الأفعال بغضِّ النظر عن الفاعل والمفعول. وقوله: (**وَلَا يُتْرَكُ حَيَاءً مِنْ طَلَبِهِ، وَلَا زَهَادَةً فِيهِ، وَلَا رِضا بِالْجَهْلِ مِنْهُ**): أردف ذكر هذه الثلاث لئلَّا تكون الثلاث الأولى صارفةً عن طلب العلم. وكرَّر (لا)؛ لتقرير النهي وتوكيده. وبين جمل النصِّ موازنةٌ واضحة أكسبت النصَّ جرسًا حُلوا.

١- رواه الترمذي وابن ماجه، وحسَّنه الألباني - رحمه الله -.

[٥٨٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«كَرَمُ الْمُؤْمِنِ تَقْوَاهُ، وَدِينُهُ حَسَبُهُ، وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ، وَالْجُرْأَةُ وَالْجُبْنُ غَرَائِزُ يَضَعُهَا اللهُ حَيْثُ يَشَاءُ؛ فَالْجَبَانُ يَفِرُّ عَنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَالْجَرِيءُ يُقَاتِلُ عَمَّنْ لَا يَؤُوبُ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، وَالْقَتْلُ حَتْفٌ مِنَ الْحُتُوفِ[1]، وَالشَّهِيدُ مَنِ احْتَسَبَ نَفْسَهُ عَلَى اللهِ»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**حتفٌ**): هو الموت، والجمع حُتُوف، كما جاء في النصِّ.

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه حقائق الأخلاق والصفات وطبائع النفس الإنسانية التي قد تخفى على الكثيرين من الناس. وهذا النصُّ قد سبق مفرَّقا في نصوص أخرى، كما في النص رقم ستين وخمسمئة ورقم ثلاثة وثمانين ومئتين.

البيان والبلاغة: قوله: (**كَرَمُ الْمُؤْمِنِ تَقْوَاهُ، وَدِينُهُ حَسَبُهُ، وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ**): سبق التعليق على نحو هذا اللفظ والمعنى في الأثر رقم ستين وخمسمئة. وقوله: (**وَالْجُرْأَةُ وَالْجُبْنُ غَرَائِزُ يَضَعُهَا اللهُ حَيْثُ يَشَاءُ، فَالْجَبَانُ يَفِرُّ عَنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَالْجَرِيءُ يُقَاتِلُ عَمَّنْ لَا يَؤُوبُ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ**): استعمل هنا أسلوب التفصيل بعد الإجمال، فأجمل ذكر الجرأة والجبن، ثمَّ فصَّل القول فيهما على غير ترتيب ذكرِهما قبلُ، فعرَّف كلًّا من الجبن والجرأة بذكر علامة من علامة كل واحد منهما. وقوله: (**يفرُّ عن أبيه**

١- الحَتف: الموت، وجمعه حُتُوف. ويقالُ: ماتَ فلانٌ حَتْفَ أنفِه؛ إذا ماتَ مِن غيرِ قتلٍ ولا ضربٍ. ولا يُبْنى منه فعلٌ. «جامع الأصول» (٩٣٣٨).

٢- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإ» (١٦٨١)، والمَرْزُبان في «المروءةِ» (١٥) [ونحوه في عيون الأخبار (١/ ١٧١)].

وأمِّه): عدَّى الفعل (**يفرُّ**) بحرف الجر (**عن**)، والأصل فيه أن يتعدَّى بحرف الجر (**مِن**) كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤]؛ لأنَّ حرف الجرِّ (**من**) يفيد مكان ابتداء الفرار، وتعدِّيه بحرف الجر (**عن**) فيه إفادة معنى المجاوزة، يعني أنَّ الجبان يفرُّ متجاوزا عن أبيه وأمِّه، فالتعدِّي بحرف الجرِّ (**عن**) هنا أبلغ في بيان شدَّة الجُبن. وقوله: (**يقاتل عن**): عدَّى الفعل (**يقاتل**) بحرف الجرِّ (**عن**)؛ لتضمُّنه معنى الفعل (يدافع). وقوله: (**وَالْقَتْلُ حَتْفٌ مِنَ الْحُتُوفِ، وَالشَّهِيدُ مَنِ احْتَسَبَ نَفْسَهُ عَلَى اللهِ**): ذكر هذا الكلام احتراسا؛ لدفع توهُّمٍ قد يحصل من مفهوم قوله: (**وَالْجَرِيءُ يُقَاتِلُ عَمَّنْ لاَ يَؤُوبُ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ**)؛ إذ قد يفهم أنَّ كلَّ جريء في القتال جرأته محمودة، وأنَّه إن قُتل فهو في سبيل الله، فبيَّن في قوله: (**القتل حتف من الحتوف ...**) فارِقَ ما بين الشهادة في سبيل الله والقتل، وكان مقتضى السياق أن يقابل القتل بالشهادة، فيقول: (والشهادة احتساب النفس عند الله)، ولكنَّه عدل عن ذكر المصدر (الشهادة) إلى ذكر الصفة المشبَّهة (**الشهيد**) إشارة إلى أنَّ الحكم بالشهادة يكون لكلِّ واحد بحسبه.

١٠٣١

[٥٨٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ

«حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا؛ فَإِنَّ أَهْوَنَ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ تَزِنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ يَوْمَ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[١]»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يعظ أمير المؤمنين رضي الله عنه سامعيه موعظة بليغة في شأن محاسبة النفس والاستعداد للحساب يوم القيامة، ولعل هذه الموعظة كانت في خطبة من خطب الجمعة، والله أعلم.

البيان والبلاغة: قوله: (**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا**): بنى الفعلين (**تُحَاسَبوا**) و(**تُوزَنوا**) للمفعول؛ لكمال علم المخاطب بالفاعل. وقوله: (**فَإِنَّ أَهْوَنَ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غدا أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ**): قيَّد اسم إنَّ (**أهون**) بثلاث مقيِّدات: الجار والمجرور (**عليكم**)، و(**في الحساب**)، و(**غدا**)، وفي ذلك تقرير وتوضيح للمعنى المراد، وطول الفصل بين اسم (**إنَّ**) وخبرها يشوِّق السامع لمعرفة الخبر. وقوله: (**وتَزيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ يَوْمَ تُعْرَضُونَ**

١- سورة الحاقَّة: الآية ١٨.

٢- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (٣٠٦)، وأحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٣٣)، وأبو عُبيدٍ في «الخطبِ والمواعظِ» (١٤٤)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦٠٠)، وابنُ أبي الدُّنيا في «محاسبةِ النَّفسِ» (٢)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣١٤ و٤٤/ ٣٥٧.

لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ): سمَّى عَرض الناس على الله يوم القيامة بالعَرض الأكبر تنبيها للمخاطَب على عِظَم هذا اليوم وهول ما فيه، وأشار إلى بعض ما فيه حين قيَّده بالظرف (**يوم تُعرضون لا تخفى منكم خافية**). ولم يكتفِ باقتباس هذا الظرف من القرآن حتى أتى بالآية التي اقتبس منها، وهي قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]؛ وذلك لتقرير المعنى وتأكيده في نفس المخاطب.

[٥٨٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ للهِ عِبَادًا يُمِيتُونَ الْبَاطِلَ بِهَجْرِهِ، وَيُحْيُونَ الْحَقَّ بِذِكْرِهِ، رُغِّبُوا فَرَغِبُوا، وَرُهِّبُوا فَرَهِبُوا، خَافُوا فَلَا يَأْمَنُونَ، أَبْصَرُوا مِنَ الْيَقِينِ مَا لَمْ يُعَايِنُوا فَخَلَطُوهُ بِمَا لَمْ يُزَايِلُوهُ، أَخْلَصَهُمُ الْخَوْفُ فَكَانُوا يَهْجُرُونَ مَا يَنْقَطِعُ عَنْهُمْ لِمَا يَبْقَى لَهُمْ. الْحَيَاةُ عَلَيْهِمْ نِعْمَةٌ، وَالْمَوْتُ لَهُمْ كَرَامَةٌ؛ فَزُوِّجُوا الْحُورَ الْعِيْنَ، وَأُخْدِمُوا الْوِلْدَانَ الْمُخَلَّدِينَ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**زَايَلوه**)، أي: فارقوه.

مقتضى الحال: يحدِّث أمير المؤمنين رضي الله عنه عن صفات المتقين وأحوالهم في الدنيا، وما أعده الله - تعالى - لهم في الآخرة.

لطائف لغوية: (**رغبوا**): الفعل (رغِبَ) يختلف معناه اختلافا كبيرا باختلاف حرف الجرِّ الداخل عليه؛ فإذا تعدَّى بنفسه أو بـ (في) كان معناه: أراد الشيء واشتهاه، وإذا تعدَّى بـ (عن) كان معناه: كره الشيء وزهد فيه، وإذا تعدَّى بـ (إلى) كان معناه: سأل غيرهُ شيئًا وطلبه. قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «يقال: رغبت إلى فلان في كذا وكذا، أي: سألته إياه».

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ للهِ عِبادا يُمِيتُونَ الْبَاطِلَ بِهَجْرِهِ، وَيُحْيُونَ الْحَقَّ بِذِكْرِهِ**): قدَّم خبر (**إنَّ**) الجار والمجرور (**لله**) على اسمها (**عبادا**)؛ للتخصيص، واللام في

١- رواهُ أبو نُعَيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥٥.

(**لله**) تؤكِّد ذلك. وتنكير (**عبادا**) للتعظيم. وبين الفعلين (**يميتون**) و(**يحيون**) طباق، ومجيئهما بصيغة المضارع يفيد الاستمرار والتجدُّد. وفي استعمال الإماتة لـ (**الباطل**) والإحياء لـ (**الحق**) استعارة، بتشبيه كل من الحق والباطل بكائن حيٍّ يحيا ويموت. وفي اقتران (**الباطل**) بالهجر و(**الحق**) بالذِّكر تجريدٌ للتشبيه؛ لأنَّ كلًّا من (**الهجر**) و(**الذكر**) ملائم للمستعار له. وقوله: (**رُغِّبُوا فَرَغِبُوا، وَرُهِّبُوا فَرَهِبُوا، خَافُوا فَلَا يَأْمَنُونَ**): بين (**رُغِّبوا**) و(**رُهِّبوا**) جناس ناقص، وكذا بين (**رَغِبوا**) و(**رهِبوا**)، وأطلق هذه الأفعال ولم يقيِّدها؛ لتذهب نفس السامع في تقييدها كلَّ مذهب. وجملة (**فلا يأمنون**): توكيد لجملة (**خافوا**)، وهي تتميم لها؛ وذلك أن جملة (**خافوا**) فعلها ماضٍ يدلُّ على أنَّ الخوف حصل في الزمن الماضي، فبيَّن بجملة (**لا يأمنون**) أن خوفهم مستمرٌّ في الزمن الحاضر، وحذف مفعول خافوا؛ لحمل نفس المخاطب على تأمُّله، والتقدير: خافوا الله – تعالى –، أو: خافوا عقاب الله – تعالى –. وبين (**خافوا**) و(**يأمنون**) طباق. وقوله: (**أَبْصَرُوا مِنَ الْيَقِينِ مَا لَمْ يُعَايِنُوا، فَخَلَطُوهُ بِمَا لَمْ يُزَايِلُوهُ**): استعمل الاسم الموصول (**ما**) في الموضعين؛ للإبهام. وقوله: (**أَخْلَصَهُمُ الْخَوْفُ فَكَانُوا يَهْجُرُونَ مَا يَنْقَطِعُ عَنْهُمْ لِمَا يَبْقَى لَهُمُ**): إسناد الإخلاص للخوف إسناد مجازي. وبين (**ينقطع عنهم**) و(**يبقى لهم**) طباق. وقوله: (**الْحَيَاةُ عَلَيْهِمْ نِعْمَةٌ، وَالْمَوْتُ لَهُمْ كَرَامَةٌ**): تقديم الجار والمجرور (**عليهم**) على الخبر (**نعمة**)؛ للتخصيص، وكذا تقديم الجار والمجرور (**لهم**) على الخبر (**كرامة**). وتنكير (**نعمة**) و(**كرامة**) للتعظيم. وقد جاءت جمل هذا النصِّ معتدلة بينها تناسب وموازنة أعطتها جرسا حُلوا.

[٥٨٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«اقْدَعُوا هَذِهِ النُّفُوسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا؛ فَإِنَّهَا طَلَّاعَةٌ تَنْزِعُ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ. إِنَّ هَذَا الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ؛ وَتَرْكُ الْخَطِيئَةِ خَيْرٌ مِنْ مُعَالَجَةِ التَّوْبَةِ؛ وَرُبَّ نَظْرَةٍ زَرَعَتْ شَهْوَةً، وَشَهْوَةِ سَاعَةٍ أَوْرَثَتْ حُزْنًا طَوِيلًا»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**اقْدَعُوا**): القَدعُ هو الكفُّ والمنعُ، والمقصود: كفُّوا نفوسكم عن شهواتها. وقوله: (**مَرِيٌّ**)، أي: غزير كثير، ومنه قولهم: ناقةٌ مرِيٌّ، أي: غزيرة اللبن. وقوله: (**وَبِيٌّ**)، أي: كثير الآفات والأوباء.

مقتضى الحال: يعظُ أمير المؤمنين رضي الله عنه سامعيه ببيان كيفية سياستها ووقايتها عاقبة الشبهات والشهوات.

البيان والبلاغة: قوله: (**اقْدَعُوا هَذِهِ النُّفُوسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا؛ فَإِنَّهَا طَلَّاعَةٌ تَنْزِعُ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ**): اسم الإشارة (**هذه**) يفيد التحقير. ومجيء كلمة (**شهواتها**) بصيغة الجمع يفيد التنويع، والمراد: الأمر بكفِّ النفس عن جميع أنواع شهواتها. وجملة (**تنزع إلى شرِّ غاية**) تفسير لجملة (**إنَّها طلَّاعة**)، بدأها بـ (**إنَّ**) ليؤكِّد المعنى المقصود. وقوله: (**إِنَّ هَذَا الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ**): استعمل أسلوب المقابلة؛ لبيان مدى الفرق بين الحقِّ والباطل، فقابل بين (**إنَّ هذا الحقَّ ثقيل مريٌّ**) و(**إنَّ الباطل**

١- ذكرهُ الماورديُّ في «أدبِ الدُّنيا والدِّينِ» ١/ ٩٢.

خفيف وبيٌّ). واستعمل اسم الإشارة مع الحقِّ؛ لتعيينه، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ الحقَّ واحد لا يتعدَّد. وفي وصف (**الحق**) بالثِّقل و(**الباطل**) بالخفَّة = تشخيص للحقِّ والباطل. وفي استعمال (**مريٌّ**) للحقِّ و(**وبيٌّ**) للباطل استعارة؛ وذلك أنَّ الـ (**مَرِيَّ**) هي الناقة كثيرة اللبن، واللبن دلالة على الخير، فشبَّه الحقَّ بالناقة الدَّرور كثيرة اللبن؛ للترغيب في الحقِّ، والـ (**وَبِيُّ**) هو الإنسان الذي يصيبه أمراض كثيرة، فشبَّه الباطل بإنسان كثير الأمراض؛ للتنفير من الباطل. وبين (**مريٌّ**) و(**وبيٌّ**) سجع. وقوله: (**وَتَرْكُ الْخَطِيئَةِ خَيْرٌ مِنْ مُعَالَجَةِ التَّوْبَةِ**): هذه العبارة غاية في الدقة؛ إذ لم يقل: (ترك الخطيئة خير من التوبة)، وإنَّما فضَّل ترك الخطيئة على معالجة التوبة، ومعالجة التوبة هي بذل الأسباب لنيلها، ولا يوفَّق لنيلها كلُّ أحد، فمن هذا الوجه كان ترك الخطيئة خيرا من معالجة التوبة. وقوله: (**وَرُبَّ نَظْرَةٍ زَرَعَتْ شَهْوَةً، وَشَهْوَةِ سَاعَةٍ أَوْرَثَتْ حُزْنا طَوِيلا**): تنكير (**نظرة**) للتحقير، وتنكير (**شهوة**) للتعظيم. وفي قوله: (**رُبَّ نظرة زرعت شهوة**): استعارة؛ إذ شبَّه النظرة بالزارع، والصورةَ التي أخذتها النظرةُ بالبذرة، والشهوةَ التي نتجت بالزرع. وفي إضافة الشهوة إلى الساعة بيان لمقدارها، و(**ساعة**) هنا للتقليل.

[٥٨٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي أَحْوَالِ النِّسَاءِ

«النِّسَاءُ ثَلَاثَةٌ: امْرَأَةٌ هَيِّنَةٌ، لَيِّنَةٌ، عَفِيفَةٌ، مُسْلِمَةٌ، وَدُودٌ، وَلُودٌ، تُعِينُ أَهْلَهَا عَلَى الدَّهْرِ، وَلَا تُعِينُ الدَّهْرَ عَلَى أَهْلِهَا، وَقَلَّ مَا يَجِدُهَا. ثَانِيَةٌ: امْرَأَةٌ عَفِيفَةٌ مُسْلِمَةٌ، إِنَّمَا هِيَ وِعَاءٌ لِلْوَلَدِ، لَيْسَ عِنْدَهَا غَيْرُ ذَلِكَ. ثَالِثَةٌ: غُلٌّ قَمِلٌ[1] يَجْعَلُهَا اللهُ فِي عُنُقِ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا يَنْزِعُهَا غَيْرُهُ. والرِّجَالُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ عَفِيفٌ، مُسْلِمٌ، عَاقِلٌ، يَأْتَمِرُ[2] فِي الْأُمُورِ إِذَا أَقْبَلَتْ، وَيُسْهِبُ، فَإِذَا وَقَعَتْ يَخْرُجُ مِنْهَا بِرَأْيِهِ. وَرَجُلٌ عَفِيفٌ مُسْلِمٌ، لَيْسَ لَهُ رَأْيٌ، فَإِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ أَتَى ذَا الرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ، فَشَاوَرَهُ وَاسْتَأْمَرَهُ، ثُمَّ نَزَلَ عِنْدَ أَمْرِهِ. وَرَجُلٌ جَائِرٌ حَائِرٌ[3]، لَا يَأْتَمِرُ رُشْدًا[4]، وَلَا يُطِيعُ مُرْشِدًا»[5].

١- غُلٌّ قَمِلٌ: كانوا يأخذون الأسيرَ، فيَشُدُّونه بالقِدِّ وعليهِ الشَّعرُ، فإذا يَبِسَ قَمِلَ في عُنُقِه، فتَجتَمِعُ عليهِ مِحنَتانِ: الغُلُّ، والقَمْلُ. والمَثَلُ ضَرَبهُ الفاروقُ عُمرُ - رضيَ اللهُ عنهُ - لِلمرأةِ السَّيِّئةِ الخُلُقِ الكَثيرةِ المَهْرِ، لا يَجِدُ بَعْلُها مِنها مَخْلَصًا. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (غلل).

٢- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ١/ ٦٦: (أي شاوَرَ نفسَه، وارتأى قبلَ مُواقعةِ الأمرِ. وقيلَ: المُؤتَمِرُ الَّذي يَهُمُّ بأمرٍ يَفعلُه).

٣- ذكرهُ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ١/ ١٦١ بلفظ: «حَائِر بَائِر»، وقال: (إذا لم يتَّجِهْ لشيءٍ. وقيل: هو إِتْباعٌ لِحائِرٍ).

٤- أي: لا يَأتِي بِرُشْدٍ مِن ذاتِ نفسِه. ويقالُ لِكُلِّ مَن فعلَ فِعلًا مِن غيرِ مُشاورةٍ: ائتمرَ. كأنَّ نفسَه أمرَتْه بشيءٍ، فائتمرَ لها؛ أي أطاعَها. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (أمر).

٥- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّف» (١٧٤٣٢)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخ المدينة» ٢/ ٧٧١، والفسويُّ في «المشيخةِ» (١١)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (٢٦٧)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٧١٣١) و(٨٣٥١)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٦٢.

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (غُلٌّ قَمِلٌ): الغلُّ هو القيد، وقَمِل: مليء بالقمل، وهو مثل سائر ضربه أمير المؤمنين رضي الله عنه للمرأة السيئة الخلق الكثيرة المهر، التي لا يجد بعلُها منها مَخلصًا.

مقتضى الحال: يبيِّن أمير المؤمنين رضي الله عنه أحوال وأقسام النِّساء والرِّجال.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب التقسيم في بيان أحوال النساء وأحوال الرجال، وظاهر الكلام أنَّ هذا التقسيم حاصر. وبدأ بذكر العدد في كلٍّ، فقال: **(النِّسَاءُ ثَلَاثَةٌ)**، وقال: **(الرِّجالُ ثَلَاثَةٌ)**، وفي ذلك لفت لانتباه السامع، وحمل له على الإصغاء لمعرفة تتمَّة الكلام. وقوله: **(النِّسَاءُ ثَلَاثَةٌ: امْرَأَةٌ هَيِّنَةٌ، لَيِّنَةٌ، عَفِيفَةٌ، مُسْلِمَةٌ، وَدُودٌ، وَلُودٌ، تُعِينُ أَهْلَهَا عَلَى الدَّهْرِ، وَلَا تُعِينُ الدَّهْرَ عَلَى أَهْلِهَا، وَقَلَّ مَا يَجِدُهَا. ثَانِيَةٌ: امْرَأَةٌ عَفِيفَةٌ مُسْلِمَةٌ، إِنَّمَا هِيَ وِعَاءٌ لِلْوَلَدِ، لَيْسَ عِنْدَهَا غَيْرُ ذَلِكَ. ثَالِثَةٌ: غُلٌّ قَمِلٌ يَجْعَلُهَا اللهُ فِي عُنُقِ مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَنْزِعُهَا غَيْرُهُ)**: بدأ بذكر المرأة الهيِّنة اللَّيِّنة تكريما لها، وإشارةً إلى تفضيلها على غيرها، واستعمل أسلوب الاستقصاء في ذكر صفاتها. وبين **(هيِّنة)** و**(ليِّنة)** جناس ناقص، وكذا بين **(ودود)** و**(ولود)**. وقوله: **(تعين أهلها على الدهر، ولا تعين الدهر على أهلها)**: من باب الطرد والعكس؛ فمنطوق كلٍّ من الجملتين مؤكِّد لمفهوم الأخرى. وقوله: **(وقلَّ ما يجدها)** من باب التتميم. وأضمر فاعل **(يجدها)** من غير تقدُّم مفسِّر له؛ اعتمادا على السياق. وقوله: **(إنَّما هي وعاء للولد ليس عندها غير ذلك)**: القصر هنا ادِّعائي، إلا أنَّه أكَّده بجملة **(ليس عندها غير ذلك)** من باب المبالغة، وكأنّها لَمَّا خلت من الصفات المرغوب فيها لم تعُدْ تنفع في شيء إلا أن تكون وعاءً للولد. وجملة **(هي وعاء للولد)**: كناية

عن الحمل، أي: لا تصلح إلا للحمل. وقوله (**غُلٌّ قَمِلٌ**): شبَّه المرأة السيِّئة الخُلق بالقيد المليء بالقمل؛ فالمغلول به متأذٍّ به ولا يستطيع فكَّه. وقوله: (**يجعلها الله في عنق من يشاء، ولا ينزعها غيره**): ترشيح للتشبيه وتجريد له، فجعْلُ الغلَّ في العنق ونزعه عنه: ترشيح للتشبيه، وتأنيث الضمير في (**يجعلها**) و(**ينزعها**): تجريد له.

وقوله: (**والرِّجَالُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ عَفِيفٌ، مُسْلِمٌ، عَاقِلٌ، يَأْتَمِرُ فِي الْأُمُورِ إِذَا أَقْبَلَتْ وَيُسْهِبُ، فَإِذَا وَقَعَتْ يَخْرُجُ مِنْهَا بِرَأْيِهِ. وَرَجُلٌ عَفِيفٌ مُسْلِمٌ لَيْسَ لَهُ رَأْيٌ، فَإِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ أَتَى ذَا الرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ فَشَاوَرَهُ وَاسْتَأْمَرَهُ، ثُمَّ نَزَلَ عِنْدَ أَمْرِهِ. وَرَجُلٌ جَائِرٌ، حَائِرٌ، لَا يَأْتَمِرُ رُشْدا، وَلَا يُطِيعُ مُرْشِدا**): بدأ بذكر الرجل العفيف العاقل تكريما له، وإشارة إلى تفضيله على غيره، واستعمل أسلوب الاستقصاء في ذكر صفاته.

وقوله: (**ويُسهِب**): أطلق الفعل ولم يقيِّده اعتمادا على السياق، والتقدير: ويُسهب فيها. ومجيء جواب الشرط في (**فإذا وقعت يخرج منها**) بصيغة المضارع؛ إشارة إلى تجدُّد وقوع الجواب عند وقوع فعل الشرط. ومجيء جواب الشرط في (**فإذا وقع الأمر أتى ذا الرأي**) بصيغة الماضي؛ لتقرير ثبوته. وبين (**جائر**) و(**حائر**) جناس ناقص. وفي قوله: (**لا يأتمر رشدا**) حذف الموصوف واكتفى بذكر الصفة؛ للفت انتباه السامع إليها، والتقدير: لا يأتمر أمرا رشدا.

[٥٩٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

«نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَجَعَلْتُ إِذَا أَرَدْتُ الدُّنْيَا أَضْرَرْتُ بِالْآخِرَةِ، وَإِذَا أَرَدْتُ الْآخِرَةَ أَضْرَرْتُ بِالدُّنْيَا، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَأَضِرُّوا بِالْفَانِيَةِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه حال طالب الدنيا وطالب الآخرة، ثمَّ ينصحُ مستمعه أن يكون من الصنف الثاني.

البيان والبلاغة: قوله: (**نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ**): استعمل اسم الإشارة؛ للإبهام ولحمل السامع على الإصغاء لآخر الكلام لمعرفة المقصود. وقوله: (**فَجَعَلْتُ إِذَا أَرَدْتُ الدُّنْيَا أَضْرَرْتُ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا أَرَدْتُ الْآخِرَةَ أَضْرَرْتُ بِالدُّنْيَا**): استعمل أداة الشرط (**إذا**) في الموضعين إشارة إلى تحقُّق فعل الشرط وجوابه، وأكَّد تقرير ذلك حين أتى بفعل الشرط وجوابه في الموضعين بصيغة الفعل الماضي. وفي جعل (**الدنيا**) و(**الآخرة**) مفعولا به لـ (**أضررت**) تجوُّزٌ. وقوله: (**فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَأَضِرُّوا بِالْفَانِيَةِ**): التفت هنا في الضمير في (**أضرُّوا**)، بعد أن استعمل قبلُ ضميرَ المتكلِّم في (**أردتُ**) و(**أضررت**)، وفائدة ذلك أن يعلم المخاطَب أن الكلام موجَّهٌ له. وفي قوله: (**أضرُّوا بالفانية**): عبَّر عن (**الدنيا**) بصفتها؛ تنبيها للمخاطب إلى هذه الصفة فيها، وشحذا لذهنه على اختيار ما هو أنفع له.

١- رواهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٦٥).

[٥٩١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«وَيْلٌ لِدَيَّانِ الْأَرْضِ مِنْ دَيَّانِ السَّمَاءِ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ، إِلَّا مَنْ أَمَّ الْعَدْلَ، وَقَضَى بِالْحَقِّ، وَلَمْ يَقْضِ بِهَوَاءٍ، وَلَا لِقَرَابَةٍ، وَلَا لِرَغْبَةٍ، وَلَا لِرَهْبَةٍ، وَجَعَلَ كِتَابَ اللهِ مِرْآتَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الديَّان**): هو القاضي.

مقتضى الحال: يحذِّرُ أمير المؤمنين رضي الله عنه القضاة من عاقبة الحساب غدا بين يدي الله - تعالى -، ويبين لهم سبيل النجاة.

البيان والبلاغة: قوله: (**وَيْلٌ لِدَيَّانِ الْأَرْضِ مِنْ دَيَّانِ السَّمَاءِ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ**): البدء بكلمة (**ويل**) يفيد التهويل والتخويف، وإضافة (**ديَّان**) في الموضع الأول إلى الأرض يفيد التحقير. وإضافة (**ديَّان**) في الموضع الثاني يفيد التعظيم. وقوله: (**يلقونه**): استعمل ضمير الجمع من غير أن يتقدَّم مفسِّر له، اعتمادا على فهم السامع، والضمير راجع إلى القاضي والمقضي له والمقضي عليه أو راجع للقُضاة جميعا. وقوله: (**إِلَّا مَنْ أَمَّ الْعَدْلَ وَقَضَى بِالْحَقِّ وَلَمْ يَقْضِ بِهَوَاءٍ وَلَا لِقَرَابَةٍ وَلَا لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ، وَجَعَلَ كِتَابَ اللهِ مِرْآتَهُ بَيْنَ عَيْنَيْه**): هذا الكلام تقييد لإطلاق الحكم في الكلام السابق. وقوله: (**ولم يقض بهواء ولا لقرابة ولا لرغبة ولا لرهبة**): تأكيد لمفهوم (**قضى بالحقِّ**). وإعادة إدخال اللام على (**رغبة**) و(**رهبة**) يفيد تقرير المعنى وتأكيده. وبين (**رغبة**) و(**رهبة**) طباق وجناس ناقص. وقوله: (**بين عينيه**): تتميم فائدته بيان التزام النظر في كتاب الله للحكم بما فيه.

١- رواهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٦٣).

[٥٩٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فِي أَهْلِهِ مِثْلَ الصَّبِيِّ، فَإِذَا الْتُمِسَ مَا عِنْدَهُ وُجِدَ رَجُلًا»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين رضي الله عنه الرجال؛ مبينا كيف ينبغي أن يكون الواحد منهم مع أهله.

البيان والبلاغة: قوله: (**يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فِي أَهْلِهِ مِثْلَ الصَّبِيِّ**): كناية عن الغاية في اللين والتلطُّف في المعاملة، فتشبيه الحال التي ينبغي للرجل أن يكون عليها مع أهله بالصبي = المقصد منه أن يتلطَّف في تعامله معهم. وقوله: (**فَإِذَا الْتُمِسَ مَا عِنْدَه وُجِدَ رَجُلا**): بنى الفعل (**التُمس**) للمفعول؛ رعاية لمكانة الفاعل واحتراما له. واستعمل الاسم الموصول (**ما**)؛ لقصد الإبهام والتعميم. وبناء الفعل (**وُجِد**) للمفعول؛ لعدم تقييده بفاعل بعينه. وقوله: (**رجلا**): استغنى بهذه الصفة عن ذكر صفات الرجولة الكاملة اعتمادا على فهم السامع.

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (١٠٣٨)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ١٩/ ٣٣١.

[٥٩٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْغَوْغَاءِ

«اسْتَوْصُوا بِالْغَوْغَاءِ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُمْ يُطْفِئُونَ الْحَرِيقَ، وَيَسُدُّونَ الْبُثُوقَ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الغوغاء**): الجراد الذي بدت أجنحته، والمقصود هنا عوامُّ الناس. و(**البثوق**): الشقوق التي تحدث في الأرض بسبب جري الماء فيها.

مقتضى الحال: يوصي أمير المؤمنين رضي الله عنه بالعوامِّ خيرا؛ مبينا منافعهم ووجه الحاجة إليهم.

البيان والبلاغة: لَمَّا كان الأمر في صدر كلامه رضي الله عنه غريبا ذكر العلَّة فيه، فقال: (**فَإِنَّهُمْ يُطْفِئُونَ الْحَرِيقَ وَيَسُدُّونَ الْبُثُوقَ**): واستعمل الفعلين (**يُطفؤون**) و(**يسدُّون**) بصيغة المضارع؛ للدلالة على الاستمرار والتجدُّد. والمقصود أنَّ العوامَّ يُستعملون في أداء هذه الأمور التي يأنف عن فعلها كثير من الناس. وبين (**يطفئون**) و(**يسدُّون**) سجعٌ.

١- ذكرهُ الجاحظُ في «رسائِلِه» (رسالة فصل ما بين العداوة والحسد) ص٣٦٦.

[٥٩٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَيْسَ لِفَاجِرٍ حُرْمَةٌ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه علاقة المسلم بأهل الفجور وحدوده معهم.

البيان والبلاغة: استعمل الفعل (**ليس**) لتقرير نفي اتِّصاف اسمها بالخبر. وقدَّم اسم (**ليس**) على خبرها للتشنيع. وتنكير (**فاجر**) في سياق النفي يفيد التعميم. وتنكير (**حرمة**) يفيد التقليل، أي: ليس له أدنى حرمة. وفي الجملة إيجاز قِصَر؛ حيث اللفظ القليل والمعنى الكثير، والتقدير: ليس لفاجر حرمة على مسلم في عرضه أو ماله ... إلخ.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّمتِ» (٢٣٢)، و«ذمِّ الغِيبةِ والنَّميمةِ» (٩٥).

[٥٩٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

عَنْ عِلْبَاءَ بْنِ الْهَيْثَمِ السَّدُوسِيِّ[١] وَقَدْ كَانَ أَعْوَرَ[٢] دَمِيمًا، بَارِعًا حَسَنَ الْبَيَانِ

«لِكُلِّ أُنَاسٍ فِي جُمَيْلِهِمْ[٢] خُبْرٌ»[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الجُمَيل): تصغير جَمل.

مقتضى الحال: يضرب أمير المؤمنين ﵁ مثلا لعِلباء بن الهيثم السدوسي؛ إذ قدَّمه قومه رغم دمامته.

البيان والبلاغة: هذا الكلام مثلٌ معروف عند العرب، يُضرَب لمن قدَّمه قومُه على غيره لمعرفتهم باستحقاقه لما قدَّموه له، وإن لم يظهر ذلك فيه من أوَّل وهلة لمن لا يعرفه. وضرب عمر ﵁ هذا المثل عند رؤيته لعلباء؛ لأنَّ ظاهره لا يدلُّ على حُسن ما عنده. واستعمال المثل عند حضور سببه يجسد المعنى ويزيده قوة ووضوحا.

١- عِلْباءُ بنُ الهيثم بنِ جريرٍ السَّدوسيُّ، أبوهُ مِن الرُّؤساءِ الَّذين حاربوا كِسرَى في وقعةِ ذي قارٍ، وأدركَ عِلْباءُ الجاهليَّةَ والإسلامَ، وشهِدَ الفتوحَ في عهدِ عمرَ، ثمَّ شهِدَ الجملَ، فاستُشهِد بها. «الإصابة» ٥/ ١٠٤.

٢ - في الأصل: (أعورا) بالتنوين، والصواب حذف التنوين؛ لأن كلمة (أعور) ممنوعة من الصرف.

٣- الجُمَيل: مُصغَّر الجَمَلِ. والخُبْر بضمِّ الخاءِ: المعرفةُ والعِلمُ. وهو مَثَلٌ يُضرَبُ في معرفةِ كلِّ قومٍ بصاحِبهم. يَعني أنَّ المُسوَّدَ يُسوَّدُ لِمعنًى، وأنَّ قومَه لم يُسوِّدُوهُ إلَّا لمِعرفتِهم بشأنِه. ويُروَى: «لِكُلِّ أُناسٍ في جُمَلِهِمْ خُبْرٌ»، و«في بَعيرِهِمْ خُبْرٌ» فاستعارَ الجَمَلَ والبَعِيرَ لِلصَّاحِب. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (جمل).

٤- ذكرهُ الجاحظُ في «البيانِ والتَّبيينِ» ١/ ٢٠١.

[٥٩٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِزَيْدِ بْنِ حُدَيْرٍ[١]، عَنْ مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ

«يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ، وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه لزيد بن حُدَيرٍ أمورا ثلاثة تهدد الدين وتهدمه.

البيان والبلاغة: أجاب عمر رضي الله عنه في هذا الكلام الموجَز عن سؤال السائل، وبدأ الإجابة بقوله: (**يهدمه**)؛ لربط الجواب بالسؤال، ثمَّ ذكر (**زلَّة العالم**) وقدَّمها على غيرها؛ لِعِظَم خطرها. وقوله: (**وجدال المنافق بالكتاب**): (**الكتاب**) هنا القرآن، فـ (**أل**) هنا للعهد الذهني. وإسناد الهدم إلى زلَّة العالِم وجدال المنافق وحكم الأئمَّة المضلِّين إسناد مجازي، وأصل الكلام: (يهدمه العالِمُ إذا زلَّ، والمنافقُ إذا جادل بالكتاب، والأئمَّةُ المضِلُّون إذا حكموا). وإنما أسند الهدم إلى الزلَّة والجدال والحكم؛ من أجل تنبيه المخاطَب إليها.

١- زيدُ بنُ حُدَيرٍ الأسديُّ الكوفيُّ، أخو زيادِ بنِ حُدَيرٍ [التَّابعيِّ العابدِ الثِّقةِ]. قالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ في «فتح الباري» ٨/ ١٠٠: زيدُ بنُ حُدَيرٍ، أخو زيادِ بنِ حُدَيرٍ، وزيادٌ مِن كبارِ التَّابعينَ، أدركَ عُمرَ، ولهُ روايةٌ في «سُنَنِ أبي داودَ»، ونزلَ الكوفةَ، وولي إمرتَها مرَّةً، وهو أسديٌّ مِن بني أسدِ بنِ خُزَيمةَ بنِ مُدرِكةَ بنِ إلياسَ بنِ مُضَرَ. وأمَّا أخوه زيدٌ؛ فلا أعرِفُ لهُ روايةً.

٢- رواهُ الدَّارميُّ في «السُّنَنِ» (٢٢٠)، وابنُ المُبارَكِ في «الزُّهدِ» (١٤٧٥) بلفظِ: «يَهدِمُ الزَّمانَ ثلاثٌ». وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (١٨٦٧)، والمَرُّوذيُّ في «أخبارِ الشُّيوخِ وأخلاقِهم» (٣٤٤).

[٥٩٧]

وَمِنْ مَوْعِظَةٍ لَهُ

لِرَجُلٍ مِنْ رَعِيَّتِهِ

«لَا تَعْرِضْ بِمَا لَا يَعْنِيكَ، وَاعْتَزِلْ عَدُوَّكَ، وَاحْتَفِظْ مِنْ خَلِيلِكَ إِلَّا الْأَمِينَ؛ فَإِنَّ الْأَمِينَ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْقَوْمِ يَعْدِلُهُ، وَلَا أَمِينَ إِلَّا مَنْ يَخْشَى اللهَ، وَلَا تَصْحَبِ الْفَاجِرَ فَيَحْمِلَكَ عَلَى الْفُجُورِ، وَلَا تُفْشِ إِلَيْهِ سِرَّكَ، وَشَاوِرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللهَ - تَعَالَى -»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينصحُ أمير المؤمنين رضي الله عنه أحد رعيته نصائح غالية تشتمل على فقه التعامل مع الناس؛ العدو منهم والصديق.

البيان والبلاغة: عدَّد أمير المؤمنين رضي الله عنه أساليبه في هذه الموعظة بين الإنشاء والإخبار، وجعل الإنشاء نهيا وأمرا؛ ليكون ذلك أدعى للفت الانتباه وتأكيد المعاني. وبدأ بالنهي فقال: (**لَا تَعْرِضْ بِمَا لَا يَعْنِيكَ**). وقوله: (**وَاحْتَفِظْ مِنْ خَلِيلِكَ إِلَّا الْأَمِينَ**): الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر. وقوله: (**فَإِنَّ الأمين ليس شيءٌ مِن القومِ يعدِلُهُ**): الفاء هنا هي السببية التعليلية، والجملة تعليلٌ لسابقتها. وتنكير (**شيء**): في سياق النفي يفيد العموم. وفي الجملة إيجاز حذف، والتقدير: فإنَّ

١- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (١٣٩٩)، وابنُ وهبٍ في «الجامع» (٢٨٩)، و«الخراج» لأبي يوسفَ ص٢٤، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٥٩١)، والبُرجُلانيُّ في «الكَرمِ والجودِ» (٤٠)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخ المدينةِ» ٢/ ٧٧٠، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (١٠٤)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّمتِ» (١٢٠)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٣٢٥).

الخليل الأمين لا يعدله أيُّ شيءٍ من القوم. ثمَّ أتبع ذلك ببيان حقيقة الأمين فقال: (**وَلَا أَمِينَ إِلَّا مَنْ يَخْشَى اللهَ**): واستعمال الاستثناء بعد النفي أفاد الحصر، كما مرَّ. وفي الجمل السابقة إطنابٌ الغرض منه تعليل النهي وتأكيده. ثمَّ عاد أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى الأسلوب الإنشائي الأنسب للنصيحة؛ فنهي وأمر. وفي جمل النصِّ إطناب ظاهرٌ دعت إليه الحاجة، كما أنَّها لم تخلُ من إيجاز، كما سبق بيانه.

[٥٩٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

«تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ، وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَ، وَلْيَتَوَاضَعْ لَكُمْ مَنْ تُعَلِّمُونَ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُلَمَاءِ، وَلَا يَقُمْ عِلْمُكُمْ مَعَ جَهْلِكُمْ[١]»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين رضي الله عنه مستمعيه من العلماء وطلبة العلم نصيحة يحثُّهم فيها على طلب العلم والتأدُّب بآدابه.

البيان والبلاغة: قوله: (**تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ**): (**أل**) في (**العلم**) للعهد الذهني، والمعهود هو العلم الشرعي، فالعلم - في نصوص الشرع - صار عَلَما بالغلبة على العلم الشرعي. وتقديم الجارِّ والمجرور (**للعلم**) على المفعول (**السكينة**) للتشريف. وبين (**العلم**) و(**الحلم**) جناس ناقص. وقوله: (**وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَ، وَلْيَتَوَاضَعْ لَكُمْ مَنْ تُعَلِّمُونَ**): استعمال (**من**) الموصولة في الموضعين يفيد العموم، وحذف مفعول (**تُعلِّمون**) في الموضعين - الذي هو الضمير العائد على الاسم الموصول -؛ لتعميم الفعل. وبين (**تُعلِّمون**) الأولى والثانية جناس تام. وقوله: (**وَلَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُلَمَاءِ**): هذه الجملة تؤكِّد مفهوم جملة (**وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَ**). وقوله: (**وَلَا يَقُمْ عِلْمُكُمْ مَعَ جَهْلِكُمْ**): و(**الواو**) عاطفةٌ عطفت جملة

١- في الأصل: (ولا يقم علمكم مع جهلكم) بالواو قبل (لا) وبجزم (يقم)، والتصويب من (المدخل إلى سنن البيهقي) (١/ ٣٣٣)، (ح٥٣٩)، ولفظ (فلا يقوم علمكم) أظهر للمعنى، والله أعلم.

٢- رواهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٣٠).

على أخرى، وبين (**علمكم**) و(**جهلكم**) طباق. وجاءت الجملة في رواية أخرى بلفظ: (**فَلا يقُومُ عِلْمُكُمْ مَعَ جَهْلِكُمْ**): والفاء في (**فلا**) تفيد السببية، والمعنى: أنهم إن كانوا من جبابرة العلماء فإن ذلك يتسبَّب في عدم قيام أثر علمهم فيهم، فالجهل يُقصَد به - هنا - أن يكونوا من جبابرة العلم، وإنَّما عبَّر عن ذلك بالجهل تنبيها للمخاطب إلى حقيقة أمره، وتنفيرا له من الوقوع فيه.

[٥٩٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي النِّسَاءِ

«اسْتَعِينُوا عَلَى النِّسَاءِ بِالْعُرْيِ؛ إِنَّ إِحْدَاهُنَّ إِذَا كَثُرَتْ ثِيَابُهَا، وَحَسُنَتْ زِينَتُهَا أَعْجَبَهَا الْخُرُوجُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يشرح أمير المؤمنين رضي الله عنه جانبا من السياسة التي ينبغي أن ينتهجها الزوج مع زوجه؛ ليعينها على القرار في بيتها.

البيان والبلاغة: قوله: (**اسْتَعِينُوا عَلَى النِّسَاءِ بِالْعُرْيِ**): قدَّم المستعان عليه على المستعان به للتخصيص. و(**أل**) في (**النِّساء**) لبيان الحقيقة، وليست لاستغراق أفراد الجنس. و(**العُري**) هنا: كناية عن التقلُّل في الملبس لا انعدامه، أي: ألَّا يكون للمرأة ثياب كثيرة. وقوله: (**إِنَّ إِحْدَاهُنَّ إِذَا كَثُرَتْ ثِيَابُهَا، وَحَسُنَتْ زِينَتُهَا أَعْجَبَهَا الْخُرُوجُ**): هذه الجملة تعليلية للجملة السابقة، بدأها بـ(**إنَّ**)؛ تأكيدا للمعنى المقصود، وإزالة للشك عنه. والزينة هنا تشمل الثياب. وجَعْلُ خبر (**إنَّ**) جملة شرطية يفيد تكرُّر وقوع الخبر عند تحقُّق شرطه. وأكَّد ثبوت وقوع الخبر بمجيء جواب الشرط (**أعجبها**) فعلا ماضيا. وأطلق (**الخروج**)؛ لكراهة ذكر قيده، ولدلالة السياق عليه، والتقدير: أعجبها الخروج من بيتها.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٨٠٠٧).

[٦٠٠]
وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«اسْتَغْزِرُوا الدُّمُوعَ بِالتَّذْكِيرِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذه النصيحة، ولعله قالها في إحدى خطبه أو مواعظه.

لطائف لغوية: (**استغزِروا**): أصله الثلاثي غزَر، وزِيد عليه السين والتاء مسبوقة بهمزة وصل على وزن استفعل، ولهذه الصيغة في اللغة معانٍ كثيرة سبقت الإشارة إليها. وقوله: (**بالتذكير**): سبق الحديث عن الباء واستخداماتها في النَّص رقم أربعة وثلاثمئة، فليعد إليه طالب الزيادة.

البيان والبلاغة: قوله: (**اِسْتَغْزِرُوا الدُّمُوعَ بِالتَّذْكِيرِ**): أتى بالفعل (**استغزروا**) بصيغة (استفعل) للدلالة على الطلب، والمعنى: اطلبوا غزارة الدمع بالتذكير. وشبَّه الدموع بالمطر؛ لأن الوصف بالغزارة - في الأصل - يكون للمطر لا للدمع. وأطلق (**التذكير**) هنا ولم يقيِّده؛ لتذهب نفس السامع في تقييده كلَّ مذهب، والتقدير: بالتذكير بالموت، أو: بالتذكير بأهوال الآخرة، أو: بالتذكير بعقاب الله، ونحو ذلك.

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهِرِ العلمِ» (٧٣٦).

[٦٠١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَكْسَبَةٌ فِيهَا بَعْضُ الدَّنِيَّةِ[١] خَيْرٌ مِنْ مَسْأَلَةِ النَّاسِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**مكْسَبة**)، أي: حرفة. و(**الدَّنِيَّة**): أصلها مهموزة، وهي (الدنيئة)، أي: النَّقيصة.

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا المكان ولا الزمان الذي قال فيه أمير المؤمنين رضي الله عنه هذا القول.

لطائف لغوية: قوله: (**مَكْسَبة**): مصدر ميمي، وقد سبق أن ذكرنا الفرق بينه وبين المصدر الصريح وأثره في زيادة المعنى في النص رقم خمسين وثلاثمئة. وقوله: (**الدنِيَّة**): مأخوذ من الأصل الثلاثي (دنأ)، والتي هي بمعني الخسيس والوضيع، وليس (دَنَو) الذي يدل على معنى القرب.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَكْسَبَةٌ فِيهَا بَعْضُ الدَّنِيَّةِ**): تنكير (**مكسبة**) للتحقير. ووصف المبتدأ (**مكسبة**) بجملة اسمية (**فيها بعض الدنيَّة**) يدلُّ على ثبوت هذا الوصف. و(**أل**) في (**الدَّنيَّة**) للعهد الذهني، والمقصود: الدنية التي يتجنَّبها أكثر الناس. وقوله: (**خَيْرٌ مِنْ مَسْأَلَةِ النَّاسِ**): عدل عن استعمال المصدر (**سؤال**) إلى

١- ذكرهُ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٢/ ٢٨٦ بلفظِ: (الرِّيبة)، وقالَ: (أي: كَسبٌ فيهِ بعضُ الشَّكِّ أَحلالٌ هو أم حرامٌ، خيرٌ مِن سؤالِ النَّاس).

٢- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٤٣، وابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (٣٢٣)، وابنُ حبَّانَ في «الثِّقاتِ» ٨/ ٢٠٤.

استعمال المصدر الميمي (**مسألة**) لما في المصدر الميمي من المبالغة في الدلالة على المعنى. وحذَف المفعول الثاني للمصدر الميمي للتعميم.

[٦٠٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَيُّهَا النَّاس، إِيَّاكُمْ وَالْبِطْنَةَ[١] مِنَ الطَّعَامِ؛ فَإِنَّهَا مُكْسِلَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ، مُفْسِدَةٌ لِلْجَسَدِ، مُورِثَةٌ لِلسَّقَمِ، وَإِنَّ اللهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يُبْغِضُ الْحَبْرَ السَّمِينَ. وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِالْقَصْدِ فِي قُوتِكُمْ؛ فَإِنَّهُ أَدْنَى مِنَ الْإِصْلَاحِ، وَأَبْعَدُ مِنَ السَّرَفِ، وَأَقْوَى عَلَى عِبَادَةِ اللهِ، وَإِنَّهُ لَنْ يَهْلِكَ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْثِرَ شَهْوَتَهُ عَلَى دِينِهِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**البِطنة**): قال صاحب جمهرة اللغة: «البطنة: كثرة الأكل، وإفراط الشِّبَع».

مقتضى الحال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الكلام في إحدى خطبه، يذم فيها الدنيا، وينصح بعدم إشباع شهوة البطن، ويبين الأثر السيئ للإسراف في الطعام.

لطائف لغوية: (**مُكسِلة**)، (**مُفسِدة**)، (**مُورِثة**): ثلاثتها أسماء فاعل، وسيأتي بيان شروط عمل اسم الفاعل عملَ الفعل، وذلك عند شرح النص رقم واحد وأربعين وستمئة.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَالْبِطْنَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَإِنَّهَا مُكْسِلَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ، مُفْسِدَةٌ لِلْجَسَدِ، مُورِثَةٌ لِلسَّقَمِ**): بدأ الكلام بقوله: (**أيها الناس**) إشارة منه

١- البِطنةُ: الامتلاءُ الشَّديدُ مِنَ الطَّعام (النهاية ١/ ١٣٦).
٢- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الجوعِ» (٨١)، و«إصلاحِ المالِ» (٣٥٢)، وأبو نعيمٍ في «الطِّبِّ النَّبويِّ» (١٢٧).

إلى أن هذه النصيحة التي سيذكرها عامَّةٌ لكلِّ أحد. واستعمل أسلوب التحذير بـ (إيَّا)؛ للدلالة على خطورة الأمر الذي يريد أن يُحذِّر منه. والجارُّ والمجرور **(من الطعام)** صفة كاشفة؛ إذ البَطْنة لا تكون غالبًا إلا من الطعام، وإنما ذكر هذه الصفة الكاشفة؛ لأنَّ الناس تتغافل عنها، فذكرها منبِّهًا إليها. وقوله: **(فَإِنَّهَا مُكْسِلَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ، مُفْسِدَةٌ لِلجَسَدِ، مُورِثَةٌ لِلسَّقَمِ)**: عدَّد أخبار اسم **(إنَّ)** - التي هي: **(مُكسِلة)** و**(مُفسِدة)** و**(مُورِثة)** -؛ للدلالة على اجتماع هذه الأوصاف في اسم **(إنَّ)** في آنٍ واحد. وأكَّد اتصافه بها بدخول **(إنَّ)** عليه. ومجيء هذه الأخبار بصيغة اسم الفاعل يدل على ثبوت اتصاف اسم **(إنَّ)** بها. وقوله: **(وإنَّ اللهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يُبْغِضُ الْحَبْرَ السَّمِينَ)**: ذكر هذه العلة الثانية؛ لإقناع المخاطَب باجتناب الأمر الذي حذَّر منه. وقوله: **(وَلَكِن عَلَيْكُمْ بِالْقَصْدِ فِي قُوتِكُمْ؛ فَإِنَّهُ أَدْنَى مِنَ الْإِصْلَاحِ، وَأَبْعَدُ مِنَ السَّرَفِ، وَأَقْوَى عَلَى عِبَادَةِ اللهِ)**: لمَّا حذَّر من البِطنة رغَّب فيما يقابلها، وهو القصد في الطعام؛ لكون ذلك أدعى لاستجابة المخاطب. واستعمل أسلوب التعليل في الترغيب فيه كما استعمله قبل في التنفير من البطنة. وبين **(أدنى من الإصلاح)** و**(أبعد من السرف)** مقابلة. وكان مقتضى السياق أن يقيِّد الإصلاح هنا بالإصلاح في المال؛ لأنَّه يقابل السرف، لكن ترك التقييد؛ ليعمَّ كلَّ إصلاح. وأسماء التفضيل **(أدنى)** و**(أبعد)** و**(أقوى)** حذف معها المفضول الذي هو البطنة؛ للمبالغة في تفضيل القصد في القوت عليها، وكأن البطنة أدنى من أن تُذكَر في المفاضلة مع القصد في القوت. وقوله: **(وَإِنَّهُ لَنْ يَهْلِكَ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْثِرَ شَهْوَتَهُ عَلَى دِينِهِ)**: ختم الكلام بهذا التذييل الذي يجري مجرى الأمثال؛ لتوكيد مضمون الكلام السابق.

[٦٠٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«بِحَسْبِ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْغَيِّ أَنْ يُؤْذِيَ جَلِيسَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَأَنْ يَجِدَ عَلَى النَّاسِ بِمَا يَأْتِي، وَأَنْ يَظْهَرَ لَهُ مِنَ النَّاسِ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الغَي**): الجهل، الضلال. و(**يجِد على الناس**)، أي: يغضب.

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذا القول، فربما كان ذلك في إحدى مواعظه.

لطائف لغوية: الفعل (**وَجَد**) له معانٍ مختلفة تختلف باختلاف السياق الذي ورد فيه، وباختلاف الحرف الذي يتعدَّى به، وسبق أن أشرنا إلى ذلك وذكرنا بعض أمثلته عند شرح النَّص رقم ثلاثة وستين ومئتين، فراجعه غير مأمور.

البيان والبلاغة: هذا النص لعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيه تأثُّر في صياغته بقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**». وقوله: (**بِحَسْبِ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْغَيِّ أَنْ يُؤْذِيَ جَلِيسَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ**): استعمال وصف (**المؤمن**) فيه إشارة إلى أن من اتَّصف بالإيمان لا ينبغي أن يحصل منه هذه الأمور التي سيذكرها، وأن حصول هذه الأمور منه كافية لجعله متَّصفًا بالغيِّ. وقوله: (**فيما لا يعنيه**): الاسم الموصوف (**ما**) يفيد العموم. وقوله: (**وَأَنْ يَجِدَ عَلَى النَّاسِ بِمَا يَأْتِي**): الباء في (**بما يأتي**) تفيد

١- رواهُ البيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٤٦٤٢).

السببية، والمعنى: أن يجد على الناس بسبب أمور يأتيها. وحذف مفعول (**يأتي**)؛ لتقرير التعميم الذي تفيده (**ما**) الموصوفة. وقوله: (**وَأَنْ يَظْهَرَ لَهُ مِنَ النَّاسِ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ**): قدَّم الجارَّ والمجرور (**له**) والجارَّ والمجرور (**من الناس**) على الفاعل (**ما يخفى**)؛ للفت الانتباه. وعبارة (**يخفى عليه**) فيها تهكُّم؛ إذ المعنى أنَّه يأخذ على الناس أمورًا موجودة فيه، ولكنه حين أخذها على غيره وترك نفسه على حالها = صار كأنها خفيت عليه، وأكَّد ذلك بقوله: (**من نفسه**).

[٦٠٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لُؤْمٌ بِالرَّجُلِ أَنْ يَرْفَعَ يَدَهُ مِنَ الطَّعَامِ قَبْلَ أَصْحَابِهِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**لُؤْم**): قال صاحب الصحاح: «اللئيم: الدنيء الأصل، الشحيح النفس».

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا القول.

البيان والبلاغة: تنكير الخبر (**لُؤْم**) يفيد التهويل، وتقديمه على المبتدأ (**أن يرفع يده**) فيه تشويق المخاطب؛ إذ إنه حين يسمع هذا الخبر الذي فيه تهويل وتخويف فإن نفسه تتطلع لمعرفة المخبر عنه لتحذَر منه، فإذا سمعته استقرَّ في نفسها فكان ذلك أدعى لاجتنابها إياه. واستعمال حرف الجر (**من**) في قوله: (**أن يرفع يده من الطعام**): فيه إشارة إلى أن اليد كانت ملامسة للطعام فكان الطعام محل ابتداء رفع اليد، فيكون المطلوب أن يُبقي الرجل يده في الطعام؛ ليستأنس صاحبه بها ويُكمل أكله ولا يتعجَّل في إنهائه، وهذا المعنى لا يظهر لو قال: (أن يرفع يده عن الطعام)؛ لأن حرف الجر (**عن**) يفيد المجاوزة، فيكون المطلوب أن لا تتجاوز يد الرجل مكان الطعام إلى مكان آخر من غير أن يُطلَب أن تكون فيه، ولا شكَّ أنَّ امتثال الرجل للأمر الأول أكثر إيناسًا لصاحبه.

١- رواهُ أبو نعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ٧/ ٣٩١.

[٦٠٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
فِي تَزْوِيجِ النِّساءِ

«لَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الرَّجُلِ الْقَبِيحِ؛ فَإِنَّهُنَّ يُحْبِبْنَ مَا تُحِبُّونَ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في الروايات ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا الكلام، ولكنها نصيحة موجَّهة لأولياء المرأة ربما تكون في إحدى الخطب أو في دار القضاء لمشكلة عُرضت عليه.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الرَّجُلِ الْقَبِيحِ**): في إضافة (**فتياتكم**) إلى ضمير المخاطَبين استجلاب لعطفهم، وذلك بتنبيههم إلى أن المضاف إليهم شيء من خواصِّهم. و(**أل**) في (**الرجل**)؛ لبيان الحقيقة، فلا تعيِّن فردًا بعينه، ولكن هذا الاسم تعيَّن بالصفة التي بعده. وقوله: (**فَإِنَّهُنَّ يُحْبِبْنَ مَا تُحِبُّونَ**): تعليل حَسن لجملة النهي التي ابتُدئ بها الكلام، وهو تعليل مقنع للمخاطَب استعمل فيه أسلوب القياس، ولم يقل: (فإنهنَّ يكرهن ما تكرهون) مع أنَّ هذا اللفظ هو المطابق للنهي المتقدِّم، وإنما عدل إلى قول: (**فإنهنَّ يحببن ما تحبون**) لما فيه من الإرشاد إلى ما ينبغي فعله، وهو أن يحبُّوا لفتياتهم ما يحبُّون لأنفسهم.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٠٣٣٩)، وسعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٨١١) واللَّفظُ لهُ، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٦٩، وابنُ أبي الدُّنيا في «كتابِ العيالِ» (١٢٤)، والآبنوسيُّ في «المشيخةِ» (٢٣٢).

[٦٠٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«يُصَفِّي لَكَ وُدَّ أَخِيكَ ثَلَاثٌ: أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ، وَأَنْ تَدْعُوَهُ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ، وَأَنْ تُوَسِّعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ. وَكَفَى بِالْمَرْءِ عَيًّا أَنْ يَجِدَ عَلَى النَّاسِ فِيمَا يَأْتِي، وَأَنْ يَبْدُوَ لَهُ فِيهِمْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَأَنْ يُؤْذِيَهُ فِي الْمَجْلِسِ بِمَا لَا يَعْنِيهِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: لم أقف في الروايات على الحال أو المكان أو الزمان الذي قال فيه أمير المؤمنين رضي الله عنه هذه الوصية، لكن يبدو أنها وصيَّة أوصى بها الفاروق أحد أحبابه.

لطائف لغوية: جاء في الأثر ذِكر الودِّ؛ فما الفرق بينه وبين الحب؟ قال صاحب كتاب صيد الأفكار في الأدب والأخلاق: «الحب ما استقر في القلب، والوُد ما ظهر في السلوك، فإذا كنت تحب فلانا فمشاعر الميل نحوه هي الحب، وابتسامك في وجهه هي الود، وإذا قدمت إليه هدية فهي ود، أو أعنته في مشكلة فهي ود، أو عدته في مرض فهي ود، أو أعطيته هدية في زواجه فهي ود، أو نصحته فهي ود، فالمشاعر الداخلية هي الحب، والظواهر المادية هي الود، فكل ودود محب وليس كل محب ودودا».

١- رواهُ ابنُ وهبٍ في «الجامع» (٢٢٢)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٩٨٦٥) مُختصَرًا، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٨٣٩٨)، وأبو الشَّيخ الأصبهانيُّ في «الفوائدِ» (١٣)، والسُّلميُّ في «آدابِ الصُّحبةِ» (٤٢)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٥٩.

البيان والبلاغة: قوله: (**يُصَفِّي لَكَ وُدَّ أَخِيكَ ثَلَاثٌ: أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ، وَأَنْ تَدْعُوَهُ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ، وَأَنْ تُوَسِّعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ**): في قوله: (**يصفِّي لك وُدَّ أخيك ثلاث**): استعمال الفعل (**يصفِّي**) بصيغة المضارع يفيد الدوام والاستمرار. وتقييده بالجارِّ والمجرور (**لك**) للفت انتباه المخاطَب وترغيبه في تحقيق المعنى المضمَّن في هذا الكلام. وتقديم المفعول على الفاعل للرعاية والاهتمام. وتنكير الفاعل (**ثلاث**) للتعظيم. وإبهامه الحاصل من حذف المعدود فيه تشويق للمخاطَب يحمل المخاطَب على الإصغاء؛ ليرتفع ما حصل في نفسه من إبهام. وفي قوله: (**أن تبدأ**) و(**أن تدعوه**) و(**أن توسِّع**): استعمل الأفعال المضارعة المسنَدة إلى المخاطَب لتقرير ترغيب المخاطب في تحقيق المعنى المضمَّن في هذا الكلام. وقوله: (**وَكَفَى بِالْمَرْءِ عيًّا أَنْ يَجِدَ عَلَى النَّاسِ فِيمَا يَأْتِي، وَأَنْ يَبْدُوَ لَهُ فِيهِمْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَأَنْ يُؤْذِيَهُ فِي الْمَجْلِسِ بِمَا لَا يَعْنِيهِ**): تقدَّم التعليق على مثل هذا النص عند شرح الأثر رقم ثلاثة وستمئة.

[٦٠٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الحِرْصِ عَلَى الصُّلْحِ بَيْنَ المُتَخَاصِمِينَ

«رُدُّوا الْخُصُومَ حَتَّى يَصْطَلِحُوا؛ فَإِنَّهُ أَبْرَأُ لِلصُّدُورِ، وَأَقَلُّ لِلْحُبَابِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الحُباب**): اسم للشيطان.

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه القضاة، يأمرهم بردِّ الخصوم حتى يصطلحوا فيما بينهم.

لطائف لغوية: سبق الحديث عن أفعل التفضيل ودلالاتها عن شرح النص رقم ثمانية وستين وثلاثمئة، فراجعه إذا أردت الاستزادة.

البيان والبلاغة: (**حتى**) في قوله: (**حتى يصطلحوا**) تفيد التعليل، وليست تفيد الغاية، فاصطلاح الخصوم هو علَّة الأمر بردِّهم. وبين (**الخصوم**) و(**يصطلحوا**) طباق، وهو طباق بين اسم وفعل. وفي قوله: (**فَإِنَّهُ أَبْرَأُ لِلصُّدُورِ وَأَقَلُّ لِلْحُبَابِ**): لم يقيِّد اسمَي التفضيل (**أبرأ**) و(**أقلُّ**)، ولم يذكر المفضول معهما؛ لإفادة المبالغة فيهما. ولم يذكر تمييز اسم التفضيل (**أقلُّ**) وتركه مبهمًا؛ لتذهب نفس السامع في تعيينه كلَّ مذهب، ولعلَّ التقدير: وأقل سعيًا للحُباب. وذكر الشيطان باسم (**الحُباب**) ولم يذكره باسمه المعروف؛ للفت انتباه السامع.

١- رواهُ ابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٦٩، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٣٣٤٩)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١١٣٦٠).

[٦٠٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
عَنْ صَلَاحِ الْأَئِمَّةِ

«إِنَّ النَّاس لَمْ يَزَالُوا مُسْتَقِيمِينَ، مَا اسْتَقَامَتْ لَهُمْ أَئِمَّتُهُمْ وَهُدَاتُهُمْ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا المكان ولا الزمان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا القول.

البيان والبلاغة: استعمل الجملة الاسمية في التعبير عن المعنى المراد؛ لتقرير ثبوت هذا المعنى، وأكَّد ثبوته بإدخال (**إنَّ**) على الجملة الاسمية. واستعمل الفعل (**يزالوا**) بصيغة المضارع؛ للدلالة على الاستمرار. واستعمل (**ما**) المصدرية الظرفية؛ لتقييد اتِّصاف اسم (**إنَّ**) بخبرها بتحقُّق المعنى المفهوم من جملة صلة (**ما**). وقدَّم الجارَّ والمجرور (**لهم**) على فاعل (**استقامت**)؛ للتخصيص. وقدَّم ذكر (**أئمَّتهم**) على ذكر (**هداتهم**)؛ لبيان الأهمية.

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ» ٣/ ٢٩٢، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٤٣.

[٦٠٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَنْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتُّهْمَةِ فَلَا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ، وَمَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتِ الْخِيَرَةُ فِي يَدِهِ. وَضَعْ أَمْرَ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِهِ، حَتَّى يَأْتِيَكَ مِنْهُ مَا يَغْلِبُكَ. وَمَا كَافَأْتَ مَنْ عَصَى اللهَ فِيكَ مِثْلَ أَنْ تُطِيعَ اللهَ فِيهِ. وَعَلَيْكَ بِصَالِحِ الْإِخْوَانِ، أَكْثِرِ اكْتِسَابَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ زَيْنٌ فِي الرَّخَاءِ، وَعُدَّةٌ عِنْدَ الْبَلَاءِ. وَلَا تَسَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ حَتَّى يَكُونَ؛ فَإِنَّ فِي مَا كَانَ شُغْلًا عَنْ مَا لَمْ يَكُنْ، وَلَا يَكُنْ كَلَامُكَ بِذْلَةً إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَشْتَهِيهِ وَيَتَّخِذُهُ غَنِيمَةً، وَلَا تَسْتَعِنْ عَلَى حَاجَتِكَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ نَجَاحَهَا، وَلَا تَسْتَشِرْ إِلَّا الَّذِينَ يَخَافُونَ اللهَ، وَلَا تَصْحَبِ الْفَاجِرَ فَتَعَلَّمَ مِنْ فُجُورِهِ، وَتَخَشَّعْ عِنْدَ الْقُبُورِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الخِيَرة**) في قوله: (**كانت الخيرة في يده**): قال صاحب مقاييس اللغة: «الخِيَرَةُ: الخِيارُ». و(**بِذْلَة**) في قوله: (**لا يكن كلامك بذلة**): قال ابن سيده في المحكم: «البَذْلُ: ضد المنع. بذَله يَبْذُلُه ويَبْذِلُه بذلا. وكلُّ من طابت نفسه بشيء فهو باذلٌ له. والابتذال ضدُّ الصيانة. **والبِذْلَة** والمِبذَلَة من الثياب: ما لا يصان».

١- رواهُ الزُّبيرُ بنُ بكَّارٍ في «الأخبارِ المُوفَّقيّاتِ» ص٣٢، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (٨٩)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّمتِ» (٧٤٧) مُختصرًا، وأبو طاهرٍ في «المُخلّصيّاتِ» (٣٠٣٧)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٧٩٩٢)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٥٩-٣٦٠، والسَّخاويُّ في «البلدانيَّاتِ» ص٢٥١.

مقتضى الحال: يوجه أمير المؤمنين ﵁ لمستمعه نصائح غالية في الدين والحياة، ويبدو أنها كانت ضمن إحدى خطب الفاروق ﵁.

البيان والبلاغة: هذا النَّص احتوى على جملة من الحِكَم والأمثال البليغة. فقوله: (**مَنْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتُّهَمَةِ فَلَا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ**): استعمل أسلوب الشرط للتخويف والتحذير. وفي قوله: (**من عرَّض نفسه**): تشخيص للنفس؛ فائدته حمل المخاطَب على تصوُّر المعنى. ومقتضى السياق أن يكون جواب الشرط: (أساء الناس به الظنَّ)، ولكنه عدل عن ذكر هذا الجواب إلى النهي عن الاعتراض عليه؛ إشارة إلى أن هذا الأمر نتيجة حتمية لفعل الشرط المذكور. واستعمال الاسم الوصول (**من**) يفيد العموم، أي أن الاتِّصاف بما تتضمَّنه صلة هذه الموصول محتمل من كل أحد، ومجيء الفعل في جملة الصلة بصيغة الماضي فيه تأكيد لوقوعه. وتقديم الجار والمجرور (**به**) على المفعول للتنبيه. وقوله: (**وَمَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتِ الْخِيَرَةُ فِي يَدِهِ**): مجيء فعل الشرط وجوابه فعلا ماضيا يفيد تأكيد تحقُّق الجواب عند تحقُّق شرطه. وتشبيه الخِيَرة بشيء محسوس يمكن الإمساك به وتحكُّم اليد به على سبيل الاستعارة = فائدته بيان الغاية في التحكُّم، وهذه الجملة كناية عن أنَّ مَن كتم سرَّه في عمل شيء ثم أراد أن يفعله كان له الخيار في فعله؛ لأنَّ الناس لم يطَّلعوا على هذا الفعل بعدُ فيُجبر على فعله. وقوله: (**وَضَعْ أَمْرَ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِهِ حَتَّى يَأْتِيَكَ مِنْهُ مَا يَغْلِبُكَ**): حرف الجرِّ (**على**) يفيد الاستعلاء المجازي. وفي قوله: (**أحسنِه**) حذف للمضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، والتقدير: أحسن احتمالاته. وفي قوله: (**حتى يأتيك منه ما يغلبك**): تشخيص للدليل الذي يؤكِّد سوء أمر من كان أمره محتملا، وذلك بوصف هذا الدليل بشيء يأتي ويغلب من حاول دفعه. واستعمال

(ما) الموصولة في التعبير عنه؛ لإبهامه وللتحرُّز من التصريح بذكر. وقوله: **(وَمَا كَافَأْتَ مَنْ عَصَى اللهَ فِيكَ مِثْلَ أَنْ تُطِيعَ اللهَ فِيهِ)**: تقدَّم الكلام على نحو هذه العبارة في الأثر رقم سبعة وتسعين. وقوله: **(وَعَلَيْكَ بِصَالِحِ الْإِخْوَانِ؛ أَكْثِرِ اكْتِسَابَهُمْ فَإِنَّهُمْ زَيْنٌ فِي الرَّخَاءِ، وَعُدَّةٌ عِنْدَ الْبَلَاءِ)**: استعمل اسم الفعل **(عليك)** لتأكيد معنى الأمر. وأضاف الصفة **(صالح)** إلى الموصوف **(الإخوان)**؛ لتقرير لصوق الصفة بالموصوف. وجملة **(أكثر اكتسابهم)** جاءت جوابا لسؤال مقدَّر ناتج من الجملة المتقدِّمة، وكأن السامع يسأل كيف يحقِّق هذا الأمر؟ ثمَّ علل هذا الجواب بقوله: **(فإنهم زين في الرخاء، وعدَّة عند البلاء)**؛ ليكون الأمر أدعى للاستجابة. وفي استعمال حرف الجرِّ **(في)** مع الرخاء واستعمال الظرف **(عند)** مع البلاء نكتة لطيفة؛ وذلك أنَّ حرف الجر **(في)** يفيد الظرفية، فيكون اعتبار صالح الإخوان زينا داخلا في جملة الرخاء، أما مع البلاء فليسوا داخلين فيه، بل هم عدَّة يكونون عند البلاء يستعان بهم عليه. وأصل الكلام: (فإنهم كالزَّين في الرخاء، وكالعدَّة عند البلاء)، فحذف أداة التشبيه فصار تشبيها بليغا. ونكَّر **(زين)** و**(عدَّة)** للتعظيم. وقوله: **(وَلَا تَسَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ حَتَّى يَكُونَ؛ فَإِنَّ فِي مَا كَانَ شُغْلًا عَنْ مَا لَمْ يَكُنْ)**: استعمال الاسم الموصول **(ما)** في المواضع الثلاثة لإفادة العموم. وتقديم الجار والمجرور **(في ما كان)** – الذي هو خبر **(إن)** – على اسمها **(شغلا)** للفت انتباه السامع إلى هذا الخبر وتقرير معناه في نفسه. وتنكير **(شغلا)** للتعظيم. وقوله: **(وَلَا يَكُنْ كَلَامُكَ بِذلَةً إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَشْتَهِيهِ وَيَتَّخِذُهُ غَنِيمَةً)**: النهي هنا للإرشاد، والقصر حقيقي تحقيقي. وفي قوله: **(يشتهي)** استعارة؛ إذ شبَّه الكلام بالطعام، ثم حذف المشبَّه به وترك شيئًا من لوازمه، وهو أنه يُشتهى، وذلك أن الطعام الشهي لا يُبذل لكلِّ أحد، وكذلك ينبغي أن يكون الكلام. وقوله: **(وَلَا تَسْتَعِنْ عَلَى حَاجَتِكَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ نَجَاحَهَا)**:

القصر هنا حقيقي تحقيقي كالذي قبله. وقوله: (**وَلَا تَسْتَشِرْ إِلَّا الَّذِينَ يَخَافُونَ اللهَ**): هنا عدل إلى استعمال الاسم الموصول (**الذين**) بعد أن استعمل في الجملتين السابقتين الاسم الموصول (**ما**) الذي يفيد العموم، وفي هذا العدول إشارة إلى أن الذين ينبغي استشارتهم أناس مخصوصون، لا عموم الناس. وقوله: (**وَلَا تَصْحَبِ الْفَاجِرَ فَتَعَلَّمَ مِنْ فُجُورِهِ**): (**أل**) في (**الفاجر**) لبيان لحقيقة، والفاء في (**فتعلَّم**) تفيد السببية، أي أن صحبة الفاجر سبب في تعلُّم الفجور منه. وقوله: (**وَتَخَشَّعْ عِنْدَ الْقُبُورِ**): الفعل (**تخشَّع**) جاء بصيغة (تفعَّل) للدلالة على معنى الطلب، أي: اطلب الخشوع عند القبور؛ لأنها تذكِّر بالموت، ويحتمل أنه أراد معنى التظاهر، أي: تظاهر بالخشوع عند القبور؛ فليس هذا المكان مكان تكبُّر وتجبُّر.

[٦١٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا يَسْتَعْمِلُ الْفَاجِرَ إِلَّا فَاجِرٌ، مَنِ اسْتَعْمَلَ فَاجِرًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ فَاجِرٌ؛ فَهُوَ فَاجِرٌ مِثْلُهُ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الفاجر**): اسم فاعل من الفعل (فجر). قال صاحب مقاييس اللغة: «الفاء والجيم والراء أصل واحد، وهو التفتح في الشيء. من ذلك الفَجْر: انفجار الظلمة عن الصبح. ومنه: انفجر الماء انفجارا: تفتح. والفُجرة: موضع تفتح الماء. ثم كثر هذا حتى صار الانبعاث والتفتح في المعاصي فجورا؛ ولذلك سمي الكذب فجورا. ثم كثر هذا حتى سمي كل مائل عن الحق فاجرا».

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين رضي الله عنه في شأن تولية واستعمال الفجرة، محذرًا الولاة من ذلك.

البيان والبلاغة: بدء الكلام بقول: (**لا يستعمل الفاجرَ إلا فاجرٌ**) فيه براعة استهلال؛ إذ فيه إشارة إلى مضمون الكلام. والقصر هنا ادِّعائي للتوبيخ والتحذير. ويدلُّ على أنَّ القصر ادِّعائي قولُه: (**من استعمل فاجرًا وهو يعلم أنه فاجر**)، فيخرج من حكم القصر من استعمل فاجرًا دون أن يعلم أنَّه فاجر. وفي تقديم المفعول على الفاعل إهانة للفاعل. وقوله: (**مَنِ اسْتَعْمَلَ فَاجِراً وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ فَاجِرٌ، فَهُوَ فَاجِرٌ**

١- رواهُ وكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ١/ ٦٩ و٣/ ٢٠٩.

مِثْلُهُ): الجملة الحالية (**وهو يعلم أنه فاجر**): قيد للشرط. ومجيء جواب الشرط جملة اسمية إشارة إلى ثبوت هذا الجواب عند تحقُّق الشرط مع القيد المذكور.

[٦١١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ رَأَى رَجُلا عَظِيمَ الْبَطْنِ

قَالَ: «مَا هَذَا؟» قَالَ: بَرَكَةُ اللهِ. فَقَالَ: «عَذَابٌ مِنَ اللهِ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب عمر رضي الله عنه رجلًا كبير البطن يفتخر بكبَر بطنه.

لطائف لغوية: ذكر الثعالبي في فقه اللغة، أوصاف البطن عند العرب، فقال: «الدَّحَل: عظمه. الحَبَن: خروجه. الثَّجَل: استرخاؤه. القَمَل: ضِخَمه. الضُّمور: لطافته. البَجَر: شُخوصه. التَّخَرخُر: اضطرابه من العِظَم».

البيان والبلاغة: الاستفهام في قوله: (**مَا هَذَا؟**) استفهام للإنكار والتوبيخ. واستعمال اسم الإشارة (**هذا**) للتحقير. وقوله: (**عَذَابٌ مِنَ اللهِ**): من باب التهكُّم؛ إذ إن المخاطب سمَّى كبر بطنه بركة، فبيَّن له عمر رضي الله عنه على سبيل التهكُّم أن هذا عذاب وليس بركة، وحذف المبتدأ؛ لكراهية ذكره، والتقدير: هذا عذاب.

١- رواهُ ابنُ الأعرابيِّ في «المعجمِ» (٦٩٠).

[٦١٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّمَا مَقَاطِعُ الْحُقُوقِ عِنْدَ الشُّرُوطِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه رجلا اشترطت عليه زوجه ألا يُخرجها من بيته.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب القصر بـ (**إنما**) لتقرير المعنى الذي سيتكلَّم عنه، وهذا القصر قصر إضافي لقلب ما يتوهَّمه المخاطَب، فظاهر حال المخاطَب أنه لا يعتبر ثبوت الحقوق بالشرط. وفي قوله: (**عند الشروط**): إيجاز بالحذف، والتقدير: عند وجود الشروط. وعبَّر عن ثبوت الحقوق بقوله: (**مقاطع الحقوق**)؛ إشارة إلى أن ثبوتها محقَّق مقطوع به.

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» تعليقًا، وسعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٦٦٢)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٦٧٠٦)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٤٤٣٨).

[٦١٣]
وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّا وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه أهمية الصبر وأثره في العيش.

البيان والبلاغة: وفي قوله: **(وجدنا)**: إشارة إلى أنَّه كان يبحث عن خير العيش في الدنيا حتى وجده. ومجيء هذا الفعل بصيغة الماضي؛ إشارة لتحقُّق وقوعه. واستعمال ضمير الجمع **(نا)** في **(وجدنا)** يدلُّ على أن هذا الأمر لا يختص به وحده، بل هو لكل من طلب خير العيش. والباء في **(بالصبر)** تفيد الإلصاق، والمعنى أن خير العيش إنما يكون إذا كان الصبر ملتصقا به.

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» تعليقًا، وابنُ المباركِ في «الزُّهدِ» (٦٣٠) و(٩٩٧)، ووكيعٌ في «الزُّهدِ» (١٩٨)، وأحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦١٢).

[٦١٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَوْ أُتِيتُ بِرَاحِلَتَيْنِ: رَاحِلَةِ شُكْرٍ، وَرَاحِلَة صَبْرٍ، لَمْ أُبَالِ أَيَّهُمَا رَكِبْتُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه فضل الشكر والصبر، وأنَّهما يستويان عنده في المنزلة.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب الاستعارة؛ لتقريب المعنى وتصويره في ذهن المخاطب، وذلك بتشبيه كل من الصبر والشكر بالراحلة، ومن اللطائف في اختيار هذه الاستعارة أن حال الإنسان في هذه الدنيا كحال المسافر، كما جاء في الحديث: «**مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[٢]، والمسافر يلزمه راحلة يستعين بها في سفره، ويقصد عمر رضي الله عنه براحلة الشكر: الشكر في السرَّاء، ويقصد براحلة الصبر: الصبر في الضَّرَّاء، والإنسان في هذه الدنيا متقلِّب بين هاتين الحالتين. وبنى الفعل (**أُتِيتُ**) للمفعول؛ لأن تعيين الفاعل لا يفيد. واستعمل أسلوب التفصيل بعد الإجمال لتشويق السامع، فأجمل ذكر الراحلتين، ثم فصَّل هذا الإجمال. وفي قوله: (**لم أبالِ أيَّهما ركبت**): ترشيح للاستعارة؛ لأن الركوب من

١- رواهُ المدائنيُّ في «التَّعازِي» (١٣٧)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّبرِ والثَّوابِ عليهِ» (٧) بلفظٍ آخرَ.

٢- رواه أحمد وأصحاب السنن.

لوازم المستعار منه. وقوله هذا كناية عن استواء حالتي الشكر في السرَّاء والصبر في الضَّرَّاء لديه.

[٦١٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ رَأَى عَلَى رَجُلٍ ثَوْبًا مُعَصْفَرًا

«دَعُوا هَذِهِ الْبَرَّاقَاتِ لِلنِّسَاءِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**البرَّاقات**): قال صاحب مقاييس اللغة: «وكلُّ شيء يتلألأ لونه فهو بارق يبرق بريقا».

مقتضى الحال: يعرِّض أمير المؤمنين رضي الله عنه برجل رآه يلبس ثوبا معصفَرا، ناهيا إياه عن لبسه.

البيان والبلاغة: استعمل اسم الإشارة (**هذه**) للتحقير. واستغنى بذكر الوصف (**البرَّاقات**) عن ذكر الموصوف (**الملابس**)؛ إشارة منه إلى أن علَّة أمره بترك هذه الملابس راجعة إلى الوصف الظاهر عليها لا إلى شيء في ذاتها.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٩٩٧٠).

[٦١٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي أَدَبِ الْمَشْيِ

«إِنَّ خَفْقَ[١] النِّعَالِ خَلْفَ الْأَحْمَقِ، قَلَّ مَا يُبْقِي مِنْ دِينِهِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**خفق النعال**): صوت المشي فيها. (**الأحمق**): قال صاحب الصحاح: «الحُمْقُ والحُمُقُ: قِلَّةُ العقل».

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين رضي الله عنه عن ضرر وخطورة اتباع الناس للحمقى وسيرهم خلفهم.

البيان والبلاغة: قوله: (**خفق النعال**): كناية عن الاتباع الأعمى. وفي قوله: (**خلف الأحمق**): استعمل هذا الوصف من باب التهكُّم؛ للتنفير من الوقوع في هذا الأمر، فسمَّى من يفرح باتباع الناس له أحمقَ. وقوله: (**قلَّ ما يُبقي من دينه**): احترس هنا من إطلاق الحكم بذهاب دين جميع من يفرح باتباع الناس له وتعظيمهم له بغير حقٍّ؛ فاستعمل - لتقييد الحكم - الفعلَ (**قلَّ ما**). وأدخل حرف الجر (**من**) على (**دينه**) ليفيد التبعيض.

١- الخَفْقُ: صوتُ النَّعلِ وما أشبَهَها مِن الأصواتِ. «لسان العرب» ١٠/ ٨٣.

٢- رواهُ أبو نعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ٩/ ١٢.

[٦١٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«الشِّتَاءُ[١] غَنِيمَةُ الْعَابِدِ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن منزلة فصل الشتاء عند العُبَّاد.

البيان والبلاغة: هذه العبارة فيها إيجاز قِصَر؛ فقد احتوت على كلمات ثلاث حملت الكثير من المعاني، فالمقصود بالشتاء: فصل الشتاء حين يطول الليل ويقصر النهار، وسمَّاه غنيمة؛ لأن العابد يغتنم طول الليل في القيام، وقصر النهار في الصيام. وهذا المعنى فُهم من إضافة الغنيمة إلى العابد، ويُفهم من هذه الإضافة أيضًا أن الشتاء غنيمة للعابد دون غيره. وفي الجملة قَصر بتعريف الطرفين، وهذا القصر ادِّعائي فائدته بيان حرص العابد على الأوقات التي تعينه على عبادته.

١- في نسخةِ «الزُّهدِ» للإمام أحمدَ المطبوعةِ: (الثَّناءُ).

٢- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٩٨٣٥)، والقاسمُ بنُ موسى في «جُزئِه» (١٦)، وأبو نعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥١ و٨/ ١٣٣ و٩/ ٢٠.

[٦١٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا يَغُرَّنَّكَ خُلُقُ امْرِئٍ حَتَّى يَغْضَبَ، وَلَا دِينُهُ حَتَّى يَطْمَعَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه الأمور التي تعرف بها حقيقة أخلاق المرء وتمسكه بدينه.

البيان والبلاغة: استعمل الدلالة العقلية؛ ليبيِّن للمخاطب كيف يحكم على خُلُق المرء ودينه، فنهى عن أن يغترَّ بخلق المرء حتى يغضب، ومفهوم هذا الكلام أن المرء إذا غضب بان خُلُقه على حقيقته. وكذا نهى عن أن يغترَّ بدِين المرء حتى يطمع، ومفهوم ذلك أن المرء إذا عُرضت عليه الدنيا فطمع فيها بانت حقيقة دِينه. وزيادة (**لا**) في (**ولا دينه**) لتأكيد النهي. وفي إسناد الاغترار إلى الخُلُق والدِّين مجاز عقلي، وأصل الكلام: (لا يغرَّنَّك امرؤ بخُلُقه حتى يغضب، ولا بدِينه حتى يطمع)، وفائدة هذا المجاز في الإسناد لفت انتباه السامع إلى ما يحصل فيه الاغترار عادةً؛ ليحذر من ذلك.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٣١.

[٦١٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَنِ اتَّجَرَ فِي شَيْءٍ ثَلَاثَ مِرَارٍ فَلَمْ يُصِبْ فِيهِ، فَلْيَتَحَوَّلْ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه جانبا من السياسة التي ينبغي أن يتبعها التاجر في تجارته.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَنِ اتَّجَرَ فِي شَيْءٍ ثَلَاثَ مِرَارٍ فَلَمْ يُصِبْ فِيهِ**): استعمل الفعل (**اتَّجر**) بصيغة (افتعل) لإفادة معنى التصرُّف باجتهاد ومبالغة، والمقصود أنَّ هذا التاجر بالغ في بذل الجهد في تجارته. واستعمل الجمع (**مِرارًا**) بصيغة (فِعَال)، وهذه الصيغة من صيغ جموع الكثرة، مع أن العدد (**ثلاثة**) الأصل أن تُستعمل له صيغة من صيغ جموع القلَّة، ومن أسرار هذا العدول إلى استعمال جمع الكثرة الإشارة إلى أن الاتِّجار في الشيء ثلاث مرات كثير عُرفًا. وحذف مفعول (**يُصِب**) ليعمَّ كلَّ ربح قلَّ أو كثر. وقوله: (**فَلْيَتَحَوَّلْ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ**): الأمر هنا أمر إرشاد وتوجيه لا أمر إلزام. وقيَّد الفعل (**يتحوَّل**) بالجارِّ والمجرور (**منه**) لتقرير ترك هذا الشيء الذي اتُّجر فيه.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (٢٣٤)، والدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٠١٣) و(٣٠٠٩).

[٦٢٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ لَقِيَ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «مَنْ أَنْتُمْ؟» قَالُوا: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ

فَقَالَ: «أَنْتُمُ الْمُتَوَاكِلُونَ. إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**المتواكلون**)، و(**المتوكل**): قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «تواكل القوم: اتَّكل بعضهم على بعض. والقوم فلانا: تركوه ولم يعينوه فيما داهمه. توكَّل الرجل بالأمر: ضمن القيام به وقبل الوكالة. وعلى الله: استسلم إليه. وفي الأمر: أظهر العَجز واعتمد على غَيره».

مقتضى الحال: ظهر من الرواية أن عمر رضي الله عنه قال هذا الكلام لأُناس من أهل اليمن يزعمون أنهم متوكلون فبين لهم حقيقة التوكل، ومَن هو المتوكل حقا.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَنْ أَنْتُمْ؟**): هذا الاستفهام استفهام تقريري. وقوله: (**أَنْتُمُ الْمُتَوَاكِلُونَ**): جاء بهذه الجملة خالية من المؤكِّدات مع أن المخاطَب يعتقد العكس؛ إشارة إلى أن هذا الأمر ظاهر بيِّن ليس بحاجة إلى توكيد. ثم استعمل أسلوب القصر فقال: (**إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ** -

---

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهِرِ العلمِ» (٣٠٢٧).

عَزَّ وَجَلَّ –): وهذا القصر قصر إضافي؛ لقلب ما في ذهن المخاطَبين، وهو قصر موصوف على صفة، إلا أن هذه الصفة – **الذي يلقي حبَّه في الأرض ويتوكَّل على الله** – أراد بها التمثيل، وإلقاء الحب في الأرض كناية عن الأخذ بالأسباب.

[٦٢١]

وَمِنْ كَلَام لَهُ
لِرَجُلٍ

«إِذَا اشْتَرَيْتَ بَعِيرًا فَاشْتَرِهِ عَظِيمَ الْخَلْقِ؛ إِنْ أَخْطَأَكَ خُبْرُهُ، لَمْ يُخْطِئْكَ سُوقُهُ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الْخُبر): العلم بالشيء، والخبرة به، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٩١].

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين رضي الله عنه رجلا مبينا له الصفات التي ينبغي أن يراعيها عند شراء بَعير.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِذَا اشْتَرَيْتَ بَعِيرًا فَاشْتَرِهِ عَظِيمَ الْخُلْقِ**): استعمل اسم الشرط (**إذا**) للدلالة على أن الغالب حصول فعل الشرط. وقوله: (**إِنْ أَخْطَأَكَ خُبْرُهُ لَمْ يُخْطِئْكَ سُوقُهُ**): هذه الجملة جواب لسؤال مقدَّر ناشئ عن الجملة السابقة، تقديره: لِمَ أشتريه عظيم الخَلق؟ وقد استعمل هنا حرف الشرط (**إن**) للتفاؤل بعدم وقوع فعل الشرط. وفي إسناد (**أخطأ**) إلى (**خُبر**) مجاز عقلي، وأصل الكلام: (إن أخطأه خُبرُك) ولكنه قلب الكلام؛ لظهور المعنى. وترك إسناد الخطأ إلى خُبْر المخاطب؛ تلطُّفا معه.

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهِرِ العلمِ» (٢٥١٣) و(٣٠٠٩).

[٦٢٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ أُتِيَ بِامْرَأَةٍ شَابَّةٍ زَوَّجُوهَا شَيْخًا كَبِيرًا، فَقَتَلَتْهُ

«يَا أَيُّهَا النَّاس، اتَّقُوا اللهَ، وَلْيَنْكِحِ الرَّجُلُ لُمَتَهُ مِنَ النِّسَاءِ، وَلْتَنْكِحِ الْمَرْأَةُ لُمَتَهَا مِنَ الرِّجَالِ»، يَعْنِي شِبْهَهَا[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**لُمَته**)، و(**لمتها**): قال صاحب تهذيب اللغة: «لُمَةُ الرَّجُل: مِثْلُه».

مقتضى الحال: قضية رفعت إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه في شأن امرأة شابة زوَّجها أهلها شيخا كبيرا فقتلته.

البيان والبلاغة: بدأ بجملة النداء (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**)؛ لتعميم الكلام الذي يريد أن يقوله، ثم أمر بالتقوى فقال: (**اتَّقُوا اللهَ**)؛ لينصاع كلُّ من يتَّقى الله إلى هذا الأمر الذي سيقوله، والذي عطفه على الأمر بالتقوى، وهو قوله: (**وَلْيَنْكِحِ الرَّجُلُ لُمَتَهُ مِنَ النِّسَاءِ، وَلْتَنْكِحِ الْمَرْأَةُ لُمَتَهَا مِنَ الرِّجَالِ**)، وفي هذا العطف تعظيم لذاك الأمر. و(**أل**) في (**الرجل**) و(**المرأة**) لبيان الحقيقة. وحرف الجر (**من**) في (**من النساء**) و(**من الرجال**) لبيان الجنس. وكان يمكنه الاكتفاء بقول: (**ولينكح الرجلُ لُمته من النساء**) ليدل بمنطوق هذه الجملة على مفهوم جملة (**ولتنكح المرأة لُمتها من الرجال**)، ولكنه أطنب بذكر الجملة الثانية؛ ليقرر المعنى ويؤكده.

١- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٨١٠)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٦٨.

[٦٢٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْعَطَاءِ

«إِذَا أَعْطَيْتُمُوهُمْ، فَأَغْنُوا»[١]، يَعْنِي مِنَ الصَّدَقَةِ.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذه وصية من وصايا أمير المؤمنين رضي الله عنه للقائمين على توزيع الصدقات والعطايا من عُمَّال وغيرهم.

البيان والبلاغة: استعمل أداة الشرط (**إذا**) لتأكيد وقوع فعل الشرط. وحذف المفعول الثاني من (**أعطيتموهم**) لإطلاق الفعل، وليشمل الحكم كلَّ عطيَّة. وحذف المفعول الثاني من (**فأغنوا**) للتعميم.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٧٢٨٦)، والقاسمُ بنُ سلَّام في «الأموالِ» (١٧٧٨)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٠٥٢٦)، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٢٢٧٢)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (٢٠٢)، والخرائطيُّ في «مكارمِ الأخلاقِ» (١٣٠)، والدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٠٩٠).

[٦٢٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْحُضِّ عَلَى الْعَمَلِ

«مَا خَلَقَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِيتَةً أَمُوتُهَا، بَعْدَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ رَحْلٍ، أَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ، أَبْتَغِي مِنْ فَضْلِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**شعبتي رحل**): قال صاحب المغرب في ترتيب المعرب: «(الشُّعْبَةُ): واحدة شُعَبِ الشجرة، وبها سُمِّي شعبةُ بن الحجاج بن الورد. ومنها **شُعْبَتا الرَّحْلِ**: شَرْخاه، وهما: قادِمَتُه وآخِرَتُه».

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه فضل العمل والسعي على الرزق.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا خَلَقَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِيتَةً أَمُوتُهَا بَعْدَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ رَحْلٍ**): تنكير (**مِيتة**) في سياق النفي يفيد العموم، ولكنه خصَّ هذا العموم بجملة (**أموتها**) الواقعة وصفًا لـ (**مِيتة**)، وهذه الجملة الفعلية التي فعلها مضارع فيها إشارة إلى أن الموت حاضر قائم به، وأنه قريب لا مفرَّ منه. وجملة (**بعد القتل في سبيل الله**) جملة اعتراضية فائدتها التنبيه على أن أعظم ميتة هي القتل في سبيل الله، وفيها تقرير أن هذه الميتة لشرفها لا تقارن بغيرها؛ فكل ميتة - وإن عظُمت - تكون بعد القتل في سبيل الله

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (٢٠٧).

في العِظَم والشرف. وقوله: (**أحب إلي من أن أموت بين شعبتي رحل**): استعمل المصدر المؤوَّل (**أن أموت**) بدلا من المصدر الصريح، لما في المصدر المؤوَّل من إسناد الفعل لنفسه، ففيه تصوير قيام هذا الحدث به، وهذا الأمر لا يظهر لو قال: (أحب إلي من الموت). وقوله: (**بين شعبتي رحل**): كناية عن العمل والأخذ بالأسباب في طلب الرزق، وقد وضَّح هذه الكناية بقوله: (**أَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ، أَبْتَغِي مِنْ فَضْلِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -**)؛ فجملة (**أضرب في الأرض**) تفسير للكناية. وجملة (**أبتغي من فضل الله**): جواب لسؤال محذوف، تقديره: لِمَ تضرب في الأرض؟ واستعمال الفعلين المضارعين (**أضرب**) و(**أبتغي**) فيه دلالة على استمرار وتجدُّد هذين الحدثين. وحذف مفعول (**أبتغي**) لئلَّا يتقيَّد الفعل بمفعول بعينه.

[٦٢٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الزُّهْدِ

«الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا رَاحَةٌ لِلْقَلْبِ وَالْجَسَدِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا الزمان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا القول وربما كان في إحدى مواعظه.

البيان والبلاغة: استعمل كلمة (**الزهادة**)؛ لأنها أعمُّ مِن (الزُّهد)، كما بيَّنا عند شرح النص رقم أربعة وثمانين وخمسمئة. فالزهادة تكون في الأمور كلِّها، والزهد يكون في أمور الدين خاصَّة. ولكون (**الزهادة**) عامَّة في كل شيء = قيَّدها بالجارِّ والمجرور (**في الدنيا**). وأخبر عن (**الزهادة**) بالمصدر (**راحة**)؛ لكون المصدر يشتمل على جميع أنواع الحدث الدال عليه، بخلاف الفعل والوصف. وقدَّم ذكر (**القلب**) على ذكر (**الجسد**) للرعاية والاهتمام.

١- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (٥٩٣)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الزُّهدِ» (٢١٧)، و«ذمِّ الدُّنيا» (١٥٥)، وابنُ الأعرابيِّ في «الزُّهدِ وصفةِ الزَّاهدينَ» (٥٢)، والبيهقيُّ في «شعبِ الإيمانِ» (١٠١٢٥).

[٦٢٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُقَصِّرًا فِي الْعَمَلِ؛ ابْتُلِيَ بِالْهَمِّ لِيُكَفِّرَ عَنْهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين رضي الله عنه عن جانب من الحكمة الإلهية في الابتلاء بالهمِّ، مبينا شيئًا من ذلك.

لطائف لغوية: قوله: **(الهَم)**: ما الفرق بين الهم والغم؟ قال أبو هلال العسكري في الفروق اللغوية: «**(الهم)** هو: الفِكر في إزالة المكروه، واجتلاب المحبوب. وليس هو من الغم في شيء؛ ألا ترى أنَّك تقول لصاحبك: أهتم بحاجتي، ولا يصح أن تقول: أغتم بها. و**(الغم)**: معنى ينقبض القلب معه، ويكون لوقوع ضرر قد كان، أو تَوَقُّع ضرر يكون أو يتوهمه. وقد سمي الحزن الذِي تطول مدته حتى يذيب البدن: هما، واشتقاقه من قولك: انهم الشحمُ، إذا ذاب، وهِمَّه: أذبه».

البيان والبلاغة: قوله: **(إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُقَصِّرًا فِي الْعَمَلِ)**: استعمل أداة الشرط **(إذا)** للدلالة على أنَّ احتمال وقوع فعل الشرط كبير. وقوله: **(في العمل)**: يقصد العبادة، ولم يصرِّح بذكرها؛ كراهة نسبة التقصير إلى الرجل فيها صراحةً، مع أنَّه أمر واقع. وقوله: **(ابْتُلِيَ بِالْهَمِّ لِيُكَفِّرَ عَنْهُ)**: فاعل الابتلاء هو الله – تعالى –، ولكنه ترك ذكر اسمه، وبنى الفعل **(ابتُلي)** للمفعول؛ تأدّبًا مع الله – تعالى –. وقوله: **(ليكفِّر عنه)**: حذف المفعول؛ لإطلاق الفعل فيعمَّ كل ذنب.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الهمِّ والحزنِ» (١٦٦).

[٦٢٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

« لَا يَنْبَغِي لِمَنْ أَخَذَ[١] بِالتَّقْوَى، وَوَزَنَ بِالْوَرَعِ، أَنْ يَذِلَّ لِصَاحِبِ الدُّنْيَا»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**الوَرَع**): قال صاحب تاج العروس: «وأصلُ الورعِ: الكفُّ عن المحارم، ثمَّ استُعِير للكفِّ عن الحلال والمباح».

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه أنَّ عزة أهل الإيمان لازم من لوازم ما عندهم من التقوى والورع.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه بقوله: (**لا ينبغي**)؛ تلطُّفا في النصح. وعدَّى الفعل (**أخذ**) بالباء؛ لتضمُّنه معنى (تمسَّك). وحذف مفعول (**وزن**)؛ لتذهب نفس السامع في تعيينه كلَّ مذهب، والتقدير: ووزن أفعاله بالورع، وفي هذا التعبير استعارة، بتشبيه الورع بميزان توزن به الأفعال. وقوله: (**أن يَذِلَّ لصاحب الدنيا**): كنَّى بصاحب الدنيا عن مَن كانت الدنيا أكبر همِّه، وفي هذه الكناية إشارة إلى حقيقة مَن كانت حاله كذلك.

١- في الأصل (أُخِذ بالتقوى، ووُزن بالورع) ببناء الفعلين للمفعول، والأظهر أنهما مبنيان للفاعل.

٢- ذكرهُ ابنُ الجوزيِّ في «المناقبِ» ص١٨١، وابنُ المَبْرِدِ الحنبليُّ في «محضِ الصَّوابِ» ٢/ ٦٧٧.

[٦٢٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِذَا كُنْتُ فِي مَنْزِلَةٍ تَسَعُنِي، وَتَعْجِزُ عَنِ النَّاس، فَوَاللهِ مَا تِلْكَ لِي بِمَنْزِلَةٍ، حَتَّى أَكُونَ أُسْوَةً لِلنَّاسِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين رضي الله عنه عن المنزِلة التي ينبغي أن يكون فيها - هو وأمثاله من الأمراء - مقارنة بحال الرعية وعموم الناس.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِذَا كُنْتُ فِي مَنْزِلَةٍ تَسَعُنِي وَتَعْجِزُ عَنِ النَّاسِ**): مجيء (**منزلة**) نكرة في سياق الشرط يفيد العموم، إلا أنَّ هذا العموم تقيَّد بالوصف (**تسعني وتعجز عن الناس**). وفي هذا الوصف تشخيص للمنزلة؛ لأن الوسع والعجز صفات للمحسوس، والمنزلة غير محسوسة، وفائدة هذا الوصف تصوير المعنى وتقريبه في الذهن. وقوله: (**فوالله مَا تِلْكَ لِي بِمَنْزِلَةٍ حَتَّى أَكُونَ أُسْوَةً لِلنَّاسِ**): جملة القسم (**والله**) اعتراضية بين فعل الشرط وجوابه؛ لتأكيد الجواب. ومجيء جواب الشرط (**ما تلك لي بمنزلة**) جملة اسمية = أفاد ثبوته. ودخول الباء على خبر (**ما**) في (**بمنزلة**)؛ لتأكيد نفي خبر (**ما**) عن اسمها. وتقديم الجار والمجرور (**لي**) على خبر (**ما**) للتخصيص. وقوله: (**حتى أكون أسوة للناس**): تضمَّن تعليل ما سبق ذكره.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢٠١، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧٤.

[٦٢٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّمَا مَثَلُ الْعَرَبِ مِثْلُ جَمَلٍ أَنِفٍ، اتَّبَعَ قَائِدَهُ، فَلْيَنْظُرْ قَائِدُهُ حَيْثُ يَقُودُ. فَأَمَّا أَنَا؛ فَوَرَبِّ الْكَعْبَةِ لَأَحْمِلَنَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**جَمَلٍ أَنِفٍ**): قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «(**الجَمَلُ الأَنِفُ**): أي المأنوف، وهو الذي عقر الخشاش أنفَه، فهو لا يمتنع على قائده للوجع الذي به. وقيل: الأَنِفُ: الذَّلول. يقال: أَنِف البعير يأنَف أَنَفا، فهو أَنِف: إذا اشتكى أنفه من الخشاش ...».

مقتضى الحال: يضرب أمير المؤمنين رضي الله عنه للعرب مثلا يبين جانبا من جوانب فطرتهم وأخلاقهم، وواجب الأمراء في سياسة هذه الأخلاق.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّمَا مَثَلُ الْعَرَبِ مِثْلُ جَمَلٍ أَنِفٍ اتَّبَعَ قَائِدَهُ**): شبَّه العرب بالجمل الأنِف في سهولة الانقياد، وساق هذا التشبيه بأسلوب القصر؛ لتأكيده. وهذا التشبيه جاء في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ حَيْثُمَا انْقِيدَ انْقَادَ**»[٢]. وقوله: (**فَلْيَنْظُرْ قَائِدُهُ حَيْثُ يَقُودُ**): هذا الكلام فيه ترشيح للتشبيه؛ لأن القائد يكون للجمل، والمقصود به هنا مَن يتولَّى أمر المؤمنين. وقيَّد الفعل (**فلينظر**) بالظرف (**حيث**) المضاف إلى جملة فعلية، فعلها مضارع (**يقود**)؛ ليكون الأمر

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣١٤٠)، والطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٣٣، وعنهُ ابنُ الأثيرِ في «الكاملِ» ٢/ ٢٦٨.

٢- رواه أحمد وابن ماجه، ومرّ مثل هذا التشبيه من كلام عمر رضي الله عنه في الأثر رقم عشرين.

بالنظر والانتباه مستمرًّا مع القيادة. وحذف مفعول (**يقود**) للتعميم. وقوله: (**فَأَمَّا أَنَا فَوَرَبِّ الْكَعْبَةِ لَأَحْمِلَنَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ**): استعمل (**أمَّا**) للتنبيه؛ للفت انتباه السامع إلى ما سيقول، وأشار إلى أهمية ما سيقول بالقسم (**فوربِّ الكعبة**). وفي قوله: (**لأحملنَّهم على الطريق**): حذف صفة (**الطريق**) لتذهب نفس السامع في تعيينها كلَّ مذهب، والمراد: (الطريق القويم). وأكَّد كلامه باللام والنون المشددة الداخلَين على الفعل المضارع.

[٦٣٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، وَابْنٍ لَهُ ضَرَبَ مِصْرِيًّا فِي سِبَاقٍ

«مُذْ كَمْ[١] تَعَبَّدْتُمُ النَّاس، وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَارًا؟!»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يسأل أمير المؤمنين رضي الله عنه عامله على مصر - وهو الصحابيُّ الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه سؤالا، مستنكرا عليه إهانة ابنه لأحد المصريين بغير حق.

البيان والبلاغة: الاستفهام في هذه العبارة استفهام إنكاري توبيخي. وقوله: **(تعبَّدتم)**: استعمل الفعل بصيغة (تفعَّل) للدلالة على الاتِّخاذ، والقصود: اتّخذتموهم عبيدًا. وجملة **(وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَارًا)**: جملة حالية، فائدتها بيان إنكار وقوع الفعل، لوجود تضاد بين **(تعبدتم)** و**(أحرارًا)**.

١- المشهورُ عندَ العامَّةِ: «مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاس»، والمرويُّ هو ما أثبتُّه بالأصلِ.

٢- رواهُ ابنُ عبدِ الحكمِ في «فتوحِ مصرَ والمغربِ» ص١٩٥.

[٦٣١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي التَّرَاحُمِ وَالتَّوْبَةِ

«لَا يُرْحَمُ مَنْ لَا يَرْحَمُ، وَلَا يُغْفَرُ لِمَنْ لَا يَغْفِرُ، وَلَا يُوقى مَنْ لَا يَتَوَقَّى، وَلَا يُتَابُ عَلَى مَنْ لَمْ يَتُبْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يعِظُ أمير المؤمنين رضي الله عنه مستمعيه، مبيِّنا لهم جوانب هامة تتعلق بفقه التعمل مع الخلق ومع الخالق - سبحانه وتعالى -.

البيان والبلاغة: يتَّسم هذا النص بإيجاز العبارة مع عظم المعاني التي يدل عليها، وهي جمل متناسقة في الوزن الطول، مما يسهِّل حفظها وضبطها لتظل عالقة في ذهن السامع. والجملة الأولى: (**لا يُرحم من لا يرحم**) مقتبسة من قول النبي ﷺ: «**مَن لا يَرحَمْ لا يُرحَم**»[٢]. والأفعال: (**لا يُرحم**) و(**لا يُغفر**) و(**لا يوقى**) و(**لا يتاب**): مبنية للمفعول، ولم يُصرِّح بنسبتها لله - تعالى - مع أنَّه فاعلها؛ تأدّبًا معه - سبحانه وتعالى - ولتمام علم السامع بذلك، مع أن نفيها عنه - هنا - مقيَّد بمن وقع منه مثل ذلك، من باب كون الجزاء من جنس العمل، وليس نفيا مطلقا. والأفعال (**لا يَرحم**) و(**لا يَغفر**) و(**لا يوقى**) و(**لا يتَّقي**) و(**لم يتُب**): غير مقيَّدة بمفعول أو جار ومجرور؛ ليكون الكلام أبلغ في التخويف والزجر، وتقدير الكلام: لا يُرحمُ من لا يَرحمُ الناسَ، ولا يُغفَر لمن لا يَغفِر لهم، ولا يُوقى العذابَ من لا يتوقَّاه، ولا يُتاب على من لم يتُبْ من ذنبه.

١- رواهُ الضَّبِّيُّ في «الدُّعاءِ» (١٤٧)، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٣٧٢)، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (٨٨)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٢٥ واللَّفظُ لهُ.

٢- متَّفق عليه.

[٦٣٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
لِأَبِي الدَّرْدَاءِ

«إِنَّ مِنْ فِقْهِكَ رِفْقَكَ فِي مَعِيشَتِكَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أبا الدرداء رضي الله عنه، يطلب منه أن يرفق بنفسه في معيشته.

البيان والبلاغة: تقديم خبر (**إنَّ**) – وهو قوله: (**من فقهك**) – فيه تشويق للسامع ليعرف اسم (**إنَّ**) الذي يتعلَّق به هذا الخبر. ولكون الخبر معلومًا مستقرًّا في ذهن المخاطَب قدَّمه على المبتدأ؛ ليُلزم به المخاطَب. وحرف الجر (**من**) يفيد السببية، والمعنى المراد: أنَّ فقه الإنسان يُلزمه في أن يكون سببًا في رفقه في معيشته. وبين (**فقهك**) و(**رفقك**) جناس ناقص.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٢٦.

[٦٣٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«رَحِمَ اللهُ مَنْ قَدَّمَ فَضْلَ الْمَالِ، وَأَمْسَكَ فَضْلَ الْكَلَامِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يدعو أمير المؤمنين رضي الله عنه لمن تخلَّق بالجود وعِفة اللسان، حاثا مستمعيه على ذلك.

البيان والبلاغة: جملة (**رحم الله**): طلبية دعائية في صورة الخبرية. وقوله: (**قدَّم فضل المال**): كناية عن بذل الزكاة والصدقة. وقوله: (**أمسك فضل الكلام**): كناية عن ترك الكلام في ما لا فائدة فيه. وبين (**قدَّم**) و(**أمسك**) طباق. وكان مقتضى الظاهر أن يطابق بين (قدَّم) و(أخَّر)، لكنه عدل عن الفعل (**أخَّر**) إلى الفعل (**أمسك**)؛ لأنه أوفى بتأدية المعنى المطلوب؛ فالمرء يُمدح إن أمسك عن فضول الكلام لا إن أخَّره.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٦٣.

[٦٣٤]
وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«الرَّأْيُ كَثِيرٌ، وَالْحَزْمُ قَلِيلٌ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه جانبا من طبائع الخلق؛ وهو: أنَّ الرأي فيهم كثير، بينما الحزم في العمل بصالح الآراء قليل.

البيان والبلاغة: استعمل في هذا النص الموجز أسلوب المقابلة، فقابل بين (**الرأي كثير**) و(**الحزم قليل**)، وهذه المقابلة تبين حال أكثر الناس، في كثرة آرائها وقلَّة أفعالها، مع أن المطلوب هو عكس ذلك. و(**أل**) في (**الرأي**) و(**الحزم**) للعهد الذهني، والمقصود هو: رأي الناس وحزمهم.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٣١.

[٦٣٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«عَجِبْتُ لِتَاجِرِ هَجَرَ، وَرَاكِبِ الْبَحْرِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**هَجَر**): منطقة في البحرين، معروفة بكثرة وبائها.

مقتضى الحال: يتعجَّب أمير المؤمنين رضي الله عنه لمن يُعرِّض نفسه للهلكة، ضاربا لذلك مثلين من واقع الناس حوله.

البيان والبلاغة: جمع عمر رضي الله عنه بين تاجر هَجَر وراكب البحر؛ لاشتراكهما في التعرُّض للمخاطر والأهوال، فذكر أنه عجب منهما، وترك ذكر سبب تعجُّبه؛ ليبحث السامع عن السبب، فإنَّه إن وجده استقرَّ في ذهنه. ولذلك، ففي الجملة إيجازُ قِصَر واضح.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠١٦٣).

[٦٣٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«قَدْ أَفْلَحَ مَنْ عُصِمَ مِنَ الْهَوَى وَالطَّمَعِ وَالْغَضَبِ، وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ الصِّدْقِ مِنَ الْحَدِيثِ خَيْرٌ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يرغِّب أمير المؤمنين رضي الله عنه مستمعيه في بعض الأخلاق ويحذِّرهم أخرى.

البيان والبلاغة: قوله: (**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ عُصِمَ مِنَ الْهَوَى وَالطَّمَعِ وَالْغَضَبِ**): استعمل الفعل (**أفلح**) وأدخل عليه (**قد**)؛ لتأكيد ثبوت هذا الحدث. وبنى الفعل (**عُصِم**) للمفعول؛ لكمال العلم بالفاعل، وهو الله - تعالى -. وقدَّم ذكر (**الهوى**) على (**الطمع**) و(**الغضب**) للأهمية. ووجه تخصيص هذه الثلاثة بالذكر دون غيرها هو: أن ميل النفس إلى فعل معصية من المعاصي يكون بسبب وجود واحد من هذه الثلاثة فيها. وقوله: (**وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ الصِّدْقِ مِنَ الْحَدِيثِ خَيْرٌ**): استعمل الفعل (**ليس**) لتأكيد النفي. واستعمل الاسم الموصول (**ما**) لإفادة العموم، ولكن هذا العموم مقيَّد بأنواع الحديث؛ فالاسم الموصول (**ما**) مقيَّد بالجارِّ والمجرور (**من الحديث**). وحرف الجر (**من**) يفيد بيان الجنس. و(**الصدق**) مصدر أُريد به الوصف من باب المبالغة، والموصوف محذوف دلَّ عليه السياق، والتقدير: ليس فيما دون

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٢٠٤).

الحديث الصدق من أنواع الحديث خيرٌ. وتقديم خبر (**ليس**) على اسمها لتشويق السامع. وتنكير المبتدأ (**خير**) لإفادة العموم، أي: ليس فيها دون ذلك أيُّ خير.

[٦٣٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«يَا بَنِي السَّائِبِ، إِنَّكُمْ قَدْ أَضْوَيْتُمْ؛ فَانْكِحُوا فِي النَّزَائِعِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**أضويتم**): الضَّوى: الهُزال، وغلامٌ ضاوي: مهزول. وكانت العرب تقول: إذا تقارب نسب الأبوين جاء الولد ضاويًّا، فمعنى (**أضويتم**): أنجبتم المهزولين. وقوله: (**فانكحوا في النزائع**): النزائع من النساء: اللواتي يُزوَّجن في غير عشائرهن، وكلُّ غريب: نزيع.

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين رضي الله عنه بعض رعيته - وهم بنو السائب - أن يتزوجوا من غير عشيرتهم؛ تجنبا لإنجاب المهزولين.

البيان والبلاغة: بدأ بنداء المخاطبين فقال: (**يَا بَنِي السَّائِبِ**)؛ وذلك للفت انتباههم إلى ما سيقول، ولتخصيصهم بهذا الكلام. وقوله: (**إِنَّكُمْ قَدْ أَضْوَيْتُمْ**): نزَّل المخاطَبين منزلة المنكرين، فأكَّد لهم الكلام بالعديد من المؤكِّدات: فأتى به في صورة الجملة الاسمية، وأدخل عليها (**إنَّ**)، وجعل خبرها فعلا ماضيًا (**أضويتم**) وأدخل عليه (**قد**). وسبب توكيد الكلام وتنزيل المخاطَبين منزلة المنكرين: هو إصرارهم على فعلهم مع علمهم بما يترتَّب عليه، وكأنهم لهذا الإصرار صاروا كالمنكرين لما يترتَّب عليه. وقوله: (**فَانْكِحُوا فِي النَّزَائِعِ**): فعل الأمر (**انكحوا**)

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٣٣٥٤).

للإرشاد والتوجيه، وقد قيَّده بحرف الجر (في) الذي يفيد الظرفية؛ لجعل المجرور (**النزائع**) ظرفًا يُمتثل فيه هذا الفعل.

[٦٣٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ مَرَّ بِصِبْيَانٍ يَلْعَبُونَ بِالتُّرَابِ

«التُّرَابُ رَبِيعُ الصِّبْيَانِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**رَبِيْع**): لفظ الرَّبيع مشترك بين عددٍ من المعاني، يصلح منها - هنا - غير واحد؛ مثل: الفصل المعروف الذي يكون بعد الشتاء، والنهر الصغير.

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه منزلة اللعب بالتراب عند الصبيان.

لطائف لغوية: قول: (**الصِّبيان**): سبق عند شرح النص رقم واحد وخمسمئة بيان معنى الغلام والصبي، والفرق بينهما، فراجعه غير مأمور.

البيان والبلاغة: شبَّه التراب حين يلعب به الصبيان بالربيع حين ترتع فيه البهائم، فلا ينبغي منعهم، وهذا تشبيه تمثيلي.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٨١، وقد رَوى الطَّبرانيُّ في «المعجمِ الكبيرِ» مثلَه عنِ النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّم -، وعُدَّ مِن الموضوعاتِ.

[٦٣٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا أَخَافُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ مُؤْمِنٍ يَنْهَاهُ إِيمَانُهُ، وَلَا مِنْ فَاسِقٍ بَيِّنٍ فِسْقُهُ، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْهَا رَجُلًا قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى أَزْلَفَهُ بِلِسَانِهِ، ثُمَّ تَأَوَّلَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(أزلَفه)**: المشهور في **(أزلَف)**: أنه بمعنى قدَّم وقرَّب. وله معنى آخر، هو أليق - هنا -؛ وهو: جمع، كما جاء في مادة «زلف»، من لسان العرب.

مقتضى الحال: يبُثُّ أمير المؤمنين رضي الله عنه بعض همِّه الذي يحمله إشفاقا على هذه الأمة، مبيِّنا ومعظِّما خطر المنافقين عليها.

البيان والبلاغة: استعمل في هذا النص أسلوب التقسيم؛ فقسَّم أبناء الأمة إلى ثلاثة أقسام: مؤمن، وفاسق، وثالث عرف القرآن إلا أنه أوَّله على غير تأويله. وقد بدأ عمر رضي الله عنه كلامه بالنفي ليبيِّن انتفاء خوفه على الأمة من القسمين الأول والثاني، وإنما خوفه من القسم الثالث. وتأخير القسم الثالث الذي يخاف عمر رضي الله عنه على الأمة منه فيه تشويق للسامع. وهذا النفي مع استعمال حرف الاستدراك **(لكن)** يفيد القصر، والقصر هنا ادِّعائي؛ لبيان عظم خطر صاحب القرآن الذي يتأوَّله على غير تأويله. واستعمال اسم الإشارة **(هذه)** لتعظيم المشار إليه. ووصف المؤمن

١- رواهُ ابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (٢٣٦٨).

بالجملة الفعلية (**ينهاه إيمانه**) فيه إشارة إلى تجدُّد واستمرار هذا الوصف، وفي إسناد النهي إلى الإيمان تشخيص للإيمان. ووصف الفاسق بالصفة المشبَّهة (**بيِّن فسقه**): إشارة إلى لزوم وثبات هذه الصفة فيه. وقوله: (**وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْهَا رَجُلًا قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى أَزْلَفَهُ بِلِسَانِهِ، ثُمَّ تَأَوَّلَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ**): تنكير (**رجل**) ثم وصفه بجملة (**قد قرأ القرآن**)؛ إشارة إلى أنه لظهور هذه الصفة فيه كأن ليس فيه غيرها. وكون هذه الجملة فعلية فعلها ماض مسبوق بـ (**قد**): فيه إشارة إلى تحقُّق هذه الصفة فيه. وقوله: (**حتى أزلفه بلسانه**): كناية عن إتقان الرجل في قراءة القرآن.

[٦٤٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«السُّنَّةُ مَا سَنَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، لَا تَجْعَلُوا خَطَأَ الرَّأْيِ سُنَّةً لِلْأُمَّةِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه معنى السنة، وينهى عن إقحام الآراء فيها.

البيان والبلاغة: قوله: (**السُّنَّةُ مَا سَنَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**): في هذه الجملة قَصْر بتعريف طرفي الإسناد. واستعمال الاسم الموصول (**ما**) لإفادة العموم، وقد قرَّر مضمون هذه الجملة؛ ليكون النهي بعدها أبلغ وأدعى للامتثال. وقوله: (**لَا تَجْعَلُوا خَطَأَ الرَّأْيِ سُنَّةً لِلْأُمَّةِ**): إضافة (**الخطأ**) إلى الرأي من باب إضافة المصدر إلى المفعول، ولم يضف هذا المصدر إلى الفاعل؛ لأن الحكم لا يتغيَّر بتغيُّر الفاعل.

١- رواهُ ابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (٢٠١٤).

[٦٤١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَمَوْتُ أَلْفِ عَابِدٍ قَائِمِ اللَّيْلِ صَائِمِ النَّهَارِ، أَهْوَنُ مِنْ مَوْتِ عَاقِلٍ عَقَلَ عَنِ اللهِ أَمْرَهُ، فَعَلِمَ مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُ وَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِ، فَانْتَفَعَ بِعِلْمِهِ، وَانْتَفَعَ النَّاسُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَزِيدُ عَلَى الْفَرَائِضِ الَّتِي فَرَضَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَيْهِ كَثِيرَ زِيَادَةٍ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه فضل العالم على العابد، ومصيبة الأمة في فقد علمائها.

لطائف لغوية: قوله: (**قائمِ الليل صائمِ النَّهار**)، بالإضافة في الموضعين: جاء في بعض الروايات بإعمال اسم الفاعل ونصب ما بعده. واسم الفاعل يعمل عمل الفعل - بغير شرط - إذا دخلت عليه (أل)، أما إذا تجرد من (أل) عمل بشرطين: الأول: أن يكون بمعنى الحال أو الاستقبال. والثاني: أن يعتمد على واحد أو أكثر من أمور خمسة؛ هي: النفي، نحو: (ما قاطع بكر رحمه). والاستفهام، نحو: (هل أنت سامع قول الخطيب؟). واسم وقع مخبرا عنه به، نحو: (بلال متحدث أبوه). وموصوف، نحو: ﴿إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ في قراءة عامة السبعة غير عاصم. واسم يكون هو حالا له، نحو: (يشير خالد على صديقه مُلفتا نظره إلى شيء).

١- رواهُ الحارثُ في «مُسنَدِه» كما في «بغيةِ الباحثِ» (٨٤٢)، و«إتحافِ الخيرةِ» (٥٢٤١)، و«المطالبِ العاليةِ» (٣٣٠٩).

البيان والبلاغة: قوله: (**لَمَوْتُ أَلْفِ عَابِدٍ قَائِمِ اللَّيْلَ صَائِمِ النَّهَارَ أَهْوَنُ مِنْ مَوْتِ عَاقِلٍ عَقَلَ عَنِ اللهِ أَمْرَهُ**): هذا التفضيل ورد ما يؤكِّده في قول النبي ﷺ: «**وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ**»[1]. وقوله: (**لَموت**): أدخل لام الابتداء على المبتدأ؛ لتأكيد اتِّصافه بالخبر. وتنكير (**عابد**) و(**عاقل**)؛ لقصد عدم التعيين. وإعمال اسم الفاعل وترك الإضافة في رواية: (**قائمٍ الليلَ صائمٍ النهارَ**): يفيد الاستمرار والمداومة على الحدث. وتقديم الوصف (**قائم الليل**) على الوصف (**صائم النهار**)؛ للرعاية والاهتمام. وقوله: (**فَعَلِمَ مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُ وَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِ**): استعمل الاسم الموصول (**ما**) في الموضعين؛ لإفادة العموم. وأضمر فاعل (**حرَّم**) وجعل مرجعه فاعل (**أحل**)؛ لتقرير أن فاعل (أحلَّ) وفاعل (حرَّم) واحد. وبين (**أحلَّ الله له**) و(**حرم عليه**) مقابلة.

وقوله: (**فَانْتَفَعَ بِعِلْمِهِ وَانْتَفَعَ النَّاسُ بِهِ**): الضمير في (به) يحتمل الرجوع إلى العاقل ويحتمل الرجوع إلى علمه، والمعنيان متلازمان. وقوله: (**وَإِنْ كَانَ لَا يَزِيدُ عَلَى الْفَرَائِضِ الَّتِي فَرَضَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَيْهِ كَثِيرَ زِيَادَةٍ**): هذه الجملة فيها إطناب بالتتميم. وتقديم الجار ومجروره وصفته - في قوله: (**على الفرائض التي ...**) - على المفعول (**كثير زيادة**)؛ للفت انتباه السامع إليها. ووصف الفرائض بالاسم الموصول (**التي فرض الله**) لتعظيمها.

١- رواه أهل السنن.

[٦٤٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ، وَعَلِّمُوهُ النَّاسَ، وَتَعَلَّمُوا لَهُ الْوَقَارَ وَالسَّكِينَةَ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمْتُمْ مِنْهُ وَلِمَنْ عَلَّمْتُمُوهُ، وَلَا تَكُونُوا جَبَابِرَةَ الْعُلَمَاءِ، فَلَا يُقَوَّمَ جَهْلُكُمْ بِعِلْمِكُمْ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين رضي الله عنه بتعلُّم العلم والتخلق بأخلاقه.

البيان والبلاغة: سبق التعليق على أثر مشابه لهذا، وهو الأثر رقم ثمانية وتسعين وخمسمئة.

١- رواهُ البيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (١٦٥١)، و«المدخلِ إلى السُّنَنِ الكُبرَى» (٦٢٩)، وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (٨٩٣) واللَّفظُ له.

[٦٤٣]
وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
فِي الْحَيَاءِ

«إِنَّ الْحَيَاءَ لَيَدُلُّ عَلَى هَنَاتٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ، مَنِ اسْتَحْيَا اسْتَخْفَى، وَمَنِ اسْتَخْفَى اتَّقَى، وَمَنِ اتَّقَى وُقِيَ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (هنات): كلمة يُكنى بها، وهي - هنا - بمعنى: خصال.

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين رضي الله عنه عن الحياء وفضله ودلالته.

البيان والبلاغة: قوله: **(إِنَّ الْحَيَاءَ لَيَدُلُّ عَلَى هَنَاتٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ)**: جعل خبر (إنَّ) جملة فعلية فعلها مضارع للدلالة على الاستمرار والتجدُّد. وأدخل اللام على الفعل الواقع خبرًا لـ (إنَّ) لتأكيد اتِّصاف اسمها به. وهذه الجملة فيها إبهام حاصل من ذكر الهنات التي يدل عليها الحياء من غير بيانها، وهذا الإبهام يشوِّق السامع لمعرفة حقيقة هذه الهنات، فرفع هذا الإبهام بجملة تفسيرية جاء فيها أسلوب اقتباس أوائل اللاحق من أواخر السابق، والذي يُعرف أيضًا بتشابه الأطراف، فقال: **(مَنِ اسْتَحْيَا اسْتَخْفَى، وَمَنِ اسْتَخْفَى اتَّقَى، وَمَنِ اتَّقَى وُقِيَ)**: فهذه الجمل المتعاطفة أول اللاحق منها مقتبس من آخر السابق، وهذا الأسلوب فيه ربط بين الجمل وتدرج في إيصال المعلومة للسامع، مما يجعل الكلام يقر في نفسه. وهذا الأسلوب وارد في

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «مكارمِ الأخلاقِ» (٩٤).

القرآن الكريم وفي كلام النبي ﷺ؛ فمن أمثلة القرآن عليه قوله - تعالى -: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾[1]، ومما ورد منه في الحديث النبوي قوله ﷺ: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ ...، وإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّار ...**»[2].

١- سورة النور (الآية:٣٥).

٢- متفق عليه.

[٦٤٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَيْسَ الْوَصْلُ أَنْ تَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ، ذَلِكَ الْقِصَاصُ، وَلَكِنَّ الْوَصْلَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين رضي الله عنه عن حقيقة الوصل، الذي يندرج تحته صلة الأرحام وغيرها.

البيان والبلاغة: أراد أن يقرِّر المعنى الصحيح للوصل بين الناس، فبدأ بنفي ما هو مشاهد في الناس على أنه وصل، فقال: (**لَيْسَ الْوَصْلُ أَنْ تَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ**)، والابتداء بهذا النفي يحفِّز السامع على الإصغاء ليعرف تتمَّة الكلام. وقوله: (**ذَلِكَ الْقِصَاصُ**): هذه الجملة فيها تعليل للنفي الوارد في الجملة السابقة. وفي استعمال اسم الإشارة (**ذلك**) تعيين للمشار إليه، وطلب لاستحضاره في ذهن السامع. والتعبير بالقصاص عن المخبر عنه فيه تنفير منه، وإن كان المعنى اللغوي للقصاص محتملا له، وذلك أنَّه استقرَّ في أذهان الناس المعنى الشرعي للقصاص، فاستعماله - هنا - فيه تشبيه حال من يقتصر على وصل من وصله بحال من يقتص ممَّن اعتدى عليه. وقوله: (**وَلَكِنَّ الْوَصْلَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ**): ذكر هنا ما أراد تقريره من المعنى الصحيح للوصل. والنفي في أول الكلام مع حرف الاستدراك (**لكن**) في

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٩٦٢٩) و(٢٠٢٣٢).

هذه الجملة يفيد القصر، وهو - هنا - قصر قلب؛ لأن فيه قلبًا للمعنى الذي عليه حال أكثر الناس وإن لم يصرِّحوا به. وفي قوله: (**أن تصل من قطعك**): عدل عن استعمال المصدر الصريح (**وصل**) إلى استعمال المصدر المنسبك من (**أن**) والفعل المضارع (**تصل**) من أجل إسناد الفعل للمخاطب؛ ليتصوَّر المخاطبُ قيام هذا الفعل في نفسه، فيمتثل له. وقوله: (**قطعك**): استعمل الفعل الماضي لتقرير معنى الوصل واتساع معناه، حتَّى أنه يشمل وصل من ثبت واستقرَّ منه القطع.

[٦٤٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي التَّقْوَى

«لَا يَغُرَّنَّكُمْ صَلَاةُ امْرِئٍ، وَلَا صِيَامُهُ، وَلَكِنِ انْظُرُوا مَنْ إِذَا حَدَّثَ صَدَقَ، وَإِذَا ائْتُمِنَ أَدَّى، وَإِذَا أَشْفَى وَرِعَ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**أشفى**): سبق بيان معناها عند شرح النص رقم خمسة وستين وخمسمئة.

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين ﷺ الطريقة المُثلى لمعرفة أخلاق المرء، وينهى عن الاغترار بالظاهر المتبادر من عباداته.

البيان والبلاغة: سبق التعليق على مثل هذا الأثر في الأثرين خمسة وستين وخمسمئة، وتسعة وسبعين وخمسمئة.

١- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (١٠١٠)، وابنُ وهبٍ في «الجامع» (٥٢٦)، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (٦٦)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٤٥٤٦) و(٤٨٩٨)، و«السُّنَنِ الكُبرى» (١٢٦٩٣).

[٦٤٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا أُبَالِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحْتُ: عَلَى مَا أُحِبُّ، أَوْ عَلَى مَا أَكْرَهُ؛ لِأَنِّي لَا أَدْرِي الْخَيْرَ: فِيمَا أُحِبُّ، أَوْ فِيمَا أَكْرَهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يشرح أمير المؤمنين رضي الله عنه نظرته للأمور، وتسليمه التام لقدر الله – سبحانه وتعالى – معللا ذلك بقصور علمه وسعة علم خالقه – سبحانه وبحمده–.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا أُبَالِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحْتُ، عَلَى مَا أُحِبُّ أَوْ عَلَى مَا أَكْرَهُ**): جاء بالفعل (**أبالي**) بصيغة المضارع مسبوقًا بنفي؛ لإفادة أنه مستمر على هذا الأمر. واستعمل الاسم الموصول (**أي**) لإفادة الإبهام، ثم وضَّح هذ الإبهام بأسلوب البدل فقال: (**على ما أحب أو على ما أكره**)، وهذا الإيضاح بعد الإبهام فيه تقرير للمعنى في نفس المتلقِّي. وقوله: (**لِأَنِّي لَا أَدْرِي الْخَيْرَ: فِيمَا أُحِبُّ أَوْ فِيمَا أَكْرَهُ**): أتى بهذه الجملة لتعليل ما قرَّره قبلُ، لإقناع السامع بما قرَّره. ومجيء الفعل (**أدري**) بصيغة المضارع مسبوقًا بـ(**لا**) النافية يفيد استمرار انتفاء الحدث. وحرف الجر (**في**) في الموضعين يفيد الظرفية المجازية.

١- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (٤٢٥)، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (١٠٣)، والدُّولابيُّ في «الكُنى والأسماءِ» (١٧٢٩)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الرِّضا عنِ الله بقضائِه» (٣٠)، و«الفرجِ بعدَ الشِّدَّةِ» (١٣)، وعنهُ التَّنوخيُّ في «الفرجِ بعدَ الشِّدَّةِ» (١٤٥).

[٦٤٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مِنْ مُرُوءَةِ الرَّجُلِ نَقَاءُ ثَوْبَيْهِ، وَالْمُرُوءَةُ الظَّاهِرَةُ فِي الثِّيَابِ الطَّاهِرَةِ. وَإِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي - أَوْ إِنِّي لَأُحِبُّ - أَنْ أَرَى الشَّابَّ النَّاسكَ النَّظِيفَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه المروءة الظاهرة، وكيفية معرفتها في المرء.

البيان والبلاغة: قوله: (**مِنْ مُرُوءَةِ الرَّجُلِ نَقَاءُ ثَوْبَيْهِ**): حرف الجر (**من**) يفيد التبعيض. وفي تقديم الخبر (**من مروءة الرجل**) على المبدأ (**نقاء ثوبيه**) لفتٌ لانتباه المخاطَب إلى هذا الخبر، وإشعار له بأهميته وتحفيز له على تحقيقه. وقوله: (**وَالْمُرُوءَةُ الظَّاهِرَةُ فِي الثِّيَابِ الطَّاهِرَةِ**): مفهوم هذه الجملة يؤكِّد الجملة السابقة؛ فهذه الجملة فيها إطناب، الغرض منه تقرير المعنى المراد في الجملة السابقة. وبين (**الظاهرة**) و(**الطاهرة**) جناس، ويسمى جناسًا مصحَّفًا؛ لتشابه اللفظين في الكتابة في اختلافهما في النقط. وقوله: (**وَإِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي - أَوْ إِنِّي لَأُحِبُّ - أَنْ أَرَى الشَّابَّ النَّاسِكَ النَّظِيفَ**): التردُّد في (**إنه ليعجبني أو إني لأحب**) من الراوي، وعلى كلا الروايتين الفعل (**يعجبني**) أو الفعل (**أحب**) جاء بصيغة المضارع لإفادة الاستمرار، أي أنه على إعجاب مستمر برؤية الشاب الناسك النظيف، أو على محبَّة مستمرَّة لرؤية الشاب الناسك النظيف. واستعمل المصدر المؤوَّل (**أن أرى**) وترك المصدر الصريح (**رؤية**) لتحقيق إسناد الفعل إلى نفسه، وهذا يدعو السامع لامتثال

١- رواهُ ابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (٢٩٦٣)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٧٢ واللَّفظُ لهُ.

الأمر الذي يُعجَب به عمرُ رضي الله عنه ويحبه. وقوله: (**الشاب الناسك النظيف**): عدَّد النعتين (**الناسك**) و(**النظيف**) من غير عطف بينهما؛ إشارة إلى إرادة اجتماعهما معًا في المنعوت في آن واحد.

[٦٤٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ أَكْمَلَ الرِّجَالِ رَأْيًا: مَنْ إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عَهْدٌ مِنْ صَاحِبِهِ عَمِلَ بِالْحَزْمِ - أَوْ قَالَ: بِهِ - وَلَمْ يَنْكُلْ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**ولم ينكُلْ**): قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «نَكَلَ عن الأمر يَنْكُلُ، ونَكِلَ يَنْكَلُ: إذا امْتَنَع».

مقتضى الحال: يصف أمير المؤمنين رضي الله عنه أكمل الرجال رأيا.

البيان والبلاغة: بدْء الكلام بأسلوب التفضيل فيه لفتٌ لانتباه السامع؛ إذ النفس تتطلَّع إلى معرفة الأفضل. وأضاف اسم التفضيل (**أكمل**) إلى جنس الرجال؛ لأنه قد استقرَّ في الأذهان أن الرجال أوفر عقلا من النساء. وتمييز اسم التفضيل بـ (**رأيًا**) فيه تقييد بعد إطلاق؛ إذ لو قال: (إنَّ أكمل الرجال من ...) لكان التفضيل في مطلق الكمال، ولكنه قيَّد هذا الكمال بالرأي. وجعل خبر (**إنَّ**) الاسم الموصول (**مَن**) ليتمكَّن من الإخبار عن اسم (**إنَّ**) بما تضمَّنته جملة صلة الموصول. وقوله: (**لم يكن عنده عهد**): تنكير (**عهد**) في سياق الشرط يفيد العموم، فيدخل فيه كل عهد. وجملة (**لم ينكل**): تذييل؛ فهي تؤكِّد مفهوم جملة (**عمل بالحزم**).

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٤٧.

[٦٤٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
فِي التَّقْوَى

«كَرَمُكُمْ تَقْوَاكُم»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يؤصِّل أمير المؤمنين رضي الله عنه معنى الكرم، ويصحح ما في الأذهان عنه، مبينا أنَّه راجع إلى التقوى.

البيان والبلاغة: هذه الجملة مقتبَسة من قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ فهي تذكير للمعنى الذي في الآية. وفي جعل **(تقواكم)** خبرًا لـ **(كرمكم)** تعظيم للتقوى، وتنبيه إلى أنَّها أهم ما يَكرُم به المخاطَب، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «**الحَجُّ عَرَفَة**»[٢]، أخبر عن الحجِّ بأنَّه عرفة؛ لكون الوقوف بعرفة أهم أركان الحج.

١- رواهُ المُعافَى بنُ عِمرانَ في «الزُّهدِ» (١٣٧).

٢- رواه النسائي والترمذي وابن ماجه.

[٦٥٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا شَيْءٌ أَقْعَدُ بِامْرِئٍ عَنْ مَكْرُمَةٍ مِنْ صِغَرِ هِمَّةٍ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه خطر علو الهمة، وسوء عاقبة صِغَرِها في نفس المرء.

لطائف لغوية: (ما) في هذه الجملة تعمل عمل (ليس) في لغة أهل الحجاز، فيكون اللفظ (**ما شيءٌ أقعدَ**) بنصب (**أقعد**)، وهي مهملة في لغة بني تميم، فيكون اللفظ: (**ما شيءٌ أقعدُ**) برفع (**أقعد**).

البيان والبلاغة: تنكير (**شيء**) في سياق النفي يفيد العموم، وهذا يدلُّ على أن التفضيل هنا تام. ولما كانت جملة التفضيل منفية صار المفضول (**صغر الهمَّة**) هو الفاضل، ومفهوم الجملة هو: صغر الهمَّة أقعد بامرئٍ عن مكرمة من كلِّ شيء. وتنكير (**امرئ**) يفيد العموم أيضًا، وفي ذلك إشارة إلى أن صغر الهمَّة تُقعد عن المكرمات كلَّ أحد من البشر. وطول الفصل بين اسم التفضيل (**أقعد**) وحرف الجر (**من**) الداخل على المفضول (**صغر الهمة**) يفيد التشويق.

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (١٩٦٤).

[٦٥١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِيَّاكُمْ وَرَضَاعَ السُّوءِ؛ فَإِنَّهُ لابد مِنْ أَنْ يَنْتَدِمَ[١] يَوْمًا»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**ينتدم**): يظهَر أثرُه، من النَّدَم أو النَّدَب، وهو: الأثر.

مقتضى الحال: يحذر أمير المؤمنين رضي الله عنه من رضاع السوء، معللا ذلك ببيان سوء عاقبته.

البيان والبلاغة: يحذِّر عمر رضي الله عنه من رضاع السوء، بأن يرضع الطفل من امرأة سيِّئة، فأضاف المصدر (**رضاع**) إلى المصدر (**السوء**)؛ ليكون التحذير من كل رضاع من امرأة فيها نوع من أنواع السوء، سواء قلَّ الرضاع أم كثُر، وسواء أكانت المرأة قليلة السوء أم كثيرته؛ لأن المصدر يشمل كل أنواع الحدث الدال عليه، فالمصدر (**رضاع**) يشمل قليل الرضاع وكثيره، والمصدر (**سوء**) يشمل قليل السوء وكثيره. و(**أل**) الداخلة عليه تفيد الاستغراق، فتشمل كل أنواع السوء. وفي إضافة (**رضاع**) إلى (**السوء**) إشارة أخرى، وهي أن الطفل إذا رضع من امرأة سيِّئة فإنه يرضع السوء منها كما يرضع اللبن، وقد أكَّد هذا المعنى بجملة التعليل: (**فإنه لا بدَّ**

١- أي: يَظهَر أَثرُه. والنَّدَمُ: الأَثَرُ، وهو مِثلُ النَّدَبِ. والباءُ والميمُ يتبادلانِ. وذكرهُ الزَّمخشريُّ بسكونِ الدَّالِ، مِنَ النَّدْمِ: وهو الغَمُّ اللَّازمُ؛ إذْ يَندَمُ صاحبُه، لِمَا يَعْثُرُ عليهِ مِن سُوءِ آثارِه. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (ندم).

٢- ذكرهُ الأزهريُّ في «تهذيبِ اللُّغةِ» ١٤/ ١٠١، والخطَّابيُّ في «غريبِ الحديثِ» ٢/ ١٢٠، والزَّمخشريُّ في «الفائقِ» ٣/ ٤١٨، وابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٥/ ٣٦، وابنُ منظورٍ في «لسانِ العربِ» ١/ ٧٥٣.

من أن ينتدم يومًا). وأضمر فاعل (**ينتدم**) لدلالة السياق عليه، وهذا الضمير راجع إلى المحذَّر منه، والتقدير: فإنه لا بدَّ أن ينتدم رضاعُ السوء يومًا، أي: لابدَّ أن يظهر أثر رضاع السوء في الطفل يومًا ما. وتنكير (**يومًا**) للإبهام والتخويف.

[٦٥٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا شَيْءَ أَنْفَعُ فِي دُنْيَا وَأَبْلَغُ فِي أَمْرِ دِينٍ، مِنْ كَلَامٍ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا القول.

البيان والبلاغة: وقوع (**شيء**) اسمًا لـ (**لا**) النافية للجنس يفيد التنصيص على العموم، وهذا يدلُّ على أن التفضيل في (**أنفع**) و(**أبلغ**) تفضيل حقيقي وليس ادِّعائيًّا. وتنكير (**دنيا**) و(**دين**) يفيد شمول جميع ما يتعلَّق بهما. وفي إضافة لفظ (**أمر**) إلى (**دين**) دون أن يضاف إلى (**دنيا**) تعظيم للدين. وتنكير (**كلام**) يفيد الإبهام، وهذا الإبهام يدفع السامع للبحث عن ما يرفع هذا الإبهام ليعرف حقيقته، وذلك أنه بعد ما سمع هذا الفضل والشرف لهذا الكلام فإن نفسه تتطلَّع إلى معرفته، فإذا عرفته بعد الجهد في طلبه استقرَّ فيها. ولعلَّ المقصود بالكلام - هنا - هو كلام الله - تعالى -؛ لأنه هو الكلام الذي ينفع العبد في دينه ودنيا، ولا شيء أنفع له منه، والله أعلم.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٦٣.

[٦٥٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَنِ اتَّقَى وُقِيَ، وَمَنْ وُقِيَ اسْتَحْيَا، وَمَنِ اسْتَحْيَا سَتَرَهُ اللهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا القول.

لطائف لغوية: قال صاحب لسان العرب: «قال أبو منصور: اتقى يتقي كان في الأصل اوتقى، على افتعل، فقلبت الواو ياء؛ لانكسار ما قبلها، وأبدلت منها التاء وأدغمت، فلما كثر استعماله على لفظ الافتعال توهموا أن التاء من نفس الحرف فجعلوه: اتقى يتقي، بفتح التاء فيهما مخففة، ثم لم يجدوا له مثالا في كلامهم يلحقونه به، فقالوا: تقى يتقي، مثل قضى يقضي. قال ابن بري: أدخل همزة الوصل على تقى، والتاء محركة؛ لأن أصلها السكون، والمشهور تقى يتقي من غير همز وصل لتحرك التاء».

البيان والبلاغة: قوله: (**مَنِ اتَّقَى وُقِيَ، وَمَنْ وُقِيَ اسْتَحْيَا**): سبق التعليق على مثل هذا النص في الأثر رقم ثلاثة وأربعين وستمئة. وقوله: (**وَمَنِ اسْتَحْيَا سَتَرَهُ اللهُ**): مجيء كلٍّ من فعل الشرط وجوابه فعلا ماضيًا يؤكِّد تحقُّق وقوع الجواب عند تحقُّق الشرط، أي: أن مَن تحقَّق استحياؤه تحقَّق ستر الله له، لا شكَّ في ذلك.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٢٦.

[٦٥٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«كَفَى بِكَ عَيْبًا أَنْ يَبْدُوَ لَكَ مِنْ أَخِيكِ مَا يَغْبَى[١] عَلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، وَأَنْ تُؤْذِيَ جَلِيسَكَ بِمَا تَأْتِي مِثْلَهُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (يَغْبَى عليك): قال صاحب لسان العرب:«غَبِي الشيءُ وغَبِي عنه غَبا وغباوة: لم يفطِن له ... وغَبِي الأمرُ عني: خفي فلم أعرفه». وفي الحديث: «**صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ؛ فَإِنْ غُبِّيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلاَثِينَ**».

مقتضى الحال: ليس في النص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا القول.

البيان والبلاغة: قوله: (**كَفَى بِكَ عَيْبًا أَنْ يَبْدُوَ لَكَ مِنْ أَخِيكَ مَا يَغْبَى عَلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**): أسند الكلام في هذا النص إلى ضمير المخاطب؛ لتكون النصيحة المضمَّنة فيه أبلغ تأثيرًا في نفس السامع، وقد تكرَّر استعمال ضمير المخاطب لتقرير ذلك. وقوله: (**كفى بك عيبًا**): فيه تهويل للمعنى؛ بادِّعاء أن هذا العيب كافٍ للإطاحة بصاحبه إن هو فعله. واستعمل أسلوب المقابلة بين (**يبدو لك من أخيك**) و(**يغبى عليك من نفسك**) لطلب استحضار المعنيَين في ذهن المخاطب؛ ليستشعر الظلم

١- غَبِيَ الشَّيءُ: لم يُفطَنْ لهُ «لسان العرب» ١٥/ ١١٤.

٢- ذكرهُ ابنُ دريدٍ في «أماليه» ص١٥٥، وأبو هلالٍ العسكريُّ في «جمهرةِ الأمثالِ» (١١٨٠).

في التفريق بين الأمرين. وقوله: (**وَأَنْ تُؤْذِيَ جَلِيسَكَ بِمَا تَأْتِي مِثْلَهُ**): استعمل هنا التلويح إشارة إلى ما يصدر من الرجل فيؤذي به جليسه، ولم يصرِّح بذكره تلطُّفا منه رضي الله عنه. واستعمل (**ما**) الموصولة التي تفيد العموم؛ ليشمل الكلام كلَّ ما قد يسبب الإيذاء، كالهيئة والرائحة والحركات ونحوها.

[٦٥٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا أَفَادَ امْرُؤٌ فَائِدَةً، بَعْدَ إِيمَانٍ بِاللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، خَيْرًا مِنِ امْرَأَةٍ حَسَنَةِ الْخُلُقِ، وَدُودٍ وَلُودٍ. ومَا أَفَادَ امْرُؤٌ فَائِدَةً، بَعْدَ كُفْرٍ بِاللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، شَرًّا مِنِ امْرَأَةٍ سَيِّئَةِ الْخُلُقِ، حَدِيدَةِ اللِّسَانِ، وَاللهِ إِنَّ مِنْهُنَّ لَغُلًّا مَا يُفْدَى مِنْهُ[١]، وَإِنَّ مِنْهُنَّ لَغُنْمًا[٢] مَا يُحْذَى مِنْهُ[٣]»[٤].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(لغلا)**: سبق بيان معنى الغُلِّ عند شرح النصِّ رقم تسعة وثمانين وخمسمئة. وقوله: **(ما يُحذى منه)**: أي ما يُعطى أو يُهدى منه؛ لعزَّته ونفاسته. ومنه قول النبي ﷺ: «**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ؛ فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً** ...».

١- لا يُفْدَى منهُ، أي: لا يُتخلَّصُ منهُ لِشدَّتِه. «التَّرغيب والتَّرهيب» لقوَّام السُّنَّةِ ٢/ ٢٥١.

٢- غُنْمُهُ: زِيادتُهُ ونَماؤُهُ وفاضِلُ قِيمَتِه. ومِنهُ الحديثُ: «الرَّهْنُ لِمَنْ رَهَنَهُ، لَهُ غُنْمُهُ، وَعَلَيْهِ غُرْمُهُ». «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (غنم).

٣- ما يُحْذَى منهُ؛ أي: ما يُعطَى منهُ لِعِزَّتِه. «التَّرغيب والتَّرهيب» لقوَّام السُّنَّةِ ٢/ ٢٥١.

٤- رواهُ ابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (١٠٧٧)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٧١٤٢)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (٢٦٨)، وأبو نعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ٧/ ٢٤٣، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٣٤٧٩) و(١٣٤٨٠)، و«شعبِ الإيمانِ» (٧٦٨٠) و(٨٣٥٠)، وابنُ عساكرَ في «مدحِ التَّواضعِ» (٢٠)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» (٥٩٨) بلفظِ: «مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ شَيْئًا، بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللهِ، أَفْضَلَ مِنِ امْرَأَةٍ وَلُودٍ وَدُودٍ، حَسَنَةِ الْخُلُقِ. وَلَا أَصَابَ عَبْدٌ شَيْئًا بَعْدَ الْكُفْرِ بِاللهِ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنِ امْرَأَةٍ سَلِقَةٍ، لَهَا لِسَانٌ حَدِيدٌ، سَيِّئَةِ الْخُلُقِ».

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه منزلة المرأة الصالحة والمرأة السوء وأثرهما في حياة الرجال، ضاربا لكلٍّ منهما مثلا يقرب المعنى الذي يريده.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا أَفَادَ امْرُؤٌ فَائِدَةً بَعْدَ إِيمَانٍ بِاللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - خَيْرًا مِنَ امْرَأَةٍ حَسَنَةِ الْخُلُقِ، وَدُودٍ وَلُودٍ، وَمَا أَفَادَ امْرُؤٌ فَائِدَةً بَعْدَ كُفْرٍ بِاللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - شَرًّا مِنَ امْرَأَةٍ سَيِّئَةِ الْخُلُقِ، حَدِيدَةِ اللِّسَانِ**): استعمل أسلوب المقابلة؛ ليبيِّن مدى الفرق بين من رُزق زوجة حسنة الخلق ومن رُزق زوجة سيِّئة الخلق. ومجيء (**امرؤ**) في سياق النفي في الموضعين يفيد العموم؛ فالكلام هنا عام، لا يختصُّ بفئة معيَّنة من الناس. وتنكير (**فائدة**) في الموضعين للتعظيم. والتعبير بالفائدة في الموضع الثاني من باب المشاكلة اللفظية وفيه نوع تهكُّم، وإلا فالحاصل هنا ضرر لا فائدة. وتنكير (**إيمان**) و(**كفر**) للتقليل، والمقصد أن الفائدة في الموضع الأول تأتي مرتبتها بعد أن يتحقَّق في العبد أقل الإيمان بالله، وفي الموضع الثاني تأتي بعد أقل الكفر بالله الحاصل من العبد. وفي قوله: (**ودود ولود**): استقصاء في ذكر الصفات الجامعة للمرأة المثالية، وبين اللفظين جناس ناقص. وفي قوله: (**حديدة اللسان**): اكتفى بذكر هذه الصفة من صفات المرأة السيِّئة إشارة إلى أن هذه الصفة هي الصفة الجامعة للشرِّ في المرأة. ووصف اللسان بالحدَّة إشارة إلى نفوذه، كما في قول الله - تعالى - واصفًا المنافقين: ﴿**فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ**﴾ [الأحزاب:١٩]. وقوله: (**وَاللهِ إِنَّ مِنْهُنَّ لَغُلًّا مَا يُفْدَى مِنْهُ، وَإِنَّ مِنْهُنَّ لَغُنْمًا مَا يُحْذَى مِنْهُ**): أعاد هنا استعمال أسلوب المقابلة؛ ليقرِّر الفرق بين الزوجة حسنة الخلق والزوجة السيِّئة الخلق، ولكنه عكس الترتيب هنا فقدَّم ذكر المرأة السيئة على ذكر المرأة الصالحة، وفي ذلك حسن ابتداء وحسن اختتام؛ فحسن الابتداء أنه بدأ كلامه بالحديث عن المرأة الصالحة تفاؤلًا

بها، وحسن الاختتام أن ختم كلامه بذكرها استئناسًا بالحديث عنها. وفي كلامه عن المرأة السيئة هنا بدأ بالقسم؛ إشارة إلى تحسُّره من واقع أليم مشاهَد، وشبَّه المرأة السيِّئة بالغُلِّ في عنق زوجها لا يستطيع أن يفدي نفسه منه. وبنى الفعل **(يفدى)** للمفعول؛ إشارة إلى أن الزوج لا يستطيع هو ولا غيره تحقيق هذا الفعل. وعند حديثه عن المرأة الصالحة شبَّهها بالغنيمة التي لا يفرِّط بها صاحبها. وبين **(الغُلا)** و**(الغُنما)** جناس ناقص، وكذا بين **(يُفدى)** و**(يُحذى)**.

الفهرست


تم بحمد الله